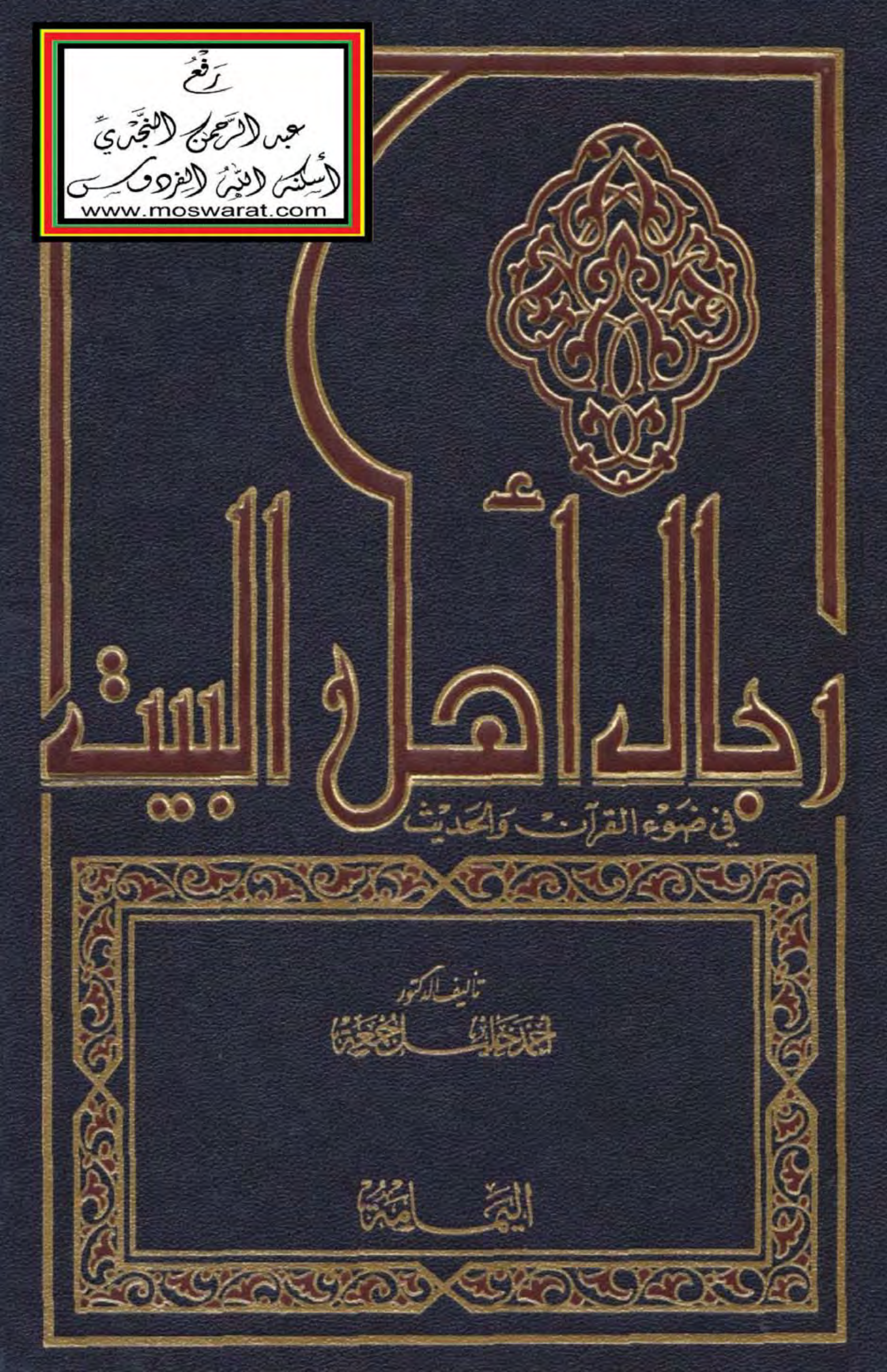

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
رجال أهل البيت
في ضوء القرآن والحديث
تأليف الدكتور
أحمد خليل جمعة
اليمامة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

* الحمدُ للهِ الذي فضَّلَ بالشَّرف أهلَ البيت النَّبويّ، وجَعَل الفلاحَ مُقترناً باقتفاءِ منهجهم السَّويّ، والارتواءَ الهني بورودِ منهلهم الرّويّ.

* أحمدُهُ سبحانه إذ جعلَ معاليهم زاهرةً زاهية، وأضواءَ فُهومهم ناميةً سامية، وأنواء علومهم هامعةً هامية.

* والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدنا محمَّد أفضل العالَمين على الإطلاق، الذي لا يُخْشَى مع محبَّته من الإملاق، ووسيلتنا الكبرى في يوم التَّلاق، عند المَلِك الخلَّاق، وعلى آله الموصوفين بمكارم الأخلاق.

* اللهمَّ صَلِّ على سيِّدنا محمَّد، وعلى آل سيّدنا محمَّد، صلاةً تُنْجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضي لنا بها جميعَ الحاجات، وتطهِّرُنا بها من جميع السَّيّئات، وترفعنا بها أعلى الدَّرجات، وتبلِّغُنا بها أقصى الغايات، من جميع الخيرات، في الحيَاة وبعد المَمات.

* اللهمَّ بابَكَ قَصَدْنَا، وقبولَكَ أرَدْنَا، وعلى فضْلك اعتمدنا، وإلى عزّتكَ استندنا، وفي رضاكَ اجتهدنا، وبهدايتكَ استرشدنا، فلا تَكِلْنا إلى أنفسِنا طرفةَ عين، وأصلحْ لنا شأننا كلَّه، فإنّا بكَ مستنصرون، وبعزّتك مستظهرون، ولغِناكَ مُفتقرون، ومن ذنوبنا مستغفرون، ولشامل عفوكَ منتظرون.

* وبعد: إنّ سيرةَ أهلِ البيتِ روضاتٌ تميسُ فيها الأزهارُ، وجنَّاتٌ تجري

من تحتها الأنْهارُ، تنسابُ في الأعماق عذبةً شجيةً، فتنعشُ القلوبَ وتمنحُها إيحاءاتٍ خفيّة؛ فَارْتَوِ من نهرِهم زلالا، واقطفْ من زهرِهم حَلالا، وَتِهْ في حُبِّهم دَلَالا، وأقبلْ على مودّتهم إقبالا، تَلْقَ فائدةً وكمالا.

* إنَّ أهمّيةَ هذا الموضوع تأتي من أهميّةِ مرحلتِهِ وزمنِهِ ودورِهِ في التَّاريخ الإسلاميّ إبَّان الدَّعوة النَّبويَّة، وبزوغ شمس الرِّسالةِ المحمَّديَّة على الدُّنيا بأسرها؛ ثمَّ امتداد ذلك إلى ما شاء الله تعالى.

* ونحنُ مفسِّرو ـ بإذن الله ـ أسبابَ كتابة هذا الموضوع، وأهميّتَه، ونقاطَ صياغته، والمنهجَ المتّبعَ في كتابته، وخطّته، ومصادِره، عسى أنْ ينتفعَ به النَّاسُ في كلِّ زمان ومكان.

أولاً: أسبابُ اختيار الموضوع:

* إنَّ كلَّ إنسانٍ محبٌّ للحبيبِ المصطفى ﷺ، ولأهلِ بيتِهِ الكرام الشُّرفا، تتطلَّعُ جوارحه لمعرفةِ سيرتهم التي تنسابُ مشرقةً تتهادى بريّاها، وتخطرُ كالنَّسمةِ ناعمةً فتوقظُ النُّفوسَ بِطيْبِ شَذَاها، وتعمرُ القلوبَ بحبِّ مولاها.

* ومن الطَّبيعي أنْ يكونَ هذا الموضوع الشَّائقُ الجميلُ، ذا مكانةٍ كبرى بين الموضوعاتِ الأخرى، ولا سيّما في عَصْرٍ وَثَبَتْ فيه الحضارةُ المزعومةُ وثبةَ حقدٍ وغدرٍ؛ فانتشلَتِ البركةَ من وقتنا، والسَّعادةَ من حياتنا، واستلَّتْ شَطْرَ علومنا، واستولَتْ على مواردنا، وسَحَرتْ كثيرين منّا، فطاشَتْ العقول والأحلام، وأضاعت الزَّمن والأيّام، وتبع بعضُ النَّاس الأشياء الباهتة، والصَّرعات التَّافهة، والمجلوبات التّائهة، فرضعوا الوهْمَ، وهم يظنّون أنَّهم يرتشفون الأطياب، فأصبحتْ حياتُهم تلهو بهم، والليالي تسْخَرُ منهم، وغدت قيمتُهم لا تساوي حبَّة خَردَل، إذ يعيشون في دوّامةٍ خبيثة لعوب، تتعِبُ الأرواحَ وتُميتُ القلوب.

* لذلك كان لزاماً علينا أنْ نشدوَ بسيرِ هؤلاء الأعلام، وأنْ نتمثَّل حياتَهم قولًا وفعلاً، ونتشبّه بهم لنحظى بالفَلاح؛ لأنَّهم منْ أهلِ الصَّلاح.

* وكنتُ منذ زمنٍ قد أصدرتُ كتاباً عن «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» فأحببتُ ألاَّ أتركه يغرِّدُ وحده؛ فتلوتُه بهذا الكتاب لتكتملَ هذه الرّوضةُ الغنَّاء؛ التي تهفو إلى أزاهرها قلوبُ الأولياء، وتشربُ من زلالها نفوسُ الأصفياء.

ثانياً: أهميّةُ الموضوع:

* لعلَّ من أبرزِ الأمورِ التي تجعلُ لهذا الموضوع أهميةً كبيرةً، ما نرىٰ ونسمعُ ونقرأُ بعضَ المعلوماتِ التي تخالفُ الحقائقَ التَّاريخيةَ، ولاسيّما فيما يتعلَّقُ بالصَّحابة الكرام، وأهلِ البيت الأعلام رضي الله عنهم، إذ إنَّنا نجدُ بعضَ مَنْ حفظ حرفَيْن، أو سمعَ محاضرتَيْن، أو جلس في درسَيْن، أو تابعَ مسلسلَيْن، يريدُ أنْ يتحفَ الأنام، بما حبَاه الخالقُ من العلْم والأفهام، ويحسبُ أنَّه مُفتي الدّيار، وجاحظ الأَقْطار، وعَلَمٌ في رأسِهِ نار، وأنَّه تخرَّجَ في مدارس الأوائل، وأنَّه أفصحُ من سَحْبَان وائل، وإنْ كان الأخير زمانه؛ فاللهُ المُستعان.

* كما نجدُ بعضَ الذين يتصدَّرون في النَّدواتِ والمحاضرات؛ أو يكتبون بعض الكتاباتِ يلْحَنون في كُلّ شيءٍ: في نُطقِ الأسماء، وفي لفْظِ الأزمنةِ والأمكنةِ، والمعاركِ، وأسماءِ الكتب، كما يلحنون أحياناً في عناوين محاضراتهم أو كتُبِهم، ويخطئون في لفْظ بعضِ أسماء الصَّحابة، ويتخبَّطُون في ترجمةِ حياتهم، ويخلطُون زيداً بعمروٍ، والحابلَ بالنَّابل؛ وهذه البليّات يجبُ عليكَ أنْ تسمعَها شئْتَ أمْ أبيتَ، ثمّ إنّهم يتكلّمون في عاميةٍ مَمْجوجةٍ، ولغةٍ عوراء عرجاء، ما أنزلَ الله بها من سلطان، لا تؤدّي الغرض المطلوب، وتُؤذي بسماجتها القلوب، وقد يفهمُها بعضُ النَّاس على غيرِ وجهتها ومقصدها، حيث إنَّ مدلولَ كلمة عاميَّة في بلَدٍ ما يختلفُ عن بلدٍ آخر، وربما يكون معنى كلمة ما حَسَناً في بلدٍ، ويكونُ سيئاً أشدَّ السُّوء في بلدٍ آخر.

* رفقاً بلغةِ العرب الرَّقيقة؛ يا من تتحدَّثون بالعامية الرَّكيكة اللقيطة. . . والفاسدة المفسدة، والمحرّضة القاتلة. . .

* رفقاً بلغةِ العبادةِ والمُناجاة، لغة الذّكر والنَّجاة.

* رفقاً بلغةِ القرآنِ، ولغة المؤمنين في الجِنَان.

* نحن نعلمُ واللهِ أنَّ هدفكم طيّبٌ معلوم، ولكنْ طيِّبوهُ بالكلام الفصيح البَسيط المفهوم؛ طيّبوه بهذهِ اللغةِ المباركة الرَّؤوم... وأنتم تعلمون كم أثَّرتْ وعملَتْ هذه اللغةُ المباركة في نفوسِ مَنْ غدوا سادةَ الدُّنيا ومشاهير العَالَم!.

* إنَّ اللغةَ العاميةَ المحليّةَ لغةٌ لقيطةٌ عجفاء عرجاء لا تؤثّر في النُّفوس، ولا تُوصلُ إلى الهدف المنشود مهما كان التّبرير...

* وممَّا يزيدُ في البليّات أيضاً، ما نراهُ من إشاعة قصص وروايات لا أصْل لها، تشيعُ الاضطرابَ في النُّفوس، وتحبطُ العَقْل والنَّقْل، لأنَّ هذه الرّواياتِ تتمسَّكُ بخيوطِ الأباطيلِ والشُّبهات، وتجرُّرُ أذيالَ البغضاء والمشَاحنات، وتثيرُ في النُّفوس الأحقادَ والعَدَاوات، وتجعلُ الإنسان يضيعُ في غياهب المتَاهات.

* وتتجلَّى أهميةُ هذا الموضوع أيضاً، بأنَّ الباحثَ المحبَّ المنصفَ يتلوّعُ ويتجرّعُ غصصاً كثيرةً، عندما يجدُ الافتراءَ والبهتان على خير أمّةٍ أُخرجَتْ للنَّاس، وقد تصدَّر هذا الافتراءُ بعضَ المصادرِ، وتجذَّر في كثيرٍ من المراجعِ والمحاضرات، ولا يوجدُ هدفٌ من وراء ذلك الأمر إلَّا التَّشويش، وإلَّا الأهواء والإيهام بشتّى الأوهام؛ وهل تنبتُ هذه الأشياء الحقائق؟! وتهدي إلى سواء السَّبيل؟!

* لقد واجهتنا كثيرٌ من الصُّعوباتِ في تصحيحِ بعض المفاهيم، وبيانِ حقيقة بعضِ الأباطيل، ومنها:

أ ـ ضخامةُ الحكاياتِ الموضوعةِ، والرّواياتِ المصنوعةِ، والقصص المدسوسة، والزّهديّات غير المنطقيَّة التي وُضعَتْ على أهلِ البيت رضي الله عنهم، والتي لا يكادُ يَسْلَم منها كتابٌ من كتب التَّواريخ المشهورة، وفي مقدمتها: تاريخ الطَّبريّ؛ الذي عُرِفَ كاتبهُ بالثّقة والعدالة، ولكنّه ساقَ في كتابِهِ ما جمعَه وسمعَه دون تحقيق أو تدقيق أو تنبيه أو إشارة إلى حالةِ الرَّاوي الذي يأخذُ عنه.

ب ـ تداخلُ الحقيقةِ بالخيال، واختلاطُ الحقِّ بالباطل في كثير من الرِّوايات التي تحدّثَتْ عن تاريخ رجالِ أهلِ البيت، وخاصّة ما جاء عن سيّدنا عليّ والحسَن والحُسين رضي الله عنهم. فعلينا أنْ ندقِّقَ النَّظر، ونمعنَ الفكر فيما لا يتوافقُ مع نهجهم ومنهاجهم الذي اقتبسوهُ من المنهج الربّاني ومن التَّربيةِ النَّبويّةِ المباركة الصَّحيحة.

ثالثاً: نقاطٌ مهمّةٌ في صياغةِ الكتاب:

* صغتُ هذا الموضوعَ بطريقةٍ سهلةٍ ممتعةٍ مفيدةٍ، يمكن إيجازها في نقاط منها:

أ ـ عرَّفْتُ بعضَ الشَّخصيّات الجانبيّةِ بالهامش، وصغتُها صياغةً متميزةً بأسلوبٍ بسيط بغية الفَهْم والاستيعاب.

ب ـ ضبطتُ الكتابَ معظمَه، وشرحتُ الكلماتِ غريبَها؛ ووثَّقتُها بدليلٍ من القرآن الكريم، أو الحديث الشَّريف، أو الشّعر الفصيح الموزون.

ج ـ اخترتُ في ترجمةِ ساداتنا رجالِ أهلِ البيت، ما تواتر عنهم في كتبِ الحديث، ومصنّفات علم الرّجال، فالطَّبقات، فالسّيرة، فالتَّاريخ، فالمعاجمُ؛ وأحياناً أفيءُ إلى كتب الأدبِ لتوضيح بعض ما فاتني، أو توارى عنّي في المصادر المذكورة.

د ـ اعتمدتُ على الاستقراء والتّحليل وفْقَ المنهج التّاريخي والاجتماعي، وهذا الأمرُ لا يغيبُ عن ذهنِ القارىء الكريم.

هـ ـ وضعتُ التَّراجم ورتبتُها وفق الوفيَات؛ وعلى طريقةِ المصنَّفات القديمة، صنعتُ ذلك في كلّ باب على حدة، فقد وضعت مثلاً: «جعفر، عليّ، عقيل» حسَب تاريخ وفياتهم؛ لا مكانتهم، وذلك تسهيلاً على القارىء؛ ودفعاً للأوهام، وبُعْداً عن الخلاف.

و ـ زيّنْتُ الكتابَ بِطَاقاتٍ لطيفةٍ من أدبيّاتِ مشاهير الشّعراء، والبُلغَاء،

والنُّبهاء، والألبّاء، لأنَّ الأدبَ الرَّاقي يزينُ الكتبَ ويزيدُهَا حُسْناً، ويضفي جواً منعشاً على القارىء والسَّامع.

ز ـ زودتُ الكتابَ بهوامشَ مفيدةٍ ممتعةٍ، تزيدُ العملَ توضيحاً وتوثيقاً، وتشيرُ إلى أشياء مهمّةٍ تجعلُ القارىءَ أكثرَ اطمئناناً لِما يقرأ.

ح ـ صُنْتُ الكتاب عن ذكْرِ المثالب، وعمّا لا يليقُ بالصَّحابةِ الكرام ممَّا جاء مدسوساً عليهم في بعضِ مصادرِ الأدب والتَّاريخ وغيرهما؛ وخاصّة في موضوع ما شجَرَ بينهم رضي الله عنهم، إلا أنّني كنتُ أشيرُ بوضوح إلى الصَّواب؛ مستنداً إلى ما جاء بذلك متواتراً، وبيَّنْتُ أنَّ المذهبَ الحقَّ الذي عليه الجمهورُ هو الإمساكُ عمَّا شجرَ بين الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم.

ط ـ أجبْتُ عن كثيرٍ من الأسئلة التي تهمُّ معظم النَّاس بإجابات تنسجمُ مع ما جاء في الكتابِ العزيزِ؛ والسُّنَّةِ المطهَّرة، وبما أجمع عليه علماءُ المسلمين وفقهاؤهم عبر العصور؛ وبما يتوافقُ أيضاً مع حياةِ أهلِ البيت، وحياة الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

ي ـ نبَّهتُ إلى الأغاليطِ والمُواربات التي عمدَ أصحابُها إلى تشويهِ بعض شخصيّات الصَّحابة، وعملُوا على إفساد صورتها بذهنِ القارىء، كما أشرتُ إلى المُغَالطات التَّاريخيّة التي استقرَّتْ في بطونِ بعض المصادر، ثمَّ تلقَّفَها المغرضون، ليذرّوا الرَّماد في العُيون، ويعكِّروا ينابيعَ الحقّ بما ينفثونه من كلامٍ ساحر، وأسلوبٍ منمَّق آسر، يعتمدُ على الصَّنعة والرّواء الأدبيّ، ثمَّ يعمدون من خلاله إلى الهمزِ والغمزِ واللمزِ، وهم يظنّون أنَّهم ينتصرون لفُلان، ويرفعون من قَدْره، ويضعون ويغضون من شأن فلان، ولله درُّ «حافظ إبراهيم» إذ يرسمُ في قافيّته الماتعةِ التي يصوِّرُ من خلالها هؤلاء الذين اتّخذوا العلم غرضاً لحبائلهم فيقول:

والعلْـمُ إنْ لـم تكتنفْـه شمـائـلٌ ... تُعْليـهِ كـانَ مطيّـةَ الإخفـاقِ
كـمْ عـالِـمٍ مـدَّ العُلـومَ حبائـلاً ... لِـوقيعـةٍ وقَطيعـةٍ وفـراقِ

وَفَقيهُ قومٍ ظلّ يرصدُ فقهَهُ ... لِمكيدةٍ أو مُستحلِّ طَلاقِ
يمشي وقد نُصِبَتْ عليه عمامةٌ ... كالبُرج لكنْ فوقَ تلٍّ نفاقِ
وأديبُ قومٍ تستحقُّ يمينهُ ... قَطْعَ الأنامِلِ أو لظى الإحراقِ
يلهو ويلعبُ بالعُقول بيانهُ ... فكأنَّه في السِّحر رقيةُ راقِ
في كفِّه قلمٌ يمجُّ لعابهُ ... سُمّاً وينفثُه على الأوراقِ
يَرِدُ الحقائقَ وهي بِيضٌ نُصَّعٌ ... قدسيَّةٌ عُلويَّةُ الإشراقِ
فيردّها سُوداً على جنباتها ... من ظلمةِ التّمويهِ ألف نطاقِ
لو كان ذا خُلُق لأسعدَ قومه ... ببيانهِ ويراعهِ السَّبَّاق(١)

رابعاً: المنهجُ المتّبعُ في الكتاب:

* اتَّبعتُ في كتابةِ هذا الموضوع وصياغتِهِ منهجاً واضحاً سهلاً، ليكون عملي منسّقاً صحيحاً ـ بإذن الله ـ بعيداً عن الأخطاءِ والأهواء، لأنَّ أهلَ البيت ليسوا مُلْكَنا، وهم خيارُ معادن النَّاس، وينبغي علينا أنْ نصوغَ سيرتهم أجملَ صياغةٍ وأبهاها وأحلاها، ونصونَها من الشَّوائب التي تفسدُ صافي معدنهم، وتعكِّرُ عذب زلالهم.

* فمن الأمور البارزةِ، والنّقاط الواضحةِ التي سلكتُها في هذا العَمَل:

١ ـ الاهتداءُ بكتابِ الله عزَّ وجلَّ الذي لا يأْتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِهِ، والذي نوَّه بفضلِ أهل البيت، وتحدَّث في كثير من آياتِهِ عن مناقبِهم، ومكانتِهم، وشمائلهم، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النِّساء: ٨٧]؟!.

٢ ـ الاقتداءُ بحديث النَّبيِّ ﷺ الذي ما ينطقُ عن الهوى، والذي خصَّ أهلَ البيت بالفَضْل، وحَضَّ على اتِّباع نهجهم ومحبّتهم.

٣ ـ الاستنارةُ بأقوال علماء الصَّحابة وفقهائهم في مناقبِ رجالِ أهلِ البيت، ونقلهم إلى الأمَّة ما رأوه وسمعوه من النَّبيِّ ﷺ في توقيرهم وسيادتهم وتبجيلهم.

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢) بانتقاء ـ دار الكتب المصريّة ـ ١٩٣٧ م.

٤ ـ الاستفادةُ من أحكامِ علماء التّابعين وأقوالهم وشهاداتهم الصّادقة في رجال أهل البيت الذين علّموهم وأفادوهم، وما قدّموه للأمّة كلّها من جلائل الأعمال، وكريم الخصال.

٥ ـ الاستعانةُ بآراء عُلماء المؤرّخين، وفقهاء الأمّة ومحدّثيها في مختلفِ الأزمان والأعصار، وما ذكروهُ في أهلِ البيتِ الأخيار، والإشارةُ إلى الأكاذيب والمفتريات التي أُلصقَتْ بهم، فجعلَتْ صورتهم مضطربةً لا تحكي حقيقةَ تاريخهم وجوهرهم.

٧ ـ التّأكيدُ على الأحاديثِ التي جاءت في الصَّحيحَيْن، وفي السُّنن، والمسَانيد، والمصنَّفات الحديثيّة التي تجلو الصُّورة الصّادقة لأهلِ البيتِ، وتنطقُ عن عطائِهم في جميع المجالات، ممّا جعلهم قدوةً للنّاس، وقادةً للأمم.

٨ ـ التّذكيرُ بأنَّ رجالَ أهل البيت قد اقتبسوا من رسولِ الله ﷺ كريمَ أخلاقه، وساروا على منهاجِه، وارتووا من معينِه، وخاصة سيّدنا عليّ رضي الله عنه.

٩ ـ التّركيزُ على أنَّ الذُّريّةَ النّبويّةَ قد ربّاها النّبيُّ ﷺ أعظمَ تربيةٍ في بيته، وأحاطَها بوحي ربِّه حتّى تفجّر العلْمُ من جوانبها تفجيراً، واستحقَّتْ ثناء الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣] فأكرمْ بهذه الذّريّة! وأكرمْ بأهلِ البيت!

خامساً: خطّةُ الكتاب:

* جاء الكتابُ مشتملاً على مقدمةٍ؛ وثلاثة أبواب، وخاتمة، وفهارس.

المقدّمةُ: كانت شافيةً وافيةً مفصّلةً، فيها روحُ الكتاب، وينابيعهُ، والمنهجُ الذي سرْتُ عليه في تنسيقه، بالإضافة إلى فقراتٍ ضافية عن فضائلِ الصَّحابة، وتحديد أهل البيت بعامّة، وبيان صفاتهم وصَداهم في القُرآن الكريم، والحديث الشّريف.

البابُ الأوَّلُ: عنوانُه: «من أعمام النَّبيِّ ﷺ»:

* تمَّ الحديثُ في هذا البابِ المُونق عن الحمزةِ والعبَّاسِ رضي الله عنهما، وعن مكانتهما المُؤْنسةِ في القلوب، المؤانسةِ للأذهانِ والأرواح.

* استلهمنا من سيرةِ أسدِ الله حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه قبساتِ من الإشراقاتِ السَّنيّةِ، وأوضحنا بعضَ السِّماتِ الباهرة التي لم نسبقْ إليها فيما قرأناه من تراجم، وكانت سيرتُه جامعةً ساطعةً، ظهرَ من خلالها أنَّ حمزةَ سيفٌ من سيوفِ الله عزَّ وجلَّ؛ سلَّه على المجرمين، ومنعَ به رسولَه الكريم ﷺ، ثمَّ توقّفنا طويلاً عند قصَّة استشهاده، وعن رحمةِ اللهِ التي وسعَتْ كلّ شيء، وأنَّ اللهَ يفعلُ ما يريد، ويخلقُ ما يشاءُ ويختارُ.

* وكان الحديثُ عن سيّدنا العبَّاس رضي الله عنه يفترُّ عن جمالِ سيرته، فقد تكلَّمْنا عن محبَّتِهِ الصَّادقةِ للصَّادقِ المصدوق ﷺ، ونُصْحه له في بيعةِ العقبة، وفي غيرها من المواقفِ المهمَّة. وعرضنا دوره المتألّق في عَهْد الخُلفاء الرَّاشدين، وتحدَّثنا عن روايته للحديث الشَّريف وعن علمه، وعن أشياءَ مشرقةٍ إشراقةَ صباحٍ لطيف، على وَرْد مندّى في يومٍ ربيعيّ جميلٍ حَالمٍ ساحرٍ آسرٍ منعش.

البابُ الثَّاني: تحت عنوان: «من أبناء عمّ النّبيّ ﷺ»:

* تضمَّنَ هذا الباب ثلاثة أعلام هاشميين هم: جعفرُ، وعليٌّ، وعقيلٌ أبناء أبي طالب رضي الله عنهم.

* بدأنا الحديث عن سيّدنا جعفر، وإسلامه المبكّر، وشبهه بالنَّبيّ ﷺ خُلُقاً وخَلْقاً، وكيف ادَّخَره ﷺ لنشْر الدّعوة في الحبشة، إذ كان جعفرُ رجلَ المواقفِ، فكان خطيباً لبيباً مفوّهاً، ولبِقاً حصيفاً عاقلاً، ومُصَلّياً عابداً عالماً، يعرفُ كثيراً من الأحكام الشَّرعيَّة، ثمَّ واصلتُ الحديثَ عن عودتِهِ من هجرتِهِ الموفَّقةِ المثمرة، وعن نَيْلهِ الشَّهادةَ في سبيل الله في سَريّةِ مؤتةَ عام (٨ هـ).

* وكان الحديثُ متألّقاً أَلَقَ البَدْرِ بين نجوم السَّماء عن عالمِ أهلِ البيت

وفقيههم ومُفتيهم وبطَلهم سيّدنا عليّ الذي طبّقَتْ شهرتُه الدّنيا، فكان بحقٍّ من مشاهيرها وأفذاذِها وعظمائِها وأوائِلها رضي الله عنه، ولا ريب في أنَّ الكلامَ عنه مورقٌ فينان، مرتبطٌ بالنّبيّ ﷺ منذ بداية الإسلام إلى أن لحقَ ﷺ بربّه راضياً عن المُرتضى، مبشّراً إياه بالجنَّة، مُعلّماً إيَّاه الأدبَ والحكمةَ، مدّخراً إيّاه لصدِّ المجرمين، وكبح جماح المُفترين. وتعتبرُ المادةُ العلميةُ عن سيّدنا عليّ غزيرة النّفع، ثرّة العطَاء، فكلُّ صحيفةٍ من صحائفِ حياته تعلّمنا جديداً، وتهدينا فائدةً، ولا عجبَ في هذا فهو أحدُ أوعيةِ العِلْم رضي الله عنه.

* ثمّ دلفنا إلى سيرة سيّدنا عقيل رضي الله عنه، وتكلّمنا عن آثارِه الحِسَان في ثنايا السّيرة النّبويّة، ثمّ تحدَّثنا عن إسلامِهِ، وعلمِهِ، ومحاوراته المُمتعة، وحصافته وحضور بديهته مع أخيه عليٍّ ومعاويةَ رضي الله عنهم أجمعين، وتوَّجْنا ذلك بروايته للحديث النَّبويّ، ومكانته في هذا العِقْد الميمون.

الباب الثَّالث: يحمل عنوان: «من أحفاد النَّبيِّ ﷺ»:

* يميسُ هذا الباب دلالًا بسيرةِ رجلَيْن لهما شأنٌ عظيم في النُّفوس، فقد امتدّتْ منهما الذُّريَّةُ الطَّاهرةُ، إنَّهما الحسنُ والحُسينُ رضي الله عنهما.

* كان الكلامُ جميلاً كخمائل الدَّوح عن سيّدنا الحسنِ رضي الله عنه، فقد تفتَّحتْ براعمُ الحديث عن مكانتِهِ عند النَّبيّ ﷺ وشبهه به، وأنَّه ريحانتهُ، وأنَّه سيّدٌ في الدُّنيا والآخرة، وهفهفَتِ النُّسيماتُ الحَسنيَّةُ اللطيفة علينا وهي تنسابُ متحدّثةً عن حياتِهِ في المحضن النَّبويّ، وعن علْمِهِ وفقهه وأدبه، وانعقادِ صُلْح الأمة وجمعِ شملها على يديه، تحقيقاً لدلائل النُّبوَّة المحمَّديَّةِ.

* أمّا سيّدنا الحُسين فكان شطر الحديثِ عنه مشتقاً من السِّيرة الحسنيَّة، لاشتراك بعض الأخبار بينهما؛ ثمّ تحدثتُ عمَّا يتّصل بالسِّيرة الحسينيَّة الزّاخرة بالأحداث، وعن مكانته بين الصَّحابة، وأنَّه وأخاه من علماء الصَّحابة وفقهائهم ومُفتيهم، ووصلتُ الحديثَ عن الأدبيّات الحُسينيّةِ الأنيقةِ، التي توحي لأغصانِ الرّياضِ كيف تميسُ وتنسابُ وتتمايلُ، وذلك من خلال رقائِقِهِ

وأشعاره، وخُطبِه، ثمّ ختمتُ الحديثَ عن قصَّة خروجِه من الدِّيار المُقدَّسةِ إلى العراقِ، واستشهادهِ رضي الله عنه، وأغفلتُ بعضَ الأحداث التي لا تتعلَّقُ بموضوع فكْرةِ الكتاب، ولكنَّها لا تُخِلُّ فيه.

الخاتمةُ وخلاصةُ الكتاب:

* اشتملت خاتمةُ الكتاب وخلاصته على نقاطٍ بارزة ومفيدة تَمَّ التَّوصُّلُ إليها، ومعرفة حقائقها، وتوضيح ما جاء من أمور مهمّة في المقدّمة والأبواب.

سادساً: مصادرُ الكتاب ومواردُه:

* تكوَّنَ الكتابُ على هذه الصُّورة بَعْد جهدٍ جهيدٍ لا يعلمهُ إلا العليمُ الخبير، وكانت مصادرهُ كثيرةً جدّاً؛ متنوِّعةَ المشارب والينابيع، وقد تجاوزتِ المئات، بل إنَّ شخصيّةَ سيِّدنا عليٍّ وحدَها؛ رجعتُ في صياغتها إلى أكثر من خمس مئةِ مصدر وكتاب ومؤلّف؛ حتّى أصبحت على الشَّكل الذي عليه الآن، وكلُّ مَنْ له أي اطّلاع يدرك مصْداق ما أقولُ ويعرفُ صحّته.

* والآن يمكنني أَنْ أشيرَ بإيجازٍ واقتضابٍ إلى أهم المصادر، وأكثرها مادّة في هذا، حسب الاستفادةِ منها:

١ ـ **القرآنُ الكريمُ وعلومُه**: وردتْ في كتاب الله ِعزَّ وجلَّ آياتٌ كثيرةٌ تثني على أهل البيت، وتنوّه بمكانتِهم وجوهرهم وكريم خصالهم؛ وقدَّمتْ كتبُ التَّفسير ـ قديمها وحديثها ـ معلوماتٍ قيمةً عنهم من مثل: تفسير الطَّبريّ، والقُرطبيّ، والرّازي، وابن عطيّة، والمُنير، والمنار؛ وغيرها. وكذلك بعض كتب الأحكام والفقْه وعلوم القرآن التي يجدها القارىءُ منثورةً في هوامش الكتاب ومتْنِه.

٢ ـ **الحديثُ النَّبويُّ وعلومُه**: زخرت كتبُ الحديث بذكْر مناقبِ أهل البيت ومرويّاتهم وفضائلهم، وقدَّمَتْ تفصيلاتٍ مفيدةً عن حياتهم، ثم جاءت شروحُ هذه الكتب السِّتَّة، لتعزِّزَ سيرة حياتهم، وتزيدها ألَقاً على ألَقٍ، إذ نجدُ أحياناً بعض التّعليقات المهمّة التي توضح أشياءَ مبهمة، وتنبّه على أمورٍ بغاية

الأهميّة في العقيدة والسُّلوك، وكان فتحُ الباري، وشرحُ مسلم على النَّووي هما محورُ المعلومات النَّافعة ورأسُها، ثمّ عززتها بكتُب السُّنن الأربعة الأخرى وشروحها، والمسانيد، والمستدرك، وصحيح ابن حبّان، وغيرها من الكتب والمصنّفات التي تعنى بهذا الشَّأن النَّفيس.

٣ ـ **علْمُ الرجال**: هذه الكتبُ مهمةٌ جدّاً، تمدُّ الباحثَ بمعلوماتٍ دقيقةٍ عمَّن يترجمُ لهم، وترفدُهُ بأسمائهم مضبوطةً، وأنسابهم ومكانهم في العلْم، ثم نجدُ كتب الجرح والتَّعديل تعطي الباحثين تقريراً مفصّلاً واضحاً صحيحاً عن أحوال الرُّواة، وأهلِ الأخبار، وتذكرُ اتّجاهاتهم وميولهم، ثم تنقدُ هذه الكتب المادَّةَ التَّاريخية نَقْداً علمياً منطقياً منهجياً، ومن هذه الكتب: تهذيب التَّهذيب لابن حجر، وقبله تهذيب الكمال للمِزّيّ، وقبلهما التَّاريخُ الكبيرُ والتَّاريخ الصَّغير للبخاري، وتأتي كتب الذَّهبيِّ لتزيدَ المعلومات دقَّة ومنها: ميزان الاعتدال، وغير ذلك من المصادر التي تعنى بهذا العِلْم المفيد الدَّقيق.

* ومنَ الخيرِ أنْ نسوقَ هذه الأبيات التي تفصحُ عن جهود أئمةِ هذا الشَّأن لتترسَّخَ الصّورة أكثر في النّفوس، وتقتربَ من الأذهان:

ولولا رواةُ الدّين ضاعتْ وأصبحتْ ... معَالمُهُ في الآخرين تبيدُ
همُ حفظُوا الآثارَ منْ كلِّ شبهةٍ ... وغيرهمُ عمَّا اقتنوهُ رقُودُ
وهم هاجروا في جَمْعِها وتبادروا ... إلى كلِّ أفقٍ والمرامُ كؤودُ
وقاموا بتعديلِ الرُّواة وجَرحِهم ... قيامَ صحيحِ النَّقلِ وهو حَديدُ
وصحَّ لأهْلِ النَّقل منها احتجاجهم ... فلمْ يبقَ إلا عاندٌ وحقودُ
وحسْبُهم أنَّ الصَّحابة بلَّغوا ... وعنهم رووا لا يُستطاع جحودُ
فإنْ رامَ أعداءُ الدّيانةِ كيدها ... فكيدهمُ بالمخزياتِ مكيدُ

٤ ـ **كتبُ الطَّبقات وتراجم الصَّحابة**: تقدّمُ هذه المصادر معلوماتٍ متنوِّعةً في غايةِ الأهميّة، فهي تذكرُ الشَّخصيّات وصفاتها الخُلُقيّة والخَلْقيَّة، وتتحدّثُ عن عادات الرّجال وحياتهم ودورهم وأعمالهم، وتشيرُ إلى رجال أهل البيت وأحوالهم كاملة. كما تمدّنا هذه المصادر في معرفة تواريخ الصَّحابة

ومواليدهم، ووفياتهم، وتذكرُ علاقات رجال أهل البيت مع غيرهم من الصَّحابة والتَّابعين. ومن هذه المصادر: الطَّبقاتُ الكبرى لابن سعد، وطبقاتُ خليفة، والاستيعابُ لابن عبد البرِّ، وأسدُ الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر، ومعرفة القُرّاء الكبار للذَّهبيّ، وحليةُ الأولياء للأصبهانيّ، وصفة الصَّفوة لابن الجوزيّ، ووفياتُ الأعيان لابن خَلّكان، والوافي بالوفَيات للصَّفديّ وغيرها كثير جدّاً جدّاً.

٥ ـ **كتبُ السِّيرة النَّبويّة والمغازي**: شكَّلت هذه المصادرُ شطراً مهمّاً من هذا الكتاب، لأنَّها تحتوي معلومات متنوّعةً شاملةً من مثل: علوم القرآن وأسباب النُّزول، والحديث الشَّريف، والتَّواريخ، والغزوات، والأماكن، والتَّراجم، واللغة، والشِّعر، وبعض الأحداث، ثمَّ بعض الأحكام والفرائض وكثير من أمور الدّين. ومن الكتب المشهورة: السّيرة الهشاميَّة، فالحلبيَّة، فالشَّاميَّة، والمواهب اللدنيَّة، وزاد المعاد، والمغازي للواقديّ، والزّهريّ، وابن عقبة، وغيرهم، بالإضافة لكتب السّيرة المعاصرة التي لا تُحصى ولا تُستقصى.

٦ ـ **كتبُ التَّاريخ والأنساب**: أسهمت هذه المصادرُ في تقويم الأزمانِ والشَّخصيَّات، وتقديم الحوادث المتنوعة ومنها: الحوادثُ السِّياسيّة، والفكريّةُ، والحضاريّةُ، وكذلك قدَّمت طاقاتٍ غنيةً من الأدبيّات التي تشرحُ كثيراً من المواقف والأحداث التي تتعلَّق بالشَّخصيّة التي يتناولُها الباحث، ومن هذه المصادر: تاريخ الطَّبريّ، والكاملُ، والبدايةُ والنِّهاية، وتاريخُ الإسلام للذّهبيّ، والأنسابُ للسَّمعانيّ، وجمهرةُ أنساب العرب لابن حزم، وأنساب الأشراف للبلاذريّ، ونسبُ قريش، والاستبصار، والمعارف، وغيرها.

٧ ـ **تواريخُ المدن والبُلدان**: هذه المصادر في غايةِ النَّفع والفائدة، فهي تثبتُ في كثير من الأحيان بطاقة الشَّخصية التي يتناولُها الباحث عن الصَّحابي، وتغطي كثيراً من الجوانب المتنوِّعةِ في حياته كالعلْمِ والأدبِ والمكان والزَّمان وما شابه ذلك. ومن هذه الكتب: تاريخ المدينة المنوّرة لابن شبّه، وتاريخ مكَّة

للأزرقيّ، وتاريخ بغداد، وتاريخ دمشق، ووفاء الوفاء للسّمهوديّ، وشفاء الغرام للفاسيّ، ومعجم البلدان للحمويّ، ومعجم ما استعجم للبكريّ، وغيرها ممّا ينضَوي تحت هذا الأمر.

٨ ـ **مصادرُ متنوعةٌ أخرى**: ساعدت كثيرٌ من هذه المصادر في تنميقِ الكتابِ وتزيينه وتحسينِه، وتوثيقِ معلوماتِه، وبيانها وتبيينها واستيعابها. ومنها: المعاجمُ اللغويةُ، كالقاموس المحيط؛ ولسان العرب، والكليّات للأزهريّ، ومختار الصِّحاح وغيرها. وهناك مصادرُ اهتمَّت بالأحاديث الضَّعيفة والأخبار الموضوعة مثل: الشَّذرةُ، واللآلىء المصنوعة، والفوائدُ المجموعة، والموضوعاتُ، وتحذيرُ المسلمين، وغيرها. يُضافُ إلى ذلك كتب الأدب العامّة كعُيون الأخبار، والعقدِ الفريد، والتَّذكرةِ الحمدونيَّة، ونثرِ الدُّرّ، وربيعِ الأبرار، والبيانِ والتَّبيين، وبهجةِ المجالس، ومئات غيرها. وكذلك عدنا إلى مئات من دواوين الشُّعراء وأساطين هذا الفنّ من القُدماء والمحدثين، وآثارها موجودةٌ بين طيّات الكتاب.

* كما اطّلعتُ على مجموعةٍ ضخمةٍ من المؤلّفات والمراجع الحديثةِ في هذا المضمار، فكانتِ الفائدةُ قليلةً ضَحْلةً، إذ ألفيتُ أنَّ بعضَها ينقلُ شطراً كبيراً عن بعضِها الآخر دون تعَبٍ أو نَصَبٍ أو جهد، بل وجدتُ أحدهم قد انتقلَ كلّه إلى كتابٍ آخر ولم يغيّرْ إلا العُنوان! ورأيتُ آخرَ قد ضمَّنَ كتباً كثيرةً في كتابٍ واحد، ووقَع في الأخطاءِ الموجودةِ في الكتبِ التي جمعَها ودفنَها بين دفتي كتابٍ جديد، والحمدُ لله الذي كفَاهُ حَرباً. وهذا الأمرُ بابٌ جديدٌ قد دخلَ منه كثيرٌ ممن يتصدّرون المجالسَ، ويتباهون بنتاجِهم العلْميّ الضَّخم المنفوخ، ويستغلّون غياب أصحاب هذا الشَّأن عن السَّاحات والشَّاشات!!! نرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يعلّمنا الأخلاقَ، ويحلّينا بالصّدق، وينفعنا بالعمل والجدّ والاجتهاد، ويكرمنا بما يصلح نفوسنا وأقوالنا وأعمالنا.

* وفي الخِتام، نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ حُسْن الخِتام، والوفاة على الإيمان، وأنْ يجعلَ آخر كلامنا: «لا إله إلا الله محمَّد رسول الله».

* اللهمَّ اسقنا من الحوضِ المحمّديّ المورود، وشرّفْنا بلوائهِ المعقود، وشفّعْه فينا في اليومِ المشهود، وجازِه عنَّا بما أنتَ أهلُه من فضْلٍ وإحسانٍ وجُود، وانفعْنا بمحبّتِهِ ومحبّة أهله وصحابته الرُّكَّع السُّجود، واجعلنا معهم في الجنَّة دار الخُلود:

اللهُ زادَ مُحمَّداً تكْريماً وَحبَاهُ فَضْلاً من لدنْه عظيماً
ذاكَ الشَّفيعُ مقامُه محمودُ
ولواؤُهُ بينَ العُلا معقودُ
فإذا توافتْ للحِسابِ وفودُ
قالوا تقدَّمْ بالأنامِ زعيماً صلُّوا عليه وسلَّموا تسليماً

* وقُبيل الختام، أرجو من القُراء الأعزّاء، ومن السَّادة الأحباب الذين ينتمون لأهلِ البيتِ الأطهار في أيّ بلد كانوا؛ وخاصّة في ديار الحرمَيْن الشَّريفين الطَّاهرة؛ أنْ يمدّوني بالصَّواب، ويخصّوني بالدّعاء، وأنْ يتجاوزوا عن الخلل إنْ وُجِد، فما أنا واللهِ إلا محبٌّ وامقٌ للحبيب المصطفىٰ ﷺ؛ وأهله الشّرفا؛ وأصحابه الكرام، في كلّ زمانٍ ومكان، وقد كتبْتُ عن أهل البيت ـ رجالاً ونساءً ـ كتابةَ محبٍّ ودود، عسى أنْ ينفعني الله عزَّ وجل بمحبّتهم فأفوزَ فوزاً عظيماً.

* ثم إنه لابدّ لي في الختام من أنْ أسجِّلَ شكراً خاصّاً، وأزجي تحيةً مباركةً إلى الأخِ الكريمِ: **علي ديب مستو «أبو مالك»** صاحب دار ابن كثير العامرة بدمشق، الذي أسْهم في نَشْر كتبي أوّل عهدي بالكتابةِ والتّأليف، وكانت شُهرتي بفضل الله أوّلاً، ثمّ ببركةِ صفاءِ نفسه ونقاءِ سَريرته، ومحبته العظيمة لنشْرِ كنوز التُراث الإسلاميّ، وعنايته بأهل الفِكْر، ورعايته لهم، ولا نملكُ له إلا الدُّعاء، فجزاه اللهُ أحْسَن الجزاء، وجعلنا من السُّعداء.

* والشُّكرُ ذاتُهُ موصولٌ إلى الأخ الحبيبِ: **عبد الرّؤوف حسن قدّور «أبو حمزة»** صاحب دار اليمامة الغَرّاء، بدمشق الفيحاء، الذي حرصَ أيضاً أشدّ

الحرص على العنايةِ بنشر كتب التّراث الإسلامي بأبهى حلّة، وأفخر طباعة، واهتمّ بكلٍّ مَنْ يقدّم أعمالاً متميّزة في خدمةِ العِلْم والأدب، وهاهي ذي مطبوعاتُه تفوحُ برحيقها، وتميسُ بحلّتها، لتشهدَ له بحسنِ العمل وإتقانه، فجزاه الله كلَّ خير، وأجزلَ له المثوبة، وسدّد علىٰ الخير خطاه.

* وأشكر كذلك ابني الحبيب «**نور الدّين جُمُعة**» الذي ساعدَ كثيراً في البحثِ والقراءة، وتنسيق المعلومات، واستخراجها من كبرياتِ المصادر، وخصوصاً كتب التّفسير والأدب، فجزاهُ الله جزاء العاملين، وجعلَه من المفلحين.

* كما أشكر كلَّ مَنْ أسْهم في إبرازِ هذا العمل إلى مكتبةِ أهل البيت، أو قدَّم نصحيةً، أو أعارَ كتاباً، فجزى اللهُ هؤلاء كلَّ خيرٍ ونفعَ بهم، وأحْسَن إليهم إنّه سميع مجيب.

* ربّنا تقبل منّا إنّك أنتَ السّميعُ العليم، وتُبْ علينا إنّك أنتَ التّواب الرَّحيم، واختمْ لنا بخيرٍ منك أجمعين.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: ٢٨٦]

دمشق ـ حرستا ـ حي الشَّيخ موسى
١٠ / ربيع الآخر / ١٤٢٧ هـ
٨ / أيار / ٢٠٠٦ م

وكتب
محبّ أهل البيت وخادمهم
أحمد بن خليل جُمُعة
الحرستانيّ الدّمشقيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

* الحمدُ لله وكفىٰ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ المُصطفى، وعلى أهله الشُّرفا، وبعد:

* فقد رأينا إتماماً للفائدة أنْ نضعَ هذه السُّطور «بين يدي الكتاب» أمامَ القارىء، نتحدّثُ من خلالها عن شيءٍ من فضائلِ الصَّحابةِ بعامة، وما جاء فيهم من الآثار الحميدة في القُرآن والحديث، وعن دورهم الدَّعويّ والرِّيادي.

* ثمَّ نبيّنُ مَنْ هم أهل البيتِ مستدلّين بذلك بأئمةِ العِلْم من سائر العُصور، وعمّا جاء في فضْلهم في القرآنِ العظيمِ، والأحاديثِ المشتهرة، والآثارِ المعتبرة، لنعرفَ كيف نتعامل معهم، ونوقِّرهم وننزلُهم المنزلةَ التي أُمِرْنَا فيها.

* نسأل اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يوفّقنا لما يحبُّ ويرضى، وأنْ يأخذَ بأيدينا إلى الصَّواب في الأقوالِ والأعمالِ.

أولاً: فَضائلُ الصَّحابة رضي الله عنهم:

أ ـ تعريفُ الصَّحابي:

* الصَّحابي: مشتقٌّ من الصُّحبة. وصاحِب: اسمُ فاعل.

* والصّحبةُ: الملازمةُ والانقياد.

* عرَّف الإمام البُخاريُّ رحمه الله الصَّحابي بقوله: «كلُّ مَنْ صحبَ

النَّبيَّ ﷺ، أو رآهُ من المسلمين، فهو مِنْ أصحابِه»[1].

* وقال السَّخاويّ رحمه الله: «الصَّحابيُّ مَنْ صَحِبَ النَّبيَّ ﷺ، أو رآهُ ولو ساعةً من نَهَار، فهو من أصحابه».

* وعلَّقَ الإمام القَسْطلانيُّ على هذا فقال: «أمَّا التَّقييدُ بالرُّؤيةِ فالمرادُ به: عدم المانع منها، فإنْ كان كابنِ أمِّ مكتوم[2] الأعمى، فهو صحابيٌّ جزْماً، فالأحسنُ أنْ يعبّر بـ «اللقاء» بدل الرّؤية، ليدخل فيه ابن أمّ مكتوم وغيره»[3].

ب ـ خيريَّةُ الصَّحَابة وعدالتُهُم:

* أجمعَ العلماءُ من السَّلفِ والخَلَف على أنَّ الصَّحابةَ خيرُ خَلْقِ الله، وأفضلُهم بعد النَّبيّين، وخواصّ الملائكة المقرَّبين، لأنّهم كانوا في خيرِ القُرون مع النَّبيِّ ﷺ.

* ولمَّا كان الصَّحابةُ هم رواةُ السُّنَّة الغرَّاء، فإنَّ منْ أوكَدِ آلاتِ السُّنن المعينة عليها، والمؤدّية إلى حفظها «معرفة الذين نقلُوها عن نبيِّهم رسولِ الله ﷺ إلى النَّاس كافَّة، وحفظُوها عليه، وبلَّغُوها عنه، وهم صحابتُه الذين وعَوْهَا، وأدَّوْهَا ناصحين مُحتسبين، حتَّى كملَ بما نقلُوه الدِّين، وثبتتْ بهم حجَّة الله عزَّ وجلَّ على المُسلمين، فهم خيرُ القرون، وخيرُ أمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاس، ثبتَتْ عدالةُ جميعهم بثناءِ الله عزَّ وجلَّ عليهم، وثناءِ رسولِه ﷺ، ولا أعْدلَ ممَّنْ ارتضاهُ اللهُ لصحبةِ نبيِّه ﷺ ونصرتِه، ولا تزكيةً أفضل من ذلك، ولا تعديلَ أكمل منها، قال اللهُ عزَّ وجلَّ ذِكْره: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ

---

(١) المواهبُ اللدنيّة (٣/ ٣٣٧)؛ وانظر: فتح الباري؛ كتاب فضائل أصحاب النَّبيّ ﷺ.

(٢) اقرأ سيرةَ سيّدنا ابن أمّ مكتوم في الباب الأوّل من موسوعتنا «فرسان من عصر النُّبوّة» (ص ٤١٠ ـ ٤٢٣) تجدْ سيرته مفعمةً بالتَّضحية والعمل والعبادة.

(٣) المواهب اللدنيَّة (٣/ ٣٨٠).

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[الفتح: ٢٩]؛ فهذه صفةُ مَنْ بادر إلى تصديقه، والإيمان به، وآزره ونَصَره ولصقَ به وصحبه، وليس كذلك جميع مَنْ رآه، ولا جميع مَنْ آمنَ به، وسترى منازلهم من الدّين والإيمان وفضائل ذوي الفضل والتّقدُّم منهم، والله قد فضَّل بعض النَّبيين على بعض، وكذلك سائر المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين»(١).

ج ـ الصَّحابةُ في ضوء القُرآن الكريم:

* قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾[آل عمران: ١١٠] فالصَّحابةُ الكرامُ رضوان الله عليهم، قد آمنوا بالله ِعزَّ وجلَّ، وأَمروا بالمعروفِ، ونَهوا عن المنكر، لذلك تحقَّق فيهم هذا الوصفُ الرَّبانيُّ، فهم خيرُ الخَلْق بعد الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهم خيرُ النَّاس بين الأمم، وكلُّ مَنْ سار على منهجِهم تتحقّقُ فيه الخيريَّة بقدر تحقّق تلك الصّفات فيه.

* قال بعضُ العلماء: «كنتم بمعنى أنتم خيرُ أمّةٍ» وقيل: «كنتم في علْم اللهِ، ومعلوم أنّ مواجهةَ رسولِ الله ﷺ لأصحابه بأنتم خيرها إشارة بالتّقدمة في الفضل إليهم على من بعدهم واللهُ أعلم»(٢).

* وقد مدحَ القرآنُ العظيمُ الصَّحابةَ رضي الله عنهم في مواطنَ كثيرةٍ من آياته ومنها قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾[البقرة: ١٤٣] و«وسطاً»: معناه عدلاً، رُوي ذلك عن رسولِ الله ﷺ. والوسطُ: الخيارُ والأعلى من الشَّيء، كما تقول: فلانٌ وسط القوم، وواسطةُ القلادة: أنفس حجر فيها، والأميرُ وسط الجيش. وقال

---

(١) الاستيعاب (١/ ٢).

(٢) المصدر السَّابق (١/ ٥).

النَّبيُّ ﷺ: «خيرُ الأمور أوساطُها» أي: خيارها[١].

* وبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ في مواضعَ من القرآنِ أنَّ الصَّحابةَ بشطريهم: «المهاجرون والأنصار» من المَرضي عنهم، فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].
وهؤلاء الصَّحابةُ أنفسُهم هم الذين بايعوه تحتَ الشَّجرة فرضيَ عنهم، وبشَّرهم بالفتح والمغانم الكثيرة، وكانوا يومها «خير أهلِ الأرض»[٢] لأنَّهم بايعوا اللهَ عزَّ وجلَّ، ورسولَه ﷺ على الموت. قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[الفتح: ١٨ ـ ١٩].

* قال ابنُ عطيّة: وقوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ تشريفٌ وإعلامٌ برضاه عنهم حين البيعةِ، وبهذا سمِّيت بيعة الرّضوان، والرِّضى بمعنى الإرادة»[٣].

* إنَّ الآياتِ القرآنيَّةَ والشَّهاداتِ الرَّبَّانيَّة التي تثني على الصَّحابة كثيرة، تشهدُ لهم بالسَّبْق والفَضْل والمعيَّة، والصِّدق، والإيثار، والوسطيَّة، والمحبَّة، والرِّضى، والجهاد، والعزَّة، والإيمان، والهجرة والإيواء، والنُّصرة؛ فهم: الصَّادقون، المفلحون، المتقون، وهم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[التوبة: ١١٢]. فهذه بعضُ الآيات من القرآن الكريم تشهدُ بخيريّة الصَّحابة وعدالتهم وتبشّرهم بالجنّة؛ فهل يقدرُ أحدُ أنْ يخالفَ ما مدحَهُ القُرآن العظيمُ وأثنى عليه ربّ العزَّة؟!:

---

(١) تفسير ابن عطيّة (ص ١٤٠) بتصرُّف يسير.
(٢) أخرجه البخاريُّ برقم (٤١٥٤).
(٣) تفسير ابن عطيّة (ص ١٧٣٣).

مَنْ أحسنَ الظَّنَّ في اللهِ الكريم وفي رسولِـهِ كـان مكتُـوبـاً مِـنَ الشُّـرفـا
ومَنْ أحبَّ صِحَابَ المصطفى فَلَهُ جنَّـات عـدنٍ يـرىٰ فـي ظلِّهـا غُـرفـا
فهم نجومُ الهدىٰ في كلِّ مظلمةٍ واللهُ حسبـي فيمـا قلتُـه وكفـى

د ـ الصَّحابةُ في ظلال الحديثِ الشَّريف:

* لقد اختار اللهُ عزَّ وجلَّ رجالاً أكْفَاءَ لصحبةِ نبيِّهِ ﷺ، فأكرمهم بقربِهِ ﷺ، وأنعمَ عليهم بصحبته، ووصلَ حبالهم بحبلِه، وأرحامَهم برحمِهِ، فكانوا صفةَ الصَّفوة، ولُبابَ العالم، ذكرهم رسولُ الله ﷺ فقال: «إنَّ اللهَ اختارني، واختار لي أصحاباً، وجعلَ منهم أصهاراً، وأنصاراً، ووزراء، فمن سبَّهم فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ، والنَّاسِ أجمعين، لا يقبلُ الله منهم يوم القيامة صِرفاً ولا عدلاً»(١).

* أضفْ إلى ذلك أنَّهم قادةُ الأمة، ونورُها في الدُّنيا والآخرة؛ قال رسولُ الله ﷺ: «ما من أحدٍ من أصحابي يموتُ بأرضٍ إلا بُعِثَ قائداً ونوراً لهم يوم القيامة»(٢).

* وكان ﷺ يؤكِّد على اتّباع سنّته، وسنّة الخُلفاء الرّاشدين المهديّين، ويحذّرُ من البدع والضَّلالات، فقال: «عليكم بتقوى اللهِ، والسَّمع والطَّاعة، وإن عبداً حبشيّاً، وستَرون من بعدي اختلافاً شديداً، فعليكم بِسُنّتي وسنّةِ الخلفاء الرّاشدين المهديّين، عضّوا عليها بالنّواجذ، وإيّاكم والأمور المحدثات، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»(٣):

مَنْ ذا يطيقُ بأنْ يحصي الثَّناء على مُحمَّـدٍ وعلـىٰ الصِّـدّيـق صـاحبِـهِ
وقـد رقـى عُمُـر الفَـاروقُ مَنْـزِلـةً وحـازَ عـزّاً وفخـراً فـي مـراتبِـهِ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١١).
(٢) أخرجه التّرمذيّ برقم (٣٨٠٠).
(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدّمة برقم (٤٢).

وحــازَ عُثمــانُ فضْــلاً بــالنَّبــيِّ وقــد أثنــتْ جميــعُ البَــرايــا عــن منــاقِبِــهِ
وذو الفقَــار علــيُّ المــرتضــى فَلَــهُ بحــرٌ مــن العِلــم يبــدو مــن عجــائِبِــهِ
عليهــمُ صلــواتُ اللهِ مــا لمعَــتْ فــي الليــل أنــوارُ بــرقٍ فــي غيــاهبِــه

* وينبغي على المسلم محبّة الصّحابة رضي الله عنهم، ومن علامات محبّتهم وجوبُ توقيرهم، وبرّهم، والقيام بحقوقهم، والاقتداء بهم، بأنْ يمشيَ على سُنّتهم وآدابِهم وأخلاقهم، والعمل بأقوالهم ممّا ليس للعَقْل فيه مجال، وحسن الثّناء عليهم؛ بأنْ يُذكَروا بأوصافهم الجميلة على قَصدْ التَّعظيم، فقد أثنى عليهم اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِهِ المجيدِ، ومَنْ أثنى عليه فهو واجبُ الثَّناء والاستغفار لهم. فمن أحبَّ الصَّحابة فقد أحبَّ رسول الله ﷺ، ومن آذاهم فقد آذاه، فحبُّهم من الإيمان لعظيمِ منزلتِهم من نفسِه الشَّريفة ﷺ، ولذا فإنَّ من آذاهم كأنَّما وصل أذاه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

* وقد حذَّر الصَّادق المصدوق ﷺ من سبِّهم فقال: «لا تسبُّوا أصحابي، لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنَّ أحدكم أنفقَ مثل أُحُدٍ ذَهَباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»[1]:

هُمــو صحــابــةُ خيــرِ الخلْــق أيّــدهــم ربّ السَّمــــاء بتـــوفيـــقٍ وإيثـــار
فحبُّهــم واجــبٌ يشفَــىٰ السَّقيــمُ بــهِ فمـــنْ أحبَّهـــم ينجـــو مـــن النَّـــار

هـ ـ الصَّحابةُ في وجْدان السَّلَف:

* لعبدِ الله بنِ مسعود الهذليّ[2] رضي الله عنه وصفٌ صادقٌ للصَّحابة حيث يقول: «إنَّ اللهَ نظرَ في قلوبِ العبادِ، فوجدَ قلبَ محمَّدٍ صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٥٤٠)، ومعنى الحديث: لو أنفقَ أحدكُم مثلَ جبل أُحدٍ ذهباً ما بلغ ثوابه في ذلك ثواب نفقة أحد أصحابي مّداً ولا نصف مدٍّ... وانظر شرح هذا الحديث للنّوويّ في المنهاج (ص ١٨٢٤) ففيه فوائد قيّمة ومقنعة.

(٢) اقرأ سيرة سيّدنا عبد الله بن مسعود في الباب الأوّل من موسوعتنا «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ٢٢١ ـ ٢٨١) فسيرتُه نزهةٌ علميةٌ؛ ورحلة بين روضِ الفقْهِ والحكمة.

وسلم خيرَ قلوبِ العباد، فاصطفَاهُ لنفسه، فابتَعثَه برسالتِهِ، ثمَّ نظرَ في قلوبِ العبادِ بعد قلب محمّد ﷺ فوجدَ قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيّه، يقاتلون عن دِينه، فما رأىٰ المسلمون حسَناً فهو عند الله حَسَنٌ، ورأوا سيئاً فهو عند الله سيء»[1].

* ومن الأقوالِ الجامعةِ الماتعةِ السَّاطعة ما ذكره سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما في الصَّحابة، إذْ أكّد على أنّهم أصفى النَّاس وأعلمهم، ودعا إلى الاقتداء بهم فقال: «من كان مُستنّاً فليستنَّ بمَنْ قد مات، أولئك أصحابُ محمّد ﷺ، كانوا خيرَ هذه الأمّة، وأبرّها قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَّها تكلُّفاً، قومٌ اختارهم اللهُ لصحبةِ نبيّه ﷺ، ونَقْل دِينه فتشبّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحابُ محمّد ﷺ، كانوا على الهدى المستقيم والله ربّ الكعبة»[2].

* وقد أبدعَ سادةُ التّابعين وخيرةُ علمائهم في الثّناء على الصَّحابة أجمعين. فمن جوامع الكلَم الطَّيِّب ما وافانا به الحسنُ البصريُّ رحمه الله حيث طلب منه محبّو الصَّحابة أنْ يصفَهم لهم، فذرفت عيناهُ بالدَّمع السَّخي، ثمَّ قال: «ظهرت منهم علاماتُ الخير في السِّيما والسَّمت والهدي والصِّدق، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد، وممشاهم بالتَّواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطَّيِّب من الرِّزق، وخضوعهم بالطَّاعة لربّهم تعالى، واستقادتهم للحقّ فيما أحبّوا وكرهوا، وإعطاؤهم الحقّ من أنفسهم، ظمئت

---

(١) مجمع الزّوائد (١/ ١٧٧ و١٧٨)؛ وقال الهيثميّ: «رواه أحمد، والبزّار، والطَّبراني في الكبير، ورجاله موثقون». وروى ابنُ مسعود عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما من نبيّ بعثَه اللهُ في أمَّة قبلي، إلا كان له من أمَّته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثمّ إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل» (أخرجه مسلم برقم ٥٠).

(٢) علماء الصَّحابة رضي الله عنهم (ص ١٢٠)، ومَنْ أراد الاستزادة أقوال الصَّحابة في بعضهم بعضاً؛ فليرجع إلى أقوال سيّدنا عبد الله بن عبّاس في كتابنا علماء الصَّحابة (ص ٦٨ ـ ٧٠).

هواجرهُم، ونحلت أجسامُهم، واستخفّوا بسخط المخلوقين رضى الخالق، لم يفرّطوا في غضَب، ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكْمَ اللهِ تعالى في القرآن، شغلوا الألسن بالذّكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالَهم حين استقرضهم، ولم يمنعْهم خوفُهم من المخلوقين، حسُنَت أخلاقُهم وهانت مؤنتهم وكفاهم اليسير من دنياهم إلى آخرتهم»[1].

* وقال الإمامُ الشَّافعي رحمه الله: «وقد أثنى اللهُ تبارك وتعالى على أصحاب رسولِ الله ﷺ في القُرآن والتَّوراة والإنجيل، وسبقَ لهم على لسانِ رسولِ الله ﷺ من الفَضْل ما ليس لأحدٍ بعدهم، فرحمهم الله وهناهم بما آتاهم من ذلك ببلوغِ أعلى منازل الصِّدّيقين والشُّهداء والصَّالحين، هم أدّوا إلينا سننَ رسولِ الله ﷺ، وشاهدوه والوحيُ ينزلُ عليه، فعلمُوا ما أراد رسول الله ﷺ عاماً وخاصّاً وعزماً وإرشاداً، وعرفُوا من سُننه ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقَنا في كلّ علْمٍ واجتهاد، وورعٍ وعقْل استدركَ به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من آرائنا لأنفسنا والله أعلم»[2].

* ولا ريب ـ عزيزي القارئ المحبّ ـ في أنَّ أقوالَ علماء الأمّة وفقهاء الملَّة، في فضْل الصَّحابة، تملأُ المصنَّفات والمجاميع، ولا يستطيع أي باحث أنْ يحيطَ بها، أو يجمعَها بين دفتي كتاب.

* وسنختمُ هذه الفقرةَ المونقةَ ببعض حقوقِ الصَّحابة الكرام علينا، ومنها:

* الاعترافُ بسَبْقِهم وفَضْلهم.

* الكفُّ عمَّا شجرَ بينهم.

* الدّفاعُ عنهم والذَّودُ عن أعراضهم.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٥٠).

(٢) صحابة رسول الله (ص ١٨٦) نقلاً عن مناقب الشّافعيّ (١/ ٤٤٢).

* محبّتهم والاستنانُ بِسُنَتِهم.

* عدمُ انتقاص أحدٍ منهم. والله أعلم.

ثانياً: مَنْ هم أهل البيت؟

أ ـ معنىٰ الأهل:

* الأهلُ: إنَّ كلمةَ أهلٍ يحدّدُ معناها بما يُضاف إليها.

* فأهلُ الرّجل: زوجُهُ وعشيرتهُ وذوو قرباه. وأهلُ الدار: سكانُها. وأهلُ الكتاب، وأهلُ الإنجيل، وأهلُ القرية، وأهلُ المدينة.... الخ.... مَنْ يجمعُهم الكتاب، أو الإنجيل.... إلخ....

* وقد وردَ اشتقاق كلمة أهل في القُرآن الكريم (١٢ مرَّة) على النّحو الآتي: «أهل ٥٤ مرّة؛ أهلك ٩ مرّات، أهلكم مرّة واحدة، أهلنا ٣ مرّات، أهله ٢٧ مرّة، أهلها ٢٠ مرّة، أهلهم ٣ مرّات، أهلهنّ مرّة واحدة، أهلونا مرّة واحدة، أهلي ٣ مرّات، أهليكم مرّتان؛ أهليهم ٣ مرّات».

* أفادَ الرّاغبُ الأصفهانيُّ في إيضاح كلمةِ «أهل» في «مفرداتِهِ» فقال ما ملخّصه: «أهلُ الرّجل: مَنْ يجمعُه وإيَّاهم، نَسَب، أو دِيْنٌ، أو ما يجري مجراهما من صناعةٍ، وبيتٍ، وبلدٍ، وأهل الرّجل في الأصل: مَنْ يجمعه وإياهم مسكنٌ واحد، ثمّ تجوّز به فقيل: أهل الرَّجل لمن يجمعه وإيّاهم نسَبٌ، وتُعورفَ في أسرة النّبيّ ﷺ مُطْلَقاً، إذا قيل: أهل البيت، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[الأحزاب: ٣٣]؛ وجمع الأهل: أهلون، وأهال، وأهلات»[(١)].

* وفي بحرِهِ اللغوي قال الفيروزآبادي في مادّة «أهل» ما خلاصتُه: «أهل: أهلُ الرّجل: عشيرته، وذوو قرباه، وجمعُ الأهل: أهلون، وأهال،

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٩٦ و٩٧) باختصار.

وآهال، وأهلات. وأهل النَّبيِّ ﷺ: أزواجُه وبناتُه وصهرهُ عليٌّ رضي الله تعالى عنه، أو نساؤُه، والرِّجال الذين هم آلهُ. . .»[1].

* وفي «الفتح» نقرأُ ما فتحَ الله عزَّ وجلَّ بِه على ابنِ حجر حولَ كلمة الأهل حيث يقولُ ما مفاده ومحصّله وملخّصه: «قيل: أصل «آل» أهل؛ قُلبت الهاءُ همزةً، ثمّ سهّلت، ولهذا إذا صُغِّرَ رُدَّ إلى الأصل، فقالوا: أُهيل. وقيل: بل أصلُه أول من آل؛ إذا رجعَ، سمّي بذلك مَنْ يؤولُ إلى الشَّخص، ويُضاف إليه، ويقوّيه أنَّه لا يُضاف إلا إلى معظَّم فيقال: آل القاضي، ولا يقال آل الحجَّام، خلاف أهل، ولا يُضاف آل أيضاً غالباً إلى غير العاقل، ولا إلى المضمر عند الأكثر، وجوَّزه بعضُهم بقلّة، وقد ثبتَ في شعر عبد المطَّلب في قوله في قصَّة أصحاب الفيل من أبيات:

وانصـــرْ علـــى آل الصَّليـ ـــبِ وعـابـديـه اليـومَ آلــك

وقد يُطلق آل فلان على نفسِه، أو عليه، وعلى من يُضاف إليه جميعاً، وضابطه أنَّه إذا قيل فعل آل فلان كذا، ودخل هو فيهم إلا بقرينة، ومن شواهده قولُه ﷺ للحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما: «إنّا آل محمّدٍ لا تحلّ لنا الصَّدقة». قال الإمام أحمد: «المرادُ بآل محمد: أهل بيته، وهم: الأزواج والذّريّة»[2].

ب ـ مَن المقصود بأهل البيت؟

* وردَ لفظُ «أهل البيت» مرتَيْن في القُرآن الكريم:

الأُولى: في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾[هود: ٧٣].

الثّانية: في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾[الأحزاب: ٣٣].

---

(١) القاموس المحيط (ص ١٢٤٥) باختصار، وانظر لسان العرب مادة «أهل».
(٢) فتح الباري (١١/ ١٥٧ وما بعدها).

* والمقصودُ بأهلِ البيتِ الواردة في الآيةِ الأولى: هو بيتُ نبيّ الله إبراهيم عليه السَّلام، وإنَّما خَصَّ السَّيّدة سارة[1] من أهلِ بيته لأنَّها ابنة عمّه؛ وجاء البيت في هذه الآية معرفاً تعريف حضور، وهو البيتُ الحاضرُ بينهم الذي جرى فيه هذا التَّحاور.

* وأمَّا أهلُ البيتِ في الآيةِ الثَّانية، فمن العُلماء مَنْ قال: أهل البيت: نَصْبٌ على النّداء؛ أو على المدح، وهذا دليلٌ بَيّنٌ على أنَّ نساءَ النَّبيّ ﷺ من أهل البيت[2].

* وقال آخرون: «إنَّ أهلَ البيت هم: رسولُ الله ﷺ، وعليٌّ، وفاطمةُ، والحسنُ، والحسينُ رضي الله عنهم».

* وقال العُلماءُ والفُقهاءُ: «أهلُ بيت النَّبيِّ ﷺ هم الذين يصدقُ عليهم عُرفاً أهل بيته من أزواجه وأقربائه وهم: آلُ عبّاس، وآلُ عقيل، وآلُ جعفر، وآلُ عليّ، أو النَّبيّ ﷺ وأزواجُه».

* وأكّد أبو بكر الآجري رحمه الله بأنّ أهل البيت هم: بنو هاشم: عليٌّ وولده وذرّيته، وفاطمةُ وولدها وذرّيّتها، والحسنُ والحسينُ وأولادهما وذرّيّتهما، وجعفرُ الطَّيَّار وولده وذرّيّته، وحمزةُ وولده، والعبّاسُ وولده، وذريّته رضي الله عنهم، وهؤلاء هم أهلُ بيتِ رسولِ الله ﷺ وواجب على المسلمين محبّتهم وإكرامهم، واحتمالهم، وحسن مداراتهم، والصَّبر عليهم، والدُّعاء لهم[3].

---

(١) اقرأ سيرةَ السَّيّدة سارة زوج نبيّ الله إبراهيم عليه السَّلام في كتابنا «نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسُّنَّة» (٢٠٥ ـ ٢٢٨) فسيرتها تمتع الأرواح والقلوب.

(٢) اقرأ موسوعتنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» في حلَّته الجديدة ـ ط ٦ ـ بدار اليمامة بدمشق، حيث تجد مايبل الصدى وينعش الأفئدة بإذن الله.

(٣) وقد اعتمدنا هذا الرَّأي وهو في صحيح مسلم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، فتحدَّثتُ عن عمّي النَّبيّ ﷺ: الحمزة والعبّاس، وأبناء عمّه: جعفر وعليّ وعقيل، ثمّ عن سبطيه: =

* ورحم الله مَنْ قال:

علـــيٌّ وعبّـــاسٌ عقيـــلٌ وجعفـــرُ وحمـــزةُ هـــم آلُ النّبـــيِّ بـــلا نكْـــر

* وأمّا المرادُ بالقرابةِ: فهم مَنْ ينتسبون إلى جدّ النّبيِّ ﷺ الأقرب، وهو عبدُ المطَّلب، ممّن صَحِب النَّبيَّ ﷺ، أو رآه منْ ذكَرٍ وأنثى وهم:

* عليٌّ وأولاده: الحسنُ والحسينُ وزينبُ وأمّ كلثوم من فاطمةَ رضي الله عنهم.

* جعفرُ بنُ أبي طالب وأولادهُ: عبد الله وعون ومحمَّد رضي الله عنهم.

* عقيلُ بنُ أبي طالب: وولدُه مسلمُ بن عُقيل رضي الله عنهما.

* حمزةُ بنُ عبد المطّلب وأولادُه: يعلى، وعمارةُ، وأمامةُ رضي الله عنهم.

* العبّاسُ بنُ عبد المطّلب وأولادُه الذّكور العشرة: الفضل وعبد الله وقُثَم وعبيد الله والحارث ومعبد وعبد الرَّحمن وكثير وعون وتمّام رضي الله عنهم[1].

* وكان لسيّدنا عليٍّ ونجلَيْه الحسن والحُسين وأمّهما فاطمة الزَّهراء مكانةً متميِّزةً عند النّبيّ ﷺ، وقد وردت في فضائِلهم آثارٌ كثيرةٌ ذكرنا شطراً منها في تضاعيف الكتاب.

* كما كان لجعفر وعقيل منزلةٌ لائقةٌ بهما عند النّبيّ ﷺ، وصرَّح لهما بحبِّه أكثرَ من مرّة.

= الحسن والحُسين رضي الله عنهم، وأرجو الله عزَّ وجلَّ أن أكون قد وفّقت لهذا الأمر.

(١) المواهب اللدنيّة (٣/ ٣٦٤) بتصرّف يسير، وذكر بعض العلماء أنَّ من أهل البيت أيضاً: معتِّب بن أبي لهب، وعبد الله بن الزّبير بن عبد المطّلب وابنه جعفر، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وابناه: المغيرة والحارث، وصفيّة بنت عبد المطّلب رضي الله عنهم، والله أعلم. . . (المواهب اللدنيّة) (٣/ ٣٦٤).

* أمَّا الحمزةُ والعبَّاسُ فكانا في أرفعِ المنازلِ عند النَّبيِّ ﷺ وعند المؤمنين إلى يوم الدّين، وآثارهما تشهدُ لهما بذلك رضي الله عنهما.

* وكما ذكرتُ، فقد اقتصرتُ في كتابنا هذا على عمِّي النَّبيّ ﷺ، وأبناء عمّه أبي طالب، وسبطَيه السَّعيدين رضي الله عنهم أجمعين.

ج ـ أقباسٌ من مناقبهم:

* قال أحدهُم:

مناقبُهم كالشُّهبِ والتُّرْبِ والحصَىٰ وأضعافُها ألفاً وألفاً بلا حَصْرِ

* لأهلِ البيتِ رضي الله عنهم مناقبُ لا تُحصى، وفضائلُ لا تُستقصى، ولكنْ يمكن أنْ نذكر أنَّ من مناقبهم الجليلة وفضائلهم النَّبيلة؛ مشروعيّة الصَّلاة عليهم تبعاً للنَّبيِّ ﷺ في الصَّلاة وغيرها، ممَّا يزيدهم فخراً وشرفاً ونُبلاً ومكانة. وهذا ما أَثْبتَه لنا إمَاما أهلِ الحديث: البخاريّ ومسلم في صحيحهما، إذ أخرجا عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلى قال: «لقيني كعبُ بنُ عجرة فقال: ألا أهدي لك هديةً سمعتُها من النّبيّ ﷺ؟ فقلت: بلى، فأهدِها لي.

فقال: سألنا رسولُ الله ﷺ فقُلْنا: يا رسولَ الله، كيف الصَّلاة عليكم أهلَ البيت، فإنَّ اللهَ قد علَّمنا كيف نُسَلِّم؟

قال: «قولوا: اللهمَّ صلّ على محمّد، وعلى آلِ محمّد، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللهم باركْ على محمّد وعلى آلِ محمّد، كما باركْتَ على إبراهيم، وعلى آلِ إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيد»[1].

---

(١) أخرجه البخاريُّ برقم (٣٣٧٠ و٦٣٥٨)؛ ومسلم برقم (٤٠٦)، والحاكم برقم (٤٧١٠).
وقوله: «اللهمَّ» هذه كلمةٌ كثُر استعمالها في الدّعاء، وهو بمعنى: يا الله، والميمُ عوضٌ عن حرفِ النّداء. فلا يُقال: اللهمّ غفورٌ رحيمٌ مثلاً؛ وإنّما يُقال: اللهمّ اغفرْ لي وارحمْني، ولا يدخلها حرفُ النّداء إلا في نادر، كقولِ الرّاجز:

إنّي إذا ما حَدَثٌ ألمّا أقولُ يا اللهمّ يا اللهمّا

و«صلِّ»: ثناءُ اللهِ عزَّ وجلَّ على النَّبيِّ ﷺ عند ملائكته، وصلاةُ الملائكة عليه: الدّعاءُ له. =

* ولا ريب في أنَّ أهلَ البيت رضوان الله عليهم أُمناءُ الإيمان، وحكماءُ الأنام، وشموسُ الإسلام، وأحبابُ نبيِّ الإسلام رسول الله ﷺ:

أولئك قومٌ إنْ عدّوا لمكرمةٍ ومن سواهم فَلَغْوٌ غيرُ معدودِ
والفرقُ بين الورى جمعاً وبينَهمُ كالفرقِ ما بين معدومٍ وموجود

* ومن جليلِ مناقِبهم، وكريمِ فضائِلهم، وعظيمِ شمائِلهم، أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد طهَّرهم وزكَّاهم، فهم أهلُ البرِّ والتَّقوى، وهم أحرى النَّاس أنْ يكونُوا من المقرَّبين الأبرار، والصَّالحين الأخيار.

* وقد طهَّرهم اللهُ عزَّ وجلَّ، وأكرمَهم، وحرَّم عليهم الصَّدقة، كما حرَّمها على النَّبيِّ ﷺ، لأنَّ الصَّدقَةَ أوساخُ النَّاس، أي مطهّرة لهم وهذا من باب التَّطهير الذي شَرَعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم؛ وقد قال الصَّادق المصدوق ﷺ: «إنَّ الصَّدقةَ لا تحلُّ لمحمَّدٍ ولا لآل محمّد».

* وقد عوَّضَهم اللهُ عزَّ وجلَّ عن ذلك؛ ففرضَ لهم نصيباً من الفيء، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الحشر: ٧].

* «وإنَّه لحريٌ بأهلِ البيت الطَّاهر أنْ يتطهّروا من الأدناس المعنويّة، والصِّفات الخسيسَةِ، والأعمالِ القبيحةِ، والمخالفاتِ الشَّرعيّة صغيرها وكبيرها إرضاء لربِّهم، وإقراراً لعينِ الصَّادق الأمينِ حبيبنا رسولِ الله ﷺ؛ واحتراماً

= وقيل: صلاةُ الله: مغفرتُه، وصلاةُ الملائكة: الاستغفار. وقيل: صلاةُ الله: الرَّحمة؛ وصلاة الملائكة: الاستغفار.

والمراد: اللهم عظّم محمَّداً صلى الله عليه وسلم، والمراد تعظيمه في الدُّنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمّته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، ولا يعكّر عليه عطف آله وأزواجه وذرّيته عليه، فإنّه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتّعظيم، إذ تعظيم كلّ أحد بحسب ما يليق به. و«بارك»: البركة: الزّيادة في الخير والكرامة. وقيل: المراد التّطهير من العيوب والتّزكية. أقول: «أفاض ابن حجر رحمه الله في شرح هذا الحديث الشّريف وحلّق في سماوات البلاغة والعلم فأبدع». انظر (فتح الباري ١١/ ١٥٧ ـ ١٧٣).

وتوقيراً لانتسابِهم إليه، وإلى الآباءِ الطَّاهرين، والأمّهات الطَّاهرات من أهل بيته»[1].

* إنَّ الآثارَ الواردةَ في فضائل ساداتنا أهل البيت كثيرةٌ، وقد ذكرنا بعضَها في ثنايا التَّراجم.

* وما أجمل أنْ نختمَ هذه الفقرة بهذه الهمَساتِ لابن جابر الأندلسيّ، وقد ختمَ بها قصيدةً نادرةً له وَرَّىٰ خلالَها بجميعِ سُورِ القُرآن الكريم على التَّرتيب الذي عليه في المصحف الشَّريف مُبتدئاً بالفاتحةِ فالبقرةِ، ثمَّ منتهياً بالنَّاسِ، ومطلعُ هذه القصيدةِ الفريدةِ الجميلةِ المتألّقةِ قولُه:

في كُلِّ «فاتحةٍ» للقولِ مُعتبره ... حُقَّ الثَّناءُ علىٰ المبعُوث «بالبقره»
في «آل عمرانَ» قدْماً شَاعَ مبعثُهُ ... «نساؤهم» والرِّجالُ استوضحوا خبره

ثم ختمَها بقوله ذاكراً أهْلَ البيت الأطهار، وغيرهم من الصَّحابة:

أزكىٰ الصَّلاةِ على الهَادي وعترتهِ ... وصَحْبِهِ وخُصُوصاً منهُمُ العَشَره
صِدِّيقُهم عمرُ الفاروقُ أحزمُهم ... عثمانُ ثمَّ عليٌّ مُهلِكُ الفَجَره
سَعْدٌ سَعِيدٌ زُبيرٌ طَلْحَةٌ وأبو ... عُبيدةَ وابنُ عَوفٍ عَاشِرُ البَرَره
وحمزةٌ ثمَّ عبَّاسٌ وآلهُما ... وجعفرٌ وعقيلٌ سادةٌ خِيَرَه
وفي خَديجةَ والزَّهْرا ومَا وَلَدَتْ ... لَدَيَّ مَدْحٌ سأُهْدي دائما دُرَرَه
عن كُلِّ أزواجِه أرضى وأوثرُ مَنْ ... أضحَتْ براءتُها في الذِّكْرِ مُستطَره
أولئكَ النَّاسُ آلُ المصطفى وكفَى ... وصحبُه المهتدون السَّادةُ الخِيَرَه
أقسمتُ لازلتُ أهديهم شذا مِدَحٍ ... كالرّوض ينشرُ من أكمامِه زَهَرَه[2]

□ □ □

(١) علّموا أولادكم محبّة آل بيت رسول الله (ص ٥٠) بتصرّف يسير.

(٢) نظم العقدين في مدح سيّد الكونين لابن جابر الأندلسيّ (ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧)، وانظر: نفح الطّيب (٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦)، وأزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض (٢٥٤/٤٠ ـ ٢٥٨).






الباب الأوّل

من أعمام النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

حمزة بن عبد المطّلب
العبّاس بن عبد المطّلب







حمزة بن عبد المطّلب

رضي الله عنه

* أسدُ الله، وأسدُ رسوله، وسيّدُ الشُّهداء.
* لإسلامهِ قصّةٌ شائقةٌ لطيفةٌ تدلُّ على شهامته ونُبْله.
* كان إسلامهُ بركةً على الإسلام والمسلمين.
* تألّق يومَ بدرٍ وأُحُدٍ، ونزلَتْ بحقِّه آياتٌ تُتلىٰ.
* استُشهِدَ في غزوة أُحدٍ سنة ٣ هـ؛ رضي الله عنه.




حمزة بن عبد المطّلب
رضي الله عنه

مِنْ فُرسَان أَهْل البيتِ:

* كان فارس قريشٍ غير مدافع، وبطلها غير منازع، وكان من أهلِ البيتِ الأعلام، الذين أسهموا بكلِّ شيءٍ حتى قامتْ دعائمُ الإسلام، عُرِفَ بأنَّه من ذوي البأس والشَّجاعة، والحرب والبراعة:

لو كانَ في الألفِ منَّا واحدٌ فدعَوا ... مَنْ فارسٌ خَالَهم إيّاه يعنونا

* ذكرَ المتقدّمون فرسانَ العرب وأبطالَهم، وجعلوهم في طبقات، كما ذكروا فرسانَ الإسلام المشهورين، وضبطُوا أخبارهم، واستوفوا جانباً عظيماً من سيرةِ حياتهم.

* ومن أبطالِ قريش وفرسانِهم الأشدّاء الذين أدركوا الجاهليَّة والإسلام سيّدنا حمزةُ بنُ عبد المطَّلب(١) بن هاشم، الإمام البطلُ الضّرغام أسدُ الله أبو عُمارة، وأبو يَعْلى القُرشيُّ الهاشميُّ المكّيُّ ثمّ المدنيُّ البدريُّ الشَّهيدُ، عمُّ رسولِ الله ﷺ وأخوهُ من الرّضاعة، وأحدُ رجالِ أهل البيت الهاشميين الأخيار؛

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (١/ ١٧١ ـ ١٨٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٨ و١٦٩)، ومجمع الزّوائد (٩/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨)، والمغازي للواقدي (الفهارس ٣/ ١١٥٩ و١١٦٠)، والتَّذكرة الحمدونيّة (٢/ ٤٨٠)، وأسدُ الغابة (١/ ٥٢٨ ـ ٥٣٢) ترجمة رقم (١٢٥١)، وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (السّيرة النّبويّة + المغازي) انظر فهارسهما، ونسب قريش (ص١٧ و١٥٢ و٢٠٠)، وغيرها كثير.

وسيفهم البتَّار، وفارسهم المغوار، وبطلهم الكرّار.

* أوضَحَ ابنُ الأثير في «أُسدِ غَابتِهِ» هُوّيّة سيّدنا حمزة فقال: «حمزةُ بنُ عبد المطَّلب... وأمُّه هالةُ بنتُ وهيب الزُّهريّة، وهي ابنةُ عمّ آمنةَ بنتِ وهب[1] أمِّ النَّبيِّ ﷺ...، وهو شقيقُ صفيّةَ بنتِ عبد المطّلب[2] أمّ الزُّبير وهو عمُّ رسولِ الله ﷺ، وأخوهُ منَ الرّضاعة، أرضعتهما ثُوبيةُ مولاةُ أبي لهبٍ، وأرضعتْ أبا سلمةَ بنَ عبد الأسد المخزوميّ[3]، وكان حمزةُ رضي الله عنه أسنَّ من رسولِ الله ﷺ بسنتَيْن، وقيل بأربع، وهو سيّدُ الشُّهداء، وآخى رسولُ الله ﷺ بينه وبينَ زيدِ بن حارثة[4] رضي الله عنه»[5].

* وُلدَ سيّدنا حمزةُ في مكَّة المكرمةِ، في موضعٍ بأسفل مكَّةَ معروفٌ لدىٰ مؤرّخيها، قال الفاسيُّ: «ومنها الموضعُ الذي يُقال له مولدُ حمزةَ بن عبدِ المطّلب عمّ النّبيّ ﷺ ورضي الله عنه، بأسفل مكّة، بقرب باب الماجن، وعنده عينُ مكّةَ المعروفة ببازان...»[6].

* نشأ سيّدنا حمزةُ[7] في أعزِّ بيتٍ في مكَّةَ، بل في جزيرةِ العرب،

---

(١) اقرأ سيرةَ السَّيدةَ الجليلةَ آمنة بنت وهب أمّ حبيبنا الأعظم رسول الله ﷺ في كتابنا «نساء من التّاريخ» (ص ١٧ ـ ٧٢) فسيرتها درٌّ منظومٌ؛ وجوهرٌ منضدٌ؛ لأنّها أمّ النّبيّ محمّد ﷺ.

(٢) اقرأ سيرة السَّيدة صفيَّة بنت عبد المطَّلب في موسوعتنا «نساء من عَصْر النُّبوّة» (ص ٤١٤ ـ ٤٢١). فسيرها جمالٌ في جمالٍ في جمال.

(٣) اقرأ سيرة أبي سلمة في الباب الأوّل من موسوعتنا «فرسان من عصر النّبوّة» (ص٤٣٥ ـ ٤٤٧) ففيها فوائد جليلة.

(٤) اقرأ سيرة زيد بن حارثة في الباب الأوّل من موسوعتنا «فرسان من عصْر النّبوّة» (ص١٢٦ ـ ١٤٦) ففي سيرته مواقف لا تنسى، ومآثر لا تمحى، ومحاسن لا تستقصى.

(٥) انظر: أسد الغابة (١/ ٥٢٨) بتصرّف يسير جداً جداً، وانظر: المستدرك (٣/ ٢١٢) بتصرّف.

(٦) انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٤٣٥)؛ وقال محقّقُ الكتاب عن بازان: «ما زال هذا البابُ معروفاً بمسجدِ سيّدنا حمزة، وهو بقرب بازان المسفلة المسمّى ببازان السَّبعة آبار».

(٧) قال ابن دريد في اشتقاق حمزة: «واشتقاق حمزة من قولهم: قلبٌ حَمِيز، أي ذكيٌّ ملتهبٌ، ويقال: حمزَ فاهُ الخلُّ: إذا قَبَضَه. ويقال: حَمَزَني هذا الأمر: إذا وجدتَ له لوعة في قلبك، =

ولاحظتْه عينُ السَّعادةِ وهو لا يزالُ في المهدِ صبياً، إذْ كان رضيعَ الحبيبِ الأعظمِ حبيبنا محمّد ﷺ، أرضعتهما ثُويبةُ مولاة أبي لهب، وأرضعتْ أبا سلمةَ بنَ عبد الأسد رضي الله عنه وأرضاه.

* ومنذ أنْ بدأتْ ملامحُ سيّدنا حمزةَ تظهرُ على قسماتِهِ، أخذتْ علاماتُ السُّؤددِ والنَّجابةِ تشهدُ له، فقد عُرِفَ بين أترابِهِ بالخلقِ الحسَن، والسِّيرةِ الطَّيِّبة، والشَّمائل النَّدية التي تهزُّ الوجدان هزّةَ إعجاب، وفي مقدّمةِ هذه الشَّمائل نَجِدُ خصلةَ الجودِ والسَّخاءِ والوفاءِ وحُسْنِ الأحدوثة، وهذا ما نجد له صدىً في شِعْرِ حذيفةَ بنِ غانم في رثائهِ لعبد المطَّلب بن هاشم، حيث يذكرُ فضلَه، وفضلَ قُصيّ على قريش، وفضلَ ولده من بعده عليهم، وفي معرضِ رثائه يذكر سيّدنا حمزة بقوله:

وحمـزةُ مثـلُ البَـدْرِ يهتـزُّ للنَّـدىٰ   نَقيُّ الثِّيابِ والذِّمام منَ الغَدْرِ[1]

* وعند الدَّوحةِ القرشيّةِ المتفرّعة من عبد المطَّلب وبني عبد مناف، نجدُ حمزةَ يتوسّطها، ويتخلّقُ بشمائلها المتفرّدة الباسقة في مجتمعاتِ العربِ عصر ذاك، ونقرأ هذه المحامدَ اللطيفةَ والمناقبَ الشَّريفةَ في رثاءِ مطرود بن كعب الخزاعيّ لعبد المطَّلب وبني عبد مناف، إذ يقولُ من فائيةٍ مطربةٍ:

يـا أيّهـا الـرّجُـلُ المحـوّلُ رَحْلَـهُ   هـلاّ سـألـتَ عـن آلِ عبـدِ منـافِ
هَبَلَتْـكَ أُمُّـك لـو حَلَلْـتَ بـدارهـم   ضمنُـوكَ مـن جُـرمٍ ومـن إقـرافِ
الخـالِطيـن غنيّهـم بفقيـرِهـم   حتّـى يعـودَ فقيـرهُـم كـالكَـافـي
المنعميـنَ إذا النّجـومُ تغيَّـرتْ   والظَّـاعنيـن لـرحلـةِ الإيـلافِ
والمنعِميـن إذا الـرّيـاحُ تنـاوحَـتْ   حتّى تغيبَ الشَّمسُ في الإرجافِ[2]

= قال الشَّاعر: [وفي القلبِ حزّازٌ من الوجْدِ حامزُ]. ورجلٌ حميزُ الفؤاد: إذا كان ذكيّه». (الاشتقاق ص ٤٥ و ٤٦).

(١) السِّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (١/ ٢٣٢).

(٢) السِّيرة النَّبوية (١/ ٢٣٤ و ٢٣٥)، ومعنى «هبلتك»: أي فَقَدتْكَ، وهذا التّعبير يُقال على جهةٍ=

* ونحنُ لا نمتلكُ معلوماتٍ وافيةً عن حياةِ سيِّدنا حمزة في شبابه وفتوّته، إلا شذرات ولمحات وافانا بها ابن هشام في السِّيرةِ النَّبويّةِ العطرةِ من أنَّ حمزةَ رضي الله عنه: «كان أعزّ فتى في قريش، وأشدّ شكيمة»[1].

* هذا العزُّ الممدودُ جعله أحدَ فرسانِ أهلِ البيتِ الأشدّاء المعروفين، وأحدِ أبطالِ قريش المعدودين؛ وطبيعي أنْ يكونَ للفُرسانِ المقامُ الأوَّلُ بين أسماء الرِّجال الذين تَرِدُ أسماؤهم في تلك الأيّام، وإنْ لم يكونوا من بيوتاتٍ شهيرةٍ معروفةٍ، لها في الرّئاسة ذكْرٌ ومقامٌ، فكيف بمن جَمعَ شرف الرّئاسة إلى كمالِ الفروسيّة؟ فأعمالُ المرءِ وفروسيَّته كافيةٌ لتخليدِ اسمهِ بين المشاهير في دنيا الشُّهرة والشَّجاعة والإقدام.

* والفارسُ فَخْرُ القبيلة، لأنَّه المدافعُ عنها في الحروب، والمهاجمُ الكاسرُ للأعداء، وهو أهمُّ من الرَّاجِلِ في القتالِ، لِمَا له من أثرٍ في إحرازِ النَّصر، وفي إيقاع الرُّعب والفوضى في صفوفِ العدوّ، ولهذا فخرتِ القبائلُ العربيّةُ بفرسانِها وأبطالِها وذوي النّجدة فيها.

* وممَّا يزيدُ من رصيدِ القبيلة في المجتمع، أنْ يلمعَ بها عددٌ وافرٌ من الفرسانِ الشُّعراء، أو ثُلَّةٌ من الشُّعراء، فالفارسُ روحُ القبيلةِ وقوامُها في الحربِ والجلادِ، والشَّاعرُ فارسُ العواطف والكلام، يؤجِّجُ الحماسَ في النُّفوس، ويدفعُ الفرسانَ إلى الإقدام، وبذلك يُسْهِم في كسبِ النَّصر لقبيلته، وفي الدِّفاع

= الإغراء، وليس على جهة الدّعاء؛ كما تقول في الإغراء: تربَتْ يداك، ولا أبالك، وأشباهها. و«إقراف»: أي منعوك من أنْ تُنكِحَ بناتِكَ أو أخواتك من لئيم، فيكون الابن مقرفاً لِلُؤم أبيه، وكرم أمّه، فيلحقك وَصْمٌ من ذلك. والإقراف: مقاربة الهجنة والدَّناءة. و«الظَّاعنين»: أي الرَّاحلين، و«تناوحت»: تقابلت؛ يُقال: تناوحَ الجبلان: إذا تقابلا. و«الرّجّاف»: الرَّجَّاف هنا البحر، وسمي الرَّجَّاف لأنّه يرجف. ومن أسمائه أيضاً كما ذكر السُّهيليّ: خَضَارة، والدّأماء، وأبو خالد. (الرّوض الأنف ١/ ٢٠٤)، وانظر: (المنمّق ص٤٦ و٤٧).

(١) السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (١/ ٣٦١)، ومعنى «شكيمة»: الأنفة والانتصار من الظُّلم.

عنها بسلاحِهِ الموزون المقفّىٰ.

* كان لسيّدنا حمزةَ بن عبد المطلّب فرسٌ يُقالُ له «الورد[(١)]» كان يقاتلُ عليه، وفيه يقولُ حمزةُ:

ليسَ عندي إلاّ سلاحٌ وورْدٌ ... قارِحٌ من بناتِ ذي العُقّال

أتّقي دونَه المنايا بنفسي ... وهو دوني يغشى صُدورَ العَوالي

جُرشُعٌ ما أصابتِ الحربُ منه ... حين تحمي أبطالَها لا يُبالي

وطَريرٌ كأنَّه قَرنُ ثورٍ ... ذاكَ لا غيرَ ذاكم جُلُّ مالي

فإذا ما هلكتُ كان تُراثي ... وسِخَالاً محمودةً من سِخَالي[(٢)]

* كما كان سيف سيّدنا حمزةَ من السُّيوف المشهورة في مضمار السِّلاح والعدّة، وكان يسمى «اللَّيَاح» وقال رضي الله عنه يومَ أحد بعد أن قتل عثمانَ بنَ أبي طلحة ومعه اللواء، وقَتَلَ قبله عتبةَ بن ربيعة باللَّياح في بدر:

قَدْ ذاقَ عثمانُ يومَ الحرِّ من أُحدٍ ... وقْعَ اللَّياحِ فأودىٰ وهو مذموم

وذاقَ عتبةُ في بَدْرٍ وقيعَتَهُ ... تبّاً لمصرعِ شيخٍ ثَمَّ مذموم

وجمعُ فِهرٍ وقد جاءتْ مسوّمةً ... لو ذادَ عنها وقاعُ الموتِ تسويم[(٣)]

---

(١) قال ابن سعد: «أهدىٰ تميم الدّاريّ لرسول الله ﷺ فرساً يقال له الورد، فأعطاه لعمر بن الخطّاب» (طبقات ابن سعد (١/ ٤٩٠)، واقرأ سيرة تميم الدّاريّ في كتابنا: «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص٩٠٣ ـ ٩٣٠).

(٢) انظر: المنمّق في أخبار قريش (٤٠٦ و٤٠٧)، ومعنى «قارح»: قرحَ الفرس، صار قارحاً أي شقّ نابه وطلع، وذلك حين تمَّتْ له خمسة أعوام من عمره. و«ذو العقال»: فحلٌ من خيول كان لحوط بن أبي جابر اليربوعيّ، وهو أبو داحس الفَرس المشهورة. و«جُرشُع»: بضم الجيم والشّين: العظيم من الإبل والخيل. و«الطّرير»: الشّاب؛ وذو المنظر والرّواء و«سخِالاً»: جمع سخلة وهي ولد الضّأن، ويقال أيضاً للولد المحبوب إلى والديه: السَّخل والسّخال، وهذا المعنى هو المراد هنا.

(٣) المنمّق (ص ٤١١) ومعنى «الحرّ»: اشتداد الحرب. و«اللِيَاح»: بفتح اللام، وكسرها. و«عتبة»: هو عتبة بن ربيعة العبشميّ سيّد من سادات قريش الكفرة ومن المبشّرين بالنّار. =

* كان حمزةُ وإخوتُهُ مجالَ فَخْرٍ للعربِ أجمعين، فقد ذكروا أنَّ أكثمَ بن صيفي أحدُ حكماء العرب وقضاتهم دخل بطحاء مكّة فرأى بني عبد المطَّلب كأجملِ ما يكون من النَّاسِ فقال: «يا بني تميم، إذا أرادَ اللهُ أنْ ينشىءَ دولةً أنبتَ لها مثلَ هؤلاء، هذا غرسُ اللهِ، لا غرس الرّجال»[1].

* وأخبر الكلبيُّ بأنَّه: «لم يكنْ في العرب بنو أبٍ مثل بني عبد المطَّلب أشرفَ منهم، ولا أجسمَ، تشربُ أنوفهم قبل شفاههم».

* وساق أسماءهم قُرَّةُ بن حَجْل بن عبد المطَّلب في أبياتٍ سينيةٍ جميلةٍ افتتحها بذكرِ ضرارٍ وحمزةَ وعبَّاسٍ فقال:

اعـدُدْ ضِـراراً إنْ عـدَدْتَ فتىً نَـدىً ... والليــثَ حمــزةَ واعــددِ العبَّـاسَـا

وختمها بقوله مفتخراً بهم:

مـا فـي الأنـامِ عمـومـةٌ كعُمـومتـي ... خَيــراً ولا كــأُنــاسِنــا أُنَّــاسَــا[2]

* كان حمزةُ كريماً شهماً ذا نخوةٍ ومروءة، يتجاوزُ عمَّن يخطىءُ، ويعفو عند المقدرةِ، وهذا خُلُق الفُرسان الفتيانِ من رجالِ سادتنا أهلِ البيت، وفي مقدمتهم سيّدنا حمزة رضي الله عنه.

* ذكر ابنُ رشيقٍ في «العُمدة» شهامةَ حمزةَ ومروءته فقال: «هجا عبد الله بنُ الزَّبعرىٰ السَّهميُّ بني قُصي، فرفعوه برِمَّتِهِ إلى عتبةَ بنِ ربيعةَ خوفاً من هجاءِ الزُّبيرِ بنِ عبد المطّلب، وكان شاعراً مُفْلِقاً، شديدَ العارضةِ، قذعَ الهجاء، فلمّا وصل عبد الله إليهم، أطلقه حمزة بن عبد المطلب، وكساه، فقال:

= و«وقيعته»: يعني وقعة اللياح. و«فهر»: يعني قريشاً.

(١) المنمّق (ص٣٤ و٣٥) بشيء من التّصرّف اليسير.

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٩٤) باختصار. وانظر: المنمّق (ص٣٥ و٣٦)، وفيه الخبر أوسع من الطّبقات قليلاً.

لَعمرِكَ ما جاءتْ بِنُكْرٍ عشيرتي ... وإنْ صالحتْ إخوانَها لا ألومُها
فودَّ جناةُ الشَّرِّ أنَّ سيوفَنا ... بأيمانِنَا مشلولةٌ لا نَشيمُها
وإنَّ قُصيّاً أهلُ مجدٍ وعزَّةٍ ... وأهلُ فَعَالٍ لا يُرامُ قديمُها
هُمُ منعُوا يومَيْ عُكاظٍ نَساءَنا ... كما منعَ الشَّولَ الهِجَانَ قُرومُها

وكان الزُّبيرُ غائباً بالطَّائفِ، فلمَّا وصلَ إلى مكَّةَ، وبلغَه الخبر، قال:

فلولا نحنُ لم يَلْبَسْ رجالٌ ... ثيابَ أعزَّة حتَّى يموتوا
ثيابهمُ سِمالٌ أو طِمارٌ ... بها وَدَكٌ كما دَسِمَ الحَمِيتُ
ولكنّا خُلقنا إذْ خُلِقْنا ... لنا الحَبِراتُ والمسكُ الفتيتُ»[1]

العَمُّ المُوفَّقُ:

* يُعتبرُ حمزةُ بن عبد المطَّلب من أترابِ ابن أخيهِ محمَّدٍ ﷺ، فقد عاش فترةَ الطُّفولة وتلاها الشَّبابُ وهو يرقُبُ عن كثَبٍ الأخلاقَ الفاضلةَ التي يتحلّى بها محمّدٌ ﷺ، فأخذ يكنُّ له الحبَّ والإعجابَ، وكان ممَّنَ خطَبَ خديجةَ بنتَ خُويلد لمحمَّدٍ ﷺ قبل البعثة، فقد خرجَ حمزةُ وإخوته وفيهم أبو طالب فخطبوا خديجةَ لمحمَّد ﷺ فتزوجها.

* قال السُّهيليُّ: «مشى رسولُ الله ﷺ إلى خُويلد بن أسد مع عمِّه حمزةَ رضي الله عنه»[2].

* أكَّدَ ابنُ إسحاقَ بأنَّ رسولَ الله ﷺ ذكَرَ لأعمامِه زواجه من خديجةَ فقال: «فخرجَ معه حمزة بن عبد المطَّلب حتَّى دخل على خُويلد بن أسد،

---

(١) العمدة (١/ ٩٠ و٩١)، ومعنى «لا نَشيمها»: لا نغمدها. و«الشّول»: من النّوقِ ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فجفّ ضرعُها. و«الهجان»: الكريمة. و«القروم»: الفحول. و«السِّمال والطِّمار»: الثّوبُ البالي. و«الودك»: دسم اللحم. و«الحَميت»: وعاء السَّمن. و«الحَبِرات»: جمع حِبْرة أو حَبَرة: ضربٌ من برود اليمن منمَّر. و«المسك الفتيت»: المسك المقطّع المفتت قطعاً صغيرة.

(٢) الرّوض الأنف بهامش السّيرة النّبويّة (١/ ٢١٢)، والسّيرة الحلبيَّة (١/ ٢٢٥).

فخطَبَه إليه فتزوجها»(١).

* كان حمزةُ بنُ عبد المطَّلب يعيش في مكَّةَ حياةً بعيدةً عن الصَّخب، فقد أحبَّ الصَّيدَ ومطاردةَ الوحش بعيداً عن مكّةَ، فإذا آذنتِ الشَّمسُ بالغروب، عاد إلى أهله مسروراً ناعمَ البال خَلِيَ الذّهنِ من المشكلات والهموم.

* خلال هذه الأثناء كان محمدٌ ﷺ قد نزلَ عليه الرُّوحُ الأمينُ، وأبلغَه أنَّه رسولُ ربِّ العالمين، فقام رسولُ الله ﷺ يدعو إلى الله عزَّ وجلَّ في قوم أُشربتْ قلوبهم الكُفْرَ، وغدا الضَّلال فيهم داء كاد أن يكون عقيماً.

* كثُرَ الشَّرُّ وتزايدَ بين النَّبيِّ ﷺ وبين المشركين حتى تباعدَ الرِّجال، وأضمروا العداوةَ والحقْدَ، وأكثرتْ قريش ذِكْرَ رسولِ الله ﷺ بينها، وحضَّ بعضُهم بعضاً على حربِهِ وعداوتِهِ ومقاطعتِهِ.

* وحينما بُعِثَ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ كان له أربعةُ أعمام، قال ابنُ حبيب: «بعثَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ وله أربعةُ أعمام: حمزة والعبَّاس؛ وأبو طالب، أبو لهب، فاتَّبعَه اثنان، وخالَفَه اثنان، ففضَّلَ اللهُ فرقةَ التي تبعَتْهُ على التي خالفَتْهُ...»(٢).

* وتابعَ ابنُ حبيب حديثه عن أعمام النَّبيّ ﷺ وعمَّنْ أسلمَ منهم فقال: «ولم يسلمْ من أعيانِ بني عبد المطّلب إلا حمزةُ والعبَّاسُ رضي الله عنهما»(٣).

* نلمحُ صورةَ الأعمام هذه أكثرَ وضوحاً ودقّةً عند ابنِ عساكر، إذ يروي عن أبي سعيد الخُدريِّ أنَّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بُعِثْتُ ولي أربعُ عمومة، فأمَّا العبَّاسُ فيكنى بأبي الفَضْل، ولولده الفضل إلى يوم القيامة، وأمَّا حمزةُ فيكنى بأبي يعلىٰ، فأعلى الله قَدْرَهُ في الدُّنيا والآخرة، وأمَّا عبد العزّى فيكنى

---

(١) السّيرة النّبويّة وبهامشها الرّوض الأنف (١/ ٢١٢).

(٢) المنمق (ص ٢١). وقال القسطلانيّ: «كان العبّاسُ أصغرَ أعمامِهِ ﷺ؛ ولم يسلمْ منهم إلا هو وحمزة» (المواهب اللدنية ٢/ ١١١).

(٣) المنمّق (ص٣٦). وانظر قريباً من هذا: المواهب اللدنيّة (٢/ ١١١).

بأبي لهب، فأدخله الله النّار وألهبَها عليه، وأمّا عبد مناف فيكنى بأبي طالب، فَلَهُ ولولده المطاولة والرّفعة إلى يوم القيامة»(١).

* ونقرأ في مفاخرةٍ لأبي جعفر المنصور ـ وهو من أحفادِ سيّدنا العبّاس ـ يقولُ ما مفاده من خلال مكاتباته المشهورة مع محمَّدِ بنِ عبد الله بن الحسن: «ولقد علمتَ أنَّ الله تبارك وتعالى بعثَ محمّداً ﷺ وعمومتُهُ أربعةٌ، فأجابه اثنان أحدهما أبي ـ يعني العبّاس ـ وكفَرَ به اثنان أحدهما أبوك ـ يعني أبا طالب ـ»(٢).

* ونستفيدُ من بدائعِ الفِكرِ وعجائب الاستنتاج بما ندتْ به قريحةُ الحافظ ابن حجر رحمه الله إذْ قالَ: «من عجائب الاتّفاق أنَّ الذين أدركهم الإسلام من أعمام النَّبيّ ﷺ أربعةٌ: لم يسلمْ منهم اثنان، وأسلمَ اثنان؛ وكان اسمُ مَنْ لم يسلمْ ينافي أسامي المسلمين، وهما أبو طالب واسمهُ عبد مناف، وأبو لهب،

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٣). وقال ابنُ عساكر وابنُ حجر عن أبي طالب: «كان أبو طالب بالنَّبيِّ ﷺ رفيقاً شفيقاً، يمنعُه من مشركي قريش».
وقال: «مرض أبو طالب فعادَه النَّبيُّ ﷺ، فقال: يا بن أخي، ادعُ لي ربّك الذي تعبده أنْ يعافيني. فقال النَّبيُّ ﷺ: «اللهمّ اشْفِ عمي» فقام أبو طالب كأنّما نشطَ من عقال، فقال: يا بن أخي، إنَّ ربَّك الذي تعبدُه ليطيعك. قال: «وأنتَ يا عمّاه، إنْ أطعتَ الله ليطيعك». وفي رواية: «وأنت يا عمّ، إنْ أطعت الله أطاعك».
وعن العبّاس أنّه سأل النّبيّ ﷺ: ما ترجو لأبي طالب؟ قال: «كلّ الخير أرجو من ربّي». (مختصر تاريخ دمشق ٢٩/ ٢٣ و٢٩ و٣٢)، و(الإصابة٤/ ١١٦).

(٢) التّذكرة الحمدونيّة (٣/ ٤١٦)، والإصابة (٤/ ١١٨). وقال ابن حجر رحمه الله عن أبي طالب ما نصّه ورسمه: «... وإنا نُسلِّمُ أنّه نَصَرَهُ، وبالغَ في ذلك، لكنّه لم يتبعِ النّورَ الذي أنزِلَ معه، وهو الكتابُ العزيزُ الدّاعي إلى التّوحيد، ولا يحصل الفلاح إلا بحصول ما رتب عليه من الصّفات كلّها». (الإصابة ٤/ ١١٨). وانظر: (سبل الهدى والرّشاد ٢/ ٥٦٨).
ونقل ابنُ حجر عن ابن عساكر قوله: «قال ابنُ عساكر في صدر ترجمته: قيل: إنَّه أسلم، ولا يصحّ إسلامه». (الإصابة ٤/ ١١٦). وساق ابنُ حجر كثيراً من الأحاديث والأقوال التي تدعمُ ذلك، فمن شاء المزيد فليراجع المصدر السّابق.

واسمهُ عبد العزّى، بخلاف مَنْ أسلم وهما حمزةُ والعبّاس»[1].

قصَّةُ إسلامِ حَمزَةَ:

* نقرأُ في كثير من المصادرِ والمراجعِ المعتمدةِ الموثوقةِ بأنَّ سيّدنا حمزةَ بنَ عبد المطّلب قد أسلمَ في السَّنةِ الثَّانيةَ من المبعث ـ أو السَّادسة ـ وأنَّه قد سبقَ أخاهُ العبَّاس إلى دوحةِ النَّجاة وسفينتها، الدَّوحة الإيمانية المتوّجة بـ «لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله».

* وتدلُّنا المصادرُ أيضاً على أنَّ سيّدنا حمزةَ قد فاز بالشَّهادة في سبيلِ الله في غزوة أحُدٍ، بينما كان العبَّاس في مكَّة لا يزالُ على دين قومه، لم يعلنْ إسلامه أو يشهره أمامَ الملأ القرشيّ أو غيره.

* أمَّا كيف أسلم سيّدنا حمزة، فإنَّ لإسلامه قصّةً شائقةً تشتهيها الأنفسُ، وتعشقُها الأسماع، وتتفتَّحُ لها القلوبُ الغافيةُ بين الأضلاع، لأنَّ قريشاً علمت أنَّه لما أسلم حمزة أصبح النَّبيُّ ﷺ في عزٍّ وامتناعٍ، وأنَّ أذاهم قد صار من سقطِ المتاع، وأنَّ دِينَ الله عزَّ وجلَّ سيكون في علوٍّ وارتفاع.

* كان سيّدنا حمزةُ رضي الله عنه أشجعَ رجلٍ في قريش فقد أعزَّ الله تعالى به دينَه، وأعلا كلمته، وأيّد نبيّه محمّداً ﷺ، وقوّىٰ جانبه، ورفعَ راية التّوحيد.

* ففي غمرة الأحداث في مطلع شمس الرّسالة المحمّديّة، عرف الحبيبُ الأعظمُ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ أنَّ رسالته رسالةَ الكفاح الصَّبور، ولا مجال للرَّاحة في أداء واجباتها، وعرف الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ أنّه سيتحمّلُ من فوادح البلاء وشدائد الإيذاء بالقول والفعل من المشركين، ما تنوء بحمله الجبال الرّواسي.

* من الطَّبيعي أن يستجيبَ بعضُ النَّاس إلى داعي الإيمان، ويؤمنوا بالله

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٣٦)، المكتبة السّلفية ـ ط٤ ـ القاهرة ـ ١٤٠٨ هـ. وانظر: سبل الهدى والرّشاد (٢/ ٥٦٨). أقول «هذه الفكرة من بدائع التّوفيقات، وكمال الذّهن».

العزيز الحميد، إذ كان النَّبيُّ ﷺ يدعو إلى الله عزَّ وجلَّ، لا يفتر، وكان يلمُّ بالبيت الحرام كثيراً، يطوفُ به متعبّداً إلى الله عزَّ وجلَّ، والملأ من قريش حول الكعبة يسمرون في هجرٍ وعبثٍ، وكانوا قد تسامعوا بدعوته، وعرفوا عدداً ممَّن آمن به، فلم ينكروا بادىء الأمر، وإنّما كانوا إذا مرَّ بهم يقولون في استهزاء: «إنَّ غلامَ بني عبد المطَّلب ليُكَلَّمُ من السَّماء». ولم يكنْ منهم إليه كبير أذى ولا مناكرة.

* ولكنْ ما أن بدأَ النَّبيُّ ﷺ يبلّغُ عن ربّه ما أمره به، حتَّى انبثقت ثلَّةٌ من المعاندين والمستهزئين يتزعّمهم أبو جهل بن هشام، وأخذوا يكذّبون القرآن، ويعاندون النَّبيّ ﷺ، ويؤذونه، ويوقعون العذاب بمن تبعه من سائر المسلمين.

* امتدت يدُ أبي جهل الآثمة لتؤذيَ رسولَ الله ﷺ، وعندها برزَ حمزةُ رضي الله عنه ليردَّ هذه اليد الآثمة ويشلَّها، ويوقع غضبَه بصاحبها، فقد كان ردُّ حمزةَ عنيفاً، إذ لم يرض لأحدٍ من أهلِ بيته أن يُضام، فكيف بمحمّد ﷺ الذي عُرِفَ بالأمانة والخلق القويم بين الأنام، وبين أهلِ البيت خاصة؟:

آلَ النَّبيِّ بِمَنْ أو ما أشبِّهُكم ... لقد تعذَّرَ تشبيهٌ وتمثيلُ
وهل سبيلٌ إلى مدحٍ يكونُ به ... لأهل بيتِ رسولِ اللهِ تأهيلُ
إنَّ المودّةَ في قربِ النَّبيِّ غِنىً ... لا يستميلُ فؤادي عنه تمويلُ

* كان حمزةُ رضي الله عنه وقتَها مشغولاً بصيده وقنصه، لا يلتفتُ كبيرَ التفاتٍ إلى ما يجري حولَه منْ أَنْباءِ البعثةِ النَّبويّة، وأخبارِ الرسالة المحمّدية، وكذلك ما كان يصلُ إلى النَّبيّ ﷺ من أذيّةِ المشركين، إلى أن أوذي ﷺ يوماً، فكانت هذه الأذية من أسباب إسلام حمزة رضي الله عنه وهدايته.

* قال مصنّفُ «السِّيرة الحلبيّة» عليُّ بنُ برهان الدِّين الحلبيّ، وغيرُهُ من كُتَّابِ السِّيرةِ ما محصّله: «وممَّا وقع للنَّبيِّ ﷺ من الأذية ما كان سبباً لإسلام عمّه حمزةَ رضي الله عنه، وذلك أنَّ أبا جهل عدوّ الله، مرَّ برسولِ الله ﷺ عند الصَّفا، فآذاه وشتمه، ونال منه ما يكرهه، ورماهُ بالبهتان أمام النَّاس، وصبَّ

التُّرابَ على رأسه الشَّريف، فلم يكلمْهُ رسولُ الله ﷺ، فهو ﷺ أسمى من أنْ يجاريَ سفيهاً حقوداً كأبي جهل هذا، وفي ذلك الحين كانت فتاة في مسكن لها تسمعُ ذلك وتبصرُهُ، وكانت هذه الفتاةُ النَّبيهةُ جاريةً لعبدِ الله بن جدعان، فساءَها ما رأتْه وما سمعتْه من عدوّ الله أبي جهل الذي انصرفَ إلى نادي قريش، فجلس معهم يحدثهم.

ومن عجائب الأمور أنَّ هذه الجاريةَ لم تكنْ مسلمةً، غير أنّها كرهت أن يُصابَ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ بسوء، وكانت تعرفُ حمزةَ، فقررت أنْ تخبرَهُ بما حدث آنفاً من عدوّ الله أبي جهل.

ولم يلبثْ هذا القرارُ بنفسها زمناً طويلاً، لأنَّ حمزةَ أقبل متوشحاً سيفَهُ، راجعاً من قنصه، فمرَّ على تلك الجارية، فأخبرته بما حدثَ، وقالت له: يا أبا عمارة، لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمَّد ﷺ من أبي جهل آنفاً، وجدَهُ هاهنا جالساً فآذاه وسبّه وبلغَ منه ما يكره، ثمَّ انصرف عنه إلى نادي قريش، ولم يكلمْهُ محمّدٌ ﷺ.

فقال لها حمزة: أنتِ رأيتِ هذا الذي تقولين؟

قالت: نعم يا أبا عمارة، اذهبْ وانتصِرْ لابن أخيك».

* وما أجمل أنْ نسوقَ هذه التَّغريدة في هذا المقام الجميل:

وقفَ اللعينُ على طريقِ المُصْطفى الهادي الأمين
بالسَّبِّ حقَّاً نالَ منه أمامَ كُلِّ المشركين
إحدىٰ الجَواري قد رأتْ بالعَيْنِ ما فعل اللَّعين
عزمتْ على إبلاغِ حمزةَ بالحقيقةِ واليقين
في التَّوِّ حمزة عائداً من صيده كالعائدين
قالتْ له أدركْ أبا جهلٍ بعزمِ القادرين
فلقَدْ أساءَ إلى الأمين أمامَ كلِّ النَّاظرين

* ونتابعُ قصّةَ إسلام حمزةَ رضي الله عنه: «استمعَ حمزةُ من الجارية

القصّةَ كاملةً، وفي روايةٍ: أنَّ حمزةَ لمّا رجعَ من صيده إذ امرأتان تمشيان خلفه، فقالت أحداهما: لو علمَ ماذا صنعَ أبو جهل بابن أخيه أقصرَ عن مشيته؛ فالتفت إليهما وقال: ما ذاك؟

قالت: أبو جهل فعل بمحمّد ابن أخيك كذا وكذا..

فاحتمل حمزة الغضب، ودخل المسجدَ وقد احمرَّ وجهه، فرأى أبا جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتّى قام على رأسه، فرفع قوسَه، وضربهُ ضربةً شديدةً فشجَّهُ شجّةً منكرةً، وقبل أنْ يتحرَّكَ أحدٌ من المجلسِ قال لأبي جهل: ويحكَ، أتشتمه؟ فأنا على دينهِ أقولُ ما يقولُ، فَرُدَّ عليَّ ذلك إن استطعت.

وفي لفظٍ: أنَّ سيّدنَا حمزةَ لمَّا قام على رأسِ أبي جهل بالقوس، صار أبو جهل يتضرَّعُ إليه ويقول: سفَّه عقولنا، وسبَّ آلهتنا، وخالفَ آباءنا وقال لنا: مَنْ أسفَهُ منكم؟ تعبدون الحجارة منْ دونِ الله!.

فقامت رجالٌ من بني مخزوم عشيرة أبي جهل إلى حمزةَ لينصروا أبا جهل، فقالوا: ما نراك إلاَّ قد صبأت!

فقال حمزةُ: ويحكم، وما يمنعني وقد استبان لي منه أنَّه رسولُ الله، أنا أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، وأنَّ الذي يقوله حقّ، واللهِ لا أخافُ أحداً، فامنعوني إنْ كنتم صادقين.

فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنّي واللهِ قد أسمعتُ ابنَ أخيهِ شيئاً قبيحاً»[1].

* والآن دعونا نقرأ قصّة إسلام حمزة في هذه اللاميّة الجميلة المعبّرة:

---

(١) السّيرة الحلبيّة (١/ ٤٧٧ و٤٧٨)، وأسد الغابة (١/ ٥٢٨ و٥٢٩)، والسّيرة النّبويّة لدحلان (١/ ٢١١ و٢١٢) مع الجمع والتّصرّف. وانظر: أسباب النزول للواحديّ (ص١٨٩)، والمستدرك (٣/ ٢١٣).

الغيـظُ يمـلأُ صـدرَ حمـزةَ مسَّـهُ شِبْـهَ الـذُّهـول
قـد كـان عمّـاً للنَّبـيِّ مـنَ الـرِّجـالات الفُحـول
فـوراً تـوجَّـهَ نحـو نـادي القـومِ فـي غضـبٍ يقـول
أيـن الـذي لـم يَـرْعَ حـقَّ قـرابتـي أيـن الأصـول
وانقـضَّ فـوراً مثـل صـاعقـةٍ علـى الـوغـدِ الجهـول
فـأصـابـه فـي رأسـه قـد صـار يهـذي مـن خبـول
ثـارَ الـرِّجـالُ وكـادَ يحـدثُ بينهـم ضَـرْبَ النّصـول
لكـنْ أبـو جهـلٍ ينـاديهـم جميعـاً إذْ يقـول
فلتتـركـوه فقـد أسـأتُ إلـى الأميـنِ مـن الفضـول
قـالـوا لحمـزةَ أنـتَ منّـا فـي العقيـدةِ والميـول
لِـمَ تنصُـرَنَّ محمّـداً فـأَجَـابَ فـي صـوتٍ مَهُـول
إنّـي بِـديـنِ محمّـدٍ آمنـت بـالـدّيـن العُـدول
هـذا هـو الـدِّيـنُ الـذي يـرضـاهُ أربـابُ العُقُـول(١)

* وعندما أسلم حمزةُ علمَ المسلمون أنّه ستقوى به شوكةُ الإسلام، يُعزُّ به المؤمنون، وتعلم قريش أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد عزَّ وامتنعَ، وأنَّ عمَّه حمزةَ سيزدادُ له منعة، فيكفُّون عن بعض ما كانوا ينالون منه.

* لقد كان حمزةُ بنُ عبد المطَّلب رضي الله عنه ممن يُحْسَبُ حسابُه، ويُخشىٰ بأسُهُ، وكانت غضبتُه المُضريّةُ هذه على أبي جهل خيراً وبركةً على المسلمين، وعلى نفسه، إذ انتظمَ بسببها في صفوفِ أهلِ الإسلام، فكانت شجاعتُهُ وقوّته كلّها بعد ذلك في سبيلِ إعلاء كلمة الله عزّ وجلّ، وصدّ أذية الطُّغاة المعتدين من ملأ قريش ممن أعْمَاهُم السُّلطان والجاه.

* كشَفَ ابنُ عبّاس رضي الله عنهما اللثامَ عن هذا الخبر الجميل فقال: «إنَّ هذه الواقعة سببٌ لنزولِ قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا

(١) تغريدة السّيرة النّبويّة (١/ ١٦٦) بتصرّف يسير.

﴿يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾[الأنعام: ١٢٢]، يعني حمزة رضي الله عنه؛ وقوله تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ﴾[الأنعام: ١٢٢] يعني أبا جهل»(١).

* وتؤكّد بعض كتب السّيرة بأنَّ سيّدنا حمزةَ رضي الله عنه قد استمرَّ على إسلامه على الرّغم من وسوسة الشّيطان له. فقد قال لنفسه عندما رجعَ إلى بيته: «أنتَ سيّدُ قريش، اتّبعتَ هذا الصّابىء وتركتَ دين آبائك؟! الموتُ خيرٌ لك ممّا صنعتَ»؛ ثمّ قال: «اللهمَّ إنْ كانَ رشداً فاجعلْ تصديقَه في قلبي، وإلاّ فاجعلْ لي ممّا وقعتُ فيه مخرجاً».

* فبات بِلَيْلَةٍ لم يبتْ بمثلها من وسوسة الشّيطان حتّى أصبح الصّباحُ، فغدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا بن أخي؛ إنّي قد وقعتُ في أمر لا أعرفُ المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري أَرُشْدٌ هو أم غيٌّ شديد». فأقبل عليه رسولُ الله ﷺ فذكّرهُ ووعظَهُ، وخوّفَهُ وبشَّرهُ، فألقى اللهُ تعالى في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ فقال: «أشهد أنّك لصَادق، فأَظْهِرْ يا بن أخي دينكَ، فوالله ما أحبّ أنّ لي ما أظَلّته السّماء، وأنا على ديني الأوّل»(٢).

* سُرَّ رسولُ الله ﷺ بإسلام حمزةَ سروراً كبيراً، لأنّه كان أعزّ فتى في قريش، شهماً، شجاعاً، ومن ثمّ لمّا عرفت قريش أنّ رسولَ الله ﷺ قد عزَّ كفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه:

شَعَــرَ النَّبــيُّ وصَحْبُــهُ بــالاعتــزازِ كمسلميــن
أَنْ صَــار حمــزةُ مسلمــاً هــذا هــو النَّصــرُ المبيــن
المشــركــون أصــابهــم ذَعــرٌ فبــاتــوا حــائـريــن

* وتحتفظُ كتبُ السِّيرة في ثناياها بأنَّ حمزةَ رضي الله عنه قد أنشدَ بعد أَنْ أسلمَ قصيدةً فائيةً مطلعُها:

---

(١) انظر: السّيرة الحلبيّة (١/ ٤٧٨)؛ وانظر: تفسير ابن عطيّة (ص ٦٥٩)، وأسباب النُّزول للواحديّ (ص ١٨٩)، والسّيرة النّبويّة لأحمد زيني دُحلان (١/ ٢١٣).

(٢) السّيرة النّبويّة لدحلان (١/ ٢١٢ و٢١٣)، والسّيرة الحلبيّة (١/ ٤٧٨) مع الجمع بينهما.

حمـدتُ اللهَ حيـن هـدىٰ فُـؤادي إلـى الإسـلامِ والـدِّيـن الحنيـفِ
لـديـنٍ جـاءَ مـن ربٍ عـزيـزٍ خبيـرٍ بـالعبـادِ بهـم لطيـفِ[(١)]

* وقال الحاكم في «المستدرك» في كتاب معرفة الصَّحابة: «فكان حمزةُ ممَّنْ أعزَّ اللهُ به الدِّين».

بركَتُهُ عَلَىٰ الإِسْلاَم:

* أصبح من المعلوم لدينا أنَّ حمزةَ بنَ عبد المطَّلب وأخاه العبَّاس كانا من أترابِ الحبيبِ المصطفى الصَّادق المصدوق ﷺ، وفي هذا التّوافق من الأسرارِ اللطيفةِ، والموافقاتِ العجيبةِ، ما لا يخفى على كلّ ذي بصيرة، فقد كان من أسباب هذا التَّوافق أَنْ نَعِمَ حمزةُ والعبّاسُ بالإسلام، ونبيِّ الإسلام، وغدا كلاهما يُذكرُ على المنابر في جميع أنحاء الأرض، ويترضّى عنهما الكبيرُ والصَّغيرُ والقريبُ والبعيدُ.

* فأمَّا سيّدنا العبّاسُ فقد تأخَّرَ عن أخيهِ حمزة، وأمّا سيدنا حمزةُ فقد كان من ثلّة السَّابقين إلى الإسلام، ومضى في طريقِ الإيمان سعيداً رغيداً، وأخذ يذود عن الدَّعوة ذَوْدَ النُّبلاء حتى بلغَ مقاماً بارزاً لم يبلغْهُ غيره من المسلمين؛ فهو سيّد الشُّهداء بشهادة سيّد الأنبياء حبيبنا وشفيعنا محمّد رسول الله ﷺ، أضفْ إلى ذلك كلّه أنّه أسدُ الله وأسدُ رسوله ﷺ، كان إسلامه عزّاً للمسلمين، ومنعةً وقوةً للنّبيّ ﷺ، أُخِذَتْ به قريش فأصابها المقيمُ المقعد، وشَرِقَتْ بإسلامه فكان شجّاً في حلاقيمها، فهاهو ذا قد أذلَّ كبرياءها، وقتل كبراءها وأكابرها ـ كما سنجلو ذلك ـ وظهرتْ به الدّعوة بعد مدّة من استخفائها،

---

(١) سبل الهدى والرّشاد (٢/ ٤٤٥)، والسّيرة النّبويّة لأحمد زيني دحلان (١/ ٢١٣ و٢١٤).
وتعدُّ هذه القصيدة الفائية تسعة أبيات في سُبل الهدى والرّشاد، وفي نسبتها لسيّدنا حمزة نظر، ولعلّها منسوبة إليه لأنَّ علائم الصّناعة واضحة عليها، وهذه القصيدة موجودة في بعض كتب التَّصوُّف والآداب والأخلاق، وفيها زيادة عما ورد في السّيرة بعد البيت الأوّل:
حمـدتُ الله ربّـي إذ هـدانـي إلـى الإسـلام والـدّيـن الحنيـف
فيـذكـرهُ لسـانـي كـلَّ وقـت ويعـرفُـه فـؤادي بـاللطيـف

وأعلنت بصوته كلمة الحقّ بعد استتارها، وجهر بالتّكبير لله عزَّ وجلّ على سمع طغاة الشِّرك وساداتهم، فأراهم حقارةَ عقولهم في حقارة معبوداتهم، وأراهم عزَّة الحق وانتصاره، وذلّة الباطل واندحاره.

* ومن اللافتِ للنَّظر أنَّ إسلام سيّدنا حمزة كان بركةً على المسلمين الأوّلين، إذ دخل في الإسلام بُعيد حمزة ثاني الخليفتَيْن، فاروق الإسلام، وعبقري الدُّنيا، وقاهر الفُرس والرّوم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

* كان إسلام سيّدنا عمر بعد إسلام حمزةَ رضي الله عنهما بثلاثة أيّام، وكان إسلام عمر يمثّل خصائصه الذّاتية من قوةٍ وشجاعةٍ وجرأةٍ وصراحةٍ ووضوحٍ وفطنةٍ، فقد أسلم إسلامَ الأقوياء في كلّ شيء.

* وقصّةُ إسلام عمر قصّة مشهورة عند معظم النّاس، كما أنَّ شجاعةَ سيّدنا حمزة يوم أنْ أسلمَ عمر معروفة أيضاً، إذ وقف عمرُ يومَ أسلمَ على باب الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ، وضربَ البابَ على المسلمين وهو متوشحٌ سيفَه، فقيل: من هذا؟.

قال: عمرُ بنُ الخطّاب، وكانوا يعرفون شدَّته على المسلمين، ولكنّهم لم يعلموا أنَّه جاء لينعمَ بظلالِ الإسلام معهم، ولم يجترىءْ أحدٌ منهم أنْ يفتحَ الباب، فقيل للحبيبِ المصطفىٰ الهادي البشير ﷺ: يا رسولَ الله هذا عمرُ بنُ الخطّاب متوشحاً سيفه.

* وهاهنا برزَ أسدُ اللهِ حمزة[1] في شجاعةٍ ممزوجةٍ بالأدبِ، وقال أمامَ النّبيِّ ﷺ: «ائذنوا له فإن كان يريدُ خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريدُ شرّاً قتلناه بسيفه».

* فقال رسول الله ﷺ لرجلٍ: «إيذن له». فأذن له، ودخل عمرُ وقد أخذ

(١) قال الثَّعالبيُّ: «كان يُقال لحمزةَ بنِ عبد المطّلب رضي الله عنه: أسد الله، لتقدّم قدمه في الحرب، وشدّة إقدامه على أعداءِ رسول الله ﷺ، وكان يقول يومَ بدر: أنا أسدُ الله، وأسدُ رسولِ الله...» (ثمار القلوب ص ٢١) بتصرّف يسير.

حمزةُ والزُّبير بضبعَيْهِ حتّى أوقفاهُ بين يدي رسولِ الله ﷺ، فأخذ ﷺ بحجزته، ثم جَبَذَهُ جبذةً شديدةً نَتَرَهُ بها نترةً، فما تمالكَ عمرُ نفسَه أنْ وقعَ على ركبتَيْهِ وارتعدتْ فرائصُهُ من هيبةِ رسولِ الله ﷺ، فأعلنَ عمرُ أنَّه جاء ليؤمنَ باللهِ وبرسوله وبما جاء من عند الله، ومن ثمّ نطقَ بشهادةِ النَّجاة؛ شهادة التَّوحيد، وعندها كبّرَ الهادي البشيرُ ﷺ تكبيرةً عرفَ منها أهل البيتِ الأرقميّ المبارك من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب قد أسلم، فكبَّروا جميعاً تكبيرةً واحدةً سُمِعَتْ بطرقِ مكّة، وكانت هذه التّكبيرةُ مفتاحَ خيرٍ لجميع المسلمين.

* لقد فقأ حمزةُ وعمرُ بإسلامهما عينَ الوثنية، وكان جهرُهُما بالحقِّ تمهيداً للجهرِ بالدَّعوة الإسلامية، فقد أذن الله عزَّ وجلَّ لدعوة الإسلام أنْ تعلنَ عن نفسها، إذ أصبح المسلمون في قوّةٍ «حمزويّةٍ عمريّةٍ» يستطيعون من خلالها إظهار إسلامهم، وخرج المسلمون من الدّار الأرقميّةِ المباركة أعزةً أقوياء، وخرج رسولُ الله ﷺ - كما يقول عمر - في صفَّين من أصحابه، أنا في أحدهما، وحمزةُ في الآخر، ولنا كديدٌ ككديدِ الطَّحين، حتى دخلنا المسجد، فنظَرتْ إلينا قريش فأصابتهم كآبةٌ لم تصبْهم قطّ، ويومئذ سمّى رسولُ الله ﷺ عمرَ بنَ الخطَّاب «الفاروق» فأكرمْ به!، وذلك لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد فرَّقَ به بين الحقِّ والباطل[1].

* كان إسلامُ سيّدنا حمزةَ مفتاحَ خيرٍ، وبدايةَ نَصْرٍ للإسلام؛ فقد: «دخل النَّاسُ في دينِ اللهِ أفراداً وجماعاتٍ، وفشا ذكْرُ الإسلام بين النَّاس، وتحدَّثُوا به في منازلهم وأنديتهم ومجالسهم ومحافلهم وأسواقهم ومواسمهم، وتمَّتْ كلمةُ الله، ومضتِ الرّسالةُ الخالدةُ في سيرها تفتح القلوب، وتكافح أعداءها متدرِّعة بالصَّبر الجميل، وتنزّل نصر الله متدرّجاً مع تدرّج الوحي بالتَّشريع، حتّى أكمل الله نعمته على عبده ورسوله، وعلى المؤمنين»[2].

---

(١) السِّيرة النّبويّة لدحلان (١/ ٢٥٩) بتصرّف. وانظر: سبل الهدى والرّشاد (٢/ ٤٩٧ و٤٩٨).
(٢) محمّد رسول الله (١/ ٦٣٩).

* لقد تخلّى سيّدنا حمزةُ عن كلِّ ما يتَّصل بالجاهليّةِ، وبدأ يخطُّ في سجلِّ النُّبلاء والمشاهير صحائفَ نورانيّة تبهج القلوب، وتُذْكي النّفوس.

* خالطَ الإيمانُ قلبَ سيّدنا حمزةَ فأقبلَ على التَّعلُّم وأخذَ يسألُ رسولَ الله ﷺ عن بعضِ الأمور التي تتعلَّقُ بالدِّين، أو بالوحي.

* أخرج ابنُ سعد بسندٍ رفعه إلى عمّار بن أبي عمار: «أنَّ حمزةَ بنَ عبد المطلّب رضي الله عنه سأل النَّبيّ ﷺ أن يُريَه جبريل في صورته.

فقال ﷺ: «إنَّك لا تستطيع أنْ تراه».

قال: بلى.

قال: «فاقعدْ مكانك».

فنزل جبريلُ على خشبة في الكعبةِ كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافُوا بالبيت.

فقال ﷺ: «ارفعْ طرفَكَ فانظُرْ».

فنظرَ فإذا قدماه مثل الزّبرجد الأخضر، فخرَّ مغشياً عليه»[1].

* ولعلَّ حمزةَ بعدها لم يَعُدْ يسأل النَّبيّ ﷺ إلاَّ ما يهمّه في أمورِ دينه كغيره من الصَّحابة رضي الله عنهم.

الفارسُ المُعلمُ: :

* كان من عادةِ فرسان العرب وأبطالهم التَّقَنُّع في المواسم والجموع، إلاَّ من اشتُهِرَ منهم بالشّدّة والبأس فإنَّه كان لا يتقنعُ ولا يبالي بفرسان العرب أنْ تقعَ أعينهم عليه، وفي هذا العمل يكونُ متحدّياً أعداءه.

* ويصنَّفُ سيّدنا حمزةُ من هؤلاء الأبطالِ الأشداء الذين لا يخافون أحداً، فقد جعل لنفسه علامةً يُعرف بها، وَسِيْما يشتهر بها، فقد كان يوم بدر مُعلماً

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٢).

بريشة نعامة حمراء، وكان سيّدنا الزُّبيرُ بنُ العوّام معلماً بعمامة صفراء، وفي هذا يقول الشّاعر:

فـأبْـدِ سِيمـاكَ يعـرِفُـوك كمَـا   يُبـدون سِيمـاهـم فتُعتَـرَفُ

* ولكنَّ الغالبَ على الفُرسان أنَّهم كانوا يكرهون أنْ يُعرفوا، فلا يكون لفرسان عدوّهم هَمٌّ غيرهم[1].

* إذن كان سيّدنا حمزة فارساً مُعلماً وبطلاً مغواراً لا يُشقّ له غبار، ولهذا لم نسمعْ أنّه لحقه أذى قريش بعد إسلامه، كما لحق بعض النَّاس، كما أنّ كتبَ السّيرة والتّراجم لم تذكرْ أنَّ سيّدنا حمزة قد استُضْعِف أو نال أحدٌ من المشركين منه قبل الهجرةِ إلى المدينةِ المنوّرة.

* وعندما أخذ المسلمون الأوائلُ يتهيّؤون للهجرة إلى المدينة المنوّرة، كان سيّدنا حمزة ممّن هاجر على مرأى قريش وسمعها، فمثله لا يهاجر خفيةً أو خيفةً من أحد.

* سجّلَ ابنُ سعدٍ في «طبقاته» بأنَّه لمَّا هاجر حمزةُ إلى المدينة، نزل على كلثوم بنِ الهِدْم، وآخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، وإلى سيّدنا زيد أوصى حمزةُ بنُ عبد المطلّب يوم أحد حينما حضر القتال[2].

* وفي مضمار الأوائلِ لرجالِ أهل البيت نجدُ لسيّدنا حمزة رضي الله عنه أوليةً ميمونةً. فقد كان أوّل لواءٍ عقدَهُ رسولُ الله ﷺ لواء حمزة رضي الله

---

(١) انظر: البيان والتّبيين للجاحظ (٣/ ١٠٠ ـ ١٠٢) بشيء من التّصرّف.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٩) بشيء من التّصرّف. أقول: «عمل رسولُ الله ﷺ بعد أن استقرَّ بالمدينة المنوّرة على الإخاء، فآخى بين المهاجرين المكّيين والأنصار المدنيين مؤاخاةً فريدةً، حتى إنّ المهاجر كان يرثُ الأنصاريّ بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ، إلى أنْ نزلت آية المواريث فأبطلت ذلك؛ وكان من الفوائد المهمّةِ لهذه الأخوة الإيمانية إزالة الوحشة والغربة عن المهاجرين نتيجة مفارقتهم الأهل والعشيرة... وقد برهَنَ الأنصارُ على حسنِ المؤاخاة بالإيثار الذي أثنى عليه الله عزَّ وجل في القرآن الكريم».

عنه[1]. قال ابن عبد البرّ: «أوّلُ رايةٍ عُقِدَتْ في الإسلام، وأولُ غازٍ في سبيل الله حمزة»[2].

* كانت سريّةُ حمزةَ في رمضان من السَّنةِ الثَّانية للهجرة، إذ بعثه النَّبيُّ ﷺ إلى سِيْف البحر ـ ساحله ـ من ناحية العِيْص[3] في ثلاثين راكباً، يعترضُ عيراً لقريش فيها أبو جهل في ثلاث مئة راكبٍ، فالتقوا حتّى اصطفّوا للقتال، فمشى بينهم مجديُّ بنُ عمرو سيّد جُهينة، وكان حليفاً للفريقين، فانصرفَ بعضُ القوم عن بعض، ولم يكنْ بينهم قتالٌ. ولمّا رجع حمزةُ إلى النَّبي ﷺ في المدينةِ خبّرهُ بما حجزَ بينهم مجديّ، وأنّهم رأوا منه نَصَفَةً لهم؛ فقدم رهطُ مجديّ على النّبيّ ﷺ فكَسَاهم وصَنَعَ إليهم خيراً، وذكر مجديّ بن عمرو فقال: «إنّه ما علمتُ ميمونَ النَّقيبة مبارك الأمر»[4].

* قال ابنُ إسحاق: «زعموا أنَّ حمزةَ رضي الله عنه قد قال في ذلك شعراً يذكرُ فيه أنَّ رايتَه أوَّلُ رايةٍ عقدها رسولُ الله ﷺ، فإن كان حمزةُ قد قال ذلك

---

(١) محاسن الوسائل في معرفة الأوائل (ص ١٩٦). وكان لواء حمزة يومئذاك لواء أبيض اللون. (زاد المعاد/ ١٦٣).

(٢) الاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ٢٧١) بتصرّف؛ وانظر: صفة الصَّفوة (١/ ٣٧١).

(٣) «العِيْص»: هو منبت خيار الشّجر. قال ياقوت الحمويّ: «العيصُ من السّدر والعوسج، وما أشبهه إذا تدانى والتفّ» و«العيصُ»: موضعٌ في بلاد بني سُلَيم به ماء يُقال له: ذنبان العيص. والعيصُ: مذكورٌ في سريةِ سيّدنا حمزةَ بن عبد المطّلب إلى سيفِ البحرِ من ناحيةِ العيص، والعيصُ: وادٍ لجهينةَ بين المدينة والبحر، بل هو من أودية ينبع، وليس على ساحل البحر، بل يبعدُ عنه مسيرة يومين، ولكنّه بقرب طريق القوافل التي كانت تذهب إلى الشّام مع الطَّريق السّاحليّة، ولهذا كان أبو بصير بن سهيل بن عمرو القرشيّ رضي الله عنه لمَّا فرَّ من كفار قريش، يترصّد لقوافلهم في ذلك الموضع، وتبعد عن ينبع حوالي (١٥٠ كيلاً) شمالاً، وما زالت قرية عامرة إلى الآن، وهي في إمارة المدنية المنوّرة. (معجم البلدان ٤/ ١٧٣)؛ و(المعالم الأثيرة ص ٢٠٤) مع الجمع بينهما.

(٤) المغازي (١/ ٩ و١٠)، ومختصر سيرة الرَّسول لمحمَّد بن عبد الوهَّاب (ص ١٤٥) مع الجمع والتّصرّف.

فقد صدقَ إن شاء الله، فلم يكن يقولُ إلا حقاً»(١).

* وقصيدةُ حمزةَ قصيدةٌ لاميّة قوامها (١٤ بيتاً) ترصدُ الأحداث التي حصلَتْ بين سريّته وبين قافلة أبي جهل، وتظهرُ على القصيدة عمليَّةُ الصَّنعة، إذ هي كما قال ابنُ إسحاق: «وأكثرُ أهل العلْم بالشّعرِ ينكرُ هذا الشّعر لحمزةَ رضي الله عنه»(٢).

* ومن لاميّةِ سيّدنا حمزة نقرأُ هذه الأبيات المختارة:

بــأَمْــر رســولِ الله أوّلُ خــافــق ... عليه لـواءٌ لـم يكـنْ لاحَ مـن قبلـي
لـواءٌ لـديـه النَّصـرُ مـن ذي كـرامـةٍ ... إلـهٍ عـزيـزٍ فعلـه أفضـلُ الفعْـلِ
ومـا نحـنُ إلاَّ فـي ثـلاثيـن راكبـاً ... وهـم مئتـان بَعْـدَ واحـدةٍ فَضْـلِ

* وتقصُّ علينا مصادرُ السِّيرة النَّبويّة بأنَّ سيدنا حمزة قد سار في أكثر من غزوةٍ وهو يحملُ اللواء، ففي غزوة بني قينقاع(٣) كان حمزة يحملُ اللواء، وفي غزوة الأبواء(٤) كان يحمل اللواء، وكذلك في غزوة العُشَيرة(٥).

---

(١) السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (٢/ ٢٨٢).

(٢) المصدر السَّابق عينه. أقول: «الحقيقة إنَّ هذا الشِّعر لا يتناسب مع بلاغة رجال أهل البيت وفصاحتهم».

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠)، وزاد المعاد (٣/ ١٢٦)، و«قينقاع»: اسم شِعْب من اليهود الذين كانوا اغتصبوا أرض المدينة، فطردهم الله عزَّ وجلَّ منها، يُضاف إليهم سوق كان بالمدينة، ويقال: سوق بني قينقاع، وهو في عوالي المدينة المنوَّرة.

(٤) «الأبواءُ»: وادٍ من أودية الحجاز، به آبار كثيرةٌ، ومزارعُ عامرة، والمكان المزروع منه يسمّى اليوم «الخُريبة» تصغير الخربة. ويبعد المكان المزروع عن بلدة «مستورة» شرقاً ثمانية وعشرين كيلاً والمسافة بين الأبواء و«رابغ» ٤٣ كيلاً.
ويقال: إن بالأبواء قبر السّيدة آمنة بنت وهب أمّ حبيبنا وسيّدنا رسول الله ﷺ، وأوّل الغزوات كانت غزوة الأبواء بعد سنة من مقدم النّبيّ ﷺ المدينة يريدُ بني ضَمرة وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة.

(٥) «العُشَيرة»: بلفظ تصغير عشْرة، يُضاف إليه «ذو» فيقال: ذو العشَيرة، وإليه تُنْسَب غزوة النّبيّ ﷺ المشهورة. وذو العُشيرة: كانت قريةً عامرةً بأسفل ينبع النَّخل، ثمَّ صارت محطةً=

تألُّقه يومَ بَدْر:

* نحنُ نعلمُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد فرضَ القتال في شعبانَ من السَّنةِ الثَّانيةِ للهجرة، ونزلت آياتٌ بذلك من سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣]. ثم نزلت آياتٌ أُخر من سورة محمّد تفصِّلُ بعضَ أمور القتال، وهكذا تدرَّجَ الشَّرعُ العظيمُ في نزولِ الإذنِ بالقتال، بعد الصَّبر ومرحلة البناء.

* قال الشَّيخُ صفي الرَّحمن المباركفوري: «وإيجابُ القتال والحضُّ عليه، والأمرُ بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظُّروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطَّوارىء، فكيف بالرّبّ العليم المتعال، فالظُّروف كانت تقتضي عراكاً دامياً بين الحقّ والباطل»(١).

* وفي شهر رمضان من السَّنة الثَّانية للهجرة تناثرتِ الأنباءُ إلى المدينةِ تقول: «إنَّ قافلةً ضخمةً لقريش فيها أكبر رؤوس أموالها، تهبطُ من مشارف الشَّام قافلةً إلى مكّة، وتُقدّر بألف بعيرٍ موقّرة بالأموال والزّاد والمتاع، يقودها أبو سفيان بن حرب مع رجال تعاهدوا حراستها لا يزيدُ عددُهم عن ثلاثين أو أربعين رجلاً».

* وهاهنا استحثَّ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابه للخروجِ بسرعةٍ، ورغَّبهم في الاستيلاء على القافلة وما فيها من أموال وثروات. وخرج النَّاسُ مع رسولِ الله ﷺ، وكان حمزةُ بنُ عبد المطّلب في مقدّمة رجالِ أهلِ البيتِ الذين خرجُوا لهذه المهمّة؛ ولم يكن يَدُرْ في ذهنِ أي واحدٍ من المسلمين يومها أنّه مقبلٌ على يوم من أهمّ أيّام الإسلام، وعلى ساعات دقيقةٍ حرجةٍ فيها بدايةُ

= للحاج المصريّ هناك، وهي أوّل قرى ينبع النَّخل ممَّا يلي السَّاحل، وبها مسجد يقولون: إنَّه مسجدُ رسول الله ﷺ. قال حمد الجاسر: «وقد اندرس هذا الموضع، ويقع بقرب «عين البركة» التي لا تزال معروفة، وكانت إحدى عيون هذا الموضع.

(١) الرَّحيق المختوم (ص ٢٣٧)، دار الوفاء ـ مصر ـ المنصورة ـ ط ٥ ـ ١٩٨٧ م.

انعطافِ التَّاريخِ والزّمانِ.

* مضى رسولُ الله ﷺ يقودُ جيش الحقّ إلى يوم الفصلِ والفرقانِ بين أولياءِ الرّحمانِ وأولياء الشَّيطان، بينما استطاعَ أبو سفيان أن ينجوَ بالعير، وبعثَ إلى أهلِ مكةَ يستنفرهم، فتجهّزَ النَّاسُ سراعاً، ووردوا بدراً كما هو متواترٌ في أحداثِ السِّيرة النَّبويّة ومغازيها.

* عبَّأَ رسولُ الله ﷺ جيشه، وأخذ يتحرَّكُ في أرض المعركة، وجعل يبشّرهم بخبرِ الوحي الذي نزل يطمئنهم، وأشار ﷺ بيده الشَّريفة إلى مصارعِ رؤوسِ القوم وكبرائهم، فما غادرتْها ولا تعدتْها.

* وأثناء هذه اللحظات كان أسدُ الله حمزة في مقدّمة أبطال المسلمين، فقد اقتربَ الجيشان من بعضهما وتراءى الجمعان، فأبصر النَّبيُّ ﷺ رجلاً على جملٍ له أحمرَ يتحرّكُ في جيش المشركين، فأمرَ عليّاً أنْ يناديَ حمزة الذي كان في مقدمةِ الجيش المسلم حتّى يتعرّفَ على ذلك الرّجل، وماذا يقولُ للمشركين، لأنَّ سيدنا حمزة كان بصيراً بخبايا المعاركِ والأبطالِ، جريئاً لا يخشىٰ السُّيوف والنّصال.

* نطالعُ في المسندِ من كلامٍ لسيّدنا عليّ رضي الله عنه من حديثٍ طويلٍ منه قوله: «. . . فلمّا دنا القومُ منّا، وصاففناهم، إذا رجلٌ منهم على جَمَلٍ له أحمر يسيرُ في القوم، فقال رسولُ الله ﷺ: "يا عليُّ؛ نَادِ لي حمزةَ" وكان أقربهم مِنَ المشركين، مَنْ صاحب الجمل الأحمر، وماذا يقول لهم؟ ثم قال رسول الله ﷺ: "إن يكنْ في القوم أحدٌ يأمر بخيرٍ فعسى أن يكون صاحبُ الجمَلِ الأحمر". فجاء حمزةُ فقال: هو عتبةُ بنُ ربيعة، وهو ينهىٰ عن القتال ويقول لهم: يا قوم، إنّي أرى قوماً مستميتين، لا تَصِلُون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعْصِبوها اليوم برأسي وقولوا: جَبُنَ عتبةُ بنُ ربيعة، وقد علمتم أنّي لستُ بأجبنكم. . .»[1].

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٩) برقم (٩٤٨) طبعة دار الفكر الأولى ١٩٩١ م، وفي رواية أنّ عتبةَ قال=

* وفي روايةٍ أخرى عند الحاكم وغيره أنَّ عتبةَ بنَ ربيعة قال: «. . . أما والله إنّي لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون كأنّ رؤوسَهم الأفاعي، وكأنّ وجوهَهم السُّيوف. . .».

* ثم تحرَّكَ النَّبيُّ ﷺ بسرعةٍ، فعدّلَ الصُّفوف، وأوصى أصحابه بالثَّبات، وألا يباشروا القتال إلا بإذنه، وأخذ يذكِّرهم بالله عزَّ وجلَّ والدَّار الآخرة.

* اقتربتِ اللحظاتُ الحاسمةُ، ودنَتْ ساعة الصِّفر، بدأت قريش الزَّحفَ، واندفع من صفوفها الأسودُ بنُ عبد الأسد المخزوميّ إلى حوضٍ أقامه المسلمون وهو يقول: «أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتن دونه»[1].

* لم يكمل الأسود كلامه حتَّى ظهرَ أسدُ اللهِ وأسدُ رسوله أمامه؛ وضربه بسيفه ضربةً هاشميةً أطارَ بها قدمَه بنصْفِ ساقِهِ، فوقعَ على الأرض، ثم أخذَ يزحفُ حتَّى وَصَلَ إلى الحوضِ وهو يزعُمُ أنَّه يبرُّ يمينه، فأتبعه حمزة فضربه حتَّى قتله في الحوض[2]، وأراح منه المسلمين، وكان الأسودُ هذا أوّل وقود المعركة، إذ قُتِلَ أمام الفريقَيْن، وكان المشركون ينظرون إليه، وهم يرون أنّهم

= لقومه: «. . . يا قوم أطيعوني ولا تقاتلوا هذا الرَّجل وأصحابه. . . فإنَّ منهم رجالاً قرابتهم قريبة، ولئن أصبتموه لا يزالُ الرَّجلُ منكم ينظرُ إلى قاتلِ أبيه أو أخيه، فيورثُ ذلك منكم شحناء وأضغاناً، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتّى يصيبوا منكم عددهم، ولا آمن أن تكون الدّبرةُ عليكم. . . وأنتم لا تطلبون إلا دم هذا الرّجل. . . . يا قوم، لا تردّوا نصيحتي، ولا تسفهوا رأيي». (صور من حياة الرّسول ص ٣١١) باختصار.

(١) السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (٢/ ٣١٨).

(٢) المغازي (١/ ٦٨)، ودلائل النّبوّة للبيهقيّ (٣/ ٦٦ و٧٧) مع الجمع والتّصرّف.

ولله درّ أحمد محرّم إذ يصف سيّدنا حمزة عندما قتل هذا الشّرس فقال:

أَرْداهُ حمــزةُ عنــد حــوضِ محمّــدٍ ... فــانظُــرْ أتقــدمُ أم تَحِيــدُ وتكفــحُ
رامَ الــورودَ فمــا انثنــى حتّــى ارتــوت ... مــن حــوضِ مُهجتــه المنــايــا القُمَّــحُ

(ديوان مجد الإسلام ص ٨٦)

ظاهرون على المسلمين، وأنّهم قاهروهم، وما علموا أنّ في جيش المسلمين رجالاً من أهل البيتِ الأبطال كأسدِ الإلهِ حمزةَ؛ وفتى الفتيان عليّ بن أبي طالب، وغيرِهما من بني هاشم الأخيار.

* ولمَّا قُتِلَ الأسودُ المخزوميُّ ثارت حميَّةُ المشركين، ورأوا تلك الضّربةَ الحمزويّةَ التي أودتْ بصاحبِهم وجعلته جثّةً هامدةً، فخرج عتبةُ بنُ ربيعة العبشميّ بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة. . . . ومن ثَمَّ نادوا: يا محمَّد أخرجْ إلينا أكْفَاءَنا من قومنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «قُمْ يا عليُّ، وقمْ يا حمزةُ، وقمْ يا عُبيدةُ بن الحارث بن المطَّلب». فلمَّا قاموا ودنوا منهم.

قالوا: من أنتم؟

قال عبيدة: عُبيدة.

وقال حمزةُ: حمزة.

وقال عليٌّ: عليّ.

قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارزَ عبيدةُ ـ وكان أسنّ القوم ـ عتبة بن ربيعة، وبارزَ حمزة شيبة، وبارزَ عليّ الوليد، فأمّا حمزة فلمْ يمهلْ شيبة أنْ قتلَه، وأمّا عليٌّ فلم يمهل الوليد أن قتله، وأمّا عبيدةُ وعتبةُ فقد اختلفا فيما بينهما ضربتَيْن، فوقع كلاهما على الأرض، فكرّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبةَ، فأجهزا عليه وألْحقَاهُ بأخيه وابنه إلى دار البوار، ومن ثمَّ احتملا عبيدة فجاءا به إلى رسول الله ﷺ وقد قُطعت ساقُه، وجعل مخّها يسيلُ، فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشَّريفة وبشّره بالجنّةِ.

* غلَتْ قلوب المشركين كالمراجلِ، واستشاطُوا غَضَباً وغيظاً أمام هذه البداية التي جندلتْ أربعةً من كبار فرسانهم ومقاتليهم، ومن ثمّ هجموا على صفوف المسلمين، وحمي الوطيسُ وبرقَتْ السُّيوف، واشتعل لهيبُ القتال، وفَارَ تنُّوره.

* قال ابنُ إسحاق: «فكانت وقعة بدرٍ يوم الجُمعة صبيحة سبع عشرة من شَهْر رمضان»[1].

* وأخذ رسولُ الله ﷺ يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[القمر: ٤٥]، ثمَّ شرع ﷺ يُحرِّضُ أصحابه على ركوب أهوال المعركة، وعلى الإقدام والثَّبات ولهم الجنَّةُ، وهناك برزتْ نوادرُ من التّضحيات العظيمة وألوان من الشَّجاعة التي فوجىء بها المشركون، إذ لم يكن يتوقّعونها، فقد هجمَ المسلمون عليهم بقلوب زادُها الصَّبرُ والإيمانُ بالله عزَّ وجلَّ، وكانت رغبتُهم في الشَّهادة عظيمةً، والطَّمع في ثواب الله، وجعلوا هدفهم رؤوس الكفرةِ الفجرة، وهم ينادون بصوتٍ عالٍ شعار المعركة: «يا منصورُ، أمِتْ أمتْ».

* وأمدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ المجاهدين البدريين بروحٍ من عنده، فازدادتْ حماستُهم، وتضاعفتْ قواهم، وتضاءلتْ أمام أعينهم كثرةُ المشركين الذين كانوا ثلاثةَ أضعافِ المؤمنين، وجعل فُرسانُ المسلمين وأبطالُ أهلِ البيت يكتسحونهم كما يكتسحُ السَّيلُ الغثاءَ، فلا يبقى له أثرٌ ولا وجود؛ بل إنَّ بطلَ أهل البيت أسدَ اللهِ حمزة كان مفتاح النَّصرِ في هذه المعركة الفاصلة، حيث ألقى الله عزَّ وجلَّ هيبتَه في قلوبِ المشركين لمَّا جندل أكابرَ أبطالهم قبل أنْ تبدأ المعركة بالاشتعال.

* ظهر حمزةُ رضي الله عنه مُعْلَماً يوم بدرٍ بريشة نعامة[2]، لِيُعْلَمَ مكانه،

---

(١) السّيرة النّبويّة (٢/ ٣٢٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٠)، وكان أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ يُعلِمون في الزّحوف: حمزة بن عبد المطّلب مُعلِمٌ يوم بدر بريشة نعامة، وكان عليٌّ مُعلِماً بصوفة بيضاء، وكان الزبير معلماً بعصابةٍ صفراء، وكان الزُّبير يحدّث: إنَّ الملائكةَ نزلت يومَ بدرٍ على خيل بُلق عليها عمائم صفر، فكان على الزُّبير يومئذٍ عصابة صفراء، وكان أبو دجانة يُعلم بعصابة حمراء. (المغازي ١/ ٧٦).

ويراه القريب والبعيد، وهذا من تمام فروسيَّته وكمالها، حتَّى إنَّ الأعداء شهدوا لسيّدنا حمزة بالجرأة والإقدام، فقد قال أميّةُ بنُ خلف الجُمحيّ لسيّدنا عبد الرّحمن بن عوف الزّهريّ يوم بدر: «رأيتُ رجلاً فيكم اليوم مُعلِماً في صدره ريشة نعامة، مَنْ هو»؟!

فقال عبدُ الرّحمن بن عوف: «حمزةُ بن عبد المطّلب».

قال أميّة: «ذاك الذي فَعَلَ بنا الأفاعيل»[(١)].

* والحقيقةُ فقد جندل سيّدنا حمزةُ يوم بدرٍ عدداً من أكابر المجرمين، ومنهم أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، إذ ضربه حمزةُ ضربةً شديدةً أتتْ عليه وهو يقولُ: «خذها وأنا ابنُ عبد المطّلب».

* كما أنَّ حمزة قد جندل فارساً من أخطرِ فرسان المشركين وأَشْرسهم، هذا الفارس يدعى طُعيمة بن عديّ، أمَّا كيف أردىٰ سيدنا حمزة طُعميةَ هذا، فسيّدنا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه عنده الخبر اليقين عن ذلك فيقول: «رأيتُ طعيمةَ قد علا رأس كثيبٍ يوم بدرٍ، وقد ساواه سعدُ بنُ خيثمة؛ فصمدتُ له، ولم آتِهِ حتَّى قُتِلَ سعدٌ، فلمَّا رآني أصعدُ الكثيب إليه، انحطَّ عَلَيَّ، وكان رجلاً جسيماً؛ فخشيتُ أنْ يعلوَ عليَّ، فانحططتُ في السَّهل، فظنَّ أني فَرَرْتُ منه، فصاح بأعلى صوته: فرَّ ابنُ أبي طالب.

فقلتُ له: قريباً مَفَرّ ابن الشَّتْراء[(٢)]، فلمّا استوتْ قدمايَ بالأرض، وقفتُ له، فانحدرَ إليّ، وأهويتُ إليه، فسمعتُ قائلاً من خلفي يقول: طَأْطِىءْ

---

(١) المغازي (١/ ٨٣)، وسبل الهدى والرَّشاد (٤/ ٧٣)، وأسد الغابة (١/ ٥٢٩)، وقال ابن الأثير: «وقاتل حمزة يوم بدر بين يدي رسول الله ﷺ بسيفَين».

(٢) قال ابن الأثير في «النّهاية»: «وفي حديث عليّ رضي الله عنه يوم بدر: «فقلت: قريب مفرَّ ابن الشَّتراء»، هو رجلٌ كان يقطعُ الطَّريق، يأتي الرُّفْقَةَ فيدنو منهم، حتَّى إذا همّو به نأى قليلاً، ثمَّ عادوهم حتى يصيبَ منهم غِرَّة»، والمعنى أنَّ مفرَّه قريبٌ وسيعودُ، فصار مثلاً. (النَّهاية في غريب الحديث والأثر ص ٤٦٠) طبعة بيت الأفكار الدَّوليَّة.

رأسَكَ، فجعلتُ رأسي في صدرِ طُعيمة، وإذا برقَةٌ من السّيف، فأخذتْ قِحْفَ طعيمة، فسقطَ ميتاً، وإذا حمزةُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه»(١).

* ونستوعبُ قصَّةَ بطولةِ حمزةَ بشكل أوسعَ عند الواقديِّ إذ يقول: كان عليٌّ رضي الله عنه يقول: «إنِّي يومئذٍ بعدما ارتفع النّهار، ونحن والمشركون قد اختلطتْ صفوفُنا وصفوفُهم، خرجتُ في إثْرِ رجلٍ منهم، فإذا رجلٌ من المشركين على كثيبِ رملٍ وسعد بن خيثمة، وهما يقتتلان حتّى قتلَ المشرِكُ سعدَ بنَ خيثمةَ، والمشرك مقنّعٌ في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه، فعرفني وهو مُعلمٌ ولا أعرفه، فناداني: هلمّ ابن أبي طالب للبراز! فعطفتُ عليه فانحطّ إلي مقبلاً، وكنتُ رجلاً قصيراً، فانحططتُ راجعاً لكي ينزلَ إليّ، فكرهتُ أنْ يعلوَني بالسَّيف.

فقال: يا بن أبي طالب، فررتَ؟

فقلت: قريباً مَفَرّ ابن الشَّتْراء!.

فلمّا استقرتْ قَدمَايَ وثَبَتُّ أقبلَ، فلمّا دنا منّي ضربني، فاتَّقيتُ بالدَّرقةِ فوقع سيفه فَلَحِجَ - أي لزمَ - فأضربُهُ على عاتقه وهو دارعٌ، فارتعشَ، ولقد فضَّ سيفي درعَه، فظننتُ أنَّ سيفي سيقتلُه، فإذا بريقُ سَيْفٍ من ورائي، فطأطَأْتُ رأسي، ويقعُ السَّيفُ، فأَطَنَّ قِحْفَ رأسه بالبيضة، وهو يقولُ: خُذْها وأنا ابنُ عبد المطّلب! فالتفتُ من ورائي فإذا حمزةُ بنُ عبد المطلّب عمّي، والمقتول طعيمة بنُ عديّ...»(٢).

* لقد أبدع حمزةُ يوم بدرٍ، وترك جرحاً غائراً في قلوب المشركين، وخصوصاً في نفوس السَّادة العبشميين، وقد سجَّل حمزةُ بشعره وقائعَ المعركة بقصيدةٍ رائيةٍ طويلةٍ منها:

---

(١) انظر: نسب قريش (ص ١٩٩ و ٢٠٠).

(٢) المغازي (١/ ٩٢ و ٩٣).

ونحـنُ تـركْنَـا عُتْبـةَ الغـيِّ ثـاويـاً ... وشَيْبَةَ في قَتْلَىٰ تُجرجَمُ في الجَفْر
وعمروٌ ثوىٰ فيمن ثوىٰ من حُماتِهم ... فشُقَّتْ جُيوبُ النَّائحاتِ على عَمروِ
أولئـك قـومٌ قُتِّلُـوا فـي ضَـلاَلهـم ... وخَلَّـوْا لـواءً غيـر مُحْتضَـر النَّصْـر
وفينـا جنـودُ اللهِ حيـن يُمِـدُّنـا ... بهمْ في مقامٍ ثَمَّ مُسْتَوضَح الذِّكْرِ(١)

* ويرحمُ اللهُ أبا عبد الله بن جابر الأندلسيّ إذ وضَعَنَا أمامَ معركة بدر من خلال شِعْره؛ فقال من قصيدةٍ لاميةٍ طويلةٍ يذكر بطولةَ حمزةَ وبسالته يوم بدرٍ:

عُبيـدة سَـلْ عنهـم وحمـزة واستمـعْ ... حديثَهُم في ذلك اليومِ من عَلِي
همـو غيَّبـوا بـالسَّيـف عتبـةَ إذ غـدا ... فذَاقَ الوليدُ الموتَ ليس له ولي
وشيبـةُ لمَّـا شَـابَ خـوفـاً تبـادَرَتْ ... إليـه العَـوالـي بـالخضَـاب المُعَجَّـلِ
سَلا عنهم يوم السَّلا إذا تضاحكُوا ... فعـادَ بكـاءً عـاجـلاً لـم يـؤجَّـلِ
أَلَـمْ يعلمـوا عِلْـمَ اليقيـن بصـدقـهِ ... ولكنّهـم لا يـرجعـون لمعْقِـلِ

* وقد أوردَ القرآنُ الكريم مكارمَ كثيرةً لسيِّدنا حمزةَ بنِ عبد المطَّلب، ونزلتْ آياتٌ عديدةٌ في حقِّه، ومنها ما جاء في الصَّحيح؛ فقد أخرج مسلم عن هُشيم؛ ثمَّ بسنده عن قيس بن عُبَاد قال: «سمعتُ أبا ذرٍّ يقسم قسماً إنَّ: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾[الحج: ١٩]، إنّها نزلتْ في الذين برزوا يوم بدرٍ: حمزةُ، وعليٌّ، وعُبيدةُ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بنُ عتبة».

* وعن قيس بن عُبَاد أيضاً قال: «سمعتُ أبا ذرّ يقسمُ، لَنَزَلَتْ: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ بمثل حديث هشيم»(٢).

---

(١) السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (٣/ ١٣ و ١٤) وقال ابنُ هشام: «وأكثر أهل العلْمِ بالشّعر ينكرها لحمزة». وانظر: سبل الهدى والرّشاد (٤/ ١٩٦ و ١٩٧)، والبداية والنّهاية (٣/ ٣٣٣ و ٣٣٤). ومعنى «ثاوياً»: مقيماً. و«تجرجم»: تُصْرع أو تسقط. و«الجفر»: البئر المتّسعة، و«عمرو»: أبو جهل بن هشام الذي قُتل في بدر مع سبعين من الكفّار، و«مستوضح الذِّكر»: المقصود القرآن الكريم عندما تحدَّث عن المعركة وكيف أمدّ الله المؤمنين بالملائكة.

(٢) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في التّفسير برقم (٣٠٣٣)؛ وهذا الحديث هو آخرُ حديثٍ في صحيح=

* وفي أسباب نزول قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾[الملك: ٢٢]، قال ابن عطيّة. «قال جماعةٌ من رواةِ الأسباب: نزلَتْ مثلاً لحمزةَ رضي الله عنه، ولأبي جهل بن هشام.... وقال ابن عبّاس وغيره: نزلت للمؤمنين والكافرين على العموم....»(١).

قتاله بسَيفَين:

* عندما أزفت معركةُ أحُدٍ، وحان موعدها، اختلفَ المسلمون في الخروجِ من المدينةِ المنوّرة أو المقامِ بها، وكرِهَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يخرجَ منها لأنَّه علم أنَّ قريشاً قد أقبلتْ لحربه، ثمَّ خرجَ ﷺ مع أصحابه إلى لقاء قريش، إذ إنَّ جماعةً من أصحابه كانوا متحمّسين للخروج ومقاتلة المشركين خارج المدينة المنوّرة، وقال قائلهم: «يا رسولَ الله، كُنَّا نتمنّى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرَّب المسير».

= مسلم. وانظر: تفسير ابن عطيّة (ص ١٣٠٥)، وتفسير البحر المحيط (٦/ ٣٣٤) وأيضاً: (٨/ ٢٣٨)، والتّفسير الكبير للرّازيّ (٢٩/ ٢٤٠)، وتفسير القُرطبيّ (٣٠٨/١٧). وهذا الحديثُ أخرجه البخاريُّ أيضاً في صحيحه بعدّةِ روايات منها ما أخرجه بسنده عن قيس بن عُبَاد عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أنا أوّلُ مَنْ يجثو بين يدي الرَّحمن للخصومة يوم القيامة». وقال قيس بن عُبَاد وفيهم أُنزلت: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[الحج: ١٩]، قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بنُ الحارث، وشيبةُ بن ربيعة وعتبةُ بن ربيعة والوليدُ بن عتبة». (البخاري برقم ٣٩٦٥). وأخرج البخاريُّ أيضاً بسنده عن قيس بن عُباد عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: «نزلت ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[الحج: ١٩]، في ستّةٍ من قريش: عليّ وحمزة وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة» (البخاريّ برقم ٣٩٦٦) وانظر البخاريّ أيضاً برقم (٣٩٦٧ و٣٩٦٨ و٣٩٦٩).

(١) انظر: تفسير ابن عطيّة (ص ١٨٨٠) بتصرّف يسير واختصار. وانظر: تفسير القرطبيّ (٢١٩/١٨). وقد ذكر المفسّرون كثيراً من الآيات التي نزلت في سيّدنا حمزة، انظر مثلاً التّفسير الكبير للرّازيّ: (٥/ ٤١)، (٨/٩) و(١٠١/١٠) و(٥/٢٧) و(٢٩/ ٢٠٢) و(٢٩/ ٢٤٠) و(١٣/ ١٦٢) وانظر كذلك تفسير البحر المحيط: (٣/ ٢٧٩) و(٦/ ٣٣٤) و(٧/ ١٢٢) و(٨/ ٢٣٨) و(٨/ ٢٩٧)، وانظر كذلك تفسير القرطبيّ في أكثر من عشرين موضعاً ومنها (١٠/ ٦٥ و٢٠١) و(١٥/ ٢٤٧) و(١٧/ ١٢٦) وغيرها.

* كان سيّدنا حمزةُ بنُ عبد المطلب رضي الله عنه في مقدّمة هؤلاء المتحمّسين، فتقدَّم في أدبٍ ممزوجٍ بالمحبّةِ وخاطب النَّبيَّ ﷺ: «والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طَعاماً حتّى أجالدَهم بسيفي خارجاً من المدينة»[1].

* ومالَ إلى هذا الرّأي ثلّةٌ ممَّن لم يكن لها شرفُ المشاركة في غزوة بدرٍ الكبرى بمعيّةِ النَّبيِّ ﷺ، وتقدَّم أحدُهُم وقال للنَّبيِّ ﷺ: «اخرجْ بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّا جبنَّا عنهم وضعفنا، واللهِ لا نطيعُ العرب في أنْ تدخل علينا منازلنا».

* أمَّا الكثرةُ وجمهورُ الأكابر من الصَّحابة فكانوا يرون رأي رسولِ الله ﷺ، ولاسيما بعد أنْ أخبرهم برؤياه[2]، فكان رأيهم تبعاً لرأي رسول الله ﷺ، إلاّ كثرة من الشَّباب ومَنْ فاتهم مشهدُ بَدْرٍ كانوا يودّون الخروج طمعاً في اللحاق بفضل البدريين ومرتبتهم، وما كانوا يحبّون المخالفة النّبويّة، ولكنَّ حبَّهم للجهاد جعلهم يرغبون بذلك.

* ثمَّ بدأ ﷺ في إعداد النّاس للخروج إلى المعركة في أُحُدٍ، وعقد الألوية لأصحابها، وأرادت كتيبةٌ يهودية أنْ تحاربَ مع المسلمين، وأن تخرجَ معهم، وكانوا حلفاء عبد الله بن أُبيّ ابن سلول زعيم المنافقين ورأسهم، فقال رسول الله ﷺ: «أوقد أسلموا»؟

---

(١) المغازي (١/ ٢١١) وكان يقال: «كان حمزةُ رضي الله عنه يومَ الجمعة صائماً، ويوم السَّبت صائماً، فلاقاهم وهو صائم». (المغازي ١/ ٢١١).

(٢) رؤيا النّبيّ ﷺ كما جاءت عند البيهقيّ عن أنس رضي الله عنه يرفعها إلى النّبيّ ﷺ قال: «رأيت فيما يرى النّائم كأنّي مردفٌ كبشاً، وكأنّ ضبّة سيفي انكسرت، فأوّلتُ أنّي أقتلُ كبشَ القوم، وأوّلتُ كسرَ ضبّة سيفي قتل رجلٍ من عترتي».
فقُتلَ حمزة، وقَتلَ رسولُ الله ﷺ طلحة العبدريّ، وكان صاحب اللواء، أي أنّ كبش الكتيبة قُتِلَ في المبارزة بينه وبين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فنُسِبَ قتله إلى رسول الله ﷺ، لأنّه القائدُ الأعلى.

قالوا: لا يا رسول الله.

فقال ﷺ: «مروهم فليرجعوا، فإنَّا لا نستعينُ بالمشركين على المشركين» وعند ابن سعد أنّه ﷺ قال: «لا تستنصروا بأهلِ الشّركِ على أهلِ الشّرك».

* خرجَ رسولُ الله ﷺ من المدينةِ ومعه ألفُ رجلٍ، وفيهم جماعةُ عبد الله بن أبي رأس النِّفاق والمنافقين وكانوا ثلاث مئة رجلٍ، وسار الرّكْبُ حتى إذا بلغ مكاناً يُقال له الشَّوْط بين أُحُدٍ والمدينة، انخزلَ ابنُ أبيّ بثلث الجيش، وكان هذا الانخزالُ اللئيمُ الغادرُ سياسةً مبيّتةً مدروسةً بين اليهود الأخابث، والمنافقين الأشرار؛ لكيدِ المسلمين وإضعاف روحهم المعنويّة، وكان سيّدنا وحبيبنا رسولُ الله ﷺ على أتمِّ العلْمِ بغدرِ اليهود وخيانةِ أتباعهم المنافقين.

* بعد أن انخزلَ ابن أبي بثلث النّاس، بقيَ مع الحبيب المصطفى ﷺ سبع مئة مقاتلٍ من المهاجرين والأنصار، وكانوا صفوةَ المجاهدين وخلاصتهم، فصفّهم رسول الله ﷺ وعدّل صفوفهم في ميدان أُحدٍ، وجعل أُحداً خلفَ ظهره مستقبلاً المدينة، وأقام على أحدٍ جماعةً من الرُّماة بلغوا خمسين رجلاً أميرهم عبد الله بن جُبير، ووعظَهم وحذَّرهم بألا يتركوا أماكنهم مهما كان السَّبب، ومهما تكن الظُّروف والأحوال.

* بدأت المعركةُ مبارزةً فَقُتِلَ في أوَّلها طلحة بن أبي طلحة العبدريّ كبش حشود قريش، ثمَّ تتابع مقتل حَمَلةِ اللواء من آل عبد الدَّار، إذ حمل اللواء عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه أسدُ الله وأسدُ رسوله حمزةُ بنُ عبد المطَّلب، فتى فتيان قريش، فضرب عثمانَ بنَ أبي طلحةَ ضربةً هاشميّةً على كاهله فقطع يده وكتفه حتّى انتهى إلى مؤتزرِه، وبدا سَحْرَهُ ـ رئته ـ، ورجعَ عنه سيّدنا حمزةُ رضي الله عنه وهو يقولُ في سرورٍ وفخرٍ: «أنا ابنُ ساقي الحجيج».

* اندلعتْ نيرانُ المعركة حاميةً، واشتدَّ القتالُ بين الفريقَيْن في كلّ بقعة من أرض أُحُدٍ، فقد اختلطَ الفريقان، واندفعت قريشٌ إلى القتالِ يثورُ في

عروقها طلبُ الثّأر لِمَنْ مات مِنْ أشرافها وساداتِها وكبرائها في بدر، بينما سادتْ روحُ الإيمان صفوفَ المسلمين المجاهدين، فأخذوا يجوسون صفوفَ المشركين يمنةً ويسرةً، ويكيلون لهم الضَّرباتِ الموجعاتِ، فيجندلون أبطالهم ويصرعون حُمَاتَهم.

* رُؤيَ سيّدنا حمزةُ فارس أهل البيت وبطلهم، وأبو دجانة الأنصاريّ كفرسي رهان في سباقِ البطولة، إذ انطلقا يهدّان صفوف المشركين هدّاً، ويحصدان مَنْ وقف أمامهما حصداً.

* أمَّا حمزةُ فكان يهتفُ قائلاً: «أمت، أمت» ثمَّ اندفعَ إلى قلب جيش المشركين كالصَّاعقةِ وفي يديه سيفان لا يقفُ له أَحدٌ، قال ابنُ سعد: «كان حمزةُ بن عبد المطَّلب يقاتلُ بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحدٍ بسيفَيْن ويقول: أنا أسدُ الله...»، وبينما هو يجولُ في صفوفِ المشركين، تعرَّض له أحدُ فرسان قريش المشهورين، وهو سِباعُ بنُ عبد العزّى الغُبشَاني؛ فناداه حمزةُ للبراز قائلاً في سخريةٍ وازدراء: هلم إليَّ يابن أمّ أنمار... فأسرعَ إليه سِباعٌ، فالتقاهُ حمزةُ بضربةٍ هاشميّةٍ جعلته في عداد الأموات، وكان لمقتل سِباع هذا أثرٌ عظيمٌ في نفوسِ المشركين، لأنَّه يُعدُّ من أبطالهم الذين يعتمدون عليهم في ساعات الشّدّة و احمرار البأس.

* وشدَّ المسلمون على صفوفِ المشركين، فزعزعوها وأشاعوا الذّعر فيها، وبدأ الاضطرابُ يدبُّ في جيشهم، وأخذت روحُهم المعنويَّةُ في الانهيار، وكاد بعضُهم يولّي الأدبار، ويركنُ إلى الفرار، قبل أن ينتصفَ النّهار.

* وبينما كانت الهزيمةُ تكاد تجرفُ صفوفَ المشركين، حدثَ ما لم يكن في الحسبان، فقد خسرَ المسلمون بطلاً هاشميّاً من أهل البيت، وقائداً ماهراً من قادتهم، هذا البطلُ هو أسدُ الله، وأسدُ رسوله سيّدنا حمزةُ بنُ عبد المطّلب عمّ النّبيّ ﷺ، وأخوه من الرّضاعة، وسيفُ اللهِ في زمنِ رسولِ الله ﷺ[1]. فقد

---

(١) قال القرطبيُّ رحمه الله: «كان سيوفُ الله ثلاثة: كالب بن يوفنا في زمن موسى عليه السّلام، =

طالَتْه يدُ الغدر والاغتيالِ وهو يهدم صفوف الشّرك بسيفَيْهِ القاطعَيْن، وكان الذي غدرَ به ـ والمسلمون في نشوة النَّصر وغمرته ـ عبدٌ حبشيٌّ اسمُهُ وحشيّ، قذفه بحربة وهو كامنٌ وراء شجرة، فكيف كان ذلك؟

قصّةُ استشهاده:

* تظهرُ فروسيّةُ حمزةَ بنِ عبد المطلب رضي الله عنه ظهوراً يمثِّلُ أعظمَ بطولات الشّجعان وأرفعها، وكان لاستشهاده في غزوة أُحدٍ وقعٌ شديدٌ على الحبيب المصطفى حبيبنا ومولانا رسول الله ﷺ، ممَّا ضاعف آلامَه ﷺ، وخصوصاً عندما رأى عمّهُ وصفيّهُ ـ أسد الله وأسد رسوله وأسد المسلمين ـ مجندلاً ومُمثّلاً به أشنعَ تمثيلٍ، فيقسمُ ليمثلنَّ بسبعين من المشركين إنْ أظفرهُ اللهُ بهم وأظهره عليهم؛ فتنزلُ الآيات تأمرُ بالصَّبر والعدل، فيرضى رسولُ الله ﷺ أكمل الرّضا، ويُسْلِم أجمل التّسليم لأمرِ الله عزَّ وجلَّ، ويصبرُ على مصابهِ في عمّه سيف الله وأسده كما صبرَ على مصابه في نفسه ﷺ.

* وها نحنُ أولاء نسوقُ قصَّةَ مقتل سيّدنا حمزة ـ من الصَّحيح ومن السِّيرة وكتب التّراجم والطَّبقات ـ منسَّقةً مختصرةً تُجملُ ما سبق من حياةِ حمزةَ وبطولاته يوم بدرٍ، وقتْله الأكابر من مشركي قريش.

* ولنتركْ قاتلَ حمزةَ والغادرَ به يسردُ قصّة الفاجعةِ التي أنزلتها حربتُهُ الغادرة بالمسلمين يوم أُحدٍ، قال وحشي: «إنَّ حمزةَ بنَ عبد المطَّلب قتَلَ طُعيمةَ بنَ عديّ بن الخيار ببدرٍ، فقال لي مولاي جُبَيرُ بنُ مطعم بن عديّ: إنْ قتلْتَ حمزة عمَّ محمّد ﷺ بعمّي طعيمة فأنتَ حُرٌّ».

فلمَّا خرجَ النَّاس إلى أُحدٍ خرجتُ معهم إلى القتال، وكنتُ رجلاً حبشيّاً أقذفُ بالحربةِ قَلَّ ما أخطىء بها شيئاً، فلمَّا اصطفَّ النَّاسُ للقتال خرج سِباعُ بنُ عبد العزّى الخُزاعيّ، فقال: هل من مبارز؟

= وأوريا بن حنان في زمن داود عليه السّلام، وحمزةُ بن عبد المطّلب في زمن رسول الله ﷺ» (تفسير القرطبيّ ١٥/ ١٦٨).

فخرجَ إليه حمزةُ بنُ عبد المطّلب فقال: يا سباعُ، يا بن أمّ أنمار، أتحادّ الله ورسوله؟ ثمّ شدّ عليه حمزةُ، فكان سباع كأمس الدَّابر.

وكَمنْتُ تحتَ صخرةٍ، ثمَّ جعلتُ ألوذُ من حمزةَ بشجرة، ومعي حربتي، فلمَّا دنا حمزةُ واستمكنتُ منه، هززتُ الحربةَ حتّى رضيتُ منها، ثمّ أرسلتُها فوقعتْ في ثنّته، وذهبَ ليقومَ فلمْ يستطعْ، فكان ذلك آخر العهد به، وتركتهُ حتى مات، ثم أتيتُه فأخذتُ حربتي، ثم رجعتُ إلى المعسكرِ وقعدتُ فيه، ولم يكنْ لي بغيره حاجة، إنّما قتلتُه لأعتقَ.

فلمَّا رجعَ النّاسُ إلى مكّةَ رجعتُ معهم فأقمتُ بمكّةَ حتَّى فَشَا فيها الإسلامُ، ثمَّ خرجتُ إلى الطَّائف، فأرسلَ أهل الطَّائف رسلاً إلى رسولِ الله ﷺ، ثمّ قيل لي: ويحك؛ إنَّ رسولَ الله ﷺ لا يهيجُ الرّسل ولا يزعجهم ولا يقتلُ أحداً من النَّاس دخل في دينهِ وشهد شهادة الحقّ.

فخرجتُ معهم حتّى قدمتُ على رسولِ الله ﷺ فلمّا رآني قال: «أنتَ وحشيٌّ»؟

قلتُ: نعم.

قال: «أنتَ قتلتَ حمزةَ»؟

قلتُ: قد كان مِنَ الأمرِ ما بلغَكَ.

ثمَّ قال ﷺ: «فهل تستطيعُ أنْ تغيّبَ وجهكَ عنّي»؟ وفي روايةٍ: «يا وحشي، اخرجْ فقاتلْ في سبيلِ اللهِ كما كنتَ تصدُّ عن سبيل الله».

فخرجتُ، فكنتُ أتّقي أنْ يراني رسول الله ﷺ، حتّى قبضَه اللهُ عزَّ وجلَّ، فلمَّا كان من أمرِ مُسيلمة ما كان انبعثتُ مع النّاس لمقاتلةِ مُسيلمةَ الكّذاب، فأخذتُ حربتي، فقلتُ: لَعَلِّي أقتله فأكافىءُ به حمزة. فخرجتُ مع النَّاس، فإذا رجلٌ قائمٌ في ثلمةِ جدار كأنّه جملٌ أورق ثائر الرَّأس، ـ وهو مُسيلمةُ ـ فرميته بحربتي فأضعُها بين ثدييه حتّى خرجَتْ من كتفيه، ووثب إليه رجلٌ من الأنصار فضربه بالسَّيف على هامته، فربُّكَ أعلم أيّنا قَتَلَه، فإنْ أكُ قتلته، فقد قتلتُ خيرَ

النَّاس ـ يعني حمزة ـ وشرّ النَّاس ـ يعني مسيلمة ـ»[1].

* ويقصُّ القُرطبيُّ رحمه الله في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» قصَّة مقْتلِ سيّدنا حمزة رضي الله عنه، ويشيرُ إلى تحريض جُبير بن مطعم، وهندٍ، لوحشي حتى يقتُلَ أحد رجالِ أهلِ البيت النّبويّ، إذ إنّ في قلبهِ مثل الجمر منهم لأنَّهم فصلوا رأس عمّه طُعيمة عن جسدهِ في غزوة بدرٍ، وأخذ جُبيرُ بنُ مطعم يُمَنّي وحشياً الأمانيَ العِظامَ إنْ قتلَ أحدَ الرّجال الهاشميين الأخيار، يقول القُرطبيُّ موضحاً هذه الصُّورة: «. . . . وفي هذه الغزاة قتِلَ حمزةُ رضي الله عنه، قتَلَه وحشيٌّ، وكان وحشيٌّ مملوكاً لجبير بن مطعم، وقد كان جبير قال له: إنْ قتلتَ محمّداً جعلنا لك أعنّة الخيل، وإن أنتَ قتلتَ عليَّ بنَ أبي طالب جعلنا لك مئة ناقة كلُّها سود الحدّق، وإنْ أنت قتلتَ حمزةَ فأنتَ حُرٌّ.

فقال وحشيٌّ: أمَّا محمّدٌ فعليه حافظٌ من اللهِ لا يخلصُ إليه أحد، وأمَّا عليٌّ ما برزَ إليه أحد إلا قتَلَه، وأمّا حمزةُ فرجلٌ شجاع، وعسى أنْ أصادفه فأقتله.

وكانت هند ـ بنت عتبة ـ كلّما تهيأَ وحشي أو مرّتْ به قالتْ: إيّهاً أبا دسمةَ اشْفِ واستشفِ.

فكَمِنَ له خلفَ صخرة، وكان حمزةُ حَمَل على القومِ من المشركين، فلمّا رجعَ من حملته؛ ومرَّ بوحشي، زَرَقَه بالمِزْراقِ فأصابه فسقطَ ميتاً، رحمه الله ورضي عنه.

قال ابنُ إسحاق: فبقرتْ هندٌ عن كبدِ حمزةَ فلاكَتْها ولمْ تستطعْ أن تسيغَها فلفظَتْها. . . »[2].

---

(١) صحيح البخاريّ برقم (٤٧٠٢)، وسير أعلام النّبلاء (١/ ١٧٤ ـ ١٧٦) مع الجمع والتّصرّف. وانظر: السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (٣/ ١٠٢ ـ ١٠٥)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٦/ ٢٦١ و٢٦٢)، ووفاء الوفاء (٣/ ٩٣٥) وغيرها كثير.

(٢) تفسير القرطبيّ (٥/ ١٨٧).

* بهذه الفاجعة فَقَدَ المسلمون بمصرع حمزة رضي الله عنه رجلاً لا كالرّجال، إذ إنّه يُعَدُّ بآلافِ الرّجال، وكان الرّجل الوحيد الذي استُشهد من رجالِ أهلِ البيت في هذه الغزوة، وكان رضي الله عنه من أكبر فرسانِ النَّبيّ ﷺ وأبطاله النّجباء، فقد تألّق يوم بدرٍ، وكان يوم أحد نجم المعركةِ السَّاطع، وبدرها الطّالع، وكان المشركون موتورين منه، وكانت قلوبهم تغلي كالمراجل حقداً عليه وغيظاً منه، لأنَّه صرعَ الأحبَّة من فرسانهم يوم بدر... ولكنّهم أجمعون يدركون أنَّ مواجهة حمزة بطلُ أهلِ البيت ليس بالأمرِ الهيّن، فشجاعته وقوّته تجعلُ فرائصهم ترتعدُ إذا أرادوا لقاءه.

* ولهذا الأمر صرفَ الموتورون وجوههم عن ملاقاته، وركنوا إلى الخبثِ والاغتيالِ، فتمَّ الاتّفاق بين جُبير بن مطعم وبين وحشي على عتقه شريطة أن يقتلَ حمزة بحربتِهِ الغادرة.

* نفَّذَ وحشيٌّ وعده بالاغتيال الدّنيء؛ وصُرِعَ الأسدُ حمزة لا كما تصرعُ الأبطال وجهاً لوجهٍ في حومات القتال، وإنّما كما يُغتالُ الكرام في غَسَقِ الدُّجى، وهل كان أحدٌ من شجعانِ العرب يظنُّ نفسه كفؤاً لحمزة ونزاله؟! وهل كان يظن أحدٌ أنْ يُهزمَ حمزة في معركة؟ ولكنْ ما عسى أن تغني الشّجاعة حين يكون الاغتيال بأيدي الغادرين؟!! وأيدي الجبناء؟!؟!.

* وزعمَ ابنُ هشامٍ في السِّيرة أنَّ هندَ بنتَ عتبةَ هي التي مثَّلت بجسدِ حمزةَ بنِ عبد المطّلب فقال: «ووقعتْ هندُ بنتُ عتبةَ والنّسوةُ اللاتي معها، يمثِّلنَ بالقتلى من أصحابِ رسول الله ﷺ يجدّعنَ الآذانَ والآنُفَ، حتى اتّخذت هندٌ من آذان الرِّجالِ وآنُفِهم خَدَماً وقلائدَ، وأعطت خَدَمَها وقلائدَها وقرطَها وحشيّاً غلامَ جبير بن مُطعم، وبقرتْ عن كبدِ حمزةَ فلاكَتْها، فلم تستطعْ أنْ تسيغَها، فلفظَتْها، ثمَّ علَتْ على صخرةٍ مشرفةٍ، فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نحـــنُ جَــزَينــاكـــمْ بيــومِ بَــدْرِ والحَرْبُ بعـدَ الحربِ ذاتُ سُعْـرِ

مَـا كَـان عـن عُتْبـةَ لـي مـن صَبْـرِ ولا أخـــي وعمّـــه وبكْـــري
شفيــتُ نفســي وقضيــتُ نَـذْري شفيــتَ وحشــيّ غليــلَ صــدري
فشكْـــرُ وحشـــيّ عَلَـــيَّ عُمْـــري حتّـى تـرمّ أعظمـي فـي قبـري»(١)

* قال ابنُ إسحاق: «وقالت هنْد بنت عتبةَ أيضاً:

شفيـتُ مـن حمـزةَ نفسـي بـأُحـد حتّـى بَقَـرتُ بطنَـه عـن الكَبِـد
أذهَـبَ عنّـي ذاك مـا كنـتُ أجـد من لَذْعةِ الحزن الشَّديد المُعتمد
والحـربُ تعلـوكـم بشـؤبـوبٍ بَـرِد تُقْـدِمُ إقـدامـاً عليكـم كـالأسـد(٢)»

* وأضافَ صاحبُ السِّيرةِ الحلبيّةِ إضافاتٍ أخرى عن التّمثيل بسيِّدنا حمزة، وعن دور هندٍ في هذا المجال قال: «ثمَّ إنَّ هنداً زوج أبي سفيان والنّسوة اللاتي خرجْنَ معها صِرْنَ يمثّلْنَ بقتلى المسلمين يجدعنَ من آذانهم

---

(١) السِّيرةُ النّبويّةُ مع شرحِ أبي ذرّ الخشني (٣/ ١٣٢ و١٣٣)، ومعنى «يجدّعنَ»: يقطعن وأكثر ما يُقال في الأنف. و«الخدَم»: جمع خَدَمة: وهي الخلخال. و«بقرت عن كبد حمزة»: شقَّت بطنَه. يقال: بَقَر بطنه: إذا شقّه. و«لاكتها»: مضغتها. و«أن تسيغَها» أن تبتلعَها. و«لفظتها»: طَرحَتْها ورمتها. و«الحربُ بعد الحرب ذات سُعْر»: أي ذات التهاب. و«غليل»: الغليل العطش، والغليل: حرارةُ الجوف. و«حتّى ترمّ أعظمي في قبري»: أي تبلى وتتفتّت. والعظم الرّميم: هو العظمُ البالي.
قال العلاّمة الزّرقانيّ: قال الحافظُ أبو الرّبيع في الاكتفاء: «هذا قولُ هندٍ والكفرُ يخنقُها، والوترُ يقلقها، والحزنُ يحرقها، والشَّيطان يُنطقُها. ثم إنَّ اللهَ هداهَا للإسلام وعبادةِ الله، وتَرْكِ الأصنام، وأخَذَ بحجزتها عن سوء النّار. ودلّها على دار الإسلام، فصلحتْ حالُها وتبدّلَتْ أقوالُها، حتّى قالتْ له ﷺ: والله يا رسولَ الله، ما كان على الأرضِ أهلُ خباءٍ أحبّ إلي مِنْ أنْ يذلّوا من أهلِ خبائك، وما أصبحَ اليوم أهل خباءٍ أحبّ من أنْ يعزّوا من أهلِ خبائك. وكان إسلامُها وإسلامُ زوجِها أبي سفيان عام الفتح» (السّيرة النّبوية لأحمد زيني دحلان ٢/ ٦٠).
(٢) السّيرة النّبويّة (٣/ ١٣٤). ومعنى «لذعة الحزن»: اللذعة: أَلَم النَّار أو ما يشبه بها. و«المعتمد»: القاصد المؤلم. و«شؤبوب»: الشّؤبوب: دفعة المطر الشّديد. و«برد»: ذو برد، شبهت الحرب بها. ومن الواضح لكلّ ذي بصيرة أنَّ هذه الأبيات ركيكة وضعيفة النّسج، ولعلّها مصنوعة لتناسب واقعة قتل سيّدنا حمزة والله أعلم.

وأنوفهم، واتّخذن من ذلك قلائد، وبقَرتْ هندٌ بطن سيّدنا حمزة رضي الله عنه، أخرجتْ كبدَهُ فلاكَتْها، فلم تستطعْ أن تسيغَها، فلفظَتْها من فيها، وكانت هندٌ نذرت إنْ قدرتْ على حمزةَ رضي الله عنه لتأكلنَّ من كبده، ولما بلغ رسول الله ﷺ أنّها أخرجتْ كبدَ حمزة قال «هل أكلتْ منه شيئاً»؟

قالوا: لا.

قال: «إنَّ اللهَ قد حرَّمَ على النَّار أنْ تذوقَ من لحم حمزةَ شيئاً أبداً» أي: ولو أكلتْ منه واستقرّ في جوفها لم تمسّها النّار.

* وفي رواية: «لو دخلَ بطنها لم تمسَّها النّار» لأنَّ حمزة أكرمُ على اللهِ من أنْ يدخلَ شيءٌ من جسدهِ النَّار».

* قال برهان الدّين الحلبيّ: «ورأيتُ في بعض السِّير أنَّها شوتْ منه، ثمّ أكلت»!!!.

* وفي رواية: «أنَّ وحشيّاً هو الذي بقرَ بطنَ حمزةَ رضي الله عنه، وأخرج كبده وجاء بها إلى هندٍ، وقال لها: ماذا لي إنْ قتلتُ قاتلَ أبيك؟

قالت: سَلْبي ـ جمع أسلاب ـ أو قالت: سَلْني.

فقال: هذه كبدُ حمزة، فأعطتْه ثيابَها وحليَها، ووعدته إذا وصلتْ إلى مكّةَ تدفع لها عشرة دنانير وجاء بها إلى مصرعِ حمزة رضي الله عنه فجدعَتْ أنفه وأذنيه، وفي لفظ: فقطعَتْ مذاكيره، وجدعَتْ أنفه وقطعت أذنيه، ثمّ جعلت ذلك كالسِّوار في يديها، وقلائد في عنقها واستمرّت كذلك حتّى قدمت مكّة».

* وأفاد الحلبيُّ بأنّه قرأ في «النّهر» لأبي حيَّان «أنَّ وحشيّاً جُعل له على قَتْل حمزةَ أنْ يُعتق، فلمْ يوفَّ له بذلك، فندمَ على ما صنعَ»[1].

* سارت قصَّةُ هندٍ ومضغها كبد سيّدنا حمزة مسرى الأمثال عند كثيرٍ من

---

(١) السّيرة الحلبيّة (٢/ ٥٢٩ و٥٣٠)، وانظر: المصباح المضيء لابن حديدة (ص ٩١).

النَّاس، وصارت من المُسَلّمات والحقائق؛ وأخذ كثيرٌ من الكُتَّاب والمصنّفين المعاصرين يتفنَّنون في عرضِ هذه القصّة وتدبيجِها، وزخرفتِها بزخارفِ القولِ، وأفانين التَّنميق، دون أن يتحقَّقوا من القصّة بشكلٍ يقنعُ النُّفوس.

* وسنوردُ بعضَ الأمثلة من كتب السِّيرة لمؤلّفين معاصرين لتتوضَّح الصُّورة، ثمَّ نذكرُ رأينا في هذه الحادثة.

* تفنَّن الأستاذُ «عبد الحميد السَّحَّار» في موسوعتِهِ اللطيفة «السِّيرة النَّبويَّة» بهذه القصَّة فقال ما رسْمُهُ ونصَّهُ: «. . . . وجاء وحشيٌّ إلى هند بنتِ عتبةَ، فقال لها: ماذا لي إن قتلتُ قاتل أبيك؟ قالت: سَلْنِي.

فأخبرها أنَّه قتل حمزة، فتهلَّلتْ أساريرها، فأعطتْهُ ثيابَها وحليَها، وكان في ساقَيْها خَدَمتان ـ خلخالان ـ من جزع ظفَار ـ بَلدٌ باليمن ـ وأساور وخواتيم في أصابع رجلَيها، ثمَّ قالت: إذا جئتُ مكّة فَلَكَ عشرةُ دنانير.

ووقفتْ ترنو إلى وحشيّ في نشوة، ثمَّ قالت: أرني مصرَعه.

فراحا يجوسان خلال الجثثِ التي ملأتْ أرضَ المعركة حتّى إذا ما رأتْ حمزة قتيلاً انقضَّتْ عليه، وبقرتْ عن كبدِهِ فلاكتْها، فلمْ تستطعْ أن تسيغَها فلفظَتْها. وجاء نسوةُ قريشٍ يمثّلنَ بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ ويجدعنَ الآذانَ والآنُفَ، حتّى اتّخذت هندٌ من آذان الرِّجال وآنُفهم خدماً وقلائد»[1].

* وشارك «محمّد حُسين هيكل» في كتابه «حياة محمَّد» غيره من المعاصرين في التَّفنُّن بعرض قصَّة مقتل سيّدنا حمزة، والتّمثيل بقتلى المسلمين، وتشفّي هند بن عتبة من سيّدنا حمزة فقال ما صورته: «. . . وأمّا هندُ بنتُ عتبة فلم يكْفِها النَّصرُ، ولم يكْفِها قتلُ حمزةَ بنِ عبد المطّلب، بل

---

(١) السّيرة النّبويّة للسّحّار ـ غزوة أحد ـ (ص ٧٠ و٧١). أقول: «هذا الكلام والوصف مُتَأَنَّقٌ به، ويصلح لمشهد تمثيلي من الأفلام الاستعراضية في وقتنا هذا، والتي أضاعت كثيرين وخدعتهم».

انطلقتْ هي والنّسوةُ اللاتي معها يمثّلنَ بالقتلى من المسلمين يَجْدَعْنَ الآذانَ والأنوفَ، وجعلت هندُ لنفسها منها قلائدَ وأقراطاً، ثمّ إنّها بقرَتْ بطْنَ حمزة وجذبتْ بين يديها كبده، وجعلت تلوكُها بأسنانها فلا تستطيعُ أنْ تسيغَها. وبلغ من شناعةِ ما فعلت وما فعل النّسوة ممّن معها[1]، بل ما فعل الرِّجالُ كذلك من الفظائع، أنْ تبرّأ أبو سفيان من تبعتها، وأعلنَ أنّه لم يأمرْ به، وإن كان قد اشتركَ فيه، بل قال يخاطبُ أحد المسلمين: إنَّه قد كان في قتلاكم مَثَلٌ، واللهِ ما رضيتُ وما سخطتُ، وما نهيتُ، وما أمرت»[2].

* وأمّا في معرض حديثه عن غزوة أُحُدٍ فيقول الشَّيخ «محمّد الغزالي» رحمه الله في «فقْه السِّيرة»: «... ثمّ أُصيبَ رسولُ الله ﷺ في أهله، فَقُتِل حمزةُ بحربةٍ انغرزتْ في أحشائِهِ، وجاءتْ هندُ امرأة أبي سفيان فاستخرجت، كبده من بطنِهِ ولاكَتْها بفمها، ثمَّ لفظَتْها لانفجارِ المرارة»[3].

---

(١) تذكرُ المصادر بأنَّه كان للمرأةِ قديماً دورٌ كبيرٌ في الحرب، لأنّها رمزُ القوةِ المعنويةِ يستلهمها الرَّجلُ في ساعات الشّدّة والضّيق، فيستمدُّ عزماً من رؤيتها إلى جانبه، فتثور فيه الحميةُ والحماسةُ والشَّجاعة.
وقد رويت لنا مواقعُ كثيرةٌ رافقتْ فيها النّساء الرّجال إلى ميادين القتال، حتى إذا رأين دائرةَ الحرب أوشكت أنْ تدورَ على قبيلتهنّ، حَسَرْنَ البراقع، وكشفْنَ الشّعور، وبرزْنَ إلى المعمعة، يستثرنَ حميّة الرّجال، ويدفعنهم إلى الدّفاع عنهنّ، وحمايتهنّ من السّبي وهوانه.
فالمرأةُ كانت تثيرُ الهمم في نفوس الرّجال، وتحرضهم على القتال، فعندما كانت معركة أحد، قامت هندُ بنتُ عتبة في النّسوة اللاتي معها، وأخذن الدُّفوف يضربْن بها خلف الرّجال ويحرضنهم.
وكانت بعضُ النّسوة يشتركنَ في الحرب فعلاً من مثل أمّ عمارة نسيبة بنت كعب الأنصاريّة وغيرها. ويذكر الرُّواة أنَّ النّساء كُنّ يحملن القتلى بعد أنْ تنتهي المعارك.
لقد كانت المرأةُ مبعثَ الهمم، فكانت الكلمة تخرج من فيها هادئة وادعة، فيكون له أبعد الآثار في إثارة النّفوس.

(٢) حياة محمّد (ص ٣٠٠) مكتبة النّهضة المصريّة ـ القاهرة ـ ط٦ ـ ١٩٥٦ م.

(٣) فقه السّيرة لمحمّد الغزاليّ (ص ٢٦٤) دار القلم ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٩ م.

* وأسهم الدّكتور «محمّد أبو شهبة» في الحديث عن المشركات وهنّ يمثّلنَ بشهداء أُحُدٍ مستنداً إلى السِّيرة الهشاميّة، وأبرز صورةَ هند بنتِ عتبة بطريقةٍ وحشيّةٍ عندما بقرتْ بطنَ سيّدنا حمزةَ، فقال: «حالما وقعتِ الهزيمةُ بسبب مخالفة الرّماة أَمْرَ الرّسول ﷺ، وأُصيب مَنْ أُصيب من المسلمين، انطلقت هندُ بنتُ عتبة والنّسوةُ اللاتي كنَّ معها إلى قتلى المسلمين، يمثّلن بهم بحقدٍ وغيظٍ وشراسة، فصرنَ يجدعنَ الآذان والأنوف، ويبقرن البُطون، حتّى إنّ هنداً بقرتْ عن كبدِ سيّدِ الشّهداءِ حمزةَ فلاكتْها، فلمْ تستطعْ أنْ تسيغَها فلفظَتْها، وبالغْنَ في التّمثيل بالشُّهداء، ونَسينَ صُنْعَ الرَّسولِ والمسلمين في قتلاهم ببدر، حيث أمرَ بدفنهم، ولم يتركْهم للسِّباع والطَّير، فضلاً أنْ يمثِّلوا بأَحَدٍ منهم، فشتّان ما بين الصَّنيعَيْن!! وصنعتْ هند من الآذانِ والأنوفِ خلاخيلَ وأقراطاً وقلائدَ، وأعطتْ وحشيّاً قلائدَها وخلاخيلَها وأقراطَها مكافأة له على جريمتِهِ النّكراء...»[1]!!.؟!.

* وتفتّقَ خيالُ «خالد محمّد خالد» تفتّقاً عجيباً غريباً عن هذه الكلمات التي تصلحُ لمشهدٍ من «فلم سينمائي»، وقد صوَّرَ من خلالها هند بنت عتبة[2] وهي تمضغُ كبد حمزة التي استعصتْ على أنيابها!!!. يقول خالد محمّد خالد:

---

(١) السّيرة النّبويّة في ضوء القرآن والسُّنَّة (٢/ ٢٠٧) دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

(٢) وعن هندٍ يقولُ خالد محمّد خالد في موضع آخر: «كانت هندٌ قد فقَدَتْ في معركةِ بدرٍ أباها وعمّها وأخاها، وابنها، وقيل لها: إنَّ حمزةَ هو الذي قتلَ بعضَ هؤلاء، وأجهزَ على البعض الآخر، من أجلِ هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيّات تحرّضاً على الخروج للحرب، لا لشيء إلا لتظفر برأسِ حمزةَ مهما يكن الثّمن الذي تتطلّبه المغامرة. ولقد لبثت أياماً قبل الخروج للحرب، ولا عمل لها إلا إفراغ كلّ حقدها في صدر وحشي، ورسم الدّور الذي عليه أنْ يقومَ به، ولقد وعدته إنْ هو نجح في قَتْلِ حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة، فلقد أمسكتْ بأناملها الحاقدة قرطَها اللؤلؤي الثّمين، وقلائدها الذّهبية التي تزدحم حول عنقها، ثمّ قالتْ وعيناها تحدّقان في وحشي: كلّ هذا لك إنْ قتلتَ حمزة. وسالَ لعابُ وحشي، وطارت خواطره توَّاقة مشتاقة إلى المعركةِ التي سيربحُ فيها حريته، فلا يصيرُ عبداً أو رقيقاً»!!! (رجال حول الرّسول ص ٢١٦). دار الكتاب العربي ـ ط ٢ ـ ١٩٧٢ م.

«لقد أمرتْ هندُ بنتُ عتبة زوجة أبي سفيان، أمرتْ وحشيّاً أنْ يأتيها بكبدِ حمزة، واستجاب الحبشيُّ لهذه الرّغبة المسعورة، وعندما عادَ بها إلى هند كان يناولُها الكبدَ بيمناه، ويتلقّى منها قرطَها وقلائدها بيسراه، مكافأة له على إنجازِ مهّمته. ومضغت هندُ بنتُ عتبة كبدَ حمزةَ راجيةً أنْ تشفي تلك الحماقةُ حقدَهَا وغلَّها، ولكنَّ الكبدَ استعصتْ على أنيابها، وأعجزتها أنْ تسيغَها، فأخرجَتْها من فمِها...»[1]!!!...

* وقال «أمين دُويدار» متحدّثاً عن تمثيلِ هند بسيّدنا حمزةَ: «ومثَّلتْ هندُ بنتُ عتبةَ بحمزةَ عمّ رسولِ الله أفظعَ تمثيل، فلمْ يكفها أنْ جَدَعت أنفَه وأذنيه، حتّى بقرتْ بطنَه وأخرجتْ كبده، فجعلتْ تقضِمُها بأسنانها؛ وتأكلُ أكْلَ المغيظ المحنق، فلمّا لم تستطعْ أنْ تُسيغَها لفظتها».

* هذه بعضُ الصُّورِ والأحداثِ والكلمات اقتطفْتُها من مصادرَ ومراجعَ متنوعةٍ؛ وجميعها تتّهِمُ السَّيِّدةَ هندَ بنتَ عتبةَ بأنَّها قد بقَرَتْ بطْنَ سيّدنا حمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه ولاكتْ كبده، فلمْ تستطعْ أنْ تبتلعَها، فلفظَتْها من فمها، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لو دخلَ بطنها لمْ تمسَّها النَّار» وأنَّها اتّخذت من أُنوف الشُّهداء وآذانهم حليةً من أساورَ وأقراطٍ وخلاخيلَ بدلًا من حلْيتها الذَّهبيَّة الثَّمينة التي وهبتها لوحشيّ بن حرب الذي غدرَ بسيّدِ الشُّهداء وفارسِ أهلِ البيت حمزة رضي الله عنه. وقد لاحظنا كيف تفنَّن كلّ مصنّفٍ بذكْرِ القصَّة، وكيف وشَّاها بحلَى البلاغة وحليةِ الفصاحة ونصاعةِ الألفاظ، والتَّلاعب بالكلماتِ والعواطف والمشاعر والعُقول، وذلك لتصوير شناعة هذه الجريمة النّكراء التي اقترفَتْها هندُ بنتُ عتبة العبشميّة[2].

(١) رجال حول الرّسول (ص ٢١٩ و٢٢٠). أقول: «كم أضاع مثل هذا الكلام المنمّق كثيراً من الحقائق بين سطوره المزخرفة، وألفاظه التي توقع الأغرار في أفخاخ الظّلمات، وغيابات الفَلَوات خصوصاً وأنّ كثيراً من الأفلام والمُسلسلات ـ الإسلاميّة والتّاريخيّة المزعومة ـ قد اعتمدت على مثل هذه التّعابير والكلمات؛ وهذه المراجع الخاوية الطَّنّانات».

(٢) ذهب بعضُ الحمقى والمغفّلين إلى فهم هذه القصّة فهماً مضحكاً؛ من ذلك ما جاء في مصادر=

* هذه القصصُ وأمثالُها ينبغي التَّمحيص فيها، والوقوف عند الحقائق، ليعرفَ الإنسان الحقَّ ويتّبعه.

* ونودُّ أنْ نسألَ الآن بوضوح: «هل السَّيِّدة هند بنت عتبة بَقَرتْ بَطْنَ سيّدنا حمزةَ»؟!

* والإجابةُ عن هذا السّؤال تكفّلت به مصادرُ كثيرةٌ منها: نَسَبُ قريش، والاستيعابُ، وجمهرةُ أنسابِ العرب، والمغازي، والوافي بالوفيَات، وغيرُهَا.

* إذن، فَمَن الذي بقَرَ بطْنَ سيّدنا حمزة ومثَّلَ به؟!

* أجاب في كتابه الشَّهيرِ «نسب قريش» المُصعب الزُّبيريّ عن هذا السُّؤال عندما تحدَّث عن وَلَدِ العاصي بن أميّة فيقول: «ووَلَدَ المغيرةُ بن أبي العاصي: معاوية: قَتَلَهُ النَّبيّ ﷺ صَبْراً منصرفه من أُحدٍ، وهو الذي مثَّل بحمزةَ بنِ عبد المطَّلب بأُحُدٍ؛ وأمُّه: بُسرة بنت صفوان[1] بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى...»[2].

* وأفصح ابن عبد البرِّ في «الاستيعاب»: «بأنَّ الذي مثَّلَ بحمزةَ بن عبد المطَّلب معاويةُ بنُ المغيرة بن أبي العاص بن أميَّة، وقتَلَه النَّبيُّ ﷺ صبْراً منصرفه من أُحُدٍ»[3].

= الأدب قالت: «قال أبو كعب القاصّ في قصصه: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في كبدِ حمزة ما قد علمتم، فادعوا الله أنْ يطعمنا من كبدِ حمزة» (عيون الأخبار ٢/ ٤٦). وقال أبو سالم القاصّ: «لو كانت هندُ بنتُ عتبة حين لاكت كبدَ حمزة أجازتْها إلى جوفها ما مسّتها النّار» فقال النّهرتيري: «اللهمّ أطعمنا من كبد حمزة». (التّذكرة الحمدونيّة ٣/ ٢٧٩)، و(بهجة المجالس ٢/ ٥٥٠).

(١) اقرأ سيرة الصَّحابية بُسرة بنت صفوان في كتابنا «نساء من عَصْر النّبوّة» (ص ٤٤٦ ـ ٤٥٠) ففي سيرتها فوائد جليلة.

(٢) نسبُ قريش (ص ١٧٣)، وانظر: الوافي بالوفيات للصّفدي (٢٧/ ٢٣٠).

(٣) الاستيعابُ (٤/ ٤١٠ و٤١١)

* وأكّد ابنُ حزم في «جمهرته» ما ذهب إليه ابنُ عبد البرّ فقال: «وولد المغيرةُ بن أبي العاصي بن أميّة: معاوية، قتَلَهُ رسولُ الله ﷺ مُنْصَرَفَهُ من أُحُدٍ صبراً، وأمُّه: بسرةُ بنتُ صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزّىٰ، مُهاجرة؛ لها صُحبة»[1].

* وشدَّدَ ابنُ دُريد في «الاشتقاق» وحدَّدَ بأنَّ معاوية هذا هو الذي اقترف جريمة التَّمثيل بحمزةَ فقال: «معاويةُ بنُ المغيرة بن أبي العاص، وهو الذي مثَّلَ بحمزةَ رضي الله عنه فَتُيِّهَ، فَقَتَلَهُ رجلٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ بعد ثالثة»[2].

* أمَّا كيف قُتِلَ هذا المجرمُ الباغي، وكيف وقعَ في أيدي المسلمين واقتصُّوا منه، فإنَّا ذاكرو ذلك بإذن اللهِ تعالى.

* كان معاويةُ بنُ المغيرة هذا ـ وهو جدُّ عبد الملك بن مروان لأمّه ـ قد اشتركَ في معركةِ أُحُدٍ مع المشركين، وانهزم أوَّل الأمْرِ مع المنهزمين منهم، ولمَّا رجعَ المسلمون من أُحدٍ أرسلَهُ المشركون إلى المدينةِ يتجسَّسُ أخبارَ النَّبيِّ ﷺ، ويكشفُ عن أحوالِ المسلمين، وما هم عازمون عليه، ومضى على وجههِ فنام قريباً من المدينةِ، ولمَّا أصبح دخلَها فأتى منزلَ سيّدنا عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه، فضَرَبَ بابَه، فقالت امرأتُه أمُّ كلثوم بنتُ رسول الله ﷺ: ليس هو هاهنا، هو عند رسولِ الله ﷺ.

قال: أرسلي إليه، فإنَّ له عندي ثمنَ بعيرٍ اشتريتُه عامَ أوّلٍ فجئتُه بثمنه، وإلاّ ذهبْتُ.

فأرسلت أمُّ كلثوم إلى عثمانَ فجاء، فلمّا رآهُ قال: ويحكَ، أهلكتني وأهلكتَ نفسَكَ، ما جاء بك؟

فقال: يا بن عمّ، لم يكنْ أَحَدٌ أمسَّ بي رحماً منك فأجِرْني، فأدخله

---

(١) جمهرةُ أنساب العرب (ص ١١٠).

(٢) الاشتقاق (ص ٧٧).

عثمانُ في ناحيةِ البيت، ثمَّ خرجَ إلى النَّبيّ ﷺ ليأخذَ له أماناً، فسمعه يقولُ لأصحابه: «إنَّ معاويةَ قد أصبحَ بالمدينةِ فاطلبوه».

فطلبوه فلمْ يجدوه، ثمَّ دخلوا بيتَ عثمان، فأشارتْ إليهم أمّ كلثوم إلى مخبئِهِ فأخرجوه، وأتوا به رسولَ الله ﷺ، فأمرَ بقتله، فقال عثمانُ رضي الله عنه: «والذي بعثَكَ بالحقِّ، ما جئتُ إلاَّ لآخذَ له أماناً، فهَبْه لي يا رسول الله». فوهبَهُ له، وأمَّنَه، وأجَّله ثلاثاً، فإنْ وُجِدَ بعدهنَّ قُتِلَ.

فخرجَ عثمانُ فاشترى له بعيراً وجهَّزَه، ثمَّ قال له: ارتحلْ، فارتحلَ، وسار رسولُ الله ﷺ إلى حمراء الأسد، وأقام معاويةُ ثلاثاً يستعلمُ أخبارَ المسلمين، ليأتي بها قريشاً، فلمَّا كان اليوم الرَّابع جلسَ معاويةُ على راحلته، وخرج، فبلغَ رسولُ الله ﷺ خَبَرَهُ، فقال: «إنَّ معاويةَ قد أصبحَ قريباً فاطلبوه»، فخرج في أثرِه زيدُ بنُ حارثةَ، وعمار بن ياسر، فقال لهما ﷺ: «ستجدانه بموضعِ كذا وكذا» فوجداه به، فقتلاه، ثمَّ رجعا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه[1].

* ومن ثنايا هذا الخبر نعلم بأنَّ هنداً لم تبقرْ بطْنَ سيّدنا حمزة رضي الله عنه، وإنّما معظمُ الأخبارِ تدلُّ على أنَّ رجالاً من المشركين وفيهم معاويةُ بنُ المغيرة قد مثَّلوا بسيدنا حمزة وبشهداء المسلمين.

* ذكر ابنُ عساكر في «تاريخه» قال: «كانت هندٌ قد نذرتْ لئن قدرتْ على حمزةَ بنِ عبد المطَّلب لتأكلنَّ من كبده، فلمّا كان حيثُ أصيب حمزةَ، ومثَّلوا بالقتلى جاؤوا بحَزَّةٍ من كبده، فأخذتْها تمضغُها لتأكلَها، فلمْ تستطعْ أنْ تبتلعَها فلفظتها، فبلغَ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ اللهَ قد حرَّم على النَّار أنْ تذوق من لحم حمزة شيئاً أبداً»[2].

* وشهد شاهدٌ من جنْس السَّيِّدةِ هند بنتِ عتبة، بأنَّها كانت من المنهزمات يوم أُحُد، فقد روت أمُّ عمارة نسيبةُ بنتُ كعب الأنصاريّة قصّة ذلك يوم أحد؛

---

(١) المغازي (١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤)؛ والرّسالة المحمّديّة (ص ٢٧٨ و٢٧٩) مع الجمع والتّصرّف.

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النِّساء ص ٤٤٦)؛ ولاحظ قوله: «ومثّلوا بالقتلىٰ».

وكانت السَّيدةُ نسيبةُ ممن يشهد الحرب، وقاتلتْ بنفسها، ودافعتْ عن النَّبيِّ ﷺ حتّى قال بحقّها: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلاّ وأنا أراها تقاتل دوني».

* ولننصتْ إلى أمِّ عمارةَ وهي تنقلُ لنا مشهداً من دور نساء قريش يوم أحد، فقد سُئلت أمّ عمارة فقيل لها: «هل كُنّ نساء قريش يقاتلن مع أزواجهنّ»؟

فقالت أمُّ عمارة في استغرابٍ شديد: «أعوذُ باللهِ، ما رأيتُ امرأةً منهنَّ رمَتْ بسهمٍ ولا بحجر؛ ولكن رأيتُ معهنّ الدّفاف والأكبار، يضربنَ ويذكّرنَ القومَ قَتْلَى بدر، ومعهنّ مكاحلَ ومراودَ، فكلَّما ولّى رجلٌ أو تكعكع، ناولَتْهُ إحداهنَّ مِروداً ومكحلةً ويقلن: إنّما أنتَ امرأةٌ! ولقد رأيتهنّ ولّينَ منهزماتٍ مشمّراتٍ ـ ولَهَا عنهنّ الرِّجالُ أصحاب الخيلِ، ونجوا على مُتُون الخيل، يتبعن الرّجال على الأقدام، فجعلن يسقطن في الطَّريق، ولقد رأيتُ هندَ بنتَ عتبة ـ وكانت امرأة ثقيلة لها ولها خَلْقٌ ـ قاعدةً خاشيةً من الخيل ما بها مَشْيٌ، ومعها امرأةٌ أخرى، حتَّى كَرَّ القومُ علينا، فأصابوا منّا ما أصابوا، فعند اللهِ نحتسبُ ما أصابنا يومئذٍ من قبل الرُّماة ومعصيتهم لرسولِ الله ﷺ»[١].

* ومن الموافقاتِ العجيبة أنَّ كثيراً من الصَّحابةِ ممَّن شهد أُحُداً، قال كلُّ واحد منهم: «والله إنّي لأنظرُ إلى هِنْدٍ وصواحبِها منهزماتٍ، ما دون أخذهنَّ شيءٌ لمن أرادَ ذلك»[٢].

* وللفائدة والحقِّ ذكرنا في كتابنا «بيعة النِّساء في القُرآن والسِّيرة» ما مفاده: «إنَّ ما أشيعَ بشدَّةٍ من أنَّ هنداً قد شقَّتْ بطنَ سيّدنا حمزة رضي الله عنه، وأخرجَتْ كبده ومضغَتْها، وفي بعض الرّوايات: أنّها شوت من الكبد ثمّ أكلت، فهذه القصّة فيها نظرٌ، وتحتاجُ إلى رويةٍ أكثر لأنّها ممطوطةٌ منفوخةٌ

---

(١) المغازي (١/ ٢٧٢)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ٤٤٧ و٤٤٨).

(٢) المغازي (١/ ٢٢٩).

مضطربةٌ، وقد وقع في هذا الاضطراب كثيرٌ من القدماء والمحدثين المعاصرين»[1].

* إنّنا لا نُخْرِجُ هند بنت عتبة من دائرة الاتّهام، ولكنّا نودُّ أنْ نزيلَ الغبش عن بعضٍ ما لحقها من إجحافٍ في أنّها ارتكبتْ هذه الجريمة العظيمة بحقِّ سيّدنا حمزة رضي الله عنه؛ مع العلم أنَّ معظمَ الصِّيغ قد وردت بصيغةِ المبني للمجهول: «بُقِرَ عن بطنه» أو بِصِيغٍ أخرى أشدّ إبهاماً وإيهاماً كقولهم: «زعموا، قيل، مثَّلوا، جاؤوا، ورَدَ. . . .».

* والخلاصةُ التي ينبغي أنْ نعرفَها ونستفيدَ منها بأنَّ موقعةَ أُحُدٍ فيّاضةٌ بالعِظَاتِ الغَوالي، والدُّروس القيّمة التي امتدّت نفحاتُها إلى يوم فتحِ مكّة، ودوّى صوتُ الحقّ قائلاً: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ، وسقط الشُّركاء جميعاً، وجاء الكبار والصّغار والرِّجال والنّساء إلى النّبيِّ ﷺ وبايعوه على السَّمْع والطَّاعة، وكان من بين جموع المبايعات: السَّيِّدة هندُ بنتُ عتبة التي أسلمتْ وبايعتْ ونُظِمَتْ في عدادِ المُسلمات المؤمنات، ثمَّ إنَّها جاهدتْ وصدقتْ في إيمانها ووفَتْ في بيعتها، وعفَا عنها رسولُ الله ﷺ ودعا لها بالبركةِ، وقَبِلَ منها هديّتها، وأما اللهُ عزَّ وجلَّ فقد وعدها الحُسْنَى هي وجميع الصَّحابيات والصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

* وأودُّ في نهايةِ هذه الفقْرةِ أنْ أضعَ عينَ القارىء وبصيرته على هذا الحديث الشَّريف المُعبِّر الذي وردَ في الصَّحيحَيْن، والذي يجعلنا نقفُ باحترام وأدبٍ أمام جميع الصَّحابة لحكمةٍ يريدُها اللهُ عزَّ وجلَّ، إذ هو العليمُ الخبيرُ، الفعَّالُ لما يريد، فلا يُسْألُ عمّا يفعل سبحانه وتعالىٰ.

* جاء في الصَّحيحَيْن بسند عن سيِّدنا أبي هُريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَضْحَكُ اللهُ إلى رجلَيْن يقتلُ أحدهما الآخر، كلاهما يدخلُ الجنَّة».

---

(١) بيعةُ النّساء في القرآن والسّيرة (ص ٢٢٦).

فقالوا: كيف يا رسولَ الله؟

قال: «يقاتلُ هذا في سبيل الله عزَّ وجلَّ فَيُسْتَشهَدُ، ثمَّ يتوبُ اللهُ على القاتلِ فَيُسلم، فيقاتلُ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيُسْتَشهد»[1].

«لن أُصَابَ بمثلِكَ»:

* فازَ ليثُ اللهِ حمزةُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه بوسامِ الشّهادةِ والاصطفاء من العليم الخبير، وكان أوّل رجال أهلِ البيت الأطهار الذين حظوا بهذا الشَّرفِ الوافي، وهذا المقام الكافي.

* إنَّ فوزَ المجاهد بنَيلِ الشَّهادة في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ هدفٌ عظيمٌ لا يصِلُ إليه إلا مَنِ اصطفاهُ الله ورضي عنه، وجعله في صفوةِ عباده من سالكي صراطه المستقيم من النَّبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، كما قال جلَّ

(١) أخرجه الشَّيخان: البخاريُّ في الجهاد والسِّير برقم (٢٨٢٦)، ومسلم في الإمارة برقم (١٨٩٠)، واللفظ له، ومعنى قوله: «يضحكُ اللهُ إلى رجلَيْن»: معناه: الإخبارُ عن رضا الله بفعل أحدهما وقبوله للآخر ومجازاتهما على صنيعهما بالجنَّة مع اختلافِ حاليهما. وقد تأوَّلَ البخاريُّ الضَّحك على معنى الرّحمة. وتأويله على معنى الرِّضا أقرب. فإنَّ الضَّحكَ يدلُّ على الرِّضا والقبول. والكرام يوصفون عندما يسألهم السَّائل بالبشر وحسن اللقاء، فيكونُ المعنى في قوله «يضحكُ اللهُ» أي يجزلُ العطاء. قال الخطّابيّ: «الضّحك الذي يعتري البشر عندما يستخفّهم الفرح أو الطَّرب غير جائز على الله تعالى، وإنَّما هذا مثَلٌ ضرب لهذا الصَّنيعِ الذي يحلُّ محلَّ الإعجاب عند البَشَر، فإذا رأوه أضحكهم». فالضّحك هاهنا استعارةٌ في حقّ الله عزَّ وجلَّ. وقوله: «يقاتل هذا في سبيل الله فيُستشهد»: قال ابنُ عبد البرّ: «معنى هذا الحديث عند أهل العلْم أنَّ القاتلَ الأوَلَ كان كافراً». قال ابنُ حجر: «قلتُ: وهو الذي استنبطَهُ البخاريّ في ترجمته، ولكنْ لا مانع أنْ يكونَ مُسلماً لعموم قوله: «ثمّ يتوبُ اللهُ على القاتل» كما لو قتَلَ مسلمٌ مسلماً عمداً بلا شبهةٍ ثمَّ تاب القاتل، واستُشهد في سبيلِ الله، وإنّما يمنع دخول مثل هذا مَنْ يذهب إلى أنَّ قاتل المسلم عمداً لا تُقبل له توبة. وقوله: «ثم يتوبُ اللهُ على القاتل فيستَشهد»: قال ابنُ عبد البر: «يُستفادُ من هذا الحديث أنَّ كلَّ مَنْ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ فهو في الجنَّة». والله تعالى أعلم.

جلاله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩].

* وإذا كان الشَّهيدُ ممَّن اصطفاهم اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّ من أعظم أهداف المجاهد أنْ ينالَ هذا الاصطفاء ليفوزَ بالحياةِ السَّعيدةِ الأبديَّة بعد مفارقته للحياة الفانية مباشرة.

* وعن بعض الحِكَم التي وقعت في غزوة أحدٍ يقول ابنُ قيِّم الجوزيّة رحمه الله في «الزَّاد»: «ومنها: أنَّ الشَّهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشُّهداء هم خواصّه والمقرّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيّة إلاّ الشَّهادة، وهو سبحانه يحبُّ أنْ يتّخذَ من عباده شهداء، تُراقُ دماؤهم في محبَّته ومرضاته، ويُؤثرون رضاه ومحابَّه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدَّرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدوّ»(١).

* ويدرجُ ابنُ قيّم الجوزية حكمةً أخرى في هذا المضمار القيّم فيقول: «ثمّ ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ حكمةً أخرى؛ وهي اتّخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنَّه يحبُّ الشّهداء من عباده، وقد أعدّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتّخذهم لنفسه، فلابدَّ أنْ يُنيلهم درجة الشَّهادة»(٢).

* لقد اتَّخذَ اللهُ عزَّ وجلَّ حمزة شهيداً يومَ أُحدٍ مع ثلّة من الصَّحابة الأبرار الذين توّجوا تاريخ البشريّة بأعمالهم وصدْقِ قتالهم، وكانوا ولا يزالون موضعَ الفخرِ والقدوةِ في الأمة، وقد أبقى اللهُ محبّتهم وإعزازهم في قلوب المؤمنين إلى يوم القيامة، ورفع ذكرهم في الأرض في قرآن يُتْلىٰ تتعاقبه الأجيال على مرِّ الدُّهور والأزمان في كلِّ مكان وزمان.

* لم يتركِ المشركون ساحة المعركة إلاّ بعد أنْ مثّلوا بالشُّهداء أشنعَ تمثيل، وعندما غادروا أرض المعركة، وشقُّوا طريق العودةِ إلى مكّةَ، قام

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢١ و ٢٢٢).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢٣).

رسولُ الله ﷺ وأشرف بنفسِهِ على الشُّهداء، وأمر بتجهيز الحُفَرِ لدفنهم، وكانوا سبعين شهيداً جاءت أسماؤهم مفصَّلةً مرتّبةً في مصادر السّيرة النّبويّة، وفي مقدّمتهم سيّدنا حمزة رضي الله عنه وأرضاه.

* أخرج البخاريُّ بسنده عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان النَّبيُّ ﷺ يجمعُ بين الرّجلين من قتلى أُحدٍ في ثوبٍ واحدٍ ثمَّ يقول: «أيّهم أكثر أخذاً للقرآن»؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه في اللّحد وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة» وأمرَ بدفنهم في دمائهم، ولم يُغَسَّلوا ولم يُصَلَّ عليهم»[1].

* كان منظرُ الشّهداء مريعاً، يكادُ يفتتُ الأكبادَ والقلوبَ، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يمسكَ دموعه من شدّة الحزن، بل لا يستطيع أحدٌ أنْ يضبطَ مشاعره إذ مثّل[2] بهم المشركون، فكان منظراً مريعاً لم يكنْ أوجع منه لقلبِ رسولِ الله ﷺ، فلمّا وقف على عمّه حمزةَ بكَاهُ، حيث وَجَدَهُ ممزّقاً قد صبَّ الحاقدون على جسده عصارةَ حقدهم وغدرهم وكيدهم.

* قال ابنُ إسحاق رحمه الله في السّيرة: «وخرج رسول الله ﷺ فيما

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز برقم (١٣٤٣).

(٢) «مثّلَ بهم»: من المُثْلة، عُرِفَتِ المُثْلَةُ عند الجاهليين، يقال: مُثّل بفلان: نكّل به تنكيلاً، بقطعِ أطرافه والتّشويه به، ومُثّل بالقتيل: جُدِعَ أنفه وأذنه، أو مذاكيره، أو شيئاً من أطرافه. وقد مُثِّلَ بسيّدنا حمزة بن عبد المطلب عمّ النَّبيّ ﷺ لمّا قتله وحشيُّ بنُ حرب غدراً، وقد نهى الإسلامُ عن المُثْلة بالإنسان وبالحيوان. (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي ص ٥٨٦ و٥٨٧).

ولم تكن المُثْلةُ بقتيل الحرب أو بالأسير محرّمة في قوانين ذلك اليوم، فقد كانوا يمثّلون بقتلى الحرب وبالأسرى بتقطيع أجزاء جسمهم، وتشويه جسمهم، يفعلون ذلك بالأسير حتّى يموت، وهو يشاهدُ أعضاءه تُقطعُ قطعاً من جسمه، وفي يوم الرّقم انهزمَ «الحكمُ بنُ الطُّفيل» في نَفَرٍ من أصحابه فيهم «خوّاتُ بنُ كعب» حتّى انتهوا إلى ماءٍ يُقال له: «المرورات» فقطع العطشُ أعناقهم فماتوا، وخنق الحكمُ بنُ الطفيل نفسه مخافة المُثلة، فقال في ذلك عُروة بن الورد:

عجبتُ لهم إذ يخنقون نفوسَهم ومقتلُهم تحتَ الوغى كان أعذرا

بلغني، يلتمسُ حمزةَ بنَ عبد المطّلب فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنُهُ عن كبده، ومُثِّل به، فَجُدع أنفه وأذناه»[1].

* وكان رسولُ الله ﷺ يحبُّ حمزة أشدَّ الحبّ، ويعزُّهُ ويقرّبُهُ، ويرىٰ فيه مثالَ الشَّجاعةِ والجرأةِ والإقدام، فقد كان سيّدنا حمزةُ رضي الله عنه عمَّ النَّبيّ ﷺ وأخاه في الرّضاعة، وكان مع هذا كلّه رجلاً يُعدُّ بالآلاف في المعارك، وكان مثلاً عالياً للشَّهامةِ والنَّجدةِ والنُّبلِ، وكان قرب رسول الله ﷺ عندما تكون الحربُ فتيةً مستعرةً، وكان يحصدُ رؤوس أهل البأس من المشركين ويريحُ منهم المسلمين، لذا كان مصرعه يوم أُحُدٍ من أكبرِ الخسائر العسكريّة الفادحةِ بالنّسبةِ للمسلمين، لأنَّه من الرّجال الأخيار الشُّجعان، ومن القادة ذوي البصيرة في الحرب، لذلك لم يُصَبِ النَّبيُّ ﷺ بمثله أبداً.

* قال ابنُ هشام: «ولمَّا وقف رسولُ الله ﷺ على حمزةَ قال: «لن أُصابَ بمثلك أبداً، ما وقفتُ موقفاً أغيظ إليَّ من هذا» ثمَّ قال: «جاءني جبريل فأخبرني أنَّ حمزةَ بنَ عبد المطلب مكتوبٌ في أهل السَّمواتِ السَّبعِ: حمزةُ بنُ عبد المطَّلب أسدُ الله وأسدُ رسوله»[2].

* واتَّفقتِ المصادرُ المتنوِّعةُ بأنَّ رسولَ الله ﷺ قال حين رأى ما رأى: «لولا أنْ تحزنَ صفيّة، ويكونَ سُنَّة من بعدي لتركتُه حتّى يكونَ في بطونِ السِّباع، وحواصلِ الطَّير، ولئن أظهرني في الله على قريش في موطنٍ من المواطن لأمثّلنَّ بثلاثين رجُلاً منهم» فلمَّا رأى المسلمون حزنَ رسولِ الله ﷺ وغيظَه على مَنْ فعل بعمّه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا اللهُ بهم يوماً من الدَّهْرِ لنمثّلنّ بهم مُثلة لم يمثلْها أَحَدٌ من العرب»[3]. فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا

---

(1) السّيرةُ النّبويّةُ مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (٣/ ١٣٨). أقول: «وقد جاء لفظ «بُقِرَ ومثِّل» بصيغة المبني للمجهول دون ذكر اسم أحد في هذا الموضع من السّيرة».

(2) السّيرة النّبويّة (٣/ ١٣٩)، وانظر: المعجم الكبير للطّبرانيّ برقم (٢٩٥٢)، ووفاء الوفاء للسّمهوديّ (٣/ ٩٣٥).

(3) انظر: السّيرة النّبويّة (٣/ ١٣٨ و١٣٩ و١٤٠)، وتفسير ابن عطيّة (ص ١١٢٤)، وتفسير =

صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ. . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

* وعندما نزلتْ هذه الآياتُ الكريمةُ صدعَ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ لِمَا أُمِر، وعَفَا وأحسنَ في العفو والصَّفح الجميل، وصبرَ ونهىٰ أصحابَه والنَّاسَ عن المُثْلَةِ وعن التَّشفِّي، وما قام ﷺ في مقام قط ففارقه، حتّى كان يأمرُ أصحابه بالصَّدقة وينهاهم عن المُثْلة[1].

* ولكنَّه ﷺ كان يخافُ على عمَّته صفية أنْ يصيبَها مكروهٌ إذا علمَتْ ما صنعَ الحاقدون بأخيها حمزةَ، فقد خرجت السَّيِّدةُ الحصيفةُ صفيةُ بنتُ عبد المطلب شقيقة سيّدنا حمزةَ تطلبُ أخاها أسد الله، وكان قد بلغَها ما نزل به، وكان الحبيبُ المصطفى ﷺ يعلم حبّها الشَّديد لحمزة أخيها، وخشيَ على عقلها، إنْ هي رأت ما بأخيها من مُثْلَةٍ وتشويه، فأوعزَ إلى ابنها الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه أن يعملَ على إرجاعها إلى المدينة حتى لا ترى ما حلَّ بأخيها وببعض الشُّهداء. وأسرعَ الزُّبيرُ والتقاها قائلاً: يا أمّه، إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمركِ أنْ ترجعي. . .

قالت: ولِمَ وقد بلغني أنَّه مُثِّلَ بأخي، وذلك في اللهِ، فَمَا أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنّ ولأصبرنَّ إنْ شاء الله.

= الطَّبري (١٤/ ١٩٥ و١٩٦) مع الجمع والتّصرّف. وقال ابنُ عطيّة رحمه الله في تفسيره المسمّى «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» عن سبب نزول آخر سورة النّحل: «أطبقَ أهلُ التَّفسير أنَّ هذه الآيةَ مدنيّةٌ نزلت في شأنِ التّمثيل بحمزةَ رضي الله عنه في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاريّ، وفي كتاب السِّير». وقال أيضاً: «روى الجمع أنَّ كفَّار قريش لمَّا مثَّلوا بحمزةَ رضي الله عنه وقع ذلك في نفسِ رسولِ الله ﷺ فقال: «لئن أظهرني الله بهم لأمثّلنّ بثلاثين ـ وفي كتاب النَّحاس وغيره ـ بسبعين منهم»، فقال النّاسُ: إنْ ظفرنا لنفعلن ولنفعلن. فنزلت هذه الآية». (تفسير ابن عطية ص ١١٢٤).
وذكر ابن إسحاق أنّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا أنزل آخر النَّحل، عفا رسولُ الله ﷺ، وصبرَ ونهى عن المُثلة. (السّيرة النّبويّة ٣/ ١٤٠) بتصرُّف يسير.

(١) السّيرة النّبويّة (٣/ ١٤٠) بتصرُّف. وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٤).

فلمّا جاء الزُّبير إلى رسولِ الله ﷺ، فأخبره بذلك، قال: «خَلِّ سبيلها».

فأتتْهُ، فنظرتْ إليه، واسترجعتْ، واستغفرتْ له[1].

* وكان ابنها الزُّبير رضي الله عنه يريدُ الحيلولةَ بينها وبين رؤية أخيها حمزةَ رضي الله عنه، رحمةً بها، لأنَّها قد كبرت وأسنَّتْ، ولكنّها قالت: لا أرجعُ حتّى أنظرَ إليه، فلمّا سمحَ لها النّبيّ ﷺ بالنَّظر إلى جثمان حمزة، ورأت ما به من آثارِ يَدِ الغدر والحنق فاضَتْ عيناها بالدُّموع، فبكَتْ وأبكَتْ، واستغفرتْ لأخيها، وكان النَّبيُّ ﷺ يبكي لبكائها[2]، ثمَّ انصرفت.

* قال سيّدنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «ما رأينا رسولَ الله ﷺ باكياً أشدّ من بكائِه على حمزةَ رضي الله عنه، وضَعَه في القبلة ثمَّ وقفَ على جنازته وانتحبَ حتّى نشقَ، حتّى بلغ به الغشي يقول: «يا عمَّ رسولِ الله، وأسدَ الله، وأسدَ رسول الله، يا حمزة يا فاعلَ الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذابّ يا مانع عن وجهِ رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) انظر: السّيرة النّبويّة (٣/ ١٤١ و١٤٢) بشيء من التّصرّف. وفي رواية أخرى: أنَّ صفيَّةَ جاءت النّبيّ ﷺ فقال: «إنّي أخافُ على عقلها»، فوضعَ ﷺ يده الشّريفة على صدرها، ودعا لها، فاسترجعَتْ وبكَتْ». (طبقات ابن سعد ٣/ ١٤).

(٢) جاء في رواية: أنَّ السّيدةَ صفيةَ قالت لرسولِ الله ﷺ: «أين ابن أمّي حمزة»؟ قال ﷺ: «هو في النّاس»... فلمّا رأته بكَتْ، وصارتْ كلّما بكَتْ بكى النّبيّ ﷺ، ثمّ أمرَ به فَسُجي ببردة». وفي رواية: أنَّ صفيةَ جاءت بكفَنٍ معها. (السّيرة الحلبيّة ٣/ ٥٣٥) بتصرّف.

(٣) السّيرةُ الحلبيّةُ (٣/ ٥٣٤)، ومعنى «نشق»: شهق. وذكر الحلبيُّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال ذلك لا مع البكاء، ولا يقال هذا من النّدب المحرّم، وهو تعديد محاسن الميت، لأنَّ ذلك مخصوصٌ بما إذا قارنه البكاء، وليس من نعي الجاهليّة المكروه: وهو النّداء بذكْرِ محاسنِ الميّت، على أنَّ النّداءَ بذلك محلُّ كراهته إذا كان على وجْهِ التفاخر والتّعاظم، ولم يكن وصفاً لنحو صالح للحثّ على سلوك طريقته. (السّيرة الحلبيّة ٣/ ٥٣٤).
قال الذّهبيُّ: «وجاء بإسنادٍ فيه ضَعْفٌ عن جابر أنَّ النَّبيَّ ﷺ، لمّا رأى حمزة قتيلاً بكى، فلمّا رأى ما مثّل به شَهِق». (سير أعلام النبلاء ١/ ١٨٤).

* وقال ﷺ ـ كما جاء في السّيرة الهشاميّة ـ: «جاءني جبريل عليه السّلام، فأخبرني أنَّ حمزةَ بنَ عبد المطَّلب مكتوبٌ في أهل السَّماوات السَّبع: حمزة بن عبد المطَّلب أسد الله، وأسد رسوله»[1].

* وأخرج الحاكمُ في «مستدركه» بسندٍ رفعه إلى سيّدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النّبيِّ ﷺ قال: «سيّدُ الشُّهداء حمزة بن عبد المطّلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ، فأمرهُ ونَهاهُ، فقتَلَهُ»[2].

* وكان لسيّدنا حمزة مكانةٌ أثيرةٌ عند النّبيّ ﷺ فقد كان شجاعاً مِقداماً قَتَل وحده في يوم أحدٍ واحداً وثلاثين من الكفَّار[3]، لذلك لمَّا أشرف رسولُ الله ﷺ على القتلى يوم أُحُدٍ قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء أنَّه ما من جريح يُجرح في الله إلا واللهُ يبعثُه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لونُ دمٍ، والرِّيحُ ريح مسْكٍ»[4]. ثمَّ أمرَ ﷺ بدفن الشُّهداء.

* ومرَّ رسولُ الله ﷺ بدارٍ من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظَفَر، فسمع البكاءَ على قتلاهم، فذرفتْ عيناهُ الشَّريفتان فبكى، ثمّ قال: «لكنَّ حمزةَ لا بواكي له»، فلمَّا رجع سعدُ بنُ معاذ وأسيدُ بنُ حُضَير إلى دار بني عبد الأشْهل أمرا نساءهم أنْ يتحزمْنَ ثمَّ يذهبنَ فيبكينَ على عمّ رسول الله ﷺ؛ فلمّا سمعَ رسولُ الله ﷺ بكاءهنَّ على حمزةَ خرج عليهنّ وهنّ على باب مسجده يبكينَ عليه، فقالك «ارجعْنَ يرحمكن اللهُ، فقد آسيتنَّ بأنفسكنَّ». وقال: «رحمَ اللهُ الأنصارَ، فإنَّ المواساة منهم ما عتمت لقديمة، مُروهنَّ فلينصرفنَ». وفي رواية: «مروهُنَّ فليرجعْنَ ولا يبكينَ على هالكٍ بعد اليوم»[5].

---

(١) السّيرة النَّبويّة (٣/ ١٣٩)؛ وانظر: مجمع الزَّوائد (٩/ ٢٦٨)، والبداية والنِّهاية (٤/ ٤٠).
(٢) المستدرك (٣/ ٢١٥) طبعة دار الكتب العلميَّة الأولى عام ١٩٩٠ م.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٩).
(٤) السّيرة النّبويّة (٣/ ١٤٢ و ١٤٣)، والبداية والنّهاية (٤/ ٤٢).
(٥) السّيرة النّبويّة (٣/ ١٤٤ و ١٤٥) والمستدرك (٣/ ٢١٥) مع الجمع والتّصرّف.

* ظلّ حمزةُ ماثلاً في قلبِ النَّبيّ ﷺ، فقد أخرج الحاكمُ في «المستدرك» عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال: وُلد لرجلٍ منّا غُلامٌ فقالوا: ما نسمّيه؟

فقال النّبيّ ﷺ: «سمّوه بأحبِّ الأسماء إليَّ حمزة بن عبد المطَّلب».

* وفي روايةٍ أخرى عن عمرو بن دينار، سمع رجلاً بالمدينة يقول: جاء جدّي بأبي إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: هذا ولدي، فما أسمّيه؟

قال: «سمِّهِ بأحبّ النَّاس إليّ حمزة بن عبد المطّلب»[1].

* ونستجلي بشارة حمزةَ رضي الله عنه بالجنّةِ من خلال رؤيا نبويَّة، حيثُ يروي ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «دخلتُ الجنَّةَ البارحة فنظرتُ فيها فإذا جعفرُ يطيرُ مع الملائكة، وإذا حمزةُ متكىءٌ على سريرٍ»[2].

* ولحمزةَ رضي الله عنه فضيلةُ الرّواية، فقد ذكرَ ابن الأثير في «أسد الغابة» حديثاً لحمزةَ مُسْنَداً إلى النَّبيِّ ﷺ قال: «الزموا هذا الدُّعاء: اللهمّ إني أسألُكَ باسمِكَ الأعظم ورضوانك الأكبر»[3].

* وكان مقتلُ حمزةَ شَهيداً للنّصف من شوّال من سنة ثلاثٍ من الهجرة، وكان عمرُه (٥٧ سنة) على قول مَنْ يقول: «إنّه كان أسنّ مِنْ رسولِ الله ﷺ بسنتَيْن»[4]. وهناك أقوالٌ أخرى حول هذا العمر، بيد أنَّ جميع المصنّفين، لا يختلفون في أنَّ حمزةَ رضي الله عنه أكبرُ من النَّبيِّ ﷺ إمّا بسنتين أو أربع سنوات.

---

(١) المستدرك (٣/ ٢١٦ و ٢١٧)، ثم قال رسول الله ﷺ عن أحب الأسماء: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى اللهِ: عبد الله، وعبد الرَّحمن» (أخرجه مسلم برقم ٢١٣٢، وأبو داود برقم ٤٩٤٩).

(٢) المستدرك (٣/ ٢١٧).

(٣) أسد الغابة (١/ ٥٣٢) ترجمة رقم (١٢٥١).

(٤) أسد الغابة (١/ ٥٣١).

* قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله: «ودُفن حمزةُ عند أُحد في موضعه، وقبرهُ مشهورٌ يُزَار، ويُتبرَّكُ به، وحزن عليه رسولُ الله ﷺ والصَّحابةُ رضي الله عنهم»[١].

* ويتبادر إلى الذّهن سؤالٌ مُفاده: «كيف دفَنَ المسلمون الشُّهداء يوم أحد»؟

* والإجابةُ عن هذا السُّؤال تتلخَّصُ في أنَّ النَّبيَّ ﷺ ـ كما أجمع أهل العلْم ـ لم يُصَلِّ على شهيدِ معركةٍ أبداً، لا في غزوة أُحُدٍ، ولا في غيرها من المغازي، وإنَّما كان ﷺ يأمرُ بدفن الشُّهداء بثياب المعركة دون غسْلٍ أو صلاة.

* قال الإمام الشَّافعي رحمه الله: «جاءت الأخبارُ كأنَّها عيان ـ من وجوه متواترة ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُصَلِ على قتلى أحد، وما روي أنَّه صلّى عليهم وكبَّرَ على حمزة سبعين تكبيرة لم يصحّ».

* وثبتَ في صحيح البخاري أنَّ النَّبيّ ﷺ أمر بدفنِ شهداء أُحُدٍ بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، ولم يغسَّلوا. وجاء عن سيّدنا عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «أمر رسولُ الله ﷺ يوم أُحدٍ بالشُّهداء أنْ ينزعَ عنه الحديد والجلود وقال: ادفنوهم بدمائهم وثيابهم»[٢].

* وكفِّنَ حمزةُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه بِنَمِرةٍ كانت له، فكانوا إذا مدُّوها على رأسه انكشفَتْ رجلاه، وإنْ مدّوها على رجلَيْه انكشفت رأسه، فمدّوها على رأسِهِ وجعلوا على رجلَيْه الحرمل تكميلاً لدفنه.

* وجاءت جماعاتُ المجاهدين إلى رسولِ الله ﷺ يوم أُحدٍ، فقالوا: يا رسولَ الله، قد أصابنا قَرْحٌ وجهدٌ، فكيف تأمر؟

فقال ﷺ: «احفروا وأوسعوا واجعلوا الرّجلين والثّلاثة في القبر الواحد».

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٩).

(٢) انظر: البداية والنّهاية (٤/ ٤٧).

فقيل له: يا رسولَ الله، فأيّهم يقدّم؟

فقال ﷺ: «أكثرهم قرآناً»[1].

* بعد أنْ فرغَ المسلمون المجاهدون من دفْن الشُّهداء، وقف رسولُ الله ﷺ على فرسه بأصل جبل أحد، وأمر أصحابه المجاهدين أنْ يصطفّوا، فاصطفّوا خلفه وعامتهم جرحى، واصطفّ خلفهم النّساء المجاهدات وكُنَّ أربع عشرة امرأة، وأخذ النَّبيُّ ﷺ يكثر من الثَّناء على الله عز وجل ويدعوه.

* جاء هذا الثّناءُ الممزوجُ بالدّعاء في المسند، إذ أخرجَ الإمام أحمد بسنده عن عبيد بن رفاعة الزّرقيّ قال: لمّا كان يوم أُحدٍ، وانكفأَ المشركون، قال رسولُ الله ﷺ: «استووا حتّى أثني على ربّي» فصاروا خلفَه صفوفاً فقال: «اللهمَّ لكَ الحمدُ كلُّه، اللهمَّ لا قابضَ لما بسطْتَ، ولا باسطَ لما قبضْتَ، ولا هادي لما أضللْتَ، ولا مُضلّ لمن هديتَ، ولا معطي لما منعْتَ، ولا مانعَ لما أعطيت، ولا مقرّبَ لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت، اللهمَّ ابسط علينا من بركاتكَ ورحمتكَ وفضلكَ ورزقكَ، اللهمَّ إنّي أسألك النَّعيم المقيم الذي لا يحولُ ولا يزول، اللهمَّ إني أسألكَ النَّعيمَ يوم العَيْلة، والأمنَ يوم الخوف، اللهمَّ إني عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا وشرِّ ما منعت، اللهمَّ حبّب إلينا الإيمانَ وزيِّنْه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، واجعلنا من الراشدين، اللهمَّ توفّنا مسلمين وأَحْينا مسلمين، وألحقنا بالصَّالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهمَّ قاتِلِ الكفرةَ الذين يكذّبون رسلك، ويصدّون عن سبيلك، واجعلْ عليهم رجزَكَ وعذابَكَ، اللهمَّ قاتل الكفرةَ الذين أوتوا الكتاب، إلهَ الحق»[2].

---

(١) البداية والنّهاية (٤/ ٤٧)، وللحديث أصل عند أبي داود والتّرمذيّ.

(٢) المسند (٥/ ٢٧٨) برقم (١٥٤٩٢)، وأخرجه البزّار برقم (١٨٠٠)، والطّبرانيّ في المعجم الكبير برقم (٤٥٤٩)، والبخاريُّ في الأدب المفرد برقم (٢٩٩)، والهيثميُّ في مجمع الزّوائد=

* لقد ضمَّ جبلُ أحدٍ[1] في ثراه النَّديِّ، وتربتِهِ الدّاكنةِ، وفي سفحِهِ

= (٦/ ١٢١ و ١٢٢).

إنّنا نجدُ في هذا الحديث الشّريف حَمْدَ الله وتمجيده في هذه الحال الصَّعبة التي كان عليها المسلمون، فلمّا وضعتِ الحربُ أوزارها، ورجعَ المشركون بالنَّصرِ الذي استخفّهم، والمسلمون بالمصاب الذي استأثر بصفوة من كبار الصَّحابة، وفارس أهل البيت وسيف الله في زمانه سيّدنا حمزة بن عبد المطلب، وقف النّبيّ ﷺ يواسي أصحابه، ويسكبُ في قلوبهم الرّضا بقضاء الله وقدره، والتَّسليم المطلق لأمره، في غير عتاب لمن خالف أمره من الرّماة، ولمّا أتمَّ ﷺ مواساته لأصحابه: «استووا حتّى أثني على ربّي».

في أعقاب هذه المعركة الضّارية الخاسرة، يتّخذ النّبيّ ﷺ أهبته، وينظّم صفوف أصحابه ليثنيَ على ربّه عزَّ وجلَّ؛ إنَّه لموقفٌ عظيمٌ يجلي إيماناً عميقاً؛ ويكشفُ عن العبودية المطلقة لربّ العالمين الفعّال لما يريد. فهو القابضُ والباسطُ، والمعطي والمانع، لا رادَّ ولا معقب لحكمه، زوى عنهم النّصر وأحرزه عدوّهم، وأرجعهم بخسارة فادحة، لكنّه ربّهم وربّ العالمين، هو الذي بيده ملكوت كلّ شيء.

إنَّ المادةَ والنّصرَ والغنائم تغدو وتروح، فلا النّصر بمستمرّ، ولا الغنائم والأموال مستقرّة، ولا يقيم في هذه الدّنيا مقيم، ولا أمنها موفور، كلّ ما فيها غادٍ ورائح، فليسأله: «النَّعيم المقيم الذي لا يحول و يزول».

وقد سبق الشُّهداء إلى رحمة الله ومغفرته راضين مرضيين، ونحنُ على إثرهم، والموت قافية كلّ حيّ، وهو تحفةُ المؤمن، فلا يميتنا الله إلاَّ أعزّة في غير محنة ولا بلاءٍ ولا فتنة: «اللهم توفَّنا مسلمين، وألحقنا بالصَّالحين، غير خزايا ولا مفتونين».

وهذا الموقفُ النّبويّ من أعظم المواقفِ التي تسمو بالعابدين، وتجلّ المعبود، وإنّا لا نكاد نجدُ لمثل هذا الدُّعاء ومضمونه الأمثل نظيراً، لا في أعقاب المعارك الرَّابحة، ولا في أعقاب المعارك الخاسرة عبر التَّاريخ، إنَّه يصوّر العبودية في أعلى أشواقها، العقيدة التي تربط العابد بالمعبود، وتنقله إلى شاطىء الأمن والإسلام.

(١) «جبلُ أحد»: جبل أحد، جبلٌ كبيرٌ يقعُ شمالي المدينة المنوّرة، وكان يبعدُ عنها ثلاثة أميال ونصف، ولكنَّ عمران المدينة اليوم قد أصبح متّصلاً به، ومحيطاً من كلِّ جوانبه، وبسفوحه توجدُ أحياء حديثة بمراكزها الأمنية والصِّحية والتّعليمية ومساجدها ذات المآذن العالية الجميلة. وثبت أنَّ النَّبيّ ﷺ خاطبَ أحداً مخاطبة مَنْ يعقل.

أمّا سبب تسميته بجبل أُحد، ففيه أقوالٌ متعدّدة من أهمّها: =

المبارك شهداء الدَّعوة ممَّن ضحّوا في سبيل الله بنفوسهم في تجرّدٍ مطلق، وكان في طليعتهم فارس أهل البيت وأسدهم سيّدنا حمزة عم النَّبيّ ﷺ وسيد الشّهداء رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

* تركت غزاةُ أحُد وشهداء أحد أشياء في قلبِ الحبيبِ المصطفى ﷺ، وتركتْ أحزاناً وموجدة، ولمَّا دنا الأجلُ، وأزفَ التّرحّل للحاق بالرّفيق الأعلى، زار ﷺ شهداء أحد مودّعاً الدّنيا في أشخاصهم، ذاكراً جهادهم، وإخلاصهم ووفاءهم، داعياً لهم، واعظاً بهم جماعة المسلمين من الصَّحابة في خير القرون.

* لنُنْعِم النّظر في الصَّحيحين البخاريّ ومسلم؛ ثمّ نقرأ في أبواب المناقب والفضائل عن سيّدنا عقبةَ بنِ عامر الجُهنيّ رضي الله عنه فنجدهُ يقول: «صلَّى رسول الله ﷺ على قتلى أحدٍ بعد ثمان سنين كالموّدع للأحياء والأموات، ثمّ طلع المنبر فقال: «إنّي بين أيديكم فرطٌ، وأنا عليكم شهيد، وإنَّ موعدكم الحوض، وإنّي لأنظرُ إليه من مقامي هذا، وإنّي لستُ أخشى عليكم أنْ تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدُّنيا أنْ تنافسوها، كما تنافسها من كان قبلكم، فتهلككم، كما أهلكت مَنْ كان قبلكم» قال عقبةُ: «فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسولِ الله ﷺ»[1].

= **أولاً**: سمّي بذلك لتوحّده عن الجبال، لأنّه مُحاطٌ بالسُّهول والأودية.
ثانياً: سمّي باسم رجلٍ من العمالقة اسمه أُحد، وهو أوّل مَنْ سكنه.
ثالثاً: قيل: إنَّ اسمه يرمز إلى وحدانية الله عزَّ وجلَّ. وهذا السَّبب من أسباب تسميته. وحركاتُه رفع «أُحُد» يُتفاءل بها، لأنّه يُشعر بارتفاع دين الله.
وجبلُ أُحدٍ لونُه أحمر، له قممٌ عدّةٌ، يخيّلُ إلى النّاظر إليه أنّه عدّةُ جبال بسبب تعدّد هذه القمم، وهو داخل في حرم المدينة المنوّرة بالاتّفاق، لأنَّ حدّ الحرم من الشّمال جبل ثور، وهو خلف جبل أُحد شمالاً، وقد وردَ في فضلِ جبل أحد أحاديث منها «أُحدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبّه» (البخاريّ برقم ٤٠٨٣).

(١) أخرجه البخاريّ برقم (٣٥٩٦)، ومسلم برقم (٢٢٩٦)؛ ويمكن أنْ نقولَ: «إنَّ الشّهادةَ في=

* إنَّ الأرضَ لا تأكلُ جسدَ الشَّهيد في سبيل الله وكان سيّدنا حمزةُ من هؤلاء الأبرار الذين حظوا بالشَّهادة في سبيل الله.

* وقد أكَّدتْ كتبُ المصادر بأنواعها مصداقَ ذلك، ومنها ما روي عن سيّدنا جابر بن عبد الله الأنصاريّ رضي الله عنهما قال: «لمّا أجرىٰ معاويةُ العينَ عند قتلى أحدٍ بعد أربعين سنةٍ استصرخْنَاهم إليهم، فأتيناهم فأخرجناهم، فأصابتِ المسحاةُ قَدَمَ حمزةَ فانبعثَ دَماً». وفي روايةٍ أخرى: «فأخرجناهم كأنّما دُفِنُوا بالأمس». ويقال: «إنَّه فاحَ من قبورهم مثل ريح المسك، وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا»(١).

* وقد ذكروا أنَّ الأرضَ لا تأكلُ لحومَ الأنبياء ولا شهداء المعركة في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وزاد بعضهم: قارىء القرآن، والعالم، ومحتسبُ الأذان، وقد نظم هؤلاء التَّتائي المالكي فقال:

لا تأكلُ الأرضُ جسماً للنَّبيِّ ولا ... لِعَالمٍ وشهيدٍ قتلِ معترك
ولا لقارىء قرآنٍ ومحتسبٍ ... إذ إنَّه لإلهِ مُجري الفَلَك

قبرُ حمزةَ ومشهدُهُ:

* جاءَ في «تاريخ المدينةِ المنوّرة وأخبارِها» عن الأعرجِ قالَ: «لمَّا قُتِلَ حمزةُ رضي الله عنه أقامَ في موضعِه تحتَ جبلِ الرُّماة، وهو الجبلُ الصَّغيرُ الذي

= سبيلِ الله عزَّ وجلَّ من أعلى مراتب الأولياء، وقد شرَّف الله تعالى ثلة من الصَّحابة يوم أحد بالشَّهادة، والشَّهادة وإن كانت في ظاهرها فقداناً للأحبَّة والأخلاّء، إلا أنّها في جوهرها شرفٌ خالدٌ لمن اتّخذه الله شهيداً، ومن المؤكّد أنَّ «الشَّهيد يشفعُ في سبعين من أهل بيته» (صحيح الجامع برقم ٣٦٤١)، وقد جاءت الأخبارُ لتقولُ بأنَّ الشَّهيد لا يحسّ بألم القَتْلِ كما يظنُّ من يبصر الدّماء التي تنهار منه، ويفزع لحاله وقد مزقته آثار الحرب، بل إنَّ الشَّهيد لا يَجِدُ من الألم إلا كمسّ القرصة، ويُغْفَر له في أوّل دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنّة، فأين هو ممّا يظنُّ النّاس ويجبنُ عن سبيله الجبناء؟! فالشّهيد له أعلى المنازل عند الله عزَّ وجلَّ».

(١) البداية والنّهاية (٤/ ٤٣)، والسّيرة الحلبيّة (٢/ ٥٣٩) مع الجمع بينهما والتّصرّف اليسير.

ببطنِ الوادي الأحمر، ثمَّ أمرَ به النَّبيُّ ﷺ، وكفَّنَهُ في بردةٍ وكفَّنَ مصعبَ بنَ عمير في أخرى، ودفنَهما في قبرٍ واحد»[1].

* قال عبدُ العزيز بنُ عمران: «وقد سمعتُ مَنْ يذكر أنَّ عبدَ الله بن جحش بن رئاب قُتِل معهما، ودُفِنَ معهما في قبرٍ واحد، وهو ابنُ أختِ حمزةَ، أمُّه أميمةُ بنتُ عبد المطلب. والغالبُ عندنا: أنَّ مصعبَ بنَ عُمير وعبدَ الله بن جحش دُفِنا تحتَ المسجد الذي بُنِيَ على قبرِ حمزةَ، وأنَّه ليس مع حمزةَ أحدٌ في القبر»[2].

* وروى ابنُ شبّة عن عباد بن أبي صالح «أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يأتي قبور الشُّهداء بأُحدٍ علىٰ رأس كلّ حولٍ فيقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٤] قال: وجاءَها أبو بكرٍ، ثمَّ عمرُ، ثمّ عثمانُ رضي الله عنهم، فلمّا قدمَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ رضي الله عنهما حاجّاً جاءهم، قال: كان النَّبيُّ ﷺ إذا واجَهَ الشِّعْبَ قال: «سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعمَ أجرُ العاملين»[3].

* وعن أبي جعفر «أنَّ فاطمةَ بنتَ رسولِ الله ﷺ كانت تزورُ قبْرَ حمزةَ رضي الله عنه ترمُّه وتصلحُه، وقد تعلَّمتْه بِحجرٍ»[4].

* وفي ذكر المشَاهد المعروفةِ بالبقيع بالمدينةِ، يقولُ السّمهودي: «اعلَمْ أنّ أكثرَ الصَّحابة رضي الله عنهم ممّن توفي في حياةِ النَّبيّ ﷺ، وبعد وفاتِه مدفونون بالبقيعِ، وكذلك سادات أهلِ بيت النّبيّ ﷺ، وسادات التّابعين. . . وأمَّا المشاهدُ المعروفةُ بالمدينةِ في غيرِ البقيع فثلاثة: مشهدُ سيِّد الشُّهداء

---

(١) تاريخ المدينة المنورة (١/ ١٢٥ و١٢٦)، ووفاء الوفا (٣/ ٩٣٥ و ٩٣٦).

(٢) تاريخ المدينة المنورة (١/ ١٢٦)، ووفاء الوفا (٣/ ٩٣٦).

(٣) وفاء الوفا (٣/ ٩٣٢).

(٤) وفاء الوفا (٣/ ٩٣٢) وقال السّمهودي: «ولا يُعرفُ اليوم من قبور الشّهداء غير قبر حمزة رضي الله عنه».

حمزةَ بنِ عبد المطّلب، عمِّ رسولِ الله ﷺ؛ ومشهدُ مالكِ بن سِنان والد أبي سعيد الخدريّ، ومشهدُ محمّد المعروف بالنّفس الزكية. . .»[1].

* ويبيّنُ السُّمهوديّ مشهدَ حمزةَ ويصوّرُهُ ويصفُهُ بأنّه ذو قبّةٍ عاليةٍ حسنةٍ مُتْقنةٍ، وبابه مصفّح كلّه بالحديد، بَنَتْه أمُّ الخليفةِ النَّاصرِ لدينِ الله أبي العبَّاس أحمدَ بن المستضيء، وذلك في سنة (٥٩٠ هـ)، وجعلتْ على القبرِ مَلْبناً من عاجٍ، وحوله حصباء، وبابُ المشهدِ من حديد، يُفتح كلّ يومِ خميس، وقريبٌ منه مسجدٌ يُذكرُ أنَّه موضعُ مقتله[2].

* ويتابع السّمهوديّ وصْفَ مشهد حمزةَ فيقول: «وأمّا قبرُ حمزةَ فإنَّه اليوم ـ أي في أوائلِ القرنِ العاشر لأنَّ وفاة السُّمهوديِّ كانت سنة ٩١١ هـ ـ مبنيٌّ مُجَصَّصٌ بالقصَّةِ لا خَشَبَ عليه، وفي أعلاهُ من ناحيةِ رأسهِ حَجَرٌ فيه بعد البسملة: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[التّوبة:١٨]؛ هذا مصرعُ حمزةَ بنِ عبد المطَّلب عليه السَّلام، ومصلّى النّبيّ ﷺ، عَمَره العبدُ الفقيرُ إلى رحمةِ ربّه حُسينُ بنُ أبي الهيجاء، غفرَ اللهُ له ولوالديه، سنة ثمانين وخمس مئة»[3].

* ويرجّحُ السَّمهوديُّ بأنَّ بناء أمّ الخليفة النّاصر للمشهد الحمزويّ كان بعد بناءِ حُسين بن أبي الهيجاء بعشْر سنين، فيقول: «فكأنَّ أمَّ الخليفةِ وسَّعَتْه، وجعلَتْه على هذهِ الهيئةِ الموجودةِ اليوم؛ وقد زادَ فيه سُلطان زماننا الأشرفُ قايتباي زيادةً من جهةِ المغرب، أدخلَ فيها البئر التي كانت خارجةً في غربيه، واتّخذ هناكَ أَخْلِيَةً لمن يريدُ الطَّهارة، وجعلَ بعضَها بالسَّطح، فَعَمَّ النَّفْعُ بذلك، واحتفرَ بئراً خارجَهُ بجهةِ المغرب أيضاً يرتفقُ بها المارة، وذلك في شَهْرِ جمادىٰ الأولى سنة (٨٩٠ هـ) على يدِ الشّجاعي شاهين الجماليّ شيخ

(١) وفاء الوفاء (٣/ ٩١٦ و٩٢١ و ٩٢٢ و ٩٢٣) باختصار.
(٢) وفاء الوفا (٣/ ٩٢١).
(٣) المصدر السّابق (٣/ ٩٢٢).

الحرم الشّريف، وشاد عمائره، عظّم الله شأنه»(١).

* وقدَّمَ الشَّيخُ عبد الغني النّابلسيّ رحمه الله في رحلتِهِ إلى بلاد الحجاز أشياءَ جميلةً عن المشهدِ الحمزويّ، وأضافَ لنا معلوماتٍ قيمةً عن سيّدنا حمزةَ بن عبد المطّلب أسدِ الله، وأسدِ رسوله، وفارسِ بني هاشم، فكان ممّا قاله وأورده: «ثمّ عزمْنَا على زيارةِ حمزةَ عمِّ النَّبيِّ ﷺ، وشهداء أُحد... ثم سِرنا إلى أنْ وصلْنَا إلى مزارِ سيّد الشُّهداء حمزةَ رضي الله عنه في ذيلِ جَبَلِ أُحُدٍ، وحولَه منَ الخارج قبورُ شهداء أُحُد، وكانت وقعةُ أحدٍ هناك مع المشركين، فدخلنا إلى مزارهِ الممتلىء بالهيبةِ والجلالِ، وعليه قبّةٌ عظيمةٌ، وحوله مسجدٌ فيه محرابٌ، وله منارةٌ عاليةٌ»(٢).

* وقد أبدع كثيرٌ من علماء الشّعراء، وشعراء العُلماء في ذكْرِ مشهدِ سيّدنا حمزةَ رضي الله عنه، ومنهم الشَّيخ محمّد البكريّ الصِّدّيقيّ الذي أنشأ قصيدةً منها:

إلى شهداءِ الحقِّ بالحقِّ قد جئْنا ولاسيما عمّ النَّبيِّ بِهِ فُزْنَا

---

(١) وفاء الوفا (٣/ ٩٢٢ و ٩٢٣). وقال السّمهوديُّ: «واعلم أنَّ القبرَ الذي بالمشْهدِ عند رجلَي سيّدنا حمزةَ رضي الله تعالى عنه قَبرُ رجلٍ تركي اسمُهُ سنقر، كان متولّي عمارةَ المشْهدِ، والقبر الذي بصحنِ المسجد قبرُ بعض أمراء المدنية من الأشراف، فلا يُظنّ أنَّهما من الشُّهداء رضوان الله عليهم».
أمَّا شهداءُ أحدٍ فقد قال عنهم السَّمهوديّ: «ينبغي أنْ يُسلم عليهم مع حمزةَ في مشهده، لأنَّهم بقربه» (وفاء الوفا ٣/ ٩٣٦) بتصرُّف يسير.
وشهداءُ أُحدِ المعروفون إلى وقت السّمهوديّ فهم كما قال السّمهوديّ: «وأمّا ما يُعرفُ اليوم من قبور الشّهداء فقبرُ حمزةُ بنِ عبد المطّلب، وهو في عُدْوة الوادي ممّا يلي الجبل، وقبرُ عبد الله بن حرام أبي جابر، معه عمرو بن الجموح، وقبرُ سهل بن قيس من بني سَلِمَة، وهو دبرُ قبرِ حمزةَ شامياً بينه وبين الجبل» (وفاء الوفا ٣/ ٩٣٩) بتصرّف يسير.
(٢) الحقيقة والمجاز للنّابلسيّ (٣/ ٢٢٠ و ٢٢١) بشيءٍ من الاختصار والتّصرّف. تحقيق رياض مراد ـ دار المعرفة ـ دمشق ـ ط ـ ١٩٩٨ م.

حبيبُ رسولِ اللهِ ناصرُ دينِهِ أجلُّ شهيدٍ فضْلُه أخْجلَ المُزْنا
وبالحزم والعزمِ الشَّديد على العِدا بسيفِ القَضَا فيهم قَضَى ولهم مَنَا
بحمزةَ يُسْمَىٰ بالمعارفِ والتُّقى وبالحلمِ والمعروفِ أخلاقُه حُسنى[1]

* ونظمَ الشّيخُ إبراهيم الخياري قصيدةً سنة (١٣٠٠ هـ) ذكرَ فيها جانباً من مسجدِ سيّدنا حمزةَ ومشهده فكان ممّا قال:

نحنُ في سوحِ سيِّد الشُّهداء وحماهُ أعظمْ بهِ منْ حماءِ
أسد اللهِ حمزة ذي الأيادي عمّ خيرِ الورى رحىٰ الهيجاءِ
قاصم الشِّرك قاصم لِعداهُ مخلص في الغزاةِ غير مُراءِ
أيّدَ المُصطفى وأولاهُ نَصْراً وافتداه بنفسه في الوغاءِ[2]

* ولعبدِ الرّحمن عابِدي نَظْمٌ في مشْهدِ سيّدنا حمزةَ منه قوله:

له مشهدٌ بيتُ القصيدةِ شاهدٌ على أنَّ أهلَ البيتِ فخرهم حسبُ
جوادٌ يذلُّ المالَ في جنب عزِّهِ وتخجلُ من ذكْرىٰ مروءته السّحبُ
له راحةٌ فيها لراجيهِ راحةٌ وكفٌّ به قد كفَّ عن جارهِ الخطبُ
فَيابْنَ ولاةِ البيتِ دونَك مدحةً تترجمُ ما يُملي لأوزانها القلبُ
عليكم صلاةِ الله آل محمدٍ ويتلوكمُ فيها العتيرةُ والصَّحبُ[3]

* وقال غيرهُ هذه البائيةَ الموقظةَ الماتعةَ:

إلى ضريحكَ عرفُ المسكِ ينتسبُ والشَّمسُ من ضوئِهِ الأنوار تكتسِبُ
ضريحُ فَخْرٍ حوى ليثَ الهواشِمِ من بشَدَّةِ البأسِ للطَّاغين منتسِبُ
يا خيرَ عمّ لخيرِ العالَمين ويا بحرَ الكراماتِ منه يظْهرُ العجبُ
يا سيِّد الشُّهداءِ السَّادةِ السُّعدا ومَنْ هم للعِدا يومَ الوغى شُهبُ

---

(١) الحقيقة والمجاز (٣/ ٢٢٣) بتصرّف واختيار.
(٢) المصدر السّابق (٣/ ٢٢٤) بتصرّف واختيار.
(٣) المصدر السّابق (٣/ ٢٢٦) بتصرّف واختيار.

إليـكَ لا زالـتِ الأمـلاكُ مهـديـةٌ سـلامَهـا بخضـوع زانَـه الأدبُ
ثمَّ الصَّلاةُ على المختارِ مَن نَطَقَتْ بمـدحـهِ محكمـاتُ الآي والكتُـب
وآلـهِ والصِّحـاب الغُـرِّ مـا سجَعَـتْ قمـريـةٌ لِفِـراقِ الإلْـفِ تنتحـب[1]

* وصاغ الشَّيخُ عبد الغني النّابلسيُّ قصيدةً داليةً في زيارته للمدينة المنوّرة عَرَّجَ من خلالها على ذكْر مشهدِ سيّدنا حمزةَ رضي الله عنه، وذكرَ متى نظَمها وكيفَ فقال: «ونظَمْنا هذه القصيدةَ بين العشاءَيْن، فكتبتُ مسودتها في ضوء القمر، ونحنُ نمرحُ في رياضِ المباسطة والسَّمر». ومنها:

لقـد تجلَّـتْ علينـا حضـرةُ الأحـدِ لمَّـا أتينـا نـزورُ السَّفْـح مـن أُحُـدِ

ومنها:

وقبــةُ النُّــور فيهــا قبــرُ سيّــدهــم إمـامُنـا حمـزةُ المقـدامُ ذو الجلـدِ
عمُّ الرّسول وخيرُ الصَّحْبِ مَن شهدتْ بفضلـهِ مـوجبـاتُ القُـرب فـي البلـدِ
شهـمٌ شجـاعٌ لـه يـومُ الهيـاجِ يـدٌ طالتْ بلا شبهةٍ منْ فوقِ كُلّ يد
ومــن منــاقبــه أنَّ الــذي فتكَــتْ يــداهُ فيــه فــرقَّــاهُ إلــى الأبــدِ
وســاقَــه مــن حيــاةٍ لا تــدومُ إلــى حـقِّ الحيـاةِ التـي تسمـو بـلا كَمـدِ
أحلَّـــــه فهــــدَاه اللهُ منــــزلـــــةً للأنْسِ من بعد ذلّ الوحْشَة النّكدِ
وقـــد تبـــدّلَ وحشـــيٌ لعـــزّتـــهِ فيمــا أتــاه بــأنْسِــيٍّ ولــمْ يُكَـدِ
وصار منْ صَحْبِ طه المُصطفى ورقىٰ بعفـوهِ عنـه حيـثُ السُّـوء لـم يجـدِ
فيــالَــه كَــرمٌ بعــد الممــاتِ أتــىٰ كــرامــةً مــن همــام عــالــي السَّنَـدِ

* ومنها:

تبــاركَ اللهُ مــا أسمــى مقــامَ فتــىً عــزَّ الشَّهــادة فيــه ثــابـت العمـدِ
الهــاشمــيّ كــريــم النّسبتيــن لــه في ساحةِ المجدِ روضٌ بالكمالِ نَدي
فيــا سقــىٰ اللهُ قَبْــراً ضــمَّ أعظمَــهُ وجــادَهُ ربّــه بــالغيــثِ والبَـردِ[2]

(١) الحقيقة والمجاز (٣/ ٢٢٦ و ٢٢٧). بانتقاء واختيار.
(٢) الحقيقة والمجاز (٣/ ٢٣٠ و ٢٣١) بانتقاء، وأرجو القارىء أنْ يمعنَ النَّظر فيها.

* وعندما انتهى الشَّيخُ عبد الغنيّ النّابلسيّ من زيارةِ شهداء أحُد، وزيارة سيّد الشُّهداء حمزةَ رضي الله عنه ختمَ حديثه وأسمارَهُ وفوائده بقوله: «ثم أصبحنا يومَ الخميس (٩/ ١٠/ ١١٠٥ هـ) وصلينا الصُّبح هناك بغَلسٍ، ودخلْنَا إلى زيارة حمزةَ رضي الله عنه، فقرأنا الفاتحةَ، ودعونا الله تعالى، وخرجنا، وقرأنا الفاتحة لبقية شهداء أحد. . . .»[(١)].

حمزةُ على شفاهِ القَوافي:

* زيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ البيتِ بمحاسنِ الآداب، ومكارمِ الأخلاق، وجليل الصِّفات؛ فكانوا غُرَّةَ الدّنيا ومفخرة كلّ مُفْتَخِرٍ؛ ومنهم حمزةُ أسدُ الله وأسدُ رسوله:

وما زالَ في الإسلامِ من آلِ هاشم ... دعائمُ عزٍّ لا تزولُ ومفخرُ
بهاليلُ منهم جعفرٌ وابنُ أمِّه ... عليٌّ ومنهم أحمدُ المُتَخيَّرُ
وحمزةُ والعبَّاسُ منهمْ ومنهمُ ... عقيلٌ وماءُ العود من حيثُ يُعْصَرُ
همُ أولياءُ الله نزَّل حكمَهُ ... عليهم وفيهم والكتاب المطهَّرُ

* لقد خلَّدت قوافي الشُّعراء وهمساتُهم سيفَ الله في عصرِه سيّدنا حمزة بن عبد المطّلب، إذ لم تكنْ صورتُه وأعماله لتغيبَ عن قلوبهم وضمائرهم في كافّة العُصور.

* وممّن رثى سيّدنا حمزة وذكَرَ مناقبه حسَّان بن ثابت الأنصاريّ، فقد خصَّ حمزةَ بعيونِ قصائده، ومنها هذه الأبياتُ الحائيّةُ المعبّرةُ من قصيدةٍ طويلةٍ:

يا ميُّ قُومي فاندُبِنْ ... بِسُحَيرةٍ شَجْو النَّوائح
أصحابَ أُحْدِ غالَهم ... دهرٌ ألمَّ له جوارح
يا حمزُ لا واللهِ لا ... أنساكَ ما صُرَّ اللقائح

---

(١) المصدر السَّابق (٣/ ٢٣١).

لِمُنَـــــــاخ أيتـــــــامٍ وأضــ ـيـــافٍ وأرملـــةٍ تُـــلامـــح
ولَمـــا ينـــوبُ الـــدهـــرَ فـــي حـــربٍ لحـــربٍ وهـــي لاقـــح
يـــا فـــارســـاً يـــا مِـــدْرهـــاً يـا حمــز قــد كنــتَ المصــامــح
عنـــا شـــديـــدات الخطـــو ب إذا ينـــوب لهـــن فـــادح[١]

* وقال حسَّانُ من قصيدةٍ لاميّةٍ يرثي بها حمزة:

دعْ عنــكَ داراً قــد عفَــا رسْمُهــا وابْــكِ علــى حمــزةَ ذي النَّــائــلِ
كُنَّـــا نــرىٰ حمــزةَ حِــرْزاً لنــا مــن كــلِّ أمــرٍ نَــابَنَــا نــازلِ[٢]

* وقال حسَّانُ أيضاً لأمامةَ بنتِ حمزةَ بن عبد المطلب حين قدمتِ المدينةَ مع النَّبيّ ﷺ، حين قدمَ آمناً هو وأصحابُهُ، فطافَ بالكعبةِ، وأقام ثلاثة أيّام بمكَّةَ، وهي عمرةُ الموادعة التي تزوَّجَ فيها ميمونةَ بنتَ الحارث الهلاليّة، فأخذَ أمامةَ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فدفَعَها إلى فاطمة رضي الله عنها فقال: «دونَك ابنةَ عمِّك».

فقالت فاطمةُ: «إنَّ رسولَ الله ﷺ قد شَرطَ لهم يوم الحديبية أنْ لا يصيبَ منهم أحداً ـ تعني من المشركين ـ إلا ردَّها عليهم».

قال رضي الله عنه: «فإنَّها ليست منهم، إنَّما هي منّا» فأخذتْها فاطمةُ فانطلقتْ بها، حتَّى إذا كانوا بمرّ الظّهران ذُكِرَ لجعفر شأنُها، فأتى عليّاً فسأله إيّاها ـ وكانت خالتُها أسماءُ بنتُ عُميس الخثعميّة عنده، وأمّ أمامةَ سلمى بنت عميس ـ وسألَه إياها زيدُ بنُ حارثةَ بن شراحيل الكلبيّ ـ وهو أخو حمزةَ في إخاء النَّبيّ ﷺ ـ فأتوا النَّبيَّ ﷺ يختصمون فيها، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنتَ

---

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوان حسان (ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦) وعدد أبياتها (٤٣ بيتاً) ومعنى «شجو»: حزن. و«غالَهم»: أهلكهم. و«ألمّ»: نزل. و«جوارح» أحزان شديدة. و«اللقائح»: جمع لقحة وهي الناقة التي لها لبن. و«مناخ»: منزل. و«تلامح»: تنظر بعينيها نظراً سريعاً ثم تغضها، و«لاقح»: الحروب التي يتزايد شرها، و«مدرهاً»: مدافعاً. و«مصامح» المدافع الشديد.

(٢) ديوان حسان (ص ٢١٩ ـ ٢٢١) وعدد أبياتها (١٩ بيتاً)، ومعنى «ذي النائل»: ذي العطاء.

يا جعفرُ فأشْبَهتَ خَلْقي وخُلُقي، وأمّا أنتَ يا عليُّ فأنتَ منّي وأنا منْكَ، وأمّا أنتَ يا زيدُ فمولايَ ومولاهما، فادفعاها إلى جعفرَ فإنَّه أوسعكم لها»، فدفعاها إلى جعفرَ، فلم تزلْ عنده حتَّى قُتلَ رضي الله عنه، فأوصىٰ بها جعفرُ إلى أخيهِ عليٍّ، فمكثتْ عند عليٍّ حتَّى بلغت، فعرضَها على رسول الله ﷺ أنْ يتزوَّجها، فقال: «هي ابنة أخي من الرّضاعة»، فطفقت أمامة حين قدمت المدينة تسأل عن قبر أبيها ومصرعه، فبلغ ذلك حساناً، فقال يرثي حمزة رضي الله عنه:

تسائلُ عن قرمٍ هِجَانٍ سَميدعٍ ... لدىٰ البأس مِغْرارِ الصَّباح جَسُورِ
أخي ثقةٍ يهتزُّ للعُرفِ والنَّدىٰ ... بعيدِ المدى في النَّائبات صَبورِ
فقلتُ لها إنَّ الشَّهادةَ راحةٌ ... ورضوانُ ربٍّ يا أُمَامَ غفورِ
فإنَّ أباكِ الخيرَ حمزةَ فاعْلَمي ... وزيرُ رسولِ اللهِ خيرُ وزيرِ
دعاهُ إلٰهُ الحقِّ ذو العرشِ دعوةً ... إلى جنَّةٍ يرضى بها وسرورِ
فذلك ما كُنَّا نرجّي ونرتجي ... لحمزةَ يومَ الحشْرِ خيرُ مصيرِ
فواللهِ لا أنساكَ ما هبَّت الصَّبا ... ولأبكيَنْ في مَحضَري ومسيري
على أسدِ اللهِ الذي كان مِدْرهاً ... يذودُ عن الإسلامِ كُلَّ كفورِ(١)

* ولكعب بنِ مالك رضي الله عنه قصائدُ ومقطَّعاتٌ معبّرة وصادقة في رثاءِ سيّدنا حمزةَ ومنها هذه الدّفقات الموقظةُ التي يفتخرُ من خلالها بحمزةَ:

ولقد هُدِدْتُ لِفَقْدِ حمزةَ هدّةً ... ظلّتْ بناتُ الجوفِ منها ترعدُ
عمّ النَّبيّ محمّد وصفيّه ... ورد الحِمام فطَابَ ذاك الموردُ
وأتى المنيةَ مُعلِماً في أسرةٍ ... نصروا النَّبيَّ ومنهم المُسْتَشْهَدُ(٢)

---

(١) انظر: ديوان حسان بن ثابت الأنصاري (١/ ١٣٢ ـ ١٣٤) تحقيق الدُّكتور وليد عرفات ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٤ م.
أقول: «كان رسول الله ﷺ قد زوَّجَ أمامةَ بنتَ حمزة سلمة بن أبي سلمة المخزوميّ، فماتتْ قبل أن يجمعَهما».

(٢) انظر القصيدة كاملة في السّيرة النّبويّة (٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥)، ومعنى «بنات الجوف»: يعني قلبه وما اتَّصل به من كبده وأمعائه، وسمّاه بنات الجوف لأنَّ الجوفَ يشتملُ عليها. و«المنية»: =

* وقال كعبٌ أيضاً يخاطبُ السَّيِّدةَ صفيَّة أخت حمزة:

صفيّــةُ قُــومــي ولا تعجــزي وبكّــي النِّســاء علــى حمــزة
ولا تَسْــأَمــي أنْ تُطيلــي البُكــا علــىٰ أســدِ اللهِ فــي الهِــزَّة
فقــد كــان عــزّاً لأيتــامِنَــا وليــثَ المــلاحــم فــي البِــزَّة[(١)]

* ومن أبدعِ ألوان الرّثاء الحمزويّ لاميّة كعبِ بنِ مالك التي بكىٰ من خلالها سيّدنا حمزةَ وذكَرَ مناقبه ومنها:

بكــتْ عينــي وحُــقَّ لهــا بُكَــاهَــا ومــا يغنــي البكــاءُ ولا العــويــلُ
علــى أســدِ الإلــهِ غــداةَ قــالــوا أَحَمــزةُ ذاكــمُ الــرَّجُــل القتيــلُ
أُصيــب المسلمــون بــه جميعــاً هنــاك وقــد أُصيــبَ بــه الــرّســولُ
ألا يــا هــاشــمَ الأخيــارِ صَبْــراً فكــلُّ فِعــالكــم حَسَــنٌ جميــلُ[(٢)]

* وهذه سيّدتُنا الجليلةُ صفيَّةُ بنتُ عبد المطَّلب رضي الله عنها شقيقةُ حمزة، تسجِّل موقفاً إيمانياً مُوقظاً نبيلاً بالنِّسبة للمرأةِ الصَّحابية المسلمةِ المستسلمةِ لأمرِ اللهِ وقضائهِ وقدرِهِ، فقد استُشْهد أخوها حمزةُ رضي الله عنه في غزوة أحد، ومُزِّقَ جسدُهُ، ومُثِّل به، وبالشُّهداء[(٣)]، فما كان منها ـ وهي المؤمنةُ الصَّابرة ـ إلا أنْ ترضىٰ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ومن ثمَّ تطمئنَّ إلى مصيرِ أخيها سيفِ اللهِ وأسدِهِ، فهو في مُستقرِّ رحمتِهِ؛ مسرورٌ بما آتاه اللهُ من فضله، مستبشرٌ بنعمتِهِ، وفضلِهِ؛ وتضمِّنُ السَّيّدةُ صفيةُ هذه المعاني التَّربويَّة، والمشاعر الإسلاميَّة السَّامية مرثيتها في سيّدنا حمزةَ فارسِ أهلِ البيت وأسدِهم الهصورِ المقدام، فهي تحاولُ أنْ تُنبِّه المسلماتِ وتذكّرهُنَّ بضرورة تَجاوَزِ حالةِ

= الموت. و«مُعلماً»: مُشهِراً نفسه بعلامة يُعرف بها في الحرب. و«أسرة»: الرهْط والأقرباء.

(١) السّيرة النّبويّة (٣/ ٢٢٥). ومعنى «الهِزّة»: الاهتزاز والاختلاط في الحرب. و«الملاحم»: جمع ملحمة وهي الحربُ التي يكثرُ فيها القتل. و«البِزّة»: الحرب. وبالفتح بَزّة: الأسلاب.

(٢) انظر: البداية والنّهاية (٤/ ٥٩) وعدد الأبيات (١٦ بيتاً).

(٣) كان التَّمثيل في القتيل هو أكثر ما يثير جزع الإنسان العربيّ في عصر الجاهليّة. راجع (نهاية الأرب ٥/ ٣٦١ ـ ٣٦٤).

الخوف والهلع، فقد خاطبتْ أخواتها من بناتِ عبد المطَّلب وغيرهنَّ من المسلمات المؤمنات القانتات، وأوضحتْ لهنَّ المشاعرَ والأحاسيسَ التي قد تنتابُ الإنسانَ الذي لا يَعي ولا يفصحُ ـ الأعجم ـ، وتبيّنُ لهنَّ حقيقةً مُسلَّمةً لاشِيَةَ فيها، وهي مكانةُ الشَّهيدِ عند الله عزَّ وجلَّ، فتقولُ:

أسائِلةٌ أصحابَ أُحْدٍ مخافةً ... بناتُ أبي من أَعْجَمٍ وخَبيرِ

* وسرعان ما يجيءُ جوابُ الإنسانِ المسلمِ المؤمن «خبير» ليعلنَ دونَ مواربةٍ أو وَجَلٍ أنّ سيّدنا حمزة رضي الله عنه قد استُشْهِد وهو في أعلى حالاتِ التَّعَبُّد وأرفعها وأقصاها، فقد كان خير وزيرٍ للصّادق المصدوق رسول الله ﷺ، لذلك وجّهت له الدّعوة الرّبّانية للتّكريم في جنَّةٍ يُسَرُّ بها:

فقالَ الخبيرُ إنَّ حمزةَ قد ثوىٰ ... وزيرُ رسولِ الله خيرُ وزيرِ
دعاهُ إلهُ الحقِّ ذو العرشِ دعوةً ... إلى جنَّةٍ يحيا بها وسرورِ

* وهذه الأمنيةُ الطّيبةُ غايةُ المؤمن ومُنَاهُ، وهي التي كانت صفيةُ ترجوها لحمزةَ ولإخوانها من المؤمنين الشُّهداء، وهذه الأشياءُ والأمنياتُ أَدْعَىٰ للفخْرِ والاعتزاز من الجزعِ واليأس، ولذا فقد قابلت السَّيّدةُ صفيةُ كلَّ الأصوات التي عَلَتْ تحاول أنْ تثيرَ الجزعَ، وتستجلبَ الأسى بأنْ توجَّهت إلى الله عزَّ وجلَّ بصوتٍ خفي هادئ يتجاوزُ عالَمَ الواقع، إلى عالمِ الغيب، حيثُ مصير حمزةَ، وابتهلت إليه عزَّ وجلَّ أنْ يجزيه الخيرَ، وهذا هو الشَّيءُ الوحيدُ الذي يُدْخِلُ السُّرور إلى قلبِ الميّت، وهو في الوقتِ ذاتِه يجعلُ صفيةَ تحسُّ بالطمأنينة والارتياح؛ لأنَّ مصيرَ حمزة مصيرٌ واضحٌ، لذلك لن تنساهُ ما هبَّت الصَّبا:

فذلكَ ما كُنَّا نُرجّي ونَرْتَجي ... لحمزةَ يومَ الحشْرِ خَيْرَ مصيرِ
فواللهِ لا أنساكَ ما هبَّت الصَّبا ... بكاءً وحزناً مَحْضَري ومَسيري
على أسدِ اللهِ الذي كان مِدْرَهاً ... يذودُ عن الإسلام كلَّ كَفُورِ
أقولُ وقد أَعْلىٰ النَّعيُّ عشيرتي ... جزىٰ اللهُ خيراً من أخٍ ونصيرِ[1]

---

(1) البداية والنّهاية (٤/ ٥٩ و ٦٠) بتصرّف يسير جدّاً. ومعنى «الصَّبا»: الرّيح الشّرقيّة. =

* وظلَّتْ صورةُ سيدنا حمزةَ بنِ عبد المطلب مرتسمةً في وجدانِ محبّيه على مدارِ الأيّام وتكرار الليالي، كما ظلّتْ بطولتُه وشمائلُه مرسومةً على شفاهِ قوافيهم ومدائحهم لحمزةَ، ولأهلِ البيتِ الأطهارِ جميعهم. وممّن أدلىٰ دلْوَهُ بين دِلاءِ المادحين والمحبّين ابن جابر الأندلسيّ الذي امتدح أهل البيت في قصائدَ عديدةٍ، ومن بين قصائده الرّنانة قصيدتُه في التَّورية بِسُورِ القرآن الكريم، ومدْحِ النَّبيّ ﷺ وآله وصحبه، ومنها قوله في حمزة:

وحمــــزةٌ ثـــمّ عبّـــاسٌ وآلُهُمَـــا   وجعفـــرٌ وعقيـــلٌ ســـادةٌ خِيَـــره
أولئك النَّاسُ آلُ المصطفى وكفىٰ   وصحبُه المقتدون السَّادةُ البَرره(١)

* ولابن جابر أيضاً داليةٌ مطوّلةٌ أنيقةٌ في فضائل الصَّحابة العشرة المبشّرين بالجنّة، وأهلِ البيتِ الكرام، ومنها ما ورد في ذكْرِ أسدِ الله حمزةَ رضي الله عنه وتعداد بعض فضائله:

ومَنْ مثلُ ليثِ الله حمزةَ ذي النّدى   مُبيدِ العدا مأوى الغريبِ المطرَّدِ

= و«مسيري»: المعنى هاهنا: مغيبي، و«مِدْرهاً»: المِدْره: الفارس الذي يدفع عن القوم. و«يذود»: يدفع ويمنع.
وأودُّ هاهنا أنْ ألفتَ نظرَ القارىء وتذوّقَه لهذا النَّص الشّعريّ الجميل إلى أنْ يتأمّلَ في هذه المرثية وفي موسيقاها الموحية، إذ إنّنا نلاحظُ التّنوع الإيقاعيَّ الملائمَ للأجواءِ الانفعاليةِ والنّفسية للمرثية.
فقد جاء الرَّويُ ـ الراء المكسورة ـ في رثاءِ صفيةَ رضي الله عنها يخاطبُ رقّةَ الحزنِ الهادىء ويحاكيه، وزاد المرثية جمالاً كثرة استخدام حرف الرّاء، بالإضافة إلى صوتِ حرفِ العلّة «الياء». كما زادها رقّةً في الإيقاعِ وعذوبته التي تدخلُ إلى خبايا النفوس وزواياها.
ونلاحظ أيضاً أنَّ السَّيدة صفيةَ رضي الله عنها قد أكثرتْ من استخدامِ الهمزة، إذ استخدمتها قرابة عشرين مرّةً، وساعدت هذه الهمزاتُ بطبيعتها الصّوتية الموقظة على شيوع نغمةٍ خاصةٍ تحرّكُ النّفوس كلّما خَفَتَ الإيقاعُ.
وبالطّبع فالسّيدةُ صفيةُ رضي الله عنها هي شاعرةُ الهاشميّات، وسليقتُها الصَّافيةُ ساعدتها على نظمِ هذه الهمسات التي تتجاوبُ مع النّفوس وتؤثّر فيها.
(١) انظر القصيدة كاملة في نفح الطِّيب، (٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦) وعدد أبياتها (٥٦ بيتاً).

فكم حزَّ أعناقَ العُداةِ بسيفه وذبَّ عن المختارِ كلَّ مشدد

ومنها يصفُ شجاعتَه يومَ أُحدٍ واستشهاده:

وفي أُحدٍ نال الشَّهادةَ بعدما أذاقَ سِباعاً للرّدى شرَّ مَورد
ففازَ وأضحى سيّد الشَّهداء في ملائكة الرّحمن يسعىٰ ويغتدي

ومنها قولُه في بعض شمائلِه وخواصّه:

وزادَ إلى فَضْل العمومةِ أنَّه أخوه رضاعاً هكذا المجدُ فاشهدِ
وما زالَ ذا عِرضٍ مصونٍ عن الأذى ومالٍ مهانٍ في العَطَايا مبدّدِ
كريمٌ متى ما أوقدَ النَّار لِلقرىٰ تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقدِ(١)

* وممّن شدا بقوافيهِ في مديحِ حمزةَ الشّيخ يوسُف النّبهانيّ إذ قال في قصيدةٍ اختصر فيها السِّيرة النّبويّة وذكرَ من خلالها حمزة وأكابر الصَّحابة:

حبَّذَا حين صدَّقَ الصّدّيق ثمّ مِنْ بَعْدُ آمَنَ الفاروق
قبلهُ حمزةُ الشُّجاع الحقيقُ أسدُ اللهِ للرّسول حميمُ
فعليه الصَّلاة والتَّسليم

* وللنَّبهاني همزيّةٌ ألفيّةٌ اسمها: «طيبة الغرّاء في مدح سيّد الأنبياء ﷺ» وازَنَ بها همزية الإمام البُوصيْريّ المسمّاة «أمّ القرى في مدحِ خير الورى» ومطلع الهمزيّة النّبهانيّة:

نورُكَ الكُلُّ والورَىٰ أجزاءُ يا نبيّاً مَنْ جندِهِ الأنبياءُ

ومنها يذكرُ حمزةَ في السَّابقين إلى الإسلام:

واهتدىٰ سادةٌ فصَار لهم بالسَّـ ـبْقِ والصِّدقِ رتبةٌ علياءُ
أسدُ اللهِ والرّسولِ الذي دا نَتْ له بالسِّيادة الشُّهداءُ

ومنها يذكر استشهاد سيّدنا حمزة في غزوة أُحدٍ فيقول:

---

(١) نفح الطيب (٧/ ٣٦٥ و ٣٦٦) بانتقاء.

ومضَىٰ حمزةُ شهيداً فجلَّ الخَطْـ ـــبُ فينا وأُخْرِسَ الخطباءُ
عيني ابكي عليه فَحْلَ قُريش جَلَّ قَدْراً فجلَّ فيه الرّثاءُ
إنَّ هذا من الإلهِ ابتلاءٌ ومنَ الله ِيحسُنُ الابتلاءُ
عجباً تضحكُ الجِنَانُ لشيءٍ طَرْفُ طه من أجله بكَّاءُ
قد بكى حمزةَ بكاءً قَضَتْهُ رقةٌ في فؤادِهِ وصفَاءُ

ومنها يذكر أهلَ البيتِ ومن بينهم حمزة والعبّاس فيقول:

أذهبَ اللهُ رجْسَهم فَهمٌ من كلّ عيبٍ عابَ الورىٰ أبرياءُ
قد مضَوا غارقين في رحمةِ اللـ ـــه وباءتْ بسخطِهِ الأعداءُ
وبعمَّيْكَ حمزةَ وأبي الفضـ ـــل أخيه ومَنْ حَوَاه الكساءُ

ثمّ ختمَها بقوله:

ما قضى اللهُ في الورىٰ لكَ مدحاً وله الحمدُ كلُّهُ والثَّناء[1]

وشارك «أحمد محرّم» في ذكرِ حمزة رضي الله عنه، ورسمَ بقصيدة عينيّةٍ جميلةٍ قصَّةَ استشهاده، ومن هذه الأبيات:

صَاحِبُ السَّيفَيْن ماذا صَنَعا ودَّع الصَّفَيْن والدُّنيا معَا
غابَ عن أصحابِه ما علمُوا أيَّ دارٍ حَلَّ لمَّا ودَّعا
يا رسولَ الله ِهذا حمزةٌ أترىٰ عيناكَ منه المصْرعَا
إنَّه عمُّكَ إلاَّ أذناً قُطعَتْ منه وأنفاً جُدِعَا
إنَّه عمُّك فانظرْ بطنَه كيف شقّوه وعاثوا في المِعَىٰ
كبدُ الفارسِ ماذا فعلَتْ أين طاحَتْ مَنْ قضى أنْ تُنزعَا
نَذْرُ هندٍ هي لولا أنّها لم تُسِغْها أكَلتْها أجمعَا
كلّما همّتْ بها تدفعُها ملءَ شِدقَيْها أبتْ أنْ تُدفعا

---

(١) المجموعة النّبهانيّة في المدائح النّبويّة ليوسف النّبهاني (١/ ١٧٧ ـ ٢٤٢) بانتقاء واقرأ هذه الهمزية كاملة فهي تحفة أدبية نفيسة.

جـاء وحشـيٌّ فضجَّـتْ فَـرحـاً		وَيْـكِ إن الأرض ضجَّـتْ فـزعَـا
تبـذليـن الحَلْـيَ والمـالَ علـى		أن جنـاه جـاهليـاً مُفظعَـا
يـا لَـهُ يـا هنـدُ جُـرحـاً داميـاً		ضـاقَ عنـه الصَّبـرُ ممّـا اتّسعـا
أسـدُ الله رمـاهُ ثعلـبٌ		يـا لـه مـنْ حـادثٍ مـا أبـدَعـا
حـربـةٌ ظمـأىٰ أصـابـتْ مشـرعـاً		كـان مـن خيـرٍ وبـرٍّ مُتـرعَـا
جَـزَع الهـادي لهـا نـازلـةٌ		جلّلـتْ عُليـا قـريـشٍ جـزَعَـا
بـورك المضجـعُ والقـومُ الألـى		وسّـدوا فيـه الشَّهيـد الأروعـا[1]

* وهكذا عاشَ سيّدنا حمزةُ عشْر سنوات في ظلالِ الإسلام، كانت سنواتٍ سماناً، كلُّها سخاءٌ في عطاءٍ في تضحيةٍ، وكان من رجالِ أهل البيت السَّابقين إلى المكارمِ والدّوحة الفينانةِ المُزهرة بالإسلام، ومن الذين جاهدوا في الله حقّ جهاده، فقدّمَ روحه في سبيلِ الله، فربحَ بيعُه ونفسه، وخسِرَهُ المسلمون لشجاعتهِ المتميّزة، وبطولته النَّادرة، التي كان يسخّرها للدّفاع عن الإسلام ونبيّ الإسلام وأهل البيت والمسلمين.

* «لقد كان سيّدنا حمزة أسد الله إنساناً رفيعاً في سجاياه، من أولئك الذين خُلقُوا للخير والمُثُلِ العليا، فكان في حياته كلِّها رهينَ مُثُلِهِ العُليا، لا يفكّرُ بغيرها، ولا يعملُ إلا من أجلها، فعاشَ لها، وماتَ دفاعاً عنها، ولا نعلمُ أنّه شَغَل نفْسَه بالتِّجارة، أو أتبعَ نفسه ابتغاء الثَّراء، بل قضى عمره فقيراً، ومات فقيراً، ولم يكتنزْ درهماً ولا ديناراً، ولا اقتنىٰ داراً ولا عقاراً، فكان فقيراً بالمادّة، سخيّاً بالرّوح، جواداً معطاء رضي الله عنه وأرضاه»[2].

* كان سيّدنا حمزةُ من أبطال أهلِ البيتِ وفرسانهم، ومن شجعان المسلمين، عُرِف بالإقدام والبسالة، واشتُهر بالشَّجاعة والفتوّة والأريحيّة

(١) ديوان مجد الإسلام (ص ١٣٤ ـ ١٣٦) بانتقاء.
(٢) قادة النّبيّ ﷺ (ص ٧٣) بتصرّف يسير. لمحمود شيت خطّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٥ م.

والفروسيّة، ولمّا جنْدلَ فرسانَ المشركين يوم بدر، وفعل بهم الأفاعيل علا صيتُهُ في أنحاءِ الجزيرة العربيّة، وأكرمه رسولُ الله ﷺ وسمّاه: «أسد الله، وأسد رسوله» وحسبُك بهذه التّسمية من رفعة وتكريم.

* «ولعلَّ ثقتَهُ العاليةَ بنفسه في القتال، هي نتيجةٌ من نتائج شجاعته وذكائه، فصَقَل هذا الطَّبع بالعلْم المكتسب في التَّدريب على استعمالِ السِّلاح والفروسيّة، وتحمّل المشاق والصّبر والمُصابرة والإيمان العميق بالقضاء والقدر. أمّا تجربتُه العمليّةُ، فقد مارس القتالَ من نعومةِ أظفاره في حرب الفجار، إلى استشهادِهِ في غزوةِ أُحد، فَسَقَطَ مضرّجاً بدمائه، ولم يسقطْ من يده السَّيف»[1].

* لقد كان حمزةُ سيّداً في الجاهليّةِ والإسلام، وبطلاً من أبطالِ أهل البيت، وشهيداً من شهدائهم الذين ضحّوا في سبيل الإسلام بأرواحهم، فصار حديثُهم جمالَ الكتبِ والسِّير.

* إنَّ الحديثَ بالمشاعرِ والأحاسيس عن سيّدنا حمزةَ يطولُ ويطولُ، وهو مع هذا الطُّول عذبٌ مُستساغٌ جميلٌ، لأنَّ الحياةَ مع رجالِ أهلِ البيت النَّبويّ عطاءٌ في عطاءٍ، ومعرفة أخبارِ عمّ النَّبيّ ﷺ نقاءٌ في صفاءٍ في رواءٍ.

* نسألُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يحشرَنا في معيّة عَمّي النَّبيِّ ﷺ الحمزة والعبّاس، وأنْ يَهَبَنا لهما، وأنْ يتجاوزَ عن سيئاتنا، وأنْ يشملَنا برحمته.

* رضي الله عن سيِّد الشُّهداء، أسدِ الله وأسدِ خاتم الأنبياء، حمزة بن عبد المطّلب، وما زال غيث الرّحمة عليه منسكب:

يا سيّدَ الشُّهداء حسْبُك رفعةً ... أنْ كنتَ سبّاقاً إلى الإيمانِ

فاهنأْ بجنّاتِ النَّعيم وخلدِها ... يا سيِّد الشُّهداء في الأزمانِ

❐ ❐ ❐

---

(١) المرجع السَّابق (ص ٧٥ و ٧٦).




العبّاس بن عبد المطّلب

رضي الله عنه

* عمّ النّبيّ ﷺ وأبو النّجباء الأخيار.
* كان مع النّبيّ ﷺ في بيعة العقبة.
* أسلم وهاجر قبل فتح مكّة المكرّمة.
* روى (٣٥ حديثاً) وله أخبار مونقة في السِّيرة.
* من رجال أهل البيت المُعمَّرين توفي سنة (٣٢ هـ).




العباسُ بن عبد المطّلب
رضي الله عنه

الشَّريفُ الحسيبُ:

* عَلَمٌ كريمٌ جليلُ القَدرِ، رفيعُ الحسبِ، له في أهلِ البيتِ منزلةٌ كبرىٰ، وله آثارٌ حِسَان، ومآثرُ نبيلةٌ، ومكانةٌ مرموقةٌ فيمن أذهبَ اللهُ عنهم الرجسَ وطهَّرهم تطهيراً.

* ومَنْ منَّا لا يعرفُ مَنْ كان مع النَّبيِّ ﷺ في بيعتِهِ المباركةِ للأنصار ليلةَ العقبة؟! وكان آخذٌ بيده الشَّريفةِ يؤكّدُ له البيعة؟

* هذا الرَّجلُ الشَّريفُ الحسيبُ هو سيّدنا العبّاسُ بنُ عبد المطَّلب القُرشيّ الهاشميّ[1] عمّ سيِّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ، وكان العبَّاسُ يكنى أبا الفَضْل.

* وأمُّ العبّاسِ نُتَيلةُ بنتُ جناب بن كُليب أوَّلُ امرأةٍ عربيةٍ كَسَتِ الكعبةَ الحرير. قالوا: «وسببُهُ أنَّ العبَّاسَ ضاعَ وهو صغيرٌ، فنذرت إنْ وجَدَتْه أنْ تكسوَهَا فوجدته»[2]. أقول: «اللهُ تعالىٰ أعلمُ بِصِحّةِ هذه القصّة مع العِلْمِ بأنَّ

---

(١) المصادر التي تحدَّثت عن سيّدنا العبّاس بن عبد المطَّلب لا تُحصى ولا تستقصى ومنها: تهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧ ـ ٢٥٩)، وطبقاتُ ابن سعد (٤/ ٥ ـ ٣٣)، وسيرُ أعلام النُّبلاء (٢/ ٧٨ ـ ١٠٣)، ومختصرُ تاريخ مدينة دمشق (١١/ ٣٢٤ ـ ٣٥٤) وغيرها كثير.

(٢) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧)، والمفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي (٦/ ٤٤٣) وغيرهما من مصادر أخرى.
وزعم ابنُ حبيب في «المنمّق» بأنَّ الذي ضاع وهو صغيرٌ: ضِرارُ بنُ عبد المطَّلب، وكانت أمُّ=

الإمامَ النَّوويُّ قد أوردَهَا في تهذيبه»[1]!!.

* أجمعت مصادرُ السِّيرةِ النَّبويّة، وكتبُ التَّراجم والطَّبقات والتّواريخ أنَّ سيّدنا العبَّاس كان أصغر أولادِ عبدِ المطّلب، وكان عبدُ المطّلب سيِّدَ قريش ورأسَها ورئيسَها. أمَّا ابنه العبَّاسُ فقد ملأَ وأولاده الأرضَ، وبارك الله عزَّ وجلَّ في ذريّتِهِ؛ وذكرتْ كتُبُ الطَّبقات نقلاً عن ابن عبَّاس أنَّه قال: «وُلِدَ أبي العبَّاس

= العبَّاس؛ وضرار: نُتيلةُ بنتُ جناب بن كليب. وذكر ابنُ حبيب قصّةَ ضياعهِ مع شعرٍ وخبرٍ نورده هاهنا للفائدة والمتعة؛ وزيادة الثَّقافة والمعرفة.

قال ابن حبيب: «... كان ضرارُ بن عبد المطّلب من فتيان قريش جمالاً وعقلاً وهيبةً وسخاءً، وإنَّ أمّه نُتيلة أضلّتْهُ، فكاد عقلُها يذهبُ جزعاً عليه، وكانت كثيرة المال، فجعلتْ تنشدُ في المواسم وتقولُ:

أضللتُـــه أبيـــضَ لـــوذعيّـــا ... لـــم يـــكُ مجلـــوبـــاً ولا دعيّـــا

وقالت:

أضللتـــهُ أبيـــضَ كـــالخصـــاف ... للفتيـــة الغـــرّ بنـــي منـــاف

ثـــمّ لَعَمْـــري منتهـــى الأضيـــاف ... هـــذي لِفِهْـــرٍ سنـــة الإيـــلاف

فجعلَتْ لمن جاء به هُنيدة ـ مئة من الإبل ـ ونذرتْ أنْ تكسوَ البيتَ إنْ ردّه اللهُ عليها، فمرَّ بها حسَّانُ بنُ ثابت حاجّاً في نفرٍ من قومه، فرأى جزعها عليه، فقال:

وأمُّ ضـــرارٍ تُنْشِـــدُ النـــاس والهـــاً ... فَيَـــالَبَنـــي النجّـــارِ مـــاذا أضلَّـــتِ

ولـــو أنَّ مـــا تلقـــى نتيلـــةُ غـــدوةً ... بجـــانـــبِ رضـــوى مثلـــه مـــا استقلّـــتِ

فأتاها به رجلٌ من جُذام، فوفَتْ له بجُعلها، وكسَت البيتَ ثياباً بيضاً وجعلتْ تقول:

الحمـــــدُ للهِ ولـــــيُّ الحمـــــدِ ... والـــــذي هـــــوّن مـــــنْ وجـــــدي

إذ ردّ ذو العـــــرش علـــــيّ ولـــــدي ... مـــنْ بَعْـــدِ أنْ جـــوّلـــتُ فـــي مَعَـــدّ

أشكرهُ ثمَّ أفي بعهدي»

(المنمّق ص٣٦ ـ ٣٨)

أقول: «رجعتُ إلى ديوان حسَّان بن ثابت فلم أجدْ له سوى بيتٍ واحدٍ في أمّ ضرار، على النّحو الآتي:

وأمُّ ضـــرار تنشـــدُ النَّـــاس والهـــاً ... أمُ لابـــن تيـــمِ اللهِ مـــاذا أضلَّـــت»

(ديوان حسّان ص ٣٧٤)

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧).

بن عبد المطَّلب قَبْلَ قدومِ أصحابِ الفيل بثلاث سنين، وكان أسنّ من رسولِ الله ﷺ بثلاث سنين»[1].

* وكان للعبَّاس بنِ عبد المطَّلب من الوَلَد:

الفَضْل: وهو أكبرُهُم، وبه كان يُكنى، وكان جميلاً، وأردفه النَّبيُّ ﷺ في حجَّتِهِ، ومات بالشَّام في طاعون عمواس وليس له عَقِب.

عبدُ الله: وهو الحبْرُ، دعا له النَّبيُّ ﷺ، ومات بالطَّائف، وله عقب.

عُبيدُ الله: كان جَوَاداً سخيّاً ذا مال، مات بالمدينةِ المنوَّرةِ وله عقب.

عبدُ الرّحمن: مات بالشَّام وليس له عقب.

قُثَم: كان يُشَبَّه بالنَّبيِّ ﷺ، وكان خرج إلى خراسان مجاهداً، فماتَ بسمرقند، وليس له عقب.

معبد: قُتِلَ بإفريقية شهيداً وله عقب.

أمُّ حبيبة بنتُ العبَّاس: أخت السّتّة النُّجباء.

* وأمُّ هؤلاء الأخيار جميعاً السَّيّدةُ النَّجيبةُ الحصيفةُ أمّ الفَضْل، وهي لبابةُ الكبرىٰ بنتُ الحارث بن حزن بنِ بجير الهلاليّة، الحُرَّةُ الجليلةُ، وهي كذلك أختُ أمّ المؤمنين ميمونة بنتِ الحارث، وخالة سيّدنا سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد، وأختُ أسماءَ بنتِ عميس لأمّها، وفيها وفي زوجها العبَّاس يقول عبدُ الله بن يزيد الهلاليّ:

مَا ولَدتْ نجيبةٌ من فَحْلِ ... بِجَبَلٍ نعلمهُ أو سَهْلِ
كستةٍ منْ بطنِ أمِّ الفضْلِ ... أكرمْ بها من كَهْلةٍ وكهْلِ
عمّ النَّبيِّ المصطفى ذي الفَضْلِ ... وخاتم الرّسْل وخير الرّسلِ

(١) من محاسنِ الأجوبةِ اللطيفة والنكات الظريفة أنّه قيل للعبّاس: «أنتَ أكبرُ أو النّبيّ ﷺ»؟ قال: «هو أكبرُ وأنا ولدتُ قبله»... (مجمع الزّوائد ٩/ ٢٧٠).

* والسَّيِّدةُ الفاضلةُ النَّبيلةُ أمّ الفضل قديمةُ الإسلام، نَعِمَتْ بأفيائه قبل زوجِها العبَّاس، وكذلك ابنها الحَبرُ عبد الله الذي كان يقول: «كنتُ أنا وأمّي من المُستضعفين من النّساء والوِلْدان».

* كانتِ السَّيِّدةُ العاقلةُ أمّ الفضل من عليةِ النِّساء وكبرائهنّ، هاجرتْ مع سيّدنا العبّاس إلى المدينة المنوّرة، وروتْ أحاديث، وتُعَدُّ هذه المرأة الكريمةُ أوّل امرأةٍ حرّةٍ أسلمت بَعْدَ أمّنا أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وحشرنا في معيَّتها، وعفَا عنَّا بفضله ورحمته.

* ومن الجدير بالذِّكر أنَّه كان لسيّدنا العبّاس من الولد من غير السَّيّدة أمّ الفضل:

كثيرُ بن العبّاس: وكان فقيهاً محدّثاً.

تمّامُ بنُ العبَّاس: شقيقُ كثير، وأمُّه أمّ ولَد رومية، وكان تمَّام من أشدّ أهل زمانه. قال الزُّبيرُ بنُ بكَّار: «كان للعبّاس عشرة من الولَد، وكان تمَّامُ أصغرهم، فكان العبّاس يحمله ويقول:

تمُّوا بتمّام فصاروا عشَرة ... يا ربّ فاجْعَلْهم كراماً بَرره

واجعلْ لهم ذِكراً وأنم الثَّمره»[1]

الحارثُ بنُ العبَّاس: وأمُّه حُجيلة بنتُ جندب بن الرّبيع؛ وللحارث عقب. وليس لكثير وتمّام عقب.

صفيّةُ وأميمة بنتا العبّاس: وأمّهما أمّ ولد.

* وقيل: «إنّه ما رُؤيت قبورُ إخوةٍ أشدّ تباعداً بعضها من بعض من قبورِ بني العبَّاس، مع كونهم ولدوا في دارٍ واحدة»[2].

---

(١) انظر: أسد الغابة (١/ ٢٥٤) ترجمة رقم (٥١١).

(٢) جمهرة النّسب للكلبيّ (ص ٣٢)، وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٨٥).

فالفَضْلُ: بأجنادين.

ومعبدُ وعبدُ الرّحمن: بإفريقية.

وعبدُ اللهِ: بالطَّائف.

وعُبيدُ الله: باليمن.

وقُثَم: بِسَمرقند.

وكثير: بينبع.

* ولعلَّ الحكمةَ من ذلك انتشارُ بركتهم في الآفاقِ، وانتفاعُ النّاس بهم في تلك البلدانِ التي سكنوها، من حيث نَشْر العِلْم، والدّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وعَمَل المَبرَّات.

العبَّاسُ في بيعةِ العَقَبَةِ:

* كانت المرحلةُ المكيَّةُ لرسالةِ الإسلامِ مرحلةَ كفاحٍ ونضالٍ؛ وصبرٍ واحتمالٍ، لأنَّها كانت مرحلة تربيةٍ وإعدادٍ وبناء؛ وظلَّتْ هذه المرحلةُ على شدّتها، ومرارةِ قسوتها مدّة ثلاثة عشر عاماً ـ وهي المدَّةُ التي أقامها النَّبيُّ ﷺ منذ اصطفاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لنبوّته، ثمَّ اجتباه لرسالتِهِ ـ لم يهدأْ لهيبُ أوارِها، ولم تخمدْ شعلةُ نارِها؛ وكان المؤمنون طوال هذا الزَّمن صابرين راضين بما يصيبُهم من نَصَبٍ وبلاء، وما ينزلُ بهم من محنٍ وعذاب، لِقُوَّةِ يقينهم، ومضاءِ عزيمتهم.

* وطفقَ الكافرون يضيقون ذرعاً، يكادُ يقضي عليهم القَلَقُ النَّفسيُّ، والاضطرابُ الفكريُّ ممّا يرون من عظمِ احتمالِ المؤمنين وصبرهم، وممَّا يرون من انتشار دعوةِ الإسلام والرّسالةِ المحمّديّة بين خاصّة القوم وعامتهم.

* وممَّا يلفتُ النَّظر أنَّ العبَّاسَ بنَ عبد المطّلب لم يعارضْ هذه الرّسالة، ولمْ يقفْ موقفَ العَداء من ابن أخيه محمّد ﷺ، وإنّه لم يسلمْ في مشرقِ شمس الدَّعوة ومطلعها، بل كان يدرك تماماً صدقَ دعوةِ ابن أخيه، ويعرفُ أخلاقَه

وأمانته وشمائله الكريمةَ، وخلالَه الجميلةَ.

* بدأت طلائعُ النَّصرِ الإلهيّ تظهر في سيرِ الرِّسالةِ المحمّديّة، حينما أخذت همساتُ الإسلام وأنسامُهُ تسري نحو المدينة المنوّرة، وحينما أخذ بعضُ أهلها ينتعشون من الهدايةِ الرَّبَّانيّة التي جاءت في القرآنِ الكريم، وارتفع الهمسُ الدّافىء، فكان بين القوم نَغماً سرياً، وصوتاً نديّاً، وأثراً قوياً.

* صار من أثرِ هذا الهمس بذكْرِ الإسلام ونَبيِّ الإسلام محمّد ﷺ في جوّ المدينة؛ أن انبعثت الهممُ في نفوس أهلها، وأسرع بعضُهم إلى أمِّ القرى مكّة، ومن ثم اجتمعوا بالنَّبيّ ﷺ، واطمأنت قلوبُهم إلى ما سمعوا منه عن الإسلام وشرائعه، وعرفوا حقيقةَ الأمر، فأجابوا النَّبيَّ ﷺ إلى ما دعاهم إليه وصدّقوه، وبايعوه، وبعث معهم ﷺ مصعب بن عمير، يعلمهم أمر الإسلام، ويفقّه مَنْ أسلم منهم.

* كان مصعبُ بنُ عمير رضي الله عنه عظيمَ البركةِ والخيرِ على الدَّعوة إلى اللهِ، وتبليغ رسالة الإسلام، وكان حصيفاً صبوراً عاقلاً لمّاحاً معلّماً ماهراً، أحبَّه أهلُ المدينة، فدخل على يديه عددٌ جمٌّ من الرّجالِ والنّساء، ونَعِمُوا بالإسلام، وغدوا من أهله والسَّابقين إلى حياضه.

* انتشرَ الإسلامُ في المدينةِ على يدي مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان ينتقلُ في دور الأنصار يقرىءُ القرآن، ويعلّمُ الشَّرائع والأحكام، وغدت المدينةُ لا تصبحُ ولا تمسي إلا على ذكْرِ النَّبيّ ﷺ، وذكرِ دعوة الإسلام والسَّلام، وتلاوة القرآن العظيم، وبيان هدايته وتبيينها، وليس بين بيوتها بيتٌ إلاَّ وفيه مسلمون ومسلمات يحبّون الإسلام، ونبيّ الإسلام ﷺ.

* وأخذ هؤلاء الأخيارُ الأطهارُ يتشوّفون إلى هجرة النَّبيِّ ﷺ إليهم، فقد أصبحوا ذوي عزائم ماضية يقدّرها النَّبيّ ﷺ حقَّ قَدْرها.

* ائتمر المسلمون فيما بينهم، وأجمعوا أمرهم أنْ يرحلوا إلى أمِّ القرى، فرحل إليه ﷺ بضع وسبعون رجلاً؛ وامرأتان هما: نسيبةُ بنتُ كعب،

وأسماءُ بنتُ عمرو، رضي الله عنهما.

* واجتمع هؤلاء بمكَّة وواعدوا النَّبيّ ﷺ بمنى أوّل الليلِ في العقبة، حتّى إذا كملُوا أتاهم النَّبيُّ ﷺ، وكان معه عمُّه العبَّاسُ بنُ عبد المطّلب، وهو يومئذٍ على دِيْنِ قومه، وكان على معرفةٍ تامّةٍ بأهلِ المدينةِ ومَنْ حولَها، ولكنَّه أحبَّ أنْ يحضرَ أمْرَ ابن أخيه، ويتوثّقَ له من هؤلاء الأنصار المتحمّسين الشُّجعان الصَّادقين، فقد كان الأنصارُ يعرفون سيّدنا العبّاس معرفةً واضحةً لأنَّه كان يقدمُ عليهم تاجراً.

* ولمّا جلس النَّبيُّ ﷺ، كان أوّلَ مُتكلِّم من القوم العبَّاسُ بنُ عبد المطّلب، فقال مخاطباً أهلَ المدينة كما جاء في «السِّيرة»: «يا معشرَ الخزرج - وكانت العربُ إنّما يسمّون هذا الحيّ من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها -: إنَّ محمّداً منّا حيثُ علمتم، وقد منعناه من قومنا ممّنْ هو على مثلِ رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعةٍ في بلده، وإنّه قد أبىٰ إلاّ الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإنْ كنتم تَرَوْن أنّكم وافون له بما ترون أنّكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخزرج به إليكم، فمن الآن فدعوهُ، فإنّه في عزٍّ ومنعةٍ من قومِهِ وبلدِهِ»[1].

* وأمَّا خطبةُ العبَّاسِ من روايةِ ابن سَعْد في «الطَّبقات»، ففيها من الجزالةِ والوضوحِ والبيانِ، ما يشيرُ إلى بلاغةِ العباس وشدّته وحبّه الصَّادق لابن أخيه محمّد ﷺ.

* قال ابنُ سعد: فكان أوّل مَنْ تكلَّم العبّاسُ بنُ عبد المطّلب فقال: «يا معشرَ الخزرجِ، إنّكم قد دعوتم محمّداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمّدٌ مِنْ أعزّ النَّاس في عشيرته يمنعه - واللهِ - منَّا من كان على قوله، ومن لم يكن منّا على قوله يمنعه للحسب والشَّرف، وقد أبىٰ محمّد النّاس كلّهم غيركم، فإنْ كنتم أهلَ قوةٍ وجَلَد وبَصَرٍ بالحرب، واستقلالٍ بعداوةِ العربِ قاطبة ترميكم عن قوسٍ واحدة، فارتأوا رأيكم، وائتمروا بينكم، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم

(١) السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (٢/ ٩٦)، مكتبة المنار - الأردن - ط ١ - ١٩٨٨ م.

واجتماع، فإنَّ أحسنَ الحديث أصدقُه»[1].

* ثمَّ قال ابنُ سعد: فقال البراءُ بنُ معرور: «قد سمعنا ما قلتَ، إنَّا واللهِ لو كان في أنفسنا غير ما تنطقُ به لقلناه، ولكنَّا نريدُ الوفاءَ والصِّدق وبذلَ مهج أنفسنا دون رسولِ الله ﷺ».

* ثم قال ابنُ سعد: «ويُقال: إنَّ أبا الهيثم بنَ التَّيهان كان أوّل مَنْ تكلّمَ وأجابَ إلى ما دعا إليه رسولُ اللهِ ﷺ، وصدَّقه، وقال: نقبلُهُ على مصيبةِ الأموال، وقَتْلِ الأشراف. ولَغَطُوا، فقال العبّاسُ بنُ عبد المطَّلب وهو آخذٌ بيدِ رسول الله ﷺ: أخفوا جَرْسكم، فإنَّ علينا عيوناً، وقدّموا ذوي أسنانكم، فيكونون هم الذين يلُونَ كلامَنَا منكم، فإنَّا نخافُ قومكم عليكم، ثمَّ إذا بايعتم فتفرَّقُوا إلى محالّكم»[2].

* ثمَّ إنَّهم بايعوا النَّبيّ ﷺ، فقال لهم: «إنَّ موسى أخذَ من بني إسرائيل اثني عشَر نقيباً، فلا يَجِدَنَّ منكم أحد في نفسِهِ أنْ يُؤخذَ غيره، فإنّما يختار لي جبريل»[3].

* قال مالكُ بنُ أنس رحمه الله: «حدّثني شيخٌ من الأنصار: أنَّ جبريلَ عليه السَّلام كان يشيرُ له إلى مَنْ يجعله نقيباً، قال مالك: كنتُ أعجبُ كيف جاء من قبيلةٍ رجلان، ومن قبيلةٍ رجل، حتّى حدَّثني هذا الشَّيخ في أنَّ جبريل كان يشيرُ إليهم يوم البيعةِ، يوم العقبة».

* كانت هذه البيعةُ الموثقةُ المباركة قرَّةَ عين المُسلمين، وقرَّةَ عينٍ للعبَّاس نفْسِهِ، فقد عاينَ عزائم الأنصار الصَّادقة التي تُدَكُّ لقوتها الشُّمّ الرّواسي؛ فقد فرّج اللهُ بها عن المسلمين، وانفتحت أمامهم أبوابُ الآمالِ واسعةً، وكانت هذه البيعةُ بجملتها فتح الفتوح؛ إذ كانت البدايةُ الموفَّقةُ في

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢٢).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢٢).
(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢٢ و ٣٢٣).

سلسلةِ الفتوحاتِ الإسلاميةِ، التي تتابعتْ فيما بعد لتعمَّ بطيبِ عَرفها الدّنيا بأسرِها، من مشرقها إلىٰ مغربها.

* كانت هذه البيعةُ الكبرىٰ اللبنةَ الأساسيّة في تكوين جماعات الصَّحابة الأخيار الذين فتحوا البلدان بأخلاقهم وسمعتِهم ومعاملتِهم الحصيفة، وكان محورُ هذه البيعة الرَّئيس أحدَ رؤوساء أهل البيتِ ورجالِهم الأخيارِ الأبرارِ سيّدنا العبّاس بن عبد المطّلب[1] رضوان الله عليه الذي يُذْكَرُ اسمه بفخرٍ واعتزازٍ كلّما ذُكرت هذه البيعةُ المباركةُ التي كانت مطلعَ النُّور، ونورَ الهداية للبشريّة كلّها.

* كما أنَّ العبّاسَ رضي الله عنه كان مع النَّبيِّ ﷺ عندما عرض دعوته على قبيلة بكْر وغيرها قبل بيعة العقبة، وإنَّ تاريخ سيّدنا العبّاس ليذكر ذلك مضيفاً رصيداً ثميناً في سيرته، ومحبّته الصَّادقة لابن أخيه محمّد ﷺ، فتعالوا نشهد

---

(١) مِنَ المؤكّدِ في تاريخ السِّيرةِ النَّبويَّةِ العطرةِ أنّه لا يكفي لانتشار دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ الحبَّ وحده؛ ولو حضَرةُ عمّه العبّاس، ولكنَّ هؤلاء الأخيارَ الذين قدموا من المدينة، والتقوا الحبيبَ الأعظمَ ﷺ بالعقبة كانوا يحبّونه محبةً تفوقُ التّصوّر، فلقد أحبّوه أكثرَ من أولادهم وأزواجِهم، وذريّاتهم بل وأموالهم، وأثبتوا صِدْقَ هذه المحبّة قولاً وفعلاً.

ونحنُ نعلمُ علمَ اليقين أنَّ الدَّعواتِ لم تقمْ بالحبِّ فقط، ولم تتغلبْ على الجاهلين بخلجاتِ القلوب في حنايا الصُّدور، وخبايا الأضالع، وإنّما تكونُ الغَلَبَةُ والنَّصرُ بعزائم الصَّادقين والصَّادقات الذين يبذلون ما يملكون في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، ونصرة دينِه الحنيف.

ولعلَّ هذا الهدف النَّبيلَ والغايةَ السَّليمةَ والوفاءَ الصَّادقَ ما جعل سيّدنا العبّاس يقفُ في البيعةِ الكبرى وقفةَ الخبيرِ البصير بالحياة والرّجال، وكذلك وقفة مَنْ يعرفُ خبايا النّفوس، وعناوين النّوايا، ولم يكتفِ منهم بمقالاتِ شُجاعةٍ هم قائلوها، وإنّما طَلَب منهم طَلَبَ الخبير الحصيف أنْ يصِفُوا له الحربَ ومكائدها كي يتأكّدَ من صدْقِ نواياهم، وصدق عزائمهم، وعندئذ رحّبَ العبّاسُ ترحيبَ الأقوياء بتمام البيعةِ بين الأنصارِ، وبين ابن أخيه رسولِ الله ﷺ.

وكانت العنايةُ الإلهيّةُ تحوطُ هذه البيعة المباركة وترعاها، وأخذَ النَّبيُّ ﷺ يعدُّ أصحابَه ليهاجروا إلى مدينةِ الخير والعطاء، ومن هناك تبدأُ رحلة جديدة مع الإسلام. ولكنْ أكانَ العبّاسُ يعرفُ وقتَ الهجرة، أو ميعادها؟! هذا ما لم تذكرهُ المصادرُ التي بين أيدينا.

معه هذا المشهد الحافل بالخيرات والفوائد، لنعلمَ أيّ رجل من رجالِ أهل البيت هذا العَلَم العَيْلَم.

* أخرجَ الحافظُ أبو نُعيم عن سيِّدنا العبّاسِ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه قال: «قال لي رسولُ الله ﷺ: «لا أرىٰ لي عندك، ولا عند أخيك منَعَةً، فهل أنتَ مخرجي إلى السّوق غداً حتّى نقرَّ في منازل قبائل النَّاس»، وكانت مجمع العرب.

فقلت: هذه كِنْدةُ ولفُّها[1]، وهي أفضلُ مَنْ يحجّ البيت من اليمن، وهذه منازلُ بكْر بن وائل، وهذه منازلُ بني عامر بن صَعْصَعة، فاخترْ لنفسك.

فبدأ ﷺ بكندة، فأتاهم فقال: «ممّن القوم»؟

قالوا: من أهل اليمن.

قال: «من أي اليمن»؟

قالوا: من كندة.

قال: «من أي كندة»؟

قالوا: من بني عمرو بن معاوية.

قال: «فهل لكم إلى خير»؟

قالوا: وما هو؟

* قال: «تشهدون أنْ لا إله إلا الله، وتقيمون الصَّلاة، وتؤمنون بما جاء من عند الله».

فقالوا له: إنْ ظفرتَ تجعل لنا المُلْكَ من بعدك؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الملكَ للهِ يجعلُه حيث يشاء».

---

(١) «لفّها»: من اجتمع حولها.

فقالوا: لا حاجةَ لنا فيما جئتنا به، أجئتنا لتصدّنا عن آلهتنا؛ وننابذَ العرب؟ اِلْحَقْ بقومك فلا حاجةَ لنا بك.

فانصرفَ من عندهم، فأتى بكرَ بنَ وائل فقال: «ممَّن القوم»؟

قالوا: من بكرِ بنِ وائل.

فقال: «من أي بكرِ بنِ وائل»؟

قالوا: من بني قيس بنِ ثعلبةَ.

قال: «كيف العددُ»؟

قالوا: كثيرٌ مثلُ الثَّرىٰ.

قال: «فكيف المَنَعةُ»؟

قالوا: لا منَعَة، جاورنا فارس، فنحنُ لا نمتنعُ منهم ولا نجيرُ عليهم.

قال: «فتجعلون للهِ عليكم إنْ هو أبقاكم حتّى تنزلوا منازلهم، وتستنكحوا نساءهم، وتستعبدوا أبناءهم، أنْ تسبّحوا الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمدوه ثلاثاً وثلاثين، وتكبّروه أربعاً وثلاثين»؟

قالوا: ومَنْ أنت؟

قال: «أنا رسولُ الله».

ثمَّ انطلقَ، فلمَّا ولّى عنهم كان عمُّه أبو لهب يتبعه فيقول للنَّاس: لا تقبلوا قوله.

ثمَّ مرَّ أبو لهب، فقالوا: هل تعرفُ هذا الرَّجل؟

قال: نعم؛ هذا في الذّروة منّا، فعن أيّ شأنه تسألون؟

فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا: زعم أنّه «رسول الله»، قال: ألا لا ترفعوا رأساً بقوله، فإنَّه مجنون يهذي من أمِ رأسه.

قالوا: قد رأينا ذلك حين ذكَرَ من أمْرِ فارس ما ذَكر»[1].

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٣/ ١٤٠ و ١٤١) بتصرّف يسير جداً.

* وكان النَّبيُّ ﷺ يطلبُ من العبَّاسِ أنْ يريه منازلَ العرب وأحياءَهم ليدعوهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. فلمَّا اشتدَّ المشركون في مكَّةَ على النَّبيِّ ﷺ قال لعمّه العبّاس رضي الله عنه: «يا عمّ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ناصرُ دينه بقوم يهونُ عليهم رَغْمُ[1] قريش عزّاً في ذات الله تعالى، فامضِ بي إلى عُكاظ، فأرني منازلَ أحياء العرب حتّى أدعوهم إلى الله عزَّ جلَّ، وأنْ يمنعوني ويؤووني حتى أبلِّغ عن الله عزَّ وجلَّ ما أرسلني به».

فقال العبَّاسُ: يا بن أخي، امضِ إلى عكاظ، فأنا ماضٍ معك حتى أدلَّك على منازلِ الأحياء.

فبدأ رسولُ الله ﷺ بثقيف، ثمَّ استقرىٰ القبائل[2] في تلك السَّنة.

فلمَّا كان العامُ المقبلُ لقيَ السِّتّة نَفرِ الخزرجيين والأوسيين في أيام مِنىً عند جمرة العقبةِ ليلاً، فجلسَ إليهم، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى عبادته، والمعاونة على دينه.... فسألوه أنْ يعرضَ عليهم ما أوحي إليه، فقرأ رسولُ الله ﷺ سورةَ إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا...﴾[إبراهيم: ٣٥] إلى آخر السُّورة، فَرَقَّ القوم وأخبتوا حين سمعُوا وأجابوه.

فمرَّ العبَّاسُ بنُ عبد المطَّلب، وهو يكلّمهم ويكلّمونه، فعرفَ صوتَ النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا بن أخي، مَنْ هؤلاء الذين عندك؟

قال: «يا عمّ سُكّانُ يثربَ، الأوسُ والخزرجُ، قد دعوتُهم إلى ما دعوت إليه مَنْ قبلهم من الأحياء، فأجابوني وصدّقوني، وذكروا أنّهم يخرجونني إلى بلادهم».

فنزلَ العبَّاسُ، وعقلَ راحلته، ثمَّ قال لهم: يا معشرَ الأوس والخزرج،

---

(١) «رغم»: إذلال.

(٢) «استقرى القبائل»: تتبعها يخرج من قبيلة إلى أخرى.

هذا ابنُ أخي، وهو أحبُّ النَّاس إليَّ؛ فإنْ كنتم صدقتموه، وآمنتم به، وأردتم إخراجَه معكم، فإنّي أريدُ أنْ آخذَ عليكم موثقاً تطمئنُّ به نفسي، ولا تخذلُوهُ، ولا تَغُرُّوهُ، فإنَّ جيرانكم اليهود، واليهود له عدو، ولا آمنُ مكْرهم عليه.

ثمَّ جرى كلامٌ فيما بينهم، وقال أسعدُ بنُ زراة للعبَّاس: ذكرتَ أنَّه ابن أخيك، وأنَّه أحبُّ النَّاس إليك، فنحنُ قد قطعنا القريبَ إلينا والبعيد، وذا الرّحم، ونشهدُ أنَّه رسولُ الله، اللهُ أرسله من عنده، ليس بكذَّاب، وأنَّ ما جاء به لا يشبهُ كلامَ البشَر، وأمَّا ما ذكرت أنك تودُّ أن تأخذَ مواثيقنا، فخذْ ما شئت.

ثمَّ التفتَ إلى النَّبيّ ﷺ فقال له: يا رسولَ الله، خُذْ لنفسِكَ ما شئتَ، واشترطْ لربِّكَ ما شئت... فاشترطَ النَّبيُّ ﷺ لنفسِه، وتمت البيعةُ على النحوِ المذكورِ في البيعة(١).

* وهذه تغريدةٌ جميلةٌ تُجمِلُ ما فصَّلناهُ في الصَّفحاتِ السَّابقةِ، فلنقرأ عن العبَّاسِ ودورِه فِي بيعةِ العقبةِ الكبرىٰ هذه الهَمَسات:

لقد انتهىٰ العبَّاسُ مِنْ تحذيرِهِ عندَ اللقَاء
فَلَقَدْ أرادَ مِنَ الرِّجالِ بأنْ يكونُوا أوفياء
يخشى على خَيْرِ البريّةِ أنْ يُصَاب وأنْ يُسَاء
قالُوا سمعْنا ما تقولُ وسوفَ نُعطيهِ الفِدَاء
هيّا تكلَّمْ يا رسولُ الله ِواطْلُبْ ما تشَاء
خُذْ ما تشاءُ من العُهُودِ فإنَّنا أهلُ الوفاء
بدأَ النَّبيُّ يرتّلُ القُرآنَ في صَوتِ الصَّفاء

---

(١) انظر: حياة الصَّحابة (١/ ١٠٥ و ١٠٦) باختصار وتصرّفٍ. وأخرج ابنُ سعدٍ بسنده عن سليمانَ بنِ سحيم قال: «تفاخرتِ الأوسُ والخزرجُ فيمن ضربَ على يدِ رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة أوّل النَّاس، فقالوا: لا أحد أعلمُ به من العبّاسِ بنِ عبد المطلب، فسألوا العبّاس فقال: ما أحد أعلم بهذا منّي؛ أوّلُ مَنْ ضربَ على يدِ النَّبيِّ ﷺ منْ تلك الليلة: أسعدُ بنُ زرارة، ثمَّ البراءُ بنُ معرور، ثم أسيدُ بنُ الحضير». (طبقات ابن سعد ٤/ ٩).

ودعَا الـرّجـال مـرغّبـاً فـي الـدِّيـن والـدُّنيـا سَـواء
بعــدَ التِّــلاوةِ قــالَ فــي صِــدْقٍ أريــدُ الاحتمــاء
أرجـو الحمـايـةَ كيفمـا تحمـوا الـذَّراري مِـنْ عَـداء
قــالـوا فــإنّــا أهــلُ حَــربٍ حيــنَ يشتــدُّ البــلاء
ولَسَـوفَ نُـوفيـكَ العُهـودَ وسـوفَ نُعطيـكَ الـولاء
لمّــا اطمــأنَّ إلــى المقــالــةِ قــال أيــنَ الكُفَــلاء
قــد أخــرجُــوا عشْــراً واثنيــن اصطفــوهــم نُقَبَــاء
وهنــاكَ تمَّــتْ بيعــةٌ كُبــرىٰ تبــاركُهــا السَّمــاء[1]

قصَّةُ العبَّاس مع يهُودي في اليَمن:

* من أوضحِ الدَّلالةِ على ما في معرفةِ السِّير والآثار من الفوائد، ما أودعه اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابهِ العزيزِ من أنباءِ الغابرين، وسيرِ الماضين، وقصصِ رسُلِهِ صلّىٰ الله عليهم، ومَنْ أُرسِلُوا إليه مِنَ العَالمين، وكذلك ما جاء في صَفَحات المصادرِ من سيَرِ الصَّحابة الكرام، وخصوصاً رجالِ أهلِ البيت الأعلامِ، ومنهم العبّاسُ خير الأعمام.

* إنَّ قصصَ رجالِ أهل البيتِ لقاحُ العقول، ومشكاةُ الأَفْهام، وزِنَاد التَّجارِب، ومقياسُ التَّيقُّظ، ومنهاجُ الاعتبار، وتذكرةُ السَّامع، وتبصرةُ القارىء.

* ومنَ القَصَصِ الماتعةِ، الغنيةِ بالعبر النَّافعة، والدُّروس التّربوية المفيدة، قصّةُ العبّاس في تجارتِه إلى اليمن، وحواره مع بعض أحبارِ اليهود عن ابنِ أخيه النَّبيّ الأمّي محمّد ﷺ ودلائل نبوّته.

* وها نحنُ أولاء الآن نتحلّقُ حولَ سيّدنا العبّاس بن عبد المطّلب، حتّى يحدِّثنا عن تجارته إلى بلاد اليمن مع ركْبٍ من أعلام قريش، ورجالاتهم،

---

(١) تغريدة السّيرة النّبويّة (١/ ٣٩٠).

وأعيانِهم وتُجّارِهم فيقول: «خرجتُ في تجارةٍ إلى اليمنِ في ركْب منهم أبو سفيانَ بنُ حرب، فكنتُ أصنعُ يوماً طعَاماً وأدعو بأبي سفيان وبالنَّفر، ويصنعُ أبو سفيان يوماً فيفعلُ مثل ذلك.

فقال لي في يومي الذي كنتُ أصنعُ فيه: هل لك يا أبا الفضل أنْ تنصرفَ إلى بيتي وترسلَ إليَّ بغدائك؟

فقلتُ: نعم.

فانصرفْتُ أنا والنَّفرُ إلى بيتِهِ، وأرسلتُ إليه الغَدَاء، فلَمَّا تغدَّىٰ القومُ قاموا، واحتبسَنِي فقال: عَلِمْتَ يا أبا الفضل أنَّ ابنَ أخيك يزعُم أنَّه رسولُ الله؟

قلت: فأيُّ بني أخي؟

قال أبو سفيان: إيّايَ تكتُم؟! وأيُّ بني أخيك ينبغي له أنْ يقول هذا إلا رجلٌ واحدٌ؟

قلت: وأيُّهم علىٰ ذلك؟

قال: هو محمّدُ بنُ عبد الله.

قلت: ما فَعَلَ!

قال: بلى قد فَعَل.

ثمَّ أخرجَ إليَّ كتاباً من ابنِهِ حنظلةَ بنِ أبي سُفيانَ:

إنِّي أخبرُك أنَّ محمَّداً قام بالأبْطَحِ غدوةً فقال: أنا رسولُ الله، أدعوكُم إلى الله.

قلتُ: يا أبا حنظلة، لعلَّه صادقٌ.

قال: مهلاً يا أبا الفَضْل، فوالله ما أحبُّ أنْ تقولَ مثل هذا، إنّي لأخشى أنْ تكونَ قد كنتَ على بصيرة من هذا الحديث.

ثمَّ قال: يا بني عبد المطّلب، إنَّه والله ما برحتْ قريشٌ تزعُمُ أنَّ لكم يُمْنَةً

وشُؤْمةً، كلُّ واحدةٍ منهما عامَّةٌ، فنشدتُكَ الله يا أبا الفَضْل، هل سمعتَ ذلك؟

قلتُ: نعم.

قال: فهذه واللهِ إذن شُؤمتُكم.

قلتُ: ولعلّها يُمْنتُنا.

فما كان بعد ذلك إلاّ ليال حتّى قدمَ عبدُ الله بن حُذافةَ السَّهميّ بالخبر وهو مؤمنٌ، ففشَا ذلك في مجالسِ أهل اليمن، فتُحدِّثَ به فيها.

وكان أبو سفيان يجلسُ إلى حبرٍ من أحبارِ اليهود، فقال له اليهوديُّ: ما هذا الخبرُ الذي بلغَني؟

قال: هو ما سمعتَ.

قال: بلغني أنَّ فيكم عمَّ هذا الرَّجل.

قال أبو سفيان: صدقوا وأنا عمُّه.

قال اليهوديُّ: أخو أبيه؟

قالَ: نعم.

قال: حدّثْني عنه.

قال: ما كنتُ أحسبُ أنْ يدّعي هذا الأمرَ أبداً، وما أحبُّ أن أعتِبَه وغيره خير منه.

فقال اليهوديُّ: فليس به إذَنْ، ولابأسَ على يهود وتوراةِ موسىٰ.

قال العبَّاسُ: فتمادى إليَّ الخَبرُ، فجئتُ حتّى أجلسَ ذلك المجلسَ من غدٍ، وفيه أبو سفيان والحبْر.

فقلتُ للحبر: بلغني أنّك سألتَ ابن عمّي هذا عن رجلٍ منّا يزعم أنَّهُ رسولُ الله، وأخبرك أنّه عمّه، وليس بعمّه، ولكنّه ابنُ عمّه، وأنا عمُّه أخو أبيه.

فأقبلَ على أبو سفيان فقال: أصدقَ؟

قال: نعم.

فقلتُ: سَلْني عنه إنْ كذبتُ فليردُدْ عليَّ.

فأقبل عليَّ فقال: نشدتُكَ اللهَ هل فَشَتْ له فيكم سَفْهةٌ أو سوأةٌ؟

قلتُ: لا وإلهِ عبد المطَّلب ولا كَذِبَةٌ، وإنْ كان اسمُهُ عند قُريشٍ الأمينَ.

قال: فهل كتبَ بيدِهِ؟

قال العبَّاسُ رضي الله عنه: فظننْتُ أنَّه خيرٌ له أنْ يكتبَ بيده، فأردتُ أنْ أقولَها، ثمَّ ذكرتُ مكانَ أبي سفيان، وأنَّه مكذِّبي ورادٌّ عليَّ؛ فقلتُ: لا يكتبُ.

فوثبَ الحبْرُ وتركَ رداءه، وجعلَ يصيحُ: ذُبِحَتْ يهودُ، ذُبحتْ يهودُ!.

قال العبَّاسُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه: فلمّا رجعْنَا إلى منزلنا، قال أبو سفيان: يا أبا الفَضْل، إنَّ اليهوديَّ ليفزعُ من ابن أخيك.

قلتُ: قد رأيتَ، فهلْ لكَ يا أبا سفيان أنْ تؤمنَ به، فإنْ كان حقّاً، كنتَ قد سبقتَ، وإن كان باطلاً تبعكَ غيرُك منْ أكفائك؟

قال: لا واللهِ لا أومنُ به حتّى أرى الخيلَ من كَدَاء[1].

---

(١) «كداء»: جبل بمكَّة. و«كداء»: موضع الثَّنية في أصلها مقبرة مكَّة، ومنها دخل النَّبيُّ ﷺ يوم فتح مكّة، ودخل معه كذلك الزّبيرُ بنُ العوَّام رضي الله عنه. ومن العجيب أنَّ سيّدنا حسّان بن ثابت رضي الله عنه قد أنشد قصيدة همزية ذكر فيها كداء فقال:

عدمنا خيلَنا إنْ لم تروها ... تثيرُ النَّقْع موعدها كداء
يبارينَ الأسنّةَ مُصْعِدات ... على أكتافِها الأسَلُ الظّماء
تظلُّ جيادنا متمطِّراتٍ ... تُلطمهنَّ بالخُمر النِّساء
فإمَّا تعرضُوا عنّا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلادِ يومٍ ... يُعينُ الله فيه مَنْ يشاء

وهي قصيدة طويلة مشهورة تعدُّ (٣٠ بيتاً). (ديوان حسَّان ص ٧١ ـ ٧٧) طبعة دار المعارف بمصر.

قلتُ: ما تقولُ؟

قال: كلمةٌ واللهِ جاءتْ على فمي ما ألقيتُ لها بالاً، وأنا أعلمُ أنَّ اللهَ لا يتركُ خيلاً تطلُعُ مِنْ كَداء.

قال العبَّاسُ: فلمَّا فتح رَسولُ اللهِ ﷺ مكَّة، ونظرنا إلى الخيلِ قد طلعت من كَدَاء.

قلت: يا أبا سفيان، أتذكرُ الكلمةَ؟

قال: أي واللهِ، إنّي لذاكرُها، فالحمدُ للهِ الذي هَداني للإسلام»[1].

العبَّاسُ وأحداثُ غَزْوة بَدْر:

* عندما أخذتْ كتائبُ المهاجرين تتوجَّه نحو المدينة المنّورة لم يكن العبَّاسُ معهم، ولم يسلمْ مع مَنْ أسلم، ولكنَّه كان مسالماً مصافياً للنَّبيّ ﷺ وبقي في مكَّةَ يستروحُ أخبارَ الذين تركوا الأرض والدّيار، وهاجروا طلباً لمرضاة العزيز الغفَّار، وزعم بعضُهم أنَّه كان يرسلُ للنَّبيّ ﷺ تحرّكات قريش وأخبارَها وأحوالها.

* استقر المسلمون في المدينة المنوَّرة ينهلون من المعين النَّبويِّ الثَّر، ويتعلّمون ويُعلِّمون، إلى أنْ أذِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالقتال، وجاءت الأوامرُ الإلهيّةُ تشيرُ إلى المسلمين بأنْ يجاهدوا في الله حقَّ جهاده، وأنزل اللهُ في هذا الموقف آياتٌ بيّناتٌ تخاطبُ المسلمين وتقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٩٠ - ١٩٣]، وبعد هذه الأوامرُ الإلهيةُ والإشاراتُ القرآنيّةُ، زاد نشاطُ المسلمين واشتدّتْ رغباتهم إلى

---

(١) انظر القصَّة في: التَّذكرة الحمدونيَّة (٩/ ١٦٦ - ١٦٨).

إعلاء كلمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولقاء العدوّ في معركةٍ فاصلة، تسود فيها كملة الحق والعدل والخير.

* طرقَتْ غزوةُ بدرٍ الأبوابَ، فاستعدَّ لها المسلمون، وخرجُوا نحو ماء بَدْرٍ ليلقَوا المشركين الذين خرجُوا من مكّة يريدون أنْ ينقذوا تجارتهم وأموالَهم، وكان أبو سفيان قد استطاعَ أنْ ينجوَ بتجارةِ المكّيين وأموالِهم، وأرسل ضمضمَ بنَ عمرو الغِفَاريّ إلى مكَّةَ مُستصرخاً لقريش بالنَّفير إلى تجارتهم وعِيْرِهم.

* وخلال غمرة هذه الأحداث رأت عاتكةُ بنتُ عبد المطَّلب رؤيا عظيمة، ومن ثم قصَّتْ رؤياها على أخيها العبّاسِ، ترىٰ ما فحوى هذه الرُّؤيا العاتكيّة التي أخذت مساحةً غير يسيرة من صفحات السِّيرة؟!

* تقول عاتكة وهي تقصُّ رؤياها على أخيها العبَّاس قبل قدومِ ضمضمَ مكَّةَ بثلاث ليالٍ ما ملخّصه: «يا أخي، والله لقد رأيتُ الليلةَ رؤيا هالَتْني، وتخوّفتُ أنْ يدخل على قومك منها شرٌّ ومصيبةٌ وبلاء!

فقال لها العبَّاسُ: وما رأيتِ؟

قالت عاتكة[1]: لن أحدثَك ـ يا أبا الفَضْل ـ حتَّى تعاهدني أنّك لا تذكرها، فإنّهم إنْ سمعُوها آذونا وأسمعونا ما لا نحبّ.. فعاهَدَها العبّاسُ ألا يذكر شيئاً ممّا رأته في منامها، وها هنا سَرتِ الطُّمأنينةُ في نفسها، واستقرت في قلبها، فقالت: يا أخي، رأيتُ رجلاً أقبل على بعيرٍ له، حتَّى وقفَ فوق الأبطح، ومن ثمَّ صاح بأعلى صوتِهِ: انفِروا يا آل غُدر[2] لمصارعكم في ثلاث، وصاح ثلاثَ صيحات، فأرى النَّاس اجتمعوا إليه، ثمَّ دخل المسجد،

---

(١) قال الإمامُ الذّهبيّ رحمه الله في ترجمةِ عاتكةَ بنتِ عبد المطَّلب: «عاتكةُ عمةُ رسول الله ﷺ، وهي صاحبةُ تلك الرؤيا في مَهْلكِ أهل بدر، وتلك الرُّؤيا ثبَّطت أخاها أبا لهب عن شهود بدر، ولم نسمعْ لها بذكر في غير الرّؤيا». (سير علام النّبلاء ٢/ ٢٧٢)

(٢) «غُدَر»: تُستخدم في الشّتم، وسيأتي شرح بعض المفردات بنهاية الرّؤيا العاتكيّة.

واجتمعَ إليه النَّاس، ثمّ مثل به بعيره فإذا هو على ظهرِ الكعبة، فصاحَ ثلاثَ صيحات فقال: انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم في ثلاث، ثم أرى بعيره مثل به على رأسِ أبي قُبيس فقال: انفروا يا آلَ غدر لمصارعكم في ثلاث، ثمَّ أخذ صخرةً فنزعها من أصلِها فأرسلها من رأسِ الجبل، فأقبلت الصَّخرة تهوي لها صوتٌ شديدٌ، حتّى إذا كانت في أسفلِ الجبل تكسَّرت فما بقيت دارٌ من مكَّة ولا بيتٌ إلا دخلَ فيه قطعة.

فقال العبَّاسُ: واللهِ إنَّ هذه لرؤيا فاكتميها؛ ولا تذكريها لأحد.

قالت: وأنتَ فاكتمها، لئن بلغَتْ هذه قريشاً ليؤذوننا.

ولكنَّ الرّؤيا العاتكيّة ذاعتْ في قريش، إذ خرجَ العبّاسُ من عندها، فلقي الوليدَ بنَ عتبةَ بن ربيعة، وكان له صديقاً مُصافياً، فذكرَ له رؤيا عاتكة، وتحدَّث بها، واستكتمه إياها.

بَيْدَ أنَّ الوليدَ ضاقَ صدرهُ بهذا السِّرِّ، ولم يستطعْ أن يكتمَهُ، وذكرَ الرّؤيا لأبيهِ عتبةَ، ففشا إذ ذاك الحديث بمكَّة، حتّى تحدثتْ به قريش في أنديتها ومجالِسها».

* ترى ما موقف كبار المجرمين من هذه الرُّؤيا؟ وماذا جرى بين زعيم المشركين أبي جَهْلٍ والعبّاس بسببِ المنامِ والرُّؤيا العاتكيّة التي أقضَّتْ مضاجعَ المشركين؟

* الخبرُ اليقينُ والإجابةُ الشَّافيةُ نسمعُها من العبَّاس نفسه فيقول: «غدوتُ لأطوفَ بالبيتِ وأبو جهل بن هشام في رهطٍ من قريش وهم قعودٌ يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلمّا رآني أبو جهل قال: يا أبا الفَضْل، إذا فرغْتَ من طوافك فأقبلْ إلينا.

فلمّا فرغتُ، أقبلتُ حتَّى جلستُ معهم.

فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطّلب، متى حدثَتْ فيكم هذهِ النَّبيّة؟

قلت: وما ذاك؟

قالت: تلك الرّؤيا التي رأتْ عاتكةُ أختك.

فقلت: وما رأتْ؟

قال: ما رضيتُم يا بني عبد المطَّلب أنْ يتنبّأَ رجالكم حتّى تتنبَّأ نساؤكم. وفي رواية أخرى عند ابن عقبة: أما رضيتم يا بني هشام بكذبِ الرّجال، حتّى جئتمونا بكذب النِّساء، إنا كنّا وإيّاكم كفرسَي رِهَان فاستبقنا المجد منذ حين، فلمّا تحاكَّتِ الرُّكب قُلتم: منّا نبيّ، فما بقي إلا أنْ تقولوا: منّا نبيّة، فما أعلمُ في قريش أهل بيتٍ أكذب امرأةً ولا رجلاً منكم ـ وآذاه أشد الأذى ـ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنَّه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربَّص بكم هذه الثّلاث، فإنْ يكُ حقّاً ما تقول فسيكون، وإن تَمْضِ الثَّلاث، ولم يكن من ذلك شيء، كتبْنَا عليكم كتاباً أنّكم أكذبُ أهلِ بيتٍ في العرب.

قال العبَّاسُ: فوالله ما كان منّي إليه كبير شيء. إلا أنّي جحدتُ ذلك، وأنكرتُ أنْ تكون عاتكةُ رأت شيئاً، ثمَّ تفرَّقْنا.

ولمَّا أنْ كان المساءُ لم تبقَ امرأة من بني عبد المطَّلب إلا أتتني فقالت: يا أبا الفَضْل، أقررتم لهذا الفاسقِ الخبيثِ أن يقعَ في رجالكم، ثمَّ قد تناولَ نساءكم وأنتَ تستمعُ، ثمّ لم يكن عندك كبير شيء ممّا سمعت.

قلتُ: قد واللهِ فعلتُ، ما كان منّي إليه كبير شيء، وايم الله لأتعرضنَّ له، فإنْ عاد لأكْفِيكُنَّه.

فغدوتُ في اليوم الثَّالث من رؤيا عاتكة وأنا مُغضبٌ، أرى أنّي قد فاتني منه أمرٌ أحبّ أنْ أدركَه منه. فدخلتُ المسجدَ فرأيته. فوالله إنّي لأمشي نحوه أتعرّضه ليعودَ لبعضِ ما قال فأقعُ به، وكان رجلاً خفيفاً، حديدَ الوجْهِ، حديدَ اللسان، حديدَ النَّظر، فخرجَ نحو باب المسجد وهو مسرعٌ، فقلت في نفسي: مَالَهُ لعَنَهُ اللهِ أكلّ هذا فَرَق من أنْ أشاتمه، وإذا هو قد سمعَ ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغِفاريّ، وهو يصرخُ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد

جدّعه، وحوّلَ رحله، وشقَّ قميصه، وهو يقول: يا معشرَ قريش، يا آلَ لؤي بن غالب، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيانَ قد عرضَ لها محمَّد في أصحابه، لا أرى أنْ تدركوها، ففزعت قريشٌ أشدَّ الفزع، وأشفقوا من رؤيا عاتكة، فشَغَله ذلك عنّي، وشغلني عنه ما جاء من الأمر»(١).

* شرعتْ عاتكةُ بنتُ عبد المطّلب خلال هذه الأحداث المثيرة تخاطبُ قريشاً، وتُؤنّبُ مَنْ كذّبها؛ مِنْ بائيةٍ طويلةٍ منها قولها:

أَلَمْ تكُنِ الرُّؤيا بحقٍّ وجاءَكُمْ ... بتصديقِها فَلٌّ من القومِ هارِبُ
فقُلتُمْ ولمْ أكذبْ كَذبتِ وإنّما ... يُكذّبنا بالصِّدقِ مَنْ هو كاذِبُ

---

(١) سبل الهدى والرّشاد (٤/ ٣٢ ـ ٣٤) بشيء من التّصرّف. وانظر المصادر الآتية مع الجمع فيما بينها: السّيرة النّبويّة (٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٨)، والمعجم الكبير للطّبرانيّ (٢٤/ ٣٤٤ ـ ٣٤٦)، ودلائل النّبوّة للبيهقيّ (٣/ ٢٩ ـ ٣١)، ومجمع الزّوائد (٣/ ٢٩ ـ ٣١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٣) وغيرها كثير.
ومعنى «الأبطح»: مَسِيلٌ واسعٌ فيه دقاق الحصى، وهو ما بين المحصّب ومكّة. و«انفروا»: أسرعوا. و«غُدَر»: يُقال للذّكر غدر، وللأنثى غَدَار، وهما مختصّان بالنّداء في الشّتم، وغُدُر جمع غَدُور، والغَدْرُ: ترك الوفاء. و«المصارع»: جمع مَصْرع: الموضع والمصدر. و«في ثلاث»: أي بعد ثلاثة أيام يكون نفرهم إلى مصارعهم. و«مَثَلَ به بعيره»: انتصب قائماً. و«أبو قبيس»: جبل مشهور بمكة. و«نزعها»: جذها. و«تهوي»: تسقط وتنزل. و«اكتمها»: لا تذكرها لأحد. و«فرسَي رهان»: أي يتسابقان إلى غاية. و«المجد»: الشَّرف. و«تحاكّت الرّكب»: تقاربت من بعض. و«ايم الله»: أي يمين الله، وفيها اثنتا عشرة لغة. و«لأكفيكُنَّه»: خطاب لجماعة النّسوة بأنه سيضع حدّاً للسّفيه أبي جهل بن هشام. و«مُغضَبٌ»: اسم مفعول من الغضب و«خفيفاً»: سريعاً. و«حديد الوجه»: قَويُّه. و«الفَرق»: الخوف. و«اللطيمة اللطيمة»: معناها: الجِمال التي تحمل العِطر، ولطائِم المسك: أوعيته، وهما منصوبان بفعل مقدّر: أي أدركوا. و«الغوثَ الغوثَ»: بنصبهما؛ يقال: غوّث الرجل إذا صاح: واغوثاه، والاسمُ: الغَوث والغَواث والغُواث. و«أشفقوا»: خافوا خوفاً شديداً من الرّؤيا العاتكيّة التي فَشَتْ في أندية مكّة ودورها، لذلك تجهّز النّاس سراعاً وخرجوا إلى بدر. و«شغَلني عنه ما جاء من الأمر»: أي من صراخ ضمضم الغِفاريّ وفزع قريش.

* تجهَّزَ المشركون في مكَّةَ واستعدّوا للمسير نحو بَدْرٍ، وخرجَ العبّاسُ معهم وكان من المُطعمين من قريش، فقد كان أحد العشرة الذين ضمنوا الإطعامَ لأهْلِ بدر، فبلغت النّوبةُ إليه يوم بدر، فاقتتلوا قبل أنْ يطعم[1].

* وزعموا أنَّ العبَّاسَ بن عبد المطَّلب قد خرجَ إلى القتال مُكرهاً، ولكنَّه ترك عند زوجته أمّ الفضل مالاً وذهباً وقال لها: «يا أمّ الفضل، لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدَثَ بي حدَثٌ فهو لكِ ولولدكِ».

* خرجَ العبّاس مع أهل مكّةَ لقتالِ المسلمين، وفي هذه الأثناء عَلِمَ النَّبيُّ ﷺ بخروجِ عمّه مُكرهاً، وهاهنا نهى النَّبيّ ﷺ أصحابَه عن قتلِه وعن قتل جماعةٍ من المشركين منهم: أبو البَخْتَرِيّ بن هشام، وقال لأصحابه فيما جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنّي قد عرفتُ أنَّ رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كَرْهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أبا البختري[2] بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومَنْ لقيَ العبَّاسَ بنَ عبد المطَّلب، عمّ

(١) انظر: تفسير القرطبيّ (٨/ ٥٣).

(٢) نهىٰ النَّبيُّ ﷺ عن قتل أبي البُختريّ، لأنَّه كان أكفَّ القوم عن رسولِ الله ﷺ وهو بمكَّة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممّنْ قامَ في نقضِ الصَّحيفة التي كتبت قريشٌ على بني هاشم وبني المطّلب.
وفي ساحةِ معركة بدر لقي أبا البختري المُجذَّرُ بن ذياد البلويّ، حليف الأنصار، فقال المجذّر لأبي البختريّ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، ـ ومع أبي البختري رديفٌ له، قد خرجَ معه من مكةَ، وهو جُنادة بنُ مليحة ـ قال: وزميلي جنادة؟
فقال له المجذّر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بكَ وحدكَ.
فقال أبو البختري: لا والله، إذن لأموتنَّ أنا هو جميعاً، لا تتحدَّث عنّي نساء مكة أنّي تركتُ زميلي حرصاً على الحياة. ثمّ إنَّ أبا البختري نازل المجذّر وأخذ يرتجز:
لن يُسْلِمَ ابنَ حُرةٍ زميلَه   حتّى يموتَ أو يرىٰ سبيلَه
ثم إنَّ المجذّر أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله والذي بعثك بالحقّ لقد جهدتُ عليه أن يستأسرَ فآتيك به. فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته، فقتلته. (السِّيرة النَّبوية ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٧) و(دلائل النبّوة للبيهقي ٣/ ١١٥ و ١١٦) مع الجمع والتّصرّف.

رسولِ الله ﷺ فلا يقتله، فإنّه إنّما أُخرِجَ مستكرهاً».

فقال أبو حذيفة بن عتبةَ: أَنَقْتُلُ آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونتركُ العبّاسَ، والله لِئْن لقيتُه لأُلجمنَّه السَّيف؟!

فبلغَ قولُ أبي حذيفة رسولَ الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «يا أبا حَفْص[1]! أَيُضْربُ وَجْهُ عمٍّ رسولِ الله ﷺ بالسَّيف»؟

فقال عمر: يا رسولَ الله، دعني فلأَضْرِب عنقَه بالسَّيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة رضي الله عنه يقولُ: ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أنْ تكفِّرها عنّي الشَّهادة، فقُتِلَ يوم اليمامةِ شهيداً رضي الله عنه»[2].

* وينبغي هنا أنْ نعرف بأنَّ سيّدنا أبا حذيفة إنسانٌ من البشَر، له طبيعتهُ البشريّة التي تتأثّر بالمواقف العاطفيّة، فلمْ يملكْ أبو حذيفةَ نفسه ـ وقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه ـ أنْ قالَ ما قال، وبلغَ النَّبيّ ﷺ قوله: فخشيَ أنْ يثيرَ ذلك في نفوسِ بعض مَنْ لم يرسَخِ الإيمانُ في قلوبهم شيئاً من وساوس الشَّيطان فيوقعهم في حبائلِ الأوهام والظُّنون، فقال ﷺ لعمر رضي الله عنه: «أيضربُ وجْهُ عمٍّ رسولِ الله ﷺ بالسَّيف»؟! تمشياً مع طبيعةِ الموقفِ في ودادة النَّبيّ ﷺ لعمّه الحفيِّ به، ولم يَقُلِ النَّبيّ ﷺ في إنكاره لما قال أبو حذيفة: أيردُّ أمر رسولِ الله ﷺ ويُخَالف نهيهُ؟ لأنَّ أبا حذيفة رضي الله عنه، لم يَقُل ما قال ردّاً لأمرٍ من أوامر النَّبيّ ﷺ، ولا مخالفة لنهي من نواهي النَّبيّ ﷺ، وإنّما قال أبو حذيفة ما قال حميّةً عاطفيّةً في لحظة ثورةٍ نفسيّة، وانفعالٍ لا إرادي.

---

(١) قال سيّدنا عمر رضوان الله عليه في معرض هذه القصّة: «والله إنّه لأوّلُ يومٍ كنّاني فيه رسولُ الله ﷺ بأبي حفص». (السِّيرة النّبويّة ٢/ ٣٢٥).

(٢) السِّيرة النّبويّة (٢/ ٣٢٤ و ٣٢٥)، وطبقات ابن سعد (٤/ ١١) مع الجمع والتّصرُّف اليسير جداً. وانظر: دلائل النّبوّة للبيهقيّ (٣/ ١٤٠ و ١٤١)، وتاريخ الطّبريّ (٢/ ٤٥٠)، وغيرهما كثير.

* وما أشبه قول سيّدنا أبي حذيفة في موقفهِ هاهنا بقول أمّنا أمّ المؤمنين سودةَ بنتِ زمعةَ رضي الله عنها وأرضاها، وقد رأت سهيلَ بن عمرو العامريّ ـ وكان من أسرى بدر ـ مشدودة يداه إلى عنقهِ بحبل، قالت: «فلا واللهِ ما ملكتُ نفسي حين رأيتُ أبا يزيد ـ كنية سُهيل ـ كذلك أنْ قلتُ: أي أبا يزيد؟ أسلمتم أنفسكم، وأعطيتم بأيديكم، ألا متّم كراماً؟ فواللهِ ما أنبهني إلا قول رسولِ الله ﷺ من البيت: «يا سودةُ، أَعَلىٰ اللهِ وعلى رسولِهِ تُحرّضين»؟

قلتُ: يا رسولَ الله، والذي بعثك بالحقِّ، ما ملكتُ نفسي حين رأيتُ أبا يزيد مضمومةً يداه إلى عنقهِ أنْ قلتُ ما قلت»[1].

* وتتضافر المصادر المتنوِّعةُ قائلة: «إنَّ العبَّاسَ بنَ عبد المطّلب لم يخرجْ باديءَ الأمر مع أهل مكَّة للقتال، وإنَّما عادَ نفرٌ فأخرجوه، وكان الذي أمرهم بذلك أبو جهل[2] قاتله الله ولعنه، إذ كان حَذِراً يَقِظاً حاسداً لبني هاشم، ولكن هذا كلّه لم يفدْهُ، فراحَ إلى النّار مُبشَّراً بها».

* عن عبدِ اللهِ بن الحارث بن نوفل: «أنَّ قريشاً لمَّا نفروا إلى بدر، فكانوا بمرّ الظَّهران[3]، بعث أبو جهل من يومه فقال: يا معشرَ قريش، ألا تبّاً لرأيكم،

---

(١) انظر موسوعتنا «نساء أهل البيت في ضوءِ القرآن والحديث» (ص ١١٧) ط ٦ ـ ٢٠٠٥ م.
ولمحمّد عرجون تعليق نفيسٌ على هذا الموقف لسيّدنا أبي حذيفةَ بنِ عتبة فيقول: «ومع كلّ ما احتفَّ بموقفِ أبي حذيفة رضي الله عنه ممّا يدخلُ في مجال الاعتذار عن كلمتهِ التي قالها بعد أنْ بلغَه نهي النّبيّ ﷺ عن قَتْلِ أحَدٍ من بني هاشم، وخاصّة عمّه العبّاس رضي الله عنه، فإنّه بعد أنْ هدأتْ عاطفتُه ألقىٰ بنفسه بين أحضانِ النَّدم على كلمتِهِ التي قالها، ورأى أنّها في صورتها التي صدرت عنه لا تستقيم مع درجةِ ميزانه الإيمانيّ الذي امتاز به السَّابقون من طلائعِ المؤمنين، وأنَّ هذه الكلمةَ لا يكفّرها عنه إلا شهادةٌ في سبيل اللهِ يبذلُ فيها نفسه فداءً لعقيدته وإيمانه، وقد أنالَهُ اللهُ تعالى كفّارته التي تمنّاها، وعاش حميداً، ومات شهيداً رضي الله عنه وأرضاه». (محمّد رسولُ الله ٣/ ٤٥١).

(٢) اقرأ سيرة هذا الفاجر الأفّاك في كتابنا «المبشّرون بالنّار» (ص ١٣ ـ ٤٤). طبعة دار ابن كثير الثانية عام ٢٠٠١ م.

(٣) «مَرُّ الظّهران»: وادٍ كبيرٌ من أوديةِ الحجاز، يمرُّ شمال مكّة المكرمة على مسافة اثنين وعشرين=

ماذا صنعتم؟! خلَّفتم بني هاشم وراءكم، فإنْ ظفرَ بكم محمّد، كانوا من ذلك بنجوة، وإنْ ظفرتم بمحمّد أخذوا ثأرهم منكم من قريب من أولادكم وأهلكم، فلا تذروهم في بيضتكم ونسائكم، ولكنْ أخرجوهم معكم، وإنْ لم يكن عندهم غناء. فرجعوا إليهم فأخرجوا العبَّاسَ بنَ عبد المطَّلب، ونوفلاً وطالباً وعقيلاً كرهاً».

* ونعودُ إلى العبَّاس وإلى إخبار النَّبيّ ﷺ عن استكراهه، وبعض بني هاشم للخروج إلى بدر، ونقول: «كان قولُ النَّبيّ ﷺ وإخبارُهُ عن استكراه بني هاشمٍ قائماً على القرائن، ولم يكن وحياً من اللهِ عزَّ وجلَّ».

* فالنَّبيُّ الكريمُ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ حين أَخبرَ أنَّه قد عرفَ أنَّ رجالاً من بني هاشم أخرجوا كرهاً، لا يريدون قتالَه وأصحابَه، لم يقلْ إنَّ هذه المعرفة كان بسبيلٍ من سُبلِ النُّبوَّة والرّسالة، ولا أنها كانت عن طريقِ أي ضربٍ من ضروب الوحي، فكان الظَّاهر من أسلوب الإخبار عن هذه المعرفة أنَّها كانت عن طريق القرائن والإمارات، أو كانت عن طريق إخبار هؤلاء الذين نهى عن قتلهم بأنّهم كانوا قد أسلموا، أو أنّهم كانوا على سابق عهدهم في الوقوف إلى جانب عدم المساس برسولِ الله ﷺ أو أحد من أصحابه، ويرشح هذا التَّأويل قول العبَّاس عند تقاضيه فداء نفسه وابنَي أخيه وحليفه، أنَّه كان قد أسلم، ولم يقبلْ منه رسولُ الله ﷺ هذا الادعاء، وقال له: «أمّا ظاهرُكَ فكان علينا واللهُ أعلمُ بإسلامك»[(١)].

* أخرج ابنُ سعد بسنده عن ابن عبّاس قال: «كان العبَّاسُ بنُ عبد

= كيلاً، ويصبّ في البحر جنوب مدينة جُدّة، ومن قُراه: الجموم، بحرة.
ومن أقسامه: وادي فاطمة زوجة بركات بن أبي نُمي، أحد الأشراف الذين حكموا مكَّة المكرّمة. و«مر»: المرّ والممر والمرير: الحبل الذي قد أُحكِمَ فتْله. وقيل: مرّ: هي القرية، والظّهران: هو الوادي. قالوا: وبمرّ عيون كثيرة ونخل.

(١) محمّد رسول الله لمحمّد عرجون (٣/ ٤٤٩) بتصرّف يسير.

المطَّلب قد أسلم قبل أنْ يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة»[1].

* وكان العبّاسُ في عداد الأسرىٰ الهاشميين، أَسَرَهُ رجلٌ من الأنصار اسمُهُ: أبو اليَسَر كعبُ بنُ عمرو السُّلميّ، وكان أبو اليَسَر قد شَهِدَ العقبةَ وبدراً، وكان له عظيم الغَنَاء يوم بَدْرٍ وغيره[2].

* وروىٰ أبو اليَسَر كيفية أسْرِه للعبّاس فقال: «نظرتُ إلى العبّاس يومَ بدر، وهو واقفٌ كأنَّه صنم، وعيناهُ تذرفان، وقد علا وجهه حزْنٌ.

فقلتُ له: جزاكَ الله من ذي رحمٍ شرّاً، أتقاتل محمّداً ابن أخيك مع عدوّه؟

فقال العبّاس: ما فعل محمّد، أَأُصيبَ بمكروه؟!

قلت: الله أعزُّ له، وأنصرُ من ذلك.

قال: كلّ شيء ما خلا محمّداً خَلَلٌ فما تريد إليَّ؟

قلت: الأسر؛ فإنَّ رسول الله ﷺ نهى عن قتلكَ.

قال: ليس هذا بأوّل صِلَتِهِ وبرّه.

فأسرتُهُ، ثمَّ جئتُ به إلى رسولِ الله ﷺ»[3].

* وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «كان الذي أسر العبّاس أبو اليَسَر كعبُ بنُ عمرو؛ وكان أبو اليَسَر رجلاً مجموعاً، وكان العبّاس رجُلاً جسيماً، فقال رسولُ الله ﷺ لأبي اليَسَر: «كيف أسرتَ العبّاس يا أبا اليَسَر»؟

فقال: يا رسولَ الله، لقد أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبل ولا بعد، هيئته كذا، وهيئته كذا.

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٣١). قال الذّهبي: «إسنادُهُ واهٍ».
(٢) انظر: أسد الغابة (٥/ ٣٢٢) ترجمة رقم (٦٣٤٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ١٢)، وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٨١) مع الجمع والتّصرّف.

فقال رسولُ الله ﷺ: «لقد أعانَكَ عليه مَلك كريم»[1]. وفي رواية: «لقد آزركَ اللهُ بملَكٍ كريم»[2].

* وأقبل الأسارىٰ مُكَبَّلين، ودخلُوا المدينةَ المنوّرةَ وتلقّى النّاسُ الصَّادقَ المصدوقَ حبيبَنا رسولَ الله ﷺ يُهنِّئونه بفتح اللهِ ونَصْرِه على المشركين فقد قدم النَّبيُّ ﷺ المدينة مؤيّداً مظفَّراً منصوراً، قد أعلى اللهُ عزَّ وجلَّ كلمته، ومكَّن له وأعزّه ونصره.

* وفرَّقَ النَّبيُّ ﷺ الأسارى بين أصحابه الكرام، وقال لهم: «استوصوا بالأسارى خيراً»[3]، فكان المسلمون يكرمونهم، حتّى إنّهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بطيّبات الطَّعام.

* وقد شهد بحُسْنِ معاملة المسلمين لأسراهم رجلٌ من الأسرى، وهو: أبو عزيز بنُ عمير أخو مصعب بن عمير، واسم أبي عزيز هذا: زرارة، وشهد بدراً كافراً، وأُسِرَ يومئذٍ، ثمّ أسلم وله صحبةٌ وسَماعٌ من النَّبيِّ ﷺ، يقول أبو عزيز هذا: «كنتُ في الأسارى يوم بدر، فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «استوصوا بالأسارى خيراً» فإنْ كان ليقدّم إليهم الطَّعام، فما يقع بيد أحدهم كسرة إلا رمىٰ بها إليَّ، ويأكلون التّمر يؤثروني، فكنتُ أستحيي، فآخذ الكسرة، فأرمي بها إليه، فيرمي بها إليّ»[4].

* ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ استشار كبار أصحابه في الأسارى، فأشار بعضهم[5] بأنْ تُقْبلَ منهم الفدية حتّى يكون ما يُؤخذُ منهم قوّة للمسلمين، ولعلَّ الله عزَّ وجلَّ أن يقلِّب قلوبهم فيتوبوا، بينما أشار

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ١٢)، وتفسير القرطبيّ (٨/ ٥٣).

(٢) سير أعلام النّبلاء (٢/ ٨١)، وانظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٣).

(٣) السّيرة النّبويّة (٢/ ٣٤٩)، ومجمع الزّوائد (٦/ ٨٦)، وإسناده حسن.

(٤) انظر: أسد الغابة (٥/ ٢١٣ و ٢١٤) ترجمة رقم (٦٠١٦).

(٥) كان منهم أبو بكر رضي الله عنه.

آخرون[1] بأنْ يُقتلوا لأنّهم من رؤوس الكُفْر، ولما أسلفُوا من الإساءة إلى المسلمين في مكّة، وآثر النَّبيُّ ﷺ الفداء، لما كان عليه أصحابُهُ الكرامُ من رقّةِ الحالِ وشدّة الفَقْر حينذاك.

* وقد أحصىٰ الباحثون ومصنّفو السِّيرة والتّراجم أسماء جماعةٍ من الأسرى من أهل البيتِ ورجالهم ممّن أسلموا فيما بعد، كان من أفضلهم سيّدنا العبّاس بن عبد المطّلب، وابنا أخويه: نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب.

* أسلم هؤلاء الرّجالُ الأخيار الثّلاثة، وأعطوا المجتمعَ المسلمَ طاقاتِهم الغنيةَ بالفداءِ والإخلاص، وكانوا من رجالِ أهلِ البيتِ الأبرار الذين حملوا رسالةَ الإسلام، فأضاؤوا الحياةَ بنورها، وعمروا الأرضَ بالمفيد النَّافع، ونبتوا في أرجائها دعاة إلى الله عزَّ وجلَّ، وهداة إلى الحقّ والخير، يحملون في أيمانهم وعلى كواهلهم كتابَ اللهِ الحكيم مفتوحَ الصَّفحات، مشرقَ الكلمات، يهدي إلى صراط الله العزيز الحميد، ويرفعون بشمائلهم سيوفَ الحقِّ ورماحَ الصِّدق ماضيةً في طريقها لتخليصِ الإنسانية من رقّ العبودية للمخلوقين، وليخرجوها من ظلماتِ الوثنيّات إلى ساحةِ الإيمان باللهِ الواحدِ المعبود، ويدخلوها أيضاً تحت رايةِ العدل والإخاءِ والمساواة في الحقوق والواجبات.

* وهكذا كان استبقاء رجالِ أهلِ البيت وسائرِ الأسرى، والعفو عنهم بأَخْذِ الفداء منهم من توفيقِ الله عزَّ وجلَّ، وكان النَّبيُّ ﷺ بما جُبِلَ عليه من الرّحمةِ والرّأفة يحبُّ الرّحمةَ والإحسانَ؛ وتحدّثنا كتبُ السِّيرة وتراجمُ الصَّحابة أنَّ كثيراً من الأسرىٰ قد أبدى الاستعدادَ التَّام لاعتناقِ الإسلام ومناصحتِهِ للنَّبيّ ﷺ، كما أنَّ الأسرى بعامة أظهروا من الضَّراعة والمذلَّةِ ما بلغ بهم كلَّ مبلغ.

* كان التَّصرُّفُ في أَمْرِ الأسرىٰ بأخْذِ الفداء والعفو رفقاً بالمسلمين لضيقِ

---

(١) كان منهم عمر رضي الله عنه.

ذات يدهم، إذ إنَّ إبقاءهم تحت أيدي المسلمين دون تصرُّف في شأنهم عبءٌ ثقيلٌ على وضعِ المسلمين الاقتصاديّ، لأنَّهم كانوا لا يزالون في ضيقٍ من العيش، وقلّةٍ في المال، وكان النَّبيُّ ﷺ قد أوصاهم بالأسرىٰ خيراً، فكانوا يحرمون أنفسهم. ويكرمون الأسرى كما تدلّ على ذلك قصّة أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير التي أشرنا إليها آنفاً.

* فكان من السِّياسةِ الحكيمة أنْ يفتحَ النَّبيُّ ﷺ باب التَّصرُّف في شأْنِ الأسرى، فجمَعَ أصحابه وشاورهم في الأمر، وكانت المشاورةُ قد انتهت إلى رأيين اثنين:

أولاهما: رأي سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ومَنْ سايرَهُ وتابعَهُ بالعفو عنهم وأخذ الفداء منهم.

الثَّاني: رأي سيّدنا عمر؛ ومَنْ وافقَه بقتلهم.

* وقد صوَّبَ النَّبيُّ ﷺ الرَّأيين، بَيْدَ أنَّه ﷺ اختار بتوفيقِ اللهِ وتسديده مِنَ الصَّواب أرفقَهُ وأرحمَهُ وأصلحَهُ لحالِ المسلمين وواقِعهم، فاختار المفاداةَ بالمال، أو تعليم عشرة من غلمان المسلمين القراءةَ والكتابةَ عن كلِّ أسير لا يفدي نفسه بالمال.

* ونأتي الآن إلى عمليّة الفداء، فقد قال النَّبيُّ ﷺ لعمّه العبَّاس بنِ عبد المطَّلب حين انتُهِي به إلى المدينة المنوّرة: «يا عبّاس، افْدِ نفْسَكَ، وابن أخيك عقيلَ بنَ أبي طالب، ونوفلَ بنَ الحارث، وحليفَكَ عتبةَ بنَ عمرو بن جَحْدَم؛ فإنَّك ذو مال».

فأبى العبَّاس وقال: يا رسولَ الله إنّي كنتُ مُسلماً قبل ذلك ولكنَّ القومَ استكرهوني على الخروج.

قال ﷺ: «اللهُ أعلمُ بإسلامك، إنْ يَكُ ما تذكر حقّاً فاللهُ يجزيك به، فأمَّا ظاهرُ أمرك فقد كان علينا، فَافْدِ نفسك».

* وكان رسولُ الله ﷺ قد أخذَ منه عشرين أوقية من ذَهَبٍ، فقال العبّاسُ:

يا رسولَ الله احسبْها لي من فدائي.

فقال ﷺ: «لا، ذاك شيءٌ أعطاناه اللهُ منك».

قال: فإنّه ليس لي مال.

فقال ﷺ: «فأين المالُ الذي وضعتَ بمكَّة حين خرجْتَ عند أمّ الفضْل بنت الحارث، ليس معكما أحد، ثمّ قلتَ لها: إنْ أُصِبْتُ في سفري هذا فللفَضْلِ كذا وكذا؟ ولعبدِ الله كذا وكذا؟ ولقُثَم كذا وكذا؟».

قال: «والذي بعثَك بالحقّ ما علمَ بهذا أحدٌ غيري وغيرها، وإنّي لأعلمُ أنّك رسولُ الله».

ففدى العبَّاس نفسه، وابن أخيه وحليفه(١).

* وجاء في الصَّحيح وغيرِه: استأذنَ بعضُ الأنصار رسولَ الله ﷺ، فقالوا: ائذن لنا فلنتركْ لابن أختنا العبَّاس فداءه.

فقال: «واللهِ، لا تذرون منه درهماً»(٢).

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٣ و ١٤)، وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٨١ و ٨٢)، وتفسير القُرطبي (٨/ ٥٢) مع الجمع والتّصرّف. قال ابن إسحاق: «وكان أكثر الأسارى فداءً العبّاس بن عبد المطَّلب؛ لأنّه كان رجلاً موسراً، فافتدىٰ نفسه بمئة أوقية من ذهب». (تفسير القرطبيّ ٨/ ٥٢).

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ برقم (٤٠١٨)، وانظر: دلائل النّبوّة للبيهقيّ (٣/ ١٤٢). والمعنى: «واللهِ، لا تتركوا للعبّاس من الفِداءِ شيئاً».
ومن خلال هذا الحديث المبارك يظهرُ لنا أدب الأنصار مع النّبيّ ﷺ إذ قالوا له عن العبّاس: «ابن أختنا» ـ لأنَّ جدَّةَ العبّاس أمّ عبد المطّلب من بني النّجّار ـ لتكون المنّة عليهم في فكاكهِ من الأسر، بخلافِ لو قالوا: «عمّك» لكانت المنّةُ عليه ﷺ. وهذا من قوة الذّكاء وحدّته، وحسن الأدب في الخطاب، وقد امتنعَ الصّادقُ المصدوقُ ﷺ عن إجابة الأنصار لكيلا يكون في الدّين نوعٌ من المحاباةِ لذوي القُربى وإن كانوا ذوي شأنٍ ومكانة، ولذا فقد أغلى النّبيّ ﷺ الفداء على عمّه العبّاس أمام الأنصار والمهاجرين وجميع أصحابه.
وبهذا التّصرّف الحكيم، رجع العبَّاسُ إلى مكّةَ يحملُ بين جوانحهِ حبَّ الإسلام، وقد دفعَ =

* وبهذا الحكم النَّبويّ العادلِ للأسرى، استنبطَ العلماءُ فيما بعد حكم الأسرى[(١)] وعملوا به، وبنوا وِفْقَهُ أحكامهم.

* وكان النَّبيُّ ﷺ مع هذا كلّه يحبُّ عمَّه العبَّاس، ويهتمُّ بأمره، فعندما كان العبَّاسُ مع الأسرى، أمسى النَّبيُّ ﷺ ساهراً أوَّلَ الليل، فقيل له:

يا رسولَ الله، مالكَ لا تنام؟

قال: «سمعتُ أنينَ عمّي في وثاقِه».

فأطلقوه، فنام النَّبيُّ ﷺ.

* وعن مجاهد قال: «أَسَرَ العبَّاسَ رجُلٌ، ووعدوه أنْ يقتلوه، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّي لم أنم الليلةَ من أجلِ العبَّاس؛ زعمتِ الأنصارُ أنَّهم قاتلوه».

فقال عمر: أآتيهم يا رسولَ الله؟ فأتى الأنصارَ، فقال: أرسلوا العبَّاس.

قالوا: إنْ كان لرسولِ الله ﷺ رضىً فَخُذْهُ»[(٢)].

= فداءه، وفداء ابنَي أخويه، ومن ثمّ ظلّ يرقُب مسيرةَ الإسلام حتّى أعلن إسلامه قُبيل فتح مكّة، وكان من رجال أهلِ البيت الذين أذهب اللهُ عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً، وفاز بسعادة الدَّارين.

(١) حُكمُ الأسرىٰ في الإسلام مفوّضٌ إلى رأي الإمام، وعليه أن يراعي مصلحة المسلمين العامة ضمن أحكام هي:
١ ـ **القَتْلُ**: قَتَلَ النَّبيُّ ﷺ عقبةَ بنَ أبي مُعَيط، والنَّضرَ بنَ الحارث لِمَا أسلفا من إساءة.
٢ ـ **المنّ**: إطلاقُ الأسير دون مقابل، وقد أطلقَ النّبي ﷺ أبا عزَّة الجمحيّ ومنَّ عليه، وكذلك أطلق غيره.
٣ ـ **الفداءُ**: إطلاقُ سَراحِ الأسير مقابل مبلغٍ من المال، وهذا ما حدثَ مع العبّاسِ بنِ عبد المطّلب، ونوفلِ بنِ الحارث، وعقيلِ بنِ أبي طالب، وغيرهم.
٤ ـ **الاسترقاقُ**: وهو ما جاء به حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في يهودِ بني قريظةَ أنْ يُقتَلَ المحاربون، وتقسمَ الأموالُ، وتُسبىٰ الذّراري والنّساء.

(٢) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٨٣)، والاستيعاب (٣/ ٩٥ و ٩٦).

* وغدا العبَّاس طليقاً من أسره، بيد أنَّ علماء السِّيرة والطَّبقات ومَنْ نحا نحوهم قد اختلفوا في تاريخ إسلامه ووقته، فمنهم مَنْ زعمَ أنَّه أسلمَ قُبيل غزاة بدر، ومنهم مَنْ قال إنَّه أسلمَ قُبيل فتحِ خيبر، ومنهم مَنْ زعمَ أنَّه أسلمَ بعد غزوة بدر، وكان بمكَّة يكتبُ أخبار المشركين ويرسلها إلى النَّبيِّ ﷺ وكان المسلمون يتقوَّوْن به بمكّة بعد هجرةِ النَّبيّ ﷺ، ومنهم مَنْ زعمَ أنَّه فكّرَ في الهجرةِ إلى المدينةِ المنوّرةِ، فعلم بذلك الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ فكتبَ إليه أنَّ مقامَكَ بمكَّة خيرٌ، فلذلك قال النَّبيُّ ﷺ يومَ بدر: «مَنْ لقيَ منكم العبّاس فلا يقتلْهُ، فإنَّه إنَّما أُخْرِجَ كارهاً»[1].

* وكان سيّدنا العبَّاسُ رضي الله عنه أنصرَ النَّاسِ لرسولِ الله ﷺ بعد أبي طالب، وحضَر مع النّبيّ ﷺ العقبة يشترطُ له على الأنصار.

* ولا نعلمُ في الحقيقة مدى صحّة هذه الأقوال، ولِمَ لَمْ يعلن العبَّاس إسلامه بمكَّة على الملأ القرشيّ قبل بدر أو بعدها!! فهذا سيّدنا حمزةُ أسد الرّحمن يعلنُ إسلامه أمامَ العيان، لا يخشى أحداً من الأعيان، وقال كلمة التّوحيد بصوتٍ عالٍ أمام الملأ القرشيّ الوثنيّ، فما الذي منع سيّدنا العبّاس من ذلك؟ مع أنَّ غلامَه أبا رافع يؤكّدُ في روايةٍ له مسارعته إلى الإسلام، ويبرّرُ عدم إعلانه وإشهاره للإسلام. يقول أبو رابع: «كنتُ غلاماً للعبّاسِ بنِ عبد المطَّلب، وكان الإسلامُ قد دخَلَنا أهلَ البيتِ، فأسلم العبَّاسُ، وأسلمتْ أمُّ الفَضْل، وأسلمتُ، فكان العبّاسُ يهابُ قومَه، ويكرهُ خلافَهم، فكان يكتمُ إسلامه وكان ذا مال متفرّقٍ في قومه، فخرجَ معهم إلى بدر وهو على ذلك»[2].

* ولكنَّ أبا رافع كان عبداً للعبَّاس، فوهبَهُ للنَّبيّ ﷺ، فلمَّا أنْ بُشِّرَ النَّبيّ ﷺ بإسلام العبَّاس أعتقه؛ فمتى حدَثَ ذلك؟!

---

(١) انظر: الاستيعاب (٣/٩٦)، ومختصر تاريخ دمشق (١١/٣٢٨ و٣٢٩) مع الجمع والتَّصرُّف.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٠).

* أغلبُ الظَّنِّ أنّ ذلك كان بعد غزاةِ بدر، إذ هاجر أبو رافع إلى المدينة، وأقام مع النّبيّ ﷺ، وشهدَ أحُداً والخندقَ والمشاهدَ كلّها مع رسولِ الله ﷺ، وزوَّجه سلمى مولاته، وشهدت معه خيبر، وكان كاتباً لسيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد عُدَّ أبو رافع من رجالِ أهلِ البيت إذ لا تحلُّ له الصَّدقة، إذ قال له الحبيبُ الأعظمُ ﷺ: «يا أبا رافع إنّا أهل بيتٍ لا تحلُّ لنا الصَّدقة، وإنَّ مولى القوم من أنفسهم»[1].

* فالصَّحيحُ أنَّ العبَّاسَ رضي الله عنه قد أسلم بعد بدر، ويؤكّدُ هذا تلك القصّة الجميلة التي رواها أبو رافع والتي ترسمُ غياب العبّاس وخروجه إلى بدر مع أهل مكّة، ترى ما فحوى هذه الأقصوصة الأبورافعيّة العبّاسيّة الطَّريفة المونقة؟!

* يقول أبو رافع: «كنتُ غلاماً للعبَّاسِ بنِ عبد المطَّلب، وكان الإسلامُ قد دخلنا أهلَ البيت، فأسلمَ العبّاسُ، وأسلمتْ أمُّ الفَضْل، وأسلمتُ، وكان العبّاسُ يهابُ قومه ويكرهُ خلافَهم؛ وكان يكتمُ إسلامه، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرّقٍ في قومه.

وكان أبو لهبٍ[2] عدواً لله قد تخلَّفَ عن بدر، وبعث مكانه العاصَ بنَ هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعُوا لم يتخلّفْ رجلٌ إلا بعَث مكانه رجُلاً.

فلمّا جاء الخبرُ عن مصابِ أصحابِ بدر من قريش، كَبَتَهُ اللهُ وأخزاهُ ووجدنا في أنفسنا قوَّةً وعزّاً.

وكنتُ رجلاً ضعيفاً؛ وكنتُ أعملُ الأقداحَ وأنحتُها في حجرةِ زمزم؛ فوالله إنّي لجالسٌ فيها أنحتُ أقداحي، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرَّنَا ما كان

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٧٤).

(٢) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشّرون بالنّار»، (ص: ١٩١ ـ ٢٢١) طبعة دار ابن كثير الثانية عام ٢٠٠١ م.

من الخبرِ، إذ أقبل الفاسقُ أبو لهب يجرُّ رجليه بِشَرٍّ، حتّى جلسَ على طُنُبِ الحجرة، وكان ظهرُهُ إلىٰ ظهري.

فبينما هو جالسٌ، إذ قال النَّاسُ: هذا أبو سفيان بنُ الحارث بن عبد المطَّلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ يا بن أخي، فعندك لَعَمري الخبر!

فجلسَ إليه، والنّاسُ قيامٌ عليه، فقال: يا بن أخي، أخبرني كيف كان أمْرُ النَّاس؟

قال: لا شيء، والله؛ ما هو إلا أنْ لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ النَّاس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْقٍ بين السَّماء والأرض، واللهِ ما تُليقُ شيئاً، ولا يقومُ لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعتُ طنبَ الحجرة بيدي، ثمَّ قلتُ: تلك واللهِ الملائكة! فرفع أبو لهبٍ يده فضربَ وجهي ضربةً شديدةً، وثَاوَرْتُه، فاحتملني، فضَربَ بي الأرض، ثمَّ برَكَ عليَّ يضربُني، وكنتُ رجلاً ضعيفاً؛ فقامت أمُّ الفضل إلى عمودٍ من عُمُدِ الحجرة، فأخذته، فضربَتْه به ضربةً فَلَقَتْ في رأسه شجَّةً منكرةً وقالت: أستضعفته أنْ غابَ عنه سيّده؟!.

فقام مولّياً ذليلاً، فواللهِ ما عاش إلا سبعَ ليال حتّى رمَاهُ الله بالعَدَسَة، فقتلتْهُ.»[1].

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٧٣ و ٧٤)؛ وانظر: سبل الهدىٰ والرَّشاد (٤/ ١٠١ و١٠٢)، ودلائل النُّبوَّة (٣/ ١٤٥ و ١٤٦) والسّيرة النّبويّة (٣/ ٣٥١ و ٣٥)، والبداية والنّهاية (٣/ ٣٠٨ و ٣٠)، وحياة الصّحابة (٣/ ٥٣٠)، وتفسير الرّازي (٣٢/ ١٥٧) وغيرها كثير.
ومعنى «كبته»: أذلّه، ويُقال: صرعه لوجهه، قال ابنُ الطّريف: «كَبَتَه: أهلكه»، ومعنى «الأقداح»: جمع قِدح يريد أنّه كان يصنعُ الأقداحَ من الخشَب. و«أنحتُها»: أي أنجِزها وأصنعُها قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[الصّافات: ٩٥]. و«طُنب»: حَبْل الخباء، وطرف الحجرة، وطنب الخباء: حباله التي يُشدّ بها. و«بُلْق»: ما كان فيه سواد وبياض، فهو أبلق، =

* وما أجملَ أنْ نقرأَ هذه القصيدة العينيّة الموقظة التي ترسمُ مصرعَ أبي لهبٍ وخزيَهُ وحزنَهُ وأسَفَه، وكيف ضربتْه السَّيّدةُ الفاضلةُ أمّ الفَضْل فشجَّتْه:

وضحَ اليقينُ لمن يرىٰ أو يسمعُ ... ولقَلَّما تُجدي الظُّنونُ وتنفعُ
اخشَعْ أبا لَهبٍ فإنْ تكُ ذا عمىً ... فجِبالُ مكّةَ والأباطحُ خُشَّعُ
مولىٰ رسولِ اللهِ يُضْرَبُ ما جَنَى ... ذنباً ولم يكُ كاذباً يتشيَّعُ
أخذتْ لبابةُ للضَّعيفِ بحقِّه ... ومضى الجزاءُ فأنتَ عانٍ موجَعُ
وشفَتْه منكَ بضربةٍ ما أقلعَتْ ... حتّى رمتْكَ بعلّةٍ ما تُقْلِعُ
قالتْ بغيتَ عليه واستضْعَفْته ... أنْ غابَ سيّده وعزَّ المفزعُ
حُيّيتِ أمَّ الفضْل تلكَ فضيلةٌ ... فيها لكِ الشَّرفُ الأعزُّ الأمنعُ
اللهُ أهلكَهُ بداءٍ ما لَه ... شافٍ ولا فيه لآسٍ مطمعُ
والمسلمون بنعمةٍ من ربِّهم ... فيها لكلِّ موحّدٍ مُسْتَمتَعُ
اللهُ أكبرُ لا مردَّ لحكمِهِ ... هو ربُّنا وإليه منّا المرجعُ[1]

نَاصحُ أهلِ البيتِ الأَمين:

* ظلَّ سيّدنا العبّاسُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه في مكّةَ بعد غزوةِ بدرٍ

= وهي بلقاء، والجمعُ: بُلْق. و«ما تليقُ»: ما تبقي شيئاً. و«ايمُ الله»: بهمزة وصل، وفي لغة: بالقطع، ومعناها: يمينُ اللهِ قسمي. و«لقينا القومَ»: القومَ: منصوب. و«ثاورتُه»: نهضتُ إليه، و«العمودُ»: عودٌ من أعوادِ الخيمة. و«فلقَتْ»: شَقَّتْ وشجّتْ. و«العَدسَة»: بثرة تشبهُ العدسة تخرجُ في موضعٍ من الجسد، تقتلُ صاحبها غالباً، قال ابن جرير: والعَدسَة: قرحةٌ كانت العرب تتشاءم بها، ويرون أنّها تُعدي أشدّ العدوى، فلمّا أصابتْ أبا لهب تباعدَ عنه بنوه، وبقي ثلاثاً لا تُقرب جثّته، ثمّ خافوا العار، فقذفوا عليه الحجارة من بعيد حتّى واروه. وروي أنَّ عائشة رضي الله عنها إذا مرَّت بموضعه غطَّتْ وجهها.

(١) انظر: ديوان مجد الإسلام لأحمد محرّم (ص ٩٤ و٩٥) بانتقاء واختصار. ومعنى «مولى رسول الله»: أبو رافع رضي الله عنه. و«ما جنَى ذنباً»: لم يقترفْ ذنباً يستحقّ الضّرب. و«لبابة»: أمّ الفضل زوج سيّدنا العبّاس. و«بعلّة ما تقلع»: المقصود أنَّ أبا لهب قد أُصيبَ بعد ضربةِ أمّ الفضل بالعدسَةِ وهي قرحةٌ خبيثة تخافُها العرب وتتشاءم منها، فتباعد عنه أهله وبنوه حتى مات، ثمَّ واروه بالحجارة من بعيد. و«آسٍ»: طبيب.

يتابعُ أخبارَ النَّبيِّ ﷺ وأحوالَ المسلمين، ويهتمُّ بأمورهم، يُسَرُّ لسرورِهم ويحزنُ لحزنهم، إلى أنْ فتحَ اللهُ خيبرَ، وغنمها المسلمون وكان للعبّاس موقفٌ جميلٌ في تلك الأيّام، ينمُّ عن محبَّته ونصحِهِ لابن أخيه محمّدٍ ﷺ، وللمسلمين في مكَّةَ والمدينةِ.

* وترسمُ المصادرُ الكثيرة أحداثَ قصَّةٍ طريفةٍ عن مراهنةٍ كانت بين قريشٍ في أنَّ أهلَ خيبرَ يغلبون رسولَ الله ﷺ أو يغلبُهم، وأنَّ العبَّاسَ بن عبد المطَّلب قد عرفَ انتصاره ﷺ من خلالِ محاروته وحديثه مع الحجّاجِ بنِ عِلاط السُّلَميّ.

* وفحوىٰ هذه القصّة ومحصّلها: «أنَّ الحجّاجَ بنَ علاط السُّلميّ، قد خرجَ يُغيرُ في بعضِ غاراته، فذُكرَ له أنَّ الصَّادقَ المصدوقَ رسولَ الله ﷺ بِخَيْبَرَ فأسلمَ الحجّاجُ، وحضرَ مع رسول الله ﷺ خيبرَ وشهد فتحها؛ ـ وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسولِ الله ﷺ إلى خيبرَ تَراهُنٌ عظيمٌ، وتبايعٌ، فمنهم مَنْ يقولُ: يظهرُ محمّدٌ وأصحابُهُ؛ ومنهم مَنْ يقولُ: يظهرُ الحليفان ويهود خيبر ـ. وكان الحجّاجُ بنُ علاط قد أسلم، وكانت امرأتُه أمّ شيبةَ بنت عُمير أخت مصعب بن عُمير العبدريّ؛ وكان الحجّاجُ مُكثراً من المالِ، كانت له معادنُ الذّهب بأرض بني سُلَيم، فلمّا ظهرَ النَّبيُّ ﷺ على خيبرَ، جاءه الحجّاجُ بنُ علاط، وقال له: يا رسولَ الله، ائذن لي، فأذهبُ فآخذُ مالي عند امرأتي، وإنَّ لي عندها ذَهباً، فإنْ تعلم هي وأهلُها بإسلامي لم آخذْ منه شيئاً، ولي مالٌ متفرّقٌ في تجّار مكّة وأهلها؛ فأذن له النَّبيُّ ﷺ ليسبقَ الأخبار ويسبقَ السَّيْرَ. فقال: يا رسولَ الله: لابدَّ لي من أنْ أقولَ إذا قدمتُ مكَّةَ، وأخبرُ أخباراً أدرأ بها عن مالي ونفسي. فأذنَ له النَّبيُّ ﷺ وقال: «قُلْ».

قال الحجّاجُ: فخرجتُ، فلمّا انتهيتُ إلى الحرم، هبطتُ، فوجدتهم بالثَّنيّة البيضاء، وإذا بها رجالٌ من قريش يتسمَّعُون الأخبار، قد بلغَهم أنَّ رسولَ الله ﷺ قد سار إلى خيبرَ، وعرفوا أنَّها قريةُ الحجازِ أنفةً وريفاً ورجالاً وسلاحاً، فهم يتحسَّبُون الأخبار، مع ما كان بينهم من الرّهَان، فلمَّا رأوني

قالوا: الحجّاجُ بنُ عِلاط عنده ـ واللهِ ـ الخبرُ اليقينُ ـ ولم يكونوا علموا بإسلامي ـ يا حجّاجُ. إنَّه قد بلغنا أنّ القَاطِعَ قد سار إلى خيبرَ بلد يهود، وريف الحجاز.

فقلت: بلغني أنَّه قد سار إليها، وعندي من الخبر ما يسرُّكم ويفرحُكم وينسيكم أمسكم وغدكم، فالْتَبَطُوا بجانبي راحلتي، يقولون: إيهِ يا حجّاجُ؟!

فقلت: ويحكم، لم يَلْقَ محمَّدٌ وأصحابُه قوماً يحسنون القتال غير أهل خيبر!! كانوا قد ساروا في العرب يجمعون له الجموعَ، وجمعوا له عشرة آلاف، فُهِزمَ هزيمةً لم يُسْمَعْ بمثلها قطّ، وأُسِرَ محمّدٌ أسراً، فقالوا: لا نقتله حتَّى نبعثَ به إلى مكّةَ، فنقتله بين أظهرهم بمَنْ قَتَلَ منّا ومنهم، ولهذا فإنّهم يرجعون إليكم يطلبون الأمان في عشائرهم، ويرجعون إلى ما كانوا عليه، فلا تقبلُوا منهم، وقد صنعوا بكم ما صنعوا.

قال: فصاحُوا بمكَّة وقالوا: قد جاءكم الخبرُ، هذا محمّدٌ، إنّما تنتظرون أنْ يُقْدمَ به عليكم، فيُقْتَلَ بين أظهركم؛ ثمّ قلتُ لهم: ويحكم أعينوني على جمع مالي بمكَّة على غرمائي، فإنّي أريدُ أنْ أقدمَ فأصيبَ من غنائم محمّدٍ وأصحابه، قبل أنْ تسبقني التُّجّارُ إلى ما هناك، فقاموا فجمعوا إليَّ مالي كأحثّ جمعٍ سمعتُ به؛ وجئتُ امرأتي فقلتُ لها: اجمعي ما كان لي عندك من مالٍ، لَعلّي ألحقُ بخيبرَ، فإني أريدُ أنْ أشتريَ من غنائم محمّد وأصحابه، قبل أن يسبقني التُّجّار، فإنّهم قد استُبيحوا، وأصيبتْ أموالُهم، وإنَّ محمّداً قد أُسِرَ، وتفرَّقَ عنه أصحابه. وفَشَا هذا الخبرُ بمكّةَ، وانتشرَ بين النَّاس كانتشار النَّار في الهشيمِ، واشتدَّ ذلك على المسلمين، وبلغ منهم الخبرُ مبلغاً عظيماً وحزنوا حُزناً شديداً، بينما أظهرَ المشركون وحلفاؤهم الفرحَ والسُّرور. وبلغتْ هذه الأنباءُ العبّاسَ عمّ رسولِ الله ﷺ وسمع جَلَبَة المشركين وإظهارهم السّرور، فأراد أنْ يقومَ ويخرجَ، فقَعَدَ وجعلَ لا يستطيعُ أنْ يقومَ، فدعا ابناً له يُقال له: قُثَم، وكان يُشْبِهُ رسولَ اللهِ ﷺ، فاستلقىٰ العبّاس ووضعَه على صَدْرِه، وأخذَ يرتجزُ، ويرفعُ صوتَه لئلا يشمتَ به أعداءُ الله:

حِبِّـــي قُثَـــم حِبِّـــي قُثَـــمْ شبيـــهُ ذي الأنـــفِ الأشـــمْ
نَبِـــيّ ربّـــي ذي النّعـــمْ بـــرغـــم أنـــف مَـــنْ رَغَـــمْ

وحضرَ إلى باب العبَّاس رجالٌ كثيرون ونساء، كما حضرَ كثيرٌ من المشركين منهم المظهرُ للفرحِ والسُّرور، ومنهم الشَّامتُ المغري، ومنهم مَنْ به مثْل الموتِ من الحزنِ والبلاءِ والغيظِ، وكان المسلمون مقهورين بظهور الكفْرِ والبغي. ولكنَّ المسلمين لمَّا رأوا العبّاسَ طيّبةً نفسهُ، وسمعوا رجزَهُ وتجلّدَهُ للشَّامتين يُريهم أنَّه لريبِ الدَّهْر لا يتضعضعُ، طابتْ نفوسُهم، واشتدّت قوتهم، وظنَّ المشركون أنَّه قد أتاهم ما لم يأتهم. وفي هذه الأثناء دعا العبَّاس غُلاماً له فقال: اذهبْ إلى الحجَّاج بن عِلاط فقلْ له: يقولُ لك العبَّاس: اللهُ أعلى وأجلُّ منْ أن يكون الذي جئْتَ به حقّاً.

فقال له الحجّاج: اقرأْ على أبي الفَضْل السَّلام، وقُلْ له: لِيَخْلُ لي في بعضِ بيوته حتّى آتيه ظُهراً بالخبر على ما يسرّه، واكتمْ عنّي. وأقبلَ الغلامُ يبشِّرُ العبَّاسَ، فقال: أبشرْ يا أبا الفَضْلِ، فوثبَ العبّاسُ فَرِحاً كأنْ لم يمسَّه شيءٌ، ودخلَ عليه الغلام، واعتنقَه العبَّاسُ ثمَّ أعتقه، وأخبرَهُ بالذي قاله الحجّاجُ بنُ علاط السُّلميّ.

فقال العبّاس: للهِ عليَّ عتقُ عشْرِ رقاب. فلمَّا كان ظُهراً، جاءه الحجَّاجُ، وخَلَابهِ، فناشدَهُ الله وقال: يا أبا الفَضْل لتكتمنَّ عليَّ ثلاثة أيّام؛ فوافقه العبَّاسُ على ذلك وواثقه.

فقال الحجَّاج: يا أبا الفَضْل، إنّي قد أسلمتُ، ولي مالٌ عند امرأتي، ودَيْنٌ على النَّاس، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إليَّ؛ وتركتُ رسولَ الله ﷺ وقد فتحَ خيبرَ، وغنمَ أموالهم، وجَرَتْ فيها سهامُ اللهِ، وإنَّ رسولَ الله ﷺ قد تركتُهُ عروساً بابنةِ ملكهم صفيَّة بنت حيي بن أخطب، وإنّي استأذنتُ رسول الله ﷺ أنْ أقولَ الذي سمعتَ، فأذِنَ لي أن أقول ما شئتُ، فأخْفِ عليَّ ثلاثاً، ثم اذكرْ ما شئتَ أنْ تذكُرَ.

ولمَّا أمسى الحجَّاجُ من يومِهِ، خرجَ وانشمرَ راجعاً بعد أن جمعتْ له امرأتُه متاعَه؛ فلمَّا كان بعد ثلاثٍ، والنَّاسُ يموجون في شأنِ ما تبايعوا عليه، عمد العبَّاسُ إلى حُلَّةٍ فلبسها، وتخلَّقَ بخلوق، وأخذَ بيده قضيباً، ثمّ أقبلَ يخطرُ، حتَّى وقفَ على بابِ الحجَّاجِ بن علاطٍ، فقرعَهُ، فخرجتْ زوجتُهُ وقالت له: ألا تدخل يا أبا الفَضْل؟

قال: فأين زوجُك؟

قالت: ذهب يوم كذا وكذا. ثمَّ قالت: لا يحزنك اللهُ يا أبا الفَضْل، لقد شقَّ علينا الذي بلغَك.

فقال: أجلْ، لا يحزنني الله، ولم يكن بحمدِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا ما أحببنا أهلَ البيت الهاشميّ، فقد فتحَ اللهُ على رسولِهِ خيبرَ، وجرتْ فيها سهامُ اللهِ ورسوله، واصطفىٰ رسولُ الله ﷺ صفيّةَ بنتَ حُيي لنفسِه، فإنْ كانت لك حاجة في زوجكِ فالحقي به.

قالت: أظنُّكَ واللهِ صَادِقاً يا أبا الفَضْل.

قال: فإنّي واللهِ صادقٌ، والأمرُ على ما أقولُ لك يا أمّ شيبة.

قالت: فَمَنْ أخبركَ هذا؟

قال: الذي أخبركِ بما أخبرَكِ كذا وكذا.

ثمَّ إنَّ العبَّاسَ تركَها وذهبَ حتَّى أتى مجالسَ قريش، وهم يقولون إذا مرَّ بهم: لا يصيبُكَ إلاَّ خيرٌ يا أبا الفَضْل!! هذا واللهِ التَّجلُّدُ لِحَرِّ المصيبة.

قال: كلاَّ واللهِ الذي حلفتُم به، لم يصيْبني إلا خيرٌ بحمد الله، أخبرني الحجَّاجُ بنُ علاط أنَّ خيبرَ فتحها اللهُ عزَّ وجلَّ على رسولِهِ ﷺ، وجرى فيها سهامُ الله، وسهامُ رسوله، وقد سألني أنْ أكتمَ عليه ثلاثاً لحاجةٍ، فردَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الكآبةَ التي كانت بالمسلمين على المشركين، وجزعُوا أشدَّ الجزع، وخرجَ المسلمون من مواضِعهم حتَّى دخلُوا على العبَّاس، فأخبرهم الخبر،

فَسُرَّ المسلمون وأشرقَتْ وجوههم. وقال المشركون: يا لعبادِ الله، انفلتَ عدو الله ـ يعني الحجّاج ـ أمَا واللهِ لو علمنا ما فعلَ لكان لنا وله شأن. ثمَّ لمْ ينشبوا أن جاءهم الخبرُ بذلك، فكُبِتُوا وزادَ خِزْيُهم وحُزْنُهم»[1].

* ويحسنُ بنا أن نقرأَ قصَّةَ الحجَّاجِ شِعْراً، ونعرفُ دورَ العباسِ من

---

(١) انظر: سبُل الهدى والرَّشاد (٥/ ٢١٦ ـ ٢١٩)، وزاد المعاد (٣/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩) مع الجمع والتّصرّف. وانظر: البداية والنّهاية (٤/ ٢١٥)، والسّيرة الحلبيّة (٣/ ٦٠)، ومجمع الزّوائد (٦/ ١٥٤)، وأخرجه أحمد (٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، وأبو يعلى برقم (٣٤٧٩)، وابن حبّان في الموارد برقم (١٦٩٨) والطَّبرانيّ في المعجم الكبير برقم (٣١٩٦)، وصحيح السّيرة لإبراهيم العليّ (ص ٣٥٨) وغيرها كثير.
ومعنى «الثّنية البيضاء»: عقبة تهبطُ بكَ إلى فخ، وأنتَ مقبلٌ من المدينةِ المنورةِ تريدُ أسفل مكّة قبل ذي طُوى. و«الرّيف»: بالكسر: الخصبُ والسّعةُ في المطعم، وحيث تكونُ الخضرةُ والحياة. و«يتحسبون الأخبار»: يتطلّبونها. و«القاطعُ»: يعنون بذلك النَّبيّ ﷺ. و«التبطوا بجانبي راحلتي»: مشوا إلى جنب ناقتي كمشي العرجان لازدحامهم حولها. و«أحثّ»: أسرع. و«الشّامت»: الذي يفرحُ ببلاءٍ ينزلُ على غيره. و«ليخلُ لي في بعض بيوته»: أي لينفردْ فيه كي يجتمعَ معه. و«ناشده الله» ذكّرهُ به. و«عروس»: وصْفٌ يستوي فيها الذّكر والأنثى. و«انشمرَ راجعاً»: أسرعَ بالعودة. و«تخلّق بخلوق»: تطيب بالعطر، والخلوق نوع من الطيب. و«يخطر في مشيته»: يقبل بيده ويدبر كثيراً، و«شقَّ»: صعُب. و«التّجلّد»: التّصبُّر. و«الكآبة»: الحزن. و«ينشبوا»: يلبثوا.
قال ابن قيم الجوزيّة مستنبطاً بعضَ الأحكامِ الفقهيةِ من هذه القصّةِ وهذا الخبر: «ومنها: جوازُ كذب الإنسان على نفسهِ وعلى غيره، إذا لم يتضمّنْ ضررُ ذلك الغير إذا كان يُتَوصّلُ بالكذب إلى حقّهِ، كما كذبَ الحجّاجُ بنُ علاط على المسلمين، حتّى أخذ ماله من مكّةَ من غيرِ مضرّةٍ لحقتْ المسلمين من ذلك الكذب، وأمّا ما نال مَنْ بمكّة من المسلمين من الأذى والحزن، فمفسدةٌ يسيرةٌ في جنْبِ المصلحة التي حصلت بالكذبِ، ولا سيما تكميل الفرح والسُّرور، وزيادة الإيمان الذي حَصَلَ بالخبر الصَّادق بعد هذا الكذب، فكان الكذبُ سبباً في حصولِ هذه المصلحةِ الراجحة، ونظيرُ هذا الإمامُ والحاكمُ يوهمُ الخصم خلافَ الحقّ، ليتوصّلَ بذلك إلى استعلام الحقّ، كما أوهم سليمانُ بنُ داود ـ عليهما السَّلام ـ إحدى المرأتين بشقّ الولد نصفين حتى توصّل بذلك إلى معرفةِ عين الأم». (زاد المعاد ٣/ ٣٥٠). وحديث المرأتين مع سليمان بن داود أخرجه مسلم برقم (١٧٢٠).

خلالها، فمع هذه الدّاليّة المُوحية :

تقدّمْ فهذا مطْلَعُ الحقِّ والهدىٰ ... ألستَ ترى النُّور الذي جاوزَ المدىٰ
أتيتَ رسولَ الله تَتْبعُ دينَه ... وتؤثرُ خيرَ الزَّاد فيمن تزوَّدا
تقولُ له دعني أزوِّرْ مقالةً ... تسوءُك إنّي أحذرُ المعشرَ العِدى
بمكَّةَ لي مالٌ كثيرٌ موزَّعٌ ... أخافُ عليه أنْ يضيعَ ويُفْقَدا
ورحْتَ تحابيهم وتشفي صُدورهم ... بخرقاءَ تستهوي الغَبيَّ المُبلّدا
تقولُ لقد فازَ اليهودُ وأدركوا ... على الفاتحين الغرّ نَصْراً مؤيّدا
أغاروا فردُّوهم وأمسى مُحمَّدٌ ... أسيراً لدىٰ ساداتِهم ليس يُفتدىٰ
وطاشَتْ عقولُ المسلمين فأصبحوا ... حيارىٰ يرونَ العيشَ أغبرَ أنكدا
تزوَّدَ همّاً كلُّ من كان مسلماً ... وأعيا على العبَّاسِ أنْ يتجلَّدا
فأرسلَ ما هذا الذي أنتَ قائلٌ ... قُلِ الحقَّ يا حجاجُ وانقعْ به الصَّدىٰ
تباركَ ربّي إنّه جَلَّ شأنُهُ ... لحقٌّ عليه أنْ يُعِزَّ محمَّدا
فقال نعم عُدْ يا غلامُ وقُلْ له ... أبا الفضْلِ أبشرْ وانتظرْ مقدمي غَدا
فأعتقَ من فرطِ السُّرور غلامَهُ ... وراجَعَهُ من أمرِه ما تعوَّدا
ووافاهُ حجَّاجٌ بأنباءِ خيبرٍ ... فأمسى الذي أخفىٰ من الأمرِ قَدْ بدا
وناشَدَهُ ألا يذيعَ حديثَه ... ثلاثةَ أيام حِذاراً من الرِّدى
فلمَّا انقضتْ راعَ الرِّجالَ بطلعةٍ ... تشقُّ على الأعداءِ مرأىٰ ومشْهَدا
تدفَّقَ بِشْراً وجهه وجرى السَّنَا ... على صفحتَيْهِ ساطعاً فتوقَّدا
يقولون لا تحزنْ فيالَلألىٰ عَمُوا ... ويالكَ من حزنٍ أقامَ وأقْعدَا
رماهم بأخبارِ الفتوحِ فغاظَهم ... وردَّ ذليلاً كلَّ عَاتٍ تمرَّدا
يضجُّون أين ابن العلاط أمَا لنا ... إليهِ سبيلٌ إنَّه كان مُفْسِدا
لقد غرَّنا كيما يفوزَ بمالِهِ ... فحاقَ بنا منْ إثمهِ ما تعمَّدا
جزاهم إلهُ النَّاسِ ما ذنْبُ مسلمٍ ... كريم السَّجايا ما أساءَ ولا اعتدىٰ
رأى شرّهم فاحتالَ يحفظُ مالَه ... عليه ويأبى أنْ يغادرَهُ سُدىٰ(١)

(١) ديوان مجد الإسلام (ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦) بانتقاء.

المهَاجرُ المُوَفَّقُ:

* ظلَّ سيّدنا العبّاسُ مقيماً في مكَّةَ المكرمةِ إلى أيَّام فَتْحِ مكَّةَ، ويظهرُ أنَّ العبَّاس قد أسلم قبل فتح خيبر، وعلم أهلُ مكَّة بإسلامه، كما مرَّ معنا في الفقْرةِ السَّابقة حينما قدم الحجَّاجُ بنُ علاط السُّلميّ إلى مكةَ، وبشَّرهُ بفتح خيبرَ. قال أنسُ بن مالك رضي الله عنه: «... وخرجَ المسلمون مَنْ كان دخلَ بيته مكتئباً حتّى أتى العبَّاس، فأخبرهم الخبرَ، فسُرَّ المسلمون، وردَّ ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين»[1].

* والذي يهمُّنا هنا أنَّ سيّدنا العبَّاس قد أسلم قبل أنْ يهاجر إلى المدينةِ المنورّةِ عند فتْح مكَّةَ المكرمةِ، أمَّا ما قيل أنَّه أسلم قبلِ وقْعةِ بدر فذلك أمرٌ مستبعدٌ. «ويردُّ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ طالبه أنْ يفتدي عندما أُسِرَ ببدر، ولاشك أنَّ العبَّاسَ قدَّمَ خدماتٍ جليلةً للإسلام قبل دخوله فيه، فقد كان يوافي الرّسولَ ﷺ بأخبار قريش، وكان ملاذاً للمسلمين المستضعفين بمكَّة»[2].

* وعندما مضى الصَّادقُ المصدوقُ رسولُ الله ﷺ يقودُ جيشَ الفَتْحِ إلى مكَّةَ المكرّمةِ، كان العبّاسُ بنُ عبد المطّلب قد لقيَ النَّبيَّ ﷺ ببعض الطَّريق.

* قال ابنُ هشام: «لقيَهُ بالجُحفةِ[3] مهاجراً بعياله، وقد كان قَبْل ذلك مقيماً. بمكةَ على سِقَايتهِ، ورسولُ الله ﷺ عنه راضٍ، فيما ذكرَ ابنُ شهاب الزُّهريّ»[4].

---

(١) البداية والنِّهاية (٤/ ٢١٧).

(٢) السّيرة النّبويّة الصَّحيحة للدكتور أكرم العمريّ (٢/ ٤٧٦).

(٣) «الجُحْفة»: بضم الجيم، وسكون الحاء: قريةٌ كبيرةٌ على خمس مراحلَ وثلثِ مرحلةٍ من المدينة. (سُبُل الهدى والرَّشاد ٥/ ٤٢٠). وجاء في «المعالم الأثيرة»: الجحفة: بالضّم ثم السّكون: موضعٌ بين مكّةَ والمدينةِ، يقعُ شرق رابغ مع ميل إلى الجنوب على مسافةِ اثنين وعشرين كيلاً، وهو ميقاتُ أهل مصر والشّام إنْ لم يمرُّوا على المدينةِ... وكان اسمُها مَهْيعة، وإنّما سميت الجحفة لأنَّ السَّيلَ اجتحفها وحملَ أهلها في بعضِ الأعوام، وهي في طريق هجرة النّبي ﷺ، ولها ذكْرٌ في الحديث. (المعالم الأثيرة ص ٨٨).

(٤) السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشني (٤/ ٦١).

* ونزلَ الحبيبُ المصطفى ﷺ مرَّ الظَّهران عشاء، فأمرَ الجيشَ المسلمَ المجاهدَ فأوقدوا النّيران فأُوقدتْ عشرةُ آلافِ نار، وجعلَ رسولُ الله ﷺ على الحرسِ عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه.

* نحنُ الآن مع الإمام البخاريّ في صحيحه ليرويَ جانباً من مسيرِ النَّبيّ ﷺ إلى فتح مكَّة، فنستمع إليه من حديثٍ طويل بسنده عن هشامِ بن عروةَ عن أبيه قال: «لمَّا سار رسولُ الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قريشاً، خرج أبو سفيان بنُ حرب، وحكيمُ بنُ حزام، وبُدَيلُ بنُ ورقاء يلتمسون الخبرَ عن رسولِ الله ﷺ، فأقبلوا حتى أتوا مرَّ الظَّهران، فإذا هم بنيران كأنَّها نيرانُ عرفة، فقال أبو سفيانَ: ما هذه؟ لكأنَّها نيرانُ عرفةَ!

فقال بُديلُ بنُ ورقاء: نيرانُ بني عمرو.

فقال أبو سفيان: عمرو أقلُّ منْ ذلك.

فرآهم ناسٌ من حرسِ رسولِ الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسولَ الله ﷺ، فأسلمَ أبو سفيان...»[(١)].

* وكان لسيِّدنا العباس دورٌ مهمٌّ في أحداثِ فَتْح مكَّة، منها ما جاء عند الصَّالحيّ قال: «أُخِذَ أبو سفيان وأصحابُهُ، وكان حرسُ رسولِ الله ﷺ نَفراً من الأنصار، وكان عمرُ بُن الخطَّاب رضي الله عليه تلك الليلة على الحرسِ، فجاؤوا بهم إليه، فقالوا: جئناكِ بِنفَرٍ أخذناهم من أهل مكَّة.

فقال عمر وهو يضحكُ إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم.

قالوا: واللهِ آتيناك بأبي سفيان.

فقال: احبسوهُ.

فحبسوهُ حتَّى أصبحَ، فغدا به على رسولِ الله ﷺ. قال ابنُ عقبةَ: لمَّا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٨٠) من حديث طويل في المغازي.

دخلَ الحرسُ بأبي سفيان وصاحبيه، لقيهم العبَّاسُ بنُ عبد المطلب، فأجارهم.

وعن عِكْرمة: أنَّ أبا سفيان لمَّا أخذهُ الحرسُ قال: دلّوني على العبَّاس، فأتى العبَّاسَ فأخبره الخبر، وذهب به إلى رسولِ الله ﷺ»[1].

* إنَّنا نلمسُ دورَ العبَّاسِ واضحاً منذ السَّاعاتِ الأولى لهجرتِهِ المباركةِ، وسنرىٰ مزيداً من إشراقاتِهِ في ثنايا السُّطورِ التَّاليةِ، وسنعرفُ مكانةَ هذا الرَّجُل الكبير بين رجالاتِ أهلِ البيتِ، كما سندركُ قَدْره عند سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ، إذ شفَّعَه ﷺ بأبي سفيانَ وغيره.

* والآن؛ سنتحلّقُ حول ابن عبَّاس ليحدّثنا عن دورِ أبيه يوم فتح مكَّة، وعن برّه ومعروفه مع أهلها؛ ومع أبي سفيان فقال ما محصَّله ومفادُهُ: «لمَّا نزَلَ رسولُ الله ﷺ مرَّ الظَّهران، رقَّتْ نفسُ العبَّاسِ لأهل مكّة، فقال العبَّاسُ: واصباحَ قريش! والله لئن دخلَها رسولُ الله ﷺ عَنْوَةً قبل أنْ يأتوهُ فيستأمنوه، إنَّه لهلاكُ قريش إلى آخرِ الدَّهْرِ.

قال العبَّاسُ: فأخذتُ بغلةَ رسولِ الله ﷺ الشَّهباء فركبتُها، وقلتُ: ألتمسُ حطَّاباً، أو صاحبَ لَبن، أو ذا حاجةٍ يأتي مكّة. فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه، فيستأمنوه قبل أنْ يدخلَها عليهم عَنْوةً.

قال: فوالله إني لأسيرُ عليها في الأراكِ ألتمسُ ما خرجتُ إليه، إذ سمعتُ كلامَ أبي سفيان، وبُديلِ بنِ ورقاءَ، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيتُ كالليلةِ نيراناً ولا عَسْكراً!

فقال بديلُ بنُ ورقاء: هذه والله خزاعة حَمَشَتْها الحربُ.

فقال أبو سفيان: خزاعة أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العبَّاسُ: فعرفتُ صوتَ أبي سفيان.

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٢٦) بتصرّف يسير جداً.

فقلت: يا أبا حنظلة. فعرفَ صوتي.

فقال: لبيك يا أبا الفَضْل، مالك فداك أبي وأمّي! وعرف صوتي.

فقلت: ويلك يا أبا سفيان! هذا رسولُ اللهِ ﷺ في عشرةِ آلافِ مقاتل.

فقال: واصباحَ قريش والله؛ بأبي أنتَ وأميّ فما تأمرني؟ هل من حيلة يا أبا الفَضْل؟

قلت: نعم يا أبا حنظلة، اركبْ عَجُزَ هذه البغلة، فأذهبُ بك إلى رسول الله ﷺ فأستامنُه لكَ، فإنّه واللهِ إنْ ظُفِرَ بك دون رسولِ الله ﷺ لتُقْتَلَنَّ.

فركبَ خلفي، ورجعَ صاحباه، فجئتُ به، فكلّما مررتُ بنارٍ من نيرانِ المسلمين قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلةَ رسولِ الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمُّ رسولِ الله ﷺ على بغلته، حتّى مررتُ بنارِ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فلمَّا رآني قامَ فقالَ: مَنْ هذا؟

قلتُ: العبّاسُ، فذهبَ ينظرُ، فرأى أبا سفيان خلفي، فقال: أي عدوّ اللهِ! الحمدُ لله الذي أمكَنَ منك بغيرِ عَقْدٍ ولا عَهْدٍ.

ثمَّ خرجَ يشتدُّ نحو رسولِ الله ﷺ، وركضتُ البغلةَ، فسبقتُه كما تسبقُ الدَّابةُ البطيئةُ الرّجُلَ البطيءَ، فاجتمعنا على بابِ قبّةِ رسولِ الله ﷺ، فاقتحمتُ عن البغلةِ، فدخلتُ على رسولِ اللهِ ﷺ، ودخل عمر على أثري.

فقال عمر: يا رسولَ الله، هذا أبو سفيان قد أمكنَ اللهُ منه بغير عَقْدٍ ولا عَهْدٍ، فدعني أضرب عنقهُ.

قلتُ: يا رسولَ الله، إنّي قد أجرتُهُ.

ثمَّ التزمتُ رسولَ الله ﷺ، وجلستُ إليه، وأخذتُ برأسه، فقلتُ: واللهِ لا يناجيه الليلة دوني رجلٌ. فلمّا أكثرَ عمر في شأنه، قلتُ: مَهْلاً يا عمر، فواللهِ لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنّك قد عرفتَ أنّه من رجالِ عبد مناف.

فقال: مهلاً يا أبا الفضل، فوالله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحبَّ من إسلامِ الخطَّاب لو أسلم، وما بي إلاَّ أنّي قد عرفتُ أنَّ إسلامَك كان أحبَّ إلىٰ رسولِ الله ﷺ من إسلام الخطَّاب لو أسلم.

فقال رسولُ الله ﷺ: «اذهبْ به يا عبَّاس إلى رحلكَ، فإذا أصبحتَ فأتني به».

قال العبّاسُ: فذهبتُ به إلى رَحْلي؛ فلمّا أذَّن الصُّبحُ أذَّن العسكرُ كلُّهم ـ أي أجابوا المؤذّن ـ ففزعَ أبو سفيان من أذانهم، فقال: ما يصنعُ هؤلاء؟

قال العبّاس: الصَّلاة.

قال: كم يصلُّون؟

قلتُ: خمس صلواتٍ في اليوم والليلة.

وذهبَ العبّاسُ به إلى رسولِ الله ﷺ، فلمَّا دخلَ رسولُ الله ﷺ الصَّلاة كبَّر، وكبّر النَّاس، ثم ركعَ، فركعُوا؛ ثم رفعَ، فرفعوا، ثم سجدَ، فسجدوا، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ كاليوم طاعة، قومٌ جمعهم من هاهنا وهاهنا، ولا فارسُ الأكارم، ولا الرّومُ ذات القرون بأطوع منهم له، يا أبا الفضل، أصبحَ ابنُ أخيك والله عظيمَ المُلْكِ.

فقال العبَّاس: إنَّه ليس بِمَلِك، ولكنَّها النُّبوَّةُ..

فلمَّا فرغَ رسولُ الله ﷺ، ذهبتُ بأبي سفيان إليه، فلمَّا رآهُ ﷺ قال: «يا أبا سفيان، أَلَم يأنِ لك أنْ تعلمَ أنْ لا إله إلا الله»؟

قال: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمَكَ وأكرمَكَ وأعظمَ عفوك! إنَّه لو كان مع الله إلهٌ لقد أغنى عنّي شيئاً بعد، لقد استنصرتُ إلهي، واستنصرتَ إلهكَ، فوالله ما لقيتُكَ من مرّةٍ إلا نُصِرتَ عليَّ، فلو كان إلهي محقّاً، وإلهك مبطلاً لقد غلبتُك.

فقال ﷺ: «ويحكَ يا أبا سفيان أَلَمْ يأْنِ لك أنْ تعلم أنّي رسولُ الله»؟

قال: بأبي أنتَ أمّي ما أحلمكَ وأكرمكَ وأوصلكَ وأعظم عفوكَ! أما هذه، فوالله إنَّ في النَّفسِ منها شيئاً حتى الآن.

فقال له العبَّاسُ: ويحك يا أبا سفيان، أسلمْ قبل أنْ تُضرَبَ عنُقكَ.

فأسلمَ أبو سفيان وشهد شهادةَ الحقّ وقال: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله؛ وأشهدُ أنَّ محمّداً رسولُ الله.

فقال العبَّاسُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعلْ له شيئاً.

قال ﷺ: «نَعَمْ، مَنْ دخلَ دار أبي سفيان فهو آمنٌ، ومَنْ أغلقَ عليه بابه فهو آمن، ومن دخَلَ المسجدَ الحرام فهو آمن».

ولمَّا توجّهوا ذاهبين قال العبّاس: يا رسولَ الله إنّي لا آمن أبا سفيان أنْ يرجعَ عن إسلامه، فاردده حتّى يفْقُه ويردّ جنود الله معك.

فقال رسولُ الله ﷺ للعبّاس: «احبسْهُ بمضيق الوادي عند خَطْمِ الجبل حتى تمرَّ به جنودُ اللهِ فيراها».

قال العبّاسُ: فخرجتُ حتَّى حبستُه بمضيق الوادي، حيث أمرني رسولُ الله ﷺ أنْ أحبسَه فقال أبو سفيان: أغدراً يا بني هاشم؟

فقلت: إنَّ أهلَ النُّبوّة لا يغدرون، ولكنْ أصبحْ حتّى تنظرَ جنود اللهِ، وإلى ما أعدَّ اللهُ للمشركين.

وأمرَ رسولُ الله ﷺ منادياً ينادي: «لتُصبحْ كلّ قبيلة قد أرحلَتْ، ووقفَتْ مع صاحبِها عند رايته، وتظهِرْ ما معَها من الأداةِ والعدّة».

فأصبحَ النَّاسُ على ظَهْرٍ، وقدَّم بين يديه الكتائب، ومرَّت القبائلُ على قادتها، والكتائبُ على راياتها، كلّما مرَّتْ قبيلة قال: يا عبّاس، مَنْ هذه؟

فأقول: سُلَيم.

فيقول: مالي ولسُليم.

ثم تمرُّ القبيلةُ به فيقول: يا عبّاس، مَنْ هؤلاء؟

فأقول: مُزَينة.

فيقول: مالي ولمزينة.

حتى نَفَدَتِ القبائل، ما تمرُّ قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال: مالي ولبني فلان وفلان.

ثمَّ قال أبو سفيان: أَبَعْدُ ما مضىٰ محمّد؟

قلتُ: لا، لم يمضِ بعد، لو أتت الكتيبةُ التي فيها محمّدٌ رأيتَ فيها الحديد والخيل والرجال، وما ليس لأحدٍ به طاقةٌ ولا قِبَلٌ.

قال أبو سفيان: ومَنْ له بهؤلاءِ طاقة يا أبا الفضْل؟!

وجعلَ النَّاسُ يمرّون كلّ ذلك يقول أبو سفيان: ما مرَّ محمد؟ فأقول له: لا، يا أبا سفيان؛ حتّى طلعت كتيبةُ رسولِ الله ﷺ الخضراء التي فيها المهاجرون والأنصار، وفيها الرّاياتُ والألويةُ، مع كلّ بطنٍ من بطونِ الأنصار لواءٌ ورايةٌ، وهم في الحديد لا يُرىٰ منهم إلا الحَدَق.

فقال أبو سفيان: سبحان اللهِ يا عبَّاس، مَنْ هؤلاء؟

قلت: هذا رسولُ اللهِ ﷺ في المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأَحَدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقةٌ، واللهِ يا أبا الفضل، لقد أصبحَ مُلْك ابنِ أخيك اليومَ عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنّها النُّبوَّة.

قال: فنَعَمْ إذاً.

قلتُ: النَّجاءَ إلى قومك؛ انْجُ ويحكَ، فأدركهم قبل أنْ يدخلَ عليهم رسولُ الله ﷺ.

ومضى أبو سفيان حتّى إذا جاء قريشاً، صرخَ بأعلى صوته: يا معشرَ

قريش، هذا محمّدٌ قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، أسلِموا تَسْلَموا، مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمِنٌ.

قالوا: قاتلك الله! وما تغني دارك؟

قال: ومَنْ أغلق بابَه فهو آمنٌ، ومَنْ دخلَ المسجد فهو آمن.

فقامتْ إليه هندُ بنتُ عتبة زوجته، فأخذت بشاربِه، وقالت: اقتلُوا الحَميتَ الدّسم الأحمس، قُبِّحَ من طليعةِ قوم.

فقال أبو سفيان: ويلكم! لا تغرّنكم هذه منْ أنفسكم، فإنَّه قد جاءكم مالا قِبَل لكم به.

فتفرَّقَ النَّاسُ إلى دورهم وإلى المسجد»[1].

* وهكذا رأينا دورَ العبَّاس في هذه القصّة، وعلمنا كيف دعا أبا سفيان إلى الإسلام، وكيف كانت سياستُه الحكيمةُ لإنقاذ رأس أبي سفيان، فالعبّاسُ

---

(١) انظر: سُبل الهدى والرّشاد (٥/ ٣٢٦ ـ ٣٣٨)، وزاد المعاد (٣/ ٤٠١ ـ ٤٠٤)، والسّيرة النّبويّة (٤/ ٦٢ ـ ٦٧) مع الجمع بينها والتّصرّف. وانظر أيضاً: صحيح البخاريّ حديث رقم (٤٢٨٠)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٣٤ ـ ١٣٧)، ودلائل النّبوّة للبيهقيّ (٥/ ٣٢ ـ ٣٥)، ومجمع الزّوائد (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧)، وصحيح السّيرة النّبويّة (ص ٥١٨ ـ ٥٢٠)، وحياة الصّحابة (١/ ١٦٤ ـ ١٦٦)، وشفاء الغرام (٢/ ١٨١ ـ ١٨٣)، والتّفسير الكبير للرّازيّ (١٥/ ١٨٨) وغيرها كثير ممّا لا يُحصى.

ومعنى «واصباحَ قريش»: منادى مُستغاث، يُقال عند استنفار مَنْ كان غافلاً عن عدوه. و«الشّهباء»: البيضاء، و«عنوة»: أخذ الشّيء قهراً. و«حَمَشَتها الحرب»: أحرقتها ومَنْ قال حمسَتها بالسّين: فمعناه اشتدَّت عليها وهو مأخوذٌ من الحماسةِ وهي الشّدّة والشّجاعة. و«يشتدّ»: يعدو. و«اقتحمت»: رميتُ بنفسي من غير روية. و«أجرته»: أمَّنْتُه. و«لا يناجيه»: لا يُسارّه. و«مهلاً»: يقال للمفرد والمثنى والجمع يعني أمهل. و«ألم يأن»: ألم يحنْ ويقترب. و«يحبُّ الفخر»: يحبُّ الشّهرة والسّماع. و«خطم الجبل»: أنف الجبل، وهو موضع ضيق تتزاحم فيه الخيل حتّى يحطم بعضها بعضاً، و«النّجاء»: السّرعة. و«الحميت» زق السَّمن. و«الأحمس»: شديد اللحم.

رضي الله عنه أعرفُ النَّاسِ بقريش ومَنْ بقي فيها من ذوي الزَّعامات، وكان يخشى على أبي سفيان أنْ يرتدَّ عن الإسلام، فقال للنَّبيّ ﷺ: «يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعلْ له»؟ قال ﷺ: «نعم».

* ورأينا أيضاً كتيبةَ المهاجرين والأنصار الخضراء التي أرعبتْ أبا سفيان، وكتمتْ أنفاسه، فجعَلتْهُ يرتمي في أحضانِ العبَّاس مستغيثاً كأنَّه يقول له: «يا عبَّاس، هذا يومُكَ الذي يلزمُك فيه حِفْظي وحمَايتي، وحفظ قومكَ وبيضتِكَ لمكانتكَ من رسولِ الله ﷺ، ومنزلتك عنده، ومحبّته لك، وإقباله عليك، وقبول مشورتك من أنْ ينالني وأنا معك مكرْوهٌ، أو ينال قومك تسلُّط الغزاة عليهم، ليستبيحوا حرماتهم، ويستأصلوا شأفتهم»[١].

* وفي هذه القصَّةِ المباركةِ التي سمعناها من سيّدنا العبَّاس استحباب إظهار القوَّة، لما لها من أثرٍ كبير في إرهابِ العدوّ وقبوله الإسلام.

* قال ابنُ قيّم الجوزيّة مستنبطاً ذلك من القصَّة: «وفيها: جوازُ؛ بل استحبابُ كثرةِ المسلمين وقوّتهم وشوكتهم وهيئتهم لرسلِ العدوّ إذا جاؤوا إلى الإمام كما يفعلُ ملوك الإسلام، كما أمرَ النَّبيّ ﷺ بإيقاد النّيران ليلةَ الدُّخول إلى مكَّةَ، وأمر العبّاس أنْ يحبسَ أبا سفيان عند خَطْم الجبل، وهو ما تضايق منه حتى عُرِضتْ عليه عساكرُ الإسلام، وعصابةُ التَّوحيد وجندُ الله، وعرضتْ عليه خاصِكيَّةُ رسولِ الله ﷺ، وهم في السِّلاح، لا يظهرُ منهم إلا الحدق، ثم أرسله فأخبرَ قريشاً بما رأى»[٢].

* لقد عامل النَّبيُّ ﷺ أبا سفيان وغيره معاملةَ لبِقةً أدخلتِ الاطمئنانَ إلى نفوسِهم، فتسرَّبَ الإسلامُ إلى دخائلهم، وداعبَ أوتار قلوبهم وحناياها، فأسلموا ونعموا بظلالِ الإيمان.

* فعندما غدا أبو سفيان أسيراً بيد العبَّاس بنِ عبد المطَّلب ورهيناً عنده،

---

(١) محمَّد رسول الله لمحمَّد عرجون (٤/ ٣٢٥).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٢٨) و«الخاصكية»: هم الجند الخاص بحراسة الأمير.

همَّ به سيّدنا عمر، فأجَارَهُ العبَّاسُ، ثمَّ أوقفَهُ بين يدي النَّبيّ ﷺ وقفةً لا يُحْسَدُ عليها، وكان أبو سفيان يتوقّع أنْ يناله التَّوبيخ، ولكنَّه سمعَ الدَّعوة إلى النَّجاة من النَّار، فنطق بشهادةِ النَّجاة بعد أنْ سمعَ النَّبيّ ﷺ يقول أمامه: «مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وفي هذا التَّخصيص النَّبويّ للكيان السُّفيانيّ إشباعٌ لرغبةٍ جامحةٍ تتوضَّع في نفسيّة أبي سفيان التي تحبُّ الفخر، وفي هذا أيضاً تثبيتٌ لأبي سفيان على الإسلام وتقويةٌ لإيمانِهِ وامتصاصٌ لآثار الحِقْدِ من أعماقِهِ وقلبِهِ.

* وعندما قال العبَّاسُ لأبي سفيان: «إنَّها النُّبوّة» استطاع العبّاسُ بحصافتِهِ وتدبيره وعمق إيمانه أنْ يُعْلِمَ أبا سفيان ويعلِّمه بأنَّ النُّبوَّة من اللهِ عزَّ وجلَّ يصطفي بها مَنْ يشاء مِنْ عباده، وليس الملك أو القوّة، وهذا كلُّه من الحكمة التي حَبَا الله بها العبَّاس رضي الله عنه.

* ولا بأس في أنْ نُحلّي جِيدَ هذه الفقرة بهذه التَّغريدة التي تصوّر العبّاسَ وأبا سفيان وهما في مدخل مكّة يوم الفتح:

هـذا أبـو سفيـانَ والعبّـاسُ كـالمُستطلعيـن
وقَفَـا علـى أبـواب مكَّـةَ كـي يـروا للـدَّاخليـن
جيـشٌ عظيـمٌ كـان عشْـراً مـن ألـوفٍ كـامليـن
رايـاتُهـم مـرفـوعـةٌ نحـو السَّمـاء مُكبّـريـن
مـرّوا علـى الشَّيخَيْـن فـي شكـلٍ يُهيـبُ النَّـاظـريـن
كـان ابـنُ حـربٍ يسـألُ العبَّـاسَ سُـؤْلَ المستبيـن
عـن كـلِّ مَـنْ مـرّوا عليـه كتـائبـاً ومُنظّميـن
ويجيبـهُ العبَّـاسُ عـن كـلِّ المسـائِـلِ فـي يقيـن
هتـفَ ابـنُ حـربٍ قـال للعبّـاسِ قـولَ المُعجبيـن
هـذا مُحمّـدُ صـار ذا مُلْـكٍ مـنَ المتمكّنيـن
فـأجـابَـهُ العبَّـاسُ كـلا ليـس مُلْـك المـالكيـن
بـل إنّهـا هـذي النُّبـوّةُ إنَّـهُ فـي المُـرسليـن

هـــذا أبـــو سفيـــانَ نـــادى فـــي قـــريـــشٍ أجمعيـــن
الأمـــنُ فـــي صـــورٍ ثـــلاثٍ فلتكـــونُـــوا سَـــامعيـــن
إنْ تـــدخُلـــوا بيتـــي غَـــدوتُـــم دون شـــكٍّ آمنيـــن
أو فـــاغلقُـــوا أبـــوابكـــم لا تخـــرجُـــوا مُتَطـــاوليـــن
أو تـــدخلـــوا البيـــتَ الحـــرامَ فـــذاكـــم الأمـــنُ الأميـــن(١)

شجَاعَةُ العبَّاس وشدّةُ بأسِهِ:

* تأكَّد لدينا أنَّ فتح مكَّة المكرمة أعظمُ خَيْرٍ حصَل عليه المسلمون في مسيرة جهادهم، كما أنَّ هذا الفتح المبارك قد أثَّر تأثيراً واضحاً في مجرىٰ التَّاريخ والأحداث آنذاك، فقد خضعت قريش ومَنْ حولها من القبائل خضوعاً كاملاً للصَّادق المصدوق ﷺ بعد عنادٍ دامَ زمناً طويلاً، وهذا الأمرُ جعلَ القلق يتسرّبُ إلى قبيلتَي هوازن وثقيف.

* كانت هوازنُ ترقُب عن بعدٍ القتالَ بين المسلمين وقريش، وتتابعُ الأحداث منذ بدر إلى غزوة الفتح، وما أنْ تلاشى سُلطان قريش، ووهَنَ عزمُهم، وركنوا إلى الاستسلام والسّلام، حتّى قامت هوازن لحملِ راية الشِّركِ والوثنيَّة، وتحرَّكت لمواجهةِ الموقفِ الذي كسبَهُ رسولُ الله ﷺ، وفكَّرت في الهجوم قبل أنْ يهاجمها المسلمون، ويدوسوا ديارها.

* يزوّدنا ابن قيّم الجوزيّة من «الزّاد» بمعلومات قيّمة فيقول: «كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد وَعَدَ رسوله، وهو صادقُ الوعد، أنَّه إذا فتح مكة، دخل النَّاس في دينه أفواجاً، ودانت له العربُ بأسرها، فلمَّا تمَّ له الفتحُ المبينُ، اقتضت حكمتُه تعالى أنْ أمسكَ قلوبَ هوازن ومَنْ تبعها عن الإسلام، وأن يجمعُوا ويتألّبوا لحربِ رسولِ الله ﷺ والمسلمين، ليظهرَ أمرُ اللهِ، وتمامُ إعزازه لرسوله، ونصرهِ لدينهِ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح، وليُظهِرَ الله سبحانه رسوله

---

(١) تغريدة السّيرة النّبويّة (٤/٢٨) وعنى «يروا للدّاخلين»: هم جيش المسلمين. «الشّيخين»: العبّاس وأبو سفيان. «صور ثلاث». كما أخبر النَّبيّ ﷺ.

وعباده، وقهرَه لهذه الشّوكة العظيمة التي لم يلْقَ المسلمون مثلها، فلا يقاومهم بعد أحدٌ من العربِ، ولغير ذلك من الحِكَمِ الباهرة التي تلوحُ للمتأمّلين، وتبدو للمتوسّمين»[١].

* وخرجت قبيلةُ هوازن عن بكرة أبيها، وأخذت معها الذّراري والأنعام، واجتمعت في حُنَينٍ[٢]، ونُمي خبرها إلى رسول الله ﷺ، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «تلك غنيمةُ المسلمين غداً إنْ شاء الله».

* كان قائد جيش هوازن مالك بن عوف النَّصْريّ الذي عبّأ جيشَه، وتخيَّرَ المواقعِ للرُّماة في ثنايا وادي حُنين ومنعطفاتِهِ، وأصدرَ مالكُ بنُ عوف أوامرَهُ الحربيةَ لرماته بأنْ يرشُقوا المسلمين بالسِّهام أوّل ما ينحدروا، ومن ثمّ يحملُوا عليهم حملةَ رجلٍ واحدٍ، فيباغتوهم بسرعة الانقضاض والتَّطويق، وقال مالك لجنوده: «إذا رأيتموهم فاكسروا جفونَ سيوفكم، ثمّ شدّوا شدَّة رجُلٍ واحد»[٣].

* قال سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريّ رضي الله عنهما: «لمّا استقبلنا وادي حُنين، انحدرنا في وادٍ من أودية تِهامة... وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابِهِ وأحنائِهِ ومضايقِهِ، وقد أجمعُوا وتهيئوا وأعدّوا»[٤].

* وأمّا الحبيبُ المُصطفى ﷺ فقد عبّأ جيشه عند السَّحر، وعقدَ الألوية والرّايات، ووزّع المهمّات على قادته وفرسانه ثمّ بدأت ساعة الصّفر، وكادت جيوشُ المسلمين تحصدُ جموع هوازن، لكنّهم فُوجئوا بسيلٍ من السّهام ينهال

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٧٧).

(٢) «حنين»: وادٍ بين مكة والطَّائف وراء عرفات، بينه وبين مكّة بضعة عَشَر ميلاً، وهو مصروفٌ كما جاء في القرآن الكريم.

(٣) السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (٤/ ١١٦).

(٤) السّيرة النّبويّة (٤/ ١٢١) بتصرّف يسير.

عليهم من جنبات الوادي ومخابئه، فانكشفوا واشتدَّ الفرارُ في صفوفِ المسلمين، فقد هربَ الأعرابُ والطُّلقاء، ثمّ تبعهم بقيّةُ الجيش وعمَّتِ الفوضى، وكادت الأحوالَ تختلطُ، والأمورُ تضطرب.

* بيد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد ثبتَ، وظهرت شجاعتُهُ المتميّزةُ في هذه المعركةِ الضَّخْمة، حتّى إنَّ فرسانَ الصَّحابة وشجعانَهم جعلُوا يلوذون إليهِ ويحتمون به حين احمَّر البأْس وحميَ الوطيس، واشتجرتِ الرّماح، واشتبكت السُّيوف.

* وثبتَ معه ﷺ يومها من أهل البيتِ: عمُّه العبّاس، وابنهُ الفضل، وعليُّ بنُ أبي طالب، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعةُ بن الحارث، كما ثبتَ معه أبو بكر، وعمرُ، وأيمنُ بنُ عبيد ـ ابنُ أمِّ أيمن ـ وأسامةُ بنُ زيد، وجعفرُ بن أبي سفيان بن الحارث، وهؤلاء عشرةَ رجال، ولهذا قال سيّدنا العبّاس رضي الله عنه قصيدةً عينيةً منها:

نصَرْنا رسولَ اللهِ في الحربِ تسعةً ... وقد فَرَّ مَنْ قَدْ فَرَّ عنه واقْشَعُوا
وعاشِرُنا لاقىٰ الحمامَ بنفسِهِ ... بما مسَّهُ في اللهِ لا يتوجَّعُ

* وفي هذه اللحظاتِ الحرجة، جاءتِ الأوامرُ النَّبويَّةُ تأمر العبّاس، بأنْ ينادي المسلمين بالرُّجوع ـ وكان العبَّاس جهوري الصَّوت ـ وأمره أنْ يخصَّ بالنّداء الأنصارَ وأصحابَ البيعةِ تحت الشَّجرة، ثمَّ خصَّ الخزرج منهم، فرجعُوا مسرعين يقولون: لبيكَ لبيكَ، حتّى إنّ مَنْ عجز منهم أنْ يعطفَ بعيره من شدّة الضَّغط، ومن الازدحام أخذَ سيفَه وقوسَه، ودرعَه وأَمَّ الصَّوت.

* وسنستمعُ من سيّدنا العبّاس رضوان الله عليه وهو يقصُّ علينا نبأ هذا المشهدِ المثيرِ من معركةِ حنين، وعن ثباته يوم ذاك، وعن شجاعةِ سيّدنا ومولانا رسولِ الله ﷺ.

* فقد أخرج مسلم في صحيحهِ بسندهِ عن كَثير بنِ عبَّاس بن عبد المطَّلب قال: قال عبّاسُ: «شهدتُ مع رسولِ الله ﷺ يوم حُنين، فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب رسولَ اللهِ ﷺ فلم نفارقْهُ،

ورسولُ الله ﷺ على بغلةٍ له بيضاء، أهداها له فَروةُ بن نفاثةَ الجُذاميّ، فلمّا التقى المسلمون والكفَّار، ولَّىٰ المسلمون مدبرين؛ فطفقَ رسولُ الله ﷺ يَركُضُ بغلته قِبلَ الكفّار، قال عبّاس: وأنا آخذٌ بلجام بغلةِ رسول الله ﷺ أكفُّها إرادة أن لا تُسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسولِ الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أَيْ عبّاس، نادِ أصحاب السَّمُرة».

فقال عبَّاس ـ وكان رجلاً صيّتاً ـ: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟

قال: فوالله، لكأنَّ عطفتهم حين سمعُوا صوتي، عطفةَ البقر على أولادها.

فقالوا: يا لَبَّيك، يا لبيك.

قال: فاقتتلوا والكفَّار، والدَّعوة في الأنصار يقولون: يا معشرَ الأنصار، يا معشرَ الأنصار؛ ثمّ قُصرت الدَّعوةُ على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج. فنظرَ رسولُ الله ﷺ وهو على بغلتِهِ، كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا حين حميَ الوطيس».

ثمَّ أخذَ رسولُ الله ﷺ حَصَيَاتٍ فرمىٰ بِهنَّ وجوهَ الكفّار؛ ثمَّ قال: «انهزموا، وربِّ محمَّد».

قال: فذهبتُ انظرُ فإذا القتالُ على هيئتِهِ فيما أرى، فوالله ماهو إلّا أنْ رماهم بِحصَيَاتِهِ، فما زلتُ أرى حدَّهم كليلاً، وأمرهم مدبراً»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسِّير برقم (١٧٧٥). وانظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧١). ومعنى قوله: «ورسول الله ﷺ على بغلةٍ بيضاء»: قال العُلماء: «ركوبُهُ ﷺ البغلةَ في موطنِ الحرب، وعند اشتداد البأس، هو النّهايةُ في الشّجاعةِ والثّباتِ، ولأنه أيضاً يكون معتمداً يرجع المسلمون إليه. وتطمئنُّ قلوبَهم به وبمكانه، وإنّما فعلَ هذا عمداً، وإلّا فقد كانت له ﷺ أفراسٌ معروفةٌ». وممّا ذكره العبّاسُ في هذا الحديث من شجاعتهِ ﷺ تقدمه يركضُ بغلته إلى جميعِ =

* ولسيّدنا العبّاس رضي الله عنه مواقفُ تشهدُ له بالشَّجاعةِ والجرأةِ والإقدام وشدّة البأس، فبالإضافة إلى قوّةِ صوته[1] كان قوي الجسم شديداً، إذا

= المشركين، وقد فَرَّ النَّاسُ عنه، مبالغة في الثَّبات والشّجاعة والصّبر. وقد أخبرتِ الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم بشجاعتِه ﷺ في جميع المواطن، وكان الشُّجاع منهم هو الذي يحاذي به، ويتقي به. ومعنى «السّمُرة»: هي الشُّجرة التي بايعوا تحتها بيعةَ الرّضوان، ومعناه: نادِ أهل بيعة الرّضوان يوم الحديبية. و«صيتاً»: قوي الصَّوت. و«يا لبيك يا لبيك»: قال العلماء: «في هذا الحديث دليل على أنَّ فرارهم لم يكنْ بعيداً، وأنَّه لم يحصل الفرارُ من جميعهم، وإنَّما فتحَهُ عليهم مَنْ في قلبه مرضٌ منْ مسلمةِ أهل مكّة المؤلّفة قلوبهم، ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنّما كانت هزيمتهم فجأةً لانصبابِهم عليهم دفعةً واحدةً، ورشقهم بالسّهام، ولاختلاط أهل مِكّة معهم ممّن لم يستقرّ الإيمانُ في قلبه، وممّن يتربّص بالمسلمين الدّوائر، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة، فتقدّم أخفّاؤهم. فلمّا رشقوهم بالنّبل ولّوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم، إلى أنْ أنزلَ الله تعالى سكينته على المؤمنين، كما ذكر اللهُ تعالى ذلك بالقرآن».

(١) كان سيّدنا العبّاس رضي الله عنه جهير الصَّوت، معروفاً بين الصَّحابة الكرام بهذه الميزة، وكان يستخدمُ ذلك في إرهابِ العدو، أو لجمع المسلمين في المعركة، أو ما شابه ذلك، وكلّ هذا كان بحضرة النَّبيّ ﷺ وليس الغرضُ برفع الصَّوت ولا الجهر ما يقصدُ به الاستخفاف والاستهانة، لأنَّ ذلك كُفْرٌ، والمخاطبُ بعدم رفع الصَّوت مؤمنون. ولم يتناول النَّهي أيضاً رفْعَ الصَّوت الذي يتأذّى به رسولُ الله ﷺ، وهو ما كان منهم في حربٍ أو مجادلة معاندٍ أو إرهاب عدو، أو ما أشبه ذلك.

وقد مرَّ معنا أنَّ النَّبيّ ﷺ قال لعمّه العبَّاس يوم حنين: «اصرخْ بالنّاس» وكان العبَّاس أجهرَ النَّاس صوتاً، فنادى أصحاب بيعة الرّضوان فاقبلوا نحو صوته والتفّوا حولَ النَّبيّ ﷺ وكان النّصر لهم يوم حنين. ويروى أنَّ غارة أتتهم يوماً فصاح العبّاس: يا صباحاه! فأسقطت الحواملُ لشّدة صوته، وفيه يقول نابغة بني جعدة:

زَجْـــر أبـــي عُـــروةَ السِّبـــاع إذا أشفـــقَ أنْ يختلطْـــنَ بـــالغَنَـــم

وأبو عُروة: كنية العبّاس. وزعمت الرّواة أنّه كان يزجرُ السِّباع عن الغنم فيفتق مرارة السّبع في جوفه، وهذا الخبر الغريب ذكره بعض من ترجم للعبَّاس.

بينما أوردَ ابنُ قتيبة الخبر غير ذلك فقال: «حدَّثني أبو حاتم عن الأصمعيّ عَنْ خَلَفِ الأحمر قال: «وكان أبو عُروةَ السّباعِ يصيحُ بالسَّبُعِ وقد احتملَ الشَّاةَ فيسقطُ فيموت، فَيُشَقُّ بطنُه فيوجد=

أمسك الشَّيء لا يفلتُ منه مطلقاً، فعن ابن عبّاس قال: «لمّا حاصرَ النَّبيُّ ﷺ الطَّائف، خرجَ رجلٌ من الحِصْنِ، فاحتمل رجلاً من أصحاب النَّبيّ ﷺ ليدخله الحصْنِ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ يستنقذهُ فَلَه الجنّة»، فقام العبّاسُ فمضى، فقال النَّبيُّ ﷺ: «امضِ ومعك جبريلُ وميكائيلُ، فمضى فاحتملهما جميعاً، ووضعهما بين يدي رسول الله ﷺ»[1].

* وفي قصّةٍ أخرى عن شجاعة العبَّاس رضي الله عنه يقول سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريّ[2] رضي الله عنه: «بعثَ رسولُ الله ﷺ يوم الطَّائف حنظلةَ بنَ الرَّبيع إلى أهل الطائف يكلّمهم، فاحتملوهُ ليدخلوهُ حصنَهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لهؤلاءِ ولهُ مثلُ أجْرِ غزاتنا هذه». فلم يقمْ إلا العبّاسُ بنُ عبد المطّلب حتّى أدركَه في أيديهم قد كادوا أنْ يُدخلوه الحصن، فاحتضنه العبّاسُ، وكان رجُلاً شديداً، فاختطفه من أيديهم، وأمطروا على العبَّاس الحجارةَ من الحصن، فجعل النَّبيُّ ﷺ يدعو له حتّى انتهى به إلى النَّبيّ ﷺ»[3].

* إنَّ الحديثَ عن سيِّدنا العبّاس وشجاعته حديثٌ ممتعٌ آسر، يهذّبُ النُّفوسَ ويصقُلها، ويجعلُ القلوبَ تهفو دائماً لهؤلاء الأكابر من رجالِ أهلِ البيتِ الأخيار الأطهار.

مكَانتُـــهُ عنـدَ النَّبــيِّ ﷺ:

* أهلُ البيت هم صفوةُ الصَّحابة، والصَّحابةُ خيرُ النَّاس، قال ربّنا

= فؤاده قد انخلعَ، وهو مثل في شدّة الصوت قال الشاعر النَّابغةُ الجعديّ في ذلك:

زَجْــرَ أبــي عــروةَ السِّبــاع إذا أشْفــقَ أن يلتبسْــنَ بــالغنــم

(عيون الأخبار ١/ ١٨٥ و ١٨٦).

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤١).

(٢) اقرأ سيرة الصّحابي الجليل سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاريّ في موسوعتنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص ٤٤١ ـ ٥٠٠) فسيرته إمتاع للأسماع وسلوى للأحباب.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤١).

عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]. قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه: «لو شاء اللهُ لقال: «أنتم» فكُنّا كلّنا، ولكنْ قال: ﴿كُنتُمْ﴾ خاصّة في أصحاب محمّدٍ ﷺ، ومَنْ صنَعَ مثلَ صنيعهم، كانوا خير أمةٍ أخرجت للنّاس»[١].

* وعن قَتَادةَ قال: «ذُكِرَ لنا أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم قال: «يا أيّها النّاس! مَنْ سَرَّه أن يكون من تلكم الأمّة، فليؤدِّ شرطَ اللهِ منها»[٢].

* وسيّدنا العبّاسُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه واحدٌ من أفذاذِ أهلِ البيتِ ورجاله الأخيار، زكَا أصلاً ومحتداً، فكان نبراساً وسيّداً، وصَفَه ابنهُ الحبْرُ البحرُ عبدُ الله فقال: «رَحِمَ اللهُ أبا الفَضْل، كان واللهِ صنوَ أبي رسولِ الله ﷺ، وقرّة عين صفيِّ الله، كهفَ الأقوام، وسيّد الأعمام، قد علا بَصَراً بالأمور ونظراً بالعَواقب. قد زَانَهُ عِلْمٌ، قد تلاشتِ الأحسابُ عند ذكْرِ فضيلته، وتباعدتِ الأنسابُ عند فَخْر عشيرته، ولِمَ لا يكون كذلك! وقد سَاسَه أكرمُ مَنْ دبَّ وهَبَّ عبد المطَّلب أفخرُ مَنْ مشَىٰ من قريش وركب...»[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطَّبريِّ (٦/ ٣٤). وقال الصَّاوي رحمه الله في تفسيرِهِ لهذهِ الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾: «هذا مدحٌ عظيمٌ، وتفضيلٌ منَ اللهِ تعالى لهذهِ الأمَّةِ المحمّديَّةِ، وفيه: إعلامٌ بتثبيتهم على تلك الأوصاف العظيمة. واعلم أنَّ المخاطبَ مشافهة الصَّحابة رضي الله عنهم ـ كما قال سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ـ وثبت لهم هذه الصّفات المرضية، فمدحهم اللهُ تعالى على ذلك، ومن تمسَّك بأوصافهم وأخلاقهم كان ممدوحاً مثلهم، وهذا المدحُ يدلُّ على أنَّ أوصافهم مرضية لله تعالى، فشرَّفهم الله تعالى بشرفِ نبيّهم، ومدحهم اللهُ تعالى سابقاً بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. وبالجملة فهو ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق»، وأمته أفضل الأمم على الإطلاق، وكان: فعل ناقص يفيد الاتّصاف في الماضي، لكن المراد هنا الدّوام على حدّ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. (الصّاوي على الجلالين ١/ ١٥٣).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ٤٣).

(٣) مجمع الزّوائد (٩/ ١٥٩)، وقال الهيثميّ: «رواه الطّبرانيّ، وفيه مَنْ لم أعرفهم» (مجمع الزوائد ٩/ ١٦٠). ومعنى «صنو»: المِثْلُ. وأصلُه أن تطلع نخلتان من عِرْقٍ واحدٍ، يريدُ أنَّ=

* كما أنَّ العبَّاسَ مهاجرٌ جليلُ القَدْرِ، وليس هو في عداد الطُّلقاءِ، فإنَّه كان قد قدم إلى النَّبيِّ ﷺ قبل الفتح؛ ألا تراه أجارَ أبا سُفيان بنَ حرب، وكان رفيعَ الشَّأن عند ابن أخيه سيِّدنا وحبيبنا الصَّادق المصدوق ﷺ.

* فقد ثبت أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يكرم عمَّه العبَّاس ويعطيه، ويجودُ عليه بما يأتيه من مالٍ، فقد ذكروا أنَّ العلاءَ بنَ الحضْرميِّ رضي الله عنه بعثَ إلى رسولِ الله ﷺ مِنَ البحرين بثمانين ألفاً، فما أتى رسولَ الله ﷺ مالٌ أكثر منه لا قبلها ولا بعدها فأمرَ بها ونُثرتْ على حصير، ونُودي بالصَّلاة فجاء رسولُ الله ﷺ يميلُ على المالِ قائماً فجاء النَّاسُ وجعل يعطيهم، وما كان يومئذٍ عَدَدٌ ولا وزْنٌ، وما كان إلا قبضاً، فجاء العبَّاسُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إنِّي أعطيتُ فدائي وفداءَ عقيلٍ يومَ بدرٍ، ولم يكنْ لعقيل مالٌ، أعطني من هذا المال.

فقال رسولُ الله ﷺ: «خُذْ».

فَحثَىٰ في خميصةٍ كانت عليه، ثمَّ ذهبَ ينصرفُ فلم يستطعْ، فرفعَ رأسَه إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ارفَعْ عَلَيَّ؛ فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ حتّى خرجَ ضاحكهُ أو نَابهُ، قال: «ولكنْ أَعِدْ في المال طائفة وقُمْ بما تطيق».

ففعَلَ فانطلقَ بذلك المال، وهو يقول: أمَّا أحدُ ما وَعدَ الله فقد أنجزَ لي ولا أدري الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنفال: ٧٠]، فهذا خيرٌ مما أُخِذَ منّي ولا أدري ما يُصْنَعُ في المغْفِرة»(١).

= أصل العبّاس وأصل أبيه واحد. و«كهف الأقوام»: مأواهم وملجأهم. و«زانه»: جمّله وحسّنه. و«تلاشت»: فَنيتْ. و«ساسه»: ربّاه وتعهده. و«أكرم مَنْ دبَّ وهبّ»: أي في زمنه فقط.

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٤/ ١٥ و ١٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢٩) مع الجمع بينهما. وقال الحاكم: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرطِ مسلم ولم يخرّجاه». وقال الذّهبي: «على شرط مسلم». ومعنى «قبضاً»: أخذاً بقبضةِ اليد. و«فدائي»: الفداء: فكاك الأسير، و«خميصة»: =

* وكان النَّبيُّ ﷺ يكرمُ أهلَ بيته، ويأمرُ بإكرامهم، ويحضُّ على البرِّ بهم، وكان هو ﷺ يكرمُ عمَّه العبَّاسَ ويحترمُهُ، وكان كبراءَ الصَّحابةِ الكرام يجلّون العبّاسَ ويوقّرونه ويعرفون فضْلَه.

* قالت أمُّنا عائشة رضي الله عنها عن إكرامِهِ ﷺ عمّه العبّاس رضي الله عنه: «كان النَّبيُّ ﷺ جالساً مع أصحابِهِ، وبجنْبِهِ أبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما، فأقبلَ العبَّاسُ رضي الله عنه فأوسعَ له أبو بكر فجلسَ بين النَّبيّ ﷺ وبين أبي بكر، فقال النَّبيُّ ﷺ لأبي بكر: «إنّما يعرفُ الفَضْل لأهلِ الفَضْل ذوو الفَضْل». ثمّ أقبلَ العبّاسُ على النَّبيِّ ﷺ يحدّثه، فَخَفَضَ النَّبيّ ﷺ صوته شديداً، فقال أبو بكر لعمرَ: قد حَدَثَ برسولِ اللهِ ﷺ عِلَّةٌ قد شغَلَتْ قلبي. فما زالَ العبّاسُ عند النَّبيِّ ﷺ حتّى فرغَ من حاجتِهِ وانصرفَ، فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، حدثَتْ بك علّة السَّاعة؟!

قال: «لا».

قال: فإنّي قد رأيتُكَ قد خفضتَ صوتَكَ شديداً.

قال: «إنَّ جبريلَ أمرني إذا حضرَ العبَّاسُ أنْ أخفِضَ صوتي، كما أُمِرتُمْ أنْ تخفضوا أصواتكم عندي»[1]!!!.

= هي ثوب خزّ أو صوف معلم، وقيل: لا تسمّي خميصة إلا أنْ تكون سوداء معلمة، وكانت من لباس النّاس قديماً. و«ضاحكه»: الضّاحك والضاحكة: السّنّ التي تلي النّاب. والنّاب: السِّنّ بجانب الرباعية، وللإنسان نابان.

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٣٩ و ٣٤٠). وقال أبو رِشْدِيْن كريب مولى ابن عبّاس المتوفى بالمدينة سنة (٩٨ هـ): «إنْ كان رسولَ الله ﷺ ليجلّ العبّاس إجلالَ الولدِ والده، خاصّة خصّ اللهُ عزَّ وجلَّ العبّاس من بين الناس، وما ينبغي للنّبيّ ﷺ أنْ يجلّ أحداً إلا والداً أو عماً».

وعن محمّد بن عليّ قال: قال رسولُ الله ﷺ يوماً وهو في مجلس بالمدينة وهو يذكر ليلةَ العقبة فقال: «أُيّدتُ تلك الليلة بعمّي العبّاس، وكان يأخذُ على القوم ويعطيهم». وعن عروةَ قال: «أخذَ العبَّاسُ بن عُبد المطّلب بيد رسولِ الله ﷺ في العقبة حين وافاه السّبعون من الأنصار، =

* وعن جعفر بنِ محمّد عن أبيه عن جدّه قال: «كان النَّبيُّ ﷺ إذا جَلسَ جَلَسَ أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يَسارِه، وعثمانُ بين يديه، وكان كاتبَ سرّ رسولِ الله ﷺ، فإذا جاء العبَّاسُ بنُ عبد المطلب تنحّى أبو بكر، وجلسَ العبّاسُ مكانَهَ»[1].

* إنَّ مآثر سيّدنا العبّاس ومناقبَهُ ومكانتَهُ عند النَّبيّ ﷺ أكثر من أنْ تُحصى وتُحصر، ومنها ما رواه عبدُ الله بن كثير قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أوصاني الله بذي القُربىٰ، وأمرني أنْ أبدأَ بالعبّاسِ بنِ عبد المطّلب»[2].

* وأوردَ سيّدنا جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنه هذه المنقبة العبّاسيّة الأنيقة فقال: «جاء العبّاسُ بنُ عبد المطَّلب إلى النَّبيِّ ﷺ وعليه ثيابٌ بيض، فلمّا نظرَ إليه تبسَّمَ، فقال العبَّاسُ: يا رسولَ الله، ما الجَمالُ؟

قال: «صوابُ القول بالحقّ»، وفي روايةٍ: «اللسان».

قال: فما الكمالُ؟

قال: «حسنُ الفعال بالصّدق»[3].

* وأجمع معظمُ أئمةِ أهل التّفسير وأعيانهم بأنَّ سيّدنا العبّاس من رجالِ أهلِ البيتِ الأطهار، وقالوا في تفسيرِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣]: «أهل البيت هم: بنو هاشم، وهذا يدلُّ على أنَّ البيتَ يُرادُ به بيتُ النَّسب، فيكون العبّاس وأعمامُه وبنو أعمامه منهم»[4].

= فأخذ لرسولِ الله ﷺ عليهم، واشترط له، وذلك والله في غرّة الإسلام وأوّله من قبل أن يعبدَ اللهَ أحدٌ علانية». (مختصر تاريخ دمشق ١١/ ٣٤٠).

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤٣).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤٢).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤٣).

(٤) انظر مثلاً: تفسيرة ابن عطية (ص ١٥١٢) وتفسير القرطبيّ (١٤/ ١٨٣) وغيرهما. وفي حثّ=

* وثبتَ في الصَّحيح وغيره أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد دعا للعبّاسِ وأبنائه[1]، وخصَّ من أبنائه الحبْر عبد الله، وقد توسعنا في سيرتِهِ في موسوعتنا «علماء الصَّحابة»، وقد افتتحتُ الموسوعةَ بسيرته تيمناً ببركة رجالِ أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

* وقد بلغَ من محبّةِ النَّبيّ ﷺ لعمّه العبّاس وتقديره له أنْ أعتقَ أبا رافع مولاه لما بشَّره بإسلامهِ، قال أبو رافع: «بشَّرتُ النَّبيّ ﷺ بإسلام العبّاس فأعتقني»[2].

* وهذه توصيةٌ بالعبَّاس يزجيها رسولُ الله ﷺ فيقول: «احفظوني في العبَّاس، فإنّه بقيّةُ آبائي، وإنَّ عمَّ الرَّجُل صنو أبيه»[3].

* ويتحفُنا ابنُ عبّاس بهذه الفريدة فيقول: «جاء النَّبيُّ ﷺ يعودُ العبّاس فأخذ بيده العبّاس حتّى صَعِدَ إليه على السَّرير، فأقعده في مجلسِهِ فقال: «رفعكَ اللهُ يا عمّ»[4].

= النّبيّ ﷺ النّاس على حبّ العبّاس جاء عن المطلبُ بنُ ربيعة قال: «جاء العبّاس رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ وهو مغضبٌ، فقال: «ما شأنُك»؟ فقال: يا رسولَ الله مالنا ولقريش؟ فقال: «مالك ولهم»؟ قال: يلقى بعضهم بعضاً بوجوه مُشرِقةٍ فإذا لَقُونا لَقُونا بغير ذلك».
فغضبَ رسولُ الله ﷺ حتى استدرَّ عرقٌ بين عينيه، فلمَّا أسْفَرَ عنه قال: «والذي نفسُ محمّد بيده، لا يدخلُ قلبَ امرىءِ الإيمانُ حتّى يحبّكم لله ولرسوله». ثم قال: «ما بالُ رجالٍ يؤذونني في العبّاس؟ عمّ الرجل صنْوُ أبيه». (حياة الصحابة ٢/ ٤٤٥) نقلاً عن الحاكم.

(١) انظر مثلاً: حياة الصَّحابة (٣/ ٤٤٣ و ٣٤٤)، وطبقات الشّافعية للسّبكيّ (١/ ١٩٠ ـ ١٩٨) وغيرهما.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٣٢).

(٣) المصدر السابق (١١/ ٣٣٤).

(٤) المصدر السابق (١١/ ٣٣٦). وروى سعد بن أبي وقّاص هذه المنقبة للعبّاس فقال: «خرج رسول الله ﷺ يجهّز بعثاً بسوق الخيل، فطلع العبّاس بن عبد المطّلب على رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «هذا العباس عمّ نبيّكم أجود قريش وأوصلها». (مختصر تاريخ دمشق ١١/ ٣٣٨).

* وتدلي أمّنا عائشةُ دلوهَا فتذكرُ منقبةً للعبّاس فتقولُ: «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يكرمُ أحداً إكرامه العبّاس»[1].

* ونعزّزُ مناقبَ العبّاس بما صرّح بهِ أنسُ بن مالك فيقول: «كان رسول الله ﷺ من أشدّ النّاس لُطْفاً بالعباس»[2].

مكــــرمةٌ نبــــويّةٌ للعبّـــــاس:

* كان رسولُ الله ﷺ يجلُّ العبّاس عمَّه، ويقدّره، ويعلّمُهُ من أمورِ الدِّين ما ينالُ به السَّعادة في الدُّينا والآخرة.

* وقد أتحفتنا سنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، وغيرهما من كتُب الحديث ومصادره، بأنَّ الصَّادق المصدوقَ ﷺ قد أكرمَ سيّدنا العبّاسَ بمكرمةٍ نفيسة، إذ علَّمه صلاة التَّسبيح.

* وهذه الصّلاةُ المباركةُ تخالفُ في بعضِ هيئتها بقيةَ الصَّلوات المعروفة، وهذا الأمرُ ليس بعجيبٍ أو غريبٍ، لأنّها صلاةٌ خاصةٌ شُرِعَتْ لغرضٍ خاص يفيدُ المسلمين، كصلاةِ الكسوف والخسوف، وصلاةِ العيدَيْن، ونحو ذلك.

* وقد وردَ في الآثار أنَّ صلاة التَّسبيح وسيلةٌ مكفّرةٌ للذّنوب، مفرّجةٌ للكروب، ميسّرةٌ للعُسْر، يقضي بها اللهُ عزَّ وجلَّ الحاجاتِ، ويؤمّنُ بها الرّوعات، ويسترُ بها العورات.

* قال التّرمذي: «قد رأى ابنُ المبارك وغيرُهُ من أهل العلم صلاة التّسبيح، وذكروا الفضْلَ فيها»[3].

* وقال البيهقيُّ: «كان عبدُ الله بنُ المبارك يصلّيها؛ وتداولَها الصَّالحون بعضهم عن بعض».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٣٨). وفي رواية: «يجلُّ أحداً ما يجلّ العباس».

(٢) المصدر السابق (١١/ ٣٣٩).

(٣) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤/ ١٧٧) مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ ١٩٨٧ م.

* ونقل الإمامُ النَّوويُّ في «الأذكار» عن الدَّارقطنيّ: «أصحُّ شيءٍ في فضائلِ الصَّلوات: صلاة التَّسابيح»[1].

* وقال أبو عثمان الحيريّ: «ما رأيتُ للشَّدائد مثلَ صلاة التَّسابيح».

* وقال الدّيلميّ في مسند الفردوس: «صلاة التَّسبيح أشهرُ الصَّلوات، وأصحُّها إسناداً»[2].

* أمَّا صفةُ هذه الصَّلاةِ المباركةِ وما جاء فيها، فقد أخرجَ أبو داود وابنُ ماجه كلاهما بسندهما عن الحكم بنِ أَبانٍ، عن عِكْرِمة، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال للعبّاسِ بنِ عبد المطَّلب: «يا عبَّاسُ، يا عمّاهُ، ألا أعطيكَ؟ ألا أمنحكَ؟ ألا أحبوكَ؟ ألا أفعل لك عشْرَ خصال إذا أنت فعلت ذلك غفرَ اللهُ لك ذنبكَ أوّلَه وآخرَهُ، قديمَهُ وحديثَهُ، خطأَه وعمْدَه، صغيرَه وكبيرَه، سِرّهُ وعلانيتَهُ.

عَشْر خصَالٍ: أنْ تصلّيَ أربعَ ركعاتٍ، تقرأُ في كلّ ركعةٍ فاتحةَ الكتاب وسورةً.

فإذا فرغتَ من القراءةِ في أوّلِ ركعةٍ قلتَ وأنت قائم: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلـه إلا الله، واللهُ أكبرُ خمسَ عشرة مرة.

ثمّ تركعُ فتقولُ وأنتَ راكعٌ عشْراً.

ثمّ ترفعُ رأسَكَ من الرّكوع فتقولها عشراً.

ثمّ تهوي ساجِداً فتقولُها وأنتَ ساجدٌ عشراً.

ثمَّ ترفعُ رأسكَ من السُّجود فتقولُها عشراً.

ثمَّ تسجد فتقولُها عشراً.

---

(١) الأذكار (ص ٢٦٩).

(٢) عون المعبود (٤/ ١٧٧).

ثمَّ ترفعُ رأسكَ من السُّجود فتقولُها عشراً.

فذلك خمسٌ وسبعون في كلِّ ركعةٍ، تفعلُ ذلك في أربع ركعات.

إن استطعتَ أنْ تصلّيها في كلِّ يومٍ مرَّةً فافعلْ.

فإنْ لم تستطعْ ففي كلّ جُمُعَةٍ مرَّةً.

فإنْ لم تفعلْ ففي كلِّ شهرٍ مرَّةً.

فإنْ لم تفعلْ ففي كلِّ سنَةٍ مرَّةً.

فإنْ لم تفعلْ ففي عُمُرِك مرَّةً»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود، انظر عون المعبود (٤/ ١٧٦ ـ ١٨٠) حديث رقم (١٢٨٣)، وابن ماجه في إقامة الصَّلاة برقم (١٣٨٧)، وأخرجه أيضاً بلفظ قريب برقم (١٣٨٦)، وابن خزيمة برقم (١٢١٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣١٨). قال السّنديّ عن هذا الحديث: «الصَّحيح أنَّه حديث ثابت ينبغي للنّاس العمل به».

ومعنى قوله «يا عمّاه»: إشارة إلى مزيدِ استحقاق العبّاس ذلك؛ وهو منادى مضاف إلى ياء المتكلّم، فقُلبت ياؤه ألفاً، وأُلحقت بهاء السَّكْت مثل: يا غلاماه و«ألا أمنحك»: أي: ألا أعطيك منحةً. قال في المُغرب: المنحُ: أنْ يعطيَ الرّجلُ الرّجلَ شاةً أو ناقةً ليشربَ لبنَها ثمّ يردّها إذا ذهبَ درّها؛ هذا أصله ثم كثُرَ استعمالهُ حتّى قيل في كلّ عطاء. و«ألا أحبوك»: يُقال: حباه كذا وكذا: إذا أعطاه، والحباءُ: العطيةُ. وقد كرّرَ ﷺ ألفاظاً متقاربةَ المعنى تقريراً للتأكيد. فهو تأكيدٌ بعد تأكيد. و«عشْر خصال»: بالنَّصب على أنّه مفعولٌ للأفعال المتقدّمة على سبيل التّنازع. والخصلةُ: هي الخلّةُ، أي عشرة أنواع ذنوبك، والخصال العشرُ منحصرةٌ في قوله أوّله وآخره، وقد زادها إيضاحاً بقوله: عشْر خصال بعد حَصْرِ هذه الأقسام أي هذه عشْرُ خصال. فالخصالُ العشرُ هي الأقسامُ العشر من الذّنوب.

وقال بعضهم: المرادُ بالعشرِ الخصال: التّسبيحات والتّحميدات والتّهليلات والتّكبيرات فإنّها سوى القيامِ عشْرٌ عشْرٌ. و«أوّلَه وآخرَه»: بالنَّصب، أي مبدأه ومنتهاه، وذلك أنَّ من الذّنب ما لا يواقعه الإنسان دفعةً واحدة، وإنّما يتأتى منه شيئاً فشيئاً. و«في أوّل ركعة»: أي قبل الرّكوع. و«خمس عشْرة مرّةً»: وفيه أنَّ التَّسبيح بعد القراءة، وبه أخذَ أكثرُ الأئمة. و«ثم تسجد»: أي ثانياً. و«ثم ترفعُ رأسك»: أي من السَّجدة الثّانية. و«فتقولها عشراً»: أي قبل أن تقوم ويحتمل جلسة الاستراحة وجلسة التّشهد. أقول: تجوز هذه الصَّلاة انفراداً وتجوز في=

العبَّاسُ منْ كُتَّاب الوحي :

* كان سيّدنا العبّاسُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه من رجالِ أهلِ البيت الكاتبين العالِمين بالكتابةِ في عَصْر النُبوّة، وقد اختار النَّبيُّ ﷺ أُناساً من أهلِ بيتِهِ ليكتبوا بين يديهِ، فكان سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يكتبُ التَّنزيل ويكتبُ بعضَ الكتُب الأخرى إلى القبائلِ وغيرها.

* أمَّا سيّدنا العبّاسُ رضي الله عنه فكان من كُتَّاب الوحي في شؤونِ الرّسالة والدَّعوة إلى الإسلامِ وتأسيس الدَّولة الإسلاميّةِ.

* ولم يكنْ عليٌّ والعبّاسُ رضي الله عنهما وحيدَيْن في الكتابةِ بين يدي النَّبيّ ﷺ، وإنّما هناك كتّابٌ كثيرون من سائر الصَّحابة من المهاجرين والأنصار، قال القَسْطلاني في «المواهب اللدنيّة»: «أمَّا كتابُه ﷺ فجمعٌ كثيرٌ، وجمٌّ غفيرٌ، ذَكَرهم بعضُ المحدثين في تأليفٍ له بديع استوعبَ فيه جُملاً من أخبارهم، ونُبذاً من سيرهم وآثارهم، وصدَّرَ فيه بالخلفاء الأربعةِ الكرامِ، خواص حضرتِهِ عليه الصَّلاة والسَّلام»[1].

* وذكروا أنَّ العبّاسَ رضي الله عنه كان بمكّة المكرّمة يكتب إلى النَّبيِّ ﷺ أخبارَ المشركين وتحرّكاتهم وما يقومون به من أعمال قد تسيءُ إلى الإسلام والمسلمين.

* وقد عثر بعضُ المُصَنّفين لسيّدنا العبّاس على كتابَيْن ممّا كتب للصَّادق المصدوق ﷺ وهما:

١ ـ كتابهُ ﷺ في أُعطيات خيبر.

٢ ـ كتابه ﷺ إلى الأزْد.

* وتفصِّل المصادرُ بأنَّ رسولَ الله ﷺ قد قسمَ مغانم خيبر بوثائقَ مكتوبةٍ.

= جماعة» وأقول: «العددُ خمس عشرة وعشراً لا ينبغي الزّيادة عليه لأنَّ له سرّاً خاصاً».

(١) المواهب اللدنيّة (٢/ ١٢٥)، وانظر: التّراتيب الإداريّة (ص ١٩٨).

* وأمرَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ سيّدنا العبَّاسَ بنَ عبد المطَّلب رضي الله عنه أنْ يكتبَ وثيقةَ التَّوزيع على الهاشميين والهاشميَّات وآل المطلب قُربىٰ الرّسول ﷺ، وذلك من ربعِ الخُمس الذي خصّص للهِ وللرّسول ولذي القربى. . . . ونصّ الوثيقة وقد شملت القمح والشَّعير والتَّمر والنَّوى: «بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرَّحيمِ. هذا ما أعطى محمّدٌ رسولُ اللهِ لأبي بكر بن أبي قحافة مئة وسق، ولعقيلِ بنِ أبي طالب مئة وأربعين، ولبني جعفرَ بنِ أبي طالب خمسين وسقاً، ولربيعة بنِ الحارث مئة وسق، ولأبي سفيانَ بنِ الحارث بن عبد المطّلب مئة وسق، وللصَّلْت بن مخرمة بن عبد المطّلب ثلاثين وسقاً، ولأبي بنقة خمسين وسقاً، ولركانةَ بنِ عبد يزيد خمسين وسقاً، وللقاسمِ بنِ مخرمة بن المطّلب خمسين وسقاً، ولمسطحِ بنِ أُثاثة بن عبّاد وأختِهِ هندِ ثلاثين وسقاً، ولصفيةَ بنتِ عبد المطلب أربعين وسقاً، ولحسينة بنتِ الأدت بن المطّلب ثلاثين وسقاً، ولضباعةَ بنتِ الزُّبير بن عبد المطّلب أربعين وسقاً، وللحصينِ وخديجةَ وهندٍ بني عبيدة بن الحارث مئة وسق، ولأمِّ الحكم بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً، ولأمِّ هانىء بنت أبي طالب أربعين وسقاً، ولجمانةَ بنتِ أبي طالب ثلاثين وسقاً، ولأمِّ طالب بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً، ولقيس بن مخرمة بن المطّلب خمسين وسقاً، ولابني أرقم خمسين وسقاً، ولعبد الرّحمن بن أبي بكر أربعين وسقاً، ولأبي بصرة أربعين وسقاً، ولابن أبي حبيس ثلاثين وسقاً، ولعبدِ الله بنِ وهب وابنيه خمسين وسقاً، ولنميلة الكلبيّ من بني ليث خمسين وسقاً، ولأمِّ حبيبة بنت جحش ثلاثين وسقاً، ولملكان بن عبده ثلاثين وسقاً، ولمحيصةَ بنِ مسعود ثلاثين وسقاً»[1].

* وقد شملت هذه الوثيقةُ ذوي القربى لرسولِ الله ﷺ من بني هاشم وبني

---

(١) انظر: كتّاب الوحي لأحمد عبد الرّحمن عيسى (ص ١٦٦ ـ ١٦٨) دار اللواء ـ الرياض ـ ١٩٨٠ م.

عبد المطّلب، كما شملت إطعام رجال مشوا بالصُّلح بين النَّبيِّ ﷺ وبين أهلِ فَدَكَ مثل مُحيصة بن مسعود الأنصاريّ.

* أمَّا الكتابُ الثَّاني الذي خطَّه العبّاسُ رضي الله عنه فهو كتابُ النَّبيِّ ﷺ إلى الأزْدِ ونصُّه: «من محمّدٍ رسولِ اللهِ، إلى مَنْ يقرأ كتابي هذا، مَنْ شهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسولُ الله، وأقام الصَّلاة، فَلَهُ أمانُ الله وأمانُ رسوله. وكتبَ هذا الكتاب العبّاسُ بنُ عبد المطّلب»[1].

* قالت بعضُ المصادر: يظهرُ أنَّ هذا الكتاب عامٌ لجميعِ الأزد، إذ إنّهم كثيرون في المدينةِ المنوّرة، وفي اليمن، والبحرين، وبلاد الشَّام، وقد سبق أن كتبَ النَّبيُّ ﷺ كُتباً لجماعاتٍ منهم، ويروون في قصّةِ هذا الكتاب أنَّ عبد الرَّحمن بن عُبيد الأزدي قال: «قدمتُ على النَّبيّ ﷺ في مئةِ رجلٍ من قومي سنة (٩ هـ) فلمَّا دنونا من النَّبيّ ﷺ وقفْنَا، فتقدمتُ قومي وكنتُ أصغرهم، قلتُ: أنعمْ صباحاً يا محمّد.

فقال: النَّبيُّ ﷺ: «ليس هذا سلامُ المسلمين، إذا لقيتَ مسلماً فقل: السَّلامُ عليكم ورحمة الله».

فقلت: السَّلامُ عليكم يا رسولَ اللهِ ورحمة الله.

قال: «وعليكَ السَّلام ورحمةُ الله وبركاته؛ ما اسمُك ومَنْ أنْتَ؟

قلت: أنا أبو مُغْوِية عبد اللات والعزّى.

فقال النَّبيُّ ﷺ: «بل أنتَ أبو راشد عبد الرّحمن» فأكرمَني وأجلسَني وكسَاني رداءَهُ، ودفعَ إليَّ عصاه، فأسلمتُ.

فقال له رجلٌ من جلسائِهِ: يا رسولَ الله، إنَّا نراك أكرمْتَ هذا الرَّجل!

فقال ﷺ: «إنَّ هذا شريفُ قومٍ، وإذا أتاكم شريفُ قومٍ فأكرموه».

---

(١) كتّاب الوحي (ص ٣٥٦).

وكان معي عبد لي يُقال له: سرحان، فقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ هذا معك يا أبا راشد»؟.

قلت: عبدٌ لي.

فقال: «هل لك أنْ تعتقَه فيعتق اللهُ عنك بكلّ عضو منه عضواً من النّار»؟

فأعتقتهُ فقلتُ: هو حرٌّ لوجهِ الله، وانصرفتُ إلى أصحابي، فانصرفَ منهم قومٌ، وأدركتُ منهم قوماً، فأتوا النَّبيَّ ﷺ فأسلموا»[1].

روايتُهُ للحديثِ النَّبويّ:

* يُصَنَّفُ العبَّاسُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه وأرضاه من رجالِ أهلِ البيت الأطهار وأعيانهم الأبرار الذين رووا حديثَ النَّبيّ ﷺ، ونقلوهُ للأمّةِ طلباً لمرضاةِ الله وحبّاً في نَشْرِ العِلْم، والاستفادة من أحكامه في الدُّنيا والآخرة.

* أسفر قولُ الذَّهبيّ عن رواية العبَّاس للحديثِ فأفاد بأنَّ «له عدَّةَ أحاديث، منها خمسةٌ وثلاثون في مسند بَقيّ، وفي البخاريّ ومسلم حديث؛ وفي البخاريّ حديث، وفي مسلم ثلاثة أحاديث»[2].

* روىٰ عنه من أهلِ بيته أولادُه: عبدُ الله، وعبيدُ الله، وكثيرُ، وأمّ كلثوم بنت العبّاس، ومولاهُ صُهيب.

* وروى عنه عددٌ من أبناء الصَّحابة وجلّة التّابعين منهم: نافعُ بنُ جبير بن مطعم، وعامرُ بنُ سعد بن أبي وقّاص، وعبدُ الله بنُ الحارث بن نوفل، وإسحاقُ بنُ عبد الله بن نوفل وغيرهم.

* وروى عنه من علماء الصَّحابة وأعيانهم سيّدنا جابر بن عبد الله

---

(١) انظر: الإصابة (٢/ ٤٠١ و ٤٠٢)، وأسد الغابة (٣/ ٣٦٧) ترجمة رقم (٣٣٤٤) مع الجمع والتّصرّف. ونلاحظ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد غيّر كنية هذا الرّجل من أبي مُغوية إلى أبي راشد، ومن عبد اللات والعزّى إلى عبد الرّحمن.

(٢) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٧٩). وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (٨/ ٢٥٨).

الأنصاريّ وغيره رضي الله عنهم أجمعين[1].

* ومن مرويّاته ما أخرجه البخاريّ ومسلم بسندهما عن عبدِ الله بنِ الحارث بن نوفل، عن عبّاسِ بنِ عبد المطّلب، قال: يا رسولَ الله، هل نفعتَ أبا طالب بشيءٍ؟ فإنّه كان يحوطُكَ ويغضبُ لكَ.

قال: «نعم، هو في ضَحضَاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النَّار»[2].

* وأخرجَ مسلم بسنده عن عامر بن سعد عن العبّاس بن عبد المطّلب: أنَّه سمعَ رسولُ الله ﷺ يقول: «ذاقَ طعمَ الإيمان مَنْ رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد رسولاً»[3].

* ومن مرويّاته الفقهيّة في مسندِ الإمام أحمد رحمه الله، ما أخرجه بسندهِ عن عامرِ بنِ سعد عن العبّاس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سَجَدَ الرّجلُ سجد معه سبعة آراب: وجهه، وكفّيه، وركبتيه، وقدميه»[4].

---

(١) انظر: تهذيب التّهذيب (٥/ ١٢٢)، وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٧٩) مع الجمع بينهما والتّصرّف.

(٢) أخرجه البخاريّ برقم (٦٢٠٨)؛ ومسلم برقم (٢٠) ومعنى «يحوطكَ»: صانك وحفظك ودافعَ عنك. و«ضحضاح»: ما رقّ من الماء على وجْهِ الأرض إلى نحو الكعبين، واستُعير في النّار. و«الدّرك»: في الدّرك لغتان فصيحتان مشهورتان: فتح الرَّاء وإسكانها، وقرىء بهما في القراءات السَّبع. قال الفرَّاء: هما لغتان جمعهما أدراك. وقال الزّجّاج: اللغتان جميعاً حكاهما أهل اللغة إلا أنَّ الاختيار فتح الرَّاء، لأنَّه أكثر في الاستعمال. وقال أبو حاتم: جمع الدرَك بالفتح أدراك كجمل وأجمال، وفرس وأفراس. وجمع الدْرك بالإسكان أدرك كفلس وأفلس. وأمّا معناه فقال أهل اللغة والمفسّرون: الدّركُ الأسفلُ قعر جهنم وأقصى أسفلها. قالوا: ولجهنم أدراك. فكل طبقة من أطباقها تسمّى دركاً. والله أعلم. (المنهاج ص ٣٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٣٤) ومعنى الحديث: صحَّ إيمانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه، لأنَّ رضاه بالمذكورات دليلٌ لثبوت معرفته، ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه، فالمؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى، ولذّت له، والله أعلم.

(٤) المسند (١/ ٤٤١) حديث رقم (١٧٦٤) طبعة دار الفكر الأولى ـ ١٩٩١ م.

* ومن الرّقائق البديعة في المسند، ما جاء عن عبدِ اللهِ بن الحارث، عن العبّاس قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله، علّمني شيئاً أدعو به.

فقال: «سَلِ العفو والعافية».

قال: ثمّ أتيته مرّةً أخرى فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، علّمني شيئاً أدعو به.

فقال: «يا عبّاسُ، يا عمَّ رسولِ الله ﷺ، سَلِ اللهَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرة»[1].

* إنَّ الأحاديثَ التي رواها العبَّاسُ رضي الله عنه موزّعةٌ في كتب الحديث وفيها معظم أبواب العلْم ومنها: الأدب، الرّقائق، الإيمان، الجهاد، الصَّلاة وغير ذلك، وفي مسندِ أحمد وحده (٢٨ حديثاً)، فمن أحب أن يستزيد فعليه بمصادر الحديث وكتبه.

احترامُ الخُلَفاء الرّاشدين للعبَّاس:

* رحمَ اللهُ مَنْ قالَ:

عَلــيٌّ وعبَّــاسٌ عقيــلٌ وجَعْفَــر   وحمــزةُ هُــمْ آلُ النَّبــيِّ بــلا نُكْــر

* كان لسيّدنا العبّاس رضوان الله عليه منزلةٌ ساميةٌ عند الخلفاء الرّاشدين، وعند الصَّحابة أجمعين، حتّى قال عددٌ من جلّة العُلماء في عصر التّابعين: «ما أدركنا أحداً من النّاسِ إلا وهو يقدّمُ العبّاسَ بنَ عبد المطّلب في العقل في الجاهليّة والإسلام»[2].

* وذكر ابنُ شهاب الزُّهريّ احترام أبي بكر وعمر للعبّاس في خلافتهما فقال: «كان أبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما في ولايتهما، لا يلقىٰ العبّاسَ منهما واحدٌ وهو راكبٌ إلاَّ نزل عن دابّته وقادها، ومشىٰ مع العبَّاس حتّى بلَّغه منزله أو مجلسه فيفارقه».

---

(١) المسند (١/ ٤٤٧) حديث رقم (١٧٨٣).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤٨) بتصرف يسير.

* وذكروا أنَّ عمرَ وعثمانَ كانا كذلك، فقد روي أنَّ العبَّاسَ لم يمرَّ بعمرَ ولا بعثمانَ وهما راكبان إلاَّ نزلا حتّى يجوز بهما العبّاس إجلالاً له أنْ يمرَّ بهما عمّ رسول الله ﷺ وهما راكبان، وهو يمشي.

* وقد ثبتَ أنَّ سيّدنا عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه قد ضربَ رجلاً استخفَّ بسيِّدنا العبّاس، فقد جاء عن القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصِّدّيق أحد الفقهاء السَّبعة في المدينة، قال: «ممَّا أحدثَ عثمانَ فَرُضِيَ به منه، أنَّه ضربَ رجلاً في منازعةٍ استخفَّ فيها بالعبَّاسِ بنِ عبد المطّلب، فقيل له؛ فقال: أيُفَخِّمُ رسولَ الله ﷺ عمَّه وأرخِّصُ في الاستخفافِ به؟!! لقد خالفَ رسولَ الله ﷺ مَنْ رضي فِعْلَ ذلك. فَرُضِيَ به منه»[(١)].

* وأمَّا سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه فكان يجلُّ عمّه العبَّاس ويباهي به، ويطلبُ رضاه، فعن صُهيب مولى العبَّاس قال: «رأيتُ عليّاً يقبّلُ يَدَ العبَّاس ورجلَه ويقول: يا عمّ ارْضَ عني»[(٢)].

* وهناك أخبار عُمريَّة عبّاسيّة تسرُّ الأفئدة بنكْهتها اللطيفة، وتجعلُ القارىءَ يعيشُ في واحةٍ غنيةٍ يتزوَّدُ منها زاداً وفيراً لينطلقَ إلى رحلةٍ أخرى يلتقطُ من خلالها الفوائد المفيدة.

* فمن عيونِ الأخبارِ العمريّةِ العبّاسيّةِ ما رواه الأحنفُ بنُ قيس قال: سمعتُ عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه يقول: «إنَّ قريشاً رؤوسَ النَّاس، وأنْ ليس أحدٌ منهم يدخلُ في بابٍ إلا دخلَ معه طائفةٌ من النَّاس، فلمَّا طُعِنَ أمرَ صُهيباً أنْ يصلِّي بالنَّاس، ويطعمهم ثلاثة أيَّام حتَّى يجتمعوا على رجل؛ فلمَّا وضعوا الموائدَ كفَّ النَّاسُ عن الطَّعام، فقال العبَّاسُ: يا أيّها النَّاس، إنَّ رسولَ الله ﷺ قد ماتَ فأكْلَنا بعده وشربْنَا، وبعد أبي بكر، وأنَّه لابدّ للنَّاس من

---

(١) حياة الصَّحابة (٢/ ٤٤٧) ومعنى «أحدث»: وضع قانوناً جديداً، و«استخفّ»: استهان. و«يفخّم»: يرفع قدره ويعظّم. و«أرخّص»: من التّرخيص: وهو التّجوّز والسّماح والإباحة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٥١)، والأدب المفرد برقم (٩٧٦).

الأكلِ، فأكلَ وأكلَ النَّاسُ، فعرفتُ فَضْلَ قولِ عمر»[1]. وفي حديث غيره: «فَعُرِفَ فَضْلُ قولِ عمر: إنَّ قريشاً رؤساءُ النَّاس».

* وتواترتِ الأخبارُ بأنَّ النَّاس كانوا إذا قحطُوا استسقوا بالعبَّاس رضي الله عنه، فعن أبي صالح: «أنَّ العبَّاسَ بنَ عبد المطّلب يوماً استسقى به عمرُ بنُ الخطَّاب، فلمَّا فرغَ عمرُ من دعائه، قال العبَّاسُ: اللهمّ، إنَّه لم ينزلْ بلاءٌ من السَّماء إلا بذنبٍ، ولا يكشف إلا بتوبةٍ، وقد توجَّه بي القومُ إليك لمكاني من نبيّكَ ﷺ، وهذه أيدينا إليك بالذُّنوب، ونواصينا بالتّوبة، وأنتَ الرّاعي لا تهمل الضَّالة، ولا تدعُ الكسير بدار مضيعةٍ، فقد ضرعَ الصَّغير ورقَّ الكبير، وارتفعتِ الشّكوى، وأنتَ تعلمُ السِّرَّ وأخفى، اللهمَّ فأغثهم بغياثِكَ قبل أنْ يقنطوا فيهلكوا فإنّه لا ييأس من رحمتِكَ إلا القومُ الكافرون، قال: فما تمَّ كلامه حتى أرختِ السَّماءُ مثل الحبال»[2].

* وصحَّ من حديثِ أنسِ بنِ مالك: أنَّ عمر استسقى فقال: «اللهم إنَّا كُنّا إذا قحطنا على عَهْدِ نبيّكَ توسّلنا به، وإنا نستسقي إليك بعمِّ نبيّك العبّاس»[3].

* وفي ذلك يقولُ عبّاسُ بنُ عتبةَ بن أبي لهب:

بِعَمّي سقَىٰ اللهُ الحجازَ وأهْلَه ... عشيّة يستسقي بشيبتِهِ عُمرْ
توجَّه بالعبّاسِ في الجدْبِ راغباً ... إليه فما إنْ رام حتّى أتى المَطرْ
ومنّا رسولُ اللهِ فينا تُراثُه ... فهل فوقَ هذا للمفاخِرِ مُفْتَخرْ[4]

* وقد ذكر حديثَ العبّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه في الاستسقاء مجدُ الدّين بن الأثير في كتابه النَّفيس «منال الطّالب» وغيرُه، وها نحنُ أولاء نوردُ هذا الحديث كاملاً لما فيه من الفوائد ومحاسنِ القلائد.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٥١ و ٣٥٢).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤٨ و ٣٤٩).
(٣) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٩١)، والحديث أخرجه البخاريّ في الاستسقاء؛ وفضائل الصّحابة.
(٤) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٩٤)، ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٤٩)، والاستيعاب (٣/ ٩٩).

* قال ابنُ الأثير رحمه الله: «خرجَ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه، يستسقي للنَّاس، فأخذَ العبَّاس رضي الله عنه إليه، فقال: اللهمّ إنّا نتقرّبُ إليك بعمِّ نبيِّك، وقفيّةِ آبائِه، وكُبْرِ رجالِه، فإنَّك تقولُ وقولُك الحقُّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[الكهف: ٨٢]، فحفِظْتَهما لصلاح أبيهما، فاحفظِ اللهمَّ نبيَّك في عمِّه، فقد دَلَوْنا بهِ إليك، مُستشفعين ومُستغفرين، ثمَّ أقبل على النَّاس فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[نوح: ١٠ ـ ١٢].

قال الرّاوي: ورأيتُ العبَّاسَ وقد طَالَ عُمَرَ، وعيناه تَنْضَحان، وسبائِبُهُ تجولُ على صَدْرِهِ، وهو يقولُ: اللهمَّ أنتَ الرَّاعي، فلا تهمل الضَّالةَ، ولا تَدع الكسيرَ بدارِ مَضْيعَةٍ، فقد ضَرَعَ الصَّغيرُ، ورقَّ الكبيرُ، وارتفعتِ الشّكوى، وأنتَ تعلمُ السِّرَّ وأخْفى.

اللهمَّ فأغثْهم بغياثِكَ من قبلِ أنْ يقْنَطُوا فيهلِكُوا، فإنَّه لا ييأسُ من رُوْحِكَ إلا القومُ الكافرون.

فنَشَأَتْ طُرَيْرةٌ من سحابٍ، فقال النَّاسُ: تَرَوْنَ! ثم تلاءمَتْ واستتمَّتْ، ومشَتْ فيها ريحٌ، ثمَّ هدَّتْ ودَرَّتْ، فوالله ما برحوا حتى اعتَلَقُوا الحِذَاءَ، وقلَّصُوا المآزِرَ، وطفِقَ النَّاسُ بالعبَّاس يَمْسَحُون أركانَه، ويقولُون له: هنيئاً لكَ ساقيَ الحرمَيْن»(١).

---

(١) منال الطَّالب (ص ٤٣٣ و ٤٣٤)، وانظر: العقد الفريد (٤/ ٦٤ و ٦٥)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ١٨٢ ـ ١٨٤)، والفائق للزّمخشري (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٨)، وطبقات الشّافعية الكبرى (٢/ ٣٢٩ و ٣٣٠) وغيرها كثير من مصادر الحديث والأدب والتَّراجم. وقوله «نتقرب»: نتوسلُ إليك بعمّ نبيّك. و«قفية آبائه»: تِلوهُم وتابعُهم، والخلَفُ منهم، والمقتفي لأثرهم. و«كُبْر رجاله»: أعلاهم في النَّسب. و«دلونا»: توسّلنا واستشفعنا وجعلنا الوسيلة إلى ما عندك، فاقبَلنا به، و«طال عمر»: كان أطول منه. و«تنضحان»: تبكيان. و«السَّبائب»: جمعُ سَبية: وهي خُصل الشّعر المنسدلة على الكتفين، و«الضّالة»: الضّائعة. و«الكسير»: =

* ولمَّا استُخْلفَ عمرُ فَرضَ لِمَنْ شهدَ بدراً خمسةَ آلاف، وفرض للعبّاس اثني عشر ألفاً [(١)].

* وذكروا أنَّه: «كانت للعبّاس دارٌ إلى جنب المسجدِ بالمدينةِ المنوّرةِ، فقال له عمر: بِعْنِيْها أو هَبْهَا لي حتّى أدخلَها في المسجد، فأبى، فقال: اجعل بيني وبيَنك رجلاً من أصحاب النَّبيّ ﷺ فجعلا بينهما أبيّ بن كعب[(٢)] رضي الله عنه، فقضى للعبّاس على عمرَ، فقال عمرُ: ما أحدٌ من أصحاب محمّدٍ ﷺ أجرأ عليّ منك؛ فقال أبيُّ بنُ كعب: أو أنصح لكَ منّي. ثمَّ قال: يا أميرَ المؤمنين، أما بلغكَ حديثُ داودَ أنَّ الله أمَرَهُ ببناءِ بيتِ المقدس، فأدخلَ فيه بيتَ امرأةٍ بغيرِ إذنها، فلمّا بلغَ حِجْزَ الرّجال منعَهُ اللهُ بناءه، قال داود: أي ربّي، إنْ منعتني بناءه فاجعلْه في خلفي.

فقال العبّاس: أليسَ قد قضيتَ لي بها وصارت لي؟

قال: بلى.

قال: فإنّي أشهدُك أنّي قد جعلتُها لله عزَّ وجلَّ»[(٣)].

مَنْ فَضائل العبَّاس ومنَاقبِهِ:

* للعبَّاس بنِ عبد المطّلب فضائلُ ومناقبُ جليلةٌ، وصفه معاصروهُ

= المكسور، فعيل بمعنى مفعول و«مضيعة»: من الضَّياع: الهوانُ والاطّراح. و«ضَرع» خضعَ وذلَّ. و«رق الكبير»: ضعُفَ وهان. و«ارتفعت الشكوى»: ظهرت وارتفعت إلى الله عزّ وجلّ. و«غياثك»: نصرتك، وعطاؤك. و«رَوْحك»: رحمتك، و«طُريرة»: قطعة من السَّحاب. و«تلاءمت»: اجتمعت. و«هدّت» رعدت. و«الحذاء»: النَّعل. و«ساقي الحرمين»: حرم مكة وحرم المدينة.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٣٧٧).

(٢) اقرأ سيرة سيّدنا أبيّ بن كعب الأنصاريّ في كتابنا «علماء الصّحابة» رضي الله عنهم، ففي سيرته فوائد تستجلى، ومحاسن تستحلى.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٥١)، والأخبار العمريّة العباسيّة كثيرة جداً ومبثوثة في ثنايا المصادر، فمن أراد المزيد منها فعليه بالرّجوع إليها.

فقالوا: «كان أبيضَ بضّاً جميلاً طويلاً فخماً مهيباً، عاش ثمانياً وثمانين سنة، ودُفن بالبقيع، وعلى ضريحه قبّة عظيمة»(١).

* وصفه الذَّهبيُّ بقوله: «كان من أطولِ الرِّجال، وأحسنهم صورة، وأبهاهم، وأجهرهم صوتاً، مع الحلمِ الوافرِ، والسُّؤدد»(٢).

* وقال في موضعٍ آخر: «كان تام الشَّكل، جهوري الصَّوت جدّاً، وهو الذي أمرهُ النَّبيّ ﷺ أنْ يهتف يوم حُنين: يا أصحابَ الشَّجرة»(٣).

* وأجْمَلَ الزُّبيرُ بنُ بكَّار شيئاً من مناقبِهِ فقال: «كان للعبَّاس ثوبٌ لعاري بني هاشم، وجفنةٌ لجائعهم، ومنظرةٌ لجاهلهم، وكان يمنعُ الجار، ويبذلُ المال، ويعطي في النّوائب، ونديمُهُ في الجاهلية أبو سفيان بن حرب»(٤).

* وفي تبيان هذه الفضائل الثّلاث وتبيينها يقول الشَّاعر:

وكانت لعباسٍ ثلاثٌ يُعدّها ... إذا ما جنَابُ الحيِّ أصبحَ أَشْهَبا
فسلسلةٌ تنهىٰ الظّلوم وجفنةٌ ... تُباحُ فيكسوها السّنام المزَغَّبا
وحُلَّةُ عَصبٍ ما تزالُ معدَّةً ... لِعَارِ ضريكٍ ثوبُهُ قد تهبَّبا

* وقدم العبّاسُ الشَّامَ مع عمر، وكان العبَّاسُ راكباً على فرسٍ عتيق،

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد الخلفاء الراشدين ص ٣٧٤) باختصار يسير.

(٢) سير أعلام النّبلاء (٢/ ٧٩ و ٨٠). وذكرتِ المصادرُ معظمها أنَّ سيّدنا العبّاس رضي الله عنه كان طويلاً من الرّجال. وروي أنَّ حفيدَه عليَّ بنَ عبد الله بنِ العباس طافَ بالبيتِ، وقد فَرَعَ النَّاس، كأنَّه راكبٌ وهم مُشاةٌ، وثمَّ عجوزٌ قديمةٌ، فقالت: مَنْ هذا الذي فَرَعَ النَّاس؟ فأُعلمَتْ.
فقالت: لا إله إلا الله! إنَّ الناس لَيَرْذُلُون عهدي بالعبّاس، يطوف بهذا البيت، كأنَّه فُسطاطٌ أبيض.
ورُوي أنَّ علياً هذا كان إلى منكب أبيه عبد الله، وعبد الله إلى منكب أبيه العبّاس، والعباس إلى منكب أبيه عبد المطلب. (منال الطّالب ص٤٣٧) بتصرّف يسير.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٩٥).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٢٢٨) وسير أعلام النّبلاء (٢/ ٨٠).

وعمرُ على حمار، وكان العبّاسُ رجلاً جميلاً فجعلتِ البطارقةُ يسلّمون عليه، ويشيرُ أنّي لستُ به، وأنّه ذاك ـ ويشيرُ إلى عمر ـ فيسلّمون عليه، ومضى في سيره. فقال القسيسون والرّهبان: ما رأينا أحداً قطّ أشبهُ بما وصف من الحواريين من هذا الرّجل(١).

* وكان العبّاسُ أبيضَ جميلاً له ضفيرتان، طويلاً حَسَنَ الانتصاب ليس فيه جَنأ، وقد انتهى الشّرفُ من قريش إلى عشرة نفرٍ منهم العبّاسُ بنُ عبد المطلب، وكان قد سقىٰ في الجاهليّة الحجيج، فبقيَ ذلك له في الإسلام.

* ومن لطائف الأخبار التي تُضاف إلى فضائل العبّاس ومناقبه ما جاء عن الأعمش قال: «بنى العبّاسُ داره التي كانت إلى المسجدِ، فجعل يرتجزُ ويقول:

بَنيتُها باللّبِنِ والحجَارة والخشَبَات فوقَها مَطّاره
يَا ربّ باركَنْ في أهل الداره

فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهم باركَنْ في أهلِ الداره»

قال: وجعل العبّاسُ ميزابَها لاصقاً بباب المسجدِ يصبُّ عليه، فطرحه عمرُ بنُ الخطاب، فقال العبّاس: أما واللهِ ما شدَّهُ إلا رسولُ الله ﷺ، وإنّه لعلى منكبيّ. فقال عمر: لا جرمَ واللهِ لا تشدّه إلا وأنتَ على منكبيّ، فشدّه على منكبيّ عمر»(٢).

* وعن محمّد بن شهاب الزّهريّ قال: «لقد جاء اللهُ بالإسلام، وإن جفنةَ العبّاس لتدورُ على فقراء بني هاشم، وإنَّ سوطه لمعدٌّ لسفهائم. قال: فكان ابنُ عمر يقول: هذا واللهِ الشّرف: يطعمُ الجائع، ويؤدّبُ السّفيه»(٣).

* ولسيِّدنا العبّاس رضوان الله عليه كلماتٌ سائراتٌ تدلُّ على فقههِ وعنايته

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٢٦ و ٣٢٧) بشيء من التصرّف والاختصار.
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٣٧).
(٣) المصدر السّابق (١١/ ٣٥٢).

بمعاملةِ النَّاس، كما تدلُّ على بركةِ رجالِ أهلِ البيت وتألّقهم في المكارم، ومن كلماته الجميلةِ في الإحسان واصطناع المعروف قوله: «ما رأيتُ أحداً أحسنتُ إليه إلا أضاءَ ما بيني وبينه، وما رأيتُ أحداً أسأتُ إليه إلا أظلمَ ما بيني وبينه، فعليكَ بالإحسانِ، واصطناعِ المعروف، فإنَّ ذلك يقي مصارعَ السُّوء»[1].

* كما أنَّ لسيِّدنا العبَّاس رضوان الله عليه شِعْراً يدلُّ على فَصَاحتِهِ وبلاغته، واقتطافه ثَمَرَ المعاني من جنى الألفاظ، وممّا يُستجادُ له قافيتهُ الأنيقةُ في مدحِ النَّبيّ ﷺ، وقد ذكَرتْها مصادرُ شتّى بسندٍ عن خُريمِ بنِ أوس[2]. وسنوردُ القصيدةَ مع الخبر لتمامِ الفائدة.

* قال خُريمُ بنُ أوس بن حارثة الطَّائيّ رضي الله عنه: «هاجرتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فقدمتُ عليه مُنْصرفَه من تبوكَ، فسمعتُ العبَّاسَ يقولُ: يا رسولَ اللهِ، إنّي أريدُ أنْ أمتدحَك.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «قُلْ، لا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ».

فقال:

مِنْ قَبْلِها طِبْتَ في الظِّلالِ وفي ... مُسْتودَعٍ حيثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ
ثُمَّ هبطتَ البلادَ لا بَشَرٌ ... أنتَ ولا مُضْغةٌ ولا علَقُ
بل نُطفةٌ تركبُ السَّفينَ وقد ... أَلْجَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرقُ
تُنْقَلُ مِنْ صَالبٍ إلى رحِمٍ ... إذا مَضَى عالَمٌ بدا طبَقُ
حتَّى احتوىٰ بيتُكَ المهيمنُ مِنْ ... خِنْدَفٍ عَلْيَاءَ تحتَها النُّطُقُ
وأنتَ لمّا وُلِدْتَ أشرقَتِ الـ ... أرضُ وضاءَتْ بنورِكَ الأُفُقُ
فنحنُ في ذلكَ الضِّياءِ وفي النُّـ ... ـورِ وسُبُلُ الرّشادِ نختَرقُ

قال خُريم: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هذه الحيرةُ البيضاءُ قد رُفِعَتْ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٥٢).

(٢) انظر ترجمة خريم بن أوس الطّائيّ في أسد الغابة (١/ ٦٠٦ و ٦٠٧) ترجمة رقم (١٤٣٨).

لي، وهذه الشّيماءُ بنتُ بُقيلة الأزديّة، على بغلةٍ شهباء، معتجرةً بخمارٍ أسودَ».

فقلت: يا رسولَ اللهِ، فإنْ نحنُ دخلْنَا الحيرةَ، ووجدتُها على هذه الصِّفة، فهي لي؟

قال: «هي لك»[1].

---

(1) انظر: منح المدح (ص ١٩٢ و ١٩٣)، ومنال الطالب (ص ٤٤٠)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٤٣٩ ـ ١٤٤٠)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ١٠٢ و ١٠٣)، وأسد الغابة (١/ ٦٠٦ و ٦٠٧) وغيرها كثير جداً.

وقوله «طبتَ في الظّلال»: يريدُ ظلال الجنّة تحت أشجارها حين كان في صُلب آدم عليه السّلام لما كان في الجنّة. و«المستودع»: المكان الذي جُعل فيه آدمُ وحواء من الجنّة. وقيل: أرادَ بالمستودع: الرّحم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[الأنعام:٩٨]. و«يخصف»: يُلْصَقُ ويُجمعُ ويُضمُّ، ويرد قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[الأعراف:٢٢]. و«هبطت»: نزلت من علو؛ يريد به هبوط آدم إلى الأرض، هبط معه لأنَّه كان في صُلْبه، وهو إذ ذاك لا بشرٌ ولا لحمٌ، وهي المضغة، ولا علقٌ، وهو الدم. يريد أنّه كان نطفة، لم ينتقلْ في هذه المراتب، التي ينتقلُ فيها الجنين. ألا تراه يقول: «بل نطفة تركب السَّفين» يريدُ ركوب نوح عليه السَّلام السَّفينةَ عند الطُّوفان وهي في صُلْبه. و«السَّفين»: جمعُ سفينة، و«نَسْر»: أحدُ الأصنام التي كانت لقوم نوح. و«ألجم الغرق»: كناية عن وصولِ الماء إلى أفواههم. و«الصَّالب»: الصُّلب، وهو الظَّهر. و«طبق»: القرن من النّاس، لأنّهم يطبّقون الأرض، ثم ينقرضون، ويأتي للأرض طبقٌ آخر. أي: إذا مضى قرنٌ بدا قرنٌ بعده. و«المهيمن»: صفته. و«علياء»: يريد بها الشّرف. و«خندف»: لقب امرأة إلياس بن مُضر، وهو من أجداد النّبيّ ﷺ واسمها ليلى من الخندفة، وهي مشيةٌ كالهرولةِ، و«النُّطُقُ»: جمع نِطاق، وهو في الأصل ما تشدُّ به المرأة وسطها، فوق الثّياب، وأراد بها ارتفاع نسبه وشرفه، ومنه سميت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما «ذات النّطاق» أو «ذات النّطاقين» في قصّة مشهورة بكتب السّيرة، وقد افتتحت بها وبسيرتها كتابي «بنات الصَّحابة» و«أشرقت»: أضاءت وأنارت. و«الأفق»: واحد الآفاق: وهي أطراف السَّماء ونواحيها التي مع الأرض. و«السُّبُلُ»: الطُّرق. و«نخترقُ»: نسيرُ فيها. و«الحيرةُ»: بلدٌ قديمٌ قريبٌ من الكوفة، وكانت منازلُ النُّعمان بن المنذر، ملك العرب، وإنّما وصفها بالبيضاء لأنَّ الغالبَ على ألوان أهلِها البياض، وقيل: لأنَّ غالب أموالهم كانت الفضَّة. و«معتجرة»: الاعتجار: لفّ الثوب، أو العمامة على الرّأس. =

* ومن شعر العبَّاس يوم حنين قوله من أبيات منها:

ألا هَلْ أتى عِرسي مَكَرّي ومقدمي   بـوادي حُنيـن والأسنّـةُ تُشـرعُ
وكيـفَ رَدَدْتُ الخَيْـلَ وهـيَ مُغيـرةٌ   بزوراءَ تعطي في اليدين وتمنعُ[(١)]

* ومن المناقبِ العبَّاسيَّةِ المُستجادةِ أنَّه كان جواداً مِطْعَاماً؛ وصولاً للرّحم، ذا رأيٍ حسن، ودعوةٍ مرجوة، استسقى به عمرُ بن الخطَّاب في خلافته للمسلمين أيام عام الرّمادة فَسُقوا، وفي هذه الواقعةِ المتواترة يقولُ حسّانُ بنُ ثابت الأنصاريّ رضي الله عنه:

سَالَ الإمـامُ وقـد تتَـابَـعَ جـدبُنَـا   فَسَقَـىٰ الغمـامُ بغَمْـرة العبَّـاسِ
عـمّ النّبـيّ وصنـوِ والـده الـذي   ورثَ النَّبـيَّ بـذاك دون النَّـاسِ
حيـا الإلـهُ بـهِ البـلاد فـأصبحـت   مُخضـرَّة الأجنـاب بعـد اليـاسِ[(٢)]

* ويتبوّأ سيّدنا العبَّاسُ مكانةً حسنةً في ربوعِ قلوبِ المحبّين في شتّى الأعصار والأمصار، وممّن مدحَهُ فأجاد ابنُ جابر الأندلسيّ الذي أنشأ قصيدةً دالية مُطَوّله في فضائلِ الصَّحابة العشرة وأهلِ البيت، ومنها في ذكْر سيّدنا العبّاس رضي الله عنه:

وقـد بلـغَ العبَّـاسُ فـي المجـدِ رتبـةً   تقـولُ لبـدرِ التّـمّ قصَّـرتَ فـابعـدِ
ألا إنّـه فَضْـلُ السِّقـايـة قـد حـوىٰ   فكـان لـوفْـدِ الله أكـرمَ مـوردِ

= و«الشّيماء»: هي أخت عبد المسيح بن بُقيلة الغسَّاني. وهذا الإخبار عن الحيرة والشّيماء من معجزات النّبيّ ﷺ لأنّه أخبر بذلك قبل وقوعه. فقد رأى خريم بن أوس الشّيماء كما وصفها النّبيّ ﷺ لمّا فتحوا الحيرة، فطلبها من خالد بن الوليد، فأعطاه إيّاها، فباعها من أخيها عبد المسيح.

(١) منح المدح (ص ١٩١)، ومعنى «عِرسي»: زوجتي و«تشرع»: تسدد، و«الأسنّة»: السّيوف. و«زوراء»: الأزور من الخيل: المائل. وانظر الأبيات كاملة في العمدة (١/ ٣٧).

(٢) ديوان حسّان بن ثابت (ص ٣٨٩ و٣٩٠)، تحقيق دكتور سيّد حنفي حسنين ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ، وانظر: الاستيعاب (٣/ ٩٩).

وكان طويلَ الباع في الباسِ والنّدى كـريمـاً متـى يسترفـدِ القـومُ يـرفـدِ
ويـوم حُنيـنٍ ليـس يُنسـى ثبـاتُـهُ ودعـوتـه مستنجـداً كـلّ منجـدِ
وقـال رسـولُ الله فيـه علـيَّ مـا عليـه وأيضـاً مثلـه فـي التّـزيّـدِ
ألا إنَّ عـمَّ المـرء صنـو أبيـه كـي يـزيـدهـم فـي بـرّه المتـأيّـدِ
وبشّـرهُ أنّ الخـلافـةَ فـي الـورى لأولادِه مـن سيّـدٍ ومسـوَّد
بشيبتـهِ استسقـوا إذ المَحْـلُ شـامـلٌ فجاءهُمُ غيثٌ سقَى كلَّ فدفد[1]

* وللإمام جمال الدّين يحيى الصَّرصْري تائيةٌ مطربةٌ، ذكر فيها منازلَ الحجّ من بغداد، وذكر بعضَ رجالِ أهل البيت ومنهم سيّدنا العبّاس رضي الله عنه، وأشارَ إلى بعضِ مناقبه وكراماتِه الجليّة فقال:

ثـمّ زاروا العبّـاسَ عـمَّ رسـولِ اللـ ـهِ خيـرَ الشُّيـوخِ والسَّـاداتِ
الكـريـم الـذي بـه سُئِـلَ اللـ ـهُ فجادَتْ هَواطِلُ المُعْصِراتِ[2]

* ولأحمد محرّم قصيدةٌ قوامها (٥٥ بيتاً) عدَّدَ من خلالها بعض مناقبِ العبَّاس ومآثره الحسان، ومنها قوله:

أبا الفضْل أقبلْ وارفعِ الصَّوتَ شاكراً فـذلـكَ فضْـلُ الله أسْـدَاهُ وافـرا
هنيئـاً فقـد أوتيـتَ سُـؤْلـك كلّـه ولُقّيتَ عن قربٍ من السَّعْد طائرا
هـديـتَ أبـا سُفيـان تـرحـمُ نَفْسَـه وتكرهُ أنْ يبقى مدىٰ الدَّهْرِ حائرا
بِيُمنـكَ يـا عـمَّ الـرَّسـولِ تَتَـابَعَـتْ أيـادٍ يَـراهَـا المسلمـون ذخـائـرا
عظيمـاً تـرجّيـه قـريـش لمـا بهـا إذا فزعَتْ للأمْرِ تخشىٰ الدَّوائرا
وإنّـكَ إذْ تسقـي الحجيـجَ لسَيّـدٌ يُعَلِّـمُ سـاداتِ الـرّجـالِ المفَـاخِـرا

---

(١) انظر: نفح الطيب (٧/ ٣٦٧).

(٢) انظر: المجموعة النبهانية في المدائح النّبويّة ليوسف النّبهاني (١/ ٤٠٦) دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦ م. وللإمام تقي الدّين السّبكيّ تائيّة طويلة في مدح رسول الله ﷺ، وذكر من خلالها سيّدنا العبّاس فقال:

وقـد كـان بـالعبّـاس عمّـك يُستقـى لمـا نـالَ مـن قـربٍ إليـكَ ونِسْبَـةِ

(المجموعة النّبهانية ١/ ٤٢٩).

إذا أظمـــأَ اللهُ البـــلادَ وأهلَهـــا فباسمِكَ يسقيها الغيوثَ المواطرا
لعمـري لقـد غـادرتَ غيـرَ مُنَـازَعٍ مناقـبَ ذكـرَاهَـا تهـزُّ المنَـابِـرا[1]

* ومن أجلّ مناقبِ العبّاسِ وأعظمها أنَّ داره بمكَّة من الدُّور المباركة، قال الفاسي: «بمكّةَ دورٌ مباركةٌ معروفةٌ عند النّاس وغالبُها مساجد، ولكنّها مشهورةٌ عند النّاس بالدّور. . ومنها دارُ خديجةَ بنتِ خُويلد أمّ المؤمنين رضي الله عنها. . . ومن الدّور المباركة دارُ العبّاسِ بنِ عبد المطّلب رضي الله عنه بالمسعى، وفيها العَلَم الأخضر، وهي الآن رباطٌ للفقراء»[2].

* وفضائلُ سيّدنا العبّاس وشمائلُهُ ومناقبُهُ لا تُستقصى، وهي منثورة كنثار الزَّهر في رياضِ المصادر بأنواعها، ويمكن أن نوردَ هاهنا ما ذكره الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله في «تهذيبه» عن مناقب سيّدنا العبّاس ومآثره إذ قال: «. . . وكان العبَّاسُ رئيساً جليلاً في قريش قبلَ الإسلام، وكان إليه عمارة المسجدِ الحرام والسِّقاية، وحضَرَ ليلةَ العقبة مع رسولِ الله ﷺ حين بايعته الأنصار. . . وكان رسولُ الله ﷺ يعظّمهُ ويكرّمهُ ويبجّله، وكان وصولاً لأرحامِ قريش، مُحسناً إليهم، ذا رأي وكمال وعقْل، جواداً أعتقَ سبعين عبداً، وكانتِ الصَّحابةُ تكرمُهُ، وتعظّمهُ وتقدّمه وتشاوره وتأخذ برأيه. . . وفي التّرمذي أحاديث في فَضْل العبّاس. . . ومناقبُهُ كثيرةٌ مشهورةٌ رضي الله عنه»[3].

---

(١) ديوان مجد الإسلام (ص ٣٧٠ ـ ٣٧٣) بانتقاء واختصار.
(٢) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٤٣٦ ـ ٤٤٠) بتصرّف واختيار.
(٣) تهذيبُ الأسماء واللغات للنّوويّ (١/ ٢٥٧ ـ ٣٥٩) باختصار وانتقاء. وقال ابنُ عبد البرّ رحمه الله في «الاستيعاب»: «كان العبّاسُ رئيساً في قريش، وإليه كانت عمارةُ المسجد الحرام والسّقاية في الجاهليّة، فالسّقاية معروفة؛ وأمّا العمارةُ فإنّه كان لا يدعُ أحداً يَسْتبُّ في المسجدِ الحرام، ولا يقولُ فيه هجراً، يحملُهم على عمارته في الخير، لا يستطيعون لذلك امتناعاً، لأنَّه كان ملأ قريش قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك، فكانوا له أعواناً عليه، وسلّموا ذلك إليه. . وكان العبّاسُ رضي الله عنه أنصرَ النَّاس لرسولِ الله ﷺ. . وكان جواداً مُطعماً وصولاً للرّحم، ذا رأي حسن، ودعوةٍ مرجوةٍ. . . وكان أصحاب رسول الله ﷺ يعرفون للعبّاس =

* وأفاد الذَّهبيُّ بهذهِ المعلومةِ فقال: «وقد اعتنىٰ الحُفَّاظ بجمع فضائلِ العبّاس رعايةً للخُلفاء. وبكلّ حالٍ، لو كان نبيّنا ﷺ ممّن يُورث لما ورثه أحدٌ، بعد بنتهِ وزوجاتِهِ، إلا العبّاسُ رضي الله عنه. وقد صار المُلكُ في ذريّة العبّاس، واستمرّ ذلك... إلى وقتنا هذا...»[1].

* وحلَّقَ ابن كثير في ترجمته للعبَّاسِ فقال: «العبَّاسُ بنُ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشيّ الهاشميّ أبو الفَضْل المكيّ، عمّ رسول الله ﷺ، ووالدُ الخلفاء العبّاسيين.... وكان من أَوْصَلِ النّاس لقريش وأشفقهم عليهم، وكان ذا رأي وعقلٍ تام وافٍ... أعتقَ سبعين مملوكاً من غلمانه... وفضائله ومناقبه كثيرة جدّاً»[2].

وفَاةُ العَبَّاس ووصيتُه:

* توصّلْنا من خلال دراستنا لحياةِ العبَّاس رضي الله عنه بأنّه من رجالِ أهل البيت المُعَمَّرين؛ إذ عاش قرابة تسعين عاماً كانت أعواماً سِماناً يغلبُ عليها العطاءُ والخير.

* وتُجمعُ الأخبار على أنَّ العبَّاسَ قد عَمِيَ قبل موته، وأنَّه أعتقَ عند موته

= فضله، ويقدّمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه... أدرك في الإسلام (٣٢ سنة) وفي الجاهليّة (٥٦ سنة) رضي الله عنه. (الاستيعاب ٣/ ٩٤ ـ ١٠١) باختصار وتصرّف.

(١) سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٩٩ و١٠٠) بتصرّف يسير، ويمكننا أنْ نقولَ في هذا المقام: «لقد حاولَ بعضُ الخلفاء العبّاسيين ومَنْ حولهم عندما آلتْ إليهم الخلافةُ أنْ يشيدوا بالعبّاسِ بنِ عبدِ المطَّلب لقرابته من النَّبيّ ﷺ، ورأوا أنْ يضعوا على لسانِ حسَّان بنِ ثابت مدحاً للعبَّاس، وأشاعوا فكرة تقول: إنَّ العبّاسَ أولى النّاس بالخلافةِ من غيره، وربّما ساقوا كثيراً من الأشياء التي تزيدُ في رصيد العبّاس وذريته، مع العلْم أنَّ سيّدنا العبّاس عَلَمٌ من أعلامِ أهلِ البيت ورجاله الأفذاد الذين تتحلّى بذكرهم ومناقبهم السّطور والصّدور. اللهم إنّا نسألك الصَّواب والحقّ».

(٢) البدايةُ والنّهايةُ لابن كثير (٧/ ١٦١ و١٦٢) باختصار وتصرّف. وقد ساق ابن كثير كثيراً من مناقب العبّاس في ثنايا تاريخه البداية والنّهاية في أجزاء متفرّقة.

سبعين مملوكاً تقرّباً إلى الله عزَّ وجلَّ.

* يتحدَّث عبدُ الله بنُ إبراهيم القرشيّ فيقول: «لمَّا نزلَ بالعبَّاسِ بن عبدِ المطَّلب الموتُ قال لابنه: يا عبدَ الله، إنّي واللهِ ما متُّ موتاً، ولكنّي فنيتُ فناء، وإنّي موصيكَ بحبِّ الله وحبّ طاعته، وخوف الله وخوف معصيته، فإنّك إذا كنتَ كذلك لم تكره الموت متى أتاك. وإنّي استودعتكَ الله يا بنيّ، ثمّ استقبلَ القبلة فقال: لا إله إلا الله، ثمّ شخص ببصره فمات»[1]. وكانت وفاته في خلافة عثمان سنة (٣٢ هـ).

* ولمَّا صَعِدَتْ روحُ العبَّاس إلى بارئها بعَثَتْ بنو هاشم مَنْ يُخبر أهل العوالي: رحمَ الله مَنْ شهد العبّاس بن عبد المطَّلب، فحشدَ النّاس، وجاؤوا أرسالاً.

* وحينما أُتي به إلى موضع الجنائزِ، تضايقَ، فقدموا به إلى البقيعِ، وصلّوا عليه بالبقيع، وما يقدرُ أحدٌ أنْ يدنوَ من سريره، وغلبَ عليه بنو هاشم، فلمّا انتهوا إلى اللحدِ، ازدحموا عليه، فبعثَ عثمانَ الشَّرطةَ يبعدون النّاسَ عن بني هاشم، حتّى خلصَ بنو هاشم، فنزلُوا في حفرته»[2].

* وقد حضرَ غسْله سيّدنا عثمانُ رضي الله عنه، وغسَّلَهُ سيّدنا عليٌّ، وعبدُ الله، وقُثم، وعُبيدُ الله بنو العبَّاس رضي الله عنهم أجمعين، وجلسَ عثمانُ على قبره حين دُفن»[3].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٥٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٢)، ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٥٣)، وسير أعلام النّبلاء (٢/ ١٠٠ و ١٠١) مع الجمع والتّصرّف.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٠١)، ومختصر تاريخ دمشق (١١/ ٣٥٣) مع الجمع بينهما. قال عمرُ بنُ شبه: «دُفنَ العبّاسُ بنُ عبد المطّلب عند قبر فاطمةَ بنتِ أسد بن هاشم، في أوّل مقابر بني هاشم التي في دار عقيل». (تاريخ المدينة المنوّرة ١/ ١٢٧). وانظر (وفاء الوفاء ٣/ ٩١٠).

* ولخَّص سيّدنا عبدُ الله بنُ عبّاس حياةَ أبيه بقوله: «وُلدَ أبي قَبْل الفيل بثلاث سنين، وتوفي وهو ابنُ ثمان وثمانين سنة، سنة اثنتين وثلاثين، وهو معتدلُ القَناة رضي الله عنه»[1].

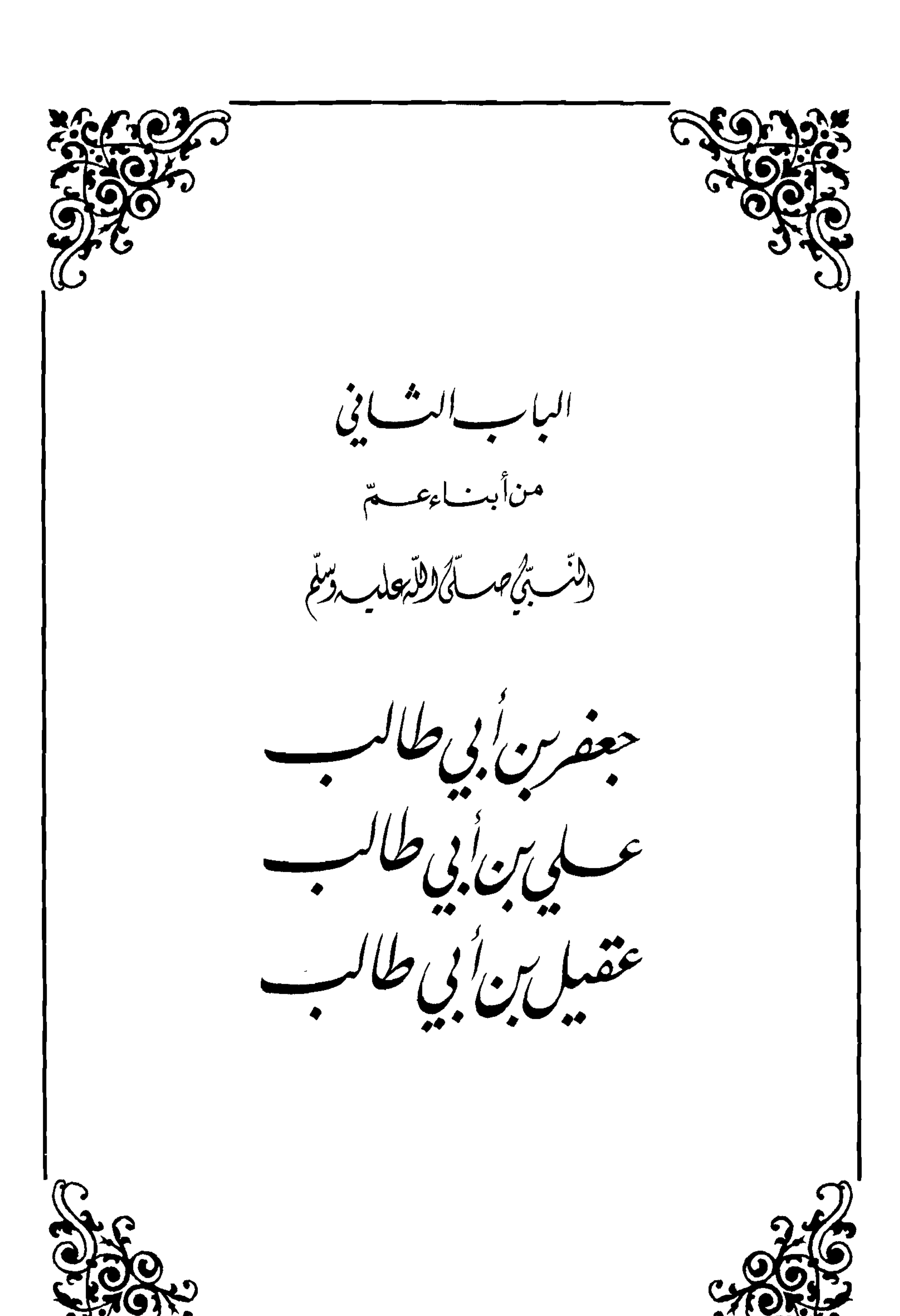
* وفي رحلتِه إلى بلاد الحجاز يذكرُ الشَّيخ عبد الغني النَّابلسيّ رحمه الله أنّه زارَ البقيعَ بالمدينةِ المنوّرةِ، ورأى قبّةَ العبّاسِ رضي الله عنه، فكان ممّا قال: «. . . ثمَّ بدأْنا بزيارةِ قبّة عمٍّ النَّبيّ ﷺ العبَّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه، فدخلْنا إلى قبّتِهِ، وزُرناه. . . وزرنا بقيَّة آل البيت المدفونين هناك. . . وقُلنا في ذلك من النّظَام، بحسبِ ما اقتضاهُ المقام:

قد نِعمْنا بقبّةِ العبَّاس ... وبآلِ البيتِ الشَّريف الرَّاسي
يا لها في البقيعِ من أفق نورٍ ... ضاءَ بين القبورِ كالنّبراسِ
جمعتْ أهلَ أشرفِ الرّسلِ طراً ... وزهَتْ بالجلالِ والإيناسِ
وحظينا بآلِ بيتِ رسول الـ ... ـله فيه من سائرِ الأجناسِ
صَلَواتُ الإلهِ منه عليهم ... كلَّ حين مع السَّلام المُواسي»[2]

* رضي الله عن العبَّاس بنِ عبد المطّلب، وجعلَ رحمته تحفُّنا كالغيثِ المُنْسكب، وحَبَانا بأفضالِهِ التي لا تُحدّ، وأكرمنا بأنعامهِ التي لا تُعدّ، ووهبنا لعبدِه ورسولِه سيّدنا مُحمّد، أفضل مَنْ عَبَدَ ووحَّد، ما طار طير وغرّد، وأذَّن مؤذنٌ وتشهَّد.

❐ ❐ ❐

(١) مختصر تاريخ دمشق (١/ ٣٥٣ و ٤٥٤).
(٢) الحقيقة والمجاز (٣/ ١٤٠ و ١٤١) باختصار وتصرّف.



الباب الثاني

من أبناء عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

جعفر بن أبي طالب
علي بن أبي طالب
عقيل بن أبي طالب




جعفر بن أبي طالب

رضي الله عنه

* أشبه النّاس بالنّبيّ ﷺ خلْقاً وخُلقاً.
* مضيف المساكين، ومهاجر الهجرتين، ومصلّي القبلتين.
* خطيب المهاجرين في أرض الحبشة وسفيرهم.
* أحد أمراء سَريَّةِ مؤتة، وأوّل من عقر فرسه في الإسلام.
* استشهد في في مؤتة سنة (٨ هـ) في حياة النّبيّ ﷺ.




جعفر بن أبي طالب
رضي الله عنه

القُرشيُّ الهَاشميُّ:

* كان سمحاً من السّمحاء، ولبيباً من الألبّاء، وبدراً من البدور الزَّواهر، وبحراً من البحور الزَّواخر، وغيثاً من الغيوثِ المواطر، وليثاً من الليوث الهواصر، كان يشتري الحمدَ بِنَواله، ويُؤثر على نفسِه بماله، يصطنعُ كلَّ جميلة، ويفرّجُ كلّ جليلة.

* هذا السَّيِّد قد غمرَ جودُهُ البحار، وعمَّ عطاؤُهُ الأخيار، إنَّه جعفرُ بنُ أبي طالب الهاشميّ الطَّيّار(١)، القائمُ بطاعة الرّحمن، والمظهرُ للنّجاشي البرهان، أشبهُ النَّاس بالنَّبيِّ ﷺ خَلْقاً وخُلْقاً، ومِنْ أقدمهم في الإسلام سَبْقاً، وأحقَّهم بكلّ سناء حقّاً، رضي الله عنه وأرضاه.

* قدَّمَ أبو نُعيم الأصبهانيُّ البطاقةَ الجعفريَّةَ في هذه الكلمات الشَّذيّة فقال: «هو الخطيبُ المقدام، السَّخيُّ المِطْعام، خطيبُ العارفين، ومضيفُ

---

(١) نسب قريش (ص ٨٠ ـ ٨٢)، وحلية الأولياء (١/ ١١٤ ـ ١١٨)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٣٤ ـ ٤١)، ومجمع الزَّوائد (٩/ ٢٧١ ـ ٢٧٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٨ و١٤٩)، وأنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٤١ و ٤٣ و ٤٤ و ٧٢ و ١١٣ و ١١٤ و ١٩٦ و ٢٨٢ و ٢٩٢)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٦ ـ ٢١٧)، والتَّبيين في أنساب القرشين (ص ٦١ و ٦٤ و ٨١ و ٩٢ و ٩٤ و ١٦١)، وتهذيب التَّهذيب (٢/ ٩٨)، والمعجم الكبير للطّبرانيّ (٢/ ١٠٤ ـ ١١٢) وغيرهما كثير.

المساكين، مهاجر الهجرتين، ومصلِّي القبلتين، البطلُ الشّجاع، الجوادُ الشَّعشاع، جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه...»[1].

* وفي عباراتٍ رقيقةٍ مشرقةٍ عرَّفَه الذَّهبيُّ في مفتتح ترجمته له فقال: «السَّيِّدُ الشَّهيدُ، الكبيرُ الشَّأن، عَلَمُ المجاهدين، أبو عبد الله ابنُ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ... الهاشميّ، أخو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه...»[2].

* وأحسنَ النَّوويُّ لمَّا قال: «جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه، أبو عبد الله الهاشميّ الطَّيَّار ذو الجناحين، وذو الهجرتين، الجوادُ أبو الجواد، كان من متقدّمي الإسلام، وهاجر إلى الحبشة، وكان هو وأصحابه سبب إسلام النَّجاشي رحمه الله، وارتفقَ المسلمون بجعفر هناك، واعتضدوا به، وكان جعفرُ أميرهم في الهجرة...»[3].

* وأجادَ ابنُ الأثير وأحسن صُنعاً عندما تحدّثَ عن جعفر فقال: «جعفر بن أبي طالب... القرشيّ الهاشميّ، ابن عمّ رسول الله ﷺ، وأخو عليّ بن أبي طالب لأبويه، وهو جعفرُ الطَّيّار، وكان أشْبَه النَّاس برسول الله ﷺ خُلُقاً وخَلْقاً، أسلم بعد إسلام أخيه عليّ رضي الله عنه بقليل»[4].

* أصابَ ابنُ حجر قولاً في «الإصابةِ» لمّا قال: «جعفرُ بنُ أبي طالب.. أبو عبد الله، ابن عمّ النَّبيِّ ﷺ، وأحد السَّابقين إلى الإسلام، وأخوهُ عليٌّ شقيقهُ... أسلم بعد خمسة وعشرين رجلاً..»[5].

* وساق ابنُ عبد البرّ الشَّمائل الجعفريَّة منسّقةً ملخَّصة في كتابه «الاستيعاب» فقال: «جعفرُ بنُ أبي طالب يكنَى أبا عبد الله.... كان جعفرُ

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٤٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٦) باختصار.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٨) باختصار.

(٤) أسد الغابة (١/ ٣٤١) ترجمة رقم (٧٥٩).

(٥) الإصابة (١/ ٢٣٩).

أشْبَهَ النَّاس خَلْقاً وخُلُقاً برسولِ الله ﷺ. . كان جعفرُ من المهاجرين الأوّلين، هاجر إلى الحبشة، وقدم منها على رسولِ الله ﷺ حين فتح خيبر. . .»[1].

* وتعني كلمة جعفر كما قال ابنُ دُريد في «الاشتقاق»: «الجعفر: النَّهرُ، فإذا كان صغيراً فهو فَلج، فإذا جاوز ذلك فهو يَنْبوع، فإذا اتّسعَ قليلاً فهو سَرِيٌّ، فإذا اتَّسع أكثر من ذلك فهو جعفر، ويقال: نَهْر ونَهَر، لغتان فُصْحتَان».

أقباسٌ منْ حَيَاتِهِ:

* وُلِدَ سيّدنا جعفرُ رضي الله عنه بين أبوين هاشميين كريمين، فأمُّه فاطمةُ بنتُ أسد، إحدى الصَّحابيات الهاشميّات الفاضلات اللواتي حظينَ بشرفٍ عظيم، فقد تشرَّفَتْ فاطمة بتربيةِ سيّدنا رسولِ الله ﷺ عندما كفِلَهُ زوجُها أبو طالب بعد وفاةِ عبد المطَّلب، وكان ﷺ لا يزال في عُمْرِ الزَّهْر المندّى بالطُّيوب، فأحسنَتْ رعايته وكانت له أمّاً بعد أمِّه؛ ولمَّا أوحىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ رسولِه محمَّدٍ ﷺ أنْ ينذرَ عشيرته الأقربين كانت سيّدتنا فاطمةُ بنتُ أسد من أوائل الهاشميّات إسلاماً وتصديقاً بالرّسالةِ المحمّديّةِ، وعند الهجرةِ إلى المدينةِ سارعتْ إلى الحسنى، فَنُظِمَتْ في عدادِ الهاشميّات المهاجرات، وكان سيّدنا وحبيبنا رسولُ اللهِ ﷺ يعرفُ فَضْلَها وصلاحها، وكان يزورُهَا ويقيلُ عندها، ولها فضائلُ ومناقبُ تقصِّرُ الأقلام عن وصفها، ويكفيها من الفَضْل يكفيها أنَّها أمُّ ثلاثةٍ من كبارِ رجالِ أهل البيتِ الأطهار وهم سيّدنا عقيل وجعفر وعليّ رضي الله عنهم؛ وحشَرنا في معيتهم.

* كان مولدُ سيّدنا جعفر بن أبي طالب في دارٍ مباركة بمكةَ المكرمةِ، وتأتي بركةُ هذه الدّار من نزول رسول الله ﷺ فيها وتربيته في مرحلة الطُّفوليّة كما نعلم من خلال السِّيرة النَّبويّة.

* كشَفَ الفاكهيُّ اللثامَ في «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» وأكَّد بأنَّ

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ٢١١).

مولدَ جعفر بن أبي طالب معروفٌ بمكَّةَ في مكانٍ يُقال له: دار أبي سعيد، وذكر ما مفاده فقال: «ومنها الموضعُ الذي يُقال له مولدُ جعفر الصَّادق بالدَّار المعروفة بدار أبي سعيد بقرب دار العجلة، لأنَّ على بابه حجراً مكتوباً فيه: هذا مولدُ جعفر الصَّادق؛ ودخله النَّبيُّ ﷺ... ويُقالُ لهذا الموضع: مولد جعفر بن أبي طالب المعروف بالطَّيَّار»[١].

* وفي محضن أمّ القرى وقرب البيتِ العتيقِ، درَجَ جعفر بين مدارج الشَّرف ومنابت الفضل، ووعى مكانته الاجتماعيَّة بين أترابه، وعلم مكانةَ البيت الهاشميّ في دنيا بيوت مكَّة أمّ القُرىٰ ومَنْ حولَها.

* ولمَّا غدا غلاماً يَفَعَةً، نزل قَحْطٌ بمكَّةَ المكَّرمةِ، وكان أبو طالب يومها ذا أولاد وعيال، وقريش في ضنك وشدّة، فانطلق سيدنا رسولُ الله ﷺ وعمُّه العبَّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه إلى أبي طالب ليخفّفا عنه من عيالِهِ حتَّى ينكشفَ عن النَّاس ما هم فيه، فوافقَ أبو طالب، وقال: «إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً؛ فاصنعا ما شئتما». فأخذَ الحبيبُ المصطفى ﷺ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه، وأخذَ العبَّاس سيّدنا جعفر، وتركا لأبي طالب عقيلاً وطالباً، وبقي عليٌّ مع النَّبيِّ ﷺ إلى أن بلغَ مبلغَ الرّجال، وكذلك جعفر بقيَ مع العبَّاس إلى أن استغنى[٢].

* ومن عيون الأخبارِ الجعفريّة الميمونة ما جاء في «العُيون»: «ولم يزل جعفرُ عند العبّاس، حتّى أسلم واستغنى عنه»[٣].

* كان إسلام سيّدنا جعفر رضي الله عنه مع السَّابقين الأوَّلين، فقد ذكروا أنَّ إسلامه كان بعد إسلام أخيه عليّ، وزعم ابنُ عساكر أنَّ جعفر كان الثَّالث في قائمة السَّابقين[٤]!!.

---

(١) شفاء الغرام (١/ ٤٣٦) بشيء من الاختصار.

(٢) انظر: السّيرة الحلبيّة (١/ ٤٣٢) بتصرّف.

(٣) عيون الأثر (١/ ١٨٠) لابن سيّد النّاس، طبعة دار ابن كثير الأولى لعام (١٩٩٢ م).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٦٦)، وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢١٦).

* ويبرزُ ابنُ عساكر هذه الواقعة التي تجعلُ سيّدنا جعفر في قَرَنٍ واحدٍ في السَّبْق إلى الإسلام مع سيّدنا عليّ، فيقول ما مفادُهُ عن سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «بينما أنا مع النَّبيِّ ﷺ في حَيْرٍ ـ مَكَانٍ ـ لأبي طالب أصلّي، أشرفَ علينا أبو طالب فنظرَ إليه النَّبيُّ ﷺ فقال: «يا عمّ ألا تنزل فتصلّي معنا»؟

فقال: يا بن أخي، إنّي لأعلمُ أنَّك على الحقِّ، ولكنْ أكرهُ أنْ أسجدَ فيعلو استي؛ ولكن انزلْ يا جعفرُ فَصِلْ جناحَ ابن عمِّك.

فنزلَ فصلّى عن يساري، فلمَّا قضى النَّبيُّ ﷺ صلاته، التفتَ إلى جعفرَ فقال: «أَمَّا إنَّ الله تعالى قد وصَلَك بجناحين تطيرُ بهما في الجنَّة، كما وصلْتَ جناحَ ابن عمِّك»[1]!!.

* وفي روايةٍ أخرى أنَّ أبا طالب قال لجعفر: «أي بنيّ، صِلْ جناحَ ابن عمِّك، فمضى جعفرُ مسرعاً حتى وقف بجنب عليّ، فلمّا أحسَّ به النَّبيّ ﷺ أخّرهما وتقدّم. . . ورأينا السُّرور يتردَّدُ في وجْه أبي طالب ثمّ انبعث يقول:

إنَّ عليّـــاً وجعفـــراً ثقتـــي ... عنـــدَ مُهِـــمِّ الأمـــور والكُـــرَبِ
لا تخـــذُلا وانصُـــرا ابـــنَ عمكمـــا ... وابـــنَ أمّـــي مـــن بينهـــم وأبـــي
واللهِ لا أخـــــذُلُ النَّبـــــيَّ ولا ... يخـــذُلُـــهُ مِـــنْ بنـــيَّ ذو حَسَـــب

وكانت هذه الجماعةُ أوّلَ جماعةٍ في الإسلام»[2].

* ونحن لا نشكُّ في أنَّ إسلام سيّدنا جعفر رضي الله عنه كان مبكّراً مستأنسين بما أفاده ابن إسحاق قال: «أسلم بعد خمسة وعشرين رجُلاً، وقيل: بعد واحد وثلاثين»[3].

* والحاصلُ أنَّ إسلام جعفر كان مع رعيل الأوائل، كما أفاد ابن سعد

(١) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٦٦)!!!؟!.
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٦٧) بتصرف.
(٣) الإصابة (١/ ٢٣٩).

بقوله: «أسلم جعفرُ بنُ أبي طالب قبل أنْ يدخُلَ رسولُ الله ﷺ دارَ الأرقم ويدعو فيها»(١).

* وكان سيّدنا جعفرُ ميمونَ النَّقيبة، موفّقاً في زواجه، إذ إنَّ زوجته أسماء بنت عميس الخثعميّة قد أسلمت معه ونُظمت في طليعةِ السَّابقات إلى الإسلام، وقد حظي هؤلاء السَّابقون الأوائلُ الذين سارعوا إلى الإسلامِ وحماية الدِّين وحراسته، حظوا بثناء الله عزَّ وجلَّ: في مواضعَ عديدةٍ من القُرآنِ العظيم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

* صبر هؤلاء الصَّادقون أمامَ قريش صبراً جميلاً، فقد سُعِرَ مجرموها، ولم يفرِّطوا في طريقةٍ يرون أنَّها تجدي في إزعاج هذه الثُّلّة المؤمنة، أو وضْع العراقيل والعقبات في طريقها، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ثبَّتَ المؤمنين في صبرهم وجهادهم مع نبيّهم ليروا يوماً قريباً يقهرُ الله فيه كلّ ظلمٍ وشرْكٍ وطغيان، فقد كان الوحيُ الكريمُ مدداً لقلوبِ هؤلاء السَّابقين الأصفياء، وكان بالمرصاد لِشَلِّ محاولات المشركين الخبثاء؛ وكشْفِ أساليبهم وخداعهم، وظلَّ المسلمون صابرين ومعهم رجالٌ من أهل البيت كجعفر وعليّ حتّى بدأت طلائعُ النّور تظهرُ من بعيد، فكيف كان ذلك؟!

أميرُ المُهَاجرين في الحَبَشَةِ وخطيبُهُم:

* لم يبرحْ سيّدنا جعفر مكّةَ المكرّمةِ، وظلّ يتحمّلُ أذى المشركين، ويصبرُ الصَّبرَ الجميلَ، ويمتثِلُ الأمرَ النَّبويَّ بضبطِ النَّفسِ حتَّى تمرَّ سفينةُ الحقِّ بِسَلامٍ وأمانٍ؛ وكان النَّبيُّ ﷺ خلال هذه الفترة العصيبة لا يفْتُرُ عن تبليغِ الدَّعوة، وكان الأسوة الحسنة لجعفر وللصَّحابة في الصَّبر على الأذى، وفي التَّحمُّل في سبيل إبلاغ هذه الرّسالة التي ينقذُ اللهُ بها البشريّةُ من شقاء الدُّنيا، وعذاب الآخرة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٤).

* بارك اللهُ عزَّ وجلَّ صبْرَ المسلمين السَّابقين مع نبيّهم ﷺ، وبارك تحمّلهم ألواناً من الآلام في سبيل دينهم، فرفعهم في الأمّة إلى يوم القيامة؛ ولهذا كان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما يقول: «لا تَسُبُّوا أصحابَ محمّدٍ ﷺ، فلَمَقَامُ أحدِهم ساعةً، خيرٌ منْ عَمَلِ أحدِكم عُمْرَهُ»[1].

* أصبح سيّدنا جعفرُ ومَنْ معه من المسلمين الأوائل بمكّة تلاحقُهم نظراتُ المجرمين الغاضبة، ونفوسُهم الملتهبة وألسنتُهم الشّاتمة المعتدية، وأيديهم المبسوطة بأنواع الأذى، فأخذوا يفكِّرون بمكان يهاجرون إليه، يأمنون فيه على دينهم، فكان توجّههم نحو أرض الحبشة، بإشارةٍ من النَّبيِّ ﷺ عندما قال لهم: «إنَّ بأرض الحبشة ملكاً لا يُظْلَم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده، حتّى يجعل اللهُ لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه»[2].

* وخرج المسلمون فأقاموا في الحبشة في أحسنِ جوار، وأمنوا على دينهم، ولم يخشوا ظلماً من أحد.

* كان في أثناء هجرة جعفر وأصحابه إلى الحبشة قد نزلت آياتٌ من سورة الزُّمر، فيها وصيّة الوداع لهم، وصّاهم بها الوحيُ الأمين، وبثَّها لهم عند خروجهم ووداعهم رسول الله ﷺ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠]؛ قال ابن عطيّة في تفسيره «المحرر الوجيز» ما نصُّه: «ويروى أنَّ هذه الآية نزلتْ في جعفر بنِ أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة»[3].

* كان المهاجرون إلى أرض الحبشة في الهجرة الثَّانية اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائِهم وأبنائِهم، وقيل: إنَّ عدةَ نسائهم كانت ثماني عشرة امرأة؛ وكان

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٦٢) وهو حديث حسن، وانظر صحيح ابن ماجه برقم (١٣٣).
(٢) أخرجه ابن هشام (١/ ٣٣٤) طبعة مصر، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥)، والهيثميُّ (٦/ ٢٤).
(٣) تفسير ابن عطيّة (ص ١٦١٢).

سيّدنا جعفر هو أميرُ المهاجرين إلى الحبشة وخطيبهم.

* وقبل أنْ يخرجَ سيّدنا جعفر رضي الله عنه إلى الحبشة مهاجراً أحبَّ أنْ يتفَقَّه ويتزوَّدَ من الهدي النّبويّ في شأن الصّلاة، إذ يُعدُّ جعفرُ من الأوائل في إقامة الصّلاة، حيث كان في أوّل جماعة في الإسلام عندما اقتدىٰ بالنَّبيّ ﷺ وكان معه عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه.

* يفيدُ السُّهيليُّ رحمه الله في «الرّوض الأُنُف» ما يؤخذُ من الفقْه في حديث هجرة الحبشة فيقول: «وممَّا في حديث الهجرة إلى الحبشة من الفقْهِ أنَّ جعفرَ بن أبي طالب رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: كيف نُصَلّي في السَّفينةِ إذا ركبْنَا في البحر؟

فقال ﷺ: «صَلِّ قائماً إلاَّ أنْ تخافَ الغرق».

* عزَّ على مجرمي المشركين أن يجدَ جعفرُ وصحبُهُ المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم، واستشاطوا غضباً عندما رأوا أنَّ متجرهم بالحبشة قد بدأ يتهدّد، إذ نزل عند النَّجاشي بضعٌ وثمانون رجلاً من الصَّحابة، يرأسهم رجلٌ من أهلِ البيت هو جعفرُ بنُ أبي طالب، ويلقى هذا الرَّجل ومَنْ معه من الرِّجال والنِّساء ترحيب النَّجاشي وبعض من حوله.

* ولم يكن هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة والسَّابقون إلى الإسلام منْ ضُعفاء النَّاس، وأوساطهم، وأرقائهم، كما شُهِرَ ذلك على أقلامِ كثيرٍ من الكاتبين وألسنتهِم، وكثيرٍ من الباحثين أيضاً، إذ زعم هؤلاء أنَّ السَّابقين إلى الإسلام كانوا فقراء ضعفاء أرقّاء بُسَطاء، لا يملكون حِيْلةً ولا حَوْلاً ولا مكانةً، وَزَعْمُ هؤلاء الكاتبين مردودٌ بواقع مَن أسلم مِنَ السَّابقين الأوّلين، ومن المهاجرين إلى الحبشة بصحبةِ سيّدنا جعفر بن أبي طالب، وصحبةِ سيّدنا عثمان بن عفّان من قَبْلُ.

* فقد كان أكثر السَّابقين إلى الإسلام من ذِرْوَةِ أبناء بيوت قريش، وعُليا قبائلها، وصفوةِ شبابها، وهؤلاء أجمعون معروفون كالجوزاء بأسمائِهم

وأحسابِهم وأنسابهم، وأوّلهم أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ومن ورائه بقية العشرة المبشّرين بالجنّةَ؛ إذ إنَّهم كلّهم من أنبل شبابِ قريش وأكابرها وأشرافها، ومنهم سيّدنا جعفرُ بنُ أبي طالب الهاشميّ سيّد شباب قريش وأصبحهم وجهاً، وأبو سلمة المخزوميّ، والأرقمُ بنُ أبي الأرقم، وعبيدةُ بنُ الحارث، وعثمانُ بنُ مظعون، وآخرون؛ تكفَّلت كتبُ السِّيرة والتَّراجم والطَّبقات بذكْر أسمائهم وسردها مع أنسابهم[1].

* ولم تكن السَّابقاتُ إلى الإسلام بأقلّ مكانة من الرّجال، فهذه خديجةُ أمّ المؤمنين الطَّاهرة رضي الله عنها أوّل الخلْقِ إسلاماً، ثمَّ أمّ الفضل زوج العبّاس بن عبد المطّلب، وفاطمةُ بنتُ الخطّاب العدويّة، وأمُّ سلمة المخزوميّة، وزينبُ بنتُ جحش الأسديّة، ومن البنات من أهلِ البيتِ الطَّاهر أسلمت بناتُ النّبيِّ ﷺ ورضي الله عنهنّ، فقد نطقن بالشَّهادة مع أمّهنَّ سيّدتنا خديجة رضي الله عنها، وكذلك أسلمت أسماءُ بنتُ أبي بكر، وأسماءُ بنتُ عُميس زوجة جعفر بن أبي طالب وغيرهنّ كثيرات من ذُرا بيوتات مكّة وأعلاها حسباً ونسباً، وقد فصّلنا ذلك وبينّاه في كتابنا «بيعة النِّساء في القرآن والسِّيرة».

* كان هؤلاء النّبلاءُ السَّابقون هم أوّلُ مَنْ آمنَ بالرّسالةِ المحمّديّةِ، واهتدوا بهدي رسولِ الله ﷺ، وكانوا الأساسَ الصَّريحَ المتينَ في بناء صَرْحِ هذا الدِّين القيّم الذي ارتضاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده؛ دين الإسلام. وهذا لا يمنع من دخولِ بعض الضُّعفاء في الدِّين، ويكونوا في عداد السَّابقين، إلّا أنَّهم لا يشكِّلون كثرةً كاثرةً كما زعم الكاتبون دون تمحيصٍ وتدقيقٍ في هذا الأمر المهمِّ.

* على أنَّنا نعتبرُ أنَّ هجرةَ جعفر والمسلمين إلى الحبشة، لم تكن هجرة ضعف وخوفٍ، ولكنّها كانت لوناً من ألوانِ تبليغ الرّسالة، لأنَّ المؤمنين الذين هاجروا إلى الحبشة، يحملون في أفئدتهم آياتِ دعوتهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وهم

---

(١) انظر أسماء السَّابقين الأوّلين في عيون الأثر (١/ ١٧٨ ـ ١٨٨)، والدُّرر (ص ٣٩ ـ ٤١) وغير ذلك.

مسؤولون عن تبليغ هذه الدَّعوة أينما حلُّوا، وكلَّما وجدوا مجالَ التَّبليغ مُهيّئاً لكلمة الحقِّ، يجهرون بها وهم آمنون مطمئنون، كما فعل سيّدنا جعفرُ بنُ أبي طالب أمام النَّجاشي وبطارقته، وأمام ملأ من النَّاس في مجلس النّجاشي ومقرّ حكمه في أرض الحبشة.

* ونُميَ خبرُ المهاجرين في الحبشة إلى قريش، فأقامها المقيمُ المقعدُ، وراحت تفكّرُ في مكيدةٍ تزلق بها مهاجري الحبشة، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ثم إنَّ كبراءَ المجرمين توصّلُوا إلى مكيدةٍ خطيرة، فاختاروا منهم رجلين جَلْدَين لَبيبَيْن، وهما: عمرو بنُ العاص، وعبدُ الله بنُ أبي ربيعة ـ قبل أنْ يُسْلِما ـ وأرسلوا معهما هدايا مستطرفة من متاعِ مكَّةَ إلى النّجاشي وبطارقته، وقالوا لهما: «ادفعا إلى كلِّ بطريق هديّته، قبلَ أنْ تكلّما النّجاشي فيهم، ثم قدّما إلى النّجاشي هداياه، ثمّ سَلاَهُ أنْ يسلمهم إليكما قبل أنْ يكلّمهم».

* خرج الرّجلان، وساقا تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوَّدا كلَّ بطريق بالحجج التي يُطْرَدُ بها جعفر ومَنْ آمنَ معه، وبعد أن اتّفقت البطارقة أنْ يشيروا على النَّجاشي بإقصائهم عن أرضه؛ حضرا إلى النَّجاشي، وقدَّما له الهدايا، فقبلَها منهما، ثمّ كلّماه، فقالا له: «أيّها الملك، إنَّه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دِيْنَ قومهم، ولم يدخلوا في دِينكَ، وجاؤوا بِدينٍ ابتدعوه، لا نعرفه نحنُ ولا أنتَ، وقد بعثَنَا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردّهم إليهم، فهم أعْلَىٰ بهم عيناً، وأعلمُ، بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه».

* وشدَّ البطارقةُ من أزْرِ عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة وقالت للنَّجاشي: «صَدقَا أيها الملك، قومُهم أعلى بهم عيناً، وأعلمُ بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم».

* بَيْدَ أنَّ النَّجاشي كان حصيفاً عادلاً لا يُظلمُ عنده أحدٌ كما وصفَهُ النَّبيّ ﷺ، ولم يُلْقِ بالاً لبطارقته، ولا لرسولَي قريش الدَّاهيتَيْن، ورأى أنَّ

سماعَ الكلام من المسلمين ضروريٌّ لتحقيقِ العدالة، ولابدَّ من سؤالهم عمَّا يقولُ هذا الرَّجلان القُرشيّان في أمرهم، فإنْ ثبتَ خلاف ما يقولون أحْسَنَ جوارهم ما جاوروه.

* ثمَّ إنَّ النَّجاشي أرسلَ إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على صدقِ القولِ كائناً ما كان؛ فقال لهم النَّجاشي: «ما هذا الدِّيْنُ الذي فارقْتم فيه قومكم، ولم تدخلُوا به في ديني، ولا في دينِ أحدٍ من هذه الملل»؟!

* وهاهنا برزَ أميرُ المهاجرين وخطيبُهم جعفرُ بنُ أبي طالب ـ وكان من فَصَحةِ أهلِ البيت وخطبائهم ـ وقال مخاطباً النّجاشي بكلام وافٍ شافٍ كافٍ: «أيّها الملك، كنّا قوماً أهلَ جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسيءُ الجوار، ويأكلُ القوي منّا الضَّعيف، فكُنَّا على ذلك، حتّى بعثَ الله إلينا رسولًا منّا، نعرفُ نسبَهَ وصدقَهُ وأمانتَهُ وعفافَهُ، فدعانا إلى اللهِ لنوحّده ونعبدَه، ونخلعَ ما كُنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدقِ الحديث، وأداء الأمانة وصلَة الرّحم، وحسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحشِ، وقولِ الزّور، وأكْلِ مال اليتيم، وقَذْفِ المحصنات، وأمرنا أَنْ نعبدَ اللهَ وحده، لا نشركَ به شيئاً، وأمرنا بالصَّلاة والزّكاة والصِّيام. ـ وعدَّد جعفرُ على النّجاشي أمورَ الإسلام ـ فصدّقْنَاه، وآمنّا به، واتَّبعناه على ما جاءنا به من دِيْنِ الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشركْ بهِ شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعَدَا علينا قومنا؛ فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأنْ نستحلَّ ما كُنّا نستحلّ من الخبائث فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقُوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أنْ لا نظلمَ عندك أيّها الملك».

* وأعجب النّجاشيُ ببلاغةِ جعفر وفصاحته وحصافته وظهرَ الارتياحُ على

أسارير وجهه، فقال له: «هل معكَ شيءٌ ممّا جاء به محمّدٌ ﷺ عن الله ِمن شيء»؟

فقال له جعفرُ رضي الله عنه: «نعم أيّها الملك».

فقال له النّجاشي: «فاقرأه عليَّ إذن».

فقرأ عليه سيّدنا جعفرُ صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[مريم: ١] ـ وكان ذا صوت ندي شجي مؤثّر ـ فبكى والله النّجاشي حتّى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفتُه حتّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم جعفرُ من الآيات والذّكر الحكيم، ثمّ قال لهم النّجاشي: «والله ِإنَّ هذا، والذي جاء به عيسى لَيخرجُ من مشكاةٍ واحدة».

ثمَّ قال لرسوليَ قريش: «انطلقا، فلا والله ِلا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون». فخرجا، بيد أنَّ عمروَ بنَ العاص كان صلْبَ القناة، ذكياً لا يهتزُّ للمفاجآت، ولا تحرّكهُ الأحداثُ، ولا يستسلم للعجز بسهولة، والتفتَ إلى صاحبه عبد الله بن أبي ربيعة وقال: «يا عبد الله؛ والله ِلآتينّهم غداً بما أستأصلُ به خضراءهم».

فقال له عبدُ الله بن أبي ربيعة: «لا تفعلْ يا عمرو، فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفوا، وخرجوا عن أمرنا».

ولكنَّ عمروَ بنَ العاص أصرَّ على رأيه وقال: «والله ِلأخبرنّه أنّهم يزعمون أنَّ عيسى بن مريم عبدٌ».

فلمَّا كان الغَدُ، جاء عمرو وقال للنَّجاشي: «أيّها الملك! إنّهم يقولون في عيسى ابنِ مريم قولًا عظيماً، فأرسلْ إليهم، فسَلْهم عمّا يقولون فيه»؟.

فأرسل إليهم النّجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا ونزلَ بهم أمرٌ عظيمٌ، ولكنْ أجمعوا على الصِّدق، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلمّا دخلوا عليه وسألهم: «ماذا تقولون في عيسى ابن مريم»؟ فقام سيّدنا جعفرُ بنُ أبي طالب، ثمّ تقدَّمَ من النَّجاشي بقلبٍ ثابتٍ مفعم بالصِّدقِ والحقِّ وقال: «أيّها

الملك، نقولُ فيه الذي جاءنا به نبيّنا ﷺ، يقول: هو عبدُ الله ورسولُه، وروحُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فأخذ النّجاشي عُوداً من الأرض، ثمَّ قال كلمة حقّ ووفاء وصدق: «والله يا جعفرُ ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود». ونزلت كلمةُ النّجاشي كالصَّاعقة على البطارقة من حوله، فتناخرَتْ وهاجَتْ وماجَتْ حين قال ما قال، فقال لهم: «وإنْ نخرتُم واللهِ».

ثمّ قال مخاطباً سيّدنا جعفر ومَنْ معه من المسلمين: «اذهبوا فأنتم شيومٌ بأرضي ـ والشيُّوم بلسان الحبشة: الآمنون ـ مَنْ سبّكم غرم، من سبّكم غرم، من سبّكم غرم، ما أحبُّ أنَّ لي دَبْراً من ذهب ـ والدّبر: الجبل بلسان الحبشة ـ وأنّي آذيتُ رجلاً منكم».

ثمّ قال لحاشيته: «ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله منّي الرّشوة حين ردَّ عليّ مُلكي، فآخذ الرّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فيّ فأطيعهم فيه».

وختمت سيّدتنا أمّ المؤمنين أمّ سلمة التي تروي قصّة الهجرة بقولها: «فخرج رسولا قريش من عنده مقبوحَين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خيرِ جار»[1].

* وفي خروج جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة، أخرج أبو نُعيم في «دلائل النُّبوَّة» هذه القصّة بسنده عن عروةَ بنِ الزُّبير، وكان ممّا كلم به النّجاشي جعفرُ ومَنْ معه قوله: «أخبروني أيّها الرّهط، ما جاء بكم؟ وما شأنكم؟ ولمَ أتيتموني ولستم بتجّار، ولا سُؤّال؟ وما نبيّكم هذا الذي خرج؟ وأخبروني لِمَ لا تُحيّوني كما يحييني مَنْ أتاني من أهل بلدكم؟ وأخبروني ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

(١) انظر المصادر الآتية مع الجمع بينها: السِّيرة النّبويّة (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨)، وحلية الأولياء (١/ ١١٦)، ودلائل النّبوة للبيهقيّ (٢/ ٣٠١ و٣٠٤)، ومختصر تاريخ دمشق (٦/ ٦٢ ـ ٦٤)، وسير أعلام النّبلاء (١ ,٢١٥ و ٢١٦)، ودلائل النّبوة للأصبهانيّ (١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧).

فقام جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه وكان خطيبُ القوم فقال: إنّما كلامي ثلاثُ كلمات، إنْ صدقتُ فصدّقني، وإنْ كذبت فكذّبني، فأمُرْ أحداً من هذين الرّجلين ـ وأشار إلى عمرو بن العاص وصاحبه ـ فليتكلّم ولينصت الآخر.

قال عمرو: أنا أتكلّم.

قال النّجاشي: أنت يا جعفرُ فتكلّم قبله.

فقال جعفر: إنّما كلامي ثلاث كلمات، سَلْ هذا الرَّجل أعبيدٌ نحنُ أبقْنا من أربابنا؟ فارْدُدْنا إلى أربابنا.

فقال النّجاشي: أعبيدٌ هم يا عمرو؟

قال عمرو: بل أحرارٌ وكرام.

قال جعفر: سَلْ هذا الرّجل هل أهرقنا دماً بغير حقّه؟ فادفعنا إلى أهل الدم.

فقال: هل أهرقوا دماً بغير حقّه؟

فقال: ولا قطرة واحدة من دم.

ثمَّ قال جعفر: سلْ هذا الرّجل، أخذنا أموال النَّاس بالباطل؟ فعندنا قضاء.

فقال النّجاشي: يا عمرو إنْ كان على هؤلاء قنطار من ذهب فهو عليَّ.

فقال عمرو: ولا قيراط.

فقال النَّجاشي: ما تطالبونهم به؟

قال عمرو: فكنّا نحنُ وهم على دينٍ واحدٍ، وأمرٍ واحدٍ فتركوه ولزمناه.

فقال النَّجاشي: ما هذا الذي كنتم عليه، فتركتموه وتبعتم غيره؟

فقال جعفر: أمَّا الذي كنّا عليه فَدِيْنُ الشّيطان وأمر الشّيطان، نكفرُ بالله،

ونعبدُ الحجارة، وأمّا الذي نحن عليه فدين الله عزَّ وجلَّ؛ نخبرك: إنَّ اللهَ بعثَ إلينا رسولاً كما بعث إلى الذين من قبلنا، فأتانا بالصِّدق والبرِّ، ونهانا عن عبادةِ الأوثانِ فصدقناه وآمنا به، واتّبعناه، فلمّا فعلنا ذلك عادانا قومنا، وأرادوا قَتْلَ النّبيِّ الصَّادق، وَرَدَّنا في عبادة الأوثان، ففررنا إليك بديننا ودمائنا، ولو أقرَّنا قومنا لاستقررنا، فذلك خَبَرُنا.

وأمَّا شأن التّحيّة: فقد حييناك بتحيَّةِ رسولِ الله ﷺ، والذي يحيِّي به بعضنا بعضاً، أخْبَرنا رسول الله ﷺ أنَّ تحيَّة أهل الجنَّة السّلام، فحييناك بالسَّلام.

وأمَّا السُّجود: فمعاذ الله أنْ نسجدَ إلا لله، وأنْ نعدلك بالله.

وأمَّا في شأْنِ عيسى ابن مريم: فإنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل في كتابه على نبينا أنّه رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسل، ولَدَتْه الصِّدّيقة العذراء البتول الحصَان، وهو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وهذا شأن عيسى ابن مريم.

فلمّا سمع النَّجاشي قول جعفر: أخذ بيده عُوداً ثمَّ قال لمن حوله: صدقَ هؤلاء النَّفر، وصدق نبيّهم، والله ما يزيد عيسى ابن مريم على ما يقول هذا الرَّجل ولا وزْنَ هذا العود... ثم قال لهم النَّجاشي: أيّكم أدْرَسُ للكتاب الذي أُنزل على نبيّكم؟

قالوا: جعفر؛ فقرأ عليهم جعفر سورة مريم، فلمّا سمعها عرفَ أنَّه الحقُّ وقال النَّجاشي: زِدْنا من هذا الكلامِ الطَّيِّب، ثمَّ قرأ سورة أخرى، فلمَّا سمعها عرف الحقَّ، وقال: صدقتم وصدقَ نبيّكم ﷺ، وأنتم والله صدِّيقون، أمكثوا على اسم الله وبركته آمنين ممنوعين، وأُلقيَ عليهم المحبّة من النَّجاشي...»[1].

---

(١) دلائل النّبوّة لأبي نُعيم الأصبهانيّ (١/٣١٨ ـ ٣٢١) بتصرّف يسير جدّاً. ومن الجدير بالذّكر أنَّ النّجاشي قد أسلم. وصدَّق بنبوَّة رسول الله محمّد ﷺ، وإن كان قد أخفى إسلامه عن قومه ومن حوله؛ وذلك عندما تأكّد أنّهم مقيمون على الباطل، وأنّهم حريصون على الضَّلال، ثابتون على العقائد المنحرفةِ، والموروثات المخالفة للعقل. وفي إسلام النّجاشي نجد هذا الخبر =

* لقد وفّقَ سيّدنا جعفرُ رضي الله عنه إلى لُباب المعاني في حديثه للنَّجاشي، إذ لم يعمد إلى الحشو والإطناب، وإنّما أوجز ما وسعه الإيجاز، دون أنْ يخلَّ بالمعنى المراد، وهكذا تكون مخاطبة الملوك والأمراء.

* ولا غرو فسيّدنا جعفر من رجال أهلِ البيت، ومن أهل بيت النّبوّة، وهو مُسَاوٍ للنَّجاشي في الفخر، ولذا فقد خاطبه بقدر ما يحتاجُ الموقفُ إلى الكلام، مع العلْم أنَّ النَّسبَ الشَّريفَ الطَّاهرَ الذي ينتمي إليه جعفر لا يرقى إليه النَّجاشي ولا غيره، ولذا فقد نجح جعفر في مخاطبته للنَّجاشي، ولنستمع إلى هذه النُّونية المعبّرة التي ترسم خبر جعفر مع الملك النَّجاشي:

نادىٰ النَّجاشي جُندَهُ هاتُوا جميعَ المسلمين
جاؤوا وفيهم جعفرٌ خيرُ الشَّباب الطَّائعين
سأَلَ النَّجاشي جَعْفَراً ما دينُكم في العَابدين
فأجابَهُ في حكمةٍ في فِطنةِ المُتحدّثين
إنَّا أَبيتَ اللعْنَ كنَّا قبل هذا مشركين
إذْ نعبدُ الأصنام كفراً بئس ما كُنَّا نَدِين
بل نقطعُ الأرحامَ لا نأتي خواص الأقربين
أو نقتلُ الفَتَياتِ من فقْرٍ وعارٍ ظالمين
من بَعْدِ ذلك جاءَنا هادٍ هدَانا أجمعين
هو مِنْ خيار القوم فينا قد تسمَّى بالأمين
نادى إلى تَرْكِ الذي كُنّا له مُتَوارثين

= الصَّحيح في الصَّحيح عن أبي هُريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ نعىٰ النّجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى، فصفّ بهم، وكبّر عليه أربع تكبيرات». وعن جابر رضي الله عنه قال: قال النّبيّ ﷺ حين مات النّجاشي: «مات اليوم رجلٌ صالح، فقوموا فصلّوا على أخيكم أصحمة» (أخرجه البخاريّ برقم ٣٨٧٧)، وكانت وفاةُ النّجاشي سنة تسع عند الأكثر، والله تعالى أعلم. (سير أعلام النبلاء ١/ ٤٢٨ ـ ٤٤٣) بتصرف.

لا تعبــدوا تلــك الحجــارةَ بــل إلــهَ العَــالَميــن
لمَّــا علمنــا صِــدْقَــه فــوراً أجبْنــا مُســرعيــن
فعــدا علينــا قــومُنــا فــي غلْظَــةٍ مُتجبِّــريــن
لــم نستطــعْ لقتــالِهــم جئْنــا إليــك مهــاجــريــن

* وكما علمنا فقد أُعجِبَ النّجاشي بفصاحةِ جعفر وحديثه، وأجابه جعفر عن كلِّ ما سأله دون مواربة:

قــال النَّجــاشــي بعــدمــا عــرفَ الحقيقــةَ بــالسُّــؤال
لاشــكَّ هــذا مــن كــلامِ اللهِ ربــي ذي الجَــلال
هــو والــذي نــادىٰ بــه عيســى شبيــهٌ فــي المقَــال
نظــرَ النّجــاشــي نحــو جَعْفَــرَ فــي رضــاءٍ ثــمّ قــال
أنتــم علــى حــقٍّ وهــم أهــلُ الضَّــلال بــلا جــدال
سيــروا بــأرضــي آمنيــن ولا تخــافــوا مِــنْ قتــال

* بهذه العبقريّة الجعفريّة غدا النّجاشي من المسلمين، والنّجاشي اسمهُ «أصحمة»، وهو معدودٌ في الصَّحابة رضي الله عنهم، وكان ممّن حَسُنَ إسلامه ولم يهاجرْ، ولا له رؤية، فهو تابعي من وجْهٍ، صاحبٌ من وجْهٍ.

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ سيّدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه كان يُؤذىٰ قبل الهجرة، فجاء إلى رسولِ الله ﷺ وقال: «يا رسول الله، ائذن لي أنْ آتيَ أرضاً أعبدُ الله فيها لا أخافُ أحداً» فأذن له فيها، فأتى النّجاشي في أرض الحبشة.

* تدلُّ بعضُ الرّوايات على أنَّ رسول الله ﷺ قد كتب إلى النّجاشي كتاباً خاصاً حَمَلَهُ إليه سيّدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه[1]. ونصّ كتاب النَّبيّ ﷺ إلى النَّجاشي كان متضمّناً ـ إلى جانب الدّعوة إلى توحيد الله عزَّ

(١) وقيل: بعث رسول الله ﷺ عمروَ بنَ أميّة الضَّمريّ رضي الله عنه إلى النَّجاشي، في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً.

وجلَّ ـ الوصيَّة بالمسلمين، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ إليه ابن عمّه جعفراً ونفراً من المسلمين ليكرمهم، ويحسن جوارهم ليأمنوا في جواره وداره.

* وتحتفظُ مصادرُ السِّيرة بالنَّصِّ النَّبويِّ ذي الوصاية برجلٍ من رجالِ أهلِ البيت هو جعفر، وكذلك الوصاية بمن معه من المسلمين المهاجرين إلى الحبشة.

* والآن دعونا نقرأ الكتابَ المحمّديَّ إلى النَّجاشيِّ[1] ملك الحبشة، والذي حمله إليه سيّدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ونصّ الكتاب هو: «بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ. من محمّدٍ رسولِ اللهِ إلى النّجاشي الأصحمِ ملكِ الحبشة، سلام عليك، فإنّي أحمَدُ إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهدُ أنَّ عيسى روحُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم البتول الطّاهرة الطَّيِّبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخَلَقَهُ من روحِهِ، ونفخَتِهِ كما خلَقَ آدم بيدِهِ ونفخِهِ، وإنّي أدعوكَ إلى اللهِ وحده لا شريكَ له، والموالاة على طاعته وأنْ تتَّبعني، فتؤمنَ بي وبالذي جاءني، فإنّي رسولُ الله، وقد بعثْتُ إليك ابن عمّي جعفراً ومعه نفرٌ من المسلمين، فإنْ جاؤوك فَاقْرِهم ودع التّجبّر، فإنّي أدعوكَ وجنودَكَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وقد بلَّغْتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتي، والسَّلام على من اتّبع الهدى».

* وقد ردَّ النَّجاشي على كتاب الحبيبِ المصطفى ﷺ بكتابٍ لطيفٍ أنيقٍ أجاب فيه إلى الإسلام والدِّين الحنيفِ، واستجاب إلى وصيّة الصَّادق المصدوق ﷺ بالمسلمين المهاجرين فأكرمهم وأحسن قِراهم ـ ضيافتهم ـ ووفادتهم.

---

(١) «النَّجاشي»: بالفتح، وفي الياء لغتان بتشديد الياء، وبتخفيفها، والأخير أفصح وأعلى، واختُلف في اسمِهِ على أقوال فقيل: أصحمة اسم ملك الحبشة. (تاج العروس ٤/ ٣٥٤).
وقال الذَّهبي: «اسمهُ أصحمة؛ وأصحمةُ بالعربي: عطيّة». (سير أعلام النُّبلاء ١/ ٤٤٣).
وأصحمة هو الذي صلّى عليه النّبيّ ﷺ صلاة الغائب (صحيح مسلم رقم ٩٥١).

* قال النّجاشي في كتابه لرسول الله ﷺ: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم. إلى محمّدٍ رسولِ الله من النَّجاشي الأصحم بن أبجر: سلامٌ عليك يا نبيَّ اللهِ من اللهِ ورحمة الله وبركاته؛ لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، فقد بلغَني كتابك يا رسولَ الله فيما ذكرتَ من أمر عيسى، فوربِّ السَّماء والأرض إنَّ عيسى ما يزيدُ على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثْتَ به إلينا، وقرّبنا ابنَ عمِّك وأصحابَه، فأشهدُ أنّك رسولُ اللهِ صادقاً ومصدّقاً، وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمّك وأسلمتُ على يديه لله ربِّ العالمين؛ وقد بعثْتُ إليك يا نبيَّ الله أَرْهَا بن الأصحم بن أبجر، فإنّي لا أملكُ إلاَّ نفسي، وإنْ شئْتَ أنْ آتيكَ فعلْتُ يا رسولَ الله، فإنّي أشهدُ ما تقولُ حقّ»(١).

---

(١) انظر نص هذين الكتابين في: البداية والنّهاية (٣/ ٨٣ و ٨٤)، وسبل الهدى والرّشاد (٢/ ٥٢٤ و ٥٢٥) وما أجمل أنْ نقرأ هذه التَّغريدة التي تصف الرّسالة النّبويّة إلى النّجاشي مع ردّ النّجاشي عليها، وبيان دور سيّدنا جعفر في هذا المضمار المبارك:

أُولى الرَّسائلِ دون شكٍّ من إمام المتّقين
كانتْ إلى الملكِ النَّجاشي ذلك المَلِكِ الأمين
كان النَّجاشي مؤمناً بل في الملوك العادلين
قَرأَ الرّسالةَ باهتمامٍ ظاهرٍ للنّاظرين
وضعَ الرسالةَ فوقَ هامتِهِ بإجلالٍ مبين
أيضاً ترجَّلَ عن سريرِ المُلْكِ كالمتواضعين
كتبَ النَّجاشي كي يردّ على إمام المرسلين
بدأ الرّسالةَ قائلاً مرحى رسول العالمين
ما قلْتَه في شأن عيسى ذاك قولُ الصَّادقين
هو لم يزدْ حرفاً على ما قلتهَ هذا يقين
أمّا ابن عمّك والرّفاق فإنهم في الآمنين
خذ بيعة الإسلام منّي إنني في المسلمين
مع جعفر أسلمتُ حقّاً فهو ذو عقلٍ فطين
أنتَ الرّسولُ مصدّق للأنبياء السَّابقين

* ويمكننا أن نستخلصَ بأنَّ الأهدافَ متعدّدةٌ من هجرةِ جعفر وصحبه إلى الحبشة، ومنها: نَشْرُ الإسلام هناك، وفتحُ أرض جديدة للدّعوة؛ ولهذا نجدُ هجرةَ سادات من الصَّحابة إليها ثمّ لحقَ بهم سادات آخرون، وأوكلَ أمْر قيادتهم إلى رجل من أهل البيت، سيّدنا جعفر رضي الله عنه(١).

* وكان النَّجاشيُ يعرف أنَّ سيّدنا جعفر هو ابنُ عمّ النَّبيِّ ﷺ، وهذا ما جعله أكثر اطمئناناً وثقةً بما يعرضُ من البيّنات عن ابن عمّه رسولِ الله ﷺ.

* ولا ريب في أنَّ خُلُقَ سيّدنا جعفر كان مقتبساً من مشكاة النّبوّة، أمّا جمال شكْلِهِ وشخصيّته وخَلْقِهِ فكان منحدراً من أصلاب بني هاشم أجمل النَّاس، ولهذا قال الحبيبُ الأعظم سيّدنا رسولُ الله ﷺ لجعفر: «أشْبَهت خَلْقي وخُلُقي»(٢).

* فجعفرُ رضي الله عنه سفيرٌ نبويٌ حصيفٌ جميلٌ ألقى مقاليد الفصاحةِ والحجَّة بين يدي النّجاشي، فكان الأسوة النَّاصعة لسفراء الإسلام على مرور

---

(١) من الملاحظ من خلال سيرة سيّدنا جعفر رضي الله عنه أنَّ وجودَهُ في مقدمة المهاجرين إلى الحبشة ـ وهو ابن عمّ رسول الله ﷺ ـ له دلالةٌ واضحةٌ تشيرُ إلى أنَّ المصاعبَ والمصائبَ لابدّ أنْ يتحمّلها المقربون من بيتِ النّبوّة وهذا هو المنهجُ النّبويُّ الذي ربّى الصّادق المصدوق ﷺ عليه أصحابه أجمعين.
ومن الواضح أنَّ النّبيّ ﷺ كان قد جعل جعفراً أميراً على المهاجرين، وتمّ اختياره أيضاً من قبل المهاجرين حتّى يتحدّث باسمهم بين يدي النَّجاشي، وليصدّ داهيةَ العرب وألمعيّها عمروَ بنَ العاص رسول قريش إلى النّجاشي، وقد استطاع سيّدنا جعفرُ رضي الله عنه أنْ يفوّتَ الفرصةَ على عمرِو بنِ العاص ويجعله خاسراً خائباً في سفارته، ويعودُ بخفيّ حُنين إلى مكّةَ، كما ندركُ أيضاً عبقرية سيّدنا جعفر الذي يعدُّ من أخلص رجال أهل البيت وألصقهم بالنّبيّ ﷺ، فقد عرف جعفر كثيراً من الشَّمائل المحمّديّة واقتبس كثيراً منها، وموقفه بين يدي النّجاشي يدل على ذلك، إذ إنّه يحتاج إلى بلاغة وإلى نباهة وفطنة وفصاحة، وبنو هاشم ذروة قريش والعرب نسباً وفضلاً، وجعفر في الذّؤابة من بني هاشم أفصح العرب، وأبلغهم، وأكثرهم معرفة بمعاني الكلام.

(٢) أخرجه البخاريّ برقم (٢٦٩٩)؛ والتّرمذيّ برقم (٣٧٦٥).

الأزمان، إذ اتّصف بسمات السُّفراء المسلمين كالفصاحةِ والعلْمِ والحلْمِ والصَّبرِ والحكمةِ وحضورِ البديهة، والمظهر الأنيق، والشَّجاعة في أحرج المواقف وأخطرها، والخروج من المآزق بنجاح عظيم.

* من ذلك أنَّ ردَّ سيّدنا جعفر رضي الله عنه على أسئلةِ النَّجاشي كان رداً متميّزاً في غاية الذَّكاء والنَّباهة، وذروة اللباقة في مخاطبة الملوكِ وذوي الشَّأن، إذ استوعبَ في ردِّهِ على أسئلةِ النّجاشي جميعَ وسائل النّجاح التي يحتاجُها السُّفراء في سفاراتهم.

* ويمكن أنْ نوجزَ الحصافةَ الجعفريّةَ والبلاغةَ الهاشميّة، والشّموليّة المَنَافيّة في النّقاط الآتية:

أوّلاً: استطاع سيّدنا جعفر رضوان الله عليه أنْ يفنّد عيوبَ الجاهليّة، ويعدّدَ معايبها، ويعرضَها في إطارٍ ذميمٍ قصد من خلاله رسْمَ صورة العادات الذّميمة أمام بصيرة النَّجاشي وبصره لينفرَ منها ويمقتَها.

ثانياً: ركّزَ في حديثه عن النُّبوّة وأظهر شخصيّة الصَّادق المصدوق ﷺ المتألّقة في مجتمع قريشٍ المفعم بالنّقائص والرّذائل، واستطاع جعفرُ أنْ يعرض الشَّخصيَّة المحمّديّةَ بدقّةٍ تامّةٍ، وكيف أنّه ﷺ كان بعيداً عن أمور قريش الفاسدة، ثمَّ أبرزَ شخصيته بشكلٍ واضح إذ كان ﷺ مؤهّلاً للرّسالة، فهو معروفٌ في الأوساط القرشيّة بِنَسَبِه الصّريح، وصدقه وعفافه، وأمانته، وتقواه وبرّه بالنّاس.

ثالثاً: في مهارة المتحدّثين عرضَ سيّدنا جعفر فضائلَ الإسلام ومحاسنَه، التي تنسجمُ مع دعوات الأنبياء السّابقين وأخلاقياتهم وفي مقدمتها: نبذُ عبادة الأصنام والأوثان،، وصدقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، وصلةُ الرّحم، وحسنُ الجوار، والكفُّ عن المحارم، والدماء، وإقامُ الصَّلاة، وإيتاء الزّكاة؛ ثم فَضَح جعفر ما فعلته قريش بهم، لأنَّهم رفضوا عبادة الأوثان، وآمنوا بما أُنزِلَ على رسول الله ﷺ، وتخلَّقُوا بشمائله وأخلاقه وسلكوا نهج الحقِّ وسبيل الرّشاد.

رابعاً: أبرزَ جعفرُ رضي الله عنه شخصيّة النَّجاشي العادلة، وأثنى عليه بصدق الحديث بأنَّه لا يُظلم عنده أحد، وأنَّه يقيمُ العدل في قومه، ولهذا اختاره جعفر والمهاجرون ملاذاً من دون النّاس، لأنّهم فرّوا من ظلم هؤلاء الذين يريدون تعذيبهم. وبهذه الحصافة الجعفريّة تلاشت بلاغة عمرو بن العاص، واندحرت فصاحته أمام النّجاشي، بينما استأثر جعفر بلبّ النّجاشي وقلبه، كما أسرَ قلوب البطارقة وعقولَهم، وألباب القسيسين ونفوسهم، فعندما طلب النّجاشي من سيّدنا جعفر أنْ يتلوَ عليه شيئاً ممّا نُـزِّلَ على رسولِ الله ﷺ، أخذ جعفر يتلو بصوتٍ شجي صَدْرَ سورة مريم، وكان رضي الله عنه يقرأ في غايةِ الإحكام، والأداءِ المتْقَنِ، والتّأثير في النُّفوس حتَّى بكى النّجاشي وأساقفته، وبلّلُوا لحاهم ومصاحفَهم من الدّمع، ولا ريب في أنَّ اختيارَ سيدنا جعفر لسورة مريم دليلٌ على حكمتِهِ وذكائِهِ وسفارته الميمونة، إذا إنّنا نعلمُ أنَّ صدر سورة مريم تتحدَّثُ عن مريمَ وابنها عيسى عليهما السَّلام بطريقةٍ جذّابةٍ لطيفةٍ. وإنَّ العبقريّةَ الجعفريّةَ تتجلّى في حسْنِ اختيار الموضوع، والزّمن المناسب، والقلب المتفتّح، والموقف الصّحيح الذي أدّى إلى أنْ يكسبَ وُدَّ الملك ويربحَه إلى جانبِهِ وصفِّهِ، بل ليس عند النَّجاشي زيادة عمّا قال جعفر(١)، ولا مقدار هذا العود كان بيده.

منَ الإشراقَاتِ الجَعْفريَّة:

* شعر سيّدنا جعفرُ ومَنْ معه من المهاجرين بالأمنِ والأمانِ في مجاورةِ النَّجاشي بأرضهِ في الحبشةِ، وقد أفصحَ سيّدنا جعفرُ عن سعادتهم في دار هجرتهم، وأنَّهم يعبدون الله عزَّ وجلَّ وهم آمنون، فقال: «لمّا نزلنا أرضَ

(١) لسيّدنا جعفر ورجال أهل البيت أثرٌ عظيمٌ في نفوس النّاس فهم: «أهلُ الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونبعة الإيمان، وصوّام شهر رمضان، ولهم كلامٌ يعرضُ في حَلْي البيان، وينقشُ في فصّ الزّمان، ويُحفظُ على وجه الدّهر، ويفضحُ قلائد الدّرّ، ويُخجل نور الشّمس والبدر». (زهر الآداب ١/ ٥٦ و ٥٧).

الحبشة جاورنا خيرَ جار، وأمِنّا على ديننا، وعبدنا الله، لا نُؤْذَى؛ ولا نسمعُ شيئاً نكرهه»[1].

* وكان النَّجاشي قد آمنَ باللهِ ربّاً ومحمَّدٍ ﷺ رسولاً، وأسلم على يدِ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وبعث ابنه في ستين رجُلاً من الحبشة إلى رسولِ الله ﷺ، ولكنَّهم لاقوا حتْفَهم إذ غرقوا في البحر.

* ظلّ النَّجاشي وفيّاً لسيّدنا جعفر، يجلُّه وينزلُه من نفسه مكانةً كبرى، وكان يستشيره في مهام الأمور وعظائمها، ويرجو له وللمسلمين المهاجرين كلّ خيرٍ ونجاحٍ ونجاةٍ، وقد أثبت النّجاشي هذا قولاً وفعلاً عندما تألّب عليه الحبشيّون لمفارقته نصرانيتهم ودخوله في دينِ اللهِ الإسلامِ، أثبتَ هذه الحقيقة ابنُ هشام وغيره من المصنّفين فقالوا: «اجتمعتِ الحبشةُ، فقالوا للنّجاشي: إنّك قد فارقْتَ ديننا؛ وخرجوا عليه.

فأرسلَ إلى جعفرَ وأصحابه، فهيّأ لهم سُفناً، وقال: اركبوا فيها، وكونوا كما أنتم، فإنْ هزمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإنْ ظفرتُ فاثبتُوا ثمّ عمدَ إلى كتابٍ فكتب فيه: هو يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسولُهُ، ويشهد أنَّ عيسى ابنَ مريمَ عبدُهُ ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريمَ، ثمَّ جعله في قبائه عند المنكبِ الأيمن، وخرجَ إلى الحبشة، وصفّوا له؛ فقال: يا معشرَ الحبشةِ، ألستُ أحق النّاس بكم؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟

قالوا: خير سيرة.

قال: فما بالكم؟

قالوا: فارقْتَ ديننا، وزعمت أنَّ عيسى عبدٌ.

---

(١) انظر: السّيرة الحلبيّة (٢/ ٣٠).

قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟

قالوا: هو ابن الله!!؟!.

فقال النّجاشي ـ ووضع يده على صدرِهِ على قبائه ـ: هو يشهدُ أنَّ عيسى ابنَ مريم؛ لم يَزِدْ على هذا شيئاً، وإنّما يعني ما كتب، فرضُوا وانصرفوا عنه، فبلغَ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فلمَّا مات النَّجاشيُّ صلى عليه واستغفرَ له»[1].

* أكبرَ جعفرُ والمسلمون موقفَ النّجاشي تجاههم، ووقرَ احترامه في صدورهم، وأصبحَ مصيرهم معه واحداً، إذ بدأت بعضُ القلاقل والهموم تساورُ مُلْك النّجاشي، وأخذ بعضُ الحبشيين يطاوله ويريدُ أنْ يَثِبتَ على ملكه وينتزعه منه، هنالك وقفَ سيّدنا جعفر والمهاجرون موقفاً عظيماً، ودعوا الله مخلصين، بأنْ ينقذَ النّجاشي من عدوّه وينصره عليه.

* ترى كيف كان ذلك؟! هذا ما ستجلوه سيّدتنا أمّ سلمة أمّ المؤمنين المهاجرة رضي الله عنها إذ صوّرت هذا الحدث بأسلوب موجزٍ فقالت: «فأقمنا عنده بخير دارٍ مع خيرِ جار، فوالله إنّا لعلىٰ ذلك، إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه في مُلكه، فوالله ما علمتُنا حزنّا حُزناً قطّ كان أشدّ علينا من حزنٍ حزنّاه عند ذلك، تخوّفاً أنْ يظهرَ ذلك الرّجل على النّجاشي، فيأتي رجلٌ لا يعرف من حقّنا ما كان النّجاشي يعرفُ منه، وسار إليه النَّجاشي، وبينهما عرض النّيل، فقال أصحابُ رسولِ الله ﷺ: مَنْ رجُلٌ يخرج حتّى يحضرَ وقيعةَ القوم، ثمّ يأتينا بالخبر؟ فقال الزُّبيرُ بنُ العوّام: أنا.

قالوا: فأنتَ، ـ وكان من أحدثِ القوم سِنّاً ـ فنفخوا له قِربةً، فجعلَها في صدره، ثم سبحَ عليها حتّى خرجَ إلى ناحيةِ النّيل التي بها ملتقى القوم، ثمّ انطلقَ حتّى حضرهم.

---

(١) السيرة النبوية مع شرح أبي ذر الخشني (١/ ٤٢١)، وانظر كذلك سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٢١)، ومجمع الزوائد (٣/ ٣٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣١٠).

فدعونا الله تعالى للنّجاشي بالظُّهور على عدوّه، والتّمكين له في بلاده. فوالله ِإنّا لعلى ذلك متوقّعون لما هو كائن، إذ طلعَ الزُّبيرُ وهو يسعى، فلمعَ بثوبه وهو يقولُ: ألا أَبْشِروا، فقد ظفر النّجاشي، وقد أهلك اللهُ عدوّه، ومكَّن له في بلاده، واستوثق عليه أمْرُ الحبشة، فكّنا عنده في خير منزل»[1].

* استقرَّ مُلْكُ النَّجاشي، وعاش المسلمون في كنفِهِ آمنين لا يخشون أحداً، يعبدون الله عزَّ وجلَّ، ويقيمون شعائر الإسلام، وكان النَّجاشي في هذه الأثناء يرقبُ عن بعد، ويبثّ عيونه في مكَّةَ والمدينةِ ويتابعُ الأحداث، حتَّى نُمِيَ إليه خبرُ انتصار المسلمين في بَدْرٍ، فَسُرَّ سروراً عظيماً، وأدخل السّرور إلى نفسِ جعفر ومَنْ معه من المهاجرين، إذْ أبلغهم نبأ هذا النَّصر العظيم.

* وافَتْنا المصادرُ بما جاء عن سيّدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه «أنَّ النَّجاشيَ أرسلَ إليه وإلى أصحابه الذين معه بالحبشة ذات يوم، فدخلُوا عليه، فوجدوه في بيتٍ جالساً على التّراب، لابساً أثواباً قديمةً خلقَةً، فتعجّبُوا من ذلك.

قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال؛ ثمّ إنّنا قلنا له: ما هذا أيّها الملك؟

فقال لهم: إنّي أبشّركم بما يسرّكم.

قالوا: بماذا أيّها الملك؟

قال: إنّه قد جاءني من نحو أرضكم عينٌ لي، فأخبرني أن اللهَ عزَّ وجلَّ قد نصرَ نبيّه ﷺ وأهْلَكَ عدوّه، وأُسِرَ فلانٌ وفلان، وقُتِلَ فلانٌ وفلان ـ وعدَّدَ جمعاً منهم ـ وقد التقوا بوادٍ يُقال له بَدْر، كثير شجر الأراك، كأنّي أنظرُ إليه، كنتُ أرعى به ـ لسيّدي رجل من ضمرة ـ إبله وغنمه.

---

(١) انظر: السيرة النبوية مع شرح أبي ذر الخشني (١/ ٤١٧ و ٤١٨)، وسبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٢١ و ٥٢٢).

فقال له جعفر رضي الله عنه: ما بالك جالس على التّراب، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأَخلاق البالية؟

قال النّجاشي: إنّنا نجدُ فيما أنزلَ الله عزَّ وجلَّ على عيسى عليه السَّلام أنَّ حقّاً على عباد الله أنْ يُحْدِثوا للهِ عزَّ وجلَّ تواضعاً عندما أحدثَ لهم من نعمته، فلمّا أحدثَ الله لي نَصْرَ نبيّه ﷺ، أحدثتُ له هذا التَّواضع.

وفي رواية: إنا نجِدُ في الإنجيل أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى، إذا أحدثَ بعبده نعمة، وجَبَ على العبدِ أنْ يحدثَ لله تواضعاً، وإنّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أحدثَ إلينا وإليكم نعمة عظيمة»[1].

* ولم تكن هذه البُشْرىٰ الوحيدة التي بشَّرَ بها النَّجاشي المسلمين، وإنّما بشّرهم أيضاً برغبةِ النَّبيّ ﷺ بزواجه من أمِّ حبيبةَ بنتِ أبي سفيان[2] رضي الله عنهما.

* فنحنُ نعلمُ أنَّ سيّدتنا أمّ حبيبة رضوان الله عليها كانت ممَّن هاجر مع زوجِها عُبيدِ الله بنِ جحش الأسديّ إلى الحبشة؛ بصحبةِ سيّدنا جعفر في الهجرة الثّانية، ومكثَ عُبيد الله مدّةً ثمّ بدا له أنْ يَتَنَصَّر، فاعتنق النَّصرانيَّة، ومات عليها هناك، وبقيت سيّدتنا أمّ حبيبة على إسلامها عابدةً حامدةً مصليةً صائمةً قائمةً ذاكرةً شاكرةً.

* وقد قصَّت سيّدتنا أمّ حبيبة رضي الله عنها قصَّة جميلة علمت من خلالها أنّها ستغدو من نساء أهلِ البيت، وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سيتزوّجها، فقالت: «رأيتُ في المنام كأنَّ قائلاً يقول لي: يا أمَّ المؤمنين! ففزعتُ، فأولتُها بأنَّ

---

(١) تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ١١٣ و ١١٤)، والسّيرة الحلبيّة (٢/ ٤٦٢ و ٤٦٣) مع الجمع والتّصرّف. وانظر: المغازي للواقدي (١/ ١٢٠ و ١٢١)، والبداية والنّهاية (٣/ ٣٠٧ و ٣٠٨).

(٢) اقرأ سيرة سيّدتنا وأمّنا أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان في موسوعتنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ٣٨١ ـ ٤١٣) ط ٦ عام ٢٠٠٥ م بدار اليمامة الغرّاء بدمشق.

رسولَ الله ﷺ يتزوّجني، فما شعرتُ إلاّ وجارية النّجاشي قد دخلَتْ عليَّ ـ وكانت جارية يُقال لها: أبرهة، كانت تقوم على ثياب النّجاشي ودهنه ـ فقالت لي: إنَّ الملكَ يقولُ لك: إنَّ رسولَ الله ﷺ كتب إليه أنْ يزوّجك منه، ويقول: وكّلي مَنْ يزوّجك فقلت: بشّرِكِ اللهُ بالخيرِ. وأرسلت بالوكالةِ إلى خالد بنِ سعيد بن العاص الأمويّ». وأعطتْ تلك الجارية سوارَيْن وخلخالَيْن، وخواتيم فضّة، سروراً بما بشّرت به، فلمّا كان العشيّ من ذلك اليوم، دعا النّجاشي جعفر بن أبي طالب، ومَنْ معه مِنَ المسلمين، فحضروا، وخطب النّجاشي بعد أنْ حمدَ الله، وأثنى عليه، وعلى رسولِ الله ﷺ، ثم قال: «إنَّ رسولَ الله ﷺ كتبَ إليَّ أنْ أزوّجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبْنا إلى ما دعا إليه، وقد أصدقتها أربع مئة دينار». ثم سكبَ الدّنانير بين يدي القوم.

* ثمَّ إنَّ سيدنا خالدَ بنَ سعيد بن العاص تكلَّم فقال: «لقد أجبتُ إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوّجته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ».

* ودفع النّجاشي الدّنانيرَ لخالد بن سعيد فقبضَها منه، ثمَّ أرسلها سعيد مع جارية النَّجاشي لأمّ حبيبة رضي الله عنها، وأراد سيّدنا جعفرُ والمسلمون أنْ يقوموا، فمنعهم النّجاشي من الانصراف، ثمّ دعا بطعامٍ فأكلوا ثمّ تفرقوا.

* وسعدت أمّ حبيبة بهذا الزّواج الميمون الذي رفعَها عالياً إلى مصافّ أمّهات المؤمنين، فأكرمْ بهذه المنزلة!!:

بشْــــراكِ أُمَّ حبيبــــةٍ بمحمّـــــدِ ... تمَّتْ لك النُّعمىٰ فَفُوزي واسعدي
بشـــراكِ أمَّ المـــؤمنيـــن فهـــذه ... رؤيــاكِ عنــد أوانِهــا والمــوعــدِ
بعـثَ النّجـاشـي الـوليـدةَ فـاسمعي ... أشهى الحديثِ إلى الكرائم واشهدي
قلـدتِ أمْـركِ خـالـداً فمضـى بـه ... شـرفـاً علـى شـرفٍ أشـمّ مُخَلَّـدِ
هتفَ الرسولُ أجبْ وكيلَ محمدٍ ... فمشـى إلـى الملـك الأعـزّ الأصيد
فــي مشهـدٍ زانَتْـه غـرّةُ جعفـرٍ ... زيـنِ النَّـدى ونـورِ عيـنِ المنتـدي
جمـعَ الأحبّـةَ والـرّفـاقَ فـأقبلـوا ... مـن كـلِّ عـالٍ فـي الـرّجـالِ ممجَّـدِ

أدَّى النّجاشيُ الصَّداق مباركاً ... ملءَ اليدين يسوقُه من عسجدِ
وأقامَ للهِ الولائم كلّما ... زادَتْ وفودُ القوم قال لها ازددي

* ولمَّا قبضت أمّ حبيبة الدّنانير أعطتِ الجاريةَ أبرهة خمسين ديناراً فوقَ ما تقدم من هداياها، ففرحتِ الجاريةُ فرحاً شديداً بما وصلَها من عطاء أمّ حبيبة، وما نالَها من سخائها.

* قالت أمُّ حبيبة: «فلمَّا كان من الغَدِ، جاءتني جاريةُ النّجاشي، فردَّتْ عليَّ جميع ما أعطيتُها؛ وقالت: إنَّ الملكَ أمرَ ألاَّ أرْزَأكِ شيئاً، وعزم على نسائه أنْ يبعثن إليكِ بكلٍّ ما عندهنّ من العِطْرِ، فأتت منهنّ بِوَرْسٍ وعطرٍ وعرعرٍ وطيْبٍ كثير؛ وقالت: حاجتي إليك أن تُقرِئي رسولَ اللهِ ﷺ سلامي».

* ولمَّا وصلَتْ أمّ حبيبة رضي الله عنها إلى رسولِ الله ﷺ، وأقرأته سلام الجارية، فقال ﷺ: «وعليها السَّلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه»:

مَضَتِ الوليدةُ بالصَّداق فصادفَتْ ... كَرماً يجاوِزُ مطمعَ المُسترفدِ
نالَتْ ولم تسألْ ولم تَمْدُدْ يَداً ... خمسين ديناراً عطاءً كالدَّدِ
تلكَ الوليدةُ قال سيّدها ارجعي ... أَنسيتِ حقَّ الضَّيف عند السّيدِ
قالت إليكِ المالَ والحليَ الذي ... أعطيتنيهِ فليس أمْري في يدي
لي في ذِمامِكِ حاجةٌ منشودةٌ ... لولا الهدىٰ وسبيلُه لم تُنْشَدِ
هل تحملين إلى الرّسولِ تحيّةً ... منّي إذا انطلقَتْ ركابُكِ في غد
حَيِّيهِ مُنعمةً وقُولي إنّني ... أحببتُه حبّ التّقيِّ المُهتدي
ورضيتُ ملّته لنفسي إنَّه ... لَعَلَىٰ طريقٍ للسَّداد معبّد

سُرورُ النّبيِّ ﷺ بعودَةِ جعفر:

* مكثَ جعفرُ وإخوانُه المهاجرين في الحبشة بضعة عشَر عاماً، وفي فترةِ هجرتهِ في سنيّه الأولى شعر أبوه أبو طالب، بمرارةِ بُعْدِ ابنه عنه، وزادَ من حرقته إرسال قريش إلى الحبشة في طلبِ المهاجرين إليها، قال ابنُ إسحاق: «فلمّا رأت قريش أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قد أمنوا واطمأنّوا بأرض الحبشة، وأنّهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أنْ يبعثوا فيهم منهم رجلَيْن من

قريش جَلْدَين إلى النّجاشي، فيردّهم عليهم، ليفتنوهم في دِينهم، ويخرجونهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بنَ ربيعة، وعمروَ بنَ العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنَّجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم.

فقال أبو طالب حين رأى ذلك من رأيهم، وما بعثوهما فيه أبياتاً للنّجاشي يحضُّه على حسنِ جوارهم والدَّفع عنهم:

ألا ليتَ شعري كيف في النّأي جعفرٌ ... وعمرو وأعداءُ العدوِّ الأقارب
وهل نالت اَفعالُ النّجاشي جعفراً ... وأصحابَه أو عاقَ ذلك شاغبُ
تعلّمْ أبيتَ اللعن أنَّك ماجدٌ ... كريمٌ فلا يشقىٰ لديك المجانب
تعلّمْ بأنَّ اللهَ زادكَ بسطةً ... وأسبابَ خيرٍ كلّها بك لازب
وأنَّك فيضٌ ذو سجالٍ غزيرةٍ ... ينال الأعادي نفعها والأقارب[(١)]»

* طالت غيبةُ جعفر رضي الله عنه بالحبشة، واشتاق المسلمون المهاجرون لرؤية نبيهم ﷺ، حتى كانت السَّنة السَّابعة من الهجرة، وكان الله عزَّ وجلَّ قد نصر نبيّه ﷺ على يهود خيبر.

* فقد قدم سيّدنا جعفر بن أبي طالب، وصحبه من مهاجري الحبشة على الصَّادق المصدوق ﷺ يوم فتح خيبر، فقبَّله رسول الله ﷺ بين عينيه، وسُرّ به سروراً عظيماً وقال: «ما أدري بأيهما أنا أُسَرُّ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»[(٢)]؟

---

(١) السِّيرة النبوية مع شرح أبي ذر الخشنيّ (١/ ٤١١ و ٤١٢)، والبداية والنِّهاية (٣/ ٧٧) والسِّير والمغازي (ص ٢٢١ و ٢٢٢)، وأنساب الأشراف (عليٌّ وبنوه ص ٤٤)، وقوله: «بطارقته»: وزراؤه. و«النَّأي»: البعد. و«عاق»: منع. و«شاغب»: الشّغب: تهييج الشّرّ. و«أبيت اللعن»: تحية كان أهل الجاهليّة يحيّيون بها الملوك ومعناه: أبيت أنْ تأتي ما تذمّ عليه. و«المجانب»: الدَّاخل في حمى الإنسان. و«لازب»: لاصق ولازم. و«ذو سجال»: ذو كرم وجود وعطاء.

(٢) أخرجه الطّبرانيّ في الكبير (٩/ ٢٧١ و ٢٧٢)، وابن سعد (٤/ ٣٥)، وانظر: مجمع الزَّوائد (٩/ ٢٧١ و ٢٧٢) وغيرها.

وكان الحبيب المصطفى ﷺ قد أرسلَ في طلبهم من النَّجاشي عمرو بن أميَّة الضَّمريّ رضي الله عنه، فحملهم في سفينتَيْن، ووافق قدومهم عليه ﷺ يوم فتح خيبر، وقد رافق جعفراً في قدومه أبو موسى الأشعريّ[(١)]، ومن كان بصحبته من الأشعريين، وقد سُرَّ رسولُ الله ﷺ أيّما سرور لمجيء هؤلاء الصَّحابة الأصفياء الذين تركوا كلَّ شيء في سبيل الله، وهاجروا من أجل مرضاة الله.

* إنّهم خرجوا من أمِّ القرى فارّين بدينهم، خائفين أنْ يفتنَهم المشركون، وهاهم أولاء اليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو ويرتفعُ، وسلطانه يمتدّ حول أم القرى وفي شمالي الجزيرة وجنوبها، فلا خوف اليوم من ظلم أو ضيم.

* وسَعِدَ جعفر والأشعريون بالمعيَّة النّبويّة، وأخذوا من غنائم خيبر أشياء ثمينة، إذ كلَّم النَّبيّ ﷺ المسلمين الذين فتحوا خيبر، فشركوهم في الغنائم وأعطوهم برضا وقبولٍ وطيبِ نَفْسٍ.

* جاء في الصَّحيح بسندٍ عن أبي بُردةَ، عن سيّدنا أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال: «بلغنا مخرجَ رسولِ الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا وأخَوان لي، أنا أصغرهما، أحدهما أبو بُرْدَة، والآخر أبو رُهْم، إما قال: بضعاً، وإمّا قال: ثلاثة وخمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي. فركبْنَا سفينةً، فألقتنا سفينتنا إلى النّجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، وأصحابه عنده، فقال جعفر: إنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَنَا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا؛ فأقمنا معه حتّى قدمنا جميعاً، فوافقْنَا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا، أو قال: أعطانا منها، وما قَسمَ لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً، إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم...»[(٢)].

---

(١) اقرأ سيرة سيّدنا أبي موسى الأشعريّ في كتابنا «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ٥٨٧ ـ ٦٣٥).

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (٤٢٣٠)، ومسلم برقم (٢٥٠٢) واللفظ له. قال ابنُ قيم=

* ومن المُسَلم به أنَّ سيّدنا جعفر وإخوانه قد مكثوا في الحبشة قرابة عقدٍ ونصفٍ، وخلال هذه المدّة الطّويلة نزلَ قرآنٌ كثير، وفُرضت أحكامٌ عديدة، ودارت معارك شتّى مع الكُفّار والمشركين؛ وتقلَّبَ المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها في أطوارٍ متباينةٍ، حتّى ظنَّ بعضُ مهاجري مكَّةَ أنَّ مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كلّه ـ أَنْزَلُ قَدْراً من غيرهم؛ ولكنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ منحهم وسامَ الشَّرف من المرتبةِ الأولى، وأكَّدَ لجميع المسلمين أنَّ لأصحابه هجرةً واحدةً؛ بيد أنَّ أهلَ السَّفينة أصحاب الهجرة الحبشيَّة لهم هجرتان.

* وما أجمل أنْ نتابعَ النَّفحات الأشعريّة مع سيِّدنا أبي موسى الأشعريِّ، وهو يقصُّ علينا رحلة الهجرة مبيناً من خلالها فضائل سيِّدنا جعفر بن أبي طالب، وزوجته أسماء بنت عُميس وأهل سفينتهم رضي الله عنهم، فيقول: «كان ناسٌ من النَّاس يقولون لنا ـ يعني: لأهل السَّفينة ـ: نحن سبقناكم بالهجرة. . . . فدخلت أسماءُ بنتُ عُميس ـ وهي ممّن قدم معنا ـ على حفصةَ زوجِ النَّبيّ ﷺ زائرةً ـ وقد كانت هاجرت إلى النَّجاشي فيمن هاجر إليه ـ فدخلَ عمرُ على حفصةَ، وأسماء عندها، فقال عمرُ حين رأى أسماء: مَنْ هذه؟

قالت: أسماءُ بنتُ عميس.

قال عمر: آلحبشيّةُ هذه؟ آلبحريّةُ هذه؟

فقالت أسماء: نعم.

فقال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحنُ أحقّ برسولِ الله ﷺ منكم.

= الجوزيّة رحمه الله عن فوائد هذا الحديث وهذه الهجرة الجعفريّة ولحاقهم بالنَّبيّ ﷺ عند فتحه خيبر وإسهامه لهم: «ومنها: أنَّه إذا لحقَ مددٌ بالجيش بعد تقضّي الحرب، فلا سَهْمَ له إلا بإذن الجيش ورضاهم، فإنّ النَّبيّ ﷺ كلَّم أصحابه في أهل السفينة حين قدموا عليه بخيبر ـ جعفر وأصحابه ـ أنْ يُسْهِمَ لهم، فأسْهمَ لهم». (زاد المعاد ٣/ ٣٤٢).

فغضبَتْ، وقالت كلمة: كذبْتَ يا عمر، كلاّ، واللهِ، كنتم مع رسولِ اللهِ ﷺ يطعمُ جائعكم، ويَعظُ جاهلكم، وكنّا في دار، أو في أرضِ البعداء في الحبشة، وذلك في اللهِ ورسولِه، وايم اللهِ، لاأَطْعَمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتّى أذكرَ ما قلتَ لرسول اللهِ ﷺ، ونحن كُنّا نُؤذىٰ ونُخاف، وسأذكر ذلك لرسولِ الله ﷺ وأسأله، وواللهِ، لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أزيد على ذلك.

فلمّا جاء النَّبيُّ ﷺ، قالت: يا نبيَّ الله! إنَّ عمرَ قال كذا وكذا.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكم أنتم أهل السّفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحابَ السَّفينة يأتوني أرسالاً، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدُّنيا شيءٌ هُمْ به أفرحُ ولا أعظم من أنفسهم ممّا قال لهم رسول الله ﷺ»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٣٠)، ومسلم برقم (٢٥٠٢)، وهو تتمة الحديث السّابق، وأخرجه أبو داود برقم (٢٧٤٥)، والتّرمذي برقم (١٥٥٩). وقولها لعمر رضي الله عنه: «كذبتَ» أي: أخطأتَ، وقد استعملوا كذَبَ بمعنى أخطأَ. وقولها: «البُعداء البغضاء»: البعداء: جمع بعيد، والبغضاء: جمع بغيض. قال العلماءُ: «البعداء في النّسب، البغضاء في الدِّين؛ لأنَّهم كفّار إلا النَّجاشي. وكان يستخفي بإسلامه عن قومه، ويورّي لهم. و«ذلك في الله ورسوله»: أي لأجلهما. و«ايم الله» بهمزة وصل، وفيها لغات. و«أهلَ السَّفينة»: بنصب أهل الاختصاص، أو على النّداء بحذف أداته، ويجوز الجرّ على البدل من الضّمير. و«هجرتان»: يعني: هاجرتم إلى النّجاشي، وهاجرتم إليّ. وعند ابن سعد بإسنادٍ صحيح عن الشَّعبيّ قال: «قالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله إنَّ رجالاً يفخرون علينا، ويزعمون أنّا لسنا من المهاجرين الأوّلين، فقال: «بل لكم هجرتان: هاجرتم إلى أرض الحبشة، ثم هاجرتم بعد ذلك». و«لأصحابه هجرة واحدة»: وظاهرة تفضيلهم على غيره من المهاجرين، لكن لا يلزم تفضيلهم على الإطلاق، بل من الحيثيةِ المذكورة. و«يأتوني أرسالاً»: بفتح الهمزة، أي أفواجاً، فوجاً بعد فوجٍ، وناساً بعد ناسٍ، وقد استحقّت السّيّدة أسماء بنت عميس هذا الوسام النّبويّ الميمون، فأخذته، ثمّ وزّعته على جميع المهاجرين إلى الحبشة الذين كانوا يأتونها زرافات لتحدثهم بهذا الحديث الشّائق الذي رفعهم إلى مصافّ الأصفياء المخلصين، والذي أدخل السّرور والفرح=

* انتظم جعفرٌ والمهاجرون في صفوفِ المسلمين، ولم يمضِ زمنٌ يسيرٌ على أولئك العائدين حتّى اكتسبوا ما فاتهم من علومِ القرآنِ الكريم، والسُّنَّة المُطَهّرة.

منْ مناقبِ جَعْفَر وشَمائِلِهِ:

* ما لبثَ أنْ استقرَّ سيّدنا جعفرُ رضي الله عنه بالمدينة المنوّرة حتّى أخذ مكانتَهُ بين المسلمين، ثمّ ما لبث رسولُ الله ﷺ أنْ سارَ مع أصحابه نحو مكّة، فأدّوا عمرة القضاء، وخرج سيّدنا جعفر بصحبته نحو مهوى الأفئدة ومراح الشَّباب مكَّة أمِّ القرى، وكان جعفرُ قد هزّهُ الشَّوق إلى رؤيةِ بلده الأمّ التي غابَ عنها بضعة عشرَ عاماً.

* وفي هذه الرّحلة المباركة حظي سيّدنا جعفرُ رضي الله عنه بتزكيةٍ فريدةٍ جعلته من رجالِ أهلِ البيت المتميزين، إذ قال له رسولُ الله ﷺ: «أشْبهتَ خَلْقي وخُلُقي»[1].

* فتح ابنُ حجر في «الفتح» عن هذه الفكرةِ فقال ما مفادُه: «وهي منقبةٌ عظيمةٌ لجعفر، أمَّا الخَلْق فالمرادُ به الصُّورة... وأما شبهه في الخُلُق ـ بالضّم ـ فخصوصيّة لجعفرَ رضي الله عنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]»[2].

* ومن أَجَلِّ مناقب جعفر وأكملها أنَّه كان شديد الشَّبه بسيّدنا وحبيبنا

= إلى قلوبهم الصّادقة، إذ إنّ قول النّبيّ ﷺ هذا جعلهم يستعيدون ثقتهم بأنفسهم.

(١) أخرجه البخاريّ من حديث طويل برقم (٤٢٥١). وقد أخرج ابن سعد هذا الحديث بعدّة ألفاظ منها قوله ﷺ لجعفر: «أشْبَهَ خَلْقُكَ خَلْقي. وأشبَهَ خُلقُكَ خُلقي، فأنت منّي ومن شجرتي» وفي حديث آخر: «أشْبَهَ خَلقُك خَلَقي وخُلُقك خُلقي». وفي حديث آخر: «إنّك شبهي خَلقي وخُلقي». (طبقات ابن سعد ٤/ ٣٦).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٧٩ و ٥٨٠) بتصرّف. طبعة المكتبة السَّلفية الرّابعة بالقاهرة عام ١٤٠٨ هـ.

رسول الله ﷺ، ومن المفيد ذكْره في هذا المقام، أنَّ عدداً ممَّن رأوا النَّبيّ ﷺ كانوا يشبهونه ﷺ، كما كان عددٌ من النَّاس يشبهون النَّبيَّ ﷺ.

* ساق ابن حجر في «الفتح» هذه الفائدة القيمة فقال: «ووقعَ في تراجم الرّجال وأهل البيت ممّن كان يشبهه ﷺ من غير هؤلاء ـ أي عشرة أنفس رأوه ﷺ ـ عدّة منهم: إبراهيمُ بنُ الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، ويحيى بنُ القاسم بن محمّد بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ وكان يقال له الشَّبيه، والقاسمُ بنُ عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب، وعليّ بنُ عليّ بن عباد بن رفاعة الرّفاعي شيخ بصري من أتباع التَّابعين»(١).

* وأمَّا الذين كانوا من المشبّهين بالنّبيّ ﷺ فخمسةُ أوردهم أبو عمر بن عبد البرّ في «الاستيعاب» فقال: «إنَّ الذين كانوا يُشَبَّهون برسولِ الله ﷺ: جعفرُ بنُ أبي طالب، والحسنُ بنُ علي بن أبي طالب، وقُثَمُ بنُ العبّاس بن عبد المطَّلب، وأبو سفيان بنُ الحارث بن عبد المطَّلب، والسّائبُ بنُ عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف»(٢).

* ويمكنني أنْ أقول: «إنَّ هؤلاء الخمسة جميعهم هاشميّون، وإلى السّائب هذا يُنسب الإمام الشَّافعي».

* وقد صاغ أسماء هؤلاء الخمسة شعراً الحافظ أبو الفتح ابن سيّد النّاس اليعمريّ المتوفىٰ سنة (٧٣٤ هـ) حيث بدأ بسيدنا جعفر فقال:

بِخَمسَةٍ شُبِّـه المختـارُ مِـنْ مُضَـرِ   يا حسْنَ ما خُوِّلُوا من شبْهِه الحَسَنِ
بجعْفَـرٍ وابـن عـمِّ المُصطفـى قُثَـمٍ   وسـائـبٍ وأبـي سفيـانَ والحَسَـنِ(٣)

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥٧٩).

(٢) انظر: الاستيعاب (٤/ ٨٣ و ٨٤)، وانظر: عيون الأثر (٢/ ٣٩١)، ووفيات الأعيان (٦/ ٣٥١).

(٣) عيون الأثر (٢/ ٣٩٢). وقال ابن سيّد النّاس: «وممّن كان يُشَبَّه بالنَّبي ﷺ أيضاً: عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، رآهُ رسولُ الله ﷺ صغيراً، فقال: «هذا =

* وزادَ الحافظ أبو الفضل بن الحسين اثنين على ابنِ سيّد الناس وهما: الحسين، وعبد الله بن جعفر، ونظم في ذلك بيتين وهما:

وسبعةٌ شُبِّهُوا بالمُصْطَفى فَسَمَا لَهُمْ بذلكَ قَدْرٌ قد زَكَا ونَما
سِبْطَا النّبيّ أبو سفيان سائبُهم وجعفرٌ وابنهُ ذو الجودِ مع قُثَما

* وزاد بعضُ النّاس ثامناً هو عبد الله بن عامر بن كريز، ونظم في ذلك بيتَيْن أيضاً، ثمَّ جاء ابن حجر العسقلاني فزاد فيهما مسلم بن عقيل، وكابس بن ربيعة بن عدي، ونظم في ذلك بيتين فقال:

شَبَهُ النَّبيّ لعَشْرٍ سائبٍ وأبي سُفيان والحسنَيْن الطَّاهرَيْن هُما
وجعفرٍ وابنهِ ثمّ ابنِ عامرِهم ومسلمٍ كابسٍ يتلوهُ مع قُثَما

* وقد أوصلهم الحافظُ أبو الوليد محمد بن الشِّحنة قاضي حلب إلى خمسة عشر، ذكرهم ابنُ حجر في «الفَتْح»[1].

* ومن مناقب سيّدنا جعفر السَّامقة المتألّقة: جودُهُ وإنفاقه في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فقد كان سخيّاً من أسخياء أهل البيتِ، فكان ينفقُ ما أعطاه اللهُ عزَّ وجلَّ، ويؤثرُ على نفسِهِ المساكين، ولو كان به خصاصة، وكان يأمرُ زوجته أسماءَ بنتَ عميس بالجودِ وإطعامِ المساكين.

* أخرجَ التّرمذي بسندٍ رفعه إلى سعيدٍ المَقْبُريّ عن سيّدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «إنْ كنتُ لأسألُ الرَّجُلَ من أصحاب النّبيّ ﷺ عن الآيات من القرآن أنا أعلمُ بها منه، ما أسألُه إلاَّ ليطعمني شيئاً؛ فكنتُ إذا سألت جعفر بن

= شَبَهُنا» وروي أنّه عليه الصّلاة والسّلام قال إذْ رآه: «يا بني عبد شمس، هذا أشبه بنا منه بكم». (عيون الأثر ٢/ ٣٩٢).

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ١٢٢ و ١٢٣) ومن أراد المزيد من هذا الموضوع فليرجع إلى المصدر المذكور، وإلى كتاب: «استجلاب ارتقاء الغرف» للسّخاويّ (ص ٥٤٧ ـ ٥٥٩) وكذلك فصّلنا القول في هذا المضمار في الباب الثّالث من سيرة سيّدنا الحسن بن عليّ رضي الله عنهما من هذه الموسوعة المباركة.

أبي طالب لم يجبْني حتّى يذهبَ بي إلى منزله فيقول لامرأته: يا أسماء أطعمينا، فإذا أطعمتنا أجابني، وكان جعفرُ يحبُّ المساكين ويجلسُ إليهم يحدّثهم ويحدّثونه، فكان رسولُ الله ﷺ يُكْنيهِ بأبي المساكين»[1].

* وعند البخاريّ بسنده أيضاً عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: «.... وكان أخيرَ النّاس للمساكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلبُ بنا، فيطعمنا ما كان في بيته، حتّى إن كان لَيُخرِجُ إلينا العُكَّةَ التي ليس فيها شيء، فيشقُّها فَنَلْعَقُ ما فيها»[2].

* كما أنَّ سيّدنا أبا هريرة قد أشار إلى لطفِ سيّدنا جعفر وكرمه وتواضعه واهتمامه بالفقراء والمساكين حتّى سمّاه الحبيب الأعظم ﷺ أبا المساكين؛ فأكرم بالمُسمِّي والمُسمَّى!

* قال سيّدنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «كان جعفرُ رضي الله عنه يحبُّ المساكين ويجلسُ إليهم، ويخدمُهم ويخدمونه ويحدّثُهم ويحدّثُونه، فكان رسولُ الله ﷺ يسمّيه أبا المساكين»[3].

---

(١) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٠ و ١٧١) حديث رقم (٣٨٥٥) وقوله: «إنْ كنت»: مخفَّفة من المثقلة. و«أنا أعلمُ بها»: أي بالآيات، والجملة حالية. و«منه»: أي من الرَّجل الذي أساله. و«فإذا أطعمتنا أجابني»: إنما كان يجيبه عن سؤاله مع معرفته بأنَّه سأله يطعمه ليجمع بين المصلحتين، ولاحتمال أن يكون السّؤال وقع حينئذ منه على الحقيقة. و«يحبُّ المساكين»: أي محبّة زائدة على محبَّة غيره إياهم. و«بأبي المساكين»: أي ملازمُهم ومداومُهم. وفي الحديث دلالة على حبّ الكبراء وأرباب الشَّرف المساكين وتواضعهم لهم يزيد في فضلهم، ويعد ذلك من مناقبهم.

(٢) أخرجه البخاريّ في فضائل الصَّحابة برقم (٣٧٠٨). ومعنى قوله «وكان أخير»: بوزن أفضل ومعناه، وفي رواية: خيرٌ. و«للمساكين»: جمع مسكين. و«العكّة»: بضم العين، وتشديد الكاف: ظَرفُ السّمن. وقوله «ليس فيها شيءٌ» مع قوله «فنلعقَ ما فيها»: لا تنافي بينهما، لأنَّه أرادَ بالنَّفي أي لا شيء فيها يمكنُ إخراجه منها بغير قطعها، وبالإثبات ما يبقى في جوانبها.

(٣) حلية الأولياء (١/ ١١٧)، والإصابة (١/ ٢٣٩)، والسِّيرة الحلبية (٢/ ٧٥٧) مع الجمع بينهما؛ أقول: «كان جودُ سيّدنا جعفر وسخاؤه سجيةً متأصِّلةً فيه منذ نعومة أظفاره، فقد كان يقول لأبيه=

* أَبانَ الحافظُ ابن كثير رحمه الله سخاء سيّدنا جعفر فقال: «وكان كريماً جواداً مُمدّحاً، وكان لكرمه يُقال له أبا المساكين لإحسانه إليهم»[1].

* وكان سيّدنا أبو هريرةَ رضي الله عنه لا يفضلُ على جعفر أحداً في الكرم، بل يرى أنّه أجود رجالِ أهل البيت بعد رسول الله ﷺ.

* أخرج التّرمذي وغيره بسندٍ عن عكرمةَ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما احتذىٰ النِّعال ولا انتعل، ولا ركبَ المطايا، ولا ركبَ الكُور بعد رسول الله ﷺ أفضلُ من جعفر»[2].

* ولعلَّ سببَ ثناء سيّدنا أبي هريرة على سيّدنا جعفر هو جُودُ جعفر وإيثاره الفقراء على نفسه، حتّى إنَّ سيدنا أبا هريرة رضي الله عنه قد تمنّى أنْ تكونَ السَّيّدة الجليلةُ المصونةُ فاطمةُ بنتُ أسد الهاشميّة قد ولدته ليكون وارثاً

= ـ وهو في مكّة ـ: يا أبتِ، إنّي لأستحيي أنْ أَطْعَمَ طعاماً وجيراني لا يقدرون على مثله، فكان أبوه يقول له: إني لأرجو أنْ يكونَ فيك خَلَفٌ من عبد المطّلب». (التذكرة الحمدونية ٢/ ١٥٥).

(١) البداية والنّهاية (٤/ ٢٥٦)، وقال ابن قدامة: «وكان جعفر جواداً حليماً متواضعاً، يحبّ المساكين ويطعمهم ويرفق بهم» (التّبيين ص ٩٤).

(٢) تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٦٩) حديث رقم (٣٨٥٣)؛ وقال التّرمذيّ: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٤٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٤١٣)، وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢١٤)، وانظر: التَّبيين (ص ٩٤)، والبداية والنّهاية (٤/ ٢٥٦)؛ وقال ابن كثير: «وكأنّ أبا هريرة إنّما يفضله في الكرم. فأمّا الفضيلة الدّينية فمعلوم أنَّ الصِّديقَ والفاروق بل وعثمان بن عفّان أفضلُ منه، وأمّا أخوهُ عليّ رضي الله عنهما فالظّاهر أنَّهما متكافئان، أو عليٌّ أفضل منه، وإنّما أرادَ أبو هريرة تفضيله بالكرم بدليل ما رواه البخاري» (البداية والنّهاية ٤/ ٢٥٦).

وأمّا معنى قوله «ما احتذى النّعال»: النّعال: جمع النّعل، أي ما انتعل، والاحتذاء: الانتعال. «ولا انتعل»: عطف تفسير لأنَّ الاحتذاء هو الانتعال. و«لا ركب المطايا»: جمع مطية، وهي الدابة التي تركب. و«لا ركب الكُور»: رحْل النّاقة، و«أفضل من جعفر»: أي أحد أفضل من جعفر. وفيه فضيلة ظاهرة لسيّدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وعن جميع أهل البيت.

للجودِ ويكون سخياً كابنها جعفر عليه رضوان الله.

* ولنترك سيّدنا أبا هريرة يذكر لنا ذلك، ونحنُ نصغي إليه وهو يسوقُ مثَلاً من جُودِ جعفر وسخائه فيقول: «ما ودِدْتُ أنَّ أحداً ولدتني أمُّه إلا أم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، تبعتُه ذات يوم وأنا جائع، فلمّا بلغَ الباب، الْتَفَتَ فَرَآني، فقال لي: ادخُلْ؛ فدخلتُ؛ ففكّرَ حيناً فما وجدَ في بيتِهِ شيئاً إلاّ نِحْياً كان فيه سَمنٌ مرٌّ، فأنزله من رفٍّ لهم، فَشَقَّه بين أيدينا، فجعلنا نلعقُ ما كان فيه من السَّمْن والرُّبِّ، وهو يقول:

ما كلَّفَ اللهُ نفساً فوقَ طاقَتِها ... ولا تجودُ يَدٌ إلاّ بما تَجِدُ»[1]

* ومن كنوز الفضائل في رصيد سيّدنا جعفر: مكافأةُ النّبيّ ﷺ لوفدِ النّجاشي لأنّهم أكرموا جعفراً ومَنْ معه، فعن أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: «قدم وفدُ النَّجاشي على رسولِ الله ﷺ، فقام يخدمهم؛ فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسولَ اللهِ. فقال: «إنّهم كانوا لأصحابي مكرمين، وإنّي أحبُّ أنْ أكافيهم»[2].

* وكان سيّدنا جعفر رضي الله عنه ذا مكانةٍ متميزةٍ عند الصَّادق المصدوق ﷺ، بحيث إنَّه قدّمه ذات مرّةٍ على سيّدنا عليّ بن أبي طالب وزيد بن حارثة في عمرة القضاء عندما اختصم الثّلاثة في ابنةِ سيّدنا حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه.

* نستخرجُ ذلكَ منَ الصَّحيح بأنَّ النّبيَّ ﷺ لمّا انتهى من عمرة القضاء خرجَ من مكة: «... فتبعَتْه ابنةُ حمزة تنادي: يا عمّ يا عمّ، فتناولها عليّ فأخذ بيدها وقال لفاطمةَ عليها السَّلام: دونك ابنة عمِّك احمليها. فاختصمَ فيها عليٌّ

---

(١) انظر: العقد الفريد (١/ ٢٣٥ و ٢٣٦) ومعنى «نحياً»: النّحي: بالكسر: الزّق: أو ما كان للسّمن خاصة. و«ربّ السمن»: ثفله الأسود. ومن أقوال الأدباء في الجود، أنه قيل لأديب: مَنْ أجود الناس؟ قال: «مَنْ جاد مِنْ قلّة، وصان وجه السّائل عن المذلة».

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٧٨).

وزيدٌ وجعفرُ، قال عليٌّ: أنا أخذتُها وهي بنتُ عمي.

وقال جعفرُ: ابنةَ عمي وخالتها تحتي.

وقال زيدٌ: ابنةُ أخي، فقضى بها النَّبيُّ ﷺ لخالتها وقال: الخالةُ بمنزلةِ الأم، وقال لعلي: أنتَ منّي وأنا منك؛ وقال لجعفر: أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي؛ وقال لزيدٍ: أنت أخونا ومولانا...»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤٢٥١) وهو جزءٌ من حديثٍ طويلٍ في باب عمرة القضاء.
وقوله: «ابنة حمزة»: اسمُها عمارة، وقيل: فاطمة، وقيل: أمامة، وقيل: أمة الله، وقيل: سلمى، والأوّل هو المشهور. وكانت مع أمّها في مكة. و«تنادي يا عمّ»: كأنّها خاطبت النبيّ ﷺ بذلك إجلالاً له، وإلا فهو ابن عمّها، أو بالنّسبة إلى كون حمزة رضي الله عنه وإنْ كان عمّه من النّسب فهو أخوه من الرّضاعة. و«دونك»: كلمة من أسماء الأفعال تدلُّ على الأمر بأخْذِ الشّيء المشار إليه. وقوله «فاختصمَ فيها عليُّ بنُ أبي طالب وجعفرُ وزيدُ بنُ حارثة»: أي: في أيّهم تكون عنده، وكانت خصومتُهم في ذلك بعد أنْ قدموا المدينة. وقوله «وخالتها تحتي»: أي زوجتي واسم خالتها: أسماء بنت عميس، وأمّ عمارة اسمها سلمى بنت عميس.
وكان لكلّ من هؤلاء الثّلاثة فيها شبهة: أمّا زيد فللأخوّة بينه وبين حمزة ولكونه بدأ بإخراجِها من مكة، وأمّا عليّ فلأنه ابن عمّها وحملَها مع زوجته؛ وأما جعفرُ فلكونه ابن عمها وخالتها عنده، فيترجّحُ جانب جعفر باجتماع قرابة الرّجل والمرأة منها دون الآخَرِين.
وقوله «الخالة بمنزلة الأم»: أي في هذا الحكم الخاص لأنّها تقرب منها في الحنو والشّفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد لما دلّ عليه السِّياق، فلا حجة فيه لمن زعم أنَّ الخالة ترث لأنَّ الأمَ ترث، وفي حديث عليّ: «الخالةُ والدةٌ، وإنّما الخالة أم» وهي بمعنى قوله بمنزلة الأم لا أنّها أم حقيقة. ويؤخذ منه أنَّ الخالة في الحضانة مقَدَّمة علىٰ العمّة، لأنَّ صفيةَ بنتَ عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قدمت علىٰ العمة مع كونها أقرب العصبات من النّساء فهي مقدمة على غيرها؛ ويُؤخذ منه تقديم أقارب الأم على أقارب الأب.
وفيه من الفوائد تعظيم صلة الرّحم بحيث تقع المخاصمة بين الكبار في التّوصل إليها، وأنَّ الحاكم يبيّن دليل الحكم للخصم، وأنَّ الخصم يدلي بحجته، وأنَّ الحاضنة إذا تزوّجت بقريب المحضونة لا تسقط حضانتها إذا كانت المحضونة أنثى. و«أنت منّي وأنا منك»: أي في النَّسب والصّهر والمسابقة والمحبّة وغير ذلك من المزايا، ولم يُرِدْ محض القرابة، وإلا فجعفر شريكه فيها.

* وفي سياق روايةٍ أخرىٰ أنّهم لمّا اختصموا في عمارة بنتِ حمزة قال لهم رسولُ الله ﷺ: «هلمّوا أقضِ بينكم فيها وفي غيرها»[١]، وقال في كُلٍّ واحد قولاً رضيه.

* ونعثُرُ في روايةٍ أخرى أيضاً: أنَّه ﷺ قال لهم: «أنا أحكُمُ بينكم؛ أمّا أنتَ يا زيدُ فمولىٰ الله ورسوله، وأمّا أنتَ يا عليُّ فأخي وصاحبي، وأمّا أنتَ يا جعفرَ فتشْبه خَلْقي وخُلُقي، وأنتَ يا جعفرُ أحقّ بها؛ تحتك خالتُها، ولا تُنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها»[٢].

* فقضى ﷺ بها لسيّدنا جعفر رضي الله عنه، فلمّا قضى بها لجعفر، قام سيّدنا جعفر فَحَجَلَ حول رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما هذا يا جعفر»؟.

قال: يا رسول الله، كان النّجاشي إذا أرضى أحداً قام فَحَجَلَ حوله. أو قال: شيءٌ رأيتُ الحبشة يصنعونَه بملوكهم[٣].

* ما زلنا في أُنْسٍ وسرور مع المناقب الجعفرية، ومنها أنَّ جعفراً رضي الله عنه أحدُ مَنْ روى من أهل البيت عن الصّادق المصدوق ﷺ. قال عنه الإمام الذّهبيّ رحمه الله: «روى شيئاً يسيراً، وروى عنه ابن مسعود، وعمرو بن العاص، وأمّ سلمة، وابنه عبد الله»[٤].

* وشدَّ ابنُ حجر أَزْرَ الذَّهبيّ بقولهِ عن روايةِ جعفر: «روى جعفر عن

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٥).

(٢) المغازي (٢/ ٧٣٩)، ومعنى «مولى»: أي من جهة أنّه أعتقه ﷺ، ومولى القوم منهم. قال ابن حجر: «فوقع منه ﷺ تطييب خواطر الجميع، وإنْ كان قضى لجعفر، فقد بيّن وجْهَ ذلك. (فتح الباري ٧/ ٥٨٠).

(٣) المغازي (٢/ ٧٣٩) وفتح الباري (٧/ ٥٨٠) مع الجمع بينهما. و«حجل»: وقفَ على رجل واحدة. وهو الرّقص بهيئة مخصوصة، والحَجْل أيضاً: أن يرفع رجلاً ويقفز على رجلٍ واحدةٍ: من شدة الفرح، ويكون بالاثنتين قفزاً لا مشياً.

(٤) سير أعلام النّبلاء (١/ ٢٠٦).

النَّبيّ ﷺ وعنه ابنه عبد الله وبعض أهله وأمّ سلمة، وعمرو بن العاص، وابن مسعود رضي الله عنه»[1].

* وأضاف ابن حجر أيضاً وأفاد فقال: «روى له النّسائي في اليوم والليلة حديثاً واحداً من روايةِ ابنه عبد الله عنه في كلمات الفرح، والمحفوظ عن عبد الله بن جعفر عن علي»[2].

* ومن رياحين المناقب الجعفريّة العبقة أنَّ عبد الله بنَ جعفر هو أوّلُ مولودٍ وُلدَ في الإسلام بأرض الحبشة، قال النَّوويُّ: «كان أولاد جعفر ثلاثة من أسماء: عبد الله، ومحمّد، وعون، والعقب لعبد الله دون أخويه رضي الله عنهم أجمعين»[3].

الشهيدُ الشُّجاع:

* من المؤكَّد أنَّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هو أحد فرسان أهل البيت الذين تلوح الشَّجاعة على محيّاهم، ولهذا انتدبه رسولُ الله ﷺ ليكون أحد الأمراء المجاهدين في سبيل الله، وذلك في سريةِ مؤتة[4] في جمادى الأولى سنة (٨ هـ).

* «وهذه المعركةُ أكبرُ لقاءٍ مثخن، وأعظمُ حربٍ دامية خاضَها المسلمون في حياةِ رسولِ الله ﷺ، وهي مقدّمةٌ وتمهيدٌ لفتوح بلدان النَّصارى»[5].

* ومن المتعارف عليه في أحداث السِّيرة النَّبويّة أنَّ رسول الله ﷺ كان

---

(١) تهذيب التّهذيب (٢/ ٩٨).

(٢) المصدر السّابق عينه.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٩).

(٤) «مؤتة»: تقعُ هذه البلدة الآن في شرقي الأردن من بلاد الشّام، وهي على مسير أحد عشر كيلاً جنوب الكرك. وقد وقعت بها المعركة المشهورة في عصر النّبوّة سنة (٨ هـ)، وهي الآن قرية عامرة بالسّكّان، وبالقرب منها قرية «المزار» التي تضمّ قبور الشّهداء في سرية مؤتة وهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم أجمعين.

(٥) الرحيق المختوم (ص ٤٥٩).

يتابع البعوث والسَّرايا ذات اليمين وذات الشّمال تجوسُ الدِّيار هنا وهناك ليقتصَّ من المَردةِ الذين عاثوا في الأرض فساداً، وقطعوا الطّرق، وغدروا بالعهود والمواثيق، ولم يقيموا وزناً للأخلاق.

* وسببُ هذه السَّريّة ـ كما ذكرَ الواقديُّ وغيره من كتّاب السِّيرة النّبويّة ـ غَدْرُ شرحبيل بن عمرو الغسَّاني وإقدامه على قتل رسول الحبيبِ المصطفى ﷺ، فقد بعث الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ الحارثَ بنَ عمير الأزديّ بكتابهِ إلى ملكِ الرُّوم، أو بُصرى في أرض الشَّام، فعرضَ له شرحبيلُ بنُ عمرو الغسَّاني ـ وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشَّام من قبل قيصر ـ وأوثقَهُ رباطاً، ثمَّ قدَّمه فضربَ عنقَه. وكانت الرّسلُ والسُّفراءُ لا تُقْتَلُ، وكان قتلُها منْ أشنعِ الجرائم وأعظمها، كما كان قتلُها يعني إعلاناً سافراً للحرب، ولم يُقتلْ لرسولِ الله ﷺ رسولٌ غيره، فاشتدَّ ذلك على الحبيبِ المصطفى ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فغضبَ ﷺ وجهَّزَ جيش مؤتة.

* «وسواءٌ صحَّ هذا السَّببُ للخروج إلى مؤتة أمْ لا، فإنَّ دولة الحقّ لابدّ لها أنْ تمضي بقوافل الجهاد في كلّ ناحية وصوب، لتوسيع رقعة الإسلام، وتأمين الجوار، فكان لابدّ من إخضاع القبائل العربيَّة في أرض الجزيرة إلى سلطان الإسلام، ومن ثَمَّ متابعة الامتداد وبسط النّفوذ، لينالَ تلك القبائل النَّصرانيَّةَ العربيَّةَ المتاخمةَ لدولة الرّوم في الشّام، هذا من جهة؛ ومن جهةٍ أخرى مباغتة إمبراطوريّة الرّوم، بحركة فيها إظهار للقوّة الإسلاميّة والشّوكة النّاشئة الجديدة، التي يأْمُلُ رجالها أنْ يدوسوا بأرجلهم معاقل الكفْرِ والظُّلم والجبروت في أرجاء المعمورة، فكان لابدّ من إظهارِ القوة واستعراض البطولات لبسط النّفوذ في حدودِ دولةِ الإسلام، مع دولةِ الرُّومان، قبل أن يفكر الرّوم بالتَّحرُّك ضدّ دولة الحقّ الفتية، فإنَّ الإسلامَ دينُ قوّةٍ ومباغتةٍ وهجوم، لا كما يصوّره الخجِلُون منه أمام خصومه، وأمام الأجنبي أنّه دينُ موادعةٍ ودفاع وسكون»[1].

(١) السّيرة النّبويّة على منهج الوحيين لمأمون حموش (٢/ ١٢٠٠ و ١٢٠١).

* وقد عرف رسولُ الله ﷺ تمامَ المعرفة طبيعة الأخطار المحدقة بحربِ تلك القبائل وقتالها، وذلك بسبب ولائها للدّولة الرُّومانية الزَّاخرة بالعددِ والعتاد، ولهذا فقد جهّزَ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل[1]، وهو أكبرُ جيشٍ إسلامي، لم يجتمعْ قبل ذلك إلاّ في غزوة الأحزاب، وأمَّرَ على هذا الجيش زيدَ بنَ حارثة رضي الله عنه، وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد.

* أخرج البخاريُّ في صحيحه بسندٍ رفعه إلى نافعٍ عن عبد الله بنِ عمر رضي الله عنهما قال: «أمَّرَ رسولُ الله ﷺ في غزوة مؤتة زيدَ بنَ حارثة، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنْ قُتِلَ زيد فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر فعبد الله بن رواحة...»[2].

* ثم إنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ أوصى الجيش الغازي أنْ يأتوا مقتلَ الحارث بن عمير الأزديّ، وأنْ يدعوا من هناك إلى دينِ اللهِ الإسلام، فإنْ أجابوا كان خيراً لهم، وإن لم يستجيبوا استعانوا عليهم بالله عزَّ وجلَّ وقاتلوهم.

* وخرجَ رسولُ الله ﷺ مشيّعاً لهم حتّى بلغ ثنيّة الوداع، فوقفَ وأوصىٰ الأمراء الثَّلاثة بتقوى الله وبمن معهم من المسلمين خيراً ثمّ قال: «اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشَّام، وستجدون فيها رجالاً في الصَّوامع مُعتزلين، فلا تتعرَّضُوا لهم، ولا تقتلوا امرأةً، ولا صغيراً، ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعوا شجرةً، ولا تهدموا بناءً»[3].

* وودّعهم المسلمون وسلّموا عليهم، وقالوا لهم: «صحبكم اللهُ بالسَّلامة، ودفع عنكم وردَّكم إلينا صالحين غانمين»[4].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٨١).

(٢) أخرجه البخاريّ في المغازي برقم (٤٢٦١)، وانظر: مجمع الزَّوائد (٦/ ١٥٦).

(٣) المغازي (٢/ ٧٥٨)، وانظر: جامع الأصول (٢/ ٥٨٩ ـ ٥٩٢). ومعنى «الصَّوامع»: هي بيوت العبادة عند النّصارى، و«فانياً»: هرماً كبيراً مشرفاً على الموت.

(٤) انظر: السّيرة الحلبيّة (٢/ ٧٨٧) بتصرّف يسير.

* واشتبكت دموعُ المودِّعين والمُودَّعين في العيون والخدود، وامتطى سيّدنا جعفر فرسَه الشَّقراءَ، وتوجَّه نحو الشَّام تحت الرّاية المحمّديّة التي يحملُها أميرُ الجيش سيدنا الحِبُّ المُحَبُّ زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه، وكان جعفر يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو في مسيره، يودُّ أنْ تُطْوَىٰ له الأرضُ ويدنو بعيدها، ليذيقَ الرُّوم حَرَّ سيفِهِ وسنانِهِ ولسانِهِ ويذيقهم الموتَ الزُّؤام جزاءَ غدرهم وفجورهم.

* ترك سيّدنا جعفر في المدينة زوجَه الحصيفةَ أسماءَ بنتَ عُميس وأولادَه الصِّغار الثّلاثة، تركهم لله عزَّ وجلَّ، ولم يفكرْ إلاّ في مرضاة الله عزَّ وجل ومرضاة رسول الله ﷺ، وإعلاء الحقّ وكلمته، وكان سيّدنا جعفرُ من فرسانِ أهلِ البيتِ ورجالهم الذين كانوا في هذا الجيش الغازي.

* وسار الجيشُ قُدُماً نحو الشّمال يقودهُ زيدُ بنُ حارثة حتّى نزلَ أرض معَان من أرض الشَّام، فبلغَ النَّاس من خلال استخبارت المسلمين بأنَّ هِرَقْلَ نازلٌ بالبلقاء في مئة ألف من الرّوم، وانضمَّ إليهم من لَخم، وجُذَام، وبَلْقِينَ، وبَهْرَاء، وبَليّ مئة ألف أخرى أو يزيدون، وكان عليهم رجلٌ من بلي يُقال له: مالكُ بنُ زافلة.

* ولم يكنِ المسلمون بقيادة زيد بن حارثة قد أدخلوا في حسابهم لقاءَ جيش بشرقِ الأرضِ والغرب زَحْفُه، وهم في فئةٍ قليلةٍ أمامه.

* ولمَّا حَزَبهم الأمر، عقدوا مجلساً استشارياً، خلصوا من خلاله إلى قتال الرُّوم، حيث إنّهم خرجوا لهذا الهدف الميمون، ثمّ إنّهم توجّهوا إلى أرض مؤتة وعسكروا هناك، واستعدّوا لملاقاة جموع الرّوم الغفيرة التي ملأت البرّ، وكان يضيقُ عليهم على الرّغم من سعةِ الأرض.

* وعلى أرضِ مؤتَةَ التقى الفريقان، فأمَّا المؤمنون فأخذوا يذكرون اللهَ ذِكْراً كثيراً، وأمّا الرُّوم فأخذوا يرطنون بالكلام الذي امتزج بغبار المعركةِ فلا يُفهم منه شيء، واشتبكَ الفريقان غير المتكافئين في العددِ، فثلاثة آلاف رجلٍ

من المسلمين يواجهون مئتي ألف مقاتل من الرّوم. إنَّها معركةٌ عجيبةٌ حقّاً تشهدها الدُّنيا، وتنظرُ إليها بعين الدَّهشةِ والحيرةِ والإعجابِ معاً، ولكنْ إذا هبَّتْ ريحُ الإيمان، ولامست قلوبَ جنود الرّحمن، أتت بالعجائب.

* وفي هذه اللحظاتِ المثيرةِ الحاسمة قفزَ سيّدنا زيدُ بنُ حارثة إلى مقدّمة جيش يحملُ لواء دولة الإسلام الأبيض، وجعل يقاتلُ في شجاعة أدهشت الرُّوم حوله، ولم يزلْ يناجزُ القومَ ويقاتلهم حتَّى شاطَ[1] في رماح القوم، وحظي بالشَّهادة، ونُظِمَ في عداد الأحياء الذين عند ربّهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله.

* وأسرع سيّدنا جعفرُ فأخذ الرَّاية المحمَّديّة، وشَرَعَ يقاتلُ الرُّومَ قتالًا عجيباً منقطعَ النَّظير، حتَّى أدهشهم وجعلهم في حيرة من أمرهم، فما كان يقتربُ منه أحدهم إلا أرسله إلى الجحيم، وجعله كأمسِ الدَّابر، وهو يرتجز[2]

---

(١) «شاط»: يقال: شاط الرّجل: إذا سال دمه فهلك.

(٢) «يرتجزُ»: يقولُ الرّجز. قال محمّدُ بن حبيب: «كانت العربُ تقولُ الرّجز في الحرب والحداد والمفاخرة، وما جرى هذا المجرى، فتأتي منه بأبيات يسيرة».
وقد طُبعتِ الأراجيزُ الإسلاميةُ بأفكارِ الإسلام ومعانيه، وصَدَرَ فيها الشُّعراء عن روح جديدة ونفس ديني واضح، كما قرأنا رجزَ سيّدنا جعفر الذي يذكرُ فيه الجنّةَ ونعيمها.
واستوعب سيّدنا عبدُ الله بنُ رواحة الأنصاريّ مفاهيمَ الإسلام ومعانيه في أرجوزةٍ أخرى في مؤتة أيضاً، فعبّرَ من خلالها عن معاني حبّ الاستشهاد في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، وعن أصل خلق الإنسان من نطفةٍ كما وردَ في القرآنِ الكريم، حيث قال عندما أحسَّ بتردّد نفسه بعض التّردد:

أقسمتُ يا نفسُ لَتنزلنّه ... طائعةً أو لتُكْرهنّه
إنْ أجلَبَ النّاسُ وشدّوا الرّنّه ... مالي أراكِ تكرهين الجنّه
قد طالَ ما قد كنتِ مطمئنّه ... هل أنتِ إلّا نطفةٌ في شنّه

ومعنى «أجلبَ النّاس»: صاحُوا واجتمعوا. و«الرّنّة»: الصَّيحة الشَّديدة. و«النُّطفة»: الماء القليل الصَّافي. و«الشّنة»: السّقاء البالي. أي يوشك أنْ تهراق النّطفة أو ينخرق السّقاء، ضرب ذلك مثلاً لنفسه في جسده.
وتسودُ رجز الغزوات الإسلامية الأولى روحٌ إسلاميةٌ جديدةٌ، وعاطفةٌ دينيةٌ، صدى لمفاهيم=

ويقول:

يـــا حبّـــذا الجنَّـــةُ واقتـــرابُهـــا　　طيّبـــــةٌ وبـــــاردٌ شـــــرابُهـــــا
والـــرّومُ رُومٌ قَـــدْدنَـــا عـــذابُهـــا　　كـــافـــرةٌ بعيـــدةٌ أنســـابُهـــا
عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

* شرع سيّدنا جعفرُ يقاتلُ بضراوةٍ، حتّى إذا أرهقه قتالُ الرّوم، نزلَ عن فرسه الشَّقراء فعقرَها، «فكان جعفر رضي الله عنه أوَّل مَنْ عَقَرَ فرسَه في الإسلام عند القتال»(١).

* ثمَّ طفقَ يجالد وقد أُحِيطَ به من كلّ جانب، وكان ينثرُ الأعداء فوق الأرض نثرَ الدَّراهم، لكنَّه أُثْخِنَ بالجراح، واستمرَّ يقاتلُ حتَّى قُطِعَتْ يمينُه، فأخذَ الرَّاية بشماله، ولم يزلْ بها حتى قُطعت شماله، فاحتضنَها بعضديه، فلم يزلْ رافعاً إياها حتّى مضى إلى الموتِ وهو يترنّم بذكرِ الجنّة ونعيمها الباقي؛ وكان يُقال: إنَّ رجلاً من الرُّوم قد ضربَه ضربةً قطعته نصفَيْن، فأثابه الله عزَّ وجلَّ بجناحيه جناحين في الجنَّة يطيرُ بهما حيثُ يشاء، ولذلك سمّي بجعفر الطَّيار، وبجعفر ذي الجناحين، رضي الله عنه وأرضاه ورحمه.

* حظي جعفرُ رضي الله عنه بالشَّهادة، ولم يبقَ في جسدِه موضعٌ لطعنةٍ أو رمية، وكلّها في قُبُلِهِ حتّى تجاوزت تسعين بين طعنةٍ أو رميةٍ أو سهم.

* أخرج البخاريُّ في صحيحه عن شاهد حضر مؤتة وهو ابن عمر الذي أخبر بأنَّه: «وقفَ على جعفر يومئذٍ وهو قتيلٌ، فعدَدْتُ به خمسين بين طعنةٍ

= الإسلام وأفكاره وتعاليمه، قال سيّدنا أبو دجانة الأنصاريّ رضي الله عنه مرتجزاً:

أنـــا الـــذي عـــاهـــدنـــي خَليلـــي　　ونحـــنُ بـــالسّفـــح لـــدى النّخيـــل
ألاّ أقـــومَ الـــدّهـــر فـــي الكبـــول　　أضـــرب بسيـــفِ اللهِ والـــرّســـول

واستطاع الرجزُ ببساطة أنْ يستوعبَ المعاني الإسلاميّة، وأن يكون سمير الفرسان في حروبهم ولقائهم عدوهم، وغدا من الفنون الشّعرية المستقلّة ذات الطّابع الفني الخاص.

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٨٣).

وضربةٍ، ليس منها شيءٌ في دُبره؛ يعني في ظهره»[1].

* وفي البخاريّ أيضاً للشّاهد نفسه من الباب نفسِهِ يقولُ عبدُ الله بنُ عمر: «كنتُ فيهم في تلك الغزوة، فالتمسْنَا جعفرَ بنَ أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية»[2].

* وفي رواية العمري عن نافع عن ابن عمر: «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده»[3]، بعد أنْ ذكر العددَ: بضع وتسعون.

* وقد جمع الحافظُ ابنُ حجر بين الرّوايتين بأنَّ الزِّيادةَ كانت من رمي السِّهام[4].

* وتلك شجاعةٌ مفرطةٌ وإقدامٌ لا يتكرر، وبطولةٌ نادرة، وجرأةٌ هاشميّةٌ ميمونةٌ[5].

* وما أنْ حظي سيّدنا جعفرُ بالشَّهادة، حتَّى أقبل عبدُ الله بنُ رواحةَ واحتملَ الرّايةَ المحمديّة البيضاء، ثمّ تقدَّمَ بها وهو على فرسه، وجعل يرتجزُ ويتغنَّىٰ بالجنَّة، وأخذَ يقاتلُ الرُّومَ حتّى نال الشَّهادة، وفَعَلَ فِعْلَ صاحبَيْهِ زيد وجعفر وهُدي إلى طريق الجنَّة بإذن العزيز الحميد جلَّ جلاله.

* وقبل أنْ تسقطَ رايةُ المسلمين نهضَ إليها بطلٌ من أبطال المسلمين هو ثابتُ بنُ أقرمَ، وحملَها ثمَّ إنَّه دفعها إلى سيّدنا خالد بن

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٢٦١).

(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٨٥) طبعة المكتبة السَّلفية الرابعة بالقاهرة ١٤٠٨ هـ.

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

(٥) استشهد سيّدنا جعفر شهادة الصَّادقين المحبّين لإعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ:

فتىً ماتَ بين الضّرب والطَّعن ميتةً ... تقومُ مقامَ النّصر إذ فاته النّصر
وما ماتَ حتّى ماتَ مضربُ سيفه ... من الضّرب واعتلّت عليه القنا السّمر
تردّى ثيابَ الموت حمراً فما أتى ... لها الليلُ إلا وهي من سندس خضر

الوليد[1] وقال له: «أنتَ أعلمُ بالقتال منّي».

* وتسلَّم سيّدنا خالد رضي الله عنه الرّاية المحمّديّة بعزيمةِ الأبطال وقوّةِ المؤمنين، وتصدَّى بحصافتِهِ وعبقريتِهِ العسكريّة لِسَيلٍ ضخمٍ من جيوش الرّوم، ثمَّ أخذَ يدفعهم بذكاءٍ منقطع النّظير ليخلّصَ أصحابَهُ من مأزقٍ خطيرٍ كاد أنْ يحيطَ بهم ويحطمهم.

* فقد أدرك سيّدنا خالدٌ رضوان الله عليه خطورةَ الموقف؛ وصعوبة المشهد، وقلّة عدد جيشه، وسيّدنا خالد ـ كما نعلم ـ فارسٌ عبقريٌّ، وهَبَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ فِكْراً قيادياً، ودهاءً عسكرياً، وملاحظةً حربيةً دقيقةً، وقد أنفقَ شطر حياته في ميادين القتال وساحتها، وخبرَ فنونَ القتال، فأدرك أنَّه لابدَّ من حيلةٍ عسكريةٍ ومكيدةٍ حربية حتّى يتمّ له تجاوز هذا الموقف الصّعب.

* وبسرعةٍ وحصافة حسم خالدٌ الموقفَ، ووثبَ كالليثِ في المقدمة، وأخذ يتصدّى لمقاتلي الرّوم وفرسانِهم، ويصدُّ هجماتهم حتَّى تكسَّرت بضعة سيوفٍ في يده، وتمكَّن من كسرِ هجمات الرّوم وحجزهم عن التّقدّم في صفوفِ المسلمين، وحال الليلُ بين الفريقين؛ وفي صباح اليوم التّالي بدّل خالد في جيشه وعدّل، فظنَّ الرُّوم أنَّ مدداً قد وصل إلى المسلمين، فأصابهم رعبٌ، وأخذ خالدٌ يقاتلُ بمن معه الرّوم، ويحاول أنْ يستدرجَهم إلى الصَّحراء، فخاف الرّوم من ذلك وظنّوا أنّها مكيدةٌ، وبالتّالي انسحبَ خالدٌ بجيشه بأقلّ خسارة، إلىٰ أنْ وصلَ بهم المدينة المنورة، وقد سمّاه رسولُ الله ﷺ «سيفَ اللهِ»، كما سمّى خطَّته وقتاله «فتحاً» لأنَّه عادَ بالمسلمين سالمين إلى المدينة.

* «ويُعتبرُ إيهامُ العدو وخداعه ذا أثرٍ فعّال في سيرِ المعركة ونتائجها، وهذا ما فعله خالدٌ رضي الله عنه في سَريّةِ مؤتةَ، عندما شعر بالخطرِ الذي يحيطُ بجيشِ المسلمين من كلِّ جهة، فانتهزَ فرصةَ ظلام الليل، وتوقُّف الجيشَيْن عن

---

(١) اقرأ سيرة سيّدنا خالد في موسوعتنا «فرسان من عصر النّبوّة» (ص ٨٢ ـ ١٠٤) تجد ما يسرّ الفؤاد بإذن الله عزَّ وجلَّ، كما تجد فوائد مجموعة تشحذ الأذهان.

القتال، فوضعَ خطّةً حربيةً بارعةً تقومُ على إيهامِ العدو، وعلى خداعه، وأنقذَ الجيش من فناءٍ محقّق»(١).

* وعادتْ سريةُ مؤتةَ إلى المدينةِ المنورّةِ دون قادتِها ومنهم سيّدنا جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، عادتِ السَّريةُ فسمّىٰ رسولُ الله ﷺ فرسانَها «العكَّارين» وقال لهم: «أنتم العكَّارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين» فقبَّلوا يده الشَّريفة ﷺ(٢). ـ والعكَّارون هم الكرَّارون ـ.

* أمَّا شهداءُ مؤتةَ، فقد حظُوا باستغفار النَّبيّ ﷺ لهم، وكذلك استغفار المسلمين لهم، وحظُوا بالجنَّة عند مليكٍ مقتدر، وحظيَ جعفرُ رضي الله عنه بجناحَيْن يطيرُ بهما في الجنَّة حيث يشاء.

* وكانت سريةُ مؤتةَ من السَّرايا الميمونةِ الموفَّقة في العهد النَّبويِّ، إذ

---

(١) فرسان من عصر النُّبوَّة (ص ٩١) للدكتور أحمد خليل جمعة ـ دار اليمامة ـ ط ١ ـ ١٤٢٠ هـ.
وأودُّ هاهنا أنْ أسجّلَ كلمةً مفيدة للشّيخ صفي الرّحمن المباركفوري عن أثر هذه المعركة الميمونة التي قادها ثلاثة من أكابر الصَّحابة رضي الله عنهم. وحظوا بالشّهادة، لكنهم وجيشهم أثّروا في الروم وغيرهم، فيقول: «وهذه المعركةُ وإن لم يحصل المسلمون بها على الثّأر، الذي عانوا مرارتها لأجله، لكنّها كانت كبيرة الأثر لسمعةِ المسلمين، إنّها ألقتِ العربَ كلّها في الدَّهْشة والحيرة، فقد كانت الرّومان أكبر وأعظم قوّة على وَجهِ الأرض، وكانت العربُ تظنّ أنَّ معنى جلادها هو القضاء على النّفس وطلب الحتف بالظِّلف، فكان لقاء هذا الجيش الصَّغير ـ ثلاثة آلاف مقاتل ـ مع الجيش الضَّخم العرمرم الكبير ـ مئتا ألف مقاتل ـ ثمّ الرّجوع عن الغزو من غير أنْ تلحقَ به خسارة تذكر، كان كلّ ذلك من عجائب الدّهر، وكان يؤكّد أنّ المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنّهم مؤيّدون ومنصورون من عند الله، وأنَّ صاحبهم رسول الله ﷺ حقاً، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزالُ تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركةِ إلى الإسلام، فأسلمت بنو سُليم، وأشجع، وغطفان، وذبيان، وفزارة، وغيرها. وكانت هذه المعركةُ بدايةَ اللقاء الدّامي مع الرّومان، فكانت توطئة وتمهيداً لفتوح البلدان الرّومانية، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النّائية» (الرّحيق المختوم ص ٤٦٥ و ٤٦٦) طبعة دار الوفاء الخامسة ١٩٨٧ م.

(٢) أخرجه البخاريّ في الأدب المفرد برقم (٩٧٢)، وابن ماجه برقم (٣٧٠٤) وغيرهما.

عادتْ على الإسلامِ وأهلِهِ بنتائج طيّبةٍ يمكن أنْ نوجزَ هاهنا أبرزَ نقاطِها:

الأولى: تُعتبرُ سريةُ مؤتةَ معركةً ذات نَفَسٍ استطلاعيّ، لأنّها علَّمتِ المسلمينَ أساليبَ قتالِ الرُّوم، وعلَّمتهم كذلك خواصَّ قوّات الرّوم وحلفائِهم وتنظيمهم وتدبيرِهم لشؤونِ الحربِ والتَّسليح والهجوم والمناورة.

الثانية: في تاريخِ الحروبِ يتعلَّمُ الجنودُ «المسيرَ الليليَّ» وفي هذا النَّوع من التَّدريب يتعوّدُ الجنودُ على تحمُّلِ الصِّعاب، وقد سبقَ المسلمون غيرهم من الأمم في هذا المجال، إذ إنَّ مسيرَهم لَيليٌّ ونهاريٌّ، وقطعُوا في ذلك الزَّمنِ أكثرَ من (٧٠٠ كيلاً) كي يلاقوا الرّوم ومَنْ لَفَّ حولَهم من الأمم، ومن ثمَّ يعملون على نَشْر الإسلام في هذهِ الأرضِ البعيدةِ عن المدينةِ المنورةِ عاصمة الدّولة الإسلاميّة، أو يقاتلون أهل الشِّرك والباطل.

الثَّالثة: أسفرتْ هذه السَّرية عن لونٍ من ألوانِ الدَّعوة إلى الإسلام، وكانت دعوة غير مباشرةٍ فقد عمدَ النَّاسُ في هاتيك البلادِ يفكّرونَ في الإسلامِ ونَبيِّ الإسلام ﷺ الذي يُخرِجُ النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور بإذنِ العزيز الحميدِ؛ وتحدّثنا كثيرٌ من المصَادر بأنَّ الإسلامْ ساورَ قلوبَ كثيرين، فاعتنقوه، وآمنوا باللهِ ربّاً، وبمحمَّد ﷺ نبيّاً ورسولاً.

الرَّابعة: أثبتَ سيّدنا جعفرُ رضي الله عنه وأصحابُه أنَّ النَّصرَ من عندِ اللهِ عندما خاضُوا المعركةَ رغم قلّة عددهم، وبرهنوا للعالَم بطلان مزاعمِ المتمسّكين بـ «التّكنولوجيا» الحربيّة التي يتعلّقُ بأذيالها المُعرِضون عن المنهج الإلهيّ ممنْ يرَوْنَ أنَّ سبب انتصار أعداءِ الإسلام إنَّما هو تفوقُهم العسكريّ وكثرةُ عددِهم مقابل المسلمين.

الخامسة: علَّمَتْ جرأةُ جعفرٍ وصحبِهِ المُسلمين على قوَّةِ الإرادةِ، والثَّبات أمامَ الأعداء فيما بعد، إذ خاضَ المسلمون بعد بضع سنين معركةَ اليرموك، وانتصروا على الرُّوم الذين كان عددهم قرابة مئتين وأربعين ألف مقاتل، بينما كان عددُ المسلمين خُمْسُ عددِ الرّوم أي ما يقارب ستة وأربعين

ألفَ مجاهدٍ في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

* وهناك أمورٌ أخرى يدركُها القارىء بنفسه، وكلُّها تنمُّ عن الآثارِ المباركةِ لهذه السَّريةِ الموفَّقةِ التي استشهد فيها أحدُ كرامِ أهل البيت وكرمائِهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، كما استشهد معه ثلةٌ من كرامِ المهاجرين والأنصار بلغَ عددُهم (١٢ رجلاً) كما ذكرَ ابنُ كثير وغيرُهُ.

* وما أجمل أنْ نسجِّل في نهايةِ هذه الفقْرة إعجابَ ابن كثير بجعفرٍ وجيشِهِ حيثُ يقول: «... وهذا عظيمٌ جدّاً أن يتقاتلَ جيشان متعاديان في الدِّين:

أحدهُما: وهو الفئةُ التي تُقاتلُ في سبيلِ الله عدّتُها ثلاثة آلاف.

وأخرى: كافرةٌ، وعدتُها مئتا ألف مقاتل: من الرُّوم مئة ألف، ومن نصارىٰ العرب مئة ألف يتبارزون ويتصاولون، ثمَّ مع هذا كلّه لا يُقْتَلُ من المسلمين إلاّ اثنا عشر رجلاً، وقد قتلَ من المشركين خَلْقٌ كثير.

هذا خالدٌ رضي الله عنه وحدَهُ يقولُ: لقد اندقَّتْ في يدي يومئذ تسعةُ أسياف، وما صَبَرتْ في يدي إلا صفحةٌ يمانيةٌ، فماذا ترىٰ قد قَتَلَ بهذهِ الأسياف كُلِّها؟

دَعْ غيرَهُ من الأبطالِ والشُّجعان، من حَمَلةِ القرآن، وقد تحكّموا في عبدةِ الصُّلْبان، عليهم لَعَائنُ الرّحمان، في ذلك الزَّمان، وفي كلّ أوان، وهذا ممَّا يدخل في قولهِ تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[آل عمران: ١٣]»[1].

مكَانَةُ جعفر عند النَّبيّ ﷺ:

* كان سيّدنا جعفرُ بنُ أبي طالب عليه سحائب الرضوان ابن عمِّ الصَّادق

(١) انظر: البداية والنّهاية (٤/ ٢٥٩).

المصدوق سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ، وكان شابّاً في ذِرْوَةِ الرّجوليّة ذا خلق رفيع، وأدب غضّ كزهْرِ الرَّبيع، وأريحيّة متناهية، وكرم نَفْس عالية، وسخاء منقطع النّظير، وفوق هذا وذاك كان من سادة السَّابقين الأوّلين من أسيادنا الأطهار، رجال أهل البيت الأخيار، رضي الله عنهم، وحشرنا في معيّتهم، وعفا عنا بفضله ومنِّه وجوده.

* ولهذا الجواد الكريم مواقفُ يقطرُ منها الحمد، وترفعه إلى ذرا المجد، فقد كان أمير المهاجرين إلى الحبشة وفارسهم وخطيبهم وفقيههم وأديبهم، وأكثرهم نباهةً وحصافةً وملاحظةً، فعندما حاورَ النَّجاشي دلّ نقاشه له على فطنةٍ وذكاءٍ ممزوجَيْن بالإيمان الراسخ والمنطق الجزل. والهدوء الجميل، والوسامة اللطيفة التي حبا الله عزَّ وجلَّ بها سيّدنا جعفر رضي الله عنه، وقد سجّل سيدنا جعفر رضي الله عنه هذه الانتصارات الباهرة وهو لا يزال شاباً في عمر الورد المندّى بالعبق في أشْهُرِ الرَّبيع.

* ولمَّا وُلِدَ لجعفر ابنه عبدُ الله بنُ جعفر، وُلِدَ للنّجاشي ابن بعد عبد الله بأيّام، فأرسل إلى جعفر: ما سمّيتَ ابنك؟

قال: عبد الله، فسمّى النّجاشي ابنه عبد الله، وأخذته أسماء بنتُ عُميس زوج جعفر، فأرضعَتْه حتّى فطمته بلبن عبد الله بن جعفر، ونزلَتْ بذلك عندهم منزلةً عظيمةً.

* وكان رسولُ الله ﷺ يحبُّ جعفراً حبّاً شديداً لما فيه من خصال قَلَّ أنْ تُوجَد في غيره، وثَبَتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قام لجعفر عندما عاد من هجرته من أرض الحبشة، وقبّلَ ما بين عينيه[1]، وهذا يدلُّ على علو المنزلة الجعفريّة والمكانة العالية في نفس النَّبيّ ﷺ.

* وقد حزن رسولُ الله ﷺ على جعفر حزناً شديداً، وتأثّر لمقتله، وبكاه،

---

(١) البداية والنهاية (٤/٢٥٦).

وذهب بنفسه إلى بيت جعفر لمؤاساةِ أهله وأبنائه، وكانوا أطفالاً صغاراً.

* وهذه المواساة النَّبويّةُ ينقلُها البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه فيذكر: «أنَّ النَّبيّ ﷺ نعىٰ زيداً وجعفراً وابنَ رواحةَ للنَّاس قبل أنْ يأتيهم خبرهم، فقال: أخذَ الرَّاية زيدٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخذَ جعفر فأُصيب، ثم أخذَ ابنُ رواحة فأُصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الرّاية سيفٌ من سُيوف الله حتّى فتحَ اللهُ عليهم»[1].

* ونطّلع على خبرٍ مفيدٍ آخر عند موسىٰ بن عقبةَ قال: «قدمَ يعلى بنُ منْية على رسولِ الله ﷺ بخبرِ أهلِ مؤتةَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إنْ شئتَ

---

(١) أخرجه البخاريّ في المغازي برقم (٤٢٦٢). وقال الحافظُ ابنُ حجر في «الفتح»: «وفي الحديث جواز الإعلام بموتِ الميت، ولا يكون ذلك من النّعي المنهي عنه». (الفتح ٧/ ٥٨٦). وقد بيّن في موضعٍ آخر النّعي المنهي عنه فقال: «وإنّما نهى عمّا كان أهلُ الجاهليّة يصنعونه، فكانوا يرسلون مَنْ يعلن بخبرِ موت الميّت على أبوابِ الدّور والأسواق». وقد نعى النّبيّ ﷺ النّجاشي في اليوم الذي مات فيه، ليدلّ على أنَّ هناك نعيٌ جائز، ففي الصَّحيحين عن سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إنَّ رسولَ الله ﷺ نعى للنَّاس النَّجاشي في اليوم الذي مات فيه وقال: إنَّ أخاً لكم قد مات بغيرِ أرضكم، فقوموا فصلّوا عليه». (البخاري برقم ١٣٣٣).

ومن السُّنّة سؤال النّاس الاستغفار للميّت خصوصاً إذا كان من أهل الصَّلاح، وأهلِ الجهاد ورفْعِ راية الحقّ وكلمة الله. وقد صنع ذلك رسولُ الله ﷺ حين نعى للنَّاس أمراء جيشِ مؤتةَ الذين جعلهم أمراء الجيش الغازي في بلاد الشَّام فقال: «إنّهم انطلقوا فلقوا العدوّ، فأُصيب زيدٌ شهيداً، فاستغفروا له ـ فاستغفر له النَّاس ـ ثمَّ أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، فشدَّ على القوم حتى قُتِلَ شهيداً، أشهدُ له بالشَّهادة، فاستغفروا له، ثمَّ أخذَ اللواء عبد الله بن رواحة، فأثبتَ قدميه حتى قُتِلَ شهيداً، فاستغفروا له». وكذلك فعل ﷺ يوم مات النَّجاشي، كما جاء في الصَّحيحين وبعض السّنن عن سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النّبيّ ﷺ قال للنّاس يوم أنْ مات النّجاشي: «استغفروا لأخيكم» (البخاريّ برقم ٣٨٨٠).

وأخرج البخاريّ أيضاً بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أنَّ النّبيّ ﷺ صلّى على أصْحَمة النّجاشي، فكبّر عليه أربعاً» (البخاري برقم ٣٨٧٩) وقد عقد البخاريّ في صحيحه باباً عنوانه «باب موت النّجاشي» فليراجع.

فأخبرني، وإنْ شئتَ أخبرتُك». قال: أخبرني يا رسولَ اللهِ، فأخبره ﷺ خبرهم كلّه، ووصفهم له، فقال: والذي بعثك بالحقّ، ما تركتَ من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكرْهُ، وإنَّ أمرهم لكما ذكرتَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ رفعَ لي الأرض حتّى رأيتُ معتركهم»[1].

* ولا ريب في أنَّ نبأَ استشهادِ جعفر كان شديد الوقع على قلوب أهله وأولادِهِ، فهذه امرأةُ جعفر أسماءُ بنتُ عميس رضي الله عنها تأخذُ بأيدينا، وتضعُ أعيننا على هذا المشهد النَّبويّ الحاني لأولادها فتقول: «أصبحتُ في اليومِ الذي أُصِيبَ فيه جعفرُ وأصحابُهُ فأتاني رسولُ الله ﷺ، ولقد هيأتُ أربعين مَنّاً من أَدَم، وعجنتُ عجيني، وأخذتُ بَنِيّ فغسلتُ وجوههم ودهنتُهم. فدخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «يا أسماءُ، أين بنو جعفر»؟

فجئتُ بهم إليه، فضمَّهم وشمَّهم، ثمَّ ذرفَتْ عيناه فبكى، فقلتُ: أيْ رسولَ الله، لعلّكَ بلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟

قال: «نعم، أُصيبوا هذا اليوم».

وفي رواية: لعلّك بلغَك عن جعفر شيءٌ؟

فقال: «نعم، قُتِل اليوم».

فقمتُ أصيحُ، واجتمعَ إليَّ النّساء، فجعل رسولُ الله ﷺ يقول: «يا أسماءُ لا تقولي هُجراً، ولا تضربي صدراً».

فخرجَ رسولُ الله ﷺ حتّى دخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها وأرضاها وهي تقول: واعمّاه.

فقال رسولُ الله ﷺ: «على مثل جعفر فَلْتبكِ الباكية». أو قال: «البواكي»؛ ثمَّ قال: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شُغلوا عن أنفسِهم اليوم». وفي رواية: «لا تغفلُوا عن آل جعفر أنْ تصنعوا لهم طعاماً، فإنّهم قد شُغِلوا بأمْرِ صاحبهم»[2].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٨٤ و ٣٨٥)، وفتح الباري (٧/ ٥٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز برقم (١٦١٠ و ١٦١١)، وأبو داود في الجنائز برقم (٣١٣٢)، =

* ولنسمعْ قصّة أسماء رضي الله عنها من خلال هذه الأنسامِ اللطيفة من ثنايا قافية النُّون المُزهرة التي ترسمُ العطفَ النّبويَّ على البيت الجعفريّ:

أسمـاءُ بنـتُ عميـس تحكـي عَـنْ مُصَـاب المسلميـن
قـالـتْ تـوجَّـه جيشُنـا للـرُّوم كـانـوا مُجـرميـن
قـد كـان زوجـي بيـن قـادتـهِ كمَـا أمَـرَ الأميـن
فـأتـى إلينـا المُصطفـى فـي بيتنـا كـالـزَّائـريـن
قـال ائتنـي ببنـيّ جعفـرَ هـل أراهـمْ سَـالميـن
نـاديتُهـم فَـوراً وجئْنـا للنَّبـيِّ مُسَـارعيـن
ذرفـتْ عيـونُ المُصطفـى لمّـا رآهـم مُقْبليـن
قـد ضمَّهـم فـي صَـدْرهِ فـي العَطْـفِ فـاقَ العـالَميـن
لمّـا رأيـتُ دمـوعَـه فسـألْتُـه كـي أستبيـن
بـأبـي وأمّـي أنـتَ يـا خيـرَ الـورىٰ والمـرسليـن
أسمعـتَ سُـوءاً عـن غُـزَاتـك جعفـرٍ والآخـريـن
كـان الجـوابُ أُصيـبَ جعفـرُ فـاصبـري لا تجـزعيـن
فبكيـتُ واجتمـعَ النّسـاء بكَيـنَ مثلـي أجمعيـن
قـال الـرّسـولُ لصَحْبـهِ كـانـوا لقـولِ سـامعيـن
لا تغفُلُـوا عـن آلِ جعفَـر مـن طعَـامِ الآكليـن

* وسجَّل ابنُ سعد: «أنّه لما أتى رسولَ الله ﷺ قَتْلُ جعفر عُرِفَ في وجهه الشَّريف الحزنُ، ثمّ أمهلَ آل جعفر ثلاثاً أنْ يأتيهم، ثمّ أتاهم فقال: «لاتبكوا على أخي بعد اليوم». ثمّ قال: «ائتوني ببني أخي» فجيء بنا كأنّنا أفراخ، فقال: «ادعوا لي الحلاّق»، فَدُعيَ فحلَقَ رؤوسنا، ثمَّ قال: «اللهم اخلفْ جعفراً في

= والتّرمذيّ في الجنائز برقم (٩٩٨)، والبيهقيّ في الدّلائل (٤/ ٣٧٠)، والهيثميّ في مجمع الزّوائد (٦/ ١٦١). وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٦/ ٧٣)، والتّبيين (ص ٩٣)، والرّوض الأنف (٤/ ٨٢).

أهله، وبارك لعبد الله ِفي صفقة يمينه» ثلاث مرّات. فجاءت أسماء وذكرت يُتم أولادها، فقال ﷺ: «آلعيلة تخافين عليهم، وأنا وليّهم في الدّنيا والآخرة»[1]؟

* ويحدّثُنا سيّدنا عبدُ الله بنُ جعفر عن الرّعايةِ المحمّديّة له ولإخوته فيقول: «أنا أحفظُ حين دخلَ رسولَ الله ﷺ على أمّي، فنعى لها أبي، فأنظرُ إليه وهو يمسحُ على رأسي ورأسِ أخي، وعيناه تُهراقان الدُّموع حتّى تقطرَ لحيتَه، ثمّ قال: «اللهم إنَّ جعفراً قد قدم إلى أحسنِ الثّواب، فاخلفْهُ في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته». ثم قال: «يا أسماء! ألا أسُرُّك»؟ وفي رواية: «ألا أبشِّرُك»؟

قالت: بلى، بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله.

قال: «إنَّ اللهَ جعل لجعفر جناحَيْن يطيرُ بهما في الجنَّةِ».

قالت: بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله، فأعْلمِ النَّاسَ ذلك.

فقام رسولُ الله ﷺ، وأخذ بيدي يمسحُ بيده رأسي، حتَّى رَقيَ المنبر، وأجلسني أمامه على الدَّرجةِ السُّفلى، والحزنُ يُعْرفُ عليه، فتكلَّم فقال: «إنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه، وابن عمّه، ألا إنَّ جعفراً قد استُشْهِدَ، وقد جعلَ اللهُ له جناحين يطيرُ بهما في الجنَّة».

ثمّ نزل رسولُ الله ِﷺ، فدخل بيتَه، وأدخلني معه، وأمر بطعامٍ فَصُنِعَ لأهلي، وأرسل إلى أخي فتغدينا عنده والله ِغداءً طيّباً مباركاً، عمدتْ سلمى خادمُهُ إلى شعيرٍ فطحنَتْه، ثمَّ نسفَتْه، فأنضجَتْه، وأَدمَتْهُ بزيت، وجعلتْ عليه فُلْفُلاً، فتغديتُ أنا وأخي معه، ندورُ معه كلّما صار في إحدى بيوت نسائه، ثمّ رجعنا إلى بيتنا، فأتى رسول الله ﷺ وأنا أساومُ بشاةٍ أخاً لي، فقال: «اللهمّ بارك في صفقته»، فما بعتُ شيئاً ولا اشتريتُ إلا بُورك فيه»[2].

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٧) بتصرف.

(٢) نسب قريش (ص ٨١ و ٨٢)، والبداية والنِّهاية (٤/ ٢٥٦)، والمغازي (٢/ ٧٦٦ و ٧٦٧) مع الجمع والتّصرّف.

* وثبتَ في الصَّحيح وغيرِه بسندٍ عن الشَّعبيِّ «أنَّ ابنَ عمر رضي الله عنهما كان إذا سلَّمَ على ابنِ جعفر قال: السَّلامُ عليكَ يا بنَ ذي الجناحَيْن»(١).

* وهذا الكلامُ يشيرُ إلى قولِ النَّبيِّ ﷺ «لقد رأيتُه في الجنَّةِ ـ يعني جعفراً ـ له جناحان مضرّجَان بالدِّماء مصبوغ القوادم»(٢).

* وفي حديث مروي عن سيّدنا عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ: «مرَّ بي جعفرُ بنُ أبي طالب الليلة في ملأ من الملائكةِ، له جناحان مضرّجان بالدّماء، أبيض القوادم»(٣).

* ولمَّا أتى النَّبيَّ ﷺ نعيُ جعفر وأصحابه بكى وقال: «أخواي ومؤنسايَ ومحدّثايَ»(٤) يعني جعفر وزيد بن حارثة. وكانت سِنّه يومَ استُشْهد إحدى وأربعين سَنَة، وله من الولدِ ثلاثة: عبد الله، ومحمّد، وعون، ودخل عليهم النَّبيُّ ﷺ يوم جاء نَعْيُ أبيهم، فدعا الحلّاق فحلق رؤوسهم وقال: «أنا وليّهم في الدُّنيا والآخرة»(٥).

---

(١) أخرجه البخاريّ في فضائل الصّحابة برقم (٣٧٠٩)، وفي المغازي برقم (٤٢٦٤)، وانظر: الإصابة (١/ ٢٤٠). وقوله: «يا بن ذي الجناحين»: يُقال لكلّ ذي ناحيتين جناحان، والجناحان في هذا الحديث ليسا على ظاهرهما. قال السُّهيلي: «قوله جناحان ليسا كما يسبقُ إلى الوهم كجناحي الطَّير وريشه، لأنَّ الصُّورة الآدمية أشرقُ الصّور وأكملها، فالمرادُ بالجناحين صفة ملكية وقوة روحانية أعطيها جعفر، وقد عبّر القرآنُ الكريمُ عن العضد بالجناح توسّعاً في قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢]، وقال العلماء في أجنحة الملائكة: إنّها صفات ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة، فقد ثبت أنَّ لجبريل ستّ مئة جناح، ولا يعهد للطير ثلاثة أجنحة فضلاً عن أكثر من ذلك، وإذا لم يثبتْ خبرٌ في بيان كيفيتها فنؤمن بها من غير بحث عن حقيقتها». وقال عبدُ الله بنُ جعفر: قال لي رسولُ الله ﷺ: «هنيئاً لك أبوك يطيرُ مع الملائكة في السَّماء». (فتح الباري ٧/ ٩٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٩)، والاستيعاب (١/ ٢١٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٩)، والإصابة (١/ ٢٤٠)، وأسد الغابة (١/ ٣٤٣).

(٤) التّبيين (ص ٩٣).

(٥) التّبيين (ص ٩٤).

* كان عبدُ الله بنُ جعفر رضي الله عنهما يعرفُ مكانةَ أبيهِ عند عمّه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فكان إذا أرادَ مِنْ عمِّه شيئاً ذكَّرهُ بجعفر فيقضي حاجته، جاء عن الشَّعبي عن عبدِ الله بنِ جعفر قال: «ما سألتُ عليّاً شيئاً فامتنعَ، فقلت له: بحقّ جعفر، إلا أعطاني»(١).

* أمّا السَّيّدةُ النَّبيلةُ أسماء بنتُ عُميس فكانت تكثر من قولها في وصف زوجها جعفر: «ما رأيتُ شاباً من العربِ كان خيراً من جعفر»(٢).

* وأشارت الأخبار بأنَّ سيَّدنا أبا بكر الصِّديق رضي الله عنه قد تزوَّج أسماء بعد أن انقضتْ عدّتها، فولدتْ له محمّد بن أبي بكر، ولمَّا توفي سيّدنا أبو بكر تزوّجها بعده سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فولدت له أولاداً رضي الله عنهم أجمعين(٣).

* ويتحفنا ابنُ سعد بخبر طريفٍ موصول بسند إلى الشَّعبي قال: «تزوَّج عليٌّ أسماءَ بنتَ عميس، فتفاخرَ ابناها: محمّدُ بنُ جعفر، ومحمّدُ بنُ أبي بكر،

---

(١) أسد الغاية (١/ ٣٤٤). أقول: «وهذا من الدّلال اللطيف المقبول من سيّدنا عبد الله بن جعفر».

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٤١).

(٣) البداية والنّهاية (٤/ ٢٥٣) بتصرّف، وقال ابن كثير رحمه الله: «رثتْ أسماءُ بنتُ عميس زوجَها بقصيدة تقول فيها:

فآليتُ لا تنفكُّ نفسي حزينةً ... عليكَ ولا ينفكُّ جلدي أغبرا
فللّه عيناً مَنْ رأى مثله فتىً ... أكرّ وأحمى في الهياج وأصبرا

ثمَّ لم تنشبْ أن انقضتْ عدّتها، فخطبَها أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه فتزوّجها، فأولمَ وجاء النّاس للوليمة، فكان فيهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فلمّا ذهبَ النّاس، استأذن عليٌّ أبا بكر رضي الله عنهما في أنْ يكلّم أسماء من وراء السّتر، فأذن له، فلمّا اقتربَ من السّتر نفحه ريح طيبها، فقال لها عليٌّ ـ على وجْه البَسْط ـ: مَن القائلة في شعرها:

فآليتُ لا تنفك نفسي حزينة ... عليكَ ولا ينفكّ جلدي أغبرا؟

فقالت: دعنا منك يا أبا الحسن، فإنّك امرؤ فيك دُعابة... ثمّ تزوّجها عليٌّ بعد وفاة الصّديق فولدت له أولاداً رضي الله عنه وعنها وعنهم أجمعين» (البداية والنهاية ٤/ ٢٥٣).

قال كلّ واحدٍ منهما: أنا أكرمُ منك، وأبي خيرٌ من أبيك. فقال لها عليٌّ: اقضي بينهما.

فقالت: ما رأيتُ شاباً من العرب كان خيراً من جعفر، ولا رأيتُ كهلاً خيراً من أبي بكر.

فقال عليٌّ: ما تركتِ لنا شيئاً.

فقالت: والله إنَّ ثلاثةً أنتَ أخسُّهم لخيار.

فقال لها: لو قلتِ غير هذا لمقتُّكِ»[1].

مع ركْبِ الخالدين:

* إنَّ سيّدنا جعفر بن أبي طالب عَلَم من أعلام أهل البيت النُّجباء الرُّفقاء الوزراء الحواريين الذين أُعطيهم النَّبيّ ﷺ، وكانوا غُرَّة في جبين الدَّهْر.

* ويعتبرُ سيّدنا جعفر من الفُصحاء البُلغاء الأدباء الأبْيناء؛ إذ يتمتّع ببيانٍ ناصع، وأسلوبٍ يصافح أوتار القلوب ويتناغمُ معها، ومع هذا كلّه كان متعمّقاً في الإسلام، حافظاً لما نزلَ من آيات القرآن والذّكر الحكيم، محبّاً لابن عمّه محمّد ﷺ خير الأنبياء والمرسلين، عالماً بكثيرٍ من سُنَنِهِ، وكان صبوراً حكيماً، ظهر صبرهُ جلياً عندما ترك أحبّ الأرضِ والبلاد إلى الله وهاجرَ إلى الحبشة، وتحمَّلَ أخطار الهجرة، وأعباء الحياة الزّوجيّة في ديار الغربة.

* لقد تحلَّى سيّدنا جعفر بمزايا متألّقة، قَلَّ أنْ تُوجدَ في رجلٍ غيره، ومن هذه المزايا: الإيمانُ العميقُ، والفصاحةُ النّاصعةُ، والخلُقُ الحسنُ، والصَّبرُ الجميلُ، والحكمةُ النَّادرة، والحصافةُ والذَّكاءُ النَّادرُ الذي يستسهلُّ الصِّعاب، ويحلُّ المُشكلات، ووراء ذلك كلّه رُوَاء المظْهرِ والشَّكلِ الأنيقِ الجذّاب الذي يبهرُ الأبصار، ويخلبُ العقول، ويُدخلُ السُّرور إلى حنايا القلوب، ولا عجبَ في هذا، فهو أشْبَهُ النَّاس خَلْقاً وخُلُقاً بالحبيبِ الأعظمِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٤١).

سيّدنا رسول الله ﷺ: زِدْ على ذلك أنَّ جعفراً كان من أحبِّ النَّاس، وأقربهم إلى قلبه الشَّريف ﷺ.

* ولهذا كان سيّدنا جعفرُ من الخالدين في دنيا العظماء، ودنيا رجالِ أهلِ البيت الأصفياء، فقد رثاه سيّد الشُّعراء وأميرهم حسَّان بنُ ثابت بقصيدة عصماء، تطاول في حسنها الجوزاء، ومنها هذه الأنداء:

تأوَّبني لَيْلٌ بيثربَ أعْسَرُ ... وهمٌّ إذا ما نوَّمَ النَّاسَ مُسهِرُ
لذكرىٰ حبيبٍ هيَّجَتْ ثَمَّ عبرة ... سفوحاً وأسباب البكاء التّذكّرُ
فلا يبعدنَّ اللهُ قتلى تتابعُوا ... بمؤتةَ منهم ذو الجناحين جعفرُ
أغرُّ كَلَونِ البدر من آل هاشم ... شجاع إذا سيم الظلامة مِجْسَرُ
وكنَّا نرى في جعفرٍ مِنْ محمّدٍ ... وفاءً وأمراً حازماً حين يأمرُ
فما زالَ في الإسلام من آلِ هاشمٍ ... دعائمُ عزٍّ لا يزولُ ومفخرُ
بهم تُكشَفُ اللأواءُ في كل مأزقٍ ... عَمَاسٍ إذا ما ضاق بالقوم مصدر
هُمُ أولياءُ اللهِ أنزلَ حُكْمَهُ ... عليهم وفيهم والكتابُ المطهرُ
بهاليلُ منهم جعفرٌ وابنُ أمِّه ... عليٌّ ومنهم أحمدُ المتخيَّرُ
وحمزةُ والعبّاسُ منهمْ ومنهمُ ... عقيلٌ وماءُ العودِ من حيث يُعْصر(١)

* فنجدُ حسَّان بنَ ثابت رضي الله عنه في هذه الرَّائيةِ المعبّرة؛ يستحضرُ بطولةَ شهداء معركة مؤتةَ وفروسيتهم النَّادرة، حيث إنَّهم لم يتراجَعُوا أو يتخاذلوا أمام جيوشِ الرُّوم الجرّارة، وأمام زحفها الذي غطَّى الأرضَ، بل اندفعوا إليهم اندفاعَ مَنْ يحبُّ الموتَ ويكرهُ الحياة، ويرجو رحمةَ الله عزَّ

(١) ديوان حسَّان بن ثابت (١/ ٩٨ و٩٩) طبعة دار صادر. ومعنى «تأوّبني»: عادني ورجعَ إليّ، وأصل الفعل: آبَ يؤوبُ: رجَعَ. و«أعسر»: شديد العُسر. و«مِسْهر»: داعٍ إلى السّهر ومانع من النّوم. و«العبرة» الدّمعة. و«سفوحاً»: السّفُوح: السّائلة أو شديدة السّيلان. و«سِيم»: كلّف. و«مجِسْر»: شديد الجسارة والجرأة والإقدام. و«اللأواء»: الشّدة. و«مأزق»: المكان الضّيق. و«عَمَاس»: المُظلم، و«بهاليل»: جَمعُ بهلول وهو السَّيد.

وجلَّ، وهو غيرُ آبهٍ لكثرةِ الجموعِ البشريّة وصَلِّها وصَلِيلِها؛ فاستحقّوا مثوبةَ اللهِ تعالى، وماتوا شُهداء ميتةَ الشَّرف والفخار، فخلّدهم حسّان برثائه الصّادق[1].

* فالمسلمون المجاهدون في سبيلِ اللهِ كانوا يغدون إلى ساحات الجهاد جمعاً واحداً، وهؤلاء المجاهدون الأخيار الذين خرجوا إلى مؤتةَ، كانوا تحت رايةٍ واحدة يحملُها بيده سيّدنا زيدُ بنُ حارثةَ رضي الله عنه، فحظي بالشَّهادة وفاز مع الفائزين، فتسلَّم الرَّايةَ سيّدنا جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فقُطِعَتْ يداه في سبيل الله، ونال الشَّهادة فأبْدَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بيديه جناحَيْن يطيرُ بهما في الجنَّة حيث يشاء؛ ثمَّ تسلَّم الرَّاية عبدُ الله بنُ رواحة رضي الله عنه فقاتل حتّى استُشْهد أيضاً، وكلُّهم تتابعوا إلى الموتِ، وماتوا ميتةً كريمةً مشرّفةً، وأصبحوا مع المستشهدين الذين هم أحياء عند ربهم يُرزقون.

* وفي مرثية أخرى، يشدو حسّان برثاءِ جعفر، فيقول من قصيدةٍ مؤثّرة في ذكر المناقب الجعفريّة:

ولقد بكيتُ وعزَّ مهْلِكُ جعفرٍ … حبِّ النَّبيّ على البريَّة كلّها
ولقد جزعتُ وقُلْتُ حين نُعيتَ لي … مَنْ للجلادِ لدى العُقَاب وظلّها
بعد ابنِ فاطمةَ المبارك جعفرٍ … خيرِ البريَّة كلّها وأجلّها
عَالخيرِ بعد محمّدٍ لا شبهُهُ … بشَرٌ يُعَدُّ من البريَّة جُلّها[2]

* وممَّن خلّد جعفراً، فأفادَ وأجاد، كعبُ بنُ مالك، حيث استطاع أنْ

---

(١) من الواضح لدى الباحثِ، أنَّ المراثي التي نظَمها شعراءُ المسلمين تعكسُ لنا حالة الاطمئنان التي كانوا يعيشونها من خلالِ يقينهم بمصير الشّهداء، وما أُعد لهم في جنّات الخلد، ونحنُ نستشفُّ ذلك من خلالِ صوت الشّاعر الهادئ حينما يرثي الشّهداء مطمئناً على مصيرهم، داعياً الله لهم، وخصوصاً في شعر حسّان وكعب بن مالك رضي الله عنهما.

(٢) انظر: ديوان حسَّان بن ثابت (١/ ٣٢٣) طبعة دار صادر. ومعنى «جزعت»: الجزع: الخوف. و«العُقاب»: معنى العقاب في هذا المكان: الرّاية. و«فاطمة»: هي السّيّدة فاطمة بنت أسد الهاشميّة أمّ جعفر. وأخبارها مبسوطة في كتابنا «نساء مبشّرات بالجنّة» (ص ٣٨ ـ ٤٩) دار ابن كثير ـ ط ٥ ـ دمشق.

يصوّرَ بريشتِهِ السَّاحرة العزَّ والاقتدار لجعفر ومَنْ معه من أبطالِ المسلمين وشهدائهم، فقد رسمهم وأفصحَ عن صُورهم بأنَّهم صابرون، ثابتون أمام الرّوم، يقاتلونهم بعزمٍ وحزمٍ، وجرأةٍ وشجاعةٍ نادرة.

* وفي لاميةٍ مُبْهرةٍ، يصوّرُ كعبُ بنُ مالك بطولةَ المسلمين في مؤتة، ويذكرُ صبرهم وروحَهم القتاليةَ العاليةَ، ووحدتهم ووقوفهم وراء رايةِ الإسلام التي يحملُها سيّدنا جعفر بن أبي طالب الذي تقدّمهم مقاتلاً في معتركِ الصُّفوف حتى قطعت يداه، ثمّ استُشهد. ونرى بوضوح أنّ كعباً ما أنْ يصلُ إلى موتِ جعفر رضي الله عنه حتّى يقطعَ المشهدَ، ثمّ يلتجىءُ إلى ذكْرِ الطَّبيعة، فيكني بها عن استشهاده، لتبقى الصّورة الأخيرةُ الباقية لجعفر هي صورةُ الشَّهيد المقدام الباسل في ساحةِ المعركة، فإذا استشهد فإنَّ روحه تصعدُ إلى ربّها، ويبقى ذكره حميداً في الأرض والسَّماء، يقولُ كعبُ بنُ مالك:

صلَّى الإلهُ عليهم من فتيةٍ ... وسقى عظامهم الغمامُ المسبلُ
صبروا بمؤتةَ للإلهِ نفوسَهم ... حذَرَ الرّدى ومخافةً أن ينكُلُوا
إذْ يهتدون بجعفرٍ ولوائهِ ... قدامَ أوّلهم فَنِعْمَ الأوّل
حتّى تفرّجتِ الصُّفوفُ وجعفرٌ ... حيثُ التقى وَعْثَ الصُّفوف مجدَّلُ
فتغيّر القمرُ المنيرُ لِفَقْده ... والشّمسُ قد كُسِفَتْ وكادت تأفلُ
قَرمٌ علا بنيانُه من هاشمٍ ... فرعاً أشمَّ وسؤدداً ما يُنْقَلُ(١)

* هذا هو سيّدنا جعفرُ بن أبي طالب، جعفرُ الجود والسَّخاء، وفتى الأحاديث المُسفرة والذّكْر النّديّ:

مضَى طاهِرَ الأثوابِ لم تَبْقَ روضةٌ ... غداةَ ثَوىٰ إلا اشتَهَتْ أنّها قَبْرُ
ثوىٰ في الثّرى مَنْ كان يَحْيا بِهِ النَّدىٰ ... ويغمرُ صَرْف الدَّهْر نائِلُهُ الغَمْرُ

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٦١). ومعنى «المُسبل»: الممطر. و«ينكُلُوا»: يرجعوا عن عدوّهم خائفين منه. و«وعْثَ»: الوعثُ: الرَّمْلُ الذي تغيبُ فيه الأرجل. و«مجدّل»: مطروح على الأرض. و«تأفلُ»: تغيبُ. و«قَرمٌ»: القرمُ: أصله الفحل من الإبل، وأراد منه هاهنا: السّيد.

عليــكَ ســلامُ اللهِ وقْفــاً فــإنّنــي رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليس له عمرُ

* رضي الله عن سيّدنا جعفر بن أبي طالب؛ الشَّهيد الأوّل منْ أبناءِ عمّ النَّبيّ ﷺ، وحشَرنا في معيّتِهِ، ومعيّة رجال أهلِ البيت الذين أذهبَ اللهُ عنهم الرّجْسَ وطهّرهم تطهيراً.

❐ ❐ ❐




علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

* صهرُ النّبيّ ﷺ على ابنته فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها .
* فدائي الإسلام الأوَّل، وأبو الحَسنَين الكريمين .
* من مشاهير العالم، ومن علماء رجال أهل البيت .
* رابع الخلفاء الرّاشدين، وسيّد من المجاهدين .
* أخباره لا تُستقصى، استُشهد سنة ٤٠ هـ. رضي الله عنه




عليٌّ بن أبي طالب
رضي الله عنه

مِنْ الهَاشميّينَ الأَخْيار:

* كان العلْمُ يتفجَّرُ من جوانبِهِ، وتنطقُ الحكمةُ من نواحيهِ، يقولُ فَصْلاً، ويحكمُ عدلاً، يستوحشُ من الدُّنيا وزهرتها، ويستأنسُ بالليالي وظُلْمتها، غزير العبْرةِ، طويل الفِكْرة، يعظِّمُ أهْلَ الدِّين، ويحبُّ المساكين، سَلاَ عنِ الأعراض، وسَمَا إلى جَليلِ الأغْراض.

* كان مزيّناً من بينِ العُبَّاد، متحققّاً بزينةِ الأبرار والزُّهَّاد، فإذا لزمَهُ في العيش الضّيق والجهد، أعرضَ عن الخلقِ وأقبلَ على الكسْبِ والكدّ، وارتقىٰ في الأسبابِ، إلى المقدَّراتِ من الأبواب.

* وهٰذا العَلَمُ كان على الأورادِ مواظباً، وللأذكار والدّعوات مُصَاحباً، فهو سيّدُ القوم، وبحرُ الفقْه والعلوم، أقدمُ الفتيان إجابةً وإيماناً، وأقومُهم قضيةً وإيقاناً، وأعظمُهم حلماً، وأوفرهم عِلْماً، قدوةُ المتّقين المحبّين، وزينةُ العارفين الصَّادقين، صاحبُ القلبِ العقول، واللسان السّؤول، والأذن الواعية، والعهود الوافية، يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه: عليّ بن أبي طالب[1] رضي الله عنه وأرضاه، وجعَلَنا في معيّته تحتَ رايةِ محمّدٍ

---

(١) سيرةُ سيّدنا عليّ لا يستطيعُ الباحثُ حصرها، فقد غطّتْ سيرتُه كثيراً من صدور الكتب وزيّنت سطورها، ومن هذه المصادر: تاريخُ الإسلام للذّهبيّ (عَهْد الخلفاء الرَّاشدين ص ٦٢١ ـ ٦٥٢)، وحليةُ الأولياء (١/ ٦١ ـ ٨٧)، وأنسابُ الأشراف (عليٌّ وبنوه=

رســـــولِ الله ﷺ.

* ومَنْ مِنّا كلّنا لا يحبُّ سيّدنا عليّاً ويعرفُ عنه شيئاً كثيراً، ويهتَدي بهديِهِ، ويستنيرُ بعلْمِهِ وعَدْله؟!.

* فهو شخصيّةٌ فذَّةٌ جُمِعَتْ فيها المكارمُ من أطرافِها، فهو عالِمٌ تقيٌّ، وقاضٍ ذكيٌّ، وفارسٌ مغوارٌ، وبطلٌ كرّارٌ، أليفُ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ، وصهرهُ على ابنتِهِ سيّدتنا فاطمةَ سيّدةِ النِّساء رضي الله عنها، وعَفَا عنَّا بفضلهِ كرامةً لها ولأمِّها، وقبل هؤلاء جميعاً: أبوها سيِّدُنا وحبيبُنا رسولُ الله ﷺ رأسُ أهلِ البيت، وسيّدُ العرب والعجم، وأفضلُ خَلْقِ الله على الإطلاق.

* والحديثُ عن سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه خيرٌ في بركةٍ في عطاءٍ؛ ونورٌ في علْمٍ في نَقَاء، فلنبدأِ الرّحلةَ العلويّةَ الهاشميّةَ مع زهرةِ رجالِ أهل البيت، وعالِمهم وعيلمهم وأَسَدِهم وأميرهم، إذ إنَّ الحديثَ عن الهاشميّينَ الأخيارِ يَطيْبُ، ويمسُّ القلوب بنفحِ الطِّيْبِ؛ من عَرْف فضْلِهم الرَّطيْب.

* ورجالُ بنو هاشم؛ وخاصّة رجال أهلِ البيت، سادةُ النَّاس وأجملُهم وأبهاهُم وأشرفُهم وأفصحُهم وأجمعُهم لكلِّ فضْلٍ ونُبْلٍ ومكرمة.

* «وبنو هاشم مِلْحُ الأرض، وزينةُ الدُّنيا وحَلْيُ العَالَم، والسّنامُ الأضخم، والكاهلُ الأعظم، ولُبَابُ كلِّ جوهر كريم، وسرُّ كلِّ عنصرٍ شريف، والطِّينةُ البيضاء، والمغرسُ المبارك، والنّصابُ الوثيق، ومَعْدِنُ الفَهْم، ويَنْبُوع العِلْم، وثهلاَنُ ذو الهضاب في الحلْم، والسَّيف الحُسَام في العزم مع الأناة والحزم، والصَّفحُ عن الجرم، والقصدُ عند المعرفة، والعفو بعد المقدرة، وهم الأنفُ المقدَّم، والسّنامُ الأكرم، وكالماءِ الذي لا ينجِّسه شيءٌ، وكالشَّمس التي لا تخفى بكلِّ مكان، وكالذَّهب لا يُعرفُ بالنُّقصان، وكالنَّجم

= ص ٨٥ ـ ١١٥)، والاستيعابُ (٣/ ٢٦ ـ ٦٧)، ومختصرُ تاريخ دمشق (١٧/ ٢٩٧ ـ ٣٨٩) وأيضاً (١٨/ ٥ ـ ٩٩)، وأسدُ الغابة (٣/ ٥٨٨ ـ ٦٢٢) ترجمة رقم (٣٧٨٣)، وغيرها من كتب الحديث والتّراجم والطّبقات والأدب ممّا لا يُحصى ولا يُستقصى.

للحيران، والبارد للظمآن، ومنهم الثّقلان، والشّهيدان، والأطيبان، والسِّبطان، وأسدُ الله، وذو الجنَاحَيْن، وذو قَرْنَيها، وسيّد الوادي، وساقي الحجيج، وحليمُ البطحاء، والبحرُ والحبر، والأنصارُ أنصارهم، والمهاجرون مَنْ هاجرَ إليهم أو معهم، والصِّديقُ مَنْ صدقهم، والفاروقُ منْ فرّق بين الحقِّ والباطل فيهم، والحواريُّ حواريهم، وذو الشّهادتين لأنّه شهدَ لهم، ولا خيرَ إلاّ لهم أو فيهم أو معهم، أو يُضافُ إليهم، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسولُ ربِّ العالمين، وإمامُ الأوّلين والآخرين، ونجيبُ المرسلين، وخاتمُ النَّبيين، الذي لم يتمَّ لنبيٍّ نبوّةٌ إلاّ بعد التَّصديق به، والبشارة بمجيئه، الذي عمَّ برسالته ما بين الخافقَيْن، وأظهره اللهُ على الدِّين كلِّه، ولو كَرِه المشركون»[١].

* وقال بعضُ البُلغاء في الهاشميين النُّبلاء: «هم طينةُ التَّوحيد وشجرةُ الإسلام، ونُهْيَةُ الخير، وبيتُ الرّحمة، ويَنْبُوعُ الحكمة، ومعاذُ الخائفين، وملاذُ الخائبين، ونهايةُ الرّاغبين، مهبطُ جبريل، ورَبْعُ التَّنزيل، ومنزعُ التّأويل، وَخِدْنُ الإيمان، وواسطةُ النّظام، وأوعيةُ القرآن، ليس إليهم مرتقىٰ، ولا فوقهم مُتَمنّىٰ، بيوتُهم القبلة، وأفعالُهم القدوة، وموالاتُهم عصمة، ومحبّتُهم طهارة، ومقاربتُهم نجاة، ومباعدتُهم سخط. ولمّا اصطفى الله تعالى رجلاً جعَلَه منهم، ولما أحْكَمَ كتاباً أنزله عليهم، ولما أرشد أمةً دلَّها عليهم، وبعصيانِهم وطاعتهم أضحى الثّقلان فريقاً في الجنَّةِ وفريقاً في السَّعير»[٢].

* إنَّ سيّدنا عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه من أهلِ البيت الذين محبّتُهم سعادةٌ ونجاةٌ.

* وكما قلت فسيّدنا عليٌّ زهرةٌ فوَّاحةٌ بالعطْرِ، وهو الأشهرُ في رجالِ أهل البيت، فإذا ذكرنا أهلَ البيتِ ورجالَهم تبادرَ إلى الذّهن سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه لا يكادُ يغادرُ الخيال، إلاَّ إذا حدَّدْنا شخصاً غيرَهُ من أولئك الأكارم؛ الأماثلِ الأماجدِ من آلِ هاشم.

---

(١) زهر الآداب (١/ ٥٩ و ٦٠) نقلاً عن الجاحظ، وانظر: البصائر والذّخائر (٢/ ٨١ ـ ٨٣).
(٢) انظر: البصائر والذّخائر (١/ ٤٠).

* وسيرةُ سيّدنا عليٍّ رضوان الله عليه سيرةٌ بديعةٌ لا تُملُّ، لأنَّنا نقرأُ شخصيَّةَ رجلٍ متميّز، قد انفردَ بكثيرٍ من الخصائصِ والمكارمِ التي تَزِنُ واحدةٌ منها كثيراً من الفضائل التي يتحلّى بها غيره.

* ويكْفيهِ من الفَضْل يكفيهِ أنَّه تربّى ونشَأَ في أطهرِ بيتٍ في الدّنيا، وترعرع تحتَ العنايةِ النَّبويّةِ، فكان فتىً ذا حظّ عظيم، وجِدٍ ميمونٍ مبارك كريم.

الفتَىٰ السَّعيدُ:

* كانت نشأة سيّدنا عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مكَّةَ المكرمةِ؛ فقد وُلدَ قُبيلِ البعثةِ بحوالي عشْر سنين، وأمُّه السَّيّدةُ الحصيفةُ النَّبيلةُ قدوةُ النِّساء فاطمةُ بنتُ أسد الهاشميّةُ، إحدىٰ السَّابقاتِ إلى دوحةِ الإسلام وإحدىٰ القانتاتِ العابداتِ ذوات الأثرِ الكريم في دنيا السِّيرةِ النَّبويّة، وفي حياةِ سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ.

* عاش سيّدنا عليٌّ رضوانُ اللهِ عليه بين أبوَيْن ماجدَيْن كانا من أعلى النَّاسِ حَسَباً ونَسَباً وطهارةً وحزماً وعزماً، إذ كان بنو هاشم من أجداد سيّدنا عليٍّ من القائمين على أمرِ بيتِ الله الحرام والكعبة المشرَّفَة وسقاية الحجيج...

* استخلصْنَا من المصادر أنَّ سيدنا عليّاً كان أصغرَ وَلِد أبي طالب، وقد فتح عينَيه على مجدٍ مؤثّلٍ من الفضائلِ والمكارمِ، وزاده اللهُ عزَّ وجلَّ فضْلاً أنَّ السَّعادةَ قد أحاطتْ به إحاطةَ السِّوار بالمعصم، فتربّى في أطهر بيتٍ في الدنيا، وكان ربُّ البيتِ سيّدنا محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ، ومعه سيّدتنا وأمُّنا خديجةُ بنتُ خُويلد الأسديّة أمُّ المؤمنين[1] سيّدة نساءِ قومها وإحدى سيّدات نساء العالَمين

---

(١) اقرأ سيرةَ سيّدتنا أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في موسوعتنا المباركة: «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ٢٥ ـ ٩٢) طبعة دار اليمامة السَّادسة بدمشق ٢٠٠٥ م.

رضي الله عنها وأرضاها، وغفرَ لنا بفضلهِ ووهبَنا لها.

* كان ممّا أنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ علىٰ سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه أنَّه نشأ في حجْرِ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ قبل أنْ يبزغَ فجرُ الإسلام، فقد نزلَتْ بقريشٍ ضائقةٌ شديدةٌ، وكان أبو طالب ذا عيال، فخفَّ الحبيبُ المصطفى ﷺ إلى عمِّه ليخفِّفَ عنه شيئاً من أعباءِ الحياةِ وأزماتها، فأخذ عليّاً إلى بيته ـ وكان كزهرة دمشقيّةٍ بيضاءَ غافيةٍ على غُصْنِ وردٍ منّدى يحلمُ بالنور والعطاء ـ وتربّى على يَدِ النَّبيّ ﷺ، ونشأ نشأةً فريدةً إذ اقتبسَ كثيراً من الشَّمائل المحمّديّة وغدا بحقٍّ فتى الدُّنيا في المكارمِ جميعها، فأعظِمْ به!

* مكث سيّدنا عليٌّ في بيت ابن عمِّه محمّد ﷺ حتّى نزلَ الوحيُ بالرّسالة، وعليٌّ في كنفِ الرِّعاية النَّبويّة والتَّربية الأبويّة، فمن الطَّبيعي أنْ يُسْلِمَ من اللحظةِ الأولى.

* لا ريب في أنَّ أسبقَ السَّابقين إلى الإيمان هي أمُّنا الطَّاهرةُ الوفيّةُ العاقلةُ خديجةُ بنتُ خُويلدٍ رضي الله عنها، فقد كانت على أكملِ المعرفةِ وأوسعها ببشائرِ نُبوَّةِ سيّدنا رسولِ اللهِ ﷺ، وكانت متطلِّعة إلى أنْ يصطفيه اللهُ عزَّ وجلَّ نبياً ورسولًا، حتّى اختاره لنبوّتهِ ورسالتِهِ رحمةً للعالمين وهدىً للمتّقين.

* ومن البيّنات الواضحات عند أهل العلْم والدّراية في السِّيرة النّبويّة أنَّ سيّدنا عليَّ بن أبي طالب كان ثاني اثنين في السَّبْق إلى الإسلام ودوحتِهِ الباسقة، إذ قفَّى سيّدتنا خديجة في السَّبْق إلى الإسلام، ولا عجبَ في هذا، فقد كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه ربيبَ بيت النّبوة، ورضيعَ ثديي الرّسالة، المتقلّب على فراشِ الإيمان، النّاشىء في مَهْد أكرم المكارم، ينامُ ويصحو على أنفاسِ الذّكْر، وأنداءِ التَّسبيح، وكلمات الحمدِ والشُّكْر لربِّ العالَمين.

* أسلم سيّدنا عليٌّ في سنِّ الصِّبا وهو ابنُ عَشْر سنين قبل أنْ يبلغَ الحلمَ، فشَبَّ معه الإيمان حتّى خالطَ مُشاشَه ومشاعرَهُ ووجدانَه، وملأَ قلبَه، وأفعم بالنّور روحه؛ وتفتح عقلُ الفتىٰ عليٍّ ووعيه على دنيا البركةِ في ظلالِ بيت

النُّبوّة، فتعرَّفَ أسرارَه في مرحلةٍ عظيمةٍ ومبكّرة من حياته المفعمةِ بالفضائل، ومن الأسرار المهمّة التي تعرَّفها سيّدنا عليٌّ الصَّلاةَ وقَبْلَها شَهادة التّوحيد التي جعلته أوّلَ المسلمين مَنْ الفتيان، فكيف كان ذلك؟ ومتى؟!

* في معرفة الأوائل من فتيان الصَّحابة؛ وذوي الفَضْل منهم والنَّجابة؛ يسجِّلُ ابنُ إسحاق تقريراً ناصعاً فحواه: «أنَّ سيّدنا عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه قد جاء يوماً إلى الصَّادق المصدوق نبيّنا المُصطفى ﷺ عقب إسلام الطَّاهرة خديجة رضي الله عنها، فوجدهما يصلّيان.

فقال سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه متعجّباً: ما هذا الأمرُ يا محمّد؟! فقال الحبيبُ الأعظمُ ﷺ معلّماً وداعياً فَتَاه إلى الله عزَّ وجلَّ: «دينُ اللهِ الذي اصطفاه لنفسِه، وبعثَ به رسله، فأدعوك إلى اللهِ وحده لا شريكَ له، وإلى عبادتِه، وأنْ تكفُرَ باللات والعزّى».

فقال له سيدنا عليٌّ وبراءةُ الأطفال في عينيه، ونبراتُ الصِّدق تنبعثُ من بين شفتَيْه: هذا أمرٌ لمْ أسمعْ به قبلَ اليوم؛ ولستُ بقاضٍ أمْراً حتّى أحدِّثَ به أبا طالب! وكَرِهَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أنْ يفشيَ عليه سِرَّهُ، قبلَ أنْ يستعلنَ أمره، ويعمّ الإسلام أمّ القرى، فقال له: «يا عليُّ، إذا لم تسْلِمْ فاكتمْ». ولبث سيّدنا عليٌّ تلك الليلة يفكّر فيما رأىٰ وسمعَ، ثمَّ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرادَ بِهِ الخيرَ كلّه، فأوقعَ في قلبه الإسلام، ولما تبسَّم الفجرُ في عيونِ الدُّنيا، وغرّدت الُطيورُ علىٰ الأغصان، توحّد الرّحمن، بأعذب لسان، بأحلىٰ الألحان، أقبلَ عليٌّ غادياً إلى رسولِ الله ﷺ حتّى جاءه، ووجههُ البريءُ يسفِرُ عن طمأنينةٍ عجيبةٍ، وخاطبَ رسولَ اللهِ ﷺ بأدبٍ جمٍّ وقال: ماذا عرضتَ عَليَّ يا محمّدُ؟ فقال له المُربّي الأعظمُ رسولُ الله ﷺ: «تشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له، وتكْفُر باللات والعزّى، وتبرأ من الأنداد». وفتح خيرُ الفاتحين الخلاّقُ العليم على قلب الفتىٰ الصّافي عليٍّ، وسرعان ما نَطَق بشهادة التَّوحيد وأسلمَ، وسبقَ، ونَعِمَ بالدِّين القويم، وشرع عليٌّ يلتقي النَّبيَّ ﷺ على خوفٍ ووجَلٍ من

أبي طالب، وكتمَ عليٌّ إسلامَه، ولم يَظْهِرْهُ. . .»[1].

* وعلَّقَ الشَّيخُ «محمّد عرجُون» رحمه الله على هذه الرِّوايةِ تعليقاً نفيساً فقال: «وهذا الحديثُ بهذا السِّياق صريحُ الدَّلالةِ على أنَّ عليّاً رضي الله عنه كان ثاني خديجة في السَّبْق إلى الإسلام، وهو في سِنٍّ لم تبلغْ به مبلغَ التّكليف، وتحمُّل مسؤوليَّة الدّعوة إلى الله، والقيام بموجباتِ تبليغها، ممَّا أحوجه إلى

(١) البدايةُ والنّهايةُ (٣/ ٢٤) بشيءٍ من التّصرّف دون الخروجِ عن رُوحِ النّصّ. ونقل ابنُ كثيرٍ عن ابن إسحاقَ قال: «أوّلُ ذكَرٍ آمنَ برسولِ الله ﷺ وصلّى معه وصدّقه عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، وهو ابنُ عشْر سنين، وكان في حجرِ رسولِ الله ﷺ قبل الإسلام». (البدايةُ والنّهايةُ ٣/ ٢٦). وسُئِلَ سيّدنا عبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما: «مَنْ أَوّلُ مَنْ آمن»؟

فقال: «أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ أَمَا سمعتَ قولَ حسَّانَ بنِ ثابت:

إذا تذكّرتَ شَجْواً مِنْ أخي ثقةٍ ... فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا
خيرَ البريّةِ أوفَاهَا وأعدَلَها ... بعد النَّبيِّ وأولاها بما حَمَلا
والتَّالي الثَّاني المحمودُ مشهدُهُ ... وأوّلُ النَّاسِ منهم صدَّقَ الرُّسُلا
وثانيَ اثنينِ في الغَارِ المنيفِ وقد ... طافَ العدوُّ به إذْ صعَّدَ الجَبَلا
عاشَ حميداً لأمرِ اللهِ متّبعاً ... بهدي صاحبِه الماضي وما انتقلا
وكان حبَّ رسولِ اللهِ قد علموا ... مِنَ البريّةِ لم يعدلْ به رجُلا»

(البدايةُ والنهايةُ ٣/ ٢٨)؛ و(ديوان حسَّان ١/ ١٢٥) مع الجمع والتصرف.

وقال سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه: «أوّلُ مَنْ أسلمَ مِنَ الرّجال أبو بكر الصِّدِّيق، وأوّلُ مَنْ صلّى مع النّبيِّ ﷺ من الرِّجال عليَّ بن أبي طالب» (البداية والنّهاية ٣/ ٢٧).

وقال آخرون: «أوّلُ مَنْ أسلمُ من الرّجال أبو بكر الصِّدّيق، ومن النِّساء خديجةُ بنتُ خويلد، ومن الموالي زيدُ بنُ حارثة، ومن الغلمان عليُّ بنُ أبي طالب، وهؤلاء الثّلاثة: خديجةُ وزيدُ وعليٌّ كانوا إذ ذاك من أهل البيت». (البداية والنّهاية ٣/ ٢٦ و ٢٩) بتصرّف يسير.

وقالوا: «أوّل مَنْ أسلم من الرّجالِ الأحرار أبو بكر الصِّدِّيق، وإسلامه كان أنفعَ مِنْ إسلام مَنْ تقدَّمَ ذِكْرهم، إذ كان صَدْراً معظّماً، ورئيساً في قريش مكرماً، وصاحبَ مال، وداعية إلى الإسلام، وكان محبّباً متألّفاً يبذلُ المال في طاعةِ اللهِ ورسولهِ ﷺ». (البداية والنّهاية ٣/ ٢٦).

وقال ابن عساكر عن سيّدنا عليّ رضوان الله عليه: «وعليٌّ أوّلُ مَنْ صَدَّقَ رسولَ اللهِ ﷺ من بني هاشم، وشهدَ المشاهدَ معه، وجاهدَ معه، ومناقبهُ أشهرُ من أن تذكر، وفضائله أكثر من أن تحصى». (مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٣٠٠).

التّوقُّف وعدم الإقدام على قبولِ ما دُعيَ إليه من توحيدِ اللهِ تعالى، والكُفْرِ بالأوثان، وأنَّه ليس على استعدادٍ لأنْ يقضيَ في أمرٍ غريب عليه وعلى حياتِه وحياة قومه وبيته، لم يسمعْ به من قبل وأنَّه لابدّ له من مؤامرةِ أبيهِ وتحديثه بما رأى وسمع من محمّدٍ ﷺ، وأنَّ النّبيَّ ﷺ كَرِهَ ذلك منه، وخشيَ أنْ يفشيَ سرّه، قبل أنْ يظهرَ أمْرَهُ، وطلبَ منه إذ لم يسلمْ أنْ يكتمَ عليه ما رأى، وأنْ لا يتحدَّثَ بما طلبَهُ منه من الإيمانِ بالله، والكفْرِ بالأوثان، فكتمَ عليٌّ ذلك، ولم يحدِّثْ أباهُ بشيءٍ مما رأىٰ أو سمعَ، ولكنَّ علياً رضي الله عنه بات ليلتَه تصطرعُ في نفسِهِ الأفكارُ والهواجسُ، حتّى إذا أصبحَ، جاء إلى النَّبيِّ ﷺ، واستعادَهُ ما عرضَ عليهِ من الإسلام، فأسلمَ مكانه، غير أنَّه مكثَ يلقىٰ رسولَ الله ﷺ، يتلقَّىٰ منه نورُ الهدايةِ ومعالمُ الإيمانِ، وهو يكتمُ إسلامَه على خوفٍ من أبيهِ وقومِهِ»[1].

---

(١) محمّدٌ رسولُ الله (١/ ٥٢٩ و ٥٣٠) ويتحدّثُ الشيخُ «محمّد عرجُون» في موضعٍ آخرَ عن هذه الرّوايةِ فيقول: «أمّا ما وردَ في بعضِ الرّوايات منْ دعوةٍ لعليٍّ رضي الله عنه إلى الإسلام، وتوقّفِهِ بعضَ الشّيء، ثمّ أسرعَ إلى الإجابةِ وسَبَقَ إلى الإيمانِ في طليعةِ السَّابقين. فلمْ تثبتْ لنا صحّته، ولو فرضناهُ صحيحاً فهو منْ قبيل التّثبيتِ والمُساندةِ، لأنَّ وجودَ عليٍّ رضي الله عنه في أحضانِ تربيةِ النَّبيِّ ﷺ مع أسرتهِ في بيته وهو صبيٌّ، كان لأمْرٍ خاصّ، قصَدَ به إسْعَادَ أبي طالبٍ ومعاونته ـ وكان كثير العيال ـ في التّخفيفِ عنه من عبءِ الأزمةِ المعاشيّةِ التي نزلتْ بقريش، ولم يكنْ هذا الوجودُ ليبعدَ علياً عن أبيهِ وإخوتهِ وعمومتهِ، وهم على شِركهم إذ ذاكَ مقيمون، فكانَ رضي الله عنه في حاجةٍ إلى التّثبيتِ والمساندةِ بالدَّعوة والتّبليغ» (محمّدٌ رسولُ الله ١/ ٥١٧).

وذكر البيهقيُّ في «الدّلائل» عن محمَّد بن كعب القرظيّ قال: «إنَّ أوّلَ من أسلمَ من هذهِ الأمّة: خديجة بنت خويلد؛ وأوّل رجلَيْن أسلما: أبو بكر الصّدّيق، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأن أبا بكر أوّلُ مَنْ أظهرَ الإسلام، وأنَّ علياً كان يكتمُ الإسلام فَرَقاً من أبيه».

ويمكن لنا أنْ نقولَ إزاء هذه الأقوال والآراء والرّوايات ما محصلّه ومفاده: «لكلّ من هؤلاء السَّابقين: ـ خديجة، عليّ، أبو بكر، وغيرهم ـ فضْلُهُ الذي ينفردُ به بشرفه، فلا يلحقهُ فيه لاحقٌ، رضي الله عنهم أجمعين وحشَرنا في معيتهم».

* كان الحبيبُ المُصطفى ﷺ إذا حضَرتِ الصَّلاةُ، خرجَ إلى شعاب مكَّةَ، وخرجَ معه فَتَاهُ سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه مستخفياً من أبيهِ أبي طالب، ومن أعمامه جميعهم، وقومه سائرهم، وكانا يُصلّيان الصَّلوات فيها، فإذا أمسيَا رجعَا، فمكثَا على هذا الحال ما شاء الله أنْ يمكثا، ثمَّ إنَّ أبا طالب عثَر عليهما يوماً من الأيّام وهما يصلّيان في أحد الشِّعاب، فقال لرسولِ الله ﷺ: «يا بن أخي، ما هذا الدِّينُ الذي أراك تدينُ به لم أره ولم أسمعْ به»؟!

فقال الحبيبُ الأعظم ﷺ: «أَيْ عمّ، هذا دينُ الله، ودينُ ملائكته، ودينُ رسله، ودينُ أبينا إبراهيم» أو كما قال ﷺ لعمّه: «بعَثَني اللهُ رسولاً إلى العباد، وأنتَ أيْ عم، أحقّ مَنْ بذلتُ له النَّصيحة، ودعوتُه إلى الهدىٰ، وأحقّ مَنْ أجابني إليه، وأعانني عليه».

فقال أبو طالب: «أي ابن أخي، إنّي لا أستطيع أنْ أفارقَ دين آبائي وما كانوا عليه، ولكنْ واللهِ لا يُخْلَص - يُوصَل - إليك بشيءٍ تكرهه ما بقيتُ حيّاً».

وذكروا أنَّه قال لِعليٍّ رضي الله تعالى عنه: «أيْ بنيّ، ما هذا الدِّين الذين أنتَ عليه»؟

فقال عليٌّ في أدبٍ ممزوجٍ بالجرأةِ والصِّدقِ والوضوحِ: «يا أبتِ، آمنتُ بالله عزَّ وجلَّ، وبرسولِ اللهِ ﷺ، وصدقْتُه بما جاء به، وصلَّيْتُ معه لله عزَّ وجلَّ، واتَّبعتُه».

فزعموا أنَّ أبا طالب قال لابنه عليٍّ: «أما أنَّه لمْ يدعُكَ إلاّ إلى خير فالزمْهُ»[1].

---

(١) انظر: السّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (١/ ٣١٣ و ٣١٤) بشيء من التّصرّف، وهناك بعض الأحاديث الضّعيفة أوردتْها بعضُ المصادر في موضوع صلاة علي رضي الله عنه لا تفيدنا بشيء.

* وبينما كان جبريلُ عليه السَّلام رَوَّاحٌ غَدَّاءٌ بالآياتِ القرآنيّة، كان عليٌّ رضي الله عنه يقيمُ الصَّلاة مع النَّبيّ ﷺ، ويتنعَّمُ بما في الآياتِ من ترغيب وبشَارات.

* وفي حديث عُفيِّفِ الكنديِّ أخي الأشعث بن قيس لأمّه وابن عمّه مَقْنَعٌ في سَبْق عليٍّ إلى الصَّلاةِ، بحيث تمنّى عُفَيِّفٌ يومَها أنْ يكونَ رابع الثَّلاثة الذين يصلّون وهم: سيّدنا ومولانا وحبيبُنا رسولُ الله ﷺ، وسيّدتنا وأمّنا الرّؤوم العطوف خديجةُ بنتُ خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وفتى الفتيان عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

* حَدَثَ عُفَيِّفٌ الكنديُّ قال: «جئتُ في الجاهليّةِ إلى مكَّةَ، وأنا أريدُ أنْ ابتاعَ لأهلي من ثيابِها وعطرِها، فأتيتُ العبَّاسَ بنَ عبد المطّلب، وكان رجلاً تاجراً فأنا عنده جالسٌ حيث أنظرُ إلى الكعبةِ، وقد حَلَّقَتِ الشَّمس في السَّماء، فارتفعتْ وذهبَتْ، إذْ جاءَ شابٌّ فرمىٰ ببصرِه إلى السَّماء، ثمَّ قامَ مستقبِلَ الكعبةِ، ثمَّ لمْ ألبثْ إلا يسيراً حتّى جاءَ غلامٌ فقام علىٰ يمينِه، ثمَّ لَمْ ألبثْ إلا يسيراً حتى جاءتِ امرأةٌ فقامتْ خلفَهما، فركع الشَّابُّ، فركعَ الغلامُ والمرأةُ؛ فرفعَ الشَّابُّ، فرفع الغلامُ والمرأةُ، فسجد الشَّاب، فَسجد الغُلامُ والمرأةُ.

فقلت: يا عبَّاسُ، أَمْرٌ عظيمٌ!!.

فقال العبَّاسُ: أمْرٌ عظيمُ! أتدري مَنْ هذا الشَّابّ؟

قلتُ: لا.

قال: هذا محمّدُ بنُ عبدِ الله ابنُ أخي. أتدري مَنْ هذا الغلامُ؟ هذا عليٌّ ابنُ أخي، أتدري مَنْ هذهِ المرأةُ؟ هذه خديجةُ بنتُ خُويلد زوجتُه؛ إنَّ ابنَ أخي هذا أخبرنَا أنَّ ربَّه ربّ السَّماء والأرض أمرَهُ بهذا الدِّين الذي هو عليه، ولا واللهِ ما علىٰ الأرضِ كلِّها أحدٌ على هذا الدِّين غيرُ هؤلاء الثَّلاثة»[1].

---

(١) انظر: أسد الغابة (٣/ ٥٤٥ و ٥٤٦) ترجمة رقم (٣٦٩٦)، وانظر أيضاً: مختصر تاريخ دمشق=

* وفي روايةٍ قال عُفَيِّفٌ: «فما هذا الذي يصنعُ؟.

قال العبَّاسُ: يُصَلِّي ويزعُمُ أنَّه نَبيٌّ، ولمْ يتبعْهُ على أمرِه إلاّ امرأتُه، وابنُ عمِّه هذا الفتى؛ وهو يزعُمُ أنَّهُ ستُفْتَحُ عليه كنوز كسرى وقيصر»[١].

* وكان عُفَيِّفٌ يقولُ وقد أسْلَمَ بعد ذلك فَحَسُنَ إسلامه: «لو كان اللهُ رزَقَني الإسلام يومئذٍ، كنتُ ثانياً مع عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه»[٢] وفي روايةٍ أنَّ عُفَيِّفاً قال: «فتمنيتُ أنْ أكونَ رابعهم». أو قال: «يا ليتني كنتُ رابعاً».

* إنَّ إسلامَ سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه وإسلامَ زيدِ بن حارثة وأمّنا خديجةَ وبناتِها ـ وكلّ مَنْ كان يظلُّهم سقْفُ بيت النَّبيِّ ﷺ ـ كان إسلامَ الفطرة النَّقيَّةِ الطَّاهرة، فقد رأى هؤلاء أجمعون النَّبيَّ ﷺ الأبَ الودودَ، والمحبَّ الحبيبَ، والحاضنَ المربيّ الشَّفيق، والمولى الرَّحيم الشَّفيق، والمعلِّمَ المُهذِّبَ المؤدِّبَ، والمشرِّعَ السَّمْحَ الحكيم، والرَّسولَ الصَّادق الأمين، فيأخذون عنه خلقَه وعملَه مشاهدةً ومحاكاةً، ويسمعون منه ما يأمرُ به ويرغِّب فيه من الخير، وما ينهىٰ عنه وينفِّرُ من مقاربته من الشَّرِّ، فيتشرَّبون مِنْ يقينِهِ وإيمانه وحكمته وآدابه وشرائعه ما تطيقُ قلوبهم وأرواحُهم حمله[٣].

* «فَسَبْقُ هؤلاء الغُرِّ الميامين إلى الإيمانِ باللهِ تعالى وتوحيده، والتَّصديقُ برسالةِ النَّبيِّ ﷺ فطريٌّ طبيعيٌّ، تقتضيهِ الفطرةُ النَّقيَّةُ، والطَّبيعةُ النَّاهدةُ بين

= (١٧/ ٣٠٥)، والاستيعاب (٤/ ١٦٣ و ١٦٤)، والإصابة (٢/ ٤٨٠). قال الطَّبري عن عُفَيِّف: «اسمه: شرحبيل. وعُفَيِّف لقبه».

وقال الجاحظُ: «اسمهُ شراحيل؛ ولقّب عُفَيفاً لقولهِ في أبيات:

وقالتْ لي هَلُمَّ إلىٰ التَّصابي ... فقلتُ عففْتُ عمّا تعلمينا

قال ابنُ فتحون في عُفَيِّف: «هكذا ضَبَطه الباوردي بالتَّصغير؛ والأكثر على الألسنة بالفتح».

قال ابنُ حجر: «وروايته في معجم البغوي في نسخ صحيحة، كما ضبطه الباوردي».

(١) الإصابة (٢/ ٤٨٠)، والاستيعاب (٣/ ١٦٤).

(٢) الإصابة (٢/ ٤٨٠) وقال ابن عبد البر: «هذا حديث حسن جداً» (الاستيعاب (٣/ ١٦٣).

(٣) محمَّد رسول الله (١/ ٥١٥ و ٥١٦) لمحمّد عرجون، بشيء من الاختصار والتّصرّف.

أحضانِ الخيرِ والهدى، لأنَّ في ذلك تحقيقاً لما يشهدونه من واقعِ الأبِ والزَّوجِ المربّي، والرَّسولِ الصَّادق المصدّق من أدبٍ وخلقٍ وعملٍ، ليصنعوا منه صورةَ أنفسِهم، وعقولهم وقلوبهم، وأرواحِهم ومشاعرِهم وإحساساتِهم تحبّباً إليهِ، واستجابةً له، وإيناساً لخوالجهِ، وتقرّباً إلى الله تعالى»[1].

* منذ أنْ أسلم سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أخذتِ الحياةُ سبيلاً آخر عنده، وبدأ ينظرُ إلى ابن عمِّه رسولِ الله ﷺ نظرةَ إعجاب ممزوجة بالاحترام والإكبار، فقد كان محمّد ﷺ الأمينَ بين قومه، الحَكَمَ النَّزيه في منازعاتهم، المحبّبَ لدى القريب والبعيد.

* تعلَّق الفتى النّجيبُ عليٌّ رضوان الله عليه بالحبيبِ الأعظمِ محمّدٍ ﷺ الذي كان السَّبب الرّئيس في هديه، وطهارته، وبُعْدِهِ عن عَبَثِ الجاهليّة وأدرانها، فلم يحترمْ عليٌّ صنماً ولم يعبدِ اللات ولا العزّى، ومناة الثَّالثة الأخرى، وإنّما كره الأصنامَ وفارقَها، لم يعبدْ إلّا العليم الخبير منذ اللمسةِ الإيمانيةِ الحانية لقلبهِ الصَّغير الخالي النَّقي الغافي على البراءةِ والإخلاصِ.

* عاش سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه نقيَّ الظَّاهرِ والباطنِ، سليمَ المَسْلك، بعيداً عن عَبَثِ الأطفال ولهوِ الطُّفولة، بعيداً عن ترفِ الفتيان وأسمارهم، فلم يسجِّلْ له التَّاريخُ هفوةً أو سقطةً من أعرافِ الجاهليةِ ومجونها، وكان المحضنُ النَّبويُّ الكريمُ هو الباعثُ لهذا النَّقاء وهذا الصَّفاء، وبالتَّالي كان سيّدنا عليٌّ من أكْرم فتيانِ قريش وأصفاهم نشأةً وسلوكاً؛ وظلَّ كذلك من أَلِفِ حياتِهِ إلىٰ يائِها.

* وصفَ محبّو سيّدنا عليٍّ بأنَّه كان رجُلاً ربعةً مكينَ البنيان، جميلَ الوجْه، كأنَّه القمرُ ليلةَ البَدْرِ حُسْناً، أغيدَ، أدعجَ العينَيْن عظيمهما، ضحوكَ السِّنِّ، إذا مشَىٰ تكفَّأ - على نحو مشية النّبيّ ﷺ - شديدَ السَّاعد واليَدِ، إذا مشى للحربِ هَرْوَلَ، ثابتَ القلبِ والقدم، تشهدُ علائمُ الشَّجاعة له، منصوراً على

---

(١) محمَّدٌ رسولُ الله (١/ ٥١٦).

مَنْ لاقاه، وكان يتختَّمُ بيده اليسرى، وكان نقشُ خاتمه: «اللهُ الملِكُ».

* وكغيرهِ من أهلِ البيتِ الأطهار كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يسمعُ ما يتنزّلُ بهِ جبريلُ الأمينُ عليه السّلام على محمّدٍ الأمين ﷺ من الآياتِ والذّكْرِ الحكيم، وكان حبيبُنا رسولُ الله ﷺ يتلو الآيات فيسمعُها عليٌّ غضّةً تشعُّ منها أنوارُ الوحي الكريم، وتفوحُ منها الخيراتُ والمبشّرات لمن يتبع هذه الأنوار الكاشفات.

* ومن المؤكَّد في حياة سيّدنا عليّ أنّه أصاخ بسمعه للقرآنِ الكريمِ، وتفتَّح قلبُهُ النَّقيّ لمعانيهِ الآسرةِ، وكلماتِهِ السَّاحرةِ، وأحكامِه السَّائرةِ، فامتزجَ بالإسلام، وغدا كأنّه من تلامذةِ الوحي الكريم، ومن حَوارِيي النَّبيّ الأمين؛ محمّد رسول ربِّ العالمين ﷺ.

* شبَّ عليٌّ رضي الله تعالى عنه، فكان فطناً ثَقِفاً لقناً، حصيفاً لطيفاً، ذا نظرةٍ ثاقبةٍ، ومعرفةٍ تامّةٍ بالنّاس، وغدا أحد حرّاس العقيدةِ الإسلاميّة، وأحد الأمناء عند الحبيبِ المُصطفى ﷺ، وكان له كثيرٌ من المواقفِ الجليلة في مراحلِ سيرِ الرِّسالة المحمّديّة في المرحلةِ المكيّة وسنطّلعُ في الفقرةِ الآتيةِ بإذن الله على بعضِها لتبرز الصّورةُ أكثر وضوحاً في الأذهان.

مَوَاقفُ نبيلةٌ لسيِّدنا عَليٍّ:

* نعمةُ السَّبْق إلى الإسلام نعمةٌ كبرىٰ، وهي ذاتُ ثوابٍ عظيم، وأجرٍ كريم، وقد رغَّبَ اللهُ عزَّ وجلَّ عباده بالتَّسابق إليه، إذ إنَّ أجْرَ السَّابق ليس كأجْرِ اللاحق، وكُلاً وَعَدَ اللهُ الحسنى.

* وقد جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ للسَّبقِ في الإيمان منزلةً عاليةً بين النَّاس، وأخبرَ النَّبيُّ ﷺ بأنَّ هؤلاء السَّابقين سيكونُ لهم حضورٌ في كُلِّ زمانٍ حتَّى قيام السَّاعة، وأنَّ الأمَّةَ لا تزالُ تجودُ بالعُلماء والعاملين، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يزالُ يغرسُ في هذا الدِّين غرساً يستعملهم في طاعتِهِ، فقال ﷺ: «لكلّ قرنٍ من أمّتي

سابقون»[1]؛ وفي روايةٍ أخرى أنَّه قال ﷺ: «لكلّ قرنٍ سابق»[2].

* وسيّدنا عليٌّ رضي الله عنه من أعلام السَّابقين وأعيانهم، وله دورٌ عظيمٌ في أخْذِ يَدِ المسلمين السَّابقين إلى مطلع النُّور ومنبع الهداية، ومن هؤلاء السَّابقين الأبرار: سيّدنا أبو ذرّ الغفاري أوّلُ مَنْ جَهَرَ بالإسلام، وأغاظَ المشركين، وكان سيّدنا عليٌّ هو الذي رأىٰ أبا ذرٍّ، فعرفَ أنَّهُ غريبٌ من مكّةَ، ومن ثمَّ أدخله على رسولِ الله ﷺ فأسلمَ وصارَ من مشاهيرِ الأعلام في دنيا الأعلام الأطهار.

* أمَّا كيف كان موقفُ عليٍّ ودورُهُ في إيصالِ أبي ذرٍّ إلى الحبيب المُصطفى ﷺ، فهذا ما تجلوهُ لنا السُّطورُ والفقرات الآتيةُ.

* كان أبو ذرٍّ الغِفَاري رضي الله عنه من عقلاء الجاهليّةِ، وممَّنْ ينكرون الشِّركَ باللهِ تعالى، وعبادةَ الأصنام، ولمَّا بلغه أمْرُ النَّبيِّ ﷺ قدم مكَّةَ المكرمةِ ليلتقيَ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ، وطفِقَ يشربُ من ماءِ زمزمَ، ويكونُ في المسجدِ، وهناك بَصُرَ به فتى قريشٍ وحصيفُها النَّبيلُ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فأدركَ ببصيرته ونباهته أنَّه غريبٌ، واقتربَ منه وقال في أدبٍ جمٍّ: «كأنَّ الرَّجُلَ غريبٌ»؟ فأشار أبو ذرّ: أنْ نَعَم غريبٌ. فدعاه عليٌّ واستضافه أكثر من ليلةٍ ولم يسألْهُ عن أمْرِهِ، ولم يخبرْهُ أبو ذرٍّ بشيءٍ، ثمَّ يذهبُ أبو ذرٍّ إلى المسجدِ نهاراً.

* ثمَّ بعد بضْع ليالٍ، رآه سيّدنا عليٌّ، فقال له: «انطلقْ معي» فاستضافه ثمَّ سأله فقال: «ما أمركَ، وما أقدمك هذا البلد»؟

فقال له أبو ذرٍّ وقد اطمأنَّ إليه تمامَ الاطمئنان: «إِنْ كتمتَ عَلَيَّ أمري أخبرتُك سببَ مجيئي هاهنا».

* فأخبره أبو ذرٍّ الخبرَ، وقصَّ عليه القَصَصَ، وأعلمَهُ أنَّه يودُّ أنْ يرىٰ رسولَ الله ﷺ ويقابلَه كي يتأكَّدَ منَ الأمْرِ، ويعرفَ سبيلَ الرَّشاد وطريقَ الحقِّ.

---

(١) صحيح الجامع الصَّغير (٢/ ٩١٨) حديث رقم (٥١٧٢)، والسّلسلة الصّحيحة برقم (٢٠٠١).

(٢) صحيح الجامع الصّغير (٢/ ٨١٩) حديث رقم (٥١٧١).

فقال له سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه: «يا هذا، أما إنَّك قد رَشَدْتَ، وهذا وجهي إليه؛ فاتبعني، ادخُلْ حيثُ أدخلُ، فإنّي إنْ رأيتُ أحداً أخافُهُ عليكَ، قمتُ إلى الحائطِ كأنّي أصلحُ نَعْلي؛ وامْضِ أنت».

* فقام أبو ذرٍّ، وتبعَ سيّدنا عليّاً على حَذرٍ، حتى دخلا على النَّبيِّ ﷺ. فقال أبو ذرٍّ للصَّادقِ المصدوقِ ﷺ: «اعرضْ عَلَيَّ الإسلام»، فعرضَه ﷺ، وفتحَ اللهُ على بصيرةِ أبي ذرٍّ وقلبِهِ، فأسلمَ مكانه وغدا من السَّابقين الغانمين، فقال له الحبيبُ المصطفى ﷺ: «يا أبا ذرٍّ اكتمْ هذا الأمرَ، وارجعْ إلى بلدِكَ، فإذا بلغَكَ ظهورنا فأقبلْ».

فقال أبو ذرٍّ، وقد ذاقَ حلاوةَ الإيمان منذُ اللحظات الأولى: «والذي بعثَكَ بالحقِّ، لأصرخَنَّ بها بين أظهرهم».

* وفي جرأةٍ عجيبةٍ، وشجاعةٍ غريبةٍ، ورغبةٍ بريئةٍ، جاء أبو ذرٍّ إلى المسجدِ، وعَدَدٌ من كبراءِ قريش فيه، فنَادىٰ بأعلىٰ صوته وقال: «يا معشرَ قريش، إنّي أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ».

* دُهِشَ القومَ وصعقُوا وثاروا، وقالوا: «ويحكم، قومُوا إلى هذا الصَّابىء وأسْكِتُوه». وقاموا وأخذوا يضربونه حتى كادت تتلفُ روحه، فأدركهم سيّدٌ من ساداتِ أهل البيتِ ورجالهم النّبلاء: العبّاسُ بنُ عبد المطّلب، وخلَّصَ أبا ذرٍّ منهم، ثمَّ أقبلَ عليهم وقال لهم: «ويلكم، تقتلون رجُلاً من غِفَار، ومتْجرُكم وممرُّكم على غِفار»؟! ثمَّ حذَّرهم من انتقامِ غِفارٍ منهم، وعرقلة تجارتهم وأموالهم؛ فأقلعُوا عن أبي ذرٍّ وهم يودّون أنْ يقطّعوه ويجعلوهُ كأمس الدَّابر.

* ذهب أبو ذرٍّ فنامَ، ولمَّا أصبحَ في اليوم التَّالي، وقفَ على القوم فقال مثلما قال بالأمس، فصنعُوا به مثلما صنعُوا بالأمسِ، حتّى أدركه العباسُ وخلَّصَهُ، وقال مثل مقالته بالأمس[1].

(١) اقرأ قصّة إسلام أبي ذرّ في صحيحِ البخاري في المناقب برقم (٣٥٢٢)، وصحيح مسلم في=

* وهكذا كسبَ الإسلامُ رجُلاً ذا خَطَرٍ ومكانةٍ في صفوفِ المسلمين، وكان الحافز الأول لإسلامه ما رأى من كَرَمِ سيّدنا عليٍّ وحصافتِهِ وزكانتِهِ وحرصِهِ على إسلام النَّاس، ودخولهم في دِيْنِ اللهِ ليسعدوا في الدَّارَيْن، كما نلمحُ ذكاءَ سيّدنا عليٍّ ورصده لتحرّكات قريش، ومن ثمَّ اتَّفق مع أبي ذرٍّ على حركات معينة، إذا ما رابَهُ أمْرٌ، أو رأى مَنْ يترصَّده أو يرقُبُه عن جنُبٍ وهو لا يشْعُر؛ ويُعْتَبرُ هذا الموقف بحقٍّ من أجمعِ المواقفِ وأحسنِها احتياطاً وتحسُّباً لأي حَدَثٍ متوقَّع من تحركات قريش وغيرها، إذْ أدركَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أنَّ اتّباعَ الأوامرِ النَّبويّةِ سيؤدّي إلى خير كثير.

* ولسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه مواقفُ كريمةٌ مثْريةٌ في سيرِ الرِّسالة المحمّديّةِ، فقد كان يرافقُ ـ في بعضِ الأحايين والأوقات ـ حبيبَه وحبيبنا محمّداً ﷺ في طوافِهِ على القبائل، وعَرْضِ نفسِهِ الكريمة عليهم ليؤووهُ وينصروه.

* وكان عليٌّ في طوافِهِ هذا يزدادُ علْماً، ويقتبسُ فَهماً وحلماً وينفعُ غيرُهُ إذْ يروي للأمّةِ بعضَ المشاهدِ الحيّةِ الواقعيةِ من مرحلةِ الدَّعوة المحمّديّة إلى التَّوحيد.

* فقد نَقَل سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه هذا الموقفَ الجميلَ في عَرضِ رسولِ اللهِ ﷺ نفسَه على قبيلةِ ربيعةَ، وشيبانَ.

* فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: حدَّثني عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه مِنْ فِيْهِ قال: «لمّا أمرَ اللهُ تباركَ وتعالى رسولَه ﷺ أنْ يعرضَ نفسَه على قبائلِ العرب، خرجَ وأنا معه، وأبو بكرٍ رضي الله عنه إلى منى، حتّى دُفِعْنَا إلى مجلسٍ من مجالسِ العرب، فتقدَّم أبو بكرٍ رضي الله عنه فسلَّم، وكان

= فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٧٣) وانظرْ سيرتَه كاملةً بصورةٍ شائقة وجميلة في موسوعتنا: «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ٨١٩ ـ ٨٥٣)؛ ومن الجدير بالذكر أنَّ سيّدنا أبا ذَرّ أوّلُ مَنْ حيّا بتحيّةِ الإسلام.

أبو بكر مُقَدّماً في كلِّ خيرٍ، وكان رجُلاً نَسَّابةً، فقال: ممّن القومُ؟

قالوا: من ربيعةَ.

قال: وأيّ ربيعة أنتم؟ أَمِنْ هامِها أم منْ لهازِمها؟

فقالوا: منْ هامِها العُظمى..

ثمّ إنّه حاورَهُم حتّى توصّل إلى أنّهم من ذُهْلِ الأصْغَر، فقام إليه غلامٌ اسمُهُ دغفلُ بنُ حنظلةَ الذّهْليّ، وحاوَرَهُ حتى توصّل إلى أنَّ أبا بكر رضي الله عنه ليس من بني هاشمٍ، وتركه أبو بكر رضي الله عنه ورجع إلى رسولِ الله ﷺ.

وتبسَّم النَّبيُّ ﷺ من ذكاءِ دغْفل وحوارِه، فقال عليٌّ رضي الله عنه: فقلتُ: يا أبا بكر! لقد وقَعْتَ من الأعراب على باقِعَةٍ ـ داهيةٍ ـ.

فقال: أَجَلْ يا أبا الحسَن، إنّه ليس من طامّةٍ إلا وفوقها طامّةٌ؛ والبلاءُ مُوكّلٌ بالمنطقِ والقولِ.

قال عليٌّ: ثمَّ انتهينا إلى مجلسٍ آخر، عليهم السَّكينةُ والوقارُ، فتقدَّم أبو بكر فسلَّم، فقال: ممَّن القوم؟

قالوا: من شيبانَ بنِ ثعلبةَ.

فالتفتَ أبو بكر رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ فقال: بأبي أنتَ وأمّي، هؤلاء غُرَرُ النّاسِ؛ وفي رواية أنّه قال: بأبي أنتَ وأمّي ليس بَعْدَ هؤلاء من عزٍّ في قومهم؛ وفي رواية: هؤلاء غُرَرٌ في قومهم؛ وكان في القوم: مَفْروقُ بن عمرو، وهانىءُ بنُ قبيصةَ، والمثنّى بنُ حارثة، والنُّعمان بنُ شريك، وكان مفْروق ـ واسمُه النُّعمانُ واشتُهر بمفْروق ـ قد غَلبَهم جَمالاً ولسَاناً، وكانت له غديرتان تَسْقُطان على صَدْره، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: كيفَ العددُ فيكم؟

فقال مفروقٌ: إنّا لنزيدُ على ألف، ولنْ تُغْلَبَ ألفٌ من قِلّةٍ.

فقال أبو بكر: وكيف المَنَعَةُ فيكم؟

فقال مفروقٌ: علينا الجهدُ، ولكلّ قوم جِدٌّ.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: كيف الحربُ بينكم وبين عدوّكم؟

قال مفروق: إنا لأشدُ ما نكون غَضَباً حين نلقىٰ، وإنَّا لأشدّ ما نكون لقاءً حين نغضبُ، وإنَّا لنؤثرُ الجيادَ على الأولادِ والسِّلاح على اللّقاح، والنَّصرُ من عندِ اللهِ، يُديلنا ـ يقْهرنا ويغْلبنا ـ مرة، ويديلُ علينا مرّةً أخرى، لعلّك أخو قريش؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنْ كان قد بلغكم أنَّه رسولُ الله، فهاهو ذا.

فقال مفروقٌ: قد بلغنا أنَّه يذكرُ ذلك؛ ثمَّ التفتَ إلى رسولِ الله ﷺ، فتقدَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ فجلسَ، وقام أبو بكرٍ رضي الله عنه يظلله بثوبهِ، فسأله مفروقٌ: إلامَ تدعو يا أخا قريش؟

فقال رسولُ الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادةِ أنْ لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمّداً عبده ورسوله، وإلى أنْ تؤووني وتنصروني وتمنعوني حتّى أؤديَ عن اللهِ تعالى ما أمرني به، فإنَّ قريشاً قد تظاهرتْ على أمْرِ الله، وكذَّبَتْ رسولَه، واستغنَتْ بالباطلِ عن الحقِّ، واللهُ هو الغَنيُّ الحميدُ».

فقال مفروقٌ: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فواللهِ ما سمعتُ كلاماً أحسنَ مِنْ هذا.

فتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ إلىٰ قوله ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقال له مفروقٌ: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فواللهِ ما هذا من كلام أهلِ الأرض، ولو كان من كلامِهم لعرفْنَاهُ فتَلا رسولُ الله ﷺ: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال له مفروقٌ: دعوتَ واللهِ يا أخا قريش إلى مكارمِ الأخلاق ومحاسنِ الأعمال، ولقد أَفِكَ قومٌ كذَّبوكَ وظاهروا عليك.

ثم ردَّ الأمرَ إلى هانيء بنِ قبيصةَ ـ وكأنَّه أحبَّ أنْ يَشْركَه في الكلامِ فقال: وهذا هانيءُ بنُ قبيصةَ شيخُنا وصاحبُ ديننا...

فقال له هانيءٌ: قد سمعتُ مقالتكَ يا أخا قريش، وصدَّقْتُ قولكَ، وإنّي أرى أنَّ تَرْكَنَا دِيننا، واتّباعنا إيّاك على دِينك لمجلسٍ جلسْتَه إلينا، ليس له أوّل ولا آخر، ولم نتفكّرْ في أمرِكَ، وننظرْ في عاقبةِ ما تدعونا إليه؛ زلّةٌ في الرّأي، وقلّةُ نظر في العاقبة، وطيشةٌ في العقل، وإنّما تكون الزَّلّة مع العجلة، وإنَّ منْ ورائنا قوماً نكرهُ أنْ نعقدَ عليهم عقْداً، ولكنْ نرجعُ وترجعُ، وننظرُ وتنظرُ.

ثم أحبَّ هانيءُ أنْ يشركَهْ المثنَّىٰ بنُ حارثةَ فقال: وهذا المثنّى شيخُنا وصاحبُ حَرْبنا.

فقال المثنّى ـ وأسلمَ بعد ذلك ـ: قد سمعتُ مقالتكَ واستحسنتُ قولَك يا أخا قريش، وأعجبَني ما تكلَّمْتَ به، والجوابُ هو جوابُ هانيءِ بنِ قبيصةَ؛ وذلك في تَرْكنا دِيننا، ومتابعتنا دِينك، وإنَّما نحنُ بين صَرْيَيْن أحدهما اليمامة، والآخر السَّماوة.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «وما هذا الصَّيران»؟

فقال له: أمَّا أحدهما: فطفُوفُ ـ سَواحل ـ البرِّ وأرضُ العرب، وأمَّا الآخرُ: فأرضُ فارس وأنهارُ كسرىٰ، وإنَّما نزلنا على عهدٍ أخذَهُ علينا كسرى أنْ لا نحدِثَ حَدَثاً، ولا نُؤوي مُحدثاً، ولعلَّ هذا الأمرَ الذي تدعونا إليهِ ممّا تكرهه الملوكُ، فأمّا ما كان ممّا يلي بلاد العرب فَذَنْبُ صاحبه مغفور، وعذرُهُ مقبول؛ وأمَّا ما كان يلي بلاد فارس فَذَنْبُ صاحبه غير مغفور، وعذرُهُ غير مقبول، فإنْ أردتَ أنْ ننصرَكَ ونمنعك ممّا يلي العرب فَعَلْنَا.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أسأْتُم الرَّدَّ إذ أفصحتم بالصِّدق، إنَّه لا يقومُ بدينِ اللهِ إلا مَنْ حاطه من جميعِ جوانبه. أرأيتم إنْ لم تلبثوا إلاَّ قليلاً حتَّى

يورثَكم اللهُ تعالى أرضَهم وديارَهم وأموالَهم، ويُفرِشَكم نساءَهم، أتسبّحون اللهَ تعالى وتقدّسونَه»؟!

فقال له النُّعمانُ بنُ شريك: اللهم وإنَّ ذلك لك يا أخا قريش.

فتَلا عليهم رسولُ الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

ثمَّ نهضَ رسولُ اللهِ ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر رضي الله عنه.

قال عليٌّ رضي الله عنه: ثمَّ التفتَ إلينا رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عليّ؛ أَيَّةُ أخلاقٍ للعربِ كانت في الجاهليةِ ما أشرفها! بها يدفعُ الله عزَّ وجلَّ بأْسَ بعضِهم عن بعض؛ وبها يتحاجزون فيما بينهم في الحياةِ الدُّنيا».

قال عليٌّ: ثمَّ دُفِعْنَا إلى مجلسِ الأوسِ والخزرجِ، فما نهضْنَا حتّى بايعوا رسولَ اللهِ ﷺ.

قال عليٌّ: وكانوا صُدُقَاء صُبُراء، وقد سُرَّ رسولُ الله ﷺ من معرفةِ أبي بكر رضي الله عنه بأنسابِهم»[1].

* وهكذا رأينا سيّدنا عليّاً رضي الله عنه عَلِيَّ المكانةِ عند النَّبيِّ ﷺ، يخرجُ معه لنَشْر دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويتحمّلُ معه المشاق وأعباء الدَّعوة، ويشركهما في هذا الأمر سيّدنا أبو بكر الصَّديق رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) انظر: دلائل النُّبوَّة للبيهقيّ (٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٧)، والبداية والنِّهاية (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٥) مع الجمع والتصرف اليسير، وانظر كذلك: سبل الهدى والرّشاد (٢/ ٥٩٦ ـ ٥٩٨)، وفتح الباري (٧/ ٢٦١)؛ ودلائل النّبوة لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٣٧٢ ـ ٣٨٠) خبر رقم (٢١٤)؛ وأسد الغابة (٥/ ٥٧٤ و ٥٧٥) ترجمة رقم (٥٠٦٧).
أقول: «قد أخذَ منّي هذا الخبرُ جهْداً كبيراً وزَمَناً طويلاً حتّى أصبحَ على النّحو الذي هو عليه الآن، إذْ إنَّ كثيراً من المصادر التي أوردَتْه قد ذكرَتْه ناقصاً أو فيه بعض الاضطرابِ، ولذا فإنَّ القارئَ لا يستطيعُ أنْ يستحضرَ الصُّورةَ التي أرادها سيّدنا عليٌّ استحضاراً كاملاً، واللهُ وحده عندهُ حُسْنُ الثّواب».

* وقد نقلَ لنا سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه هذا الموقف بدقّةٍ وأمانةٍ، وفي هذا دليلٌ على ذكائِهِ النّادر[1] إذِ استطاعَ أنْ يرويَ مثل هذا الخبرَ الطّويلَ بدقّةٍ متناهية على الرغم من وجودِ فقراتٍ بلاغيةٍ وعباراتٍ فصيحةٍ يحتاجُ حفظها لجهدٍ عظيم ووقتٍ طويل؛ فرضيَ الله عن سيّدنا عليّ وحشرنا في معيته.

رِحْلَةُ الفِداءِ والهِجْرَةِ:

* رحلةُ سيّدنا عليّ رضي الله عنه رحلةٌ شائقةٌ مع فنٍّ الفداء، فقد فدىٰ هذا الفدائيُّ أوّلَ فِدائيي الدُّنيا وأشجعهم وأفضلهم، فَدَاهُ في أَشْهَرِ يومٍ من أيّامِ التّاريخ الهجريّ عند المسلمين والذي أقرّه عميدُ الدّولةِ العُمريّة وفَخْرُها؛ ثاني الخلفاء الرّاشدين، سيّدنا عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه وأرضاه.

* وقبل أن نستعلمَ ونتعلّم فدائية سيّدنا عليٍّ النّادرة في تاريخ الفداء، لابدَّ أنْ نتعرَّفَ معنى كلمة الفداء بشكلٍ شامل، حتّى تتوضَّح الصّورةُ أكثر.

* قال الرّاغبُ الأصفهانيُّ في «المُفْردات»: «الفدىٰ والفِداء: حفظُ الإنسان عن النّائبة بما يبذُلُهُ عنه، يُقال: فديتُه بمالٍ، وفديتُهُ بنفسي، وفاديته بكذا»[2].

* وللفداء معانٍ عديدة، ولكنّها بعامة تُقالُ في حفْظِ الإنسان من النّائبة ببَذْلِ ما يبذلُ عنه من مالٍ أو نفس، فَداهُ، أو فَادَاه، كما قيل: فَدَّاه، أي قال له: جُعِلْتُ فداك[3].

* ومادّةُ الفداء في لغةِ العربِ تدلُّ على جَعْلِ شيءٍ مكانَ شيءٍ حمىً له،

---

(١) أدرك سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه من خلالِ حوارِ بني شيبان مع الحبيبِ المصطفى ﷺ أنّهم تأثّروا بالإسلام وتعاليمه السّمحة القوّية الحاسمة، وقد أسلم المثنّى بن حارثة فيما بعد، وكان من القادةِ السّادة الذين دوّخوا الفرسَ وأذاقوهم حَرّ السُّيوف.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٦٢٧) تحقيق صفوان داوودي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.

(٣) انظر: القاموس المحيط (ص ١٧٠٢) طبعة مؤسّسة الرّسالة الثّانية عام ١٩٨٧ م.

فديتُه أفديه؛ كأنَّك تحميه بنفسك، أو بشيء يعوِّض عنه، فيُقال: فديتُه بمالي، وفديتُه بأبي وأمّي، كأنّه اشتراه بما قدَّم، ومن هنا جاءت كلمةُ الفِدية، وهي ما يقي به الإنسان نَفْسَه من مالٍ يبذلُه في عبادة قصَّرَ فيها، ككفَّارة اليمين، أو كفَّارة الصَّوم أو غيرها[1].

* وفدائيّةُ سيّدنا عليّ رضي الله عنه نموذجٌ فريدٌ ونادرٌ في دُنيا الفِداء وميدانِهِ، إذْ لا يدفَعُ إلى الفدائيةِ الحقَّةِ إلَّا إيمانٌ صادقٌ ويقينٌ عميقٌ، وقد كانت هاتان الصِّفتان من أخصِّ صفاتِ سيّدنا عليٍّ رضوان الله عليه، فقد صَحِبَ عليٌّ رسولَ الله ﷺ صحبةً متكاملةَ الأركانِ، عظيمةَ الأطرافِ، فهو ابنُ عمِّه، ومربّيه، ومعلّمُه، ومخرجُه من الظُّلمات إلى النّور، على يديه تلقّى القرآنَ العظيمَ يتنزّل ندياً غضّاً، وفي بيتهِ الطّاهر تكاملتِ الشّخصيّةُ العلويّةُ الفذّةُ، وامتزجت بالأخلاقِ المُستقاةِ من أخلاقِ النُّبوّة، وبعد هذا كلّه أخذ سيدنا عليٌّ يسجّلُ أسنى المطالب في تاريخ السِّيرة العطرة المباركة، إذ لا يستطيعُ الباحثُ في السِّيرة العَلَويَّةِ الزّاكية لهذا الفتى الفدائي الميمون أنْ يغْفِلَ دورَهُ البارزَ الخطيرَ في يومِ الهجرة النّبويّة، بل ينبغي أنْ يعرفَ محبّوه أنَّ الرَّجُلَ الهاشميَ الوحيدَ من رجالِ أهلِ البيت هو سيّدنا عليٌّ الذي كان يعلمُ بالهجرة النَّبويّة إلى المدينةِ المنورةِ، وبصحبةِ الحبيبِ المصطفى ﷺ صَدِيقُهُ وصدّيقه أبو بكر رضي الله عنه، وحسبُك بهذه المعرفة امتيازاً لنعلمَ أيةَ مكانةٍ تُحْتَسَبُ لسيِّدنا عليٍّ عند النّبيّ ﷺ.

* أمَّا كيفيةُ فداءِ عليٍّ للنَّبيّ ﷺ، فهذا ما ستشفُّ عنه رقائقُ السُّطور الآتية.

* لمَّا رأىٰ كبراءُ قريش وزعماؤُهم كثرةَ المسلمين، وعلموا بإسلام الأنصار في المدينة، وأنّهم يرحّبون بالمهاجرين من المسلمين، لمّا رأوا ذلك

---

(١) الفداء في الإسلام للدّكتور أحمد الشّرباصي (ص ١٤) ـ سلسلة اقرأ ـ رقم (٣١٤) ـ دار المعارف بمصر ـ ط ٢ ـ ١٩٧١ م.

وتيقّنوه أقامهم المقيمُ المقعدُ، واجتمعوا بدار النَّدوة يرأسهم زعيمُ المشركين وفاجرُهم أبو جهلِ بنُ هشام وثلةٌ من رؤساء الضَّلال والكفر والشِّرك كَعُتْبَةَ بنِ ربيعة وأخيه شيبةَ، وطُعيمةَ بنِ عدي، والنَّضرِ بنِ الحارث، وأمية بنِ خلف، وأضرابهم ممّن لا يرقُبُون في المسلمين إلاًّ ولا ذمّةً.

* ائتمر المشركون بينهم مُجمعين على قَتْلِ الصَّادقِ المصدوقِ سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ، ذلك الذي يريدُ حياتَهم ويريدون قَتْلَه، يريدُ حياتَهم حياةَ الأبرار، وحياةَ السُّعداء، وحياة العُقلاء، لكنّهم ركبوا رؤوسهم وركبهم شيطانُ الفُجور ودلاّهُم بِغرورٍ، وأوقعهم في سوء أعمالهم؛ أرادوا أنْ يكيدوا الهادي البشيرَ ﷺ ويمكروا به، فردَّ اللهُ عزَّ وجلَّ كيدهم في نحورهم، وكانوا خاسئين.

* إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رحيمٌ بعباده، ومن ألوانِ رحمتِهِ وأشكالها بهم، أنّه سبحانه يحولُ بينهم، وبينَ ما يُقدمون عليه من شرٍّ ومكْرٍ ومنكرٍ، فهؤلاء الطُّغاة المجرمون الذين دبّروا ومكروا بالنَّبيّ ﷺ قد أبطلَ اللهُ مكْرهم وكيدهم؛ لتبدأَ البشريّةُ عَهْداً جديداً مُزْهراً في تاريخها، زاهراً في حياتها، عهداً يرفُلُ بالحريّةِ، ويجودُ بالكرامةِ، ويسخو بالعلْم، وهذا فضلٌ عظيمٌ من الفَضْل الإلهيّ العميم.

* وفي غمرةِ الأحداثِ وتتابعها ووصول حبْكَتها إلى الذِّروة نزلَ الرُّوحُ الأمينُ جبريل، على الصَّادق الأمين محمّدٍ ﷺ، وأخبره بما كادَهُ به المشركون، كما أخبره بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أذن له في الهجرة، وألاَّ ينام على فراشه الذي كان يبيتُ عليه.

* وهاهنا نظرَ النَّبيُّ ﷺ نظرةً فاحصةً فيمن يحلُّ محلَّه، وينامُ على فراشِهِ كي يَشْغَلَ أنظارَ المُحاصِرين لبيتِهِ[1]، المراقبين لفراشِهِ من خَلَلِ الباب،

(١) من ألوانِ الثّقة الإلهيّةِ التي كان يتمثَّلُ بها سيّدنا محمّدٌ ﷺ عمليّاً، أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بعد أن أطلعَه على ما أجمعتْ عليه قريشٌ في دارِ النّدوةِ، وبعد أنْ أذنَ له بالهجرة إلى المدينةِ، فكَّرَ ﷺ مليّاً في هذه الرّحلةِ الشّاقّةِ، واتّخذَ الأسبابَ التي تكفُلُ لها النّجاحَ والتّوفيق، مع ثقةٍ لا تُحَدُّ في=

فيوهمهم بذلك ويخدعهم حتّى تذهبَ عتمةُ الليل، ويسفر فجرُ يومٍ جديد، وبالتّالي يكون قد غادرَ بطحاء مكّة متوجّهاً نحو المدينة وبصحبته أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه.

* كانت نظرةُ النَّبيِّ ﷺ في هذا الأمْر نظرةً حصيفةً حكيمةً، فلا يصلحُ أنْ يبيتَ على فراشه سوى رجلٍ من رجالِ أهلِ البيتِ الأشدّاء الشُّجعان المُخْلصين، وإلاَّ رجلاً من فتيان بني هاشم الفدائيين الصَّادقين ممّن نذروا نفوسَهم للهِ ورسولِه؛ ولخدمة الإسلام الذي يحاصره المشركون وأهلُ الضَّلال.

* وسرعان ما كان فتى الإسلام، وربيبُ البيتِ النَّبويّ، وسابقُ الفتيان إلى دوحةِ الإيمان، أبو الحسن عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه[1]، هذا الرَّجلُ هو

= الوعدِ الإلهيّ بالحماية والنّصر.

إنَّ سيّدنا وحبيبَنا رسولَ اللهِ ﷺ يدركُ ببصيرتِهِ النّافذة أنَّ قريشاً قد أعدّتْ لتنفيذِ قرارهَا الإجراميِّ، وأنَّ بَالَها لَنْ يهدأَ حتّىٰ تنفّذَ ما انتهتْ إليه، وأنَّ مجردَ خروجِه من مكّةَ لا يعني نَجَاته من الخَطَر، لأنّهم قد يطاردوه في شعابِ الجبالِ وخباياها، وفي مساراتِ الأودية وزواياها، والمسافةُ بين مكّة والمدينة ليست قصيرة، فهي تزيدُ عن (٤٠٠ كيلاً)، فكان عليهِ أنْ يخططَ لهجرتهِ، ويحتاطَ لكلِّ الاحتمالات ولكلّ ما يُتوقّع، وإنْ بدا ما قامَ به النَّبيُّ ﷺ إزاءَ قوّةِ قريشٍ أمراً هيناً، إلاّ أنَّه كان لازماً ـ فَضْلاً عن تأييد اللهِ ونَصْره ـ لكي يَصِلَ ﷺ إلى المدينةِ ومعه صاحبه أبو بكر دون أنْ تنالَ قريشٌ منهما ما تريد. فوضعَ خطةً سليمةً ليفوّتَ على قريشٍ هدفَها وكان عنوانُ الخطة: السِّريّةُ التّامةُ في لحظة الخروج من مكّةَ مع رجلٍ مخلصٍ هو أبو بكر رضي الله عنه، وخداعُ قريشٍ وإيهامُها ومعرفة خططها حتّى يأخذَ حذره، ويمضيَ بسلامٍ وأمْنٍ إلى وجهتِهِ التي هو مولّيها.

(١) قال الشّيخ يوسف النّبهانيّ يصف بطولة عليّ وفدائيته للنّبيّ ﷺ من همزيته المشهورة:

وأتــاهُ بمكــرهــم جبــرئيــل ... فبــدا كيــدُهــم وخــاب الــدّهــاء
ففــداه بنفســه ذلــك اللّيــ ... ــث علــيٌّ ونعــم ذاك الفــداء

وقال ابن دريد: «اشتقاق عليَّ من الصّلابة والشدة، وقد سمّت العرب علياً في الجاهلية... ويمكن أن يكون اشتقاق علي من العلو، من قولهم: علا يعلو علوّاً، فكأنَّ علياً من ذلك. ويقال: عَلِيَ يعلي علاءً، إذا ظفر». (الاشتقاق ص ٥٤ و٥٥) بتصرف.

الذي وقعَ عليه اختيار سيّدِ الأنبياء وخاتمهم ليكونَ الفدائيّ المقدام الذي سينامُ على فراش النُّبوّة عندما يهبطُ الليلُ على أمِّ القرى . . .

* ولم يمضِ كبيرُ وقتٍ حتى أرخى الليلُ سدولَه على الدُّنيا، وجاء القومُ المشركون يُهْرعُون حتّى اجتمعوا على باب بيتِ النَّبيّ ﷺ، وبأيديهم مواضي السُّيوف وعوالي الرّماح، وبقلوبهم مكائدُ الغدر، ونيران الحقْدِ على مُعلّم النّاس الخير النّبيّ ﷺ، فلمّا رأى ﷺ مكانَهم، وسمعَ همْسَهم وتمتمهم، قال لعليٍّ رضي الله عنه: «نَمْ علىٰ فراشي وتَسَجَّ[1] بِبُرْدي هذا الحضرمي الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنَّه لَنْ يخلُصَ إليكَ منهم شيءٌ تكرهُهُ».

* وبسرعةِ البرقِ الخاطفِ، لبّى عَليٌّ الأمرَ النّبويَّ، وسمعَ وأطاعَ، إذ يعلمُ علْمَ اليقين أنَّ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ ما ينطق عن الهوىٰ، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى، علّمه شديدُ القوى.

* استسلم سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه لأمْرِ الحبيبِ الأعظم ﷺ، واستجابَ لرغبتِهِ الكريمةِ، وكأنَّ لسانَ حاله يقول:

مَالِي سِوىٰ رُوحي وبـاذِلُ نَفْسِهِ   في حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ ليس بِمُسْرِفِ
لو قالَ تِيْهاً قِفْ علىٰ جَمْرِ الغَضَا   لَوقَفْتُ مُمتثِلاً ولمْ أتوقَّفِ
أو كانَ مَنْ يرضىٰ بِخَدّي مَوطئاً   لوضعْتُه أرضاً ولمْ أَسْتَنْكِفِ

* ونام سيّدنا عليٌّ رضي الله تعالى عنه على فراشِ رسولِ الله ﷺ نومةَ مَنْ لا يحسبُ حساباً لأشرارِ قريش وطائشيها، بل وأبطالِها وصناديدها، وبذلك كان فتى الحبيب الأعظم ﷺ ذا فدائيةٍ متميزةٍ، إذ هو أوّلُ فدائي منْ رجالِ أهل البيت، وأوّلُ شاب من أهلِ البيت وَقىٰ الصّادقَ المصدوق ﷺ بنفسهِ وروحهِ وكلّ ما يملك، وكان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يعلم أنّه قابَ قوسَيْن أو أدنى من سيوفِ المشركين المرهفةِ، ورماحِهم المشرعةِ السَّمْهريّة، إلا أنه غير مكترثٍ

(١) «تسجَّ»: فعل أمر من سجّى، ومعناه: تَغطَّ، يقال: تسجّىٰ بالثّوب: غطّىٰ به رأسه وجسمه.

بقَضِّهم وقضيضِهم وصلِّهم وصليلِهم، وسرّهم وجَهْرِهم.

* حقاً إنه لموقفٌ عظيمٌ! وفدائيةٌ نادرةٌ، وجرأةٌ يُغْبَطُ عليها، فَمَنْ غيرُهُ مِنَ الشُّجعان مهما ثَبتَ فؤاده يجرؤ أنْ يبقى نائماً على فراشِ نبيّ الله محمّدٍ ﷺ والأعداءُ الأشرارُ قد أحاطوا بالبيتِ إحاطةَ السِّوار بالمعصمِ يتربّصون به ليجعلوه من حصائدِ سيوفهم؟! مَنْ يستطيعُ أنْ يبقى هادئاً دون وَجَلٍ في هذا البيتِ المهدّدِ بالأخطار؟! مَنْ يقدرُ أنْ يضبطَ جوارحه وهو يعلم أنَّ هؤلاء السُّفهاء لا يفرّقُون ـ في تلك الليلة ـ بينه وبين النَّبيّ ﷺ في فراشه؟! إنّه لا يقدمُ على هذا الأمْرِ إلا رجلُ الرّجال وسيّدُ الأبطال، وعَلَمُ رجالِ أهلِ البيت الأطهار عليُّ بنُ أبي طالب، أحدُ سيوفِ اللهِ وآسادِهِ، وأحدُ أبناءِ عمِّ المصطفى ﷺ وأصفيائِهِ.

* طالَ ليلُ المشركين وسَرْبَلَهم سوادُهُ وهم ينتظرون الصَّباحَ، وكانوا إذا نظروا من شُقوقِ الباب وجدوا رجلاً نائماً، فيظنّونَهُ النَّبيَّ ﷺ، وظنّوا أنّهم سيظفرون ببغيتهم، وأنَّ زرعَهم قد آن حصادُه، وأنَّ ثمارهم قد أينعتْ، وأن كلَّ الصَّيد في جوفِ الفَرَا، وأنَّ وأنَّ. . .

* وبينما هم في غيِّهم يتسامرون، ويرقُبون البابَ، ويحرسون النَّائمَ داخل الدَّار، أخذوا يتشاورون فيما بينهم أيّهم يهجمُ على صاحبِ الفراش فيوثقُه، أو يضربُه فيقتلُه، وعلا همسُهم، وكاد يشقُّ صَمْتَ الليلِ وسكونه، لكنّهم بُهتُوا فجأةً عندما جاءهم رجلٌ يسعىٰ وقال لهم: ويحكم، ما تنتظرون هاهنا؟!!.

قالوا: محمّداً حتّى يخرجَ.

فقال الرَّجلُ ساخراً: قد خَيَّبَكم اللهُ، قَدْ واللهِ خرج محمّدٌ عليكم، ثمَّ ما تركَ أحداً منكم إلا وضعَ على رأسِهِ التُّرابَ وانطلقَ لشأْنِهِ، أفما ترون ما بكم؟!

* وأخذت الدهشةُ القوم، فوضعَ كلُّ واحدٍ منهم يده على رأسه، فإذا عليه ترابٌ، فكأنَّهم لم يصدّقوا، وجعلوا يطَّلُعون من البابِ فيَرْونَ النَّائم على فراشه

متسجيّاً ببرده الحضرميّ، فيقولون: ويحكم، واللهِ إنَّ هذا لمحمدٌ نائماً، عليه بُـرْدُهُ! ـ ولـم يعلمـوا أنَّ اللهَ عـز وجـلَّ قـد طمـسَ علـى أعينهـم وبصائرهم ـ ولم يزالوا في أخذٍ وردٍّ، وإيجابٍ ونَفْيٍ حتَّى انسحبتْ جيوشُ الظَّلام، وتنَفَّس الصُّبح، فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش، وهناك انقشعت الغشاوةُ عن أبصارهم ورأوا عليّاً، فرجعوا إلى أنفسهم وقالوا: والله، لقد كان صدقنا الذي كان حدَّثنا[1].

* وهكذا رأينا أنَّ المشركين قد رجعوا بخُفَّي حُنَين، لم يظفروا بشيءٍ مما بيَّتُوه، وإنَّما سخَّرهم اللهُ عزَّ وجلَّ لحراسةِ ناشيء الفتيان، وسيّدِ الأقران وفارس الشُّجعان، عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، وفي هذا الموقف كثيرٌ من الألطافِ الإلهيّة، والخفايا الرّحمانية التي حفَّتْ سيّدنا وحبيبَنا رسولَ الله ﷺ وصاحبَه الصِّدِّيق رضي الله عنه حتّى ابتعدا عن كيد المجرمين ومكرهم، كما حفَّت سيّدنا عليّاً الذي نام في أمانٍ وبشارةٍ نبويّةٍ بأنَّه لن يصيبَه مكروه[2]. وقام هؤلاء الأشرار الذين تفوحُ من أشفارِ سيوفهم رائحةُ الغَدْرِ والقتل، قاموا يحرسون سيّدنا عليّاً الذي فدىٰ ابنَ عمِّه وقائدَهُ ومربّيه من الأخطار، وعند الصَّباح رأوا عليّاً، فلم يجرؤُ أحدٌ أنْ ينالَه بسوء، لأنهم يعرفون أنَّهم ليسوا من طبقتِهِ، ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ حَمَاه منهم.

---

(١) البداية والنّهاية (٣/ ١٧٦ و ١٧٧)، وتفسير ابن عطيّة (ص ٧٩٢) مع الجمع والتّصرّف بينهما، دون الخروج عن روح النّصّ. وفي «الفتح» قال ابنُ حجر: وذكر موسى بنُ عقبةَ عن ابن شهاب قال: «فَرَقَدَ عليٌّ على فراشِ رسولِ الله ﷺ يوري عنه، وباتتْ قريشٌ تختلفُ وتأتمرُ أيّهم يهجمُ على صاحبِ الفراشِ فيوثقه، حتّى أصبحوا، فإذا هم بعليّ، فسألوه. فقال: لا علْمَ لي. فعلموا أنه فرَّ منهم». (فتح الباري ٧/ ٢٧٨).

وقد صوّر فدائية عليّ رضي الله عنه شاعر الأقصى فقال من نشيد الهجرة:

اللهُ تكفّــــلَ يحميــــهِ   وعلــيٌّ أصبــح يفـــديــهِ

وبِســرِّ القـــومِ الأشـــرارِ   بنــتُ الصّــدّيــق تــوافيــهِ

(٢) وهذا من دلائل النّبوة، إذ أنجى اللهُ عليّاً منهم، ولم يُصَبْ بمكروه.

* نقل ابنُ حجرٍ رحمه الله في «الفتح» قال: وذكَر أحمدُ من حديث ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما بإسناد حسَنٍ في قوله تعالىٰ في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾(1) [الأنفال: ٣٠]، قال: «تشاورت قريشٌ ليلةً بمكّةَ فقال بعضُهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النّبيّ ﷺ.

وقال بعضهم: بل اقتلُوهُ.

وقال بعضُهم: بل أخرجوه.

فأطلعَ اللهُ نبيَّه على ذلك فباتَ عليٌّ على فراش النَّبيِّ ﷺ تلك الليلة، وخرج النَّبيُّ ﷺ حتّى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليّاً يحسبونه النّبيّ ﷺ؛ يعني ينتظرونه حتّى يقوم فيفعلون به ما اتّفقُوا عليه، فلمّا أصبحوا ورأوا عليّاً، ردَّ اللهُ مكْرهم، فقالوا: أين صاحبُكَ هذا؟

قال: لا أدري.

فاقتصّوا أثره، فلمّا بلغوا الجبلَ، اختلطَ عليهم، فصعدوا الجبلَ، فمرُّوا

---

(١) «المكر»: المكر: المخاتلةُ والتّداهي، تقول: «فلانٌ يمكرُ بفلان» إذا كان يستدرجُه ويسوقُه إلى هوّةٍ وهو يُظْهِرُ جميلاً وتَسَتُّراً بما يريد. ويُقال: أصْلُ المكر الفَتْل، فكأنَّ الماكرَ بالإنسان يفاتلُه حتّى يوقعَه، ومن المكْر الذي هو الفَتْلُ قولُهم للجاريةِ المعتدلةِ اللحم: ممكورةٌ، فمَكْرُ قريشٍ بالنَّبيِّ ﷺ كان تدبيرهم ما يسوءه، وسعيُهم في فسادِ حالِه، وإطفاءِ نورِهِ، وتدبير قريشٍ على رسولِ الله ﷺ هذه الخصال الثّلاث لم يزلْ قديماً من لدن ظهوره، لكنَّ إعلانهم لا يسمّى مكراً، واستسرُّوا به هو المكْرُ، وقد ذكر الطَّبريُّ أنَّ أبا طالب قال للنَّبيّ ﷺ: يا محمّدُ، ماذا يدبّر فيك قومك؟

قال: «يريدون أنْ أُقتلَ أو أُسجنَ، أو أُخرجَ».

قال أبو طالب: مَنْ أعلمك هذا؟

قال: «ربّي».

قال: إنَّ ربّك لربُّ صدق، فاستوصِ به خيراً.

فقال النّبيّ ﷺ: «بل هو يا عمّ؛ يستوصي بي خيراً» (تفسير ابن عطيّة ص ٧٩٢).

بالغار، فرأَوا على بابه نَسْجَ العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسجُ العنكبوت على بابه، فمكَثَ فيه ثلاث ليال»[1].

* «استعملَ رسولُ الله ﷺ كلَّ الأساليب والوسائلِ المادّيةِ التي يهتدي إليها العقلُ البشريُّ في مثل هذا العمل، حتّى لم يتركْ وسيلةً من هذه الوسائل إلا اعتدَّ بها واستعملَها، فترك ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه ينامُ في فراشه ويتغطّى ببرده، واستعان بمَنْ يدلُّه على الطُّرقِ الفرعيّة التي قد لا تخطرُ في بالِ الأعداء، وأقام في الغار ثلاثة أيامٍ متخفّياً، إلى آخر ما عبَّأه من الاحتياطاتِ المادّيةِ التي قد يفكّرُ بها العقلُ، ليوضح ﷺ بذلك أنَّ الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ لا يُنافي استعمال الأسباب المادية التي أراد اللهُ عزَّ وجلَّ بعظيم حكمتِهِ أنْ يجعلَها أسباباً. وليس قيامه بذلك بسبب خوفٍ في نفسه ﷺ، أو شكٍّ في إمكان وقوعه في قبضةِ المشركين قبل وصوله المدينة... لقد كان كلّ

---

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٧٨ و ٢٧٩) طبعة المكتبة السّلفية الرّابعة بالقاهرة ١٤٠٨ هـ. وما أجمل أنْ نقرأَ هذه التّغريدةَ الجميلةَ التي ترسمُ مبيتَ عليّ رضي الله عنه في فراشِ المصطفى ﷺ:

القـــومُ بعـــدَ مُشَـــاوراتٍ أيّـــدوا رأيَ اللعيـــن
قَتْـــلُ النَّبـــيِّ مُحمّـــدٍ هـــو رأيُ كـــلِّ المشـــركيـــن
جمعُـــوا مـــنَ الفِتْيَـــانِ مـــنْ كـــلِّ القبـــائـــل غـــاضبيـــن
وقفُـــوا جميعـــاً حـــولَ بيـــتِ محمّـــدٍ متـــربّصيـــن
أسيـــافُهـــم مصقـــولـــةٌ للقتْـــلِ كـــانـــوا عـــازميـــن
يبغـــونَ قتْـــلَ محمّـــدٍ خيـــرِ الخليقـــةِ أجمعيـــن
لكـــنَّ ربَّ العـــرشِ أبطـــلَ كيـــدهـــم متجمّعيـــن
جبـــريـــلُ جـــاءَ إلـــى الـــرّســـول بـــأمْـــر ربِّ العـــالميـــن
أوحـــىٰ إليـــه بكـــلِّ تـــدبيـــرِ الـــرجّـــالِ المفْســـديـــن
أوحـــىٰ إليـــه وقـــالَ هـــاجـــرْ والتحـــقْ بـــالمـــؤمنيـــن
هـــذا علـــيٌّ فـــي فـــراش المصطفـــى كـــالنّـــائميـــن
وعليـــه بُـــردُ محمّـــدٍ لـــم يخـــشَ بطـــشَ الظّـــالميـــن
الـــواقفـــون رأوه ظنّـــوا أنّـــه الصّيـــد الثميـــن

ما فعله ﷺ من تلك الاحتياطات إذاً وظيفةً تشريعيّةً قام بها، فلمّا انتهى من أدائها، عاد قلبُهُ مرتبطاً بالله عزَّ وجلَّ معتمداً على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمون أنَّ الاعتماد في كلّ أمرٍ لا ينبغي أن يكون إلا على الله عزَّ وجلَّ، ولكن لا ينافي ذلك احترام الأسباب التي جعلَها اللهُ في هذا الكون أسباباً»[1].

* والآن؛ هل انتهتِ المهمَّةُ النَّبويّةُ الموكلةُ لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه؟!

* في الحقيقة، كانت هناك مهمّةٌ عجيبةٌ، تتطلَّبُ مقدرةً وبسالةً وحُسْنَ تَصَرُّفٍ من سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، فقد أمرهُ الحبيبُ المصطفى ﷺ أنْ يتخلَّفَ بعده بمكَّةَ ليردَّ الودائع التي كانت عنده لأهلِ مكَّة، حيث كان كثيرٌ من المكّيين يضعُون أشياءهم الثّمينةَ عنده ﷺ لِمَا يعلمون من صدقِهِ ووفائِهِ وأمانتِهِ حتى كان يلقَّبُ بالأمين.

* أقام سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه ثلاثةَ أيّام ولياليها، وطفق يؤدّي أمانةَ الودائع والوصايا التي كانت عنده إلى أصحابها من المشركين من أعدائه، وأدّاها كاملة غير منقوصة وهذا من تمام العدلِ وأداء الأمانة على أحسن وجه[2].

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه خلال تلك الأيّام الثّلاثة يجابِهُ قريشاً وحْدَهُ، لم يرهبْ أحداً، ولم يَخْشَ إلا الله عزَّ وجلَّ، فكان يسألُ بشجاعةٍ نادرة عن أصحاب الأماناتِ والودائعِ، ثمَّ يردُّها إلى أهلِها، حتّى برئتْ منها ذمّةُ النّبيِّ ﷺ.

---

(١) فقه السّيرة للبوطي (ص ١٨٥ و ١٨٦) باختصار وتصرف.

(٢) يقولُ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي معلّقاً على أداء عليٍّ للأمانات كلاماً نفيساً هذا نصُّه: «في تخلّفِ عليٍّ رضي الله عنه عن النّبي ﷺ في أداءِ الودائع التي كانت عنده إلى أصحابِها دلالةٌ باهرةٌ على التّناقضِ العجيبِ الذي كان المشركون واقعين فيه. ففي الوقتِ الذي كانوا يكذّبونه ويَرَوْنه ساحراً أو مخادعاً، لم يكونوا يجدون مِنْ حولهم مَنْ هو خيرٌ منه أمانةً وصدقاً. فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالَهم التي يخافون عليها إلاّ عنده! وهذا يدلُّ على أنَّ كفرانهم لم يكن بسبب الشّكّ لديهم في صدقه، وإنّما هو بسبب تكبّرهم واستعلائهم على الحقّ الذي جاء به، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم» (فقه السّيرة ص ١٨٦). طبعة دار الفكر الثامنة ـ ١٩٨٠ م.

* وعرف هذا البطلُ الضَّرغام والفتى الهُمام والفدائي الأبيّ أنه غدا بمكَّةَ وحيداً، وأنَّ قريشاً بلغتْ قلوبُها حناجِرها غيظاً وحنقاً على النَّبي المصطفى ﷺ وعلى أهل بيته الذين اتّبعوه؛ وفدوه بأرواحهم وأنفسهم؛ ومنهم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكنَّ علياً منصورٌ بإذن الله لا يعرفُ الخوف إلى قلبه سبيلاً، لذلك أدّى الأماناتِ إلى أهلها وهو في غايةِ الهدوء؛ وعدم الاكتراث بالملأ القُرشيّ الحاقد المضطرب.

* وكما بقي سيّدنا عليٌّ وحيداً ثلاثة أيّام في مكّةَ، انطلقَ مهاجراً وحيداً أيضاً، فقد خرجَ وحدَهُ سالكاً الطَّريق نَفْسَه الذي اجتازه النَّبيُّ ﷺ وأبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه، وقطع الفيافي والقفار وذِكْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يفارقُ لسانه والصُّورةُ المحمّديّةُ الحبيبةُ لا تفارقُ وجدانه، إنَّه في غايةِ الشَّوق إلى رؤية الأنوار المحمّدية التي سبقَتْهُ إلى المدينةِ قبل بضعة أيام.

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه حصيفاً حَذِراً في أيّامِ هجرته، إذ كان يكمنُ بالنّهار، فإذا جَنَّ عليه الليلُ سار تحت جنحه حتى قدم المدينة في منتصفِ شهر ربيع الأوّل، ونزل في قباء على كلثومِ بن الهِدْم[1]، وكانت قدماه قد تفطّرتا من هذه الهجرةِ المضنية الشّاقّة الشَّديدة، إذ لم تكن له راحلةٌ يركبها،

---

(١) كلثومُ بنُ هِدْم الأنصاريّ الأوسيّ، كان يسكنُ قباء، ويُعْرَفُ بصاحبِ رسولِ الله ﷺ، وكان شيخاً كبيراً، أسلم قبل وصولِ رسولِ الله ﷺ إلى المدينة، وهو الذي نزلَ عليه رسولُ الله ﷺ بقباء، وأقامَ عنده أربعةَ أيّام، ولمّا نزلَ رسول الله ﷺ على كُلثوم، صاحَ كلثومٌ بغلامٍ له: يا نجيحُ، فقال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر الصِّدّيق رضي الله عنه وأرضاه: «أنجحتَ يا أبا بكر». وأقامَ رسولُ الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بقباءَ الاثنين والثُّلاثاء والأربعاء والخميس، وأسَّسَ مسجدهم، وخرجَ من عندهم، فأدركتْه الجمعةُ في بني سالمِ بنِ عوف، فَصَلّاها في بطنِ الوادي، ثمّ نزلَ على أبي أيّوب. وتوفي كلثومُ بنُ الهدم قبل بدرٍ بيسير. وقيل: إنّه أوّل مَنْ مات من أصحابِ رسولِ الله ﷺ بعد قدومه المدينة، ولم يدرك شيئاً من مشاهده. (أسد الغابة ٤/ ١٩٥)، والبداية والنّهاية (٣/ ٣٢٩ و ٣٣٠)، والاستيعاب ٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٨) مع الجمع بينها.

بالإضافة إلى مسيرِهِ الليليِّ المُفْزع بظلامِهِ الشَّديد الدَّامس، دون رفيق رشيد، يقطع معه وحشة الطَّريق، ووعثاء السَّفر، وآلام الوحدة. فأكرمْ بالفتىٰ المُهاجر!!!.

* ولاشكَّ في أنَّ هجرةَ سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه كانت بعد هجرة الحبيبِ المصطفى ﷺ، ذكر البيهقيُّ في «الدَّلائل» عن ابن إسحاق قال: «آخرُ مَنْ قدم المدينة من النَّاس لم يُفتنْ في دينهِ، أو يحبسْ عليُّ بنُ أبي طالب، وذلك أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَخَّرَهُ بمكة، وأمره أنْ ينامَ على فراشِهِ، وأجَّلَه ثلاثاً، وأمره أنْ يؤدّي إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه، ففعل ذلك عليٌّ، ثمَّ لحقَ برسولِ اللهِ ﷺ».

* أدركَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه النَّبيّ ﷺ بقباء لم يتحولْ عنها، فأقامَ معه، وأثناء إقامته حدثَتْ له قصّة طريفة مع امرأةٍ مسلمةٍ ومع سهلِ بنِ حنيف الأنصاريّ على الرّغم من المدّة القصيرة التي أقامها عليّ بقباء. ترى ما القصّة الطَّريفة، وعلام تدلُّ؟

* جمعَ ابنُ كثير رحمه الله أطرافَ هذه القصَّة ولمَّ أحداثَها، وآلف بينها، واقتبسَها من ابن إسحاق وذكر بأنَّه كانت بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها؛ وأنَّ رجلاً كان يضربُ بابها وحده إذا الليلُ اعتكرَ واحلَولك ظَلامُهُ، فتخرج فيناولها شيئاً ثم يمضي لا يلوي علىٰ شيء، وقد تكرَّرَ هذا الأمرُ أكثر من مرّةٍ ممّا جعل عليّاً يستريبُ بشأنهما، ولكنَّ علياً يكشفُ لنا حقيقة الأمر فيقول: «كانت بقباء امرأةٌ لا زوجَ لها مسلمة، فرأيت إنساناً يأتيها من جوفِ الليل، فيضربُ عليها بابها، فتخرجُ إليه، فيعطيها شيئاً معه فتأخذهُ، فاستربتُ بشأنه، فقلتُ لها: يا أمةَ اللهِ؛ مَنْ هذا الذي يضربُ عليك بابك كلَّ ليلة، فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأةٌ مسلمةٌ لا زوجَ لك؟

قالت: هذا سهلُ بنُ حنيف، وقد عرفَ أنّي امرأةٌ لا أحدَ لي، فإذا أمسى عدَا علىٰ أوثانِ قومه فكَسَرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا»[1].

---

(١) البداية والنِّهاية (٣/ ١٩٧ و ١٩٨)، وانظر: السّيرة الحلبيّة (٢/ ٢٣٣)، قال ابن إسحاق: «كان عليٌّ رضي الله عنه يأثرُ ذلك من شأن سهلِ بن حنيف رضي الله عنه حين ماتَ عنده بالعراق».

* من الجدير بالذِّكْر أنَّ قريةَ قباء[1] من القُرى المباركةِ الميمونةِ، وكان أهلُها في غايةِ السَّعادةِ احتفاءً برسولِ الله ﷺ، فقد وصلَ ﷺ قريةَ قباء أوّلاً، ثمّ اتَّجه إلى المدينة، حيث مقرّ إقامته ومنطلق دعوته السَّنيّة.

* وفي قريةِ قباء أسَّس الحبيبُ المصطفى ﷺ مسجدَ التَّقوى[2]، وهو أوّلُ

---

(١) «قُبَاء»: بالضّم والقصر، وقد تُمدُّ. قال الإمامُ النّووي رحمه الله: «المشهور الفصيح فيه: المدُّ والتذكير والصّرف. وقال الخليل بن أحمد: هو مقصور؛ وقباءُ: قريةٌ بعوالي المدينة، وتقع قبلي المدينة، وهناك المسجد الذي أسس على التقوى، وقباء اليوم: متصلة البناء بالمدينة المنورة، وتُعّد من أحيائها.

(٢) «مسجد»: وردَ لفظُ «مسجد» مفرداً في القرآن الكريم (٢٠ مرة) وجاء منصوباً بصيغة «مسجداً» مرتَيْن، وجاء جمعاً بصيغة «مساجد» (٦ مرات).

و«مسجد» مشتقّة من الفعل الثّلاثي «سجَدَ»، وقد وردتْ باشتقاقاتها في القرآن الكريم بخمس وعشرين صيغة هي: «سَجَد ـ سَجَدوا ـ لأسْجُدَ ـ يسجد ـ يسجدان ـ يسجدوا ـ اسجُدْ ـ اسجُدُوا ـ اسجدي ـ السجود «مصدر» ـ يسجدون ـ ساجداً ـ السَّاجدون ـ ساجدين ـ السَّاجدين ـ سُجّداً ـ السُّجُود «جمع ساجد» ـ مسجد ـ مسجداً ـ مساجد ـ المساجد ـ أسجدُ ـ تسْجد ـ تسجدوا ـ نسجد».

و«المساجد» في اللغة: جَمْعُ مسجد، وهو مُصلّى الجماعة، وأصلُ السّجود: الخضوع والتّذلل، وخصَّ ذلك شرعاً بعبادةِ الله عزَّ وجلَّ، فلا يجوز السُّجود لغيرِ الله تعالى. وجاء السُّجود في القرآن الكريم بمعنى الخضوع والتّذلل لله بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[الرعد: ١٥].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن: ١٨]، ففي لفظ المساجد هاهنا أقوالٌ منها: «المساجدُ: بيوتُ صلواتٍ. والمساجدُ: الأعضاءُ السَّبعةُ التي يسْجدُ عليها العبد: الجبين، واليدين، والرُّكبتين، وأطراف القدمين، والمساجد: مواضع السّجود، فلا تسجدوا عليها لغير الله».

و«مسجد التّقوى»: هو مسجدُ قباء، بناه رسولُ الله ﷺ، والمسلمون المهاجرون مع الأنصار في قرية قباء حين وصل النّبيّ ﷺ قباء قادماً من مكة مهاجراً، وتقع على بعد ميلين من المدينة المنورة على يسار القاصد إلى مكّة المكرّمة، فيها آبار ومياه عذبة. وقد وسِّع هذا المسجد اليوم، وأضحى مسجداً كبيراً، له صحنٌ مستطيلُ الشّكل، تحيطُ به أروقة من أطرافه الأربعة، =

مسجدٍ أُقيمَ في المدينة كلّها، ولا غرو فالمساجدُ بيوتُ الله عزَّ وجلَّ، فيها يعبدُ الإنسان الله عزَّ وجلَّ لا يخشى أحداً، وهي بلا ريب صِلَةُ الأرض بالسَّماء.

* وهذا المسجدُ المباركُ جاء ذِكْرهُ في القُرآنِ الكريم، وقد أثنى الله عزَّ وجلَّ علىٰ الذين يرتادونه للصَّلاة فيه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[التوبة:١٠٨].

* ما أجمل أنْ نعطِّرَ الأسماعَ والأجواءَ بهذه الهمزيّةِ المعبّرة عن هجرةِ سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والتي ترسمُ رحلةَ الفداءِ والوفاءِ والصَّفاء:

أضحــىٰ علــيٌّ سيّــدَ الفتيــانِ بَــلْ بَطَــلَ الفــداء
لمَّــا تخلَّــفَ فــي فِــراشِ المُصطَفــى دونَ الْتِــوَاء
قــد ضَلَّــلَ الأعــداءَ لمَّــا أنْ تغطّــىٰ بــالــرِّداء
لــم يخْشَ مــن أسيــافهــم أو مــا يكنّــوا مــن عــداء
قــد ظــلَّ أيّــامــاً ثــلاثــاً بعــد خيــرِ الأنبيــاء
كــانــت لــدى الهــادي ودائــعُ ردَّهــا نِعْــمَ الــوفــاء
أدَّى بحــقٍّ مــا عليــه مــن المهمّــة فــي كفَــاء
مــن بعــدِ ذلــك طــارَ فــي إثْــرِ الــرَّسُــول بــلا وَنَــاء
متــوجّهــاً صــوب المــدينــة تــاركــاً أرضَ البــلاء
صــارَتْ قبــاءُ سعيــدةً بــالمُصْطَفــى والأصفيــاء
وأتــى إليهــا سَيّــدُ الفِتْيــان عَــزْمــاً فــي مضَــاء
عــن مَسْجــدِ التَّقــوىٰ فَــذَاكَ هــو البــدايــةُ فــي البنــاء
لاشــكَّ أسَّسَــهُ رســولُ اللهِ حيــن أتــى قُبَــاء

= وحرم الصلاة واسعٌ رحبٌ يضمُّ المحراب والمنبر، وفي واجهة الصَّحن ينتصب محراب النّبيّ ﷺ. والله تعالى أعلم.

إنَّ المســـاجــدَ ذي بيـــوتُ الله ذي صِلَـــةُ السَّمـــاء
فيهـــا تُقَـــامُ شعـــائـــرُ الـــدِّيـــنِ القـــويـــم بـــلا خفـــاء

* بعد أن استقرَّ رسولُ الله ﷺ في المدينة المنوَّرة، شرعَ ببناء المجتمع الإسلاميّ، وإرساء قواعده، وتثبيت دعائمه، فوضع قاعدة نفيسةً لربْطِ أصحابه من المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة التي صقلتهم سلوكاً وقولاً، فكانوا كالجسدِ الواحد، والأسرةِ الواحدة، وكان الأنصارُ من المحلّقين في هذه المؤاخاة الفريدة، التي ضربوا من خلالها أسمى صورِ الإيثار الذي عرفَه التَّاريخ كله، ولهم بذلك قصصٌ تضيءُ جبين الأيّام بما قدموه لإخوانهم المهاجرين، وما صنعوه تجاههم.

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه من الملازمين للنَّبيِّ ﷺ، وكان أقرب رجالِ أهلِ البيت إلى قلبهِ الشَّريف ﷺ، لذلك لم يَغِبْ عليٌّ عن أنظار النَّبيِّ ﷺ، بل كان عليٌّ من أسرع النَّاسِ إجابةً للأوامرِ النَّبويّة، واستجابةً للإشارات المحمّديّة.

* وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين عليٍّ وبين سهلِ بن حنيف الأنصاريّ لِيرتفِقَا معاً، وقد آتت هذه المؤاخاةُ[1]: العَلويّة السَّهليّة أُكُلَها، إذ ظلَّ سيّدنا سهلٌ ملازماً لسيّدنا عليٍّ، وصَحِبَهُ حين بُويع له، ولما سار عليٌّ من المدينة إلى

---

(١) ذكرتْ بعضُ المصادر أنَّ رسولَ الله ﷺ آخى بينَه وبين عليٍّ وقال له: «أنتَ أخي في الدُّنيا والآخرة»، فهذا الحديثُ ضعيفٌ. قال ابنُ كثير رحمه الله: «أمّا مؤاخاةُ النَّبيِّ ﷺ وعليّ، فإنَّ من العلماء مَنْ ينكرُ ذلك، ويمنعُ صحّته. ومستندهُ في ذلك أنَّ هذه المؤاخاة إنّما شُرعَتْ لأجلِ ارتفاقِ بعضهم من بعض، وليتألّف قلوبَ بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النَّبيّ ﷺ لأحدٍ منهم....». (البداية والنّهاية ٣/ ٢٢٧).
وقال ابن كثير أيضاً: «وقد وردَ في ذلك ـ أي المؤاخاة النّبويّة العلويّة ـ أحاديث كثيرة، لا يصحُّ شيءٌ منها لضعف أسانيدها، وركّة بعض متونها، فإنّ في بعضها: «أنت أخي، ووارثي، وخليفتي، وخيرُ مَنْ أُمِّر بعدي»، وهذا الحديث موضوع مخالفٌ لما ثبتَ في الصَّحيحين وغيرهما».

البصرة استخلفه على المدينةِ، وشهد سَهْلٌ مع عليٍّ معركةَ صفّين، وولاّه بلادَ فارس، ومات سهلٌ في الكوفةِ سنة (٣٨ هـ) وصلّى عليه سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه.

قد زوَّجتُكَ فاطمَة:

* مَنْ يداني سيّدنا عليّاً الفتى النّبيل ليكون صِهْر الحبيبِ المصطفى ﷺ وزوج ابنته سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها؟!

* إنَّه فتى أهلِ البيتِ وزهرتهم التي تفوحُ بالطِّيْب، إنَّه أميرُ العُلماء من الصَّحابة عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ابنُ عمّ المصطفى ﷺ وأحدُ العشرة المبشّرين بالجنَّة، ورابعُ الخلفاء الرّاشدين.

* أمَّا سيّدتنا فاطمةُ النَّبويّةُ أطهرُ الطَّاهرات، فقد وُلدتْ وقريشٌ تبني الكعبة، وذلك قبل النُّبوّة بخمس سنين، وكانت هذه الحبيبة النَّبويّةُ أصغرَ بناتِ الصَّادق المصدوق ﷺ وأحبَّهنَّ إليه(١).

* وبناتُ النَّبيِّ ﷺ أربعُ بناتٍ هُنَّ: زينبُ، ورقيَّةُ، وأمُّ كلثوم، وفاطمةُ، قال أبو عمر بنُ عبد البرِّ في «الاستيعاب»: «والذي تسكنُ إليه النَّفس(٢) علىٰ ما تواترتْ به الأخبارُ ترتيب بنات النَّبيِّ ﷺ أنَّ زينبَ الأولى، ثمَّ الثَّانية رقيّة، ثمَّ الثَّالثة أمّ كلثوم، ثمَّ الرّابعة فاطمة الزَّهراء رضي الله عنهنَّ، والله أعلم».

* وما ظنُّك فيمن نشأت في أطهرِ بيتٍ في الدّنيا، وبين أكرم أبوَيْن في دنيا الأبّوة والأمومة؟!

* نشأت فاطمةُ تعي الأحداثَ التي رافقتِ الدَّعوة المحمّديّة منذ مطلع النُّور إلى أنِ انتقلَ الحبيبُ المصطفى ﷺ إلى الرّفيق الأعلى، ولها مواقفُ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ١٥).
(٢) ذكر ابن عبد البرّ هذا القول في اختلاف الأقوال واضطرابها في صُغْرى بنات النَّبيّ ﷺ. (الاستيعاب ٤/ ٣٦٢).

ناصعةٌ سنيةٌ في رحلةِ حياتها المعطاء[1]، التي تصلح أن تكونَ قدوةً لجميع بنات حواء.

* وكما كان سيّدنا عليٌّ من السَّابقين إلى الإسلام، كانت سيّدتنا فاطمةُ الزَّهراء أسبقَ منه، فعندما نادى رسولُ اللهِ ﷺ عشيرتَه الأقربين، وأنذرهم بما أمره الله عزَّ وجلَّ، قال لفاطمةَ: «. . . يا فاطمةُ بنت رسول الله؛ سَليني بما شئتِ، لا أغني عنكِ من الله شيئاً»[2].

* وهذه الخصوصيّةُ النَّبويّةُ العظيمةُ لسيّدتنا فاطمةَ الزَّهراء معناها أنّها أعزُّ أهلِ البيتِ عليه وأحبُّ النَّاس لديه، لذلك كسبتْ سيدتنا فاطمةُ رضي الله عنها هذه الإشراقات السَّنيّة المفعمة بالأنوارِ المحمديةِ، وتلك واللهِ نعمةٌ عظمىٰ ومنّةٌ كبرىٰ يختصُّ اللهُ بها مَنْ يشاء.

* وقد هاجرت سيّدتنا فاطمةُ رضي الله عنها إلى المدينةِ المنوّرة، ولحقت بأبيها ﷺ، وكُتِبَتْ من نساء أهلِ البيتِ المهاجرات، وعاشتْ مع النَّبيّ ﷺ إلى

---

(١) لسيّدتنا الكبيرة فاطمة الزّهراء رضي الله تعالى عنها وحشَرنا في معيتها مواقفُ تستحقّ التَّسجيل لتكون تحفةً لكلِّ فتاة تؤمنُ باللهِ عزَّ وجلَّ، وكلّ أنثى تودّ الحياة الحرّة السَّليمة التي توافق شرعَ اللهِ ومنهاجَه، فقد كتَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ لسيّدتنا الزّهراء أنْ تشهدَ بعضَ الابتلاء الكريم منذ نعومة أظفارها، وتعيشَ دون أخواتها جميعهنّ مع أبيها رسولِ اللهِ ﷺ منذ أنْ بدأ الوحي يعطّر الدنيا بكلمات الله وآياته، حتّى لحق ﷺ بالرَّفيق الأعلى، فقد كانت معه وفي جواره الشَّريف لم تفارقْه حتّى بعد أن تزوجَتْ من سيّدنا عليّ رضي الله عنهما.
كانت سيّدتنا فاطمةُ الزّهراء رضي الله عنها ترى أباها ﷺ وهو يدخلُ أندية قريش داعياً ومبشّراً ونذيراً ومعلّماً. ويلقى ﷺ أذى السّفهاء، ومكرهم وكيدهم. وفي واحدةٍ من كبرى المكائدِ القرشيّةِ لأساطين الشِّرك وأحلاسِهم، رأت السَّيّدة فاطمةُ الزّهراء المشركين وقد وثبوا على أبيها ﷺ وهم يقولون له: أأنتَ الذي تقولُ كذا وكذا وتعيبُ آلهتنا؟ فيقولُ ﷺ: نعم، أنا الذي يقولُ ذلك». فتمتدُّ يدُ أبي جهل وتأخذ بمجمع رداءِ أبيها ﷺ، فيتملكها الذُّعر هنيهة، إلى أن يأتي الصّدّيقُ الأكبر أبو بكر ويقومُ دون النّبيّ ﷺ ويخاطبُهم قائلاً: «أتقتلون رجلاً أنْ يقول: ربّي اللهُ»؟!!

(٢) أخرجه مسلمٌ في الإيمان برقم (٢٠٦).

أنْ تزوَّجَتْ من سيّدنا عليٍّ بعد غزوةِ بَدْرِ الكبرىٰ في السَّنةِ الثَّانيةِ من الهجرةِ النَّبويَّةِ المباركةِ.

* وفي زواجِ سيّدتنا فاطمة من عليٍّ رضي الله عنهما رواياتٌ عديدةٌ، إلا أنَّ معظمَها مُجمعٌ علىٰ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد رغب في عليٍّ زوجاً للزَّهراء رضي الله عنهما وأرضاهما.

* وقد رغبَ في زواجِ سيّدتنا فاطمة سيّدنا أبو بكر، كما رغبَ فيها سيّدنا عمر، فاعتذرَ إليهما الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ بأنَّها صغيرةٌ لم تكملْ عقْدَها الثَّاني.

* أخرج قصَّة تزويجِ أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما النسائي في سُنَنه بسنده عن عبدِ اللهِ بن بُريدةَ عن أبيه قال: «خطبَ أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما فاطمةَ؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّها صَغيرةٌ»، فخطبَها عليٌّ فزوَّجَها منه»[1].

* ويروي لنا سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه ما جاء في زواجِهِ الميمون من سيّدتنا فاطمةَ رضي الله عنها فقال ما مُفادَهُ: «خُطِبَتْ فاطمةُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالتْ لي مولاةٌ لي: هل علمْتَ أنَّ فاطمةَ قد خُطِبَتْ إلى رسول الله ﷺ؟

قلتُ: لا واللهِ ما علمتُ بهذا الأمر.

قالت: يا سيّدي، قد علمتَ الآن، وقد خُطِبَتْ، فما يمنعكَ أنْ تأتي رسولَ اللهِ ﷺ فيزوجك.

فقلت: يا هذه، وهل عندي شيءٌ أتزوَّجُ به؟

فقالت الجاريةُ وعلامات الرّجاء ترتسمُ على وجهها: يا سيّدي إنَّك إنْ

(١) أخرجه النّسائي في النكاح (٦/ ٦٢). وقوله: «فخطبها عليّ»: أي عقب ذلك بلا مهلةٍ كما تدلّ عليه الفاء، فعلم أنّه لاحظ الصِّغَرَ بالنّظر إليهما، وما بقي ذاك بالنّظر إلى عليّ فزوّجها منه.
وفي الحديث: أنَّ الموافقةَ في السِّنّ أو المقاربة مرعية لكونها أقرب إلى المؤالفة. نعم قد يُترك ذاك لما هو أعلىٰ منه، كما في تزويج عائشة رضي الله عنها. والله تعالى أعلم.

جئْتَ رسولَ اللهِ ﷺ زوَّجك ابنته فاطمة، فأنتَ ابنُ عمِّه وربيبُه وصاحبُه وحبيبُه....

فواللهِ ما زالتِ الجاريةُ تَرجِّيني وترغّبني وتُقدّمُ وتؤخِّرُ حتّى وجدتُ شيئاً من الجرأة، فقمتُ ودخلتُ على رسول الله ﷺ، وكان لرسول اللهِ ﷺ جلالةٌ وهَيْبَةٌ يجدها كلُّ مَنْ رآه أو جالَسَه؛ فلمّا قعدتُ بين يديه أُفْحِمْتُ، وطارتِ الكلماتُ من فمي، فواللهِ لم أستطعْ أنْ أنبسَ ببنْتِ شَفَةٍ جلالةً وهيبةً.

وأدركَ رسولُ اللهِ ﷺ ما بي، فقال لي: «ما جاءَ بكَ، أَلَكَ حاجةٌ»؟

وضربَ عَليَّ الحياءُ وشاحاً، فَسَكَتُّ وأطرقتُ إلى الأرض.

فقال ﷺ في وُدٍّ هامسٍ ولطفٍ بريءٍ صافٍ: «لعلَّكَ جئْتَ تخطبُ فاطمة»

فقلت: نعم يا رسولَ اللهِ.

فقال ﷺ: «وهل عندك من شيءٍ تَسْتَحِلُّها بِهِ»؟

فقلت وقد سَرْبَلَني الحياءُ: لا، والذي بعثَكَ بالحقِّ يا رسولَ اللهِ ما عندي شيءٌ.

فقال: «ما فَعَلَتْ دِرْعٌ سَلحتُكَهَا»؟ - وكانت درعاً حُطَميّة[1] ثمنها أربع مئة درهم -.

فقلت: يا رسولَ الله، عندي الدّرع.

فقال: «قد زوّجتكها، فابعثْ إليها بها فاستحلّها بها».

وكانت هذه الدرعُ صداقَ فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ»[2].

---

(١) «حُطمية»: مِنْ حَطَم، والحَطْم: الكسْرُ في أي وجه كان، والحطميّة: دروعٌ تنْسَبُ إلى رجلٍ كان يعملها. (لسان العرب: مادة حطم). وقال الفيروز أبادي: «حُطَمَةُ بن محارب: كان يعمل الدّروع، والحُطميّات: منه، أو هي التي تكسر السّيوف، أو الثّقيلة أو العريضة» (القاموس المحيط ص ١٤١٥) مادة حطم.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٦٠) بشيء من التّصرّف. وانظر: البداية والنّهاية (٣/ ٣٤٦).

* وقد جهَّزَ الحبيبُ المصطفى ﷺ سيّدةَ نساءِ العالمين في خميلٍ، وقربة، ووسادة من جلْدٍ حشوها ليف، ورحىً، وجرَّتَيْن.

* وكان سيّدنا عليٌّ عليه سحائب الرضوان أيّام زواجه بسيّدتنا فاطمة رضي الله عنها قليلَ ذاتِ اليد، فقيراً، إذ إنَّه لما أُهديت فاطمةُ إليه لم يكنْ في بيته شيءٌ من متاع الدّنيا سوى حصيرٍ، ووسادةٍ وجرَّة، وكُوزٍ، وهناك جمعَ له الأنصارُ أصوعاً من ذُرَةٍ، وكبشاً، وأقاموا له وليمةَ عُرسٍ.

* ولمَّا كانت ليلةُ بنائِهِ بسيّدة نساءِ العالمين، قال له سيّدُ الأنبياء والمرسلين الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ: «لا تقربنَّ أهلَكَ حتَّى آتيك» فجاء الحبيبُ الأعظمُ ﷺ، فدعا بإناءٍ فيه ماء، ثمَّ مسحَ صَدْر سيّدنا عليّ ووجهه، ثمَّ دعَا سيّدتنا فاطمةَ رضي الله عنها، فقامت إليه تعثرُ في مِرْطها من الحياء، فنضحَ عليها من ذلك الماء، ثمَّ دعا لهما فقال: «اللهم باركْ فيهما، وباركْ عليهما، وباركْ لهما في بنائهما، وباركْ لهما في نسلِهما»؛ ثم قال لسيّدتنا فاطمة رضوان الله عليها: «إنّي لم آلُ ـ أقصِّرُ ـ أنْ أنحكتُك أحبَّ أهلي إليَّ»، ثمّ خرج لسيّدنا عليّ: «دونَكَ أهلَكَ» ثمَّ ولّى إلى حُجره، فما زال يدعو لهما حتّىٰ دخل حُجره.

* وجاء في «سلسلةِ الخلفاء الرَّاشدين» عن زفاف فاطمة الزّهراء ما نصّه: «قالت أسماءُ بنتُ عميس: كنْتُ في زفافِ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ، فلمّا أصبحنا، جاء النَّبيُّ ﷺ إلى الباب، فقال: «يا أمَّ أيمن؛ ادعي لي أخي».

فقالت: هو أخوك وتُنْكِحَهُ؟!!.

قال: «نعم يا أمّ أيمن».

قالت: فجاء عليّ، فنضَحَ النَّبيُّ ﷺ من الماء، ودَعَا له، ثمّ قال: «ادعي لي فاطمة».

قالت: فجاءت تعثرُ من الحياء، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «اسكتي، فقد أنكحتك أحبَّ أهل بيتي إليَّ».

قالت: ونضح النَّبيّ ﷺ من الماء، ودعا لها، قالت: ثم رجعَ رسولُ الله ﷺ، فرأى سواداً بين يديه، فقال: «مَنْ هذا»؟!

فقلتُ: أنا.

قال: «أسماء».

قلت: نعم.

قال: «جئتِ في زفافِ بنتِ رسولِ الله تكرمةً له»؟

قلت: نعم.

قالت: فدعا لي»[1].

* بارك اللهُ عزَّ وجلَّ هذا الزَّواج الميمون، وتكونتْ من الأسرةِ الهاشميّةِ الكريمةِ الذّريّةُ الطَّاهرةُ التي كان منها نَسْلُ النَّبيِّ المصطفى ﷺ وهم سادتنا: الحسنُ والحُسين، وأمُّ كلثوم وزينبُ رضي الله عنهم أجمعين، وحَشَرنا في زمرتهم، ووهبَنا لهم، ومَنَّ علينا برحمتِهِ وفضْله، ورزقَنَا محبّتهم واتّباع نهجهم ومنهاجهم.

* دخلت سيّدةُ نساءِ العالمين بيتَ الزَّوجيّة، وعاشت فيه حياةً متّصلةً ببيتِ النُّبوَّة، ولقيتْ من جهدِ العيشِ وضيقِهِ ما لاقَتْ، حتّى اشتكت يديها ممّا تلقى من الرَّحىٰ ممّا تطحن، ولكنَّ سيّدَ الزَّاهدين وإمامَ الصَّابرين سيّدنا محمّد ﷺ ربّى هذا البيتَ الفاطميَّ المجيدَ على الزُّهد والصَّبر والتَّذرّع بالذّكر،

---

(١) عليُّ بنُ أبي طالب للدكتور علي محمّد الصّلاّبي (ص ٩٨) نقلاً عن فضائل الصّحابة، طبعة دار ابن كثير الأولى بدمشق عام ٢٠٠٤ م.
أقول: «في هذا الحديث بعضُ الغلَط، وهو أنَّ السَّيّدةَ الفاضلةَ والصَّحابية الجليلةَ أسماء بنت عميس ـ راوية الحديث هاهنا ـ كانت مهاجرةً في الحبشة بصحبةِ زوجها سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وظلت حتّى سنة سبع من الهجرة، فكيف حضرت زفاف سيدتنا فاطمة سنة اثنتين من الهجرة..»؟!

فكيف كانت هذه التّربيةُ النّبويّةُ الماجدة؟ وهل نستطيعُ أنْ نستفيدَ منها الآن في هذا العصر المشحون بالمشاغل؟!

* جاء عند شيخَي الحديث النّبويّ: البخاريّ ومسلم في «صحيحهما» بسندٍ رفَعَاهُ إلى الحكَم قال: سمعتُ ابن أبي ليلى، حدّثنا عليٌّ رضي الله عنه: «أنَّ فاطمةَ اشتكت ما تلقى من الرّحى في يدها، وأتى النّبيَّ ﷺ سَبْيٌ، فانطلقَتْ فلمْ تجِدْهُ، ولقيتْ عائشةَ، فأخبرتْها، فلمَّا جاء النّبيُّ ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمةَ إليها، فجاء النّبيُّ ﷺ إلينا، وقد أخذْنَا مضاجعَنَا، فذهبْنَا نقومُ، فقال النّبيُّ ﷺ: «علىٰ مكانكما». فقعدَ بيننا حتى وجدتُ بَرْدَ قدمِهِ على صَدْري، ثمَّ قال: «ألا أعلّمُكُما خيراً ممّا سَأَلْتُكما؟ إذا أخذتُما مضاجعكما، أنْ تكبّرا اللهَ أربعاً وثلاثين، وتسبّحاه ثلاثاً وثلاثين وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم»(١).

---

(١) أخرجه الشّيخان؛ البخاري في فضائل الصّحابة برقم (٣٧٠٥)؛ ومسلم في الذّكر والدُّعاء برقم (٢٧٢٧)، واللفظ له. وفي روايةٍ أنَّه زادَ في هذا الحديث: «قال عليٌّ: ما تركتُه ـ أو ما تركتهنَّ ـ منذ سمعتُه ـ أو سمعتهنَّ ـ من النَّبيِّ ﷺ، قيل له: ولا ليلةَ صفّين؟ قال: ولا ليلة صفّين».
ومعناه: لم يمنعْني منهنَّ ذلك الأمرُ والشّغلُ الذي كنتُ فيه حتّى ليلة حرب صفّين. وصفّين: موضعٌ بقرب نَهر الفُرات؛ أو بلد معروف بين العراق والشّام.
وفي هذا الحديث حجّةٌ لمن فضّل الفَقْر على الغنى لقوله: «ألا أعلّمكما خيراً ممّا سألتما» فلو كان الغنىٰ أفضل من الفَقْر لأعطاهما الخادم، وعلّمهما الذّكر، فلمّا منعهما الخادم وقصرهما على الذّكر، عُلِمَ أنَّه إنّما اختار لهما الأفضل عند الله عزَّ وجلَّ.
قال ابنُ حجر رحمه الله: «وهذا إنّما يتمّ أنْ لو كان عنده ﷺ من الخدّام فضلة، وقد صرّح في الخبر أنَّه كان محتاجاً إلى بيع ذلك الرّقيق لنفقته على أهل الصّفّة، ومن ثمَّ قال عياض: لا وَجْه لمن استدلَّ به على أنَّ الفقيرَ أفضلُ من الغني، وقد اختُلِفَ في معنى الخيريّة في الخبر فقال عياض: ظاهرهُ أنه أرادَ أنْ يعلّمها أنَّ عملَ الآخرة أفضلُ من أمور الدّنيا على كلِّ حال، وإنما اقتصرَ على ذلك لما لم يمكنه إعطاء الخادم، ثمّ علّمهما إذا فاتهما ما طلباه ذكراً يحصل لهما أجراً ممّا سألاه. وقال القُرطبي: إنّما أحالهما على الذّكر ليكون عوضاً عن الدّعاء عند الحاجة، أو لكونه أحبّ لابنته ما أحبّ لنفسه من إيثار الفقر وتحمل شدته بالصّبر عليه تعظيماً لأجرها.
وقال المُهلب: علّمَ ﷺ ابنته من الذّكر ما هو أكثرُ نفعاً لها في الآخرة، وآثر أهل الصّفّة لأنّهم=

* وكانت سيّدتنا فاطمةُ وسيّدنا عليٌّ رضي الله عنهما مثالَ تطبيقِ الأوامر المحمّديّة، لا يحيدان عنها ولا يريمان، يطْلُبان بذلك طاعة الرّحمن، وجنَّة الرِّضْوان، ولله درُّ مَنْ قال عنهما مادحاً ومنوّهاً بفضائل أهل البيتِ الطَّاهر؛ ومشيراً إلى عبادتهما:

مَنْ مثلُ فاطمة البتولِ وبَعْلها ... أعني عليّاً سيّد الفرسانِ
نالا من المختارِ أعلى رتبة ... فلأَجْلِ ذا فَاقَا على الأقرانِ
تركَا فراشَهما وقَامَا في الدّجى ... يتلذّذان بطاعةِ الرّحمنِ
قد آثَرا الأخرى على الدُّنيا وما ... فيها من العيشِ اليسيرِ الفاني
واللهُ قد باهىٰ ملائكةَ السَّما ... بهما وخصَّهما بكلِّ أمَانِ
هم آلُ بيتِ المصطفى والعروةُ الـ ... وثقى لمن يبغي سَنَا الإيمانِ
ماذا يقولُ المادحون لوصفِهم ... ومديحُهم قد جاء في الفُرقان
يا فوزَ مَنْ أضحى به متمسّكاً ... وغدا له نورٌ من المنَّانِ
هم آلَ طه الطَّاهرون ومَنْ لهم ... شأنٌ عظيم يا له من شأنِ
قامُوا وصامُوا في الهواجِرِ والدُّجى ... وترنّموا في الليلِ بِالقُرآن
هم آلُ بيت المصطفى عَلَم الهدى ... خير الورى المبعوث من عدنانِ(١)

* يميناً لَنِعْمَ السَّيّدان العظيمان عليٌّ وفاطمةُ كانا، فقد أَثْبتا أنهما عند حُسْن ظنِّ الصَّادقِ المشفّع رسولِ الله ﷺ، وتقبَّلا التَّعليمَ النَّبويَّ، وأخذا يذكران اللهَ بكرةً وعشياً، وقنعت سيّدتنا فاطمةُ الزّهراء رضي الله عنها بالكفاف من العَيْش، والزُّهد في زخرف الدُّنيا وصخبها وسفسافها.

= كانوا وقفوا أنفسهم لسماع العِلْم وضبط السُّنَّة على شِبَعِ بطونهم لا يرغبون في كسب مال ولا في عيال، ولكنهم اشتروا أنفسهم من الله بالقوت». (فتح الباري ١١/ ١٢٨).

(١) الرَّوض الفائق (ص ٢١٧ و ٢١٨) بانتقاء واختيار. ولله درُّ مَنْ قال في سيدتنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها:

مَنْ مثلُ فاطمةَ الزّهراء في نَسَبِ ... وفي فخارٍ وفي فَضْلٍ وفي حَسَبِ
واللهُ فضّلها حقّاً وشرّفها ... إذ كانت ابنة خيرِ العجم والعَربِ

* «أفهكذا بناتُ الأنبياء وزوجات الأصفياء؟! نعم، فهنَّ قدوةُ النَّاس، وحياتُهنّ فيها الأسوةُ للفقير، والموعظةُ للغنيّ، ومِنْ عندهنّ تخرجُ أنوارُ القرآنِ الكريم، وعلى أيديهنَّ يتلقَّى النَّاسُ فنَّ الصَّبر والفداء، والقناعة والرّضا، والطَّاعة والنّقاء»[١].

* ومن ألوان التّربيةِ المحمّديّةِ لهذه الأسرة: الطَّاعةُ المتوّجةُ بسيّدتنا فاطمة الزّهراء رضي الله عنها، إذْ نرى أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يوجِّهُ ابنتَه وصهرَهُ إلى معالي الأمورِ ومكارمها، فإذا ما طرأَ أمرٌ عارضٌ في هذهِ الأسرةِ، سارع بنفسِهِ الشَّريفة لإزالةِ الغَبَشِ وتلطيفِ الأجواء وتصفيةِ الحياةِ الزَّوجيّةِ وتنقيتِها ممَّا قد يعتريها من شوائبَ قد تحدثُ بين أي زوجَيْن.

* فقد أخرجَ مسلمٌ رحمه الله بسنده عن سهلِ بنِ سعد رضي الله عنه من حديثٍ طويل منه: «. . . جاء رسولُ اللهِ ﷺ بيتَ فاطمة، فلم يجدْ عليّاً في البيت، فقال: «أينَ ابنُ عمِّك»؟

فقالت: كان بيني وبينه شيءٌ، فغاضَبَني فخرجَ، فلم يَقِلْ عندي.

فقال رسولُ الله ﷺ لإنسان: «انظرْ أين هو».

فجاء فقال: يا رسولَ الله؛ هو في المسجدِ راقدٌ؛ فجاءه رسولُ الله ﷺ وهو مضطجعٌ، قد سقط رداؤه عن شقِّه، فأصابه ترابٌ، فجعل رسولُ الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: «قُمْ أبا التُّراب، قُمْ أبا التّراب»[٢].

* وعند البخاريّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمَّاه أبا تراب، وما كان له اسم أحبّ إليه منه، ونَصّ الحديث عند البخاريّ بالسَّند نفسه عن سهلِ بنِ سعد قال: «دخل عليٌّ على فاطمة، ثمَّ خرج فاضطجعَ في المسجد؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «أينَ ابنُ عمِّك»؟

---

(١) الخلفاء الرَّاشدون لعبد السّتار الشَّيخ (ص ٤٥٨) بشيء من التّصرف والتّصحيح.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٠٩). ومعنى «يقل»: من القيلولة النَّوم نصف النَّهار.

قالت: في المسجد.

فخرجَ إليه فوجدَ رداءَهُ قد سقَطَ عن ظَهْرِه، وخَلَصَ التُّراب إلى ظهره، فجعلَ يمسحُ التُّراب عن ظهرِهِ فيقول: «اجلسْ يا أبا تُرَاب. مرّتَيْن»[(١)].

* حقّاً إنَّه لموقفٌ محمّديٌ يأسرُ القلوبَ التي في الصُّدور، ويجعلُ الألبابَ مندهشةً لتربيتِهِ السَّاحرة، فرسولُ الله ﷺ يمسحُ برفقٍ باهرٍ بيديه الشَّريفَتَيْن التُّرابَ عن جسم ابنِ عمِّه وصهرِهِ الأثير، ويناغيهِ بكلمةٍ عذبةٍ رقيقةٍ رقة فجرٍ ربيعيٍّ مندّى بأنداء الذِّكْرِ والتَّسبيح فيقول: «اجلسْ يا أبا تراب» أو «قُم يا أبا تراب» وأيّ كلمة كانت أعذب عند سيّدنا عليّ من هذه الكلمة، فقد كانت تلذُّ لها نفسُهُ وتشتهيها روحُه كلّما تذكّرَها أو ناداهُ أحدٌ بها، إذ إنَّها كنيةٌ مباركةٌ نطَقَها رسولُ الله ﷺ وشرَّفَ بها عليّاً ورفَعَ قَدْرَهُ ومقداره بين رجالِ أهلِ البيتِ الأطهار، وبين الصَّحابة الأخيار، ممّا جعل عليّاً يتلاشى في حُبِّ

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصَّحابة برقم (٣٧٠٣). وفي الحديث: جوازُ النّومِ في المسجد؛ واستحبابُ ملاطفةِ الغضبان، وممازحتُه، والمشيُ إليه لاسترضائه.
أقول: «وفي الحديث أيضاً: مكانةُ سيّدنا عليّ رضي الله عنه عند الحبيبِ الأعظم رسولِ الله ﷺ، إذْ إنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ ذهبَ إلى حيثُ يقيلُ في المسجد، ولاطفَه، ومسحَ عنه التُّراب، وعرفَ حالَه، وهذا مِنْ فضائل سيّدنا عليّ رضي الله عنه».
وقال أبو منصور الثَّعالبي: «فضائلُ عليّ: يُضْرَبُ بها المثَلُ في الكثرة، كما قال محمّد بنُ مكرَم لأبي عليّ البصير: فضولُك واللهِ أكثرُ من فضائلِ عليّ.
وقال الجاحظُ: لا يُعلم رجلٌ في الأرض متى ذكر السَّبق في الإسلام والتقدّم فيه، ومتى ذُكِرَ الزُّهد في الأموال التي تتناجز النّاس عليها، ومتى ذُكِرَ الإعطاء في الماعون، كان مذكوراً في هذه الخلالِ كلّها، إلا عليّ رضي الله عنه». (ثمار القلوب ص ٨٧).
وقال ابنُ حجر رحمه الله في «الفتح»: «لم يَرِدْ في حقّ أحدٍ من الصَّحابة بالأسانيد الجياد أكثر ممّا جاء في عليّ، وكأنَّ السَّبَبَ في ذلك أنَّه تأخّر، ووقع الاختلاف في زمانه، وخروجُ مَنْ خَرَجَ عليه، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة مَنْ كان بينها من الصَّحابة رداً على مَنْ خالفه، فكان النّاسُ طائفتَيْن، لكنّ المبتدعة قليلة جداً». (فتح الباري ٧/ ٨٨).
وللمزيد من تكْنِيةِ عليّ رضي الله عنه بأبي تُرابٍ انظر: «الاستيعاب» (٣/ ٥٤ و٥٥).

النَّبيِّ ﷺ[١]، ويجدُ في محبّته بَرْدَ الشَّراب على الأكباد الحِرَار، لأنَّ هذه الكنيةَ المباركةَ أحَلَّتْه مكاناً عليّاً بين مَنْ كَنَّاهم الحبيبُ المصطفى ﷺ، ومنهم: أبو هُريرة رضي الله عنه[٢]؛ وقد عَقَدَ العُلماء والفُقهاء فُصولًا في مصنّفاتهم بجوازِ تكنية الرّجل بأبي فُلان أو أبي فلانة[٣].

---

(١) قال الثَّعالبي في «ثمار القلوب». «يُروىٰ أنَّ عليّاً رضي الله عنه سأله سائل؛ فقال: كيف كان حبّكم لرسولِ الله ﷺ؟
فقال: كان واللهِ أحبَّ إلينا منْ أموالنا، وآبائنا، وأمهاتنا، ومن أبنائنا، ومن بَرْدِ الشَّراب على الظّمأ» (ثمار القلوب ص ٦١٧).
أقول: «امتلأت صدورُ الصَّفحات وبطونُ المصادر بأخبار محبّة الصَّحابة الكرام للنّبيّ ﷺ، إذ كانوا يتسابقون لمرضاته والفوز بمحبته سِباقاً لم يعرفْه التّاريخ لأحد غيره، حتّى إنّ أعداءه شهدوا له بهذه الميزة الكريمة».

(٢) ثَبتَ بالأحاديثِ الصَّحيحةِ في الصَّحيح وغيره تكنية النَّبيّ ﷺ أبا هريرة بأبي هريرة. وقد بارك اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه الكنيةِ النَّبويّةِ الميمونةِ، فانظرْ ـ صديقي القارئ ـ إلى هذه الكنيةِ اللطيفةِ كم نسمعها كلّ يوم، وكم تُقرأ في الكتب كلّ يوم، بل كم يسمعها طلبةُ العِلْم في أصقاعِ الأرض في كلّ يومٍ في الليل أو النَّهار، وكم من طفلٍ صغير يشبُّ وهو يسمعُ بأبي هريرة ويتلذّذ بإعادة اسمه ويحبّه ويحبُّ مَنْ كنّاه بذلك، وهذا جميعُه من فضل الله عزَّ وجلَّ، فاللهم احشرنا في معيّةِ أبي تُراب، وأبي هُريرة، واعفُ عنّا اللهم بفضلكَ وكرمك إنَّك سميعٌ مجيبٌ.

(٣) قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله في هذا المجال: «اعلمْ أنَّ هذا كلَّه لا حَجْرَ فيه، وقد تكنّى جماعاتٌ من أفاضل سلفِ الأمّةِ من الصَّحابة والتَّابعين فمَنْ بعدهم بأبي فلانة، فمنهم عثمانُ بنُ عفَّان رضي الله عنه له ثلاثُ كُنَى: أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى، ومنهم أبو الدّرداء وزوجته أمّ الدرداء الكبرىٰ صحابية اسمها خيرة، وزوجته الأخرىٰ أم الدرداء الصُّغرى اسمُها هُجَيْمة، وكانت جليلةَ القدر، فقهيةً فاضلةً موصوفةً بالعقلِ الوافر والفضلِ الباهر وهي تابعيةٌ. ومنهم أبو ليلى والدُ عبد الرحمن بن أبي ليلى، وزوجته أمّ ليلى، وأبو ليلى وزوجته صحابيان. ومنهم أبو أمامة وجماعاتٌ من الصَّحابة، ومنهم أبو رَيْحانة، وأبو رَمْثة، وأبو ريمة، وأبو عَمرة بشير بن عمرو وأبو فاطمة الليثيّ، وأبو مريم الأزدي، وأبو رقيّة تميم الدّاري، وأبو كريمة المقدام بن معد يكرب، وهؤلاء كلُّهم صحابة رضي الله عنهم أجمعين. ومن التّابعين: أبو عائشة مسروق الأجدع، وخلائق لا يُحصون» (الأذكار ص ٣٣٠) طبعة دار ابن كثير السَّابعة لعام ١٩٩٧ م. =

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يعرفُ لسيّدتنا فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها مكانتَها، وعظمَ منزلتها عند النَّبيِّ ﷺ، فلم يكنْ يفعلُ ما يؤذيها أو ما يريبها.

* وكان مقامُ سيّدتنا فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها مقاماً كبيراً عند اللهِ عزَّ وجلَّ، فهي الزَّهراءُ البتولُ، وهي بضعةُ الرَّسولِ ﷺ سيِّدِ وَلَد آدم، وهي أيضاً سيّدة نساء العالمين، أكرمها اللهُ عزَّ وجلَّ من بين بناتِ النَّبيِّ ﷺ لتكونَ الذُّريَّةُ الطَّاهرةُ منها، وقد ولدت الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما وهما سيّدا شبابِ أهلِ الجنّة، ومنهما يمتدُّ النَّسْلُ الشَّريف، وإليهما يرجعُ الحسبُ الرَّفيعُ، فلا عجبَ إذا علمنا أنَّ لها خصيصةً باهرةً تجعل الزَّواج عليها غير منطقي ولا متوقّع، وهذه الأمور كلُّها اجتمعتْ في فؤادِ النَّبيّ ﷺ، فزادتْ في محبّتها، وأصبحَ قلبُهُ الشَّريفُ يفيضُ عطفاً عليها، يؤذيه ما يؤذيها، فلقد أراد سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أنْ يتزوَّج من بني هشام بن المغيرة، فغضبَ الحبيبُ المصطفى ﷺ لأنَّ حياةَ الزَّهراء ستغدو غير صافية، وسيؤذيها ذلك الأمر.

* جاء هذا في الصَّحيحِ وغيره، فقد أخرجَ البخاريُّ بسنده عن المِسْورِ بن مخرمة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ وهو على المنبر: «إنَّ بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أنْ ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذنُ، ثمَّ لا آذن، ثمّ لا آذن، إلا أنْ يريدَ ابنُ أبي طالب أنْ يطلِّقَ ابنتي وينكحَ ابنتهم، فإنَّما هي بَضْعةٌ منّي يُريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها»(١).

= ومن الجدير بالذِّكر أنَّ أبا لهبٍ واسمه عبد العزّى قد ذكره اللهُ عزَّ وجلَّ بكنيته لأنَّه يُعرفُ بها: وقيل: كراهةً لاسمه حيث جُعِلَ عبداً للصَّنم. وجاء أنَّ النَّبيَّ ﷺ كتبَ «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى هرقل» (البخاري برقم ٢٩٤٠، مسلم برقم ١٧٧٣)، فسمّاه باسمه ولم يكنّه ولا لقبه بلقب ملك الروم وهو قيصر، ونظائر هذا كثيرة، وقد أمرنا بالإغلاظ عليهم، فلا ينبغي أنْ نكنيهم ولا نرققَ لهم عبارة، ولا نلينَ لهم قولًا، ولا نظهرَ لهم ودّاً، ولا مؤالفةً.

(١) أخرجه البخاري في النّكاح برقم (٥٢٣٠). وقوله «بضعةٌ منّي»: قطعةٌ منّي. والسّببُ في أنّها بضعةٌ منه ﷺ أنّها كانت أصيبتْ بأمّها، ثمّ بأخواتها واحدة بعد واحدة، فلم يبقَ لها من تستأنس=

* وتؤكّد المصادرُ بالإجماع أنَّ سيّدنا عليّاً رضوان الله عليه ترك الخِطْبَةَ، ولم يقدمْ على أمْرٍ يكرهُهُ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ، وخصوصاً إذا كان هذا الأمر ممَّا يزعجُ سيّدتنا فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها، لأنَّ إيذاءهَا إيذاءٌ لحبيبنا رسولِ الله ﷺ. وتعالوا نستروح الآن بهذه الكافيةِ البديعةِ في مديحِ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها:

لا وربّـــي وربِّ طـــه أبيـــكِ ... لا يطيْـــبُ المـــديـــحُ إلَّا فيـــكِ
بضْعَةُ المُصْطَفى وللجزءِ حُكْمُ الـ ... ـكُـلِّ يـرضيـهِ كـلُّ مـا يـرضيـكِ
فلـذةٌ منه فـي المشَاعـر والإحسا ... س يـؤذيـه كُـلُّ مـا يـؤذيـكِ
إنْ بـدتْ مسحـةٌ مِنَ الحزن يـوماً ... فـي محيّـاك شُـوهـدت فـي أبيـك
أنـــتِ ريحـــانـــةُ النَّبـــي إذا مـــا ... شمَّهـــا سُـــرَّ كيـــفَ لا يُـــدنيـــكِ
حينمـــا تُقْبليـــنَ ينهـــضُ مَسْـــرور ... اً ومـــن بَحْـــرِ عطفِـــهِ يـــرويـــكِ
رتبـــةٌ دونَهـــا المـــراتـــبُ فـــي القُـــر ... ب وفَضْـــلٌ مـــن الإلـــهِ المليـــكِ
لـــو أحبّـــوا أبـــاكِ حقّـــاً أحبـــو ... كِ ويَقْليـــه كـــلُّ مَـــنْ يقلـــوكِ

= به ممّن يخفّف عليها الأمر ممّن تفضي إليه بسرّها إذا حصلَتْ لها الغيرة.

وفي الحديث: تحريمُ أذى مَنْ يتأذّى النبيّ ﷺ بتأذّيه، لأنَّ أذى النَّبيِّ ﷺ حرامٌ اتّفاقاً قليلهُ وكثيرهُ، وقد جزمَ بأنَّه يؤذيه ما يؤذي فاطمة، فكلُّ مَنْ وقعَ منه في حقّ فاطمة شيء فتأذّتْ به فهو يؤذي النَّبيّ ﷺ بشهادة هذا الخبر الصَّحيح. وفيه أنَّ الغَيْراءَ إذا خُشِيَ عليها أنْ تُفتَنَ في دينها كان لوليها أنْ يسعى في إزالةِ ذلك. ويؤخذُ من الحديث إكرامُ مَنْ ينتسبُ إلى الخيرِ أو الشَّرف أو الدّيانة.

قال ابنُ حجر في شأنِ مكانة سيّدتنا فاطمةَ وخصوصيّتها: «والذي يظهرُ لي أنّه لا يبعدُ أنْ يُعدَّ في خصائص النَّبيِّ ﷺ أنْ لا يُتَزوَّجَ على بناته، ويُحتملُ أنْ يكونَ ذلك خاصّاً بفاطمةَ رضي الله عنه» (فتح الباري ٩/ ٢٤٠).

أقول: «إنَّ أمّنا سيّدتنا خديجةَ بنتَ خُويلد رضي الله عنها وأرضاها اختصّها اللهُ عزَّ وجلَّ بأنْ تكونَ زوجةً وحيدةً للنّبيّ ﷺ طيلةَ حياتها، فلم يعدّدْ عليها ﷺ إلا بعد وفاتِها، وهذه الخصوصيّة تنسحبُ على ابنتها الزّهراء، ولله درُّ مَنْ قال:

عنـــــد البتـــــولِ وأمّهـــــا ... يقـــفُ التّعـــدّدُ يـــا جَهُـــول».

أنتِ كالبحرِ في العطاء وأولا ... دُك كالدُّرِّ مالئاً شاطيكِ
قد دعا المُصطفى بأن يُخرِجَ الـ ... ـلّهُ كثيراً من نَسْلِك المبروك[1]

* إنَّ خصائصَ سيّدتنا فاطمةَ الزَّهراء وخصائصَ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنهما لا تدخل تحتَ حَصْرٍ، فهذان العَلَمان البارزان تعلَّما مِنَ النَّبيِّ ﷺ منذ أنْ رأيا النّور، وترعرعا في أحضانِ النُّبوَّة، ونَعِمَا بأنداءِ الوحي الذي كان يتنزَّلُ بالقرآن نديّاً على الحبيبِ المصطفى ﷺ، وقد وصفهما اللهُ عزَّ وجلَّ بأكرمِ الأوصاف، إذ هُما من سادة أهلِ البيتِ الأطهار، ولمَّا وصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ الأبرار، ذكرَ علياً وفاطمة وأمثالهما بأنَّهم منهم فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٧ ـ ٩].

* غير أنَّ بعضَ أهلِ الأخبار، وبعض المفسّرين الذين نقلوا عنهم قالوا بأنَّ هذه الآيات الكريمة قد نزلت في حقِّ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه وحقِّ سيّدتنا فاطمة رضي الله عنها، وهذا لا مانع فيه، ولكنَّ بعضَهم شرَّقَ وغرَّبَ وأَتْهَمَ وأَنْجَد؛ وجاءَ بما يضحكُ الثَّواكل، فاختلقوا بعضَ الأشعارِ العَرجاء، والأرجاز العوراء، ومن ثَمَّ نسبوها إلى أفصح الصَّحابة من أهلِ البيت الأخيارِ الأبرارِ سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كما نسبوا زُوراً وبُهتاناً أشعاراً لا تمتُّ إلى الشِّعْرِ بِصلَةٍ، وألصقوها بأفصحِ نساءِ أهلِ البيتِ وأبلغِهنَّ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها وأرضاها، زاعمين بذلك أنَّ مثلَ هذه الأباطيل والأشعار المكسورة المصابة بالشلل، وبشتى أنواع العِلل، تزيدُ من رصيدِ هذين العلَمين الطَّاهرين من أفراد أهلِ البيتِ النَّبويِّ المبجَّل.

* وأنا أحبُّ أنْ أقولَ: «متى كان سيّدنا عليٌّ وسيّدتنا فاطمة يحتاجانِ إلى مثْلِ هذا الرَّصيد المزيّف؟ وإلى بعض أشعار يخجلُ منها العَوام فضْلاً عن أهلِ اللسنِ والبلاغة! وما دام سيّدنا عليٌّ من المقطوعِ لهم بالجنَّةِ، وسيّدتنا فاطمة

(١) إنَّها فاطمةُ الزَّهراء (ص ٣٤٨) بشيء من التَّصرُّف والاختيار.

أيضاً من سيّدات أهلِ الجنَّة، فَهل تزيدُ هذه الأحاديثُ والأسمارُ والأخبارُ المُفتعلةُ من مكانةِ هذَيْن السَّيِّدين العظيمين»؟

* في الفقرة الآتية نعرضُ لبعضِ هذه الأشياء المزيفة، والأحاديثِ الموضوعةِ في حقِّ سيّدنا عليٍّ وسيّدتنا فاطمة لنكون على بصيرةٍ من الأمر، ولنعرف مكانة أهلِ البيتِ الصَّحيحة.

قصَصٌ مصنوعةٌ وأخبارٌ موضوعةٌ:

* محبّتُنا لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه ولأهلِ البيتِ الأطهار محبَّةٌ لا تنقَضي بسلوةٍ تبطلُها، كأنّها دائرةٌ آخرها أوّلُها، وهذه المحبّةُ لا تسعُها السُّطور، ولا نستطيعُ ـ مهما أُوتينا مِنْ بلاغةٍ ـ أنْ نرسمَ مافي الصُّدور، فنحن نحبُّ سيّدنا عليّاً وسائر الصَّحابة كما أمرنا بذلك النَّبيّ ﷺ.

* إنَّه ليس من المحبّةِ أنْ أنسبَ بعضَ الأخبار والحكاياتِ إلى عالِمِ أهلِ البيتِ وبطلِهم سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه، وأحشوَ في هذه الأخبار الأوهامَ والخرافاتِ لأزيدَ من تألّق شخصيّة عليٍّ أو فاطمةَ رضي الله عنهما فكلاهما مُعرقٌ في المعالي والفضائل، وليس في حاجةٍ لأن أصوغَ الحكاياتِ والأقاصيصَ المعتوهةَ وألصقَها في موقفٍ من مواقفِ حياته، ليزدادَ عظمةً في النُّفوس ومكانةً في القلوب، وخصوصاً إذا كان الخبر زائفاً ظاهر الاختلاقِ لا يُسْمِنُ ولا يُغني من ثقافة أو علم؛ بل واللهِ يسيءُ إلى سيدنا علي إساءة واضحة فمكانة سيدنا علي في محل أرفع:

مَنْ كان فوقَ محلِّ الشَّمْس موضعُه ... فليسَ يرفَعُه شيءٌ ولا يضَعُ

* والشَّمسُ لا يُنْزِلُ من قدرها شيءٌ إذا كان لها دون فَلَك زُحَلَ مقام، فالبيتُ بأهله، والغِمدُ بنصله، والثّوبُ بلابسه، والجوادُ بفارسه.

* فسيّدنا عليٌّ رضي الله عنه سيِّد مُسَوّد، متألّقٌ في سماءِ الفضائل، وهو من السَّادة الأطهار الذين جاء مدحُهم في القرآن، وهل بعد المدحِ القُرآنيّ من مدح؟!

* فنحنُ نحبُّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه محبّةً متميزةً كما علّمنا سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ أنْ نحبّه ونعرفَ مقامَه في كثيرٍ من الأحاديث النّبويةِ الجليلةِ التي جاءت تحكي فضْلَه، وتنوّه بمحلّه، وتشيرُ إلى مكانته، فالسّيفُ الصَّقيلُ لا يزدادُ رهافةً إذا مُسِحَ بقطعةِ قماش، ونحنُ لا نُعجبُ بالأخبار الواهية التي يظنُّ ناسجوها بأنهم أحسنوا صنعاً بها مع سيّدنا عليّ . .

* ومن الأخبار الزَّائفةِ المصنوعةِ التي تشهدُ أحوالُها عليها لا لها، قصّة مرض حَفِيْدَي سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ الحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما، وكيف عادهما كبراءُ النّاس، ثمَّ تناشدَ عليٌّ وفاطمةُ من الأشعارِ الهزيلةِ ما يجعلُ القلب عليلاً، والإحساس هزيلاً.

* ومما يدعو إلىٰ العجب أنَّ هذه القصَّةَ مع الأشعار الفاسدة قد تصدَّرتْ بعضَ التّفاسير لسورةِ «الإنسان»، كما تكوَّرَتْ في بطون بعضِ كتُب المُسامرات والمناقب، وقد ذكرَها بعضُهم بشيءِ من الفخرِ والاعتزازِ وزيادةِ الكرامات الجليّةِ لبطلِ أهلِ البيتِ وفارسِ رجالهم سيّدنا عليٍّ وزوجه فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنهما وأرضاهما.

* نحن لا ننكرُ أنَّ بعضَ العُلماء والفُقهاء والمفسّرين قد سَخِروا من القصَّة، وأبانوا زيفَها ومنهم: الرَّازي، والقُرطبي، وأبو حيَّان الأندلسيّ، ومن المعاصرين الدّكتور وهبة الزُّحيلي في «التّفسير المُنير» فجزاهمُ اللهُ خيراً عن المسلمين عامة، وعن محبّي سادتنا الأشراف الأطهار أهل البيت الأخيار رضي الله عنهم أجمعين، وحشَرنا في معيتهم.

* وممَّنْ تصدّى لِبَيانِ حقيقة بعض هذه الأخبار والقصص والأسمار الإمامُ السّيوطيُّ رحمه الله في كتابه الشَّهير «اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة»، إذ أوردَ حديثاً عن الأصبغ بنِ نباتة قال: «مرضَ الحسنُ والحسينُ فعادهما رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر وعمرُ، فقال عمرُ لعليٍّ: انذرْ إنْ عافى اللهُ ولدَيْكَ أنْ تُحدِثَ للهِ شكراً.

فقال عليٌّ: إنْ عافى اللهُ ولديَّ صمْتُ للهِ ثلاثة أيّام شكراً.

وقالت فاطمةُ مثل ذلك.

وقالت جاريةٌ لهم مثل ذلك.

فأصبحوا قد مسحَ اللهُ ما بالغلامَيْن، فهم صيامٌ وليس عندهم قليلٌ ولا كثيرٌ؛ فانطلقَ عليٌّ إلى رجلٍ من اليهود فقال: سَلِّفْنِي ثلاثةَ آصُعٍ من شعير، وأعطني جزّةَ صُوفٍ تغزلُها لك بنتُ محمّد!!!

فأعطاهُ، فاحتمله عليٌّ تحتَ ثوبه، ودخلَ على فاطمةَ، وقال: دونكِ فاغزلي هذا.

وقامتِ الجاريةُ إلى صاع من الشَّعير فطحنته وعجنته، فخبزتْ منه خمسةَ أقراص، وصلّى عليٌّ المغربَ مع النَّبيِّ ﷺ، ورجعَ فوضعَ الطَّعام بين يديه، وقعدوا ليفطروا، وإذا مسكينٌ بالباب يقول: يا أهلَ بيتِ محمّد! مسكينٌ من مساكين المسلمين على بابكم، أطعموني مما تأكلون أطعمكم اللهُ على موائد الجنّة!!

فرفع عليٌّ يده وأنشأَ يقول:

يا فاطم ذات السَّداد واليقين ... أمَا تَريْن البائسَ المسكين
قد جاءَ إلى الباب له حنين ... يشكو إلى اللهِ ويستكين
حرمت الجنّة على الضَّنين ... تهوي إلى النَّار إلى سجين

فأجابته فاطمةُ:

أمرك يا بن عمّ سمع وطاعة ... مالي من لومٍ ولا وضَاعه
فادفعوا الطّعام إلى المسكين ... أرجو إن أطعمتُ من مجاعه

قال المؤلّف: وذكرَ حديثاً طويلاً من هذا الجنْس في كلِّ يوم ينشدُ أبياتاً، وتجيبُه فاطمةُ بمثلها من أذلِّ الشِّعر وأفسده، وفي آخره أنَّ النَّبيَّ ﷺ عَلِمَ ذلك فقال: اللهم أنزلْ على آلِ محمّد كما أنزلتَ على مريمَ، ثم قال: ادخلْ

مخدعك، فدخلتُ فإذا جفنةٌ تفورُ مملوءة ثريداً وعُراقاً مكللة بالجوهر، وذكر من هذا الجنْس؛ موضوع: أصبغُ لا يساوي شيئاً، والكوفيّ والسّمرقنديُّ ضعيفان»[1].

* قال السُّيوطيُّ: «قلتُ: قال الحكيم التّرمذيّ في «نوادر الأصول»: ومن الحديث الذي تنكرهُ القُلوب، حديثٌ رواه ليثٌ عن مجاهد عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ثمّ قال: مرضَ الحسنُ والحسينُ فعادهما رسولُ الله ﷺ، وعادهما عمومُ العرب؛ فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرتَ على ولديك نذراً، وكلّ نذرٍ ليس له وفاء فليس بشيء.

فقال عليٌّ: إنْ برىءَ ولديَّ صمْتُ ثلاثةَ أيامٍ شكراً لله.

وقالت ثُويبةُ جارية لهم: إنْ برأَ ولدا سيّدي صمْتُ ثلاثة أيام شكراً.

فأُلبِس الغلامان العافية وليس عند آل محمّد قليل ولا كثير، فانطلقَ عليٌّ إلى شمعون بن جابر الخَيبريّ وكان يهوديّاً، فاستقرضَ منه ثلاثة أصوعٍ من شعير، فجاء بها، فوضعها ناحية البيت، فقامت فاطمةُ إلى صاع فطحنته، وصلّى عليٌّ مع النّبيّ ﷺ ثمَّ أتى المنزلَ، فوضع الطَّعام بين يديه، إذ أتاهم مسكين، فوقفَ بالباب فقال: السّلام عليكم أهل محمّد، أطعموني أطعمكم الله على موائد الجنّة، فسمعه عليٌّ، فأنشأ يقول:

أفاطم ذات السَّداد واليقين ... يا بنةَ خير النَّاس أجمعين
أمَا تَرينَ البائسَ المسكين ... قد قامَ بالبابِ له حنين
يشكو إلى اللهِ ويستكين ... يشكو إلينا جائعٌ حزين

كلُّ امرىء بكسبهِ رهين

---

(١) اللالئ المصنوعة (١/ ٣٧١). و«الكوفي» هو محمّد بن كثير الكوفيّ. و«السَّمرقندي» هو أبو عبد الله السَّمرقندي». والكوفيّ والسّمرقنديّ ممّن روى هذه المصيبة في هذا الخبر.

فأنشأتْ فاطمةُ تقول:

أمـرك يـا بـنَ عـمّ سمـع وطـاعـه ــ مـا بـي مـن لـؤمٍ ولا وضـاعـه
غـدوت فـالخيـرُ لنـا صنـاعـه ــ سـامعـه أنيـن هـذا سـاعـه
أرجـو إذا شبعـت مـن مجـاعـه ــ أنْ ألحـقَ الأبـرارَ والجمـاعـه
وأدخل الجنَّة بالشَّفاعه

فأعطوه الطَّعامَ، ومكثوا يومَهم وليلتهم ولم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح.

فلمّا كان اليومُ الثَّاني، قامت إلى صاعٍ فطحنتّه، واختبزته، وصلى عليٌّ مع النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ أتى المنزلَ، فوضع الطَّعامَ بين أيديهم، فوقفَ بالبابِ يتيم فقال: السَّلام عليكم أهلَ بيت محمد، يتيم من أولاد المهاجرين، استشهد والدي يوم العقَبة!!! أطعموني أطعمكم اللهُ على موائد الجنَّة، فسمعه عليٌّ فأنشأ يقول:

فـاطـم بنـت السّيّـد الكـريـم ــ بنـت نبـي ليـس بـالـذَّميـم!!
لقـد أتـى اللهُ بـذا اليتيـم ــ قـد حـرج الجنَّـة بـاليتيـم
إنْ لا نجـاوز الصّـراط المستقيـم ــ نـزل فـي النَّـار إلـى الجحيـم
شرابه الصَّديد والحميم

فأنشأت فاطمة تقول:

إنّـي سـأطعمـه ولا أبـالـي ــ وأوثـرُ الله علـى عيـالـي
أمسـوا جيـاعـاً وهـم أشبـالـي ــ أصغـرهمـا يُقتـلُ فـي القتـال!!
بِكَـرْبـلا يُقْتَـلُ بـاغتيـال ــ يـا ويـل للقـاتـل مـنْ وبـال!!!
يهـوي فـي النّـار إلـى سفَـال ــ وفـي يـده الغـلّ والأغـلال
كبّولة زادت على الأكبال

فأعطوه الطّعام، ومكثوا يومين وليلتَيْن لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح.

فلمّا كان في اليومِ الثَّالث، قامت إلى الصَّاع الباقي فطحنتّه، واختبزتْه؛

وصلّى عليٌّ مع النَّبيّ ﷺ ثمَّ أتى المنزل، فوضعَ الطَّعام بين يديه، إذ أتاهم أسيرٌ فوقف بالباب فقال: السَّلام عليكم يا أهلَ بيتِ محمّد، تأسرونا وتشدّونا ولا تطعمونا، فإنّي أسيرُ محمّد!!!! فسمعَه عليٌّ فأنشأَ يقول:

فـاطـمُ بنـتُ النَّبـيّ أحمـد بنـت نبـيٍّ سيّـد مسـدّد
سمّـاه الله فهـو محمّـد قـد زانهـا ربّـي بحسـن أغيـد
هـذا أسيـرُ النّبـي المهتـد مثقـل فـي غلّـه مقيـد!!
يشكـو إلينـا الجـوع قـد تمـدد مَـنْ يطعـمِ اليـوم يجـدْهُ فـي غـد
عنـد العلـيّ الـواحـد المـوحـد مـا يـزرع الـزّارع سـوف يحصـد
أعطيه لا لا تجعليه أنكد!!!

فأنشأتْ فاطمةُ تقول:

لـم يبـقَ ممّـا جـيء غيـر صـاع قـد ذهبـتْ كفّـي مـع الـذّراع
ابنـاي واللهِ همـا جيـاع يـا ربّ لا تتـركهمـا ضيـاع
أبـوهمـا للخيـر هـو صنـاع يصطنـع المعـروفَ بـابتـداع
عبـل الـذّراعيـن شـديـد البـاع ومـا علـى رأسـي مـن قنـاع
إلا قناع نسجه سباع

فأعطاه الطَّعامَ، ومكثوا ثلاثةَ أيّامٍ بلياليهنَّ لم يذوقوا شيئاً إلاّ الماء القراح.

فلمَّا كان اليومُ الرَّابعُ وقد مضى لله بالنَّذر، أخذ عليٌّ بيده اليمنى الحسن، وبيده اليُسرى الحُسين، وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع، فلمّا بصرَ بهم رسولُ الله ﷺ قال: يا أبا الحسن ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم، انطلقْ بنا إلى ابنتي فاطمة؛ فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وقد لصِقَ بطنُها بظهرِها، وغارت عيناها من شدّة الجوع، فلمَّا رآها رسولُ الله ﷺ وعرفَ المجاعة في وجهها بكىٰ وقال: واغوثاه، يا الله، أهل بيت محمّد يموتون جوعاً.

فهبط جبريلُ وقال: السَّلامُ يقرئك السَّلام يا محمّد ويقول: خُذْ هنيئاً في أهل بيتك.

قال: وما آخذُ يا جبريلُ؟

فأقرأه: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ قال الحكيمُ التّرمذي: هذا حديثٌ مفْتَعلٌ واللهُ أعلم»[1].

* وعندما ترجم الحافظُ ابنُ حجرٍ في كتابه «الإصابة» لجاريةِ سيّدتنا فاطمةَ الزَّهراء «فضّة النُّوبيّة» أشار إلى أنَّ القصَّةَ والحديثَ ليسا بشيءٍ، وقال:

---

(١) اللالئُ المصنوعةُ في الأحاديث الموضوعة للسّيوطي (١/ ٣٧١ ـ ٣٧٤) دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م. قال الحكيمُ التّرمذي أبو عبد الله في «نوادر الأصول» عن هذه الأقصوصة المُفتعلة وهذا الحديث العجيب: «فهذا حديثٌ مُزوقٌ مُزيّفٌ، قد تطرَّفَ فيه صاحبُهُ حتّى تشَبَّهَ علىٰ المستمعين، فالجاهلُ بهذا الحديثِ يعضُّ شفتَيْه تلهُّفاً ألا يكون بهذه الصّفةِ، ولا يعلم أنَّ هذا الفعلَ مذمومٌ، وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾[البقرة: ٢١٩]، وهو الفضلُ الذي يفضُلُ عن نفسكَ وعيالك، وجرتِ الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ متواترة بأنَّ «خير الصَّدقة ما كان عن ظهر غنى». و«ابدأ بنفسِكَ ثمّ مَنْ تعول». وافترض اللهُ على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم، وقال رسولُ الله ﷺ: «كفى بالمرءِ إثماً أنْ يضيّع مَنْ يقوت»، أفيحسبُ عاقلٌ أنَّ علياً رضي الله عنه جهلَ هذا الأمرَ، حتّى أجهدَ صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ست على جوعِ ثلاثةَ أيام ولياليهنَّ، حتّى تضوَّروا من الجوع، وغارت العيونُ منهم، لخلاءِ أجوافِهم، حتّى أبكى رسولُ الله ﷺ ما بهم من الجهد؟!! هَبْ أنَّه أثرَ على نفسه هذا السَّائل، فهل كان يجوزُ له أنْ يحملَ أهله على ذلك؟! وهَبْ أنَّ أهلَهُ سمحتْ بذلك لعليّ، فهل جاز له أنْ يحملَ أطفاله على جوعِ ثلاثةَ أيام بلياليهنّ؟! ما يُروِّجُ مثل هذا إلا على حمقى جهّال، أبى اللهُ لقلوبِ متنبّهة أنْ تظنَّ بعليّ مثل هذا. وليتَ شعري مَنْ حفَظَ هذه الأبيات كلَّ ليلةٍ عن عليٍّ وفاطمةَ، وإجابة كلّ واحد منهما صاحبه، حتّى أدّاه إلى هؤلاء الرّواة؟!! فهذا وأشباهه من أحاديثِ أهلِ السّجون فيما أرى. بلغَني أنَّ قوماً يخلّدون في السّجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السَّمر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رموا بها وزيّفوها، وما من شيءٍ إلا له آفةٌ ومكيدةٌ، وآفةُ الدِّين وكيدُهُ أكثر». (نقلاً عن تفسير القرطبي ١٩/ ١٣٥).

وذكر الماورديّ في تفسيره القصّة ملخّصة، وذلك أنَّ علياً وفاطمة نذرا صوماً فقضياه، وخبزت فاطمة ثلاثة أقراص ليفطروا عليها مع أولادهما، فسألها مسكينٌ ويتيمٌ وأسيرٌ فتصدقت عليهم وباتوا طاوين. (تفسير الماوردي ملخصاً ٤/ ٣٧١).

قال: «قال الذَّهبيُّ: كأنَّه موضوعٌ، وليس ما قال ببعيد»[1].

* بينما جاء عددٌ من المصنّفين وممَّن يحبّون المُسامرات والمحاورات، فنقلُوا هذا الحديث المزيّف بالإعجابِ والإيجابِ، وهذَّبوهُ، ثمّ ضمَّنُوهُ مؤلّفاتهم، ومنْ هؤلاء «مؤمنُ بنُ حسن مؤمن الشَّبلنجيّ» في كتابه «نور الأبصار في مناقب آلِ بيت النَّبيّ المختار ﷺ» إذ نَقَلَ عن كتابِ «محاضرةِ الأبرارِ ومسامرة الأخيار في الأدبيّات والنَّوادرِ والأخبار» للشَّيخ محيي الدِّين بن عربي المتوفّى سنة (٦٣٨ هـ)؛ وقال: «وفي مسامراتِ الشَّيخ الأكبر...»[2] ثمَّ يذكرُ القصَّة كاملةً.

* وقد رجعتُ إلى كتابِ «محاضرة الأبرار» لمحيي الدِّين بن عربي فوجدتُ القصَّةَ كاملةً، ولكنّها أكثرُ تهذيباً وتنميقاً منها في كتاب «اللالىء المصنوعة»، أو «تفسير القرطبي[3]» أو «تفسير الزمخشري»[4]، أو غيرها من مصادر نَقَلتِ القصَّةَ بعجرها وبجرها.

* ونحن نعلمُ أنَّ الشَّيخَ محي الدِّين بنَ عربي من كبار الشُّعراء وأهلِ البلاغةِ، وصَفهُ الإمامُ الذَّهبيُّ بقوله: «العلاّمةُ، صاحبُ التَّواليف الكثيرة.. كان ذكيّاً كثيرَ العِلْم، كتبَ الإنشاء لبعضِ الأمراء بالمغرب، ثمَّ تزهَّدَ وتفرَّدَ، وتعبَّدَ وتوحَّدَ، وسافرَ وتجرَّدَ، وأَتْهَمَ وأَنْجَدَ، وعملَ الخَلَوات... وقد عظَّمه جماعةٌ وتكلَّفوا لما صدر منه ببعيدِ الاحتمالاتِ... وله شعرٌ رائقٌ، وعلْمٌ واسعٌ، وذهْنٌ وقَّاد...»[5].

* كما ذكرهُ الحافظُ ابنُ كثير في «البدايةِ والنّهايةِ» وأشار إلى أنَّه من

---

(١) الإصابة (٤/ ٣٧٦).
(٢) نور الأبصار (ص ١٢٤) طبعة البابي الحلبي الأخيرة بمصر عام (١٩٤٨) م.
(٣) انظر: تفسير القرطبيّ وتعليقاته النّفيسة (١٩/ ١٣١ ـ ١٣٥).
(٤) انظر: تفسير الزّمخشريّ (٤/ ١٩٧).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨ و ٤٩) باختصار وتصرّف يسير.

الشُّعراء الأدباء، فكان ممَّا قال: «. . . طاف البلاد. . . وله ديوانُ شعْرٍ رائق، وله مصنّفاتٌ كثيرةٌ جدّاً. . . وكان بنو الزّكي لهم عليه اشتمال، وبه احتفال، ولجميع ما يقوله احتمال. قال أبو شامة: وله تصانيفُ كثيرةٌ، وعليه التّصنيف سَهْل، وله شِعْرٌ حَسنٌ، وكلامٌ طويلٌ على طريق التَّصوّف. . . »(١).

* وبعد أنْ علمنا نبذةً عن الشَّيخ محيي الدِّين بن عربي، ينبغي أنْ نعلمَ كيف عمدَ إلى هذه القصّة، وصاغَها على طريقتِهِ دون أنْ يزهقَ روحَها الأصليّةَ. وها أنا ذا أنقلُ القصّة من كتابه «محاضرة الأبرار» لنطّلع عليها كاملةً كما سمعها هو فيما زعم.

* قال الشّيخُ محيي الدّين بنُ عربي: «حدّثنا محمّد بنُ قاسم بن عبد الرّحمن بن عبد الكريم، قال: قرأتُ على عمرَ بنِ عبد الحميد بمكّة، أنَّ عبدَ الله بنَ العبّاس قال في قولِهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، قال: مرضَ الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما، وهما صَبيّان، فعادهما رسولُ الله ﷺ، ومعه أبو بكر، وعمر.

فقال عمرُ لعليٍّ: يا أبا الحَسنِ، لو نذرتَ عن ابنَيْك نذراً إنْ اللهُ عافاهما.

قال: أصومُ ثلاثةَ أيّام شكراً لله.

قالت فاطمةُ: وأنا أيضاً أصومُ ثلاثةَ أيّام شكراً لله.

وقال الصَّبِيّانِ: ونحنُ نصومُ ثلاثة أيّام!!

وقالت جاريتهما فضّة: وأنا أصومُ ثلاثة أيام.

فأَلْبسَهما اللهُ العافيةَ، فأصبحوا صياماً وليس عندهم طعامٌ، فانطلقَ عليٌّ إلى جارٍ له من اليهودِ يُقال له: شمعون، يعالجُ الصُّوف؛ فقال له: هل لك أنْ تعطيني جزَّةً من صوفٍ تغزلُها لك بنت محمّد بثلاثةِ آصع من شعير!!؟؟!!!

(١) البداية والنّهاية (١٣/ ١٥٦) بشيء من الاختصار والتّصرّف.

قال: نعم.

فأعطاه، فجاء بالصُّوف والشَّعير، فأخبرَ فاطمة، فقبِلَتْ وأطاعتْ، ثمّ غزلَتْ ثلث الصُّوف، وأخذتْ صاعاً من الشَّعير، فطحنَتْه، وعجنَتْه، وخبزتْه خمسة أقراص لكلّ واحدٍ قرصاً.

وصلّى عليٌّ رضي الله عنه مع النَّبيّ ﷺ المغرب، ثمَّ أتى إلى منزله، فوضعَ الخوان، فجلسوا، فأوّلُ لقمةٍ كَسَرَها عليٌّ رضي الله عنه، إذا مسكينٌ واقفٌ على الباب، فقال: السَّلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا مسكينٌ من مساكين المسلمين، أطعموني ممَّا تأكلون؛ أطعمكم اللهُ من موائد الجنّة.

فوضع عليٌّ اللقمة من يده، ثمَّ قال:

فــاطــمُ ذات المجــدِ واليقيــن ... يــا بنــتَ خيــر النَّــاس أجمعيــن
أمَــا تَــري ذا البــائــس المسكيــن ... جــاء إلــى البــاب لــه حنيــن
كلّ امرئ بكسبهِ رهين

فقالت فاطمةُ رضي الله عنها من حينها:

أمـركَ سمـع يـا بـن عـمّ وطـاعـة ... مــالـيَ مــن لــومٍ ولا ضــراعــة
غــذيــتَ بــاللــبّ وبــالبــراعــة ... أرجــو إذا أنفقــت مــن مجــاعــة
أنْ ألحــقَ الأبــرار والجمــاعــة ... وأدخــل الجنّــة فــي الشَّفــاعــة

قال: فعمدَتْ إلى ما في الخوان، فدفعَتْه إلى المسكين، وباتوا جياعاً، وأصبحوا صياماً، لم يذوقوا إلاّ الماء القراح، ثمَّ عمدت إلى الثُّلث الثَّاني من الصُّوف فغزلته، ثمّ أخذت صاعاً فطحنَتْه، وعجنَتْه، وخبزَتْ منه خمسة أقراص، لكلِّ واحد قرصاً.

وصلّى عليٌّ المغرب مع النَّبيِّ ﷺ، ثمّ أتى إلى منزلِه، فلمّا وضعت الخوانَ وجلسَ، فأوّلُ لقمةٍ كسَرهَا عليٌّ رضي الله عنه، إذا بيتيمٍ من يتامى المسلمين قد وقفَ على الباب وقال: السَّلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا يتيمٌ

من يتامىٰ المسلمين، أطعموني مما تأكلون؛ أطعمكم اللهُ من موائد الجنَّة.

فوضعَ عليٌّ اللقمة من يدهِ وقال:

أفاطم بنت السّيّد الكريم قد جاءنا اللهُ بذا اليتيم
مَنْ يطلبُ اليوم رضا الرَّحيم موعده في جنّة النّعيم

فأقبلتِ السَّيّدة فاطمةُ رضي الله عنها وقالت:

فسوف أعطيه ولا أبالي وأوثرُ الله على عيالي
أمسوا جياعاً وهمُ أمثالي أَصْغرُهُم يُقْتَلُ في القتال!!!

ثم عمدت إلى جميع ما كان في الخوان، فأعطتْهُ اليتيمَ، وباتوا جياعاً لم يذوقوا إلا الماء القراح، وأصبحوا صياماً، وعمدت فاطمةُ إلى باقي الصُّوف فغزلتْه، وطحنت الصَّاع الباقي وعجنتْه، وخبزتْه خمسة أقراص، لكلِّ واحدٍ قرصاً.

وصلى عليٌّ المغرب مع النّبيّ ﷺ، ثمّ أتى منزله فقرّبت إليه الخوان، ثمّ جلس، فأوّل لقمةٍ كَسَرَها إذا أسيرٌ من أسارىٰ المسلمين بالباب، فقال: السَّلام عليكم أهل بيت محمّد، إنَّ الكفَّار أسرونا وقيّدونا وشدّونا، فلم يطعمونا.

فوضع عليٌّ اللقمة من يده، وقال:

يا فاطمة بنت النَّبيِّ أحمد بنت نبي سيّد مسود
هذا أسيرٌ جاء ليس يهتدي مكبّل في قيده المقيد
يشكو إلينا الجوع والتّشدد مَنْ يطعم اليوم يجده في غد
عند العليّ الواحد الموحّد ما يزرع الزّارع يوماً يحصد

فأقبلت فاطمةُ رضي الله عنها تقول:

لم يبقَ ممّا جاء غير صاع قد دبرت كفّي مع الذّراع
وابناي واللهِ لقد أجاعا يا ربّ لا تهلكهما ضياعا

ثمَّ عمدتْ إلى ما كان في الخوان، فأعطَتْه إياه، فأصحبوا مفطرين وليس عندهم شيء.

وأقبل عليٌّ، والحسنُ والحسينُ، نحو رسولِ اللهِ ﷺ وهما يرتعشان كالفرخَيْن من شدّة الجوع، فلمّا أبصرهما رسولُ اللهِ ﷺ قال: يا أبا الحسن؛ أشدُّ ما يسوءني ما أدرككم، انطلقُوا بنا إلى ابنتي فاطمة.

فانطلقُوا إليها وهي في محرابها، وقد لَصِقَ بطنها بظهرها من شدّةِ الجوع، وغارتْ عيناها، فلمّا رآها رسول الله ﷺ ضمَّها إليه وقال: واغوثاه فهبط جبريلٌ عليه السَّلام وقال: يا محمّد خُذْ هنيئاً في أهل بيتك.

قال: وما آخذُ يا جبريل؟

قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾»[1].

---

(١) انظر: كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيّات والنّوادر والأخبار. للشّيخ الأكبر العارف بالله العلاّمة محيي الدّين بن عربي (١/ ١٥٠ ـ ١٥٣)، دار اليقظة العربية ـ دمشق ـ ١٩٦٨ م. وعنه نقل الشَّبْلَنجي في نور الأبصار في مناقب آل بيت النّبيّ المختار (ص ١٢٤ ـ ١٢٦)، وغيرهما من مصادرَ ومراجعَ.
أقول: «إنَّ كثيراً من القصصِ المصنوعةِ والأخبار الزّائفة الممزوجةِ بالأشعار السَّقيمة والأرجاز الأليمة التي تؤذي السَّمعَ والبصرَ والفؤاد، كما أنَّها تؤذي الأحاسيس والمشاعر، وتُميت الذّوق والجمال، وذلك بما تحملُ من تكلُّف وسقْمٍ في المعنى والمبنى، هي كثيرةٌ منثورة في بعض المصادر.
ومن الأخبارِ الرّائجةِ المشهورة كالخبز؛ خبر الصَّحابية الشَّاعرة «الخنساء» مع بنيها الأربعة الذين شهدوا حربَ القادسية في العراق.. وهذا الخبرُ الملفّق يعرفه معظمُ المطّلعين، بل إنَّ معظمهم يحفظُه عن ظهرِ قَلْبٍ، وخصُوصاً خطبتُها بهم يوم القادسيّة، حتّى إذا جاءَها نبأُ استشهادِهم وخبرُ مقتلِهم قالتْ عبارتها المشهورة يومذاك: «الحمدُ للهِ الذي شرّفني بقتلِهم، وأرجو من ربّي أنْ يجمعَني بهم في مستقرِّ رحمته».
ولهذه القصّة الشّهيرة عدةُ مطاعن وثغرات وعثرات منها: =

* قال أبو حيان الأندلسيّ في تفسيره لسورة الدَّهْر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[الدهر: ٩] «هذه الآيةُ؛ قيل: نزلَتْ في عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وذكرَ النَّقَّاشُ في ذلك حكايةً طويلةً جدّاً ظاهرةَ الاختلاق، وفيها أشعارٌ للمسكينِ واليتيمِ والأسيرِ يخاطبون بها بيت النُّبوّة وأشعارٌ لفاطمةَ رضي الله عنها تخاطبُ كلَّ واحدٍ منهم، ظاهرها الاختلاق، لِسَفْسَاف ألفاظها، وكسْرِ أبياتها، وسقاطة معانيها»[١].

* وقال الإمامُ فخر الدّين الرّازيّ في تفسيره الكبير المسمّى «مفاتيح الغيب» في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[الإنسان: ٨ ـ ١٠]: «لم يذكرْ أحدٌ من أكابر المعتزلة، كأبي بكر الأصمّ، وأبي عليّ الجبائيّ، وأبي القاسم الكعبيّ، وأبي مسلم الأصفهانيّ، والقاضي عبد الجبّار بن أحمد في تفسيرهم أنَّ هذه الآيات نزلت في حقِّ عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، والواحديُّ من أصحابنا ذكرَ في كتاب «البسيط» أنَّها نزلتْ في حقِّ عليٍّ رضي الله عنه، وصاحب الكشّاف من المعتزلة ذكر هذه القصّة...»[٢].

* ثمّ إنَّ الرَّازيَّ أوردَ القصَّة ملخَّصةً دون أنْ يذكرَ الأشعار خلالها، وعلَّق تعليقاً منطقياً مقبولًا فقال: «والأوّلون يقولون: إنَّه تعالى ذكَرَ في أوّل السُّورة أنَّه

= **أولاً**: لم يذكرْ أحدٌ من كتّاب تواريخ المدن؛ كتاريخ بغداد، أو واسط، أو دمشق، أنَّ الخنساءَ قدمت العراق، علماً بأنَّ الخطيبَ البغداديَّ قد استوفى شهيرات النّساء في تاريخه، والخنساء من أشهر النّساء اللواتي يُؤرِّخُ لهنّ، ولو أتتْ إلى العراق لذكرها أو أشار إليها.

ثانياً: راوي القصّة اسمّه: محمدُ بنُ الحسن المخزوميّ المعروف بابن زبالة أحدُ المتروكين.

ثالثاً: بناء القصّة والأشعار المنسوبة إلى الخنساء واضحة الركاكة والنّسج الرّديء. وهناك أشياء أخرى ذكرتْها المصادرُ المتنوعة، وقد أشرتُ إلى أمورٍ منها في كتابي: «نساء من المشرق العربي» (ص ٢١٩ ـ ٢٢٤) فلتراجع لمن أرادَ المزيد».

(١) تفسير البحر المحيط (٨/ ٣٨٨).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٢١٦).

إنَّما خلقَ الخَلْقَ للابتلاء والامتحان، ثمّ بَيَّنَ أنَّه هدى الكلَّ، وأزاحَ عللهم؛ ثمّ بَيَّنَ أنَّهم انقسموا إلى شاكرٍ وإلى كافرٍ، ثم ذكر وعيد الكافر، ثمّ أتبعه بذكر وعد الشّاكر فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾[الإنسان: ٥]، وهذه صيغةُ جمْعٍ، فتناول جميع الشّاكرين والأبرار، ومثل هذا لا يمكنُ تخصيصه بالشَّخص الواحد، لأنَّ نَظْمَ السُّورة من أوّلها إلى هذا الموضع يقتضي أنْ يكونَ هذا بياناً لحال مَنْ كان من الأبرارِ والمطيعين، فلو جعلناه مختصّاً بشخصٍ واحدٍ لفَسَدَ نظمُ السُّورة. والثّاني: أن الموصوفين بهذه الصِّفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله: «إنَّ الأبرار يشربون، ويوفون بالنّذر، ويخافون ويطعمون» وهكذا إلى آخر الآيات، فتخصيصه بجمعٍ معينٍ خلاف الظَّاهر، ولا ينكرُ دخول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكنّه أيضاً داخلٌ في جميعِ الآياتِ الدَّالةِ على شرحِ أحوالِ المطيعين، فكما أنَّه داخلٌ فيها، فكذا غيره من أتقياء الصَّحابة والتَّابعين داخل فيها، فحينئذ لا يبقى للتَّخصيص معنى البتَّةَ؛ اللهم إلا أنْ يُقال السّورة نزلَتْ عند صدور طاعةٍ مخصوصةٍ عنه، ولكنَّه قد ثَبَتَ في أصول الفقه أنَّ العبرةَ بعمومِ اللفظ لا بخصوص السَّبب»[(١)].

* وذكر الألوسيُّ في تفسيره «روح المعاني» قصّة سيّدنا عليّ وفاطمة والحَسن والحُسين رضي الله عنهم، وذلك في تفسير قوله تعالى من سورة الإنسان: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[الإنسان: ١٢]، فأورد قصّة النَّذر كاملة دون أنْ يذكرَ الأشعار، ثمّ قال في نهاية القصّة ما مفاده: «وأخرج ابنُ مردويه عن ابن عبَّاس أنّه قال في قوله تعالى: ﴿ويطعمون﴾ الخ.. نزلت في عليٍّ رضي الله عنه، وفاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ ولم يذكر القصَّة، والخبر مشهورٌ بين النَّاس، وذكره الواحدي في كتاب البسيط، وعليه قولُ بعض الشِّيعة:

(١) المصدر السَّابق عينه (٣٠/ ٢١٦). أقول: ذكر ابن كثير في البداية والنّهاية هذه القصّة ملخَّصةً نقلاً عن «أسد الغابة» لابن الأثير، ثمّ قال رحمه الله ما نصه: «وهذا حديثٌ منكر، ومن الأئمة مَنْ يجعله موضوعاً، ويُسْنِدُ ذلك إلى ركاكةِ ألفاظه، وأنَّ هذه السّورة مكية، والحسن والحسين رضي الله عنهما إنّما وُلدا بالمدينة والله أعلم» (البداية والنّهاية ٥/ ٣٣٠).

إِلامَ أُلامُ وحتّـــــــــى متـــــــــى أعـــاتَــبُ فـــي حُـــبِّ هـــذا الفتـــىٰ
وهـــل زُوِّجَـــتْ غَيْـــرَهُ فـــاطـــمٌ وفـــي غيـــرِهِ هَـــلْ أتـــى ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾

وتعقَّبَ بأنَّه خبرٌ موضوعٌ مُفتعلٌ، كما ذكره التِّرمذيُّ، وابنُ الجوزيّ، وآثارُ الوضْعِ ظاهرةٌ عليه لفظاً ومعنىً، ثم إنَّه يقتضي أن تكونَ السّورةُ مدنيّةٌ، لأنَّ بناء عليٍّ رضي الله عنه على فاطمةَ رضي الله عنها كان بالمدينة، هي عند ابن عبّاس المرويّ هو عنه على ما أخرج النّحاس مكيّة، وكذا عند الجمهور في قول. وأقول: أَمْرُ مكيّتها ومدنيّتها مختلَفٌ فيه جدّاً كما سمعت؛ فلا جَزْمَ فيه بشيء»[1].

* وتأتي مؤلّفةُ كتابِ «الدُّرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور» الأديبة: زينبُ يوسُف فوّاز العامليّة، وتترجم لِفَضَّةَ النُّوبيةِ جاريةِ فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها نقلاً عن «أسد الغابة»[2]، ومن ثم تذكرُ قصّة مَرَضِ الحسنِ والحسينِ ونَذْر والدهما إنْ هُما شُفيا، ثمّ تزيدُ الطِّين بِلّة، والإيهام غموضاً وعلّةً عندما قالت في نهاية التَّرجمة: «ومنْ ذلك يُعلمُ أنَّ المترجمةَ ساوَتْ نفسَها بسيّدتها فاطمة

---

(١) تفسير الألوسيّ روح المعاني (٢٩/ ٢٦٩ و ٢٧٠) بتصرّف، ونقل الألوسي عن الطّبرسيّ من الشّيعة في «مجمع البَيان» قوله: «وعلى القول بعدمِ النّزول فيهما ـ أي عليّ وفاطمة ـ لا يتطامنُ مقامهما ولا ينقص قدرهما، إذ دخولهما في الأبرارِ أمرٌ جلي، بل هو دخولٌ أولى فهما هما، وماذا عسى يقولُ امرؤٌ فيهما سوى أنَّ علياً رضي الله عنه مولى المؤمنين، وفاطمة البضعةُ الأحمديّة، وأمّا الحسنان فالرّوحُ والرّيحانُ؛ وسيّدا شباب الجنان، وليس هذا من الرّفض بشَي، بل ما سواه عندي هو الغي:
أنـــا عبـــدُ الحـــقّ لا عبـــدُ الهـــوىٰ لعـــنَ اللهُ الهـــوىٰ فيمَـــنْ لَعَـــنِ
ومن اللطائفِ على القول بنزولها فيهم أنّه سبحانه لم يذكرْ فيها الحور العين، وإنّما صرَّحَ عزَّ وجلَّ بولدان مخلَّدين رعاية لحرمة البتول، وقرّة عين الرّسول، لئلا تثورَ غيرتها الطَّبيعية، إذا أحسّت بضرّة، وهي في أفواه تخيّلات الطِّباع البشرية ولو في الجنّة مرة، ولا يخفى عليك أنَّ هذه زهرة ربيع ولا تتحمل الفرك»!!!!! (روح المعاني ٢٩/ ٢٧١) بتصرف يسير جداً.
(٢) أسد الغابة (٦/ ٢٣٦ و ٢٣٧) ترجمة رقم (٧٢٠٢).

الزَّهراء، فنالت بذلك فخراً لم ينله غيرها من نساء العرب. . .»[1]، ففي هذه المقولة رسَّخَتِ السَّيدةُ زينبُ العامليّةُ هذه القصّةُ العجيبةَ في بعضِ الأذهان، علماً بأنَّ زينبَ العامليّة إحدىٰ شواعر العَصْر الحديث[2]. ولها تذوّقٌ رفيعٌ لمحاسنِ الشِّعر، وتعرف غثَّه من سمينه، لذلك لم توردِ القصَّةَ المزعومةَ التي نُسبتْ فيها الأشعارُ المكسورةُ لعليٍّ وفاطمةَ رضي الله عنهما، وإنّما اكتفتْ بنقلِ القصّة مجرَّدةً من الأشعار ومن الحوار الرَّكيك الهابط.

* وممّا يزيدُ في ترسيخ هذه القصّة وأشباهها وجودُ بعض القصائد لشعراء مشهورين نسجوا حول القصّة قصائد جميلة المعنى والمبنى، ومن بين هؤلاء الشَّاعر الفيلسوف «محمّد إقبال» الذي نسجَ قصيدةً غنائيّةً راقيةً عنوانها: «فاطمة الزَّهراء» حلَّق فيها عالياً في فضاء الأدب، لكنَّه أشار إلى قصّة نَذْرها، وصيام الأسرة الفاطميّة جميعها؛ حتّى وصلَ به الإعجاب لأن يطوفَ حول ضريحها!! وها نحنُ أولاء نقتطفُ بعضَ الأبيات الماتعة، من قصيدة إقبال الرّائعة، التي أصبحت من المصادرِ الشّائعة لبعض الباحثين:

المجدُ يشرقُ من ثلاث مطالعٍ ... في مَهدِ فاطمةٍ فَما أَعلاهَا
هي بنتُ مَنْ هي زوجُ مَنْ هي أمُّ مَنْ ... مَنْ ذا يداني في الفَخارِ أباها
هي ومضةٌ من نورِ عينِ المُصطفى ... هادي الشُّعوب إذا ترومُ هُداها
هي أسوةٌ للأمّهات وقدوةٌ ... يترسَّمُ القمرُ المنيرُ خُطَاهَا
لمَّا شكَا المحتاجُ خلفَ رحابِها ... رقَّتْ لتلك النَّفس في شكواها
جادتْ لتنقذه برهْنِ خمارِها[3] ... يا سحبُ أينَ نداكِ منْ جَدْواهَا

(١) الدّرّ المنثور لزينب فوّاز (ص ٤٤٠)؟

(٢) ماتت زينب فوّاز العامليّة في عام (١٩١٤ م).

(٣) بدَّلَ الدّكتور فاروق حمادة هذا الشَّطر من قصيدة «إقبال»، فأصبح على النَّحو الآتي: [أعطتْهُ ما ادّخروا لِفِطْرِ صيامهم]، وقال الدّكتور حمادة: «فأبدلته بما أثبتُّه ليكون متّفقاً مع ما ورد في الخبر»!! (الدّوحة النّبويّة ص ٦٣)، ولم يُشِر الدّكتورُ إلى الخبر بشيءٍ، ولم يعلّقْ عليه، أو يذكرْ أنَّه موضوعٌ، وأعتقدُ أنّه أوردَ قصيدة «إقبال» من قبيل الإعجاب بصياغتِها الأدبية والله تعالى أعلم. =

جعلتْ من الصَّبر الجميلِ غذاءَهَا ... ورأتْ رضى الزَّوج الكريمِ رضاها
ولزوجِ فاطمةٍ بِسُورة «هل أتى» ... تاجٌ يفوقُ الشَّمس عند ضُحاها
إيوانُه كوخٌ وكنزُ ثرائه ... سيفٌ غدا بيمينِه تيَّاها

* ومن الأخبارِ الموضوعةِ والأحاديثِ المصنوعة حديثُ فَخْرِ سيدنا عليّ رضي الله عنه يوم الشّورى، ولن أُطيلَ عليك ـ عزيزي القارىء ـ في التّقديم لهذا الخبر، بل سأوردُهُ كاملاً ومن ثمّ نعرفُ أي ظلم لحق بسيّدنا عليّ من كذب الوضَّاعين وافترائهم، واستخفافهم بالآدابِ العامةِ، وجهلهم بأقدار أكابر الصَّحابة وأعيانهم من أهل البيت وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

* عن أبي الطُّفيل عامر بن واثلة الكناني قال: كنتُ على الباب يوم الشُّورى، فارتفعتِ الأصواتُ بينهم، فسمعتُ علياً يقول: «بايعِ النَّاسُ لأبي بكر وأنا واللهِ أَوْلىٰ بالأمر منه وأحقٌّ به منه؛ فسمعتُ وأطعتُ مخافةَ أنْ يرجعَ النَّاسُ كفّاراً يضربُ بعضُهم رقابَ بعض بالسَّيف.

ثمَّ بايع النَّاسُ عمراً، وأنا والله أولى بالأمر منه وأحقّ به منه، فسمعتُ وأطعتُ مخافة أنْ يرجعَ النَّاس كفَّاراً يضربُ بعضهم رقابَ بعض بالسَّيف.

ثمَّ أنتم تريدون أنْ تبايعوا عثمان!! إذن أسمع وأطيع أنّ عمر جعلني في خمسة نَفَر أنا سادسهم لا يعرف لي فضلاً عليهم في الصَّلاح، ولا يعرفونه لي كلّنا فيه سواء، وأيم شرع الله، لو أشاء أنْ أتكلَّمَ ثم لا يستطيع عربيُّهم،

= أقول: «قد أسهمتْ بعضُ المشاهد من بعض الأفلام السّينمائية، وبعض المواقف من عددٍ منَ المُسلسلات الكثيرة التي تغزو الشّاشاتِ الفضائيةَ، وتغزو معها العقولَ والقلوبَ، وتغزو المصادرَ الأصيلة أحياناً؛ أسهمتْ هذه المشَاهدُ في تشويه بعضِ الشَّخصياتِ الإسلاميّةِ الشَّهيرةِ، أو بعضِ المواقفِ أو القصصِ المشهورة، ورسَّخَتْ بعضَ الجوانب التي أجمعَ كثيرٌ من المحقّقين على أنّها موضوعة وغير صحيحة؛ ومن هاهنا أصبحتْ ثقافةُ كثيرٍ من النَّاس ثقافةَ «أفلام ومُسلسلات» فترىٰ الرَّجل يناقشُ ويحاورُ ويجادلُ بأنَّه قرأَ الحديثَ من أمّهات المصادر ويسفّه رأي هذا، ويزدري رأيَ ذاك بناءً على ما احتفظتْ به ذاكرتُه من مشاهدَ ومسلسلاتٍ وأفلامٍ، نسأل الله اللطف، وأنْ يهدينا إلى سواء الصّراط».

ولا عجميُّهم، ولا المعاهد منهم، ولا المشرك ردّ خصلة منها لفعلت.

ثمَّ قال: نشدتكم بالله أيّها النَّفَرُ جميعاً، أفيكم أحد آخى رسول الله ﷺ غيري؟

قالوا: اللهمّ لا.

ثمّ قال: نشدتكم باللهِ أيّها النَّفر جميعاً، أفيكم أحدٌ له عمّ مثل عمّي حمزة؛ أسد الله؛ وأسد رسوله، وسيّد الشّهداء؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ له أخ مثل أخي جعفر ذي الجناحين الموشّى بالجوهر، يطيرُ بهما في الجنَّة حيث يشاء؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ له مثل سبطاي الحسن والحسين!!!

سيّدا شباب أهل الجنَّة؟!

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ له مثل زوجتي فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ كان أَقْتَلَ لمشركي قريش عند كلّ شدّة تنزلُ برسول اللهِ ﷺ منّي؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ كان أعظم غناءً عن رسولِ الله ﷺ منّي حين اضطجعتُ على فراشه ووقيتُه بنفسي وبذلتُ له مهجة دمي؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ كان يأخذ الخمس غيري، وغير فاطمة؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ له سَهْمٌ في الحاضرِ، وسَهْمٌ في الغابر غيري؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أكان أحد مطهَّرٌ في كتابِ اللهِ غيري حين سدّ النَّبيّ ﷺ أبواب المهاجرين وفتح بابي، فقام إليه عمّاه: حمزةُ والعبّاسُ، فقالا: يا رسولَ اللهِ، سددتَ أبوابنا وفتحتَ باب عليّ! فقال رسولُ الله ﷺ ما أنا فتحتُ بابَه، ولا سددتُ أبوابكم؟!؟!

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ تمَّمَ اللهُ نورَهُ من السَّماءِ غيري حين قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ...﴾[الإسراء: ٢٦]؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ ناجاه رسولُ الله ﷺ ثنتي عشرة مرّةً غيري، حين قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ﴾[المجادلة: ١٢]؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ تولّى غمضَ رسولِ الله ﷺ غيري؟

قالوا: اللهمّ لا.

قال: أفيكم أحدٌ آخر عهده برسولِ الله ﷺ حتّى وضعه في حفرته؟

قالوا: اللهمّ لا»[1].

---

(١) اللآلئ المصنوعة (١/ ٣٦١ و٣٦٢). وهذا الحديثُ لا أصْلَ له. وقال المؤلّفُ: هذا حديثٌ موضوع. وقال السّيوطي: «قال في الميزان: هذا خبرٌ منكرٌ غيرُ صحيح، وحاشا أمير المؤمنين من قول هذا». (اللآلئ المصنوعة: ١/ ٣٦٣). =

* ومن الأخبارِ والأحاديثِ والأقوال التي تختلطُ على كثيرٍ من النّاس، خبر ذي الفَقَار، فقد جاء في «اللآلىء» عن أبي جعفر محمّد بن علي قال: «نادى منادٍ من السّماء يومَ بدرٍ يُقال له: رضوان؛ لا سيف إلا ذو الفَقَار، ولا فتى إلا عليّ»[1].

= قال هارونُ بنُ إسحاق: «سمعتُ يحيى بن معين يقول: أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ رضي الله عنهم وعرفَ لعليّ سابقته وفضله فهو صاحبُ سنَّة، ومَنْ قال أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وعرف لعثمان سابقته وفضله فهو صاحبُ سنّة. فذكرتُ له هؤلاء الذين يقولون: أبو بكر وعمرُ وعثمانُ رضي الله عنهم ويسكتون فتكلّم فيهم بكلام غليظ». (الاستيعاب ٣/ ٥٢).

(١) اللآلئ المصنوعة للسّيوطيّ (١/ ٣٦٥). وهذا القول من الأقوال المشهورةِ التي يتداولها النّاسُ فيما بينهم دون أنْ يعرفوا حقيقة ذي الفَقَار، وأنَّ النّبيَّ ﷺ غنمه يوم بدر بعد انتهاء المعركة، ثم نَفَلَه علياً فارتبط ذكْر ذي الفَقَار بسيّدنا عليّ، ومن هاهنا يتبيّن لنا بطلان هذا الحديث ووضعه.
وتذكر المصادر: «أنَّ سيفَ عليّ «ذو الفقار» من أشهر سيوف العرب، كان لمنبّه بن الحجّاج، فصار صفي رسول الله ﷺ، ثمّ لم يزلْ هـٰذا السّيفُ في بني سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه يتوارثونه حتّى وقع إلى بني العبّاس. قال الأصمعيُّ: «رأيتُ هارونَ الرّشيد متقلّداً سيفاً، فقال لي: يا أصمعي، ألا أريك ذا الفَقَار؟ اسْلُلْ سيفي هذا، فسللتُهُ فرأيتُ فيه ثماني عشرة فقرة. قال المبّردُ في كتاب «الاشتقاق»: كانت فيه حزوزٌ مطمئنة شبّهت بفقّار الظَّهر». (التّذكرة الحمدونيّة ٢/ ٤٧٣ و ٤٧٤) بتصرّف.
وأمّا منبّه بنُ الحجّاج وأخوه نبيه، فقد قُتلا يوم بَدْرٍ كافرَيْن، وكان سيّدَي بني سهم، وفي ذلك يقول أبو عزّة، وكان شاعر قريش:

تــركــوا نبيهــاً خَلْفَهــم ومنبّهــاً وابنــي ربيعــةَ خيــر خَصْــمِ فِئــامِ

وقال الدُّكتور جواد علي: «واشتُهرتْ بعضُ السّيوف في الجاهلية وبقيت شهرتها خالدة في الإسلام، ومن هذه السّيوف سيف عُرِفَ بـ«الصَّمصامة»، وهو سيفُ عمرو بن معدي كرب، وسيف عرف بـ«ذي الفَقَار» ارتبط اسمه باسم عليّ بن أبي طالب، وكان قد استولىٰ عليه في معركة بدر، أخذه من العاصي بن منبّه» (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥/ ٤٢٣).
وقال في هامش الجزء المذكور: «ذو الفَقَار: بالفتح وبالكسر: سيف سُليمان، أهدته بلقيس مع ستّة أسياف، ثمّ وصل إلى العاص بن منبه».
وقال الفيروز أبادي في «القاموس المحيط»: «ذو الفَقار: بالفتح: سيف العاص بن منبه قُتِل يوم بدرٍ كافراً، فصار إلى النّبيّ ﷺ، ثمَّ صار إلى عليّ رضي الله عنه. =

* وقد نُسِبتْ لسيّدنا عليّ رضي الله عنه أحوالٌ هو بريء منها براءة الذّئب من دم يوسُف عليه السَّلام، كما وضعت في فضائله أحاديثُ وأخبارٌ تخالفُ المنطوق والمفهوم والمعلوم ولا تزيدُ في رصيده الإيماني شيئاً، لأنَّ له مقاماً عَليّاً بين الصَّحابة الكرام؛ يعرفه الخاص منهم والعام.

* ومن الأمثلة الموضوعة على لسانِ سيّدنا عليّ رضي الله عنه ما جاء عن حبَّةَ بنِ جوين عن عليّ قال: «عبدتُ الله مع رسول الله ﷺ سبعَ سنين قبل أن يعبدَهُ أحدٌ»[1].

* وقالت معاذةُ العدويّةُ: سمعتُ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه على منبر البصرة يقول: «أنا الصِّدِّيقُ الأكبرُ، آمنتُ قبل أنْ يؤمنَ أبو بكر، وأسلمتُ قبل أنْ يُسلم»[2].

= وسيف مفقّر: فيه حزوز مطمئنة عن متنه.
وقال ابنُ منظور في «اللسان»: «قال أبو العبّاس المبرد: وسمّي سيف النّبيّ ﷺ ذا الفَقار لأنَّه كانت فيه حُفَرٌ صغار حِسان.
ويقال للحفرة: فُقرة، وجمعها فُقَر».
ويقال: «إنَّ أصلَه من حديدة وُجدت مدفونة عند الكعبة، فصُنع منها».
ويقال: «هو صفيحةٌ يمانيةٌ يحار الطّرف فيه من حسنه».
وقال الأصمعي: «أحضر الرّشيد ذا الفَقار يوماً بين يديه، فاستأذنته في تقبيله، فأذن لي، فقبلته، واختلفت أنا ومن حضر في عدّة فقاره، هل هي سبع عشرة أو ثماني عشرة»؟ وقيل: «إنَّ ذلك كان يُرى في رونقه شبيهاً بفقار الحية، فإذا التمس لم يوجد».

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٠٣)، والبداية والنّهاية (٧/ ٣٣٣)، وقال ابن كثير: «وهذا لا يصحُّ أبداً وهو كذب، وحبّة لا يساوي حبة... وحبّة ضعيف، ولا يصح من أي وجه كان روي عنه».

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٠٤) والبداية والنّهاية (٧/ ٣٣٣)، وقال ابن كثير: «وهذا لا يصحُّ قاله البخاري، وقد ثبت عنه بالتّواتر أنّه قال على منبر الكوفة: أيّها النّاس! إنَّ خيرَ هذه الأمّة بعد نبيّها أبو بكر، ثم عمر، ولو شئت أنْ أسمي الثّالث لسميت».
ونحن نعلمُ بما لا ريب فيه ولا جدال أنَّ سيدنا عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أقربُ=

* إنَّ فضائلَ الشَّيخَيْن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يعرفها سيّدنا عليّ رضيُ الله عنه، ولا يصحُّ عنه أنْ يقولَ: «أنا الصِّدّيقُ الأكبر» إذ إنَّ سيّدنا عليّاً أديبٌ حصيفٌ عالمٌ؛ تربّى في بيتِ النُّبوّة، ويعرفُ أقدار الصَّحابة رضي الله عنهم، وخاصَة قَدْرَ الشَّيخَيْن رضي الله عنهما؛ كما يعرفُ هو قَدْر نَفْسِهِ رضي الله عنه وأرضاه.

* لقد صحبَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه ـ وحشرنا في معيته ـ الصَّادق المصدوق رسولَ الله ﷺ مدّةَ مقامهِ بمكّة المكرّمة قبل الرّسالة وبعدها، وكان عنده في البيت يتولّاه بتربيته الطَّاهرة؛ وفي كفالته الميمونة الزَّاهرة، وذلك في حياة أبيه أبي طالب، لِفَقْرٍ حَصَلَ لأبيه في بعض السّنين، مع كثرة العيال والمسؤوليّات المتنوّعة، ثمّ استمرَّ في نفقةِ رسولِ الله ﷺ بعد ذلك إلى زمن الهجرة، وقد خلَّفَه رسولُ الله ﷺ ليؤديَ ما كان عنده ﷺ من ودائعَ للنّاس، فإنّه كان يُعْرَفُ في قومه بالأمين، فكانوا يودعونه الأموالَ والأشياءَ النَّفيسة، ثمّ هاجر سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه بعد هجرة الصَّادق المصدوق ﷺ، وصحبَ رسول الله ﷺ إلى أنْ توفيَ، وهو راضٍ عنه، وحضرَ معه مشاهده كلّها، وجرتْ له مواقف شريفةٌ بين يديه في مواطنِ الحربِ، كيوم بدرٍ، وأُحُدٍ، والأحزاب، وخيبرَ، وغيرها.

* هذا غيضٌ من فيضٍ من السِّيرة الزّاكية لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، وشذراتٌ يسيرةٌ من بحار فضائله، أفبعد هذا كلّه نزيدُ في رصيده المدرار قطراتٍ لا تبلُّ الصَّدى، ولا تُعَدُّ مِنَ النَّدى؟!

* إنَّ مقامَ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه عليٌّ رفيعٌ، مونقٌ مزهرٌ، مثمرٌ يانعٌ، أزهرُ زاهرٌ، مباركٌ ميمونٌ، غنيٌّ مثرٍ، لطيفٌ مفيدٌ؛ وسيّدنا عليٌّ نفسه له

= العشرة المبشّرين بالجنّة نَسَباً من رسولِ الله ﷺ فهو ابنُ عمّ رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزّهراء وأبو السّبطينِ الشّريفين الحسن والحسين وفضائله لا تحصى ولا تُستقصى، فلماذا نصدق أشياء لا تزيد ولا تنقص من مقامه؟!

خصيصة مباركة، فهو رجلٌ يحبُّ اللهَ ورسولَه؛ ويحبُّه اللهُ ورسولُه، وباب المحبّة بابٌ عظيمٌ لا يدخلُه إلا الأصفياءُ المخلصون.

* إنّنا بعد هذه الشّمائل الكريمة التي يتحلّى بها عليٌّ رضي الله عنه لن نقبلَ من الأخبار والأحاديث إلّا ما يتناسب مع مقامِهِ ومكانته، ومع ما يصحُّ من الأخبار وأصحابها، لأنّنا لا نقبلُ الأخبارَ المريضةَ عن شخص من العامة، فكيف عن عليّ السّيّد الصّاحب رضي الله عنه؟

* ونحنُ لا نوردُ بعضَ الأحاديثِ والأخبارِ المُهْلهلة من أجلِ نَقْدِها فحسب، وإنّما ليعرفها محبّو رجالِ أهلِ البيت، ومن ثم يجتنبوها، وهم مطمئنون إلى أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه أَعْلىٰ منها وأرفع.

* ومن الأحاديث والأخبار التي تئنُّ من شدّة التّزوير ما وضعوه على لسانِ أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لمّا خطبَ عليٌّ فاطمةَ من رسولِ اللهِ ﷺ، دخل عليها فقال: أي بنية، إنَّ ابنَ عمِّك عليّاً قد خَطَبَكِ، فماذا تقولين؟

فبكت ثمّ قالت: كأنّك يا أبه، إنّما ادخرتني لفقير قريش!!

فقال: والذي بعثني بالحقِّ، ما تكلمتُ في هذا حتّى أذن اللهُ فيه من السّماء.

فقالت فاطمة: رضيتُ بما رضي اللهُ لي ورسولُه.

فخرجَ من عندها، واجتمعَ المسلمون إليه، ثمّ قال: يا عليُّ، اخطبْ لنفسِكَ.

فقال عليٌّ: الحمدُ لله الذي لا يموتُ، وهذا محمّدٌ رسولُ الله ﷺ زوّجني فاطمة ابنته على صَدَاقٍ مبلغه أربع مئةِ درهم، فاسمعوا ما يقولُ واشهدوا.

قالوا: ما تقولُ يا رسولَ الله؟

قال: أشهدكم أنّي قد زوّجته»[(١)]!!!

---

(١) انظر في هذا: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٣٧)، والبداية والنّهاية (٧/ ٣٤٢)، وقال ابن كثير: =

* ونوردُ أيضاً هذا الخبر الفطير الذي تشهدُ حبكتُه الرّديئةُ عليه، ولا يقبله عقلٌ ولا نقْلٌ، وهو مرويٌ عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنه ومنسوبٌ إليه قال: «دخلَتْ أمُّ أيمن على النَّبيِّ ﷺ وهي تبكي.

فقال لها: ما يبكيك، لا أبكىٰ اللهُ عينيك؟

قالت: بكيتُ يا رسولَ الله، لأنّي دخلتُ منزلَ رجلٍ من الأنصار قد زوَّجَ ابنته رجلاً من الأنصار، فنثرَ على رأسها اللوز والسُّكَّر؛ وذكرتُ تزويجَكَ فاطمةَ من عليٍّ بنِ أبي طالب ولم تنثرْ عليها شيئاً.

فقال النَّبيُّ ﷺ: لا تبكي يا أمَّ أيمن، فوالذي بعثني بالكرامة، واختصّني بالرّسالة، ما أنا زوّجتهُ ولكنَّ اللهَ زوَّجَه، ما رضيتُ حتَّى رضي عليّ، وما رضيَتْ فاطمة حتّى رضي الله ربّ العالمين!! يا أمّ أيمن، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمَّا أنْ زوَّجَ فاطمةَ من عليٍّ أمرَ الملائكة المقربين أنْ يحدقُوا بالعرش، فيهم جبريلُ، وميكائيلُ، وإسرافيلُ، وأمرَ الجِنَانَ أنْ تزَّخْرَفَ فتزخرفَتْ، وأمرَ الحورَ العين أنْ يتزيَّنَّ فتزينَّ، وكان الخاطبُ الله تعالى!!! وكان الملائكة الشّهود!!! ثمَّ أمر شجرة طوبى أنْ تنثرَ، فنثرتْ عليهم اللؤلؤَ الرّطبَ مع الدُّرَ الأبيض مع الياقوت الأحمر مع الزّبرجد الأخضر، فابتدرَ حورُ العينِ من الجنَان يرفلْنَ في الحلي والحُلل يلتقطنَه، ويقلْنَ: هذا من نثار فاطمةَ بنتِ محمّد، فهنَّ يتهادينه إلى يوم القيامة»[1].

* وفي روايةٍ أخرى تكملُ هذه الأكذوبة البلهاء: «فلمّا كانت ليلة الزّفاف، أتى النَّبيُّ ﷺ ببغلته الشَّهباء، وثَنَىٰ عليها قطيفةً، وقال لفاطمةَ: اركبي، وأمرَ سلْمانَ أنْ يسوقَها، فبينما هو في بعض الطَّريق، إذ سمع النَّبيُّ ﷺ وَجْبَةً ـ صوتاً قوياً ـ فإذا هو بجبريل في سبعين ألفاً!!! وميكائيل في سبعين ألفاً!!!

= «رواه ابن عساكر وهو منكر»، ونقول: «فيه تناقضات واضحة ومصائب فاضحة».

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٣٨)، والحديث كما ترى لا يزيدُ في الطّنبور نغماً، ولا يزيدُ في البحر قطرة، لا يُدرىٰ أوّله من آخره، ولا تنسجم لحمته مع سداه.

فقال النَّبيُّ ﷺ: ما أهبطكم إلى الأرض؟!!!.

قالوا: جئنا نزفُّ فاطمةَ إلى زوجها عليّ بن أبي طالب، فكبّر جبريلُ، وكبَّر ميكائيلُ، وكبّرت الملائكةُ، وكبّر محمّدٌ ﷺ، فرفع التَّكبير على العرائس من تلك الليلة»[1].

* ولنَنْظُرِ الآن إلى هذا الخبرِ الذي يَزْدري بالعقول، ويضخّمُ الأوهامَ، وينفخُ الأحلامَ، ويضلُّ الأنامَ، ولا يزيدُ من رصيد الأسرة الهاشميّة: عليّ وفاطمة شيئاً؛ بل واللهِ فيهِ من الإساءةِ أشياء لا تتناسبُ مع أقلِّ النَّاس، فكيف بعلي وفاطمة؟

* يقولُ الخبرُ: «إنَّ علياً خرجَ ليبيعَ إزارَ فاطمة ليأكلَ بثمنِهِ، فباعه بستَّةِ دراهم، فسأله سائلٌ فأعطاهُ إياه، فجاء جبريل في صورةِ أعرابيٍّ ومعه ناقة، فقال: يا أبا الحَسَنِ اشْتَرِ هذه النَّاقة!!!

قال: ما معي ثمنها.

قال: إلى أجلٍ.

فاشتراها بمئةٍ، ثمّ عَرضَ له ميكائيل في صورة رجلٍ في طريقهِ، فقال: أتبيعُ هذه النَّاقة؟

قال: نعم.

قال: بكم اشتريتَها؟

قال: بمئةٍ.

قال: آخذُها بمئةٍ، ولكَ من الرِّبح ستّون.

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/٣٣٨). وهذا الحديث منكر، رواهُ ابنُ عساكر؛ وقد أوردَ بعده كذلك أحاديث كثيرة منكرة وموضوعة، وأباطيل يجبُ أنْ ننبّه عليها؛ ونحنُ على يقين بأنَّ أهل الحقّ يعرفونها ويبصرون هزالها.

فباعَها له، فعرضَ له جبريلُ، فقال: بِعْتَ النَّاقة؟

قال: نعم.

قال: ادفعْ إليَّ دَيْني.

فدفعَ له مئة، ورجعَ بِستّين، فقالت له فاطمةُ:

مِنْ أينَ لكَ هذا؟

قال: ضاربتُ مع اللهِ بِستَّةٍ فأعطاني ستّين.

ثمَّ جاء إلى النَّبي ﷺ، فأخبره بذلك فقال: البائعَ جبريلُ، والمشتري ميكائيلُ، والنَّاقةُ لفاطمة تركبُها يومَ القيامة»[1].

---

(١) انظر: السّيرة الحلبيّة (٢/ ٤٧٢) وهذا الحديث من الكذب الموضوع الذي ينطلي على العوام من البسطاء وأهل السَّذاجة.

وهذه القصص كثيرةٌ، تملأ كثيراً من الكتب، ومن هذه القصص العجيبة الخاوية ما جاء مرفوعاً عن أنس قال: «خرجت مع بلالٍ وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما إلى السُّوق، فاشترى بطيخاً، وانطلقنا إلى منزله، فكسَر واحدةً، فوجدها مرّةً، فأمرَ بلالاً بردِّ البطيخ إلى صاحبِهِ، ثم قال: ألا أحدثكم حديثاً حدثنيه رسولُ اللهِ ﷺ؟ قال: يا أبا الحَسَنِ، إنَّ الله تعالى أخذَ حبَّك على البشَر والشَّجر، فَمَنْ أجابَ إلى حُبِّك عَذُبَ وطابَ، ومَنْ لم يجبْ إلى حبِّك خبث ومرَّ. وأظنُّ هذا البطيخ ممّن لا يجبني»!؟!!! (نزهة المجالس ٢/ ٢٠٥).

وهذه فريدة أخرى، ذكرها الصّفوريّ أيضاً فقال: «دخلَ عليٌّ رضي الله عنه مدينةً فوجدَ فيها منجّماً يدّعي معرفةَ الغيب، وعنده خلْق كثير، فقال لي عليٌّ رضي الله عنه: أنتَ في ضيافتي. فأعطاه رغيفاً، وأخذ عليٌّ رضي الله عنه رغيفاً، وقال: كلُّ واحدٍ منّا يثردُ رغيفه في هذا الطَّعام، ثمَّ قال له: ميّز رغيفك من رغيفي.

فقال: لا أعلم.

فقال: رغيفُ ثردته بيدك عجزتَ عن معرفته، فكيف تدّعي الغيب؟

فقال: يا أمير المؤمنين أأنتَ تعرف رغيفك؟

قال: لا؛ ولكن اسأل الله إلهي أنْ يميزه، فارتفع رغيفه، فأكل منه نحو ثلاثة آلاف رجل من أهل تلك المدينة»!!!...؟؟؟...!!! (نزهة المجالس ٢/ ٢٠٧). =

* قال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمه الله عن أمثالِ هذه الموضوعاتِ من الأحاديثِ والقَصص والأخبارِ التي وردتْ في حقِّ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه: «ما وردَ لأحد من الصَّحابة ما وردَ لعليٍّ رضي الله عنه» أي من ثنائهِ ﷺ عليه. ولكنَّ سببَ الموضوعات أنَّه كَثُرتْ أعداؤه والطَّاعنون عليه من الخوارجِ وغيرهم، فاضطّر لذلك الصَّحابة أنْ يظهرَ كلٌّ منهم من فَضْله ما حفظه رداً على الخوارج وغيرهم، ومن هذا الباب حَشَا الكذَّابون كثيراً ممّا اخترعوه من الأباطيل في سيرته.

* ومن الأخبار غيرِ المختمرة، والتي تدلُّ على السَّذاجة آناً وعلى الصَّفاقة آناً آخر، هذا الخبر الذي لا يتناسبُ مع مقامِ أهل بيت النّبوة، والذي نُسِبَ إلى أنس بنِ مالك أنَّه قال ـ وبالطَّبع هو منه براء ـ: «كان النَّبيُّ ﷺ إذا أراد أنْ يُشْهِرَ عليّاً في موطن أو مشهد علا به على راحلته، وأمر النَّاس أن ينخفضوا دونه؛ وإنَّ رسولَ الله ﷺ شهر علياً يوم خيبر فقال: «يا أيها الناس مَنْ أراد أنْ ينظر إلى آدم في خَلْقِهِ وإليَّ في خُلُقي، وإلى إبراهيم في خُلَّته، وإلى موسى في مناجاته، وإلى يحيى في زهده، وإلى عيسى في سنته، فلينظر إلى علي بن أبي طالب إذا خَطَرَ بين الصَّفين، كأنما يتقلَّعُ من صخر، أو يتحدَّر من صَبَب.

يا أيها النَّاس، امتحنوا أولادكم بحبِّه، فإنَّ عليّاً لا يدعو إلى ضلالة، ولا يبعد عن هدى، فَمَنْ أحبَّه فهو منكم، ومَنْ أبغضَه فليس منكم».

قال أنسُ بنُ مالك: فكان الرَّجلُ من بعد يوم خيبر يحملُ ولده على عاتقِهِ، ثمَّ يقفُ على طريق عليّ، وإذا نظرَ إليه توجَّه بوجهه تلقاءه وأومأ بأصبعِهِ: أي بني تحبُّ هذا الرَّجل المقبل؟ فإنْ قال الغلامُ: نعم، قَبّله. وإنْ قال: لا، خرقَ به الأرض، وقال له: الحقْ بأمّك، ولتلحقْ أمّك بأهلها، فلا

= وفي هذا الكتاب وغيره، قصص وحكايات ومواعظ مزعومة تدهش بغرابتها النُّفوس، وتضحِك الرّجل العبوس، ولا يقبلها عقْلٌ ولا نقل، ولا رضيعٌ ولا طفل، وبعضها يشبه أفلام الكرتون كقصة السَّبع والنَّحل والحمَّام وغيرها. نسأل الله سلامة العقل من الآفات.

حاجة لي فيمن لا يحبُّ عليّ بن أبي طالب»[1]!!!!!!. . . ؟!!

* ومن الأحاديث البواطل التي ليس فيها رائحة البلاغة النّبويّة ولا الفصاحة المحمّديّة، ولا المحاكمة العقلية ما نُسِبَ إلى عددٍ جم من كُبراء الصَّحابة: أبي بكر الصّديق، وعمر، وعثمان بن عفّان، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعمران بنُ حصين، وأنس، وثوبان، وعائشة، وأبي ذرّ، وجابر، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «النَّظر إلى وجْه عليّ عبادة»، وفي حديث عن عائشة: «ذِكْرُ عليٍّ عبادة»، وفي حديث عن ابن عبَّاس: «حبُّ عليّ بن أبي طالب يأكلُ السَّيئات كما تأكلُ النَّار الحطب»، وقوله: «قلتُ للنّبي ﷺ: يا رسول الله، للنَّار جَوازٍ؟.

قال: نعم.

قلتُ: وما هنّ؟

قال: حبّ عليٍّ بن أبي طالب»[2]؟!؟!.

* ومن الأحاديثِ الموضوعةِ المشهورة جدّاً شهرة الخبز بين النّاس؛ حديث العلْم: «أنا مدينةُ العِلْم وعليٌّ بابها، فمن أراد العلم فليأتها من قبل بابها» أو «فليأت بابَ المدينة»[3].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٧١ و ٣٧٢)، والبداية والنِّهاية (٧/ ٣٥٦)، وقال ابن عساكر وابن كثير ما نصُّه: «هذا حديث منكر جداً، ولا يصحّ إسناده».

(٢) البداية والنِّهاية (٧/ ٣٥٧)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٦١) و(١٨/ ٧ و ٨)؛ قال ابن عساكر: «طُعِنَ في هذا الحديث وفي رجاله». وقال ابن كثير: «لا يصحُّ شيءٌ منها، فإنّه لا يخلو كلّ سند منها عن كذّاب، أو مجهول لا يعرف حاله». وقال: «لم ينزلْ في عليّ شيءٌ من القرآن بخصوصيته وما روي عن ابنُ عباس أنّه قال: ما نزل في أحد من النّاس ما نزل في عليّ، وفي رواية عنه أنَّه قال: نزل فيه ثلاث مئة آية، فلا يصحَّ ذلك عنه لا هذا ولا هذا». (البداية والنّهاية ٨/ ٣٥٨).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٨)، واللآلئ المصنوعة (١/ ٣٢٩ و ٣٣٠)، والبداية والنّهاية (٧/ ٣٥٨)، قال ابن كثير: «قال ابن عدي: وهذا الحديث يعرف بأبي الصَّلت الهرويّ. . . =

* ومنها ما جاء عبد الله بنِ مسعود قال: كنتُ عند النّبيِّ ﷺ، فسُئِلَ عن عليّ فقال: «قُسِمَت الحكمةُ عشرة أجزاء، أُعطي عليٌّ تسعة، والناس جزءاً واحداً»(١).

= وكان أبو الصّلت رجلاً موسراً يكرم المشايخ، ويحدّثونه بهذه الأحاديث، وساقه ابنُ عساكر بإسناد مُظلم عن جعفر الصّادق عن أبيه عن جدّه عن جابر... وقال ابنُ عدي: وهو موضوع أيضاً. وقال أبو الفتح الأودي: لا يصحّ في هذا الباب شيء». (البداية والنّهاية ٧/ ٣٥٨) بتصرّف واختصار.

وقال الدّارقُطني: «إنّه حديثٌ مضطرب غير ثابت».

وقال التّرمذي: «إنّه منكر» وكذا قال شيخه البخاري: «إنّه ليس له وجه صحيح».

وقال ابنُ معين فيما حكاه الخطيب في «تاريخ بغداد»: «إنّه كذب لا أصل له».

وقال أبو زُرعة: «كم خلْقٍ افتضحوا فيه».

وقال ابن دقيق العيد: «هذا الحديثُ لم يثبتوه، وقيل: إنّه باطلٌ». والله أعلم.

أقول: «إنَّ مكانةَ سيّدنا عليّ العلميّة معروفة بين أعيان الصَّحابة، ويكفي أنَّ سيّدنا عبد الله بن عباس أحد تلامذته، كما شهد له أجلاّء الصّحابة وعلماؤهم بالتّقدم في العلْم والفقه في ضوء ما ورد بحقّه من أحاديث صحاح وآثار حسان. أمّا ما نراه من مبالغات، ومن أشياءَ تنكرها العقول، فهذا لا يقبله كل مَنْ يحبّ سيّدنا علياً ويوقّره، فلا يجوز أنْ نتحلّى بأشياء غير صحيحة، لأنَّ الأمور ترجع إلىٰ طبيعتها، ولله در القائل:

ومَنْ تحلّى بغيرِ طبعٍ ... يُردُّ قسراً إلى الطَّبيعة
كخاضبِ الشّيب في ثلاثٍ ... تهتكُ أستارَه الطّليعة

نسألُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يلهمنا الصّواب، وأنْ يعلمنا ما فيه السّعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وأنْ يحشرنا في معيةِ أهلِ البيت الأطهار، ويعفو عنّا بفضلِهِ ومنّهِ ورحمته».

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٥٩)، قال ابن كثير رحمه الله: «وسكت الحافظُ ابنُ عساكر على هذا الحديث، ولم ينبّه على أمره، وهو منكرٌ، بل موضوعٌ مركّبٌ على سفيان الثوري بإسناده، قبّح الله واضعه، ومن افتراه، واختلقه».

أقول: «قد اختلطَ الحابلُ بالنابل في هذا الأمر، فالوضّاعون أفرطوا في الكذب على لسان النّبيّ ﷺ، وكثيرٍ من أصحابه من أجل رفْع قَدْر سيّدنا علي رضي الله عنه، وهبْ أننا زدنا في البحر قطرةَ ماء، فهل تزدادُ غزارته؟ وإذا زدنا نقطةً في مئات المجلدات، فهل تزيدُ هذه النُّقطة في العلْم وخصوصاً في حرف لا يحتاج إلى نقطة؟! لذا فإن سيّدنا علياً بحرٌ لا تكدره الدلاء، =

* ومثل هذه الأشياء كثيرةٌ موجودةٌ في ثنايا سيرة سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ولو رحتُ أجمعُ لك ما وقع تحتَ يدي من الأخبار المصنوعةِ، والقصص الموضوعةِ، والأحاديث المخترعة، والأباطيل المبتدعة، والتَّخيلات المصطنعة، والأوهام التي لا تُوزنُ بميزان العقل ولا النَّقل ولا العلم، لضاقت بنا الصَّفحات، ولاحتجنا إلى مصنَّف كبير يزيدُ عن بضع مجلدات، وكلّها دون فائدة، بل لا تمتُّ إلى الحقيقةِ بصِلَةٍ، نسأل الله عزَّ وجلَّ أنْ يعلّمنا ما ينفعنا، وأنْ يكرمنا بالانتفاع بسيرة رجال أهل البيت، والسَّير على نهجهم ومناهجهم، وأنْ يحشرنا في معيتهم، إنَّه سميعٌ مجيب.

حيَاتُهُ مَعَ القُرآن الكريم:

* نستخلصُ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضوانُ الله عليه هو من رجالِ أهلِ البيتِ الأصفياء الذين تعاملُوا مع القُرآن العظيم معاملةً متميزة؛ وهو ممّن حفظَه

= وعالمٌ عيلم لا تزيدهُ هذه المعلومات الهشّة رفعةً أو مكانة؛ ولكن لبعض علماء الصّحابة أقوال نستنيرُ بها في رسم معالم شخصيّة سيّدنا عليّ رضي الله عنه، وهذه الأقوال تمثّل رأي الصحابي فقط في سيدنا عليّ رضي الله عنه، ومنها قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أُعطي عليٌّ تسعة أعشار العلم، ووالله لقد شاركهم في العُشْر الباقي، وإذا ثبت لنا الشّيء عن عليّ لم نعدلْ إلى غيره».

وممّا لا ريب فيه أنَّ سؤال كبار الصَّحابة له، ورجوعهم إلى فتاويه وأقواله في المواطن الكثيرة والمسائل المعضلات مشهورٌ مثبتٌ في أمّهات المصادر المتنوّعة.

كما ينبغي ألاّ يغيب عن البال بأنَّ سيّدنا عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه أحدُ الخلفاء الرّاشدين، وأحدُ العلماء الرّبانيين، والزّهاد المذكورين، والشُّجعان المشهورين، وأحدُ السّابقين إلى الإسلام من الغُرّ الميامين، من بني هاشم المطيّبين، وأحوال عليّ رضي الله عنه وفضائله في كلّ شيء مشهورة غير منحصرة».

وفي مثلِ هذه الأحوالِ التي افتُريت على أهل البيتِ يقول ابن قيّم الجوزيّة رحمه الله في «مفتاح دار السَّعادة»: «والكذّابون كثيراً ما ينفقون سلعَهم الباطلةَ بنسبتها إلى عليّ وأهلِ بيته، كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والمراحم وغيرها، فلا يدري ما كُذِب على أهل البيت إلا الله سبحانه».

وفهمَه في حياةِ النَّبيِّ ﷺ، وكان واحداً من مصادرِ أهلِ البيتِ في علم التَّفسير.

* وينبغي أنْ نستحضر أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أنزل إلينا القرآنَ العظيمَ، وقد وعَدَ فيه وبشَّرَ، وأوْعَدَ وحذَّر، ونهى وأمر، وأكملَ فيه الدِّين، وجعله الوسيلةَ النَّاجعة، والحبْلَ المتينَ، ويسَّرَهُ للذِّكْر، وخلَّدَهُ غابرَ الدَّهْر، عصمةً للمعتصمين، ونوراً ساطعاً في مُشْكِلاتِ المُختصمين، وحجَّةً قائمةً على العالَم، ودعوةً شاملة لِفِرَقِ بني آدم، كلامه الذي أعجزَ الفُصحاء، وأخرسَ البلغاء، وشرَّفَ العُلماء، وهو الكتابُ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

* تبحَّرَ سيِّدُنا عليٌّ رضي الله عنه كثيراً في فضائلِ القرآن، وعرف كيفية الاعتصام به، ولا شكَّ في أنَّه سمعَ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ عندما قال: «إنَّه ستكون فتنٌ كقِطَعِ الليلِ المُظْلم»، فقال: أو قيل: فما المخرجُ منها يا رسولَ الله؟ أو: ما النَّجاةُ منها يا رسولَ الله؟ قال: «كتاب الله تعالى، فيه: نبأُ مَنْ قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما بينكم، وهو فصلٌ ليس بالهزْلِ، مَنْ تركه تجبّراً قصمه اللهُ، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضلَّه الله، وهو حبلُ اللهِ المتين، ونورُه المبين، والذّكرُ الحكيم، والصِّراطُ المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تتشعبُ معه الآراء، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، مَنْ عَلِمَ عِلْمَه سبق، ومن عملَ به أُجِر، ومن حكم به عَدَل، من اعتصمَ به هُدي إلى صراطٍ مستقيم»[1].

* ويتحفنا سيّدنا عليٌّ بهذه الفريدة النَّافعة الماتعة فيقول: «ما من شيء إلا وعلمه في القرآن، ولكن رأي الرَّجلِ يَعْجزُ عنه».

* ولهذا عرف سيّدنا عليّ رضي الله عنه بأنَّه أميرُ رجالِ أهلِ البيتِ، وكذلك الصَّحابة في علم التَّفسير، وصار مرجعاً لعلماء الصَّحابة في هذا الفنِّ العظيم.

---

(١) انظر: تفسير القرطبيّ (١/ ٥)، وتفسير ابن عطيّة (ص ١٥)، والتّفسير الكبير للرّازيّ (٢/ ٥)، وفضائل القرآن لابن كثير (ص ١٥).

* قال ابنُ عطيّة رحمه الله: «وكان جلّةٌ من السَّلف، كثيرٌ عددُهم، يفسّرونَه، وهم أبقوا على المسلمين في ذلك، رضي الله عنهم. فأمّا صدرُ المفسّرين، والمؤيّدُ فيهم، فعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوهُ عبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما، وهو تجرَّدَ للأمْرِ وكَمَّلَهُ وتتبَّعَهُ، وتبعه العلماء عليه، كمجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبير، وغيرهما. والمحفوظُ عنه في ذلك أكثرُ من المحفوظِ عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال ابنُ عبَّاس: ما أخذتُ من تفسيرِ القرآن فعن عليٍّ بن أبي طالب، وكان عليُّ بنُ أبي طالب يثني على تفسير ابن عبّاس، ويحضُّ على الأخذ عنه... ويقولُ عنه: ابن عبَّاس كأنَّما ينظرُ إلى الغيب من سترٍ رقيق»(١).

* وكان سيّدنا عليٌّ والخلفاءُ الرَّاشدون رضي الله عنهما يحفظون كتاب الله عزَّ وجلَّ ويجمعونه، وقد تظاهرت الرِّوايات بأنَّ الأئمةَ الأربعةَ أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعلياً جمعُوا القرآن على عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ لأجلِ سَبْقِهم إلى الإسلام، وإعظام الرّسول ﷺ لهم(٢).

* كما ينبغي أنْ نتذكَّرَ ونعرفَ أنَّ سيّدنا علياً رضي الله عنه أحدُ رجالِ أهل البيتِ من كتَبَةِ الوحي، فقد كان يكتبُ للنَّبيِّ ﷺ أكثرَ التَّنزيل، كما كان الكاتب لعهودهِ إذا عاهد، وصلحِهِ إذا صالح.

* ولهذا لا نستبعد إذا قلنا: «إنَّ سيّدنا علياً قد آتاه اللهُ عزَّ وجلَّ بسطةً في علمِ التَّفسير، وفهماً في تأويلِ آي القرآن الكريم، وقد رجع إلى تفسيره علماءُ الصَّحابة وكبراؤهم وأقرّوا له بالعلمِ والمعرفة والاتّساع في هذا المضمار الميمون».

* وفيما يأتي من فقرات وأفكار، نطَّلعُ على نماذجَ من تفسيرِ سيّدنا عليّ لبعضِ آيات من القرآن الكريم، كما نطّلعُ على بعضِ الأحكامِ التي استنبطَها

---

(١) تفسير ابن عطيّة (ص ٢٠)، وانظر: تفسير القرطبيّ (١/ ٣٥).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٥٧).

منه، ونعرفُ بعضَ القراءات التي أثرت عنه، كما نطّلعُ على بعضِ الرّقائق والزُّهديات حول فهمه لمعاني القرآن الكريم، وعن حياتِهِ المتّصلة بكتابِ اللهِ آناء الليل وأطراف النهار.

* فمن بدائعِ البدائهِ الخلابة لسيدنا عليّ حولَ فهم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، وحول تفسيرها نجدُ أنَّه رضي الله عنه يدركُ أنَّ البَسْملة[1] قد تضمَّنت جميعَ الشَّرعِ، لأنها تدلُّ على الذّات وعلى الصِّفات. قال سعيدُ بنُ أبي سكينة: «بلغني أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه نظرَ إلى رجلٍ يكتبُ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال له: جوِّدْهَا فإنَّ رجلاً جوَّدها فغَفَرَ له»[2].

* وفي فوائد البسملة وتفسيرها وفضلها روي عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه أنَّه قال في قوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: «إنّه شفاءٌ من كلّ داء، وعون على كلّ دواء. وأمّا ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: فهو عونٌ لكل مَنْ آمن به، وهو اسم لم يُسَمَّ به غيره، وأما ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: فهو لمن تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً»[3].

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يجهرُ في الصَّلاة ببسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيم، قال الفخر الرَّازي: «وأمَّا أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان يجهرُ بالتّسمية فقد ثبتَ بالتَّواتر، ومن اقتدى في دينه بعليٍّ بن أبي طالب فقد اهتدى، والدُّليلُ عليه قوله عليه السَّلام: «اللهم أَدِرِ الحقَّ مع عليٍّ حيثُ دار»[4].

* وقال الرَّازي أيضاً ما مفادُهُ ومحصَّله: «إنَّ علياً رضي الله عنه كان يبالغُ في الجهْرِ بالتَّسميةِ.. وبقي على ذلك طولَ عمره، وإنَّ الأخْذَ بقولِ عليٍّ أولى

---

(١) قال جعفر الصّادق رحمه الله: «البسملة تيجان السّور». (تفسير ابن عطيّة ص ٣٤).
(٢) تفسير القرطبيّ (١/ ٩١).
(٣) تفسير القرطبيّ (١/ ١٠٧).
(٤) التّفسير الكبير للرّازيّ (١/ ١٦٨).

من غيره... وقد كان عليٌّ بن أبي طالب، وابنُ عبَّاس، وابنُ عمر، وأبو هريرة رضي الله عنهم يجهرون بالبسملةِ، وهؤلاء كانوا أكثر علماً وقرباً من رسول الله ﷺ من غيرهم... ومن المعلوم بالضَّرورة أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقدّمُ الأكابرَ على الأصاغر، والعلماءَ على غيرِ العلماء... ولا شكَّ أنَّ عليّاً وابنَ عباس وابن عمر كانوا أعلى حالاً في العلْم والشَّرف وعلو الدَّرجةِ من غيرهم... والغالب على الظَّن أنَّ علياً وابنَ عبَّاس وابنَ عمر كانوا يقفون بالقُرب من رسولِ الله ﷺ، وأيضاً أنَّه ﷺ ما كان يبالغُ في الجهر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[الإسراء: ١١٠] وأيضاً فالإنسانُ أوَّلُ ما يشرعُ في القراءةِ إنَّما يشعرُ فيها بصوتٍ ضعيفٍ، ثمّ لا يزالُ يقوى صوته ساعةً فساعة، فهذه أسبابٌ ظاهرةٌ في أنْ يكونَ عليٌّ وابنُ عبَّاس وابنُ عمر وأبو هريرة سمعوا الجهرَ بالتَّسمية من رسولِ الله ﷺ وأنَّ غيرهم ما سمعوه...»[١].

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يرى بأنَّ «الفاتحةَ» هي سورة مكيَّة[٢]، وبذا قال جلَّةٌ من أكابرِ العلماء، ويؤيّده قوله عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[الحجر: ٨٧]، وسورة الحجر مكيّةٌ بإجماع، ولا خلافَ أنَّ فرضَ الصَّلاة كان بمكَّةَ، وما حفظ أنَّه كانت في الإسلام صلاة بغير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢][٣].

* وقراءةُ الفاتحةِ واجبةٌ في كلِّ ركعةٍ من ركعات الصَّلاة، فإنْ تركَها المصلّي في ركعة بطلتْ صلاته، وهذا القول مجمعٌ عليه بين الصَّحابة الكبار كأبي بكر وعمر، وعليّ وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين[٤].

---

(١) التّفسير الكبير (١/ ١٦٩ و ١٧٠) بتصرّف.

(٢) تفسير البحر المحيط (١/ ١٢٥) وقال سيّدنا علي: «نزلت فاتحة الكتاب بمكّة من كنز تحت العرش».

(٣) المصدر السّابق (١/ ١٢٦).

(٤) انظر: التّفسير الكبير (١/ ١٧٦ و ١٧٧).

* ولسورةِ الفاتحة[1] مقامٌ كريمٌ عند سيّدنا عليّ رضي الله عنه، وقد روى سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «فاتحةُ الكتاب، وآيةُ الكرسي، وشهدَ الله أنَّه لا إلـه إلا هو، وقُل اللهم مالك الملك، هذه الآيات معلّقاتٌ بالعرش ليس بينهنَّ وبين الله حجاب»[2].

* وإذا تتبعْنَا فهمَ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه لبعضِ المواطنِ من سورةِ الفاتحةِ، ألفينا أنَّه يقفُ كثيراً عند قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، لأنَّه يعلمُ أنَّ العبوديَّة مفتاحُ الخيراتِ، وعنوانُ السَّعاداتِ ومطلعُ الدَّرجات، وينبوعُ الكرامات، ومصدرُ الكمالات.

* ومن هذه المُنطلقات المباركات كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يقولُ مناجياً وداعياً متضرّعاً: «كفى بي فخراً أنْ أكون لك عبداً، وكفى بي شرفاً أنْ تكون لي ربّاً، اللهم إنِّي وجدتكَ إلهاً كما أردت، فاجعلني عبداً كما

---

(١) من الفوائدِ المهمّةِ التي ينبغي أنْ يعرفَها كلُّ محبٍّ للقرآنِ الكريمِ أنّ لسورة الفاتحة اثنَي عشَر اسماً وهي: «الصّلاة، سورة الحمد، فاتحة الكتاب، أمّ الكتاب، أمّ القرآن، المثاني، القرآن العظيم، الشّفاء، الرّقية، الأساس، الوافية، الكافية». (تفسير القرطبي ١/ ١١١ ـ ١١٣) باختصار.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ١١١). وفي صفات سورة الفاتحةِ، وخواصّها، وشرفها، وثوابها، يقولُ القُرطبيّ رحمه الله: «وفي الفاتحة من الصِّفات ما ليس لغيرها، حتّى قيل: إنَّ جميعَ القرآن فيها، وهي خمسٌ وعشرون كلمة تضمَّنت جميعَ علومِ القرآن. ومن شرفها أنَّ اللهَ سبحانه قسمَها بينه وبين عبده، ولا تصحّ القربةُ إلا بها، ولا يلحقُ عملٌ بثوابها، وبهذا المعنى صارت أمّ القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلث القرآن، إذ القرآنُ توحيدٌ وأحكامٌ ووعظٌ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التّوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان في قولِه ﷺ لأُبيّ: «أي آيةٍ في القرآن أعظم»؟ قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ....﴾ وإنّما كانت أعظم آية لأنّها توحيدٌ كلّها كما صار قوله ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنّبيّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، أفضل الذّكر، لأنّها كلماتٌ حوتْ جميعَ العلوم في التّوحيد، والفاتحة تضمَّنت التّوحيد والعبادة والوعظ والتّذكير، ولا يستبعدُ ذلك في قدرة الله تعالى». (تفسير القرطبي ١/ ١١٠ و ١١١).

أردت»[١].

* وبمناسبةِ سورةِ الفاتحة سنقرأُ هذه الأبيات التي نظَمها بعضهم مقتبساً خلالها سورة الفاتحة فقال:

لكَ «الحمدُ ربَّ العالَمين» نوحّدُ ... ولا مُسْلِمٌ في الكونِ إلا ويشهدُ
بأنَّكَ «رحمنُ رحيمٌ» بخلقِهِ ... و«مالكِ يوم الدّين إياكَ نعبدُ»
«صراطَ الذين أنعمتَ» فَضْلاً «عليهمُ» ... لهم «غير مغضوب» وحاشك تبعدُ
«ولا الضَّالين» آلآن عن طرقِ رشدنا ... بآمينَ قرّبنا إليك فنسعدُ

* ولمطالع السُّور وفواتحها معانٍ لطيفةٌ عند سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه، ففي فهمهِ وتفسيره لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ﴾[البقرة:١] يقولُ عن هذه الحروف التي في أوائل السُّور: «هي سرُّ اللهِ في القُرآن، ولله في كلِّ كتاب من كتبه سرّ، فهي من المُتَشابه الذي انفردَ اللهُ تعالى بعلمه، ولا يجبُ أنْ يُتكلَّم فيها، ولكنْ نؤمنُ بها ونقرأ كما جاءت»[٢].

* ومن معارف سيّدنا علي التّفسيريّة أنّه كان يرى أنَّ فواتحَ السُّور علْمٌ مستورٌ، وسرٌّ محجوبٌ استأثر به الله تباركَ وتعالى، وقال: «إنَّ لكلّ كتابٍ صفوةً، وصفوة هذا الكتاب حروف التّهجي»[٣].

* ولسيّدنا عليّ آراء تفسيريّة راقية، فهو يقول: «إنَّ فواتحَ السُّور أسماء الله تعالى»؛ وروي عنه رضي الله عنه أنَّه كان يقول: «يا كهيعص، يا حم عسق»[٤].

* أمَّا وقفات سيّدنا عليّ عند تفسير بعضِ الآياتِ القرآنية، فهي وقفاتٌ في غايةِ الجمالِ واللطفِ، وتحملُ بين ثناياها كثيراً منِ الرّقائق، والزُّهديات الموقظة للنّفوس، من ذلك فهمه لقولِه تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:٢]

---

(١) التفسير الكبير (١/ ٢٠٣).
(٢) تفسير القرطبي (١/ ١٥٤).
(٣) التفسير الكبير (٢/ ٤).
(٤) المصدر السّابق (٢/ ٦).

إذ قال رضي الله عنه عن مفهومه للتّقوى: «التّقوى: تركُ الإصرارِ على المعصيةِ، وتركُ الاغترار بالطّاعة»[1].

* ونلتقطُ نفيسَ الدُّرِّ وكريم الجوهر من فهمهِ الواسعِ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١] فنراه يتحدَّثُ عن العِلْمِ وفضله على المال كأنّه السَّيل الجرّار المتدفّق فيقول: «العلمُ أفضلُ من المال بسبعةِ أوجه:

أوّلها: العلْمُ ميراثُ الأنبياء، والمالُ ميراثُ الفراعنة.

الثَّاني: العلمُ لا ينقص بالنَّفقة والمال ينقص.

الثّالث: يحتاجُ المالُ إلى الحافظ، والعلمُ يحفظُ صاحبه.

الرَّابع: إذا ماتَ الرّجلُ يبقى ماله، والعلمُ يدخل مع صاحبه قبره.

الخامس: المالُ يحصلُ للمؤمن والكافر، والعلمُ لا يحصلُ إلا للمؤمن.

السَّادس: جميعُ النّاس يحتاجون إلى صاحب العلْم في أمرِ دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال.

السَّابع: العلمُ يقوّي الرّجل على المرورِ على الصّراط؛ والمال يمنعُه»[2].

* وعن فضْلِ العلمِ وعملِ العالم به يقولُ سيّدنا عليّ لجابرِ بنِ عبد الله الأنصاريّ: «قوامُ الدّنيا بأربعة: بعالمٍ يعملُ بعلمِهِ، وجاهلٍ لا يستنكفُ من تعلّمه، وغنيٍّ لا يبخلُ بماله، وفقيرٍ لا يبيعُ آخرته بدنياه، فإذا لم يعملِ العالمُ بعلمِهِ استنكفَ الجاهلُ من تعلّمه، وإذا بخلَ الغنيُّ بمعروفه باع الفقيرُ آخرته بدنياه، فالويلُ لهم والثّبور سبعين مرّة»[3].

---

(١) التّفسير الكبير (٢/ ٢٠). وهناك أقوالٌ نفيسةٌ في التّقوى منها: «التّقوى أنْ تزين سرّك للحقّ، كما زينت ظاهرك للخلق». ومنها: «التّقوى أنْ لا يراك مولاك حيث نهاك». ومنها: «التّقوى أنْ لا تختار على الله سوى اللهِ، وتعلم أنَّ الأمورَ كلّها بيد الله».

(٢) التفسير الكبير (٢/ ١٦٨).

(٣) التفسير الكبير (٢/ ١٧٠).

* ومن جميل فهمه للعلْمِ في ضوء القُرآن العظيم وصيّته لكميل بن زياد: «يا كميل بن زياد؛ إنَّ هذه القلوبَ أوعيةٌ، فخيرها أوعاها، فاحفظْ ما أقولُ لك. النّاسُ ثلاثة: عالمٌ ربّانيّ، ومتعلّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ أتباع كلِّ ناعق يميلون مع كلّ ريح لم يستضؤوا بنورِ العلْم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق؛ يا كميلُ العلمُ خيرٌ من المال، والعلمُ يحرسك وأنتَ تحرسُ المال، والمالُ تُنقِصُه، والعلمُ يزكو بالإنفاق، وصنيعُ المال يزولُ بزواله. يا كميلُ العلمُ زينٌ يزانُ به يكتسبُ به الإنسان الطَّاعةَ في حياته، وجميلُ الأحدوثة بعد وفاته؛ والعلمُ حاكمٌ، والمالُ محكومٌ عليه»[1].

* ونلمسُ لطائف المعارف من تحليلِ سيّدنا عليٍّ للعِلْمِ إذ يقول: «عينُ العلْم من العُلوّ، ولامُهُ من اللطف، وميمُهُ من المروءة»[2].

* ويدلّنا سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه على سلوكِ طريقِ العلْم الصَّحيح في ضوءِ قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة: ٣٢]، فيقول: «وابردَها على الكبدِ» ثلاث مرّات.

قالوا: وما ذلك يا أميرَ المؤمنين؟

قال: «أن يُسئلَ الرّجل عمّا لا يعلم فيقول: اللهُ أعلم»[3].

* ونطَّلع على بعضِ الآراء المقنعة في تفسيره لبعض كلمات القرآن الكريم ومفرداته من مثل قوله تعالى: ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ فقال: الرّعدُ: اسم الصّوت المسموع. والبرقُ: مخراقُ حديد بيد المَلَك يسوق به السَّحاب[4].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٧٩ و ٨٠)، وصفة الصَّفوة (١/ ٢٢٩ و ٣٣٠)، والتّفسير الكبير (٢/ ١٧٦ و ١٧٧).
(٢) التفسير الكبير (٢/ ١٨٤).
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٢٨٥)، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧١).
(٤) تفسير القرطبي (١/ ٢١٧).

* وفي تفسيره لكلمةِ الصَّبر في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة:٤٥] نجده يقول: «الصَّبرُ من الإيمان بمنزلةِ الرّأس من الجسَد».

* قال الطَّبريُّ: «وصدقَ عليٌّ رضي الله عنه؛ وذلك أنَّ الإيمانَ معرفةٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح، فمنْ لم يصبرْ على العملِ بجوارحه لم يستحقَّ الإيمان بالإطلاق، فالصَّبرُ على العملِ بالشَّرائع، نظيرُ الرّأس من الجسدِ للإنسان الذي لا تَمَامَ له إلاّ به»(١).

* وفي حياة سيّدنا عليّ مع القرآن الكريم نجدُ فهمَه يشملُ جوانبَ عديدة من الأحكام، ومنها ما وردَ في قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[البقرة:١٢٨]، يقول سيّدنا عليٌّ: «لمَّا فرغَ إبراهيم عليه السَّلام من بناء البيتِ ودعا بهذه الدَّعوة، بعث اللهُ إليه جبريل فحجَّ به»(٢).

* وأُثِرتْ عن عليّ رضي الله عنها أقوالٌ موجزةٌ نافعةٌ في تفسيره لبعض الآياتِ القرآنيةِ الكريمةِ، وقد وافقه عليها عددٌ ضخمٌ كبيرٌ من كبار علماء الصَّحابة وفقهائهم ومفسّريهم.

* ومن الأمثلةِ على ما نقولُ تفسيره لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان:١٠]، إذ قال: «هو دخانٌ يجيءُ يوم القيامة يصيبُ المؤمن منه مثل الزّكام، وينضجُ رؤوسَ الكافرين والمنافقين، حتّى تكون مصقلة حنيذة»(٣).

* كما فسّر كلمة التّقوى تفسيراً حكيماً مصيباً في قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[الفتح:٢٦] فقال: «كلمة التّقوى: لا إله

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣٧٢). وانظر: تفسير البحر المحيط (١/ ٦٢١).
(٢) تفسير البحر المحيط (١/ ٥٦٠)، وانظر: تفسير ابن عطية (ص ١٣٤).
(٣) تفسير ابن عطية (ص ١٦٩١)، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٣٤)، وانظر: تفسير القرطبي (١٦/ ١٣٠).

إلا الله، والله أكبر»[1]. وقد وافقه في هذا التَّفسير عدد جمٌّ من كبراء الصَّحابة وعلمائهم.

* ومن بدائع تفسيره الذي وافقَهُ عليه جماعةٌ من الصَّحابة، تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[ق: ٤٠] حيث قال: «وأدبار السّجود: هما ركعتان بعد المغرب»[2].

* وهذه تفسيراتٌ موجزة أثرت عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه إذا فسَّر «الطَّلح» بالموز[3]، وفسَّر «شاهد» بيومِ الجمعة، و«مشهود» بيوم عرفة[4]. و«النَّجدين» بالثَّديين لأنَّهما كالطَّريقين لحياةِ الولدِ ورزقه[5]. و«أحقاباً» فسَّرها بمئةِ سنة[6].

* ونتعلَّم من تفسير سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه الحكمةَ الممزوجةَ بالموعظة والقصَّة الهادفة، أو الحكم الشَّرعي، أو رأي أهل البيت في التَّفسير.

* فمن المعارف الممزوجة بالحكمة والتّوجيه ما وردَ عن عيسى بن عمر عن أبيه قال: «قرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الصَّلاة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلىٰ: ١]، ثمّ قال: سبحان ربي الأعلى؛ فلمّا انقضتِ الصَّلاةُ قيل له: يا أميرَ المؤمنين، أتزيدُ هذا في القرآن؟

قال: ما هو؟

قالوا: سبحان ربّي الأعلى.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/ ٩٩)، وتفسير ابن عطية (ص ١٧٣٧).
(٢) تفسير البحر المحيط (٨/ ١٢٨)، وتفسير ابن عطيّة (ص ١٧٥٨).
(٣) المصدر السَّابق (٨/ ٢٠٦)، وتفسير ابن عطية (ص ١٨١١).
(٤) تفسير البحر المحيط (٨/ ١٤٣)، وانظر: التَّفسير الكبير (٣١/ ١٠٦)، وتفسير ابن عطية (ص ١٩٦٣).
(٥) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٧١).
(٦) التفسير الكبير (٣١/ ١٣).

قال: لا، إنّما أُمرنا بشيء فقلتُهُ»[1].

* وهذا تفسير عَمَليٌّ شرعيٌّ فِقْهيٌّ جاء في تفسير القُرطبيّ قال: «روي أنَّ علياً رضي الله عنه أُتي برجلٍ ارتدّ، فاستتابه ثلاثة أيّام، فلم يعاود الإسلام، فضربَ عنُقَه وقرأ: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾[الغاشية: ٢٣]»[2].

* ومن تفسيره المنطقيّ والاستفهامي في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾[الفجر: ٢٣] قال عليٌّ رضي الله عنه: «قلت: يا رسولَ اللهِ كيف يُجاء بها»؟

قال: «يُؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام، يقود بكلّ زمام سبعون ألف مَلَك، فتشردُ شردةً لو تُركتْ لأحرقتْ أهلَ الجمع، ثم تعرض لي جهنّم فتقول: مالي ولك يا محمّد إنَّ الله قد حرَّم لحمك عليّ».

فلا يبقى أحد إلاّ قال: نفسي نفسي؛ إلاَّ محمّد ﷺ فإنّه يقول: «ربّ أمّتي، ربّ أمتي»[3].

* وفيما يشبه هذا التّفسير تفسيره لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[الضحى: ٥]، فقد جاء عنه رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يشفّعُني الله في أمّتي حتّى يقولُ اللهُ سبحانه لي: رضيتَ يا محمّد؟ فأقول: يا ربّ رضيتُ»[4].

* وعند أهل البيتِ نسمعُ هذا التّفسير من سيّدنا عليّ إذ يقولُ لأهل العراق: «إنّكم تقولون: إنَّ أرجى آيةٍ في كتابِ الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٤)، وانظر: تفسير ابن عطية (١٩٦٨).
(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٣٧).
(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٥٥)، وانظر: تفسير ابن عطية (ص ١٩٧٨).
(٤) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٥).

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣]، قالوا: إنّا نقول ذلك.

وقال: ولكنّا أهل البيت نقول: إنَّ أرجى آيةٍ في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى: ٥]».

* وفي الحديث: لما نزلَتْ هذه الآية قال النَّبيُّ ﷺ: «إذاً واللهِ لا أرضى واحداً من أمّتي في النَّار»[١].

* وجاء عن سيّدنا العبّاس بن عبد المطَّلب رضي الله عنه أثرٌ في هذه الآية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ فقال: «رضي محمّدٌ ﷺ ألا يدخلَ أحدٌ من أهلِ بيته النَّار»[٢].

* ومن آراء سيّدنا عليّ في التَّفسير ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[التين: ٨] فكان رضي الله عنه إذا قرأها قال: «بلى وأنا على ذلك من الشَّاهدين»[٣].

* ومن أقوالِهِ رضي الله عنه المنقولةِ عنه في تحديد ليلة القدر قوله بأنّها ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان[٤].

* كما أنَّ من آرائه التّفسيرية التي انضوى تحتها كبار علماء الصَّحابة ـ وفي مقدمتهم ابن عمّه عبد الله بن عبّاس، وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين ـ رأيّه وقوله في ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾[العاديات: ١]، فقد قال رضي الله عنه: العاديات: هيُ الإبلُ تعدو في الحجّ. بينما قال ابن عبّاس وآخرون: هي الخيلُ. ولكنّهم رجعوا إلى قولِ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، في خبرٍ ذكرَهُ الشَّعبيُّ رحمه الله قال: «تمارىٰ ـ تجادَل ـ عليٌّ وابنُ عبّاس في «العاديات» فقال عليٌّ: هي الإبل تعدو في الحج.

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٦)، وتفسير ابن عطية (ص ١٩٨٦).
(٢) المصدر السّابق (٢٠/ ٩٥).
(٣) المصدر السّابق (٢٠/ ١١٧)، وانظر: تفسير ابن عطية (ص١٩٨٦ م).
(٤) المصدر السّابق (٢٠/ ١٣٦)، وهذا رأي عدد من كبار علماء الصحابة أيضاً.

وقال ابنُ عبّاس: هي الخيلُ، ألا تراهُ يقول: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾[العاديات: ٤] فهل تثيرُ إلا بحوافرها؟ وهل تضبح الإبل؟

فقال عليٌّ: ليس كما قلتَ، لقد رأيتنا يومَ بَدْرٍ وما معنا إلا فرسٌ أبلقُ للمقدادِ، وفرسٌ لمرثَد بنِ أبي مَرْثد.

ثمّ قال له عليٌّ: أتُفْتي النَّاس بما لا تعلم؟! واللهِ إنْ كانت لأوَّل غزوةٍ في الإسلام، وما معنا إلاَّ فرسان: فرسٌ للمقداد، وفرسٌ للزّبير، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟

إنَّما العاديات: الإبلُ من عرفة إلى المزدلفةِ، ومن المزدلفةِ إلى عرفة.

قال ابنُ عبّاس: فرجعتُ إلى قول عليٍّ رضي الله عنه»[1].

* ومن لطائف التَّفسيرِ لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه هذا التَّفسير الجميل البهي لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا﴾[النازعات: ١ ـ ٣]، إذ قال: «إنَّ الملائكةَ يسلُّون أرواحَ المؤمنين سَلاًّ رفيقاً، فهذا المرادُ من قوله: ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾ ثم يتركونها حتّى تستريحَ رويداً، ثمّ يستخرجونها بعد ذلك برفقٍ ولطافةٍ كالذي يسبحُ في الماء، فإنّه يتحرَّكُ برفقٍ ولطافةٍ لئلا يغرق، فكذا هاهنا يرفقون في ذلك الاستخراج لئلا يصلَ إليه ألمٌ وشدّةٌ، فذاك هو المرادُ من قوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا﴾»[2].

* وفي سعةِ أفق سيّدنا عليٍّ وتواضعه، وتفهيمه للنّاس العِلْم يقولُ في توضيح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى: ١١]، فقد سُئل سيّدنا عليّ عن الصَّحابة، فأثنى عليهم، وذكر خصالهم.

فقالوا له: فحدثْنا عن نفسك.

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (ص ١٩٩٩)، والتفسير الكبير (٣٢/ ٦٠)، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٥٠٠)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ١٥٥).

(٢) التفسير الكبير (٣١/ ٢٦ و ٢٧)، وتفسير ابن عطية (ص ١٩٤٣).

فقال: مهلاً، فقد نهى الله عن التّزكية.

فقيل له: أليسَ الله تعالى يقول: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ فقال: فإنّي أحدّث؛ كنتُ إذا سُئلت أعطيتُ، وإذا سكّتُ ابتديتُ، وبين الجوانح علمٌ جمٌّ فاسألوني»[1].

* يمكننا الآن أنْ نقولَ بوضوحٍ: «إنَّ علْم سيّدنا عليٍّ في تفسير القرآنِ علمٌ جمٌّ مدْرارٌ، وبحرٌ واسعٌ ليس له قرار، ولو رحتُ أجمعُ لك ما تفرّق من أقواله في التّفاسير لاحتاجَ منا الأمرُ إلى مجلداتٍ كثيرةٍ، وقد يفنى العمرُ ولا ينتهي الباحثُ من غوصِهِ في معارف سيّدنا عليٍّ في مجال التّفسير وميدانه، واستخراج لؤلؤه ومرجانه».

* ويحسُنُ بنا أنْ ننصفَ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه ونُشيرَ بفخرٍ إلى أنَّه من الصّحابة الكرام من أهل البيت الذين أُثرتْ عنهم قراءاتٌ كثيرةٌ، وقد تلقّى عن سيّدنا عليّ علمَ القِراءات أفاضلُ العلماء، وأكابر التّابعين، إذ كان سيّدنا عليّ أحد السَّبعة المشتهرين بإقراء القُرآن من الصَّحابة الكرام[2].

* ومن الجدير بالذّكر والنَّافع معرفته أنَّ القراءات وأوجهها والرّوايات وطرقها قام بنقْلِها، وإتقانها أئمة القرآن، الضَّابطون لها، الجامعون لتحقيق هذا العلمِ وإتقانه، والذين نُقلت عنه وجوهُ القراءات في كل عصرٍ فلا يكادون يُحصَون، منهم من صحابةِ رسولِ الله ﷺ: الخلفاء الرّاشدون الأربعة رضي الله عنهم، أبو بكر وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ، وكذلك طلحةُ، وسعدُ، وابنُ مسعود، وحذيفةُ، وسالمٌ مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وابنُ عمر، وابنُ عبَّاس، وعمرو بنُ العاص، وابنهُ عبدُ الله، ومعاذٌ، وابنُ الزُّبير، وعبدُ الله بنُ أبي السَّائب، ومن أمَّهات المؤمنين: عائشةُ، وحفصةُ، وأمُّ سلمة، هؤلاء أجمعون من المهاجرين رضي الله عنهم.

---

(١) التفسير الكبير (٣١/ ٢٠٠).

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ٦١).

* ومن الأنصار: أُبيُّ بنُ كعب، ومعاذُ بنُ جبل، وزيدُ بنُ ثابت، وأبو الدَّرداء، وأبو زيد، وأنسُ بنُ مالك رضي الله عنهم.

* فهؤلاء كلُّهم جمعوا القرآن على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ؛ وعنهم أخذ التّابعون فالقُرَّاء وأهلُ العلْم.

* أمّا ما ورد عن سيّدنا عليّ من القراءات فنحن ذاكروا هذا بإذن الله تعالى لتتوضّح صورته العلميّة في الأذهان.

* ففي قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾[البقرة:٦١] فقد قرأ كلمة «ويقتلون»: «وَيُقَتِّلُون»[١] بالتَّشديد للتَّاء لظهور المبالغة في القَتْل.

* وعند قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[البقرة:١٤٧] قرأ كلمة «الحقُّ»: «الحقَّ»[٢] بالنَّصب، وأعرب بأن يكون بدلاً من الحقّ المكتوم، فيكون التّقدير: يكتمون الحقَّ من ربّك، أو على أن يكونَ معمولاً لـ«يعلمون».

* وقرأ كلمة ﴿ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾[البقرة:٥٥]: الصَّعْقة[٣]، وهذه القراءة هي قراءةُ ابن محيصن في جميعِ القرآن الكريم.

* كما قرأ كلمة ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[النّجم:١٥] جنَّهُ[٤] بهاء الضَّمير؛ وجنَّ: فعلٌ ماضٍ، والهاءُ ضميرُ النَّبيّ ﷺ، أي: عندها سَتَرهُ إيواء اللهِ تعالى وجميل صنعه.

وقيل: ضمّه المبيتُ والليل، وقيل: جنَّه بظلاله ودخل فيه.

* وعلى سبيل التَّفسير فقد قرأ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه قوله تعالى:

---

(١) تفسير البحر المحيط (١/ ٣٩٩). أقول: «قرأ على سيدنا علي أبو الأسود الدؤلي ومن هم في طبقته».

(٢) المصدر السابق (١/ ٦١٠)، وانظر: تفسير ابن عطية (ص ١٤٣).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٤٠٤)، وتفسير ابن عطية (ص ٨٩).

(٤) تفسير البحر المحيط (٨/ ١٥٧)، وتفسير ابن عطية (ص ١٧٨٠).

﴿وتجعلون شكركم﴾[1] بدلاً من ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾[الواقعة: ٨٢].

* وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٨]، قرأ سيّدنا عليّ كلمة «تخفى» بالياء هكذا «يخفى»[2]، وهي قراءة حمزة والكسائي.

* وقرأ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[المرسلات: ٢٣] على النّحو الآتي: «فقدَّرنا»[3] بشد الدّال من التّقدير.

* كما قرأ كلمة ﴿سُئِلَتْ﴾[التكوير: ٨] «سألَتْ»[4] مبنياً للفاعل.

* وقرأ رضي الله عنه كلمةَ ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلىٰ: ٣] «قَدَرَ»[5] مخفّفة الدَّال. بينما شدَّد الباقون، وهما بمعنى واحد.

* وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]، فقد قرأ سيّدنا علي «خَلَقْتُ» بفتح الخاء وسكون القاف على فعل المتكلّم. وكذلك «رَفَعْتُ» و«نَصَبْتُ» و«سَطَحْتُ»[6].

* وقرأ قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[العاديات: ٥]. «فَوسَّطن»[7]، بالتّشديد لحرف السّين، وهما لغتان، يقال: وسطت القوم «بالتّشديد والتّخفيف» وتوسّطتهم بمعنى واحد.

* ونذكُرُ أخيراً ونذكِّرُ بما لسيّدنا عليّ من قراءة في سورة الفاتحة حيث قرأ كلمة: ﴿مَٰلِكِ﴾[الفاتحة: ٤] «مَلَكَ»[8] بالفعلِ الماضي على وزْنِ فَعَلَ.

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٢١٤)، وانظر: تفسير ابن عطية (ص ١٨١٧).
(٢) تفسير البحر المحيط (٨/ ٣١٨)، وتفسير ابن عطية (ص ١٨٩٢).
(٣) تفسير البحر المحيط (٨/ ٣٩٧)، وانظر: تفسير ابن عطية (ص ١٩٣٥).
(٤) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٢٥)، وانظر: تفسير ابن عطية (ص ١٩٥٢).
(٥) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٥)، وهي قراءة الكسائي.
(٦) تفسير ابن عطية (ص ١٩٧٣)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٣٦).
(٧) تفسير القرطبي (٢٠/ ١٦٠)، وتفسير ابن عطية (ص ١٩٩٩).
(٨) تفسير ابن عطية (ص ٤١)، وتفسير البحر المحيط (١/ ١٣٤).

* هذه شذراتٌ لطيفةٌ نافعةٌ من علْم سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه بالقراءاتِ، كما عرفنا شيئاً عن حياته مع القرآنِ الكريمِ حفظاً وفهماً وتفسيراً، كما عرفنا أنَّ التَّربية النَّبويَّةَ التي تلقّاها سيّدنا عليٌّ قد أثَّرتْ في تحصيلِهِ العلميّ، وجعلتْهُ من أكثرِ رجالِ أهلِ البيت بسطةً في العلمِ والمعرفةِ، وخاصّةً في علوم القرآن الكريم، إذ كان عليماً بكلّ آيةٍ نزلَتْ، وفيم نزلتْ، وأين نزلتْ، وعلى مَنْ نزلَتْ، وقد وهبَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ قلباً عقولاً، ولساناً صادقاً ناطقاً سؤولاً[1] حتى غدا أمير علماء الصّحابة وسيّدهم فإليه يفزعون، وإلى علمِهِ يحتاجون، ومن هديِهِ يقتبسون، فرضي الله عنه وعنهم.

عليٌّ وروايةُ الحَديث:

* منذ أنْ نطقَ سيّدنا عليّ بالشَّهادة، لزم الحبيب المصطفى ﷺ، وأخذَ عنه حتّى غدا من أعلم الصَّحابة بالسُّنَّة، ومن أعلمِ رجالِ أهلِ البيت بالأحوال النَّبويّة، والشَّمائل المحمّدية، وقد شهد له بهذا الأمر كثيرٌ من رجالِ أهل البيت وعلمائهم، وكثيرٌ من علماء الصَّحابة الذين أخذوا عنه، وتربّوا على منهجه.

* ومع هذا كلّه فلم يكن سيّدنا عليّ رضي الله عنه من المكثرين من روايةِ الأحاديث، وإنّما كان من أصحاب المئات وشيء، في حين أخذَ عنه أصحابُ الألوف مثل: ابن عمر، وابن عبّاس، وأبو سعيد الخدريّ، وجابرُ بنُ عبد الله، وأبو هُريرة[2]، رضي الله عنهم أجمعين.

* روى سيّدنا عليّ رضي الله عنه عن ابن عمّه الصَّادق المصدوق ﷺ (٥٨٦ حديثاً) اتّفق الإمامان الجليلان البخاري ومسلم على عشرين منها، وانفرد البخاري بتسعة، ومسلم بخمسة عشر[3].

---

(١) انظر في هذا: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٨)، وحلية الأولياء (١/ ٦٧ و ٦٨).

(٢) اقرأ سير هؤلاء السادة العلماء الأعلام في موسوعتنا المونقة «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم»، فسيرتُهم نزهةُ المجالس وأُنْسُها وعبيرها.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٥)، وتاريخ الخلفاء (ص ١٧١).

* روىٰ عنه من أهلِ البيتِ كثيرون منهم: بنوه الثَّلاثة؛ أسيادُنا: الحسنُ والحسينُ ومحمّد المعروف بابن الحنفيَّة؛ وحفيداه: محمَّد بن عمر بن عليّ، وعليُّ بنُ الحسين الملقّب بزين العابدين، وسُرِّيَّتُه أمّ موسى.

* كما روى عنه من أقاربه: ابنُ أخيه عبدُ الله بنُ جعفر، وابنُ أخته جعدةُ بنُ هُبيرة المخزوميّ وأمُّه أمُّ هانىء، وابنُ عمِّه عبد الله بنُ عبَّاس وغيرهم[1].

* أمّا مَنْ روى عنه من علماء الصَّحابة فكُثُر منهم؛ سيّدنا: «عبدُ الله بن مسعود، وأبو هُريرة، وأبو سعيد الخدريُّ، وابنُ عبَّاس، وابنُ عمر، وابنُ الزُّبير ـ وهؤلاء الثَّلاثة من علماء العبادلة ـ وجابرُ بنُ عبد الله، وأبو موسى الأشعريّ، وجابرُ بنُ سمرة، والبراءُ بنُ عازب»[2].

* ومن الصَّحابة أيضاً: زيدُ بنُ أرقم، وأبو أمامة الأنصاريّ، وصُهيب الرُّوميّ، وأبو ليلى الأنصاريّ، وأبو رافع القُبطيّ، وجريرُ بنُ عبد الله وغيرُهم كثير.

* وروى عنه عددٌ من علماء التَّابعين وساداتهم منهم: زرُّ بنُ حُبيش، وزيدُ بنُ وهب، وأبو الأسود الدّؤليّ، وربعيُّ بنُ حراش، والشَّعبيُّ، وشُريحٌ، وأبو عبد الرَّحمن السُّلميّ وخلائق كثيرون.

* كما روى عنه عددٌ من أبناء الصَّحابة من مثل: عبدُ الله بنُ شدَّاد بن الهاد، وأبو بردةَ بنُ أبي موسى الأشعريّ، ونافعُ بنُ جُبير بن مُطعم، وغيرُهم، وأحاديثه منثورةٌ في جميع مصادر الحديث.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٥)، وتهذيب التّهذيب (٧/ ٣٣٤ و٣٣٥). وأما حصيلة سيّدنا علي الحديثيّة فقد رواها عن النّبيّ ﷺ، وعن أبي بكر وعمر والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم، وعن زوجته فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها.

(٢) اقرأ سير هؤلاء العلماء من الصحابة وغيرهم في موسوعتنا «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم».

* ومن مرويّات سيّدنا عليّ ما جاء في الصَّحيح في المناقب، ما أخرجه البخاري بسندٍ رفعه إلى عبدِ اللهِ بنِ جعفرَ رضي الله عنهما قال: سمعتُ عليّاً يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «خيرُ نسائها مريم، وخيرُ نسائها خديجة»(١).

* ومن مرويّاته في التَّفسير، ما أخرجه البخاريّ أيضاً بسنده عن أبي عبد الرّحمن السُّلَمي عن عليّ رضي الله عنه، قال: «كنَّا في جنازة في بقيعِ الغرقد، فأتانا رسولُ الله ﷺ، فقعدَ، وقعدنا حولَه، ومعه مِخْصَرة، فنكسَ فجعل ينكتُ بمخصرته، ثمّ قال: «ما منكم من أحدٍ، وما منَ نَفْسٍ منفوسةٍ إلا كُتِبَ مكانها من الجنَّة والنَّار، وإلاَّ قد كُتبت شقيّةٌ أو سعيدةٌ».

قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أفلا نتكلُ على كتابِنا وندعُ العمل، فمن كان منّا من أهلِ السَّعادة فسيصيرُ إلى أهلِ السَّعادة، ومَنْ كان منّا مِنْ أهل الشَّقاء، فسيصيرُ إلى عمل أهل الشَّقاوة؟

قال: «أمّا أهلُ السَّعادةِ فييسَّرون لعمل أهل السَّعادة، وأمّا أهلُ الشَّقاوة فييَّسرون لعمل أهل الشَّقاء». ثمَّ قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٦] الآية»(٢).

* ونتعلّم منْ مجال الطَّاعة في المعروف ما أخرجه مسلم بسندِه عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعثَ جيشاً وأمّر عليهم رجُلاً، فأوقدوا ناراً وقال: ادخلوها، فأراد ناسٌ أنْ يدخلُوها، وقال الآخرون: إنّا قد فررنا منها، فَذُكِرَ ذلك لرسولِ الله ﷺ فقال للذين أرادوا أنْ يدخلوها: «لو دخلتموها لم تزالُوا فيها إلى يوم القيامة». وقال للآخرين قولاً حَسَناً، وقال: «لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، إنّما الطَّاعةُ في المعروف»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب برقم (٣٨١٥)
(٢) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٩٤٨)، وانظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٨٣ و ٨٤).
(٣) أخرجه مسلم في الإمارة برقم (١٨٤٠).

* أمّا ما جاء في مجال الشَّمائل المحمّديّة فنقرأ ماأخرجه أحمد بسنده عن نافع بنِ جُبير بن مطعم، عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ أنَّه وصفَ النَّبيَّ ﷺ فقال: «كان عظيمَ الهامة، أبيضَ مشرباً بحمرة، عظيمَ اللحية، ضَخْمَ الكراديس، شَثْنَ الكفَّين والقدمين، طويلَ المسربة، كثيرَ شَعْر الرّأس راجله، يتكفأُ في مشيته كأنّما ينحدرُ في صَبَبٍ، لا طويل ولا قصير، لم أرَ مثله، ولا قبله ولا بعده ﷺ»(١).

* إنّنا نؤكّد قائلين: «إنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه من أكثر النَّاس خلطةً بالحبيبِ المصطفىٰ ﷺ، ومن أعظمِ النَّاس معرفةً بشمائله الشَّريفة وأخلاقهِ المنيفةِ، لذا جاء وصفَهُ للصَّادقِ المصدوقِ ﷺ وصفاً دقيقاً يعطيكَ من خلالهِ لوحةً صادقةً وصورةً ناصعةً عن شخصيّةِ الحبيبِ الأعظمِ رسولنا محمّدٍ ﷺ، ليكونَ لنا الأسوة والقدوة والمثَل، في الشَّكلِ والقولِ والعمل».

* إنَّ الحياةَ مع سيّدنا عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ـ وهو يسردُ محاسنَ الشَّمائل المحمّديّة ـ حياةٌ حافلةٌ بجميع أنواعِ العظائم، بحيث إنَّه وصفَ شمائله الشَّريفة وصفاً جاء في غاية الإحكامِ لَذات النَّبيِّ ﷺ خَلْقاً، وخُلُقاً، تجعلُ القارىء كأنَّه يطالعُ طلعةَ ذلك الجنَاب، ويرىٰ محاسنَهُ الشَّريفةَ باديةً من كلِّ باب.

* ومن خلال أحاديثِ سيّدنا عليّ المنثورة في مصنّفات كتب الحديث ومجاميعها، نسعدُ ونستمتعُ بما يحدّثنا به عما جاء في وصفه خُلق رسولِ الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٤٧) برقم (٩٤٤)، وأخرجه كذلك التّرمذي برقم (٣٦٣٧) وقال: «حديث حسن صحيح». ومعنى قوله: «شَثْنَ الكفين»: أي غليظهما، وهو مدحٌ في الرّجل، لأنّه أشدّ لقبضهم، وأصبرُ لهم على المراس. وقال القاضي عياض في الشِّفا: معنى «شثن الكفين والقدمين»: أي لحيمهما. و«ضخم الكراديس»: أي: ضخم الأعضاء، والكراديس: رؤوس العظام. و«المسربة»: خيط الشّعر الذي بين الصَّدر والسّرة. و«تكفّأ»: يتمايلُ إلى قدّام. و«ينحدرُ في صَبَب»: ينحدرُ عن موضع عال.

* أخرج التّرمذيُّ في شمائله بسندهِ عن الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما، قال: قال الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما؛ سألتُ أبي عن سيرةِ النّبيِّ ﷺ في جلسائِهِ؟ فقال: «كان رسولُ الله ﷺ دائمَ البشر، سَهْلَ الخلق، ليِّنَ الجانب، ليسَ بفظٍ، ولا غليظٍ ولا صخَّاب، ولا فحَّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافلُ عمّا لا يشتهي، ولا يُؤْيِسُ منه، ولا يجيبُ فيه، قد تركَ نفسه من ثلاث: من المِراء، والإكثار، وما لا يعنيه، وتركَ النَّاس من ثلاثٍ: كان لا يذمُّ أحداً، ولا يعيبُهُ، ولا يعيّرُهُ، ولا يطلبُ عورته، ولا يتكلّمُ إلا فيما رجَا ثوابه، وإذا تكلَّمَ أطرقَ جلساؤه كأنّما على رؤوسهم الطَّير، فإذا سكتَ تكلّموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلّم عنده أنصتوا له حتّى يفرغ.

حديثُهم عنده حديثُ أوّلِهم، يضحكُ ممّا يضحكون منه، ويتعجّبُ ممّا يتعجّبون منه، ويصبرُ للغريب على الجفوةِ في منطقِهِ ومسألته، حتّى إنْ كان أصحابُه ليستجلبونَهم، ويقول: «إذا رأيتم طالبَ حاجةٍ يطلبُها فأرفدوه» ولا يقبلُ الثَّناء إلاَّ من مكافىء، ولا يقطعُ على أحدٍ حديثَه حتَّى يجوزَ، فيقطعه بنهي، أو قيام»[1].

---

(١) أخرجه التّرمذي في الشّمائل (ص ٢١٩ و ٢٢٠) حديث رقم (٣٤٩) طبعة دار اليمامة المحققّة؛ وانظر: البداية والنّهاية (٦/ ٣٢ و ٣٣).. ومعنى «دائم البشْر»: طلاقةُ الوجْه وبشاشته، وإظهار السّرور في مجالسهِ العامة. و«سهل الخُلُق»: صفتُه السّهولة وعدم الشّدّة في أقوالهِ وأفعالهِ. و«ليّنَ الجانب»: متواضعاً. و«ليس بفظّ»: ليس بسيء الخُلُقُ. و«ولا غليظ»: ليس بجافي الطّبع ولا قاسي. و«ولا صخّاب»: رفعُ الصَّوت بالخصام أو كثير الصياح. و«ولا فحّاش»: لا يتكلّم بقبيحٍ ولا يشتمُ. و«ولا عيّاب»: لا يعيبُ شيئاً. و«مدَّاح»: لا يبالغُ في مَدْحِ شيءٍ من مباحاتِ الدنيا. و«يتغافلُ عمّا لا يشتهي»: يظهرُ الغفلةَ والإعراضَ عمّا ليس بمنكرٍ شرعاً، لكنه غير مستحسن عادة وطبعاً. و«ولا يجيب فيه»: يعني لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي بل يسكتُ عنه عفواً وتكرّماً، و«قد تركَ نفسه من ثلاث»: نزّهَها عنه ومنَعَها. و«المِراء»: الجِدال. و«الإكثار»: من الكلام. و«ولا يطلبُ عورته»: لا يتجسسُ على معايبِ النَّاس ويبحثُ عنها. و«أطرقَ جلساؤه»: خفضُوا رؤوسَهم تأدّباً وإنصاتاً. و«لا يتنازعون عنده الحديث»: لا يديرون الحديث بينهم إذا كانوا في مجلسهِ ﷺ. و«يصبرُ للغريبِ على الجفوة في=

* ومرويات سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه كثيرةٌ منثورةٌ تملأُ مصنفات الحديث، فمنْ أرادَ المزيد، فليرجع إلى الينابيع المتخصِّصة يجدْ بغيتَه في الأحاديث التي جمعَتْ معظم أبواب العلْمِ والفقْهِ.

نفحَاتٌ من شَذا كَلماتِهِ:

* إذا أردنا أنْ نعرفَ عليّاً رضي الله عنه من خلال كلماتِهِ، فينبغي علينا أنْ نعرفَ أنَّ كلامَه قطعٌ من الأنفاسِ النَّبويّةِ الممزوجةِ بالتَّربية القرآنية، والفصاحة العربية، والبلاغة ذات المعين الذي لا ينضبُ.

* وسيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أحدُ أربعةٍ انتهت الفصاحة إليهم، وأُلقيت مقاليدُ البلاغة لديهم وهم: عليٌّ وابنُ عبّاس وأمُّنا عائشة ومعاويةُ رضي الله عنهم وكلُّهم قرشيّون.

* وقبل أنْ نُودِعَ هذه الفقرة كلمات سائرات، وحكماً نافعات، من معين الفصاحة الهاشميّة، دعونا نستمعُ إلى شذراتٍ جميلةٍ من كلام أبي نُعيم الأصبهانيّ التي وشّى بها حليته، وطرّزَ بها ترجمة سيّدنا عليّ رضي الله عنه، وأفاد من خلالها النّاس، وأمتع بحلاوتها الأسماع والأنفاسَ.

* فمن أقوال أبي نُعيم في سيّدنا عليّ وهو يرسمُ من خلالها خلالَه وشمائله، وأخلاقَه قوله: «عليُّ بنُ أبي طالب، سيّدُ القوم، محبُّ المشهود، ومحبوبُ المعبود، رأسُ المخاطبات، ومستنبطُ الإشارات، رايةُ المهتدين، ونورُ المطيعين.... قدوةُ المتّقين، وزينةُ العارفين، صاحبُ القلب العقول،

= منطقِهِ»: يعني الغلظة وتكلمه بما يُؤلم. و«ليستجلبونهم»: كان الصَّحابة رضوان الله عليهم يستجلبُون الغُرباء، ويرغَبُون في حضورهم مجلسَ النّبيّ ﷺ ليستفيدوا بسبب أسئلتِهم. و«فأرفدوه»: أعينوهُ وساعدوه. و«ولا يقبل الثّناء إلا من مكافىء»: مقتصد في ثنائه ومدحه. وقيل: إلاّ من مكافىء على يدٍ سبقت من النّبيّ ﷺ له. و«حتّى يجوزَ فيقطعه بنهي أو كلام»: أي أنَّه ﷺ لا يقطعُ على أحد كلامه، إلاّ إذا تجاوز حدّ الشّرع. والله تعالى أعلم. (هذا الشّرح مستقى من هامش الشّمائل المحمديّة ص ٢٢٠ و ٢٢١).

واللسان السؤول، والأذن الواعي، والعهد الوافي... الأخيشنُ في دين اللهِ، الممسوسُ في ذات الله.. كثيرُ الحمدِ للهِ على ما آتاه، عظيمُ الشّكر له على ما أولاه وأعطاه... كان رضي الله عنه إذا لزمهُ في العيش الضِّيق والجهد، أعرضَ عن الخلقِ فأقبل على الكسبِ والكدّ... وكان مزيّناً من بين العباد، متحقّقاً بزينة الأبرار والزُّهّاد.. وكان بذاتِ اللهِ عليماً، وعرفان الله في صدرهِ عظيماً، رضي الله عنها وأرضاه»[١].

* ولسيّدنا عليٍّ من وثيقِ العبارات، ودقيقِ الإشاراتِ، ما يشفي الصّدور، ويرقّقُ الشّعور، ويغني الفُصَحاء، ويثري البُلغاء، وينفعُ الخطيب، ويفيدُ الحبيب.

* وكلماتهُ تحتوي جميعَ فنونِ المكارم، ففيها الحكمةُ، وفيها الزُّهدُ، والموعظةُ، والوصيةُ والأدب، والأمورُ العامة التي تشملُ الحياةَ الاجتماعيّة، وفيها الأدعيةُ والمناجاةُ وكثيرٌ من الأمور النَّافعات.

* ومن أمثلة كلماته العامّة النَّافعة قوله: «قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يحسنُ».

* قال أبو عثمان الجاحظ في تعليقه على هذه الكلمةِ ما نصُّه: «فلو لم نقفْ من هذا الكتابِ ـ أي البيانِ والتَّبيين ـ إلاَّ على هذه الكلمة، لوجدناها شافيةً كافيةً، ومجزئةً مُغْنِيةً؛ بل لوجدناها فاضلةً عن الكفاية، وغير مقصرةٍ عن الغايةِ، وأحسنُ الكلام ما كان قليلهُ يغنيكَ عن كثيرهِ، ومعناهُ في ظاهر لفظِه، وكان الله عزَّ وجلَّ قد ألبسَه من الجلالةِ، وغشّاه من نورِ الحكمةِ على حسب نيّةِ صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظُ بليغاً، وكان صحيحَ الطَّبع، بعيداً من الاستكراه، ومنزّهاً عن الاختلال، مصوناً عن التَّكلُّفِ، صنَعَ في القلوبِ صنيعَ الغيث في التُّربة الكريمة، ومتى فصلتِ الكلمةُ على هذه الشَّريطة، ونفذَتْ من قائلها على هذه الصِّفةِ، أصحَبَها اللهُ من التَّوفيق، ومنحها من التّأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها

(١) انظر: حلية الأولياء (١/ ٦١ ـ ٨٧) مواطن متفرّقة بشيء من التّصرّف.

معه عقول الجهلة»[1].

* ومن كلماته التي جُبِلَتْ على الحكمةِ والموعظةِ والتَّعليم قوله: «ليس الخير أنْ يكثرَ مالُكَ وولدُكَ، ولكنَّ الخيرَ أن يكثرَ علْمك، ويعظم حلمُك، وأنْ تباهي النَّاس بعبادة ربّك، فإنْ أحسنتَ حمدتَ الله، وإنْ أسأتَ استخرتَ الله، ولا خيرَ في الدّنيا إلا لأحدِ رُجلَين: رجلٌ أذنبَ ذنباً فهو تدارك ذلك بتوبة، أو رجل يسارع في الخيرات، ولا يقلّ عمل في تقوى، وكيف يقلّ ما يتقبل»[2]؟

* ومن حِكَمِهِ الماتعةِ النَّافعةِ التَّربوية قوله موجّهاً ومعلّماً: «ألا إنَّ الفقيه كلَّ الفقيه الذي لا يقنطُ النَّاس من رحمةِ الله، ولا يؤمنهم من عذابِ الله، ولا يرخصُ لهم في معاصي الله، ولا يدعُ القرآن رغبةً عنه إلى غيره، ولا خيرَ في عبادةٍ لا علْم فيها، ولا خيرَ في علْم لا فهْم فيه ولا خيرَ في قراءةٍ لا تدبُّر فيها»[3].

* وفيما ينسحبُ على حِكَمِهِ وتوجيهاته لحملةِ القُرآن قوله: «يا حملةَ القرآن، اعملوا به، فإنما العالمُ مَنْ علمَ ثمَّ عملَ بما علم، ووافقَ علمه عملَه، وسيكون أقوامٌ يحملون العلمَ لا يجاوزُ تراقيهم، تخالفُ سريرتهم علانيتهم، ويخالفُ عملُهم علمَهم، يجلسون حِلَقاً، فيباهي بعضُهم بعضاً، حتى إنَّ الرَّجل يغضبُ على جليسه أنْ يجلسَ على غيره ويدعه، أولئك لا تصعدُ أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله»[4].

* إنَّ جلساء سيّدنا عليّ رضي الله عنه كانوا يشعرون بالمتعة والفائدةِ من تربيته الإسلاميّة لهم، وذات مرّة حدَّثهم عن القضاءِ والقدرِ، وأوجزه لهم بكلمةٍ

---

(١) البيان والتَّبيين للجاحظ (١/ ٨٣) بتحقيق عبد السَّلام هارون.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٧٥)، وصفة الصفوة (١/ ٣٢١).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٧٧)، ومختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧٢)، وصفة الصفوة (١/ ٣٢٥ و ٣٢٦).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧١).

نافعةٍ، فقام شيخٌ من المجلس تلقاء وجههِ ثمّ قال يخاطبه:

أنتَ الإمامُ الذي نَرجُو بِطَاعتِهِ يومَ النُّشور من الرّحمنِ رضْوَانا
أَوْضَحتَ من دِيننا ما كانَ مُلتبساً جَزَاكَ ربُّكَ عنّا فيهِ إحْسَانا[1]

* وشهد الأحنفُ بن قيس لسيّدنا عليّ بالبلاغة والفصاحة وحسنِ المقال فقال: «ما سمعتُ بعد كلامِ رسولِ الله ﷺ كلاماً أحسن من كلامِ أمير المؤمنين عليّ»[2].

* ومن حِكَمِهِ القِصَار، وكلماته التي تشبهُ النّضار قوله:

* لكلِّ أمرٍ عاقبةٌ.

* الإنصافُ راحةٌ.

* العجلةُ زَلَلٌ.

* الأدبُ رئاسةٌ.

* الاجتهادُ أربحُ بضاعةٍ.

* السَّلامةُ مع الاستقامةِ.

* الشّكرُ زينةُ الغِنىٰ.

* من الكرمِ صِلَةُ الرَّحم.

* الحسَدُ آفةُ الدِّين.

* نِعْمَ وزيرُ العلْم سَمْتٌ صالحٌ.

* ما أوضحَ الحقّ لذي عينَيْن.

* العالِمُ بمنزلة النَّخْلة تنتظرُ متى يسقطُ عليك منها شيءٌ.

---

(١) المصدر السّابق (١٨/ ٧٣) بتصرُّف.

(٢) المصدر السّابق (١٨/ ٧٤).

* مَنْ تفكَّر أبْصَرَ.

* مَنْ صارعَ الحقَّ صرعَه.

* لا شرفَ أعلىٰ من الإسلام.

* ليس الدّينُ بالرّأي إنّما هو اتّباعٌ.

* وللزُّهدِ مكانٌ رفيعُ القَدْرِ في كلماتِ سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه، وكيف لا؟ وقد شهدَ له أئمةُ الزُّهد بالزُّهد فعن حسن بن صالح قال: «تذاكروا الزُّهَّاد عند عمرَ بنِ عبد العزيز فقال قائلون: فلان؛ وقال قائلون: فلان. فقال عمرُ بنُ عبد العزيز: أزهدُ النَّاس في الدُّنيا عليُّ بنُ أبي طالب»[1].

* وينبغي أنْ نتذكَّرَ دائماً بأنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه قد تربّى في بيتِ ابنِ عمِّه رسولِ الله ﷺ، فكان ﷺ أزهد النَّاس في الدُّنيا، وقد نشأ سيّدنا عليٌّ يقتبسُ من الأخلاقِ النَّبويّةِ شيئاً كثيراً جعلَه من أمراءِ الزَّاهدين وأعيانهم، وقد رسمتْ لنا حياتُه كثيراً من المواقفِ التي يؤكّد فيها على الزُّهد والإعراضِ عن الدّنيا ومتاعها وزُخرفها.

* لذلك لا عجبَ أنْ تسيلَ من فِيْهِ كلماتٌ محشوّةٌ بالزُّهدِ والدَّعوةِ إلى الإعراضِ عن الدُّنيا لأنَّها دارُ فَناءٍ.

* فمن بدائعِ كلماتِهِ المحفوظة في الزُّهد قوله: «الدُّنيا أوّلها عناءٌ، وآخرها فناء».

* ويقول: «طُوبى للزّاهدين في الدّنيا، والرّاغبين في الآخرة، أولئك قومٌ اتّخذوا أرضَ اللهِ بساطاً، وترابَها فراشاً، وماءَها طِيْباً، والكتاب شعاراً، والدُّعاءَ دَثاراً، وقرَضُوا الدنيا قرضاً على منهاجِ المسيح ابنِ مريم».

* وقال له رجلٌ: صِفْ لنا الدُّنيا، فقال رضي الله عنه: «وما أصفُ لك من

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٦٥).

دارٍ، مَنْ صح فيها أمن، ومَنْ سقم فيها نَدِم، ومن افتقرَ فيها حزن، ومن استغنى فيها فُتن، في حلالها الحِسَاب، وفي حرامها النَّار».

* وفي التّحذير من الدّنيا والتَّفكُّر في عواقب الأيّام يقول: «أيها النّاس؛ انظروا إلى الدّنيا نظرَ الزَّاهدين فيها، الماقتين لها، فما خُلِقَ امرؤ عبثاً فيلهو، ولا أُمْهِلَ سدى فيلغو».

* وفي الموضوعِ ذاتِه يقولُ أيضاً: «رحم اللهُ عبداً تفكَّرَ فاعتبرَ، واعتبرَ فأبصرَ إدبار ما قد أدبر، وحضور ما قد حضَر، وكأن ما هو كائنٌ من الدّنيا عن قليل لم يكن، وكأنَّ ما هو كائنٌ من الآخرة لم يزلْ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ».

* وإذا ما انتقلنا إلى بستانِ الوعظِ وجدنا أنفسَنا ننعم في حدائقَ غنّاء من زهْرِ المواعظِ وورد الحكم، وأَلَقِ العلْم، وعبيرِ الفَهْم الذي يدلُّ على حصافةِ سيّدنا عليّ وبلاغتِهِ وحسنِ مواعظِهِ التي تأسرُ الألباب، وتخلبُ العقولَ بفصاحتها.

* ومن أجلِّ مواعظِهِ النّافعةِ المُستقاة من هدي النُّبوة قوله: «اغتنموا أيّام الصِّحَّة قبل السَّقَم، والشَّبيبة قبل الهرم، وبادروا بالتّوبة قبل النّدم، ولا تحملنّكم المهلةُ على طولِ الغَفْلة، فإنَّ الأجلَ يهدمُ الأمل، والأيّام موكلة بتنقيصِ المدّة وتفريقِ الأحبّة».

* وله هٰذه الموعظة الموقظة: «أعدّوا الجوابَ ليومِ الحساب، وأكثروا الزَّاد ليومَ المعَاد، عصمنا الله وإيّاكم بطاعته، وأعاننا وإياكم على ما يقرِّبُ إليه، ويزلفُ لديه، فإنّما نحنُ به وله».

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يمنحُ مواعظَه لكبارِ علماءِ الصَّحابة وأهل البيت، فيجدون الخير والسُّرور فيما يعظهم به، ويوجِّههم إليه، وسنستمعُ إلى هذه الموعظةِ النافعة التي نفحَ بها ابنَ عمّه عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهم أجمعين.

* قال سيّدنا عبد الله بنُ عبَّاس رضوان الله عليهما: «كتبَ إليَّ عليُّ بنُ أبي

طالب رضي الله عنه بموعظةٍ ما سررتُ بموعظةٍ سروري بها؛ أمّا بعد: فإنَّ المرءَ يسرُّهُ دَرْكُ ما لم يكنْ ليفوتَه، ويسوؤه فوتَ ما لم يكنْ ليدركَه، فما بالُكَ من دنياك فلا تكنْ بها فرحاً، وما فاتكَ منها فلا تُتبعْه أسفاً، وليكن سرورَك على ما قدّمت، وأسفك على ما خلفتَ، وهمّك بعد الموت، والسَّلام»[1].

* ونستفيدُ في حياتنا العِلْميّة والعمليّة منْ بدائعِ مواعظِهِ الموشّاة بنفيسِ الحكمةِ من قوله: «التَّوفيقُ خيرُ قائد، وحسنُ الخلق خيرُ قرين، والعقلُ خيرُ صاحب، والأدبُ خيرُ ميراث، والوحشةُ أشدُّ من العجب»[2].

* ومن مُلَح مواعظِهِ النَّافعةِ الماتعةِ التي تصلح لكلِّ زمانٍ ومكان، ولكلِّ عصرٍ ومصرْ قولهُ: «الكريمُ يلينُ إذا استُعطف، واللئيم يقسو إذا أُلطف».

* وقال: «مَنْ أرادَ أنْ ينصفَ النَّاس من نفسه فليُحِبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه»[3].

* وعند سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه كلماتٌ تجري مجرىٰ الوصيّة والتّوجيه والتَّرغيب، كما نجدُ خلالها التَّرهيب والنَّهي عن الغَلَط، وهذه الكلمات تجري مجرىٰ الأمثال أيضاً، ولو كُتِبتْ بماء الذَّهب لكان قليلاً.

* ومن هذهِ الكلمات والوصايا النَّافعات قوله:

* أحسنْ كما تحبُّ أنْ يُحسَنَ إليك.

* دعْ عنكَ «أظنُّ وأحسبُ وأرىٰ».

* أنفقْ في حقّ، ولا تكنْ خازناً لغيرِك.

* خَفِ اللهَ في سِرّك، يكفيكَ ما يضرّك.

* أطعْ أخاكَ وإنْ عصَاك، وصِلْه وإنْ جفَاك.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٦٩)، وصفة الصّفوة (١/ ٣٢٧).

(٢) المصدر السَّابق (١٨/ ٧١).

(٣) المصدر السَّابق (١٨/ ٧٦)، وهذه النّفحة مستقاة من الهدي النّبويّ.

* احذر التَّلوّن في الدِّين.

* اشكر اللهَ على ما أولاك، واحمدهُ على ما أبلاك.

* أخلصْ في المسألة لربّك، فإنَّ بيده العطاء والحرمان.

* مُرْ بالمعروفِ تكنْ من أهله.

لا تعملْ بالخديعةِ فإنَّها خلقٌ لئيم.

* لا يكنْ أهلُك أشقى النَّاس بكَ[1].

* ونلمسُ من كلماتِ سيّدنا عليّ المتنوّعةِ؛ العلْمَ العميقَ والفهمَ الدَّقيقَ لأمورِ الشَّرع، وذلك من خلالِ أجوبتِهِ النَّافعة عن مسائلَ متعددةٍ في أمورٍ كثيرة تشملُ الدِّين والأدبَ والزُّهديّات والفضائل.

* ومن كلماتِهِ الماتعةِ الشَّافية من الدَّاء أنَّه رضي الله عنه قد سُئِل: مَنْ العَالمُ؟.

فقال: من اجتنبَ المحارم.

قيل: فمن العاقل؟

قال: مَنْ رفضَ الباطل.

قيل: فمن السَّيد؟

قال: مَنْ فعاله جيّد.

قيل: فمن السَّعيد؟

قال: مَنْ خَشي الوعيد.

قيل: فمنِ الكريم؟

قال: منْ نَفَع العديم.

---

(١) أقول: «لسيدنا علي رضي الله عنه وصايا نافعة لأولاده، وخاصة الحسن والحسين رضي الله عنهما، وسنورد منها شيئاً يبل الصدى في سيرتهما من هذا الكتاب المبارك بإذن الله تعالى».

قيل: فمنِ الشَّريف؟

قال: مَنْ أنصفَ الضَّعيف.

قيل: فمنِ الهالك؟

قال: مَنْ دُفِعَ إلى مالك ـ أي خازن النَّار ـ.

* ولهذه الإجابات الشَّافية الكافية كان سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه يقولُ لجلسائه وأحبابِهِ وأصحابِهِ: «سَلُوني قبل أنْ تفقدوني، فإنَّ بين كتفيَّ ـ أو جنبيَّ ـ علْماً جمّاً، خبَّرني به حبيبي رسولُ اللهِ ﷺ».

* ومنْ وجيزِ الإجاباتِ وجميلها ولطيفها أنَّه رضي الله تعالى عنه سُئل: كم بين السَّماء والأرض؟

فقال: دعوةٌ مستجابةٌ.

قيل: فكم بين المشرق والمغربِ؟.

قال: مسيرة يوم للشَّمس.

* وقيل لعليٍّ رضي الله عنه: ما السَّخاء؟

قال: ما كان منه ابتداء، فأمَّا ما كان عن مسألةٍ فحياء وتكرّم[١].

* وسأله رجلٌ عن القَدرِ فقال: هو طريقٌ مظلمٌ لا تسلكْه، وبحرٌ عميق لا تلجْه، وسرّ الله قد خفي عليك فلا تفشه[٢].

إشراقات من ابتهالاته ومناجاته:

* من خلال سيرة سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه نعرفُ إشراقاتٍ من مناجاته وابتهالاته وأدعيته التي تشفي القلوب، وتجلو النفوس، وتعمرُ الأرواح بحبِّ فالقِ الإصباح، وجاعل الليل سَكناً.

* فمن أزهار رياض مناجاته لمولاه في العشي والإبكار قوله: «إلهي، إنْ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧٥).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧٣) باختصار وتصرف.

كنتَ لا ترحم إلاَّ المجدّين في طاعتك، فإلى مَنْ يفزعُ المقصرّون؟ وإنْ كنتَ لا تقبلُ إلاَّ من المجتهدين، فإلى مَنْ يلتجىءُ المخطئون؟ وإن كنتَ لا تكرمُ إلا أهل الإحسان، فكيف يصنعُ المسيئون؟ وإن كان لا يفوزُ يوم الحشْر إلا المتّقون، فبمن يستغيثُ المذنبون»؟

* أُقسمُ لكم ـ أحبائي القُرَّاء ـ أنَّ هذه المناجاة الرَّقيقة العذبة تزرعُ الأملَ والرَّجاء في قلوبِ الأحباب وقلوبِ النَّاس الذين قد تعثرُ فيهم بعضُ الأعمال، ومن ثم ينهضون منْ كبوتهم ليلحقُوا بالمجدّين المجتهدين.

* ما أعذبَ المناجاة! وما أعظمَ رجاء الله عزَّ وجلَّ! وما أجملَ أنْ نرهفَ الأسماعَ لهذه الهمسات التي دعا بها سيّدنا عليٌّ اللهَ عزَّ وجلَّ فقال: «إلهي، أمرتَ بالمعروف، وأنتَ أولى به من المأمورين، وأمرتَ بِصلةِ السُّؤال، وأنتَ خيرُ المسؤولين، إلهي، ما تضرّنا فرقة الإخوانِ والقرابات، إذا قرّبتنا منك يا ذا العطيّات».

* واسمْع إلى هذه الرّقائقِ العذبةِ من خلال هذه المناجاة التي ترطّبُ الأفئدة، إذ يقول سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه: «إلهي، إنْ كنّا مرحُومين، فإنّا نبكي على ما ضيّعناه في طاعتِكَ ما تستوجبه، وإنْ كنّا محرومين فإنَّا نبكي إذا فاتنا من جوارك ما نطلبُه».

* وقال مناجياً والأمل يملأُ جوانحَهُ: «إلهي، لو لم تهدني إلى الإسلامِ ما اهتديتُ، ولو لم تُطلقْ لساني بدعائِكَ ما دعوتُ، ولو لم ترزقْني الإيمان بك ما آمنتُ، ولو لم تعرفني حلاوةَ نعمتك ما عرفتُ، ولو لم تبيّنْ شديد عقابك ما استجرتُ. إلهي، إنْ أقعدني التّخلّف عن السَّبق مع الأبرار، فقد أقامتني الثِّقة بك على مدارج الأخيار. إلهي، كلّ مكروب فإليك يلتجي، وكلّ محزون فإيَّاك يرتجي».

* ومن رقائقِ مناجاتهِ وأدعيته هذه الفريدة: «إلهي، إنْ عذّبتني، فعبدٌ خلقْتَه لما أردتَ فعذبته، وإن رحمتني، فعبد ألفيته سيئاً فأنجيته».

* وقال: «إلهي، إنْ كنتُ غيرَ مستأهلٍ لما أرجو من رحمتك، فأنتَ أهلٌ أن تجودَ على المذنبين بفضل سعتك».

* وقال: «إلهي، نفسي قائمةٌ بين يديك، وقد أظلّها حسن توكّلها عليك، فاصنعْ بي ما أنتَ أهله، وتغمدني برحمتك. إلهي إنّك لم تزلْ باراً بي أيّام حياتي، فلا تقطعْ برّك بي بعد وفاتي. إلهي كيف أيأَسُ من حُسْنِ نظرك بعد مماتي، وأنتَ لم تولني إلاّ الجميل في حياتي».

* وقال داعياً راجياً: «إلهي، لولا ما اقترفتُ من الذّنوب ما خفتُ عقابك، ولولا ما عرفتُ من كرمك ما رجوتُ ثوابك، وأنت أكرمُ الأكرمين بتحقيق آمال الآملين، وأرحمُ مَنْ استرحم في تجاوزه عن المذنبين».

* وقال: «إلهي، سترتَ عليَّ في الدّنيا ذنوباً ولم تظهرها، فلا تفضحني يوم ألقاكَ على رؤوس العالمين، واسترها عليَّ هناك يا أرحمَ الراحمين».

* وكلماتُ سيّدنا عليٍّ ومواعظُه ومناجاتُه كثيرةٌ وغنيةٌ بالفضائل، ولا نستطيعُ الإحاطةَ بها هاهنا، لأنَّ هدفنا من الكتاب أنْ نجمعَ من كلِّ بستانٍ زهرة، وقد اجتمع عندنا طاقاتٌ مزهرةٌ تملأ الوجدان، كما أنَّ من هدف كتابنا هذا أنْ نشيرَ إلى فضائلِ أهلِ البيتِ ومناقبهم في عَصْر النُّبوّة خاصّة، وتحت ظلالِ الهدي النبويّ، ثم نذكرُ ما يرتبطُ بسيرتهم العطرة في عصرهم مع ما يتوافق مع منهج الكتاب.

* أمّا إذا أردنا أنْ نسترسلَ ـ مثلاً ـ في ذكْر أي منقبة لسيّدنا عليّ، فإنّنا ـ واللهِ ـ نحتاجُ إلى مجلدٍ كبير يعدُّ مئات الصَّفحات، وقد لا تنتهي هذه الفضيلة، لأنَّ فضائلَه رضي الله عنه لا يستطيعُ الباحثُ أنْ يحيطَ بها، أو أنْ ينظمها بين دفتي كتاب، والمتعمّق المتمعّن في أدعيتهِ ومناجاتهِ وحدها يجدُ مصداق ما قلناه، فكيف بنصائحهِ وخُطبهِ وبقية كلامه الذي يغذّي العقول ويلقّحُ الألباب بزهرِ الآداب، ونرجسِ العلوم، وورد المعرفة؟! نسأل الله أنْ يحشرنا بمعيته، وأن يتولاّنا برحمته.

سيّدُنا عَليٌّ والشِّعْرُ:

* نَسَبَ عددٌ من مُحبّي أهلِ البيتِ كثيراً من الشِّعر لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، وقد جمع كثيرٌ من الأدباء هذا الشّعر وضمَّنه ديواناً سمّاه «ديوان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه».

* واعتقدَ بعضُهم أنَّه قد أحْسَنَ صُنْعاً، وأنَّه أبرزَ بلاغةَ سيّدنا عليٍّ الشِّعريّة ومقدرته في هـٰذا المضمار، في حين أنَّ سيّدنا علياً أفصحُ من هذا الشِّعر المنسوبِ إليه، بل إنَّه في نثره أقوى وأفصحُ منه في شِعْره، وإذا تأمّلنا خطبةً من خطبه أو كتاباً من كتبه التي أرسلَها لأحدِ عماله لألفينا مقدرته على الكلام، ولأبصرنا فصاحتَه التي لا يقدر عليها أحدٌ من الأنام.

* ثمّ إذا قرأنا ما أورده ابنُ عساكر عن الشّعبيِّ أنَّه قال: «كان أبو بكرٍ شاعراً، وكان عمرُ شاعراً، وكان عليٌّ أشعرَ الثّلاثة»[1]، فلو تأمَّلنا هذا القولَ لوجدناه ضعيفاً، أو موضوعاً، أو مُبالغاً فيه، إذ جزمَتْ أمّنا وسيدتنا عائشةُ رضي الله عنها أنَّ أباها أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه لم يقلْ شِعْراً في جاهليّةٍ، أو في إسلام خاصّة، وقالت: «كذبَ مَنْ أخبركم أنَّ أبا بكر قال بيتَ شعرٍ في الإسلام»[2].

* قد يكون سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه ممّن ينظمُ الشِّعْر ولكنَّه يأتي سليقةً، ولا يتعدَّى البحور الشّعريَّة الحماسيّة كالرَّجَزِ والكاملِ والوافرِ؛ والتي تُقالُ في الحروبِ أو في الخُطب أو بعض المواقف أو الأحداث أو ما شابه ذلك، وهذا كلُّه يمكن أنْ يوضح جانباً بسيطاً من فصاحة سيّدنا عليّ وبلاغته، ولكنْ لا يمكنُ أنْ يزيدَ في رصيده البلاغي لأنَّ ما عثرنا عليه من الشِّعر الكثير الغزير

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧٧). وأوردَ ابنُ رشيق في «العمدة» نماذج من أشعارِ الخلفاء الرَّاشدين الأربعة ثم قال: «فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ما منهم إلا من قال الشّعر» (العمدة ١/ ٣٥)!!!

(٢) العمدة (١/ ٣١) وهذا القول صحيح علماً بأنَّ ابن رشيق قد أورد شعراً لأبي بكر ولكن فيه نظر.

المنسوب إليه؛ لا يتعدّى النَّظم والتَّكلُّف، ولا شاعرية فيه ولا روح شِعْرية تُظلّله، اللهمّ إلاَّ في بعضِ المقطّعات الصَّغيرة التي لا تتجاوز بضعة أبيات.

* فمن الشِّعر الذي نُسِبَ إلى سيّدنا علي رضي الله عنه، ولا يتعدّى صفه النَّظم ورصف الكلام، ما ساقه ابنُ عساكر عن جابرِ بنِ عبد الله[1] رضي الله عنهما قال: «سمعتُ علياً رضي الله عنه ينشدُ، ورسولُ الله ﷺ يسمع:

أنا أخو المُصْطَفى لاشكَّ في نَسَبِي ... معه رُبِيْتُ وسبْطَاهُ هُما وَلَدي
جدّي وجدُّ رسولِ الله منْفَرِدٌ ... وفَاطِمٌ زوجتي لا قولَ ذي فَنَدِ
صدَّقْتُه وجميعُ النَّاس في بُهَمٍ ... من الضَّلالةِ والإشراكِ والنَّكد
فالحمدُ للهِ شكراً لا شريكَ له ... البرُّ بالعبدِ والباقي بلا أَمَدِ

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «صدقتَ يا عليّ»[2].

* وقال في انتظارِ الفرجِ[3]:

إذا اشتملَتْ على اليأسِ القُلوبُ ... وضاقَ بما به الصَّدرُ الرَّحيبُ
وأوطنتِ المكارهُ واطمأنّت ... وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم يرَ لانكشاف الصَّبر وجْه ... ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاكَ على قنوط منك غوثٌ ... يجيءُ به القريبُ المستجيبُ
وكلُّ الحادثات إذا تناهَتْ ... فموصولٌ بها الفَرجُ القريبُ

* وقال الشَّعبيُّ: «قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه لرجلٍ ـ وكرِهَ له

---

(١) اقرأ سيرة سيدنا جابر رضي الله عنه في الباب الثّاني من كتابنا المبارك «علماء الصحابة رضي الله عنهم» (ص ٤٤١ ـ ٥٠٠)، ففي سيرته أزاهر مونقة وأخبار ماتعة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧٧ و ٧٨)، وديوانه (ص ٤٣): ومعنى «سبطاه»: الحسن والحسين رضي الله عنهما. و«ذي فند»: صاحب خطأ. و«بُهَم»: ضلال وشرك وكفر. و«بلا أمد»: بلا انتهاء. أقول: «يلاحظ القارئ الحصيف أثر النّظم والتّكلّف والركالة في هذه الأبيات».

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٧٨)، وديوانه (ص ١٣).

صحبةَ رجُلٍ ـ فقال له:

فـــلا تَصْحَــبْ أخــا الجهــلِ وإيَّـــــــاكَ وإيَّـــــــاهُ
فكَـــمْ مـــن جـــاهــلٍ أرْدى حليمـــــاً حيـــنَ آخـــاهُ
يُقـــاسُ المـــرء بـــالمـــرء إذا مـــا هـــو مَـــا شَـــاهُ
وللشَّـــيءِ مـــن الشَّـــيء مقـــاييـــسٌ وأشبـــاهُ
وللقلْـــبِ علـــى القَلْـــبِ دليـــلٌ حيـــن يَلْقـــاهُ»[1]

* وله عندما قَتَل عمروَ بنَ عبد ودّ العامريّ يوم غزوة الأحزاب قوله:

أعلــيَّ تقتحــم الفــوارس هكــذا عنّـي وعنهــم اخــروا أصحــابـي

* كما نسبوا إليه كثيراً من الشّعر والرّجز المثبوت في ثنايا سيرته في كتبٍ متفرّقة؛ وإذا تأمّل المرءُ في الشّعر المنسوب إلى سيّدنا عليٍّ، وجَدَ أنَّ شطْراً منه ينمُّ عن نفسه نميمةَ الحاسدِ الواشي فيقول: «إنَّ عليّاً بريءٌ من هذا الأمر براءةَ الذّئب من دم نبيّ الله يوسُف وذلك لهشاشةِ الألفاظِ وضَعْف المبنى وسقْم المعنى».

* ويمكن أنْ نضربَ أمثلةً على ذلك بالأبيات البائية التي قالها يوم غزوة الأحزاب عندما أودى بحياةِ الفاجرِ المجرم عمرو بن عبد ودّ، أو بداليته التي أوّلها:

---

(١) المصدر السّابق عينه (١٨/ ٧٨). أما ما صحَّ من قوله الرّجز ما جاء في «كامل» المبرد:

يــا شــاهــدَ اللهِ علــيّ فــاشهــدِ
إنّــي علــى ديــنِ النبــيّ أحمــدِ
مَــنْ شــكَّ فــي الله فــإنّــي مُهتــدِ

قال هذا الرّجز لمّا سَامَه الخوارجُ أنْ يقرَّ بالكفرِ، ويتوبَ حتّى يسيروا معه إلى الشّام.
فقال رضي الله عنه: «أبعد صحبة رسول الله ﷺ والتفقّه في الدّين أرجع كافراً»؟!
قال المبرّد في «الكامل» عن هذا الرّجز الذي أوّله: يا شاهد الله... : «إنه من شعر عليّ الذي لا اختلاف فيه، وإنّه كان يردده». والله تعالى أعلم....

الحمـدُ لله ربّـي الخـالـقُ الصَّمُـد   فليـس يَشْـرُكُـه فـي ملكـه أحـدُ

وهي ستة عشر بيتاً آخرها قوله:

ليسـوا كقَتْلـىٰ مـن الكفَّـار أدخَلَهـم   نـارَ الجحيـم علـى أبـوابهـا الأُصُـدُ

* وكذلك ما نُسِبَ إليه من الشِّعر يوم أُحد أو يوم مقتل كعب بنِ الأشرف اليهوديّ، وما شابه ذلك.

* ونجد شطراً آخر من الشِّعر المنسوب لسيّدنا عليّ، لا يبلغُ في نظمه سدّة فصاحته ولا بلاغته، بيد أنّه أقلّ تكلّفاً من الشَّطر الأوّل. وليس بمستبعد أن يكون من نظمهِ أو طرأ عليه شيء من التّحريف أو زِيْدَ فيه، أو ربما تمثَّل سيدنا عليّ بأشعار غيره وأقواله فظن ظانّون أنَّ ذلك من قريحته الغزيرة، أو من كلامه الجميل، فنسبوه إليه، وادعوه له كدعوىٰ آل حرب في زياد.

* وصفَ شعره الشَّيخ محمد سليم الجندي المتوفّى بدمشق سنة (١٩٥٥ م) فأجَادَ وأنصف فقال: «وإذا فرضنا أنَّ كلَّ هذه الأبيات المنسوبة إليه، هي وليدةُ قريحته، ونتاجُ فِكْره، فإنَّ عليّاً رضي الله عنه خطيبٌ مصقعٌ، وكاتبٌ بليغٌ مبدعٌ، وليس بشاعرٍ مفلّق، وكلامه في نثره أعلىٰ منْ كلامِهِ في نظمه، لأنَّنا لو قايسنا هذا بذاك نقول: إنَّ كلامَه دون كلام الخالق، وفوقَ كلام المخلوق».

* وأحبُّ أنْ أكونَ صريحاً مع محبِّي سادتنا أهلِ البيتِ ـ رجالاً ونساء ـ وأقول لهم: «إنَّ الأخبارَ الأدبيّةَ والشّعريّة التي وصلَتْ إلينا في عهدهم، لم تكن لتعتمدَ على الموثوق في السَّند أو الرّواة، ما عدا سوى بعضِ الأراجيزِ التي تتصلُ بالسّيرة النّبويّة في مواقفِها المختلفة، وقد دوّنَتْها مصادرُ موثوقةٌ كالصَّحيحَيْن، وكتب السُّنن، وصحاح السّيرة النّبويّة، أو كتب التَّاريخ الموثوقة، أو كتب التّراجم المتخصّصة الموثَّقة؛ أمّا مصادر الشِّعر والأدب في عهد فجرِ الإسلام وضحاه، فهي كتبُ الأدب ذات الإطلالة الواسعة على أخبار الشِّعر والشُّعراء، ومن هذه المصادر الأدبية كتاب: «العمدة في صناعة الشِّعر

ونقْده»، لابن رشيق، و«العقد الفريد» لابن عبد ربّه، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة، وكتاب «ربيع الأبرار» للزمخشري، و«المستطرف» للأبشيهيّ، وغيرها كثير لا يحصر، بالإضافة إلى المجاميع الشِّعرية المشهورة في عالَم الأدب والأدباء».

* وتضعُ بعضُ مصادرِ الأدبِ هذه أعينَنا على مواطنَ نقديةٍ، وخبراتٍ شعرية راقية في تقييم الشّعر ونقْده صَدَرتْ عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه، ومنها قوله: «الشّعْرُ ميزانُ القول»[1] كما كان يستسيغُ الشِّعر الرّاقي ويتذوّقه ويجيزُ عليه.

* قال ابنُ رشيق في «العمدة»: «يُروىٰ أنَّ أعرابياً وقف على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إنّ لي إليك حاجةً، رفعتُها إلى اللهِ قبل أنْ أرفعَها إليك، فإنْ أنتَ قضيتها حَمِدتُ الله تعالى، وشكرتك، وإنْ لم تقضِها حمدتُ الله وعذرتُك.

فقال لي عليّ: خُطَّ حاجتك في الأرض، فإنّي أرىٰ الضُّرَّ عليك.

(١) العمدة لابن رشيق (١/ ٢٣) تحقيق د. النبوي عبد الواحد شعلان ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠ م. ومما يندرج تحت هذا المجال النّقدي والتّذوّق الأدبيّ ما ذكره ابن رشيق أيضاً عن سيّدنا عليّ قال: «حُكيَ عن عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لو أنَّ الشُّعراءَ المتقدّمين ضمَّهم زمانٌ واحدٌ، ونُصبتْ لهم رايةٌ، فَجَروْا معاً، علمنا مَنِ السَّابقُ منهم، وإن لم يكن فالذي لم يقُلْ لرغبةٍ ولا رهبة.

فقيل: مَنْ هو؟

قال: الكندي ـ أي امرؤ القيس ـ.

قيل: ولم؟

قال: لأنّي رأيته أحسنَهم نادرةً، وأسبقهم بادرة». (العمدة ١/ ٤٦).

وفي موضع آخر أنَّ سيّدنا علياً كان يفضّل امرأَ القيس على الشعراء، ويقول: «رأيتهُ أحسنَهم نادرة، وأسبقَهم بادرة، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة» (العمدة ١/ ١٤٤).

فكتبَ الأعرابي على الأرض: إنّي فقيرٌ.

فقال عليٌّ: يا قَنْبَرُ، ادفعْ إليه حُلَّتي الفلانية.

فلمّا أخذها مَثَلَ بين يديه، وقال:

كَسَوتَني حلّةً تَبْلَى محاسِنُها ... فَسَوفَ أكسوكَ من حُسْنِ الثّنا حُلَلا
إنَّ الثَّناء لَيُحيي ذكْرَ صاحبِهِ ... كالغيثِ يحيي نداهُ السَّهْل والجبَلا
لا تَزْهدِ الدَّهرَ في عُرفٍ بدأتَ بِهِ ... فكلُّ عبدٍ سيُجزىٰ بالذي فَعَلا

فقال عليٌّ: يا قَنْبَرُ، أعْطِهِ خمسين ديناراً، أمّا الحُلَّةُ فلمسألتِكَ، وأمَّا الدَّنانير فلأدبِكَ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «أنزلوا النَّاس منازلهم»(١).

* والآن، هل يمكنُنا أنْ نقولَ: «إنَّ سيّدنا علياً رضي الله عنه من فطاحل الشّعراء ومشهوريهم في هذا المضمار الرحْب»؟

* في الحقيقةِ لم يكنْ سيّدنا عليّاً من المُنصرفين إلى موضوع الشِّعر أو نظمه، وإنَّ الذي نُسِبَ إليه لا يقدّمُ أو يؤخّرُ في تصدره الأدبَ والأدباء، فلم يكن الشّعر غايته، لأنَّ الأحداثَ الجسامَ التي رافقتْ حياته لم تكن لتعطيه الوقْتَ ليبوحَ بمكنونات نفسه، أو ليغوصَ وراء المعاني المتألّقة، والألفاظ المتأنّقة، والقوافي المتدفّقة، ليَسْبُكَها ويَسْكُبَها في قصائدَ ومقطوعاتٍ راقيةٍ،

---

(١) العمدة (١/ ٢٥ و ٢٦). وقيل للتّابعي الجليل سعيدِ بنِ المسيب رحمه الله: «إنَّ قوماً بالعراق يكرهون الشّعر»!
فقال: «نسكوا نسْكاً أعجمياً» (زهر الآداب ١/ ١٦٥).
وقال التّابعي الكبيرُ محمدُ بنُ سيرين رحمه الله: «الشّعر كلامٌ عُقِدَ بالقَوافي، فما حَسُنَ في الكلام حَسُن في الشعر، وكذلك ما قَبُحَ منه».
وسُئِلَ وهو بالمسجد عن رواية الشّعر في شهرِ رمضان، وقد قال قوم: إنّها تنقضُ الوضوء، فقال:
نُبئتُ أنَّ فتاةً كنتُ أخطبُها ... عرقوبُها مثلُ شهر الصَّوم في الطُّول
ثم قام فأمّ الناس. (العمدة ١/ ٢٦).

يتناشدها المحبّون؛ وينشدُها الراغبون، ويحفظُها المُتبعون، ويتعلّمها المتأدِّبون.

* لاشكَّ في أنَّ سيّدنا علياً حشَرنا الله في معيّته فوق مستوى الشُّعراء والبلغاء ومن المظنون أنَّ كثيراً ممّا نُسِبَ إليه هو خليطٌ من الشّعر، لشعراء مختلفي الأزمنة والأمكنة والأمزجة والأهواء، ومن ثم جاء مَنْ وضع هذه الأشعار ضمن دفتي كتاب ونسّقها ونسبها لسيّدنا عليّ رضي الله عنه ظناً أنَّه يرفعُ من شأنه عند محبّيه وعند النَّاس في هذا المجال.

شجاعتُهُ ومشاهدُهُ مع النَّبيِّ ﷺ:

* اتَّصلتِ الشَّجاعة بسيّدنا عليٍّ اتّصال الخِلْب[1] بالكبد، فما تُذكرُ الشَّجاعةُ ولا البطولةُ ولا الفروسيّةُ إلا كان سيّدنا عليّ جَوْزَاءها وسُهلَيها، وقمرَها وشمسَها.

* كان سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب آيةً من آياتِ النَّبيّ ﷺ، ومعجزةً باهرةً من معجزاته، مؤيّداً بالأيدِ الإلهيّ، كاشفَ الكُرَب ومجليها، وموطّدَ قواعد الإسلام ومرسيها، أجلّ من أنْ يُقاسَ بغيره من الأبطال، أو يمثّل بسواه من الشُّجعان، فهو المقدَّمُ في الشَّجاعة على النّاس كلّهم بلا مرية ولا خلاف، وهو الهاشميُّ الوحيدُ من رجالِ أهلِ البيت الذي صحب النَّبيَّ ﷺ في مغازيهِ عدا

(١) «الخِلْبُ»: الخلْبُ: بالكسر: لحيمة رقيقة تصفُ بين الأضلاع، أو الكبد، أو زيادتها، أو حجابها، أو شيء أبيض رقيق لازق بها. والخِلْبُ: حجاب القلب، أو الكبد. وجمع خِلْب: أخلاب. (القاموس المحيط، ولسان العرب: مادة: خلب).
ومنْ أرقّ ما قيل في وصفِ الخلْب قولُ ابن زيدون يتحدّث عن الوشاة والحسّاد في هذه الدّالية:

لمّا اتّصلتِ اتّصالَ الخلْبِ بالكبد ... ثم امتزجتِ امتزاجَ الرّوحِ بالجسَدِ
ساءَ الوشاةُ مكاني منكِ واتّقدت ... في صدر كلّ عدو جمرةُ الحسَدِ
فَلْيسخط النّاسُ لا أهدي الرضا لهمُ ... ولا يضعْ لكِ عهدٌ آخرَ الأبد
لو استطعتُ إذا ما كنتِ غائبةً ... غضضتُ طرفي فلم أنظرْ إلى أحد

(ديوان ابن زيدون ص٧٣)

غزوة تبوك، وكان له فيها المقام المحمود، والموقف المشهود، والعزّ الممدود، وقد عقمت النّساء أنْ يأتين بمثله.

* وأضافَ ابنُ العماد في «شذراتِهِ» شيئاً عن بطولةِ سيّدنا عليٍّ وشجاعته الفذّة التي تفوّقَ فيها على فرسانِ العربِ، وفرسانِ قريشٍ، فقال: «.. شهدَ المشاهدَ كلّها، وحُمدَتْ مواقفُه، وكان اللواءُ معه في أكثرها، وفُضِّل على خالدِ بنِ الوليد رضي الله عنه في الشَّجاعة، لأنَّ شجاعةَ خالدٍ فارساً، وعليّ فارساً وراجلاً، ومناقبُه لا تُعدُّ، من أكبرها تزويج البتول، ومؤاخاة الرّسول ﷺ!!! ودخوله في المباهلةِ والكساء، وحَمْله في أكثر الحروب اللواء...»[١].

* وقال اليافعيُّ عن شجاعتِهِ عندما ضربَه ابن ملجم بالسَّيف، «... وما كان كفواً لشجاعةِ عليٍّ رضي الله عنه ولا عليه من ذوي الاقتدار، لولا مساعدةُ الأقدار، ولقد صدقَ فيه الذي قال:

وما كنتُ منْ أندادِهِ يا بنَ مُلجم ولولا قضاءٌ ما أطقْتَ له عينا»[٢]

* ويضافُ إلى شجاعةِ سيّدنا عليّ رضي الله عنه خبرته العظيمة بفنونِ القتال، فقد كان حَذِراً في الحروب، شديدَ الرَّوغان من قِرنِهِ، لا يكادُ أحدٌ يتمكَّن منه، ولشدَّة شجاعته كان درعُه صدراً لا ظهرَ لها، فقيل له: ألا تخاف أنْ تُؤتى من قبل ظهرِك فقال: «إذا أمكنتُ عدوي من ظهري فلا أبقى الله عليه إنْ أَبقى عليّ».

* وكان رضي الله عنه يقول: «صِلُوا السّيوف بالخُطَا»[٣]، وكان رضي الله

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٢٢٤).

(٢) مرآة الجنان (١/ ١٠٨). وقال اليافعيّ: «قلتُ: وناهيك بفضائلِهِ ما اشتُهِرَ به من براعته في الشّجاعةِ والعلوم، واهتمامِهِ بنصرةِ الحقّ، وإظهار شعائر الإسلام على العموم». (مرآة الجنان ١/ ١١٠).

(٣) وَجَدَ كثير من الشّعراء مادة دسمة ووجبة بلاغية فخمة في قول عليّ رضي الله عنه: «صِلُوا=

عنه ذا خبرةٍ في الحروب، فكان يقولُ لأصحابه إذا ما ألمَّ خطبٌ وادلهمّ: «قدّموا الدَّارعُ، وأخروا الحاسِرَ، وعضُّوا على الأضراس، فإنَّه أنبأ للسّيوف عن الهام، والتووا في أطراف الرّماح فإنّه أنورُ للأسنة. . .»[1].

* ومن دُرر كلامه رضي الله عنه في هذا المضمار النَّفيس: «ربّ حياة سببها التّعرض للموت، وربّ منية سببها طلب الحياة»[2].

* ويحسُنُ بنا أنْ نعرفَ أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه قد سخَّرَ هذه الصفات البطوليّة كلّها لخدمةِ الإسلام، ولإعلاء كلمة الله عزَّ وجلَّ، ولم تحدثْه نفسُه أنَّه قاتَلَ يوماً واحداً من أجلِ غايةٍ دنيويّةٍ، أو شخصيّة، وإنّما كان الابن البار لبيت النّبوّة الذي تربّى فيه، فنشأ كاملَ الخصال، يسخِّرُ كلّ شيءٍ في سبيل مرضاةِ الله ورسوله، ويلتزمُ بما حدَّدته القوانينُ الإلهيةُ في السِّلْم والحرب.

* ولهذه الصِّفات المتألِّقة في شخصيّته الفذَّة، كان الصَّادق المصدوق ﷺ يدفعُ إليه راية المهاجرين لتكون معه في معظم المغازي، ومن المتعارف عليه في أمورِ الحرب والقتال أنَّ حاملَ اللواء أو الرَّاية ينبغي أنْ يكون مفرطَ الشَّجاعة مقداماً، رابط الجأش والنُّهى، ثابتَ القلب والقدم، قوي الشّكيمة، فاللواء رمز للمقاتلين، وتجب المحافظة على هذا الرّمز بجميع الوسائل الممكنة، وكان سيّدنا عليّ رضي الله عنه حاملَ اللواء المحمّديّ وحاميه ذا تجربةٍ وخبرة حربيةٍ واسعة، بصيراً بشوؤن الحرب ومكابدة العدو، شجاعاً في بدنه، ولذا يذكر فقهاء الإسلام وعلماؤهم مسوّغات تعيين القادة وحملة اللواء أو الرّايات في

= السّيوف بالخطا»، فقال كعب بن مالك رضي الله عنه:

نَصِلُ السّيوفَ إذا قصرنا بخطونا ... قدماً ونلحقها إذا لم تَلْحقِ

وقال غيره:

إذا قصرتْ أسيافُنا كان وصلُها ... خطانا إلى أعدائنا فنضاربُ

(1) التذكرة الحمدونية (٢/ ٣٩٧ و ٣٩٨).

(2) التذكرة الحمدونية (٢/ ٤٠٠)، ومثله قول الحصين بن الحمام المريّ:

تأخرتُ أستبقي الحياةَ فلم أجدْ ... لنفسي حياةً مثلَ أنْ أتقدّما

الجهاد، فيقولون: «لا يُقدّمُ في ولايةِ الحرب إلا أشجعُ النّاس، وأعرفُهم بمكايد الحروب والقتال، مع النَّجدة والشَّجاعة، وحسن السّيرة والاتّباع»[1].

* يفصح لنا تاريخ سيّدنا عليّ الجهادي بأنَّه حضرَ المغازي النَّبويّة جميعها بمعيّةِ الصَّادقِ الأمينِ ﷺ، خلا غزوة تبوك، فإنّه ظلَّ مقيماً في المدينة المنورة بأمرِ رسولِ الله ﷺ.

* إنَّ الذي يُسَرِّح النَّظر في السِّيرةَ الجهادية لسيّدنا عليّ رضي الله عنه يُهيَّأ له بأنَّه لا يتقنُ سوى القتالِ وإزهاقِ أرواح الأعداءِ من صدورهم، وقَتْلِ فرسانهم، وهلاك أبطالهم، فإذا انتقلَ إلى علمِهِ ألفاه لا يحسنُ سوى العلْم والفقه والقضاء والفتوى، بل إنَّ أكابر علماء الصَّحابة تخرَّجُوا في مدرستِهِ

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعزّ بن عبد السَّلام (١/ ٧٥). نقول: «بما أنَّ حاملَ اللواء أو الرّاية يُعدُّ من القادة العسكريين، وهذا معناه منصبٌ ذو أهمية كبرى في سيرِ الأعمال القتالية، فينبغي أن يكونَ القائد أو حامل اللواء في عهد النّبوة من ذوي السَّبق في الإسلام، ومن أصحاب التّضحية في العقيدة، ومن أولي التّجربة القتاليّة والخبرة الحربيّة وحسن التّدبير، قال ابنُ قدامة رحمه الله في هذا الشّأن المهم: «ويؤمّر في كلّ ناحية أميراً يقلده أمر الحروب، ويكون ممن له رأيٌ وعقل ونجدة، وبصر بالحرب، ومكابدة العدو» (المغني ٩/ ٢٠٢). وقد كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه ممَّنْ تنسحبُ عليه هذه الصّفات، فقد كان يقظاً بصيراً ببواطن أمور الحرب وظاهرها، ناهيك بما حباه اللهُ عزَّ وجلَّ من شجاعة ممزوجة بالتّقوى، لذلك لم يثبتْ أحدٌ من فرسان عصره أمامه، إذ إنّ تقوى الله في جميع المواطن وبخاصة في الجهاد وسيلة للفوز بالنصر والمدد من العليّ الكبير المتعال. قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «ولا ينبغي أنْ يولي الإمام الغزو إلا ثقة في دينه، شجاعاً في بدنه، يثبتُ عند الهرب، ويتقدّم عند الطّلب» (تحفة المحتاج بشرح المنهاج (٩/ ٢٣٧). كما ينبغي أنْ يكون حامل اللواء ذا قرارٍ واضحٍ وحزمٍ وقوة ووضوحٍ في الأوامر، أمّا إذا كان متردّداً يضرُّ نفسه وجنوده، لذا فالحزم مع الحكمة من أسبابِ إحراز النَّصر، ويضاف إلى هذه الصّفات صفة الجود والسّخاء في النَّفس والمال. وصفة الجود تجعل الجنود كالخاتم في يد القائد، وقد حثّت الشّريعة الإسلاميّة على تحلّي القائد بعامة بمكارم الأخلاق ومحاسن الشّمائل، وكان سيّدنا عليّ رضي الله عنه من القادة الشّجعان وحاملي الألوية الكرماء، وقدوة حسنة لمن أراد أن يقتدي به».

العلميّة ولهم أقوالٌ عظيمة في علْمِهِ وفهمه تشهد له بالتَّقدّم والرّفعة والمحلّ العالي الأرفع السَّنِي.

* وسنصحبُ القارىءَ في رحلةٍ شائقةٍ لنبحرَ معاً في أعماقِ المغازي التي تشرَّفَ فيها سيّدنا عليّ بالمعيّةِ النّبويّةِ، وأبدع في ميادين النّزال، وعلَّمَ الفرسانَ فنونَ القتال.

* قال الإمامُ النّوويُّ رحمه الله عن مغازي سيّدنا عليّ بالمعيّة المحمّديّة ما نصُّه: «وشهد مع رسولِ الله ﷺ بدراً، وأحداً، والخندقَ، وبيعةَ الرّضوان، وخيبرَ، والفتح، وحنيناً، والطّائف، وسائر المشاهد إلا تبوك، فإنَّ النّبيّ ﷺ استخلفه علىٰ المدينةِ، وله في جميع المشاهد آثارٌ مشهورة، وأجمعَ أهلُ التّواريخ علىٰ شهوده بدراً وسائر المشاهد غير تبوك. قالوا: وأعطاهُ النّبيّ ﷺ اللواء في مواطنَ كثيرةٍ. وقال سعيدُ بنُ المسيب: أصابت عليّاً يوم أحُدٍ ستة عشر ضربة. وثبت في الصَّحيحَيْن أنَّ النّبيّ ﷺ أعطاهُ الرَّايةَ يوم خيبر، وأخبرَ أنَّ الفتح يكون علىٰ يديه، وأحواله في الشَّجاعة وآثاره في الحروب مشهورة»[١].

* وزاد النّووي أيضاً: «وأحوالُ عليٍّ رضي الله عنه وفضائلهُ في كلّ شيء مشهورة غير منحصرة... وأمَّا الأحاديثُ الواردة في الصَّحيح في فضْلِه فكثيرة... وأمَّا زهدُهُ فهو من الأمور المشهورة التي اشتركَ في معرفتها الخاص

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٥). وقد نظم أسماء غزوات النّبيّ ﷺ وجمعَها محمّد بن أبي بكر الأَشْخر اليمنيّ الشّافعيّ المتوفى سنة (٩٩١ هـ) فقال:

غـزوةُ بـدْرٍ أحُـدٍ فـالخنـدقِ ... بنـي قُـريظـة بنـي المصطَلِـقِ
وخيبـرٍ وطـائـفٍ بـالاتفـاق ... قـاتـلَ فيهـا المصطفـى أهـل الشّقـاق
والخلـفُ فـي بنـي النّضيـر ذُكـرا ... فتـحٌ حنيـنٌ غـابَـةٌ وادي القُـرى

وللأشخر أيضاً مرتباً الغزوات على سني الهجرة الشريفة:

فبـدرٌ فـأحُـدٌ بعـد هـذيـن خنـدقٌ ... فـذاتُ رقـاع والمـريسـعُ خيبـرُ
وفَتْـحٌ تبـوكٌ رتّبـتْ هـذه علـى ... سنـي هجـرةٍ كـلّ بـذاك يُخْبـرُ

(شذرات الذهب ١٠/ ٦٢٣ و٦٢٤).

والعـــام رضـــي الله عنـــه»[1].

* وجاء دورنا الآن لنقول: «كانت حياةُ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه في العهد النّبويّ حياةَ بطولات وجلاد، وحياةَ تضحيات وجهاد، فهو من رجال أهل البيت وكبرائهم الذين نذروا حياتهم لله عزَّ وجلَّ، وفي سبيل إعلاء كلمته، وسنرى سيّدنا عليّاً قائداً كريماً، رابطَ الجأش، مُضَحّياً، ذا أحوالٍ كريمة، وكراماتٍ جليّة، وخبراتٍ قتالية، وصلاتٍ صحيحة بالله ربّ العالمين، يستمدُّ التّوجيهات الميمونة من ابن عمِّه المصطفى المحبوب ﷺ، ومن خلالها رسم سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أبهى صور الفداء والجهاد في دنيا رجال أهل البيت، ودنيا الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا ببركتهم وعلومهم».

* وها نحنُ أولاء واضعوا النّقاط على الحروف بإذن الله، ومن ثمَّ نقدّم صورةً كاملةً للبطلِ الهُمام والفدائي المغوار سيّدنا عليّ رضي الله عنه في الغزوات الشَّهيرة التي يتغنّى بدروسها محبّو النّبيّ ﷺ والصَّحابة على مدار التَّاريخ وحتّى قيام السَّاعة، وكذلك محبّو سيّدنا عليّ خاصّة ومحبّو أدبه الذي يُعَدُّ زَهر الفصاحة ووِرْد البلاغة في دنيا الأدب والآداب، كما يُعدُّ أدبه منهلاً عذباً لكل مَنْ يريدُ أنْ يسلكَ طريقَ الأدبِ الغضّ الفواح بمحاسنِ زهرِ الخمائلِ في شهرِ آذار الرّبيعي الذي يكسو الدّنيا بالجمالِ والعِطرِ والأنداءِ المنعشة.

سيدنا عليٌّ في غَزْوةِ بَدْر:

* ظهر سيّدنا عليٌّ يوم بَدْرٍ متألّقاً في كلّ شبر من أرض بَدْر، وكان من فُرسانِ أهل البيت المُعلمين، فقد كان مُعلماً بصوفةٍ بيضاء، وكان يحملُ رايةَ النّبيّ ﷺ التي تمثّلُ راية المهاجرين الذين خرجوا بصحبة الأنصار، لإعلاء كلمة العزيز الغفّار.

* وبدرٌ ـ في الأصل ـ اسمُ بئرٍ حفَرَها رجلٌ اسمُهُ بدر، فسمّيت به، وهي الآن بلدةٌ عامرةٌ على بُعْدِ حوالي (١٥٠ كيلاً) من المدينة المنوّرة.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (ترجمة عليٍّ في مواطنَ متنوعة).

* وغزوةُ بدرٍ هذه هي غزوةُ النَّصرِ والظَّفْر والفُرقان، حرَّكتها ووجَّهتها العنايةُ الإلهيَّةُ، وصنعَتْها يدُ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ حقَّقت لها نتائجها اللطيفة التي تدلُّ على قدرةِ اللهِ الغلاَّبة لكلِّ مَنْ يعاديها أو يجادل فيها.

* يذكرُ الرُّواةُ بأنَّ حبيبَنا رسول الله ﷺ لمَّا سمع بأبي سفيان مقبلاً من الشَّام في عيْرٍ عظيمة لقريش، تحملُ لهم الأموال الضَّخمة، ندبَ الصَّحابة الكرام كي يخرجوا إليها، لعلّها تكون لهم غنيمة ثمينة. وكانت القافلةُ القرشيةُ دسمةً، إذ قُدّرت بضاعتُها يومها بخمسين ألف دينار، بحيث إنَّ قريشاً كلَّها قد أسهمت في تمويلها. .

* أسرع الصَّحابةُ ملبّين الأمرَ النَّبويَّ، وكان عددهم (٣١٣ رجلاً): ستٌّ وسبعون من المهاجرين، والباقُون من الأنصار، وفي رواية: أنَّ الأنصار كانوا مئتين وأربعين، والباقون من المهاجرين، وفيهم فتى الفتيان وسيّد أبناء عمِّ النَّبيّ ﷺ عليٌّ البطل الضّرغام رضي الله عنه.

* وعند بدرٍ تقابل الجيشان، وبدأتِ المعركةُ مبارزةً، إذ خرج من المشركين ثلاثةٌ من أكابرِ أبطالهم ومقدّميهم وهم: عُتبةُ وشَيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بنُ عتبة وجميعهم عبشميّون، ودعوا المسلمين إلى المبارزة مشترطين أنْ يخرجَ إليهم أكفاءهم من قومهم، فما أسرع من أنْ قال الحبيبُ الأعظم ﷺ لرجالِ أهلِ البيت: «قُم يا عُبيدةُ بنُ الحارث، قم يا حمزةُ، قم يا عليُّ».

* هبَّ الأبطالُ الثَّلاثةُ كالنُّسورِ القَشاعمِ ملبّين النّداء المحمّديَّ، وبارزَ عبيدةُ عتبة، وبارزَ حمزةُ شيبةَ، وبارزَ عليٌّ الوليدَ بنَ عتبة.

* فما أسرع أنْ حصَدَ سيّدنا حمزةُ وعليٌّ خَصْمَيْهما، وجعلاهما كأمس الدَّابر، وألحقاهما بأهلِ المقابر، واختلفَ عُبيدةُ وعتبةُ بينهما ضربتَيْن كلاهما أصاب صاحبه بجرحٍ خطير، فكرَّ فارسا أهل البيت حمزةُ وعليٌّ على عتبةَ فجعلاه كصاحبيه نسياً منسياً، وهبَّراه بسيفيهما، واحتملا عُبيدة إلى جيش المسلمين.

* وجاء في رواية عن سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه بأنَّه وعمّه حمزة قد أعانا عُبيدةَ بنَ الحارث على خصمه، فلم يَعِبِ النَّبيُّ ﷺ عليهما صنيعهما[1].

* وتعال عزيزي القارىء نستجمُّ في رياضِ الأدبِ؛ ومن ثمّ نتابعُ الرّحلة الشَّائقة مع سيِّدنا عليّ رضي الله عنه، فما أجمل أنْ نقرأ هذه التّغريدة المُثيرة الجميلة التي تصوّر عملية المبارزة بين رجالِ أهلِ البيت وخصومهم العبشميين:

خـرجَ الـرّجـالُ المشـركـون إلـىٰ المبـارزةِ الشَّهيـره
هـم عتبـةُ وأخـوهُ شيبـةُ وابنـهُ خيـرُ العشيـره
وقفـوا أمـامَ الصَّـفِّ نـادوا للمبـارزةِ الخطيـره
نـادوا وقـالـوا يـا محمَّـدُ هـذه ظـرفٌ عسيـره
أخـرجْ لنـا أكفـاءَنـا مـن قـومنـا أهـل وجيـره
نـادىٰ رسـولُ اللهِ قـال ليخـرجُـوا أهـلَ المسيـره
مـن آلِ بيـتِ محمّـدٍ خـرجُـوا كـأبطـالٍ مُجيـره
بَطَـلُ الفـداءِ وحمـزةٌ وعبيـدةٌ أُسْـدٌ مُغيـره
قتلُـوا الـرِّجـالَ المشـركيـن وكـانـت اللقيـا قصيـره
ولقـد أُصيـبَ عبيـدةٌ بـإصـابـةٍ كـانـت صغيـره

* طفقَ بطلُ أهل البيتِ وفتاهم الميمون سيّدنا عليّ ومَنْ معه من جنود اللهِ يطاعنون فوارسَ الكُفَّار، ويفصلُون رقابهم عن أجسادِهم فصلاً، حتّى وَهَتْ صفوفُ المشركين، ووهنَتْ سواعدهم وقواهم، وخصوصاً عندما نادى الصَّادقُ الأمينُ ﷺ سيّدنا علياً وقال له: «ناولْني كفّاً منْ حصىً»، فناوله، فرمى بها ﷺ وجوهَ القوم، فما بقي أحدٌ مِن القوم إلا امتلأتْ عيناه من الحصباء، فنزلت: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ﴾[الأنفال: ١٧]»[2].

(١) انظر في هذا: فتح الباري (٧/ ٣٤٧) بشيءٍ من التصرف.
(٢) أخرجه الطّبرانيّ برقم (١١٧٥٠) ورجاله رجال الصّحيح، وانظر: تفسير ابن عطيّة (ص ٧٨٦).

* أسفرت هذه المعركةُ الفاصلةُ عن مصرع سبعين صنديداً من صناديد المشركين، إذ دارت عليهم كؤوسُ الموت فتجرّعوها وهم صاغرون لا تسمعُ لهم ركْزاً[1]، إذ نُثِروا فوق صعيد بَدْرٍ نثرةَ، كما نُثرت فوقَ العروس الدَّراهم، وغدوا مهوىٰ أفئدة النّسور والقشاعم؛ وسقطَ في الأسر سبعون آخرون غدوا مقرّنين في الحِبالِ، يعلُوهم الخزي والوبال، بينما ركَنَ الباقون إلى الفرار، وانهزموا في الجبال والقفار، لا يلوون على شيءٍ ينشدون السَّلامة من السُّيوف الهاشميّة وسيوف الأبرار، ويَرْوونَ لمن خلْفَهم قصَّة الهزيمةِ المفجعةِ، وقصَّة مخالفتهم لأمير الأنبياء وسيّدهم حبيبنا وشفيعنا رسول الله ﷺ، وكيف لقوا الذُّلَّ والهوان والصَّغار، وكيف جُوْزُوا بغدرهم الخزي والعار، على ما فرطوا في جنْبِ العزيز الغفَّار.

* وفي هؤلاء السِّتة نزل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾[الحج: ١٩]، وكان سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه يقول: «فينا نزلَتْ هذه الآية»، ويقول أيضاً: «أنا أوّلُ مَنْ يجثو بين يدي الرّحمن للخصومة يوم القيامة»[2].

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يقاتلُ يومَ بدرٍ في الميسرة، بينما كان سيّدنا أبو بكر رضي الله عنه يقاتلُ في الميمنة، ويومها قال لهما الحبيبُ المصطفى ﷺ: «مع أحدكما جبريلُ، ومع الآخر ميكائيلُ، وإسرافيل مَلَك عظيم يشهدُ القتال ولا يقاتل».

* ولما تنزلت الملائكةُ ببدر كان جبريلُ عليه السَّلام في خمس مئة من خيار الملائكة في الميمنة، وإسرافيل في خمس مئة من خيار الملائكة أيضاً في الميسرة.

---

(١) «ركزاً»: صوتاً خفياً لا تكاد تسمع معه حرفاً؛ قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾[مريم: ٩٨].

(٢) انظر هذا جمعيه في صحيح البخاري الأحاديث (٣٩٦٥ إلى ٣٩٧٠).

* وكان عبد الله بنُ عبّاس رضي الله عنه يقول: «كانت سيما الملائكة يوم بدرٍ عمائم بيضاً قد أرسلوها على ظهورهم..»[1].

* ومن المعلوم أنَّ سيّدنا علياً رضي الله عنه كان معلماً بصوفة بيضاء يوم بدر، ونزلت الملائكةُ على سيماه بعمائمَ بيض، قال سيّدنا علي رضي الله عنه: «العمائمُ تيجانُ العرب، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً قد أرخَوْهَا على ظهورهم، إلا جبريل فإنّه كانت عليه عمامة صفراء»[2].

---

(١) قال الدكتور مأمون حموش: «قد يتحاشى بعضُ كتّاب المسلمين اليوم الإشارة إلى مشاركةِ الملائكةِ ببدر، وهذا من مظاهرِ الهزيمة أمام الفكْرِ المادي الذي لا يؤمنُ إلا بالمحسوسات، وقد أكّد اللهُ إرساله الملائكة يوم بدر، وحضورهم القتال، وأمرهم بقذف الرّعب في قلوبِ المشركين وإعمال القتل في رقابهم» (السّيرة النّبويّة على منهج الوحيين ١/ ٥٧٠).

(٢) السّيرةُ النّبويةُ لابن هشام (١/ ٦٣٣) بتحقيق السّقا ورفاقه ـ طبعة مصر ـ عام ١٩٥٥ م.
وفيما يُضاف ويُنسبُ إلى العرب قولهم: تيجانُ العرب، وأغربةُ العرب، وجمراتُ العرب، وأثافيّ العرب، ونخوةُ العرب، وصنّاجةُ العرب، وكسرى العرب، وصلاءُ العرب، وكاهل العرب، وسابق العرب. قال أبو منصور الثّعالبي: «تيجانُ العرب، جاء في الخبر: إنَّ العمائمَ تيجانُ العرب، فإذا وضعوها وضعَ الله عزّهم. وكان يقال: اختصّت العرب من بين الأمم بأربع: العمائمُ تيجانها، والدّروعُ حيطانها، والسّيوفُ سيجانها، والشّعرُ ديوانها». (ثمار القلوب ص ١٥٩).
وتعدُّ العمامةُ من لبس الطَّبقةِ المترفةِ عند العرف قديماً، وللعمامةِ منزلةٌ كبيرةٌ عندهم، فهي تعبّر عن شرفِ الرّجل وعن مكانته، ويذكرُ علماءُ اللغة أنَّ من أسماء العمامة: العصابة، والمقطعة، والمعجر، والمشوذ، والكوارة، وقيل: إنَّ العصابة والعمامة سواء. وكان السّاداتُ من العرب يتفنّنون في لبس العمامة، وفي اختيار لونها، إذ نظروا إليها على أنّها جمال الرّجل، وكمال مظهره، وقد وردَ أنَّ سيّدنا علياً رضي الله عنه كان يقول: «جمالُ الرّجل في عمّته، وجمالُ المرأة في خُفّها». (البيان والتّبين ٢/ ٨٨).
وفي الأمثال: «أجملُ من ذي عمامة» وهو مثَلٌ من أمثالِ مكّة، قيل: إنّهم قالوه لسعيدِ بن العاص بن أميّة، المعروف عندهم بذي العمامة، وكان في الجاهلية إذا لبسَ العمامة، لا تلبسُ قريش عمامة على لونها، وقيل: إنّه كناية عن السّيادة.
ذكروا أنَّ سعيدَ بن العاص الأمويّ، كان إذا لبس عمامته لم يعتمّ قرشيٌ احتراماً له، وكانت=

* والخلاصةُ كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه وأرضاه فتى أهلِ البيتِ الذين أبدعوا يوم بْدرٍ، كان مُعَلماً بصوفة بيضاء، ويحملُ اللواء، حتى قال فيه سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: «مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلى أعظم النَّاس منزلة من رسول الله ﷺ، وأقربه قرابة، وأفضله دالة، وأعظمه غناء عن نبيّه، فلينظر إلى هذا ـ وأشار إلى سيّدنا عليّ رضي الله عنه ـ»[1].

* ونحنُ نعلمُ أنَّ لواءَ المشركين كان يوم بدر مع طلحة بن أبي طلحة، فقتله عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي ذلك يقول الحجاجُ بنُ علاط السُّلَميّ:

لله ِأيّ مذبّبٍ عن حُرمةٍ ... أعني ابنَ فاطمةَ المُعِمَّ المُخْوِلا
جادتْ يداكَ له بعاجلِ طعنةٍ ... تركَتْ طُليحةَ للجبين مجدّلا
وشدَّدتَ شدّةَ باسلٍ فكشفتَهم ... بالحقِّ إذ يهوين أخْوَلَ أخولا
وعلْلَت سيفَكَ بالدّماء ولم تكنْ ... لتردَّهُ حَرَّانَ حتّى ينهلا[2]

* وقيل: إنَّ هذه الحادثةَ والأبيات كانت في غزوة أحد، وقد ذكرها الصَّالحي في «سبل الهدى والرّشاد» والله أعلم.

= كنيته «أبو أُحيحة»، وفي هذا قال أحدُ الشّعراء في حقّه:

أبو أحيحةَ مَنْ يعتم عمَّتَه ... يُضْرَبْ وإن كان ذا مالٍ وذا عددِ

وقال أحد الشّعراءِ في عمامته وعصابته الشَّهيرة مشيراً إلى مكانته:

وكان أبو أحيحةَ قد علمتم ... بمكّةَ غيرَ مهتضمٍ ذميمِ
إذا شدَّ العصابةَ ذاتَ يومٍ ... وقام إلى المجالسِ والخصومِ
لقد حَرُمَتْ على من كان يمشي ... بمكة غير محتقرٍ لئيمِ

(بنات الصَّحابة ص ١٤٢) ط ٢ ـ ٢٠٠٥ م.

وللعرب كثيرٌ من الأقوال والآثار في فضلِ العمائم وفي أهميتها تكفَّلت بذكرها كتب متنوعة المشارب.

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٢٠).
(٢) المصدر السّابق (١٧/ ٣٢١)، وسبل الهدى والرّشاد (٤/ ٢٨٨).

سيّدنا عليٌّ في غزوة أُحُد:

* أورثتِ الهزيمةُ البدريّةُ قريشاً حقداً دفيناً مرّاً لم يستسيغوا معه طَعْم شيءٍ، وهزّتْ مكانتهم بين العرب هزّاً، فطارت هيبتُهم وألصقت بهم عاراً ظلَّ يلاحقُهم ليلاً ونهاراً، وزعموا أنَّ العارَ لا يغسلُه إلاَّ الأخذ بالثَّأر.

* اخلولق المشركون يعدّون العدّةَ لهذا الأمر، وعملُوا كلَّ ما بوسعهم لتجهيزِ جيشٍ يغزون به المسلمين في دارهم، أخذاً للثَّأر، وغسْلاً للعار، واستعادةً لمكانتهم بين العرب.

* وتجمّعَ للكفّار جيشٌ قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، فخرجوا قاصدين المدينة في حماسةٍ موتورة، وسَوْرةٍ من الغضب مسعورة، ليضربوا ـ بزعمهم ـ الضَّربة القاضية، وأبت نساء من قريش إلا أن يخرجنَ مع الجيش لإلْهابِ الحماس، وإثارة الحميّة؛ وكنّ خمس عشرة امرأة على رأسهنّ هند بنت عتبة مع زوجها أبي سفيان وكانت ـ قبل إسلامها يوم الفتح ـ من القرشيّات ذوات الأنفة والمكانة والأدب والفصاحة.

* وبجانب سفح جبل أُحُد التقى الجمعان، وكان لواءُ المسلمين بيد سيِّدنا عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ثمّ بِيَدِ مصعب بن عمير العبدريّ، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ يحمل لواء المشركين»؟

فقيل: طلحةُ بنُ أبي طلحة العبدريّ.

فقال ﷺ: «نحنُ أحقُّ بالوفاء منهم». فأخذهُ من عليٍّ ودفعه إلى مصعب لأنّه من بني عبد الدّار.

* خرج رجلٌ من المشركين بين الصَّفّين، وهو طلحةُ بنُ أبي طلحة من بني عبد الدَّار، وكان بيده لواء المشركين لأنَّ بني عبد الدّار كانوا أصحابَ لواءِ المشركين، لأنَّ اللواء كان لوالدهم عبد الدّار.

* وطلب طلحةُ المبارزةَ مراراً فلم يخرجْ إليه أحدٌ، فأخذه العجبُ وكرّرَ

الطَّلبَ، ولم يجبْه أحدٌ، وهاهنا أخذتْهُ العزَّة بالإثم، وانبعث يقولُ بملء شدقَيْهِ وهو يظنُّ أنَّ المسلمين خافوه: يا أصحاب محمّد، زعمتم أنَّ الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النَّار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنَّة، فهل أحدٌ منكم يعجّلني بسيفه إلى النَّار؟ أو أعجّله بسيفي إلى الجنّة؟ كذبتم واللات والعزّى، لو تعلمون ذلك حقّاً لخرج إليَّ بعضكم.

* وكجلمودِ صخْرٍ حطَّه السَّيلُ من علٍ، انحطَّ عليه سيّدنا عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وضربه بسيفِهِ ضربةً هاشميةً جعلتْهُ من الغابرين، وأرسله من خلالها إلى النَّار، ليلحقه بأبي جهل وعصبته من قتلى بدر في العام الفائت.

* وفي رواية: أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه وأرضاه خرج إليه، فالتقيا بين الصَّفَّين، فَبَدرهُ عليٌّ رضي الله عنه فضربه فقَطَعَ رجله، ووقع على الأرض، وبدتْ عورته، فقال: يا بن عمّ، أنشدكَ اللهَ والرّحم، فرجع عنه، ولم يجهزْ عليه، فقال له بعضُ أصحابه: أفلا أجهزتَ عليه؟

فقال رضي الله عنه: إنَّه استقبلني بعورته، فعطفني عليه السّؤال بالرّحم، وعرفتُ أنَّ اللهَ قد قَتَلَه.

* وفي روايةٍ قال له رسولُ الله ﷺ: «ما منعك أن تجهزَ عليه»؟

فقال: ناشدني اللهَ والرّحم.

فقال: «اقتلْهُ».

فرجعَ إليه سيّدنا عليٌّ فقتَلَه، وأذاقه كأْسَ البوار[1].

* استعر القتالُ بين الفريقَيْن، وجندل عليٌّ عدداً من أبطال المشركين وفرسانهم؛ وبينما كان المسلمون يسجّلُون نصراً ساحقاً على الكفرةِ الوثنيين، إذ حدثَ ما يعكّر هذا الفوز والظَّفر، فقد تبدَّلَ وجْهُ المعركة لمخالفة بعض

---

(١) انظر: السّيرة الحلبيّة (٢/ ٤٩٧ و ٤٩٨) بشيء من التّصرّف، وانظر: السّيرة النّبويّة لأحمد زيني دحلان (٢/ ٤٠).

الرُّماة الأوامرَ المحمّديّة، فقُتِلَ حمزةُ أسدُ الله شهيداً، واضطرب جيشُ المسلمين، وأخذوا يتساقطون في الميدان شهداء بعضهم إثْرَ بعض، وكان يوم بلاء وتمحيص، أكرمَ اللهُ فيه من أكرمَ من المسلمين بالشَّهادة.

* بينما ظلَّت فئةٌ صادقةٌ مؤمنةٌ ـ كأبي بكر وعمر وعليّ وطلحة والزّبير وسعد وغيرهم ـ تحيط بالنَّبيّ ﷺ، تدفعُ عنه المكروه، وركّز المشركون حملتهم على النَّبيِّ ﷺ، فشجّوه، ورماه عتبةُ بنُ أبي وقَّاص بالحجارة، فوقع ﷺ وأصيبت رباعيتُه اليمنى السُّفْلى، وجُرِحَتْ شفتُه السُّفلى، وتقدَّمَ عبد الله بن شهاب الزُّهريّ فشجَّه في جبهته، وضربه ابنُ قمئة لعنه الله بالسَّيف على عاتقه الشَّريف ضربةً قويةً ظلَّ يشكو منها شهراً أو أكثر، ثمَّ ضربه ابنُ قمئة على وجنته الشَّريفة وهو يقول: خذها وأنا ابنُ قمئة.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «أقمأك اللهُ عزَّ وجلَّ». أي: صغَّركَ وأذلَّك.

* وقد استجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ في ابن قمئة دعوةَ نبيّه ﷺ، وسلَّطَ العذاب على عدوّه، فقد أكَّدت الأخبارُ الموثوقةُ: أنَّ ابنَ قمئة انصرفَ بعد الوقعةِ إلى أهله، فخرج إلى غنمِهِ، فوافاها على ذروة جبلٍ، فأخذ يعترضُها، فشدَّ عليه كبشُها، فنطحه نطحةً أرداه من شاهقِ الجبل، فتقطَّع.

* وفي رواية: فسلَّط اللهُ عليه تيسَ جبلٍ، فلم يزلْ ينطحه حتى قَطَّعَهُ قطعة قطعة[1].

* ولمَّا حدث الاضطراب في جيشِ المسلمين، وأُشيع أنَّ رسولَ الله ﷺ قد قُتِلَ، هنالك تفجَّرت شجاعةُ سيّدنا عليٍّ تفجيراً، وظهرت كالشَّمس وسط

---

(١) فتح الباري (٧/ ٤٣٢)، والمواهب اللدنية (١/ ٤٠١)، وسبل الهدى والرَّشاد (٤/ ٢٩٥) مع الجمع والتّصرّف. وانظر: السّيرة الحلبية (٢/ ٥١٤) وقال برهان الدّين الحلبيّ: «ويمكن الجمعُ بأنّه لمّا نطحه ذلك الكبش، ووقع من شاهقِ الجبل إلى أسفل، سلّط الله عليه عند ذلك تيس الجبل، فنطحه حتّى قطعه قطعاً زيادة في نكالِهِ وخزيِهِ ووباله، لعنة الله عليه، والله أعلم». (السّيرة الحلبية ٢/ ٥١٤).

النّهار، إذ كَسَر جفْنَ سيفه، ورأى أنَّ الحياة لا معنى لها بعد النَّبيّ ﷺ، وحَمَلَ على القوم حملةً عظيمةً، فأفرجوا له، فإذا بالحبيبِ الأعظم ﷺ ثابت ثباتَ الرّواسي، فثبتَ معه، ودافعَ عنه دفاعَ الأبطال المستميتين، وقد أصابتْه يومها ستّ عشرة ضربة، لكنّه لم يأبه لها ما دام رسولُ الله ﷺ سالماً، فكلُّ مصيبةٍ بعده جَلَل.

* أبلى سيّدنا عليٌّ بلاءً حسناً، واستطاع أنَّ يأخذَ بيد رسول الله ﷺ حينما وقعَ في الحفْرة يوم أُحد، ودُمي وجهه الشّريف، فقامت سيّدتنا فاطمةُ الزَّهراء وزوجها عليّ رضي الله عنهما بمداواةِ جراحه، إذ أخذت فاطمةُ رضي الله عنها تغسلُ الدم عن وجه أبيها ﷺ، وعليّ يسكبُ لها الماء.

* أخرج البخاريُّ بسندٍ عن أبي حازم، أنَّه سمع سهل بن سعد رضي الله عنه، وهو يسألُ عن جرحِ رسولِ الله ﷺ فقال: «أما والله إنّي لأعرفُ مَنْ كان يغسلُ جرحَ رسولِ الله ﷺ، ومن كان يسكبُ الماء، وبما دووي. قال: كانت فاطمةُ عليها السّلام بنت رسول الله ﷺ تغسله وعليّ يسكبُ الماء بالمِجَنّ، فلمّا رأت فاطمةُ أنَّ الماء لا يزيدُ الدَّمَ إلا كثرةً، أخذت قطعةً من حصير فأحرقَتْها، وألصقَتْها، فاستمسكَ الدمُ، وكُسِرتْ رباعيته يومئذٍ، وجُرِحَ وجهه، وكُسِرت البيضةُ على رأسه»(١).

* وأومأت الدَّلائل إلى أنَّ سيفَ سيّدنا عليٍّ قد اصطبغَ بدماء المشركين لكثرةِ ما نال منهم(٢)، حتّى إنّه انحنى من كثرة ما داعبَ به هام الأعداء، وشدا

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤٠٧٥). قال ابن حجر رحمه الله: «.. وفي الحديث: جواز التّداوي، وأنَّ الأنبياءَ قد يُصابون ببعضِ العوارض الدّنيوية من الجراحات والآلامِ والأسقامِ ليعظمَ لهم بذلك الأجر، وتزدادَ درجاتهم رفعةً، وليتأسّىٰ بهم أتباعهم في الصَّبر على المكاره، والعاقبة للمتّقين». (فتح الباري ٧/ ٤٣٢).

(٢) روى أبو يعلى بسندٍ حسن، عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه قال: «لمّا انجلى النّاس عن رسولِ الله ﷺ يوم أحد، نظرتُ في القتلى، فلم أرَ رسول الله ﷺ، فقلتُ: والله، ما كان ليفرّ، وما أراه في القتلى، ولكن أرىٰ الله تعالى غضبَ علينا بما صنعنا، فرفع نبيّه ﷺ، فما لي خيرٌ=

بأنشودة الموت على رؤوسهم المحشوة بالكفرِ والعناد، ولمّا عاد سيّدنا عليٌّ من ساحةِ المعركة، دخل علىٰ زوجته سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها، وناولَها السَّيف، وقال لها: «يا فاطمةُ اغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم»، ثمّ أنشد:

أفاطمُ هاكِ السَّيف غير ذميم ... فلستُ بِرِعْديدٍ ولا بلئيم

لعمري لقد أبليتُ في نَصْر أحمد ... ومرضاة ربٍّ بالعبادِ عليم

* وعندما نزلَ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّـٰكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤]، كان لسيّدنا عليّ عليه سحائب الرضوان موقفٌ مشهود عندما انهزمَ مَنِ انهزمَ من المسلمين يوم أحد، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وهنالك ثبت عليٌّ رضي الله عنه، وضرب صفحاً عن الإشاعات التي صدرت عن مقتل النَّبيّ ﷺ، وأثبتَ أنَّه رجل أهلِ البيتِ وسيّد فرسانهم وأبطالهم، فقد نقل ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه كان يقول في حياة النَّبيّ ﷺ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٤]؛ «والله لا نقلبُ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قُتِل لأقاتلنَّ على ما قاتل عليه حتّى أموت..»(١).

* ولمَّا وضعتِ الحربُ أوزارها، توجَّه المشركون نحو مكَّة فأحبَّ النَّبيُّ ﷺ أنْ يتأكَّدَ من توجّههم إلى مكَّةَ إثر رحيلهم عن ساحة أُحُد، فقام بتكليف الفدائي البطل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه للقيام بهذه المهمّة، إذ إنَّه القويُّ الأمين الذي يأتي بالخبرِ اليقين، وهو الذي يستطيع أنْ ينظرَ في آثار القوم ماذا يصنعون.

= من أنْ أقاتلَ حتى أقتل، فكسرتُ جفْنَ سيفي، ثمّ حملت على القوم فأفرجوا لي، فإذا برسولِ الله ﷺ بينهم، أي يقاتلهم ﷺ» (سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٩٣).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٠١) طبعة دار ابن كثير الأولى بدمشق عام ١٩٩٤ م. ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣١٤) مع الجمع والتصرف.

* قال أصحابُ السّيرة النَّبويّة ما مفاده: «ثمَّ بعثَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد أن انصرفَ المشركون عن ساحة المعركة وقال له: «اخرجْ في آثارِ القوم، فانظرْ ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنَّبوا الخيلَ، وامتطوا الإبل، فإنَّهم يريدون مكَّة، وإن ركبُوا الخيلَ، وساقوا الإبل، فإنّهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إنْ أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنَّهم».

قال عليٌّ رضي الله عنه: فخرجت في آثارهم انظرُ ماذا يصنعون، فجنبوا الخيلَ، وامتطوا الإبلَ، وتوجّهوا إلى مكّة. . . »[1].

* ومن الواضح لكلِّ ذي بَصَرٍ وبصيرة أنَّ كلامَ النَّبيِّ ﷺ وقَسَمَهُ في مناجزةِ القومِ في المدينة، لهو كلامٌ يحملُ في طيّاته الخبرةَ والحنكةَ، كما يحملُ كثيراً من معاني التَّصميم والمضي في القتال، وإعلاء كلمةِ الله، كما يشيرُ إلى أنَّ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ، كان يتمتَّعُ بقوةٍ لا تني، وعزمٍ لا ينثني، وجرأةٍ نادرةٍ على مصاولةِ الأبطال، ومعالقةِ الرّجال، فهو ﷺ بطلُ الأبطال، لا تَجِدُ شدائدُ الخطوبِ إلى نفسهِ سبيلاً، ولا تضعِفُ الأحداثُ همَّتَهُ مهما كانت، ومهما ادلهمَّتِ الأمُورُ، لذلك خرجَ ﷺ إلى غزوةِ حمراء الأسد عقب غزوةِ أُحد، يحملُ لواءه ليثُ الهواشم عَليٌّ رضي الله عنه، وقد أدهشتْ هذه الغزوةُ اليهودَ والمنافقين والكفَّارَ، وفتَّتْ في عضدهم، كما أنَّها أعادتِ الثِّقةَ للمسلمين، وملأت نفوسَهم بروحٍ معنويةٍ عاليةٍ جعلتهم قادرين على تخطّي المصاعب والمصائب بقيادة نبيّهم محمَّد ﷺ.

* «كانت غزوةُ أُحُدٍ بأحداثِها وأزماتِها وشدائدِها درساً تربويّاً أفاد منها

(١) انظر مثلاً: السّيرة الحلبيّة (٢/ ٥٢٩ و ٥٣٠) بتصرّف يسير، ومعنى «جنبوا الخيل»: جعلوها منقادة بجانبهم، و«امتطوا الإبل»: ركبوا ظهورها، لأنَّ المطا الظَّهر، و«ماذا يصنعون»: أي بعد أنْ تشاوروا في نهب المدينة، فأشار عليهم صفوان بن أميّة أن لا تفعلوا وحذّرهم من العاقبة.

المجتمعُ المسلمُ كثيراً من العِبَرِ في تصاريفِ الحياة وتقلّباتها. لقد فتحت محنةُ أحدٍ أمام المجتمع المسلم الطَّريق ليتعرف موقفَ المتربّصين بهِ دون إقدامٍ على محاربته لما أصابهم من الدَّهَش المُذْهل حين سمعوا دويَّ نَصْرِ بَدْرٍ الذي ملأ قلوبَهم رهباً ورُعْباً وهلعاً. وكانت أخبارُ هؤلاء وهؤلاء تَرِدُ متواليةً على رسولِ الله ﷺ، فيأخذ لكلّ حدثٍ أُهْبته، وتتابعتِ البعوثُ والسَّرايا المُستكشِفة تجوبُ مواقعَ الأحداث، وكانتْ محنةُ أحدٍ صقيلاً أذابَ صدأ هزيمتها عن صدورِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فجعلت منهم بطولاتٍ فدائيةً لا ترهَبُ الموتَ، وجعلت منهم قياداتٍ سياسيةً تحسنُ الرأي وتحكمُ الفكرة، وجعلت منهم قياداتٍ عسكريةً تديرُ المعاركَ القتاليةَ بتفكير مجرّب يعرفُ المخارج من أزماتِ المضايق، ويعرفُ المداخلَ التي يُؤْخَذُ منها العدوّ»[1].

سيدنا عليٌّ في غزوة الأحزاب:

* أخذتْ هذه الغزوةُ مساحةً كبيرةً من أحداثِ السِّيرةِ النَّبويَّةِ في المرحلةِ المدنيةِ، وسمِّيَتْ باسمها سورة كبيرة من سُور المفصَّل هي: (سورة الأحزاب) حيث أجملَتْ وقائع هذه الغزوة، وبيَّنَتْ شيئاً من أحكامها، ثم جاءت كتبُ السِّيرة ففصَّلت كثيراً من معالمها، وتحدَّثت عن كثيرٍ من دروسها ونتائجها، كما رسمت الدَّورَ الجليلَ الذي قام به فتى الفتيان، وسيّدُ الشُّجعان، وقاهرُ الفُرسان، سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه.

* كانت هذه الغزوةُ آخرَ غزوةٍ هجوميةٍ في غزواتِ المشركين ومَنْ تجمَّعَ حولَهم من عبيد الأهواء، وحرَّاس الوثنيّةِ البليدة. وتركت هذه الغزوةُ المشركين حيارىٰ لا يَعُونَ مِنْ أمرِهم شيئاً، لاسيما وأنّ أَمْرَ الشِّرْكِ قد افتضح، وظهرتْ سوءته ومساوئه للعَيان، كما ظهر أمرُ اليهود الذين أحرقَ أكبادهم نصرُ المسلمين، فكادوا يموتون بغيظهم، وكادوا يختنقُون بحسدهم الذي كشفَ عن حقدِهم الأسودِ وغدرهم الفاجر.

---

(١) محمّد رسولُ الله لمحمد عرجون (٤/ ١٩ ٢٠).

* تسمّى غزوة الأحزابِ في مصنّفات السِّيرة والمغازي غزوة «الخندق»؛ تسميةً لها بالخندقِ الذي حفَرَهُ المسلمون لمواجهةِ الأحزابَ الذين تجمَّعُوا من قبائل شتّى، ليهدموا بزعمهم مَعْلَم الحقِّ بالمدينةِ المنوّرة.

* ذكرَ بعضُ أهلِ الحديث كالبخاري أنَّ غزوةَ الأحزاب كانت في السَّنَةِ الرَّابعةِ من الهجرة، بينما جَزمُ ابنُ إسحاق وعامة أهل المغازي والسِّير أنَّها كانت في شهر شوّال من السَّنة الخامسةِ من الهجرة.

* أمَّا أسبابُ غزوةِ الأحزاب فهي منوطةٌ بغدرِ اليهودِ وفجورهم، وحسدِ كبارِ زعمائهم للنَّبيّ الأمّيّ محمّد ﷺ، فاجتمعَ هؤلاء وعملُوا على تحريضِ أعداءِ المجتمع المُسلم وعلى مهاجمتِهِ واستئْصَاله، والقضاءِ عليه وعلى دعوتِهِ النُّورانيّةِ ورسالتِهِ الهادية، فهمُ الذين أشعلُوا نارها، وأوروا زنادَها،، وحملوا لواءَها، وغذّوها بالحقدِ الدّفين والحسد المكين الذي هشَّم نفوسهم، وبعث فيها الغدرَ والثَّأْر وبذرَ الفِتَنَ السُّود التي تذهبُ بالأخضرِ واليابس.

* ولمَّا سمع الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ بخبرِ الأحزاب، واجتماعِ قبائل العرب لمحاربته، استشار أصحابَه فيما يفعل حيال هذا التَّجمُّع الهائل، فأشار سلمان الفارسي[(١)] ـ وكان حديث عَهْد بالإسلام ـ بحفْر خندقٍ على طولِ

(١) من اللطائف «السَّلمانيّة الفارسيّة» ما ذكروا أنَّ سيّدنا سلمانَ الفارسي رضي الله عنه قد تنافسَ فيه المهاجرون والأنصار؛ فقال المهاجرون: سلمانُ منّا.
وقالت الأنصار: سلمان منّا.
فقال رسولُ الله ﷺ: «سلمانُ منّ أهلَ البيت».
وإلى هذه المعاني اللطيفةِ؛ واللطائفِ المنيفة، يشيرُ بعضهم بقوله:

لقـد رقـىٰ سلمـانُ بعـد رقّـه ... منـزلـةً شـامخـةَ البنيـان
وكيـف لا والمصطفـى قـد عـدَّه ... مـن أهـلِ بيتـه العظيـم الشَّـان

ولنستمع أيضاً إلى هذهِ التّغريدة بعنوان «سلمانُ منْ أهلِ البيت»:

المسلمـونَ تنـازعـوا سَلْمـانَ كـانُـوا صـادقيـن
الكُـلُّ قـالـوا فهـو مِنَّـا مـنْ جميـعِ المـؤمنيـن =

الجبهةِ الشَّماليَّةِ من المدينةِ، فَنَالَ رأيهُ هذا استحسانَ المسلمين وإعجابَهم، فنفّذوا هذا العمل في ستّة أيامٍ كانت شاقّة عليهم، لكنّهم عملوا بكلِّ عزمٍ وتَفَانٍ، ولم يتخلّف أحدٌ عن العمل سوى المنافقين ممّن تربّوا على فُتَاتِ اليهود، وطفقوا يتندّرون بمصير المؤمنين، وبعضهم طفق يخذلُ المجاهدين، يقعدونهم عن الحرب، ويعوقونهم، ويعملون بكلِّ سبيلٍ على إحباطِ المسلمين.

* جاءت الأحزاب تزحفُ بحشودها، وتجرّرُ أذيالَ الغرور والعنجهية، وتحسبُ ألا تقف أمامها قوّة، فوجدت أمامَها الخندق، فَبُهِتَتْ وأقامها ما بَعدَ وقَرُبَ، ودهشَتْ أعظمَ دهشة؛ فقال فرسانٌ منَ المشركين: واللهِ إنَّ هذه لمكيدةٌ ما كانت العربُ تكيدها، ثمَّ إنّهم تيمّموا مكاناً ضيقاً من الخندق، وأكرهُوا خيولَهم على اقتحامِهِ فاقتحمتْ بهم، فأجالوها فيه، فخرجَ إليهم سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه في نَفَرٍ من أبطالِ المسلمين حتّى أخذوا عليهم الثَّغرة التي دخلُوا منها.

* وهذه الثَّغرةُ ـ كما يقول ابنُ سعدٍ في طبقاته ـ أغْفَلَها المسلمون، فلم يحكمُوا أمرهَا كما أحكموا سائر مواضع الخندق، فكانت مقحماً لخيولِ الأعداء، ولو أحكموها وتيقَّظُوا لها، ما كان هناك منفذٌ للاقتحام.

* إنَّ هذا الإهمالَ غير المقصود، أو الغفلةَ ممّا يأباهُ منهجُ الرّسالةِ الرّبانيّة، لأنَّ هذا المنهجَ الحصيفَ يوجبُ على كلِّ مسلم أنْ يكون واعياً حَذِراً متيقظاً في عمله، لا يستهينُ بصغائرِ الأمورِ، ولا ينامُ عن كبارها، فإن معظمَ النَّار عن مستصغر الشَّرر، كما أنَّه من مأمنه يُؤْتىٰ الحَذِر.

= قالَ الرَّسولُ لهم فكفُّوا عن جدالٍ أجمعين
سلمانُ منَّا آل بيتِ محمّدٍ في الأكرمين
مجدٌ عظيمٌ نالَهُ سلمان دون العالمين
ذاكم هو الإيمانُ يرفعُ أهلَه في الخالدين

* وهنا تنادى عمرو بنُ عبد ودّ العامريّ ـ وكان من أفجرِ فرسانِ الأحزاب الذين اقتحموا الخندقَ، ومن أشهر فرسانِ العرب الذين ضرَّسَتْهم الحروبُ بتجاربهم، وعضّهم الدّهرُ بِنَابِهِ ـ وقال: مَنْ يبارز؟

فقام إليه بطلُ الفُرسان وفتى ميادينه سيّدنا عليّ بن أبي طالب وهو مقنَّعٌ في الحديد، فقال: أنا له يا رسول الله فقال له الحبيبُ الأعظم ﷺ: «إنّه عمرو، اجلسْ».

ونادى عمرو: ألا رجلٌ يبرزُ[1]؟ وجعل يؤنّبُ المسلمين، ويستهزىءُ بهم ويقولُ: أين جنّتكم التي تزعُمون أنَّه مَنْ قُتِل منكم دخَلَها؟ أفلا تُبْرِزون إليّ رجلاً؟

فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال: أنا له يا رسولَ الله.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: «اجلسْ».

فامتثلَ عليٌّ الأمرَ المحمّديَّ، ثمَّ نادى عمرو الثَّالثة بشعْرٍ يُعيِّر به المسلمين، ويرميهم بالجبْنِ والعجز، فقال:

ولقــــد بُحِحْـــتُ مـــنَ النِّـــدا ءِ بجمعِكـــم هـــلْ مِـــنْ مُبـــارز

---

(١) لعلَّ سائلاً يسأل: ما الغرضُ من المبارزةِ أوّل المعركة؟
وللإجابةِ عن هذا السّؤال نقول: يتحقّقُ من المبارزةِ بضعة أمورٍ أبرزُها:
أوّلاً: إظهارُ المهارة الفرديّة، والقوة البدنيّة، وعرضُ الفَنّ الحربيّ أمام النّظّارة ليخْلَعَ المبارزُ بفنّه قلوبَ الأعداء، ويقويّ به قلوبَ الأصحاب والحُلفاء.
ثانياً: المبارزةُ بما يحدث فيها من قَتْلٍ متتابعٍ تثيرُ في الفُرسان شهوة الانتقام والأخذ بالثّار، فتجيشُ نفوسُهم للقتال، وتتحرّقُ للطّعان، فهي تعدُّ من المرغّبات والمحرّضات عليه، كما يقدّمُ بين يدي الآكل شيءٌ من المشهّيات لتغريه به، وتدفعُه إلى أكله.
ثالثاً: المبارزةُ سبيلٌ للتّفاهم بين قائدي الجيشَيْن المتحاربَيْن، فقد تكون المبارزةُ سبباً لفضّ النّزاع، وحقْن الدّماء، وإنهاء الحرب بين الطَّرفين لصالح جانب المبارز المنتصر. والله أعلم. (القيادة العسكرية في عهد الرّسول ﷺ ص ١٣٦) بتصرف يسير.

ووقفْـــــتُ إذ جَبُـــــنَ المشجّـ ـعُ مـــوقــفَ القِـــرْنِ المُنَـــاجــز
وكـــــذاك إنّـــــي لـــــم أزلْ متســـرّعـــاً قبـــلَ الهَـــزاهـــز
إنَّ الشَّجـــاعـــةَ فـــي الفتـــى والجـــودِ مـــنْ خَيـــرِ الغـــرائـــز

فقام سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه مقامَ الأبطالِ الشَّجعان وقال: أنا يا رسولَ الله، أو قال: دعني يا رسولَ الله، فإنَّما أنا بين حسنَتَيْن: إمَّا أنْ أقتلَه فيدخلَ النَّار، وإما أنْ يقتلَني فأدخلَ الجنَّة.

فقال له الحبيبُ الأعظم ﷺ مُثيراً حميتَهُ وبطولَتَهُ ونخوتَهُ القتاليّةَ: «إنَّه عمرو».

فقال سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه مُسْتَهيناً بعمروٍ: وإنْ كان عمراً يا رسولَ اللهِ!

فأذن له النَّبيُّ ﷺ، ودعا له وعمَّمه، وأعطاهُ سيفَه، فمشى إليه عليٌّ بقلبٍ مفعمٍ بالإيمان حتَّى أتاه، وهو يقولُ:

لا تَعْجلَـــــنَّ فقـــــد أَتَـــــا كَ مُجيـبُ صـوتـكَ غيـرُ عـاجـز
ذو نيّـــــةٍ وبصيـــــــرةٍ والصّـــدقُ منجـى كـلّ فـائـز
إنّـــــي لأرجـــــو أنْ أقيـ ـمَ عليـكَ نـائحـةَ الجنـائـز
مـــن ضـــربـــةٍ نجـــلاءَ يبـ ـقى ذكـرُهَـا عنـدَ الهَـزَاهـز

وتعجَّب عمرو أشدَّ العجب من هذا الفتى الذي تحدَّاه وقال: مَنْ أنتَ؟

قال عليٌّ: أنا عليٌّ.

فقال عمرو: ابن عبد مناف؟

قال: أنا عليٌّ بنُ أبي طالب.

فقال عمرو: غيرُكَ يا بن أخي مِنْ أعمامِك مَنْ هو أسنُّ منك؛ فإنّي أكرهُ أنْ أهريقَ دمَكَ.

فقال له عليٌّ بلسانِ الحقِّ واليقين: لكنّي واللهِ لا أكرهُ أنْ أهريقَ دمَكَ.

وعندها غضبَ عمرو بن عبد ودّ غضبةَ استهزاءٍ وازدراءٍ، وظنَّ أنْ لنْ يقدرَ علىٰ منازلته أحدٌ، فنزلَ عن فرسِهِ، ـ وكان فارساً مُعْلماً ـ وسَلَّ سيفَه كأنَّه شعلةُ نارٍ، ثم أقبل نحو عليّ رضي الله عنه مغضباً والشَّرُ يتطايرُ من عينيه، فاستقبله سيّدنا عليّ بدرقتِهِ، فضربه عمرو في الدَّرقة فقدَّها، وأثبتَ فيها السَّيف، وأصاب رأسه فشجَّه، فضربه سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه ضربةً هاشميةً على حَبْلِ عاقتهِ فسقَط قتيلاً كجذع نخلة خاوية كأنْ لم يَغْنَ بالأمسِ. وثار العجاجُ والغبار فوقهما، وسمع الحبيبُ المصطفى ﷺ التّكبير، فعرفَ أَنَّ عليّاً قد قتلَه، وأنشأَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه يقول:

أَعَلـيَّ تقتحـمُ الفَـوارسُ هكـذا ... عنّـي وعنهـم أخْبِـروا أصحـابـي
اليـومَ يمعُنـي الفـرارَ حفيظتـي ... ومصمّـمٌ فـي الـرّأس ليـس بِنَـابـي
آدى عُميـرٌ حيـن أخْلَـصَ صَقْلـه ... صَـافـي الحـديـدة يستفيـضُ ثـوابـي
وغـدوتُ ألتمـسُ القـراعَ بمرهـفٍ ... عَضْـبٍ مـع البتـراء فـي أقـرابـي
آلـىٰ ابـنُ عبـدٍ حيـن شـدَّ أَلِيَّـةً ... وأليـتُ فـاستمعُـوا مِـنَ الكـذّاب
ألاَّ أصـدَّ ولا يهلـلَ فـالتقـى ... رجـلان يضطـربـان كُـلَّ ضـراب
فصـددتُ حيـن تـركْتُـه متجـدَّلاً ... كـالجِـذع بيـن دكـادكٍ وروابـي
وعفَفْـتُ عـن أثـوابـهِ ولـو انَّنـي ... كنـتُ المقطّـر بـزَّتـي أثـوابـي
عبـدَ الحجـارةَ مـن سفـاهـةِ عقْلـهِ ... وعبـدت ربَّ محمَّـدٍ بصـواب

ثمَّ أقبلَ عليٌّ رضي الله عنه نحوَ رسولِ اللهِ ﷺ ووجهه يتهلّلُ، فقال له سيّدنا عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه: هلاّ سلبتْه درعه، فليسَ في العرب درعٌ خيرٌ منها؟

فقال عليٌّ رضي الله عنه: ضربْتُه فاتَّقاني بسوءتِهِ فاستحييتُ أنْ أسلبَه(١).

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤)، والبداية والنهاية (٤/ ١٠٦)، وزهر الآداب (١/ ٤٥ و ٤٦) مع الجمع والتّصرّف فيما بينها. وانظر: السّيرة الحلبية (٢/ ٦٤١ و ٦٤٢).
وقال صاحبُ السّيرة الحلبيّة: «ذكرَ بعضُهم أنَّ النّبيَّ ﷺ قال عند قتْل عمرو بن عبد ودّ: «قَتْلُ=

* وقصَّةُ مبارزةِ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه عمرو بن عبد ودّ العامريّ قصّة من روائع البطولة الإسلاميّة، لأنّها تمثّلُ الشَّجاعةَ البطوليّة في نموذجَيْها، كما يقول محمّد عرجون.

النَّموذجُ الأوّلُ: الشَّجاعةُ البطوليّةُ المتثبّتةُ بثوابتِ الإيمان، المستعصمةُ بعواصمه، وهي شجاعةٌ تعتمدُ على روحِ الفدائيةِ المحفوفةِ بالرجاء في فَضْلِ اللهِ، وإمداده بقوّة روحيّة إيمانيّة تتضاءلُ أمامَها أضخمُ القوى المادّية الجاهليّة التي تتجلّى مظاهرها في صراعٍ عضلي وسلاحٍ مشحوذ.

النموذجُ الثَّاني: شجاعةٌ بطوليّةٌ متهوِّرةٌ حمقاءُ، لا تستندُ إلى مدَدٍ داخليٍّ سوى الغرورِ المسعُورِ، والشّهرة الطَّنانة، والسّوابق المتوازية مع أقرانها في

= عليٍّ لعمرو بن عبد ودّ أفضلُ من عبادة الثّقلين». قال الإمامُ أبو العبّاس بن تيميّة: وهذا من الأحاديثِ الموضوعةِ التي لم تردْ في شيءٍ من الكتبِ التي يُعتمدُ عليها، ولا بسندٍ ضعيف، وكيف يكون قَتلُ كافرٍ أفضلُ من عبادةِ الثّقلين الإنس والجنّ ومنهم الأنبياء. قال: بل إنّ عمرو بنَ عبد ودّ هذا لم يُعرفْ له ذِكْرٌ إلا في هذه الغزوة».

قال عليُّ بنُ برهان الدّين الحلبيّ: «أقولُ: ويُرَدُّ قوله إنَّ عمرو بنَ عبد ودّ هذا لم يعرفْ له ذِكْرٌ إلا في هذه الغزة قولٌ لا أَصْلَ له؛ وكان عمرو بنُ عبد ودّ قد قاتلَ يوم بدرٍ حتى أثبتتْهُ الجراحةُ، فلم يشهدْ يومَ أُحُدٍ، فلمّا كان يومُ الخندقِ خرجَ مُعْلَماً لِيُرى مكانه. ويردُّه أيضاً أنّه نذرَ أنْ لا يمسَّ رأسه دهناً حتّى يقتلَ محمّداً ﷺ، واستدلاله بقوله: وكيف يكون قَتْل كافرٍ... إلى آخره فيه نظَر، لأنَّ قتل هذا فيه نصرةٌ للدين وخذلانٌ للكافرين»!!!! (السّيرة الحلبية ٢/ ٦٤٣).

وعلّقَ عليُّ بنُ برهان الدّين الحلبي على قولِ عليّ وعمر رضي الله عنهما والذي آخره: «ضربتُه فاتّقاني بسوءته، فاستحييتُ أنْ أسلبَه» فقال: «وعندي أنَّ هذا اشتباهٌ من بعض الرُّواة، لأنَّ هذه الواقعة لعليٍّ رضي الله عنه إنّما كانت يومَ أحدٍ مع طلحةَ بنِ أبي طلحة، وعمرو بن عبد ودّ لم يشهدْ أحداً». (السّيرة الحلبية ٢/ ٦٤٣).

ونقل صاحب السّيرة الحلبية عن تفسير الفخر الرازي: «أنّه ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه بعد قتله لعمرو بن عبد ودّ: «كيف وجدتَ نفسَك معه يا علي»؟ قال: وجدته لو كان أهلُ المدينة كلّهم في جانبٍ، وأنا في جانبٍ لقدرتُ عليهم». (السّيرة الحلبية ٢/ ٦٤٣).

اندفاع أهوج، لا يقدِّر العواقب قَدْرها، وصراع أحمق معتوه، يتفزز في توثّب طائش[1].

* والنّموذجُ الأوّلُ كان يمثّله في هذه القصّة موقف سيّدنا عليّ رضي الله عنه، فإنَّه لم يكدْ يسمعُ نداءَ عمرو: هل منْ مبارز؟ حتّى نهضَ يعرضُ نفسه على رسولِ اللهِ ﷺ أن يكونَ هو المبارزُ لهذا البطلِ المغرورِ بقوّته وسوابقه في ميادين المعارك الجاهليّة التي لا ترتكزُ إلا علىٰ عضلٍ مفتول، وساعدٍ مجدول. وكان يمثّل هذا النّموذج عمرو بن عبد ودّ العامريّ بصلفه وحمقِهِ وجاهليته، وكان عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه متحفّزاً لمنازلة هذا الطّاغية الذي تحدّى كتائب المسلمين أنْ يُخْرجُوا إليه رجلاً منهم لمبارزته، فكان عليٌّ كلّما سمعَ صرخته يطلبُ المبارزة ينهضُ ليأذنَ له رسولُ الله ﷺ في مبارزته، ويقول: أنا له يا رسولَ اللهِ، فيستجلسه رسولُ الله ﷺ.

* ولعلَّ الحكمةَ النّبويّةَ المتأنيةَ في ذلك، كانت هي التّفاوتَ الكبيرُ بينهما في السِّنِّ، وطرائق الحياة وتجارب الحروب، فقد كان سيّدنا عليّ رضي الله عنه يوم غزوة الأحزاب في ميْعَةِ الشّبوبية الصّاعدة التي استحوذ عليها الإسلام بعقيدتهِ وشرائعهِ وآدابه، فشغلها به منذ إنشائها بين أحضانه في تربيةٍ إنسانيةٍ جادّة صارمة لا تعرفُ الفراغَ العابث، ولا العَبَثَ الفارغ الذي تستغرقه الفتوةُ المتصعلكة في أسواقِ الجاهلية ومحافلها وحروبها للسَّلب والنَّهب وسفك الدّماء، والتّباهي بالقوة العضليّة، ومصارعة الفتيان، استجابة لموروث التّراث الجاهليّ الذي لا يشغله في حياةِ النَّاسِ شيء، ولا يشغل من حياةِ النّاس شيئاً.

* ولكنَّ حياةَ عليٍّ رضي الله عنه الإسلاميّة الخالصة المخلصة لم تكن تسمحُ له في تقاربها من الرّجوليّةِ المكتملةِ بجولات المصارعات الجاهليّة التي اتّخذها الفارغون من أضرابِ عمرو بن عبد ود العامريّ ديدنهم لِتُرضي صلفَهم وغرورهم وبطرهم، واستكبارهم في الأرض.

(١) محمد رسول الله (٤/ ١٧٢ و ١٧٣).

* وظلَّ بطلُ الإسلام سيّدنا عليّ رضي الله عنه مستوفزاً متحفزاً وهو يسمعُ صرخات عمرو الدّاعية إلى المبارزة وقد خلطَها بتأنيب المسلمين، وتعييرهم بالجبْنِ، وعندئذ وقف عليٌّ وقفة الفتيان وهو يقول: أنا له يا رسول اللهِ، فيقول رسولُ الله ﷺ: «اجلسْ؛ إنّه عمرو».

* «ولم يقصدْ رسولُ الله ﷺ إخافةَ عليٍّ وإرعابَه، وهو ﷺ أعرفُ النّاس بهِ وبشجاعتِهِ وبطولته، وقوّةِ بأسه، لأنَّه ربيبُه، وراضعُ ثدي نبوّته، وبطلُ أبطال دعوته، وحامي حمى رسالته، ومجندلُ صناديد المشركين في بَدْرٍ، وإنّما قصدَ ﷺ إثارة حميّة البطولة ونخوتها في نفسِ عليٍّ رضي الله عنه، لينازلَ قرنَهُ وهو يرى آمالَ رسول الله ﷺ متعلّقة به، فسيتحضر أقصى غايات بأسِهِ وشجاعته. ومن ثمّ أجابَ رسول الله ﷺ بكلِّ ما في نفسه من ثقةٍ وقوةِ بأس، ليزيدَ من طمأنة رسولِ الله ﷺ في تحقيق آمالهِ من هذه المبارزة الفريدة، فقال: وإنْ يكن عمراً. ويأذنُ له النّبيُّ ﷺ، ويدعو له ويعمّمه ويعطيه سيفَه، ويمشي بطلُ الإسلام عليٌّ رضي الله عنه إلى قرنه بطلِ الجاهليّةِ مُقنّعاً بالحديد، فيحاوره محاورةً يُحْفِظُه بها، ويستثيرُ غيظَه وغضبه استثارة يغلي منها دماغه، وينزلُ عن فرسِهِ مُحنقاً، ويسلُّ سيفَه من غمده كأنَّه شعلةُ نارٍ، ويتجاولان، ويضربُ عمرو عليّاً ضربةً يتّقيها عليٌّ بدرقته، فيقدّها سيف عمرو ويثبتُ فيها، ويضربُهُ عليٌّ على عاتقه فيصرعه، ويعلنُ التّكبير، ثمَّ يقبلُ على رسولِ الله ﷺ، ويحمدُ الله تعالى بما يليقُ بجلاله»[1].

* وتختزنُ كتبُ الأسمار بذاكرتها أنَّ عَمْراً نُعِيَ إلى أخته أمِّ كُلثوم بنت عبد ودّ، فسألَتْ: مَنْ قتلَه؟

فقيل لها: عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه.

فقالت: لم يأتِ يومه إلّا على يدِ كُفءٍ كريم، وأنشدت:

---

(١) محمد رسول الله (٤/ ١٧٤).

أَسَـدَانِ فـي ضيـقِ المكَـرِّ تَجـاولا ... وكـلاهمـا كـفـءٌ كـريـمٌ بـاسـلُ
فتخـالسَـا سَلْـبَ النّفـوسِ كـلاهمـا ... وسْـطَ المجـالِ مُجـالـدٌ ومقـاتـلُ
وكـلاهمـا خَسـرَ القنـاعُ حفيظـةً ... لـم يثْنِـهِ عـن ذاك شُغْـلٌ شـاغِـلُ
فـاذهـبْ عَلـيُّ فمـا ظفـرتَ بمثلِـهِ ... قـولٌ سـديـدٌ ليس فيـه تحـامُـلُ (١)

* وقالت أمّ كلثوم العامريّة أيضاً ترثي عمراً أخاها، وقد عزَّاها أنه قتل بيد نَدٍّ كفءٍ كريم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

لـو كـان قـاتـلَ عمـروٍ غيـرُ قـاتلِـه ... لكنـتُ أبكـي عليـه آخـرَ الأبـدِ
لكـن قـاتلَـه مَـنْ لا يُعـابُ بـهِ ... مَنْ كان يُدعىٰ قديماً بيضةَ البلدِ
مِنْ هاشمٍ في ذُراها وهي صاعدةٌ ... إلى السَّماء تميتُ النَّاسَ بالحسَدِ
قـومٌ أبـى اللهُ إلا أنْ يكـونَ لهـم ... مكـارم الـدِّيـنِ والـدُّنيـا بـلا لَـدَدِ
يـا أمَّ كلثـومَ أبْكيـهِ ولا تَـدعـي ... بكـاءَ مُعـولـةٍ حـرّىٰ علـى وَلَـدِ (٢)

سيدنا عليٌّ في غزوةِ خَيبر:

* أخذ اليهودُ في خيبرَ يطوون أفئدتهم على الحسدِ والبغضاء لمحمّدٍ رسولِ الله ﷺ، وكان يتحيّنون الفرصَ ليطعنوا الإسلام طعنةً في الصَّميم.

* وحينما عاد الحبيبُ الأعظمُ ﷺ والمسلمون من صلح الحديبيةِ إلى المدينة المنوّرةِ، دون أنْ تسمحَ لهم قريش دخول مكّة والطَّواف حولَ البيت العتيق، ظنَّ اليهودُ أن رسولَ الله ﷺ قد ضعُفَ أمامَ قريش، وخافَها، فأرادوا أنْ

---

(١) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام لبشير يموت (ص ١٩١)، وشاعرات العرب لعبد البديع صقر (ص ٣٣٤).

(٢) انظر: زهر الآداب (١/ ٤٦)، وشاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام (ص ١٩٢)، وشاعرات العرب (ص ٣٣٥)، و«بيضة البلد»: خيرها وزعيمها، وهذا التّعبير ممّا تمدح به العرب وتذم. و«لدد»: خصومة ومماحكة.
أقول: «في النّفس شيءٌ من هذه الأبيات، والمتأمّل فيها يشعر بأنّها صُنعت فيما بعد، ولعلّها صنعت بعد مقتل عمرو بقرون والله تعالى أعلم بالحقيقة».

يستغلّوا ذلك الضَّعف، فبعثُوا إلى غطفانَ ليؤلّبوهم على حربِ النَّبيّ ﷺ.

* وعلم الحبيبُ المصطفى ﷺ بما بيَّتَ هؤلاء الخُبثاء، فأمرَ أصحابَهُ بالتَّأهُّب للخروج إلى خيبرَ في شهر المحرّم سنة سَبْع من الهجرة، ليباغتهم قبل أن يحركوا الشَّرَّ.

* وخيبرُ هذه واحةٌ خضراءُ، تقعُ على الطَّريق من المدينة إلى الشَّام، على بعد مئة ميلٍ شمالي المدينة المنورة.

* وكان يهودُ خيبرَ في حصونهم يعدُّون قرابة عشرة آلاف مقاتل، فكانوا يخرجُون ويصطفّون صفوفاً ثمّ يقولون مستهزئين: محمّد يغزونا؟ هيهات هيهات!!.

* كانوا واثقين مِنْ أنَّهم سيسيرون إلى محمَّدٍ ﷺ ليحاربوه في المدينة، ولكنَّهم لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحاها فأصبحوا فألفوا محمّداً ﷺ وجيشَه يتقدّمون نحو الحُصون، وهاهو منهم قريبٌ قابَ قوسَيْن أو أدنىٰ؛ ومعه أصحابه كالنُّجوم، وبأيديهم السُّيوف التي ترشحُ بالموتِ لكُلِّ مَنْ يعادي الحقَّ وأهل الحقِّ.

* وأشرف رسولُ الله ﷺ على خيبر، فقال لأصحابه: «قفُوا»، ثمَّ دعا لهم بهذا الدُّعاء: «اللهم ربّ السَّموات وما أظللْن، وربّ الأرضين وما أقللْن، وربّ الشياطين وما أضللْن، وربّ الرّياح وما أذرين، فإنّا نسألُكَ خيرَ هذه القرية، وخيرَ أهلها، وخيرَ ما فيها، ونعوذُ بك من شرِّها؛ وشرِّ أهلها، وشرِّ ما فيها، أَقْدِمُوا باسمِ الله»[1].

* وتحصَّنَ الخيبريّون بقلاعهم وآطامهم، وقامت فِرقُ الرَّحمن أصحاب رسولِ الله ﷺ بالغاراتِ على حصون خيبرَ المنيعة، وأبطأَ على المسلمين

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام (٢/ ٣٢٩) طبعة مصر، وكان رسول الله ﷺ يقول هذا الدّعاء لكلّ قرية يريد دخولها، وانظر: مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٤).

فتحها، وعندها بزغ نجمُ سيّدنا عليٍّ ساطعاً في أعظمِ بشارةٍ نبويّةٍ، وأكملِ ثناءٍ محمّديٍّ عليه، حيث قال ﷺ: «لأعطينَّ هذه الرَّايةَ غداً رجلاً يفتحُ اللهُ على يديه، يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه»[1].

* وبات النَّاس في تلك الليلة يتحدّثون في ذلك الأمر، أيّهم يُعْطَىٰ الرَّايةَ المحمّديّةَ الميمونة! حتّى إنَّ سيّدنا عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه تطاولَ لها، وحرصَ عليها، وأظهرَ وجْهَهُ، وتصدّى للأمْرِ ليتذكّره الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ، وفي ذلك يقول عمرُ: «ما أحببتُ الإمارة إلاَّ يومئذ»، فكيف كان ذلك؟ وكيف بَرزَ سيّدنا عليٌّ وتألّقَ في هذه الغزوة المباركة؟ بل كيف تجلّت بطولة فتى أهل البيت وفارسهم الأوحد في هذه الغزوة وهذا الموقف الكريم؟ وكيف ظهرت مكانتهُ عند الله عزَّ وجلَّ، وعند رسولِ الله ﷺ؟

* فإلىٰ السُّطور الآتيةِ نستجلي ذلك كلّه، ونحلّي بذلك الأفواهَ والأسماعَ،

---

(١) أخرجه البخاريّ في المغازي برقم (٤٢١٠)، ومسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٠٦).
قال الحكيمُ التّرمذي: «شهد له الرّسولُ ﷺ بحبّ الله إيّاه، وبحبّه الله عزَّ وجلَّ، والمرء يُنسبُ إلى ما يكون الغالبُ عليه من الأمورِ والأعمالِ، فكذلك في الحظوظ ما ينسبُ أصحاب القلوب كلّ إلى ما وفر له من الحظّ من ذلك الشَّيء، فأبو بكر منسوبٌ إلى الرّحمةِ، وعمرُ منسوبٌ إلى الحقّ، وعثمانُ منسوبٌ إلى الحياء، وعليٌّ منسوب إلى المحبّة، وإنّما نُسِبَ كلُّ واحدٍ منهم إلى ما هو الغالب عليه. وكان عليٌّ رضي الله عنه ظاهرُ الأمر من بين الأصحاب في شأن الثّناء على الله تعالى، وذكر الصّفات. وهذا علم المحبّين، وكان معروفاً بالانبساط والانطلاق والهشاشة إلى الخلق والمزاح، حتى قال عمرُ رضي الله عنه في حقّه: إنّه رجل تلْعَابة.
وقال مرةً أخرى: به دعابةٌ. وهذا لِمَنِ الغَالبُ على قلبه محبّة الله تعالى، لأن القلب ينبسطُ عند المحبة، وينقبضُ عند المخافة... فكان انبساط عليّ رضي الله عنه إلى الخلق ومعاملته إياهم حسب ذلك من السّعة والبشر والهشاشة، وبتلك القوة أمكنته المحاربةُ، وتشجّع فيه». (نوادر الأصول ص ٣٠٧).
وقال الحكيمُ التّرمذي أيضاً: «وكان الغالبُ على قلبِ عليٍّ رضي الله عنه محبّة الله، والمحبةُ تسيرُ إلى الله في ميدان السّعة والتّشجّع في الأمور». (نوادر الأصول ص ٣٠٧).

ونربّي أبناءَنا وشبابنا وأمّتنا على محبّةِ أهلِ البيت واتّباع خُطاهم والتّشبّه بهم، إذ إنَّ في التّشبُّه بهم الفلاحُ والنّجاحُ والنَّجاةُ والسَّعادةُ.

* أخرجَ الإمامُ مسلم رحمه الله في صحيحهِ عن سيّدنا سهلِ بنِ سعد: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الرَّايةَ رجُلاً يفتحُ اللهُ على يديه، يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه»(١).

قال: فبات النَّاس يَدُوكُون ليلتهم أيّهم يُعطاها، فلمّا أصبح النَّاسُ عدَوا على رسولِ اللهِ ﷺ، كلّهم يرجون أنْ يُعطاها.

فقال: «أينَ عليُّ بنُ أبي طالب»؟

فقالوا: هو يا رسولَ الله يشتكي عينيه.

قال: «فأَرسلُوا إليه».

---

(١) لأستاذِنا الجليلِ فضيلة الدّكتور محمد فوزي فيض الله حفظه الله، تعليقٌ نفيسٌ جداً وكلامٌ علميٌّ لطيفٌ، ينبغي أنْ يحفظَه كلّ محبٍّ لسيّدنا علي رضي الله عنه، وكلّ محبٍّ لسادتنا الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، فقد ذكرَ فضيلةُ الدكتور محمد فوزي ـ أكرمه اللهُ ورعاه وأكرمنا بمعيّة الأخيار الأبرار ـ بأنَّ سادتنا الصَّحابة كلّهم يحبّون اللهَ عزَّ وجلَّ، ورسولَه محمّداً ﷺ، وإنْ تفاضَلُوا فيما بينهم فقال: «ومافي عليّ رضي الله عنه ميزة حبِّ اللهِ ورسوله على صاحبيه الشَّيخَيْن، فهي قاسمٌ مشاركٌ بين الصَّحابة، مشهود لهم بها، فما ينبغي أنْ يكونَ لتخصيصه بالاتّصاف بحبِّ الله ورسوله انتفاء ذلك الوصف عن الشَّيخَيْن؛ ولا اعتبار لمفهوم الصّفة في النُّصوص الشَّرعية ـ كما هنا ـ، لأنّه يؤدّي إلى هذه المحاذير السّاقطة في الاعتبار، كما قرّره جماهيرُ الأصوليين، وعلى التَّخصيص الحنفيين.

كلُّهم محبٌّ لله ورسوله، فإن يكن تفاضلٌ بينهم في مبلغ ذلك الحبّ، فلا شكَّ أنَّ الصّدّيقَ والفاروقَ كانا أشدّ حبّاً؛ كما تدلُّ عليه المواقفُ والمناسبات، وكما أجمعت عليه الأمّةُ المسلمة، وأنَّ الأفضلية فيهم تحكمها الأوليةُ في الخلافة، كما نصَّ عليه أهلُ العلم.

وإنّما أرادَ النَّبيُّ ﷺ التّنصيص في ذلك المشهد على أنَّ علياً رضي الله عنه محبٌّ لله ورسوله، وأنّه لحبّه هذا سيدفعُ إليه الرّاية، ويتوقَّعُ أنْ يفتحَ الله عليه الحصن، بفضلٍ منه تعالى وإكرام من لدنه، بقطعِ النّظر عن كلّ اعتبار يمسّ شخص الشَّيخين، وكان الأمر كذلك». (صور وعبر عن الجهاد النّبويّ في المدينة ص ٣٠٩).

فأُتيَ به، فَبَصَقَ رسولُ الله ﷺ في عينَيْه، ودعا له فبرأَ، حتَّى كأنْ لم يكُنْ به وجعٌ، فأعطاه الرَّايةَ...»[1].

* وأخرج مسلمٌ عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الرّاية رجُلاً يُحبُّ اللهَ ورسوله، يفتحُ اللهُ على يديه». قال عمرُ بنُ الخطَّاب: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ، فَتَساوَرْتُ لها، رجاء أنْ أُدعىٰ لها، فدعى رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب، فأعطاه إياها....»[2].

* ثم إنَّ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ أوصى سيّدنا عليّاً رضي الله عنه بأنْ يدعوَ الخيبريين إلى الإسلام قبل أنْ يقاتلهم، إذ إنَّ الأمرَ ليس بأخذ السَّبي والأموال والمغانم الكثيرة، بل إنَّ إسلامَ القوم، ونزولهم على الأوامرِ الإلهيّة أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ من قتالهم ومناجزتهم وتشريدهم وبعثرتهم ذات اليمين وذات الشِّمال.

* ولنكملْ هذه المعاني التي جاءت في صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «... فقال عليٌّ: يا رسولَ الله، أقاتلهم حتَّى يكونوا مثلنا؟.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٠٦). أقول: «أشار البوصيريُّ رحمه الله في همزيتهِ اللطيفةِ إلى تَفْل النَّبيّ ﷺ بعيني عليّ رضي الله عنه فقال:

وعَلِيّ لمّا تَفَلْتَ بعينيـ ـه وكلتاهما معاً رَمْدَاءُ
فغدا ناظراً بعينَي عُقَابٍ في غَزَاةٍ لها العقاب لواءُ»

(ديوان البوصيريّ ص ٦٩).

أقول: «معنى العقاب: النّسر وهو من فصيلةِ الصّقور. والعقاب الثّاني: اسمٌ لرايةِ رسولِ الله ﷺ وكانت سوداء اللون».

وينبغي أنْ نشيرَ هاهنا إلى ما قاله أستاذنا وحبيبنا الدّكتور محمَّد فوزي فيض الله حفظه الله ورعاه في قصّة إبراء سيِّدنا عليّ من الرَّمد فيقول: «وهذا الإبراءُ السَّريعُ من معجزات النّبوّة الثّابتة، وله نظائرُ كثيرة؛ منها ما تقدَّم في غزوة المريسيع، لمّا تخلّف جمل جابر لضعفه، فاتّخذ عوداً فنخسه به، فما لبث أنْ نشطَ، وانطلقَ يسابقُ غيره من الجمال... (صور وعبر ص ٣١٠).

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٠٥).

فقال: «انفُذْ علىٰ رسلك، حتّى تنزلَ بساحتهم، ثمَّ ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ اللهِ فيه، فوالله لأنْ يهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً، خيرٌ لكَ من أنْ يكونَ لك حُمْرُ النّعم»[1].

* وقبل أنْ يمضيَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه إلى شأنه لتنفيذ الأوامر النّبويّة، أخذَ يسأل النَّبيَّ ﷺ عن ضوابط قتال النَّاس، فأجابه الحبيبُ الأعظمُ ﷺ وعلَّمه المنهاجَ الشَّرعيَّ، ليكون ذلك مصدراً عظيماً لمن يأتي من الخلفاءِ والأمراءِ والأئمة وأصحاب الألوية، وليكون ذلك التَّعليمُ النَّبويُّ لرجلِ أهلِ البيت وفتاه سيّدنا عليٍّ منهاجاً واضحاً لمن أراد أنْ يحكمَ بما أنزلَ الله عزَّ وجلَّ ويسيرَ على طريق الحقِّ والعدلِ والخيرِ.

* فتعالوا لكي نطّلعَ على هذا المنهجِ العظيم، ونتعرّفَ جانباً من هذا الدِّين القويم، ونتغذّى من مائدةِ أهلِ البيتِ العلميّة، فقد أخرج الإمامُ مسلم في صحيحهِ من حديث سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: «. . . فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب، فأعطاه إيّاها، وقال: «امْشِ، ولا تلتفتْ حتّى يفتحَ اللهُ عليك». قال: فَسار عليٌّ شيئاً ثمَّ وقف ولم يلتفتْ، فصرخَ: يا رسولَ اللهِ علىٰ ماذا أقاتل النَّاس؟ قال: «قاتلْهُم حتّى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منكَ دماءهم وأموالهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله»[2].

---

(1) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٦) وهو تتمة الحديث الذي رواه سهل بن سعد رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٥). ومعنى قوله ﷺ: «امشِ ولا تلتفت. . .» هذا الالتفات يحمل وجهين:

أحدهما: أنّه على ظاهره، أيْ لا تلتفتْ بعينيك لا يميناً ولا شمالاً، بل امضِ على جهة قصدك.

والثاني: أنَّ المرادَ: الحثّ على الإقدام والمبادرة إلى ذلك، وحَمَلَه عليٌّ رضي الله عنه على ظاهره، ولم يلتفتْ بعينه حين احتاج. وفي هذا حَمْلُ أمرهِ ﷺ على ظاهره. وقيل: يُحتمل أنَّ المرادِ: لا تتصرفْ بعد لقاء عدوك حتّى يفتح الله عليك. =

* وامتثل سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه الدَّعوةَ المحمّديّةَ النَّاجحة، وسار إلى بوابةِ خيبر، ومن خلفه ثلّة من رجال الصَّحابة الذين صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه، وطبّقوا ما علَّمهم النَّبيّ ﷺ في الدَّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكان عليّ حاملَ اللواء هو أوَّل مَنْ طبَّقَ الهديَ النَّبويَّ في هذه الغزاةِ، إذ دعا مرحبَ الخيبريَّ ملكَ اليهود إلى الإسلام، فأبىٰ، فضربَ رأسَه عن جسمِهِ فَطَار، وجعَلَه في عدادِ أهلِ النَّار، بإذنِ العزيزِ الغفَّار؛ وما أجملَ أنْ نشدوَ قَائلين:

لـم يلـقَ مـرحَـبُ مـرحباً منـه ولا   أنجـــاهُ مَنْـــهُ الحُصُـــن والبنْيـــانُ

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ مرحبَ الخيبريَّ كان من فرسانِ اليهودِ وأشدائهم، وكان مكتوباً على سيفهِ بالعبرية:

هـــــذا سيـــــفُ مَـــــرْحَـــــبْ   مَـــــنْ يـــــذُقْـــــه يعطَـــــب

وكان هذا البيتُ من الشّعرِ بالعبريّة، وترجَمَه إلى العربيّةِ رجلٌ من اليهود[1].

* ويروي الإمامُ مسلم في صحيحهِ قصَّةَ مقْتَل مرحب الخيبريّ بضربةٍ هاشميّةٍ مضريةٍ قويّةٍ من سيّدنا عليّ رضي الله عنه وأرضاه، إذ أخرج في صحيحه بسندهِ عن سلمةَ بن الأكوع رضي الله عنه؛ قال: «. . . وخرج مرحبُ فقال:

= وفي هذا الحديث معجزاتٌ ظاهراتٌ لرسول الله ﷺ قَوليّة وفعلية؛ **فالقوليةُ**: إعلامه بأنَّ اللهَ تعالى يفتحُ على يديه فكان ذلك.

والفعليةُ: بصاقه في عينه، وكان أرمد فبرأ من ساعته.

وفيه فضائل ظاهرة لعليّ رضي الله عنه، وبيان شجاعته، وحسن مراعاته لأمْرِ رسول الله ﷺ، وحبّه الله ورسوله، وحبّهما إياه.

وفيه أيضاً: الدّعاء إلى الإسلام قبل القتال. وفيه دليلٌ على قبول الإسلام سواء كان في حال القتال أمْ في غيره. وفيه أنَّ يشترط في صحّة الإسلام النّطق بالشّهادتين فإنْ كان أخرس، أو في معناه: كفته الإشارةُ. والله أعلم. (المنهاج ص ١٧٥٨).

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٢٢) بتصرف يسير.

قـد عَلمـتْ خيبـرُ أنَّـي مـرحـبُ   شـاكـي السِّـلاح بطـلٌ مجـرّبٌ
إنَّ الحروبَ أقبلْت تلهَّبُ

فقال عليٌّ:

أنـا الـذي سمتنـي أمّـي حَيْـدَره   كَلَيْـثِ غـابـاتٍ كَـريـهِ المنْظَـره
أُوفيهم بالصَّاع كَيْل السَّنْدره

قال: فضرب رأْسَ مرحب فقتلَه، ثمَّ كان الفتحُ على يديهِ، رضوان الله عليه»[1].

* وبالقضاءِ المبرم على مرحب ومقتله تزلزلتْ معنوياتُ اليهود، وتصدَّعت نفوسُهم، وانكسرت قلوبُهم، فقد كان مرحبُ فارساً ملكاً له مكانتهُ عندهم، فكان مقتلُه صفعةً قويّةً انهارت أمامها آمالُهم وتطلعاتُهم، وخَبَتْ خلالها فورةُ غدرهم وخبثِهم وكذِبهم وضلالهم وإضلالهم.

* ومن زاد المعرفةِ ما زوَّدنا به ابن قيم الجوزية في «الزَّاد» من حُسْنِ طالع عليّ رضي الله عنه في هذه الغزاة، وفتْحِ حصن خيبر على يديه فقال: «ولمّا دنا عليٌّ رضي الله عنه من حصونهم، اطّلع يهوديٌّ من رأسِ الحصْنِ، فقال: مَنْ أنت؟

فقال: أنا عليُّ بنُ أبي طالب.

فقال اليهوديّ: علوتُم وما أُنزِلَ على موسى»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسِّير برقم (١٨٠٧). ومعنى «حيدرة»: اسم للأسد، وكان عليٌّ رضي الله عنه قد سمّي أسداً في أوّل ولادته، وكان مرحبُ قد رأى في المنام أنَّ أسداً يقتله، فذكّره عليّ رضي الله عنه ليخيفَه ويضعفَ نفسه، ومراد عليٍّ رضي الله عنه من قوله: «حيدره» أنا الأسدُ على جرأته وإقدامه وقوته. وقوله: «أوفيهم بالصَّاع...» معناه: أقتلُ الأعداء قتلاً ذريعاً واسعاً. و«السّندرة»: مكيال واسع. وقيل: العجلة، أي: أقتلهم عاجلاً. وقيل: مأخوذٌ من السَّندرة، وهي شجرة الصّنوبر يُعمل منها النَّبلُ والقسيُّ والله أعلم.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٢١).

* آن لنا الآن أنْ نتفيأَ بظلالِ الأدب، ونستروحَ بعض عبير أزاهره، فمع هذه الدَّفقات الهامسة التي تحكي وتجملُ فَتْحَ حصن خيبر على يد سيّدنا عليّ رضي الله عنه:

بعـــضُ الحصـــونِ فـــلا يـــزال يهـــودهـــم مُتمنّعيـــن
قـــال الـــرَّســـولُ وحـــولَـــه الأصحـــابُ كـــانـــوا ســـامعيـــن
فـــي الصُّبـــح أُعْطِـــي رايتـــي أحـــدَ الـــرِّجـــالِ المـــؤمنيـــن
رجُـــلاً يحـــبُّ اللهَ ثـــمَّ رســـولَـــه هـــذا يقيـــن
وعلـــىٰ يـــديـــهِ يتـــمُّ فتـــحٌ لا يفـــرُّ ولا يليـــن
ســـألَ الـــرّســـولُ عـــن علـــيّ فـــي الصَّبـــاح البـــاكـــريـــن
قـــالـــوا علـــيٌّ يشتكـــي عينَيـــه أرْمَـــدَ فـــي أنيـــن
عَيْنَـــاهُ قـــد شَفِيـــتْ وذاك بمسْـــحِ خيـــرِ المـــرسليـــن
خُـــذْ يـــا علـــيٌّ رايتـــي واذْهَـــبْ تكُـــنْ فـــي الفـــاتحيـــن
هـــذا علـــيٌّ قـــد مضـــى مـــع رايـــةِ الهـــادي الأميـــن
قـــد دارَ حـــولَ الحِصْـــنِ يبحـــثُ مـــدخـــلاً للهـــاجميـــن
أحـــدُ اليهـــودِ رأىٰ عليّـــاً كـــان فـــي المتحصّنيـــن
نـــاداهُ قـــال فَمَـــنْ تكـــونُ فـــذاك سُـــؤل المُسْتَبِيـــن
فـــأجـــابَـــه إنِّـــي علـــيٌّ جئـــتُ بـــالـــذّلِّ المُهيـــن
قـــال اليهـــودي قـــد علـــوتَ وحـــقّ ربِّ العـــالميـــن

* ولنترنم أيضاً بهذه البائية المنعشة التي ترسمُ جانباً من سيرةِ سيّدنا عليّ رضي الله عنه عند خيبر، وتذكرُ بطولَته المتألّقة التي أدهشَتْ جموع اليهود وأحزابهم:

لـــواءُ الفتـــحِ فـــي يـــدِه رهيـــنٌ ... بصـــاحبِـــه الـــذي فـــاقَ الصّحـــابـــا
علـــيٌّ للعُقَـــاب ومـــا علـــيٌّ ... ســـوى البطَـــلِ الـــذي يحمي العُقَـــابـــا
تقـــدّمْ يـــا علـــيُّ رعـــاكَ ربٌّ ... كفـــىٰ عينَيْـــكَ داءك والعصـــابـــا
بِطـــبِّ محمّـــدٍ أدركـــتَ مـــا لـــو ... أرادَ الطّـــبُّ أعجـــزَه طِـــلابـــا

شفى الرَّمد الذي آذاك حيناً وكان لعزمكَ الماضي قِرابا
خُذِ السَّيف الذي أعطاكَ واصدعْ بِبأسِكَ هذه الصُّمّ الصّلابا
تخيَّلَ مَرْحَبٌ ما ليسَ حقّاً ومنَّتْهُ الظُّنون مُنىً كِذابا
مشى يختالُ مُرتجزاً فلاقىٰ قضاءَ اللهِ ينسربُ انسرابا
سَقَاهُ الموتَ أبيضُ مشرفيٌّ يذيبُ الموتَ يجعلُه شَرابا
وكلُّ مغالبٍ فَلَهُ عليٌّ غداة الكرِّ يأخذُهُ غِلابا

* وبسقوطِ خيبرَ، سقطَ آخرُ معقلٍ لليهودِ في الجزيرةِ العربيّةِ، ولم تقمْ لهم من بعدهِ قائمة أبداً، واضطرت طوائفُ يهوديّةٌ أخرىٰ كانت منثورة في بعضِ الواحاتِ إلى الصُّلح كيهودِ فَدَكَ الذين صالحوا على نصفِ أموالهم من غيرِ قتال، وكذلك يهودُ تيماء قبلوا الجزية دون حربٍ ولا قتال، أمَّا يهودُ وادي القُرَىٰ فقد قاتلوا قليلاً، ثمّ ما لبثوا أنْ أذعنوا للصُّلح، وبذلك خضعَ اليهودُ في الشّمال لسلطان الإسلام وحكْمِهِ.

* وينبغي أنْ نعرفَ أنَّ الصَّادق المصدوقَ ﷺ قد قاتل خيبرَ والخيبريين؛ لأنَّهم كانوا عقبةً شنيعةً في طريقِ الدّعوة إلى اللهِ في الشّمال، فاتّجه إليهم بعد أنْ أمنَ الجنوب، ولكنّه لم يحاربْهم على كفرهم وعنادهم[1].

سيّدنا عليٌّ في غَزْوَة الفَتْح الأعظَم:

* كان فتحُ مكّةَ المكرَّمةِ في شهر رمضانَ سنة ثمان من الهجرةِ النَّبويّةِ المباركةِ، ولم تكن غزوةُ فتحِ مكَّة غزوةَ قتالٍ، وإنَّما كانت في مجملِها غزوةَ سلامٍ ومسالمةٍ ووفاءٍ بالعهودِ والمواثيق للصَّديق، وتأديباً للعدوّ الذي غدرَ وفجرَ ولم يَرْعَ حرمةَ العهد، بل عمدَ إلى نقْضِ الصُّلح، وعَبَثَ بالمواثيقِ المبرمةِ، وجعلَ الخيانةَ والغدرَ أحدوثتَه التي يتغنّىٰ بها.

* وسببُ هذا الفتح المبين أجمَعت عليه الرّواياتُ بأنَّ قريشاً نقضَتْ فقرةً

---

(١) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النّبويّ (ص ٣٠٦) بتصرّف واختصار.

من فقراتِ صُلْحِ الحديبية، فكأنَّها نقضته كلّها، لما أنَّ الصَّلح كان عهداً، والعهد كُلٌّ لا يتجزأ. فقد غدرت قريشٌ ونقضَتْ عَهْدَ الحديبية بمساعدة بني بكر ـ وهم حلفاؤها ـ على خزاعةَ حلفاء رسول الله ﷺ، وأمدَّتْهم بالسِّلاح تحتَ أستارِ الظَّلام وفَحْمتِهِ الدَّامسة، وهي تزعُمُ بأنَّ استخفافها هذا سيخفي الحقّ والحقيقة عن رسولِ الله ﷺ بالمدينةِ المنورة، وما علمتْ أنَّ بني خزاعة قد أوصلت نبأ غدرِ قريش إلى الصَّادق المصدوقِ ﷺ الذي وعدَ بنُصْرةِ حلفائِهِ.

* واستفاقتْ قريشٌ من غفوتها الذِّئبيّةِ التي تنامُ بعينٍ وتستيقظُ بأخرى، وندمتْ على ما قدَّمَتْ يداها من غدرٍ وقتلٍ لأنفسٍ بغيرِ حقٍّ، بل كانت حزازاتٌ جاهليَّةٌ استغلَّت غدرها في سفكِ دماء بني خزاعة.

* رهبت قريشٌ ما صنعَتْ، وندمتْ وساورها الهلعُ والخوفُ والجبنُ، وأدركتْ أنَّها تردَّت في خطأ كبيرٍ، وحماقةٍ بالغةٍ، وصفَاقةٍ نَذْلَةٍ؛ فاشتورتْ فيما بينها، وأرسلتْ أبا سفيان إلى رسولِ الله ﷺ ليشدَّ في العقدِ، ويزيدَ في المدَّة، وليصلحَ ما أفسدتْه بحماقتِها ونزقها، وكان أبو سفيان حين بلغه غدرُ قريش قد قال لكبراء القوم: «والله ليغزونا محمّد إنْ صدقني ظنّي وهو صادقي».

* كان رسولُ الله ﷺ في المسجد، ومن حوله المهاجرون والأنصار، يلقون إليه أسماعهم كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطَّير، فقال ﷺ: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء يقول: جدّد العهدَ، وزدْ في المدّة، وهو راجعٌ بسخطه».

* انطلقَ أبو سفيان تلقاء المدينةِ المنوّرةِ، وهو يطوي البيد طيّاً، كان شارداً وقد اشتدَّ وجيب قلبه، فهاهو ذا يعدُّ الدَّقائق والثَّوان ليلتقي محمّداً ﷺ ليزيدَ في مدّة العقد، وكانت العواطفُ المتباينةُ المتناقضةُ تنوشُه كوقْعِ الصَّياصي في النَّسيج الممدّد، فتارة يشعرُ بمرارةِ الذُّلّ، وطوراً يحسُّ بالتّيه والأَنَفه، وأخرى تسخرُ منه الأحلامُ والتَّصوّرات وتقول: هل ستنجحُ في سفارتك يا شيخَ قريش وداهيتها وصاحبَ حَلِّها وعقدها، وحِلِّها وترحالها؟

* لاحتْ لأبي سفيان بساتينُ المدينة ونخلها، وظهرت بيوتُ المسلمين

شامخةً كإيمانهم، وفي لحظةٍ غَفَتْ فيها أحلامُهُ المتأرجحةُ بين الأوهام والآمال، هبَّت نسمةُ أملٍ رقيقة، فتذكَّر خلالَها ذوي رحمَهُ من أهلِ البيت، فتذكّر علياً وفاطمةَ وبنيهما الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهم أجمعين، كما تذكَّرَ ابنتَه الحصيفةَ أمَّ حبيبة أمَّ المؤمنين التي طرحَتْ دِيْنَ آبائه وأجداده، ودخلَتْ في دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وسيدخلُ عليها ولنْ تحجدَ أبوّته، ولن يرضيها أنْ يعودَ أبوها إلى قريش خالي الوفاض وفي ركابه السّخط والخذلان والخُسْران.

* انْسَابَ أبو سفيان في المدينةِ، وسرعان ما اتَّجه إلى بيوتِ النَّبيّ ﷺ، ودخل على ابنتِهِ الحصيفَةِ سيّدتنا أمِّ حبيبةَ رضي الله عنها، وقد صنَعَ على ثغره المضطرب ابتسامةً قلقةً فظنَّ أنَّ دخولَه عليها قد أذهلَها، بيد أنَّ الأمْرَ كان خلافَ ظُنونه وأوهامه، بل أراد أنْ يجلسَ على فراشِ النَّبيّ فطوْتهُ عنه، فاضطرمَ غيظٌ في نفسه، ولكنّه كتمَه وكبحَ من جماحِ سريرتهِ وقال له: «واللهِ يَا بُنَيّي لقد أصابكِ بعدي شَرّ»!!! بيد أنَّ سيّدتنا الكريمة أمّ حبيبة قالت في ثقةٍ، وفي أدب النّبوة الأسيفةِ على ضلالِ أبيها التي كانت ترجو له في عقْلِه وذكائه ومكانته ألاّ يفوته مافي الإسلام من خيرٍ وهدى: «بل هداني اللهُ عزَّ وجلَّ للإسلام، وأنتَ يا أبت سيّد قريش وكبيرها؛ كيف يسقطُ عند الدّخول في الإسلام، وأنت تعبدُ حجراً لا يسمعُ ولا يبصر»!!..

* وقام من عندها، ثمَّ أتى رسول الله ﷺ في المسجد، والغيظ يكادُ يقضي عليه لولا تأسّيه، ثمَّ قال: يا محمّد، إنّي كنتُ غائباً في صلح الحديبية، فجدّد العهد وزِدْنا في المدّة.

فقال له الحبيبُ الأعظم ﷺ: «فلذلك جئْتَ»؟

قال أبو سفيان في خبثِ الدُّهاة: نعم.

فقال له الهادي الأمينُ ﷺ ليوقظَه من غفوةِ دهائهِ الكذوب: «هل كان قِبَلَكم حَدَث»؟

فقال أبو سفيان وقد استطار لبُّه وقلبُه وتلاشى دهاؤه: معاذ الله، نحنُ على عهدنا وصلحنا، فاشددِ العهد، وزدنا في المدّة.

فقال ﷺ: «فنحنُ على مدّتنا وصُلْحِنا يوم الحديبية، لا نغيّرُ ولا نبدّلُ»[1].

* وأعاد أبو سفيان القول مُتغابياً للذي قاله للنَّبيِّ ﷺ في تجديدِ العهد، وزيادةِ المدة، فلم يردَّ عليه ﷺ شيئاً.

* فذهب أبو سفيان وهو يحملُ عصا الخيبةِ والخذلان يتوكأُ عليها لتعينَ رجليهِ على حمله، وطرقَ باب أبي بكر ورجاه أنْ يكلِّم رسولَ الله ﷺ، فأبى أبو بكر رضي الله عنه وقال في حزم: «جواري في جوار رسول الله ﷺ».

* فذهبَ إلى عمرَ فكلَّمه فكان جوابُ عمر كجوابِ أبي بكر أو قريب منه، فذهب إلى عثمانَ فلم يزدْ على صاحبَيْهِ شيئاً.

* كاد أبو سفيان أن يفلسَ من هذا الأمر، ولكنَّه تذكَّر فتى أهلِ البيتِ وفارسهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأتاه، فدخلَ عليه وقال: يا عليُّ، إنَّك أمسُّ القوم رحماً بي، وإنّي جئتُ في حاجةٍ فلا أرجعُ كما جئتُ خائباً؛ فاشفعْ لي.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزمَ رسولُ الله ﷺ على أمرٍ ما نستطيعُ أن نكلمه فيه.

* تلاشى ظنُّ أبي سفيان وتضاءل كلَّه أمام سيّدنا عليّ رضي الله عنه، وفرغَتْ جعبته من سهامِ الحيلةِ والالتواء، ولكنَّه أطالَ التّفكير لعلّه يجدُ مخرجاً يحفظُ من خلاله ماءَ وجهه، ويرجعُ به إلى قريش، فتهافَتْ بين يدي سيّدتنا فاطمةَ الزّهراء رضي الله عنها عميدة البيت الفاطميّ ورأسه وسيّدة نساء العالمين، تهافَتَ تفكيرُهُ فلم يعدْ يدري بمن يستشفعُ إلى الشَّافع المشفّع

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (٢/ ٧٩٢ و ٧٩٣) بشيء من التصرف.

رسولِ الله ﷺ لينقذَه من ورطتِهِ، ومن أكذوبتِهِ البلهاء، فردَّتْه سيّدتنا فاطمة في أدبِ التَّربية النَّبويّة القويمة؛ بعد أنْ قال لها: هل لك أنْ تجيري بين النَّاس؟

فقالت سيّدتنا فاطمة: إنَّما أنا امرأةٌ.

قال: إنَّ جِوارَكِ جائزٌ؛ قد أجارت أختُك أبا العاص بن الربيع، فأجازَ ذلك محمّدٌ.

قالت سيّدتنا فاطمة: ذلك إلى رسولِ الله ﷺ، وأَبتْ ذلك عليه.

فقال وقد بُحَّ من الإلحاح: مُري أحدَ ابنيك يجيرُ بين النَّاس.

قالت فاطمةُ رضي الله عنها: إنّهما صبيّان، وليس مثلهما يجير(١).

* شَرَعَ أبو سفيان يتلفَّتُ بعينَيْن زائغتَيْن، فقد طال مكثُه في المدينة، دون أنْ يمسكَ بطرف حبل النّجاة، وكان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه ينظرُ إليه، ويدركُ ما يدورُ بخلده، فاتّجه أبو سفيان إليه بعد أنْ أفرغَ كلَّ مافي نفسِهِ من استكبارٍ وغرورٍ، وقال له بلهجة المستغيثِ المضطر: يا أبا الحسن، إنَّك ترى ما نزلَ بي من الضّيق، وإنّي أرى الأمورَ قد اشتدَّت عليَّ، فما الرّأي؟ يَسّرْ لي أمري، فإنَّه قد ضاق عليَّ، فَمُرْ لي بأمرٍ ترى أنَّه نافعي! فقال سيّدنا علي رضي الله عنه: ما أجِدُ لك شيئاً أمثل من أنْ تقومَ، فتجيرَ بين النَّاس، فإنَّك سيّدُ كنانة.

قال أبو سفيان وقد تهاوتْ سيادته الضَّخمة: تُرى ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟

فقال عليٌّ رضي الله عنه: لا أظنُّ ذلك والله؛ ولكنّي لا أجدُ لك غيره.

فقام أبو سفيان في لهفةِ الغريقِ المتشبث بقشَّةٍ فوق موج البحر، مستجمعاً ما تفرّقَ من الكلام الذي نفرَ من غدرِ قريش، ووقف بين ظَهْري النَّاس وصاح: ألا إنّي قد أجرتُ بين الناس، ولا أظنُّ محمّداً يخفرني.

* ولم يردَّ عليه النَّاسُ ولم يأبهوا له، إذ كانُوا في شُغُلٍ يذكرونَ اللهَ عزَّ

---

(١) المغازي (٢/ ٧٩٣ و ٧٩٤) بتصرف دون الخروج عن روح النص.

وجلَّ في المسجد، فكأنَّه كان يخاطبُ نفسه. ثمّ دخلَ على النَّبيّ ﷺ فقال: يا محمّد، ما أظنّ أن تردّ جِواري؟!

فقال رسولُ الله ﷺ: «أنتَ تقولُ ذلك يا أبا سفيان».

* ثمَّ ركب أبو سفيان بعيرَهُ لينقلبَ إلى أهله بحالٍ محيّرة إذ لا هو حيٌّ فَيُرجى، ولا ميتٌ فيُنعىٰ، ولم يأتِهِمْ بحربٍ فيحذروا، ولا بصلحٍ فيأمنوا؛ فلمَّا طوى الأرضَ التي تفصلُ بين المدينة ومكّة، دخل داره ليلاً؛ وحدَّث زوجه هندَ بنتَ عتبة بما دار بينه وبين المسلمين، وأخبرها الخبر كاملاً وقال: لم أجدْ إلا ما قال لي عليّ، قالت له: قُبِّحتَ من رسولِ قوم، فما جئتَ بخير. ولمَّا أصبحَ، ورأته قريش قالت له: ما وراءك؟ هل جئتنا بكتابٍ من محمّد، أو زيادة في مدَّة؟ ما نأمنُ به أنْ يغزونا! فأخبرهم بما صنعَ وبما أشار به عليه عليّ بن أبي طالب، وأحسَّ القومُ بأنَّ علياً رضي الله عنه قد سَخِرَ منه فقالوا له: لقد رضيتَ بغير رضا، وجئتَ بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، ولعَمْرُ الله ما جوارك بجائز، وإنَّ إخفارَك عليهم لهيّن، واللهِ ما زاد عليّ بن أبي طالب على أنْ تلعَّبَ بك تلعُّباً! وفي رواية: أراد عليٌّ أنْ يلعبَ بك. فقال أبو سفيان في يأسٍ مرير: واللهِ ما وجدتُ غيرَ ذلك(١).

* وكما تألَّقَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه في هذا الموقف، فإنَّه أسهم في بَتْرِ محاولةِ إخبار قريش باتّجاه جيش المسلمين نحوهم.

* كان هذا عندما استعدَّ الحبيبُ المصطفى ﷺ للمسير إلى مكَّةَ المكرَّمةِ ليفتحَها، ومن ثمَّ يفتح اللهُ عزَّ وجلَّ بالإسلام على قلوبِ أهلها وساكنيها، ويدخل جميعهم في دين الله أفواجاً.

* في هذه الظُّروف الدَّقيقة كتَبَ حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ كتاباً إلى قريش يخبرُهم بالذي أجمعَ عليه الصَّادقُ الأمينُ رسولُ الله ﷺ من الأمر في المسيرِ

---

(١) انظر هذا في المغازي (٢/ ٧٩٥)، والسيرة الحلبية (٣/ ٧ ـ ٩) مع الجمع والتصرف.

إليهم، ثمَّ أعطاهُ امرأةً من المشركين، وجعلَ لها جُعلاً إنْ هي أبلغتهُ قريشاً، فأخفَتْهُ المرأة بطريقتها الأنثويّة الخاصّة، ثمَّ خرجَتْ تسعى نحو مكّةَ في حَذَرٍ ووجَلٍ بالغَيْن، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ناصرٌ نبيَّه، فأطْلَعَه على هذه الرّسالة المريبة عن طريق الوحي، فقضى النَّبيُّ ﷺ على هذه المحاولة وهي في المرحلةِ الجنينيّة لم تذقْ طعمَ الحياة، ولم تغادرْ رحم الخيانة، واختارَ لإحباطِها فارسَ أهلِ البيت ورجل الملمّات والمهمّات عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعزَّزه بفارسَيْن آخرَيْن من فرسانِ المدرسةِ النَّبوية هما: الزُّبير بنُ العوّام، والمقدادُ بنُ عمرو رضي الله عنهم أجمعين.

* روى لنا سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه خبرَ إحباط هذه المحاولة، ونقلَتْها عنه أمّهاتُ المصادر الحديثيّة والتّاريخيّة وكتب الطَّبقات والتَّراجم والسِّيرة وغيرها، وملخَّصها ومفادها أنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ بعثَ عليّاً وصاحبَيْه وقال لهم: «انطلقُوا حتَّى تأتُوا روضةَ خاخ فإنَّ بها ظعينةً معها كتاب من حاطب بنِ أبي بلتعة، فخذوه منها». انطلقَ سيّدنا عليٌّ ومَنْ معه حتّى لحقوا بالظَّعينة عند روضة خاخ، فقالوا للمرأة: أخرجي الكتابَ. فأقسمتِ المرأةُ بأغلظِ الأيمان ما معها من كتاب.

فقالوا وقد علموا أنَّ رسولَ الله ﷺ ما ينطقُ عن الهوى: واللهِ لتخرجنّ الكتابَ، أو لنُلْقينّ عنكِ الثّياب، فأنكرت أنْ يكونَ معها شيئاً.

فقال لها سيّدنا عليّ رضي الله عنه في حزم: إنّي أحلفُ باللهِ ما كذبَ رسولُ اللهِ ﷺ قطّ وكذبنا، واللهِ لتخرجنَّ هذا الكتاب، أو لنكشفنَّكِ، أو أضربَ عنقَكِ.

فلمَّا رأتِ الجِدَّ من سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه ورأتِ الغضبَ لله عزَّ وجلَّ في وجههِ قالت: رويدكَ، أعرضْ. فأعرضَ، فحلَّتْ قرونَ شعرِها، ثمَّ استخرجتِ الكتابَ منه، وهم واثقون من وجودِهِ معها؛ فأخذوا الكتاب وانقلبوا مسرعين به إلى الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ، فدعا حاطباً فقال له: «يا حاطبُ ما هذا»؟

فقال حاطبُ: يا رسولَ الله، لا تعجلْ عليَّ، إنّي كنتُ أمرأً مُلْصقاً في قريش، وكان مَنْ معك مِنَ المهاجرين مَنْ لهم قراباتٌ يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أنْ اتّخذَ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولمْ أفعلْهُ ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفْر بعد الإسلام.

فقال رسولُ الله ﷺ: «أما إنَّه قد صَدَقكُم».

فقال عمرُ: يا رسول الله، دعْنِي أضرب عنقَ هذا المنافق.

فقال ﷺ: «إنَّه قد شهد بدراً؛ وما يدريك لعلَّ اللهَ قد اطَّلعَ على مَنْ شهدَ بدراً فقال: «اعملُوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم».

فدمعَتْ عينا عمر وقال: اللهُ ورسولُه أعلم(١).

---

(١) أخرجَهُ البخاري في مواضع برقم (٣٩٨٣ و ٣٠٠٧ و٣٠٨١ و ٤٨٩٠ و ٦٢٥٩ و ٦٩٣٩)، ومسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٩٤)، وأبو داود برقم (٢٦٥٢)، والتّرمذي برقم (٣٣٠٢). وانظر: السّيرة الحلبيّة (٣/ ١١ و ١٢) وغيرها من مصادر متنوعة.

قال صاحبُ السّيرة الحلبيَّة: «مرادُ سيّدنا عمر بقوله: قد نافق، أي خالفَ الأمْرَ، لا أنه أخفى الكفْرَ لقوله ﷺ: «قد صدقكم»، ورأى أنَّ مخالفةَ أمرِهِ ﷺ مقتضية للقَتْل». (السّيرة الحلبيَّة ٣/ ١٢).

وقال الشّيخُ محمّد عرجون رحمه الله: «. . . إنَّ قولَ عمرَ رضي الله عنه لرسولِ اللهِ ﷺ: دَعْني أضرب عنقَ هذا المنافق؛ لم يكنْ تعقيباً على قولِ رسولِ الله ﷺ: «أمَا إنّه قد صدقكم»، وإنّما كان قبل أنْ يعلمَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال هذا القولُ ليحسمَ به قصَّةَ حاطب في مشهدٍ من أصحابه حتى لا يغمزوهُ في إيمانِهِ، وليس في الرّواية ما يثبتُ أنَّ عمرَ رضي الله عنه كان حاضراً في وقتِ سؤال النَّبيّ ﷺ حاطباً عن صنيعِهِ، وعن الحامل له على ذلك، وليس فيها ما يثبتُ أنَّه سمعَ دفاع حاطب عن نفسِهِ، وسمع قول النَّبيّ ﷺ لأصحابه: «أمَا إنّه قد صدقكم» ويوصيهم بأنْ لا يقولوا له إلا خيراً. ولمَّا حضرَ عمر رضي الله عنه وسمعَ ممّن كان شاهداً للقصّةِ ما كان من حاطبٍ، ولم يسمعْ ما كان من رسولِ اللهِ ﷺ قال ما قال لرسولِ اللهِ ﷺ مندفعاً بقوةِ دينه، وبغضِهِ للمنافقين، ولم يقلْه لتصديق النَّبيّ ﷺ حاطباً فيما أخبره به في اعتذاره، وحاشا عمر رضي الله عنه أنْ يردَّ قولًا لرسولِ الله ﷺ يسمعْه منه ثمَّ لا يبالي بإطراح هذا القول، ويستأذن في فعل ينقضه ويردّه». (محمّد رسول الله ٤/ ٣١٤ و ٣١٥).

* وقد ساقَ الزَّمخشريُّ في تفسيره موقفَ سيّدنا عليٍّ العظيم في سياقِهِ لقصَّةِ حاطبٍ رضي الله عنه، وأبانَ عظمةَ إيمان سيّدنا عليٍّ، ورسوخَ عقيدته، وحُسْنَ تحقيقه مع المرأةِ المشركة التي أخفتْ كتابَ حاطب، وبهذا يظهرُ لنا تألّقُ سيّدنا عليٍّ في المهمّات النَّبويّة، كما يظهرُ حسنُ رأيه وحصافتُه في تحقيقِ عزّة الإسلام ونصرته.

* فلنعشْ وقتاً ممتعاً مفيداً مع الأنفاس الزّمخشريّةِ التي صاغتِ المواقفَ الهاشميّة لرجلِ أهلِ البيتِ وحصيفهم الألمعيّ سيّدنا عليّ، حيث يقول: «روي أنَّ مولاةً لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يُقال لها سارة، أتَتْ رسولُ الله ﷺ بالمدينةِ، وهو يتجهَّزُ للفَتْحِ؛ فقال لها: «أمُسْلِمة جئْتِ»؟.

قالت: لا.

قال: «أفمهاجرة جئتِ»؟

قالت: لا.

قال: «فما جاءَ بكِ»؟

قالت: كنتم الأهلِ والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي ـ تعني قُتِلُوا يوم بَدْرٍ ـ فاحتجتُ حاجةً شديدةً.

فحثَّ عليها بني عبد المطَّلب، فكسوها وحملُوها وزوَّدوها، فأتاها حاطبُ بنُ أبي بلتعة، وأعطاها عشرْة دنانير، وكسَاها برداً، واستحملَها كتاباً إلى أهلِ مكَّةَ نسخته: من حاطبِ بنِ أبي بلتعةَ إلى أهل مكَّةَ، اعلموا أنَّ رسولَ الله ﷺ يريدُكُم فخذوا حِذْركم، فخرجتْ سارةُ، ونزلَ جبريلُ بالخبرِ، فبعثَ رسولُ الله ﷺ عليّاً، وعمّاراً، وعمرَ، وطلحةَ، والزُّبيرَ، والمقدادَ، وأبا مرثد؛ وكانوا فرساناً، وقال: «انطلقُوا حتّى تأتوا روضةَ خاخ، فإنّ بها ظعينةً معها كتاب من حاطب إلى أهلِ مكّةَ، فخذوه منها وخلوها، فإنْ أبتْ فاضربُوا عنقها».

فأدركوها، فجحدتْ، وحلفَتْ، فهمّوا بالرّجوع، فقال عليٌّ رضي الله عنه: واللهِ ما كذبنا ولا كذب رسولُ الله ﷺ، وسلَّ سيفَه، وقال: أخرجي الكتابَ، أو تضعي رأسك؛ فأخرجَتْه من عقاصِ شَعْرِها. فاستحضرَ رسولُ الله ﷺ حاطباً وقال: «ما حملَكَ عليه»؟

فقال: يا رسولَ الله، ما كفرتُ منذ أسلمتُ، ولا غششتُك منذ نصحتُك، ولا أحببتُهم منذ فارقتُهم، ولكنّي كنْتُ امرأً مُلْصَقاً في قريش ـ أي غريباً ـ ولم أكُنْ من أنفسها وكلّ مَنْ معك من المهاجرين لهم قراباتٌ بمكّةَ يحمون أهاليهم وأموالهم غيري، فخشيتُ على أهلي، فأردتُ أنْ اتَّخذَ عندهم يداً، وقد علمتُ أنَّ اللهَ تعالى يُنْزِلُ عليهم بأسه، وأنَّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً.

فصدَّقَه ﷺ وقَبِلَ عذره، فقال عمر: دعني يا رسولَ الله أضرب عنقَ هذا المنافق.

فقال: «وما يدريك يا عمرُ لعلَّ الله قد اطَّلَع على أهلِ بَدْرٍ فقال: اعملُوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»؟

ففاضَتْ عينا عمر، وقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الممتحنة: ١ ـ ٣][(١)]».

---

(١) تفسير الزّمخشري (٤/٨٨ و ٨٩) دار المعرفة ـ طبعة مصوّرة. ومعنى قولهِ ﷺ: «لعلَّ الله قد اطّلع على أهل بدر...»، ليس فيه إباحة المعاصي لهم، وإنّما هو خطابُ إكرامٍ وتشريف تضمّن أنّهم رضي الله عنهم حصلت لهم حالة غُفِرت بها ذنوبهم السّالفة، وتأملوا لأنْ يغفرَ لهم ما سيحصل من الذّنوب لو فرض وقوعه منهم، وما أحسن قول بعضهم: =

* وما أجمل أنْ ننزلَ الآن ضيوفاً على الأدبِ، نقتطف من زَهْرِهِ وورْدِه ما نعطرُ به الأجواءَ وما نبلُّ به النّفوس، وما نرطّبُ به الأنفاسَ والأسماعَ، فمع هذه النُّونية العبِقَةِ التي أجملت بين طيّاتِ همسات حروفها قصَّة حاطب والمرأة، وأوضحت الموقف الحازم لسيّدنا عليّ الذي أجْبَرَ المرأةَ على الاعتراف:

المُصْطَفــى قــد جهَّــزَ الجيــشَ الكبيــرَ كمسلميــن
كــان المسيــرُ لنحــوِ مكَّــةَ كــي يــردُّوا المعتــديــن
لكــنْ رســالــةُ حــاطــبٍ قــد أُرسلَــتْ للمشــركيــن
الــوحــيُ جــاءَ إلــى رســولِ اللهِ خيــرِ العَــالَميــن
الــوحــيُ أخبــرَهُ وحــذَّره فِعَــالَ الخــائنيــن
هــذا علــيٌّ والــزُّبيــرُ أمــامَ خيــرِ المــرسليــن
قــال الــرّســولُ لِتَلْحَقَــا بظعينــةٍ كــالطَّــائِــريــن
معهــا كِتــابٌ مُــرسَــلٌ مــن حَــاطــبٍ للمجــرميــن
فَلْتُحضــراهُ ولا تعُــودا دونَــه كــالخــائبيــن
طــارا علــى ظَهْــرِ الخيــولِ ليــدْركَــا الخطــبَ المهيــن
هــذي الظعينــة أدركَــاهــا أوقَفَــاهَــا آمــريــن
قــالا لهــا أيــنَ الــرّســالــةَ فَلْتُجيبــي عــن يقيــن

= وإذا الحبيــبُ أتــى بــذنــبٍ واحــدٍ جــاءت محــاسنُــه بــألــفِ شفيــع
وقد أظهر اللهُ عزَّ وجلَّ صِدْقَ رسوله ﷺ في كلّ مَنْ أخبر عنه بشيء من ذلك، فإنَّهم لم يزالوا على أعمالِ أهلِ الجنّة، إلى أنْ فارقوا الدّنيا، ولو قُدِّر صدور شيء من أحدهم لبادرَ إلى التّوبةِ ولازم الطَّريقةَ المُثْلىٰ، يعلمُ ذلك من أحوالهم بالقطع مَنِ اطّلعَ على سِيَرهم رضي الله عنهم. (السّيرةُ النّبوية لأحمد دحلان ٢/ ٢٥٩ و٢٦٠).
إذن فأهلُ بدر لهم خصوصيةٌ عظمى لا يُدْرَكُ شأوها، نرجو الله عزَّ وجل أنْ يحشرنا معهم بمحضِ فضلِهِ وكرمِهِ وإحسانِهِ وجوده:
فليصنعِ الرّكــبُ مــا شــاؤوا بــأنفسِهــم هــم أهــلُ بــدرٍ فــلا يخْشَــون مِنْ حَـرجِ

قـالـتْ فليسَ معي رسـائلُ إنّكم فـي المُخْطِئين
لكـنْ علـيٌّ قـال كـلاَّ بـلْ فنحـنُ المهتـديـن
فـرسـولُنـا قـد قـالَ هـذا وهـو خيـرُ القـائليـن
هـاتـي الـرّسـالـةَ أو ثيـابـكِ إنْ أبيـتِ ستخلعيـن
خـافـتْ فـأخـرجـتِ الـرّسـالـةَ للشَّبـابِ المـؤمنيـن
عـادَا بهـا للمُصْطفـى نـادىٰ لحـاطِـب يَسْتَبيـن
قـال الـرّسـولُ لـه لمـاذا تفعـلُ الفِعْـلَ المشيـن
فـأجـابَ حـاطـبُ مسـرعـاً لسـؤالِ خيـر المـرسليـن
إنّـي بحـقٍّ مـؤمـنٌ مـا كنـتُ بيـنَ الخـائنيـن
لكنّنـي صـانعـتُ مكَّـةَ كـون أهلـي نـازليـن
عُمَـرٌ يهـمُّ بقتلِـهِ مُستـأذنَ الهـادي الأميـن
قـال النَّبـيُّ فـإنَّـه مـن أهـل بَـدْر الأوَّليـن
ولعلَّهـم غُفِـرتْ لهـم أعمـالُهـم فـي السَّـابقيـن
فـي هـذه قـد جـاء وحـيُ اللهِ بـالـذكْـرِ المُبيـن(١)

* وسار النَّبي ﷺ حتى دخل مكَّةَ المكرمةِ وهو راكبٌ على ناقتِهِ القصواء، ودخل من كداء واضعاً رأسه الشَّريف على رحلهِ تواضعاً لله عزَّ وجلَّ ثم قال: «اللهم إنَّ العيشَ عيش الآخرة».

* سار ﷺ وهو يقرأُ سورةَ الفتح حتى جاء البيتَ الحرامَ، وطافَ به سبعاً على راحلته، وكان ﷺ مسبّحاً محمّدلاً مُهللاً مُستغفِراً، وكان على الكعبةِ ثلاثُ مئة وستون صنماً، فجاء ﷺ معه قضيبٌ، فجعل يهوي به إلى كلِّ صنم منها فيخرُّ لـوجهـهِ وهـو يقـول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء: ٨١].

---

(١) تغريدة السيرة النبوية (٤/ ١٤ و ١٦) باختصار وانتقاء. ومعنى قوله: «وحي الله بالذِّكْر المبين»: المقصود به أول سورة الممتحنة.

* وبقي من الأصنام التي كانت على الكعبةِ صنمٌ لخزاعةَ كان فوق الكعبة، فأمر النَّبيُّ ﷺ فارسَ أهلِ البيتِ وفتاهم الميمون وقاهرِ المشركين سيّدنا عليّ رضوان الله عليه أنْ يرميَه، فرمى به وكَسَره، وجعل أهل مكَّة يتعجّبون[1].

* أما كيف حطَّم عليٌّ الصَّنم، فسيّدنا عليٌّ نفسُهُ ينقلنا إلى تلك الأجواء العظيمةِ والأحداثِ المهمّة، فلنستمع إليه وهو يروي لنا هذه الحادثة المهمّة التي قضى بيدِهِ من خلالها على آخر معقلٍ للشِّرك في مكّةَ المكرمةِ فيقول: «انطلقَ بي رسولُ الله ﷺ ليلاً حتى أتى الكعبةَ، فقال: «اجلس» فجلستُ إلى جنبِ الكعبة، فَصَعِدَ رسولُ الله ﷺ عن منكبي، ثمَّ قال: «انهضْ» فنهضتُ، فلمّا رأى ضعفي تحته، قال: «اجلسْ»، فجلستُ ثمَّ قال ﷺ: «يا عليُّ اصعدْ على منكبي»، ففعلتُ. وفي رواية: أنَّه ﷺ قال لعليّ رضي الله عنه: «اصعدْ على منكبي واهدم الصَّنم».

فقال: يا رسولَ الله، بل اصعد أنتَ، فإنّي أكرمك أنْ أعلوك.

فقال: «إنَّك لا تستطيعُ حَمْل ثقل النّبوة فاصعد أنْتَ».

فجلسَ النَّبيّ ﷺ، فَصَعِدَ عليٌّ رضي الله على كاهله، ثمَّ نهضَ به.

قال عليٌّ: فلمّا نهضَ بي، صعدتُ فوق ظهرِ الكعبة، وتنحّى رسولُ الله ﷺ، وخُيِّل لي حين نهضَ بي أنّي لوْ شئتُ لنلتُ أُفقَ السَّماء.

وفي رواية: قيل لعليٍّ رضي الله عنه: كيف كان حالُكَ، وكيف وجدتَ نفسَكَ حين كنت على منكبِ رسولِ الله ﷺ؟

فقال: كان من حالي أنّي لو شئتُ أنْ أتناول الثُّريا لفعلتُ.

وعند صعوده رضي الله عنه، قال له ﷺ: «ألقِ صنَمهم الأكبر» وكان من نحاسٍ. وقيل من زجاج.

---

(١) السّيرة النّبوية لدحلان (٢/ ٢٩٨) بتصرّف واختصار.

وفي رواية أخرى: لمّا ألقى الأصنامَ، لم يبقَ إلا صنمُ خزاعةَ موتداً بأوتادٍ من حديد؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «عالجْهُ»، فعالجتُه وهو يقولُ: «إيه إيه ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء: ٨١]، فلمْ أزلْ أعالجه حتّى استمكنتُ منه، فقذفتُه، فتكسّر»(١).

* ما زلنا مع الإشراقاتِ الهاشميّة مع سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه ومع أدواره المتألّقة يومَ الفتح، ومنها ملاحقتُهُ للمشركين، ودخولُه بيت أخته أمّ هانىء، ولكنَّ أمَّ هانىء أجارتْ، وقُبِلت إجارتها في اثنين من أقاربها، فلم يقتلْهما عليٌّ رضي الله عنه، فكيف كان ذلك؟

* سنستمعُ القصّةُ من صاحبةِ العلاقة السَّيِّدة أمُّ هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها حيث قالت: «لمَّا نزلَ رسولُ الله ﷺ بأعلى مكّة فَرَّ إليَّ رجلان من أحمائي، فأجرتُهما؛ فدخلَ عليَّ أخي عليُّ بن أبي طالب، فقال: واللهِ لأقتلنهما، تجيري المشركين!!

فَحُلْتُ بينه وبينهما، فخرجَ، فأغلقْتُ عليهما بيتي، ثمَّ جئتُ رسولَ الله ﷺ بأعلى مكّةَ، فوجدتُهُ يغتسلُ من جفنة فيها أثرِ العجين، وفاطمة ابنته تسترهُ بثوبٍ، فسلَّمتُ عليه، فقال: «مَنْ هذه»؟

فقلت: أمُّ هانىء بنت أبي طالب.

فقال: «مرحباً بأمّ هانىء».

---

(١) انظر: سبل الهدى والرّشاد للصّالحي (٥/ ٣٥٦ و٣٥٧)، وصفة الصّفوة لابن الجوزيّ (١/ ٣١٠)، والسّيرة النّبوية لأحمد دحلان (٢/ ٢٩٨). وقد أجاد القائل في هذه الحادثة في هذه الميمية:

يا ربّ بالقدمِ التي أوطأتَها ... منْ قابِ قوسين المحلَّ الأعظما
وبحرمةِ القدمِ التي جُعِلتْ لها ... كتفُ المؤيدِ بالرّسالة سُلّما
ثبّتْ على متنِ الصّراط تكرماً ... قدمي وكنْ لي مُنقذاً أو مُسلما
واجعلهما ذخري فمَنْ كانا له ... ذُخراً فليس يخافُ قطّ جهنّما

فلمّا اغتسل أخذَ ثوبه وتوشَّح به، ثمَّ صلى ثماني ركعات من الضُّحى، ثم أقبلَ عليَّ، فقال: «مرحباً وأهلاً بأمِّ هانىء، ما جاء بك»؟ فأخبرتُه الحديث، فقال: «أجرنا مَنْ أجرت، وأمّنّا مَنْ أمَّنْتِ فلا نقتلهما»[1].

* ومع هذه التَّغريدة الهامسة التي تحكي قصَّة سيّدنا علي مع أخته أمّ هانىء رضي الله عنهما:

اثنـــان كـــانَـــا مـــن بنـــي مَخْـــزُوم بيـــن الهَـــاربيـــن
دخَـــلا علـــى بيـــتِ أُمِ هـــانـــيء حيـــث كـــانـــا خـــائفيـــن
قـــد جـــاءَهـــا بطـــلُ الفـــداءِ فقـــال هـــاتـــي المُجـــرميـــن
بطـــلُ الفـــداء شقيقُهـــا ويـــريـــدُ قَتْـــلَ الفـــاسقيـــن
قـــد أغلقـــتْ للبـــابِ دونهمـــا وجـــاءَتْ لـــلأميـــن
قـــد كـــان يغتســـلُ الـــرّســـولُ إلـــى صـــلاةِ الشـــاكـــريـــن

(١) السّيرة الحلبيّة (٣/ ٤١)، وللحديث أصلُ في الصَّحيحين: في البخاري برقم (٣١٧١)، ومسلم برقم (٣٣٦)، وانظر: صحيح السيرة النّبوية (ص ٥٢٧)، والمغازي (٢/ ٨٢٩ ـ ٨٣١)، وغير ذلك من مصادر متنوعة.وأمّا المخزوميّان اللذان أجارتهما أمّ هاني فهما: الحارثُ بنُ هشام المخزوميّ، وزهيرُ بنُ أبي أميّة المخزومي، وكلاهما كان شديداً في كفْرِه، وشديداً على النّبيّ ﷺ والمسلمين، فأهدر دمَهما النَّبيُّ ﷺ يومَ الفتح، فلاذا بأمّ هانئ فأجارتهما فأجاز النَّبيَّ ﷺ جوارها، ثم جاءت بهما فأسلما وحسن إسلامهما، رضي الله عنهما.

وعن الحارث بنِ هشام رضي الله عنه قال: «لما أجارتني أمّ هانئ رضي الله عنها، وأجاز النّبي ﷺ، صار لا يعترضني أحدٌ بعد ذلك، وكنتُ أخشى عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه، فمرّ عليَّ وأنا جالسٌ ولم يتعرَّضْ لي، وكنتُ أستحي أنْ يراني رسول الله ﷺ لما أذكر برؤيته إياي ما كنتُ أفعله في كلّ موطن مع المشركين، فلقيتُه وهو داخلٌ المسجدَ، فلقيني بالبِشْر، ووقفَ حتى جئتهُ فسلمتُ عليه، وشهدتُ شهادةَ الحقّ، فقال: «الحمد لله الذي هداكَ، ما كان مثلك يجهلُ الإسلام».

ثم صار بعد ذلك من فضلاء الصَّحابة، وابنه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام كان من فضلاء التّابعين وعلمائهم وعبادتهم رضي الله عنهم أجمعين. (السّيرة النّبويّة لدحلان ٢/ ٢٨٤).

كـــانــت ثمـــانيـــةً مـــن الـــرَّكَعَـــات للمتطـــوّعيـــن
مـــن بَعْـــدِ أنْ صلَّـــى الـــرّســـولُ أتـــى إليهـــا يستبيـــن
يـــا أمَّ هــــانــــىء قـــد أتيـــتِ لأي أمْـــرٍ تطلبيـــن
قـــالـــت فـــإنّـــي مـــن ســـلالـــةِ هـــاشِـــمٍ فـــي الأوّليـــن
ولقـــد أجـــرتُ اثنيـــن فـــي بيتـــي مـــن المتخـــوفيـــن
قـــد شـــاء قَتْلهمـــا علـــيٌّ يـــا رســـولَ العَـــالميـــن
قـــال الـــرَّســـولُ فـــلا تخـــافـــي مـــن علـــيٍّ عـــن يقيـــن
فلقَـــدْ أجـــرنـــا مَـــنْ أجـــرتِ فـــأنْـــتِ بنْـــتُ الأكـــرميـــن

* وفي غزوةِ الفتح الأعظم لمكّةَ المكرمةِ كان لسيّدنا عليّ رضي الله عنه مواقفُ كثيرةٌ مشكورةٌ، سجّلتها له كتبُ السّيرةِ والمصادر الموثوقة، ومنها أنَّه قد ظفر بالحويرثِ بنِ نقيذ بن وهب الذي أهدرَ النَّبيّ ﷺ دمه، لأنَّ الحويرثَ هذا كان ممَّن يُؤذي النَّبيّ ﷺ، ويؤذي أهلَ البيتِ النَّبويّ الطَّاهر، وهو الذي نخسَ البعير ببنتِ رسولِ الله ﷺ يوم أنْ هاجرت إلى المدينة المنورة، فسقطتْ على الأرض وتأذَّتْ، لذلك أُهْدِر دمُهُ، ولمَّا ظفرَ به سيدنا علي رضي الله عنه يوم الفتح قَتَلَه.

سيّدُنا علي وأحداثُ غزوة تبوك:

* وقعت أحداث هذه الغزوة المباركةُ في رجب سنة تسع من الهجرةِ النَّبويّة المباركة وكان الحرُّ شديداً والعرقُ يتفصَّدُ من الأجسام، والنَّاسُ في عُسْرةٍ واضحةٍ، وندبَ رسولُ الله ﷺ النَّاس إلى الخروجِ لقتالِ الرُّومِ وأعوانهم وحلفائهم.

* لمَّا تمَّتِ الأهبةُ، وأخذتْ كتائبُ المجاهدين مواقفها تحت ألويتها وراياتها استعداداً للمسير، تخلَّفَ[1] عنه ﷺ أناسٌ في المسير، لكنَّه ﷺ أقام عليّاً

(١) قال ابنُ كثير رحمه الله: «كان المتخلّفون عن غزوةِ تبوك أربعةُ أقسام:
* مأمورون مأجورون: كعليّ بنِ أبي طالب، ومحمد بنِ مسلمة، وابنِ أمّ مكتوم. =

رضي الله عنه خليفةً على عيالِهِ وأهلِهِ، وقال له: «يا عليُّ اخلفني في أهلي، واضربْ، وخُذْ وعظْ»، ثمَّ دعا رسول الله ﷺ نساءَه وقال لهنَّ: «اسمعْنَ لعلي وأطعْنَ»[(١)].

* ورُوي في الصَّحيحَيْن وغيرهما من حديث سعدِ بنِ أبي وقَّاص رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف عليّاً، فقال: أتخلِّفني في الصِّبيان والنِّساء؟

قال: «ألا ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى، إلا أنَّه ليس نبيٌّ بعدي»[(٢)].

* وزاد الإمامُ أحمد، فقال عليٌّ رضي الله عنه: «رضيتُ، ثمَّ رضيتُ، ثمَّ رضيتُ».

* كان المنافقون قد أرجفُوا بسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، وأحبُّوا ـ كعادتهم ـ أنْ يصطادوا في الماءِ العَكِرِ، وأنْ يذرُّوا الرِّماد في العيون، وأخذوا يقولون على سبيلِ الفتنةِ والحسد: ما خلَّفَهُ رسولُ الله ﷺ إلا استثقالاً له، وتخفّفاً منه.

* وعندما نُمي إلى سَمْع عليٍّ رضي الله عنه ما أرجفَ به المنافقون، أخذَ سلاحَه، ثمَّ خرج حتَّى أدركَ الحبيب المصطفى ﷺ وهو نازلٌ بكتائبِهِ وجيشِهِ بالجرف على مشارفِ المدينةِ المنوّرة، فقال: يا رسولَ اللهِ، زعم المنافقون أنَّك

= * ومعذورون: وهم الضّعفاء والمرضى، والمقلّون: وهم البكّاؤون.
* وعصاة مذنبون وهم الثّلاثة: أبو لبابة وأصحابهُ المذكورون.
* وأخرون ملومون مذمومون: وهم المنافقون». (البداية والنهاية ٥/ ٢٧).

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٧١٦) نقلاً عن الحاكم في الإكليل.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي برقم (٤٤١٦) واللفظ له، ومسلم برقم (٢٤٠٤) وأحمد في المسند في مواضع برقم (١٤٦٣ و ١٥٣٢ و ١٥٨٣ و ١٦٠٠ و ٢٧١٤٩ و ٢٧٥٣٧) طبعة دار الفكر. واقرأ شرح الإمام النووي لهذا الحديث في المنهاج بشرح مسلم بن الحجاج (ص ١٧٥٦ و ١٧٥٧).

إنَّما خلَّفْتَني لأنَّك استثقلْتَني، وتخفَّفتَ منّي؟

فقال له رسولُ الله ﷺ: «كذبُوا، ولكنّي خلّفتك لما تركتُ ورائي، فارجعْ فاخلُفْني في أهلي وأهلِكَ، أفلا ترضىٰ يا عليُّ أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هاون من موسى، إلا أنّه لا نبيَّ بعدي»؟! فرجع سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه إلى المدينةِ المنوّرة مُمتثلاً أمرَ الحبيبِ المُصطفى ﷺ، بينما مضى رسولُ الله ﷺ في سفرهِ إلى تبوكَ ميمماً هدفَه من غزوِّ الرّومِ وهو متوكّلٌ على العزيزِ الرَّحيمِ، تحدوه عنايةُ الله، وتحوطُه رعايته.

* إنَّ أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومن بقي من مسلمةِ المدينة الذين حبسَهم العذرُ عن المسير إلى تبوك هؤلاء أجمعون في حاجةٍ شديدة إلى من يرعى مصالحهم، ويقومُ على حمايتهم، ويحفظُ ضيعتهم، فكان عليٌّ رضي الله عنه هو القائمُ بأعمالِ أهلِ البيت النّبويّ بأمر نبوي مستمدّ من ربّ العزّة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣ ـ ٤].

* فإرجافُ المنافقين الأخابث بسيدنا عليٍّ رضي الله عنه في تخليفِ رسولِ الله ﷺ له في أهله، إنَّما هو نزيزُ صديدٍ من حقْد النّفاق والمنافقين، ورشحٌ من بثورِ الغيظ الممضّ الذي نَغَل قلوبهم، لأنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه كان شجّاً في حلقوم كُلّ كفَّار عنيد، وغصّة تكتم أنفاس كلّ منافق رعديد، تربّى رضي الله عنه منذ طفوليته الزّاهرة بين أحضانِ عطف الحبيب المصطفى ﷺ، فأحبَّه وآثره بمنزلتِهِ منه، وأرضعه المكارم من ثديي أدبِ نبوته، وقربه بأكرم الصّهر منه، وجعل اللهُ عزَّ وجلَّ منه خلود الذُّريّة الطَّاهرة، ذرية أهل البيت النّبوي المحمّدي، فكانت لرسولِ الله ﷺ لسان صدق في الآخرين، فَمَنْ أولى من سيّدنا عليّ صاحب البرد الأخضر في ليلةِ الهجرة أنْ يخلفَ رسول الله ﷺ في أهله؟ ولكنَّ غباءَ النّفاق، ولؤمَ نحيزة ـ طبيعة ـ المنافقين أَبَيَا إلا أنْ يكونا أحدَ طرفَي حبل الفجور يتجاذبانِهِ مع أكذبِ خلْقِ الله الرّوافض، فهؤلاء كذبُوا على اللهِ ورسوله، وقالوا منكراً من القولِ وزوراً، وأولئك تقوَّلُوا إفكاً من الأباطيلِ والفِرى، ولكنَّ اللهَ تعالى هو الفعّالُ لما يشاء، يضلُّ بالحبِّ الكفورِ مَنْ يشاء، ويدخلُ في مساخطه

بغباء الفجورِ مَنْ يشاء، لا يُسأل عمَّا يفعل ويحلمُ ما يريد[1].

* ولفضيلةِ أستاذنا الدّكتور محمّد فوزي فيض الله حفظه الله ورعاه، كلامٌ نفيسٌ حولَ استخلاف سيّدنا عليّ رضي الله عنه في المدينة في غزوةِ تبوك، إنّما كان لمهمة خاصّة، ولا يدلُّ ذلك على استخلافهِ في الحكم فيقول: «يجبُ على الإمام إذا سافرَ أو غَزَا، أنْ يستخلفَ على الرّعيَّةِ مَنْ يقومُ بها في غيبته. وفي كلّ غزوة غزاها رسولُ الله ﷺ كان يستخلفُ على المدينة أحدَ صحابته، وقد استخلفَ ابن أمّ مكتوم بضع عشرة مرّة. وفي غزوة تبوك استخلفَ اثنين من الصَّحابة: استخلفَ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه في أهله، باعتبار قرابته ومصاهرته، كان استخلافُه في أمْرٍ خاص، وهو القيامُ بشأنِ أهله، وقد رُوي عن سعدِ بنِ أبي وقّاص رضي الله عنه، أنَّه قال: خلَّفَ رسولُ اللهِ ﷺ عليّاً رضي الله عنه في غزوةِ تبوك، فقال: يا رسولَ الله! تخلّفني مع النِّساء والصِّبيان؟

فقال: «أما ترضى أنْ تكونَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى، غير أنَّه لا نبيَّ بعدي»[2].

---

(١) محمد رسول الله لمحمد عرجون (٤/ ٤٤٥) بتصرف يسير.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٤٤١٦) ومسلم برقم (٢٤٠٤).
قال الإمامُ القرطبيُّ: «أرادَ ﷺ أنّي استخلفتُك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفةَ موسىٰ على قومهِ، لمّا خرجَ إلى مناجاةِ ربّه». (تفسير القرطبيّ ١/ ٢٦٧ و ٢٦٨).
وللأستاذ عبد السّتار الشّيخ تعليقٌ نفيسٌ على هذا الحديثِ الشّريف، ويحسنُ بنا أن نسوقَه هنا لفائدته العظيمةِ الجليلةِ... يقول: «أي: أنتَ متّصلٌ بي، نازلٌ منّي منزلةَ هارون من موسى عليهما السّلام. وليس فيه حجّة لمن يقولُ بأنَّ علياً وصيُّ النّبيّ ﷺ، وأنَّ الخلافةَ كانت له، بل فيه إثبات فضيلةِ لعليّ رضي الله عنه، ويؤيد هذا أنَّ هارون ـ المشبه به ـ لم يكن خليفةً بعد موسى عليه السّلام، بل توفي في حياةِ موسى، وقبل وفاةِ موسى بنحو أربعين سنة، وإنَّما استخلفه حين ذهبَ للمناجاة؛ وقد شبه النّبيُّ ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بإبراهيمَ وعيسى عليهما السَّلام، وشبَّه عمر رضي الله عنه بنوحٍ وموسى عليهما السَّلام ـ لما أشارا في أسرى بدر ـ وهذا أعظم من تشبيه عليّ رضي الله عنه بهارون عليه السلام!! ولم يوجبْ ذلك أنْ يكونا بمنزلةِ=

واستخلف محمّد بنَ مسلمةَ الأنصاريّ رضي الله عنه في الغزوةِ نفسها استخلافاً عاماً.

فتعلَّقَ بعضُ النَّاس بأنَّ استخلافَ عليٍّ رضي الله عنه يشيرُ إلى خلافتِهِ من بعده، ولا صحّة لهذا التّشبث، لأنَّ خلافته كانت في أهلِهِ خاصَّة، ولو صحَّ ذلك لكان ابنُ أمّ مكتوم، ومحمدُ بنُ مسلمة أحقّ بالخلافة، ولا قائل به. كما أرجف المنافقون باستخلافِ عليٍّ هذا، وقالوا: إنما خلّفه استثقالاً؛ فأخذَ سلاحه، ثمَّ لحقَ بالنَّبيّ ﷺ وأخبره بذلك، فقال: «كذبّوا، ولكنْ خلَّفتُك لما تركت ورائي، فارجعْ فاخلُفْني في أهلي وأهلك»[1]. إنّه لا يصحّ في شرعِ اللهِ تحميل نصوص هذا الدّين أكثر من مدلولاتها العربيّة عند أهل الفصاحة واللسن، وإنّه لا يثقل هذه النّصوص بما ليس منها بسبب، إلا مغرضٌ أو مبطلٌ: ذاك يطوّعها ليفسِّرها على هواه، وهذا يفسدُها بتجريدها من مقاصدِها الشَّرعية، وأهدافها السَّامية»[2].

* ولنغرّد الآن محلّقين عالياً مع هذه الهمسة المنعشة التي تترجمُ جانباً من أحداثِ إبقاء سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه في المدينة في غزوة تبوك:

خرجَ الرَّسولُ إلى تبوكَ مَعْه كلُّ المسلمين
إلاّ رجالاً نافَقُوا ظلُّوا مع المتخلّفين
وهناك بعضُ المؤمنين تخلّفوا متعذّرين

= أولئك الرُّسل. وتشبيه الشّيء بالشّيء لمشابهتِهِ في بعضِ الوجوهِ؛ كثير في الكتاب العزيز، والسّنة، وكلام العرب». (الخلفاء الراشدون ص ٥٠٣) الهامش رقم (٢).
وجاء في تعليقٍ على الحديث: «ألا ترضى بأن تكونَ منّي بمنزلة هارون من موسى»؛ يعني حين استخلفه عند توجّهه إلى الطّور، إذ قال له موسى: «اخلفني في قومي وأصلح» أي: ما ترضى بأنّي أنزلتُكَ منّي في منزلٍ كان ذلك المنزل لهارون من موسى؟. وليس في هذا الحديث تعرّض لكونهِ خليفة له ﷺ بعده. وكيف وهارون ما كان خليفة لموسى بعد موسى؟ بل توفي في حياة موسى. (سنن ابن ماجه (١/ ٤٣).

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٦٠).
(٢) صور وعبر من الجهاد النّبويّ (ص ٤٦٦ و ٤٦٧).

أمّـــا علـــيٌّ فهـــو ظـــلَّ بـــأمـــر خيـــرِ المُـــرسليـــن
قـــد ظـــلَّ فـــي آل النَّبـــيِّ وبيتـــه والأقـــربيـــن
أهـــلُ النِّفـــاق تـــأوّلـــوا هـــذا بســـوء قـــائليـــن
قـــالـــوا علـــيٌّ قـــد تخلَّـــف فَهْـــوَ فـــي المُستَثْقَليـــن
هـــو مـــن رســـولِ اللهِ مكـــروهٌ وكـــانـــوا كـــاذبيـــن
بلغَـــتْ مقـــالتُهـــم عليّـــاً طـــار يلحـــقُ بـــالأميـــن
قـــال النَّبـــيُّ لـــه لمـــاذا جئْـــتَ هـــلْ كـــي تَسْتَبيـــن
فـــأجـــابَـــه زعمـــوا بـــأنَّـــك كنْـــتَ لـــي فـــي الكـــارهيـــن
مـــنْ أجـــلِ ذا خلَّفتنـــي وتـــركْتنـــي فـــي القـــاعـــديـــن
قـــال النَّبـــيُّ لـــه فَعُـــدْ لا تستمـــعْ للفـــاسقيـــن
فـــأنـــا وأنـــتَ كمثـــل هـــارون ومـــوســـى عـــن يقيـــن
لكـــنْ فليـــسَ هنـــاك بعـــدي أنبيـــاء ومـــرسليـــن[1]

* لقد ظفر سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه من خلال هذه الغزوة ظفراً جعله يزداد مكانةً في رجالِ أهلِ البيت النَّبويّ الطَّاهر، إذ صار بمنزلةِ هارون من موسى عليهما السَّلام، إلا أنَّه لا نبوة بعد نبوَّة الصَّادق الأمين حبيبنا رسول الله ﷺ.

سيدنا عليٌّ ومهماتٌ عسكريةٌ أخرى:

* قلنا: «إنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه قد شهد المشاهد جميعها مع النَّبيّ ﷺ

---

(١) تغريدة السّيرة النّبويّة (٤/ ١٢٠). وما أجمل أن نشدوَ بهذه الأبيات البائية التي ترسم بعضاً من مناقب سيّدنا عليّ وفضائله، وهي لزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين:

ومَـنْ فَضَّـلَ الأقـوامَ يـومـاً بـرأيهـم ... فـإنَّ عليـاً فضَّلتْـهُ المنـاقـبُ
وقـولُ رسـولِ الله والحـقُّ قـولُـهُ ... وإن رَغمـتْ فيـه الأنـوفُ الكـواذبُ
بـأنـك منّـي يـا علـيّ معـالنـاً ... كهارون من موسى أخٌ لي وصاحبُ
دعـاهُ ببـدرٍ فـاستجـابَ لأمـره ... فبـادرَ فـي ذاتِ الإلـهِ يُضَـاربُ
فمـا زالَ يعلُـوهـم بـه وكـأنَّـه ... شهـابٌ تثنّـى بـالتّـوائم ثـاقـبُ

ما عدا غزوة تبوك الذي خلّفه فيها ليقومَ بشؤون أهل البيت وأحوالهم».

* سُقْنا في الصَّفحات السَّابقة بعضاً من مشاهد سيّدنا عليّ مع الحبيب المصطفى ﷺ، فقد ذكرنا دوره في غزوة بَدْرٍ، وأُحُدٍ، والأحزاب، وخيبر، وفتح مكَّة، ودوره الجهادي والقيادي والفدائي في هذه الغزوات المباركة، حتّى إنّنا كنّا نشعرُ بأنَّه كان في كُلِّ غزوة من هذه المغازي روح الغزوة وريحانها، وبطلها، وعلَمها وسفيرها إلى الآخرين وسيفها القاطع لرؤوس المشركين.

* وهذا لا يعني أنَّ سيّدنا عليّاً رضوان الله عليه لم يشهد سوى الغزوات الآنفة الذّكر، بل إنَّه خاض غمار المغازي النَّبويّة جميعها من مثل: غزوة العُشيرة، وغزوة بدر الأولى، وغزوة بني النَّضير، وغزوة حمراء الأسد، وغزوة بني المصطلق، وشارك في صلح الحديبيّة، وشهد بيعة الرّضوان، وفاز بمرضاة الرَّحمان، وشهد عمرة القضاء، كما شهد غزوة حنين، وكان من رجالِ أهلِ البيت الذين ثبتوا يومها مع النَّبيّ ﷺ، وكان له في المغازي جميعها المنزلة العليا، والمكانة القصوى، والحظْوة العظمى، فما صارع أحداً إلا صرعه، وكانت ضرباتُه أبكاراً ـ قاطعة ـ وكان ميمون النَّقيبة مظفّراً.

* ويعدُّ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه من أمراء السَّرايا النَّبويّة، فقد أرسله الصَّادق المصدوق ﷺ أكثر من مرَّة أميراً على بعض السَّرايا، وكان كلّ مرَّة يعود وقد أدَّى الأوامر النَّبويّة أداء كاملاً.

* أرسلهُ النَّبيُّ ﷺ أميراً على سريةٍ إلى بني سعد بن بكر، فقد بلغَ النَّبيّ ﷺ أنَّ هؤلاء يريدون أنْ يمُدوا يهود خيبر، وأنْ يجعلوا لهم تَمْرَ خيبر، فبعثَ ﷺ عليّاً رضي الله عنه في مئة رجل، فسار الليل وكَمن النَّهار، إلى أن اقتربوا من فدك، فوجدوا جاسوساً للقوم، فسألوه عن القوم؟

فقال: لا علم لي، فأخذه سيّدنا عليّ وأعطاهُ الأمان شريطة أنْ يدلّهم على القوم، ففعل، فلمّا بلغوا منازلهم أغاروا عليهم، وغنموا خمس مئة بعير، وألفي شاة، وهربتْ بنو سعد بالظَّعن، وعاد سيّدنا عليّ ومن معه إلى النَّبيّ ﷺ وقد

أبطلوا كيدَ الخائنين وكسروا شوكتهم، وفرقوا جموعهم[١].

* كما أرسل النَّبي ﷺ عليّاً رضي الله عنه في سرية لهدم صنم الفُلْس لطيّىء، فقام بالمهمّة أتمّ قيام، وكان من نتائج هذه السّرية أنْ أسلمَ عدي بن حاتم الطّائي وانتظم في صفوف الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين.

* ففي شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة بعثَ رسولُ الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مئة وخمسين رجلاً من الأنصار على مئة بعير وخمسين فرساً، مع راية سوداء ولواء أبيض، وأمره بِهَدْمِ الفُلْس والغارة عليهم، فشنّوا الغارة عليهم مع الفجر، وهدموا الفُلس وأحرقوه، واستاقوا النّعم والشّاء والسّبي، وكان في السَّبي سفّانة[٢] أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشَّام، فلمّا قدموا المدينة المنوّرة، مرَّ النَّبيُّ ﷺ بسفّانة - وكانت امرأة ذات وقارٍ وعقْل - وكلَّمته ﷺ أنْ يمنَّ عليها وذكرتْ بأنّها ابنةُ حاتم الطَّائي، فمنَّ عليها فأسلمتْ رضي الله عنها، وخرجَتْ إلى أخيها عديّ، فأشارت إليه بالقدومِ على رسولِ الله ﷺ، فقدمَ عليه وأسلمَ رضي الله عنه[٣].

* كتبَ برهانُ الدّين الحلبيّ في سيرتِهِ أنَّ الحبيب المصطفى ﷺ بعثَ عليّاً رضي الله عنه على سريةٍ إلى بلادِ مذحجٍ من أرض اليمن في ثلاث مئة فارس، وعقدَ له لواء وعمّمه بيده، وقال: «امضِ ولا تلتفتْ، فإذا نزلتَ بساحتِهم فلا تقاتلهم حتّى يقاتلوك»، فكانت أوّل خيلٍ دخلتْ إلى تلك البلاد، ففرقَ أصحابه رضي الله عنهم، فأتوا بنَهْبٍ وغنائم وأطفال ونساء ونعَمٍ وشاء وغير ذلك، وجعل على الغنائم بريدة بن الحُصَيب[٤] رضي الله عنه، ثم لَقي جمعهم فدعاهم إلى

---

(١) انظر: السّيرة الحلبيّة (٣/ ١٨٥) بشيء من التّصرّف، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٨٩ و ٩٠).

(٢) اقرأ سيرة سفّانة بنت حاتم في موسوعتنا «نساء من المشرق العربي» (ص ٢٥٨ - ٢٧٤).

(٣) انظر: السّيرة الحلبيّة (٣/ ٢٢٣)، ونساء من المشرق العربي (ص ٢٦٣ - ٢٦٧) مع الجمع والتصرف.

(٤) اقرأ سيرة بريدة بن الحصيب في موسوعتنا «فرسان من عصر النبوة» (ص ٧٠٥ - ٧١٥).

الإسلام فأبوا، ورموا بالنّبل والحجارة، فصفَّ أصحابه، ودفعَ لواءه إلى مسعودِ بنِ سِنان، ثمَّ حمل عليهم، فقتلَ منهم عشرين رجلاً، فانهزمُوا وتفرَّقُوا، فكفَّ عن طلبهم، ثمَّ دعاهم إلى الإسلام، فأسرعَ إلى إجابتِهِ ومتابعته نفرٌ من رؤوسائهم وقالوا: نحنُ على مَنْ وراءنا مِنْ قومنا، وهذه صدقاتنا، فخذ منها حقّ الله تعالى. وجمعَ عليٌّ رضي الله عنه الغنائمَ فجزّأها على خمسة أجزاء، فكتبَ في سهم منها لله، وأقرعَ عليها فخرج أوّل السّهام سهم الخمس، وقسم الباقي على أصحابه، ثمَّ رجع عليٌّ رضي الله عنه، فوافىٰ النّبيّ ﷺ بمكَّةَ قدمها للحجّ، أي: حجَّة الوداع، سنة عشر[1].

* ونَوَّهَ بعضُ كتّاب السِّيرة والتَّراجم إلى أنَّ رسولَ الله ﷺ قد بعثَ سيّدنا عليَّ بنَ أبي طالب رضوان الله عليه أميراً على سريةٍ إلى اليمن، فأسلمتْ همدان كلّها في يومٍ واحد، فكتبَ بذلك إلى رسولِ الله ﷺ، فلمّا قرأ كتابه خرَّ ساجداً ثم جلسَ، فقال: «السَّلامُ على همدان» وتتابع أهلُ اليمن إلى الإسلامِ والله أعلم[2].

لا يؤدّي عنّي إلا رجلٌ منْ أهل بيتي:

* هو ذا موسمُ الحجّ يحطُّ رحاله في السَّنةِ التَّاسعةِ من الهجرة، وهاهو ذا الحبيبُ الأعظمُ رسولُ الله ﷺ يُعيِّنُ سيّدنا أبا بكر الصِّدّيق رضي الله عنه ليكون أميراً على الحجّ، وليقيم بالمسلمين المناسك، إذ إنَّ سيّدنا أبا بكر رضي الله عنه شيخُ الصَّحابة وأعلمُهم وأفقهُهم، وهو أرجحُ النَّاس بعد رسولِ الله ﷺ إيماناً، وأصفاهم سريرةً، وأرسخُهم يقيناً، وأهداهم عقلاً، أعزَّ اللهُ به الدِّين، وشدَّ بِهِ أزْرَ سيّد المرسلين.

* خرج سيّدنا أبو بكر رضوان الله عليه ممتثلاً أوامرَ حبيبِهِ وهاديهِ رسول الله ﷺ، وخرجَ معه ثلاث مئة رجلٍ من المدينة المنوّرة، وبعثَ معه الصَّادق الأمين ﷺ بعشرين بدنةً قلَّدها وأشعرها بيده الشَّريفة، وجعل عليها

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٢٢٤ و٢٢٥)، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٩ و١٧٠).
(٢) السيرة الحلبية (٣/ ٢٢٥) بتصرف يسير.

ناجيةَ بنَ جندب الأسلميّ رضي الله عنه ـ ويدعى ناحية بصاحب بُدْنِ رسولِ الله ﷺ ـ وساق سيّدنا أبو بكر رضي الله عنه خمس بدنات[1].

* بعد أنْ سارَ أبو بكر رضي الله عنه بالنَّاس، ووصل إلى مكان يسمّى «العَرْج»[2] نزل الرُّوح الأمينُ جبريلُ عليه السَّلام على قلبِ الأمينِ ﷺ بسورة براءة [التّوبة] وهنا يختارُ الحبيبُ المصطفى ﷺ فتى أهلِ البيتِ وفارسهم ليؤدّي عنه مهمةً جليلةَ القَدْرِ نفيسة الأمرِ، فاستدعاه وأمره أنْ يلحقَ بأبي بكر رضي الله عنه وحمَّلَه صَدْرَ سورة براءة ليقرأها على النَّاس في الحجِّ يومَ النَّحْر.

* قال ابنُ إسحاق رحمه الله: «نزلت براءةُ في نقضِ ما بين رسولِ الله ﷺ، وبين المشركين من العهدِ الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم... فخرج عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه على ناقةِ رسولِ الله ﷺ العضباء...»[3].

* وقال ابنُ سعد: «فلمَّا كان بالعَرْج لحقه عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه على ناقةِ رسولِ الله ﷺ القصواء، فقال له أبو بكر: استعملكَ رسولُ الله ﷺ على الحج؟

قال لا، ولكنْ بعثني أقرأُ براءةَ على النَّاس، وأنبذُ إلى كلّ ذي عهدٍ عهده»[4].

* ونقرأ عند ابن إسحاق أداء عليٍّ رضي الله عنه لسورة براءة في الحجّ، نيابةً عن النَّبيّ ﷺ، لأنّه من أهل بيتِهِ الأخيارِ الأطهارِ الأبرارِ، فإلى تفصيل ذلك وبيانه.

* قال ابنُ إسحاق رحمه الله: «لمَّا نزلتْ براءة على رسولِ الله ﷺ، وقد

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٨) بشيء من التصرف اليسير.

(٢) «العَرْج»: وادٍ من أودية الحجاز في الطَّريق بين المدينة المنورة، ومكة المكرمة، على قرابة (١١٣ كيلاً) جنوب المدينة.

(٣) السّيرة النبوية (٢/ ٥٤٣ و٥٤٥ و٥٤٦).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٨).

كان بعثَ أبا بكر الصِّدّيق رضي الله عنه ليقيمَ للنَّاس الحجّ، قيل له: يا رسولَ الله، لو بعثتَ بها إلى أبي بكر.

فقال: «لا يؤدّي عنّي إلا رجلٌ من أهل بيتي».

ثمَّ دعا عليَّ بنَ أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: «اخرجْ بهذا القصّة من صَدْرِ براءة، وأذّنْ في النَّاس يوم النَّحر إذا اجتمعوا بمنى، أنَّه لا يدخل الجنّة كافر، ولا يحجُّ بعد العام مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ومَنْ كان له عند رسولِ الله ﷺ عهد فهو له إلى مدّته».

فخرجَ عليُّ بنُ أبي طالب رضوان الله عليه على ناقةِ رسولِ الله ﷺ العضباء، حتَّى أدركَ أبا بكر بالطَّريق، فلمَّا رآه أبو بكر بالطَّريق قال: أَأَمير أمْ مأمور؟

فقال: بل مأمور.

ثمَّ مضَيا، فأقامَ أبو بكر للنَّاس الحجّ، والعربُ إذ ذاك في تلك السَّنة على منازلهم من الحجِّ التي كانوا عليها في الجاهليّة، حتّى إذا كان يوم النَّحر، قام عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فأذَّن في النّاس بالذي أمره به رسول الله ﷺ، فقال: أيُّها النَّاس، إنَّه لا يدخل الجنَّة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ومَنْ كان له عند رسولِ الله ﷺ عهد فهو إلى مدَّته، وأجَّل النَّاس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم، ليرجع كلّ قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثمّ لا عهد لمشرك ولا ذمّة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدَّة، فهو إلى مدّته.

فلم يحجّ بعد ذلك العام مشركٌ، ولم يطفْ بالبيتِ عُريان، ثمَّ قدما على رسول الله ﷺ، فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشّرك من أهل العهد العام، وأهل المدّة إلى الأجل المسمى»[1].

---

(١) انظر: السّيرة النّبويَّة لابن هشام (٢/ ٥٤٥ و ٥٤٦). وانظر خبرَ بعْث سيّدنا عليّ بأوائل سورة=

* ولخبر ابن إسحاق شاهدٌ ذو سندٍ صحيح في مسند الإمام أحمد، وجامع التّرمذي بسند قوي من حديث سيّدنا عليّ رضي الله عنه، وكذلك في مسند الحميدي عن زيد بن يُثَيْع الهمدانيّ الكوفي، قال: سألنا عليّاً: بأي شيء بُعثتَ في الحجّة؟

قال: «بُعِثْتُ بأربع: لا يدخل الجنّة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ولا يجتمعُ مسلمٌ وكافرٌ في المسجد الحرام بعد عامه هذا، ومَنْ كان

= التّوبة في جميع التّفاسير وأسباب النّزول، وانظر الصَّحيحين: البخاري في الصلاة برقم (٣٦٩)؛ وفي الحج برقم (٣١٧٧)، ومسلم في الحج برقم (١٣٤٧)، وأبو داود برقم (١٩٤٦)، والتّرمذي برقم (٣٠٩٢)، وانظر: البداية والنّهاية (٥/ ٣٧ ـ ٣٩)، وتفسير الطّبري (١٠/ ٦٥) وغيرها.

والآن، سنرطّبُ الأسماعَ والنّفوس بهذه التّغريدة التي تتحدَّث عن مهمّة عليّ رضي الله عنه، وكيف اختاره النّبيّ ﷺ ليقرأ سورةَ براءة على الحجيج أجمعين:

فـي عـام تسـعٍ كـان فـرضُ الحـجّ فـي خبـرٍ يقيـن
المسلمـون جميعُهـم خـرجُـوا لحـجٍّ راغبيـن
قـد أرسـلَ الهـادي أبـا بكـر أميـرَ المسلميـن
ليعلّـمَ النَّـاسَ المنـاسـكَ وليكـونـوا تـابعيـن
مـنْ بعـدِ أنْ سـاروا جميعـاً نحـو مكّـةَ ذاهبيـن
نـزلـتْ علـى الهـادي بـراءة تنـذر المتعـاهـديـن
فيهـا مـن الأحكـامِ نقـضٌ للعهـود السَّـابقيـن
فيهـا وعيـدٌ بـل وتهـديـدٌ لكـلِّ المشـركيـن
آيـاتُهـا قـد حـدّدتْ أهـلَ النّفـاقِ الفـاسقيـن
قـال الصّحـابـةُ للنَّبـي أيـا رسـول العـالميـن
أرسـلْ بـراءةَ للحجيـج ليقـرؤهـا أجمعيـن
قـال الـرَّسـولُ لهـم فهـذا ليـس حـقّ الآخـريـن
إمّـا أبلّغهـا بنفسـي فـي سمـاعِ المـؤمنيـن
أو واحـد مـن أهـلِ بيتـي مـن خيـارِ الأقـربيـن
نـادى الـرّسـول علـى علـيّ جـاء فـوراً يستبيـن

بينه وبين النَّبيِّ ﷺ عهد، فعهده إلى مدّته، ومَنْ لم يكن له عهد، فأجلُه إلى أربعة أشهر»[1].

* وجاء في الصَّحيحَيْن وغيرهما عن سيّدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجّة في المؤذنين بعثهم يوم النّحر يؤذنون بِمِنىً ألا يحجَّ بعد العام مشركٌ، ولا يطوفَ بالبيت عُريان. ثم أردف النّبي ﷺ بعليِّ بنِ أبي طالب فأمره أنْ يؤذن ببراءة، فأذن معنا عليٌّ في أهل منىً يوم النّحر ببراءة، وأنْ لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان»[2].

* أدّى سيّدنا أبو بكر رضي الله عنه الحجَّ، وعملَ بالأوامرِ النّبويّة فخطبَ قبل يوم التّروية مُعلّماً النَّاس مناسكهم، ثمّ خطبَ يوم عرفة، ويوم النَّحر، وكان كلّما خطبَ أبو بكر «أمير الحج» قام سيّدنا عليٌّ عليه سحائب الرضوان فقرأ على النَّاس صدرَ سورة براءة، ثمَّ ينادي في النَّاس في الأمور الأربعة المنهي عنها.

* وقد نبّه الدكتور محمّد محمّد أبو شهبة في هذه القصّة لشبهةٍ من الشُّبُهات التي تعترضُ الناس، فَعَرَضَ للشُّبهة وبَيَّنَ الحقّ فيها وقال: «وهنا شبهة نرى لزاماً أنْ نعرضَ لها ونبين الحقّ فيها، وهي: لِمَ عدل النَّبيّ ﷺ عن تبليغ أبي بكر رضي الله عنه صدر سورة براءة، ووكَلَ ذلك إلى عليّ رضي الله عنه؟

والجواب؛ أنَّ صدرَ سورة براءة تتضمنُ نقضَ العهودِ المطلقةِ غير المقيدة بوقت، أو التي مدتها فوق أربعة أشهر فيما زاد عن أربعة أشهر، وكان العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أنْ لا يتولى ذلك إلا سيّد القبيلة، أو رجل من رهطه، فأراد اللهُ سبحانه وتعالى أن يكون المبلّغ عن النّبيّ ﷺ رجلاً

---

(١) مسند الحميدي (٤٨)، وانظر بتوسع: تفسير الطبري (١٠/ ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٤٦٥٦) واللفظ له؛ ومسلم في الحج برقم (١٣٤٧)، وانظر: تفسير الطبري (١٠/ ٦٣) وغيرها كثير.

من أهلِهِ حتّى يقطعَ ألسنة العربِ بالاحتجاج على أمرٍ هو من تقاليدهم، ولاسيما أنَّه ليس فيه منافاة للإسلام، فلذلك تدارك النَّبيّ ﷺ الأمر.

روى التّرمذي ـ وحسَّنه ـ وأحمد من حديث أنس رضي الله عنه قال: بعثَ النَّبيُّ ﷺ براءة مع أبي بكر، ثم دعا عليّاً فأعطاه إياه، وقال: «لا ينبغي لأحدٍ أنْ يبلِّغ هذا إلا رجلٌ من أهل بيتي».

وفي روايةِ الطَّبراني أنَّ جبريل عليه السَّلام، هو الذي قال للنَّبيّ ﷺ: «إنَّه لن يؤدّيها عنك إلا أنتَ أو رجلٌ منك».

فهذا هو السّببُ لا ما زعمته الرَّافضةُ من أنَّ ذلك للإشارة إلى أنَّ عليّاً أحقّ بالخلافةِ من أبي بكر رضي الله عنهما، ولا أدري كيف غفلُوا عن قولِ الصِّدّيق له: أأميرٌ أمْ مأمور؟ فقال: بل مأمور؛ وكيف يكون المأمورُ أحقّ بالخلافةِ من الأمير؟!»[1].

* وقام سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه بمهمته أحسن قيام، وعن تبليغه الحجيج سورة براءة نقرأُ هذه الهمسات الموقظات:

المُصْطَفىٰ أوصىٰ عليّاً بالوصايا الخالدين
اذهبْ بصدرِ براءةٍ أذّنْ بها في المُسلمين
في يومِ عيدِ النّحر أذّنْ في مِنىً للعالمين
لن يدخلوا في جنّةِ الرّضوان كلَّ الكافرين
والحجُّ بعد العام هذا لا يجوز لمشركين
أمَّا العُراةُ فلا يطوفُوا بالعتيقِ مجرّدين
المشركون كذا العُراة فلا يحجّوا أجمعين
فَلْتمنعوهم من طوافِ البيتِ منْعَ القادرين
وعهود كلِّ النَّاسِ باقية فلَسْنا ناقضين

(١) السّيرة النّبويّة لمحمّد محمّد أبو شهبة (٢/ ٥٣٩ و ٥٤٠).

حتّـى يتـمَّ وفـاؤهـا مـن غيـرِ نقـضٍ معتـديـن
هـذا علـيٌّ يـركـبُ العَضَبـاء مـن نـوقِ الأميـن
متـوجّهـاً فـي دربِ مكّـةَ لاحقـاً بـالـذّاهبيـن
بطـل الفـداءِ أتـى أبـا بكـر فقـال لِيَستَبيـن
هـل أنـتَ مـأمـورٌ أتيـتَ أَم الأميـرُ علـى اليقيـن
فـأجـابـه بـل جئـتُ مـأمـوراً بقـرآنٍ مبيـن
الحـج نظَّمَـهُ أبـو بكـر لكُـلِّ الطّـائفيـن
وعلـيٌّ أبلـغَ مـا أتـى مـن أَجْلِـه للشّـاهـديـن

سيدنا عليٌّ في اليَمن:

* في السَّنةِ العاشرة من الهجرةِ المباركةِ، وقُبَيل حجّة الوداع بقليل؛ أرسل النَّبيُّ ﷺ الدُّعاة إلى القبائل التي لم تستجبْ للإسلام بعد، وكان فيمن وقع عليه الاختيارُ النَّبويُّ سيّدنا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ كان نصيبه بلاد اليمن، ليذهبَ إليها داعياً إلى الله عزَّ وجلَّ، وقاضياً لأهلها، ومعلّماً لهم أمورَ دينهم.

* وفي همَّةِ الفتْيان لبّىٰ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه الأوامرَ النَّبويَّةَ، فهو بطلُ رجالِ أهلِ البيتِ وفارسُهم وعالِمُهُم، وهذه البلاد تحتاجُ إلى أمثاله لإبلاغ دعوة الله عزَّ وجلَّ، وسار عليٌّ بأصحابه حتّى بلغ مشارف اليمن، فتقدَّم بهم وصلَّى بهم، ثمَّ إنَّه صفَّهم صفّاً واحداً، وتقدَّم بين أيديهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، ثمَّ دعاهم إلى الإسلام، فدخلَ جميعُهم في دين الله، وأسلمتْ همدان بأسرِها؛ فَسُرَّ عليٌّ بإسلامهم سروراً عظيماً، ومن ثمَّ كتبَ إلى معلمهِ ومربّيهِ ورأس أهل البيت النَّبويّ ﷺ يبشّره بإسلام الهمدانيين، وانتظامهم في دين الله عزَّ وجلَّ، فلمّا قرأ رسولُ الله ﷺ كتاب سيّدنا عليّ رضي الله عنه، خرَّ ساجداً للهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ رفعَ رأسه فقال: «السّلامُ على هَمْدان، السَّلام على هَمْدان»[1].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٢٣) بشيء من التّصرّف وإسناده صحيح.

* وكان أصحابُ سيّدنا عليٍّ في هذه البعثة الميمونة قد لقوا الجهدَ، وتعبَتْ خيولُهم ورواحلُهم، فطلبوا من سيّدنا عليٍّ أنْ يرخِّصَ لهم بركوبِ بعض إبل الصَّدقة، فلم يوافقْ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه، وشاهد الصَّحابة من ورعه وصلابته في سبيلِ اللهِ شيئاً مُلْفتاً للنَّظر، ممَّا جعلَ أحد أكابر علماء الصَّحابة وفقهائهم يذكر ذلك للحبيب المصطفى ﷺ، وهذا الصَّحابي العالمُ هو أبو سعيد الخدريّ(١) رضي الله عنه الذي كان بصحبةِ سيّدنا عليٍّ في هذه البعثة النَّبويّة الميمونة.

* فَلْنتحلَّقْ حولَ سيّدنا أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه لنسمعَ شيئاً عن مكارمِ عليٍّ وفضائله، حتىٰ نعرف مقامه ومكانته عند النبي ﷺ.

* قال أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه: «بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن، فكنتُ فيمن خرجَ معه، فلمّا عزلَ إبلَ الصَّدقة سألناه أنْ نركبَ منها ونريحَ إبلنا ـ وكنّا قد رأينا في إبلنا خَللاً ـ فأبى علينا، وقال: إنّما لكم منها سَهْمٌ كما للمسلمين.

فلمّا فرغَ عليٌّ رضي الله عنه، وانصفَقَ من اليمنِ راجعاً، أمَّرَ علينا إنساناً؛ وأسرعَ هو فأدرك الحجَّ، فلمَّا قضى حجَّته قال له النَّبيُّ ﷺ: «ارجعْ إلى أصحابكَ حتّى تقدمَ عليهم».

قال أبو سعيد: وقد كنّا سألنا الذي استخلفَه ما كان عليٌّ منعنا إياه، ففعلَ، فلمَّا جاء عرفَ في إبل الصَّدقة أنَّها قد رُكبَتْ، رأى أثر الرَّاكب، فَذَمَّ الذي أمَّرَهُ ولامه.

قال أبو سعيد: أمَا إنَّ للهِ عليَّ إنْ قدمتُ المدينةَ لأذكرنّ لرسولِ الله ﷺ، ولأخبرنّه ما لقينا من الغلظة والتَّضييق.

فلمّا قدمنا المدينة غدوتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، أريد أنْ أفعلَ ما كنتُ حلفتُ

---

(١) اقرأ سيرة سيدنا أبي سعيد الخدري في الباب الثاني من موسوعتنا المونقة المباركة «علماء الصّحابة» (ص ٥٠١ ـ ٥٥٠).

عليه، فلقيتُ أبا بكر رضي الله عنه خارجاً من عند رسولِ الله ﷺ فلمّا رآني قعدَ معي ورحَّب بي، وساءلني وساءلته، وقال: متى قدمتَ؟

فقلت: قدمتُ البارحة.

فرجعَ معي إلى رسولِ الله ﷺ، فدخل وقال: هذا سعدُ بنُ مالك، ابن الشَّهيد.

قال: «ائذن له».

فدخلتُ، فحييتُ رسولَ الله ﷺ وحيّاني وسلم عليَّ، وساءلني عن نفسي وعن أهلي وأحفى ـ استقصى ـ في المسألة.

فقلتُ: يا رسولَ الله، ما لقينا من عليٍّ من الغلْظَةِ وسوء الصُّحبة والتَّضييق.

فانتبذَ ـ اعتزلَ ـ رسولُ الله ﷺ، وجعلتُ أنا أعدّدُ ما لقينا منه، حتَّى إذا كنتُ في وسط كلامي، ضربَ رسولُ الله ﷺ على فخذي، وكنتُ منه قريباً، وقال: «سعدَ بنَ مالك، ابنَ الشَّهيد، مَهْ بعضَ قولِكَ لأخيك عليّ، فوالله، لقد علمتَ أنَّه أخشنُ في سبيل الله».

قال أبو سعيد: فقلتُ في نفسي: ثكلتك أمَّك سعدَ بنَ مالك، ألا أراني كنتُ فيما يكره منذ اليوم وما أدري؟! لا جَرَم واللهِ لا أذكره بسوءٍ أبداً سرّاً ولا علانية»[1].

* ومع هذه المعاني اللطيفة من خلالِ هذه الأنفاسِ العطرة، نستجلي من عبيرها قصّة سيّدنا عليّ رضي الله عنه مع أصحابه عند عودته من اليمن وحجّه مع الحبيبِ الأعظمِ ﷺ، ومن ثمّ إظهار النَّبيّ ﷺ مكانة علي والإشادة بورعه ودينه:

بَطَـلُ الفِـداءِ يعـودُ مـن نجـرانَ عَـوْدَ العـاجليـن
تـركَ الـرِّجـالَ وقـد تعجَّـلَ لِلِّقـاء مَـعَ الأميـن

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ٣٥٠ و ٣٥١)، وانظر: حلية الأولياء (١/ ٦٨).

أوصـــىٰ عليهـــم قـــائـــداً منهـــم ليـــأْتُـــوا تـــابعيـــن
لكـــنّ قـــائـــدهـــم تصـــرَّفَ مثـــلَ فِعْـــلِ المُسْتَهيـــن
قـــد وزَّعَ الحُلـــلَ الثَّمينـــةَ بيـــن جيـــشِ المسلميـــن
كـــانـــت مـــن الحُلـــل التـــي هـــي جِـــزيـــةٌ فـــي الكـــافـــريـــن
هـــذا علـــيٌّ خـــارجـــاً يلقـــى الـــرجـــالَ القـــادميـــن
فـــرأى الـــرّجـــالَ قـــد ارتَـــدَوْا حُلـــلاً مـــن البـــزّ الثّميـــن
أبـــدىٰ علـــيٌّ دهشـــةً فـــوراً تســـاءَل يسْتَبيـــن
السُّـــؤْل وجَّهـــه لقـــائـــدِهِ بـــأسلـــوبٍ مُهيـــن
مـــاذا أراكَ فعلـــتَ فـــوراً قـــالَ قَـــوْلَ الـــواثقيـــن
إنـــي كسَـــوْت النَّـــاس حتَّـــى يظهـــروا مُتجمّليـــن
لكـــن علـــي قـــال كـــلا فـــانـــزعـــوهـــا مســـرعيـــن
عنـــد الـــوصـــول إلـــى الـــرّســـول شكـــوا علـيـــاً قـــائليـــن
قـــالـــوا أســـاء لنـــا جميعـــاً إنَّـــه فـــي المُغْلظيـــن
قـــال النَّبـــيُّ لهـــم فكفُّـــوا للشّكـــايـــةِ أجمعيـــن
إنَّ الـــذي تشكـــونـــه فـــي الحـــقِّ خصـــمٌ لا يليـــن(١)

(١) تغريدة السّيرة النّبوية لمحمد عايش عبيد (٤/ ٢٥٢).
ويبدو أنّ قصَّةَ شكايةِ سيّدنا علي للنّبي ﷺ قد تكررتْ من أكثر من صحابي، وفي كلّ مرة يؤكّدُ الحبيبُ الأعظم ﷺ على مكانةِ عليٍّ رضي الله عنه ويوصي به، وبعدم أذيته، فعليٌّ ربيبُ النّبوة، وسيّد شباب الصَّحابة وشجعانهم وأكثر أهل البيت حرصاً على حراسة الدّين، ونَبيّ الإسلام والسَّلام.
فقد ذكر عمرو بنُ شأس أنَّه خرجَ مع عليٍّ رضي الله عنه إلى اليمن، فجفاهُ عليٌّ، وعند عودةِ عمرو إلى المدينة قال له النَّبيُّ ﷺ: «يا عمرو بنُ شأس لقد آذيتني» فقال عمرو: أعوذُ بالله أن أؤذي رسول الله ﷺ».
فقال ﷺ: «مَنْ آذى مُسلماً فقد آذاني، ومن آذى مسلماً فقد آذى الله عز وجل». (مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ٣٥١ و ٣٥٢) بشيء من التّصرّف.

حجُّه بالمعيّةِ النّبويّةِ:

* سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه أسبقُ السُّبَّق إلى دوحةِ المعالي والمكارم من أبناء عمِّ الحبيبِ المصطفى ﷺ، وأحرصهم على أنْ يحوزوا رضا الله عزَّ وجلَّ، ورضا النّبيِّ ﷺ، فما منْ مكرمةٍ ولا عبادة، ولا نُصْحٍ إلا كان عليٌّ من السَّابقين إليها، ومَنْ كسيِّدنا عليٍّ في هذا المضمار؟!.

* وقد عرفنا فيما سبق أنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ كان قد أرسل عليّاً رضي الله عنه إلى اليمن للدّعوة إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فنجحَ في مسْعَاه، وسدَّد الرّمية إلى مبتغاه، وبينما كان عليٌّ رضي الله عنه باليمن، إذ وصلتِ الأخبارُ إليه تحمل نبأ قدوم النّبيّ ﷺ إلى مكّةَ لأداء فريضة الحجّ.

* ومنذ أنْ بلغَه خبر حجِّ رسول الله ﷺ والمسلمين، سارع سيّدنا عليٌّ متوجّهاً بمَنْ معه إلى مكّة لأداء الحجّ بمعيّةِ ابن عمِّه حبيبهِ وحبيبِنا رسولِ اللهِ ﷺ.

* وفي أثناء الطَّريق، تعجَّل سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه، فأسرعَ نحو مكَّة كي يلقى الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ، وتركَ رجالَه وأمَّرَ عليهم واحداً منهم.

* وأدرك عليٌّ رضي الله عنه النّبيَّ ﷺ في حجّةِ الوداع، وأدّىٰ فَرْضَه، وسأله الحبيبُ الأعظمُ ﷺ: «هلْ معكَ منْ هَدْي»؟

فقال سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه: لا.

فأشركه رسولُ اللهِ ﷺ في هَدْيه، فنحر ﷺ ثلاثاً وستّين بدنة بيده، وكان عددُ هذا الذي نحره عددَ سني عمره، ثمَّ أمسكَ، وأمر سيّدنا عليّاً أن ينحرَ ما بقي من المئةِ، ففعل عليٌّ وأكمل العددَ، وكان ثلاثاً وثلاثين بدنة، ومن العجيب أنَّ سنَّ سيّدنا عليٍّ كان عامئذٍ ثلاثاً وثلاثين سنة.

* وفي حجّةِ الوداع أوصى الحبيبُ المصطفى ﷺ الصَّحابةَ بأهلِ البيت، وذكَّرهم اللهَ في أهلِ بيتهِ الأطهار، فكان ممّا قال ﷺ كما جاء في الصَّحيح:

«. . . وأهلُ بيتي، أذكركم اللهَ في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم اللهَ في أهل بيتي. . .»، وكان آل علي رضي الله عنهم أجمعين من أهلِ بيتهِ ﷺ[1].

* وأخرج ابنُ ماجه بسنده عن البراءِ بنِ عازب[2] رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسولِ اللهِ ﷺ في حجّته التي حَجَّ، فنزلَ في بعضِ الطَّريق، فأمر الصَّلاةَ جامعةً، فأخذَ بيدي عليٍّ، فقال: «ألسْتُ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم»؟

قالوا: بلى.

قال: «ألستُ أَوْلىٰ بكلِّ مؤمنٍ من نفسهِ»؟

قالوا: بلى.

قال: «فهذا وَليُّ مَنْ أنا مولاه، اللهم وَالِ مَنْ والاه، اللهم عادِ مَنْ عاداه»[3].

* كان سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه قد جاء من اليمن، وشهد حجّةَ الوداع، وكان اشتكاهُ بعضُ الجند بسببِ ماصدر منه إليهم من استرجاع الحُلل التي وزّعها عليهم نائبه، فظنَّ بعضُهم أنَّ ذلك جوراً وتضييقاً عليهم وبُخْلاً، وما علموا أنّها أموالُ صدقات، وخُمْس، وقد كان الصَّواب مع سيِّدنا عليّ رضي الله عنه، لذلك خطبَ النَّبيُّ ﷺ بأصحابه مبيّناً فَضْل عليِّ بنِ أبي طالب، وبراءة ساحته ممّا نسب إليه بعضُ الجند من الحيف، وذكر ﷺ أشياء من فضْلِ

---

(١) صحيح مسلم، حدث رقم (٢٤٠٨).

(٢) اقرأ سيرة البراء بن عازب في موسوعتنا «علماء الصَّحابة» تجد خيراً وفائدة بإذن الله.

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة برقم (١١٦). وقوله: «فأمر الصَّلاةَ جامعةً» أي: فأمر بالصَّلاة وقال ائتوا الصّلاةَ جامعةً، ففي الكلام اختصار. و«الصَّلاة جامعةً»: كلاهما بالنّصب. الصَّلاة. مفعول؛ جامعةً حال.
أقول: «يخطىءُ كثيرون الآن ممّن يتولّون الأذان أو إقامة الصَّلاة فيقولون: الصَّلاةُ جامعةٌ، فمن المستحسن اتّباع الهدي النّبويّ واحترام اللغة العربيّة، والعمل وفق قواعدها».

عليّ وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثيرٍ من النَّاس منه[1].

* قالت زينبُ بنُ كعب بن عجرة ـ وكانت عند أبي سعيد الخدريّ ـ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: شكى النَّاسُ عليّاً، فقام رسولُ اللهِ ﷺ خطيباً فقال: «يا أيّها النَّاس، لا تشكوا عليّاً، فواللهِ إنَّه لأُخيشن في ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ»[2].

سيّدنا عليٌّ والخلفاءُ الرَّاشدون:

* الخلفاءُ الرّاشدون سادةُ النَّاس، وأفضلُهم وأعلاهم قَدْراً وعلْماً؛ وأعلى الخُلفاء الرّاشدين فَضْلاً وقدراً، أبو بكر، فعُمرُ، فعثمانُ، فعليٌّ رضي الله عنهم أجمعين، وهذا ما أجمع عليه فقهاءُ الأمّة وعلماؤُها ومؤرّخوها.

* قال الإمامُ الحافظُ سيّد العُلماء، وجِهْبِذهم أيّوب السَّخْتِيَانيّ البصريّ المتوفىٰ سنة (١٣١ هـ)، في الخلفاء الأربعة الرّاشدين رضي الله عنهم: «مَنْ أحبَّ أبا بكر فقد أقام الدِّين، ومَنْ أحبَّ عمر فقد أوضحَ السَّبيل، ومن أحبَّ عثمان فقد استنار بنور الله، ومَنْ أحبَّ عليّاً فقد استمسكَ بالعروةِ الوثقى، ومَنْ قال الحسنى في أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ فقد بريء من النِّفاق»[3].

* وقال إسحاقُ بنُ خلف الشَّاعر في الخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنهم:

إنّي رضيتُ عليّاً قدوةً علماً كما رضيتُ عتيقاً صاحبَ الغَار

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٥/٢٠٨)، وللمزيد من مثل هذه الأحاديث والتّعليق عليها. راجع البداية والنهاية (٥/٢٠٨ ـ ٢١٤) حيث أوردَ ابنُ كثير فوائد مهمة وأحاديث عظيمة في فضْل سيّدنا عليّ رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) حلية الأولياء (١/٦٨)، والحديث أيضاً أخرجه الإمام أحمد في المسند، والحاكم في المستدرك.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٨٠).

وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعتَه وما رضيتُ بقَتْل الشّيخ في الدّارِ
إنْ كنتَ تعلمُ أنّي لا أحبّهم إلّا لوجهكَ فاعتقْني منَ النّار(١)

* وممّا لا ريب فيه أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه كان ذا منزلةٍ سامقةٍ عند الحبيبِ المصطفى ﷺ وعند الخلفاء الرَّاشدين الثّلاثة قبله، فكانوا يجلّونه ويحبّونه، وكان يحبُّهم ويجلُّهم.

* فقد كان سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه إذا ما حَزَبَهُ أمرٌ، دعا عالمَ أهلِ البيت سيّدنا عليَّ بنَ أبي طالب وشاوَرَهُ وعملَ برأيه وفقْهِهِ، ويقول له: «أفتِنا يا أبا الحسن». ولذلك لمّا توفي سيّدنا أبو بكر رضي الله عنه قال سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه مبيّناً بعض مناقبه: «رحمك الله أبا بكر، كنتَ واللهِ أوّل القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، صدَّقْتَ رسول الله ﷺ حين كذَّبه النَّاس، وواسيتَه حين بخلوا، وقمتَ معه حين قعدوا، كنتَ واللهِ للإسلام حِصناً، وللكافرين ناكباً، لم تَهِنْ حُجَّتْك، ولم تضعفْ بصيرتُك، ولم تجبنْ نفسك».

* وكان سيّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يجلّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه، وكان يقول: «عليٌّ أقْضَانا»، بل كان يتعوّذُ من معضلةٍ ليس لها أبو الحسن رضي الله عنه. وكان سيّدنا عليٌّ يسمّي أبا بكر وعمر سيدَيّ قريش، وأبوَيّ المسلمين، وخيرَيّ الأمّة، وكان يقول: «إماما الهُدى، وشيخا الإسلام، والمهتدَىٰ بهما بعد رسولِ الله ﷺ، من اتّبعهما هُدي إلى صراط مستقيم، ومن اقتدى بهما يَرْشُد، ومن تمسَّكَ بهما فهو من حزبِ اللهِ، وحزب الله هم المفلحون».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٨٢). وفي ذكْرِ الأربعةِ الخلفاء، الكرام الشُّرفاء، قال فيهم الشَّاعر ذو الوفاء:

خِيارُ النَّاسِ بعد المُصْطَفى المِفْضَال ذو اللسَن
أبو بكرٍ أبو حفْصٍ أبو عمروٍ أبو الحسَنِ

(ألف باء، للبلوي ١/ ٤٤٠).

* وأمَّا في عهد سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه فقد كان سيّدنا عليّ رضي الله عنه من أهل شوراه، ومن المناصرين له النّاصحين للأمّة، ولمّا حُوصر سيّدنا عثمان نَصَرَهُ سيّدنا عليّ، فاعتمّ بعمامةِ رسول الله ﷺ، وتقلّد سيفه، ووضع نفسه تحت أمر عثمان رضي الله عنه. وكان عند عثمان جماعة من الصّحابة يدافعون عنه، ومنهم سيّدنا الحسن بن علي رضي الله عنه الذي أُصيب مع جماعة من أبناء الصَّحابة يوم حصار سيّدنا عثمان. ولمَّا استشهد سيّدنا عثمان قال سيّدنا عليّ: «تباً لهم آخر الدَّهر» ودخل على عثمان فوقعَ عليه، وجعل يبكي، وتبرّأَ إلى اللهِ من دمه ومن قاتليه، وشهد له بالجنَّة، ولقاتليه بالنَّار.

* كان سيّدنا عليٌّ عليه سحائب الرضوان مثالَ المؤمنِ الصَّادقِ، وقدوةً لكلِّ أهلِ الصَّفاء في عَصْره، فقد علمنا كيف كان يجلُّ الخلفاء الرَّاشدين قبله، وكيف كان ينصرهم قولاً وفعلاً، وكان الصَّحابة الكرامُ رضي الله عنه ثابتين على الحقِّ، ومع الحقِّ، لم يحيدوا قِيْدَ أنملة عن النَّهج النَّبويّ، ولم تزلْ عبقاتُ الوحي تعطّرُ أرواحَهم وأنفاسَهم وأعمالَهم، فاختاروا سيّدنا عليّاً خليفة للمسلمين بعد استشهاد سيّدنا عثمان عليه سحائب الرّضوان.

* ومن الثَّوابت التَّاريخيةِ أنّه قد بقي على قيْدِ الحياةِ ـ بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه ـ خمسة من الصَّحابة العشرة المبشّرين بالجنّةِ وفي مقدمتهم: رجل أهل البيت وعالمهم وعيلمهم وأفضلهم سيّدنا عليّ بن أبي طالب، ثمّ طلحة بن عُبيد الله، والزّبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، وسعيد بن زيد رضي الله عنهم أجمعين. بينما توفي قبلهم الخمسة الآخرون وأولهم: سيدنا أبو بكر الصّديق، وعمر، وعثمان، وأبو عبيدة، وعبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، وعفا عنّا بفضله ومنّه وكرمه.

* وفي شهر ذي الحجة سنة (٣٥ هـ) بايع الصَّحابة أجمعون سيّدنا عليّ بن أبي طالب خليفةً للمؤمنين ورابع الخلفاء الرَّاشدين، وأوّل أهل البيت ممّن ولَي الخلافةَ بعد الصَّادق المصدوق ﷺ.

* قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله: «وليَ عليٌّ رضي الله عنه الخلافةَ خمس سنين، وقيل: خمس سنين إلاّ شهْراً، بُويعَ بالخلافة في مسجدِ رسولِ الله ﷺ بعد قتل عثمان رضي الله عنه، لكونه أفضل الصَّحابة حينئذ؛ وذلك في ذي الحجَّة، سنة خمس وثلاثين. قال سعيدُ بنُ المُسيّب: لمّا قُتِلَ عثمان جاءت الصَّحابةُ وغيرهُم إلى دار عليٍّ فقالوا: نُبايعك فأنتَ أحقُّ بها.

فقال: إنّما ذلك إلى أهلِ بَدْرٍ، فمن رضُوا به فهو الخليفة. فلم يبقَ أحدٌ إلا أتى عليّاً، فلمّا رأى ذلك خرجَ إلى المسجد وصَعِدَ المنبر، وكان أوَّل مَنْ صعد إليه فبايعه طلحة، ثمّ بايعه الباقُون. ولمّا دخل الكوفة قال له بعضُ حكماء العرب: لقد زِنْتَ الخلافةَ وما زانَتْكَ، وهي كانت أحوج إليك منك إليها»[1].

* تمت بيعةُ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه من الصَّحابة أجمعين، لم يتخلَّفْ عن بيعتِهِ صحابيٌّ واحد، ومن ثمَّ بايعه العامّة ممَّنْ حضَرَ البيعةَ؛ ثمّ جيء بقومٍ تخلّفوا فقالوا: «نبايعُ على إقامةِ كتابِ اللهِ في القريب والبعيدِ، والعزيزِ والذَّليل». . فبايعهم سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه وأرضاه.

* وأبان الإمامُ الطَّبريّ كيفية اتّساقِ الأمْرِ في البيعةِ لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، فكان ممّا قال: «وبويع عليّ يومَ الجمعة لخمسٍ بقين من ذي الحجّة سنة ٣٥ هـ»[2].

* وتابع الطَّبريّ مشيراً في دقّةٍ إلى أنَّ أوَّلَ خطبةٍ خطبَها سيّدنا عليّ حين استخْلِف، بعد أنْ حمدَ الله وأثنى عليه هي قوله: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ أنزل كتاباً هادياً بيَّنَ فيه الخير والشَّرّ، فخذوا بالخير، ودعوا الشَّرّ.

الفرائضَ أدّوها إلى اللهِ سبحانه يؤدّكم إلى الجنَّة، إنَّ اللهَ حرَّم حُرَماً غير

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٤٨).

(٢) انظر: تاريخ الطّبري (٢/ ٧٠١) بتصرّف يسير ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٨ م.

مجهولة، وفضَّل حُرمةَ المسلم على الحرم كلّها، وشدّ بالإخلاص والتّوحيد المسلمين.

والمسلمُ مَنْ سلم النَّاسُ من لسانِهِ ويده إلا بالحقّ، لا يحلُّ أذى المسلم إلا بما يجب.

بادروا أمْرَ العامّةِ، وخاصّة أحدكم الموت، فإنَّ النَّاس أمامكم، وإنّما من خلفكم السّاعةُ تحدوكم، تخفّفوا تلحقوا فإنّما ينتظرُ النَّاس أخراهم.

اتّقوا اللهَ عباده في عبادِهِ وبلادِهِ، إنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم.

أطيعوا اللهَ عزَّ وجلَّ ولا تعصوه، وإذا رأيتمُ الخيرَ فخذوا به، وإذا رأيتم الشَّرَّ فدعوه، ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنفال: ٢٦]»[١].

* ومن العجيب أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه قد استقبل الخلافةَ استقبالاً حافلاً من الصَّحابة أجمعين، غير أنَّ الأمورَ لم تستقمْ له[٢]، وإنّما نجمتِ الفتنُ الكثيرةُ التي ألقَتْ جِرَانَها على دولتِهِ العظيمة التي أرادَ لها الأمنَ والسَّلامَ والخيرَ والنَّماءَ، وظهرتْ بعضُ الآراء التي تدعو إلى القصَاصِ من قَتَلَةِ عثمان رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٧٠١).

(٢) ذكر اليافعيُّ أنّه روي أنّه قيل لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه: ما بال خلافة أبي بكر وعمر كانتْ صافيةً، وخلافتُك أنتَ وعثمان منكدرة؟
فقال رضي الله عنه للسَّائل: «لأنّي كنتُ أنا وعثمان مِنْ أعوان أبي بكر وعمر، وكنتَ أنتَ وأمثالُكَ من أعوان عثمان وأعواني».
وهذا من الأجوبةِ المعجبةِ المفحمة، ومنها: قال له بعضُ اليهود: ما أتى عليكم يا معشرَ المسلمين بعد موتِ نبيّكم إلا نيفٌ وعشرون سنة حتى علا بعضكم بالسَّيف رأسَ بعض.
فقال له علي رضي الله عنه: «فأنتم ما جفَّت أقدامُكم من البحرِ حتّى قُلتم معشرَ اليهود: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف: ١٣٨]. (مرآة الجنان ١/ ١١٧)، و(شذرات الذّهب ١/ ٢٢٦).

* ثمّ بعد ذلك تأزّمتِ الأمورُ، وحصلتْ وقعةُ الجمَلِ بين سيّدنا عليٍّ ومَنْ معه، وأمِّ المؤمنين عائشةَ وطلحةَ والزّبير ومَنْ معهم رضي الله عنهم أجمعين.

* وكانت الفتنُ عظيمةً، والأحداثُ جسيمةً، واستطاع سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أنْ يدعوَ خصومَه إلى الأُلفةِ والجماعةِ، ويعظّمَ عليهم الفرقة والاختلاف؛ فركَنَ القومُ إلى الصُّلحِ ومالوا إلى الموادعةِ بين النّاس، واطمأنّتِ النُّفوسُ إلى هذا الأمر وسكنت، واجتمعَ كلُّ فريق بأصحابهِ من الجيشَيْن، وبات النَّاسُ بخيرِ ليلة، بينما بات قَتَلَةُ عثمانَ بِشَرِّ ليلةٍ، فنهضُوا قُبيل طُلوعِ الفَجْر ـ وهم قريبٌ من ألفيَ رجُلٍ ـ فهاجموا جيشَ أمِّنا عائشةَ رضي الله عنها بالسّيوف، فثارَ النَّاسُ من منامِهم إلى سلاحِهم، واشتبكَ القومُ، وكلٌّ يظنُّ أنَّ الآخرَ قد غدرَ، ولا يشعرُ أحدٌ بما دبَّره وجالت الشُّجعان، واشتدّ أوار المعركةِ، وحمي وطيسُها. وكثرتِ الجرحى من الفريقَيْن، وتناثرَ القَتْلىٰ منهما، حتّى حَزِنَ سيّدنا أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه، وتألّم أشدَّ الألم، وأخذ يقول لابنه الحسن رضي الله عنه: «يا بنيّ، ليتَ أباكَ ماتَ قَبْلَ هذا اليوم بعشرين عاماً». فقال له سيّدنا الحسنُ: «يا أبتِ، قد كنتُ أنهاكَ عن هذا». قال سيّدنا عليّ رضي الله عنه: «يا بني، لم أرَ أن الأمرَ يبلغُ هذا»[1].

* ثمَّ إنَّ سيّدنا علياً رضوانُ الله عليه قام فتدخَّلَ بنفسِهِ لإنهاءِ هذه المعركة، حيثُ خرجَ حاسِراً على بغلةِ رسولِ الله ﷺ لا سِلاَحَ عليه، فنادى: «يا زبيرُ[2]، أُخرجْ إليَّ». فخرجَ إليه سيّدنا الزُّبير، وتَعَاتَبا، وانتهى الأمرُ برجوع سيّدنا الزُّبير نادماً عارفاً أنَّ الحقَّ مع ابنِ خالهِ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه؛ فلمّا رجعَ، نزلَ وادياً يُقال له: وادي السّباع، فتبعَه رجلٌ يدعى: عمرو بن جرموز التّميميّ،

---

(١) البداية والنّهاية (٧/ ٢٤١)، واقرأ سيرة سيّدنا الحسن بن عليّ رضي الله عنهما في الباب الثالث من هذا الكتاب، فسيرته روض رياحين تنعش نفوس المحبين.

(٢) اقرأ سيرة الزّبير بن العوّام رضي الله عنه في موسوعتنا «فرسان من عصر النبوّة» (ص ١٠٥ ـ ١٢٥) ففي سيرته فوائد كثيرة.

فأدركَه وهو نائمٌ في القائِلةِ، فهجم عليه، فقتله غدراً رضي الله عنه وأرضاه، وكان مقتلُه بوادي السّباع بناحيةِ البصرة، وقبُره هناك، ولهُ من العمر (٦٤ عاماً)[١].

* وبعد انصرافِ الزُّبير نادى سيّدنا عليٌّ سيّدنا طلحةَ[٢] فقال: «يا أبا محمّد، ما الذي أخرجَك»؟

قال: «الطَّلبُ بدمِ عثمان».

فقال له سيّدنا عليٌّ رضوانُ الله عليه: «ألَسْتَ أوّلَ مَنْ بايعَني، ثمَّ نكثتَ، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[الفتح: ١٠]».

فقال سيّدنا طلحةُ رضي الله عنه: «أستغفرُ اللهَ» ورجع.

* ثم إنَّ بعضَ النَّاسِ لمَّا علمَ برجوعِ سيّدنا طلحةَ وندمِهِ، رمَاهُ في أكْحلِهِ، فقتله رضي الله عنه وأرضاه، وكان عمره (٦٢ سنة)، ودُفنَ على شطّ البصرة بأرضِ العراق[٣].

* ولمَّا رأىٰ سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه أنَّ المعركةَ قد حميَتْ حولَ جملِ أمّنا عائشةَ رضي الله عنها، أمرَ بعقْرِهِ لئلا تُصَاب أمّنا أمّ المؤمنين، فإنّها بقيتْ غرضاً للرُّماةِ، ولينفصلْ هذا الموقفُ الذي قد تفَانَى فيه النَّاس.

* وبسقوطِ البعيرِ إلى الأرضِ، انفضَّ النَّاسُ وانتهتِ المعركةُ، وحُمِلَتْ سيّدتنا عائشةُ رضي الله عنها بأمرٍ من سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، ووُضِعَتْ في هودجِها مبجّلةً مكرمةً، ثمَّ أُرسلَتْ مع جمعٍ من النّسوة الثّقات من أهلِ البصرة، ومعها أخوها محمّدُ بنُ أبي بكر، حتى رجعتْ معزَّزةً إلى بيتها في المدينةِ

(١) البداية والنّهاية (٧/ ٢٥٠)، وفرسان من عصر النّبوّة (ص ١٢٢) مع الجمع والتّصرّف اليسير.
(٢) اقرأ سيرة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه في موسوعتنا «فرسان من عصر النّبوّة» (ص ٢٢٠ ـ ٢٣٩) فسيرته بركة وعلم لمن يطلب ذلك.
(٣) فرسان من عصر النّبوّة (ص ٢٣٨) بشيء من التّصرّف اليسير.

المنورةِ رضي الله عنها وأرضاها.

* كان من نتائج هذه الموقعةِ الأليمة انتصارُ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه ميدانياً وفكرياً على أهلِ الجَملِ، ورجوع الزُّبير وطلحة رضي الله عنهما، ثمَّ استشهادهما غيلةً وغدراً، وإعادة سيّدتنا عائشةَ الصِّدِّيقة[1] رضي الله عنها معزّزة مكرّمةً إلى بيتها في المدينةِ المنوّرةِ، ثمَّ إنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه لم يعتبرْ أموالَ الذين قاتلُوه في موقعةِ الجمل غنيمةً، وأبى أنْ يقسمَه بينَ أصحابهِ.

* لم تكَدْ حربُ الجملِ تضَعُ أوزارهَا، حتّى دقَّتْ معركةُ صفّين الأبواب، وأتتْ تخطرُ في أثوابِ الخَطَرِ، ودخلتِ الفتنُ من جميعِ الجوانب، وكادتْ تتعصفُ بالمسلمين لولا رحمةُ الله عزَّ وجلَّ، فقد قامتْ هذه المعركةُ بين سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه ومَنْ معَه؛ وبين سيّدنا معاويةَ[2] رضي الله عنه ومَنْ معه، والتقى الفريقان في صفّين في أوائل شهر ذي الحجة سنة (٣٦ هـ)، ولم تزلِ الحربُ دائرةً بين الفريقين شهر ذي الحجة كلّه، يقتتلون كلَّ يوم، وربما اقتتلوا في اليوم أكثر من مرّة.

* ثمَّ دخلتِ السَّنَةُ السَّابعةُ والثَّلاثون من الهجرة، ولا يزالُ سيّدنا عليٌّ ومعاويةُ رضي الله عنهما متواقفَيْن في صفّين، وبدخولِ شهر المحرّم من السَّنَةِ ذاتها، تحاجزَ القومُ رجاء أنْ تقعَ بينهم موادعةٌ ومهادنةٌ، ومن ثمَّ يؤول الأمْرُ إلى الصُّلحِ بين النَّاسِ، وحقْن دمائهم، وصيانة أموالهم.

* ومرّتِ الأيّامُ ولكنَّ الصُّلحَ لم يقعْ، وبدأتِ الحربُ مرّةً ثانية، ونادى سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أصحابه بألا يباشروا القتالَ حتّى يبدأ أهلُ الشَّام، وأمرَ ألا يُذَفّفَ على جريح، ولا يتبعَ مُدبر، ولا يكشفَ سِتْرُ امرأة، ولا تهان، وإنْ

---

(١) اقرأ سيرة سيّدتنا عائشة بنت أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما في الباب الأوّل من كتابنا: «نساء أهل البيت» (ص ١٢٣ ـ ١٨٨) ط ٦ ـ ٢٠٠٥. فسيرتها علْم في علمٍ في علمٍ في نقاءٍ وصفاء.

(٢) اقرأ سيرة سيّدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في الباب الثّالث من موسوعتنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص ٦٣٦ ـ ٦٨٨) ففي سيرته وقفات ينبغي أنْ نعرفَها ونعيَها.

شتمت أمراءَ النَّاس وصُلَحاءَهم.

* ودارتِ المعركةُ بينهما حاميةً ضاريةً، كان من نتائجها أنْ قُتِلَ سيّدنا عمّارُ بنُ ياسر رضي الله عنه.

* استمرَّ القتالُ حتى لاحتْ تباشيرُ النَّصر لسيّدنا عليٍّ رضي الله عنه ومَنْ معه، وتفرَّقتْ صفوفُ الشَّاميين حتى كادوا ينهزمون شرَّ هزيمة، وعندها رفعوا المصاحفَ على الرِّماح مُنادين: هذا بيننا وبينكم، قد فنيَ الناس، فمن للثغور؟ ومن لجهاد المشركين والكفّار؟

* وعندها دبَّ الخلافُ في أصحابِ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، وانقسموا عليه، فمنهم مَنْ رأىٰ الموافقة على التّحكيم، ومنهم مَنْ رأى أنْ يُحْسَم الأمرُ، وكان هذا هو رأي سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه أولاً، ولكنّه وافَقَ أخيراً على ذلك، فكان منْ أمْرِ الخوارجِ وقصَّة التَّحكيم ما كان، وقد تكفَّلَتْ مصادرُ التَّاريخ بتفصيلِ ذلك وبيانِهِ وتبيينِهِ[1].

* ومنَ الخيرِ أنْ تُقال كلمةُ الحقِّ في مضمار الحقِّ، وها نحنُ أولاء نقول ونحنُ مطمئنّون واثقون: «إنَّ مجملَ ما حدثَ في هذه المعارك، ومنها: الجمَل، صفّين، قتال الخوارج، كان الحقُّ أقرب إلى سيّدنا عليٍّ، بل قاتَلَ رضوان الله عليه من أجلِ الحقِّ، وكان خصومُه بُغَاةً عليه، وتناسى بعضُهم مكانتَه بين رجالِ أهلِ البيت الذين رضي الله عنهم، وأذهبَ عنهم الرِّجسَ، وطهّرهم تطهيراً؛ ولا ريبَ في أنَّ بعضَهم قد فاءَ إلى الحقِّ، وعرفَ أنَّ سيّدنا عليّا قد بُغِيَ عليه وظُلِمَ، وأنَّ بعضَهم قد أخطأ في تأويله، ولكنه مؤمنٌ عملَ على الاجتهاد. بيد أنَّ المجتهدَ إذا أخطأَ له أجرٌ، لاسيما وأنَّ نيّتَه سليمةٌ خالصةٌ من الأهواء. وقد ظهرتْ دلائلُ الحقِّ ناطقة بأنَّ الحقَّ كان أقربَ إلى عليٍّ رضي الله عنه عندما قُتِلَ سيّدنا عمّار بن ياسر رضي الله عنهما، إذ أخبرَ الصَّادقُ

---

(١) انظر مثلاً: الكامل لابن الأثير (٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣٤)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨) وغيرهما.

المصدوقُ ﷺ بأنَّ عمّاراً تقتلُه الفئةُ الباغيةُ، وكان سيّدنا عمارٌ مع سيّدنا عليٍّ، وقَتَلَتُه هم الباغون. كما ظهرت دلائل الحقّ تشدّ أزْرَ سيّدنا عليّ في قتاله الخوارج الباغين وفيهم «ذو الثُّدَيَّة» الذي أصابه سيّدنا عليٌّ في حروراء، حيث إنَّ علياً وأصحابه لمَّا عاينوه مجندلاً صريعاً بين القتلى خرّوا سُجَّداً لله عزَّ وجلَّ، وعلموا علْمَ اليقين بأنَّهم على الحقِّ ومع الحقِّ ويقاتلون لإعلاء الحقِّ حتّى يرجعَ البغاةُ إلى الحقِّ؛ واللهُ تعالى أعلمُ، وهو الفعَّال لما يريد».

* وينبغي ألا نلتفتَ إلى الكُتَّاب والمصنِّفين الذين يَهْتَمُّونَ بِحُسْنِ السَّبْك، وجمالِ القصَّة لتشويه الصُّورة؛ وبَعْثَرةِ الحقائق وهؤلاء كُثُرٌ يودّون أنْ يَعْبروا إلى النُّفوس بهذا الأسلوب المخنّث المسموم، كما سنقرأ في الفقرة الآتية إن شاء الله.

كلماتٌ ترعُفُ بالسُّمّ:

* استغلَّ بعضُ الكُتَّاب من القُدماء والمعاصرين الأحداثَ التي شغَلَتِ الدَّولةَ الإسلاميةَ في خلافةِ سيّدنا عليٍّ حيناً من الدَّهر، وصاغوا منها قصَصاً لا تُعْقَل، وأشعاراً لا تُقْبَل، وكلماتٍ ذات خشونةٍ، وعباراتٍ ذات رعونة، ووصَمُوا بها كبار الصَّحابة ومقدَّميهم، وأهل العلْم فيهم، وتبعوا بذلك الهوى والأهواء، وابتعدوا عن الحقِّ والضّياء، وظنّوا أنّهم قد أحسنُوا صنعاً مع رجالِ أهلِ البيت، ونسوا؛ أوغاب عن أذهانهم أنَّ رجالَ أهلِ البيتِ لا يرضون بهذا، لأنَّ هؤلاء الفضلاء الكرام من رجال الكمال والحصَافة والأدب والاتّباع للهدي النَّبويّ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ولا يرضون بسفْسَافِ القول، ولا بهزيلِ الكلامِ الممزوج بالادِّعاءِ والتّحامُل.

* وأودُّ أنْ أهَمسَ في وجدانِ أحبابي القُرَّاء الذين أحببتُهم في الله بأنّي تردَّدْتُ في كتابةِ هذه الفقْرة، ثم توكّلتُ على العزيز الرّحيم، ورأيتُ من الخير أنْ أدلَ على الخير محبّةً في سيّدي وحبيبي رسولِ الله ﷺ رأس البيت النَّبويّ وزينةِ رجاله ورجالِ الدّنيا بأسرها، ثم بعد ذلك محبّة بسيّدنا فارس الفتيان، وفتى الشّجعان، وريحانة أهل البيت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي

تربّى في البيت المحمّديّ، ونشأَ على أكملِ الأخلاقِ وأفضلِها، فكان من أفضلِ رجال الصَّحابة ورجال أهل البيت الأطهار، ببركةِ النَّبيّ المختار ﷺ.

* فمن الكلماتِ القاتمة الممزوجة بالضَّبابية، والتَّلاعب بالحروف والنّقاط المشحونة بغمز الصَّحابة ولمزِهم، والتّعريض ببعضهم، وتطويعِ العبارات حسبَ الأهواء والآراء، قول مَنْ قال:

آلَ حَـرْبٍ أو قـدتُـمُ نَـارَ حَـرْبٍ ... ليـسَ يخْبُـو لهـا الـزَّمـانَ وَقُـودُ
فـابـنُ حَرْبٍ لِلْمُصْطَفـىٰ وابـنُ هنْـدٍ ... لِعَلـــيٍّ وللحُسَيـــنِ يـــزيـــدُ

* وأنا لا أريدُ أنْ أعلِّقَ على هذين البيتَيْن، فظاهرهما وباطنهما يفصحان بأنَّ الهوىٰ يهوي بصاحبه إلى مكانٍ سحيق، ولا طائل ولا فائدة من مثل هذه الكلمات المرصوفة التي فيها تعريض وسخرية وتنديد، وتكلُّف وسخف ورعونة.

* وفي العصرِ الحاضرِ جاء كُتَّابٌ مشهورون في أفقِ الكتابة وفلكها، وتسابقَ بعضُهم مع بعض المستشرقين في ميدان التَّعتيم، وميدان الكلمات المزوّقة والرّوايات المنمّقة، والأكذوبات المنسّقة؛ فسبقوهم وتفوَّقوا عليهم، واجترأ بعضُهم في صوغِ جملٍ وكلماتٍ فيها انتقاصٌ لسادتنا الصَّحابة، ونحنُ نتحدّاه إذا استطاع أنْ يقولَ مثل هذا الكلام لحارسٍ ليلي، أو حارس عمارة، أو لأدنى النّاس مرتبة، أو بعض من يظهرون بمظاهر التّأنّق والتَّجمّل من عامة النّاس علىٰ الشّاشات، أو علىٰ الطُّرقات.

* وسأضعُ بصيرةَ القارىءِ وبصرَهُ ويدَهُ على بعض ما جاء في كتب المعاصرين المشهورة لنكونَ على بيّنةٍ من الأمْرِ، ولندرك كيف تُصَاغ العبارات في حقِّ أكابر الصَّحابة وأعيانهم وفُضلاهم، وأدَعُ الحكْمَ للقارىء.

* يقولُ الكاتب «عبّاس محمود العقّاد» في «عبقرية علي» ما نصُّه: «فقد أصبح اسمُ عليٍّ عَلماً يلتفُّ به كلّ مغصوب[1]، وصيحةً ينادي بها كلّ طالب

---

(١) لاحظ كلمة «مغصوب» وما تحمله من مصائب وذر رماد في العيون!

إنصاف، وقامت باسمه الدّول بعد موته، لأنَّه لم تقمْ له دولةٌ في حياته، وجعل الغاضبون على كلّ مجتمعٍ باغ، وكلّ حكومةٍ جائرةٍ يلوذون بالدَّعوةِ العلويّة كأنَّها الدّعوةُ المرادفةُ لكلمةِ الإصلاح، أو كأنّها المنفس الذي يستروحُ إليه كلّ مكظوم. فَمَنْ نازعَ في رأي ففي اسم عليٍّ شفاءٌ لنوازع نفسِه، ومَنْ ثار على ضيمٍ ففي اسم عليّ حافزٌ لثورتِهِ ومرضاةٌ لغضبه، ومَنْ واجَه التَّاريخَ العربي بالعقل أو بالذَّوق أو بالخيال أو بالعاطفة، فهناك ملتقىً بينَه وبين عليّ في وجْهٍ من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفردَ بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب النّاس وشائج تخلقها الطّبيعة الآدمية إنَّ قصَّرَ في خلقها التّاريخ والمؤرخون»[1].

* ومن كلماتِ العقّاد المفخَّخة التي تدعو إلى الرّيبة، والتي تكشفهُ بأنَّه يصطادُ في ماءٍ عكرٍ مُلوّث؛ حيث يُلْصقُ بعمرَ بنِ عبد العزيز رحمه الله تهمةً لا تليقُ بِعُمرَ ولا بأقلّ من عمرَ أو ممَّنْ عاصره في عَصْر بني أميّة الزَّاهر المزهر بأكابر الصَّحابة، وكبراء التَّابعين، وأعيان العُلماء العاملين، يقول العقّاد: «قال عمرُ بنُ عبد العزيز، وهو من أسرة أميّة التي تبغض عليّاً، وتخلقُ له السّيئات، وتخفي ما توافرَ له من الحسَنات. . . »[2]!!!

* والآن أدعوك عزيزي القارىء لنسمعَ ونقرأ هذه الكلمات «العقّاديّة» التي ينالُ من خلالها ويعرض بسيّدنا عمرو بنِ العاص رضي الله عنه، دون أنْ يُحيلَ القارىء على مصْدرٍ أو مرجعٍ استقىٰ منه الإلهامَ، والإيهامَ، والاتّهامَ،

---

(١) انظر: العبقريات الإسلامية لعبّاس العقاد (ص ٦٥٩) دار الآداب ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٦٨ م. وكلامُ العقاد هذا أقربُ إلى الفلسفة منه إلى الحقائق التّاريخية والعلمية. ثم إنَّ العقاد لم يذكرْ لنا مصدراً واحداً تطمئنّ النّفس إليه فيما يذهب إليه.

(٢) العبقريات الإسلامية (ص ٦٦٩). وبالله قولوا: «من يجرؤ أن يلصق السيئات بسيّدنا عليّ رضي الله عنه؟!! وهل السيئات أصبحت في الآداب «العقّادية» تُخْلَق خلقاً، بل من ذا يستطيع أن يخفي حسنات سيّدنا عليّ وفضائله التي هي أشهر من الجوزاء وزحل؟!».

والإيغالَ، وعدمَ الاعتدال في حقّ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، فيقول: «وأغرقَ ابنُ العاص في وصْف الدّعابة فسمّاها «دعابة شديدة» وطفق يردّدها بين أهل الشَّام ليقدحَ بها في صلاح الإمام للخلافةِ، وإنّما نقول إنَّ ابنَ العاص أغرقَ في هذا الوصف، وإنَّ الدَّعابةَ المعيبةَ لم تكن قطّ من صفاته، لأنَّ تاريخَ عليٍّ وأقوالَهُ ونوادِرَهُ مع صحبِهِ وأعدائِه محفوظةٌ لدينا!!!!!! لا نرى فيها دليلاً على خلقِ الدّعابة فضْلاً عن الدّليل على الإفراط فيه.»[1].

* ويتابعُ العقَّاد هذه الكلمات الخطرة الرهيبة المريبة فيقول: «وطفقَ ابنُ العاص ينعتُه بين أهل الشَّام بالهزل والدُّعابة، ويأمر بسبِّه على المنابر!!!!!! حتى وجب ردّه، وإدحاض زعمه. فقال رضي الله عنه في بعض خطبه: عجباً لابن النَّابغة[2]! يزعم لأهل الشَّام أنَّ فيَّ دعابةً وأني امرؤ تلعابة: أعانسُ وأمارسُ[3]. . . . لقد قال باطلاً، ونطقَ آثماً. أما ـ وشرّ القول الكذب ـ أنّه ليقولُ فيكذب!!! ويَعِدُ فيخلف!!! ويُسألُ فيبخل، ويخونُ العهد!!! ويقطعُ الآل[4]، فإذا كان عند الحربِ فأي زاجرٍ وآمرٍ هو ما لم تأخذ السّيوف مآخذها، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنحَ القوم سبّته!!! أما والله إنّي ليمنعني من اللعب ذِكْرُ الموت، وإنّه ليمنعه من قول الحقّ نسيان الآخرة، إنّه لم يبايعْ

---

(1) العبقريات الإسلامية (ص ٦٧٠) وأتركُ للقارئ الحصيف المنصف أنْ يحكمَ على هذه الافتراءات بنفسه، بعد أنْ يقيسها بمقياس العلْم وميزانه.

(2) «النّابغة» هي أمّ سيّدنا عمرو بن العاص وهي من بني عنَزَة (الإصابة ٣/ ٢). وقال ابنُ عبد البرّ رحمه الله: «أمّه: النّابغةُ بنت حرملة، سُبيت من بني جلان بن عنَزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وأخوه لأمّه: عمرو بنُ أثاثة العدويّ كان من مهاجرة الحبشة؛ وعقبةُ بنُ نافع بن عبد قيس بن لقيط بن بني الحارث بن فهر، وزينبُ بنتُ عفيف بن أبي العاص. أمّ هؤلاء وأمّ عمرو واحدة وهي بنت حرملة سُبيت من عنزة» (الاستيعاب ٢/ ٥٠١). أقول: «إنَّ سيدنا علياً رضي الله عنه أبو الذّوق والأدب والأخلاق، ويستحيل أنْ يُعيّر صحابياً بأمّه، مع العلْم أنَّ رسولَ الله ﷺ قال عن عمرو: «إنْ عمرو بن العاص من صالحي قريش». (التّرمذي برقم ٣٨٤٥).

(3) «أعانسُ وأمارسُ»: المعانسة: مضاربة النّاس مزاحاً ومغازلة النّساء.

(4) «الآل»: القرابة والرحم.

معاوية حتّى شرط أنْ يؤتيه آتية[1] ويرضخ[2] له على ترك الدين رضيخة»[3].

* وعندما يتحدّثُ العقّاد عن سيّدنا معاويةَ وأبي ذرّ رضي الله عنهما يتحدّثُ بطريقةٍ ملتويةٍ لا تليقُ بمقام هذين الصَّحابيين الكريمَيْن، بل نشعرُ بأنَّه يتحدَّثُ عن مشهدٍ من فِلْمٍ ينتهي بانتصار بطل المشهد فيقولُ ما مفاده: «. . . وأرسل معاويةُ إلى أبي ذرّ ألف دينار يسكتُه بها إنْ كان ممّن يسكتهم الغنى عن الأغنياء. . . . وعلمَ معاويةُ أنَّ الرَّشْوة هنا لا تغني عن القَسْوة، وكتب إلى الخليفة أنَّ أبا ذرٍّ أعْضَلَ به، فلا طاقة له بالصَّبر عليه، فأتاه الإذنُ بنفي أبي ذرّ من الشَّام إلى المدينة، ثمّ ضاقت به المدينة أيضاً، فَنُفِيَ إلى قريةٍ من أرباضها حيث لا يُسْمعُ له دعاء!!! . . . . والتفَتَ معاوية إلى مَنْ سمَّاهم أهلَ الفتنةِ من طلّاب الإصلاح والتّبديل، فكتب في أمورهم إلى الخليفةِ يقول: «إنَّه قدم على أقوامٍ ليستْ لهم عقولٌ ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيءٍ ولا يتكلّمون بحجّة!!! إنّما همّهم الفتنة وأموال أهل الذّمة!!! واللهُ مبتليهم ومختبرهم ثمّ فاضحَهم، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم. . . . ثمّ أخرجهم من دمشقَ إلى غيرها مستريحاً منهم بالنَّفي والإقصاء، كأنّما دمشقُ وحدها من بلادِ المسلمين هي التي ينبغي لها أنْ تستريحَ»[4].

* وإنّك لتعجبُ عزيزي القارئ من العقّاد حينما يتحدَّثُ عن المرأةِ وعن رأي سيّدنا عليّ رضي الله عنه فيها فيقول: «خلاصة رأي الإمام في المرأةِ أنّها شرّ كلّها، وشرّ ما فيها أنّه لابدّ منها». ثم يتصرّف العقّاد بالكلامِ وحده في ميدان خالٍ من فرسانِ الكلامِ والعلْمِ والفقْهِ ويقول عن سيدنا عليّ ما نصُّه ورسْمُهُ: «وقد كانت ميوله نحوَ المرأةِ قويةً، كما يَظْهرُ من غير حادث واحد، ومن ذاك صبيّة السَّبيِّ التي استولىٰ عليها وبنىٰ بها لساعتها، وجعلها قَسَمه من

---

(١) «آتية»: الآتية: العطية.

(٢) «يرضخ»: الرضيخة: العطيّة مع قلّة.

(٣) العبقريات الإسلامية (ص ٦٧٤).

(٤) العبقريات الإسلامية (ص ٦٨٢) بتصرف واختصار يسيرَيْن.

الخمسِ قبل تقسيمه، فرأى بعضُ أصحابه في ذلك ما شكوه إلى النَّبيِّ عليه السَّلام من أجله، وربّما كان هذا سبب تحذيره منها في الغزوات خيفةً على الجيش من شواغلها، فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا شيَّعها: اعزبوا عن النِّساء ما استطعتم، ويُوصي في أمثال هذه المواطن باجتنابها»[1]!!!...

* ولا ندري في الحقيقة منْ أين هبطَتْ هذه العبقريّة الفذّة المتميّزة على العقَّاد، فصاغَ من خلالها عبقريَّة عليّ صياغة لا تخضعُ إلى الأصول ولا إلى المصادر الموثوقة!! بل فيها شيءٌ من الاستبداد بالرَّأي، والتَّسلُّط بالأحكام التي يصدرها، ويرغم النَّاس علىٰ قبولها دون مناقشة أو حوار.

* وإذا تابعنا حديث العقّاد عن المرأة نجده يتّهم سيّدنا عليّاً رضي الله عنه بأنّه قد لقَّح بعضَ أفكاره وكلماته بآراء مَنْ لا يدينون بالإسلام، ومن ثم اتّحدت آراؤه مع نَسْجِ فلسفاتِهم التي لا سُوقَ لها، ولا دعائمَ، ولا أُسُسَ، فيقول: «على الجملة، يمكن أنْ يُقال إنَّ آراء الإمام في المرأة هي خلاصةُ الحكمةِ القديمة كلّها في شأن النّساء؛ فهنَّ شرٌّ لابدَّ منه باتِّفاق آراء الأقدمين، سواء منهم حكماء الهند، واليونان، أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدّين من أبناءِ بني إسرائيل، وآباء الكنيسة المسيحيّة، وأئمة الإسلام، لأنّهم كانوا جميعاً يمزجونها بالشَّهوات التي تثيرها عامدة أو غير عامدة، ويلقون عليها تبعة الشّرور التي تنجمُ عنها بمكيدتها، أو على الرّغم منها...»[2].

* وأنت ترى أنَّ هذا الكلام وهذه الآراء بعيدة كلّ البعد عن شخصيّة سيّدنا عليٍّ ولا تنطبق علىٰ سلوكه، وهذه الكلمات لا تمثّلُ سوى رأي العقّاد وحده، ورأى بعض من نهجَ نهجَه في الكتابةِ عن سيّدنا عليّ، ولم يَرْعَ حدود الأدب والأصول في الحديث عن الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، بل أخذ يتحدَّثُ عن

---

(١) العبقريّات الإسلاميّة (ص ٧٦١)! أقول: «متى شيّع سيّدنا عليّ جيوشاً للفتح؟!».

(٢) العبقريّات الإسلاميّة (ص ٧٦١). أقول: «نسي العقّاد أنَّ فاطمة الزَّهراء أطهر نساء العالمين، وسيّدة من سيّداتهنَّ كانت زوجة علي رضي الله عنهما، كما أنّها ابنة سيّدنا رسول الله ﷺ»

كبراء الصَّحابة ويطعنُ فيهم بِجُمَلٍ برّاقة، وعبارات ممطوطة مزجها بحلو التّعابير السّينمائية، والتّقديم والتّأخير، والتّنميق والتّشويق، وما شابه ذلك، دون وضْع القواعد الصَّحيحة في رسم الشَّخصيَّات التي يتحدَّث عنها. وفي الفقْرات الآتية نطَّلعُ على نماذج من الكلمات التي نمَّقها «خالد محمد خالد» صاحب كتاب «خلفاء الرّسول» ووصف من خلالها كبار الصَّحابة بعدم الورع، والتَّلاعب بأموال المسلمين وعقولهم؛ وقد تلاعب هذا الكاتب أيضاً بالكلمات والعواطف، ونسي أنّه أمام ثلّة مباركة من أصحابِ رسول الله ﷺ ومن خواصّه الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

* ويُحْسُنُ بنا أنْ نذكّرَ القارئَ المنصفَ مرّةً أخرى بأنّنا لا نريدُ أنْ ننتقصَ فُلاناً وفُلاناً، أو أنْ نُعرّض بهذا وذاك، أو أنّنا نزعُمُ أنّا بلغنا السُّها في ترجمةِ شخصيَّات الصَّحابة... لا؛ بل هدفنا هو مرضاة الله عزَّ وجلَّ، وإبراز أوضح الصّور وأبهاها وأصدقها للصَّحابي الذي نترجمُ له، مع ذكْر المصادرِ التي استقينا منها مادَّتَنا العِلْميّة. كما أنّنا نذكِّرُ القُرَّاءَ الأحبابَ بأنّا بَشَرٌ نُصيبُ ونخطىءُ ولَسْنا معصومين عن الخطأ، ونشكرُ كلَّ مَنْ يرشدُنا إلى أي هفْوة، ويدلُّنا على أي غَلَطٍ قد نَقَعُ فيه، فالكمالُ لله وحده، ونرجو اللهَ أنْ يهدَينا سواءَ السَّبيل، وأنْ يهدينا إلى الحقِّ أينما كان، وإلىٰ أهل الحق أينما كانوا.

* لا أودُّ أنْ أطيلَ على القارئَ في هذه الفقرة، إذْ إنَّني سأكتفي بِذكْر بعض الكلماتِ والعباراتِ التي ذكرها «خالد محمّد خالد» في كتابه «خلفاء الرّسول» وعرّض فيها ببعض الصَّحابة الكرام، حتَّى نرى جميعاً وندرك أيّ اتّهام أَلْصَقَه بأكثرَ من صحابي كريم؛ وكيف كان يسخِّر الكلمات الطَّنّانة ليسْخَر من خلالها بطريقةٍ ضبابيةٍ ملتويةٍ، ونحنُ من خلال ذلك نسألُ اللهَ العليَّ القديرَ أنْ يتغمدنا برحمته، وأنْ يتجاوزَ عن خطايانا، وأنْ يلهمنا الرُّشْدَ والصَّواب، لنتأدبَ مع الصَّحابة الأحباب، ليدخلنا ربّنا بمعيتهم الجنّة بغير حساب.

* من أمثلةِ الكلماتِ الرّنّانة والعبارات الطَّنَّانة التي تَلاعَبَ فيها صاحب كتاب «خلفاء الرّسول» وفيها تعريضٌ بالصَّحابة الأماجد ما عدا سيّدنا عليَّ بن

أبي طالب رضي الله عنه قوله: «لكَ اللهُ أبا الحسن. . أتُراكَ قد كُتِبَ عليك أنْ تقاتلَ بشرفٍ، في معركةٍ كان الشَّرفُ عنها غائباً؛ وفيها غريباً»[1]!! وكذلك قولُه: «الواضحُ أنَّ معاويةَ بصياحهِ ذاكَ لم يكن يريدُ سوىٰ إحراجِ الإمامِ، وتأليبِ الثُّوّار عليه، لم يكْفِهِ منهم أنَّهم قَتَلَةُ عثمان، فحاول أنْ يجعلَ منهم قَتَلَةَ عليّ أيضاً»[2]!!!!.

* وإنّا لنعجبُ من الأفكار «الخالديّة» والعباراتِ المرتجلةِ التي يزعمُ «خالد محمّد خالد» أنه يُعْلي من قَدْرِ سيّدنا علي خلالَها، ويجعلُ معاويةَ رضي الله عنه والخوارجَ معاً في نَسَقٍ واحدٍ فيقول: «وبهذه البطولة الشَّهمة العادلة، سيخوضُ قتالَه مع معاويةَ ومع الخوارجِ»[3]!!!؟؟!!!.

* ولا ندري مِنْ أين هبطَتِ الفُتُوحاتُ الفكريّةُ على صاحبنا الذي لم يحسنْ تفصيلَ الأثوابِ على أصحابها، وطفقَ يُلبِسُ ثوبَ هذا لذاكَ، من دون أنْ ينظر إلىٰ النِّهاية، أو إلىٰ مدلول كلماته التي تزرع الشَّك في النُّفوس تجاه سيّدنا أبي بكر الصّدّيق، وكذلك تجاه سيّدنا عليَّ رضي الله عنهما؛ فيقول: «فعندما بُويعَ الصِّدّيق أبو بكر رضي الله عنه بالخلافةِ، استأخرت يمينُ الإمام عليّ عن البيعة. . . »[4]!؟!!؟.

* ويعللُ عدم البيعةِ للصّدِّيق تعليلاً مزاجيّاً وصبيانيّاً فيقول: «فهو إذن يرى ـ أي عليّ ـ، بل يعتقدُ أنّه ما دام الرّسول عليه السّلام لم يعهدْ بالخلافةِ لأحدٍ بذاته، فإنَّ البيت الذي اختارتْه السَّماء ليكونَ منه النَّبيّ المصطفى، هو البيتُ الذي يختارُ منه المسلمون خليفتَهم، ما دام في هذا البيتِ مَنْ يتمتَّعُ بالكفايةِ الكاملةِ لشغلِ منْصِبِ الخلافة. . . . »[5]!؟!؟!!!.

---

(١) خلفاء الرّسول (٤٨١) دار الشّروق ـ بيروت ـ ١٩٧١ م.

(٢) خلفاء الرّسول (ص ٤٦٨). وانتبهوا إلى قوله: بصياحه؛ وقوله: وتأليب الثّوار عليه!!

(٣) المرجع السّابق (ص ٤٢٦) وأرجو التركيز علىٰ كلمة: سيخوض!!.

(٤) خلفاء الرّسول (ص ٤٣٢). ولاحظوا هذه المصيبة: استأخرت يمين الإمام عليّ عن البيعة.

(٥) خلفاء الرّسول (ص ٤٣٢).

* ما شاء الله!! إنَّ صاحبَنا بأفكارِهِ «الخالدية» يتخطّىٰ ما تواترَ في المصادرِ الموثوقةِ التي تؤكّد على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ويصنعُ في معاملِ خياله ما يروقُ له وحده، وينسجُ كلاماً يخالفُ المنقولَ والمعقولَ، ولا يُلقي بالاً لأحدٍ، أصلَحنا اللهُ وإيّاه وهدانا للحقّ.

* ويقول عن سيّدنا عليٍّ وهو يشهدُ معركةَ الجمل: «ومع كلِّ رأس يميلُ، أو معصم تُبْترُ، أو ساق تُقطعُ، بل مع كلِّ قطرةِ دمٍ تسيلُ، كان قلبُ الإمام ينخلعُ ويذوبُ، لقد كان يُسْكِرهُ الكرُّ والفرُّ في صِراعهِ مع المشركين....»[١].

* وفي الموضوع ذاته يقول: «..... ورأىٰ الإمامُ أنَّ خصومَه قد اتّخذوا من الجمَل كعبةً أحاطوا بها»[٢]!!؟!!!.

* وفي كلامٍ كان في غنىً عنه يقولُ عن سيّدنا عليٍّ ومعاويةَ رضي الله عنهما من تعليقٍ على رسالةٍ من معاويةَ إلى عليٍّ عليهما سحاباتُ الرضوان: «بل وضعَ اسمَه واسمَ أمير المؤمنين في مقابلةٍ تومىءُ إلى التّنابز القبليّ والجاهليّ في هذا الخطاب!!!...!!! فكأنَّه يقولُ له: أنا ابنُ أبي سفيان... وأنتَ ابنُ أبي طالب... وسننظرُ أي الابنَيْن أعلىٰ مقاماً، وأشدُّ ساعداً»[٣]!!؟؟!!

* ويقولُ: «أكانت آيةُ ولائهِ وحبِّه لعثمانَ، أنْ يجعلَ من قميصهِ المضمّخ بدمه رايةً يبعثُ تحتَها كلَّ غرائز الجاهليّة، ويديرُ تحتها أتعسَ حربٍ أهليّة تزلزلُ الإسلام وتفني المسلمين؟ مرّةً أخرى، يغفرُ اللهُ لمعاويةَ، فما كان أغناهُ عن هذا المنزلقِ الوعر، والهوة الفاغرة»[٤]!!!...!!!

---

(١) خلفاء الرّسول (ص ٤٥١)، وأكّد على قوله: «يسكره الكرّ والفرّ وكذلك: صراعه مع المشركين.»!!؟!!!.

(٢) خلفاء الرّسول (ص ٤٥٣). وأمعن النظر في قوله: «اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها»!.

(٣) خلفاء الرّسول (ص ٤٥٧)، ولاحظ قوله: «التنابز القبلي والجاهلي...»!!

(٤) خلفاء الرّسول (ص ٤٥٨). ونحن نقول: «كنّا نتمنى لهذا الكاتب ألا ينزلق هذا المنزلق وراء الغرائز الخالدية».

* ويقولُ ويقولُ ولا ندري ما الهدفُ ممَّا يقولُ؛ ولا الهدفُ من الموازنةِ التي لم تعتمدْ على مصدرٍ ذكَره لنا عمّا يقول: «معاويةُ بالشَّام يحضُّ النَّاسَ على سبِّ الإمام وشتمِه، والإمامُ بالكوفةِ ينهى في حسمٍ وقوةٍ عن سبِّ معاويةَ... معاويةُ بالشَّام بين القصورِ الباذخةِ، والمطاعمِ الرَّافهةِ، والأموالِ التي تأتي بغيرِ حسابٍ، وتنفقُ في خدمةِ طموحِهِ بغير حساب»[1]!!!؟!!!

* وهذه خدمةٌ «خالديةٌ» مجانيةٌ يسخو بها على القُرَّاء دون رسومٍ أو فوائدَ فيقولُ متسائلاً: «تُرىٰ لو لم يتبوأْ عليٌّ منصبَ الخلافةِ، أكان معاويةُ سيحمّلُهُ دَمَ عثمان؟ كلا، وإنّما سيتّجه باتّهامِهِ إلى الخليفةِ الآخر، إلاّ إذا كان ممّن يرضىٰ عنهم معاويةُ، ويطمعُ في طيّهم تحت جناحَيْه. لقد كان معاويةُ من الذَّكاء بحيثُ أدركَ مصيرَهُ مع عليٍّ وقد أصبح خليفةً للمسلمين. من أجلِ هذا قرَّرَ أنْ يخوضَ معركةَ المصير... مصيرهُ هو... لا مصير حقّ ضائعٍ، ولا مصيرَ عدالةٍ مغموطة، ولا مصيرَ دمٍ مطلول. ومرّةً ثالثة، يغفرُ اللهُ لمعاوية، فما كان ينبغي له أنْ يستخفَّ بمصايرِ الإسلام وبمقاديرِهِ إلى هذا المدى، وإلى تلك الغاية»[2].

* وهذه كلمةٌ خطيرةٌ كنّا نرجو ألا يتحدّثَ بها هذا الرجل الذي أحبَّ النَّاسُ كُتبَهُ في بعضِ الأقطار، وقلَّدها كثيرون لسلاستِها، يقول: «أو لا يعلمُ أميرُ الشَّام أنَّه يعيشُ في دولةٍ عظمىٰ، وهي وحدها المسؤولةُ عن فرض كلمةِ القانون»[3]!!؟!!..

* ومثل هذه الطَّامات والتَّقوّلات كثيرةٌ كثيرةٌ في هذا الكتاب، وفي سابقِهِ، وقد سبقهما[4] ولحقهما وواكبهما بعض من استهوتْهم طريقتَهما،

---

(١) المرجع السّابق (ص ٤٦١).
(٢) خلفاء الرّسول (ص ٤٦٥ و٤٦٦).
(٣) خلفاء الرّسول (ص ٤٦٧).
(٤) من هؤلاء: طه حسين، وإبراهيم الأبياري، وجورجي زيدان.... وغيرهم ممن تمادوا وأسرفوا.

فأبعدوا النَّجعة، وأغربُوا، نسألُ اللهَ اللطف، ونسأله أنْ يلهِمَنا طريقَ الصّدق، وأن يعلّمنا ما ينفعنا في الدِّين والدُّنيا، وأنْ يكرمَنا بحبِّ الصَّحابة الذين ساروا على خُلقِ سيّد المرسلين، وتربُّوا في مدرستِهِ الطّاهرة.

* كما نسألُ الله تعالى أنْ يسدِّدَ كلماتِنا وأفعالَنا وكتاباتنا، فلا نتحدَّثُ عن الصَّحابة إلّا بكلِّ خيرٍ وفضل، إذ حظيَ أسيادُنا هؤلاء بالثَّناء من اللهِ عزَّ وجلَّ، ومن حبيبِنا رسولِ الله ﷺ.

* ويمكنني أنْ أقولَ الآن بوضوح: «إنَّ الصَّحابةَ قد اختلفَوا في وجهاتِ النَّظر، وقد اقتتلُوا، وما كان أحدهُم يرجو جاهاً ولا زعامةً ولا منصباً ولا غايةً، فهم خيرُ القُرون بشهادةِ سيّد الخَلْقِ ﷺ، وهم أطهرُ النَّاس، وأحسنهم، وأصفاهم سريرةً وأصدقهم علانيةً، فلا يجوزُ لأحد أنْ يقدح بهم، أو أنْ يسبَّهم، فهذا الطَّريق ـ طريق القدح والشَّتائم ـ طريقٌ وعْرٌ مهلِكٌ، وليس من الأدب أن أسبَّ أحداً، بل إنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه وكذلك رجال أهل البيت لا يرضون بهذا الخُلُق، وبهذه الأعمال التي لا تُرضي أحداً، نسأل اللهَ المغفرةَ واللطف.

أدبيّاتٌ مُونقةٌ في مَحبّة أهْلِ البيتِ:

* يشملُ مفهومُ أهلِ البيت مَنْ حُرموا الصَّدقة وهم آلُ عليّ، وآلُ جعفر، وآلُ العبّاس[1]، بالإضافةِ إلىٰ نساء النَّبيّ ﷺ، ولهم أحكامٌ تكفّلَتِ كتب الفقْه والعلْم بذكْرِها، وقد ذكرنا شيئاً منها في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث».

* وفي هٰذا المقام نقصد بالأدبيّاتِ والأشعارِ ما تندّتْ عنه قرائحُ البلغاء الذين قصدوا سيّدنا عليّاً، وفاطمةَ، وحَسناً، وحُسيناً دون أنْ يغمطوا حقَّ مَن ذكرناهم آنفاً.

---

(١) انظر بتوسع صحيح مسلم، حديث رقم (٢٤٠٨) وشرحه.

* كلُّنا يدرك أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه وأرضاه قد تبوّأَ عند الصَّادقِ الأمينِ ﷺ مكانةً باسقةً، ومنزلةً سامقةً، لكثرةِ مناقبهِ، وجليلِ أعمالهِ، ولطيفِ خصالهِ، ناهيك بقرابتِهِ من الحبيبِ الأعظمِ رسولِ اللهِ ﷺ ومصاهرته إليه.

* ومنْ أبلغِ ما يُستدلُّ به على سموّ مكانتِهِ وعلوها في نفسِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ أنّه ارتضاهُ زوجاً لسيّدتنا فاطمةَ الزّهراء سيّدة نساء أهل الجنّة، وأحبّ أهل البيتِ إلىٰ الحبيبِ الأعظمِ ﷺ، فأصبحَ سيّدنا عليٌّ صِهْرَ رسولِ اللهِ ﷺ، وفتىٰ أهلِ البيتِ وفارسهم وعالمهم، ولمّا نزل قول الباري عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾[آل عمران: ٦١] دعا الصَّادق المصدوق ﷺ عليّاً وفاطمةَ وحَسناً وحُسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي» وأخذ رداءه الشَّريف، فوضعَه عليهم وتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣]، ثمّ إنّه ﷺ قال: «هؤلاء أهلُ بيتي[1]».

* إنَّ حبَّ هؤلاء الأطهار الأخيار، يصقلُ النُّفوسَ والطِّباع، ويهذّبُ المتأدّبين، ويؤنسُ الكاتبين:

فَحبُّكُـمُ أنْسـي ورَاحـي وعصْمَتـي ... علَيـهِ مـدىٰ الأيّـامِ أطْـوي وأنشُـرُ

* نعم إنَّ حبَّهم زينةٌ وأنسٌ ونعمةٌ كبرىٰ:

جعلـتُ خـاتمـةَ الأعمـالِ مَـدْحَهـم ... فثقَّـلَ اللهُ ميــزانــي بمــدحِهِــم

* وقد تسابقَ أربابُ البلاغةِ واللَسنِ من كُتّابٍ وشعراءَ وفصحاءَ وألبّاءَ في نَشْرِ محاسن أهل البيتِ بأجمل الألفاظ وأبدعها، وأرقّ المعاني وأرفعها، وتألّقوا بأدبهم فألقوا حبَّ آل النّبوّة في أعماق القُلوب، بما ابتكروه من مدائحَ تقرّبُوا بها لعلّام الغيوب.

* وممَّنْ أبدعَ في مدحِ أهلِ البيتِ، وتأنَّق في كلماتِهِ ومعانيه أبو عبد الله بن الأبار في كتابه المسمّىٰ «درر السَّمط في خبر السَّبط» إذا قال رحمه الله:

---

(١) انظر جميع التَّفاسير وأسباب النزول للآية (٦١) من سورة آل عمران.

«رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ، فروع النُّبوّة والرّسالة، وينابيع السَّماحة والبساطة، الذين حبَاهم الرّوحُ الأمين، وحلاّهم الكتابُ المبين، فقُل في قوم شَرعُوا الدّين القيّم، ومنعوا اليتيمَ أنْ يُقْهَرَ والأيّم، لولاهم ماعُبِدَ الرّحمن، ولا عُهِدَ الإيمان، وعُقدَ الأمان، ذؤابة غير أشابه، فضلهم ما شانَه نَقصٌ ولا شَابَه، سرارة محلّتهم سرّ المطلوب، وقرارة محبّتهم حبّات القلوب، أذهبَ اللهُ عنهم الرّجس، وشرّف بخلقهم الجنْس، فإنْ تميّزوا فبشريعتهم البيضاء، أو تحيزوا فلعشيرتهم الحمراء، من كلّ يَعْسُوب الكتيبة، منسوب لنجيب ونجيبة، نِجاره الكرم، وداره الحرم، نَمَتْه العرانين من هاشم إلىٰ النَّسب مغرسها سُرّة الأبطح، أولئك السَّادة أحيي وأفدي، والشَّهادة بحبِّهم أوفي وأؤدي، ومن يكتمها فإنَّه آثمٌ قلبه»(١).

* وهٰذه بديعةٌ من بدائع القوافي النّاطقةِ بحبِّ أهل البيت الأطهار الأبرار، تحملُ الثَّناء من روضِ الألفاظِ المعطار، وهي ميميّةٌ رائقةٌ تحكي ضوء الشَّمس في رائعة النَّهار:

في الحبِّ قالُوا حَليف القومِ حلْفهم فَيالَها تهمةٌ مِنْ أحسنِ التُّهم
أجيادُ أبكارِ أفكاري بِذكرِهم وشّحتُها بلآلي النَّظمِ والكَلم

---

(١) انظر: نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب (٤/ ٥٠٠) بتصرُّف يسير. ومن أجمل العبارات الغنية بالصِّدق وجمال الخطاب ماقاله يحيىٰ بن معاذ الرَّازي المتوفىٰ سنة(٢٥٦ هـ) لرجالِ أهلِ البيتِ في عصره، إذْ سأله ذلك الرّجل: «ما تقولُ فينا أهل البيت»؟
قال يحيىٰ: «وما أقولُ في غَرْسٍ غُرِسَ بماءِ الوحي، وطينٍ عُجِنَ بماء الرّسالةِ، فهل يفوحُ منهما إلا مسْكُ الهدىٰ، وعنبرُ التّقىٰ»؟!
فقال الرجلُ: «أحسنتَ» وأمرَ أنْ يُحشَىٰ فمه درّاً. ثمّ إنَّ الرَّجلَ زارَ يحيىٰ بنَ معاذ من غدهِ، فلمّا دخلَ علىٰ يحيىٰ.
قال له يحيىٰ: «إنْ زُرتنا فبفضْلِكَ، وإنْ زُرناك فلفضْلِكَ فَلَكَ الفضْل زائراً ومزوراً».
أقول: «الحقيقةُ إنَّ هٰذا الكلام ذروةُ الأدب، ولُبُّ الفصاحة، وعينُ البلاغة، وعرفانٌ لِقَدْر رجال أهل البيت في كلّ عصرٍ ومصر، رضي الله عنهم وحشرنا في معيتهم».

لا أكتمنَّ عن اللوّامِ حُبّكم ... وليسَ عند العُلا أمري بمكتتم
همُ الكرامُ الأُلىٰ جلَّتْ مراتبُهم ... وإنّما جلّت العليا بمدحِهم
قد خصَّهم ذو المعَالي حينَ أنشأَهم ... بالعِلْمِ والحِلْمِ والإحسَانِ والكرم
تروي الرّياضُ الشَّذا والابتهاجَ لنا ... عن جنَّةِ الخُلدِ عن أزهارِ خلْقِهم

* وفي الرّحلةِ الأدبيّةِ في أفياءِ المديحِ لأهلِ البيتِ نستروحُ هٰذه النّفحة؛ ونستنشقُ شذاها:

ماذا أقولُ بفضلِهم ... وبفضلِهم باهىٰ الجَليل
إنَّ الفضَائلَ عدُّها ... مثل الزَّواهر مستحيل

* لقد استولىٰ حبُّ أهل البيت علىٰ المشَاعر والقلوب، حتىٰ غدا حبُّهم ميزانٌ ودِيْن:

وحبُّهم دِينٌ قويمٌ ورحمةٌ ... وروحٌ وريحانٌ وفوزٌ ومتْجَرُ
وبغضهم كفْرٌ وجحدٌ وجراةٌ ... وبغيٌ وعدوانٌ وقبحٌ ومنكرُ

* ومن هٰذا المنطلق قال الشَّيخ عبد الوهَّاب الشَّعْراني: «وما أحسنَ ماأوردَهُ الشَّيخ الأكبرُ في الفُتُوحات:

فلا تَعْدِلْ بأهلِ البيتِ خَلْقاً ... فأهلُ البيتِ هم أهلُ السِّياده
فبغضهمُ من الإنسَانِ خُسْرٌ ... حقيقيٌ وحبُّهمُ عبادَه»[1]

* وهٰذه رائيةٌ بمدحِ أهلِ البيتِ مُضَمَّخَةٌ بالطِّيْب، وهي ألذُّ من الصِّبا الغَضِّ الرّطيب، صاغَها ناظمُها ووَرَدَ معينَ البلاغة، وطرقَ أنواعَ محاسنِ المدح في الصّياغة، فقال واصفاً مادحاً محبّاً صبّاً:

سَلامٌ علىٰ آلِ النَّبيّ محمّد ... ورحمةُ ربيّ دائماً أبداً تجري
وصلّىٰ عليهم ذو الجلالِ معظّماً ... وزادهم في الفضْل فخراً علىٰ فخري
فهم خيرُ خلْقِ اللهِ فضْلاً ومحتداً ... وأتقاهُم للهِ في السِّرِّ والجهرِ

(١) نور الأبصار (ص ١٢٨) شركة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأخيرة ١٩٤٨ م.

وأشجعُهم في النَّازلات وفي الوغىٰ وأجـودُهـم للهِ فـي العُسـر واليُسـرِ
أناسٌ عَلوا كلَّ المعَالي بأسرها فدقَّتْ معانيهم علىٰ كلِّ ذي فكر

* وهـٰذه قصيدةٌ تناجي الضَّمائر، وتجلوها للألباب كما تُجلىٰ الحرائر، عارض ناظمها بحتريّ المشرقِ؛ وبحتريّ المغربِ في الوزن والقافيةِ، فجاءت بأدب زهرته وافية:

آل النّبـيّ وجَـدْنـا حبَّكـم سبباً يـرضىٰ الإلـٰهُ بـهِ عنّـا ويُـرضينـا
فمـا نخـاطبكُـم إلّا بسـادتنـا ولا نُنـاديكـمُ إلّا مـوالينـا
وكـمْ لنَـا مـن فَخـارٍ فـي مـودّتكـم يـزيـدُهـا فـي سـواد القلْـبِ تمكينـا
إنْ أَجْرِ في مدحكم جَرْيَ الجوادَ فقد أضحتْ رحابَ مساعيكم مَبادينا
وكيـفَ يعـدوكـمُ شِعْـري وذكـركـمُ يـزيـدُ مستحسـنَ الأشعـار تمكينـا

* ولعلَّ مادحي أهل البيتِ لم يدعوا شاردةً ولا واردةً إلا صاغوها في هـٰذا المضمار اللطيف، فهاهو ذا أحدهم يتساءل:

مَـنْ ذخـرهُ ومـالُـه وفـي الـورىٰ جمـالُـه
محمّـدٌ وآلـه كيـفَ تسـوءُ حـالُـه؟

* وآخر يرىٰ في هـٰذا البيت الطَّاهر هـٰذه الرّؤية المتألقة النّاعمة نعومة صباحٍ ربيعي يدغدغُ وَرْدَهُ وزَهْره ليفيقَ من غفوته، ويسبّح خالقه، فيقول:

آلُ النَّبـيّ محمّـد أهـلُ الفضـائـل والمنـاقـب
الصَّـادقـون النَّـاطقـو ن السَّـابقـون إلـىٰ الـرَّغـائـب

* وآخر يسوقُ هـٰذه الهمسَات الحانية، والمعاني الهامية:

بـآلِ محمّـدٍ عُـرفَ الصَّـوابُ وفـي أبيـاتهـم نَـزَل الكتـابُ
وهـم حجـجُ الإلـٰهِ علـىٰ البـرايـا بهـم وبجـدّهـم لا يُستـرابُ

* وهؤلاء يجعلون الاقتباسَ من القرآن الكريم وسيلةً لمدحِ أهل البيت، فقال أحدهم:

إنّنـــي يـــا عتـــرةَ الهـــــادي وأبنـــاءَ النُّبـــوّة
أشتكـــي ضَعْفـــي إليكـــم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾[1]

* وقال الآخر مقتبساً:

يـاعتـرةَ المختـار حبّـي لكـم والحمـدُ لله عظيـمٌ عظيـم
أَحمـدُ مَـنْ قـدَّر لـي حبّكـم ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]

* وقال آخر:

مـديـحُ آلِ النَّبـيِّ عنـدي
خيـرٌ مـن اللهـوِ والتّجـارة
أنْجـو بهـم مـن عـذابِ نـارٍ
﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[3]

* ولغيرهم مقتبساً بعض الكلمات من سورة المُرسلات:

لـم أدخـرْ للحشْـر إلّا أنّنـي وَالَيْـتُ آلَ المصطفىٰ خيـر البشَـر
أرجـو النَّجـاة بحبِّهـم وولائهـم مـن حَـرِّ نـارٍ وهـي تـرمـي بـالشَّـرر

* وقد دعا العلماء والفقهاء إلىٰ وجوب محبّةِ أهلِ البيت الأطهار، ومنهم الشّافعي الذي قال منشداً:

يـا أهـلَ بيـتِ رسـولِ الله حبّكـمُ فـرضٌ مـن الله فـي القـرآنِ أنـزلَـهُ
يكفيكـم مِـنْ عظيـمِ الفخـرِ أنّكـمُ مَـنْ لَـمْ يُصَـلِّ عليكـم لا صـلاةَ لَـه

* واشتهر هٰذان البيتان شهرةً عظيمةً، وأُغْرِمَ بهما كثير من الأدباء، فطفقوا يشطّرون ويخمسون فيهما بإعجاب كثير، وقد شطّرهما أحد الشُّعراء مادحاً أهل البيت أيضاً من خلال تشطيره:

---

(١) ﴿فأعينوني بقوّة﴾ اقتباس من سورة الكهف آية (٩٥).
(٢) اقتباس من سورة يٰس آية (٣٨).
(٣) اقتباس من سورة التحريم آية (٦).

[يا أهلَ بيتِ رسولِ الله حبّكم] حبّ الرّسولِ ومَنْ بالحقِّ أَرسَلَه
أَجْرُ الرّسالةِ عند اللهِ وِدّكم [فرضٌ منَ اللهِ في القرآن أنزله]
[يكفيكم منْ عظيمِ القَدْر أنكم] قد أكملَ الدّين فيكم يومَ أكْملَه
وأنّكم بشهاداتِ الصَّلاة لكم [مَنْ لم يُصَلّ عليكم لا صلاةَ له]

* وتناول بعضُ الشّعراء بيتي الشّافعي تناولًا لطيفاً، وعمد إلىٰ تخميسهما فقال مادحاً مفتخراً بأهل البيت الأطهار:

إليكمُ في جليلِ الأمرِ يُحتكمُ ومنكم فاضَ نورُ العدلِ والكرمُ
فكيفَ يهوىٰ محبُّ الحقّ غيركم [ياآلَ بيتِ رسولِ الله حبّكم
فرضٌ منَ اللهِ في القُرآن أنزلَه]
وإنْ تُفَاخِرْ بمجدِ عابرٍ أُممُ فإنّما مجدُكُم بينَ الورىٰ عَلَمُ
فيا حماة الهدىٰ أعلتهم الشّيم [يكفيكُم من عظيمِ الفَخْر أنّكم
مَنْ لم يُصَلّ عليكم لا صلاةَ له]

* وممّا أُنشِدَ في مدحِ أهل بيت النُّبوّة، أصحاب الكرم والفتوة، قول قاسم بن محمد الكستي، وذلك في شهرِ رمضانَ المبارك سنة (١٣٠٠ هـ):

يا آلَ بيتِ الوحي لولا أنّكم في الكونِ لمْ يظهرْ عليهِ جَمالُ
منْ أين يُوجد في الأنام كجدكم ونظيرهُ في العالمين محالُ

* وقوله في سنة (١٣٠١ هـ):

لكم يابني الزَّهراء حبّي مؤكّدُ ومبغضُكم من لذّة العيشِ يُحرمُ
فأنتم كنوزُ الكائنات وجدّكم علىٰ اللهِ من كلِّ الخَلائق أكرمُ

* وقوله في سنة (١٣٠٢ هـ):

ياآلَ بيتِ رسولِ الله إنَّ لكم جاهاً عظيماً له من جدّكم مددُ
يحظىٰ بما ترتجيهِ مَنْ يلوذُ بكم وليس يبغي عليه في الورىٰ أحدُ[١]

---

(١) موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي (٣/ ٤٤٦).

* ومن عيونِ الكلام، وكلامِ العيون، الذي فيه من الفقْهِ أسنىٰ الفُنون، ما مدح به الشَّيخ عبد الغني النّابلسيّ أهل البيت رضي الله عنهم فقال:

ألا يــا آلَ أحمـــدَ لا تُضَـامـــوا ... فـأنتـم أشـرفُ الأقـوام دِيْنـا
وأنتـــمْ ســـادةٌ عـــزٌّ كـــرامٌ ... إلـىٰ العليـاء كنتـم سـابقينـا
ثقُـوا بـالله مـولاكـم تَعَـالـىٰ ... لكـمْ قـد قَـالَ قُـرآنـاً مبينـا
سيخـزيهـم وينصـرُكـم عليهـم ... ويَشْـفِ صـدورَ قـومٍ مـؤمنينـا(١)

* أمّا المادحون لسيّدنا عليّ رضي الله عنه فيصعبُ أنْ تُحْصَرَ مدائحهم أيضاً، وقد تستوعبُ عشرات المجلّدات، وأنتَ تقرأ وتقرأ ولا تملّ من نشْرِ فضائله ومحاسنِهِ رضي الله عنه، وقد أبدع أَبْنَاءُ كثيرون في رسمِ معالم شخصيّته ومدحه بما فيه، ومن القوافي الماتعة هٰذه الرّائية البديعة:

إمـامٌ همـامٌ عـالـمٌ عـادلٌ فتـىٰ ... حكيـمٌ شجـاعٌ هـادمُ الشِّـرك قَسْـوَرُ
وقـد طلَّـقَ الـدُّنيـا ثـلاثـاً ولـم يُـرِدْ ... زَخَـارفَهـا الـلاتـي تغـرُّ وتمكـرُ
عَليٌّ عَلا أعلىٰ العُلا والعُلا عَلَتْ ... به وكذلك المجدُ بالمجدِ يفخرُ
لقـد عقمـتْ عـن مثلـهِ جملـةُ النِّسـا ... يقيناً كما عن شأنهِ القوم قصَّروا
مواقفُك العُليا بها الدهرُ شاهدٌ ... فمِـنْ بعضِهـا بَـدْرٌ وأحْـدٌ وخَيْبَـرُ
بِصـارمـكَ البتَّـار قَـدْ قُـدَّ مـرحـبٌ ... وعمـرو بـنُ ودّ والـوليـدُ معفَّـرُ

* وممّن تألّق في سرد فضائل سيّدنا عليّ وتأنّقَ؛ ومدَحَهُ وأبَانَ مناقبه ابن جابر الأندلسيّ الذي أنشأ قصيدةً داليةً غنيةَ المعاني في مدح الصَّحابة، وكان منها ما يختصُّ بسيّدنا عليّ رضي الله عنه قوله من قصيدةٍ طويلةٍ منها:

وإنّ عليّـاً كـان سيـفَ رسـولـهِ ... وصـاحبـه السّـامـي لمجـدٍ مشيَّـدِ
وصهـرُ النّبـيّ المجتبـىٰ وابـنُ عمّـه ... أبو الحسنَيْن المُحتوي كلَّ سُؤددِ

---

(١) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشّام ومصر والحجاز لعبد الغني النّابلسيّ (٣/ ٧٠ و ٧١) تحقيق رياض مراد ـ دار المعرفة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٨ م.

* ومنها قوله:

وَمَــنْ كنــتُ مــولاهُ علــيٌّ وليّــه ... ومولاك فاصدقْ حبَّ مولاك ترشدِ
وإنّــكَ منّــي خــاليــاً مــن نبــوّةٍ ... كهارونَ من موسىٰ وحسبُك فاحمدِ
وقــال غــداً أعــطِ اللــواء محبّبــاً ... إلـيَّ وللـرّحمن بـالنّصر مـرتـدي
فبــاتــوا وكــلٌّ يشتهــي أنْ ينــالهــا ... إلىٰ أنْ بـدا وجْـهُ الصَّباحِ المجوّد
فنــادىٰ عليّــاً ثــمَّ أبــرأَ عينَــه ... بنفـثٍ كـأَنْ لـم يمسِ قبلَ بـأرمـدِ
فــأعطــاهُ إيّــاهــا وقــال لــه ادعُهــم ... ومهمـا أبـوا فـانهـدْ إليهـم تـؤيّـدِ

* ومنها:

وكــان مــن الصِّبيــان أوّل ســابــقٍ ... إلىٰ الدِّين لم يُسبقْ بطائع مرشدِ
وجــاء رســولُ اللهِ مــرتضيــاً لــه ... وكــان عـن الـزَّهـراء كـالمتشـرّدِ
فمسَّــحَ عنــه التّــرب إذْ مسَّ جلــده ... وقــد قــام منــه آلفــاً للتّفــرّدِ
وقــال لــه قــولَ التّلطُّــف «قُــمْ أبــا ... تــراب» كــلامَ المخلـصِ المتــودّدِ
وفي ابنَيه قال المُصطفىٰ ذان سيّدا ... شبــابكــم فــي دارِ عــزٍّ وســؤددِ
وأرسلــه عنــه الــرّســولُ مبلغــاً ... وخُصَّ بهٰذا الأمرِ تخصيص مُفْردِ

* ومنها:

ومــازال صــوّامــاً منيبــاً لِــربّــهِ ... علـىٰ الحـقِّ قـوامـاً كثيـر التّعبّـد
لقــد طلّــق الــدّنيــا ثــلاثــاً وكلّمــا ... رآها وقد جاءتْ يقولُ لها ابعدي
وأقــربهــم للحــقِّ فيهــا وكلّهــم ... أولو الحقّ لكنْ كان أقرب مهتدي[1]

* إنَّ مادحي سيّدنا عليّ لايُحْصَون، ولا تتسعُ المجلَّدات لاستيعاب ما

(١) نفح الطِّيب (٧/ ٤٦٣ و ٤٦٤) بانتقاء واختيار. وفي مديحِ سيّدنا عليّ رضي الله عنه، يقولُ اليافعيُّ في «مرآته»:

ورابـع السّـادة المـولـىٰ أبـي حسـنٍ ... سيـف القضـاء وبحـر العلْـم زخّـار
ومعــدن الجــود والــدُّنيــا مطلّقهــا ... بتّـاً ثـلاثـاً فتـىً بـالفضـل مشهـار

(مرآة الجنان ١/ ١١٠).

فاضَتْ به قرائحهم بمدحِهِ وذكر فضائله ومكانته في رجال أهل البيتِ الأخيارِ الأبرارِ الأطهارِ، وقد حاولتُ أنْ أوردَ طاقاتٍ لطيفةً من مديحه، كلّها تذكر شمائله، وابتعدتُ عمَّن لزم المغالاة في مدحه. وما أجمل أن نوردَ ما قاله القحطاني في «نونيّته» عن سيّدنا عليّ:

واحفظْ لأهلِ البيتِ واجبَ حقِّهم ... واعرفْ عليّاً أيّما عرفان
لا تنتقصْهُ ولا تزِدْ في قَدْره ... فعليهِ تَصْلَىٰ النَّار طائفتان
إحداهُما لا ترضيهِ خليفةً ... وتنصُّه الأخرىٰ إلهاً ثاني

* وفي إيجاب ووجوبِ محبّةِ بني هاشم أهل بيت النَّبيّ ﷺ علىٰ جميع المؤمنين، يقولُ أبو بكر محمّد بن الحسين الآجري المتوفىٰ سنة (٣٦٠ هـ) في «كتاب الشَّريعة»: «واجبٌ علىٰ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة محبّة أهل بيتِ رسول الله ﷺ: بنو هاشم: عليُّ بنُ أبي طالب وولده وذريّتهما، وجعفرُ الطَّيّار، وولدهُ وذرّيتهُ، وحمزةُ وولده، والعبّاسُ وولدهُ وذريَّتهُ رضي الله عنهم، هؤلاء أهلُ بيتِ رسولِ الله ﷺ، واجبٌ علىٰ المسلمين محبّتهم، وإكرامهم، واحتمالهم، وحسن مداراتهم، والصَّبر عليهم، والدّعاء لهم».

* وقال ابنُ تيميَّة في «العقيدة الواسطيَّة» عن وجوب محبَّة أهل البيتِ: «ويحبّون أهل بيتِ رسولِ الله ﷺ حيث قال يوم غدير خم: «أذكّركم الله في أهل بيتي»».

* وممّا قاله ابنُ تيميَّة في وجوب محبّة سيّدنا عليّ رضي الله عنه: «والحبُّ لعليّ رضي الله عنه وتركُ قتاله خيرٌ بإجماعِ أهلِ السُّنّة من بغضه وقتاله، وهم متّفقون علىٰ وجوب موالاته ومحبّته، وهم أشدُّ النَّاسِ ذبّاً عنه، وردّاً علىٰ مَنْ يطعنُ عليه من الخوارج، وغيرهم من النَّواصب».

* ومن أقولِ الحافظِ ابن كثير في محبّة أهلِ البيتِ النّبويّ الطَّاهر، ما وردَ في التَّفسير له قوله: «ولا ننكرُ الوصاة بأهلِ البيت، والأمرِ بالإحسانِ إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنّهم من ذريةٍ طاهرةٍ من أشرفِ بيتٍ وُجِدَ علىٰ وجْهِ

الأرضِ فخراً وحسَباً ونسَباً، ولا سيّما إذا كانوا متّبعين للسُّنَّةِ النَّبويّة الصَّحيحةِ الواضحةِ الجليّةِ، كما كان عليه سلفهم، كالعبّاس وبنيه، وعليّ وأهل ذريّته رضي الله عنهم أجمعين».

* إنَّ الآثارَ والأقوالَ التي وردتْ في وجوبِ محبّة سيّدنا عليّ رضي الله عنه[1] كثيرةٌ منثورةٌ في بطونِ المصادر وثنايا المراجع، وقد أوردنا منها ما يبلّ الصّدىٰ ويوضّح الصُّورة، وسنختُمها بهـٰذه الفريدةِ الممتعةِ التي وافَانَا بها حبْرُ الأمّةِ وبحرها، التّلميذُ الذّكيّ الوفيّ لسيّدنا عليّ: سيّدنا عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه وأرضاه.

* روىٰ الطَّبرانيُّ عن رَبْعيٍّ بن حِراش أبي مريم الغطفانيّ الكوفيّ المُعَمَّر، أنَّه قال: «استأذنَ عبدَ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما علىٰ معاويةَ رضي الله عنه، وقد علقتْ عنده بطونُ قريش، وسعيدُ بنُ العاص جالسٌ عن يمينهِ، فلمّا رآه معاويةُ مقبلاً، قال: يا سعيدُ واللهِ لألقينَّ علىٰ ابنِ عبَّاس مسائلَ يَعْيَا بجوابها.

فقال له سعيدٌ: ليس مثلَ ابن عبَّاس يعيا بمسائِلك.

فلمّا جلسَ قال له معاويةُ: ما تقولُ في أبي بكر؟

فأجابَ ابنُ عبّاس وأجادَ، وسأله كذلك عن عمرَ وعثمانَ فكفىٰ ووفَىٰ... ووفّى وأوفى...

قال معاويةُ: فما تقولُ في عليٍّ بنِ أبي طالب؟

قال: رحمَ اللهُ أبا الحسن، كان واللهِ عَلَمَ الهدىٰ، وكهفَ التّقىٰ، ومحلَّ الحجا، وطودَ البَها، ونورَ السّرى في ظُلَمِ الدُّجىٰ، داعياً إلىٰ المحجّة العظمىٰ،

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في «التّفسير»: «قد غَلَبَ في عبارةِ كثيرٍ من النُّساخ للكُتُب، أنْ يفرد عليّ رضي الله عنه بأنْ يقال: «عليه السّلام»، من دون سائر الصَّحابةِ، أو «كرمَ اللهُ وجهه»، وهـٰذا وإنْ كان معناهُ صحيحاً، لكنْ ينبغي أنْ يُساوىٰ بين الصَّحابة في ذلك، فإنَّ هـٰذا من باب التّعظيم والتّكريم، فالشّيخان وأمير المؤمنين عثمان أولىٰ بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين. (تفسير ابن كثير ٣/ ٦٣٥).

عالماً بما في الصُّحفِ الأولىٰ، وقائماً بالتّأويل والذّكرىٰ ، متعلّقاً بأسباب الهدىٰ، وخيرَ مَنْ آمن واتّقىٰ، وسيّدَ مَنْ تَقَمَّصَ وارتدىٰ، وأفضلَ مَنْ حجَّ وسعىٰ، وأسمحَ مَنْ عدَلَ وسوّىٰ، وأخطبَ أهلِ الدّنيا إلا الأنبياء والنّبيّ المصطفىٰ ﷺ، وصاحبَ القبلتَيْن، فهل يوازيه موحِّدٌ؟ وزوجُ خيرِ النّساء، وأبو السِّبطين لم تَرَ عيني مثلَه ولا ترىٰ إلىٰ يوم القيامةِ واللقاء، مَنْ لعَنَهُ فعليهِ لعنةُ اللهِ والعباد إلىٰ يوم القيامة. . .»[1]!!

* وقال ابنُ عبّاس في عليٍّ: «كان واللهِ الكنز الكبير، والبحرالغزير، والغيث المطير، الشّجاع الخطير، الذي لم يكنْ له في الورىٰ نظير، مؤدّب الأدباء، وسيّد الخطباء، وقائد النُّجباء، ومَنْ إذا عرضَتْ مشكلة أجابَ عنها والنّاس سكوت»[2].

قصَّةُ استشْهَادِهِ رضي الله عنه:

* تزخرُ حياة سيّدنا عليّ رضي الله عنه بالحكمةِ والعِلْم والفائدة، كما أنَّ فيها كثيراً من العِظَات والمواقف العظيمةِ التي تشهدُ له بالصّفاءِ والنّقاءِ والتّقدمِ في جميعِ ميادين الفضائل ومجالاتِ المكارم.

* وفي قصّةِ استشهاده نرىٰ كيفَ أنَّ الخارجين عليه هم خارجون عن الحقِّ، فحاولوا أنْ يثأروا من الحقِّ بصورة غَدْرٍ منسوجةٍ بأبشع الكيدِ لأميرِ المؤمنين عليّ خير النّاس في عَصْره وأعلمهم.

* وقد كان سيّدنا عليٌّ علىٰ علْمٍ مسبقٍ بأنَّه سيُقْتل، أخبره بذلك الصّادق المصدوق ﷺ الذي ما ينطقُ عن الهوىٰ، وأعلمه بأنَّ لحيته ستتخضّبُ من رأسه، وذلك في أحاديثَ وأخبارٍ نقلتها إلينا المصادر الموثوقةُ علىٰ اختلاف مشاربها.

---

(١) مجمع الزّوائد (٩/١٥٨ ـ ١٦٠) بتصرّف. وقال الهيثميّ: «رواه الطّبرانيّ، وفيه من لم أعرفهم». وانظر هٰذا الخبر بصيغة مشابهة في مختصر تاريخ دمشق (١٢/ ٣٢٢ و ٣٢٣).

(٢) علماء الصّحابة رضي الله عنهم (ص ٧٠).

* ولسنا مستغربين إذا علمنا أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه كان علىٰ يقينٍ راسخٍ بما أخبره بهِ رسولُ اللهِ ﷺ، ولذلك لم يكن يأْبَهُ بالموت.

* وتتّفقُ المصادرُ الموثوقةُ بأنَّه اتَّفقت مجموعةٌ من مجرمي الخوارجِ وكُبَّارهم علىٰ التَّخلُّص بالغدرِ والاغتيال لثلاثةٍ من كبراء الصَّحابة وأفاضلهم، وهؤلاء الثّلاثةُ الأكابُر هم:

سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب الهاشميّ زهرةُ أهل البيت ووردته.

سيدنا معاويةُ بن أبي سفيان الأمويّ أحد كتبةِ الوحي.

سيدنا عمرو بنُ العاص السَّهميّ أحد كتبة الوحي أيضاً.

* ومن المثير للعجب أنَّ هؤلاء الخوارج الأشرار كانوا يزعمون ويرون أنَّ الشَّرَّ والفتْنَة إنّما يصدُرها هؤلاء الثَّلاثة من الصَّحابة الأخيار، وأنَّ بلايا الأمّة ومصائبها التي حلَّت بالمسلمين هم سببها، لذلك لابدَّ من إراحةِ النَّاس منهم لتستقرَّ الحياةُ، ويسودَ الهدوء في البلدان.

* وفي سنة (٤٠ هـ)، وفي جلسة بمكّةَ المكرمةِ عقد ثلاثة من منحرفي الخوارج ودهاتهم مؤتمراً للإحاطةِ بما يحدث للأمّة وبما حدَثَ، ومن ثمّ الإطاحة برؤوساءِ المسلمين. وكان هؤلاء الخوارجُ ممن تبعَ الهوىٰ وقادَهُ الشَّيطانُ إلىٰ مزالقِ الشَّرّ، وهم: عبد الرّحمن بن ملجم المراديّ الكنديّ، والبركُ بنُ عبد الله التّميمّي، وعمروُ بنُ بُكير التّميمي.

* وبعد أن اشتوروا في أمرْ الأمّة، وتذاكروا الذين قتلَهم سيّدنا عليٌّ في معركةِ النَّهروان قالوا: ويحكم، ما نصنعُ بالبقاء بعد إخواننا؟ كانوا لا يخافون في الله!! فلو شَرينا أنفسنا لله، وأتينا أئمة الضّلال: «عليّ ومعاوية وعمرو»؛ فقتلناهم، وأرحنا منهم العباد والبلاد، وأخذنا منهم بثأرِ إخواننا.

* فانبرىٰ أشقىٰ الثلاثةِ عبد الرّحمن بن ملجم المرادي، وسبق صاحبَيْه وقال: أنا أكفيكم عليَّ بن أبي طالب بالعراق.

وقال البركُ بنُ عبدالله التّميميّ: وأنا أكفيكم معاويةَ بالشّام.

وقال عمرو بنُ بكير التَّميميّ: وأنا أكفيكم عمرو بنَ العاص بمصر.

* تعاهد المجرمون الثّلاثة، وتواثقوا بأغلظِ الأيمان وأعظم المواثيق ألا ينكصَ أحدٌ منهم عن صاحبِهِ حتّىٰ يقتلَه أو يموتَ دونه وأخذوا أسيافهم وشحذوها وسمّوها بالسُّم الزّعاف لكيلا يخطئ الموت مَنْ يضربونه بحدها. واتّفقوا أنْ يكونَ الموعد لتنفيذ الجريمة النّكراء فجر يوم (١٧ رمضان) فيقتلَ كُلُّ واحدٍ صاحبه[١].

* انبعثَ كلُّ واحدٍ من الثّلاثة نحو المصر الذي فيه صاحبه؛ فأمّا البُرك، فلم ينلْ من معاويةَ مأربه، وإنّما أصابه في وركه، وعُولج فشفي وقُتل البرك. وأمّا عمرو بن بُكير فلم ينلْ من عمرو بن العاص ما أراد، وإنّما قَتَلَ مدير شرطته خارجة العامريّ الذي خرج ليؤمَّ النّاس يومها، فقال متحسّراً: أردتُ عمراً وأرادَ اللهُ خارجة. ثمَّ أمر به سيّدنا عمرو فَقُتل. ونجا معاويةُ وعمرو من شرّ هٰذه المؤامرة الغادرة أمّا عبد الرّحمن بن مُلجم فقد قدَّر اللهُ عزَّ وجلَّ أن يكونَ أشقىٰ الثّلاثة، وينجح في اغتيال سيّدنا علي رضي الله عنه.

* دخل ابنُ ملجم الكوفةَ مخفياً الأمرَ عن أصحابهِ من الخوارج الكوفيين؛ وفي الكوفة التقىٰ امرأةً تُدعىٰ قَطَام بنت الشَّجنة وكان سيّدنا عليّ قد قتل يوم النّهروان أباها وأخاها الخارجيين، وكانت هٰذه المرأةُ جميلةً ترىٰ رأيَ الخوارج، فلمّا رآها ابنُ ملجم أُعجِبَ بها وسلبتْ عقله، وخلبتْ لُبّهُ، وجعلتْه حيرانَ ولهانَ طائشاً لا يدري غده من أمْسِهِ، فتقدم إليها وخطبَها، فاشترطت عليه مهراً عجيباً غريباً قوامه: ثلاثة آلاف درهم تتنعّمُ بها، وعبدٌ يخدمها، وقتلُ عليّ بن أبي طالب كيما تشفي غليلها؛ وتبرّد لهيب حقدها.

* وافق ابنُ ملجم علىٰ هٰذه الرَّغبة المسعورة الفاجرة، التي وافقتْ رغبتَه

---

(١) البداية والنّهاية (٧/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧)، والأخبار الطّوال (ص ٢١٣).

السَّوداء الغادرة التي قدم الكوفة من أجلها، وأقسمَ لها قائلاً: «واللهِ ما جاء بي إلىٰ الكوفةِ إلا قَتْل عليّ بن أبي طالب ليس غير».

* ولمَّا جاء الموعدُ المحدّدُ، خرجَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه قُبيل فَجْرِ ذلك اليوم، وتوجّه نحو المسجد؛ وجعل يُوقظُ النَّاس قائلاً: «الصَّلاة الصَّلاة»، ولمَّا وصلَ إلىٰ باب المسجد ضربَه ابنُ مُلجم بسيفه المسموم، فأصاب رأسه، وسال الدّم حتّىٰ خضبَ لحيته. ونادىٰ سيّدنا عليّ: «عليكم به» فأمسكه النَّاس، وحملوا سيّدنا عليّاً رضي الله عنه إلىٰ بيته، ثمّ جيءَ بابن مُلجم فأوقف بين يدي سيّدنا عليّ رضي الله عنه والدم يسيلُ علىٰ وجههِ الذي يقطرُ نوراً.

فقال سيّدنا عليٌّ لابن ملجم قبّحه الله وأخزاه: ويحكَ يا عدوّ الله، ألم أحسنْ إليك؟

قال: بلىٰ

قال: فما حملكَ علىٰ هـٰذا؟

قال ابنُ ملجم والحقدُ يغلي بقلبه غَلْي المراجل: هـٰذا سيفٌ شحذتُه أربعين صباحاً، وقد سألتُ الله أنْ يقتلَ به شرَّ خلقه، وها قد ضربتُك به ضربةً لا تقوم بعدها.

فقال له سيّدنا عليّ: واللهِ ما أراك إلاّ منْ شرِّ خلق الله، وما أراك إلاّ مقتولاً بهـٰذا السَّيف.

* ثم إنَّ سيّدنا عليّاً رضوان الله عليه قال لمن حوله من رجال أهلِ البيتِ من أولاده وأقربائه: «إذا متُّ فاقتلوه، وإنْ عشتُ فأنا أعلمُ كيف أصنع به».

* وظلَّ سيدنا عليٌّ ثلاثةَ أيّام يغالبُ المرضَ والألمَ، وكان يكثر من قولِ: «لا إلـٰه إلا الله». وكان عنده مسْكٌ أوصىٰ أنْ يحتفظَ به، وقال: «فَضْلٌ منْ حنوطِ رسولِ الله ﷺ[1]».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٩٤).

* وصعدتْ روحهُ إلىٰ بارئها لتستقرَّ في عليين عند مليكٍ مقتدرٍ، فصلّىٰ عليه ابنه الحسنُ، وكبّر عليه أربعاً ودُفِنَ في السَّحر؛ ثمّ قتل أبناءُ عليّ ابنَ مُلجم[1] تنفيذاً لما أمرهم به أبوهم.

* وتذكرُ الرّوايات بأنّ سيّدنا عليّاً حفروا له قبراً في دارِ الإمارة بالكوفةِ، ودفنوه في الليل، وعمّوا قبرَهُ وأخفوه، خشيةً من أنْ يأتي الخوارجُ وينبشوا قبره، وهناك أقوالٌ عديدةٌ أوردَ بعضَها ابنُ عساكر في تاريخه[2]، وكان عمْرُ

---

(١) «ابنُ مُلجم»: ذكره الإمام الذّهبيُّ في تاريخهِ فقال ما محصَّله وملخّصُه: «عبدُ الرّحمن بنُ مُلجم المراديّ قاتل عليّ رضي الله عنه: خارجيٌّ مفْترٍ، شهدَ فَتْح مصرَ، واختطَّ بها مع الأشراف، وكان ممّن قرأ القرآن والفقْه، وهو أحدُ بني تدُول، وكان فارسَهم بمصر، قرأ القرآنَ علىٰ معاذ بنِ جبل، وكان من العُبّاد... ثمَّ كان ابنُ ملجم من شيعةِ عليّ بالكوفة، سار إليه إلىٰ الكوفة، وشهد معه صفّين. ثمّ أدركه الكتابُ، وفعلَ ما فعلَ، وهو عند الخوارج من أفْضَل الأمّةِ؛ فاعجبُوا يا مسلمين لهذا الجنون، وفي ابنِ مُلجم يقول عمرانُ بن حطّان الخارجي:

يـا ضـربـةً مـنْ تُقـيّ مـا أرادَ بهـا ... إلا ليبلـغَ مـن ذي العـرشِ رضـوانـا
إنّـي لأذكـرهُ حينـاً فـأحسبُـهُ ... أوفـىٰ البـريـة عنـد اللهِ ميـزانـا

وابنُ مُلجم عند الرّوافض أشقى الخلق في الآخرة؛ وهو عندنا أهل السّنّة ممّن نرجو له النّار، ونجوّز أنّ اللهَ يتجاوزُ عنه، لا كما يقولُ الخوارجُ والرَّوافض فيه. وحكمهُ حكْمُ قاتل عثمان؛ وقاتل الزُّبير، وقاتل طلحة؛ وقاتل سعيد بن جُبير، وقاتل عمّار، وقاتل خارجة، وقاتل الحُسين، فكلُّ هؤلاء نبرأُ منهم، ونبغضُهم في الله، ونُكِلُ أمورهم إلى الله عزَّ وجلَّ». (تاريخ الإسلام للذَّهبي ـ عهد الخلفاء الرّاشدين ص ٦٥٣ و ٦٥٤).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٩٤ و ٩٥)، أقول: «وهذه الآراء في مكان قبر سيّدنا عليّ رضي الله عنه كثيرة ومتناقضة أحياناً، فمن قائل أنّه مدفونٌ بالمدينةِ، وآخر في دُور آل جعدةَ بن هُبيرة، وآخر يقول: إنه دُفنَ عند المسجدِ الجامعِ في الكوفة، أو دُفن في موضعِ القَصْر، ويُقال في الرّحبةِ التي تُنسب إليه، وقيل: بظاهِرِ الكوفة، وقيل: دُفنَ في بلاد طيئ... والله أعلم». وما أجملَ أنْ نحلّيَ الأسماع بهذه النَّفحة المونقة المنعشة:

قتلـوكَ ظلمـاً واعتـدَوْا ... فـي فعلهـم حـدَّ الـوجُـوب
دفنـوكَ ليـلاً ثـم ذا ... أمـرٌ قضَتْـه لـك الغيـوب
إنْ لـم يكـنْ لـك سيّـدي ... قبـرٌفقبـرك فـي القلـوب

سيّدنا عليٍّ عندما استشهد (٦٣) سنة رضي الله عنه.

* كان خبرُ استشهاد سيّدنا عليّ رضي الله عنه أليماً علىٰ الأمّة الإسلاميّة، وقد بكاهُ كثيرون، وأكثروا فيه الرّثاء، لأنّهم فقَدوا من علمِهِ وفضلِهِ وسوابقه شيئاً كثيراً.

* وسجَّلَت كتبُ المصادر مراثٍ لا تُحصىٰ لأكابرِ أهلِ اللسنِ والفصاحةِ نساءً ورجالاً، ومن جماعة النّساء اللواتي رثينَه وتفجّعنَ لموتِهِ سودةُ بنتُ عمارة التي قالت:

صلىٰ الإلٰـهُ علىٰ جسْمٍ تضمَّنه ... قبرٌ فأصبحَ فيه الجُودُ مدفونا
قد حَالَفَ الحقَّ لا يبغي به بدلاً ... فصَارَ بالحقِّ والإيمانِ مقرونا

* ورثته أمُّ الهيثم النَّخعية بقصيدةٍ طويلةٍ نقتطفُ منها:

ألا ياعينُ ويحكِ أسعدينا ... ألا تبكي أميرَ المؤمنينا
ألا قُلْ للخَوارجِ حيث كانوا ... فلا قرَّتْ عيونُ الشَّامتينا

* ومنها:

وليس بكاتمٍ علْماً لديه ... ولم يُخلقْ من المتجبّرينا
كأَنَّ النَّاسَ إذ فقدوا عليّاً ... نعامٌ حارَ في بلدٍ سنينا

* ورثاه إسماعيلُ بنُ محمّد الحميري من شِعْرٍ له فقال:

سَائِلْ قريشاً به إنْ كنتَ ذا عَمَهٍ ... مَنْ كان أثبتها في الدِّين أوتادا
مَنْ كان أقدمَ إسلاماً وأكثرها ... علْماً وأطهرها أهْلاً وأولادا
مَنْ كان يقدمُ في الهيجاء إنْ نكلُوا ... عنها وإنْ يبخلُوا في أزمةٍ جادا
مَنْ كان أعدَلَها حكماً وأبسطها ... علْماً وأصدقَها وعْداً وإيعادا
إنْ يصدقُوك فلَنْ يعدلوا أبا حسنٍ ... إنْ أنتَ لم تلْقَ للأبرار حسّادا

* وهناك مراثٍ كثيرة جدّاً لا يستطيعُ الإنسان أنْ يحيطَ بها، وخصوصاً تلك المراثي التي قيلت فيما بعد، وكلّها تُجمعُ علىٰ فضْله ومكارمه، وتنشرُ

مزاياه ومناقبه، وتشيرُ إلىٰ ما قدَّمه من خيرٍ في حياته إلىٰ الإسلام والمسلمين، كما تشيرُ إلىٰ مكانتهِ في بيتِ النُّبوّةِ الطَّاهر الذي أذهبَ اللهُ الرّجس وطهَّره تطهيراً.

وصيتُّه:

* الوصيّةُ تجرِبةٌ لا تُوزَنُ بغيرها من الكلام، إذ إنّها خلاصةُ حكمةٍ وتوجيهات يُسديها المُوصي لمن يحبُّه، ولذلك نجدُ في وصيّة سيّدنا عليّ رضي الله عنه ذروة الفضائل والنَّصائح التي تشملُ أمور الدّنيا والدِّين من وصاةٍ بالجار، والإحسانِ إلىٰ النّاس، ورعاية الأيتام والمساكين، وأداء الصَّلاة وإيتاء الزّكاة، كما حذَّرهم من أشياء مهمّة سنطلعُ عليها من خلالِ وصيّته النافعة إنْ شاء الله.

* أورد ابن كثير أنَّه لما ضُرِبَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه دخل عليه جندبُ بنُ عبد الله فقال: ياأميرَ المؤمنين، إنْ فقدناكَ ـ ولا نفقدك ـ فنبايع الحسَن؟

فقال: «ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر[1]»

* ثم إنَّ سيّدنا عليّاً دعا سيّدَي شبابِ أهل الجنَّة حَسناً وحُسيناً فقال: «أوصيكما بتقوىٰ اللهِ، وألا تبغيا الدّنيا وإنْ بغَتْكُما، ولا تبكيا علىٰ شيءٍ زُوِيَ عنكما، وقولا الحقّ، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظَّالم خَصْماً، وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في الكتابِ، ولا تأخذْكُما في اللهِ لومة لائم».

ثم نظرَ إلىٰ محمّد ابن الحنفيّة فقال: «هل حفظتَ ما أوصيتُ به أخويك»؟

قال: نعم.

قال: «فإنّي أوصيكَ بمثله، وأوصيكَ بتوقيرِ أخويك، لعظيم حقّهما

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٢٧).

عليك، فاتّبع أمرهما، ولا تقطعْ أمراً دونهما» ثم قال: «أوصيكما به، فإنَّه شيقيقُكما وابنُ أبيكما، وقد علمتما أنّ أباكما كان يحبُّه».

وقال للحسن: «أوصيك ـ أي بني ـ بتقوىٰ الله، وإقام الصَّلاة لوقتها، وإيتاءِ الزّكاة عند محلّها، وحسن الوضوء، فإنّه لا صلاة إلا بطهور، ولا تُقْبل صلاةٌ من مانع الزّكاة، أوصيك بغفرِ الذَّنب، وكظم الغيظ، وصلَةِ الرّحم، والحلم عند الجهل، والتّفقّه في الدِّين، والتَّثبُّت في الأمر، والتّعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، واجتناب الفواحش».

* فلمّا حضرته الوفاة أوصىٰ فكانت وصيّته:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«هـٰذا ما أوصىٰ به عليُّ بنُ أبي طالب، أوصىٰ أنَّه يشهدُ أنْ لا إلـٰه إلا الله وحده، لاشريكَ له، وأنَّ محمداً عبدهُ ورسولُه، أرسله بالهدىٰ ودينِ الحقِّ، ليظهرَه علىٰ الدّين كلّه ولو كرِهَ المشركون، ثم إنَّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي للهِ ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلك أُمرتُ، وأنا من المسلمين.

ثمّ أوصيك ياحسن وجميع ولدي وأهلي بتقوىٰ الله ربّكم، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرّقوا، فإني سمعت أبا القاسم يقول: «إنَّ صلاح ذات البيْن أفضلُ من عامَّةِ الصَّلاة والصِّيام».

انظروا إلىٰ ذوي أرحامكم فَصِلُوهم، يهوّنُ اللهُ عليكم الحساب.

اللهَ اللهَ في جيرانكم، فإنّهم وصيّة نبيّكم ﷺ مازال يوصي به حتّىٰ ظنّنا أنّه سيورّثه.

واللهَ اللهَ في القرآن، فلا يسبقنّكم إلىٰ العَمل به غيرُكم.

واللهَ اللهَ في الصَّلاة فإنَّها عمودُ دينكم.

واللهَ اللهَ في بيت ربّكم، فلا تخْلُوهُ ما بقيتم، فإنَّه إنْ تُرِكَ لم يناظر.

واللهَ اللهَ في الجهاد في سبيلِ الله بأموالكم وأنفسكم.

واللهَ اللهَ في الزّكاة، فإنَّها تطفىءُ غَضَبَ الرَّبِّ.

واللهَ اللهَ في ذمَّةِ نبيّكم، فلا يُظلمُنَّ بين أظهركم.

واللهَ اللهَ في أصحابِ نبيّكم، فإنَّ رسولَ الله ﷺ بهم.

واللهَ اللهَ في الفقراء والمساكين، فأشركوهم في معايشكم.

واللهَ اللهَ فيما ملكت أيمانكم.

الصَّلاة الصَّلاة.

لا تخافنَّ في الله لومة لائم، يكفيكم من أرادكم وبغىٰ عليكم.

وقولوا للنَّاس حُسناً، كما أمركم الله، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، فيولّي الأمرَ شراركم، ثمّ تدعون فلا يُستجابُ لكم.

وعليكم بالتَّواصل والتّباذُل، وإيّاكم والتَّدابر والتَّقاطع والتَّفرّق، وتعاونوا علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ، ولا تعاونوا علىٰ الإثم والعدوان، واتقوا الله إنَّ اللهَ شديدُ العقاب.

حفظكم اللهُ من أهلِ بيتٍ، وحفظ فيكم نبيّكم، استودعكم الله، وأقرأُ عليكم السَّلام ورحمة الله».

* ثمَّ أخذَ يقولُ: «لا إلـه إلا الله»، ولم يزلْ ينطقُ بها حتىٰ قُبِضَ رضي الله عنه وأرضاه، وجعلَ آخر كلامنا كما قال: «لا إلـه إلا الله» واحشرنا تحت لواء سيّدنا محمد ﷺ، واعفُ عنا وهبْنَا لأهلِ البيتِ الذي أذهبتَ عنه الرّجس وطهرتْه تطهيراً إنّك ياربنا عفوٌ كريمٌ مجيبٌ حليم.

* وختاماً؛ إنَّ فضائلَ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه وخصائصه لا تدخلُ تحت حَصْر، ويكفيه من الفَضْل يكفيه، أنَّ المحضنَ النَّبويَّ قد نما وتربىٰ فيه، وأنَّه من الخُلفاء الرّاشدين المهديين، وأحد رجال أهل البيت المبشّرين بالجنّة، وصهر الحبيب الأعظم رسول الله ﷺ، وقد جمعَ فَضْلاً إلىٰ فضلٍ، وصفاء إلىٰ

صفاء، ونُبلاً إلىٰ نُبْل، ومنه انتشرت الذّرية الطّاهرة لتملأَ الدّنيا طهراً وعفّة وعلْماً وجاهاً وقدراً، والخلاصة هم أهل بيتٍ لايُقاسُ بهم أحدٌ رضي الله عنهم وأرضاهم، ونفعنا بسيرتهم، وحشرنا في معيّتهم، وغفرَ لنا بفضله ومَنِّهِ وجوده، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

□ □ □




عقيل بن أبي طالب

رضي الله عنه

* ابنُ عمّ النّبيّ ﷺ؛ ومن رجال أهل البيت الكرام.
* روىٰ بعض الأخبارِ المُهمّةِ في السّيرة النّبويّة العطرة.
* كان من علماءِ أهلِ البيت؛ وروىٰ جملةَ أحاديث.
* عُرِفَ بسرعةِ البديهةِ، وحضورِ الجواب، ومعرفة النَّسب.
* أَخبارهُ كثيرةٌ مع أخيهِ عليٍّ، ومع معاوية، وتوفي سنة (٥٠ هـ) رضي الله عنه.




عقيل بنُ أبي طالب
رضي الله عنه

منْ أَهلِ البيتِ الهَاشميّ:

* هـٰذا الرَّجلُ الكريمُ ابنُ عمٍّ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو أكبرُ إخوتهِ، وآخرهم موتاً، شهدَ بدراً مشركاً، وأُخرِجَ إليها مكرهاً، فوقعَ أسيراً بأيدي المسلمين، ولم يكنْ له مالٌ، فَفَداهُ عمُّهُ العبّاسُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه. ـ كما مرَّ معنا ـ

* فلنقرأْ بطاقتَهُ الواضحةَ التي تقول: هو عقيل بن أبي طالب الهاشميّ[1] أبو يزيد أحدُ أهلِ البيت النّبويّ الأطهار:

عَلـيٌّ وعبّـاسٌ عَقيـلٌ وجَعفـرٌ ... وحَمـزةُ هـم آلُ النّبـيِّ بـلا نُكْـر

* فأهلُ البيتِ النّبويّ من الرِّجال هم بنو هاشم الأبرار، كما أنَّ الآلَ هم الذين حرَّمَ عليهم النّبيُّ ﷺ الصَّدقة، ولم يحرّمْها إلّا علىٰ بني هاشم الذين نحبُّهم ونجلُّهم، والذين نتحدَّثُ عنهم في هـٰذه الموسوعةِ المباركةِ:

فكُـنْ صـادقـاً فـي حبِّهـم ومُصَـدّقـاً ... لأحوالِهم واحذرْ مخالفةَ الشَّمْسِ

* فتح عقيلٌ عينَيه علىٰ نور الدّنيا في مكّةَ المكرمةِ، وهو أكبرُ من أخيه

(١) سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢١٨ و ٢١٩) و(٣/ ٩٩ و ١٠٠)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٤٢ ـ ٤٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٧)، وأسد الغابة (٣/ ٥٦١ ـ ٥٦٣) ترجمة رقم (٣٧٢٦)، والإصابة (٢/ ٤٨٧)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٤ ـ ١٢٢)، وأنساب الأشراف (عليّ وبنوه ـ انظر الفهرس)، ونكت الهميان (ص ٢٠٠ و ٢٠١)، وتهذيب التّهذيب (٧/ ٢٥٤)، والمعجم الكبير للطّبرانيّ (١٨/ ١٩١ ـ ١٩٤) وغيرها كثير.

جعفر بعشر سنين، وجعفرُ أكبرُ من عليٍّ بعشر سنين، وأمُّ هؤلاء السَّيِّدةُ الجليلةُ فاطمةُ بنتُ أسد الهاشميّةُ رضي الله عنها، وهي زوجُ أبي طالب، كانت من مهاجراتِ أهل البيت الأُوَل، ثمّ إنّها أوّلُ امرأةٍ هاشميّةٍ من أهلِ البيتِ تزوَّجَتْ هاشميّاً، وولدت هاشميّاً[1]، رضي الله عنها، وهي إحدىٰ الفواطم اللواتي نُظمنَ في عقد الصَّحابيات، وحظين بشرفِ الصُّحبةِ النَّبويَّةِ.

* وعىٰ عقيل وعياً تامّاً ابنَ عمّه سيّدنا محمّداً ﷺ وعرفهُ معرفةَ الخبير الفَطِنِ، فقد كفلَ والده أبو طالب محمّداً ﷺ بعد وفاه جدّه عبد المطّلب الذي أوصىٰ أبا طالب برعايةِ ابنِ أخيه رعايةً تامةً.

* برهنَ أبو طالب علىٰ الوفاء والرّعايةِ لابنِ أخيه محمّد ﷺ، فما هو إلا أنْ ضمَّ إليه محمّداً ﷺ، وأخذَ يغمرهُ بعطفِهِ، ويحوطُهُ برعايته وبرّه، ويخلطُه بنفسه وأهله، وأنزلَه بين بنيه منزلةَ الإكرام والإيثار، والإكبار والاحترام.

* وجعل أبو طالب يحفظُ رسولَ الله ﷺ ويعينه ويسندُهُ وينصرُهُ إلىٰ أن مات، فلمّا مات حزن عليه رسولُ الله ﷺ حُزْنَ الوفاء والرِّعاية.

* كان سيّدنا رسولُ الله ﷺ مثلاً عالياً ونبراساً فريداً في الوفاءِ وعرفانِ الجميل، فقد كان عمُّه أبو طالب الحصنَ الأمينَ الذي يأوي إليه النَّبيّ ﷺ حتّىٰ قيل عن أبي طالب: «إنَّه كان يحبُّ ابنَ أخيه محمّداً ﷺ حبّاً شديداً لايحبّه ولده، وكان لا ينامُ إلا إلىٰ جنبه، ويخرجُ فيخرجُ معه».

* كان أبو طالب حصيفاً يلمسُ البركةَ المحمَّديَّةَ تحلُّ في طعام أولاده،

---

(١) من الجديرِ بالذكر هاهنا والمفيد معرفته أنّ سيدتَنا فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها وأرضاها؛ هاشميةٌ وقد تزوجت هاشمياً، وولدت هاشمياً، وقد توسّعتُ في سيرتها الغرّاء في كتابي «نساء مبشّرات بالجنّة» (٣٨ ـ ٤٩) طبعة دار ابن كثير الرّابعة بدمشق الفيحاء عام (٢٠٠١ م).
وكذلك تعدُّ السّيّدةُ زبيدةُ بنتُ جعفر هاشميّة تزوّجت من هاشميّ، وولدت هاشمياً، وقد توسعتُ في الكتابة عن حياتها في كتابي: «نساء من التّاريخ» (ص ٢٩٩ ـ ٣٤٤) طبعة دار اليمامة الثّانية بدمشق عام ٢٠٠٠ م.

إذا أكل معهم محمّد ﷺ؛ فكان إذا أراد أنْ يغدّيهم قال لهم: «كما أنتم حتّىٰ يحضرَ ابني» فيأتي رسولُ الله ﷺ فيأكل معهم، فكانوا يُفْضِلون من طعامهم، فإن لم يكن معهم لم يشبعوا، وعندها يقول له أبو طالب: «يا بنيّ، إنَّكَ لمبارك».

* ولعلَّ سيدنا عقيلاً كان يدركُ ذلك ويراهُ ويلمسهُ من ابن عمّه محمّد ﷺ، فقد كان ﷺ إذا اجتمع بعقيل وإخوته علىٰ الطَّعام، انكبّوا عليه يلتهمونهُ وجلس ﷺ متعفّفاً يأكلُ ممّا يليه، وأحياناً يكفُّ يده الشَّريفة عن الطَّعام فلا يأخذ منه شيئاً؛ وكان أبو طالب يلاحظُ هٰذا التَّعفُّفَ المحمّديَّ من ابن أخيه، فكان يعزلُ له طعامه، ويخصُّه بالطَّيِّبات، ويؤثره علىٰ بنيه بالملاطفة، وحسن الرّعاية والاهتمام.

* قال أحدُ علماءِ أهل البيت وفقهاؤهم سيّدنا عبد الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما: «كان أبو طالب يقرّبُ إلىٰ الصِّبيان صحفتهم أوّل البُكرة ـ النّهار ـ، فيجلسون وينهبون ـ يخطفون ـ، ويكفُّ رسولُ الله ﷺ يدَهُ فلا ينتهبُ معهم، فلمّا رأىٰ ذلك عمّه، عزَلَ له طعامه علىٰ حِدَةٍ، وكان أبناءُ أبي طالب يصبحون عُمصاً رُمصاً، ويصبح رسولُ الله ﷺ صقيلاً كحيلاً»(١).

إذا تركْتُما لي عَقيلاً:

* كان لعقيل مكانةٌ كبيرةٌ عند أبيه، وكان لا يفضلُ عليه من أولاده أحداً، فقد تواترت الأخبارُ العقيليّة في هٰذا الأمر، وأفادت بأنَّ قريشاً قد أصابتهم أزمةٌ شديدةٌ وقحطٌ صعبٌ حتّىٰ أكلَ بعضُهم الرِّمَّة ـ العظم البالي وذلك قبل مبعث رسولِ الله ﷺ ـ ولم يكنْ من قريش أحدٌ أيسَرَ من رسولِ الله ﷺ، ومن عمِّه العبَّاسِ بنِ عبد المطَّلب، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثيرةٍ ولم يكنْ علىٰ ثراء من المال، وإنْ كان ذا ثراء من الشَّرفِ والمكانةِ في قريش، فقال الحبيبُ المُصطفىٰ سيّدُنا رسولُ الله ﷺ لعمّه العبَّاس: «يا عمُّ! إنَّ أخاك أبا طالب قد علمتَ كثرةَ

(١) صور من حياة الرسول ﷺ (ص٧٣ و ٧٤).

عيالِه وقد أصاب قريشاً ما ترىٰ، فاذهبْ بنا إليه حتّىٰ نحملَ عنه بعض عياله» وفي رواية: «فانطلقْ بنا إليه، فلنخففْ عنه من عياله، آخذُ من بنيهِ واحداً، وتأخذُ أنتَ واحداً» فقال العبَّاس: نَعَم، ونِعْمَ الرَّأي رأيك يا بنَ أخي.

فانطلقا إليه فقالا: يا أبا طالب! إنَّ حالَ قومك ما قد ترىٰ، ونحنُ نعلمُ أنَّك رجلٌ منهم، وقد جئنا لنحملَ عنك بعضَ عيالك حتّىٰ ينكشفَ عن النَّاس ماهم فيه.

فقال لهما أبو طالب: دَعَا لي عقيلاً، وافعلا ما أحببتما، وفي قولٍ آخر: إذا تركتُما لي عقيلاً، فاصْنَعَا ما شئتُما ـ وكان عقيلٌ أكبرَ أبنائه وأحبَّ أنْ يتركَا عقيلاً عنده ـ فأخذ رسولُ الله ﷺ عليّاً رضي الله عنه فضمَّه إليه، وأخذ العبّاس جعفرَ رضي الله عنه فضمَّه إليه، فلم يزلْ عليٌّ مع رسولِ الله ﷺ حتّىٰ بعثَه اللهُ عزَّ وجلَّ، فكان مِنْ أوائلِ مَنْ آمنْ به وصدَّقَ، ولم يزلْ جعفرُ عند العبّاس حتّىٰ أسلمَ واستغنىٰ عنه»[1].

* ولا ريب في أنَّ سيّدنا عقيلاً قد عرفَ باطن هٰذه القصّة وظاهرها، وعرف من خلالها كمالَ أخلاق ابن عمّه محمّد ﷺ، وكان لهٰذا التَّصرُّف المحمّدي النَّبيل أثرَهُ الطَّيِّبُ في نفس عقيل وقلبه، فأحبَّه وأكْبَرهُ، وعلم أنَّه قد جمعَ من خصائل الكمالِ وحَصَائلِ المكارم ما لم يجمعْهُ إنسانٌ أبداً، فوقَرَ في قلبِه الاحترامُ لسيّدنا عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف النَّبيِّ ﷺ حينما قال: «. . . أجودُ النَّاس كفّاً، وأجرأُ النّاس صدراً، وأصدقُ الناس لهجةً، وأوفىٰ الناس ذمّةً، وألينُهم عريكةً، وأكرمهم عشرةً، مَنْ رآه بديهةً هابَهُ، ومَنْ

---

(١) مجمع الزَّوائد (٨/ ١٥٣) والسِّيرة النّبويّة مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ (١/ ٣١٣) مع الجمع والتّصرّف. ويمكن لنا أنْ نقولَ: «إنَّ سيّدنا وحبيبنَا رسولَ الله ﷺ كان من أبرّ النَّاس بأقاربه فكان يَصِلُ رحمه قبل البعثة، ويتفقّد شؤونهم، وأحوالَهم، ويعمل علىٰ مصلحتهم. ومن المؤكّد أنَّ صلةَ الرّحم تكون بأشكال وألوان شتىٰ، فقد تكون بتحيّة أو سلام، أو هدية ومعاونة، ومكالمة وبِشْرٍ وتلطّفٍ وإحسان وزيادة ونصيحة وسؤال عن الأحوال؛ والله أعلم».

خالَطَهُ معرفة أحبَّهُ»[1].

* ولمّا بَعَثَ اللهُ عزَّ وجلَّ محمّداً ﷺ، وأنزل عليه الوحي، آثرَ ﷺ الاستسرار بالدَّعوة في بادئ الأمر، وكان يستخفي من عامة قومه، ويقتصرُ بالدَّعوةِ علىٰ مَنْ يأنسُ إليه، وكان أقرب قرباه إليه في عصبة النّسب أعمامه وأولادهم، فلم يعرفْ أنَّه ﷺ قصد إلىٰ دعوة أحد منهم للإيمان برسالته في مدّة استسراره بالدّعوة.

* كان في طليعةِ أقربائه عمّه أبو طالب الذي ورث زعامة بني هاشم بعد وفاةِ أبيه عبد المطّلب، والذي كفل ابنَ أخيه محمّداً ﷺ هو في مشرقِ طفوليّته، فحدبَ عليه، وكان يؤثرهُ علىٰ جميع أولادِهِ، حتّىٰ شبَّ محمّدٌ ﷺ في كنف هـٰذه المدّة، كان حُبُّ أبي طالب لابن أخيه محمّدٍ ﷺ ينمو ويتصاعدُ ويسمو؛ حتّىٰ اختارَ اللهُ عزَّ وجلَّ محمّداً ﷺ نبيّاً، وبعثَهُ لعبادهِ رسولاً، فَشَرِقَتْ ببعثتهِ المباركةِ سدَنَةُ الوثنيّةُ، وغصَّتْ حلاقيمُ رؤوس الشِّرك وكبارهم، واشتعلتْ في جوفهم نيرانُ أحقادِهم، هنالك قام أبو طالب يدافعُ عنه، فلم يستطع المجرمون أنْ ينالوا من رسولِ اللهِ ﷺ شيئاً طيلةَ حياةِ أبي طالب حتّىٰ مات أبو طالب فطالَتْهُ يَدُ الشَّرِّ.

* وجاء الأمر إلىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ أنْ يجهرَ بالدَّعوة، فدعا أعمامه وأبناءهم إلىٰ التَّصديق برسالته، وكان أبو طالب وأولادُه ممَّنْ وصلت إليهم الدّعوة المحمّديّة إلىٰ الإسلام، فردَّ أبو طالب علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ في هدوءٍ وحُبٍّ، وخَشِيَ قَالَةَ النَّاس، وأبىٰ أنْ يجيبَ إلىٰ الإسلام، وشايعه ابنُه عقيلٌ، فلم يستجبْ للإيمان في البداية، ولكنَّه عاشَ الأحداثَ والأزماتِ التي رافقتِ الدَّعوة في المرحلةِ المكّيةِ، ولم يكن لعقيلٍ صوتٌ مسموعٌ في هـٰذه الفترة، ولم يكن له كذلك عداءٌ ظاهرٌ أو مناصرةٌ ظاهرةٌ لابن عمِّه محمد ﷺ، فلم تذكرِ الأخبار التي تحصَّلتْ لدينا شيئاً من هـٰذا، ولكنَّها سجَّلَتْ لعقيل مفخرةً جميلةً

---

(١) السّيرة النّبويّة (١/ ٤٠٠ و ٤٠١) طبعة مصر الثّانية عام ١٩٥٥ م.

يوم أَنِ اشتكتْ قريشٌ محمّداً ﷺ لعمه أبي طالب، ونقل عقيلٌ هٰذه الحادثة بحذافيرها، إذ كان من الشّاهدين يومها.

* وعَتْ كتُبُ السّيرة ما قاله رسولُ الله ﷺ لعمِّه أبي طالب أمام عقيل وملأ قريش حين ظنَّ ﷺ ضعف عمِّه عن نصرتِهِ، فقد أخرجَتْ أمّاتُ المصادرِ عن سيّدنا عقيلٍ بنِ أبي طالب رضي الله عنه قال: «جاءت قريشٌ إلىٰ أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إنَّ ابنَ أخيك يأتينا في أفنيتنا وفي نادينا فيسمعُنَا ما يؤذينا به، فإنْ رأيتَ أن تكفَّه عنّا فافعَلْ.

فقال لي: يا عقيلُ، التمسْ لي ابنَ عمِّك؛ فأخرجتُه من كِبْسٍ من أكباسِ أبي طالب، فأقبل يمشي معي حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ أبي طالب، فقال له أبو طالب: يا بن أخي، واللهِ ما علمتُ أنْ كنتَ لي لَمُطاعاً، وقد جاء قومُكَ يزعمون أنَّك تأتيهم في كعبتهم، وفي ناديهم تُسمعُهم ما يؤذيهم، فإنْ رأيتَ أن تكفَّ عنهم.

فحلَّقَ ببصره إلىٰ السَّماء فقال: «واللهِ، ما أنا بأَقْدرَ أن أدعَ ما بُعثْتُ به من أنْ يشعِلَ أَحَدُكُم من هٰذه الشَّمس شعلة من نار».

فقال أبو طالب: واللهِ ما كذبَ ابنُ أخي قطّ، ارجعوا راشدين»[1].

* وفي روايةٍ عند البيهقي: «أنَّ أبا طالب قال له: يا بن أخي، إنَّ قومك قد جاؤوني وقالوا كذا وكذا، فأَبْقِ عليَّ وعلىٰ نفسِكَ، ولا تحملني من الأمرِ مالا أطيقُ أنا ولا أنت، فاكففْ عن قومك ما يكرهون من قولك.

---

(١) انظر: مجمع الزّوائد (٦/ ١٤)، والبداية والنّهاية (٣/ ٤٢) مع الجمع والتّصرّف اليسير ومعنىٰ «نادينا» مجلسنا ومتحدّثنا. و «تكفُّه»: تمنعه عنّا. و«كِبْس»: البيت الصَّغير. و«لمطاعاً»: المطاعُ مَنْ يطيعُه صاحبه: أي كنت أطيعك دائماً. ولعلَّ المقصود: أنّك كنتَ تطيعني دائماً، فأرجو يا محمَّدُ أنْ تطيعني فيما أقولُ لك اليوم في شأنِ قومك وأمرهم. و«حلّق ببصره»: رفَعَهُ. و«يشعل»: يُلهبُ ويوقد، والشّعلة: شبه الجذوة والقبس والشّهاب. و«راشدين»: مستقيمين علىٰ طريق الحقّ مع تصلّب الحق مع تصلّب فيه. والحديث أخرجه الطّبرانيّ في الكبير (١٧/ ١٩٢).

فظنَّ رسولُ الله ﷺ أن قد بدا لعمِّه فيه، وأنَّه خاذلُه ومُسْلِمُه، وضعُفَ عن القيام معه. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا عمّ: لو وُضعَتِ الشَّمسُ في يميني، والقمرُ في يساري ما تركتُ هٰذا الأمر حتّىٰ يظهرَهُ الله أو أهلك في طلبه»؛ ثمّ استعبرَ رسولُ اللهِ ﷺ فبكىٰ، فلمّا ولىٰ قالَ له حين رأىٰ ما بلغ الأمرُ برسولِ الله ﷺ: يا بن أخي؛ فأقْبَلَ عليه فقال: امضِ علىٰ أمرك؛ وافعلْ ما أحببتَ، فواللهِ لا أسلمك لشيء أبداً»[1]!!!.

* ولقد أصاب ابنُ كثير رحمه الله عندما قال: «وأمّا أبو طالب فكان في غاية الشَّفَقةِ والحنو الطَّبيعيِّ، كما سيظهرُ من صنائعهِ وسجاياه، واعتماده فيما يُحامي بهِ عن رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم»[2].

---

(١) البدايةُ والنّهاية (٣/ ٤٢)، والسِّيرةُ الحلبيّةُ (١/ ٤٦٢). ومعنىٰ «أبْقِ عليَّ»: أشفقْ عليّ، يقال: أبقيتُ عليه إبقاء: إذا رحمته وأشفقتُ عليه. و«مالا أطيق»: لا تكلّفني حمل مالا طاقةَ لي عليه من التّكاليف والبلايا. و«بدا لعمّه»: ظهرَ له رأيٌ، والمعنىٰ أنّه ﷺ قد ظنَّ أنَّ عمَّه قد تغيّر رأيهُ فيه وأقلع عن نُصرته. و«خاذله»: تاركه وحده دون أن ينصرَهُ. و«مسلمُه»: ملقيه إلىٰ الهلكة وغير حاميه من المشركين. و«الشّمس في يميني والقمر في يساري...»: قال عليُ بنُ برهان الدّين الحلبيّ في سيرته: «وحكمة تخصيص الشّمس والقمر بالذّكر، وجعل الشّمس في اليمين، والقمر في اليسار لا تخفىٰ، لأنَّ الشّمسَ هي النّير الأعظم، واليمينُ أليق به، والقمر هو النّير الممحو، واليسار أليقُ به، وخصّ النّيرين حيثُ ضَربَ المثل بهما لأنَّ الذي جاء به نور، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[التوبة: ٣٢]، ومن غريب التّعبير: أنَّ رجلاً كان عاملاً لسيّدنا عمر رضي الله عنه فقال لسيّدنا عمر: إنّي رأيتُ في المنام كأنَّ الشّمسَ والقمرَ يقتتلان، ومع كلّ واحدٍ منهما نجومٌ، فقال له عمر: مع أيّهما كنتَ؟ قال: مع القمر. قال: كنتَ مع الآيةِ الممحوة، اذهب فلا تعمل لي عملاً!!؟!!. (السّيرة الحلبيّة ١/ ٤٦٢ و ٤٦٣). و«أهلك في طلبه»: الأمر الذي كان معه ﷺ أمرٌ عظيم من الله عزَّ وجلَّ، وهو لم يُرِدْ بدعوته أي عرض من أعراض الدّنيا. و«استعبر»: استفعلَ من العَبْرة، والمعنىٰ: جَرتْ دموعُه الشّريفة ﷺ. وللمزيد من مثل هٰذه الأخبار راجع المستدرك (٣/ ٦٦٨).

(٢) البدايةُ والنّهايةُ (٣/ ٤١ و ٤٢)

* ومن هٰذا المبدأ قال أبو طالب مخاطباً رسولَ الله ﷺ ومطمئناً إيّاه في هٰذه النّفحةِ الحانية من هٰذه الهمَسَات الموقظة:

والله لن يصلُوا إليكَ بجمعهم ... حتّىٰ أوسَّدَ في التُّرابِ دفينا
فامضِ لأمركَ ما عليكَ غضاضة ... وابْشِرْ وقرَّ بذاك منكَ عيونا
ودعوتني وعلمتُ أنّكَ ناصحي ... فلقدْ صدَقْتَ وكنْتَ ثمَّ أمينا
وعرضتَ ديناً قد عرفتَ بأنّه ... من خيرِ أديانِ البريّةِ دينا
لولا الملامةُ أو حذاري سبّة ... لوجدتني سمحاً بذالكَ أمينا(١)

* ولهذا الرَّجل الحصيف عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه بعض المآثر الكريمة في نَقْلِ بعض جوانب السِّيرة النّبويّة في العهدِ المكّيّ، إذ رسمَ لنا بعض صور الدّعوةِ المحمّديَّةِ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ.

* وسنحطُّ الرِّحال عند سيّدنا عقيل الآن ليحدّثنا عن ذلك فيقول: «لمَّا اشتدَّ المشركون علىٰ رسولِ الله ﷺ، قال لعمِّه العبّاسِ بنِ عبدِ المطَّلب رضي الله عنه: «يا عمُّ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ناصرُ دينهِ بقومٍ يهون عليهم رَغْمُ قريش عزّاً في ذات الله تعالىٰ، فامضِ بي إلىٰ عكاظ، فأرني منازلَ أحياءِ العرب حتىٰ أدعوهم إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ما أرسلني به».

---

(١) مختصر سيرة الرّسول (ص ٩٢)، والبدايةُ والنّهايةُ (٣/ ٤٢). ولأبي طالب أشعارٌ كثيرةٌ يخبرُ من خلالها قومه وغيرهم أنّه غير مسلم لرسولِ الله ﷺ، ولا تاركه لشيءٍ أبداً حتىٰ يهلك دونه، ومن قصائده الرّنّانة الجزلة قصيدته اللامية التي مطلعها:

ولمّا رأيتُ القومَ لا ودَّ فيهم ... وقد قطعوا كلَّ العرىٰ والوسائِلِ

ومنها يصفُ سيّدنا رسولَ الله ﷺ:

وأبيض يُستسقىٰ الغمام بوجهه ... ثمال اليتامىٰ عصمة للأراملِ
حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائش ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل

وهي قصيدةٌ طويلةٌ تبلغ قرابة مئة بيت، قال ابنُ كثير عنها: «هٰذه قصيدةٌ عظيمةٌ بليغةٌ جدّاً، لا يستطيعُ بقولها إلا مَنْ نُسبت إليه، وهي أفحلُ من المعلّقات السّبع، وأبلغُ في تأدية المعنىٰ فيها جميعها». (البداية والنّهاية ٣/ ٥٣ ـ ٥٧).

قال عقيل: «فقال العبّاسُ: يا بنَ أخي، امضِ إلىٰ عكاظٍ فأنا ماضٍ معك حتّىٰ أدلّكَ علىٰ منازل الأحياء.

فبدأ رسولُ الله ﷺ بثقيف، ثم استقرىٰ القبائل في سَنَتِهِ...»[1].

عقيلٌ في بَدْرٍ:

* خرجت قريشٌ إلىٰ بدرٍ عن بكرةِ أبيها، وهم في مظهرٍ ينطقُ عن الخيلاء، وينبئ بما اعتزمتْهُ من القضاء علىٰ المسلمين أجمعين، لأنَّ المسلمين بزعم كُفّار قريش قد تطاولوا عليهم، وتصدّوا لِتجارتهم، وهم الأعزّةُ الذين لم يذلّوا، وأهلُ الحرم، وسدنةُ البيت؛ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨][2]؛ فخرجُوا معتزّين بقوّتهم، مدلّين بمكانتهم بين العرب، معتقدين أنّهم سيضربون الضَّربةَ القاضيةَ القاصمةَ التي تأتي علىٰ الإسلام وأهله.

* أرادتْ بنو هاشم الرُّجوع وعدم الخروج إلىٰ بدرٍ، فإذا بِلَعينِ الكفرِ والوثنيَّة أبي جهل قد شدَّد عليهم وطفق يقول: ويحكم لا تفارقُنا هٰذه العصابةُ الهاشميَّةُ حتّىٰ ترجعَ.

* كان من بين الهاشميين الذين خرجوا من مكّة عقيلُ بن أبي طالب،

---

(١) انظر: شرح حياة الصَّحابة (١/ ١٩٧) نقلاً عن دلائل النّبوة لأبي نعيم (ص ١٠٥). وهو حديثٌ طويلٌ يبلغُ أربع صفحات تقريباً، اقتصرنا منه علىٰ أوّله لتتوضح صورة سيّدنا عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه. ومعنىٰ «رغم قريش عزّاً»: أي: إذلالهم وقهرهم علىٰ كره. و«استقرىٰ»: تتبعها يخرجُ من قبيلة إلىٰ أخرىٰ، وقَرو: قَصَدَ وتتبع. و«سنَتِهِ» طول السَّنَة وكانت بعد وفاة أبي طالب وقبل أن يلتقي بأهل المدينة عند العقبة ليلاً.

(٢) ذكر ابنُ عطيَّة في تفسيره بأنَّ إبليسَ قد جاء قريشاً في صورة سراقةَ بنِ مالك، وقال لهم: «إنِّي جارٌ لكم، ولن تخافوا من قومي وهم لكم أعوانٌ علىٰ مقصدكم، ولن يغلبَكم أحد» فسُرّوا عند ذلك ومضوا، وقال لهم: «أنتم تقاتلون عن دينِ الآباءِ ولن تعدموا نصراً». (تفسير ابن عطيَّة من ٨٠٦)

وعمُّه العبّاسُ بنُ عبد المطَّلب، ونوفلُ بنُ الحارث بن عبد المطَّلب، وفي بدرٍ التحمَ الجيشان، وأمدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الصَّحابةَ المجاهدين بروحٍ من عنده، وأخذ رسولُ الله ﷺ يشدُّ عزائمهم، ويبشّرهم بنصرِ الله عزَّ وجلَّ، ويقول لهم: «شدُّوا، ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[القمر: ٥٤]، مَنْ قتَلَ قتيلاً فَلَه سَلبهُ، ومَنْ أسرَ أسيراً فهو له».

* حمل جنودُ اللهِ وأصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ حملةً صادقةً تصدَّعَتْ لها جموعُ الفُجَّار، وانهارت أمامهم قواها، وتلاشَتْ عنجهيتهم بين صليل السُّيوفِ، واشتجار الرّماح، ورنين النِّبال، وألقىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ الرُّعب في قلوبهم، وأخذ فرسانُ المسلمين وأبطالُهم يأسرون ويهزمون ويغنمون، وانجلَتِ المعركةُ عن سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً من المشركين.

* ومن لطائف المصادفات، أنْ كان عدَدٌ من رجال أهل البيتِ في كلا الفريقين المتحاربين، فقد كان رجالٌ هاشميّون إخوة في الجيش المُسلم والجيش الكافر، ففي فريق المسلمين كان سيّدنا حمزةُ بنُ عبد المطَّلب رضي الله عنه، وابنُ أخيه فتىٰ الفتيان وأوّل مَنْ أسلم من الغلمان سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه؛ بينما كان مع فريق المشركين سيّدنا العبّاسُ بنُ عبد المطّلب، وابنُ أخيه عقيلُ بنُ أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

* ومن العجيب أنَّ رجلاً من أبطال الأنصار قد أسرَ ثلاثة هاشميين، وهـٰذا الرّجُل هو عُبيدُ بنُ أوس بن مالك الأنصاريّ الظّفْريّ أبو النُّعمان، شهد بدراً، يُقال له: «مُقَرِّن» لأنَّه قَرَنَ أربعةَ أسرىٰ يوم بدرٍ، وهو الذي أسرَ عقيل بن أبي طالب، ويقال: إنَّه أسرَ العبَّاس[1]، ونوفلاً، وعقيلاً، وأتىٰ بهم رسولَ اللهِ ﷺ، وقد قَرنَهم في حبلٍ، فقال له الصَّادق المصدوق ﷺ: «لقد

---

(١) تذكرُ معظمُ كُتُب السِّيرة أنَّ الذي أسرَ العبَّاسَ بنَ عبد المطّلب هو أبو اليَسَر كعبُ بنُ عمرو السُّلَميّ، وبنو سَلِمَة يدّعون أنَّ صاحبهم أبا اليَسَر هو الذي أَسَرَ العبَّاس. وللتّوفيق بين الرّوايتين نقول: «لعلّه من المتحمل أنْ يكون أبو اليَسَر وعُبيد بن أوس قد اشتركا في أسْرِ العبّاس أو قرنه بالحبْلِ، وفي هـٰذا الاحتمال لا يكون هناك تعارض والله تعالىٰ أعلم».

أعانَكَ عليهم مَلَكٌ كريمٌ» وسمَّاه رسول الله ﷺ مُقَرِّناً[1].

* وكان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ قد أوصىٰ أصحابه قُبيل بَدْءِ معركة بدر بألّا يقتلُوا أحداً من بني هاشم لأنّهم أُخْرجوا إلىٰ المعركةِ مُكْرهين.

* روىٰ هـٰذا الخبرَ كريمٌ من أكارم رجالِ أهلِ البيت وأكابرهم وأسيادهم، هـٰذا الرَّاوي هو سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه بطل فتيان بَدْر، وعالمُ أهلِ البيتِ الذين أذهبَ اللهُ عنهم الرّجْسَ وطهّرهم تطهيراً.

* يقول سيّدنا عليٌّ رضوان الله عليه: «لمَّا كان ليلة بدر، أصابَنَا وَعكٌ من حُمَّىٰ وشيءٍ من مطَرٍ، فافترق النَّاسُ يستترون تحت الشَّجر، وما رأيتُ أحداً يصلّي غير النَّبيّ ﷺ حتّىٰ انفجرَ الصُّبح، فصاح: «عبادَ الله» فأقبل النّاسُ من تحت الشَّجر، فصلَّىٰ بهم، ثمَّ أقبل علىٰ القتال، ورغَّبهم فيه، فقال: «إنَّ بني عبد المطَّلب قومٌ أُخرِجُوا كرهاً، لم يريدوا قتالكم، فَمَنْ لقيَ منكم أحداً منهم فلا يقْتُلْهُ، وليأسِرْهُ أسْراً». ثم قال لهم: «إنَّ جمعَ قريش عند ذلك الضّلع من الجبَلِ».

قال عليٌّ: وكان الشّجاعُ منّا يومئذ الذي يقومُ بإزاء رسول الله ﷺ؛ فلمّا هزمَ اللهُ القومَ التفتُّ فإذا عقيلٌ مشدودةً يداه إلىٰ عنقه بِنِسْعَةٍ، فصددتُ عنه، فصاح بي: يا بن أمّ عليّ، أما واللهِ لقد رأيتَ مكاني، ولكنْ عمداً تصدّ عنّي. فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، هل لك في أبي يزيد مشدودة يداه إلىٰ عنقه بنسعة؟ فقال: «انطلقْ بنا إليه».

فمضينا إليه نمشي، فلمّا رآنا عقيل قال: يا رسولَ الله، إنْ كنتم قتلتم أبا جهلٍ فقد ظفرتم، وإلّا فأدركوا القومَ ما داموا بِحِدْثان قرحِهم، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «قد قتَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ»[2].

---

(١) أسد الغابة (٣/ ٤٣٠) ترجمة رقم (٣٤٨٠)، والإصابة (٢/ ٤٣٤)، والاستيعاب (٢/ ٤٢٩)، مع الجمع بينها. وانظر: الاستبصار (ص ٢٥٨).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٧)، ومعنىٰ «نِسْعة»: سَيرٌ يُنسجُ عريضاً وطويلاً تشدّ به الرّحال. =

* ونستروحُ خبر هٰذه القصَّة وأحداثها وواقعتها من معاويةَ بنِ عمّار الدّهبيّ فيقول: سمعتُ أبا عبد الله جعفر بن محمّد يقول: «قال رسولُ الله ﷺ يوم بدر: «انظروا مَنْ هاهنا من أهل بيتي من بني هاشم». ؟ فجاء عليٌّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه فنظر إلىٰ العبّاسِ ونوفلٍ وعقيلٍ ثمَّ رجع، فناداه عقيلٌ: يا بنَ أمّ عليّ، أمَا واللهِ لقد رأيتَنَا. فجاء عليٌّ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، رأيتُ العبَّاسَ ونوفلاً وعقيلاً، فجاء رسولُ الله ﷺ حتّىٰ قام علىٰ رأسِ عقيل، فقال: «أبا يزيد، قُتِلَ أبو جهل».

قال: إذاً لا ينازعوا في تهامةَ إنْ كنتَ أثخنتَ القومَ وإلا فاركبْ أكتافهم»[(١)].

* ونقلَتْ لنا أخبارٌ متواترةٌ صحيحةٌ أنَّ عقيلاً قال للنَّبيِّ ﷺ يوم أُسِرَ: مَنْ قتلْتَ مِنْ أشرافهم؟

قال صلىٰ الله عليه وسلم: «قُتِل أبو جَهْلٍ».

قال: الآن صَفَا لكَ الوادي[(٢)].

* قال الإمام النَّوويُّ عن أسْرِ عقيل في بدر: «عقيلُ بنُ أبي طالب الصَّحابيُّ رضي الله عنه أبو يزيد القرشيُّ الهاشميُّ المكّيُّ ابنُ عمّ رسول الله ﷺ... حضر بدراً مع المشركين مكرهاً، وأُسِرَ يومئذ، فَفَداهُ عمّه العبّاس»[(٣)].

* وقد أجمعتْ كتبُ السِّيرة ومصادرها علىٰ أنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا أقبل الأسارىٰ من بدر فرّقهم بين أصحابه وقال لهم: « استوصوا بالأسارىٰ خيراً»

= و«حذثّان»: بداية الأمر وأوله. و«قرحهم»: جراحهم.

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٣)

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٣)، وسير أعلام النُّبلاء (١/ ٢١٨)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٦).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٧)، وانظر: تاريخ الإسلام للذّهبيّ (المغازي ص ١١٧).

فكان المسلمون يكرمونهم ويؤثرونهم علىٰ أنفسِهم.

* ثمَّ إنَّ الصَّادقَ ﷺ استشار كبارَ أصحابهِ في شأنِ الأسرىٰ فأشارَ سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه قائلاً: «يا رسولَ الله، قومُكَ وأهلُكَ، استبْقِهم واستأْن بهم لعلَّ اللهَ أنْ يتوبَ عليهم»(١) بينما أشار سيّدنا عمرُ بأنْ تُضربَ أعناقهم، وأشار سيّدنا عبدُ الله بنُ رواحة أنْ يضرمَ عليهم ناراً، وهاهنا آثرَ رسولُ الله ﷺ الفداء لما كان عليه أصحابه من رقّةِ الحال، وشدّةِ الفَقْر حينذاك، ثمَّ إنَّ القُرآنَ الكريمَ نزل وأحلَّ للنَّبيِّ ﷺ وللمسلمين ما أخذوا من الغنيمةِ والفِداءِ، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٩].

* كان في الأسرىٰ السَّبعين النَّفر الهاشميّون: العبّاسُ وعقيلٌ ونوفلٌ، وكان العبّاسُ ذا يسار ومالٍ، ولكنَّه طمع بأنْ يمنَّ عليه رسولُ الله ﷺ بلا فداء، فأبىٰ عليه رسولُ الله ﷺ إلاّ أنْ يدفعَ فديته، وأنْ يدفعَ كذلك فدية الهاشميين من أهلِهِ ومن حلفائهِ الذين حضروا معه القتال.

* فَصَّل الإمام الزّهريّ هـٰذا الأمرْ فقال: «بعثَتْ قريشٌ إلىٰ رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدىٰ كلُّ قومٍ أسيرهم بما رضوا، وقال العبّاس: يا رسولَ الله، قد كنتُ مسلماً.

---

(١) سبل الهدىٰ والرّشاد (٤/ ٩٢) بتصرّف نقلاً عن المسند. وفي رواية أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما ترون في هؤلاء الأسرىٰ؟ إنَّ اللهَ قد أمكنكم منهم، وإنّما هم إخوانكم بالأمس» فقال سيّدنا أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: «يا رسولَ اللهِ، أهلُك وقومُك، قد أعطاكَ اللهُ الظّفرَ ونصرَك عليهم، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان؛ استبقهم، وإنّي أرىٰ أن تأخذَ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا علىٰ الكفّار، وعسىٰ الله أنْ يهديهم بك، فيكونوا لك عضداً»...
ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ قال لسيّدنا أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه: «... مثلُكَ يا أبا أبكر في الملائكة مثلُ ميكائيل ينزل بالرّحمة، ومَثَلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسىٰ ابن مريم إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨]. (سبل الهدىٰ والرّشاد ٤/ ٩٢) باختصار.

فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهُ أعلمُ بإسلامك، فإنْ تكنْ كما تقولُ فإنَّ اللهَ يجزيك، وأمّا ظاهرُكَ فقد كان علينا، فافْتَدِ نفسَكَ وابنَي أخيك: نوفلَ بن الحارث بن عبد المطَّلب، وعقيلَ بنَ أبي طالب، وحليفَكَ عتبةَ بنَ عمرو أخي بن الحارث بن فهر».

قال العبّاسُ: ماذاك عندي يا رسولَ اللهِ.

فقال ﷺ: «فأين المال الذي دفنتَه أنتَ وأمّ الفضل؟ قلتَ لها: إنْ أصبْتُ في سَفَري هٰذا فهٰذا المال الذي دفنتُه لِبَنِيَّ: الفضل، وعبد الله، وقثم».

قال: واللهِ يا رسولَ الله إنّي لأعلمُ أنَّك رسولُ الله، إنَّ هٰذا لشيٌ ما علمه أحدٌ غيري وغير أمّ الفَضْل؛ فاحسُب لي يا رسولَ الله ما أصبتم منّي: عشرين أوقية من مالٍ كان معي.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا . . . ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالىٰ منك».

ففدىٰ نفسَهُ وابنَي أخوَيْه وحليفَه».

* وروىٰ البيهقيُّ عن إسماعيلَ بنِ عبد الرّحمن السُّدّيّ قال: «كان فداء العبّاس، وعقيل ابن أخيه، ونوفل، كلّ رجل أربع مئة دينار»[1].

* وأفاد ابن سعد بأنّه «لمّا أُسِرَ نوفلُ بنُ الحارث[2] ببدر، قال له

---

(١) انظر: سبل الهدىٰ والرّشاد (٤/ ١٠٥). وجاء في سبل الهدىٰ والرَّشاد: أنَّ رسولَ الله ﷺ أسرَ يوم بدر سبعين من قريش، منهم العبّاس، وعقيل، فجعلَ عليهم الفداء أربعين أوقية من ذهب». وقال سعيدُ بنُ جبير: «وجعل ﷺ علىٰ العبّاس مئة أوقية، وقالوا أربعين، وعلىٰ عقيل ثمانين أوقية. فقال العباس: لقد تركتني فقيرَ قريشٍ ما بقيت فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن﴾[الأنفال: ٧٠]. قال العبَّاس حين أنزلت: لوددت أنَّك كنتَ أخذتَ منّي أضعافها، فأتاني اللهُ خيراً منها أربعين عبداً، كلٌّ في يده ماله يضربُ به، وإنّي أرجو من الله المغفرة».

(٢) نوفلُ بنُ الحارث بن عبد المطّلب الهاشميّ القرشيّ أبو الحارث، كان رجلاً علىٰ عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقد صحبَهُ وروىٰ عنه، وله عدّة أولاد نجباء منهم: عبدُ الله، وعبدُ الرّحمن، =

رسولُ الله ﷺ: «افْدِ نفسَكَ يا نوفل» قال: مالي شيءٌ أفتدي به نفسي يا رسولَ الله.

قال: «افْدِ نفسَك برماحِك التي بجُدَّة».

قال: أشهدُ أنّك رسولُ اللهِ، ففدىٰ بها نفسه وكانت ألف رمح»[1].

* ومع أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد تألَّمَ لأسْرِ ابن عمّه عقيل ونوفل وعمّه العبّاس، فقد أبىٰ إلاّ أنْ يأخذَ منهم الفداء، وأقسم أنّه لا يذَرُ لهم درهماً واحداً.

* والحقيقةُ؛ فهٰذا التَّصرُّفُ النَّبويُّ الحكيمُ هو غايةُ العدلِ والإنصاف في

= وربيعةُ، وسعيدُ، والمغيرةُ؛ وبناتٌ.

ولمَّا أخرجَ المشركون مَنْ كان بمكّة من بني هاشم إلىٰ بدرٍ كُرهاً، كان فيهم نوفلُ بنُ الحارث، فأنشأَ يقول:

حَـرَامٌ عَلـيَّ حـربُ أحمـدَ إنّنـي ... أرىٰ أحمـداً منّـي قـريبـاً أواصـرُه
وإنْ تـكُ فِهْـرٌ ألَّبـتْ وتجمّعـتْ ... عليـهِ فـإنَّ اللهَ لا شَـكَّ نـاصـرُه

وقال نَوفلُ بنُ الحارث لمّا أسلم:

إليكـم إليكـم إنّنـي لَسْـتُ منكـم ... تبـرّأتُ مـن ديـن الشّيـوخ الأكـابـر
لعمـركَ مـا دِينـي بشـيءٍ أبيعُـهُ ... ومـا أنـا إذْ أسلمـتُ يـومـاً بكـافـر
شهـدتُ علـىٰ أنَّ النّبـيّ محمّـداً ... أتـىٰ بـالهـدىٰ مِـنْ ربّـه والبصـائـر
وإنَّ رسـولَ الله يـدعـو إلـىٰ التّقـىٰ ... وإنَّ رسـولَ اللهِ لِيـس بشـاعـر
علـىٰ ذاكَ أحيـا ثـمّ أُبعَـثُ مـوقنـاً ... وأثـوي عليـه ميّتـاً فـي المقـابـر

كان نوفلُ بنُ الحارث عندما أسلمَ أسنّ مَنْ أسلم مِنْ بني هاشم، ورجع إلىٰ مكّةَ ثمَّ هاجرَ هو وعمُّه العبّاس إلىٰ رسولِ الله ﷺ، وآخىٰ بينه وبين العبّاس، وكانا قبل ذلك شريكين في الجاهلية، متفاوضين في المال، متحابين متصافيين، وأقطع رسول الله ﷺ نوفلاً منزلاً عند المسجد بالمدينة، وأقطع كذلك عمّه العبّاس في موضع واحد، وفرع بينهما بحائط. وشهد نوفل مع النّبيّ ﷺ فتح مكة وحُنين والطّائف، وثبتَ يوم حُنين، فكان عن يمين النَّبيِّ ﷺ يومئذٍ، وتوفي نوفل بعد أن استُخلفَ عمر بثلاثة أشهر، ودُفن بالبقيع رضي الله عنه (طبقات ابن سعد ٤/ ٤٤ ـ ٤٧).

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٦).

المعاملة، فالصَّادقُ المصدوقُ ﷺ مع رحمته بعمّه العبّاس، وابني عمّه عقيل ونوفل، وتخوّفه عليهم أنْ يُقتلوا، وهو يرجو من ورائهم ومكانتهم للإسلام خيرٌ كثيرٌ، مع هٰذا كلّه كانت نفسُه الشَّريفة السَّامية تأبىٰ عليه أنْ يفرِّق بينَ رهطِهِ الهاشميين وبين الأسرىٰ في الفداء، بل رفض أنْ يمنَّ الأنصارُ عليهم خشية أن يكون عملهم هٰذا لمكانتهم وقرابتهم من رسولِ اللهِ ﷺ، وخصوصاً عمّه العبّاس، مع أنَّه ﷺ قد منَّ علىٰ بعضِ الأسارىٰ دونَ فداء، وهٰذا ليس بعجيبٍ ممَّنْ كان خلقُه القُرآن، وأثنىٰ عليه الرّحمن، في محكم الفرقان.

* كان هٰذا التّصرّفُ الحميدُ من الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ بادرةً مباركةً للأسرىٰ أجمعين، إذ وعدهم اللهُ عزَّ وجلَّ بالخير إنْ أسلموا، وعدهم بالعوض عمّا أُخِذَ منهم في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٠]

* جاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٠] الآية، نزلت في الأسارىٰ يوم بدر، منهم: العبَّاسُ بنُ عبد المطَّلب، ونوفلُ بنُ الحارث، وعقيلُ بنُ أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين(١).

* ومن بوادرِ التَّوفيقات الإلهيّة أنْ أسلم عددٌ كبير من أسرىٰ بَدْر، وفي مقدمتهم رجالُ أهلِ البيت من بني هاشم وهم: سيدنا العبّاس بن عبد المطَّلب، ونوفلُ بنُ الحارث، وعقيلُ بنُ أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

* كما أسلم عددٌ من أعيان الصَّحابة ونجبائهم من مثل: سيّدنا أبو العاص بنُ الرّبيع، وأبو عزيز بنُ عُمير العبدريّ، وخالدُ بنُ هشام المخزوميّ، وأبو وداعة السَّهميّ، وسهيلُ بنُ عمرو العامريّ، وعبدُ الله بنُ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٦).

زمعةَ أخو سودةَ أمّ المؤمنين، والمطّلبُ بنُ حنطب، ووهبُ بنُ عمير الجُمحيّ، والوليدُ بنُ الوليد بن المغيرة وغيرهم[١].

مَكَانتُه عندَ رسُولِ اللهِ ﷺ:

* بعد أنْ عاد سيّدنا عقيلٌ بنُ أبي طالب رضي الله عنه إلىٰ مكّةَ، أقام بها بضع سنين عرف من خلالها نعمةَ الإسلام وبركته، ولم يزلْ مقيماً بأمِّ القرىٰ حتّىٰ أسلمَ قبل الحُديبية، وجاء إلىٰ المدينةِ المنوّرة مهاجراً إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ سنة ثمان، وشهد غزوةَ مؤتة مع أخيهِ جعفرَ رضي الله عنهما[٢].

* وزعَمَ ابنُ عساكر رحمه الله أنَّ سيّدنا عقيلاً بارزَ رجلاً يومَ مؤتةَ فَقَتَلَهُ، فَنَفَلَهُ النّبيُّ ﷺ خاتمه. وقيل: نَفَله سيفَه وترسَه[٣].

* وأخبر حفيدُهُ عبدُ الله بنُ محمّد بن عقيل قال: «أصاب ـ جدِّي ـ عقيلُ بن أبي طالب رضي الله عنه خاتماً يوم مؤتة فيه تماثيل، فأتىٰ به رسولَ اللهِ ﷺ، فنَفَلَهُ إيّاه، فكان في يده[٤]».

* قال قيسُ بنُ الرَّبيع عن هـٰذا الخاتم: «فرأيتُه أنا بعد»[٥].

* وعندما سَرَدَ ابنُ سعد سيرة سيّدنا عقيل قال: «شهد غزوةَ مؤتةَ ثمَّ رجع فَعَرضَ له مرضٌ، فلم يُسْمَعْ له بذكرٍ في فتح مكّةَ ولا الطَّائفِ ولا خيبرَ ولا حُنينٍ، وقد أطعمه رسولُ الله ﷺ بخيبرَ مئة وأربعين وسقاً كلّ سنة[٦]».

---

(١) سبل الهدىٰ والرّشاد (٤/ ١١٩)؛ وانظر بقية أسماء مَنْ أسلموا في المصدر ذاته.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٧)، ومختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٦) مع الجمع والتّصرّف.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٦).

(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٣)، وسير أعلام النُّبلاء (١/ ٢١٩). و«نفله»: أعطاه.

(٥) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٣).

(٦) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٣). وانظر: أسد الغابة (٣/ ٥٦١) ترجمة رقم (٣٧٢٦)، وسير أعلام النُّبلاء (١/ ٢١٨).

* وهنالك شذرات من الأخبار تشيرُ إلىٰ أنَّ سيّدنا عقيلاً شارك في غزوة حُنين، وله فيها أثَرٌ مذكورٌ.

* فعن سيّدنا حسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما قال: «كان ممّن ثبتَ مع رسولِ اللهِ ﷺ يومَ حُنين: العبّاسُ، وعليٌّ، وأبو سفيانَ بنُ الحارث، وعقيلُ بنُ أبي طالب، وعبدُ الله بنُ الزّبير بن عبد المطّلب[1]، والزُّبيرُ بنُ العوّام، وأسامةُ بنُ زيد، وأيمنُ بنُ عبيد أخو أسامة بن زيد لأمّه[2]».

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ عقيلاً كان يحبُّ ابنَ عمِّه أبا سُفيانَ بنَ الحارث بنِ عبد المطّلب، ويهتمُّ بأمرِه، إذ إنّه من بني هاشم الأخيار، ومن أصحاب النّبي ﷺ المُختار، ومن فرسانه الأبرار، وأبطالِه الكُرّار.

* ومن الأخبارِ العقيليّةِ الجميلةِ أنَّ عقيلاً قد جعَل من دارِه بالمدينةِ مثوىً لابنِ عمِّهِ أبي سفيانَ بنِ الحارث، فقد ذكر عمرُ بنُ شبّة في «تاريخِ المدينةِ المنوّرة وأخبارِها» عن عبدِ العزيزِ بنِ عمران قال: «بلغني أنَّ عقيلَ بنَ أبي طالب رأىٰ أبا سفيانَ بنَ الحارث رضي الله عنه يجولُ بين المقابرِ، فقال له: يا بنّ عمّ مالي أراكَ هاهنا؟ قال: أطلبُ موضعَ قبرٍ. فأدخلَه دارَهُ، وأمرَ بقبرٍ فَحُفِرَ في قاعتِها، فقعدَ عليه أبو سفيانَ ساعةً ثمّ انصرف، فلم يلبثْ إلا يومين

(١) عبدُ الله بنُ الزُّبير بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف القرشيّ الهاشميّ، ابنُ عمّ النّبيّ ﷺ، هو أخو الصّحابية ضباعة بنت الزّبير، وكان الزُّبيرُ أخا عبد الله والدِ رسول الله ﷺ وأخا أبي طالب لأبيهما وأمهما.
شهد عبدُ الله بنُ الزّبير هٰذا قتالُ الرّوم في خلافةِ أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه، وقُتلَ يوم أجنادين شهيداً، ووجد حوله عصبة من الرّوم قَتَلَهم، ثمَّ أثخنتْه الجراح فمات. وكان أوّلُ قتيلٍ من الرّوم يوم أجنادين البطريق، قتله عبدُ الله بنُ الزُّبير، ثم برز إليه آخر، فضربه عبد الله علىٰ عاتقه فولّىٰ منهزماً، ولمّا اختلطت السُّيوف، وحميَ وطيسُ المعركة، وُجِدَ عبد الله وحوله عشرة من الرّوم قتلىٰ وهو مقتول بينهم. وكان النّبي ﷺ يقول عنه: «ابن عمي وحبّي» أو «ابن أمّي». (أسد الغابة ٣/ ١٢٧) ترجمة رقم (٢٩٤٦).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٨).

حتىٰ تُوفي، فدُفنَ فيه[1]».

* كان لسيّدنا عقيل مكانةٌ عند رسولِ اللهِ ﷺ، فقد ذكروا أنَّ عقيلاً قال للنَّبيّ ﷺ: إنَّه لم يبقَ من أهل بيتك أحدٌ إلاّ وقد أسلم.

قال: «فقل لهم فليلحقوا بي».

فلمّا أتاهم عقيلٌ بهـٰذه المقالة خرجُوا[2].

* وعن سيّدنا عليّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُعطي كلُّ نبيٍّ سبعةَ رفقاء، وأُعطيتُ أنا أربعةَ عشَر».

قيل لعليّ: مَنْ هم؟

قال: «أنا، وابناي الحسنُ والحُسينُ، وحمزةُ، وجعفرُ، وعقيلٌ، وأبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ، والمقدادُ، وعمَّارُ، وطلحةُ، والزُّبيرُ[3]».

* وكان الحبيبُ المُصطفىٰ ﷺ يجلُّ عقيلاً ويحبُّه محبّةً متميزةً، ويصرّحُ له بذلك، وقد نقل لنا سيّدنا عقيل صورة هـٰذا الحبّ النّبويّ له فقال: «نازعتُ عليّاً وجعفرَ بنَ أبي طالب في شيء، فقلتُ: واللهِ ما أنتما بأحبَّ إلىٰ

---

(١) تاريخ المدينة المنوّرة (١/ ١٢٧)، والإصابة (٤/ ٩١)، ووفاء الوفا(٣/ ٩١١)، وغيرها، وقال ابنُ عبد البَرّ رحمه الله: «مات أبو سفيان بن الحارث سنة عشرين، ودُفن في دارِ عقيلِ بنِ أبي طالب، وصلّىٰ عليه عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه... وكان أبو سفيان هو الذي حفرَ قبر نفسِه قبل أنْ يموتَ بثلاثةِ أيّام (الاستيعاب ٤/ ٨٥) باختصار يسير جداً.
وكان أبو سفيان بن الحارث من مشاهيرِ شعراء بني هاشم ومن فرسانِهم وأبطالهم الأخيار، ومن شعرهِ في الفخر ببلاغةِ بني هاشمٍ، وشجاعتهم، وكثرةِ فضائلهم قولُه رضي الله عنه:

لقد علمتْ قريشٌ غيرَ فخرٍ ... بأنّا نحنُ أجودهُم حصَانا
وأكثرُهُم دروعاً سابغاتٍ ... وأمضاهم إذا طعنوا سِنَانا
وأدفعُهُم لذي الضّراء عنهم ... وأبينُهم إذا نطقوا لِسَانا

(٢) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٦).
(٣) المصدر السابق ذاته (١٧/ ١١٩).

رسولِ اللهِ ﷺ منّي، إنَّ قرابتنا لواحدة، وإنَّ أبانا لواحدٌ، وإنَّ أمَّنا لواحدة.

فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحبُّ أسامةَ بن زيد».

قلتُ: إني ليس عن أُسامةَ أسألُكَ، إنّما أسألُكَ عن نفسي.

فقال: «يا عقيلُ، إنّي واللهِ لأحبّك لخصلتَيْن: لقرابتك؛ ولحبّ أبي طالب إياك ـ وكان أحبهم إلىٰ أبي طالب ـ وأمّا أنتَ يا جعفرُ فإنَّ خلقَكَ يشبهُ خلقي، وأمّا أنتَ يا عليّ فأنت منّي بمنزلةِ هارونَ من موسىٰ، غير أنَّه لا نبيَّ بعدي[1]».

* وفي رواية أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لعقيلِ بنِ أبي طالب رضي الله عنه: «يا أبا يزيد، إنّي أحبُّكَ حبّيْن: حبّاً لقرابتك منّي، وحبّاً لما كنتُ أعلمُ من حبّ عمّي إيّاك»[2].

* وكثيراً ما كان الصّادق المصدوق ﷺ يرحّبُ بعقيلٍ ويدنيه ويكرمُهُ ويسألُهُ عن حاله، فعن جابر رضي الله عنه: أنَّ عقيلاً دخل علىٰ النّبي ﷺ فقال: «مرحباً بك يا أبا يزيد، كيف أصبحت»؟

قال: بخير صبحك الله يا أبا القاسم[3].

* وأورد البلاذري خبراً مفاده أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد وهبَ لفاطمةَ بنتِ أسد ـ أمِّ عقيل ـ أسيراً من سبي بني العنبر، فوهبَتْه لعقيل بنِ أبي طالب»[4].

* وكان لعقيل رضي الله عنه أخبارٌ جميلةٌ مع الإسلام، ذلك الدِّينُ القيّمُ الذي صقَلَه وربَّاه وهذَّبه، وجعله في مصافّ العاملين الزّاهدين، ويردُّ أيّ شيء

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٣)، والمعجم الكبير (١٧/ ١٩١) برقم (٥١٠)، وقال الهيثميُّ في المجمع (٩/ ٢٧٣): «ورجاله ثقات».

(٣) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٩).

(٤) أنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٤٠).

مهما كان نوعه أو ثمنه إلىٰ مكانه. فقد نَوَّهْنَا في ثنايا ترجمته إلىٰ أنَّه حضرَ غزوة حُنين، وثبتَ مع مَنْ ثَبَتَ حولَ النَّبيّ ﷺ في ذلك اليوم. وعندما وضعَتِ الحربُ أوزارهَا، أمرَ رسولُ الله ﷺ بالغنائم أنْ تُجمعَ، ونادىٰ مناديه: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فلا يَغُلَّ». فجعل النّاسُ غنائمهم في موضعٍ حتّىٰ استعملَ رسولُ الله ﷺ عليها. وكان عقيلُ بنُ أبي طالب قد دخلَ علىٰ زوجتِهِ وسيفه متلطّخ دماً، فقالتْ: إنّي قد علمتُ أنَّك قد قاتلْتَ المشركين، فماذا أصبْتَ من غنائِمهم؟

قال: هٰذه الإبرة تخيطين بها ثيابك.

فدفَعَها إليها، وهي فاطمةُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعةَ، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أصاب شيئاً من المغنم فليردّه»، فرجع عقيلٌ فقال: واللهِ ما أرىٰ إبرتك إلاّ قد ذَهَبَتْ، فألقاها في الغنائم»[1].

* ومن الأخبار والأحداث التي تتعلّق بسيرة عقيل أنّه استولىٰ علىٰ الدَّارِ المباركةِ بمكَّة، دار أمّنا خديجةَ بنتِ خويلد رضي الله عنها، وقد وصف هٰذه الدّار واستيلاء عقيل عليها الإمامُ الفاسيُّ فقال: «بمكَّةَ دورٌ مباركةٌ معروفةٌ عند النَّاس وغالبُها مساجدُ، ولكنَّها مشهورةٌ عند النّاس بالدُّور، منها: دارُ خديجةَ بنتِ خُويلد أمِّ المؤمنين رضي الله عنها بالزّقاق المعروف بزقاق الحِجْر بمكَّةَ، وتُعرفُ هٰذه الدّار بمولدِ فاطمة رضي الله عنها، لكونها وُلدتْ فيها هي وإخواتُها أولاد خديجة من النَّبيّ ﷺ، ولم يزل النَّبيّ ﷺ ساكناً فيها، حتّىٰ هاجر إلىٰ المدينة، فأخذها عقيلٌ وباعها قبل إسلامه والله أعلم[2]».

---

(١) المغازي (٣/ ٩١٨)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٤٤)، ومعنىٰ «يغلّ»: من الغلول: وهي الخيانة في المغنم. ويُروىٰ أن عقيلاً قال عندما سمع بردّ المغنم: «ما أرىٰ إبرتَنا إلاّ مأخوذة منّا» انظر: (أنساب الأشراف: علي وبنوه ص ٧٢).

(٢) شفاء الغرام للفاسي (١/ ٤٣٦) بشيء من الاختصار والتّصرّف. وانظر: الرّسالة المحمّديّة (ص ٦٢٧).

* وتدلنا كتبُ السِّيرة والحديث والمغازي علىٰ منزلِ رسولِ اللهِ ﷺ يوم فتح مكَّة فنقول: «كان أبو رافع ـ مولىٰ النّبيّ ﷺ ـ قد ضربَ لرسولِ اللهِ ﷺ قبّةً بالحَجون من أدم، فأقبل رسولُ اللهِ ﷺ حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ القبّة، ومعه أمُّ سلمة، وميمونةُ زوجتاه»[1].

* وقد صحَّ عنه ﷺ أنَّ أصحابه من المهاجرين جاؤوا فطلبوا منه دورهم ومنازلَهم يوم فتح مكّةَ، فلم يردّ علىٰ أحَدٍ داره. ولذلك قيل له يوم الفتح: أينَ تنزلُ غداً من دارك بمكَّةَ، فقال: «وهل تركَ لنا عقيلٌ منزلاً»[2]؟ وفي روايةٍ: «وهل ترك لنا عقيلٌ من رباعٍ أو دورٍ»؟

* وذلك أنَّ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ لمّا هاجرَ إلىٰ المدينةِ المنورةِ، وثبَ عقيلٌ علىٰ رباع النَّبيّ ﷺ بمكة، فحازها كلّها، وحوىٰ عليها، ثمَّ أسلمَ وهي في يده، وقضىٰ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ مَنْ أسلمَ علىٰ شيءٍ فهو له، وكان عقيلٌ ورثَ أبا طالب ولم يرثْهُ عليٌّ لتقدّم إسلامه علىٰ موت أبيه، ولم يكن لرسولِ اللهِ ﷺ ميراثٌ من عبد المطّلب، فإنَّ أباه عبد الله مات، وأبوهُ عبد المطلب حيٌّ، ثمَّ مات عبدُ المطّلب، فورثَهُ أولاده، وهم أعمامُ النَّبيِّ ﷺ، ومات أكثرُ أولادِهِ، ولم يعقبوا، فحاز أبو طالب رِبَاعه، ثمَّ مات، فاستولىٰ عليها عقيلٌ دون عليّ لاختلافِ الدِّين، ثمَّ هاجر النَّبيّ ﷺ فاستولىٰ عقيلٌ علىٰ داره، فلذلك قال

---

(١) انظر مثلاً: سبل الهدىٰ والرّشاد (٥/ ٣٤٩)، وهـٰذا المكانُ الذي نزله رسولُ اللهِ ﷺ هو خَيْف بني كنانة الذي تحالف عليه المشركون، وحصروا بني هاشم وبني المطّلب فيه: قال الصّالحي: «الحكمةُ في نزولِ النَّبيّ ﷺ بخيف بني كنانة، ليتذكَّرَ ما كان فيه من الشّدة أيّام كان بمكّةَ في مطلع فجرالرّسالة، وبالتّالي يشكر الله عزَّ وجلَّ علىٰ ما أنعم عليه من الفتح العظيم، وتمكُّنه من دخول مكّة ظاهراً علىٰ رغم من سعىٰ في إخراجه منها، ومبالغة في الصَّفح عن الذين أساؤوا، ومقابلتهم بالمنّ والإحسان، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» (سبل الهدىٰ والرّشاد ٥/ ٤٠٠) بشيء من التّصرّف.

(٢) أخرجه البخاريّ برقم (١٥٨٨)، ومسلم برقم (١٣٥١) عن سيّدنا أسامةَ بنِ زيد رضي الله عنهما.

رسولُ اللهِ ﷺ: «وهل تركَ لنا عقيلٌ منزلاً»(١).

* وروىٰ محمّدُ بنُ عمر عن أبي رافعٍ رضي الله عنه قال: قيل للنّبيّ ﷺ: ألا تنزل منزلكَ من الشِّعب؟ فقال: «وهل تركَ لنا عقيلٌ منزلاً»؟

وكان عقيلٌ قد باع منزلَ رسولِ اللهِ ﷺ، ومنزل إخوته من الرّجال والنّساء بمكّةَ. فقيل لرسول الله ﷺ: فانزلْ في بعضِ بيوت مكّةَ غير منازلك، فأبىٰ رسولُ الله ﷺ وقال: «لا أدخلُ البيوت» ولم يزلْ رسولُ الله ﷺ مقيماً بالحَجُون لم يدخلْ بيتاً، وكان يأتي المسجدَ لكلِّ صلاة من الحَجُون(٢).

روايتُهُ للْحَديثِ النَّبويِّ:

* عندما تعرَّض الذّهبيُّ لترجمةِ سيّدنا عقيل رضي الله عنه قال: «وله جَماعَةُ أحاديث»(٣).

* روىٰ عنه الحديثَ ابنُه محمّدٌ، وحفيدُهُ عبدُ الله بنُ محمَّد بن عقيل،

(١) انظر: زاد المعاد (٥/ ٧٦ و ٧٧). قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله في شرحِ صحيح مسلم: «كان عقيلٌ ورثَ أبا طالب هو وطالب، ولم يرثْهُ جعفرُ ولا عليٌّ شيئاً، لأنّهما كانا مسلمين، وكان عقيلٌ وطالبٌ كافرين.» وقال الدّاودي: «باع عقيلٌ جميعَ ما كان للنّبيِّ ﷺ ولمن هاجر من بني عبد المطّلب». (المنهاج ص ١٠٢٣) باختصار.
ومن الجدير بالذكر أنَّ النبيَّ ﷺ وُلدَ في الدّار التي عند الصّفا قُرب دار الأرقم، ولما هاجر ﷺ إلىٰ المدينةِ وضع عقيل بن أبي طالب يده عليها، ثمَّ انتقلت إلىٰ أولاده بعد وفاته إلىٰ أنْ باعوها إلىٰ محمّد بنِ يوسفَ أخي الحجاج عامل العراق المعروف. باعوها له بمئة ألف دينار. ولما حجَّتِ الخيزرانُ أمّ الرشيد، أخرجت تلك الدّار من دار ابن يوسف، وجعلتها مسجداً، كما جعلتْ دار الأرقم، ولما حجّتْ زبيدةُ جددت بناء المسجد الذي أقامته الخيزران علىٰ دار الرّسول ﷺ. أمّا الدّار التي باعها عقيل قبل إسلامه، فهي دار خديجة رضي الله عنها، وقد ذكرنا ذلك، وانظر: (أخبار مكة ٢/ ١٩٨).

(٢) انظر: سبل الهدىٰ والرَّشاد (٥/ ٣٤٩)، والمغازي (٢/ ٨٢٩). و«الحَجونِ»: مكان في مكّةَ المكرمةِ ما زال معروفاً، وجاء في صحيح البخاري وغيره، أنَّ رسول الله ﷺ أمرَ يوم فتح مكّة أنْ تُركَزَ رايتُهُ بالحَجُون.

(٣) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٩٩).

وموسىٰ بنُ طلحة، وعطَاءُ، والحسنُ، وأبو صالح السَّمَّان. ونستنتج أنَّ عقيلاً لم يكنْ من المكثرين في رواية الحديث. قال النَّوويُّ رحمه الله عن رواية سيِّدنا عقيل رضي الله عنه للحديث النَّبويّ: «روىٰ عن النَّبيّ ﷺ أحاديث وهو قليلُ الحديث، روىٰ عنه ابنُهُ محمَّدٌ، وابنُ ابنه عبد الله بنِ محمّد بنِ عقيل، وموسىٰ بنُ طلحة، والحسنُ البصريّ، وغيرهم[1]».

* وأكّدَ ابنُ الأثير علىٰ قلّةِ روايةِ عقيل فقال: «روىٰ عنه ابنُه محمَّد، والحسن البصريّ، وغيرهما، وهو قليلُ الحديث[2]».

* بينما لم يحدّد ابنُ حجر في «تهذيب التّهذيب» مرويّات سيّدنا عقيل وإنَّما أجمل فقال: «روىٰ عن النَّبيّ ﷺ[3]».

* فسيّدنا عقيلٌ بنُ أبي طالب رضي الله عنه من رجال أهل البيتِ العُلماء[4] الذين نقلُوا لنا شيئاً من حديث النَّبيِّ ﷺ هديهِ وسيرتهِ العطرة، وقد مرَّ معنا في الفقراتِ السَّابقة بعضُ المواقفِ العظيمةِ من السِّيرةِ النَّبويّةِ في العهدِ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٧٧).

(٢) أسد الغابة (٣/ ٥٦٢) ترجمة رقم (٣٧٢٦).

(٣) تهذيب التّهذيب (٧/ ٢٥٤).

(٤) ذكر الإمامُ أبو حاتم محمّد بن حبّان البُستيّ المتوفىٰ سنة (٣٥٤ هـ) أنَّ سيّدنا عقيلاً من مشاهير علماء الصَّحابة في المدينةِ المنوّرةِ، وهم (١٥٢ عالماً) وقال في بدايةِ حديثه عنهم: «أوّلُ ما نبدأ من الصَّحابة الذين كانوا بالمدينة: بالخلفاء الرّاشدين المهديين علىٰ حسبِ ما استخلفوا واحداً بعد الآخر، ثمَّ يعقبُهم الذين شهدَ لهم المصطفىٰ ﷺ بالجنَّةِ، ثم نذكرُ بعدهم سائر الصَّحابة الذين استوطنوا المدينةَ وقطنوها سواء حلّت المنيّةُ بهم فيها أو في غيرها إذ الاعتبارُ استيطانهم إياها، وإن دفعتهم الغزوات والقيام بأمور المسلمين إلىٰ الخروج منها إلىٰ غيرها» (مشاهير علماء الأمصار ص ٢٢). ثم عرَّجَ ابنُ حبّان في التّرجمة رقم (١٤) علىٰ ترجمة سيّدنا عقيل فقال: «عقيلُ بنُ بنُ طالب بن عبد المطَّلب، أخو عليِّ بنِ أبي طالب، كنيتُه أبو يزيدَ. ورثَ أبا طالب عقيلٌ وطالب، ولم يرثْهُ عليٌّ ولا جعفرُ لأنَّهما كانا مشركَيْن، مات عقيلٌ في آخر إمارة معاويةَ بنِ أبي سفيان وضي الله عنهما». (مشاهير علماء الأمصار ص ٢٧).

المكّيّ التي نقلها لنا سيّدنا عقيل في أدبِ التّهنئة بالزَّواج ما أخرجه الإمامُ بسنده عن حفيده عبد الله بن محمّد بن عقيل قال: «تزوَّجَ عقيلٌ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، فخرج علينا فقلنا: بالرّفاء والبنين، فقال: مَه، لا تقولُوا ذلك، فإنَّ النَّبيّ ﷺ قد نهانا عن ذلك وقال: «قولُوا: باركَ اللهُ لها فيك، وباركَ لكَ فيها[1]».

* وفي الموضوع ذاته أخرجَ الحاكمُ في المستدرك بسندِهِ عن الحسن البصريّ قال: «قدمَ علينا عقيلٌ بنُ أبي طالب فتزوَّجَ امرأةً من بني جشمِ بنِ سعد، فدخلَ بها، ثم خرجَ، فقالوا: بالرَّفاء والبنين.

قال: بل قولُوا: باركَ اللهُ لك، وباركَ عليك[2]».

* وفي روايةٍ عند الإمام أحمد: «فقال: لا تفعلُوا ذلك.

قالوا: فما نقول يا أبا يزيد؟

قال: قولوا: بارك اللهُ لكم، وبارك عليكم، إنّا كذلك كُنَّا نُؤْمَر[3]».

* وفي روايةٍ: «كُنّا نُؤمرُ بأنْ نقول: بارك الله لكم، وبارك عليكم، ولا نقول: بالرّفاء والبنين»[4].

* والدّعاء لمن تزوّج من سُنَن الهدي النّبويّ، فقد ذكرتْ كتُبُ السُّنن والمسانيد ذلك، ووردت عن سيّدنا أبي هريرة[5] رضي الله عنه. أنَّ النَّبيَّ

---

(١) المسند (١/ ٤٣٠) حديث رقم (١٧٣٨). و«الرّفاء والبنين»: الرّفاء: الالتئام، والاتّفاق، والبركة، والنّماء. وانظر: أسد الغابة (٣/ ٥٦٢ و ٥٦٣)، والمعجم الكبير (١٧/ ١٩٣).

(٢) المستدرك (٣/ ٦٦٨)، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١١٥)، والمعجم الكبير (١٧/ ١٩٣).

(٣) المسند (١/ ٤٣٠)، وأخرجه الطَّبراني في الكبير (١٧/ ١٩٣) برقم (٥١٤).

(٤) انظر: الاستيعاب (٣/ ١٥٧) بهامش الإصابة، والمعجم الكبير (١٧/ ١٩٤)، وعدد من المصادر.

(٥) اقرأ سيرة سيّدنا أبي هريرة في الباب الثّاني من موسوعتنا «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ٢٨٥ ـ ٣٧٩).

الكريم ﷺ كان إذا رفَّأ إنساناً إذا تزوّج، قال: «باركَ اللهُ لك، وباركَ عليك، وجمعَ بينكما في خير»[1].

* وفي حديثِ سيّدنا جابرِ بنِ عبد الله[2] رضي الله عنهما عند مسلم:

«قال لي رسولُ الله ﷺ: «تزوّجتَ»؟

قلت: نعم، يا رسولَ الله.

قال: «باركَ اللهُ لك».

وزاد الدّارميّ: «وبارك عليك»[3].

* وقد ذكرَ علماءُ الحديث والتَّراجم أنَّ لسيّدنا عقيلَ بنَ أبي طالب رضي الله عنه أحاديثُ أخرىٰ؛ قال ابنُ حجر في «الإصابة»: «ولعقيلِ حديثٌ كاملٌ، أخرجَ له النّسائي وابنُ ماجه حديثاً»[4].

* وقال ابنُ عبدُ البرِّ في «الاستيعاب»: «من حديثِهِ عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قال: «يجزىءُ مدٌّ للوضوءِ، وصاعٌ للغُسْل»[5].

أخبارٌ عَقيليّةٌ في الميزان:

* جمع كثيرٌ من أدباء العُلماء، وذوي الهمم أشياءَ متنوّعة وكثيرة من

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١) طبعة مصورة عن طبعة مصر. وأخرجه أبو داود برقم (١٢٣٠)، والتّرمذي برقم (١٠٩١)، وابنُ ماجه برقم (١٩٠٥)، والنّسائي في عمل اليوم والليلة (١/ ٢٥٣) برقم (٢٥٩)، وابن حبّان برقم (٤٠٥٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٣) طبعة حلب، وصحّحه علىٰ شرط مسلم ووافقه الذّهبيّ.

(٢) اقرأ سيرةَ جابرٍ في موسوعتنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص ٤٤١ ـ ٥٠٠).

(٣) أخرجه الدّارمي (٢/ ١٨٠). أقول: «الرّفاء: الموافقة وحسن المعاشرة، وهٰذه الكلمة مستقاة من قولهم: هو من رفأ الثّوب. وقيل: من رفَوت الرّجل، إذا سكنْتُ ما به من روع. وفي الحديث دلالة علىٰ شرعية الدّعاء لمن تزوج، وفيه النّهيّ عن قول: بالرّفاء والبنين، لأنّه كان من شعار الجاهليّة والله أعلم».

(٤) الإصابة (٢/ ٤٨٧).

(٥) الاستيعاب (٣/ ١٥٧).

الأخبار العقيليّة المتفرّقة، وبسطوا مصنّفاتٍ في ذلك، فيها كثيرٌ من الحكاياتِ واللطائف والنَّوادر ورقائق الأشعار عن سيّدنا عليٍّ وعقيلٍ ومعاويةَ رضي الله عنهم، وهي أقربُ إلىٰ الطُّرَفِ منها إلىٰ العِلْمِ والواقعِ، إذ لا تخلو هـٰذه الأخبار من غمْزٍ ولمزٍ لبعضِ ساداتِ الصَّحابةِ وكبرائهم، كما أنَّ فيها بعض الغمز أيضاً لسادتنا رجال أهل البيتِ الأطهار، ومعظم هـٰذا ناتجٌ عن الحبِّ غير المتَّزن لبعض الرّجال الأعلام من الصَّحابة الكرام من رجالِ أهلِ البيت وغيرهم، كما أنَّ هـٰذه الأخبار بعضها أو شطرها فيها تعريضٌ وانتقاصٌ لبعض الشَّخصيّات المشهورة في دنيا الرّجال والنّساء من عصر فجر الإسلام وضحاه وظُهره.

* ويمكن أنْ نعتبرَ كثيراً من الأخبار التي وصلت إلينا عن سيّدنا عقيلٍ وعليٍّ، وسيّدنا عقيلٍ ومعاويةَ من باب النَّوادر الهزليّة، ومن الغرائب والرّقائق، ولا يُعتمدُ عليها ولا يُعولُ في رسْم شخصيّته سيّدنا عقيل رضي الله عنه.

* رسم الذَّهبيُّ جانباً من شخصيّةِ سيِّدنا عقيل وموضّحاً أبرز خصائصها فقال: «كان بسَّاماً مزّاحاً، علاّمةً بالنَّسب؛ وأيّام العرب»[1].

* وألمح أبو عثمان الجاحظ بأنَّ سبَبَ نسج القصص والأفاويه عن سيّدنا عقيل لأنّه كان يعرف مثالبهم ومساوئهم، حتّىٰ إنَّ بعضَ النَّاس جعله منَ الحمقىٰ، قال الجاحظُ: «وأربعةٌ من قريش كانوا رواةَ النَّاس للأشعار، وعلماءهم بالأنساب والأخبار: محزمةُ بنُ نوفل بن وُهَيب بن عبد مناف بن زهرة، وأبو الجهم بنُ حذيفةَ بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف، وحويطبُ بنُ عبد العزّىٰ، وعقيلُ بنُ أبي طالب. وكان عقيلٌ أكثرهم ذِكْراً لمثالب النَّاس، فعادَوْهُ لذلك، وقالوا فيه وحمَّقوه، وسمعَتْ ذلك العامة منهم، فلا تزالُ تسمعُ الرّجل يقول: قد سمعتُ الرَّجل يُحمّقه، حتّىٰ ألَّفَ بعضُ الأعداء فيه الأحاديث، فمنها قولهم، ثلاثةُ حمقىٰ كانوا إخوةَ ثلاثة عُقَلاء، والأمّ واحدة:

---

(١) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٩٩).

عليٌّ وعقيلٌ وأمُّهما فاطمةُ بنتُ أسد بن هاشم.

وعتبةُ ومعاويةُ ابنا أبي سفيان وأمُّهما هند بنتُ عتبة بن ربيعة.

وعبدُ الملك ومعاويةُ ابنا مروان وأمُّهما عائشةُ بنتُ معاوية بن المغيرة بن أبي العاص»[١]!!!!.

* ويستنكرُ الجاحظُ مثلَ هٰذا الخبر وأضرابَه، ويستوقفه الدَّهش من نَسَب عقيلٍ إلىٰ الحمق، وهو محلُّ فخْرِ الشُّعراء الكبار من أهلِهِ وأقاربِهِ وأصحابِهِ ومعارفه؟!! بل إنَّه يتعجَّبُ من افتخار الشُّعراء بعقيل وإخوته فيقول: فكيف وجعدةُ بنُ هُبيرةَ يقول:

أبي مِنْ بني مَخْزومٍ إنْ كنْتَ سائِلاً ... ومِنْ هاشمٍ أُمّي لِخَيْرِ قَبيلِ
فَمَنْ ذا الذي يَبْأَىٰ عليَّ بخالِهِ ... وخالي عليٌّ ذو النَّدىٰ وعقيلِ

* وقال قدامةُ بنُ موسىٰ بن قدامة بن مظعون:

وخالي بغاةُ الخيرِ تعلمُ أنَّه ... جديرٌ بقولِ الحقِّ لا يتوعَّر
وجدّي عليّ ذو التّقى وابن أمّه ... عقيلٌ وخالي ذو الجناحين جعفر
فنحنُ وُلاةُ الخير في كُلِّ موطنٍ ... إذا ما وَلَىٰ عنه رجالٌ وقصّروا[٢]

* ويضيفُ أبو عثمان الجاحظ سبباً آخر لاختراع القصصِ والأخبارِ الهزيلةِ وابتداعها عن عقيل، وإطلاق ألسنةِ البُغاةِ والحسّاد فيه فيقول: «وكان عقيلٌ رجلاً قد كُفَّ بصرُهُ، وله بعدُ لسانُهُ وأدبُهُ ونسبُهُ وجوابُهُ، فلمّا فَضَلَ نظراءه من العلماء بهٰذه الخصال، صار لسانُه بها أطولَ، وغَاضَبَ عليّاً وأقام بالشَّام، وكان ذلك أيضاً ممّا أطلق لسان الباغي والحاسد فيه»[٣].

---

(١) البيان والتّبيين للجاحظ (٢/ ٣٢٣ و ٣٢٤).

(٢) المصدرُ السَّابق عينه (٢/ ٣٢٤ و ٣٢٥). و «جعدةُ بنُ هبيرة»: ابنُ أخت عقيل، أمُّه أمّ هانىء بنت أبي طالب. و«يبأى»: من البأو وهو الفخر الكبير. و«يتوعّر»: يتعسّر. و«ونى»: تأخر وقصّر وتراجع. وانظر ترجمة جعدة وشعره في «أسد الغابة» (١/ ٣٤٠) ترجمة رقم (٧٥٣).

(٣) البيان والتَّبيين (٢/ ٣٢٦).

* وأكَّد الصَّفديُّ في «نكْتِ الهميان» أنَّ سببَ قول النّاس الباطل في عقيل وتحميقهم إياه مغاضبته لأخيه عليّ، وخروجه إلىٰ معاوية وإقامته بالشّام عنده. قال صلاحُ الدّين الصَّفدي: «وكان عقيلٌ أنسبَ قريش وأعلمهم بأيّامهم، ولكنّه كان مبغّضاً إليهم، لأنّه كان يعدُّ مساويهم، وكانت له طِنْفِسَة تُطرحُ له في مسجدِ رسولِ الله ﷺ، يصلّي عليها، ويُجتَمعُ إليه في علم النّسب وأيّام العرب، وكان أسرع النّاس جواباً، وأحضرهم مراجعة في القول، وأبلغهم في ذلك. وكان الذين يُتحاكمُ إليهم ويوقف عند قولهم في علم النَّسَب أربعة: عقيلَ بنَ أبي طالب، ومحزمةَ بنَ نوفل الزُّهريّ، وأباجهم بنَ حذيفة العَدَويّ، وحُويطبَ بن عبد العزّىٰ، وعقيل أكثرهم ذكراً لمثالب قريش، فعادوا لذلك، وقالوا فيه الباطل، ونسبوهُ إلىٰ الحمق، واختلقوا عليه أحاديث مزوَّرة. وكان ممّا أعانهم عليه في ذلك مغاضبته لأخيهِ عليٍّ، وخروجه إلىٰ معاويةَ وإقامته معه»(١).

---

(١) نكتُ الهميان في نكَتِ العُميان لصلاح الدّين الصَّفديّ (ص ٢٠٠ و ٢٠١). ومن الجدير بالذّكر أنَّ عقيلَ بنَ أبي طالب قد أخذ علْمَ الأنساب وتلقَّاه عن سيّدنا أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه. ويذكرُ تاريخُ أبي بكر رضي الله عنه بأنّه كان قبل إسلامه صدراً معظّماً في قريش، معدوداً من أصحاب الأموال والثّراء، وكرم الأخلاق ولطف المعشر، وأحد رؤساء قريش، ومحطّ مشورتهم. وكان مكرّماً سخيّاً، محبّاً في قومه، حسن المجالسة، أعلم النّاس بأنساب العرب، فقد نُقل عن جُبير بنِ مُطعِم رضي الله عنه الذي بلغَ النّهاية في معرفةِ الأنساب أنَّه قال: إنّما أخذتُ هـٰذا العلْم من أبي بكر لا سيما أنساب قريش، فإنَّه كان أعلم منها بأنسابها، وبما كان فيها من مفاخر وشرّ، وكان لا يذكر مساويهم، فمن ثم كان محبّباً إليهم.
وكان عقيلُ بنُ أبي طالب أعلمَ قريش بأنسابها بعد أبي بكر، وقد أخذ عنه هـٰذا العلم، فقد كان يجلسُ إليه بالمسجد النّبويّ، يأخذ عنه علْمَ الأنساب، وأيام العرب ووقائعهم.
وكان أصحابُ النّبيّ ﷺ يرون أبا بكر الصّديّق أسدَّ منهم رأيا، وأكملهم عقلاً، ولذلك أقبل عليه عقيلُ بنُ أبي طالب واستفاد منه واستقىٰ منه علم الأنساب.
قال الإمامُ النَّوويّ عن معرفة عقيل بالأنساب: «كان عقيلٌ من أنسبِ قريش وأعلمهم بآبائها وأيّامها، وكان سريع الجوابِ المسكت للخصم، وله فيه حكايات حسنةٌ شتّىٰ، وكان تُطرحُ له طِنْفسة في مسجدِ رسولِ الله ﷺ فيجتمع إليه الناس في علم النَّسب وأيّام العرب». (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٣٣٧)؟ =

* وزعم ابنُ عبد البر بأنَّ سببَ بغض النَّاس لعقيل هو معرفته مساوىء النّاس وتعداده إيّاها، فكان ممّا قال في «الاستيعاب»: «وكان عقيلٌ أنسبَ قريش، وأعلمَهم بأيامها، ولكنَّه كان مبغّضاً إليهم، لأنَّه كان يعدُّ مساويهم... وكان أسرع النّاس جواباً، وأحضرهم مراجعة في القول، وأبلغهم في ذلك... وأكثرهم ذكْراً لمثالب قريش، فعادوه لذلك، وقالوا فيه بالباطلِ، ونسبوه إلىٰ الحمق، واختلقوا عليه أحاديث مزوّرة، وكان ممّا أعانهم عليه في ذلك مغاضبته لأخيه عليّ، وخروجه إلىٰ معاويةَ وإقامته معه...»[1].

* وقال البلاذريُّ: «وكان من نسَّاب قريش وعلمائها، وكان سريعَ الجواب لا يبالي بمن بدأه به»[2].

* وتابع البلاذريُّ بأنَّ أهلَ المدينة قد ضجّوا من عقيل ومجلسه، فبعثَرَ عمرُ هٰذا المجلس وشتّته وفرقه، فقال: «إنَّ عقيلَ بن أبي طالب؛ وأبا الجهم بن حذيفة العدويَّ؛ ومخرمةَ بنَ نوفل الزّهري؛ اتّخذوا مجلساً فكان لا يمرُّ بهم أحدٌ إلاّ عابوه، وذكروا مثالبه، فَشُكُوا إلىٰ عمر بن الخطَّاب، فأَخْرجَهم من المدينة إلىٰ الطَّائف. ويقال: إنَّه فرَّق بينهم في المجالس»[3].

* وكان لعقيل طنفسةٌ يجلسُ عليها، ويتحدَّثُ النَّاس إليه، فلا يقوم حتّىٰ تَغشَاه الشَّمس، وكان أهلُ المدينةِ يقولون: وقتُ الجمعةِ حين تبلغُ الشَّمسُ طنفسةَ أبي يزيد.

= وقال ابنُ حجر: «وكان عالماً بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، وكان النّاس يأخذون ذلك عنه بمسجد المدينة، وكان سريع الجواب المسكت، وكان قد فارق عليّاً ووفد إلىٰ معاوية في دَينٍ لحقّه».

(١) الاستيعاب (٢/١٥٧ و ١٥٨) باختصار. واقرأ سيرة سيّدنا معاوية في موسوعتنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص ٦٣٦ ـ ٦٨٨) نجد خيراً كثيراً بإذن الله.

(٢) أنساب الأشراف (عليّ وبنوه ص ٧١).

(٣) أنساب الأشراف (عليّ وبنوه ص ٧٤).

* وروىٰ غيرُ واحد أنَّ عقيلاً لا يُدركُ شأوه في الكلام وحضور البديهة وإقامة الحجّة، قال موسىٰ بنُ طلحة: «كُنَّا جلوساً في المسجد، وقد تساند بعضُنَا إلىٰ الأسطوان، فجاء عقيلٌ فأوسعْنَا له، فتسانَدَ إلىٰ الأسطوان، ثمّ قال: أنتم خيرٌ لكبيركم من مَهْرَة؛ وذلك أنَّ مهرةَ إذا أسنَّ فيهم الرّجل عقلُوا رجْلَه؛ ثمَّ قالوا له: قُمْ، فإنْ قامَ تركوه، وإن لم يقمْ قتلُوه. فقالوا: أنتَ إنْ طُلبتَ لم تُدرك، وإن طَلبتَ أدركت»[١].

* ومن أقوال سيّدنا عقيل البديعة التي تفيدُ في أمور التّربية ومصانعة الأولاد قوله: «لا يختزْ أحدكم ولداً، فإنّي كنتُ أعزَّ ولد أبي عليه، فصرتُ أخسَّهم»[٢].

منْ أخبارِهِ معَ أخيهِ عليٍّ رضي الله عنه:

* هـٰذان العَلَمان عقيلٌ وعليٌّ رضي الله عنهما من رجال أهلِ البيتِ الأطهارِ ومن مشاهيرهم الكبار، ولا تكادُ كتبُ السِّيرة النَّبويّة تخلو من سيرةِ أحدهما أو كلاهما؛ وهناك بعضُ المصادر الأدبية والتّاريخية وبعضُ مصنَّفات التَّراجم قد تعرضت لسيرتهما معاً، وأحياناً نجدُ طرفاً ثالثاً هو سيّدنا معاويةُ أو عمرو بنُ العاص، أو غيرهما، وهـٰذه المصنَّفات قد تضمَّنَتْ بين دفتيها أخباراً مُشَرِّقةً مرّة، ومغرِّبة مرّات، وأحياناً نجدها قد احتطبتْ بليلِ المسامراتِ ما وجدتْه، دون أنْ تُحدِّدَ النَّظر وتُعْمِلَ الفكْرَ فيما تنقلُ، وفيما تحتطبُ، ولا يهمّها إنْ كانتِ الأخبارُ حقيقةً مطابقةً للواقع، أو مصنوعةً موضوعةً، صاغَها أصحابُ أهواء متعدّدة ليرفعوا ـ بزعمهم ـ من شاؤوا، ويخفضوا مَنْ شاؤوا.

* ونحنُ في هـٰذا المقام لا نريدُ أنْ نتحيَّز إلىٰ أحدٍ مهما كان وضعه، إذ إنّ سيّدنا عليّاً وسيدنا عقيلاً من سادات الصَّحابة وكبرائهم، والخبر الضَّعيف عنهما

---

(١) المصدر السّابق نفسه (ص ٧٦).

(٢) المصدر السّابق نفسه (ص ٧٧).

لا يزيدُ من مقدارهما ولا ينقص. ولكنَّا أحببنا أنْ نسوقَ بعض هـٰذه الأخبارِ الموجودةِ في الكتبِ، ونذكرَ رأينا وتعليقنا فيما يتوافقُ مع مكانةِ سيّدنا عقيلٍ وأخيه عليٍّ رضي الله عنهما، لأنَّ كثيراً من هـٰذه الأخبار لا تروي الغُلّة؛ بل تزيد الأمر علّة، والطِّين بِلّة.

* قال حُميدُ بنُ هلال: «أتىٰ عقيلٌ عليّاً، فقال: يا أمير المؤمنين إنّي محتاجٌ، وإنّي فقيرٌ فأعطِني.

قال: اصبرْ حتّىٰ يخرجَ عطائي مع المسلمين فأعطيكَ معهم.

فألحَّ عليه عقيلٌ؛ فقال عليٌّ لرجلٍ: خُذْ بيده، فانطلقْ به إلىٰ حوانيتِ أهلِ السُّوق، فقُلْ: دُقَّ هـٰذه الأقفال؛ وخُذْ ما في هـٰذه الحوانيت.

قال عقيلٌ: يريدُ عليٌّ أنْ يتّخذني سارقاً، فرجع إليهِ سريعاً، فقال: يا أميرَ المؤمنين أردتَ أنْ تتّخذني سارقاً.

قال عليٌّ: وأنتَ واللهِ أردتَ أنْ تتّخذني سارقاً، أنْ آخذَ أموالَ النّاس فأعطيكما دونَهم.

قال عقيلٌ: لآتينَّ معاويةَ.

قال: أنتَ وذاكَ.

فأتىٰ معاويةَ، فسأله، فأعطاهُ مئة ألف، ثمّ قال لعقيل: يا أبا يزيد، اصعَدِ المنبر، فاذكرْ ما أولادك عليٌّ من نفسِهِ، وما أوليتُك من نفسي.

فَصَعِدَ المنبرَ، فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليه، ثمَّ قال: «أيّها النَّاس إنّي أخبركم أنّي أردتُ عليّاً علىٰ دينه، فاختار دينَه، وأنّي أردتُ معاويةَ علىٰ دينه فاختارني علىٰ دينه.

فقال معاويةُ: هـٰذا الذي تزعُمُ قريشٌ أنَّه أحمقٌ، وأنّها أعقلُ منه»[1]؟!!.

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٢١)؛ وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد معاوية ص ٨٥) مع الجمع بينهما.

* وعند الجاحظ وغيره: أنَّ سيّدنا معاويةَ قال لعقيلٍ: «هٰذا أبو يزيد، لولا عَلِمَ أنّي خيرٌ له من أخيهِ لمَا أقامَ عندنا وتركَه. فقال له عقيلٌ: أخي خيرٌ لي في ديني، وأنتَ خيرٌ لي في دنياي»[1].

* وقد أكَّدَ سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه أنَّه لن يبيعَ دينه من أجلِ عقيلٍ أخيه، أو من أجلِ أولادِ أخيهِ، وأفهمَ جميعَ المسلمين أنَّ الصَّدقةَ لا تحلُّ لأهلِ البيت، فقال من كلام له: «... واللهِ، لقد رأيتُ عقيلاً وقد أملقَ حتّىٰ استماحني من بُرِّكم، ورأيتُ صبيانَه شُعْثَ الألوان من فقرهم... وعاودني مؤكّداً، وكرّرَ عليَّ القول مردّداً، فأصغيتُ إليه سمعي، فظنَّ أنّي أبيعه ديني، وأتبعَ قيادَهُ مفارقاً طريقتي، فأحميتُ له حديدةً، ثمّ أدنيتها من جسمةِ ليعتبرَ بها، فضجَّ ضجيجَ ذي دنفٍ من ألمها، وكاد أن يحترقَ من ميسمها. فقلت له: ثكلتك الثَّواكل، أتئنُّ من حديدةٍ أحماها إنسانٌ لِلَعِبِهِ، وتجرّني إلىٰ نارٍ سجَّرها جبّارها لغضبه؟ إنَّ ذلك محرّمٌ علينا أهلَ البيت...»[2].

* وهٰكذا وقفَ سيّدنا عليٌّ موقفَ العقلِ والدِّين من هٰذه القضية، فهو يعرفُ أنَّ المالَ مالُ المسلمين، ولا يحقُّ له أنْ يتصرَّفَ به حتّىٰ لأقرب النّاس إليه. لذلك انصرفَ عنه عقيلٌ ورحل إلىٰ الشَّام بعد أنْ كان في العراقِ عند أخيه لينالَ عطاءَ معاويةَ.

* قال ابنُ عساكر: «جاء عقيلٌ بنُ أبي طالب إلىٰ عليّ بن أبي طالب بالعراق ليعطيَه، فأبىٰ أنْ يعطيَهُ شيئاً، فقال: إذاً، أذهبُ إلىٰ رجلٍ هو أوصلُ منك، فذهب إلىٰ معاويةَ، فعرف له معاوية»[3].

---

(١) البيان والتّبيين (٢/ ٣٢٦). وانظر: نثر الدّرّ (١/ ٤٠٥)، والتّذكرة الحمدونيّة (٧/ ١٨٥).

(٢) انظر: التّذكرة الحمدونيّة (١/ ٩٧) باختصار.

(٣) مختصرُ تاريخ دمشق (١٧/ ١٢٠) وقال ابنُ عساكر أيضاً: «وقيل: إنَّ عقيلاً لما أتىٰ عليّاً ومنعه، قال له: أكتبُ لك إلىٰ مالي في يَنْبع فتعطىٰ، فقال عقيل: لأذهبنّ إلىٰ رجلٍ فأتىٰ معاوية فقال: مرحباً بأبي يزيدَ...» (مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ١٢٢).

* وقد أورد ابنُ الأثير هـٰذه القصّة بشكلٍ أكثر وضوحاً وبياناً وتبييناً، فذكر بأنَّ سيّدنا عقيلاً سار إلىٰ معاويةَ لأنَّه كان زوج خالته فاطمةَ بنتِ عتبةَ بنِ ربيعةَ، وقال: «إنَّ عقيلَ بنَ أبي طالب لزمَهُ دَيْنٌ فَقَدِمَ علىٰ عليٍّ بنِ أبي طالب الكوفة، فأنزله وأمرَ ابنَه الحسنَ فكسَاه، فلمّا أمسىٰ دعا بعشائه، فإذا خبْزٌ وملْحٌ وبقْلٌ، فقال عقيل: ما هو إلاّ ما أرىٰ؟

قال: لا.

قال: فتقضي ديني.

قال: وكم دينُكَ؟

قال: أربعون ألفاً.

قال: ما هي عندي، ولكن اصبرْ حتّىٰ يخرجَ عطائي، فإنّه أربعةُ آلاف فأدفعه إليك.

فقال له عقيلٌ: بيوتُ المال بيدك، وأنتَ تُسَوِّفُني بعطائك!

قال: أتأمرني أنْ أدفعَ إليك أموالَ المسلمين، وقد ائتمنوني عليها؟!

قال: فإنّي آتٍ معاوية. فأذِنَ له، فأتىٰ معاوية فقال له: يا أبا يزيد، كيف تركْتَ عليّاً وأصحابه؟

قال: كأنّهم أصحابُ محمّد، إلا أنّي لم أرَ رسولَ الله ﷺ فيهم، وكأنكَّ وأصحابك أبو سفيان وأصحابه، إلا أنّي لم أَرَ أبا سفيان فيكم.

فلمّا كان من الغد قَعَدَ معاويةُ علىٰ سريره، وأمر بكرسيٍّ إلىٰ جنْبِ السَّرير، ثم أذن للنّاس فدخلُوا، وأجلس الضَّحَّاكَ بنَ قيس معه علىٰ سريره، ثم أذن لعقيلٍ فدخل عليه، فقال: يا معاويةُ، مَنْ هـٰذا معك؟

قال: الضَّحاكُ بنُ قيس.

فقال: الحمدُ لله الذي رفَع الخسيسةَ وتمّمَ النَّقيصة! هـٰذا الذي كان أبوه يَخْصي بَهْمَنا بالأبطح، لقد كان بخصائِها رفيقاً.

فقال الضَّحاكُ: إنّي لعالمٌ بمحاسنِ قريش، وإنَّ عقيلاً عالماً بمساويها[1].

وأمرَ له معاويةُ بخمسين ألف درهم، فأخذَهَا ورجَعَ[2].

* إننا نعلمُ أنَّ سيّدنا عليّاً لا يحابي أخاه عقيلاً، فقد كان زاهداً في دنيا النَّاس وفي زُخْرفِ الحياة، أورد ابنُ عبد البرّ في «الاستيعاب» أنَّ الحسنَ بنَ أبي الحسن البصريّ سُئِل عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه فقال: «كان عليٌّ واللهِ سَهْماً صائباً من مرامي اللهِ علىٰ عدوّه، وربّانيَّ هـٰذه الأمّة، وذا فَضْلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسولِ اللهِ ﷺ، لم يكنْ بالنَّومة عن أمْرِ الله، ولا بالملومة في دينِ اللهِ، ولا بالسَّرقة لمال الله، أعطىٰ القُرآن عزائمه ففازَ منه برياضٍ مونقة، ذلك عليُّ بنَ أبي طالب يالكع»[3].

* وسُئل أبو جعفر محمّد بنُ عليّ بن الحسين عن صِفَةِ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، فكان ممّا قال: «. . . وكان عليٌّ رضي الله عنه يسيرُ في الفيءِ مسيرةَ أبي بكر الصِّديق في القسم، وإذا وَرَدَ عليه مالٌ لم يُبْقِ منه شيئاً إلاّ قسمه، ولا يترك في بيتِ المال منه إلا ما يعجزُ عن قسمته في يومِهِ ذلك، ويقول: يا دنيا غُرّي غيري، ولم يكن يستأثرُ من الفيء بشيءٍ ولا يخصُّ به حميماً ولا قريباً. . .[4]».

* وتجلو لنا كتُبُ الأسمار أنَّ ثمة مكاتبات ورسائل بين علي وعقيل؛ من ذلك أنَّ كتبَ إلىٰ أخيهِ عليٍّ يسأله عن حاله، فكتبَ إليه عليٌّ رضي الله عنه:

---

(١) قال ابنُ عبّاس: «كان عقيل يعدُّ المساوىء، فأيّما كان أكثرَ مساوىء تركه، فيقول الرّجلُ: وددتُ أنّي لم آته، أظهرَ من مساويَّ مالم يكن الناسُ يعلمون». (أسد الغابة ٣/ ٥٦٢).

(٢) أسد الغابة (٣/ ٥٦٢) ترجمة رقم (٣٧٢٦)، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٢١ و ١٢٢).

(٣) الاستيعاب (٣/ ٤٧)، بهامش الإصابة.

(٤) الاستيعاب (٣/ ٤٧) باختصار.

فـإنْ تسـألينـي كيـفَ أنـتَ فـإنّني جَليـدٌ علىٰ عـضِّ الـزَّمـان صليـبُ
عـزيـزٌ علـيَّ أنْ تُـرىٰ بـي كـآبـةٌ فيفـرحُ واشٍ أو يُسَـاء حبيـبُ[1]

* ومن المكاتباتِ المشهورة، والرَّسائلِ العقيليّةِ المذكورة ما نقله سليمانُ بنُ أبي راشد قال: إنَّ عقيلاً كتبَ إلىٰ أخيه عليٍّ رضي الله عنهما: «أمّا بعد، كان اللهُ جارك من كلّ سوء، وعاصمك من المكروه، علىٰ كلِّ حال إنّي خرجتُ يا بن أمّ معتمراً، فلقيتُ عبدَ الله بنَ سعد بن أبي سرح في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطُّلقاء، فقلت لهم: أين تريدون يا بني الطّلقاء؟ أبمعاويةَ تلحقون عداوة لنا غير مستنكرة منكم، تحاولون تغيير أمر اللهِ وإطفاء نور الحقّ؟ فأسمعوني وأسمعتُهم، ثمَّ إنّي قدمتُ مكّةَ وأهلها يتحدَّثون بأنَّ الضَّحاك بنَ قيس أغار علىٰ الحيرة وما يليها، فأُفٍ لدهرٍ جَرّأَ علينا الضَّحَّاك، وما الضَّحَّاكُ إلا فَقْعٌ بقرقر، فاكتبْ إليَّ يا بن أمٍّ برأيك وأمرك، فإن كنتَ الموتَ تريدُ، تحمّلتُ إليك ببني أخيك وولد أبيك، فعشنا معك ما عشتَ، ومتْنا إذا متّ.

فكتب إليه عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ ابنَ أبي سرح وغيره من قريش قد اجتمعوا علىٰ حربِ أخيك اليوم كاجتماعهم علىٰ حرب ابن عمك قبل اليوم، إنَّ الضَّحاكَ أقلّ وأذلّ من أنْ يقرب الحيرة، ولكنَّه أغارَ علىٰ ما بين القُطْقُطانة والثَّعلبيّة[2]!؟!!!.

عقيلٌ ومعاويةُ رضي الله عنهما:

* حملتْ إلينا أسفارُ الأسمار في بُطونها وبين طيّاتها بعض المحاوراتِ

---

(١) الأغاني (١٥/ ٤٤) طبعة دار الفكر المصورة؛ وانْظُرْ: العقد الفريد (٢/ ٣٥٦) و (٣/ ٢٠٤).

(٢) انظر: الأغاني (١٥/ ٤٤) طبعة دار الفكر المصوَّرة، والخبر فيه طويل وفيه زيادات، وعنه أخذ البلاذريُّ في أنساب الأشراف (عليٌّ وبنوه ص ١٧٥)، و«الفَقْعُ»: الكَمْأَةُ. و «القُطقُطانة»: موضع قرب الكوفة من جهة البريّة بالطّائف، به كان سجن النّعمان بن المنذر. و«الثَّعلبية»: من منازل طريق مكّة من الكوفة.

العجيبةِ التي جرتْ بين سيّدنا عقيلٍ ومعاويةَ رضي الله عنهما، وهي في طبيعتها أقربُ إلىٰ الأجوبة المُسكتَةِ، ولعلَّ شطراً منها قد وضعه الوضّاعُون، وصنَّفه المصنّفون لينصروا فلاناً علىٰ فلانٍ مهما كان اللفظُ، ومهما كان الموقف، ومهما كانت النَّتيجة!!.

* ومن المؤكّدِ لدىٰ علماء البلاغةِ وأدباء الفَصَاحةِ أنَّ «الجواباتِ أصعبُ الكلام كلّه مركباً، وأعزُّهُ مطلباً، وأغمضُه مذهباً، وأضيقُه مسلكاً، لأنَّ صاحبه يُعْجل مناجاة الفكْرة، استعمال القريحة، يرومُ في بديهة، نَقْضَ ما أُبْرِمَ في رويّة، فهو كمن أُخذت عليه الفِجَاج، وسُدّت عليه المخارج؛ قد تعرَّضَ للأسنَّةِ، واستهدف للمَرامي، لا يدري ما يُقْرَعُ به فيتأهَّب له، ولا ما يفجؤه من خصمهِ فيقرعه بمثله، ولا سيما إذا كان القائلُ قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بزمامه، بعد أنْ روّىٰ فيه واحتفلَ، جمعَ خواطره واجتهدَ، وتركَ الرّأي يَغِبُّ حتىٰ يختمرَ، فقد كرهوا الرّأيَ الفطيرَ، كما كرهوا الجوابَ الدَّبْريَ، فلا يزالُ في نسجِ الكلامِ واستئناسِهِ، حتَّىٰ إذا اطمأنَّ شارده، وسكنَ نافره، صكَّ به خصْمَه جملةً واحدة، ثمّ إذا قيل له: أجبْ ولا تخطىءْ، وأسرعْ ولا تبطىء، تراه يجاوب من غيرِ أناة ولا استعداد، يُطبّقُ المفاصل، وينفُذُ إلىٰ المقاتل، كما يُرمىٰ الجندلُ بالجندل، ويُقْرعُ الحديدُ بالحديد، فَيَحُلُّ به عراه، وينْقُضُ به مرائره، ويكونُ جوابه علىٰ الجواب الحاضر، ولا أعزّ من الخصم الألدّ، الذي يقرع صاحبه، ويصرع منازعه»[1].

* ومن الأخبار التي تندرجُ تحت ما ذكرنا؛ أجوبة عقيلٍ المسكتة لمعاويةَ في مجلسه وعنده وجوهُ قريش، فقد طالعنا الزُّبيرُ بنُ بكّار في «الأخبار الموفقيّات» بخبر يكتنفه الاضطراب رفعه إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مصعب قال: «بلغني أنَّ معاويةَ قال لعمرو بنِ العاص: إنَّ النَّاسَ قد رفعُوا أعينَهم، ومدّوا أعناقَهم إلىٰ بني عبد المطّلب، لو نظرنا إلىٰ رجل منهم فيه لوثةٌ فاستملناه.

---

(١) العقد الفريد (٤/ ٣و٤).

فقال عمرو: عندك عقيلٌ بنُ أبي طالب.

فلمّا أصبحَ، واجتمعَ النَّاسُ، دخل عليه عقيلٌ فقال له: يا أبا يزيد، أنا خيرُ لكَ أمْ عليّ؟

قال: أنت خيرٌ لنا من عليٍّ، وعليٌّ خيرٌ لنفسِه منك.

فضحك معاويةُ، فضحكَ عقيلٌ.

فقال له: ما يضحكُك يا أبايزيد؟

قال: أضحكُ أنّي كنتُ أنظرُ إلىٰ أصحابِ عليّ يوم أتيته، فلم أرَ معه إلّا المهاجرين والأنصار وأبناءهم، والتفتُّ السَّاعة فلم أرَ إلا أبناء الطُّلقاء، وبقايا الأحزاب.

فقال معاويةُ: يا أهلَ الشَّام، هل تدرون مَنْ هـٰذا؟

قالوا: لا.

قال: أسمعتم قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[المسد: ١].

قالوا: نعم.

قال: فإنَّه والله عمّ هـٰذا.

فقال عقيلٌ: صَدَقَ واللهِ أميرُ المؤمنين، فهل قرأتم في كتابِ الله تعالىٰ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[المسد: ٤] فهي والله عمّةُ معاوية.

فقال له معاويةُ: اِلحَقْ بأهلك، حسبُنا ما لقينا من أخيك.

قال له عقيل: أما واللهِ لقد تركتُ مع عليٍّ الدِّين والسَّابقة، وأقبلت إلىٰ دنياك، فما أصبتُ دينَه، ولا نلت من دنياك طائلاً.

فأعطاهُ، وأكثرَ له. فدعا معاويةُ عمروَ بنَ العاص فقال: ويحك يا عمرو، هـٰذا الذي زعمتَ أنّه أهوجُ بني عبد المطَّلب؟

قال: ما ذنبي يا أميرَ المؤمنين، ما علمتُ منه إلّا ما تعلم.

فقال معاويةُ في ذلك:

ألا يــا عمــرو عمــرو قَبيــل سَهْــمِ ... لقَــدْ أخْطَــأتَ رأيَــكَ فــي عقيــل
بُليْـــت بحيَّـــةٍ صمَّـــاءَ بـــانَـــتْ ... تلفَّـــتُ أيـــنَ ملتَمـــس القبيـــل
بعيـــن تنفـــذُ البيـــداءَ لَحْظـــاً ... ونـــاب غيـــر مـــوصـــولٍ كليـــل
وقــد كـــانـــتْ تــرجّمــه قــريــشٌ ... علـــىٰ عميـــاءَ مَـــنْ قـــالٍ وقيــل
ألا لله درّ أبـــــي يـــــزيـــــد ... لهـــرجِ الأمــرِ والخطــبِ الجليــل
فمــا خــاصمــتُ مثلــكَ مــن خصيــم ... ولا حــاولــتُ مثلــكَ مــن حــويــل
أتـــانـــي زائـــراً ورأىٰ عليـــاً ... قليـــلَ المـــال منقطـــعَ الخليـــل
فقيـــلَ لـــه معـــاويـــةُ بـــنُ حـــربٍ ... فمـــالَ أبـــو يـــزيـــد إلـــىٰ مُميـــل
فـــأجـــزيـــتُ العطـــاءَ لـــه ودبَّـــتْ ... عقـــاربُـــه لِسَـــالفـــةِ الـــدُّخـــول
ولـــم يـــرضَ الكثيـــرَ وقـــد أراهُ ... سخـــوطـــاً لِلْكثيـــرِ وللقليـــل

فرجعَ عقيلٌ إلىٰ عليّ فأخبرهُ الخبرَ، فقال: كان في نفسِ معاوية شيءٌ، فما أحبُّ أنَّك لم تأتِهِ، فقد انقطعَ ظهْرٌ من بني عبد المطّلب[1]!!؟!!.

---

(١) الأخبار الموفقيّات (ص ٣٤٤ ـ ٣٣٦)، مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢ م. أقول: «إنَّ هـٰذا الخبرَ الذي قرأناه يئنُّ من شدّة ما حُمّل من الكذب والافتراء، وهو في مجمله أقربُ إلىٰ المشاحنات، وإذا افترضنا أنَّه غير منسوج، فإنَّ فيه عدداً من المآخذ والنّقاط التي تجعلنا نقفُ بحذرٍ أمامه، لأننا نتكلّمُ عن واحدٍ من رجالِ أهلِ البيت الذين يُعتدُّ بهم، وقد اتُّهم في الخبر بأنّه ذو لوثة!! ومن المآخذ علىٰ هـٰذا الخبر:
١ ـ لماذا أرادَ معاويةُ أنْ يختارَ رجلاً من أهل البيتِ فيه لوثة، وهل تفكيرُ معاويةُ محدود؟ وهل يُؤخذُ برأي مَنْ كان ذا لوثة أو يعتدّ بقوله؟ ومتىٰ كان العُقلاء يعولون علىٰ المجانين؟
٢ ـ هل مجلس سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه وقْفٌ علىٰ المهاجرين والأنصار، ومجلسُ سيدنا معاوية محشودٌ بأبناء الطُلقاء؟ إنَّ حقائقَ التّاريخ تذكرُ بأنَّ عدداً من كبارِ المهاجرين والأنصار كانوا مع معاويةَ، ومنهم عمروُ بنُ العاص رضي الله عنه وغيره من كبراء الصَّحابة وأعيانهم.
٣ ـ قولُ معاوية: «يا أهل الشّام، هل تدرون مَنْ هـٰذا»؟ جملةٌ مقمحةٌ دون إشارة لها في الكلام، وكذلك قوله: «أسمعتم قول الله ِعزَّ وجلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ يريد أنْ ينبههم إلىٰ شيء معروفٍ لدىٰ الخاص والعام. وهـٰذا لا يزيدُ من قيمةِ عقيل أو ينقص من قيمة =

* وها نحن الآن بإزاء خَبَرٍ عقيليٍّ مريضٍ؛ يقسمُ بأغلظِ الأيمان أنّه بريءٌ من كلّ حرف فيه، وقد ضمَّنَ هـٰذا الخبر أبو القاسم عليُّ بنُ المُحَسّن التّنوخي في كتابه «لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار» حيث قال: «وفد عقيل بن أبي طالب علىٰ أميرِ المؤمنين عليّ رضي الله عنه، فأمرَ له بمئتي درهم؛ ثمَّ وفدَ علىٰ معاوية فأمرَ له بمئة ألف درهم.

قال معاوية: كيف رأيتَ عطيّتنا من عطيّةِ عليّ؟

فقال عقيلٌ: عليٌّ خيرٌ لي ولنفسه في دينهِ، وأنتَ خيرٌ لي في دنياي.

ثمَّ خرجَ، فلقي جاريةً أعجبَتْه، فساوَمَ فيها بأربعين ألف درهم، ورجع إلىٰ معاويةَ فسأله ثمنها، فقال له معاوية: ولِمَ تشتري بأربعين ألفاً؟!.

فقال له عقيلٌ: لتلدَ غُلاماً إذا كلَّمْتَه علا مفرقكَ بالسَّيف.

فَضَحِكَ معاوية، وأمرَ له بما سأل.

فولدت هـٰذه الجاريةُ لعقيلٍ ابناً اسمه مُسْلم، وصار رجلاً، فابتاع منه معاوية أرضاً، ونَقَدَهُ ثمنَها، فبلغَ ذلك الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما؛ فقال: يا معاويةُ، إنا لا نجيزُ بيعَ مسلمِ بنِ عقيل، فارْدُدْ علينا ضيعَتَنَا، فأرسل معاويةُ إلىٰ مسلم أن اردُدْ علينا مالَنَا، واقبضْ ضيعتَكَ، فإنَّ حُسيناً أبى أنْ يجيزَ لنا بيعتَكَ.

فقال مسلم: واللهِ ما دون أن أردَّ إلّا أعلو مَفْرِقَكَ بالسَّيف؛ فضحكَ معاويةُ وقال: كان أبوك هدَّدنا بك قبل أنْ يشتري أمّك. ثمّ سوَّغَه الضَّيعة والمالَ؛ فبلغ ذلك الحسين فقال: غلبَنَا معاوية حلماً وجوداً»[1]!؟!.

= أحد من أهل البيت. وعقيل رضي الله عنه يعرفه أهل الشّام وغيره إذ استمدّ شهرته من شهرة أخيه عليٍّ رضي الله عنه. ثمَّ إن الشّعر المنسوب لمعاوية شعرٌ ركيك مصنوعٌ ليوافق القصّة، وكلّ من له أدنىٰ بصيرة بالشّعر يدرك ذلك. وهناك سقطات كثيرة يدركها القارئ نفسه».

(١) لطائفُ الأخبار وتذكرةُ أولي الأبصار للتّنوخي المتوفىٰ سنة (٤٤٧ هـ) (ص ١٦٣ و ١٦٤)، =

* وعقد ابنُ عبد ربّه في «العقد الفريد» عُقوداً غير مقنعة، فيها عددٌ من أجوبة سيّدنا عقيل بن أبي طالب لمعاوية وأصحابِهِ رضي الله عنهم أجمعين. وهٰذه الفقرات والشذرات التي عقدها ابنُ عبد ربّه تبدو في معظمها محاوراتٌ، ينتصرُ في نهايتها سيّدنا عقيل، ويفحمُ مَنْ حولَه، بعد أنْ يُعَرِّضَ بهم؛ ويستهزىء ببعضِ مواقفهم، وهٰذه الأخبار ـ إنْ سلَّمْنَا بصحّتها ـ لا تزيدُ من قَدْرِ سيّدنا عقيل ولا من قَدْرِ أهل البيت الأطهار الذين أكرمهم اللهُ عزَّ وجلَّ بالنَّبيِّ المختارِ ﷺ، وجعل لهم مكانةً لا تُساوىٰ بها أيّ مكانةٍ مهما شرفَتْ وعلَتْ؛ ولا يساويهم أحدٌ مهما شَرُفَ وعلا.

* وفيما يتعلّقُ بعقيلٍ مع معاويةَ في تفضيلِ سيّدنا عليٍّ علىٰ معاويةَ يسردُ ابنُ عبد ربّه هٰذه الفِقْرات فيقول: «لمّا قدم عقيلٌ بنُ أبي طالب معاويةَ، أكرمه وقرَّبَه وقضىٰ حوائجه، وقضىٰ عنه دَيْنَه، ثمّ قال له في بعض الأيام: واللهِ إنَّ عليّاً غيرُ حافظٍ لك، قطعَ قرابتك، وما وصَلَكَ ولا اصطنَعَكَ.

= تحقيق الدّكتور علي حسين البوّاب ـ دار عالم الكتب ـ الرّياض ـ ١٩٩٣ م.
وقد علّق أبو القاسم التّنوخي علىٰ هٰذا الخبر تعليقاً فيه تطاولٌ وتعريضٌ بسيّدنا عقيل وسيّدنا معاوية رضي الله عنهما فقال: «لم تكنْ عطيّةُ عليٍّ بُخْلاً، ولكنْ عدلاً، لأنّه لم يكن بيده إلاّ مال الله، ولم يكن لينفعه في غير صلاح الدّين، وسدّ فاقة المحتاجين. وأما معاويةُ فلم يكنْ يفعلُ في مالِ اللهِ مثل ذلك، بل يدفعُ به عن مُلكِه خوف التّطاول إليه، والوثوب عليه.
ومَالَ أكثرُ النّاس إلىٰ السَّعة في الدّنيا، ولهٰذا ترك عقيلٌ أخاه، ولحقَ بمعاوية، وقد أكثر الشّعراء في ذلك، فقال بعضهم:

والنَّـاسُ أعينُهـم إلـىٰ سَلْـب الغِنَـىٰ ... لا يسـألـونَ عـن الحِجـا والأولـق

«الحجا»: العقل. و«الأولق»: الجنون.
وقال آخر:

إخـوانُ هـٰذا الـزَّمـان كلُّهـمُ ... إخـوان سـوء عليـه قـد غلبـوا
أخـوهـم المستحـقّ وصْلَهُـمُ ... مـن أكلـوا عنـده ومـن شـربـوا

(لطائف الأخبار ص ١٦٤) ولا نملك إلا أنْ نقول: «اللهم أصلح سرائرنا وعلانيتنا، وأصلح قلوبنا، وأحوالنا».

قال له عقيلٌ: واللهِ لقد أجزلَ العطيّةَ وأعظمَها، ووصلَ القرابة وحَفِظَها، وحَسُن ظنّه بالله إذ ساء به ظنُّكَ، وحفَظَ أمانته وأصلحَ رعيّته إذ خُنْتُم وأفسدتُم وجُرْتُم، فاكفُفْ لا أبالك، فإنَّه عمّا تقولُ بمعزل!!..؟!..!.

وقال له معاويةُ يوماً: أبا يزيد، أنا لكَ خيرٌ من أخيك عليّ.

قال: صدقتَ، إنَّ أخي آثرَ دِيْنَه علىٰ دنياه، وأنتَ آثرتَ دنياك علىٰ دينكَ، فأنتَ خيرٌ لي من أخي، وأخي خيرٌ لنفسه منك.

وقال له ليلةَ الهَرير: أبا يزيد، أنتَ الليلةَ معنا.

قال: نعم، ويومَ بدرٍ كنت معكم[1]!!

* ويتابعُ ابنُ عبد ربّه في سَرْدِ الأجوبةِ العقيليّة علىٰ معاويةَ وغيره، فها هو ذا يسوقُ هٰذه المحاورة بين رجلٍ اتّهمه بخيانةِ أخيه، ثمّ يعرّضُ بغيره تعريضاً بارداً فيقول: «قال رجل لعقيل: إنك لخائن حيث تركْتَ أخاك وترغبُ إلىٰ معاوية.

قال: أَخْوَنُ منّي والله مَنْ سَفَكَ دَمَه بين أخي وابن عمّي أن يكون أحدهما أميراً»[2].

* وتحمل مصادرُ متنوّعةٌ في بطونها أخباراً كثيرة عن عقيل، ـ وليتَها كانت أجْهضَتْ وألقَتْ ما في بطنها وتخلّتْ ـ لأن فيها أشياء لا تمتُّ إلىٰ العِلْم والحقِّ بِصِلَةٍ، ونعتقدُ أنّها حِيْكَتْ في ليلٍ طويل مدلهمّ حتّىٰ توافقَ ـ إلىٰ حدٍّ ما ـ سيرتَه ومجالسَه ومحاوراتِه مع سيِّدنا معاويةَ وغيره، ثم يكونُ في نهايةِ

(١) العقد الفريد (٤/ ٤و٥)، وانظر كذلك: أنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٧٣). و«ليلة الهَرير»: من ليالي صفّين العصيبة التي استحرَّ فيها بين المسلمين، وكانت ليلةَ الجمعة، وبعدها كان التَّحكيم. و«يوم بدر»: يُعرِّضُ عقيل بهم مشبّهاً موقفهم من عليّ بموقفهم من النبي ﷺ يوم بدر.

(٢) العقد الفريد (٤/ ٥)، وانظر: أنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٧٣) بمعنىٰ قريب.

الأمْرِ هو الظَّافِرُ الذي يفحمُ جُلاَّسَه مهما علا شأنهم في الكلام، وصياغة المعاني؛ وبلاغة المباني.

* من ذلك ما ألَّفُوا: «أنَّ عقيلاً رضي الله عنه دخلَ علىٰ معاويةَ رضي الله عنه، وقد كُفَّ بَصَرُهُ، فأجلسَه معاويةُ معه علىٰ سريره، ثمّ قال له: أنتم معشرَ بني هاشم تُصابون في أبصاركم.

فقال له عقيلٌ: وأنتم معشرَ بني أمّية تُصابون في بصائركم»[1].

* وحشَدَ ابنُ عبد ربّه أجوبةً مفحمةً لعقيل، ولكنَّ هـٰذه المرّة يُسْكِتُ بها عتبةَ بنَ أبِي سفيان، ويُسْكِتُ معه معاويةَ فيقول: «دخل عتبةُ بنُ أبي سفيان علىٰ معاويةَ، فوسَّعَ له معاويةُ بينه وبين عقيلٍ، فجلس بينهما.

فقال عقيلٌ ـ وكان وقد كُفّ بصره ـ: مَنْ هـٰذا الذي أجلسَ أميرُ المؤمنين بيني وبينَه؟

قال: أخوكَ وابنُ عمِّك عُتْبةُ.

قال: أما إنّه إن كان أقربَ إليك منّي، إنّي لأقربُ لرسولِ اللهِ ﷺ منك ومنه، وأنتما مع رسولِ الله ﷺ أرضٌ ونحن سماء.

قال عتبةُ: أبا يزيد، أنت كما وصفتَ، ورسولُ الله ﷺ فوق ما ذكرتَ، وأميرُ المؤمنين عالِمٌ بحقِّكَ، ولك عندنا ممّا تحبُّ أكثرُ ممّا لنا عندك ممّا نكره[2]!!.

* وهناك أخبارٌ ثقيلةُ الدم ممجوجةٌ، لها وقْع ثقيلٌ علىٰ الأرواح نقَلَتْها المصادرُ باعتزازٍ، ولكنّها تحتاج إلىٰ إعادة نظرٍ مرّات ومرّات، لأنّها تسفِرُ عن هبوطٍ أدبي واجتماعي في المجالسِ المُلوكيّة في صَدْرِ الإسلام وضحاه، ولعلَّها صُنعت لتجعلَ عقيلاً متفوّقاً في الإجاباتِ المسكتةِ لمعاوية، وهـٰذه

(١) انظر: المستطرف (١/ ١٩٩)، وعيون الأخبار (٢/ ٢١٠)، والعقد الفريد (٤/ ٥) وغيرها.
(٢) العقد الفريد (٤/ ٥).

الأخبارُ في الحقيقةِ لا ترتاحُ إليها النُّفوس الصَّافيةُ، لأنَّ أدبَ رجالِ أهلِ البيتِ لا ينسجمُ مع نوعية هـٰذه الأقاصيص والأخبارِ الرّضيعة غير المتكاملة.

* حان الوقتُ الآن لنقرأ هـٰذه الخبر العقيليَّ مع معاويةَ لنعرفَ المستوىٰ الذي ـ زعموا ـ أنَّه كان يحدثُ في تلك المجالس.

* يقولُ الخبرُ: «دخل عقيلٌ علىٰ معاويةَ، فقال لأصحابه: هـٰذا عقيلٌ عمُّه أبو لهب.

قال له عقيلٌ: وهـٰذا معاويةُ عمَّتُه حمَّالة الحطب.

ثم قال: يا معاويةُ، إذا دخلتَ النَّار فاعدلْ ذات اليسار، فإنَّك ستجُد عمّي أبا لهبٍ مفترشاً عمّتَك حمّالةَ الحطب، فانظرْ أيّهما خير: الفاعلُ، أو المفعول به»[1]؟!!!.

* وزعم الزَّاعمون فيما نسجوه: «أنَّ معاويةَ قال لعقيل يوماً: ما أَبْيَنَ الشَّبَقَ في رجالكم يا بني هاشم!

قال عقيل: لكنَّه في نسائكم أبْيَنُ[2]!؟!؟!!.

* ويمرّرُ ابن عبد ربه في «العقد» هـٰذه المحاورة الحادّة بين سيّدنا عقيل

---

(١) انظر: العقد الفريد (٤/ ٦)، وأنساب الأشراف (عليّ وبنوه ص ٧٤) إذْ ذكرها البلاذريّ بمعنىٰ قريب فقال: «قال معاويةُ لعقيلٍ: مرحباً بمن عمّه أبو لهب. فقال عقيل: ومرحباً بمن عمّته حمّالة الحطب، فإذا دخلت النّار، فاطلبْهما تجدهما متصاحبَيْن». وانظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٢٢) حيث أوردها ابنُ عساكر علىٰ النحو الآتي: «قال معاويةُ لعقيل: مرحباً بأبي يزيد، هـٰذا أخو عليّ، وعمّه أبو لهب، فقال له عقيل: هـٰذا معاوية، وعمته حمّالة الحطب. وقال معاويةُ لعقيلٍ: أين ترىٰ عمّك أبا لهب من النّار؟ فقال له عقيل: إذا دخلْتَها فهو علي يسارك مفترشٌ عمّتك حمّالة الحطب، والرّاكبُ خيرٌ من المركوب»!!!. وانظر: وفيات الأعيان (٦/ ١٥٦ و ١٥٧).

(٢) أنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٧٣) و«الشّبق»: شدة شهوة الجماع. أقول: «وهذا من الأخبار غير المنطقية التي تتقزّز منها النفوس».

وسيّدنا معاوية، ثمّ تسفرُ هـٰذه المحاورة عن فوز عقيلٍ فوزاً ساحقاً علىٰ معاويةَ الذي يتودّدُ في نهايةِ المحاورةِ إلىٰ عقيل.

* قال ابنُ عبد ربّه في «العِقْدِ الفريد»: «قال معاويةُ لعقيل يوماً: واللهِ إنَّ فيكم لخصلة ما تعجبُني يابني هاشم.

قال: وما هي؟

قال: لِيْنٌ فيكم.

قال: لِيْنُ ماذا؟

قال: هو ذاك ـ أي لينُ الحديثِ والكلام ـ.

قال: إيّانا تُعيِّرُ يا معاويةُ!! أجل واللهِ، إنَّ فينا لَليناً من غير ضَعْف، وعزّاً من غير جبروت؛ وأمّا أنتم يا بني أميّة، فإنّ لينكم غَدْرٌ، وعزّكم كُفْرٌ!!!.

قال معاويةُ: ما كلَّ هـٰذا أردنا ياأبا يزيد.

قال عقيلٌ:

لِذي اللبّ قَبلَ اليومِ ماتُقْرَعُ العَصَا ... ومـا عُلِّـمَ الإنسـانُ إلاّ لِيَعْلَمـا

قال معاويةُ:

وإنَّ سفـاهَ الشَّيـخ لا حِلْـمَ بعـده ... وإنَّ الفتـىٰ بعـدَ السَّفـاهـةِ يَحْلَـمُ»

* وقال معاويةُ لعقيل بن أبي طالب: لم جفوتمونا يا أبا يزيد؟ فأنشأ يقولُ:

إنّـي امـرؤٌ منّـي التّكـرّمُ شيمـةٌ ... إذا صاحبي يوماً علىٰ الهُون أَضْمَرا

ثمَّ قال: وايمُ اللهِ يا معاويةُ، لئن كانتِ الدنيا مَهَّدتك مهادَها، وأظلَّتْك بحذافيرها، ومدَّت عليك أطنابَ سلطانها، ما ذاك بالذي يزيدك منّي رغبةً، ولا تخشعاً لرهبة.

قال معاويةُ: لقد نعتَّها أبا يزيد نعتاً هشَّ له قلبي، وإنّي لأرجو أنْ يكونَ اللهُ

تبارك وتعالىٰ ما ردَّاني برداء ملكها، وحباني بفضيلة عيشها، إلا لكرامةٍ ادَّخرها لي؛ وقد كان داودُ خليفةً، وسليمانُ ملكاً، وإنّما هو لمثال يُحتذىٰ عليه، والأمور أشباه؛ وايمُ اللهِ يا أبا يزيد، لقد أصبحتَ علينا كريماً، وإلينا حبيباً، وما أصبحتُ أضمرُ لك إساءة[1].

* وممّا يتّصل بهٰذا الخبر، ما جاء عند «الأبشيهيِّ» قال: «كتبَ معاويةُ رضي الله عنه إلىٰ عقيل بنِ أبي طالب رضي الله عنه يعتذرُ إليه من شيءٍ جرىٰ بينهما، يقول: من معاويةَ بنِ أبي سفيان إلىٰ عقيل بن أبي طالب: أمَّا بعد، يا بني عبد المطّلب، فأنتم واللهِ فروعُ قصيّ، ولبابُ عبد مناف، وصفوةُ هاشم، فأين أخلاقكم الرّاسية وعقولكم الكاسية؟ وقد واللهِ ساء أميرَ المؤمنين ما كان جرىٰ، ولن يعودَ إلىٰ مثله إلىٰ أنْ يُغَيَّبَ في الثَّرىٰ.

فكتبَ إليه عقيلٌ يقول:

صَدقْتَ وقُلْتَ حقّاً غيرَ أنّي ... أرىٰ أنْ لا أراكَ ولا تَراني
ولستُ أقولُ سوءاً في صديقي ... ولكنّي أصدُّ إذا جَفاني

فركبَ إليه معاويةُ رضي الله عنه، وناشده في الصَّفح عنه، واستعطفه حتّىٰ رجع»[2].

* ومن الأخبار التي تمجُّها النُّفوس وتأْباها العقول، خَبَرُ لَعْنِ عقيلٍ لعليٍّ علىٰ منبرِ معاويةَ! وقد ورَدَ هٰذا الخبرُ المقيتُ في عَدَدٍ من كبريات المصَادر المتنوّعة، ونحنُ نسوقُهُ ها هنا لكي نميزَ الخبيث من الطَّيِّبِ، ولكي يعرفَ المنصفون وأصحاب النّفوس الصَّافية أنْ سيّدنا عقيلاً وسيّدنا معاوية لا يمكنُ لأحدهما أوكلاهما أنْ يتجرّأَ علىٰ شتْمِ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه، إذ إنّهما لا يرتقيان لمكانتِهِ في نفوس المسلمين أجمعين، وهما يعلمان تمام العِلْم المكانةَ العلويَّةَ المتجذّرةَ في نفوس محبّي سيّدنا عليٍّ في مشارقِ الأرض وفي

---

(١) العقد الفريد (٤/ ٦ و ٧).
(٢) المستطرف (١/ ٥٧٤) نقلاً عن ربيع الأبرار (٢/ ١٤٢).

مغاربها، ولذا فلا يجرؤ معاويةُ مهما علا نجمُه أنْ يأمرَ عقيلاً بسبّ عليّ رضي الله عنه، ولكنَّ بعضَ ضعفاء النّفوس استغلُّوا بعضَ الأحداث السِّياسيّة والاجتماعيّة، ودسّوا قَصَصاً وأخباراً زعموا من خلالها أنّها لصالح رجال أهل البيت، في حين أنّها ليست لصالح أحدٍ، غير أنّها تعملُ علىٰ زيادة فجوةِ الخلافِ بين أبناء الأمّة الإسلاميّة التي شعارها التّقوىٰ ودثارها محبّة الصّحابة أجمعين.

* فمما ورد أنَّ عقيلاً قد طلب منه معاوية أنْ يلْعَنَ عليّاً علىٰ المنبر، فكيف كان ذلك؟!.

* قال معاويةُ لعقيل بن أبي طالب: «إنّ عليّاً قد قَطَعَكَ ووصلتُكَ، ولا يرضيني منك إلاّ أنْ تَلْعَنَه علىٰ المنبر»؟!!

قال: «أفعَلُ».

قال: «فاصعَدِ المنبر».

فَصَعِدَ، ثم قال بعد أنْ حمد الله وأثنىٰ عليه: «أيّها النّاسُ، إنَّ أميرَ المؤمنين معاوية، أمرني أنْ ألعنَ عليَّ بنَ أبي طالب أميرَ المؤمنين، فالعنوهُ، فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين».

ثمّ نزل، فقال له معاويةُ: «إنّكَ لم تُبيِّن أبا يزيد مَنْ لعنْتَ بيني وبينه؛ هٰذا الذي تزعُم قريشٌ أنّه أحمقُ»!!.

قال: «واللهِ لا زدتُ حرفاً ولا نقصتُ حرفاً، والكلامُ إلىٰ نيّةِ المتكلّم»[1].

---

(١) العقد الفريد (٤/ ٢٩)، ووفيات الأعيان (٢/ ٥٠٥)، وسير أعلام النّبلاء (٣/ ١٠٠)، والسيرة الحلبية (١/ ٤٣٣) مع الجمع والتصرف. ونقول: «إنَّ الخلافَ الذي حصل بين سيّدنا عليٍّ ومعاويةَ رضي الله عنهما لم يكنْ له أية خلفيّةٍ، وأنّه لم يكن بينهما صراعٌ عائلي، إذ يُذكرُ عن كليهما أنّهما كانا في خلافٍ عائلي أو شخصي، لأنَّ الإسلامَ الحنيفَ أزالَ آثارَ الجاهليةِ، ولم يبقَ بين بني هاشم وبني أمّية في ذلك العصر إلا أخوّةُ الإسلام وسلامةُ قلوبِ المؤمنين. (الإنصاف ص ٥٤٧) باختصار وتصرف.

* وفي ختام هـٰذه الفِقْرةِ نستطيع أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ سيّدنا معاوية رضي الله عنه لم يكن يوازي سيّدنا عليّاً رضي الله عنه، ولا هو من طبقته؛ ولكنَّ بعضَ المغرضين ممّن يشوشون علىٰ الحقائق، ويكرهون الحقّ، ويبغضون بعضَ أهل الحقِّ، جعلوا الخلافاتِ التي حصلَتْ بين عليٍّ ومعاويةَ رضي الله عنهما مدخلاً لذرّ الرّماد في العيون، وحرّكُوا بعضَ رجالِ أهلِ البيت كعقيل ليجعلوا منه رافعَ الحَيْفِ عن أهلِ البيت ورجاله الأطهار الأخيار.

* إنَّ العاقلَ لا يستطيعُ أنْ يستردَّ هيبةَ أهلِ البيت بمثل هـٰذه المنافرات والمحاورات والأجوبة المحبوكة، فأهلُ البيت رضي الله عنهم هم أهلُ السِّيادة، وهـٰذه الأمور لا تزيدُ من مقدارهم ولا تنقصُ، بل إنَّ سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه كان يجلُّ سيّدنا علياً رضوان الله عليه ويعرف له سابقته وفضْله، ذكرَ الذَّهبيّ أنَّ أبا مسلم الخولاني وأناساً جاؤوا إلىٰ معاويةَ وقالوا: «أنتَ تنازعُ علياً أمْ أنتَ مثله»؟

فقال: «لا واللهِ، إنّي لأعلمُ أنَّه أفضلُ منّي وأحقُّ بالأمر منّي»[1].

* ومن أقوال معاويةَ في عليٍّ رضي الله عنهما لعقيلِ بنِ أبي طالب عندما ذكر بعضهم ورع عليّ فقال: «ذكرتَ مالا يُنكر، رحمَ اللهُ أبا حَسَنٍ، فلقد سبقَ مَنْ كان قبله، وأعجزَ مَنْ يلدْنَ مثله».

.. * وقال سيّدنا معاويةُ في عليٍّ أيضاً: «هيهات هيهات! عقمت النِّساء أنْ يلدْنَ مثله».

* ووصَفَ سيّدنا معاويةُ زهدَه وتقواه فقال: «هو الذي يكنسُ بيوت الأموال ويصلّي فيها، وهو الذي قال: يا صفراءُ، ويا بيضاءُ غُرّي غَيْري».

* وروىٰ ابنُ عساكر عن أبي زرعةَ الرّازيِّ: «أنَّه قال له رجلٌ: إنّي أبغضُ معاويةَ.

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ١٤٠). واقرأ سيرة سيّدنا عليّ رضي الله عنه في هـٰذه الموسوعة المونقة المباركة.

فقال له: ولِمَ.

قال: لأنَّه قاتلَ عليّاً.

فقال له أبو زرعة: ويحك إنَّ ربَّ معاوية رحيمٌ، وخصمُ معاويةَ خصمٌ كريم، فأيش دخُولك بينها[1]؟

ودَاعاً عميدَ آل عقيل:

* يحقُّ لنا في خاتمةِ هذه الرّحلة العقيليّةِ أنْ نقول: «إنَّ سيّدنا عقيلاً علم من أعلام أهل البيت، وإنّه وأهله ممّن حُرموا من الصَّدقة لأنّهم من أهلِ البيت الذين ينسحِبُ عليهم ذلك؛ إذ إنَّ أهلَ بيت النَّبيّ ﷺ الذين حُرموا الصَّدقة بعده وهم: آل علي، والعبّاس، وآل جعفر، وآل عقيل[2] رضي الله عنهم أجمعين؛ وحشَرنا في معيّتهم؛ وعفا عنّا بفضله».

* ومن فوائد سيرة سيّدنا عقيل رضي الله عنه يقول الذّهبيّ: «هو أكبرُ إخواته وآخرهم موتاً، وهو جدُّ عبد الله بنُ محمّد بن عقيل المحدّث، وله أولاد: مسلم، ويزيد، وبه كان يكنىٰ، وسعيد، وجعفر، وأبو سعيد الأَحْول، ومحمّد، وعبد الرّحمن، وعبد الله»[3].

* وأفاد ابن قُتيبةَ في «المعارف» بقوله عن عميد الأسرة العقيليّة ورئيسها: «أسلم عقيلٌ، ولحقَ بمعاويةَ، وترك أخاه عليّاً، ومات بعدما عمي في خلافةِ معاوية، وله دارٌ بالبقيع واسعة كثيرة الأهل»[4].

---

(١) البداية والنّهاية (٨/ ١٣٠). ومِنْ أحسنِ الأجوبة في هـٰذا المجال، أنَّ الإمام أحمد رحمه الله، قد سئل عما جرىٰ بين عليٍّ ومعاوية فقال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة:١٤١]. والإمساكُ عن هـٰذه القصصِ والأخبارِ التي وردتْ عن سادتنا عقيل ومعاوية وعليٍّ وغيرهم من الصَّحابة أولىٰ من الخوض في متاهة توصل إلىٰ البوار.

(٢) انظر: مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٢٠) بشيء من التّصرّف.

(٣) سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢١٨).

(٤) المعارف (ص ٢٠٢).

* واحتفظت المصادر في أردانها بأنّ لسيدنا عقيل أولاداً وبنات من نساء شتّىٰ؛ ولهم شأن مذكور في تاريخ الإسلام.

* قال ابنُ قتيبة[1]: «خرج ولَدُ عقيل مع الحُسينِ بن عليّ بن أبي طالب، فَقُتِلَ منهم تسعةُ نَفرٍ، وكان مسلم بن عقيل أشجعهم، وكان علىٰ مقدّمة الحُسين، فقتله عُبيدُ الله بن زياد صبْراً. قال الشَّاعر:

عيـنُ جُـودي بعبـرةٍ وعـويـلِ ... وانـدبـي إنْ نَـدبـتِ آل الـرّسـولِ
سبعـةٌ كُلّهـم لصُلْـب علـيٍّ ... قـد أُصيبـوا وتسعـةٌ لعقيـلِ

* ومن أزواج عقيل القُرشيّات الشَّهيرات: فاطمة بنتُ عتبةَ بنِ ربيعة بن عبد شمس القرشيّة العبشميّة، أخت هند بنت عتبة، وهي خالةُ سيّدنا معاوية، وكانت فاطمةُ قد أسلمت يومَ الفتح وبايعت النَّبي ﷺ[2].

* ولفاطمةَ وعقيلٍ أخبارٌ أقربُ إلىٰ الطُّرفةِ والظَّرف منها إلىٰ الحقيقةِ، ولَعَلَّ بعضَها قد نُسج في مصانع بعض الوضَّاعين الذين أغرموا بالافتراء علىٰ كبار الصَّحابة وأهل البيت الأطهار.

* فمن الأخبارِ الظَّريفة ما ذكره ابنُ عساكر والبلاذريُّ وغيرها، أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه جاء إلىٰ سيّدنا عثمانَ بنِ عفَّانَ، فقال له: يا أميرَ المؤمنين، لي إليك حاجة، لابدّ أنْ تسعفَني بها.

قال: ماهي؟

قال: فاطمةُ بنتُ عتبة بن ربيعة، خطبتُها، فأَبَتْنِي، وتزوَّجت أخي عقيل بن أبي طالب، فَسَلْها: لِمَ ذاك؟

(١) المعارف (ص ٢٠٤)، وانظر: أنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٧١)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٤٢).

(٢) اقرأ سيرة السّيّدة فاطمة بنت عتبة في كتابنا «بيعة النِّساء في القرآن والسِّيرة» (ص ٢٣١ ـ ٣٣٢). طبعة دار اليمامة بدمشق الفيحاء.

فقال عثمانُ رضي الله عنه: ما تصنع بذلك؟ النّساء يأخذنَ ويدعْنَ.

قال: إنّي أحبُّ ذلك، أقسمتُ إلا سألتَها عن ذلك.

فدعا سيّدنا عثمان مولاه مُعَتِّباً فقال له: اذهب إلىٰ فاطمةَ بنتِ عتبة، فأَقْرِها السَّلام ورحمة الله، وقُلْ: إنَّ عمَّك أرسلني إليك يسألك: لم رددتِ عليّاً وتزوجتِ عقيلاً؟

فلمّا جاءها استأذن عليها، فقالت: مَنْ هـٰذا؟

قال: معتّب مولىٰ عثمان.

فقالت: ادخلْ، مرحباً.

فدخل، فأبلغَها رسالة عثمان، فقالت له: نعم، أمْرٌ معروف، إنّي وجدتُ عليّاً قد قتَلَ الأحبَّة يوم بدر، ووجدتُ عقيلاً قاتَلَ معهم يومئذ، اخرجْ أبا يزيد، وخرجَ عليٌّ عليه ملحفة مورَّسة[1].

* ومن الأخبار العقيليّة الفاطميّة العبشميّة الخفيفة ما ورد في كتاب «التَّبيين» وغيره قالوا «فاطمةُ بنتُ عتبة تزوَّجها عقيلٌ بنُ أبي طالب، فقالت له: اصبِرْ عليَّ وأنا أبعثُ إليك، وكان عقيلٌ إذا دخل عليها تقول: ابنة عتبة وشيبة. فقالت له يوماً كلاماً منه: يا بني هاشم، لا يحبّكم قلبي أبداً، أين أبي؟ أين عمّي؟ أين أخي؟ كأنَّ أعناقَهم أباريق الفضّة تَرِد أنوفَهم قبل شفاههم؟

فقال لها عقيل: إذا دخلت النَّار، فانظري إلىٰ يسارك تجديهم.

فغضبتْ ونشزَتْ عليه، وشدَّتْ عليها ثيابها، وأتت عثمان فشكَتْ إليه، فبعثَ عبدَ الله بنَ عبَّاس ومعاويةَ بنَ أبي سفيان حكَمَين من أهله وأهلها. فقال

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٧/ ١٢٠)، وأنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٧٦)، وبيعة النّساء في القرآن والسّيرة (ص ٢٣٢) مع الجمع والتّصرّف. و«الأحبّة»: أبوها عتبة، وعمّها شيبة، وأخوها الوليد الذين قتلهم عليّ وحمزة وعبيدة بن الحارث يوم بدر. و«مورسة»: مصبوغة بالورس، والورس نبات أصفر يُصبغ به.

ابنُ عبَّاس: لأحرصنَّ علىٰ أنْ أفرق بينهما.

وقال معاويةُ: ما كنتُ لأفرّقَ بين شيخَيْن من قريش.

فلمّا أتياها، وجداهما قد أغلقا البابَ واصطلحا، وقالت فاطمةُ لهما: والله ما أريدُ بأبي يزيد بدلاً، فانصرفا»[1].

* وعاش سيّدنا عقيل رضي الله عنه زمناً طويلاً حتّىٰ شاخ، قال عطاءُ بنُ أبي رباح: «رأيتُ عقيلاً شيخاً كبيراً يقلّ غَرْب زمزم»[2].

* وقال ابنُ سعد: «مات عقيلٌ بن أبي طالب بعدما عمي في خلافةِ معاويةَ بنِ أبي سفيان، وله عقبٌ اليوم، وله دارٌ بالبقيع كثيرة الأهل والجماعة، واسعة»[3].

* وفي «تهذيبه» قال النّووي: «توفي عقيلٌ في خلافةِ معاوية وقد كُفَّ بصره، ودُفِنَ بالبقيع، وقبرهُ مشهورٌ عليه قبّة في أوّل البقيع»[4].

* ومعظمُ الذين ترجموا لسيّدنا عقيلٍ قالوا: توفي زَمَن معاوية، غير أنَّ ابنَ كثير ترجم له في «البداية والنّهاية» وذكره في وفيات سنة (٥٠ هـ) وقال: «ومات في خلافة معاوية رضي الله عنه»[5].

---

(١) انظر: التّبيين في أنسابِ القرشيين (ص ١٩١)، وأنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٧٦) وغيرهما. وذكر ابنُ عساكر أنَّ «معاويةَ قال لعقيل: أيّ النّساء أشهىٰ إليك؟ قال: المواتية ـ الموافقة والمطيعة ـ لما نهوىٰ. قال: فأي النّساء أسوأ؟ قال: المجانبة ـ المباعدة عن الشّيء ـ لما نرضىٰ.

فقال معاوية: هـٰذا النّقد العاجل؛

فقال له عقيل: «بالميزان العادل» (مختصر تاريخ دمشق ١٧/ ١٢٢).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٨٥) و«يقلّ»: يحمل. و«غَرْب»: الغَرْب: الدلو العظيم. وجمع: غَرْب: غروب، وجمع دلو: دِلاء.

(٣) طبقات ابن سعد (٤/ ٤٤).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٧)، وانظر: وفاء الوفا (٣/ ٩١١).

(٥) البداية والنّهاية (٨/ ٤٧).

* أما صلاح الدِّين الصَّفدي فقال في «نكت الهميان»: «توفي عقيلٌ رضي الله عنه في حدود الخمسين، وقد أضرَّ بصره، وروى له النّسائيُّ وابنُ ماجه»[1].

* وذكر ابنُ حجر وفاته مخالفاً غيره فقال: «في تاريخ البخاري الأصغر بسند صحيح أنَّه مات في أوَّلِ خلافةِ يزيد قبل الحَرّة»[2].

* وتابع الزِّركلي في «الأعلام» ابن حجر، وجزم بأنَّه توفي سنة (٦٠ هـ) وقال: «توفي عقيلٌ في أوَّلِ أيّام يزيد»[3].

* وقال الزِّركليّ عن ذريّة عقيل ببلاد الشّام: «وكان في حلب وأطرافها جماعةٌ ينتسبون إليه، يُعرفون ببني عقيل»[4].

* رضي الله عن سيّدنا عقيل، وجعله في الجنَّةِ في ظلٍ ظليل، وجعلنا في معيّةِ أهلِ البيت في أحسن مقيل.

❐ ❐ ❐

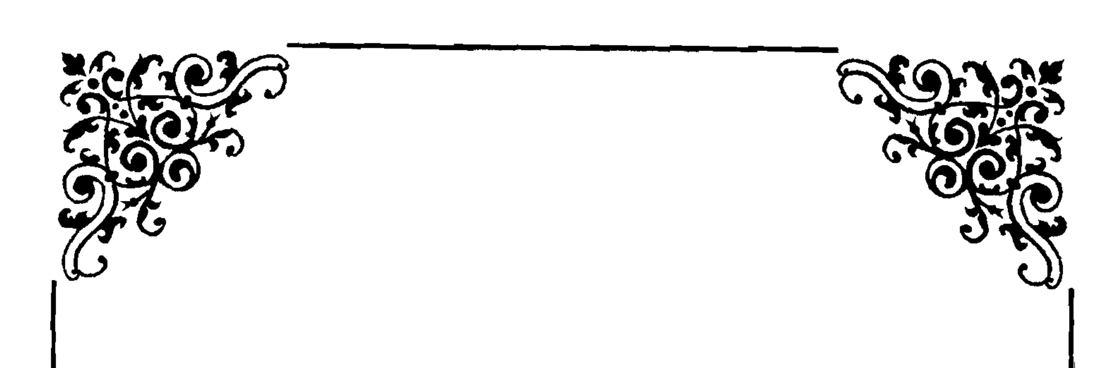
---

(١) نكت الهميان (ص ٢٠١).

(٢) الإصابة (٢/ ٤٨٧).

(٣) الأعلام (٤/ ٢٤٢).

(٤) المرجع السَّابق عينه.



الباب الثالث

من أحفاد

النبي صلى الله عليه وسلم

الحسن بن علي
الحسين بن علي







الحسن بن علي

رضي الله عنهما

* طيِّبٌ أصلُه وفرعُه، زاكٍ بذرُه وزرعُه .
* سيّد شباب أهل الجنَّة، وريحانة النَّبيِّ ﷺ .
* أشبهُ النَّاس بالصَّادق المصدوق ﷺ .
* له مكانة عظمىٰ في قلوب المؤمنين وضمائرهم .
* روى أحاديث، وأخباره مشهورة، وتوفي بالمدينة .




الحسنُ بن عَليّ
رضي الله عنهما

منْبَعُ النُّبوَّةِ:

* هذا السَّيِّدُ الكريمُ، انحدرَ من شرفِ العنصر الكريم، ومعدن الشَّرف الصَّميم، أصلُه راسخٌ، وفرعُه شامخٌ، ومجدُه باذخٌ، وحسبهُ شادخٌ.

* وهذا السَّيِّدُ نسيب الطَّرفَيْن، شريفُ الجانبَيْن، قد ركَّبَ اللهُ دوحتَه في قرارِة المجد، وغرسَ نبعتَه في محلِّ الفَضْل، فَعِرْقُه كريم، ومغرسُه عظيم، ومغرزُهُ صميم؛ فالمجدُ لسانُ أوصافه، والشَّرفُ نسبُ أسلافِه؛ له حسبٌ فَخْمٌ، وشرفٌ ضَخْمٌ، يستوفي شرفَ الأرومة بكرمِ الأبوَّة والأمومة، وشرف الخؤولة والعمومة، ما أتتْهُ المحاسنُ عن كلالة، ولا ظفرَ بالهُدى عن ضلالة، بل تناول المجدَ كابراً عن كابر، وأخذَ الفَخْر عن أسِرَّة ومنابر:

شَرفٌ تنقَّل كابراً عن كابرٍ ... كالرُّمح أنْبُوباً على أنبوب

* استقى عِرقه من منْبع النُّبوَّة، ورضعت شجرته من ثدي الرّسالة، وتهدّلَت أغصانُه عن نبعةِ الإمامة، وتبحبَحَتْ أطرافه في ساحةِ الشَّرف والسِّيادة، وهو من مضر في سويداء قلبِها، ومن هاشم في سواد طرفها، ومن الرّسالة في مهبط وحيها.

* هو الطَّيِّبُ أصلُه وفرعُه، الزَّاكي بذْرهُ وزرعُه، جمعَ شرفَ الأخلاقِ، إلى شرفِ الأعراق، وكرم الآداب، إلى كرمِ الأنساب، إنَّه السَّيِّدُ المحبَّب، والحكيمُ المقرّب، الحسنُ بن عليّ بن أبي طالب بن عبْد المطّلب بن هاشم،

الإمامُ السَّيّد، ريحانةُ رسول الله ﷺ وسبطُه، وسيّدُ شباب أهل الجنَّة، أبو محمّد القرشيّ الهاشميّ المدنيّ الشَّهيد[1].

* وسيّدنا الحسنُ رضوان الله عليه تفرَّعَ من شجرةٍ زاكيّة النَّدى، باسقةِ العُلى، عربيّة الأصل، حسيبةِ الفَضْل، قرشيَّةِ الأهل، منافيّةِ الأعطان، هاشميّةِ الأغصان، لا يذوي عودها، ولا تجفُّ ثمرتها، ولا يضلُّ أهلها.

* جمعَ سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه المحاسنَ من أطرافها، والفضائل من أنحائها؛ فجدُّه الرّسول ﷺ؛ وأمُّه فاطمة البتول رضي الله عنها:

كفَاهُ علّواً في البريّةِ أنَّه ... لأحمدَ والطُّهر البتُول سَليلُ
فَما كُلُّ جدٍّ في الرِّجالِ محمّدٌ ... ولا كُلّ أمٍّ في النِّساءِ بتولُ

* إي وربّي، ما كلُّ جدٍّ في الرّجال حبيبنا الصَّادقِ المصدوقِ محمّدٍ ﷺ، فمحمّدٌ ﷺ هو الذي كثر حمْدَ الحامدين له مرّةً بعد مرّة، وهو الذي تكاملت فيه

---

(١) المصادر التي تحدَّثت عن سيّدنا الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما لا تُحصر ومنها: سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٤٥ ـ ٢٧٩)، وحلية الأولياء (٢/ ٣٥ ـ ٣٩)، ووفيات الأعيان (٢/ ٦٥ ـ ٦٩)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٨ ـ ١٦٠)، وتاريخ بغداد (١/ ١٣٨)، والإصابة (١/ ٣٢٧ ـ ٣٣٠)، والاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٧)، وأسد الغابة (١/ ٤٨٧ ـ ٤٩٢) ترجمة رقم (١١٦٥)، والبداية والنّهاية (٨/ ٣٣ ـ ٤٤)؛ وقد افتتح ابن كثير رحمه الله ترجمة سيّدنا الحسن في وفيات سنة (٤٩ هـ) فقال: «الحسن بن عليّ بن أبي طالب، أبو محمّد القرشيّ، الهاشميّ، سبط رسول الله ﷺ، ابن ابنته فاطمة الزّهراء، وريحانته، وأشبه خلق الله به في وجهه، ولد للنّصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة، فحنكه رسول الله ﷺ بريقه، وسمّاه حسناً، وهو أكبر ولد أبويه، وقد كان رسول الله ﷺ يحبُّه حبّاً شديداً رضي الله عنه. . .» (البداية والنّهاية ٨/ ٣٣).
كما افتتح المناويُّ ترجمته في كتابه «الطّبقات الكبرىٰ» فقال: «الحسن بن عليّ بن أبي طالب، سبط رسول الله وريحانته، أمير المؤمنين، وآخر الخلفاء بنصّ المصطفىٰ ﷺ، السّيّد المُحبَّب، والحبيبُ المقرّب، له في التّصوّف الكلام المشرق المرتب، والمقال المونّق المحقّق المهذّب، وقد قيل: إنَّ التّصوّف تنوير البيان، وتطهير الأركان». (الطّبقات الكبرى ١/ ١٣٤ و ١٣٥) دار صادر ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.

الخصال المحمودة، وقد اشتقّه الله عزَّ وجلَّ من اسمه المحمود، كما قال سيّدنا حسَّانُ بنُ ثابت رضي الله عنه:

وشَقَّ لـه مـن اسْمِـهِ كـي يجلَّـه فذو العَرشِ محمودٌ وهذا محمّدُ[1]

* قال محمّد بنُ يُوسف الصَّالحيّ الشَّاميّ المتوفىٰ سنة (٩٤٢ هـ) عن سيِّدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول الله ﷺ ما نصُّه ورسمُه: «اعلمْ رحمني اللهُ وإيّاك أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أنشأَ النُّفوسَ مختلفةً، فمنها الغايةُ في جودةِ الجوهر، ومنها المتوسطُ، ومنها الكدر، وفي كلّ درجات، فالأنبياءُ صلى الله عليهم وسلم هم الغاية، خُلقت أبدانُهم سليمةً من العيب فَصَلحت لحلول النَّفس الكاملة، ثم يتفاوتون، فكان نبيّنا ﷺ أصلح الأنبياء مزاجاً، وأكملهم بدناً، وأصفاهم روحاً»[2].

* ولله درّ القائل فيه ﷺ:

لِمَ لا يضيءُ بكَ الوجودُ وليلُه فيهِ صَبَاحٌ مِنْ جمالِكَ مُسْفِرُ
فَبِشَمسِ حُسْنكَ كلُّ يومٍ مُشرقٌ وبِبَدْرِ وجهِكَ كلُّ ليلٍ مُقْمِرُ

* نعم واللهِ، ما كلُّ أمٍّ في النِّساء بتولُ، فأمُّ سيّدنا الحسن رضي الله عنه هي فاطمةُ الزَّهراء رضي الله عنها أطهرُ نساء العالمين، وسيّدةٌ من سيّدات نساء أهل الجنَّة، فهي ابنةُ سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ، أفضل خلقِ اللهِ على الإطلاق، وهي أمُّ الحسن والحُسين سيّديّ شباب أهل الجنَّة، وريحانتيّ نبيّ هذه الأمَّة، ويكفيها من الفضل يكفيها، أنَّها كانت تكنى أمّ أبيها:

زَهَتْ زهرةُ الدُّنيا بفاطمةَ الزَّهْرا فمادِحُها لَمْ يَفْقدِ الرَّوضَ والزَّهْرا
وأَنعـمَ مَـولاهُ عليـهِ وزادَهُ سُروراً وأوفىٰ زادَه بالتُّقى دَهْرا
وأصبحَ للخَيْراتِ عَبْداً موفَّقاً إذا طلبَ العَلْياءَ كانَتْ له قَهْرا
أَيَا بضْعَةِ المُختارِ من آلِ هاشمٍ ويا بنْتَ خيرَ الخلْق أَنْجَبْتِ الطُّهْرا

---

(١) ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ (١/ ٣٠٦) دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٤ م.
(٢) سبل الهدىٰ والرّشاد للصّالحيّ (٢/ ٩).

ويـا أمَّ مَـنْ سَـادا شَبـابـاً بِجَنَّـةٍ وَزَوْجَ عليٍّ مَنْ حوْت للعُلا مَهْرا
وأَنْسلَتِ الأشرافَ فينا ذَوي التُّقىٰ فكمْ أظهرتْ بحراً وكمْ أغدقَتْ نَهْرا
علَيـكِ سـلامُ اللهِ ختمـاً ومُبْتَـداً ويشملُ منكِ الأصلَ والنَّسْل والصِّهْرا

* والخلاصة: امتدّت السُّلالةُ النَّبويّةُ الطَّاهرةُ في ذريّةِ فاطمة الزَّهراء وأولادها رضي الله عنهم أجمعين، إذْ إنَّ الحسَنَ والحسينَ سِبْطا[1] رسولِ الله ﷺ، ولهما المكانةُ العظمى في قلوبِ المؤمنين ومحبّي أهلِ البيت الأطهار.

الحَسَنُ الحَسَنُ الشَّبيهُ:

* كان مولدُ سيِّدنا الحسن رضي الله عنه وأرضاه في مدينةِ رسول الله ﷺ

---

(١) «سبطا»: مثنىٰ سبْطٍ، والجمعُ: أسباط. قال الإمامُ فخر الدّين الرّازيّ في تفسيره: «الأسباط: قال الخليل: السِّبْطُ في بني إسرائيل كالقبيلةِ في العرب: وقال صاحبُ الكشّاف: السّبطُ: الحافد. وكان الحسنُ والحسين رضي الله عنهما سِبْطيّ رسول الله ﷺ. والأسباطُ: الحَفَدةُ وهم: يعقوبُ عليه السّلام وذراري أبنائِه الاثني عشر». (التّفسير الكبير ٤/ ٧٥).
وقال ابنُ عطيّةَ في تفسيرِه: «السِّبطُ في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيلَ عليه السّلام، فسمّوا الأسباط لأنّه كان علىٰ كل واحد منهم سبط». (تفسير ابن عطيّة ص ١٣٧).
وتوسَّعَ أبو حيَّان في تفسيره فأوضحَ معنىٰ السِّبط فقال: «الأسباطُ جمعُ سِبْط؛ وهم في بني إسرائيل كالقبائلِ في بني إسماعيل، وهم وَلَدُ يعقوب اثنا عشر، لكلّ واحدٍ منهم أمّةٌ من النّاس؛ سمّوا بذلك من السّبط؛ وهو: التّابعُ، فهم جماعةٌ متتابعون. ويُقال: سبطَ عليه العطاء: إذا تابعه. ويُقال: هو مقلوبُ بسط، ومنه البسَاطة، والسّاباط. ويقال للحسنِ والحُسينِ رضي الله عنهما: سبطا رسولِ الله ﷺ، سمّوا بذلك لكثرتهم وانبساطهم وانتشارهم، ثمَّ صار إطلاقُ السّبطِ علىٰ ابنِ البنتِ فيقال: سبطُ أبي عمر بن عبد البرّ، وسبطُ حسين بن منده، وسبط السّلفي في أولاد بناتهم. وقيل: أصلُ الأسباط من السّبط: وهو الشّجر الملتفّ. والسّبط الجماعة الرَّاجعون إلىٰ أصل واحد. (تفسير البحر المحيط ١/ ٥٦٩).
وقال الفيروز أبادي في القاموس ما مفهومه: «السَّبَط: محركة: الشَّجرةُ لها أغصانٌ كثيرةٌ، وأصلُها واحدٌ، والسِّبطُ: بالكسر: ولد الولد، والقبيلة من اليهود. وفي الحديث: «حُسينٌ سِبطٌ من الأسباط»: أمّة من الأمم». (القاموس المحيط ص ٨٦٥ و ٨٦٦) طبعة مؤسّسة الرّسالة الثّانية عام ١٩٨٧ م.

طيبة الطَّيِّبة، في شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة النَّبويَّةِ المباركةِ، فكان سبطُ رسولِ الله ﷺ الأوَّل، وريحانتُه النَّديّة من الدنيا، وشبيهُه، وقد سمّاهُ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ الحسَنَ، وهو متفرّدٌ بين الصَّحابةِ الكرام بهذا الاسم الحسن الجميل المبارك اللطيف.

* نقل ابنُ الأثير عن أبي أحمد العسكريّ أنَّه قال: «سمَّاه النَّبيّ ﷺ الحسنَ، وكنَّاه أبا محمّد، ولم يكنْ يُعرفُ هذا الاسم في الجاهليّة، وروي عن ابن الأعرابي، عن المفضّل، قال: إنَّ الله حجبَ اسمَ الحسن والحُسين حتى سمّى بهما النَّبيّ ﷺ ابنيه الحسنَ والحُسين...»[1].

* وممَّا لا ريب فيه أنَّ سرورَ الحبيب المصطفى ﷺ كان عظيماً بهذا المولودِ المبارك، واختار له هذا الاسم الميمون الكريم، وهو اسمٌ ذو معنى جليل نبيل، بعيدٌ كلَّ البعد عن مسمّيات أهلِ الجاهليّة، ومتعلّقاتها في هذا المضمار، وقد لقّبه ﷺ بالسَّيِّد، كما جاء في الصَّحيح وغيره عن أبي بكرة: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبهِ، ينظرُ إلى النَّاس مرَّةً وإليه مرَّةً ويقول: «ابني هذا سيّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يصلحَ به بين فئتَيْن من المسلمين»[2].

---

(١) أسد الغابة (١/ ٤٨٨). وقال عمران بن سليمان: «الحسن والحسين اسمان من أسماء أهل الجنّة لم يكونا في الجاهليّة». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ برقم (٣٧٤٦ و ٧١٠٩)، وفي حديث أبي بكرة أيضاً في ذلك: وأنّه ريحانتي من الدُّنيا، ولا أسود ممّن سمّاه رسول الله ﷺ سيّداً» (الاستيعاب ١/ ٣٦٥). وانظر: ابن حبان برقم (٦٩٢٥).
أقول: «ينبغي علىٰ المسلم أن يتعلَّم من الهدي النّبوي كثيراً من الأشياء التّربويّة المفيدة في الحياة، ومنها أنْ يحرصَ المسلمُ أشدَّ الحرص علىٰ اختيار الأسماء ذات المعاني الكريمة ويسمّي بها أولاده.».
ومن الملاحظ أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ قد اختار لسبطه اسماً حسناً ذا معنىٰ حسن، وفي قالبٍ لطيف، فاسْمُ «الحسن» اسم ممتعٌ للأسماع، عذبٌ علىٰ اللسان، سهلٌ جميلٌ، يحملُ معنىً سامياً، ووصفاً مطابقاً للشّخصية، فمن حقّ الأبناء علىٰ الآباء أنْ يختاروا لهم الأسماء الكريمة الحسنة المطابقة للشّريعة، وأنْ يربّوهم علىٰ الأدبِ وحسنِ معاملة النَّاس. =

* وعن سَوَادَةَ أو سَوْدَةَ بنتِ مِسْرَح الكنديّة قالت: «كنتُ فيمن حضرَ فاطمة الزّهراء بنت رسولِ الله ﷺ حين ضربَها المخاضُ. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «كيف هي، كيف هي ابنتي، فديتُها»؟

قلتُ: إنّها لتجهدُ يا رسولَ الله.

قال: «إذا وضعتْ فلا تُحدثي شيئاً».

فوضعتِ الحسَنَ، فَسَرَرْتُه[1]، ولففتُه في خِرقةٍ صفراء، فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: «ما فعلت ابنتي فديتُها، وما حالها، وكيف بنيّ»؟

فقلت: يا رسولَ الله، وضعتُه وسررتُه، وجعلتُه في خرقةٍ صفراء.

فقال: «لقد عصيتني».

قلت: أعوذُ بالله من معصيةِ الله، ومعصيةِ رسوله ﷺ، سررتُه يا رسولَ الله، ولم أجد من ذلك بداً. قال: «ائتني به». فأتيتُه به. فألقى عنه الخرقةَ الصَّفْراء، ولفَّه في خرقةٍ بيضاء، وتفلَ في فِيْهِ، وسقاهُ من ريقهِ.

وجاء عليٌّ فقال رسول الله ﷺ: «ما سمَّيته يا عليُّ»؟

فقالك سمّيته جعفراً يا رسولَ الله.

قال: «لا، ولكنّه حسَنٌ، وبعده حُسين، وأنتَ أبو الحَسن والحُسين»[2].

= أمّا ما نجدهُ الآن من تسميةِ بعض النّاس المسلمين لأبنائهم بأسماء أعجميَّة وَرَدَتْ من الكُفَّار، فهٰذا من عظيمِ الفتن والافتتان بحضارة الكافرين البرّاقة التي تحملُ القسوة والعنف من وراء هٰذا البريق، ومن العجيب أنَّ بعضَهم يفخر بأنْ سمّىٰ ابنه أو ابنته علىٰ اسم ممّثل أو مطربة من هؤلاء الغربيين الغريبين عن الدِّين الحنيف، وهديه الشّريف، بل نجدُ تخليطاً عجيباً في أسماء أولاد الأسرة الواحدة فبعضها لطيف؛ وبعضها أعجمي سخيف.

(١) «سررته»: قطعت سرّته.

(٢) الإصابة (٤/ ٣٣٠)، وأسد الغابة (٦/ ١٥٧ و ١٥٧) ترجمة رقم (٧٠٢٥)، ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ٦ و ٧).

* وفي رواية: «وأنتَ أبو الحسن الخير».

* وعن سيّدنا عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّه سمّى ابنه الأكبر حمزة؛ وسمَّى حُسيناً بعمّه جعفر. فدعا رسول الله ﷺ عليّاً، فقال: «إنّي قد غيّرتُ اسمَي ابنيّ هذين».

قال: اللهُ ورسولُه أعلم.

فسمّى حسناً وحُسيناً [١].

* وفي روايـة أنَّ عليّاً رضـي الله عنه أحـبَّ أنْ يسمّيَه حَرْبـاً، فجـاء رسولُ الله ﷺ فقال: «أروني ابني، ما سميتموه»؟ فقال عليّ: سمّيته حرباً، فقال النّبيُّ ﷺ: «بل هو حَسَن» [٢].

* ولمَّا وُلدَ سيّدنا الحسَن رضوان الله عليه أذّن النّبيّ ﷺ في أذنيه بالصَّلاة؛ فقد جاء عن أبي رافع رضي الله عنه: «أنَّ النّبيَّ ﷺ أذَّن في أذن الحسن بالصَّلاة حين وُلد» [٣].

* استنبطَ الفقهاءُ وأهلُ العلْمِ الحكمة من الأذان في أذن المولود، وتوصّلُوا إلى فوائد مهمّةٍ وأدبيّات نافعة منها: أنَّ الأذانَ من شعائر دين الإسلام، وأنَّ الأذانَ يهربُ منه الشَّيطان، وأنَّ أوّلَ ما يطرقُ سمع المولود كلمة الشَّهادة العظيمة كأنَّه يلقّنها عند دخوله في الحياة، كما يلقّن ذلك عند احتضاره. وأنْ يؤذّن للمولود في الأذن اليمنى، ثمّ تقام الصَّلاة في الأذن اليُسرى، بالإضافة إلى أمور أخرى جاءت في كتب الفقه، وكتبِ الأطفال المتخصصة [٤].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/٧)، وأخرجه الطبراني برقم (٢٧٨٠)، وانظر: سير أعلام النُّبلاء (٣/٣٤٧).

(٢) أخرجه ابن حبان برقم (٦٩١٩) وهو ضعيف. وانظر: الاستيعاب (١/٣٦٨)، ومجمع الزوائد (٩/١٧٤ و ١٧٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٢٤٨)، وانظر تخريج الحديث فيه. وانظر: زاد المعاد (٢/٣٣٣).

(٤) اقرأ كتابنا «الطّفل في ضوء القرآن والسُّنّة والأدب» طبعة دار اليمامة بدمشق. وكذلك كتابنا=

* كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ عقَّ عن الحسن والحُسين كبشاً كبشاً، وأمر فاطمة رضي الله عنها أن تحلقَ رأسَ الحسن، وتتصدّق بوزنه فضّة على المساكين ففعلت[1].

* وقد أرضعت سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه امرأةٌ نبيلةٌ جليلةُ القَدْرِ، ومن أهل الفَضْل، هي أمُّ الفَضْل لُبابةُ بنتُ الحارث الهلاليّة[2] زوجُ العبَّاسِ عمِّ النَّبيِّ ﷺ، وهي إحدى نجيبات نساء المسلمين وسيداتهنّ، ولدت لسيِّدنا العبَّاس ستَّةَ رجالٍ نجباء كوامل رضي الله عنهم أجمعين.

* وفي رضاع سيّدنا الحسن رضي الله عنه، أخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن أمّ الفَضْل قالت: «رأيتُ كأنَّ في بيتي عضواً من أعضاء رسولِ الله ﷺ؛ قالت: فجزعتُ من ذلك، فأتيتُ رسول الله ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فقال: «خيراً، تلدُ فاطمة غُلاماً فتكفلينه بِلَبَنِ ابنك قُثم» قالت: فولدَتْ حَسَناً فأعطيته، فأرضعته حتّى تحرَّك أو فطمتُه، ثمّ جئتُ به إلى رسولِ الله ﷺ فأجلسْتُه في حجره، فبال، فضربتُ بين كتفيه، فقال: «ارفقي بابني رحمكَ الله أو أصلَحك الله، أوجعتِ ابني» قالت: يا رسول الله، اخلعْ إزارَكَ وألبس ثوباً غيره حتّى أغسله. قال: «إنَّما يُغْسَل بولُ الجاريةِ، ويُنْضَحُ بولُ الغلام»[3].

* نشأ سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه وأرضاه في محضنِ النُّبوَّة وحجرها، وترعرعَ في غدواتِ جبريل وروحاتِه، ولاحظتْهُ عينُ الرِّعاية المحمّديّةِ الحانيةِ، والعناية المصطفويّة البَانِيَة، ولم تغبْ عنه ساعة ولا ثانية، منذ أنْ كان في المهد

= «الأطفال والطّفولة بين الأدب والثّقافة ـ رؤية إسلامية نفسيّة» طبعة دار اليمامة.

(١) انظر: سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٢٤٨)، وتخريج الحديث فيه.

(٢) اقرأ سيرة أم الفضل بنت الحارث في موسوعتنا اللطيفة «نساء من عصر النّبوّة» (ص ٤٣٩ ـ ٤٥٠) طبعة دار ابن كثير الثالثة عام (٢٠٠٣ م) ففي سيرتها فوائد جليلة بإذن الله تعالىٰ.

(٣) المسند (١٠/ ٢٥٦) برقم (٢٦٩٣٩) طبعة دار الفكر الأولىٰ ببيروت عام (١٩٩١ م).

صبياً، إلى أنْ أضحى طفلاً فتياً، وكان سيّدنا الحسنُ من أحسن النّاس وأجملهم وأبهاهم، وصفه المصنّفون بأنّه: أبيضُ اللون، مشرّبٌ بحمرة، أدعجُ العينين، سهلُ الخدين، كثُّ اللحية، أشبهُ النّاس بالحبيبِ المصطفىٰ رسول الله ﷺ.

* كانت ملامحُ سيّدنا الحسن رضي الله عنه تنطقُ بالشّبه الشَّديد بملامح النّبوّة، حتّى إنَّ سيّدنا العالمَ العيلمَ ربيب النّبوّة أنس بن مالك[1] رضي الله عنه كان يقول: «لم يكن أحد أشبه بالنّبيّ ﷺ من الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما»[2].

* جاء في الصَّحيح عن عقبةَ بنِ الحارث قال: «رأيتُ أبا بكر رضي الله عنه وَحَمَلَ الحسنَ وهو يقول: بأبي شبيه بالنّبيّ، ليس شبيهٌ بعليٍّ؛ وعليٌّ يضحك»[3].

* وجاء عن ابنِ أبي مليكة قال: «كانت فاطمةُ رضي الله عنها تنقزُ ـ ترقّص ـ الحسنَ بنَ عليٍّ، وتقولُ مثلَ ذلك»[4].

* قال ابنُ حجر: «ويُحتملُ إنْ كان حفظه أن يكون كلٌّ من أبي بكرٍ وفاطمةَ توافقَا على ذلك، أو يكون أبو بكر عرف أنَّ فاطمةَ كانت تقول ذلك فتابعَها على تلك المقالة»، وقال: «لعلَّها تواردت في ذلك مع أبي بكر أو تلقّى ذلك أحدهما من الآخر»[5].

* من الجدير بالذّكر أنَّ الذين كانت صفات أجسادهم تقربُ من صفات

---

(١) اقرأ سيرة سيّدنا أنس بن مالك في موسوعتنا المزهرة «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ٣٨١ ـ ٤٣٩) تجد خيراً كثيراً بإذن الله تعالى.

(٢) أخرجه البخاريّ في فضائل الصّحابة برقم (٣٧٥٢)، وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٩).

(٣) أخرجه البخاريّ برقم (٣٧٥٠).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٢١). وجاء في أنساب الأشراف أنّ سيّدتنا فاطمة الزّهراء رضي الله عنها كانت إذا زفّنت ـ أي رقّصت ـ الحسن قالت:

وابـــأبـــي شبـــه النّبـــي غيـــــر شبيـــــه بِعَلـــــيّ

(أنساب الأشراف ـ علي وبنوه ص ٣٦٦).

(٥) المصدر السَّابق نفسه.

جسَد النَّبيّ ﷺ كثيرون، ذكرتهم مصادر متخصّصة وهم: آدمُ أبو البشر، وإبراهيمُ نبّي الله ورسوله وخليله عليهما السَّلام.

* أما الذين كانوا يشبهونه منْ أمتّه فهم: الحسنُ بنُ عليّ، وفاطمةُ الزّهراء، وإبراهيمُ بنُ سيّد الخلائق ﷺ، وجعفرُ بنُ أبي طالب، وابناه عونٌ وعبدُ الله، وقُثمُ بنُ العبّاس، وأبو سفيان بنُ الحارث بن عبد المطّلب، وابنُ ابنه عبد الله أمير البصرة، ومحمّد ومسلم ابنا عقيل بن أبي طالب، والسَّائبُ بنُ يزيد، وعبدُ الله بن عامر، وكابسُ بنُ ربيعة، وعليُّ بنُ نِجَاد بن رفاعة، والقاسمُ بنُ عبد الله بن محمّد بن عقيل، وعبد الله بن محمّد بن عقيل، والقاسمُ بنُ محمّد، وإبراهيمُ بنُ عبد الله بن الحسن بن الحسن، ويحيى بنُ القاسم بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين، وعُبيدُ الله بن أبي طلحة الخولاني، ومسلمُ بنُ مُعَتّب، وثابتُ البُناني، وقتادةُ بنُ دعامة، ومحمّدُ بنُ عبد الله المهديّ الذي يخرجُ في آخر الزَّمان، وعبدُ الله بنُ عوانة المغربي[1].

* ساق الإمامُ محمدُ بنُ يوسُف الصَّالحي الشَّاميّ في كتابه القيّم «سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد» فائدة مهمة جداً في ذِكْر مَنْ يشبّهون بالمصطفى ﷺ فقال ما نصُّه ورسمه: «سألت شيخنا الإمام العلامة شيخ الإقراء بدمشق وإمام جامعها أبا العبّاس أحمد شهاب الدّين الرّملي ثمّ الدّمشقيّ الشَّافعيّ، لمَّا قدم الدّيار المصريّة في آخر عمره أنْ ينظمَ أسماء المذكورين، قبل أنْ أظفرَ بجماعةٍ ليسوا في نظمه؛ فأجابَ إلى ذلك، وسُرَّ بوقوفه على أسمائهم»[2].

* ثمَّ أوردَ الصَّالحيُّ قصيدةَ الرّملي التي ضمَّنها أسماء الذين يشبهون

---

(١) انظر: استجلاب ارتقاء الغرف بحبّ أقرباء الرّسول ﷺ ذوي الشّرف للسّخاويّ (٢/٥٤٧ ـ ٥٥٩)، وسبل الهدىٰ والرّشاد للصّالحيّ (٢/ ١٥٥ ـ ١٥٨) مع الجمع والتّصرّف اليسير.

(٢) سبل الهدىٰ والرشاد (٢/ ١٥٨).

رسولَ الله ﷺ، وسأسوقُها هنا بتمامها لعظيم فائدتها، ولسهولةِ حفظ هذا النَّوع من الشّعر. قال أبو العبّاس الرّملي:

بالمُصطفى شُبّه بعضُ النّاسِ ... فاحْفَظْهمُ ولا تكُنْ بالنّاسي
فاطمةُ الزَّهراء وابناها الحسَنْ ... ثمَّ حُسَين وكلاهما حَسَنْ
وابنُ رسولِ اللهِ إبراهيمُ ... ونَوفَلُ بنُ الحارث العظيمُ
وابنُ ابنه انشُرْ بالجميلِ ذِكْره ... أبو محمّدٍ أميرُ البَصْره
وجعفرٌ وابناهُ عبدُ اللهِ ... وعوناً اذكرْ لا تكُنْ باللاهي
وابنا عقيلٍ وهما محمّدُ ... ومُسْلمٌ والسَّائبُ الممجَّدُ
ابنُ يزيد وهو جدُّ الشَّافعي ... إمامُنا الأعظمُ نَجْلُ شَافِعِ
والحبرُ عبدُ الله ذا ابنُ عامر ... ابنُ كُريز العَبْشَميّ الفاخر
وكابسٌ والدهُ ربيعه ... ابنُ عديّ نسبةٌ رفيعه
كذا عليُّ بنُ عليّ بن نجاد ... ابنُ رفاعةَ الرّفاعيّ الجَواد
اليَشكريّ وَعُدَّ بعد اليشكري ... يحيى هو ابنُ القاسم بنِ جَعْفرِ
ابنُ محمّد مولانا عليّ ... ابن حُسين بن عليّ الولي
وولد العبّاس وهو قُثَم ... وابنُ معتِّب المسمّى مُسْلم
والقاسم الثّبت ابن عبد اللهِ ... بن محمّد عظيم الجَاه
فجدُّهُ عقيلٌ الكريمُ ... كذا ابنُ عبد الله إبراهيمُ
وجدُّهُ فالحسَنُ بنُ الحسنِ ... ابن علي يا لَه منْ مُحسنِ
والسيّدُ المهديُّ الذي سيظهرُ ... قُبيل عيسى وبهِ يبشِّرُ
وابنُ أبي طلحةَ عبدُ اللهِ ... وذاكَ خَوْلاني بلا اشتباهِ
وابنُ عوانةَ الشّريف المغربيّ ... أحمدُ لُقِّبَ الشَّبيهَ بالنَّبيّ
قد جاءَ في تاسعِ قرنٍ قد مَضى ... ووجهُهُ على البُدورِ قد أَضا
وقد رأيتُهُ لطَيفَ الذَّات ... ممدحاً بأحسنِ الصِّفاتِ
وذكروا عثمانَ في التّشبيهِ ... بالمصطفى وليسَ بالوجيهِ
وأثرٌ فيهِ أتىٰ موضوعُ ... مخْتلقٌ في شبههِ مصنوعُ
وهو جميلُ الذّكْرِ عالي الدّرجَهْ ... وبابنتَيْهِ المصطفى قد زوّجَه

صَلّــىٰ عليــه ربُّنــا وسلَّمــا والآل والصَّحب الكرام العُظَما(١)

* وقد تمَّم ما أفاد النَّاظم أقل تلامذة المؤلف الشَّيخ محمّد بن محمّد القيسيّ المالكيّ، منبّهاً على ما في النَّظم من مخالفة الأصل في تسمية أبي سفيان بن نوفل بنوفل فقال:

وُعــدَّ فــي أشبــاهِــهِ الخليــلُ ... وآدمُ المعظّــم الجليــلُ
صلّــى عليهمــا الإلــهُ دائمــا ... مُسلِّمــاً مــا لاحَ نجمٌ فـي السَّما
كــذاك عبــدُ الله بــنُ نــوفــل ... كـذا أبـو سفيـان أخـوه المُعتلـي
وعــدَّهُ النَّــاظــم نــوفــلاً بــلا ... شـكّ مخـالـفٌ لمـا قـد نُقـلا
كــذلــك المهــديّ أيضــاً مُنْتَقَــد ... لما مضىٰ في الأصلِ وهو المعتمد
وُعـدَّ فـي الأشبـاهِ أيضـاً ثـابـتُ ... هــو البُنَــانــي وكــذا قتَــادَةُ
ابــنُ دعــامــةَ كــذاك القــاسـمُ ... كـذاك عبـدُ الله أبــوهُ العَــالـمُ
وشـافـع ابـنُ ذي الـذّكـر الجميل ... والفضـل والتَّبجيـل مـولانـا عقيـل
وشــافـعٌ جــدُّ الإمــام الشَّــافعـي ... لمـا مضـىٰ عـن صـاحـبِ الشَّـرائع
صلــى عليــه الــرّبُّ ذو الجــلال ... كــذا الصَّحــابُ جملــة والآل(٢)

---

(١) سبل الهدىٰ والرشاد (٢/ ١٥٨ و ١٥٩).

(٢) سبل الهدىٰ والرشاد (٢/ ١٦٠). ووقف عليه المؤلف بعد النظم فقال:

وآدمُ ومثلُــه الخليــلُ ... كــلاهمــا ذِكــرٌ لــه جميــلُ
صلّــىٰ إلهُنــا كــذلــك سلّمــا ... عليهمــا والأنبيــاءُ دائمــا
بــالمصطفــىٰ قــد شبّهــا وثــابــتٌ ... أعنــي البُنــانــي وكــذا قتــادةٌ
ابــنُ دعــامــةُ بــذلــك ذكــرَه ... بعــضٌ مــن الحفّــاظ فيمــا سطَــره
كــذلــك أبــو سفيــان بــن نــوفــل ... أنِعــمْ بــه يــا صــاح مـن خيـرِ ولـي
وابــنُ أخيــه الحبــرُ عبــد الله ... عُــدّا معــاً مــن جملــةِ الأشبــاه
كــذلــكَ عبــد الله جــدّه عقيــل ... والقــاسـمُ الحبـرُ كـذلـك يـا نبيـل
ابــنُ محمّــد بــه خُتــم النّظــام ... والحمــدُ لله ربّنــا علــىٰ التّمــام

وقول النَّاظم: ونوفل بن الحارث: أي ابن نوفل بن الحارث: (سبل الهدىٰ والرَّشاد ٢/ ١٦٠).

«اللهمَّ إنِّي أُحِبُّه»:

* لهذا الحبيب الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما مكانةٌ متفرّدةٌ عند الحبيب المصطفى ﷺ، وله في قلبه الشَّريف محلٌّ مشرقٌ مرتَّبٌ، ومقامٌ مونقٌ مهذّبٌ، فقد درَجَ رضي الله عنه في بيت النُّبوَّةِ الطَّاهر، وكانت عينُ النَّبيِّ ﷺ ترعَاهُ، وفي كلأ محبّته وعطفه وجَدَ رضاه، ونالَ من قلبِهِ الشَّريف المحلَّ الأسمى، ومن عاتقِهِ الشَّريف المركبَ الأهنى.

* كانت المكانةُ الحسَنيَّةُ عظيمةً عند الحضرة النَّبويَّةِ، فقد سُرَّ رسولُ الله ﷺ بمولدِ سبطه الحسن واستبشَر، فكان يحملُه ويداعبُه أينما حلَّ وحضَر، وكان ﷺ يدعوه ليتسلَّقَ صدره الشَّريف، ومن ثمَّ يلاعبُه ويناغيه بعبارات التَّشريف.

* تفتَّقَ وعيُ سيّدنا الحسن رضي الله عنه وهو ينعمُ في حجر النُّبوّة، ويتغذّى من معين الرّسالة، ويرعاه أعظم قلبٍ في الدُّنيا، وقد ألقى الله عزَّ وجلَّ محبَّته في قلوبِ النَّاس، وهيبته في نفوسهم، وكان شَبَهُهُ الشَّديد بجدِّهِ ﷺ بادٍ في أساريره ومحيّاه، وفي قُعوده وممشاه.

* تسنَّم هذا السَّيِّد المُسَوَّدُ مكانةً سامقةً عند سيِّد الخلْقِ رسولِ الله ﷺ، فهو سبطُهُ الأوَّلُ، وهو خامسُ أهل الكساء[١]، كساء آل محمّد[٢] ﷺ، وهو

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنّوويّ (١/ ١٥٨).

(٢) «كساءُ آل محمّد»: قال الثَّعالبيُّ: «كساء آل محمّد: الذي يُضافون إليه فيقال: آل الكساء، كما قال ديكُ الجنّ في قوله:

والخمسَةُ الغُرّ أصحابُ الكساء معاً ... خيرُ البريّةِ من عُجْمٍ ومنْ عَربِ

وكما قالَ أبو عُثمان الخالديّ:

أعَاذِلَ إنّ كِسَاءَ التّقىٰ ... كَسَانيهِ حبّي لآلِ الكسَاء

ومن قصَّةِ هٰذا الكساء؛ ما رَوَتِ الرّواةُ من أنَّ وفداً بنجران، من النَّصارىٰ، قدموا علىٰ النَّبيِّ ﷺ، فكانَ ما جرىٰ بينَهم وبينَه أنْ قالوا: يا محمّد، لِمَ تعيبُ عيسىٰ وتسمّيه عبداً؟ =

المُحَبُّ المحبوبُ من قِبَلِ الحبيب الأعظمِ محمّد ﷺ؛ ونحنُ نحبُّه اتّباعاً لمحبّةِ الحبيبِ الكريمِ محمّدٍ ﷺ.

* أخرج أبو نُعيم الأصبهانيّ في «الحِلْيةِ» عن البراءِ بنِ عازب[1] رضي الله عنه قال: «رأيتُ النَّبيَّ ﷺ واضعاً الحسَنَ على عاتقِهِ فقال: «مَنْ أحبَّني فلْيحبَّه»[2].

* نقرأ في الصَّحيحِ عند مسلم رحمه الله بسندهِ عن أبي هُريرة[3] رضي الله

= فقال: «أجَل، عبدُ اللهِ ورسولُه وروحُه، وكلمتُه ألقاها إلىٰ مريمَ».
قالوا: فأرِنا مثلَه يُحيي الموتىٰ، ويبرىءُ الأكمهَ والأبرصَ، ويخلقُ منَ الطّينِ كهيئةِ الطّير، وبايعنَا علىٰ أنّه ابنُ الله، ونحنُ نبايعك علىٰ أنّك رسولُ الله.
فقال رسولُ الله ﷺ: «معَاذَ الله أنْ يكونَ للهِ ولدٌ أو شريك»!
فما زالوا يحاجّونه ويُلاحُونه حتّىٰ أنزلَ اللهُ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[آل عمران: ٦١]؛ فعرضَ عليهم المباهلة، وهي الملاعنةُ، فتواعدوا لها، وجمعَ إليه ﷺ عليّاً وفاطمةَ والحسنَ والحُسين رضي الله عنهم، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣].
ويُروىٰ أنَّ جبريل عليه السَّلام انضمَّ إليهم، واندسَّ فيهم تقرّباً إلىٰ الله تعالىٰ بمداخلتهم، فَعَدل النَّصارىٰ عن المباهلة؛ وقال بعضهم لبعض: إنَّ هـٰذا الرَّجلَ لا يخلو من أمريْن:
إمّا أنْ يكون نبيّاً، أو مَلَكاً، فإنْ كان نبيّاً فإنَّ اللهَ لا يخالفهُ فينا، وإنْ كان مَلَكاً فليسَ إلا استخفافاً بنا؛ والرّأي أنْ نصالحه ونَعرِضَ عن مباهَلَته؛ فجنحُوا إلىٰ مسالمته علىٰ ألاّ يغزوَهم النّبيُّ ﷺ، ولا يردَّهم عن دِينهم، وعلىٰ أنْ يؤدّوا إليه في كلّ عام حلّة نجرانيّة، وثلاثين درعاً عادية.
وصالَحهم النّبيُّ ﷺ وقال: «لو باهلوني لما حالَ الحولُ علىٰ واحدٍ منهم، ولأهْلَكَ اللهُ الكاذبين»؛ فمن ذلك الوقت سُمّي الخمسة أصحاب الكساء، وسادسهم جبريل عليه السَّلام، وفيهم قيل: أفْضلُ مَنْ تَحتَ الفَلَك، خمسةُ رهْطٍ ومَلَك». (ثمار القلوب ص ٦٠٤ و ٦٠٥).

(١) اقرأ سيرة البراء بن عازب في موسوعتنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص ٧٤١ ـ ٧٦٦).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٥)، وأخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٢٢).
(٣) اقرأ سيرة حافظ الصَّحابة الأول أبي هريرة في الباب الثاني من موسوعتنا المونقة «علماء =

عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال لحسَنٍ: «اللهم إنِّي أحبُّه فأحبَّهُ وأحِبَّ مَنْ يحبُّه»[(١)].

* وفي الصَّحيح أيضاً ما يدلُّ على المحبَّةِ النَّبويَّةِ المونقةِ الحانية لسيّدنا الحبيبِ الحسنِ رضي الله عنه، إذ أخرج مسلمٌ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أنَّه قال: «خرجتُ مع رسولِ الله ﷺ في طائفةٍ من النَّهار، لا يكلّمُني ولا أكلّمُهُ، حتى جاء سوق بني قينقاع، ثمَّ انصرف، حتَّى أتىٰ خِباء فاطمةَ رضي الله عنها، فقال: «أَثَمَّ لُكَعُ؟ أَثَمَّ لُكَعُ؟» يَعْني: حَسَناً، فَظَنَنَّا أنَّه إنَّما تحبسُه أمّه لأنْ تغسِّلَه وتلبسَه سخاباً، فلم يلبث أنْ جاء يسعىٰ، حتَّى اعتنقَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهمّ إنّي أحبُّه، فأحِبَّه، وأحببْ مَنْ يحبّه»[(٢)]. وقال أبو هُريرة: «فما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من الحسنِ بنِ عليٍّ بعدما قال رسولُ الله ﷺ ما قال»[(٣)].

= الصحابة رضي الله عنهم» (ص ٢٨٥ ـ ٣٧٩)؛ طبعة دار اليمامة بدمشق.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصّحابة برقم (٢٤٢١)؛ وابن حبان برقم (٦٩٢٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٢١/ ٥٧) واللفظ له. وأخرجه البخاري برقم (٢١٢٢ و ٥٨٨٤)، وابن حبّان برقم (٦٩٢٤)؛ ومعنىٰ قوله «طائفة من النّهار»: قطعةٌ منه. وقوله «لايكلّمني ولا أكلّمه»: أمّا من جانبِ النّبيِّ ﷺ فلعلّه كان مشغول الفكر بوحي أو غيره؛ وأمّا مِنْ جانبِ أبي هُريرة فللتّوقير، وكان ذلك من شأنِ الصَّحابة إذا لمْ يَروا منه نَشَاطاً. و«خباء فاطمة»: بيتها. و«أثمّ لكع»: بهمزة الاستفهام، ولكع لها معنيان: أحدهما: الصَّغير؛ والآخر: اللئيم. والمرادُ هنا الأوّل. وفي لغةِ بني تميم: اللكع: الصَّغير. وعن الأصمعي: اللكع: الذي لايهتدي لمنطقٍ ولا غيره، قال الأزهريُّ: «وهـٰذا القولُ أرجحُ الأقوال هنا، لأنّه أراد أنَّ الحسَنَ صغيرٌ لا يهتدي لمنطقٍ، ولم يردْ أنّه لئيم ولا عبد». و«سخاباً»: قلادة تتخذ من القرنفلِ، والمسْكِ، والعود، ونحوها من أخلاط الطِّيب، يُجعل قلادة عند لقائهم أهل الفضل، واستحباب النّظافة مطلقاً. و«جاء يسعىٰ»: فيه استحبابُ ملاطفةِ الصَّبيّ ومداعبته رحمة له ولطفاً، واستحبابُ التّواضع مع الأطفال وغيرهم. و«اللهم إنّي أحبّه»: بفتح أوّله بلفظ الدّعاء. وفي رواية: «أحِبُّهُ». وفي الحديث: بيانُ ما كان عليه الصَّحابة من توقير الصغير والمزاح معه ومعانقته وتقبيله، ومنقبة للحسنِ بن عليٍّ رضي الله عنه. والله أعلم.

(٣) انظر: صحيح البخاري برقم (٥٨٨٤).

* وتخطرُ لطائفُ المحبَّةِ البريئة الصَّافيةِ ناطقةً بأنَّ سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه كان كثير الشَّغف برسولِ الله ﷺ متعلّقاً به تعلُّقاً شديداً، بحيث كان الحبيبُ المصطفى ﷺ يَجِدُ فيه الأُنْسَ والرّيحان، والهناء والسُّلوان فكان يلاطفهُ ويرفقُ به رفقاً متميّزاً، حتّى إنّ بعض كبراء الصَّحابة تعجَّبَ من ذلك، وكان كلَّما رأى الحسن أسبلَتْ عيناه دمعاً. وها نحنُ أولاء في رحاب سيِّدنا أبي هُريرة رضي الله عنه نستمعُ إليه إذ يقول: «ما رأيتُ الحسنَ قطّ إلا فاضَتْ عيناي دموعاً، وذلك أنَّه أتى يوماً يشتدُّ حتّى قَعَدَ في حجرِ رسولِ الله ﷺ فجعلَ يقولُ بيديهِ هكذا في لحيةِ رسول الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ يفتحُ فمه، ثمَّ يدخلُ فمَهُ في فمِهِ ويقول: «اللهمّ إنّي أحبُّه فأحبَّه، وأحبَّ مَنْ يحبّه» يقولُها ثلاثَ مرّات»[1].

* ظلَّت محبَّةُ أبي هريرة للحسنِ رضي الله عنهما تصاحبُه كظلّه، وكان أبو هريرة يحبُّ أنْ يتتبَّع مواطنَ فمِ النَّبيّ ﷺ على جسمِ سيِّدنا الحسنِ رضي الله عنه، ولك أنْ تتصوَّرَ هذا المشهدَ الأنيقَ من أبي هريرة والذي يرسُمه لنا عُمير بنُ إسحاق أبو محمّد مولىٰ بني هاشم فيقول: «كنتُ أمشي مع الحسنِ بن عليٍّ في طُرقِ المدينة، فلقينا أبا هريرة فقال للحسن: اكشفْ لي عن بطنِكَ جُعلتُ فداكَ حتّى أقبّلَ حيث رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقبله، فكشفَ عن بطنِهِ، فقبَّلَ سُرّته»[2].

* وتبدو صورُ الحنان النَّبويِّ متألقةً للحسنِ، بما رواه أبو بكرة الثَّقفيّ الطَّائفيّ مولى النَّبيّ ﷺ قال: «كان النَّبيُّ ﷺ يُصلّي بنا، فيجيءُ الحسنُ ـ وهو ساجدٌ ـ صبيٌّ صغيرٌ حتَّى يصيرَ على ظهرهِ ـ أو رقبته ـ فيرفعَهُ رفعاً رفيقاً، فلمَّا صلَّىٰ صلاتَه قالوا: يا رسولَ الله، إنَّك لتصنعُ بهذا الصَّبيِّ شيئاً لا تصنعُ بأَحَدٍ.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٥). ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ٨) و (٧/ ١٠).

(٢) أخرجه الطبراني برقم (٢٥٨٠ و ٢٦٦٤)، وانظر: مجمع الزّوائد (٩/ ١٧٧)، وابن حبان برقم (٦٩٢٦) وهو ضعيف؛ وقال: «ولو كانت سرّته من العورة ما كشَفَها». وأخرجه في مواضعَ من مسنده.

فقال: «إنَّ هذا ريحانتي، وإنَّ ابني هذا سيّدٌ وعسى اللهُ أنْ يصلحَ به بين فئتَيْن من المسلمين»[(١)].

* وهذه صورةٌ أخرى ومكرمةٌ عظمىٰ لسيِّدنا الحسنِ رضي الله عنه يرويها لنا البهيُّ مولىٰ الزُّبير قال: «تذاكرنا من أشْبَهُ النَّبيّ ﷺ من أهله، فدخل علينا عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنهما فقال: أنا أحدّثكم بأشبهِ أهله إليه وأحبِّهم إليه: الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما؛ رأيتُه يجيءُ وهو ساجدٌ، فيركبُ رقبته، أو ظهره، فما ينزله حتّى يكون هو الذي ينزلُ، ولقد رأيتُه يجيءُ وهو راكعٌ، فيفرجُ له بين رجليه، حتّى يخرجُ من الجانب الآخر»[(٢)].

* عن أسامةَ بنِ زيد الحِبّ بن الحِبِّ رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله ﷺ يأخذُني فيقعدني على فخذِه، ويقعدُ الحسنَ على فخذه الأخرى، ثمّ يضمنا، ثم يقول: اللهم ارحمهما، فإنّي أرحمهما»[(٣)].

* ورووا أنّ معاويةَ بن أبي سفيانَ رضي الله عنهما قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يمصُّ لسانَ الحَسَنِ أو شفَتَه، وإنَّه لن يُعَذَّبَ لسانٌ أو شفتان مصَّهما رسولُ الله ﷺ»[(٤)].

* وممَّا يذكي النّفوس في هذا المقام الكريم التَّربويّ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يعوِّذُ حفيدَيْهِ بكلماتِ الله التَّامّة، كما عوَّذ منْ قَبْلُ نبيّ الله إبراهيم عليه السَّلام ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السَّلام.

* أخرج البخاريُّ رحمه الله بسندٍ رفعه إلى سعيدِ بنِ جُبير عن عبد الله بن

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٥)، قال سفيان: «قوله: «بين فئتين من المسلمين» يعجبنا جداً». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٢١).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٨)، ومجمع الزوائد (٩/ ١٧٥)، والإصابة (١/ ٣٢٨)، وإسناده ضعيف.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٩)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٦٢)، والإصابة (١/ ٣٢٨).

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٦١)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٥٩)، والحديث في مسند الإمام أحمد.

عبَّاس[1] رضي الله عنهما قال: «كان النَّبيُّ ﷺ يعوِّذُ الحسنَ والحُسينَ ويقول: «إنَّ أباكما كان يعوِّذُ بهما إسماعيلَ وإسحاقَ: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامّة، من كلِّ شيطانٍ وهامَّة، ومن كلِّ عينٍ لامّة»[2].

* بلغَ من مكانةِ الحسن والحُسينِ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يصحبُهما معه في بعض أمورِه، وكان يجعلُ أحدهما قُدَّامه على البغلة، والآخر خلفَه، ويدخُلُ الثَّلاثةُ الحجرة النَّبويَّةَ، وهم على هذهِ الحال الجميلةِ التي تُعتبرُ من أُولى المقدمات في فنِّ التَّربيةِ، وتنشئةِ الأجيال على الفضائل، كما تدلُّ على الرَّأفةِ بالأطفالِ والاهتمام بما يدخلُ السُّرور على قلوبهم البريئة، وتفقّد أحوالهم، وإعطائهم حقوقهم.

* ومن أتمّ الأمثلة وأفضلِها على ما نقولُ ما أخرج مسلمٌ رحمه الله في صحيحهِ عن أبي إياس سلمةَ بنِ الأكوع الأسلميّ[3] رضي الله عنه قال: «لقد

---

(١) اقرأ سيرةَ سيدنا عبد الله بنِ عبّاس الهاشميّ في كتابنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم(ص ٢١ ـ ٧٨)»؛ إذ افتتحتُ الكتابَ بسيرتِهِ العطرة المباركة تيمّناً فيهِ، إذ هو من علماء أهلِ البيتِ الذين رزقَهم اللهُ فهماً وفطنةً وزادهم بسطةً في العلْم والجسم.

(٢) أخرجه البخاريُّ في أحاديث الأنبياء برقم (٣٣٧١)، ومعنىٰ قوله «إنَّ أباكما»: يريدُ نبيّ الله إبراهيم عليه السّلام، وسمّاه ﷺ أباً لكونهِ جدّاً أعلىٰ. وقوله «بكلمات الله»: قيل: المرادُ بها كلامه علىٰ الإطلاق، وقيل: أقضيته، وقيل: كلّ ما وعد به. والمراد بالتّامة: الكاملة. وقيل النّافعة. وقيل: الشّافية. وقيل: المباركة. وقيل: القاضية التي تمضي وتستمرُّ ولا يردّها شيءٌ، ولا يدخلها نقصٌ ولا عيبٌ. قال الخطّابي: : كان أحمد بن حنبل رحمه الله يستدلُّ بهٰذا الحديث علىٰ أنَّ كلامَ اللهِ غيرُ مخلوق، ويحتجُّ بأنَّ النَّبيّ ﷺ لا يستعيذُ بمخلوق». و«من كلّ شيطان»: يدخلُ تحتَه شياطين الإنس والجن. و«هامّةَ»: الهوامُ ذوات السُّموم. و«لامّة»: كلُّ داءٍ وآفة تلمّ بالإنسان من جنونٍ وخبلٍ. قال ابنُ عساكر رحمه الله بعد أنْ أوردَ هٰذا الحديثَ الشّريفَ: «وكان إبراهيمُ النَّخَعِيُّ يستحبُّ أنْ يواصلَ هؤلاءِ الكلماتِ بفاتحة الكتاب».
وقال منصور: «تعوَّذْ بها فإنّها تنفعُ من العين والفزعة، ومن الحمّىٰ، ومن كلّ وجع». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٨).

(٣) اقرأ سيرة سيّدنا سلمةَ بن الأكوع الأسلميّ في موسوعتنا «فرسان من عصر النّبوة» =

قُدْتُ بِنبيِّ اللهِ ﷺ، والحسن والحُسين بلغته الشَّهباء، حتَّى أدخلتُهم حجرةَ النَّبيِّ ﷺ هذا قدَّامه وهذا خلفه»[1].

فهمُهُ وتفسيرُهُ للقرآن الكريم:

* من خلالِ سيرةِ هذا الإمام الكريم رضي الله عنه، نعلم أنَّه كان والقرآن لا يفترقان، إذ كان يرى في تلاوته الرّوح والرَّيحان، والخيرات الحِسَان، فكان يقرأُ في بعض خطبه سورة إبراهيم، كما كان يقرأُ كلَّ ليلةٍ سورة الكهف قبل أنْ ينام، وكان يقرؤها من لوحٍ كان يدور معه حيث كان من بيوت نسائه، فيقرؤه بعدما يدخلُ في الفراش قبلَ أن ينامَ رضي الله عنه وأرضاه[2].

* تحتفظُ كثيرٌ من أمّهاتِ كتبِ التَّفْسير في أردانها بأنَّ الحسنَ رضي الله عنه كان له مشاركاتٌ في التّأويل، وفي إيضاح بعضِ الأمور التي استعصتْ على بعضِ علماء الصَّحابة أو التّابعين، لأنَّ سيّدنا الحسنَ قد اقتبس علماً نافعاً من أمير مفسّري الصَّحابة وسيّدهم في هذا المجال سيّدنا عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه الذي لم يترك ابنه الحسنَ من دون تعليم أو تربية أو توجيه، بالإضافة إلى أنَّ الحسن رضي الله عنه قد نشأ في بيتِ مهبطِ الوحي الكريم؛ ومنبع القرآن العظيم.

* ولسيّدنا الحسن فهمٌ متميزٌ لمعاني القُرآن الكريم وآياته المباركة، وفي تفسيره لقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[مريم: ٢٤] نجدُ مصداقَ ذلك.

* ذكرَ المفسّرون بأنَّ الضَّميرَ هاهنا عائدٌ إلى المسيح، وقال الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «لو لم يكن كلّمها، لما علمت أنَّه ينطقُ، فما كانت تشير

= (ص ٢٠٥ ـ ٢١٩) ففي سيرته مواقف مشهورة ومشهودة لاتنسىٰ.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم (٢٤٢٣). قال الإمام النّوويُّ رحمه الله تعالىٰ: «في هٰذا الحديث: دليل لجواز ركوب ثلاثة علىٰ دابة إذا كانت مطيقة، وهٰذا مذهبنا مذهب العلماء كافة» (المنهاج ص ١٧٦٦).

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٣٧) بشيء من التّصرّف اليسير. وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٢٨).

إلى عيسى عليه السَّلام بالكلام»[1].

* ومن بدائع التّفسير الحسنيّ التَّربويّ الحصيف ما جاء في تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾[المنافقون: ٨]، فقد جاء عن سيّدنا الحسن بن عليّ رضوان الله عليهما أنَّ رُجلاً قال له: «إنَّ النَّاسَ يزعُمون أنَّ فيك تيهاً». فقال له سيّدنا الحسنُ معلّماً ومربّياً ومنبّهاً: «ليس بتيهٍ، ولكنّه عزَّةٌ، فإنَّ هذا العزَّ الذي لا ذلَّ معه، والغنى الذي لا فقْرَ معه». وتلا هذا الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون: ٨][2].

* قال بعضُ العارفين في تحقيقِ معنى العزّة لله عزَّ وجلَّ: «العزّةُ غيرُ الكِبْر، ولا يحلُّ للمؤمن أنْ يذلَّ نفسه، فالعزَّةُ معرفةُ الإنسان بحقيقةِ نفسه وإكرامها عن أنْ يضعَها لأقسام عاجلة دنيوية، كما أنَّ الكِبْرَ جهلُ الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلها؛ فالعزّة تشبهُ الكِبْر من حيثُ الصُّورة، وتختلفُ من حيث الحقيقة كاشتباه التَّواضع بالضَّعة؛ والتَّواضع محمودٌ، والضَّعةُ مذمومةٌ، والكِبْرُ مذمومٌ، والعزّةُ محمودةٌ؛ ولما كانت غير مذمومة وفيها مشاكلة للكبر، قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأحقاف: ٢٠]، وفيه إشارةٌ خفيّةٌ لإثبات العزّة بالحقّ، والوقوف على حدّ التَّواضع من غير انحراف إلى الضَّعة وقوف على صراط العزّة المنصوب على متن من نار الكبر»[3].

* وكان سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه يجيبُ بعضَ السَّائلين عن تفسير كلمةٍ من كلماتِ القرآن إجابةً شافيةً، من ذلك أنَّ رجلاً سأله: من النَّاسُ في قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[النصر: ٢]. فقال: «نحنُ النَّاس، وأشياعنا أشباهُ النَّاس، وأعداؤنا النَّسناس». فقبَّلَه سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه بين عينيه وقال: «اللهُ أعلمُ حيثُ يجعل رسالته»[4]؟!!!!.

(١) التّفسير الكبير للرّازي (٢١/ ١٧٤).
(٢) التّفسير الكبير للرّازي (٣٠/ ٦١ و ١٧)، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٢٧٠).
(٣) المصدر السابق (٣٠/ ١٧).
(٤) تفسيرُ الرازي (٣٢/ ١٤٤).

* يُصَنَّفُ سيّدنا الحسنُ بأنَّه ممّن يُؤخَذُ برأيِه في التَّفْسِير، وقد وافَقَه عددٌ جمٌّ من علماء الصَّحابة والتَّابعين على ما يقول، فقد فسَّرَ قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[البروج:٣]، فقال: «الشَّاهد: محمّدٌ، والمشهودُ يوم القيامة» وقد وافقه في هذا التَّفسير: ابن عبّاس رضي الله عنهما ومولاه عكرمة[١].

* ويظهرُ الحسنُ رضي الله عنه بأنَّه ذو باعٍ طويلٍ في علْم القراءات، أخذَ ذلك عن أبيه عليٍّ رضي الله عنه، فقد كان سيّدنا عليّ من الأئمة العظام أُولي العِلْم الرَّاسخ في القراءات، وهو أحدُ الأركان والمقرئين الأثبات ممَّن أخذ عنهم كبارُ قرّاءِ الأمصار في المشرق والمغرب، وكان يوجّه ابنَه الحسنَ إلى القراءة الصَّحيحةِ التي تلقَّاها عن رسولِ الله ﷺ.

* قال أبو عبد الرَّحمن السُّلَميّ رحمه الله: «قرأَ الحسنُ والحُسين رضي الله عنهما عَلَيَّ: ﴿وأَرْجِلِكُمْ﴾ ـ بكسر اللام ـ، فسمعَ عليٌّ، وكان يقضي بين النَّاس فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾[المائدة:٦] (وأرجلكم) هذا من المُقدَّم والمؤخر من الكلام»[٢].

* من الفائدة أنْ نشيرَ إلى أنَّ كلمةَ «أرجلكم» قد قُرِئَتْ بالجر والنَّصب والرّفع، فقد قرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وحمزة: «وأرجلِكم» خفضاً. وقرأ نافعٌ، وابنُ عامر، والكسائي: «وأرجلَكم» نَصْباً. وقرأ الحسنُ والأعمشُ: «وأرجلُكم» بالرّفع. وكُلُّ مَنْ قرأَ بالنَّصب جعَلَ العاملَ «اغسلوا» وبنى على أنَّ الفرضَ في الرِّجلَيْن الغَسْل بالماء دون المسح، وهذا هو مذهبُ الجمهور، وعليه فِعْلُ النَّبيّ ﷺ، وهو اللازمُ من قوله ﷺ وقد رأى قوماً يتوضّؤون وأعقابهم تلوحُ، فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقابِ من النَّار»[٣].

* ومن نماذج تفسير سيّدنا الحسن التي وافقتْ أقوال علماء الصَّحابة

---

(١) تفسيرُ ابن عطية (ص ١٩٦٣)، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٤٤٣).

(٢) تفسير القرطبيّ (٦/ ٩٣).

(٣) انظر: تفسير ابن عطيّة (ص ٥٢٠) بشيء من التّصرّف.

كعمرَ وعليٍّ وأبي هُريرة، وعلماء التّابعين كالحسنِ البصريّ، والنّخعيّ، والشّعبيّ، والأوزاعيّ، والزّهريّ، تفسيره لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[قَ:٤٠] حيث قال رضي الله عنه: «أدبار السّجود: الرّكعتان بعد المغرب، وأدبار النّجوم الرّكعتان قبل الفجر»(١).

* وللرّيحانة النّبويّة الحسن رضي الله عنه أقوالٌ في التّفسير تشبهُ الحكمةَ المُصَفَّاة بشهْد العِلْم، ويُعجبني جدّاً قوله في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[الضحى:١١] إذ قال: «إذا أصبتَ خيراً، أو عملتَ خيراً، فحدِّث به الثّقةَ من إخوانِكَ»(٢).

* ومن تمام أدبِ سيّدنا الحسن أنَّه كان يصونُ لسَانَه عن أنْ يتفوّهَ بأيةِ كلمةٍ خارجةٍ عن أدب الخطاب صوناً لما يحفظه من آياتِ الله والحكمة، بل ورد أنَّ هذا السَّيّد المفضال لم ينطقْ بكلمةٍ فحش قطّ. قال عُمير بنُ إسحاق: «ما تكلّم عندي أحد كان أحبّ إليّ إذا تكلّم ألا يسكتَ من الحسَن بنِ عليٍّ، ما سمعتُ منه كلمة فحش قطّ إلا مرّة، فإنَّه كان بين حُسين بن عليّ وعمرو بن عثمان بن عفان خصومة في أرض، فعرض حُسين أمراً لم يرضَه عمرو، فقال الحسَنُ: فليس له عندنا إلاّ ما رغم أنفه؛ فهذا أشدّ كلمة فحش سمعتُها منه قط»(٣).

روايته لأحاديث جدِّه المُصْطَفى ﷺ:

* نشأ سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه نشأةً علميّةً في بيئةٍ كريمةٍ، وبيتٍ طاهر، ويُعدُّ سيّدنا الحسنُ أحد رجالِ أهلِ البيت الذين نقلوا الحديث الشّريف عن المختار خير مُضَر سيّدنا محمّد ﷺ.

* ومن المعلوم أنَّ رسولَ الله ﷺ قد توفي والحسنُ لا يزالُ في عُمْر الزَّهر الأبيضِ الغافي في أحضان الرّبيع، ولكنَّه عقلَ عن جدّه ﷺ أحاديثَ وأحداثاً،

(١) تفسير القرطبيّ (١٧/ ٥٢).
(٢) المصدر السّابق (٢٠/ ١٠٢).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٢٩)، والبداية والنّهاية (٨/ ٣٩)، والتّبيين (ص ١٠٤).

وقد ذكرها منسوبة لرسولِ اللهِ ﷺ، مَثَله في ذلك مثل صغار الصَّحابة الآخرين، كأخيه الحُسين، وابن عبّاس، ومحمود بن الرّبيع وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

* أحصى أهلُ العِلْم الأحاديثَ النّبويّةَ التي رواها سيّدنا الحسنُ، فبلغتْ (١٣ حديثاً) ذكرها بقيُّ بنُ مخلد في مسنده، بينما أخرجَ له الإمامُ أحمد في مسنده (١٠ أحاديث)، وله في السُّنن الأربعة ستة أحاديث.

* قال الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله: «روى الحسنُ رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ أحاديثَ، وروت عنه عائشة رضي الله عنها. وروى عنه جماعاتٌ من التَّابعين منهم ابنه الحسنُ بنُ الحسن؛ وأبو الحواري ربيعة بن سنان، والشَّعبيّ، وأبو وائل، وابن سيرين، وآخرون»[(١)].

* وقال الذَّهبيُّ: «وحفظ عن جدّه أحاديث، وعن أبيه، وأمّه»[(٢)].

* أمّا ابنُ حجر فقد أَفَادَ بقوله: «روى عن جدّه رسول الله ﷺ، وأبيه عليّ، وأخيه حُسين، وخاله هند بن أبي هالة»[(٣)].

* روى عن سيّدنا الحسن من نساءِ أهلِ البيتِ سيّدتنا، وأمّنا الصِّدّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق عائشةُ رضي الله عنها وأرضاها، ورضي عن أبيها، وحشَرنا في معيّتهما[(٤)].

* وحدَّثَ عنه من رجال أهلِ البيتِ ابنه: الحسنُ بنُ الحسن، وابنُ أخيه عليُّ بنُ الحسين، وكذلك عبدُ الله، وأبو جعفر الباقر ابنا عليّ بن الحسين، وجميعُهم هاشميّون أطهار أخيار علماء عاملون رضي الله عنهم[(٥)].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٨).

(٢) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٤٦).

(٣) تهذيب التّهذيب (٢/ ٢٩٥)، والإصابة (١/ ٣٢٨).

(٤) المصادر السّابقة مع الجمع بينها والتّصرّف والتّرتيب.

(٥) المصادر السّابقة مع الجمع بينها والتّصرّف والتّرتيب.

* كما حدَّثَ عنه عددٌ من أكابر علماء التَّابعين ونبلائهم من مثل: جُبيرُ بنُ نُفير، وعِكْرِمة مولى ابن عبّاس، وأبو مجلز لاحق بن حميد، وهبيرةُ بنُ مريم، وسفيانُ بنُ الليل، وأصبغُ بنُ نباته، والمسيَّبُ بن نَجَبَة، وغيرهم.

* ومن أحاديثه المهمّة المشهورة ما أخرجه أحمد وغيره بسندِهم عن أبي الحوراء، عن الحسنِ بن عليٍّ رضي الله عنهما قال: علّمني رسولُ الله ﷺ كلماتٍ أقولُهنَّ في قنوت الوتر: «اللهمّ اهدني فيمن هديتَ، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن تولّيت، وباركْ لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنَّك تقضي ولا يُقضى عليك، إنّه لا يذلُّ مَنْ واليَتَ، تباركْتَ ربَّنا وتعاليت»(١).

* إنَّ هذا الدَّعاءَ المباركَ يحتوي خيرَ الدّنيا والآخرة، ويُدْخِلُ الطُّمأنينةَ على النّفس والسُّرور إلى القلب، ويمكن أن نذكرَ معناه إجمالاً: «اللهم دلَّني على الطَّريق التي تُوصل إليك، مع مَنْ دللته إلى الطَّريق التي توصل إليك،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٥) برقم (١٧١٨)، وإسناده صحيح. وأخرجه الطبراني برقم (٢٧٠٢)، كما أخرجه أصحاب السُّنن الأربعة وغيرهم. ومعنىٰ القُنوت: الدّعاءُ والتّضرعُ؛ ويندبُ القنوت في الصَّلاة. وقد صرّح الحديث هاهنا بقنوتِ الوتر.
وللفقهاءِ وأئمةِ الدِّين آراء في قنوتِ الوتر، فقال الحنفيةُ: «يقنتُ المصلّي في صلاة الوتر، فيكبر بعد الانتهاء من القراءةِ، ويرفع يديه كرفعهِ عند الافتتاح، ثمّ يضعهما تحت سرّته، ثم يقنتُ، ثم يركعُ، ولا يقنتُ في صلاةٍ غير الوتْر إلاّ لنازلة في الصلاة الجهريّة. ثم يدعو بصيغةِ الدُّعاء الذي علّمه رسول الله ﷺ الحسنَ بنَ عليّ رضي الله عنهما».
أمّا مذهب الشَّافعيَّة: «يُسَنُّ عندهم القنوت في الاعتدالِ الركعةِ الثّانية من صلاة الصُّبح صيغتُه حديث سيّدنا الحسن رضي الله عنه، ويقنتُ الإمامُ بلفظ الجمعِ فيقول: اللهم اهدنا فيمن هديت. . . .».
وعند الحنابلة: «يسنُّ القُنوتُ عندهم كالحنفيةِ، في الوتر في الركعةِ الواحدةِ في جميع السُّنن، بعد الرّكوع. . . ويدعو بدعاء الحسنِ بنِ عليّ، ثمّ يصلّي علىٰ النّبيّ ﷺ، وعلىٰ آله، ولابأسْ أنْ يدعوَ في قنوته بماشاء غير ماتقدّم. والله أعلم» (الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ٨٠٩ ـ ٨١٦) ملخّصاً.

وعافني من البلايا مع من عافيته منها، وتولَّ أموري وحفظي مع من توليتَ أموره وحفظه، وأنزلْ يا الله البركةَ، وهي الخيرُ الإلهيّ فيما أعطيته لي، واحفظني ممّا يترتّب على ما قضيته من السّخط والجزع، وإلا فالقضاء المحتّم لابدّ من نفوذه، وأنتَ تحكمُ ولا يُحْكَمُ عليك، لا معقّب لحكمه، ولا يحصل لمن واليته ذلك، ولا يحصل لمن عاديته عز، تزايد برّك وإحسانك، وارتفعتَ عمّا لا يليق بك»[١].

* وعند الإمام أحمد أيضاً وغيره بسند عن شعبة قال: «سمعت بُرَيْد بن أبي مريم يحدّث عن أبي الحوراء قال: قلتُ للحسن بن عليّ رضي الله عنهما: ما تذكرُ من رسولِ الله ﷺ؟

قال: أذكرُ من رسولِ الله ﷺ أنّي أخذتُ تمرةً من تمر الصّدقة، فجعلتُها في فيَّ، فنزَعَها رسولُ الله ﷺ بلعابها، فجعلها في التَّمر، فقيل: يا رسولَ الله، ما كان عليك من هذا التّمرة لهذا الصَّبي؟

قال: «إنَّا آل محمّدٍ لا تحلُّ لنا الصَّدقة»، وكان يقول: «دعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك، فإنَّ الصِّدق طمأنينة، وإنَّ الكذبَ ريبة»؛ وكان يعلمنا هذا الدّعاء: «اللهم اهدني فيمن هديتَ، وعافني فيمن عافيتَ، وتولّني فيمن توليتَ، وبارك لي فيما أعطيتَ، وقني شرَّ ما قضيتَ، إنَّكَ تقضي ولا يُقضى عليك، إنَّه لا يذلُّ مَنْ واليت».

قال شعبةُ: وأظنّه قد قال هذه أيضاً: «تباركتَ ربّنا وتعاليت»[٢].

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته (١/ ٨١٣) الهامش (٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٢٧ و ٤٢٨) برقم (١٧٢٧)، وانظر: سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٤٦ و ٢٤٧) وانظر تخريج الحديث فيه. وانظر كذلك: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٥) وغير ذلك من مصادر. ويمكن لنا أنْ نستخلصَ من هذا الحديث الشَّريف فوائد متعددة منها:
أنَّ أهلَ بيت النّبيّ ﷺ لا تحلُّ لهم الصّدقة.
ومن المعلوم أنَّ الصَّدقة نوعان: صدقةُ الفرض: وهي الزّكاة. وصدقة التّطوّع: وهي التي يقول الله عزَّ وجلَّ في محكم التّنزيل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣] قال أهلُ=

* إنَّ المرويّاتِ الحَسَنيَّة التي جاءت في المسندِ مشهورةٌ منها ما أخرجه أحمدُ رحمه الله بسندهِ عن أبي إسحاق، عن هُبيرة، خطبنا الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما ـ بعد استشهاد سيّدنا عليٍّ ـ فقال: «لقد فارقكَم رجلٌ بالأمسِ لم يسبقْهُ الأوّلون بِعلْمٍ، ولا يدركهُ الآخرون، كان رسول الله ﷺ يبعثُه بالرّايةِ، جبريل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، لا ينصرفُ حتى يُفتح له»[1].

* وأخرج الإمامُ أحمد الحديثَ السَّابق بسندٍ آخر عن أبي إسحاق، عن عمرو بن حبْشِيّ قال: خطبنا الحسنُ بنُ عليّ رضي الله عنهما بعد قَتْل عليّ رضي الله عنه فقال: «لقد فارقكم رجلٌ بالأمس، ما سبقَه الأوّلون بِعلْمٍ، ولا أدرَكَهُ الآخِرون، إنْ كان رسولُ الله ﷺ ليبعثه ويعطيه الرَّايةَ، فلا ينصرفُ حتَّى يُفتح له، ما تركَ من صفراءَ ولا بيضاءَ إلا سَبْع مئة درهمٍ من عطائه، كان يرصُدهَا لخادمٍ لأهله»[2]!.

* وعن محمد بن عليّ، عن الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما: «أنَّه مرَّ بهم جنازة، فقام القومُ ولم يقم، فقال الحسنُ: ما صنعتم؟! إنّما قام رسولُ الله ﷺ تأذياً بريح اليهوديّ»[3].

= التّفسير وغيرهم من فقهاء الأمة وعلمائها: هي الزّكاة؛ أي الصَّدقة المفروضة. وليس هناك من خلاف مُطلقاً في الصَّدقةِ بنوعيها لا تحلّ لرسول الله ﷺ، وكما تحرمُ عليه ﷺ تحرمُ علىٰ أهله رضي الله عنهم.

وسببُ حرمةِ الصَّدقة، أو الزَّكاة علىٰ أهلِ البيت الأطهار، بيّنَه الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ في حديثٍ طويلٍ نقتطفُ منه قوله ﷺ: «إنَّ الصَّدقة لا تنبغي لآل محمّد، إنّما هي أوساخُ النّاس» (رواه مسلم برقم ١٠٧٢). ومعنىٰ أوساخ النّاس: تطهيرٌ لأموالهم ونفوسهم، فهي كغسَالة الأوساخ، وفي هـٰذا تنزيه لأهل البيت، وإعلاء لمكانتهم، والتّنويه بطهارتهم رضي الله عنهم أجمعين، والله تعالىٰ أعلم.

(١) المسند (١/ ٤٢٥) حديث رقم (١٧١٩)!! وأخرجه الطّبرانيّ (٣/ ٧٩) حديث رقم (٢٧١٨).

(٢) المسند (١/ ٤٢٦) حديث رقم (١٧٢٠)، وأخرجه الطّبرانيّ (٣/ ٧٩) حديث رقم (٢٧١٩).

(٣) المسند (١/ ٤٢٦) حديث رقم (١٧٢٢).

* وفيما يتعلّقُ بأهميّةِ مناجزة العدوّ وحربهِ أخرج الطّبرانيُّ بسنده عن المسيّب بنِ نَجَبَةَ عن الحسنِ بن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحربُ خدعةٌ»[1].

* ونتعلّمُ من مرويّاتِ سيّدنا الحسنِ فَضْل الصّلاة على الحبيبِ المصطفى ﷺ، حيث جاءَ عن حسنِ بنِ حسن بن عليّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «حيثما كنتم فصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكم تبلغُني»[2].

* ونستبشرُ الخيرَ ورحمةَ الإسلام وسَعَةَ مغفرةِ الله عزَّ وجلَّ من هذا الحديث الذي رواهُ سيّدنا الحسنُ عن أبيهِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ من موجباتِ المغفرةِ إدخالُ السُّرورِ على أخيكَ المسلم»[3].

* أمّا ما جاء في طلبِ الرّزق فقد أخرجَ الطَّبرانيُّ بسندهِ عن الحسنِ بنِ علي عن أبيه قال: صَعِدَ رسولُ الله ﷺ المنبر يومَ غزوة تبوك، فحمدَ الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أيّها النّاس، إنّي والله ما آمركم إلّا بما أمرَكم اللهُ به، ولا أَنْهاكُم إلّا عمّا نهاكم اللهُ عنه، فأجملُوا في الطَّلب، فوالذي نفسُ أبي القاسم بيده، إنَّ أحدَكم ليطلبه رزقُهُ كما يطلبُه أجلُه، فإنْ تعسَّر عليكم شيءٌ منه، فاطلبوه بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ»[4].

* وأخرجَ الطَّبرانيُّ أيضاً بسندهِ عن الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما قال: «أمرَنَا رسولُ الله ﷺ أنْ نلبسَ أجودَ ما نجدُ، وأنْ نتطيَّبَ بأجود ما نجدُ، وأنْ نضحّي بأسمن ما نجدُ، البقرةُ عن سبعةٍ، والجزورُ عن عشرة، وأنْ نظهرَ التّكبير، وعلينا السّكينةُ والوقار»[5].

* ومن مرويّات سيّدنا الحسن رضي الله عنه أنّه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) المعجم الكبير (٣/ ٨٢) حديث رقم (٢٧٢٨).
(٢) المصدر السّابق (٣/ ٨٢) حديث رقم (٢٧٢٩).
(٣) المصدر السّابق (٣/ ٨٣) حديث رقم (٢٧٣١).
(٤) أخرجه الطّبرانيّ (٣/ ٨٤ و ٨٥) حديث رقم (٢٧٣٧).
(٥) المصدر السّابق (٣/ ٩٠ و ٩١) حديث رقم (٢٧٥٦).

«أطعِموا الطَّعامَ، وأطيبُوا الكَلامَ»(١).

* وهذه إشراقاتٌ مباركةٌ ممّا نقلتْهُ لنا ذاكرةُ الحسن المتألّقة في كيفية كلام جدّه الصّادق المصدوق ﷺ، وكيفية منطقه الشَّريف، ما أخرجه التّرمذيّ وغيره؛ عن الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما، قال: سألتُ خالي هندَ بنَ أبي هالة، وكان وصّافاً، قلت: صفْ لي منطقَ رسولِ الله ﷺ، قال: «كان رسولُ الله ﷺ متواصلَ الأحزان، دائمَ الفِكْرة، ليستْ له راحة، طويلَ السَّكت، لا يتكلّمُ في غير حاجة، يفتتحُ الكلامَ ويختمُه بأشداقه، ويتكلّم بجوامع الكَلم، كلامُهُ فصْلٌ، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين، يعظّم النّعمة، وإنْ دقّت، لا يذمّ منها شيئاً، غير أنّه لم يكن يذمّ ذواقاً، ولا يمدحه، ولا تغضبه الدّنيا، ولا ما كان لها، فإذا تُعدِّي الحقّ، لم يقم لغضبه شيء، حتّى ينتصرَ له، لا يغضبُ لنفسه، ولا ينتصرُ لها، إذا أشار أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجَّبَ قلبها، وإذا تحدَّث اتّصل بها، وضربَ براحته اليُمنى بطنَ إبهامه اليُسرى، وإذا غضبَ أعرض وأشاح، وإذا فرحَ غضَّ طرفه، جُلُّ ضحكه التّبسُّم، يفتر عن مثل حبِّ الغمام»(٢).

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٩٤) حديث رقم (٢٧٦٣).

(٢) شمائل التّرمذي (ص ١٤٧) حديث رقم (٢٢٨)، ومنال الطّالب لابن الأثير (ص ١٩٨) وغيرها كثير.

ومعنىٰ قوله «صفْ لي منطقَ رسولِ الله ﷺ»: نطقه وكلامه الشَّريف ﷺ. و«متواصل الأحزان»: كان ﷺ علىٰ هيئةِ الحزين حاله سُكوته، لكثرة إفكاره في أمور الأمّة، وما يصلحُ شؤونهم، ويسعدهم في الدنيا والآخرة، ومن ثمَّ ليست له راحة. و«طويل السّكت»: أي عمّا لا يجدي نفعاً لكثرة إفكاره ﷺ ودوام أذكاره. و«لا يتكلم في غير حاجة»: لا يتكلّمُ ﷺ إلا في حاجة دِينيةٍ، أو دنيوية، فيتحرزُ عن الكلام الذي لا فائدة منه. و«يفتتح الكلام ويختمه بأشداقِه»: الأشداقُ: جوانب الفم، وإنّما يكونُ ذلك لرحب شدقَيْهِ، والعرب تمتدحُ الإنسان البليغ الفصيح بذلك. و«يتكلّم بجوامع الكلم»: يريدُ: كثير المعاني، قليل الألفاظ. و«فصل»: بيّنٌ ظاهر، يفصل بين الحقّ والباطل. و«لا فضول»: لا زيادة فيه علىٰ أداء المراد. و«لا تقصير»: أي فيما يريده بتقليل مخلٍّ بالفهم. و«ليس بالجافي»: ليس بالغليظ الخِلْقة =

* ونزفُّ صفة أخرىٰ من صفاتِ الحبيب الأعظم سيّدنا محمّد ﷺ وحليته، إذْ يروي سيّدنا الحسن بن عليّ رضي الله عنهما هذا الوصف الذي يعد بحقّ قطعةً أدبيةً فذّةً يستضيءُ بها الأدباء وأهل البلاغة في ترسّلهم.

* ها نحن أولاء الآن نسمع ونستمتع بأوصافِ الحبيبِ المصطفى ﷺ، التي يسردها حفيده الحسن رضي الله عنه إذْ يقول: سألتُ خالي هندَ بنَ أبي هالة ـ وكان وصّافاً ـ عن حليةِ النّبيّ ﷺ، وأنا أشتهي أنْ يصفَ لي منها شيئاً أتعلّقُ به، فقال: «كان النّبيُّ ﷺ فخماً مفخّماً، يتلألأُ وجهه تلألؤ القمر ليلةَ البدر، أطولَ من المربوع، وأقصر من المشذّب، عظيم الهامة، رجِل الشَّعر، إن انفرقت عقيقتهُ فرق، وإلاّ فلا. يجاوز شعره شحمةَ أذنيه إذا هو وفّره، أزهرُ اللون، واسعُ الجبين، أزجُّ الحواجب، سوابغُ في غير قَرَنٍ، بينهما عرق يُدرُّهُ الغضب، أقنى العرنين، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمّلْهُ أشمّ، كثّ اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، مفلّج الأسنان، دقيق المسربة، كأنَّ عنقَه جِيْدُ دمية، في صفاء الفضة، معتدل الخَلْق، بادن متماسك، سواء البطن والصَّدر، عريض الصَّدر، بعيدُ ما بين المنكبين، ضخمُ الكراديس، أنورُ المتجرَّد، موصولُ ما بين اللَّبَّة والسُّرَّة بشعر يحوي كالخطّ، عاري الثَّديين،

= والطّبع، أو ليس الذي يجفو أصحابه، فهو ﷺ سَهْل الخُلق ليّن الجانب. و«المهين»: لم يهنْ ﷺ أحداً من النّاس، يكن متذللاً لأحدٍ منهم لشرفِ نفسه. و«يعظّم النعمة»: يَعُدُّ كل ما أنعم الله به عليه عظيماً. و«دقَّت: صغرت. و«ذَوَاقاً»: أي شيئاً ممّا يذاق من مأكول أو وجاوزه إلىٰ الباطل غضب حتّىٰ ينتصرَ للحقّ بالحقّ. و«إذا أشار أشارَ بكفّه كلّها وإذا تعجَّبَ قلبها»: إذا أشار كلّ متعجب. و«إذا تحدّث اتّصل بها. . .»: إذا تحدَّثَ ﷺ اتّصل حديثه بكفّه اليمنىٰ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النّفوس، واعتناء بالحديث ودفع لما يعرض لنفس السّامع من الفتور. و«أشاح»: مالَ وانقبضَ، أو صرفَ وجهه من غير لوم وعقاب. و«غضّ طرفه»: أطرق تباعداً من الأثر والمرح. و«جلُّ»: أكثر، وأغلب. و«يفتر»: يبتسم. و«حبّ الغمام»: البَردَ؟ شبّه به ثغره الشّريف في بياضه وصفاته وبردِه.

ملاحظة: هـٰذا الشرح مقتبس من(شمائل الترمذي ص ١٤٧ و ١٤٨) الهامش وهو من أحسن الشروح.

والبطن ممّا سوى ذلك، أشعرُ الذّراعين والمنكبين وأعالي الصَّدر، طويل الزّندين، رحب الرّاحة، شثن الكفّين والقدمين، سائلُ الأطراف ـ أو قال: شائلُ الأطراف ـ خمصان الأَخْمَصَيْن، مسيحُ القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زالَ زالَ تقلّعاً، يخطو تكفياً؛ ويمشي هوناً، ذريعُ المِشْية، إذا مشى كأنَّما ينحطُّ من صَبَب، وإذا التفتَ التفتَ جميعاً، خافض الطَّرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السَّماء، جلُّ نظره الملاحظة، يسوقُ أصحابه، ويبدر من لقي بالسلام»[1].

---

(١) الشّمائل المحمّديّة للتّرمذيّ (ص ٤٥ و ٤٦) حديث رقم (٧)، وانظر تخريج الحديث فيه، إذ أمعن محقّق الكتاب في تخريجه والحكم عليه، فأحْسَنَ، جزاه الله خيراً، وأحسن لجميع المخلصين في خدمة السّنّة النّبويّة وكتب العلْم النافعة.

ومعنىٰ قوله«وصّافاً»: له خبرة ودراية ومعرفة بذكر صفاتِ الحبيبِ الكريم سيّدنا محمّد ﷺ. و«حِلية»: صفة. و«أتعلّق به»: أحفظه وأتمسَّك به تبركاً. و«فخماً مفخماً»: عظيماً معظّماً في الصدور والعيون، نبيلاً جميلاً مهيباً. و«المشذّب»: بائن الطّول في نحافة. و«رَجِل الشّعر»: كأنه قد مشّط ليس سبطاً أو جعداً. و«عقيقته»: العقيقة هنا: شعر الرأس؛ والمعنىٰ: أنَّ شعر رأسه الشّريف ﷺ يُفرق بسهولة. و«أزهر اللون»: نيّر اللون، والزّهرة: البياض النّير، وهو أحسنُ الألوان. و«أزجُّ الحواجب»: المقوسة الطّويلة الوافرة الشّعر في جمال وحسن. و«سوابغ»: كاملات. و«في غير قَرَن»: القَرَن: اتصال شعر الحاجبين، وضدّه: البَلَج. و«عرق يدرّه الغضب»: يعني بين حاجبيه الشّريفين عرق يمتلىء دماً إذا غضب. و«أقنىٰ العرنين»: الأنف، والقنا: طول في الأنف مع دقة الأرنبة. و«الأشم»: دقيق الأنف المرتفعة. و«كثّ اللحية»: فيها كثافة. و«سهل الخدّين»: ليس فيهما نتوءٌ ولا ارتفاعٌ. و«ضليع الفم»: عظيمُ الفم واسِعُه، والعربُ تحبُّ ذلك. و«مفلّج الأسنان»: مفرّجُ مابين الثّنايا. و«دقيق المسربة» خيط الشّعر الذي بين الصّدر والسُّرّة. و«الجِيْدُ»: العُنُق. و«دمية»: صورة منقوشة من نحو رخام أو عاج. و«صفاء الفضة»: في اللونِ والإشراقِ والجمال. و«معتدل الخَلْق»: أي كلّ شيء من بدنه الشَّريف ﷺ يناسب ما يليه في الحسن والتّمام. و«بادن متماسك»: تام اللحم غير مسترخٍ، أي معتدل الخلق يمسك بعض أعضائه بعضاً. و«الكراديس»: كلّ عظْمَيْن التقيا في مفصل فهو كردوس. و«أنور المتجرّد»: مشرق الجسد. و«اللبّة»: هي التّطامنُ الذي فوق الصَّدر وأسفل الحلق بين التّرقوتين. و«عاري الثّديين»: ليس عليهما شعر. و«رحبُ الرَّاحة»: =

* ومن بين ثنايا الفقراتِ التي اطّلعنا عليها من الرَّصيدِ العِلْميّ للحسن رضي الله عنه، يمكننا أنْ نقولَ: «إنَّ الحسنَ من رجالِ أهلِ البيتِ الذين مَنَّ اللهُ عليهم بالفَهْم، وزادهم بسطةً في العلْمِ والجسمِ، والجمالِ والكمالِ، والحصافةِ واللطافة».

* وعند فقهاء الإسلام وعلمائهم يعدّ سيّدنا الحسن رضي الله عنه من علماءِ الصَّحابة الذين عُرِفُوا بالفتوى، وصنّفوه ضمن الطَّبقةِ الثَّالثةِ منهم. قال ابنُ قيّم الجوزيّة رحمه الله في «إعلامِ الموقّعين» «كانوا بين مُكْثِرٍ منها، ومُقلّ، ومُتوسّط». ثمّ سردَ أسماء المكثرين من الفتيا، ثمّ المتوسّطين، وعندما تعرَّضَ للمقلّين قال: «والباقون منهم مُقلّون في الفتيا، ولا يروى عن الواحدِ منهم إلاّ المسألة والمسألتان، والزّيادة اليسيرة علىٰ ذلك، وهم: أبو الدّرداء، وأبو اليَسر، وأبو سلمة المخزوميّ، وأبو عبيدةُ بن الجراح، والحسنُ والحسينُ ابنا عليّ بن أبي طالب، والنّعمانُ بنُ بُشَير، وأبيّ بن كعب، وأبو أيّوب، وأبو طلحة، وأبو ذرّ، وأمّ عطية، وصفيّة أمّ المؤمنين، وحفصة، وأمّ حبيبة... وغيرهُم رضي الله عنهم أجمعين»[1].

* ومن الأمور التي تدلُّ على فقْه سيِّدنا الحسنِ وفتاويه، ما أخرجه الطّبرانيّ بسنده عن معاوية بن قرة عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه سئل عن الجبن فقل: «ضع السّكين، وسم، وكُل»[2].

= واسعها: والمعنىٰ أنّه ﷺ جواد سخي معطاء. و«سائل الأطراف»: طويل الأصابع. و«مسيحُ القدمين»: أملسهما، وليّنهما بلا تكسّر ولا تشقُّق جلد. و«ينبو»: يمرُّ سريعاً. و«زال تقلعاً»: مشىٰ مشية أهلِ الجلادة، والتّقلّع: رفع الرّجلين بقوة أثناء المشي. و«هوناً»: الرّفق والوقار. و«ذريع»: واسع الخطو. و«صَبَب»: ينحدرُ من مكانٍ عال. و«خافض الطَّرف»: أي البصر، يعني: إذا نظر إلىٰ شيءٍ خفض بصره تواضعاً وحياءً من الله عزَّ وجلَّ. و«يسوق أصحابه»: يقدمهم أمامه، ويمشي خلفهم تواضعاً وإرشاداً وتربيةً. و«يبدر»: يسبق.

(١) إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين (١/ ١٢ و ١٣)، دار الجيل ـ بيروت.

(٢) المعجم الكبير (٣/ ٦٨) حديث رقم (٢٦٨٦). ورجاله رجال الصحيح كما قال في المجمع (٥/ ٤٣).

* وفي الصّلاة عقب الطّواف بعد العصر، أخرج الطّبرانيُّ أيضاً بسنده عن أبي شعبةَ قال: «رأيت الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما طافا بعد العصر وصلَّيا ركعتين»[1].

* ومن فقهه وعلمه ما وردَ عن مسلم بن عياض قال: سألت الحسن بن علي رضي الله عنهما عن ركعتي الجمعة؟ فقال: «هما قاضيان عما سواهما»[2].

الرَّيحانةُ السَّيدُ:

* ثبتَ لدينا بما لَاشكَّ فيه أنَّ سيِّدنا الحسنَ رضوان الله عليه ريحانةُ النَّبيِّ ﷺ ومحبوبُهُ وشبهُهُ. قال عنه الإمامُ الذَّهبيُّ رحمه الله: «الإمامُ السَّيِّدُ، ريحانةُ رسولِ اللهِ ﷺ وسبطُهُ، وسيّدُ شبابِ أهلِ الجنَّةِ. . .»[3].

* أشار الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ إلى سيادةِ سبطِهِ الحبيبِ سيِّدنا الحسن، ودلَّ على مكانته الفُضْلىٰ، ومكانته العُظمىٰ، على مسمعِ الصَّحابةِ ومرآهم ومشهدهم، حتّى علموا وأيقنوا بأنَّ سيّدنا أبا محمّدٍ الحسن رضي الله عنه سيّدٌ جليلُ القَدْرِ في الدُّنيا، كما أنَّه سيِّدٌ في الجنَّةِ لشبابها، وهذا يعني أنَّ سيِّدنا الحسنَ مبشَّرٌ بالجنَّةِ فهو من أهلِ السَّعادةِ والحسنىٰ، حشرنا الله في معيّته تحت راية جدّه سيّد الأوّلين والآخرين محمَّد رسول الله ﷺ.

* وعن سيادةِ الرَّيحانةِ النّبويّة الحسن نجدُ كثيراً من الرِّوايات تؤكّدُ ذلك، وتكادُ تكون متضافرةً متواترةً مجتمعةً مُجمعةً على قولهِ ﷺ: «ابني هذا سيّد»؛ و«الحسَنُ والحُسينُ سيِّدا شباب أهلِ الجنَّة»؛ و«هما ريحانتاي من الدُّنيا» وما شابَه ذلك.

* في موسوعتِهِ المزُهرة «الاستيعاب» صرَّحَ ابنُ عبد البرِّ مؤكِّداً صحَّة

---

(١) المعجم الكبير (٣/ ٦٨) حديث رقم (٢٦٨٧).
(٢) المعجم الكبير (٣/ ٧٠) حديث رقم (٢٦٨٩). قال في المجمع (٢/ ١٩١): «ورجاله ثقات».
(٣) انظر: سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٤٩ و ٢٥٠).

ما أوردناه آنفاً فقال: ما نصُّهُ: «وتواترت الآثارُ الصِّحاحُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما: «إنَّ ابني هذا سيّدٌ، وعسىٰ اللهُ أنْ يبقيَه حتّى يصلحَ به بين فئتَين عظيمتَيْن من المسلمين» رواه جماعةٌ من الصَّحابةِ، وفي حديث أبي بكْرةَ في ذلك: «وأنَّه ريحانتي من الدُّنيا»، ولا أسودَ ممّن سمَّاه رسولُ الله ﷺ سيّداً»[١].

* ومن الأفذاذ الذين رووا شيئاً عن سيادةِ الحسنِ رضي الله عنه جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريّ رضي الله عنهما، وهو أحدُ علماء الصَّحابة الأنصار، ومن السَّبعةِ المكثرين في الرِّواية عن الحبيبِ الشَّفيعِ محمّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، فقد روى جابرٌ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الحسنُ سيِّدُ شبابِ أهلِ الجنَّة»[٢].

* أمَّا حافظُ الصَّحابةِ الأوّل، وسيّدُ العُلماءِ الأثبات، العبقري الذّكيّ أبو هُريرةَ الدَّوسيُّ رضي الله عنه؛ فكان ينادي سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه «يا سيّدي» ويترنّم بها مفتخراً متّبعاً السُّنَّةَ النَّبويّةَ والهديَ المحمّديَ بذلك.

* عن سعيدِ بنِ أبي سعيد المَقْبُريّ قال: «كُنَّا مع أبي هريرةَ رضي الله عنه، فجاء الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، فسلَّمَ فردَّ عليه القوم، ومعنا أبو

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ٣٦٩). وهـٰذا الحديثُ الشّريفُ روي عن (١٦ صحابياً)، وقد سُئِلَ عنه الإمام أحمد رحمه الله فقال: «صحيح»، بينما قال الإمامُ الذّهبيّ رحمه الله عن سيادةِ الحسنِ والحسين رضي الله عنهما: «ويرویٰ عن شريح، عن عليّ، وفي الباب عن ابن عمر، وابن عبّاس، وعمر، وابن مسعود، ومالك بن الحويرث، وأبي سعيد، وحذيفة، وأنس، وجابر؛ من وجوه يقوّي بعضها بعضاً». (سير أعلام النّبلاء ٣/ ٢٨٢)، وأورد التّرمذي هـٰذا الحديث وقال: «هـٰذا حديث حسن صحيح». (تحفة الأحوذي ١٠/ ٢٧٧)، وأورده الحاكم في المستدرك وقال: «هـٰذا حديثٌ قد صحَّ من أوجهٍ كثيرة، وأنا أتعجَّب أنَّهما لم يخرّجاه» (المستدرك ٣/ ١٨٢) طبعة دار الكتب العلميَّة.

(٢) مجمع الزّوائد (٩/ ١٧٨)، وفي رواية قريبة عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سرَّهُ أنْ ينظر إلىٰ سيّد شباب أهل الجنَّة، فلينظر إلىٰ الحسن بن عليّ» (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٤).

هُريرة لا يعلم، فقيل له: هذا حسنُ بنُ عليّ يسلّم، فلحقهُ وقال: وعليك السَّلام يا سيّدي. فقيل له: تقولُ له: يا سيّدي؟!

فقال: أشهدُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّه سيِّدٌ»[1].

* وهذا عالمٌ آخر من علماء الصَّحابةِ، وكبيرٌ من كُبرائهم، وسيّدٌ من ساداتهم هو حذيفةُ بنُ اليمان[2] رضي الله عنهما، ينقل لنا خبرَ سيادة الحَسنِ رضي الله عنه، ومكانته في رجالِ أهلِ البيت، وتبشير مَلَك من ملائكةِ الله للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ الحسنَ وأخاه وأمَّهما هم سادةُ أهلِ الجنَّةِ.

* وفي رحابِ عميدِ الأسرةِ اليَمانيةِ سيّدنا حذيفةَ رضي الله عنه نعيشُ هذه الأويقات المنعشة، ونحنُ نستروحُ عبيرَ الأُنْسِ من خلالِ حديثه الشَّائق الذي أخرجَه التِّرمذيُّ بسندٍ رفعه إلى زرِّ بن حُبيش عن حذيفةَ رضي الله عنه قال: «سألتني أمّي: متى عهدك تعني بالنَّبيِّ ﷺ. فقلتُ: مالي به عهدٌ منذ كذا وكذا.

فنالَتْ منّي: «فقلتُ لها: دعيني آتي النَّبيّ ﷺ، فأُصلّي معه المغرب، وأسأله أنْ يستغفرَ لي ولك.

فأتيتُ النَّبيَّ ﷺ فصلَّيتُ معه المغرب، فصلّى حتّى صلى العشاء، ثمَّ انفتلَ، فتبعتُه، فسمعَ صوتي، فقال: «مَنْ هذا؛ حذيفة»؟!

قلتُ: نعم.

قال: «ما حاجتُك غفرَ اللهُ لك ولأمِّك قال: إنَّ هذا ملكٌ لم ينزل الأرض قطّ قبل هذا الليلة، استأذن ربَّه أنْ يسلِّمَ عليَّ، ويبشّرني بأنَّ فاطمةَ سيّدةُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ، وأنَّ الحسنَ والحسينَ سيّدا شبابِ أهلِ الجنَّةِ»[3].

---

(١) مجمع الزَّوائد (٩/ ١٧٨)، والمستدرك (٣/ ١٨٥)، وقال الذَّهبيّ في التّلخيص: «صحيح». وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٢١).

(٢) اقرأ سيرة عميد الأسرة الحذيفية اليمانية سيّدنا حذيفة بن اليمان في كتابنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص ٦٨٩ ـ ٧٣٩)؛ ففي سيرته مشاهد تعبق بطيوب العلم والإيمان.

(٣) أخرجه التّرمذي، انظر: تحفة الأحوذيّ برقم (٣٨٧٠) وقال: «هـٰذا حديثٌ حسَنٌ غريبٌ». =

* ومن سِجِلِّ ريحانةِ أهلِ البيت سيّدنا الحسن رضي الله عنه يحدثنا زيدُ بنُ أرقم رضي الله عنه فيقول: «خرجَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، وعليه بردةٌ ورسولُ الله ﷺ يخطبُ، فعثرَ الحسنُ فسقطَ، فنزلَ رسولُ الله ﷺ من المنبر، وابتدرهُ النَّاس فحملوه، وتلقّاه رسولُ الله ﷺ، فحملَه ووضعه في حجرِه، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الولدَ لَفِتْنَةٌ، ولقد نزلتُ إليه وما أدري أين هو»[1].

* وكان الحسنُ رضي الله عنه يتبوأُ منزلةً عظمى في قُلوبِ النَّاس، فقد ورد أنَّ سيّدنا معاوية رضي الله عنه قال لرجلٍ من أهل المدينة: «أخبرني عن الحسنِ بنِ عليٍّ».

قال: «يا أميرَ المؤمنين؛ إذا صلّىٰ الغداة، جلسَ في مُصَلاَّه حتّى تطلعَ الشَّمس، ثمّ يساندُ ظهره، فلا يبقى في مسجدِ رسولِ الله ﷺ رجلٌ له شرفٌ إلاَّ أتاه، فيتحدّثون، حتّى إذا ارتفعَ النَّهارُ صلّى ركعتَيْن، ثمَّ ينهض فيأتي أمّهات المؤمنين، فيسلّم عليهنّ، فربّما أتحفْنَه، ثمّ ينصرفُ إلى منزلِهِ، ثمّ يروحُ فيصنعُ مثل ذلك» فقال: «ما نحنُ معه في شيء»[2].

= وأخرجه الحاكم مختصراً (٣/ ٤٢٩)، وقال الذّهبي: «صحيح»، وأخرجه ابن حبّان في صحيحه برقم (٦٩٢١) وهو صحيح. وقوله«متىٰ عهدكَ»: متىٰ رؤيتك إياه. و«مالي»: ليس لي به عهد. و«نالتْ منّي»: ذكرتني بسوء، زاد أحمد: وسبتني. و«فصلّىٰ»: أي النّبي ﷺ النّوافل. و«انفتلَ»: انصرفَ. و«سمع صوتي»: صوت حركة المشي. و«سيّدا»: مثنىٰ سيّد، والسّيادة: لا تختصُّ بالأفضل، بل هو الرئيسُ علىٰ القوم، والجمع: سادة. وهو مشتقٌ من السُّودد،وقيل: من السَّواد، لكونه يرأس علىٰ السّواد العظيم من النّاس، أي الأشخاص الكثيرة.

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٥).

(٢) المصدر السّابق (٧/ ٢٣)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٧). وذكر المدائنيُّ ما مفاده: «أنَّ سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه كان عنده جماعةٌ من الأشراف فقال: مَنْ أكرم النّاس أباً، وأمّاً، وجداً، وجدة، وخالاً، وخالةً، ؛ وعماً، وعمة؟ =

عليٌّ والحسَنُ رضي الله عنهما:

* لهذَيْن السَّيدين عليٍّ والحسنُ رضي الله عنهما أخبارٌ تسرُّ القُلوب، وتشنّفُ المسامع، ولهما جلْسَاتٌ حسنةُ المحاضرة، مشكورةُ المذاكرة، تهتزُّ من جزالتها أغصانُ الأدب، وتسحرُ بلغاء العرب، وما قرأها أحدٌ إلاّ حرّكتْ أعطافه، وجنى من غصونها ما استلذَّ قطافه، وملكتْ حبّةَ قلبه بما فيها من اللطافة، وقال هذا العِلْمُ الذي أَلَذُّ ارتشافه، وهذا هو الأدبُ الذي مَنْ حلَّ ساحته قال: الضَّيافة الضَّيافة.

* وسنحلُّ ضيوفاً على هذَين السَّيّدين الشَّريفَين، نستلهمُ من علمهما ونصائحهما وأدبهما ما يبلُّ الصَّدى، وينفعُ القارىء والمستمع ويزيدُهُ هدى.

* فمن جميلِ ما وردَ عنهما ما جاء عن سيِّدنا عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال للحسنِ رضي الله عنه: «قم فاخْطُبِ النَّاس يا حسن».

قال: «إنّي أهابُكَ، لن أخطبَ وأنا أراك».

فتغيّبَ عنه حيثُ يسمعُ كلامه ولا يراه، فقام الحسن فحمدَ الله، وأثنى عليه، وتكلّم ثمَّ نزلَ. فقال عليٌّ رضي الله عنه: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٣٤][(١)].

= فقام النعمانُ بنُ العجلان الزُّرَقيّ، فأخذَ بيدِ الحسن، فقال: هـٰذا، أبوهُ عليٌّ، وأمّهُ فاطمةُ، وجدّهُ رسولُ الله ﷺ، وجدّته خديجةُ، وعمّهُ جعفر، وعمّتُهُ أمُّ هانئ بنتُ أبي طالب، وخالُه القاسمُ، وخالته زينبُ (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٢٢).

أقول: «في النَّفس شيءٌ من هـٰذه القصّة المركّبة!! واللهُ يعلم بأنَّها مصنوعة في مكان بعيد عن أعين النّقاد، وصيغتْ حبّاً بسيّدنا الحسن، ولكنّها ـ كما ترىٰ ـ ضعيفة النّسج».

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٢٤). ذكر ابن كثير هـٰذه القصة علىٰ النحو الأتي فقال: «وكان عليٌّ يكرمُ الحسنَ إكراماً زائداً، ويعظّمه ويبجّله، وقد قال له يوماً: يابنيّ، ألا تخطب حتىٰ أسمعكَ؟

فقال: إنّي أستحيي أنْ أخطبَ وأنا أراك. =

* ومن الوصايا النَّافعة التي أهداها سيّدنا عليّ للحسن رضي الله عنهما، وتصلح أنْ تكونَ مناراً لجميع النَّاس، ما روي عن سيّدنا الحسن رضي الله عنه قال: «أوصاني أبي رضي الله عنه بثلاثين خصلة، قال: يا بني، إنْ أنتَ عملتَ بها في الدنيا سلَّحك اللهُ من شرِّ الدُّنيا والآخرة». ثمّ ذكرَ الحسن منها: «يا بُنيّ، احذر الكِبْرَ، والغضبَ، والطَّمعَ.

فأمَّا الكبر: فإنه خصلةٌ من خصالِ الأشرار، والكبرياء رداء الله عزَّ وجلَّ، ومنْ أسكَنَ اللهُ قلبَه مثقال حبَّةٍ من كِبْر أورده النَّار.

والغضبُ: يسفِّهُ الحليم، ويطيشُ العالِم، ويُفْقَدُ معه العقل، ويظهرُ معه الجهل.

والطَّمعُ: فخٌّ من فخاخ إبليس، وشَرَكٌ من عظيم احْتِيَالِهِ، يصيدُ به العلماء والعقلاء، وأهل المعرفة وذوي البصائر.

يا بني، ارجُ عفوَ الله عن ذنوبك، وارجُ محاسن عملك، وارجُ شفاعة نبيّك ﷺ...»(١).

* إنَّ الوصايا البديعة التي وعَتْها أذنُ التَّاريخ الواعية كثيرة؛ منها تلك الوصيةُ الغنيةُ بالأدبِ والسُّلوك، الممزوجةِ بالموعظةِ، والتّربية، والتي أوصى بها سيّدنا عليٌّ ابنَه الحسنَ رضي الله عنهما بعدما طُعِنَ فقال: «يا بنيّ، احفظْ أربعاً وأربعاً. لا يضرّك ما علمتَ معهنّ.

قال: وما هنَّ يا أبتِ؟

= فذهبَ عليٌّ رضي الله عنه فجلسَ حيث لا يراه الحسن، ثمَّ قام الحسنُ في النَّاس خطيباً، وعليٌّ يسمعُ، فأدّىٰ خطبةً بليغةً فصيحةً. فلمّا انصرف جعل عليٌّ يقول: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٣٤]. (البداية والنهاية ٨/ ٣٧).

(١) انظر: دستور معالم الحكم (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦) باختصار. وانظر الوصية كاملة في الصفحات المذكورة.

قال: إنَّ أغنى الغنى العقل، وأكبرَ الفَقْر الحمق، وأوحشَ الوحشة العُجْب، وأكرمَ الكرم حسن الخلق.

قال: يا أبت هذه الأربع، فأعلمني الأربع الأخرى.

قال: إيّاك ومصادقة الأحمق، فإنّه يريدُ أنْ ينفعَكَ فيضرّك، وإيّاك ومصادقة الكذّاب، فإنّه يقرّبُ عليك البعيد، ويبعِّدُ عليك القريب، وإيّاك ومصادقة البخيل فإنّه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإيّاك ومصادقة الفاجر، فإنّه يبيعكَ بالتّافه»(١).

* إنَّ من محاسنِ الآدابِ الاجتماعيّةِ، والأخلاق التَّربويّة، والأمور التَّعليميّة التي أينعت عن ثمرِ عِلْمي لسيّدنا عليٍّ والحسنِ رضي الله عنهما ما وردَ في المصادرِ قالت:

«سأل عليٌّ ابنه الحسنَ رضي الله عنهما عن أشياء من أمْرِ المروءة فقال: يا بنيّ ما السَّداد؟

قال: يا أبتِ، السَّدادُ دفْعُ المنكر بالمعروف.

قال: فما الشرَّفُ؟

قال: اصطناعُ العشيرة، وحملُ الجريرة.

قال: فما المروءة؟

قال: العفافُ وإصلاحُ المرء حاله.

قال: فما الرّأفةُ؟

---

(١) حياة الصَّحابة (٣/ ٥٠١ و ٥٠٢) وله قوله رضي الله عنه: «التّوفيقُ خيرُ صاحب، وحسنُ الخلق خيرُ قرين، والعقلُ خيرُ صاحب، والأدبُ خيرُ ميراث، ولا وحشة أشدّ من العجْب».
أقول: «هـٰذه النّصائح والوصايا الرّقيقة الرّفيقة الأنيقة المضمّخة بأدب النّبوّة، إذا اتّبع الأبناء خطاها، وترسّموا هداها، لما وجدوا مشكلات في حياتهم، ولعاشوا سعداء وأسعدوا مَنْ حولهم».

قال: النّظرُ في اليسيرِ، ومَنْعُ الحقير.

فما اللؤمُ؟

قال: إحرازُ المرء نفسه، وبذلُه عرسه.

قال: فما السَّماحةُ؟

قال: البذلُ في العُسر واليُسر.

قال: فما الشُّحُّ

قال: أنْ ترى ما في يديك شرفاً، وما أنفقته تلفاً.

قال: فما الإخاءُ؟

قال: المواساةُ والوفاءُ في الشِّدَّة والرَّخاء.

قال: فما الجبن؟

قال: الجرأةُ على الصَّديق، والنُّكول عن العدوّ.

قال: فما الغنيمةُ؟

قال: الرّغبةُ في التَّقوى، والزَّهادة في الدُّنيا هي الغنيمةُ الباردة.

قال: فما الحلمُ؟

قال: كظمُ الغيظ وملك النَّفس.

قال: فما الغنى؟

قال: رضاءُ النَّفس بما قسم الله عزَّ وجلَّ لها وإنْ قلَّ، وإنّما الغنى غنى النَّفس.

قال: فما الفقْرُ؟

قال: شَرَهُ النَّفْس في كلِّ شيء.

قال: فما المنعةُ؟

قال: شدّةُ البأس، ومقارعةُ أشدّ النّاس.

قال: فما الذُّلُّ؟

قال: الفزعُ عند المصدوقة.

قال: فما العيُّ؟

قال: العبثُ باللحيةِ، وكثرةُ البزق عند المخاطبة.

قال: فما الجرأةُ؟

قال: موافقةُ الأقران.

قال: فما الكلفةُ؟

قال: كلامُك فيما لا يعنيك.

قال: فما المجدُ؟

قال: أنْ تعطيَ في الغُرم، وتعفوَ عن الجُرم.

قال: فما العقلُ؟

قال: حفظُ القلب كلّما استرعيته واستوعبته.

قال: فما الخرقُ؟

قال: معاداتُكَ إمامك، ورفعك عليه كلامك.

قال: فما السَّناء؟

قال: إتيانُ الجميل، وتركُ القبيح.

قال: فما الحزمُ؟

قال: طولُ الأناة، والرّفقُ بالولاة، والاحتراسُ من النَّاس بسوء الظَّنّ هو الحزم.

قال: فما الشَّرف؟

قال: موافقةُ الإخوان وحفظُ الجيران.

قال: فما السَّفه؟

قال: اتّباعُ الدُّناة ومصاحبةُ الغواة.

قال: فما الغفلةُ؟

قال: تركُكَ المسجد، وطاعتُكَ المفسد.

قال: فما الحرمانُ؟

قال: تركُكَ حظّك وقد عُرِضَ عليك.

قال: فما السَّيِّد؟

قال: الأحمقُ في المال، والمتهاونُ في عرضه، يُشْتَمُ فلا يجيب، والمتحزن ـ المتهم ـ بأمْرِ عشيرته هو السَّيّد.

فقال سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه وأرضاه: يا بني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا فَقْرَ أشدُّ من الجهل، ولا مالَ أعودُ من العقل، ولا وحدةَ أوحشُ من العجب، ولا مظاهرةَ أوثقُ من المشاورة، ولا عقلَ كالتّدبير، ولا حسب كحسْنِ الخُلُق، ولا ورع كالكفّ، ولا عبادة كالتّفكُّر، ولا إيمان كالحياء والصَّبر، وآفةُ الحديث الكذب، وآفةُ العلْم النّسيان، وآفةُ الحلم السَّفه، وآفةُ العبادة الفترة، وآفةُ الظَّرف الصَّلف، وآفةُ الشّجاعة البغي، وآفةُ السّماحة المنّ، وآفةُ الجمال الخيلاء، وآفةُ الحسب الفخر».

يا بُنيّ لا تستخفنَّ برجُلٍ تراهُ أبداً، فإنْ كان أكبر منك فعُدَّ أنَّه أبوك، وإن كان مثلك فهو أخوك، وإن كان أصغر منك، فاحسب أنَّه ولدك»[١].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٥ و ٣٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٣٠ ـ ٣٢)، وابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٣٩ و ٤٠)، والطّبرانيّ في الكبير (٣/ ٦٨ و ٦٩) وقال: هو حديث موضوع. =

* يتبيّنُ لنا ممّا تقدّم أنَّ سيّدنا عليّاً رضوان الله عليه كان يحترمُ ابنه الحسن رضي الله عنه احتراماً متميّزاً، ويبجّله، ويجعله في المحلّ الأوفى من التّوقير والإكرام والاستشارة.

* ولا ريب في أنَّ مَنْ ينشأُ في هذه المدارج الكريمة، ويرتقي هذه المعارج العظيمة، تُذاع سيرتُه في كلِّ مكان وفي كلّ زمان، وهذا فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذو الفضل العظيم.

سيِّدُنا الحسَنُ وكُبراءُ الصَّحَابةِ:

* تبوّأَ سيِّدُنا الحسنُ عليه سحائبُ الرّضوان مكانةً رفيعةً عند كبراء الصَّحابة، فقد كانت قصَّتُه معهم نسائمُ مسْكٍ تُنْثَر، وعرفٌ مشمومٌ يُنْشَر:

فبِكُلِّ أرضٍ من ثنائِكَ شائعٌ   عَبِقٌ كما ولجَ الرِّياضَ نسيمُ

* وكما نعلم أنَّ سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه قد تربّى في أعظمِ بيتٍ في الدُّنيا، فنشأَ نشأةً متميزةً، واكتسى بالفضلِ والكرم، وعُرِف بالسُّؤدد والسّيادة،

= وقد علّق أبو الفرج المعافىٰ بن زكريا النّهرواني علىٰ هـٰذا الخبر فقال: «في هـٰذا الجزء من جواباتِ الحسنِ أباه عما ساءله عنه من الحكمةِ، وجزيل الفائدة، ما ينتفعُ به مَنْ راعاه وحفظه، ووعاه وعمل به، وأدّب نفسَه بالعمل عليه. وهذبها بالرّجوع إليه، وتتوفر فائدته بالوقوف عنده، وفيما رواه أمير المؤمنين عن النّبيّ ﷺ مالا غنىٰ لكل لبيب عن حفظه وتأمله، والمسعود منْ هُدي لتلقّيه».

وقال ابنُ كثير بعد أنْ أوردَ الخبر، وأورد تعليق المعافىٰ بن زكريا: «قلت: ولكنَّ إسنادَ هـٰذا الأثر، وما فيه من الحديث المرفوع ضعيفٌ، ومثلُ هـٰذه الألفاظ في عبارتها ما يدلُّ بعضها من النّكارة علىٰ أنّه ليس بمحفوظٍ والله أعلم.

وقد ذكر الأصمعيُّ والعتبيُّ والمدائنيُّ وغيرهم: أنَّ معاويةَ سأل الحسنَ عن أشياء تشبِه هـٰذا، فأجابه بنحو ما تقدم، لكنَّ هـٰذا السّياق أطول بكثير ممّا تقدم فالله أعلم». (البداية والنّهاية ٨/ ٤٠).

وذكر ابن قدامة المقدسيّ «أنّ سيّدنا عليّاً قال للحسن يوماً: كم بين اليقين والظّنّ؟ قال: أربع أصابع ـ يعني أنّ اليقين ما رأته عينك، والظّنّ ما سمعته بأذنك» (التّبيين ص ١٠٥).

فَعَرَفَ جلّةُ الصَّحابة قَدْره، ووعوا ما وصَفه بِهِ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ الذي ما ينطقُ عنِ الهوىٰ، وأدركوا أنَّ احترامَ الحسنِ ومحبَّتَه ونَشْرَ مناقبِهِ عائدٌ بالنَّفْع عليهم، إذ إنَّ مكارمَ الحسنِ قد طبّقتِ المشارقَ والمغارب:

وطيبُ ثَناءٍ طَبَّقَ الأرضَ فاكتَسَتْ مَشَارِقُها من عَرفِهِ والمغَارِبُ

* وقد دلّت التَّجارب على أنَّ الثَّناءَ هو العمرُ الثَّاني المديدُ الباقي المخلّد؛ وقد قال المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[الشُّعراء: ٨٤]، أي: ثناءً حسناً.

* لهذا كلّه ثبتَ بما يكون متواتراً من أنَّ سيّدنا أبا بكر الصِّديق رضي الله عنه كان يجلُّ الحسنَ، ويعظِّمُهُ ويكرمُهُ، ويحبُّهُ، ويتفدّاهُ، ويبجّلُه.

* وقد ورد في إكرامِ أبي بكر للحسنِ رضي الله عنهما أخبارٌ لطيفةٌ، منها أنّه كان يحملُهُ على عاتقِهِ، ويضاحكُه ويبتسمُ في وجهه، ويباسطُه.

* تتحدّثُ الأخبارُ الجميلةُ في هذا المجال بما جاء عن عبد الرّحمن بن الأصبهانيّ الكوفيّ قال: «جاء الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما إلى أبي بكر رضي الله عنه، وهو على منبر رسولِ الله ﷺ فقال: انزلْ عن مجلسِ أبي[1].

قال: صدقْتَ، إنَّه مجلسُ أبيك؛ وأجلسَه في حجره، وبكىٰ.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: واللهِ، ما هذا عن أمري.

فقال: صدقْتَ واللهِ، ما اتّهمتُك»[2].

* وروىٰ عروةُ بنُ الزُّبير: «أنَّ أبا بكر رضي الله عنه خطبَ يوماً، فجاء الحسنُ فَصَعِدَ إليه المنبر، فقال: انزلْ عن منبر أبي.

فقال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ هذا شيءٌ من غير ملأ منّا»[3].

---

(١) «أبي»: أراد سيّدنا الحسن رضي الله عنه بأبيه هنا جدّه رسول الله ﷺ.

(٢) حياة الصّحابة (٢/ ٤٥٢).

(٣) حياة الصّحابة (٢/ ٤٥٢)، وقوله «من غير ملأ منّا»: من غير مشورة منّا.

* وأُثِرَ عن سيّدنا عمر رضي الله عنه أنّه كان يجلُّ سيّدنا الحسنَ ويعرفُ حقَّه، ويأذنُ له في أي وقْتٍ شاء، ويرىٰ أنَّ ما به من نعمةٍ من محبّته لأهلِ البيتِ بعد الإيمان بالله عزَّ وجلَّ. ذكرتِ المصادرُ أنَّ سيّدنا عمرَ رضي الله عنه لما عمل الدّيوان، فرضَ للحسنِ والحُسين مع أهل بَدْرٍ خمسة آلاف[1].

* أمّا اللطفُ العثمانيُّ من سيّدنا عثمانَ بن عفّان رضي الله عنه فهو معروفٌ لدى الحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما، إذ كان يحبُّهما ويجلُّهما ويعرفُ مكانتهما في أهل البيت النَّبويّ، وثبتَ أنَّ سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه كان مع عثمان يوم الدَّار ـ وعثمان محصور ـ ومعه السَّيف متقلّداً به يدافعُ عن عثمان، فخشي عثمانُ عليه من الغوغاء والعامة، فأقسمَ عليه ليرجعنَّ إلى منزلهم تطيّباً لقلب عليٍّ، وخوفاً عليه رضي الله عنهم أجمعين[2].

* وكان أسيادُنا علماء الصَّحابة الكرام من المهاجرين والأنصار يعرفون قَدْر رجالِ أهلِ البيت ومكانتهم في عالَم الصَّحابةِ والقرابةِ، إذ هم درُّ السَّحابة التي تحيا بها قلوبُ مُحبّيهم، وتروي نفوسهم بِعَذْب سِيرهم، وتصقلُ أرواحهم بنمير أخبارهم.

* روتِ المصادرُ أنَّ عندليبَ الصَّحابةِ ذا الصَّوت الدَّاوودي الجميل أبا موسى الأشعريّ[3] رضي الله عنه وأرضاه كان يجلُّ أهلَ البيتِ أجمعينِ وخصوصاً سيّدنا الحسن عليه سحائب الرّضوان. فقد حدثَ أنْ مرضَ سيّدنا الحسن فعادَهُ أبو موسى الأشعريّ، فدخل سيّدنا عليٌّ فقال لأبي موسى: «أعائداً جئْتَ يا أبا موسى أمْ زائراً»؟

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٨/ ٣٦) بشيء من التّصرّف اليسير.

(٢) انظر: البداية والنّهاية لابن كثير (٨/ ٣٦ و ٣٧) بشيءٍ من التّصرّف.

(٣) حبذا عودةُ القارئ الكريم إلىٰ كتابنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» وقراءة سيرة أبي موسىٰ الأشعريّ فيه (ص ٥٨٧ ـ ٦٣٥) إذ هناك مواطنُ مفيدة، ومعلوماتٌ جديدة، نسأل الله أنْ ينفعَ به ويتقبّله، ويجعله ذخراً ونوراً لكلّ محبي الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. =

فقال: «يا أميرَ المؤمنين، لا، بل جئْتُ عائداً».

فقال سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه وأرضاه: «فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما عادَ مسلمٌ مسْلماً إلّا صلّى عليه سبعون ألف مَلَكٍ من حين يصبحُ إلى أنْ يمسيَ، وجعلَ اللهُ له خريفاً في الجنّة»[1].

* ونقرأُ أيضاً أنَّ عمروَ بنَ حُريث رضي الله عنه عاد سيّدنا الحسنَ بن عَليٍّ رضي الله عنهما، فقال له سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه: «أتعودُ الحسنَ وفي نفسِكَ ما فيها»؟

فقال له عمرو رضي الله عنه: «إنّك لسْتَ بربيّ، فتصرِّفَ قلبي حيث شئْتَ».

قال سيّدنا عليٌّ رضي الله عنه: «أما إنَّ ذلك لا يمنعنا أنَّ نُؤدّيَ إليك النَّصيحة، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من مسلمٍ عاد أخاهُ إلا ابتعثَ اللهُ له سبعين ألف مَلَك يصلُّون عليه من أي ساعات النَّهار كان حتَّى يمسي، ومن أي ساعات الليل كان حتّى يصبحَ»[2].

* وكان سيّدنا ابنُ عبّاس على جلالةِ قَدْره ومكانتِهِ بين علماء الصَّحابة ورجالِ أهلِ البيتِ العلماء يجلُّ سيّدنا الحسن وأخاه الحُسين، ويرى أنَّ قيامه بشأنهما من نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه.

* قال مدركُ بنُ أبي زياد: «كُنَّا في حيطانِ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما،

---

(١) انظر: حياة الصَّحابة (٢/ ٥١١)، والحديث أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٩٦ و ١٩٧) برقم (٧٠٢) وقوله «خريفاً»: المقصودُ به بستان. وفي «النّهاية»: مخارف: مفرده: مَخْرف، وهو الحائط من النَّخل. وقال راوي الحديث ثُويرُ بنُ أبي فاختة: «فقلنا: يا أمير المؤمنين، وما الخريف؟

قال: السَّاقية التي تسقي النَّخل». والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد من حديث طويل (١/ ٢٠٩) برقم (٧٥٤)، وأخرجه البزّار، وقال الهيثميّ في مجمع الزَّوائد (٣/ ٣١): «ورجال أحمد ثقات».

فجاء ابنُ عبّاس وحسنٌ وحُسينٌ رضي الله عنهم، فطافوا في البستانِ فنظروا، ثمَّ جاؤوا إلى ساقيةٍ، فجلسوا على شاطئها.

فقال لي حسنٌ: يا مدركُ عندك غداء؟

قلتُ: قد خبزنا.

قال: ائتِ به.

فجئتُه بخبزٍ وشيء من ملح جريش وطاقتي بقل، فأكلَ ثمّ قال: يا مدركُ ما أطيبَ هذا! ثمَّ أُتي بغدائه، وكان كثيرَ الطَّعامِ طيِّبَه.

فقال: يا مدركُ، اجمعْ لي غلمان البستان.

قال: فقدم إليهم فأكلوا، ولم يأكلْ.

فقلت: ألا تأكل؟!

فقال: ذاك عندي أشهىٰ من هذا.

ثمَّ قاموا فتوضَّؤوا، ثمّ قُدِّمَتْ دابةُ الحسنِ، فأمسَكَ له ابنُ عبّاس بالرّكاب وسوّىٰ عليه، ثمّ جيء بدابةِ الحسين فأمسكَ له ابنَ عبّاس بالرّكاب وسوّىٰ عليه.

فلمّا مضَيَا قلتُ: أنت أكبرُ منهما، تمسكُ لهما وتسّوي عليهما؟

فقال: يالكع، أتدري مَنْ هذان؟ هذان ابنا رسولِ الله ﷺ! أَوَليس هذا مما أنعم الله عَليَّ به أنْ أمسكَ لهما وأسوّي عليهما»[١].

* وذكروا أنَّ عبد الله بنَ الزُّبير[٢] رضي الله عنهما ـ وهو من كبار علماء

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٢١ و ٢٢)، وقال ابن كثير رحمه الله: «وكانا ـ أي الحسن والحسين ـ إذا طافا بالبيت يكادُ النّاسُ يحطمونهما ممّا يزدحمون عليهما للسَّلام عليهما، رضي الله عنهما وأرضاهما». (البداية والنّهاية ٨/ ٣٧).

(٢) اقرأ سيرة عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما في الباب الأوّل من كتابنا «علماء الصَّحابة رضي الله=

الصَّحابة ومن العبادلة الأربعة ـ قعد إلى الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما في يوم باردٍ من أيّام الشِّتاء، وما قام حتّى تفصَّد جبينه عرقاً، فسأله رجل: يا عمُّ!

قال: ما تشاءُ؟

قال: رأيتك قعدتَ إلى الحسنِ بنِ عليٍّ، فما قمتَ حتَّى تفسَّخَ جبينُكَ عَرَقاً.

قال: يا بن أخي، إنّه ابنُ فاطمة، لا والله ما قامت النّساءُ عن مثله[1].

سّيدنا الحسنُ ومحاوراتٌ لطيفةٌ:

* لهذا السَّيِّد الجليل الحسنِ رضي الله عنه محاوراتٌ وجلسَاتٌ مع سيّدنا معاوية رضي الله عنه وغيره، وقد أسفرتْ هذه المجالس عن علْمٍ غزير، وأدبٍ جمّ، يدلُّ على سَعَةِ فَهْمِ الحسنِ وفقههِ وعلمِهِ وذكائِهِ، وهي منثورةٌ كَفَتيتِ المسْكِ في مصادرِ الأدبِ والتَّواريخ وكتبِ المجالسِ والأسمار.

* ومن صورِ هذه المحاضرات والمحاورات ما ذكرهُ المدائني قال: «قال معاويةُ للحسنِ بن عليّ رضي الله عنهم: ما المروءةُ يا أبا محمّد؟

قال: فقْهُ الرَّجُل في دينهِ، وإصلاحُ معيشته، وحسنُ مخالفته.

قال معاوية: فما النَّجدةُ؟

قال: الذَّبُّ عن الجارِ، والإقدامُ على الكريهةِ والصَّبر على النَّائبةِ.

قال: فما الجود؟

قال الحسنُ: التَّبرُّعُ بالمعروف، والإعطاءُ قبل السُّؤال، والإطعامُ في المَحْلِ»[2].

= عنهم» (ص ١٦٧ ـ ٢١٩)، فسيرته عذبة كالماء الفرات.

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٢٢) بشيء من التّصرّف والاختصار. وانظر: البداية والنّهاية (٨/ ٣٧).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٢).

* إنَّ الأخبار التي تدلُّ على ذكاء سيِّدنا الحسن، وانتباهه لمعاني الكلام ومراميه كثيرةٌ جدّاً، ومنها ما ذكروا أنَّ سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه قال يوماً لأصحابِهِ في مجلسِهِ: «إذا لم يكنِ الهاشميُّ سخيّاً لم يشبِهْ حسبه، وإذا لم يكنِ الزُّبيريُّ شجاعاً لم يشبِهْ حسبه، وإذا لم يكنِ المخزومي تائهاً لم يشبهْ حسبه، وإذا لم يكنِ الأمويُّ حليماً لم يشبِهْ حسبه».

فبلغ ذلك سيّدنا الحسنَ بنَ عليّ رضوان الله عليهما، فقال: «واللهِ ما أراد الحقَّ؛ ولكنَّه أرادَ أنْ يُغريَ بني هاشم بالسَّخاء؛ فيفنوا أموالَهم ويحتاجوا إليه، ويغري آل الزُّبير بالشَّجاعة؛ فيفنوا بالقَتْل، ويغري بني مخزوم بالتّيه؛ فيبغضَهم النّاس، ويغري بني أميّة بالحلم؛ فيحبّهم النّاس»[1]. !!!.

* وهذا خبرٌ مونقٌ عن سيّدنا الحبيبِ الحسن رضي الله عنه، ساقه أبو العبّاس المبرّدُ في «الكامل» عندما ذكر طُرفاً من أخبار ابن أبي عتيق فقال: «وكان ابنُ أبي عتيق من نسَّاك قريش وظرفائهم، بل كان قد بذّهم ظرفاً، وله أخبارٌ كثيرةٌ... ومن طريفِ أخباره أنَّ مروانَ بنَ الحكم قال يوماً: إنّي لمشغوفٌ ببغلةِ الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما، فقال له ابنُ أبي عتيق: إنْ دفعتُها إليك، أتقضي لي ثلاثين حاجة؟

قال: نعم.

قال: إذا اجتمعَ النَّاسُ عندك العشيّةَ، فإنّي آخذٌ في مآثرِ قريش، ثمَّ أمسِكُ عن الحسنِ، فَلُمْنِي على ذلك.

فلمّا أخذَ النَّاسُ مجالسَهم أخذَ في مآثر قريش؛ فقال له مروان: ألا تذكر أوّلية أبي محمّد، وله في هذه ما ليس لأحد؟

فقال: إنّما كنّا في ذِكْرِ الأشراف، ولو كُنَّا في ذِكرِ الأنبياء لقدمنا ما لأبي محمّد.

---

(١) المصدر السَّابق عينه (٧/ ٣٢ و ٣٣)، وانظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ١٩٦). أقول: «في النفس شيء من هذا الخبر الذي يلوّح بالوهن والله أعلم».

فلمّا خرجَ الحسنُ ليركبَ تبعَهُ ابنُ أبي عتيق، فقال له الحسنُ ـ وتبسَّم ـ: ألكَ حاجةٌ؟

فقال: ذكرت البغلة؛ فنزلَ الحسنُ، ودفعهَا إليه»[1].

* ومن لطائفِ المعارفِ في الحجج البالغة والأجوبةِ الدَّامغةِ، ما ذكرت المصادرُ أنَّ أهلَ البيت رضي الله عنهم آتاهم الله عزَّ وجلَّ جوامعَ الكلمات التي تدفعُ محاوريهم، كما خصّهم بأكرمِ الأخلاقِ والشِّيم، ومن هذه المعارف التي تشحذُ الهمم وتصقلُ نفوسَ محبِّي أهلِ البيتِ الأطهار ما دوّنته أخبارهم قالت: «لمَّا بلغَ معاويةُ وفاةَ الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهم، دخل عليه ابن عبّاس رضي الله عنهما قبل أنْ يعلمَ بها، فقال له: آجرك الله أبا عبّاس في أبي محمّد الحسن بن علي رضي الله عنهما..

فقال ابنُ عبّاس: إنّا لله، وإنّا إليه راجعون، وغلبَهُ البكاءُ، فردَّهُ، ثمّ قال لمعاويةَ: لا يسدُّ واللهِ مكانه حفرتَك، ولا يزيدُ موته في أجلك، واللهِ لقد أُصِبْنا بمن هو أعظم منه فَقْداً، ما ضيَّعَنَا اللهُ بعده.

فقال له معاوية: كم كانت سنّه؟

قال: هو أشهرُ من أنْ تُجهل سنُّه.

قال: أحسبُه تركَ أولاداً صغاراً؟.

قال: كلّنا كان صغيراً فكبر، ولئن اختار اللهُ لأبي محمّد ما عنده، وقبضه إلى رحمته، فلقد أبقى اللهُ أبا عبد الله ـ أي الحسين ـ وفي مثله الخَلَفُ الصَّالح»[2]!!؟!.

---

(١) الكامل للمبرد (٢/ ٢٣٧) تحقيق أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ دون تاريخ. وانظر: نثر الدرّ (٤/ ١٠٨)، والمستطرف (٢/ ١٠٢).

(٢) التّذكرة الحمدونيّة (٧/ ١٩٨) أقول: «وفي النّفس شيء من هٰذا الخبر، لأنَّ ظاهرةَ التّكلّف تبدو عليه، كما أنَّ الحوار فيه ثقيلَ الدم تمجّه الأذواق السّليمة والله أعلم».

* وممّا يندرجُ تحت المحاوراتِ المثمرةِ المفيدةِ، ما ورد: «أنَّه قيل لسيّدنا الحسن: مَنْ أحسنُ النَّاس عيشاً؟

فقال: من أشرك النّاس في عيشه.

وقيل له: مَنْ شَرُّ النَّاس؟.

فقال: مَنْ لا يعيشُ في عيشه أحد».

* وتذكرُ الأخبارُ الحَسَنيّة أيضاً أنَّ سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه سُئل: لأي شيءٍ نراكَ لا تردُّ سائلاً، وإنْ كنتَ على فاقة؟

فقال رضي الله عنه: «إنّي لله سائلٌ، وفيه راغبٌ، وإنَّ اللهَ تعالى عوَّدني عادةً؛ عوَّدني أنْ يفيضَ نِعَمَهُ عليَّ، وعوَّدتُهُ أنْ أفيضَ نِعَمَهُ على النَّاس، فأخشىٰ إنْ قطعتُ عادتي أنْ يمنعَني عادَتَهُ».

* ولذلك رُوي أنَّه رضي الله عنه التزم الرُّكْنَ عند الكعبة وقال: «إلهي نَعَّمتني فلم تجدني شاكراً، وابتليتني فلم تجدني صابراً، فلا أنتَ سلبْتَ النِّعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشّدّة بترك الصَّبر، إلهي ما يكون من الكريمِ إلا الكرم، ولا من الجافي إلا الجفاء»[1].

قطوفٌ مونقةٌ من مناقبه:

* قالَ الشَّريفُ الرّضيُّ:

أودَىٰ ومــا أودَتْ منــاقِبُــهُ ومــنَ الــرِّجَــالِ مُعَمَّــرُ الــذِّكْــرِ

* تمتَّعَ سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه بمناقِبَ حِسَان تزينُ المجالس، وتشحذُ الهمم، وتبعثُ على النَّشَاط والاقتداء برجالِ أهلِ البيتِ الأطهار الذين أذهبَ اللهُ عنهم الرّجسَ.

* كان سيِّدنا الحسنُ رضي الله عنه حليماً كريماً ورعاً، دعَاهُ ورعهُ وفضْلُه

---

(١) سراج الملوك (ص ٣٢٢).

إلى أنْ تركَ المُلْكَ والدّنيا، رغبةً فيما عند الله تعالى.

* وكان رضي الله عنه وأرضاه حَيّياً ذا مروءةٍ وهمّةٍ عاليةٍ، فقد علّقَ البخاريُّ في صحيحهِ أنَّ الحسنَ حَجَّ ماشياً والجنائب تُقادُ بين يديه. وذكَرَ الثِّقات من أهلِ العلْم أنَّ سيّدنا الحسنَ حجَّ خمساً وعشرين مرَّةً ماشياً، وكان يقول: «إنّي لأستحيي من ربّي أنْ ألقاه ولم أمشِ إلى بيتهِ»(١).

* ويُعدُّ سخاءُ سيّدنا الحسن وجودُهُ صورةً فريدةً من صور كرمِ رجالِ أهلِ البيت وعطائهم العجيب، ومن المؤكّدِ أنَّ هؤلاء الأطهار قد تَشَرّبُوا السَّخاء من إمام الأسخياء رسولِ الله ﷺ، فغدا جودهُم حديثَ المجالس، وأُنْسَ المُجالس، ونزهةَ الكريم، وحليةَ الحليم.

* شهد لسيّدنا الحسن بالسَّخاء كبارُ العُلماء من سادة عَصْره، ومنهم التَّابعي الحصيفُ محمّدُ بنُ سِيرين رحمه الله حيث قال: «ربّما أجازَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما الرّجُل الواحدَ بمئة ألف»(٢).

* وبلغ سيّدنا الحسنُ المنتهىٰ في الجود، كما بلغ الذِّروة في جَبْرِ خواطرِ منكسري القُلوب ممن أهمّهم شأنُ السَّعي والكسب.

* وإليكم هذه الفريدة النَّادرة في الحصافةِ والرّهافةِ وجبْرِ المنكسرين، وإنفاقِ المال والسَّخاء به في موطنٍ جليل، ومكان يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٨/ ٣٧)، وانظر: التّبيين (ص ١٠٤ و ١٠٥).

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٣٧)؛ وذكرت مصادر الأدب وينابيعها أنّ سيّدنا معاوية رضي الله عنه سأل سيّدنا الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الكَرمِ، فقال سيّدنا الحسن: «هو التَّبرُّع بالمعروف قبل السُّؤال، والرّأفة بالسَّائل مع البذل». (نثر الدّرّ ١/ ٣٣٣).

ووصفه ابنُ قدامة المقدسي رحمه الله بقوله: «كان الحسن رضي الله عنه من أجودِ النّاس كفّاً، وأسخاهم نفساً، وأحسنهم كلاماً، وأكثرهم صواباً». (التبيين ص ١٠٤).

ومن جوده: «أنّه سأله إنسانٌ، فأعطاه خمسين ألف درهم، وخمس مئة دينار، وقال: ايتِ بجمّال يحمل لك. فأتىٰ بجمال فأعطاه طيلسانه وقال: يكون كِراء ـ أجر ـ الجمّال من قبلي». (مرآة الجنان ١/ ١٢٣).

المسجدُ، ذكر هذه الفريدةَ العجيبةَ سعيدُ بنُ عبد العزيز قال: «سمع الحسنُ رضي الله عنه رجلاً إلى جانبه يدعو الله عزَّ وجلَّ أنْ يملكه عشرةَ آلاف درهم، فقامَ إلى منزله، فبعثَ بها إليه»[1].

* وذكرتِ الأخبارُ الموثوقةُ أنَّ سيّدنا الحسنَ قاسَمَ اللهَ عزَّ وجلَّ مالَه ثلاثَ مرّاتٍ؛ كما ذكروا أنَّ سيّدنا عليّاً خطبَ وقال: «إنَّ ابني الحسن قد جمعَ مالاً، وهو يريدُ أنْ يقسمه بينكم» فحضرَ النَّاس، فقام الحسنُ فقال: «إنَّما جمعتُه للفقراء» فقام نصفُ النَّاس.

* وإذا أردنا أنْ نصفَ سيّدنا الحسن رضي الله عنه في جُوده، فلا نملكُ الكلمات التي تغطّي جُزءاً من هذه الخلَّة العظيمةِ التي يحبُّها اللهُ ورسولُه، فلم تكنِ الأموالُ تستقرُّ في يده إلَّا عابراتُ سبيلٍ إلى نَفْعِ النَّاس، بل كانتِ الدَّراهمُ تهربُ منه كما يهربُ الشَّيطانُ في ليلة القدر، حتّى أصبح جودُهُ قدوةً للأحرار والعبيد، وأضحى سخاؤه مناراً للمهتدين في الكرم، وبركةً على أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

* ودعونا ننظر إلى هذا الجود الحَسنيّ الهاشميّ الفاطميّ العظيم الذي بلغ من خلاله الحسنُ مبلغاً نادراً، فقد ذكر أهلُ العِلْم ومحبّو أهل البيتِ أنَّ غُلاماً رأى جودَ سيّدنا الحسن ولمسَه، فقلَّده، وجادَ بما أعطاه الحسن؛ فقالوا: «رأى

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٢٦٠ و ٢٦١) بتصرُّف يسير. ومنَ المُستَجادِ من فعلات الأجوادِ من رجالِ أهلِ البيتِ ما أوردَهُ الشَّعرانيُّ في «طبقاته» قال: «وكان رضي الله عنه يُجيزُ الواحد بمئةِ ألف درهم، وكان إذا اشترىٰ منْ أحدٍ حائطاً ـ بستاناً ـ ثمّ افتقرَ البائعُ يردُّ عليه الحائط، ويردفُه بالثَّمن معه، وما قال قطّ لسائلٍ لا، وكان لا يُعطي لأحدٍ عطيّةً إلّا شفّعها بمثلِها». (الطَّبقات الكبرى ١/ ٢٦) دار الفكر ـ طبعة مصوَّرة دون تاريخ.
وذكر الصَّفديُّ هٰذه القصّة عن سيّدنا الحسن فقال: «وقفَ أعرابيٌّ علىٰ حلقةِ الحسنِ رضي الله عنه فقال: رحم اللهُ مَنْ تصدَّق من فضلٍ، أو واسىٰ من كفاف، أو آثرَ منْ قوت.
فقال الحسنُ رضي الله عنه: ما تركَ الرَّجل منكم أحداً حتىٰ عمَّه بالمسألة». (الغيث المسجم ١/ ٣١١).

الحسنُ بنُ عليّ رضي الله عنهما غلاماً أسودَ في بعضِ بساتين المدينةِ المنورة، بيده رغيفٌ، يأكلُ لقمةً، ويطعمُ كلباً هناك لقمة إلى أنْ شاطره الرغيف.

فقال له الحسنُ رضي الله عنه: يا غلامُ، ما حملك على أنْ شاطرته رغيفَكَ.

قال: إنّي أستحيي من أنْ آكلَ وحدي ولا أطعمه.

فقال له الحسنُ متعجّباً: غلام مَنْ أنت؟

قال: غلامُ أبانَ بنِ عثمانَ يا سيّدي.

فقال له: والبُستان؟

قال: لأبانَ بنِ عثمان أيضاً.

فقال له الحسنُ: أقسمتُ عليك ألاّ تبرحَ مكانك حتّى أعودَ إليك.

فذهبَ سيّدنا الحسنُ فاشترى الغلامَ والبستانَ، وجاء إلى الغلام فقال: يا غلامُ قد اشتريتك.

فقام الغلامُ قائماً وقال: السّمعُ والطّاعةُ لله ولرسوله، ولك يا مولاي.

قال الحسنُ: وقد اشتريتُ البستان، وأنتَ حُرٌّ لوجه الله، والبستان هِبَة مني إليك.

فلمّا رأى الغلامُ هذا الجودَ الحسنيَّ النّادرَ قال لسيّدنا الحسنِ رضي الله عنه: يا مولاي، قد وهبتُ البستانَ للذي وهبتني له»[1].

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٢٥)، والبداية والنّهاية (٨/ ٣٨) مع الجمع والتّصرّف. ومن الأخبار الجميلة التي تدلّ علىٰ جود سيّدنا الحسن وتواضعه وحبّه للفقراء ما روي: «أنه مرَّ علىٰ مساكين وهم يأكلون كِسَراً لهم علىٰ كساء، فسلمَّ فقالوا: ياأبا محمد، الغداء. فنزل وأكل معهم وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل: ٢٣]، ثم قال لهم: قد أجبتكم فأجيبوني. فانطلقوا، فلما أتىٰ المنزل قال: «ياربابُ، أخرجي ما كنت تدخرين». (التذكرة الحمدونية ٩/ ٨٤) بتصرف يسير. =

* ومن الأخبار المنيفة التي تهذّبُ النُّفوسَ في مضمار الجود، أنَّ سيّدنا الحسن كان المالُ عنده وسيلةً لإدخالِ السُّرور إلى قلوبِ النَّاس وإسعادهم مهما كانت أحوالهم ومكانتهم، وكان يرى أنَّ المالَ وسيلةٌ لبناءِ المكارمِ وبناء الفضائل، لأنَّ النَّاس بعامة يحبّون المال.

* حدَّث أبو هارون العبدي عن الصِّفة الحسنية الماتعةِ فقال: «انطلقنا حجّاجاً، فدخلنا المدينةَ، فدخلنا على الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما، فحدثناه بمسيرنا؛ وحالنا، فلمّا خرجنا، بعث إلى كُلِّ رجلٍ منّا بأربع مئة، فرجعنا، فأخبرناه بيسارنا، فقال: لا تردّوا عليَّ معروفي، فلو كنتُ على غير هذه الحال، كان هذا لكم يسيراً، أما إنّي مزوّدُكم: إنَّ اللهَ يباهي ملائكته بعباده يوم عرفة، فيقول: عبادي جاؤوني شعثاً يتعرّضُون لرحمتي، فأشهدكم أنّي قد غفرتُ لمحسنهم، وشفَّعتُ محسنهم في مسيئهم، وإذا كان يوم الجمعة فمثل ذلك»[1].

* وكان رضي الله عنه وأرضاه يرى أنَّ قضاءَ حوائج النَّاس أحبّ إليه من أية نافلة، وقد طبّق هذا عمليّاً، قال أبو جعفر الباقر: «جاء رجلٌ إلى الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، فاستعان به في حاجةٍ، فوجدَهُ معتكفاً، فاعتذر إليه؛ فذهبَ إلى الحسنِ رضي الله عنه، فاستعانه فقضى حاجته، وقال: لقَضَاءُ حاجةِ أخٍ لي في اللهِ أحبّ إليَّ من اعتكاف شَهْر»[2].

= وروىٰ اليافعي هٰذه القصة علىٰ النحو الآتي قال: «مر الحسن بصبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه، فنزل عن فرسه، فأكل معهم، ثم حملهم إلىٰ منزله وأطعمهم وكساهم وقال: اليَدُ لهم، لأنّهم لم يجدوا غير ما أطعموني، وإنّا نجد أكثر منه». (مرآة الجنان ١/ ١٢٣).

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٧)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦١) مع الجمع والتّصرّف.

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٣٨)؛ وممّا يشبه هٰذا ماذكره علي بن الحسين قال: «خرج الحسن رضوان الله عليه يطوف بالكعبة، فقام إليه فقال: يا أبامحمّد، اذهبْ معي في حاجتي إلىٰ فلان؛ فترك الطَّواف ذهب معه، فلما ذهب قام إليه رجل حاسدٌ للرجل الذي ذهب معه فقال: يا أبا محمَّد، تركت الطَّواف وذهبت مع فلان إلىٰ حاجته؟! =

* أمَّا إذا أردنا أنَّ نتعرَّفَ جانباً آخر من مناقب سيّدنا الحسن رضي الله عنه، فعلينا أنْ نقلّده في هذه المنقبة، ونعملَ على أنْ يكون لنا قدوة، ومَنْ سارَ على الدَّرب وصَل؛ فسيّدنا الحسَن رضوان الله عليه ذو مناقبَ حسان، قلّما تجتمع في إنسان، مهما كان كبير الشَّان، ومهما كان طويل النَّجاد، رفيعَ العماد، كثير الرّماد، فسيدنا الحسن نسيج وحده، وما أجمل أنْ نقرأ ونحفظَ ما أسفرت عنه قريحةُ الحافظِ الذَّهبيِّ، إذ أجمل خصائل سيّدنا الحسن وحصائله الشَّريفة في «سِيَرِه» فقال: «وقد كان هذا الإمامُ سيّداً، وسيماً، جميلاً، عاقلاً، رزيناً، جواداً، ممدحاً، خيّراً، ديناً، ورعاً، محتشماً، كبيرَ الشَّأن رضي الله عنه»[(١)].

* وقال الذَّهبيُّ في تاريخِهِ عن مناقب سيّدنا الحسن: «ومناقبُ الحسَنِ رضي الله عنه كثيرةٌ، وكان سيّداً حليماً ذا سكينةٍ ووقارٍ وحشمةٍ، كان يكْرَهُ الفِتن والسَّيف، وكان جواداً ممدحاً رضي الله عنه»[(٢)].

* ومن بدائع الفوائدِ الحِسَان التي ينبغي لنا أنْ نتعرَّفَ كنهها، لنقبسَ من سناها ما نضيء به الطَّريق، عبادة سيّدنا الحسن رضيع لبان العبادةِ من بيت النّبوّة، فهو ابنُ أطهر الطَّاهرات، وسيّدة السَّيّدات، وأميرة العابدات القانتات الذَّاكرات، سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها وعن زوجها وأولادِها، وحشرنا في معيتهم بمنِّه وعفوه وكرمه إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

* وماذا نتوقَّعُ من تربيةِ هذه السَّيّدة المُسَوَّدة والعابدة البتول؟.

* لقد فتحَ سيّدنا الحسنُ عينَيْه على الصَّفاءِ والنَّقاءِ، والذّكْرِ والتَّسبيح،

= فقال له الحسن: وكيف لا أذهب معه ورسول الله ﷺ قال: «مَنْ ذهبَ في حاجة أخيه المسلم، فقضيت حاجته، كُتبت له حجة وعمرة، وإن لم تقض كُتبتْ له عمرة». فقد اكتسبت حجة وعمرة، ورجعت إلىٰ طوافي». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٢٦ و ٢٧).

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٥٣).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية بن أبي سفيان ص ٣٦).

والتَّحميد والتَّهليل في بيتٍ أَذِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ أطهر بيتٍ في الدّنيا، ووعىٰ سيّدنا الحسنُ المناقب فغدا مثلاً وأنموذجاً فريداً في حياة الزُّهد والعبادة، والإقبال على كتابِ اللهِ قائماً وقاعداً بكرةً وعشيّاً، وغدا أحد ذوي الأحلام والتّقى من الحفدةِ البررة الكرام.

* نقرأُ في سيرةِ هذا الإمامِ الهمامِ، والسّبْط الورع، أنَّه كان إذا فرغَ من الوضوء تغيَّرَ لونه؛ ولمَّا تكرَّرَ منه هذا الشَّيء، سُئِلَ رضي الله عنه عن ذلك، فأجابَ مشيراً إلى معرفة مقام الرّبوبية: «حقٌّ على مَنْ أرادَ أنْ يدخلَ على ذي العرش أنْ يتغيَّرَ لونه»[1].

* كما نجدُ في السِّيرةِ الحَسَنيّة مواقفَ سنيةً في مجالاتٍ شتّى، منها تضرّعُه إلى الله عزَّ وجلَّ عند بيته المحرّم، وعطفه الشَّديد على المساكين، وإكرامه لهم.

* حسَناً، فَلْنقرأْ هذا المشهد: «رُؤيَ الحسنُ بنُ عليّ رضي الله عنهما يطوفُ بالبيت، ثمَّ صار إلى المقامِ، فصلَّىٰ ركعتين، ثمَّ وضعَ خدَّه على المقَام، فجعلَ يبكي ويقول: عُبيدُك ببابكَ، خُويدمُك ببابك، سائِلُك ببابك، مُسَيكينُك ببابِك؛ يردِّدُ ذلك مراراً، ثمَّ انصرفَ رضي الله عنه، فمرَّ بمساكين معهم فِلَقُ خبز يأكلون فسلَّم عليهم، فدعوه إلى الطَّعام، فجلسَ معهم، وقال: لولا أنَّه صدقَةٌ لأكلتُ معكم؛ ثمَّ قال: قومُوا بنا إلى منزلي؛ فتوجّهوا معه، فأطعمهم، وكسَاهم، وأمرَ لهم بدراهم»[2].

* وهكذا نرى أنَّ سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه كان يعطفُ على الفُقراء في مكَّةَ، كما كان يخصُّ بعطفه أهل الصُّفَّة في المدينة المنوَّرة، قال أبو نُعيم الأصبهانيّ في «الحِلْية»: «وكان يزورُ أهلَ الصُّفَّة بعد النَّبيِّ ﷺ الأكابرُ منْ الأقاربِ والأشرافِ، يتبرّكون بما خُصّوا به من الألطاف، وعُصموا به من

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٦٩).

(٢) ربيع الأبرار (٢/ ٤١٢)، والمستطرف (١/ ٤٧).

الإســـــراف والإتــــراف»(١).

* وعن عطف سيّدنا الحسنِ على أهل الصُّفَّة يقول أبو نعيم أيضاً: «وكذلك كان أهلُ بيت النَّبيِّ ﷺ وأولادُهُ يوالون أهل الصُّفَّة والفقراء، يخالطونهم اقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ، واسْتِنَاناً به؛ فمَنْ كان يكثرُ مجالستَهم ومخالطتَهم ومجالسةَ سائر الفُقَراء في كلِّ وقتٍ: الحسنُ بنُ عليّ بن أبي طالب، وعبد الله بنُ جعفر، يرون في محبّتهم إكمال الدّين، وفي مجالستهم إتمام الشَّرف، مع ما كانوا يرجعون إليه من التَّشرّف برسول الله ﷺ، والانتساب إليه اغتناماً لدعائهم، واقتباساً من أخلاقهم وآدابهم، وكذلك عامة الصحابة كانوا يغتنمون مخالطةَ الأخيار، وأدعية الأبرار»(٢).

دُررٌ منْ جَواهِرِ كَلِمَاتِهِ:

* كلماتُ سيّدنا الحسنِ رضي الله عنه كالدُّرّ المنثور، وكالعقْدِ الفريد على لبّات ذواتِ الخدور، تطربُ الأسماع، وتشذِّبُ الطِّباع، وتضع أعين محبي أدب أهل البيت على نفائسَ من الحكم والنّصائح والملحِ الحسنية، وكذلك يجني المحبُّ من ثمر الألباب، ويقتطف من زهر الآداب بدائع تجعله في مُتَنَزَّه غني مع عقولهم، متفقِّهاً في أقوالهم، مستقرّاً في ذروةِ فضائلهم وأفضالِهم.

* فسيّدنا الحسنُ رضي الله عنه سيّدٌ أمجدٌ، وفذٌّ أوحدُ، حسنةُ الدّنيا، وعلَمُ العُليا، ذو فضلٍ مشكور، وأدبٍ مشهورٍ، له في سماءِ البلاغة كلماتٌ تلوحُ كالنّجم، وعباراتٌ مونقةٌ تزيدُ في الفهم.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٤). وقال أبو نعيم أيضاً: «وقد كان من أهل البيت من ولاة الفقراء وأهل الصّفّة: الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب يجالسانهم استناناً في مجالستهم، ومحبّتهم بالنّبيّ ﷺ، إذ أُمِروا بالصّبر علىٰ مجالستهم، وإلزام مواظبتهم ومخالطتهم، وكذلك من بعده من أصحابه أكثروا زيارتهم، واختاروا مودّتهم ومجالستهم، حسبما انتشر عنهم واشتهر، وأنّهم كانوا يرون العيش الهَنيّ معهم، والمقام السّنيّ في مخالطتهم، والحال الزّريّ في مفارقتهم ومنابذتهم». (حلية الأولياء ٢/ ٣٩).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٤).

* رُوي أنَّ شاعراً من محبّي أهلِ البيتِ مدحه، فأجزل له الحسن عطيّته، فَلِيمَ على ذلك وعُوتب فقال رضي الله عنه: «أتروني خفت أنْ يقولَ لستُ ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولا ابن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكنّي خفتُ أنْ يقولَ لست كرسولِ اللهِ ﷺ، ولست كعليٍّ، فَيُصَدَّقَ، ويُحْمَلَ عنه، ويبقى مخلداً في الكتب، ومحفوظاً على ألسنة الرّواة».

فقال الشّاعر: «أنتَ واللهِ يا بنَ رسولِ اللهِ ﷺ أعلمُ بالمدحِ والذَّمِ منّي»[1].

* في «زَهْر الآدابِ» نظمَ القيروانيُّ هذه الزَّهرةَ المتألِّقة ضمنَ طاقاتِهِ الفوّاحة برحيقِ الأدب الحسنيّ الهاشميّ فقال: «وكان الحسنُ رضي الله عنه جوَاداً كريماً، لا يردُّ سائلاً ولا يقطعُ نائلاً، وأعطىٰ شاعراً مالاً كثيراً فقيل له: أتعطي شاعراً يعصي الرّحمن، ويطيعُ الشَّيطان، ويقولُ البُهتان؟ فقال: إنَّ خيرَ ما بذلتَ من مالك ما وقيت به عرضك، وإنَّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشَّرّ»[2].

* وقد صنعَ سيّدنا الحسنُ هذا عمليّاً، إذ كان يستميلُ الشُّعراء ليقلعوا عن هجاءِ النَّاس، وقد تألَّف بجوده وسخائه عُتيبةَ بنِ مرداس التَّميميّ الملقّب «ابن فَسْوة»، وكان سيّدنا عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قد قرَّعَ عُتيبة وتوعَّده أنْ يقطعَ لسانهَ إنْ هجا أحداً من العرب، وحبَسَه يوماً واحداً، ثمّ أخرجه عن البصرة، فوفدَ المدينةَ بعد استشهاد سيدّنا عليٍّ رضوان الله عليه، فأكرمَه سيّدنا الحسنُ بنُ عليٍّ، وعبدُ الله بنُ جعفرَ رضي الله عنهم، واشتريا منه عرضَ ابن عبّاس بما أرضاه، فقال يمدحُهما:

فَلَيْـتَ قَلـوصي عُـرِّيـتْ أو رَحَلْتُهـا ... إلى حسَنٍ في دارِهِ وابنِ جَعْفَرِ[3]

---

(١) زهر الآداب (١/ ٦٠)، والعمدة لابن رشيق (٢/ ٨٧٠).

(٢) زهر الآداب (١/ ٦٠).

(٣) الشعر والشعراء (١/ ٣٦٩) بتصرف. وللحسن محاوراتٌ مع الشّعراء ومنهم الفرزدق فقد أوردَ ابنُ عبد البرّ هٰذا الخبر الذي يدلُّ علىٰ حسنِ بديهةِ الفرزدق مع سيّدنا الحسنِ رضي الله عنه=

* وكان عمرو بنُ الأهتم المنقريُّ التَّميميُّ شاعراً، وهو مخضرمٌ جاهليٌّ إسلاميٌّ، وكان في الجاهليّة يُدعى «المُكَحَّل» لجمالِهِ؛ ووفدَ على رسولِ الله ﷺ، فقال له ﷺ: «إنَّ من الشِّعر لحكماً، وإنَّ منَ البيان لَسِحْراً». وكان لعمرو ابنٌ يقال له نُعيم بنُ عمرو، من أجمل النَّاس، وكانت لعمرو ابنة يقال لها أمّ حبيب، تزوجّها الحسنُ بن عليٍّ رضي الله عنهما، وقدَّر أنْ تكونَ في جمالِ أخيها، فوجدها قبيحةً، فطلَّقَها[1]!!

* وفي عكسِ هذه القصّة ما جاء في قصَّةِ المثَلِ المشهور: «أحسنُ من نَارِ القِرى» قالوا: «كانت خولةُ بنتُ منظور بن زبان أجمل نساء قومها، فقدمت المدينةَ المنوَّرة لزيارة أختها زوجة عبد الله بن الزّبير، فسمع النَّاسُ بها فخطبوها، وفيهم الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنه فجعلَتْ أمرها بيدي أختها، فوكّلت ابن الزُّبير رضي الله عنهما، فزوَّجها من الحسنِ رضي الله عنه وأرضاه.

فلمّا بلغَ الخبرُ أباها جاء المدينةَ المنورةَ، فركزَ رايتَه عند المسجدِ النَّبويِّ الشَّريف، ثمَّ نادى بأعلىٰ صوتهِ: يا آلَ قيس! فلم يبقَ قيسيٌّ إلا دخلَ تحت رايته.

فبلغَ ذلك الحسن رضي الله عنه، فجاءَ إليه، فقال له: شأنُك بابنتِكَ؛ فجاء فحملَها معه.

فلمّا خرجَا قالتْ له: يا أبتِ، أَو يرضى أحدٌ بمثلِ فعلك؟ الحسنُ بنُ عليّ وفاطمةُ، وسِبْطُ رسولِ الله ﷺ، وسيّدُ شباب أهل الجنّة، أينَ تَجِدُ مثله؟

فقال: صدقْتِ يا بُنية، ولكنْ تعالي ننزلْ بقباءَ، فإنْ كانَ له غرضٌ فيك، فسيلحقُنا.

= حيثُ قال: «لقيَ الحسنُ أو الحسين رضي الله عنهما الفرزدقَ في حين خروجهِ إلىٰ العراق، فسأَلَهُ عن النَّاس، فقال: القلوبُ معك، والسُّيوفُ عليك، والنَّصرُ من عندِ الله». (بهجة المجالس ١/ ٩٦). بتصرّف

(١) المصدر السّابق (٢/ ٦٣٣) بتصرّف واختصار.

فبينما هم هنالك، أقبلَ الحسنُ والحسينُ وعبدُ الله بنُ جعفر، وعبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهم فردَّها إلى الحسنِ رضي الله عنه؛ فولدتْ للحسنِ الحسنَ المثنّى أكبر ولده، ولم تزلْ عند الحسنِ حتّى مات.

فلمَّا مات الحسنُ رضي الله عنه كَثُرَ خُطَّابها، فقالت: واللهِ لا كان لي حمو بعد رسولِ اللهِ ﷺ. ورفضَتْ هذا الأمر رفْضاً شديداً، فزهدَ فيها الرّجالُ ويئسوا منها عند ذلك.

وكانت خولةُ معروفةً بفعلِ الخير والتَّفضُّل، يقصدُهَا النَّاسُ في حوائجهم، فتقضيها، وعاشت كثيراً.

فحكي عن مَعْبد المغنّي قال: جئتها ألتمسُ معروفها، وهي عجوزٌ، وغنيتُها شعراً قاله فيها بعض مَنْ أرادَ تزويجها وهي شابّة فلم تنكحْهُ، ومنه:

قِفَا في دَارِ خَوْلَةَ فاسْأَلاَهَا ... تَقَادمَ عَهْدُهَا وهجر تُماهَا
بِمحْلالٍ كَأَنَّ المسْكَ فيه ... إذا فاحَتْ بأبطُحِهِ صِبَاهَا

فطربَتْ واهتزّتْ وقالت: يا عبدَ بني قطن، أنا واللهِ يومئذٍ أحسنُ من نار القِرى في عينِ التّائه الصَّدَي»[1].

* وإذا أحببنا أنْ نعرفَ شيئاً من عبقريةِ سيّدنا الحسنِ وحصافتِهِ وفهمه لمواقع الكلام، فعلينا أنْ نرطّبَ الأسماعَ بقولِهِ ـ وقد سمع متكلّماً يعظُ فلم تقعُ موعظته من قلبه ولم يرقَّ لها ـ: «يا هذا، إنَّ بقلبكَ لَشَرّاً أو بقلبي»[2].

---

(١) زهر الأكم (٢/ ١٤٩ و ١٥٠)، والدر المنثور لزينب فواز (ص ١٨٧) مع الجمع والتصرف.
أقول: «جاء عن جعفر الصَّادقِ رحمه الله أنَّ سيّدنا علياً رضي الله عنه وأرضاه خاطَب الكوفيين فقال: يا أهلَ الكوفةِ، لا تزوّجُوا ابني الحسنَ، فإنَّه مطْلاقٌ.
فقال رجلٌ منهم متحمّساً: ياأمير المؤمنين، واللهِ لنزوجنّه، فما رضيَ أمسَكَ، وما كرِهَ طلَّقَ» (سير أعلام النّبلاء ٣/ ٢٥٣). وقال الإمام الذّهبي عن سيّدنا الحسن رضي الله عنه: «كان هٰذا الإمامُ منكاحاً مطْلاقاً، تزوَّج نحواً من سبعين امرأة، وقلّما كان يفارقه أربع ضرائر».
(٢) زهر الآداب (١/ ١٥٥).

* لذلك كلّه كان رضي الله عنه يُوصي بصقْلِ القُلوب وتغذيتها بشهدِ الآداب وحلاوتها فيقول: «حادثوا هذه القلوبَ، فإنَّها سريعةُ الدّثور، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعَةُ، وإنّكم إلا تقدعوها تنزعْ بكم إلى شَرِّ غاية»[1].

* وفي بابِ أدبِ المجالسةِ، وحقِّ الجليس الصَّالح، ووقت الجلوس، يذكر ابن عبد البرّ من أنَّ رجلاً جلسَ إلى الحسنِ بن عليٍّ رضي الله عنهما حينما انتهى مجلسه وهمَّ بالقيام فقال للرجل: «جلستَ إلينا على حين قيام، أفتأذن»[2]؟

* ولأدبيّاتِ الاعتذارِ مساحةٌ طيّبةٌ في كلام سيّدنا الحسنِ رضي الله عنه، وفي مضمار الاعتذار يقول: «لو أنَّ رجلاً شتمني في أذني هذه، واعتذرَ إليَّ في أذني هذه لقبلتُ عذره»[3].

* وقد أخذ هذا المعنى أحد الشُّعراء فقال:

قيلَ لي قد أسَا إليكَ فُلانٌ ... وقُعُودُ الفتى على الضَّيمِ عارُ
قلتُ قد جاءَنَا فأحدثَ عذراً ... دِيَةُ الذّنبِ عندنا الاعتذارُ

* وعُرفَ سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه بالسَّخاءِ والجودِ، كما عرف بكراهيته للبُخل، لذلك لما سُئِلَ عن البُخل أجاب بقولِهِ: «هو أن يَرى ما ينفقُه تلفاً، وما أمسكه شَرفاً»[4].

* أمّا محبّته للجودِ والسَّخاء بالطَّعام فحدِّثْ عن البحر ولا حرج، وكان رضي الله عنه يقول: «ائتونا بالخوان نأتنسْ به حتَّى يأتيَ الطَّعامَ»[5].

---

(١) زهر الآداب (١/ ١٥٦).
(٢) بهجة المجالس (١/ ٤٧) بتصرف يسير.
(٣) بهجة المجالس (١/ ٤٨٦). وقيل للحسن: «إنَّ فلاناً يقع فيك» فقال: «ألقيتني في تَعبٍ، الآن أستغفر اللهَ لي وله». نثر الدر ١/ ٣٣٢).
(٤) بهجة المجالس (١/ ٦٤٠).
(٥) بهجة المجالس (٢/ ٨٠).

* وله في الجودِ والإسراع إلى إنجازه: «الوعدُ مرضٌ في الجود، والإنجاز دواؤه»[1].

* وقال: «المسؤولُ حرٌّ حتّى يَعِدَ، ومسترقٌ بالوعدِ حتّى ينجزَ».

* وله في الحلْم كلامٌ عجيبٌ، يقطرُ حكمةً، ويسيلُ عذوبةً، ويزينُ العقول ويزيدها فهماً، فاسمعْ إليه يقول: «الحلمُ وزيرُ العلْم، والرفقُ أبوه، والتَّواضعُ سرباله»[2].

* وفي ضد الحلْم يقولُ عن الحمق والأحمق: «هجْرُ الأحمقِ قربةٌ» وقال: «لا يتمُّ دين امرىءٍ حتّى يتمَّ عقْلُه»[3].

* ويصفُ العاقلَ والأحمق بدقّةٍ فيقول في هذه الحكمةِ النَّافعةِ الخلابةِ، والماتعةِ الجذّابة: «لسان العاقلِ من وراء قلبه، فإنْ عرَضَ له القول نظرَ، فإن كان له أنْ يقولَ قال، وإنْ كان عليه القولُ أمْسَك. ولسانُ الأحمق أمام قلبه، فإذا عرض له القول قال له أو عليه»[4].

* أثرتْ عن سيّدنا الحسنِ كثيرٌ من الأقوال النَّافعةِ، والحكم النَّاصعة، والكلمات الماتعةِ، والفوائد السَّديدة، والنَّصائح المفيدة، ومنها ما حُفِظَ عنه من ثمراتِ المواظبةِ على الصَّلوات في المسجدِ، والمداومةِ على الذّهاب إليه.

* حدّث عميرُ بنُ المأمون عن هذه الفائدةِ فقال: سمعتُ الحسنَ بنَ عليّ رضي الله عنه يقول: «مَنْ أدامَ الاختلاف إلى المسجدِ أصابَ ثماني خِصال: آيةً محكمة، وأخاً مستفاداً، وعلْماً مُستطرفاً، وحرمةً منتظرةً، وكلمةً تدلُّه على

---

(١) التذكرة الحمدونية (٨/ ١٦٠).

(٢) التذكرة الحمدونية (٣/ ٩٨).

(٣) زهر الأكم في الأمثال والحكم (٣/ ٦٥).

(٤) زهر الأكم (٣/ ١٢٧). ومن كلامه النَّافع في هٰذا المضمار قوله: «لا أدب لمن لا عقل له ولا مودة لمن لاهمّة له، ولا حياء لمن لا دينَ له، ورأس العَقْل معاشرة النّاس بالجميل، وبالعقل تُدركُ الدَّاران جميعاً، ومن حُرِمِ العقل حرمهما جميعاً» (نور الأبصار ص ١٣٤).

هدى، أو تردعه عن ردى، وترك الذّنوب حياء أو خشية»[1].

* فمن أقوالهِ في تحصيل العلْم وطلبه: «حُسْنُ السُّؤال نصفُ العِلْم».

* وقال: «مَنْ بدأ الكلام قبل السَّلام فلا تجيبوه».

* وسُئِلَ عن الصَّمْت فقال: «هو سترُ العيّ، وزين العرض، وفاعلهُ في راحةٍ، وجليسه في أمن».

* وكان رضي الله عنه يقولُ لبنيه وبني أخيه: «تعلّموا العلْم، فإنْ لم تستطيعوا حفظه، فاكتبوه وضعوه في بيوتكم».

* ويرى أنَّ هلاك النَّاس في أمور هي: «هلاك النّاس في ثلاث: في الكبْرِ، والحرصِ، والحسَدِ. فالكبرُ هلاك الدِّين وبه لُعِنَ إبليسُ، والحرصُ عدوُّ النَّفس وبه أُخرِجَ آدم من الجنَّة والحسدُ رائدُ السُّوء ومنه قَتَل قابيلُ هابيلُ»[2].

* وقيل له: «إنَّ أبا ذرّ يقول: الفقرُ أحبُّ إليّ من الغنى، والسّقمُ أحبُّ إليَّ من الصَّحَّة».

فقال: «رحم الله أبا ذرّ، أمّا أنا فأقولُ: مَن اتّكلَ على حسنِ اختيارِ الله له، لم يتمنَّ شيئاً، وهذا حدُّ الوقوف على الرّضى بما تصرَّفَ به القضاء»[3].

* ومن الآدابِ والحكم التي اقتُطِفت من خطبِ سيّدنا الحسنِ رضي الله عنه قوله: «إنَّ الحلمَ زينةٌ، والوفاءَ مروءةٌ، والعجلةَ سفَهٌ، والسَّفَهَ ضعفٌ، ومجالسةَ أهلِ الدّناءة شينٌ، ومخالطةَ الفسّاق ريبةٌ»[4].

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٣).

(٢) نور الأبصار (ص ١٣٤).

(٣) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٦٢)، والبداية والنّهاية (٨/ ٣٩)، ومرآة الجنان (١/ ١٢٣).

(٤) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٦٣). أقول: ما دمنا في معرض الحديث عن حُسْن الخُلُق، لا بأس أنْ نسوقَ صفات سيّدنا الحسن الخَلْقيّة والشَّخصيّة المقتبسة من وصفه الرّائع النَّفيس لجدّه =

* ولمحاسنِ الأخلاق وفضائلها نصيبٌ موفورٌ عند سيّدنا الحسنِ رضي الله عنه، وممّا حُفِظَ عنه في ذلك قوله: «عنوانُ الشرفِ حُسْنُ الخُلُق»(١).

* وإذا شاء أحدٌ أنْ يُوجزَ مكارمَ الأخلاقِ ويُجملها في صفات الرّجل الصَّديق، لا يجدُ أجملَ من كلماتِ سيّدنا الحسن رضي الله عنه في وصْفِ أخٍ مُصَافٍ له إذ قال: «إنّي أخبرُكم عن أخٍ لي كان من أعظم النَّاسِ في عيني، وكان عظيم ما عظّمه في عيني صِغر الدُّنيا في عينِهِ، كان خارجاً عن سُلطان بطنِهِ، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يستخفّ له عقله ولا رأيه، وكان خارجاً من سلطانِ الجهلة، فلا يمدّ يداً إلا على ثقةِ المنفعة، كان لا يسخطُ ولا يتبرّمُ، كان إذا جامع العلماء يكون على أن يسمعَ أحرص منه على أنْ يتكلّم، وكان إذا غُلِبَ على الكلام لم يُغْلَبْ على الصّمت كان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بذَّ القائلين، وكان لا يشارك في دعوى ولا يدخلُ في مراء، ولا يدلي بحجَّةٍ، حتى يُرى قاضياً يقول ما لا يفعلُ، ويفعلُ ما لا يقول تفضُّلاً وتكرّماً، كان لا يغفلُ عن إخوانه، ولا يستخصُّ بشيءٍ دونهم، كان لا يلوم أحداً فيما يقع الغدر بمثله، كان إذا ابتدأه أمران لا يرى أيّهما أقرب إلى الحقّ، نظرَ فيما هو أقرب إلى هواه فخالفه»(٢).

* وتحتفظُ السِّيرةُ الحسنيةُ بمواعظَ عظيمةِ النَّفْعِ ومن مواعظِ سيّدنا الحسن رضي الله عنه لإخوانه وطلابه أنّه كان يقول: «يا بن آدم، عفَّ عن محارمِ اللهِ تكنْ عابداً، وارْضَ بما قسم الله لك تكنْ غنياً، وأحسنْ جوار مَنْ جاورك تكن

= رسولِ الله ﷺ، فنقول: «كان سيّدنا الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما سيّداً وسيماً جميلاً مهيباً، أبيضَ اللون مشرّباً بحمرةٍ، أدعجَ العينَيْن سَهْلَ الخدَّينْ، كثَّ اللحية، كأنَّ عنقَهُ إبريقُ فضّة، عظيمَ الكراديس، بعيدَ مابين المكبين، ليس بالطَّويل ولا بالقصير، من أحسن النّاس وجهاً، جَعْدَ الشَّعر، حسنَ البدن. وكان ممَّا أنعمَ اللهُ عزَّ وجلَّ به على الحسن، وحَبَاه أنَّه كان أشبه الخَلْق بجدّه سيّد الخلْقِ، حبيبنا المُصطفىٰ المبعوث رحمة للعالمين ﷺ».

(١) سراج الملوك للطَّرطوشي (ص ٤٣٠).

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٣٩)، وعيون الأخبار (٢/ ٣٥٥)، ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٠).

مسلماً، وصاحب النَّاس بمثل ما تحبّ يصاحبوك بمثله تكن عادلاً، إنّه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً، ويبنون مشيداً، ويأمُلون بعيداً، أصبح جمعهم بوراً، وعملهم غروراً، ومساكنهم قبوراً. يا بن آدم إنّك لم تزلْ في هدمِ عمرك مذ سقطْتَ من بطنِ أمّك، فَجُدْ بما في يدكَ لما بين يديك فإنَّ المؤمنَ يتزوَّدُ والكافرُ يتمتّعُ». وكان يتلو هذه الآية بعدها: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[البقرة: ١٩٧](١).

* ولسيّدنا الحسن كلماتٌ سائراتٌ مَسْرىٰ الأمثال، وقد سجَّلَتْها له المصادرُ المتخصّصة في هذا الفنِّ الأدبيِّ الأنيق، ومنها ما ذكره أبو الفضْل الميدانيّ أنَّ الحسن رضي الله عنه قال: «سَفيهٌ لم يجِدْ مُسافِهاً» ثمَّ قال الميداني: «هذا المثَلُ يُروىٰ عن الحسنِ بن عليٍّ رضي الله عنهما، قاله لعمرو بنِ الزّبير حين شتَمه عمرو»(٢).

* وذكر الميداني أنَّ الحسنَ تمثَّل بهذا المثل: «ما أشبهَ الليلة بالبارحة» في بعضِ كلامه؛ وهو من بيتٍ أوّله:

كلُّهم أروغُ من ثَعْلَب ... ما أشْبَه الليلةَ بالبارحة

* وهذا المثَلُ يُضربُ في تساوي النَّاس في الشَّرِّ والخديعة، وإنّما خَصَّ البارحة لقربها منها، فكأنَّه قال: ما أشبه الليلة بالليلة، يعني أنَّهم في اللؤمِ من نصابٍ واحد، والباء في «بالبارحة» من صِلَةِ المعنى، كأنَّه في التَّقدير شيء يشبهُ الليلة بالبارحة، يقال: شبهته كذا، وبكذا(٣).

خلافةُ سيّدِنا الحَسَن رضي الله عنه:

* بعد أن حظيَ سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه بالشَّهادة في

---

(١) نور الأبصار (ص ١٣٤)!!!.

(٢) مجمع الأمثال (٢/ ١١٧)، وانظر: زهر الأكم (٣/ ١٦٨ و ١٦٩) وذكر ابنُ حبيب في «المنمق» (ص ٢٩٦) قصةً طريفةً في سبب هذا المثل، فليراجعها مَنْ أراد.

(٣) مجمع الأمثال (٣/ ٢٦٣).

رمضانَ سنة (٤٠ هـ)، بُويعَ ابنهُ الحسن رضي الله عنه بالخلافة.

* ولم يعيِّنْ سيّدنا عليٌّ أحداً للخلافةِ بعده، ولم يُشِرْ إلى أحدٍ، بل إنَّ النَّاسَ اختاروا سيّدنا الحسنَ بعد والده.

* أكَّد هذا عبد الله بنُ سبع عندما قالوا لسيّدنا عليّ بعد ضربةِ ابن ملجم له: يا أميرَ المؤمنين، استخلفْ علينا.

قال: لا، ولكنْ أترككُم ما ترككم إليه رسولُ الله ﷺ.

قالوا: فما تقولُ لربِّك إذا أتيتَهُ؟

قال: أقولُ إذا لقيتُه: «اللهم تركْتَني فيهم ما بدا لك، ثمَّ قبضتني إليك وأنتَ فيهم، فإن شئْتَ أصلحتهم، وإن شئتَ أفسدتهم».

* وفي روايةٍ قال: أقول: «اللهمّ استخلفتني فيهم ما بدا لكَ، ثمَّ قبضتني وتركتُكَ فيهم»[١].

* وفي روايةٍ أخرى قالوا: استخلفْ يا أميرَ المؤمنين.

فقال: «لا؛ ولكنْ أدعكم كما ترككم رسولُ الله ﷺ - يعني بغير استخلاف - فإنْ يُردِ اللهُ بكم خيراً يجمعكم على خيرِكم كما جمعكم على خيركم بعد رسولِ الله ﷺ»[٢].

* ولمَّا صَعِدَتْ روحُ سيّدنا عليٍّ إلى ربِّها راضيةً مرضيةً، صلّى عليه سيّدنا الحسن ابنه، ثمَّ تقدَّمَ إليه قيسُ بنُ سعد بن عبادة الأنصاريّ رضي الله عنهما فقال: «ابسطْ يدَكَ أبايعك على كتابِ اللهِ، وسنّةِ رسولِ الله ﷺ». فسكَتَ سيّدنا الحسَنُ رضي الله عنه، فبايعه النَّاس.

* قال زهيرُ بنُ الأقمر البكْريّ: «بينما الحسنُ يخطبُ بعدما قُتِلَ عليٌّ، إذ قام رجلٌ من الأزد، آدمَ، طوالٌ، فقال: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ واضعَه في

---

(١) انظر: الفتح الرباني (٢٣/ ١٦٣ و ١٦٤)، والبداية والنّهاية (٨/ ١٤) مع الجمع والتّصرّف اليسير.

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ١٤).

حبوتِه يقول: «مَنْ أحبّني فليحبّه، فليبلّغ الشّاهد الغائب» ولولا عزمةُ رسولِ الله ﷺ ما حدَّثتكُم»[1].

* وضُبِطَتْ مدّةُ الخُلفاءِ من سيّدنا أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى أوانِ صُلْح سيّدنا الحسن مع معاويةَ رضي الله عنهم ثلاثين سنةً تماماً، فلمّا كانت وفاةُ سيّدنا عليٍّ رضي الله عنه في شَهْرِ رمضانَ بالإجماع، كان تمام المدّة التي ذكرها رسولُ الله ﷺ للخلفاء، هي ما قام به سيّدنا الحسنُ من الخلافة.

* نقل ابنُ كثير رحمه الله عن ابنِ جرير قوله: «وفي هذه السَّنَةِ بُويع لمعاويةَ بإيلياء ـ يعني لمَّا مات عليّ ـ قامَ أهلُ الشَّام؛ فبايعوا معاويةَ على إمرةِ المؤمنين، لأنَّه لم يبقَ له عندهم منازع. فعند ذلك أقامَ أهلُ العراق الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما ليمانعوا به أهل الشَّام، فلم يتمَّ لهم ما أرادوه وما حاولوه، وإنَّما كان خذلانهم من قِبَلِ تدبيرهم وآرائِهم المختلفةِ المخالِفةِ لأمرائِهم، ولو كانوا يعملون؛ لعظَّمُوا ما أنعم الله به عليهم مِنْ مبايعتهم ابن بنت رسول الله ﷺ، وسيّد المسلمين، وأحد علماء الصحابة[2]، وحلمائهم، وذوي آرائهم، والدليل على أنّه أحدُ الخُلفاء الرّاشدين؛ الحديثُ الذي رواهُ سَفينةُ مولىٰ رسولِ الله ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخلافةُ بعدي ثلاثون سنةً، ثم تكونُ مُلكاً». وإنَّما كملتِ الثّلاثون بخلافةِ الحسنِ بن عليّ رضي الله عنهما، فإنّه نزلَ عن الخلافةِ لمعاويةَ في ربيعِ الأوّل من سنةِ إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موتِ رسولِ الله ﷺ، فإنَّه توفي في ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النّبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلّم تسليماً كثيراً»[3].

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٢٥٤)، والحديث أخرجه أحمد والحاكم، وإسناده صحيح.

(٢) ننصح للقارئ الكريم أنْ يقرأ موسوعتنا المباركة «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم». ففي هٰذه الموسوعة فوائد وبدائع مفيدة بإذن الله تعالىٰ، والكتاب مطبوع بدار اليمامة الغراء؛ بدمشق الفيحاء.

(٣) البداية والنّهاية (٨/ ١٦). وقال ابن كثير عن سيّدنا الحسن رضي الله عنه بخصوص هٰذا =

* وقد تضافرت جميعُ المصادر الحديثيةِ وما يندرجُ تحتها من هذا الأمرِ على أنَّ الخلافةَ ثلاثون سنةً، وأنَّ سيدنا الحسنَ قد أكملَ الخلافةَ إلى وقْتِ الصُّلح مع معاوية سنة (٤١ هـ).

* أخرج ابنُ حبَّان في صحيحه بسندٍ رفعه إلى عبد الوارث بن سعيد، عن سعيد بن جُمْهان عن سَفينةَ[١]، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «الخلافةُ ثلاثون سنةً، وسائرهم مُلوك، والخلفاءُ والملوك اثنا عشر»[٢].

= الأمر: «وقد مدحه رسول الله ﷺ علىٰ صنيعه هـٰذا، وهو تركه الدنيا الفانية، ورغبته في الآخرة الباقية، وحقنه دماء هـٰذه الأمة، فنزل عن الخلافة، وجعل الملك بيد معاوية حتىٰ تجتمع الكلمة علىٰ أمير واحد». (البداية والنهاية ٨/ ٦١).

(١) «سَفينة»: مولىٰ النَّبي الحبيبِ ﷺ، كان عَبْداً لأمّنا وسيّدتنا أمّ سلمة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها، فأعتقَتْه، وشرطتْ عليه خدمةَ النَّبيّ ﷺ ما عاشَ. له (١٤ حديثاً) وحديثُهُ مخرَّجٌ في الكتبُ سوىٰ صحيح البخاري.
حدَّث عنه ابناه: عمرو وعبدُ الرّحمن؛ والحسنُ البصري، وسعيدُ بنُ جُمْهان، ومحمدُ بنُ المنكدر، وأبو ريحانة عبدُ الله بنُ مطر، وسالمُ بنُ عبد الله، وصالحُ أبو الخليل وغيرهم.
وسَفينةُ لقبٌ له: واسمه مَهْران؛ وقيل: رومان؛ وقيل: قَيْس.
قيل: إنَّه حملَ مرَّةً متاعَ الرّفاق، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ما أنتَ إلاّ سفينة» فلزمه ذلك.
وعن سفينةَ: أنَّه ركبَ البحرَ، فانكسرَ بهم المركبُ، فألقاه البحرُ إلىٰ السَّاحل، فصادف الأسدَ، فقال: أيّها الأسدُ! أنا سفينةُ مولىٰ رسولِ الله ﷺ، فدلَّهُ الأسدُ علىٰ الطَّريق. قال: ثمّ همهم، فظننْتُ أنَّه يعني السَّلام.
توفي سفينةُ بعد سنةِ سبعين رضي الله عنه. (سير أعلام النّبلاء ٣/ ١٧٢ و ١٧٣).

(٢) أخرجه ابنُ حبّان في صحيحه برقم (٦٦٢٣) وهو حسَنٌ صحيح. وقال ابنُ حبّان عن هـٰذا الحديث: «هـٰذا خبرٌ أوهم مَنْ لم يُحكِمْ صناعة الحديث أنَّ آخرهُ ينقضُ أوّله، إذ المصطفىٰ ﷺ أخبرَ أنَّ الخلافة ثلاثون سنة، ثم قال: «وسائرهم ملوك» فجعل مَنْ تقلّد أمور المسلمين بعد ثلاثين سنة مُلوكاً كلّهم، ثم قال: «والخلفاءُ والملوكُ اثنا عشرَ»، فجعلَ الخلفاء والملوك اثني عشرَ فقط، فظاهر هـٰذه اللفظة ينقضُ أوّل الخبر. وليس بحمدِ الله ومَنِّه كذلك، ولا يجبُ أنْ يُجْعَلَ حرمان توفيق الإصابة دليلاً علىٰ بطلان الوارد من الأخبار، بل يجبُ أنْ يُطلبَ العِلْمُ من مظانّه، فيتفقّه في السُّنن حتىٰ يُعلمَ أنّ أخبار مَنْ عُصِمَ، ولم يكن ينطق عن الهوىٰ إنْ هو إلا =

* قال ابنُ حبّان في صحيحِهِ: «إنَّ المصطفىٰ ﷺ قبضَه الله إلى جنّته يوم الاثنين لِثنتي عشرة ليلةً خلَتْ من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة من الهجرة.

واستُخْلِفَ أبو بكر الصِّديق يوم الثُّلاثاء ثاني وفاته، وتوفي أبو بكر الصِّدِّيق ليلة الاثنين لسبع عشرة ليلةً مضَينَ من جمادىٰ الآخرة، وكانت خلافتُه سنتَيْن وثلاثةَ أشهر واثنين وعشرين يوماً.

ثمَّ استُخْلفَ عمرُ بنُ الخطَّاب يوم الثَّاني من موتِ أبي بكر الصِّدِّيق، ثم قُتِلَ عمرُ، وكانت خلافتُه عشْر سنين، وستّة أشهر وأربع ليال.

ثمَّ استُخلفَ عثمانُ بنُ عفَّان، ثم قُتِلَ عثمان، وكانت خلافته اثني عشرةَ سنة إلا اثنتي عشر يوماً.

ثمَّ استخلف عليُّ بنُ أبي طالب، وقُتِلَ، وكانت خلافته خمس سنين وثلاثة أشهر إلا أربعة عشر يوماً.

فلمَّا قُتِلَ عليُّ بنُ أبي طالب، وذلك يوم السَّابع عشر من رمضان سنة أربعين، بايعَ أهلُ الكوفةِ الحسنَ بنَ علي بالكوفة، وبايع أهلُ الشَّام معاوية بن أبي سفيان بإيلياء، ثمَّ سار معاويةُ يريدُ الكوفةَ، وسار إليه الحسنُ بن عليٍّ فالتقوا بناحية الأنبار، فاصطلحوا على كتاب بينهم بشروط فيه، وسلَّم الحسنُ الأمْرَ إلى معاوية، وذلك يومُ الاثنين لخمسِ ليال بقين من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وأربعين، وتسمّى هذه السَّنة سنَةَ الجماعة»[1].

* بايعَ جمعٌ غفيرٌ من أهلِ العراق سيّدنا الحسن، وبلغ عددُ مبايعيه أربعون ألف رجلٍ، وفي رواية: بايعه اثنان وأربعون ألفاً.

= وحيٌ يُوحىٰ، لا تتضادّ ولا تتهاتر، ولكنّ معنىٰ الخبر عندنا أنَّ مِنْ بعد الثلاثين سنة يجوزُ أنْ يُقال لهم: خلفاء أيضاً علىٰ سبيلِ الاضطرار، وإن كانوا ملوكاً علىٰ الحقيقةِ، وآخر الاثني عشر من الخلفاء كان عمر بن عبد العزيز».

(١) صحيح ابن حبان (ص ١١٤٨) طبعة بيت الأفكار الدولية، مع التصحيح.

* وتزاحفَ العراقيّون وقائدهُم سيّدنا الحسنُ، والشّاميون وقائدهم سيّدنا معاوية، وكان العراقيون بعد أنْ بايعوا الحسنَ رضي الله عنه قالوا له: سِرْ إلى هؤلاءِ القوم الذين عصوا الله ورسوله، وارتكبوا العظيم، وابتزّوا النّاس أمورهم، فإنّا نرجو أنْ يمكنَ اللهُ منهم[1].

* ولكنَّ سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه كان سيّداً حليماً، وتحقّقَت فيه نبوّةُ النّبيّ ﷺ، إذْ بعثَ إليه معاوية رضي الله عنه رجلَيْن من عنده وطلبَ أنْ يصالحه، فرغب الحسنُ في هذه الرَّغبةِ الطَّيِّبةِ وصَالَحه.

* ولنتفيأ الآن تحت ظلالِ الصَّحيح، ونستروح النَّفع والفائدة ممَّا جاء فيه، حيثُ أخرج البخاريُّ بسندٍ رفعه إلى أبي موسى البصريّ، قال: سمعتُ الحسَنَ البصريَّ يقولُ: «استقبلَ واللهِ الحسنُ بنُ عليٍّ معاويةَ بكتائب أمثال الجبال؛ فقال عمرو بن العاص: إنّي لأرىٰ كتائبَ لا تُوَلِّي حتّى تَقْتُلَ أقرانَها.

فقال له معاويةُ ـ وكان واللهِ خيرَ الرَّجُلَيْن ـ: أيْ عمرو، إنْ قَتَلَ هؤلاءِ هؤلاءِ، وهؤلاءِ هؤلاءِ مَنْ لي بأمور النَّاس، مَنْ لي بنسائِهم، مَنْ لي بضيعتهم؟

فبعث إليه رجلَيْن من قريش من بني عبد شمس ـ عبد الرَّحمن بن سَمُرةَ، وعبد الله بن عامر بن كريز ـ فقال: اذهبا إلى هذا الرّجلِ فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه.

فأتياه فدخلا عليه، فتكلّما، وقالا له، وطلَبا إليه.

فقال لهما الحسنُ بنُ عليّ: إنّا بنو عبد المطّلب قد أَصَبنا من هذا المال، وإنَّ هذه الأمَّةَ قد عاثَتْ في دمائها.

قالا: فإنَّه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلبُ إليك ويسألك.

قال: فمن لي بهذا؟

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٣).

قالا: نحنُ لكَ به.

فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحنُ لكَ به. فصَالحهُ»[1].

* لقد أخذَ سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه بيَدِ الأمّة كلِّها إلى شاطىءِ الأمْنِ والأمانِ، وخلَّصَها بحكمتِهِ وحلْمِهِ من لججِ الفِتَنِ وعواصفِها الهوجاء، واستطاعَ رضي الله عنه أن يبقيَ زمام الأمْر في يدِهِ، وأنْ يكبحَ جماحَ الفتنة بسيادتِهِ التي أخبرَ عنها الصَّادقُ المصدوقُ محمَّد ﷺ.

* ولا يحسبنَّ أحدٌ أنَّ سيّدنا الحسنَ رغبَ في صلح سيّدنا معاوية عن

---

(١) أخرجه البخاري بهٰذا اللفظ في الصّلح برقم (٢٧٠٤)، وأخرجه بمواضع أخرىٰ برقم (٣٦٢٩ و ٣٧٤٦ و ٧١٠٩). قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» في تعليقه في كتاب الفتن علىٰ قصّة الحديث رقم (٧١٠٩): «وفي هٰذه القصّة من الفوائد: عَلَمٌ من أعلام النّبوة؛ ومنقبةٌ للحسنِ بن عليّ فإنّه تركَ المُلك لاالقلَّة، ولا لذلّة، ولا لعلّة، بل لرغبته فيما عند اللهِ، لما رآه من حقْن دماءِ المسلمين، فراعىٰ أمْر الدِّين ومصلحة الأمّة.
وفيها ردٌّ علىٰ الخوارج الذين كانوا يكفّرون علياً ومن معه، ومعاوية ومن معه، بشهادة النّبيّ ﷺ للطّائفتين، بأنّهم من المسلمين.
وفيها فضيلة الإصلاح بين النّاس، ولاسيما في حَقْن دماء المسلمين، ودلالة علىٰ رأفةِ معاويةِ بالرّعية، وشفقته علىٰ المسلمين، وقوّة نظرهِ في تدبير الملك، ونظره في العواقب.
وفيها ولايةُ المفضولِ الخلافةَ مع وجودِ الأفضل، لأنَّ الحسنَ ومعاويةَ وليَ كلٌّ منهما الخلافةَ مع وجودِ الأفضل، لأنَّ الحسنَ ومعاويةَ وليَ كلٌّ منهما الخلافةَ وسعدُ بنُ أبي وقّاص، وسعيدُ بنُ زيد في الحياة، وهما بدريان.
وفيها جوازُ خلع الخليفة نفسه إذا رأىٰ في ذلك صلاحاً للمسلمين، والنّزول عن الوظائف الدّينية والدّنيوية بالمال، وجواز أخذ المال علىٰ ذلك، وإعطائه بعد استيفاء شرائطه بأنْ يكونَ المنزول له أولىٰ من النّازل، وأن يكون المبذول من مال الباذل، فإنْ كان في ولايةٍ عامةٍ وكان المبذول من بيت المال، اشترط أن تكون المصلحةُ في ذلك عامة.
وفيها: أنَّ السِّيادة لا تختصُّ بالأفضل، بل هو الرئيسُ علىٰ القوم والجمع سادة.
وفيها: إطلاقُ الابنِ علىٰ ابنِ البنت. والله أعلم. (فتح الباري ١٣/ ٧١ و ٧٢) بتصرف يسير جداً.

ضَعْفِ عزيمةٍ أو إرادة أو قوة، لا، وألف لا، كانت جماجمُ العربِ وقياداتُها الحكيمة بيده تحاربُ مَنْ يحارب، وتسالمُ مَنْ يسالم.

* وإذا استقرأْنا الحديثَ السَّابق ألفينا أنَّ سيّدنا الحسنَ كان من القوة على جانبٍ عظيم، وخافَه معاوية، وبادر إلى أنْ يفاوضَه، وأنْ تكونَ الوساطةُ بينهما رجلَيْن من خيار بني عبد شمس، وأنْ يوافقَ على ما طلبَ من شروطٍ ومن ضمانات، بل إنَّ سيدنا معاويةَ جاءته الأخبارُ عن طريقِ مخابراتِهِ أنَّ قوات الحسنِ تستميتُ في الدّفاع عنه مهما كانتِ النَّتيجةُ، وأنَّ بمقدور الحسَنِ أنْ يقاتلَ معاويةَ بِمَنْ معه، غير أنَّ هذا السَّيِّد الحليم كان ذا كراهية للفتنة، شديدَ المَقْتِ للفرقةِ، اختصَّه اللهُ بأنْ جمعَ الكلمةَ، ورأبَ صَدْعَ الأمة، وأغمدَ سَيفَ الفتنة، وأصلحَ به الأمر.

* «وهنا تظهرُ المعجزةُ النَّبويةُ، وتبلغُ قمّتها وذروتها تربية الحسن بنِ عليٍّ الإسلاميّة الرّبانيّة، منْ كونِ هذا الإمام الفذّ سيّداً جليلاً، وليستِ السِّيادة بالقَهْرِ وسفك الدّماء، أو إهدار الأموال والحرمات؛ بل السّيادة بصيانتها، وإزالة البغضاء، والشَّحناء، فصلحه وحقنه لدماء المسلمين بلغَ فيه ذروة السِّيادة، التي لا يستطيعُها مَنْ فكَّر بالقوة وهو يملكُ طرفاً منها، وقد صالح الحسنُ معاويةَ وحوله الألوف الألوف فيهم مَنْ هو طامعٌ مدسوسٌ، ولكنْ فيهم الكثير الكثير من المُخْلِصين الأوفياء، فما أراد أنْ تراقَ بسببِهِ قطرةُ دم، أو يخدش مسلم في هذا السَّبيل، وإنَّ الرّئاسة للأقوام إنْ لم تكنْ لصيانتها وحياطتها وحفظها وترقيتها، فهي نوعٌ من الطَّاغوت الأعمى، والتَّهوُّر الأحمق، والمغامرة، والمقامرة التي تجلبُ معها الدّمار والخراب، والإذلالَ واليبابَ، وينتهي أصحابها إلى غضبِ اللهِ، ولعنة التَّاريخ، وهل تدافع أمواج الدّماء البشرية عبر العصور والقرون إلا من الحرص على الرئاسةِ والسُّلطان والتَّكالب على الدنيا»[1]؟

---

(١) الدّوحة النّبويّة الشّريفة (ص ٩٣ و ٩٤).

* كان سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه يعي مقدار الكلمةِ النّبويَّةِ التي جعلته سيّداً مصلحاً، فأحلّها من نفسه مكاناً فسيحاً، وطالَعَها صباحَ مساء، ولم تغبْ عن وجدانه في يومٍ من الأيام، فهي كالدّواء للدّاء، وهي الشَّذا للزَّهر والورد، وظلّ يعملُ لها حتّى تحقَّقتِ المعجزةُ النَّبويَّةُ، ولم تُرَقْ في سببِهِ قطرةُ دم، وأكَّد صحَّة ما ذهبَ إليه أحدُ أسياد علماء التَّابعين هو عامرُ بنُ شراحيل الشَّعبيّ، إذ نقلَ خطبةً من خطبِ سيّدنا الحسن رضي الله عنه بيَّن خلالها أنَّه أرادَ الإصلاح ما استطاع، وحقنَ الدّماء ما دعا لله داع، قال الحسنُ: «إنَّ أكيسَ الكيس التّقى، وإنَّ أحمقَ الحمق الفجور، ألا وإنَّ هذه الأمورَ التي اختلفتُ فيها أنا ومعاويةُ، تركتُ لمعاويةَ إرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم»[1]، ثمَّ استغفر ونزلَ.

* وعلى الرّغم من هذا كلِّه، كان بعضُ النَّاس ممن لم تتوضح قضية الصُّلح في أذهانهم يرون أنَّ سيّدنا الحسنَ لم يكنْ مُصيباً في صلحه مع معاوية، فقد أتى مالك بنُ ضمرة سيّدنا الحسنَ وقال له: السَّلام عليك يا مُسَخِّمَ وجوه المؤمنين، فقال له سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه وأرضاه: «لا تقلْ هذا»، وذكرَ كلاماً يعتذرُ به.

* وقال له آخر: يا مذلّ المؤمنين!

فقال: لا، ولكنْ كرهتُ أنْ أقتلكم على المُلك»[2].

* وقيل: إنَّ الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما لمَّا قدم الكوفة، قال له أبو عامر سُفيانُ بنُ ليلىٰ: السَّلامُ عليكَ يا مذلَّ المؤمنين. فقال: «لا تقُلْ ذلك يا أبا عامر، لَسْتُ بمذلِّ المؤمنين، ولكنّي كرهتُ أنْ أقتلكم على المُلك»[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧١)؛ ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٦).
(٢) المصدر السَّابق عينه (٣/ ٢٧٢).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٥)؛ والبداية والنّهاية (٨/ ١٩).

* وحدَّثَ هلالُ بنُ خبّاب أنَّ سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه جمعَ رؤوس أهلِ العراق في قَصْر المدائن فقال: «يا أهلَ العراق، لو لم تذهل نفسي عنكم إلاّ لثلاث لذهلت: مقتلكم أبي؛ ومطعنكم بطني، واستلابكم ثقلي أو ردائي عن عاتقي، وإنّكم قد بايعتموني أنْ تسالموا مَنْ سالمتُ، وتحاربوا مَنْ حاربت، وإنّي قد بايعتُ معاويةَ فاسمعوا له وأطيعوا». ثمّ قام فدخلَ القَصْر؛ وأغلقَ البابَ دونهم(١).

* قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله موضّحاً عبقريّةَ الحسنِ رضي الله عنه وصحَّةَ ما ذهبَ إليه من أمْر الصُّلح وحقْن الدّماء: «ولمَّا تسلَّم معاويةُ البلادَ، ودخل الكوفة، وخطبَ بها؛ واجتمعتْ عليه الكلمةُ في سائرِ الأقاليم والآفاق، ورجعَ إليه قيسُ بنُ سعد أحد دهاةِ العرب وكان عَزَمَ على الشِّقاق، وحصل على بيعة معاوية عامئذ الإجماعُ والاتّفاقُ، ترحَّلَ الحسنُ بنُ عليٍّ ومعه أخوه الحُسين وبقية إخوتهم وابن عمّهم عبد الله بن جعفر من أرض العراق، إلى أرضِ المدينةِ النَّبويّة على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام، وجعل كلَّما مرَّ بحيٍّ من شيعتهم يبكّتونَهُ على ما صنعَ من نزولِهِ عن الأمْرِ لمعاويةَ، وهو في ذلك البارُّ الرَّاشدُ الممدوحُ، وليس يَجِدُ في صدرِهِ حرجاً ولا تلوّماً ولا ندماً، بل هو راضٍ بذلك مستبشرٌ به، وإن كان قد ساء هذا خلقاً من ذويه وأهله وشيعتهم، ولا سيما بعد ذلك بمدة وهلم جرّا إلىٰ يومنا هذا. والحقُّ في ذلك اتّباع السُّنَّة، ومدحه فيما

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٦). وقال أبو جميلة عن الحسنِ بنِ عليّ: أنّه بينما هو ساجدٌ، إذ وجَأَهُ إنسانٌ في وركه، فمرضَ منها شهرين، فلمّا برأ خطبَ النَّاس بعد قَتْل عليٍّ فقال: يا أيّها النَّاس، إنّما نحنُ أمراؤكم ضيفانكم، ونحنُ أهل البيت الذين قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[الأحزاب: ٣٣]، فكرّرها حتىٰ مابقي في المسجدِ أحدٌ إلا وهو يخنّ بكاء». (مختصر تاريخ دمشق ٦/ ٣٦).

وهناك رواية تقول بأنَّ أهلَ العراق قد اعتدوا علىٰ سرادقهِ، ونهبوا متاعه، حتّىٰ إنهم نازعوه بساطاً كان تحته، وطعنوه وجرحوه، فأيقن أنّه لا فائدة منهم، ولاهم ناصروه، فدفعه ذلك إلىٰ الصلح والله أعلم.

حقن به دماء الأمّة، كما مدحَهُ على ذلك رسولُ اللهِ ﷺ، ولله الحمد والمنّة»(١).

* ولقد صدق ابنُ كثير رحمه الله تعالى فيما ذهبَ إليهِ من رأيهِ في سيّدنا الحسنِ رضيَ الله عنه، فقد كان سيّدنا الحسنُ رجُلاً عاقلاً نبيهاً نبيلاً عارفاً بالنَّاس معرفةَ الخبير البصيرِ الذين حنّكتْهُ التَّجارِب وصقلَتْه الأيام، فلم يكن يركنُ إلى الكوفيين، ولا إلى مزاعِمِهم الضَّبابيةِ التي تنقشِعُ لأوّلِ حَدَثٍ، بل إنَّهُ لم يلتفتْ إلى ما كانوا يبعثونه إليه من رسائلَ ومكاتباتٍ تدعو إلى أحقّيتهِ في الخلافة، وعلم أنّهم أهلُ شقاقٍ وفتنةٍ وشرٍّ وبليةٍ، وأنَّ عدم الرّكون إليهم هو النّجاحُ والفلاحُ والنّجاةُ والسّلامةُ.

* عن يزيدَ بنِ الأصم قال: «جاءَتِ الحسنَ رضي الله عنه أضبارةٌ من كتبٍ، فقال: يا جاريةُ، هاتي المخضبَ، فصبَّ فيه ماءً، وألقى الكتبَ في الماء، فلم يفتحْ منها شيئاً، ولم ينظرْ إليها، فقلت: يا أبا محمّد؛ ممَّن هذه الكتب؟!

قال: من أهلِ العراق؛ من قومٍ لا يرجعون إلى حقٍّ، ولا يقْصرون عن باطل، أما أنّي لستُ أخشاهم على نفسي، ولكنّي أخشاهم على ذاك، وأشار إلى الحُسين رضي الله عنه»(٢).

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٨/ ١٩). وقال الشّاعر محمد إقبال مُوجزاً شخصيّة الحَسن:

في روضِ فاطمةٍ نَما غُصْنان لمْ ... ينجبْهما في النَّيراتِ سواها
فأميرُ قافلةِ الجهادِ وقطبُ دا ... ئرة الوئامِ والاتّحاد ابناها
حَسَنُ الذي صانَ الجماعةَ بعدما ... أمسىٰ تفرقها يحلُّ عُراها
تركَ الإمامةَ ثمَّ أصبح في الدّ ... يار إمامُ أُلْفَتِها وحسن عُلاها

(٢) مجمع الزّوائد (٦/ ٢٤٣) وقال الهيثميّ: «رواه الطّبرانيّ ورجاله رجال الصّحيح، غير عبد الله بن الحكم بن أبي زياد، وهو ثقة». ومعنىٰ قوله: «أضبارة»: حزمة من الصُّحف. و«المخضب»: الوعاء. وانظر: المعجم الكبير للطبرانيّ (٣/ ٧٠) حديث رقم (٢٦٩١).
وذكر المناوي في طبقاته أنَّ سيّدنا الحسنَ رضي الله عنه: «قال لرجلٍ ممّن يغلو فيهم: أحبونا=

الحسَنُ بَعْدَ الخلافَة :

* بعد أنْ هدأتِ الأمورُ والأحداثُ بين سيّدنا الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، ترك سيّدنا الحسنُ الكوفةَ، وعاد إلى المدينة المنوّرة ومعه أصحابه ومعه بنو هاشم.

* كان الهاشميّون كلُّهم أجمعون محلَّ الإجلال ومحلَّ المهابةِ في نفوسِ المسلمين عامتهم وخاصتهم، وعند سيّدنا معاوية أولاً، وكان رأسُ الهاشميين ورئيسُهم سيّدنا الحسنُ بنُ عليّ رضي الله عنهما الذي اتّخذ المدينةَ النَّبويّة مقرّاً له.

* ولا يخفى على المُطّلع أنّ المدينةَ المنوّرة عَصْرَ ذاك كان فيها ثُلّةٌ مباركةٌ ميمونةُ النَّقيبةِ من أسيادنا علماء الصَّحابة[1] رضي الله عنهم من كبار المهاجرين والأنصار، وكذلك كان فيها ثلةٌ من أبناء الصَّحابة، يُضافُ إليهم عددٌ من أعيان التّابعين ونبلائهم وكبرائهم، ممّن تربّى على معِيْنِ أصحابِ رسول الله ﷺ، وسار على نهجهم ومنهاجهم.

* ارتقت همَمُ هؤلاء عالياً، وحلّقُوا في سماء العلْم ونقل المعرفة والرّواية للنّاس الذين يَفِدون إلى المدينة المنوّرة لهذا الغرض النَّبيل، والهدف الجليل.

* تكوَّنَتْ مجموعةٌ طيّبةٌ من علماء الأمّة في المدينة المنوّرة، وتفرَّغَت للإقراء، وتعليم المتعلّمين كلَّ ما يتعلّقُ بأمور الدِّين من روايةٍ لأحاديث الصَّادق

= لله، فإن أطعنا الله فأحبّونا، وإنْ عصيناهُ فأبغضونا.
فقال الرَّجلُ: إنّكم قرابةُ رسولِ الله ﷺ وأهلُ بيتِه.
فقال: ويحكم، لو كان اللهُ نافعاً بقرابة منه بغير عملٍ لنفعَ بذلك مَنْ هو أقرب إليه منّا أباه وأمّه، ووالله إنّي لأخاف أنْ يضاعف للعاصي منّا العذاب ضعفَيْن، وأرجو الله أنْ يؤتيَ المحسن منّا أجره مرتين». (الطّبقات الكبرىٰ للمناوي ١/ ١٣٩).

(١) أشرنا إلىٰ هـٰذه النّاحية المهمّة في كتابنا علماء الصَّحابة رضي الله عنهم في معظم ثنايا الكتاب، وانظر علىٰ سبيل التّحديد (٩٧٥ و ٩٧٦).

المصدوق ﷺ، وتفسيرٍ للقرآن العظيم، وفَهْمٍ لأحكامهِ وعلومهِ، بالإضافة إلى تَعلُّم بعضِ المعارف الأخرى المتنوعة النَّافعة، وفي مقدمتها: علوم السِّيرة النَّبويّة، والمغازي، وأخبار الصَّحابة والأدب وما شابه ذلك.

* ظلَّت علاقةُ سيّدنا الحسن بمعاويةَ رضي الله عنهما علاقة احترام وتقدير، فمعاويةُ رضي الله عنه يعرف في قرارة نفسه المحلّ الأوفى والأرفع لسيّدنا الحسن في نفس جدّهِ الصَّادق المصدوق ﷺ، وكذلك في نفوس المؤمنين في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، لذا كان يجلُّه ويوقّره، وكان سيّدنا الحسنُ عليه سحائب الرضوان يَفِدُ على معاويةَ في خلافته، ويقبل عطيّته.

* حدَّث عبد الله بنُ بريدة: «أنَّ الحسنَ رضي الله عنه دخل على معاويةَ، فقال له معاوية: لأجيزنَّكَ بجائزة لم أجزْ بها أحداً، فأجازه بأربع مئة ألف، أو أربع مئة ألف ألف، فقبلها»[(١)].

* وفي رواية قال معاويةُ للحسن: «لأجيزنَّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك، ولا أجيز بها أحداً بعدك. فأعطاهُ أربع مئة ألف»[(٢)].

* وحدَّث أبو المنذر هشامُ بنُ محمّد عن أبيه قال: «أضاقَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، وكان عطاؤُهُ في كلِّ سنَةٍ مئة ألف، فحبسَها عنه معاوية في إحدى السّنين، فأضاقَ إضاقةً شديدة.

قال الحسنُ: فدعوتُ بدواةٍ لأكتبَ إلى معاويةَ لأذكّرهُ بنفسي، ثم أمسكتُ، فرأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام، فقال لي: كيف أنتَ يا حسَنُ؟

فقلتُ: بخيرٍ يا أبَه، وشكوتُ إليه تأخّر المالَ عنّي.

فقال: أدعوت بدواةٍ لتكتبَ إلى مخلوقٍ مثلك تذكّره ذلك؟

قلت: نعم يا رسولَ اللهِ، فكيفَ أصنعُ؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٩) وإسناده حسن.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٦).

قال: قل: اللهمّ اقذفْ في قلبي رجاءك، واقطعْ رجائي عمّن سواك، حتّى لا أرجو أحداً غيرك، اللهمّ وما ضعُفَت عنه قوتي، وقصّر عنه عملي، ولم تَنْتَهِ إليه رغبتي، ولم تبلغه مسألتي، ولم يَجْرِ على لساني ممّا أعطيت أحداً من الأوّلين والآخرين من اليقين، فخصّني به يا ربّ العالمين.

قال الحسن: فوالله ما ألححتُ به أسبوعاً، حتّى بعثَ إليّ معاويةُ بألف ألف وخمس مئة ألف؛ فقلتُ: الحمدُ للهِ الذي لا ينسى منْ ذكَرهُ ولا يخيبُ من دعاه.

فرأيتُ النَّبي ﷺ في المنام، فقال: يا حسن كيف أنتَ؟

فقلت: بخير يا رسولَ اللهِ، وحدثْتُه حديثي.

فقال: يا بني، هكذا مَنْ رجا الخالق، ولم يَرْجُ المخلوق»[1].

* وثبتَ في تواريخ سيّدنا الحسنِ ومعاويةَ وأعيان الصَّحابة وأهل البيت: أنَّ معاويةَ رضي الله عنه كان إذا تلقّى سيّدنا الحسنَ بنَ عليّ رضي الله عنهما أعظمه ورحَّبَ به وأكرمه وقال له: «مرحباً وأهلاً يا بن بنتِ رسول اللهِ ﷺ».

* روى الزّهريّ رحمه الله أنَّه لما قُتِلَ سيّدنا عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه، وجاء الحسن بنُ عليّ رضي الله عنهما إلى معاويةَ، فقال له معاوية: لو لم يكنْ لكَ فَضْلٌ على يزيدَ إلا أن أمّكَ امرأةٌ من قريش، وأمُّه امرأةٌ من كَلْب؛ لكان لك عليه فَضْلٌ، فكيف وأمُّك فاطمةُ بنتُ رسول الله ﷺ؟!.

* وكان معاويةُ يكنُّ الاحترام للحسن في حُضوره وفي غيابه، فقد صادفَ أنْ كان عبد الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما عند سيّدنا معاوية بالشّام، فجاء كتابٌ بموتِ الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما، فعزّاه معاويةُ بأحسن تعزيةٍ فقال: «لا يسوءك الله ولا يحزنك في الحسن بن عليّ».

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٦).

فقال ابنُ عبَّاس لمعاويةَ رضي الله عنهم: «لا يحزنني الله ولا يسوءني ما أبقى اللهُ أميرَ المؤمنين». فأعطاه معاوية ألف ألف درهم، وعروضاً وأشياء، وقال: خذْهَا فاقسمْها في أهلك، وبعثَ معاويةُ ابنه يزيد، فجلس بين يدي ابن عبّاس، وعزّاه بعبارةٍ فصيحةٍ وجيزة نستعرضها فيما يأتي.

* روى المدائني «أنَّ عبدَ الله بنَ عبّاس وفد إلى معاوية، فأمر معاويةُ ابنَه يزيدَ أنْ يأتيه، فيعزّيه في الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، فلمّا دخلَ على ابنِ عبّاس، رحَّبَ به وأكرمه، وجلس عنده بين يديه، فأراد ابنُ عبّاس أنْ يرفعَ مجلسَهُ فأبى، وقال: إنّما أجلسُ مجلسَ المعزّي لا المهنّي، ثمّ ذكرَ الحسنَ فقال: رحم اللهُ أبا محمّد أوسع الرّحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاك، وعوّضك من مصابكَ ما هو خيرٌ لك ثَواباً وخيرٌ عقبى»[1].

* وقد ثبتَ أنَّ سيّدنا معاويةَ كان يحذِّرُ بني أميّةَ من الإساءةِ إلى أهلِ عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ويقول: «إنَّ الحربَ أوّلُها نجوى، وأوسطُها شكوى، وآخرها بلوى»، وكان يطلبُ من محبّي سيّدنا عليّ ومنَ الوافدين عليه أنْ يتحدثوا عن مناقب عليّ وخصائله العلميّة وخصائله الأخلاقيّة وفضائله ومكانته[2]، وكان يسمعُ منهم وهو معجبٌ، وكثيراً ما كان يوافقهم ويترحّمُ عليه، ويعترفُ بأنّه ليس من طبقتِهِ، أو ليس ممّن يوازيه، وهذا ذروةُ الحقِّ من معاويةَ، رضي الله عن الصَّحابة أجمعين، وغفر لنا وتجاوز عنّا بفضلهِ وكرمهِ، ورحمنا برحمته التي وسعَتْ كُلَّ شيء.

* أمّا ما شُحِنَ في بطون بعضِ مصَادرِ الأدب وأمعائها، وأردان بعضِ كتب التَّاريخ، والمسامراتِ، والمجالسِ وأحشائها، من أنَّ ولاة بني أميّة قبل عمر بن عبد العزيز رحمه الله كانوا يشتمون سيّدنا عليّاً رضي الله عنه فهذه مسألةٌ فيها نظر، وتحتاجُ إلى رويّةٍ وفكْرةٍ وقَّادةٍ، على الرّغم من أنَّ ابن سعد قد ساق

---

(١) البداية والنّهاية (٨/ ٢٢٨).

(٢) انظر مثلا: حلية الأولياء (١/ ٨٤ و ٨٥).

القضيَّةَ في «طبقاته»[1]، وعنه نقل الذَّهبيُّ في «سِيَرِه»[2]، إلاّ أنّها تئنُّ من الأمراضِ والمشكلاتِ التي يعرفُها علماءُ هذا الشّأن.

* أخرج ابنُ سعد عن عليّ بن محمّد عن لوط بن يحيى الغامديّ قال: «كان الولاةُ من بني أميّة قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون عليّاً[3] رضي الله عنه، فلمّا ولي عمرُ أمسك عن ذلك، فقال كثيّر عزَّة الخُزَاعيّ:

وليتَ فلمْ تَشْتُمْ عليّاً ولم تُخفْ ... برِيّاً ولَمْ تَتْبَعْ مقَالَةَ مُجرِمِ
تكلَّمتَ بالحقِّ المُبينِ وإنّما ... تَبيَّنُ آياتِ الهُدىٰ بالتَّكلُّمِ
فَصَدَّقْتَ معروفَ الذي قُلْتَ بالذي ... فَعَلْتَ فأضحىٰ راضياً كلُّ مُسْلِمِ»[4]

* وهذه القضيةُ غدتْ عند بعض النّاس غذاءً شهياً ووجبةً دسمةً يقضمونها في مجالسِهم وسهراتهم وغدواتهم وروحاتهم، وغدا بعضُ النَّاس يعدُّ هذه القضيةَ مُسلَّمةً لاشِيَةَ فيها، وأنها إحدى المُسَلَّمات التي ينبغي أنْ تحلَّ في المحلِّ الأرفع، فلا مجال لمناقشتها، ولا مجال للبحثِ في أمرها وكشفِ هويتها وحقيقتها، كما غدا من يريد الحقَّ في هذا الموضوع يُتهم في قدراته، ويشكّ في عقله، ويُشار إليه ببنان الرّيبة وعدم الضَّبط.

* إنَّ التَّاريخَ المنطقيَّ، والتَّاريخَ السَّليمَ ينطقُ مؤكّداً بأنَّ سيّدنا معاوية كان يحترمُ سيّدنا عليّاً وأهله الأطهار الأخيار الأبرار، فطبيعةُ ذلك العصر لا تسمعُ أصلاً بمثل هذه المنطُوقاتِ والمفهوماتِ، وإذا رجعنا إلى الآثار التي رسمتْ

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٥/ ٣٩٣ و ٤٩٤).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧).
(٣) بدّل الذهبي في «السِّير» كلمة «علياً» بلفظ «رجلاً».
(٤) طبقات ابن سعد (٣٩٣ و ٤٩٤). وقد كشفَ طبيبو هٰذه الأخبار والآثار عن سقم هٰذا الخبر وعلله ومرضه فقالوا: «عليُّ بنُ محمد المدائنيّ فيه ضَعْفٌ. وشيخه لوطُ بنُ يحيىٰ. قال عنه يحيىٰ بنُ معين رحمه الله: ليس بثقة. وقال أبو حاتم: متروك الحديث. وقال الدّارقطني: أخباري ضعيف. ووصفه في الميزان: أخباري تالف لايُوثق به، وعامّة روايته عن الضُّعفاء والهلكى والمجاهيل».

عصْرَ سيّدنا معاوية؛ وبعده قليلاً لا نجدُ فيها هذه القضيّةَ التي وُلدَتْ فيما بعد، ورضعتْ من ثدي مَنْ صَاغوا التَّاريخ في عصر متأخّر عن عصر سيّدنا عليّ والحسن بأكثرَ من قرنَيْن من الزّمان.

* وقد أجمعتْ مصادرُ شتّى متفرقةَ الأهواء على أنَّ سيّدنا معاوية كان موصوفاً بالحلْمِ وكرمِ الأخلاق، وبالعقل والدِّين ومعرفة قَدْر سيّدنا عليّ رضي الله عنه، وإذعانه للحقّ إذا ما ذُكر عليّ، فكيف يسبُّه أو يأمر بِسَبّه وشتمه؟! إنَّ هذا لأمر عجاب.

* إنَّ هناك موانع وأسبابٌ وجيهةٌ تجعلُنا لا نصدّقُ هذه القضيةَ المستهلكةَ التي توردُ بصاحبها إلى التَّهلكةِ، وإلى البوارِ والخذلان، ومن هذه الأسباب:

أوّلاً: إنَّ سيِّدنا معاويةَ رضي الله عنه قد استتبَّ له الأمنُ وانفردَ بالخلافةِ بعد أنْ صالحَ سيّدنا الحسنَ بنَ عليّ رضي الله عنهما، واجتمعتْ عليه كلمةُ الأمّة، ودانَتْ له البلدان في طولِ البلادِ وعرضها، وشمالها وجنوبها؛ وشرقها وغربها، وغدا ملك البلاد وأمير المؤمنين، وبيده دفّةُ الخلافة، وحركةُ القوّة، فما الحكمةُ في أنْ يسبَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه؟ وهل يسبُّ القويُّ المنتصر غيره؟ بل هل يجرؤ أحدٌ أنْ ينالَ من سيّدنا عليّ أو الحسن أو رجل من رجال أهلِ البيت وهو يعلمُ أنَّ ذلك يغضبُ اللهَ ورسوله؟! إنَّ معاويةَ أرفعُ من ذلك، فهو محنّكٌ مدرَّبٌ حليمٌ يدركُ أنَّ السَّبَّ وهراءَ الكلام يُولّدُ الحقدَ في نفوس العامّة، وهو يريدُ تهدئةَ النّاس، ومسايسةَ أمورهم لتستقيمَ له الخلافة.

ثانياً: من الثَّابت قطعاً أنَّ أبناء سيّدنا عليٍّ وخاصة الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين؛ كان بينهم وبين معاوية مودّة وتعاون وتقارب وزيارة، وثبت أنَّ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما وفدا على معاوية رضي الله عنهما فأجازهما إجازةً ماليةً نادرة. قال ابنُ كثير: «فلمَّا استقرَّت الخلافةُ لمعاويةَ كان الحسينُ يتردَّدُ مع أخيه الحسن فيكرمهما معاوية إكراماً زائداً، ويقولُ لهما: مرحباً، وأهلاً، ويعطيهما عطاءً جزيلاً، وقد أطلقَ لهما في يومٍ واحدٍ مئتي ألف، وقال: خُذَاها وأنا ابنُ هند، واللهِ لا يعطيكماها أحدٌ قبلي ولا بعدي.

فقال الحُسينُ: واللهِ لن تعطيَ أنتَ، ولا أحدٌ قبلكَ، ولا بعدكَ رجلاً أفضل منّا». ودخل الحسنُ رضي الله عنه مرّةً على معاوية فقال له: مرحباً وأهلاً يا بن بنتِ رسولِ الله ﷺ، وأمر له بثلاث مئة ألف[1]. فكيف نصدّقُ أنَّ معاويةَ يعطي أولاد عليّ ثم يشتمُه؟ بل كيف تحصلُ هذه المودّة الحَسَنيّةُ الحُسنيّةُ مع معاوية إذا كانت الشَّتائم والمُهاترات تملأُ الأفواهَ والأسماعَ، وتعتلي عيدانَ المنابر، وتتوسَّط مجالسَ القوم؟! زِدْ على ذلك أنَّ المجتمعَ في قاعدته العريضة وعامته المديدة كان متقيّداً بأحكام الشَّرع مقيَّداً بآدابه، فلا هُجْرَ في القول، ولا بذاءةَ في اللفظ، ولا طَعْنَ، ولا لمزَ، ولا لعْنَ، أو شتائم للأحياء، وقد نهى النَّبيُّ ﷺ عن سبِّ موتى المشركين، فكيف بسبِّ أولياء الله الصَّالحين، وعباده المتّقين؟!!.

ثالثاً: إنَّ سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه كان رجُلاً ذكيّاً يعرفُ مالَه وما عليهِ، وهذا ما أكّدته المصادر بأنَّه قيل لمعاوية: أيّكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟

قال: كُنّاأكثرَ أشرافاً؛ وكانوا هم أشرفُ، فيهم واحدٌ لم يكن في بني عبد مناف مثل هاشم، فلمّا هلك كنّا أكثر عدداً وأكثر أشرافاً، وكان فيهم عبد المطّلب لم يكن فينا مثله، فلمّا ماتَ صِرْنا أكثرَ عدداً، وأكثرَ أشرافاً، ولم يكن فيهم واحدٌ كواحدنا، فلم يكن إلا كقرارِ العين حتّى قالوا: منّا نبيٌّ؛ فجاء نبيٌّ لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثله، محمّد ﷺ، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشّرف»[2]؟

فهل بعد هذا الاعتراف لبني هاشم يسبُّ معاوية عليّاً؟! بل هل يأمرُ معاوية غيره بسبّه؟! لا؛ وألف لا، كان معاوية معترفاً بفضْلِ رجالِ أهل البيت، ومقرّاً بفضْل عليّ وسبقه إلى الإسلام، وكان يقولُ عن الهاشميين: «أَبَتْ بنو هاشم إلا

---

(١) البداية والنّهاية (٨/ ١٣٧ و ١٥٠)، ونساء أهل البيت (ص ٩) ط٦ ـ ٢٠٠٥ م، وتاريخ الإسلام للذّهبيّ (عهد معاوية ص ٣٨).
(٢) البداية والنّهاية (١/ ١٣٨).

كرماً». وورد أنَّ أبا مسلم الخولانيّ وجماعة دخلُوا على معاويةَ، فقالوا له: أنت تنازعُ عليّاً أم أنتَ مثله؟

فقال: والله إنّي لأعلمُ أنّه خيرٌ منّي وأفضلُ، وأحقّ بالأمر منّي...». وقال الإمامُ أحمدُ رحمه الله: «الخلفاء: أبو بكر، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ. فقيل له: فمعاويةُ. قال: لم يكن أحد أحقّ بالخلافة في زمان عليّ من عليّ، ورحم اللهُ معاوية»[1]. ولمّا جاء خبرُ استشهاد سيّدنا عليّ رضي الله عنه إلى سيّدنا معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلْتَه؟ فقال: «ويحكِ إنّك لا تدرين ما فَقَدَ النَّاسُ من الفَضْل والفقْه والعِلْم»[2]، فهل يصحُّ في الأذهان شيءٌ من هذه القضيّة التي ظاهرها وباطنُها لصالح سيّدنا عليّ من حيثُ تفوقه على غيرِه بكريمِ المناقبِ وجليل الشَّمائل وعظيم المكانة؟ وهل نتوقّع أنْ يسبَّ معاوية علياً بعد أنْ قالَ فيه ما قال، واعترفَ بأفضليته عليه؟!

رابعاً: لم يُعْرفْ أنَّ معاويةَ رضي الله عنه سَبَّ عليّاً رضي الله عنه أثناء وقوع الحرب بينهما، فهل يتوقَّعُ عاقلٌ أنْ يعمد معاوية إلى السَّبِّ بعد استشهاد سيّدنا عليّ وهو يظنُّ أنَّ الميدانَ قد خلا من فارسِهِ؟! هذا بعيدٌ جدّاً، ولا يقبله مَنْ كان له أدنى دراية بمقامِ الرَّجُلين رضي الله عنهما؛ ثمَّ نحنُ نعلمُ بما لا شكّ فيه أنَّ سيّدنا عليّاً ومعاويةَ رضي الله عنهما اقتتلا، وأنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تَقْتَتِلَ فئتان عظيمتان، وتكونَ بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، ودعواهما واحدة»[3]. وهذا من المعجزاتِ النَّبويّةِ ودلائلها، وقد جرىٰ هذا في العَصْر الأوَّل. وقد بيَّنَ الإمامُ النَّوويُّ رحمه الله هذا الأمرَ الذي جرىٰ بين عليّ ومعاويةَ رضي الله عنهما فقال: «واعلم أنَّ الدّماء التي جَرَتْ بين الصَّحابة رضي الله عنهم ليستْ بداخلة في هذا الوعيد ـ أي القاتل والمقتول في النَّار ـ،

---

(١) البداية والنّهاية (١/ ١٢٩).
(٢) البداية والنّهاية (١/ ١٣٠)!؟!.
(٣) أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٨٨٨/ ١٥٧).

ومذهب أهل السُّنَّةِ والحقّ؛ إحسانُ الظَّنّ بهم، والإمساكُ عمَّا شَجَرَ بينهم، وتأويلُ قتالهم، وأنَّهم مجتهدون متأوّلون لم يقصدوا معصيةً، ولا محض الدّنيا، بل اعتقد كلُّ فريقٍ أنه المحقّ، ومخالفُه باغ، فوجَبَ عليه قتاله ليرجعَ إلى أمْرِ اللهِ، وكان بعضُهم مصيباً، وبعضهم مخطئاً معذوراً في الخطأ، لأنَّه لاجتهادٍ، والمجتهدُ إذا أخطا لا إثْمَ عليه، وكان عليٌّ رضي الله عنه هو المحقُّ المصيبُ في تلك الحروب، هذا مذهبُ أهل السُّنَّة، وكانت القضايا مشتبهة، حتّى إنّ جماعةً من الصَّحابةِ تحيّروا فيها، فاعتزلُوا الطَّائفتَيْن، ولم يقاتلوا، ولم يتيقّنوا الصَّواب، ثم تأخروا عن مساعدته منهم»[1].

خامساً: هَبْ أنّ سيّدنا معاويةَ شتمَ عليّاً رضي الله عنه، ماذا نجني نحنُ الآن؟! وما الفائدةُ التي نحصلُ عليها إذا سلَّمْنَا بصحّةِ هذا الأمر؟ ونحنُ نعرفُ معرفةَ الموقنين أنَّ سيّدنا علياً أفضلُ من معاويةَ، وأعلى نَسَباً، وهو من العشَرةِ المشهود لهم بالجنَّة، وله فضائلُ لا تُحصر، فهل نزيدُ من رصيده شيئاً؟! سُئِل الإمامُ أحمدُ وجماعة من السَّلف عمَّا جرىٰ بين سيّدنا عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما فقرؤوا كلّهم أجمعون: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٣٤]. وقال عمر بنُ عبد العزيز رحمه الله: «رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في المنام، وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلَّمْتُ عليه، وجلستُ، فبينما أنا جالسٌ إذا أُتيَ بعليٍّ ومعاويةَ، فأُدْخِلا بيتاً، وأُجيفَ البابُ، وأنا أنظرُ، فما كان بأسرعَ مِنْ أَنْ خرجَ عليٌّ وهو يقولُ: قُضي لي وربّ الكعبة، ثمّ ما كان بأسرع من أن خرجَ معاويةُ وهو يقولُ: غفرَ لي وربّ الكعبة»[2].

* وروى ابنُ عساكر عن أبي زُرعة الرَّازيّ أنَّه قال: قال لي رجلٌ: إنّي أبغضُ معاوية.

فقال له: ولِمَ؟

---

(١) المنهاج (ص ١٩٩٨).

(٢) البداية والنِّهاية (١/ ١٣٠). وانظر مثل هٰذا بتوسّع في كتابنا «علماء الصّحابة» (ص ٦٨٢).

قال: لأنّه قاتلَ عليّاً.

فقال له أبو زرعة: ويحكَ إنَّ ربَّ معاويةَ رحيمٌ، وخصمُ معاويةَ خصمٌ كريم، فايش دخولك أنتَ بينهما رضي الله عنهما»[1]؟.

* إنَّ أمثالَ هذه القضايا التي جعلَ المغرضون منها مادةً دسمةً يشتمون من خلالها كبار الصَّحابة وأعلامَهم وعلماءهم وساداتهم، وهم يزعُمون أنَّهم يرضون رجال أهل البيت وخصوصاً سيّدنا عليّ وأهله، وما علم هؤلاء أنّهم هم الأخسرون أعمالًا، إذ ضَلَّ سعيهم فيما ذهبوا إليه؛ وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً؟!

* وقد لفتَ انتباهي ـ وأنا أسرِّحُ النَّظر في بعض كتب الأدبِ ومصادره ـ قصصٌ مذهلةٌ في شتائم كبار الصَّحابة، وأخبارٌ يخجلُ منها البلهاء، فكيف بالعُقلاء؟ ومن أمثلةِ ذلك ما أورده عليُّ بنُ الحسن الباخرزيّ في كتابه «دمية القَصْر وعصرة أهل العَصْر» في ترجمة عليِّ بن محمّد الجَزريّ حيث قال ما نصُّه ورسمه: «عليُّ بنُ محمَّد الجَزَريّ، وقعَ من بعضِ الجزائرِ، إلى باخرز، فارتبطَ بها للتّأديب، وبقي بين كبرائها موفور النَّصيب، وبلغَ من الغلوّ في التَّشيُّع مبلغاً حقّره حتّى ادّرع الليل، وشمَّرَ الذَّيل، وشدَّ الأقْتَاد، وطوى البلاد، وأقام في مجاورة قَبْر معاوية بالشَّام سنةً جرداء، يطوفُ ببنيانه، ويتبرّكُ باستلام أركانه، ووراء تملُّقه ذلك دفينُ أمرٍ، وخَلَلَ رمادِهِ وميضُ جمْرٍ، ولم يزلْ ينتهزُ الفرصةَ حتّى خلا وجهه يوماً من الأيّام، وانفضَّ عنه بعضٌ من أولئك الأقوام، فنفضَ على القبر عِيَابَه، وأسَالَ فوقه مِرزابه، وألقى به جنينه، وخلَطَ بذي بطنِهِ طينه، وخرجَ منها خائفاً يترقّب، قال ربّ نجني من القوم الظالمين!!! وفي هذا المعنى يقول:

رأيتُ بني الطَّوامثَ والزَّواني بِمَقْتٍ ينظرونَ إليَّ شَزْرا

(١) البداية والنِّهاية (١/ ١٣٠)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٢٩)، وعلماء الصَّحابة رضي الله عنهم (ص ٦٨٢).

لأنّــي بــالشَّــآمِ أقمــتُ حَــوْلاً   على قبرِ ابنِ هندٍ كنْتُ أَخْرى»[1]

* وقد أوردَ هذه التّرجمةَ لهذا الشّاعر الأحمقَ الفاسق خليلُ بنُ أيبك الصّفديّ في كتابه «تمام المُتون في شرح رسالة ابن زيدون»[2]، وقال: وقلتُ أنا ردّاً على هذا الشّاعر الأحمق أخزاه الله تعالى:

أَتَحْسَــبُ أنَّ ذا يُــرضــي عَليّــاً   عَلَيكَ وقد خَرِيتَ جُزيتَ شَرّا
وكيـفَ يكـونُ وجهُـكَ يـومَ تـأتـي   غــداً ويقــالُ هــذا وجْــهُ خَــرّا
ولكــنْ كــانَ هــذا نَقْــص عَقْــلٍ   وديــنِ مَــنْ تحــرّى مــا تَجــرّا[3]

* إنَّ مثل هذه الأمور لا تزيد الحقّ حرفاً، ولا تنقص من الواقع نقطةً واحدةً، وإنّما تزيدُ الشَّرخَ بين فئات الناس، وتزرعُ الوحشَةَ في قلوبهم، وتخلّفُ البغضاء في النّفوس، في حين أنَّ رجالَ أهل البيت لا يقرّون أمثال هذه المهازل التي تضعُ من قيمةِ الإنسان، فالمحبُّ الحقيقي لسادتنا أهل البيتِ لا يجتمعُ بقلبه كُره أحد مع محبّتهم إكراماً لهم، وصوناً لمكانتهم الشَّريفة المنيفة من رسولِ الله ﷺ، وإذا ثبتَ أنَّ أحداً ينَالُ منهم ندعو له بالإصلاح، ونبيّنُ له غَلَطَه في أهل البيت أهل الفلاح والصَّلاح والنَّجاح رضي الله عنهم أجمعين.

* لقد كان معاويةُ رضي الله عنه بريئاً ممّا نُسِبَ إليه من مثل هذه التَّفاهات الصِّبيانيّةِ، بل ثبتَ أنَّه رضي الله عنه كان يجلُّ كلَّ أحدٍ يمتُّ إلى بني هاشم بشيء ولو في الشَّبَه، فقد بلغ معاويةُ رضي الله عنه أنَّ كابسَ بنَ ربيعة يشبه رسول الله ﷺ، فكان إذا دخل عليه كابس يقوم عن سريره، ويتلقّاه ويقبّله بين عينَيْه[4].

---

(١) دمية القصر (١/ ١٦٤ و ١٦٥) للباخرزي ـ تحقيق ودراسة د. محمد التونجي ـ مؤسسة دار الحياة ـ ١٩٧١ م. وقوله: «قبر ابن هند»: يعني سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.
(٢) تمام المتون (ص ٢٥٢).
(٣) تمام المتون (ص ٢٥٢ و ٢٥٣).
(٤) نور الأبصار (ص ١٣٩).

* وترجم ابنُ عساكر لكابس هذا فقال: «كابسُ بنُ ربيعة بن مالك السَّامي البصريّ، كان يُشَبَّه بالنَّبيّ ﷺ استقدمه معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنهما فنظر إليه»[1].

* قال عبّادُ بنُ منصور: «كان رجلٌ منّا يُقال له: كابسُ بنُ ربيعة يُشَبَّه بالنَّبيّ ﷺ، فقال قومٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ: ما رأينا بعد رسول الله ﷺ أشبه به منه، إلا أنَّ رسولَ الله ﷺ كان أحدَّ حسناً منه. يعني أرقّ منه رقَّةَ حُسن»[2].

* وما أجمل أنْ نقرأ هذه الأبيات اللطيفة المنسوبة إلى أبي الحسن بن جُبير رحمه الله حيث قال في أهلِ البيتِ وفي الصَّحابة أجمعين:

أحبُّ النَّبيَّ المُصطفى وابنَ عمِّه ... علياً وسبطَيْه وفاطمةَ الزَّهْرا
همو أهل بيتٍ أذهبَ الرجْسَ عنهم ... وأطلعَهم أُفقُ الهدىٰ أنجماً زُهرا
موالاتهم فرضٌ على كلِّ مسلمٍ ... وحبّهمو أسنى الذَّخائر للأخرىٰ
وما أنا للصَّحبِ الكرامِ بمبغضٍ ... فإنّي أرىٰ البغضاء في حقّهم كُفْرا
همو جاهدوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ ... وهم نصروا دِينَ الهدى بالظُّبا نَصْرا
عليهم سلامُ اللهِ ما دام ذكْرهم ... لدىٰ الملأ الأعلى وأكرمْ بهِ ذِكْرا

* وللشَّافعي رحمه الله:

آلُ النَّبيِّ ذَريعتي ... وهمو إليهِ وسيلتي
أرجو بهم أُعْطىٰ غداً ... بيدي اليمين صحيفتي[3]

رحلة السُّعداء:

* بقي سيّدنا الحسنُ رضي الله عنه يتصدَّرُ المجالسَ والقلوبَ في المدينةِ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢١/١٢٨).
(٢) المصدر السابق عينه.
(٣) نور الأبصار (ص ١٢٨).

المنورة، إلى أنْ وافته المنيةُ بُعيد سنة خمسين هجرية وعمرهُ لم يصلْ إلى خمسين عاماً.

* وتزعُمُ بعضُ الرّوايات زعماً فيه شيءٍ من الاضطراب والاختلاق والظّنون أنَّ سيّدنا الحسنَ رضوان الله عليه مات مسموماً بفعل زوجته جعدةَ بنتِ الأشعث بإدارة خفيّةٍ من معاويةَ وابنه يزيد، وحكوا في ذلك حكايات قريبة من ليالي ألف ليلة وليلة، وهاهنا تصبحُ الحكايةُ الحسنيّة الجعدية اليزيديّة الليلة الثّانية بعد الألف إنْ جاز لنا تعبير ذلك.

* وزعموا أنَّ سيّدنا الحسنَ قد سُقي السُّمّ مراراً في حياتهِ الميمونةِ، وعندما كانت المرّة الأخيرة جاء الطّبيبُ فرأى حاله وقال لأهله: «هذا رجلٌ قد قطع السُّمّ أمعاءه»[1].

* قال عبدُ الله بنُ حُسين: «كان الحسنُ بنُ عليّ رجلاً كثير نكاح النّساء، وكنَّ قلّما يحظَيْنَ عنده، وكان قَلَّ امرأة تزوجها إلا أحبَّتْه وضنّت به، فيقال: إنّه كان سُقي، ثم أفتلت ثم سُقي فأفلت، ثمّ كانت الآخرة توفي فيها، فلمّا حضرته الوفاةُ قال الطَّبيب وهو يختلفُ إليه: هذا رجلٌ قد قطع السّم أمعاءه. فقال الحُسين: يا أبا محمّد خبّرني مَنْ سقاك؟ قال: ولمَ يا أخي؟

قال: أقتلُه ـ واللهِ ـ قبل أنْ أدفنك، أو لا أقدر عليه؟ أو يكون بأرض أتكلف الشّخوص إليه؟

فقال: يا أخي، إنّما هذه الدّنيا ليال فانية، دَعْهُ حتّى ألتقي أنا وهو عند الله.

فأبى أنْ يسمِّيَه. قال عبد الله بنُ حُسين: فقد سمعتُ بعضَ مَنْ يقول: كان معاويةُ قد تلطَّف لبعض خدمه أن يسقيه سماً»[2]!!؟!!.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧٤).

(٢) مختصر تاريخ دمشق / ٧/ ٣٩)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧٤). أقول: «إنَّ أمثالَ هـٰذه=

* وعن أمّ موسى: «أنَّ جعدةَ بنتَ الأشعث بن قيس سقتِ الحسنَ السُّم، فاشتكى منه شكاةً، فكان يوضع تحته طست، وترفع أخرى نحواً من أربعين يوماً»(١).

* وقال ابنُ جعدية: «كانت جعدةُ بنتُ الأشعث تحت الحسن بن علي، فدسّ إليها يزيد أنْ سُمِّي حَسَناً، إنّي زوجك ففعلت، فلما مات الحسنُ، بعثت جعدة إلى يزيدَ تسأله الوفاء بما وعدَها فقال: إنّا واللهِ لم نرضَكِ للحسنِ أفنرضاك لأنفسنا؟ فقال كثير ـ ويروى للنّجاشي ـ:

يا جَعْدُ بكّيهِ ولا تسأمي ... بكاء حقّ ليس بالباطل
لن تستري البيتَ على مثلهِ ... في النّاس من حافٍ ولا ناعل
أعني الذي أسلَمَه أهلُه ... للزّمنِ المستخرجِ الماحلِ
كان إذا شبَّتْ له نارهُ ... يرفعُها بالنَّسب الماثل
كيما يراها بائسٌ مُرملٌ ... أو فردُ قومٍ ليس بالآهل»(٢)

= المقولات، جعلت كثيراً ممن يكتبُ في تاريخ ذلك العصر أنْ يتغنّىٰ بها، ويعتبرها معلقةً مذهّبةً ينشِدُها متىٰ شاء، وأنىٰ شاء، وكيف شاء، فاقرأ إنْ شئتَ قول أحد المؤرخين المعاصرين حيث يقول: «... وكان هدفُ معاوية الأساسي العمل علىٰ منع الاتّصال بين القاعدة والقيادة، وذلك حتّىٰ يتمكّن من ضرب الطّرفين كلٌّ علىٰ حِدة، ولقد كان وجودُ الحسَنِ في المدينة مصدرَ قلقٍ لمعاوية، فهو منافسه الأوّل علىٰ الخلافة كما أنَّ بقاءه حياً كان يتعارضُ مع مخططاته الرّامية إلىٰ تحويل الخلافة إلىٰ ملك وراثي في البيت الأموي...».
(مواقفُ المعارضة ص ١١١ نقلا عن تاريخ العرب والإسلام ص ١٣٩ لسهيل زكّار).

(١) المصدران السابقان عينهما، وانظر البداية والنهاية (٨/ ٤٣).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٩ و ٤٠)، والبداية والنّهاية (٨/ ٤٣). ونستطيع أنْ نقولَ تعقيباً علىٰ هٰذا الخبر: «هل كان سيّدنا معاوية رضي الله عنه أو يزيد ابنه ساذجان إلىٰ حدِّ البَلَه، ليطلعا امرأة من نساء بني هاشم علىٰ أمر خطير، ومن ثمَّ يأمراها بأنْ تدسَّ السُّم للحسن، ولو كشفتْ هٰذه المرأةُ الأمر ـ إن كان حقيقة ـ ما موقف معاوية من أبناء الهاشميين؟ بل ما موقف معاوية ويزيد أمام الأمة كلّها؟ إنَّ هٰذه القصةَ محبوكةٌ ولكنْ بصورةٍ غير ماهرة، ولو كانت صحيحةً لكان السّم قد أثرَّ في سيّدنا الحسن منذ تركَ الخلافة له بعجرها وبجرها وحلوها ومرّها=

* هذه بعضُ الرّوايات التي ذُكِرَتْ في وفاة سيّدنا الحسنِ بنِ عليّ رضي الله عنهما، وقد تلقَّفَها كثيرون دون أنْ يمحّصوا فيها، أو ينظروا إلى أسانيدها التي أجمع عُلماء الإسلام على أنَّ مَنْ رووها من الكذّابين الوضّاعين الذين تخصَّصُوا في فنِّ الدّسِّ والكيدِ والفتنة.

* وقد تصدّى أهلُ التَّحقيق والتّوثيق، لكشف أهل التَّلفيق، ونبذهم على قارعةِ الطَّريق، إذ إنَّ مقام سيّدنا الحسن وهيبته فوق هذه الأمور، وفوق أعمالِ يزيدَ ومَنْ حوله، بل إنَّ إدخالَ يزيد في هذا الموضوع مسروقٌ من ليالي ألف ليلة وليلة، وقد علَّق ابنُ كثير رحمه الله على هذه القصَّة الهشَّة بقوله: «وعندي أنَّ هذا ليس بصحيح ـ يعني عن يزيد ـ، وعدم صحّته عن أبيه معاوية بطريقِ الأوْلىٰ والأحرىٰ»[1].

* بينما قال الذَّهبيُّ عن قضية سمّ الحسنِ رضي الله عنه: «وقالت طائفةٌ: كان ذلك بتدسيس معاوية إليها، وبذل لها على ذلك، وكان لها ضرائر»، ثم علَّق على هذا الخبر فقال: «قلت: هذا شيءٌ لا يصحّ، فمن الذي اطَّلَعَ عليه»[2].

* إنَّ منطق الأحداث ينكرُ هذا الأمر، فمعاويةُ رضي الله عنه قد ترأَّسَ أمْرَ الأمّة برضا الحسنِ وموافقته، وأمر السّم من الأمور التي لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ، فلم يثبتْ ذلك في بيّنةٍ شرعيةٍ، ولو كان ذلك الأمر صحيحاً لرأينا أثره في كلام الحُسين رضي الله عنه، أو في كلام أحدٍ من أبناء الحسنِ أو أهل البيتِ رضي الله عنهم.

* كما أنَّ من منطقِ الأحداث وواقعها ما يجعلُنا نقفُ بحذر أمام هذا

= وزهدَ في دنيا النّاس وزخرفها، وركنَ إلىٰ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ.».

(١) البداية والنهاية (٨/ ٤٣). وقال شيخ الإسلام: «وأما بالنسبة لسم الحسن فنحن لانذكر هـٰذا، فإنْ ثبتَ أنَّه مات مسموماً فهـٰذه شهادةٌ له وكرامة في حقّه».

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (عهد معاوية ص ٤٠).

الأمر، فجعدةُ بنتُ الأشعث سليلةُ الأمراء، وزوجُها الحسنُ من أفضلِ أهلِ عصرها عنصراً وطيباً ورفعةً ومكانةً وجمالاً، ولا يمكن أنْ تستبدلَ أحداً به مهما علا شأنُه، وطار أمرُه، واشتُهر ذِكْره. فكيف تتعاملُ هذه المرأة مع يزيد أو معاوية أو غيرهما في سبيل قتل سيّدنا الحسن بطريقة قميئة مخزية جبانة؟!

* ونعودُ الآن إلى الأويقاتِ الأخيرة من حياةِ سيّدنا الحسن، حيث ذكرَ جعفرُ بنُ محمد عن أبيه قال: «لما أنْ حضرَ الحسنَ بن علي الموت بكى بكاءً شديداً، فقال له الحسين: ما يبكيك يا أخي؟ وإنَّما تقدمُ على رسولِ الله ﷺ، وعلى عليٍّ وفاطمةَ وخديجةَ، وهم وَلَدُوكَ، وقد أجرى اللهُ لك على لسان النَّبيّ ﷺ أنّك سيّدُ شبابِ أهل الجنّة، وقاسمْتَ اللهَ مالكَ ثلاث مرّات، ومشيتَ إلى بيتِ اللهِ على قدميك خمس عشرة مرة حاجاً. وإنّما أراد أنْ يطيّب نفْسَه. قال: فواللهِ ما زاده إلا بكاء وانتحاباً، وقال: يا أخي إنّي أقدمُ على أمرٍ عظيم مهول لم أقدمْ على مثله قطّ»[1].

* وجعل سيّدنا الحسنُ يوعزُ لأخيه الحُسين رضي الله عنهما: «يا أخي، إيّاك أنْ تسفكَ الدّماء، فإنَّ النَّاس سراعٌ في الفتنة».

* فلمَّا توفي الحسنُ ارتجَّتِ المدينةُ صياحاً، فلا تلقى أحداً إلا باكياً؛ وحُمِلَ سيدنا الحسنُ ودُفن في البقيع، وقدّمَ الحسينُ سعيدَ بنَ العاص فصلّى على الحسن، وكادت تكونُ فتنةٌ عند دفْنِهِ لولا أنْ قام أبو هريرة رضي الله عنه في إطفائِها[2].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٤١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧٨ و ٢٧٩) بتصرف. وعلق الذهبي علىٰ هٰذا الخبر فقال مانصّه: «أعاذنا اللهُ من الفتن، ورضيَ عن جميع الصَّحابة، فترضَّ عنهم ياشيعيُّ تُفْلح، ولا تدخل بينهم، فاللهُ حَكمٌ عدلٌ، يفعلُ فيهم سابقُ علمه، ورحمته وسعتْ كلَّ شيْ، وهو القائل: «إنَّ رحمتي سبقَت غضبي» (مسلم برقم ٢٧٥١) و﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣]، فنسألُ الله أنْ يعفو عنا، وأنْ يثبتنا بالقول الثَّابت آمين».

* قال مساورُ مولى سعيد بن بكر: «رأيتُ أبا هريرة قائماً على مسجدِ رسولِ الله ﷺ يوم ماتَ الحسن بن عليّ، يبكي وينادي بأعلىٰ صوته: يا أيّها النَّاس، مات اليوم حِبُّ رسول الله ﷺ فابكوا»[1].

* وقال جهمُ بنُ أبي جهم: «لمَّا مات الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، بعثَ بنو هاشم إلى العوالي صائحاً يصيحُ في كلّ قرية من قرى الأنصار بموتِ حسن، فنزلَ أهلُ العوالي، ولم يتخلَّفْ أحدٌ عنه»[2].

* وشهد جنازةَ الحسنِ في البقيع كلُّ مَنْ سمعَ بموته، حتَّى لو طرح إنسانٌ إبرةً لما وقعَتْ إلا على إنسان من شدّة الازدحام، وكان موتُه رضي الله عنه أليماً على بني هاشم خاصّة، وعلى أهلِ المدينةِ عامة، وعلى كلّ من عرفه.

* ووقف سيّدنا الحسين رضي الله عنه على قبر أخيهِ الحسنِ يوم مات، وقال هذه الكلمات: «رحمك اللهُ أبا محمّد، إن كنتَ لتناصرَ الحقّ مظانّه، وتؤثر عند الله مداحضَ الباطل في مواطنِ التّقية بحسن الرّوية، وتستشف جليل معاظم الدّنيا بعينٍ لها حاقرة، وتفيض عليها يداً طاهرة، وتردع بادرة أعدائك بأيسرِ المؤنة عليك، وأنت ابنُ سلالةِ النُّبوّة، ورضيعُ لبان الحكمة، وإلى روح وريحان وجنّة نعيم، أعظمَ اللهُ لنا ولكم الأجر عليه، ووهَبَ لنا ولكم السلوة وحسنَ الاتّساء عليه»[3].

* وقال عمرُ بنُ عليِّ بن أبي طالب: لمَّا قُبِضَ الحسنُ بنُ عليٍّ، ووقفَ على قبره أخوه محمّد بن عليّ قال: «يرحمك اللهُ أبا محمَّد، فإن عزَّت حياتك، لقد هدَّت وفاتك، ونعم الرّوح روح تضمنه بدنك، ولنعم البدن بدن تضمّنه كفنُك، وكيف لا يكون هكذا وأنتَ سليلُ الهدى، وحليفُ أهل التّقى، وخامس أهل الكساء، غذتك أكفُّ الحقّ، وربيت في حجر الإسلام، ورضعْتَ ثدي

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٤٦).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٤٧).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٤٦).

الإسلام، وطبْتَ حياً وميتاً، وإنْ كانت أنفسنا غير طيّبة بفراقك، فلا نشكّ في الخيرة لك، حرمك الله»[1] ثم انصرف عن قبره.

* كانت وفاةُ سيدنا الحسن سنة (٥١ هـ) كما قال البخاري، وعمره قرابة (٤٧ عاماً) أو (٤٨) عاماً؛ بينما قال ابنُ العماد توفي سنة (٤٩ هـ)[2].

* وبنو الحسن هم: الحسنُ، وزيدٌ، وطلحةُ، والقاسمُ، وأبو بكر، وعبد الله، وهؤلاء قُتلوا بكربلاء مع عمّهم الشَّهيد، وعمرو، وعبد الرّحمن، والحسينُ، ومحمّد، ويعقوبُ، وإسماعيلُ، فهؤلاء الذّكور من أولاد السَّيِّد الحسن، ولم يعقبْ منهم سوى الرّجُلَيْن الأولَيْن: الحسن وزيد. فلحسن خمسة أولاد أعقبوا. ولزيد ابن وهو الحسنُ بنُ زيد، فلا عقب له إلا منه، وولي إمْرةَ المدينةِ، وهو والد السّتّ نفيسة[3]، والقاسم، وإسماعيل، وعبد الله، وإبراهيم، وزيد، وإسحاق، وعلي رضي الله عنهم[4].

* رضي الله عن سيّدنا الحسن ورحمه، وحشَرنا في معيّته، وجعلنا من أتباعه، وغفرَ لنا، وعفَا عنَّا، إنّه نِعم المولى، ونعم النَّصير.

❐ ❐ ❐

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٤٦ و ٤٧)، وزهر الآداب (١/ ٦٠ و ٦١).

(٢) شذرات الذهب (١/ ٢٤٢) طبعة دار ابن كثير المحققة عام ١٩٨٦ م. وفي وفيات سنة (٥٠هـ) يقول اليافعي: «فيها توفي الحسنُ بنُ عليّ رضي الله تعالىٰ عنه في المدينةِ الشَّريفةِ، وعمرهُ سبعٌ وأربعون سنة. قلتُ: ومناقبهُ بالأنسابِ والاكتسابِ والقرابةِ والنَّجابةِ، والمحاسنِ في الظَّاهرِ والباطن معروفةٌ مشهورةٌ، وفي تعدادها غير محصورة، وكان مع نهاية الشَّرف والارتفاع؛ في غاية التّلطُّف والاتّضاع». (مرآة الجنان ١/ ١٢٣).

(٣) اقرأ سيرة السيدة نفيسة بنت الحسن في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٦٠٧ ـ ٦٣٩) فسيرتها إمتاع للأرواح والأسماع.

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧٩).




الحُسَين بن علي

رضي الله عنهما

* ثاني اثنين من سيّدي شباب أهلِ الجنَّة .
* قال ﷺ : «اللهمّ إنّي أحبُّه فأَحِبَّه ، وأحبَّ مَنْ يحبّه» .
* من حفّاظِ القُرآن الكريم ، ورواةِ الحديث الشَّريف .
* له مواقفُ مشهورة رائعةٌ ؛ وكلماتٌ مفيدةٌ ماتعةٌ .
* استُشهد بكربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ رضي الله عنه .




الحسينُ بن عليٍّ
رضي الله عنهما

مِنْ سُلالةِ النُّبوَّةِ:

* ريحانةُ رسولِ الله ﷺ وسبطُهُ وسلالةُ النُّبوّة، ومقرُّ المحاسنِ والمناقبِ والفُتوّة، الإمامُ الشَّريفُ الكاملُ، زهرةُ أهلِ البيت الذين طهّرهم اللهُ تطهيراً، وعظَّمهم توقيراً، فهم مقاليدُ السَّعادة ومفاتيحُها، ومعارجُ البركةِ ومصابيحُها.

* هؤلاء أعلامُ الإسلام، وأَيْمانُ الإيمان، الطَّيِّبون الأخيار، الطَّاهرون الأبرار، الذين أذهبَ اللهُ عنهم الأرجاس، وجعلَ مودّتهم واجبةً على النَّاس.

* وهذا السِّبطُ تَفْنىٰ الخواطرُ، قبل أنْ تفنىٰ عنه أحاديثُ المآثر، فإذا ذُكِرَ الشَّرف[1] فهو ابنُ بجدته، أو العلْم فهو عاقدُ إزْرته، أو الدِّين فهو ساكنُ بلدته، أو الجودُ فهو لابسُ جلدته:

مـا زالَ يسبـقُ حتّـى قـالَ حـاسـدُهُ ... لـه طـريـقٌ إلـى العَلْيَـاء مختصـرُ

* وسنَخْتَصِرُ نحنُ الطَّريقَ لنلتقيَ هذا المُحِبّ المُحَبّ سيّدنا الحسينَ بنَ عليٍّ بن أبي طالب[2]، أبا عبدِ اللهِ الهاشميّ، ريحانةَ الحبيبِ المحبوبِ

---

(١) إذا أردنا أن نتعرّف علىٰ هـٰذا السّيّد الشّريف الحصيف فلنقرأ هـٰذه الأبيات:

وخـلٍّ جـاءَ يسـألُ عـن قبيلـي ... وضـوء الشَّمـس للـرّائـي جَلـيُّ
فقلـتُ لـه ولـم أفخـر وإنّـي ... يحـقُّ لمثلـيَ الفَخْـرُ العَلـيُّ
محمّـدٌ خيـرُ خلْـقِ الله جـدّي ... وأمّـي فـاطـمٌ وأبـي علـيُّ

(٢) المصادر التي تضمَّخَتْ أردانُها بطيبِ عرفِ الشّخصيّة الحسينيّة لا تُحصىٰ ولا تُحصر، ومنها: =

رسولِ اللهِ ﷺ، السعيد الشَّهيد رضي الله عنه، استُشْهِدَ بكربلاء وله ستٌّ وخمسون سنة.

* قبل أنْ نُبحرَ مع هذا البحر لنستَخرْجَ من لآلىء سيرته ما نزينُ به الألباب؛ ونصقلُ نفوس الأحباب، لابدَّ أنْ نعرفَ أنَّ حياتَه رضي الله عنه من طرازٍ خاص بين شخصيّات الصَّحابة الكرام، ورجال أهل البيت الأعلام؛ الذين أذهبَ اللهُ عنهم الرّجس وطهَّرهم تطهيراً.

* فهؤلاء الأطهارُ أهل البيت هم أقمارُ الدُّنيا، والنَّبيُّ ﷺ شمسُها، وللشَّمس قوتُها وسناؤُها، وللقمر نورُه وبهاؤُهُ، ولولا أشعَّةُ الشَّمس ما أضاء القمرُ، ونحنُ نستمدُّ هذا النُّورَ المنبعثَ من شمس النُّبوّةِ الفيّاضةِ المشرقةِ، التي استقرتْ في شخصيّةِ هذا الحفيد المبارك مع أخيهِ الحسنِ رضي الله عنهما.

* إنَّ شخصيَّةَ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه وأرضاه شخصيّةٌ نبيلةٌ يكتنفُها الجلالُ، وعبقريةٌ فذّةٌ غامرةٌ بمحاسنِ الخلالِ، ومحاسنِ الخصالِ، كالحلقة المُفْرغة لا يُدرىٰ أين بدأتْ، ولا أين انتهتْ، فحياتُه رضي الله عنه في سموٍ منظورٍ، وفضْلٍ منشور، وكمالٍ مفطور، وسَمْتٍ مشْهور.

* وإذا أرادَ الباحثُ إمعاناً في سَبْر سيرةِ هذا السَّيِّد المسوَّد، ازدادَ تهيّباً، فهو بإزاء شخصيَّةٍ من طرازٍ متميّز بين شخصيّاتِ رجالِ أهلِ البيت الأخيار الأبرار؛ شخصيّة حُسينية تستمدُّ سناءها الغامرَ من ينبوع المعين الرّوحي الذي استقاهُ من سيّد الأنبياء والمُرسلين، جدّه رسول الله المبعوث رحمةً للعالمين ﷺ، فقد تمتَّع هذا الحفيدُ بمزايا نادرة في دنيا النُّدرة، منها: أنَّ جدَّه الحبيب المصطفى ﷺ أفضل خلْقِ اللهِ على الإطلاق، وأنَّ أمّه فاطمة وجدَّته

= الاستيعابُ (١/ ٣٣٧ ـ ٣٨٣)، والإصابةُ (١/ ٣٣١ ـ ٣٤٤)، وتهذيبُ الأسماء واللغات (١/ ١٦٢ و ١٦٣)، والبدايةُ والنِّهاية (٨/ ١٤٩ وما بعدها)، وحياةُ الصَّحابة (انظر الفهارس ٣/ ٧٤٩)، ومختصرُ تاريخ دمشق (٧/ ١١٥ ـ ١٥٨)، وأسدُ الغابة (١/ ٤٩٥ ـ ٥٠٠) ترجمة رقم (١١٧٣)، ومصادر أخرىٰ لا تُحصىٰ ولا تُستقصى.

خديجة سيِّدتَا نساءِ العالمين رضي الله عنهما وأرضاهما، وأنَّ أخاه الحسنَ ريحانةٌ نبويةٌ متفرّدةٌ في دنيا المحبَّة، فلنبحرْ في بحارِ الأنوارِ الحُسينيّة، نستخرج لؤلؤ العلوم، ومرجان المعارف.

مولدُ السَّيِّد الثَّاني:

* هو ذا سيّدنا الحسينُ رضي الله عنه يستقبلهُ بيتُ النُّبوّة الطَّاهر في شَهْر شعبان من السَّنةِ الرَّابعةِ من هجرة جدّهِ المصطفى ﷺ، ولم يكنْ بينَه وبينَ أخيه الحسن إلّا طُهْرٌ واحد.

* زها البيتُ الفاطميُّ الميمونُ استبشاراً بطلعةِ هذا المولودِ اللطيفِ الذي كان ثاني اثنين من هذهِ الدَّوحةِ النَّبويّةِ المنيفةِ، وثاني اثنين من سيّدَي شباب أهلِ الجنَّة، وثاني اثنين من أسباطِ الحبيبِ الشَّافع المشفَّع سيّدنا رسولِ الله ﷺ، وثاني اثنين من أهل الكساءِ، وثاني اثنين من رياحين النَّبيّ ﷺ، وثاني اثنين من أنجالِ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها وعن زوجها وبنيْها وبناتِها وجعلنا في معيّتهم، فنحنُ والله نحبُّهم كما أمرنا اللهُ ورسولُه، والمرءُ مع مَنْ أحبّ.

* كان البيتُ الطَّاهرُ متألّقاً بهذا المولودِ الكريمِ الذي أضفى على مَنْ حوله السُّرور والبهجة بمولده المونق الحافل بالعطاء؛ فهذا المولودُ ريحانةُ قلبِ الحبيبِ المصطفى ﷺ، وقرّةُ عين الزَّهراء وعليّ رضي الله عنهما، وزهرة من أزاهرِ البيتِ النَّبويّ الطَّاهرِ الذي يتضوَّعُ شَذَاهُ في أقطارِ الأرضِ، وينفحُ قلوبَ المحبّين بالسَّناءِ والخيرِ العميم.

* ومنْ قَبْل هذا المولود الكريم، تفرَّعَ أخوهُ الحسنُ رضي الله عنه؛ فكان فرع الدَّوحةِ النَّبويّةِ الطَّاهرة الأوّل، ونشأ في أفضلِ محْضَنٍ وأزكاهُ وأبركهِ وأطهرِهِ، إذ تعهَّده سيّدُ الخلْقِ ﷺ، فأخذَ يربّيه على خصالِ الخيرِ، وحصائل المُثل العُليا، ثمَّ قفّى ﷺ هذه التَّربية بحفيدهِ الحُسين، فكان الحَسَنان سيّدَي شبابِ أهل الجنَّة، وريحانتَي نبي هذه الأمّة.

* كان السَّعْدُ يصاحبُ سيّدنا الحسين منذ أَنِ استهلَّ الدُّنيا، إذ حظي بأندى صوتٍ في الدّنيا يؤذِّن في أذنهِ اليمنى، ويقيمُ في أذنه اليُسرى، وذلك عصمة للمولود من الشَّيطان الرَّجيم، فكان أوّلَ صوتٍ رطَّبَ قَلْبَ الحسين، ولَذَّتْ به أُذُنُهُ هو صوتُ جدِّهِ رسولِ الله ﷺ، وأوّلُ شيءٍ صافح سَمْعه وروحه كلمات التَّوحيد النَّديّة التي تنجّي الإنسان، وتجعلُه من أهل السَّعادة.

* وقد سمّى النّبيّ ﷺ هذا المولودَ الحفيد السَّعيد حُسيناً، كما سمّى أخاه من قبلَ حَسَناً.

* قال عِكْرمةُ: «لمَّا ولدتْ فاطمةُ الحسنَ أَتَتْ به النَّبيّ ﷺ فسمّاه حَسَناً، فلمّا ولدتْ حُسيناً أتتْ به النَّبيّ ﷺ، فقال: «هذا أحسنُ من هذا»، فشقَّ له من اسمه، وقال: «هذا حُسين»»[1].

* قال المفضّل: «إنَّ اللهَ تعالى حجبَ اسمَ الحسَنِ والحُسين حتّى سمّى بهما النّبي ﷺ ابنَيْهِ الحسنَ والحُسين»[2].

* وأضحى هذان الاسمان الشَّريفان علَمَيْن بارزَيْن للشَّخصيّتَيْن النَّبيلتَيْن الحسن والحسين رضي الله عنهما، وكانا بدايةً مباركةً لكلّ مَنْ أرادَ أنْ يبتغيَ الخيرَ في دنيا الأسماء، إذ هام المحبّون بحبِّهما، واقتدوا بفعلهما، وساروا على دربهما، ليصلوا إلى حقيقةِ السَّعادة.

* انطوت أيّامٌ سبعةٌ من ولادةِ سيّدنا الحسينِ رضي الله عنه، فأمر الحبيب المصطفى ﷺ أنْ يُعَقَّ عنه بكبش. فقد ذكر ابنُ كثير أنَّه روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه حنْكَه، وتفلَ في فيهِ، ودَعَا له، وسمَّاه حُسيناً يوم سابعه، وعقَّ عنه[3].

* ومن المؤكّدِ أنَّ الإسلامَ بتشريعه المُتكامل قد اعتنى بتسميةِ المولود

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١١٧).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٨).

(٣) البداية والنّهاية (٨/ ١٥٠)، وانظر: معجم الطّبرانيّ الكبير (٣/ ٢٨ و ٢٩).

خلال سبعة أيّام من وقتِ ولادته، واختيار الاسم الحسن، لأنَّ النَّاس يُدعون يوم القيامة بأسمائهم وأسماءِ آبائهم، كما عُني الإسلامُ بتكنية المولود إذ إنَّ تكنية المولود بأبي فلان ذات آثار نفسيّة ماتعة، وفوائدَ تربويةٍ رائعة، وجوانبَ اجتماعية نافعة، ولله درُّ القائل:

أكَنّيـهِ حيـنَ أُنـاديـهِ لأكـرمَـه ... ولا ألقّبـه والسَّـوْءَةُ اللّقَـبُ

* قال ابنُ عساكر: «وكنيةُ الحُسين رضي الله عنه: أبو عبد الله»[1] فأكرِمْ بهذه الكنيةِ والمكنى!!.

* أمَّا العقيقةُ عن المولود فهي سُنَّةٌ مُستحبّةٌ عند جمهور أئمةِ الإسلام وفقهائهم، لأنَّ العقيقةَ تجمعُ الأهلَ وتزيد من روابطِ الألفة فيما بينهم؛ وقد ثبتَ أنَّ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ قد عقَّ عن سبطَيْه الحسنِ والحسينِ يوم سابعهما، وجاءتِ الآثارُ في ذلك عن عددٍ من عُلماء الصَّحابة وحفَّاظهم ومنهم: أمُّنا عائشةُ الصِّديقةُ بنتُ الصّديق رضي الله عنهما، وحبْرُ الأُمّةِ وبحرُها في العِلْم عبدُ الله بنُ عبَّاس رضي الله عنهما، والخادمُ الأمينُ والحافظُ المكثرُ أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه، وغيرهم، وقد أجمعوا بأنَّ الحبيبَ المصطفى ﷺ عقَّ عن الحسنِ والحسينِ كبشاً كبشاً في اليوم السَّابع لمولدهما.

* قال ابنُ قيِّم الجوزيةِ في «الزّاد»: «فإنْ قيل: عَقُّه ﷺ عن الحسنِ والحُسين بكبشٍ كبش، يدلُّ على أنَّ هَدْيَهُ ﷺ أنَّ على الرَّأسِ رأساً، وقد صحّح عبدُ الحقِّ الإشبيليّ من حديث ابن عبّاس وأنس أنَّ النَّبيَّ ﷺ عقَّ عن الحسنِ بكبشٍ، وعن الحسين بكبش، وكان مولدُ الحسن عام أُحُدٍ، والحسين في العام القابل منه. وروى التّرمذيُّ من حديث عليٍّ رضي الله عنه قال: عقَّ

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١١٧). قالَ الشّيخ مؤمن الشَّبلنجي: في كتابه «نور الأبصار»: «وكنيةُ الحُسين رضي الله عنه: أبو عبدالله لاغير. وألقابُهُ: الرَّشيدُ، والطَّيبُ، والزّكيّ، والوفيّ، والسَّيّدُ، والمباركُ، والتَّابعُ لمرضاةِ الله، والسِّبطُ، وأشهرُها الزّكيّ؛ وأعلاها رتبةً ما لقبّه ﷺ في قولِهِ عنه وعن أخيهِ إنّهما سيّدا شبابِ أهل الجنة، وكذلك السِّبْط، وكذلك صحَّ عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «حسين سبطٌ من الأسباط». (نور الأبصار ص ٢٣٨ و ٢٣٩).

رسولُ الله ﷺ عن الحسنِ شاةً، وقال: «يا فاطمةُ احلقي رأْسَه وتصدَّقي بِزِنَةِ شَعْره فضَّةً» فوزنَّاه فكان وَزْنُهُ درهماً، أو بعضَ درهمٍ»[(١)].

* وكان النَّبيُّ ﷺ يتولّىٰ في معظمِ الأحايين والأوقات الإشراف على تربيةِ سبطِهِ الحُسينِ رضي الله عنه فقد اهتمَّ به اهتماماً بالغاً، وكان الحسَنَان السَّيِّدان محلَّ الاهتمامِ النَّبويِّ، والمحبّة المحمّديّةِ، والرّعايةِ المصطفويّةِ، وثبتَ في الصَّحيح وغيره أنَّه ﷺ كان يعوّذُهما بكلماتِ اللهِ التَّامّة، من كلِّ شيطان وهامَّة، ومن كلِّ عين لامّة اقتداءً وإحياءً لما كان يفعلُه خليلُ الرّحمن إبراهيمُ عليه السَّلام في ابنَيْه إسماعيلَ وإسحاق عليهما السَّلام.

* وفي هذا التَّصرُّفِ النَّبويِّ تربيةٌ وتعليمٌ للمسلمين ليستفيدوا من الهديّ النَّبويّ في تربيتهم لأطفالِهم، ورعايتم لأولادهم الرّعاية الحسَنة الصَّحيحة[(٢)].

الإكْرامُ النَّبويُّ لِلْحُسَين:

* أدرك سيّدنا الحُسين رضي الله عنه من حياةِ جدِّهِ رسولِ اللهِ ﷺ بضْعَ سنين، كانت سنواتٍ سماناً حافلةً بالعطاءِ والبركةِ والخيرِ والنَّماء.

* قال مسلمُ بنُ الحجَّاج عن سيِّدنا الحُسين رضي الله عنه: «له رؤيةٌ من النَّبيّ ﷺ».

* ويُعَدُّ الحُسَينَ رضي الله عنه من صغار الصَّحابة ممن عاصرَ النَّبيّ ﷺ ورآهُ وصحبَهُ وعقَلَ عنه.

* قال ابنُ كثير عن سيّدنا الحُسين رضوان الله عليه: «وقد أدرك الحسينُ من حياةِ النَّبي ﷺ خمس سنين أو نحوها، وروىٰ عنه أحاديث»[(٣)].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٣٢٨)، وانظر أيضاً تخريج الحديث فيه.

(٢) للمزيد من هـٰذه الإشراقات المباركة، اقرأ كتابنا «الطّفل في ضوء القرآن والسُّنَّة والأدب» إذ تجد فيه زاداً وفيراً لتربية الطّفل والعناية به حسب المنهج الإسلاميّ.

(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٥٠). وقال ابن كثير أيضاً: «والمقصود أنَّ الحسين رضي الله عنه عاصر رسول الله ﷺ، وصحبه إلىٰ أنْ توفي وهو عنه راض، ولكنّه كان صغيراً. ثمّ كان الصّديّق يكرمه ويعظمه، وكذلك عمر وعثمان، وصحب أباه وروىٰ عنه.» (البداية والنّهاية ٨/ ١٥٠).

* وكان الحسينُ رضي الله عنه يُشَبَّه بالنَّبيِّ ﷺ، وردَ في أثرٍ لطيفٍ عن سيّدنا عليِّ بنِ أبي طالب عليه سحائبُ الرّضوان أنّه قال: «كان الحسنُ بنُ عليٍّ أشبهَهم برسولِ الله ﷺ من شَعْرِ رأسهِ إلى سُرّتهِ، وكان الحسينُ بنُ عليٍّ أشبههم برسول الله ﷺ من لدن قدمَيْه إلى سرّتهِ، اقتسَما شَبَهه»[1].

* وقال محمّدُ بنُ الضَّحّاك الحزامي: «كان وجْهُ الحسنِ بن عليّ يشبهُ وجْهَ رسولِ الله ﷺ، وكان جسدُ الحُسين يشبهُ جسَدَ رسولِ الله ﷺ».

* وقال ابن عبّاس عن الحُسين رضي الله عنهم: «إنّا كنّا نشبّههُ بالنّبيّ ﷺ»[2].

* وهذا الشَّبَهُ الميمونُ أحلَّ الحسين مكاناً رحباً في صدرِ المصطفى ﷺ وقلبه، فكان ﷺ إذا قدمَ من سفرٍ يتلقّى الحسين والصِّبيان الصِّغار، ومن ثَمَّ يُركبُهم معه، أو يردفُهم ويلاطفُهم، ويرحِّبُ بهم ويوسعهم لطفاً وبرّاً. .

* أخرجَ مسلمٌ بسنده عن سيّدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا قدمَ من سفر تُلُقِّيَ بصبيانِ أهلِ بيته، وإنَّه قدمَ من سفرٍ فَسُبِقَ به إليه، فحملني بين يديه، ثمّ جيء بأحد ابنَي فاطمةَ، فأردفهَ خلْفَه، فأُدْخِلْنا المدينة، ثلاثة على دابة»[3].

* وفي روايةٍ أخرى: «كان النّبيُّ ﷺ إذا قدم من سفَرٍ تُلُقِّيَ بنا، فتُلُقِّي بي وبالحسنِ أو بالحسينِ، فحَمَلَ أحدنا بين يدَيْه، والآخر خلْفَه، حتَّى دخلْنَا المدينة»[4].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١١٧)، وهـٰذا الحديث أخرجه التّرمذيّ عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه بلفظ: «الحسنُ أشبه برسول الله ﷺ مابين الصّدر إلىٰ الرأس» والحسين أشبه برسول الله ﷺ ما كان أسفل من ذلك». (تحفة الأحوذيّ ١٠/ ٢٨٢) حديث رقم (٣٨٦٨).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١١٧).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصّحابة برقم (٢٤٢٨/ ٦٦).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٤٢٨/ ٦٧) في الفضائل أيضاً عن سيّدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما وأرضاهما.

* وكان حبيبُنا المُصْطَفى ﷺ يقبِّلُ سبطَيْه ويضمُّهما إليه، ويشمُّهما، جاء عن أبي أيّوب الأنصاريّ[1] رضي الله عنه قال: «دخلتُ على رسولِ الله ﷺ والحسن والحسين يلعبان بين يَديْه، وفي حجره، فقلتُ: يا رسولَ الله أتحبُّهما؟

قال: «وكيف لا أحبُّهما، وهما ريحانتاي من الدّنيا أشمّهما»[2]؟

* وحُفِظَ عن سيّدنا الحسين رضي الله عنه قوله: سمعتُ جدّي رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تسبُّوا أبا بكر وعمر فإنّهما سيّدا كهولِ أهلِ الجنَّة من الأوّلين والآخرين، إلَّا النَّبيين والمُرسلين، ولا تسبّوا الحسن والحسين، فإنّهما سيّدا شباب أهل الجنّة من الأوَّلين والآخرين، ولا تسبُّوا عليّاً، فإنَّه مَنْ سَبَّ عليّاً فقد سبَّني، ومَنْ سبَّني فقد سبَّ الله، ومَنْ سبَّ الله عذَّبَهُ الله»[3]!!!

* وإليك هذه الصّورة الحُسينيّة البريئة الحلوة التي تحرّكُ عواطفَ الحنو والمودّة في القُلوب نحو الأطفالِ البُرَآء. قال يعلى بنُ مرّة التّميميّ الحنظليّ[4] أبو صفوان رضي الله عنه: «خرجتُ مع النَّبيِّ ﷺ فَدُعينا إلى طعامٍ فإذا الحُسين رضي الله عنه يلعبُ في الطَّريقِ فأسرعَ النَّبيُّ ﷺ أمام القوم، ثمَّ بسطَ يديه، فجعلَ الحُسين يفرُّ مرةً هاهنا، ومرَّةً هاهنا، يضاحكُه حتَّى أخذه، فجعلَ إحدى يدَيه في ذقنِهِ، والأخرى بين رأسهِ وأذنيه، ثمَّ اعتنقه فقبَّله، فقال رسولُ الله ﷺ: «حسين منّي وأنا منْهُ، أحَبَّ اللهُ مَنْ أحبَّه، الحسنُ والحسينُ

---

(١) اقرأ سيرةَ الصَّحابي الجليل سيّدنا أبي أيوب الأنصاريّ في موسوعتنا «فرسان من عصْر النّبوة» (الباب الثّاني ص ٦٣٩ ـ ٦٥٧) فسيرتُه غذاءٌ للألباب، ونزهةٌ للأحباب.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١١٨). وسئل رسول الله ﷺ: أيُّ أهلِ بيتك أحبّ إليك؟ قال: «الحسَنُ والحُسينُ».
قال: وكان يقول لفاطمةَ: «ادعي لي ابنيّ» فيشمُّهما ويضمُّهما إليه». (تحفة الأحوذيّ ١٠/ ٢٧٦) حديث رقم (٣٨٦١). ومعنىٰ «فيشمُّهما»: أي يحضران فيشمُّهما. و «يضمّهما إليه»: أي بالاعتناقِ والاحتضانِ.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١١٨).

(٤) اقرأ ترجمة يعلى بن مرَّة في أسد الغابة (٤/ ٧٤٧ و ٧٤٨) ترجمة رقم (٥٦٤٠).

سبطان من الأسباط»[1].

* وينقل لنا سيّدنا زيدُ بنُ أرقم[2] صورة حبٍّ نبويةٍ أخرى لسيِّدنا الحُسين فيقول: «كنتُ عند رسولِ الله ﷺ جالساً، فمَرَّتْ فاطمةُ رضي الله عنها وهي خارجةٌ من بيتها إلى حجرةِ نبيّ الله ﷺ ومعها ابناها: الحسنُ والحسينُ، وعليٌّ في آثارهم، فنظرَ إليهم النَّبيُّ ﷺ فقال: «مَنْ أحبَّ هؤلاء فقد أحبَّني، ومَنْ أبغضَهم فقد أبغضني»[3].

* وأمَّا أبو هُريرةَ رضي الله عنه فيرسُم صورةً حُسينيةً نادرةً ومتألّقةً عن المحبَّةِ النَّبويّةِ للحفيد السَّعيد فيقول: «كنْتُ مع رسولِ الله ﷺ في سوقٍ من أسواقِ المدينةِ، فانصرفَ وانصرفْتُ معه فقال: «ادعُ الحسين بن عليّ» فجاء الحسينُ بنُ عليٍّ يمشي، فقال النَّبيُّ ﷺ بيده هكذا ـ يعني مال ـ، فالتزمَهُ فقال:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٠)، والحديث أخرجه التّرمذيّ، انظر: تحفة الأحوذيّ (١٠/ ٢٧٩) حديث رقم (٣٨٦٤)، وأخرجه الطَّبراني في الكبير (٣/ ٣٢) حديث رقم (٢٥٨٦ و ٢٥٨٩). ومعنىٰ قوله «حُسين منّي وأنا من حُسين»: قال القاضي: «كأنَّه ﷺ علِمَ بنورِ الوحي ما سيحدثُ بينه وبين القومِ، فخصَّه بالذّكرِ، وبيَّنَ أنَّهما كالشَّيءِ الواحدِ في وجُوبِ المحبَّة، وحرمةِ التّعرّض والمحاربةِ؛ وأكَّد ذلك بقوله: «أحبَّ اللهُ مَنْ أحبَّ حُسيناً» فإنَّ محبَّته محبَّةَ الرّسولِ ﷺ، ومحبّة الرسولِ ﷺ محبّة الله عزَّ وجلَّ. و«حُسينُ سِبْطٌ من الأسباط»: أي أمّه من الأمم في الخير. والأسباط في أولاد إسحاقَ بنِ إبراهيم الخليل عليهما السَّلام بمنزلةِ القبائل في ولد إسماعيل، وأحدهم سبط، فهو واقعٌ علىٰ الأمّة، والأمة واقعةٌ عليه».
وقال القاضي: «السّبط ولدُ الولد، أي هو من أولادِ أولادي، أكَّدَ به البعضية، وقرَّرها؛ ويُقال للقبيلة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾[الأعراف: ١٦٠] أي قبائل. ويُحتمل أنْ يكون المُراد هاهنا علىٰ معنىٰ أنَّه يتشعب منه قبيلة ويكون من نسْلِهِ خلقٌ كثيرٌ، فيكون إشارة إلىٰ أنَّ نَسْله يكون أكثر وأبقىٰ، وكان الأمرُ كذلك.

(٢) اقرأ سيرة سيدنا زيد بن أرقم في كتابنا «رجال مبشّرون بالجنّة» (ص ٢١٩ ـ ٢٤٥) ط٥ ـ ٢٠٠٣ م بدار ابن كثير العامرة بدمشق.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٠ و ١٢١). وقد وردت أحاديث وآثار كثيرة في دعواتِ النَّبيّ ﷺ للحسنين السِّبطين رضوان الله عنهما.

«اللهم إنّي أحبُّه فأحِبَّه وأحبَّ مَنْ يحبُّه». قال أبو هريرة: فما كان بعد أحد أحبّ إليَّ من الحُسين بنِ عليٍّ بعدما قال النَّبيّ ﷺ ما قال»[1].

* وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يصلّي، فإذا سجدَ ركبَ الحسنُ والحسينُ على ظهرِه، فإذا رفعَ رأسه أخذهما بيده أخذاً رقيقاً، فوضعَ أحدهما على فخذهِ، والآخرُ في حجره، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أذهبُ بهما إلى أمِّهما؟

قال: لا، فبرقَتْ برقة، فقال: «الحقا بأمِّكما» فلمْ يزالا في ضوءِ تلك البرقةِ حتّى لحقا بأمّهما»[2].

* وعند التّرمذيّ بسنده عن البراء: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أبصرَ حسَناً وحُسيناً فقال: «اللهمّ إنّي أحبّهما فأحبّهما»[3].

* وهذا شدادُ بنُ الهاد الليثي[4] رضي الله عنه يروي لابنهِ عبد اللهِ بنَ شداد قصَّة إطالةِ النّبيّ ﷺ في سجوده لأنَّ الحسينَ كان على ظهره الشَّريف، فيقول: «خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي: الظُّهرَ أو العصر، وهو حاملٌ أحدَ ابنَي بنته: الحسن أو الحسين، فتقدّم النَّبيّ ﷺ، فوضعه عند قدمه اليُمنى، ثم كبَّر للصَّلاة، فصلَّى، فسجدَ بين ظهراني صلاته سجدة، فأطالَها، فرفعتُ رأسي من بين النَّاس، فإذا النَّبيّ ﷺ ساجدٌ، وإذا الصَّبيُّ على ظهره، فرجعتُ في سجودي، فلمَّا صلى قيل: يا رسولَ اللهِ، لقد سجدتَ سجدة أطلْتَها، فظنَّنا أنَّه قد حدَثَ أمرٌ، أو كان يُوحىٰ إليك، قال: «كلُّ ذلك لم

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢١).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢١). وقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه خبراً طريفاً عن لعبِ الحسنِ والحسينِ واصطراعهما أمامَ جدّهما رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «كانَ الحسنُ والحسينُ يصْطرعان بين يَدي رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ يقول: «هَيَّ حَسَن».
قالت فاطمةُ: لِمَ تقول: هَيّ حسنُ؟
قال: «إنَّ جبريلَ يقولُ: هَيَّ حسينُ». (أسد الغابة ١/ ٤٩٧) ترجمة رقم (١١٧٣).

(٣) تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٨٥) حديث رقم (٣٨٧١) وقال: «هـٰذا حديث حسن صحيح».

(٤) انظر ترجمة شداد بن الهاد الهيثي في أسد الغابة (٢/ ٣٥٧ و ٣٥٨) ترجمة رقم (٢٣٩٩).

يكنْ، ولكنَّ ابني ارتحلني، فكرهتُ أنْ أُعْجِلَهُ»[1]، ولله دَرُّ مَنْ قال:

مَنْ في الوُجودِ يَنَالُ ظَهْرَ مُحمّدٍ مثل الحُسينِ ينالُه مَحمُودا

* وعن سلمانَ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «الحسنُ والحسينُ مَنْ أحبّهما أحببته، ومَنْ أحببته أحبَّه الله، ومَنْ أحبَّه اللهُ أدخَلَه جنَّاتِ النَّعيم، ومَنْ أبغضهما أو بغىٰ عليهما أبغضته، ومَنْ أبغضتُه أبغضه الله، ومَنْ أبغضه اللهُ أدخله نارَ جهنَّم، وله عذابٌ مقيم»[2]!!!.

* وجاء في مكرمةٍ نبويةٍ عن جابرِ بنِ عبد اللهِ الأنصاريّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لعليِّ بن أبي طالب مُوصياً إيَّاه بسبطَيْه: «سلامٌ عليكَ أبا الرّيحانتَيْن أوصيك بريحانتيَّ من الدُّنيا»[3].

* واشتُهر الحبيبُ المصطفى ﷺ بأنه كان رحيماً بالأولاد عامّة، وكان رحيماً بسبطَيْه السَّعيدين الحسنِ والحُسينِ رضي الله عنهما، فمن صُور رحمته بسيّدنا الحُسين رضي الله عنه، ونزوله عن المنبر منْ أجلِهِ ما أخرجه الطَّبراني عن عبدِ اللهِ بن عمرو رضي الله عنهما قال: «رأيت رسولَ اللهِ ﷺ على المنبر يخطبُ النَّاس، فخرجَ الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما في عنقِهِ خِرقةٌ يجرُّهَا، فعثَرَ فيها، فسقطَ على وجهِهِ، فنزلَ النَّبيُّ ﷺ عن المنبر يريدُهُ، فَلَمَّا رآه النَّاسُ أخذوا الصَّبيَّ فأتوهُ به، فأخذَهُ وحملَه، فقال: «قاتلَ اللهُ الشَّيطانَ، إنَّ الولد

---

(١) أسد الغابة (٢/ ٣٥٨)، ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢١).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢١)

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٣). والرّيحان والرّيحانة: الرّزق والرّاحة، ويسمّىٰ الولد ريحاناً وريحانةً لذلك، والله أعلم.

ولمكانةِ الحسنَيْن من أبيهما، والمستمدّ من رسولِ الله ﷺ ماذكروا أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه لمّا تزوّجَ النَّهشليّةِ بالبصرةِ ـ والنَّهشليةُ: هي ليلىٰ بنتُ مسعود بن خالد وينتهي نسبُها إلىٰ بني نَهْشل ـ قَعَد علىٰ سريرِهِ، وأقْعَد الحسنَ عن يمينه، والحسينَ عن يسارِهِ، وجلس محمدُ بنُ الحنفيّة بالحضيضِ، فخافَ أنْ يَجِدَ من ذلك فقال: يا بُنيَّ أنتَ ابْني، وهٰذان ابنا رسولِ اللهِ ﷺ».

فتنةٌ، واللهِ ما علمْتُ أنّي نزلتُ عن المنبرِ حتى أتيتُ به»[1].

* وقد ثبتَ بما تواترَ من الأحاديثِ والآثار النّبويّةِ أنَّ حبيبنا الصّادق المصدوقَ ﷺ كان يَعَجُّ[2] إلى الله عزَّ وجلَّ بالدَّعَوَاتِ[3] للحَسَنَيْن، وكان أحياناً يخصُّ أحدهما بالدُّعاء بالاسم، أو يكونُ الاثنانُ كلاهما معاً مخصوصَيْن بالدّعاء المحمّديّ الميمون، لذا يحقُّ لنا أنْ نغْبِطَ مَنْ تُصيبهم الدَّعواتُ النّبويّةُ المباركةُ.

---

(١) انظر: شرح حياة الصّحابة (٢/ ٧٢٨). وقال الهيثميُّ في المجمعِ (٨/ ١٥٥): «رواهُ الطَّبرانيُّ عن شيخهِ حسن بنِ أحمد الِكْرمانيّ، ولم ينسبه عن عبد الله بن عليّ الجارودي ولم أعرفهما؛ وبقيّةُ رجالهِ ثقات».
وقال ابنُ قيّم الجوزيّة عن هـٰذا الموضوع: «وكان رسولُ الله ﷺ ربّما نزلَ عن المنبرِ للحاجة، ثمَّ يعودُ فيتمّها، كما نزلَ لأخذِ الحسن والحسينِ ربّما نزلَ عن المنبرِ للحاجة، ثمَّ رقي بهما المنبر، فأتمّ خطبه». (زاد المعاد ١/ ٤٢٧). والحديث أخرجه التّرمذيّ برقم (٣٧٧٧)، وأبو داود برقم (١١٠٩)، والنّسائي (٣/ ١٠٨)، وابن ماجه برقم (٣٦٠٠)، وإسناده حسن.
وفي موضع آخر قال ابنُ قيّم الجوزيّة رحمه الله عن الموضوع ذاته: «وكان النّبيُّ ﷺ إذا عرضَ له في خطبته عارضٌ، اشتغلَ به، ثمَّ رجعَ إلىٰ خطبتهِ، وكان يخطبُ، فجاء الحسنُ والحسينُ يعثُران في قَميصَيْن أحمرين، فقطع كلامه، فنزل، فحملها، ثم عاد إلىٰ منبره، ثم قال: «صدق الله العظيم: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[الأنفال:٢٨]؛ رأيتُ هـٰذَيْن يعثُران قميصهما، فلم أصبر حتّىٰ قطعتُ كلامي، فحملتُهما» (زاد المعاد ١/ ١٩٠).

(٢) «يعجّ»: يرفعُ صوتَه بالدُّعاء. قال الفيروزأبادي: «عجَّ، ويَعَجُّ: صاحَ ورفعَ صوتَه. (القاموس المحيط ص ٢٥٣) طبعة مؤسّسة الرّسالة الثّانية ـ عام ١٩٨٧ م.

(٣) «الدَّعوات»: الدَّعواتُ: جمع دعوة، وهي بمعنىٰ الدُّعاء: والدُّعاء طلبُ مَنْ هو أدنىٰ بالقولِ ممن هو أعلىٰ بشيء علىٰ وجهةِ الاستكانة والتّضرّع والخُشوع والتّذلل والتّوجّه. قال الإمامُ النّوويّ رحمه الله: «أجمعَ أهلُ الفتاوىٰ في الأمصارِ في جميعِ الأعصارِ علىٰ استحبابِ الدُّعاء، وذهبَ طائفةٌ منَ الزّهادِ وأهلِ المعارف إلىٰ أنَّ تركَه أفضلُ استسلاماً. وقال جماعةٌ: إنْ دعَا للمسلمين فحسَنٌ، وأنْ خصَّ نفسه فلا؛ وقيل: إنْ وجدَ باعثاً للدعاء استحبَّ وإلا فلا، ودليلُ الفقهاء ظواهر القرآن، والسُّنّة، والأخبار الواردة عن الأنبياءِ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* أخرج البزّارُ عن سيّدنا عبدِ اللهِ بن مسعود الهذليّ رضي الله عنه، أنَّ النّبيَّ ﷺ قال للحَسنِ والحُسينِ رضي الله عنهما: «اللهم إنّي أحبُّهما فأحِبّهما، ومَنْ أحبَّهما فقد أحبَّني»[1].

* وعنده أيضاً عن سيّدنا العالمِ العَيْلَم سيّدِ الحُفَّاظ الأثبات أبي هريرة الدّوسيّ رضي الله عنه بلفظ: «اللهمّ إنّي أحبُّهما فأحبّهما»، وأخرجَه النّسَائيُّ وابنُ حبّانَ عن أسامةَ بنِ زيد رضي الله عنهما وزادَ في آخره: «وأحبَّ مَنْ يحبّهما». وفي أوّله: «هذان ابناي وابنا ابنتي».

* وأخرجه ابنُ أبي شيبةَ والطَّيالسيُّ عن أبي هريرة مثل حديثه الأوّل وزادا: «وأبغضْ مَنْ أبغضَهما».

* وأخرجَ الشَّيخان: البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ والطَّبرانيُّ عن سعيدِ بن زيد[2] وعائشة[3] رضي الله عنهما مرفوعاً: «اللهمّ إنّي أحبُّ حَسَناً فأحبّه، وأحبَّ منْ يحبّه». وعند ابن عساكر عن محمّدِ بنِ سيرين بلفظ: «اللهم سلّمه، وسلّمْ فيه».

* وأخرجَ السِّتّةُ إلاّ أبا داود عن البراءِ رضي الله عنه قال: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ

---

(١) حياة الصَّحابة (٣/ ٣٤٢). وفي هذا الحديث الشَّريف حثٌّ علىٰ محبّة الحَسَنَين رضي الله عنهما. اللهمّ اجعلنا مِنْ محبّيهما ومواليهما، ولا تجعلنْا من مبغضيهما ومعاديهما، فإنَّ محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ، وفي قلب المحبِّ المغلوب مطلوب. ولاشكّ في أنَّ الحَسَنين السِّبطَين رضي الله عنهما محبوبان، ولاشك في أنَّهما قد أحبّهما اللهُ عزَّ وجلَّ، فينبغي علىٰ المحبِّ أنْ يتخلَّقَ بما أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وأنْ يتعلّقَ بشمائل الصَّادق المصدوق ﷺ وأنْ يحبَّ المؤمنَ الحسنَين في جميع أحوالهما وأحيانهما وأقوالهما وأفعالهما التي اقتبسوها من جدّهم حبيبنا محمّد ﷺ.

(٢) اقرأ سيرة سيّدنا سعيد بن زيد في الباب الأوّل من كتابنا «فرسان من عصر النّبوّة» (ص ١٨٢ ـ ٢٠٤)، في سيرته من بدائع الفوائد ما يثري العالم والمتعلّم.

(٣) اقرأ سيرة أمّنا عائشة في موسوعتنا «نساء أهل البيت» (ص ١٢٣ ـ ١٨٨) ط٦ـ فسيرتها خير في خير في خير.

حَمَلَ الحُسينَ رضي الله عنه على عاتِقِهِ، وقال: «اللهمّ إنّي أحبُّه فأحبَّه»[1].

إجلالُ أعلامِ الصَّحابةِ للحُسين رضي الله عنه:

* كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يعرفون مكانةَ سيّدنا الحُسين وقَدْره، ويعملون على برّه وإبرازِ فضْلِه، فهو غصنٌ نضيرٌ من الدَّوحةِ النَّبويّة الفينانة المثمرة بالبركاتِ والخيراتِ.

* أوجزَ ابنُ كثير رحمه الله توقيرَ الصَّحابة الكبراء لسيّدنا الحسين وإجلالهم له فقال: «كان الصِّدِّيقُ يكرمه ويعظّمه، وكذلك عمرُ، وعثمانُ، وصَحِبَ أباهُ، وروى عنه، وكان معه في مغازيه كُلّها»[2].

* وقال عن احترام معاوية له: «. . . فلمّا استقرَّتِ الخلافةُ لمعاويةَ كان الحسين يتردَّدُ إليه مع أخيه الحسن فيكرمهما معاوية إكراماً زائداً، ويقول لهما: مرحباً وأهلاً، ويعطيهما عطاء جزيلاً، وقد أطلقَ لهما في يوم واحد مئتي ألف، وقال: خُذاها وأنا ابنُ هند، والله لا يعطيكما أحد قبلي ولا بعدي.

فقال الحسينُ: والله لن تعطيَ أنتَ ولا أحدٌ قبلك ولا بعدك رجلاً أفضل منّا. ولمَّا توفي الحسنُ كان الحسينُ يَفِدُ إلى معاويةَ في كُلِّ عام فيعطيه ويكرمُه، وقد كان في الجيش الذين غزوا القُسطنطينية مع ابن معاوية يزيد، في سنَةٍ إحدى وخمسين. . .»[3].

* وقد ثبت أنَّ سيّدنا عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه كان يكرمُ السّبطَيْن الشَّريفين، وكان يحملُهما ويعطيهما كما يعطي أباهما؛ وجيء مرّة بحلل من اليمن فقسَمها بين أبناء الصَّحابة، ولم يعطهما منها شيئاً، وقال: ليس فيهما شيءٌ يصلح لهما، ثمَّ بعثَ إلى نائب اليمن، فاستعملَ لهما حلَّتَيْن تناسبهما[4]،

---

(١) حياة الصَّحابة (٣/ ٣٤٢ و ٣٤٣).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٥٠).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٥٠ و ١٥١). وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١١٥).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٧). وقد جاء تفصيل ذلك في حياة الصَّحابة حيث نقلَ عن ابن سعدٍ=

فلمّا رآهما قال: «الآن طابت نفسي».

* أوردَ الذُّهبيُّ في «السِّير» انَّ عمروَ بنَ العاص كان جالساً ذات يوم من الأيّام في ظلِّ الكعبة المشرفةِ حفظها الله، إذ رأى سيّدنا الحسين رضي الله عنه مقبلاً، فقال لمن حوله: «هذا أحبُّ أهل الأرض إلى أهل السَّماء اليوم».

* ولم تكن هذه هي الشَّهادةُ الوحيدةُ التي حظي بها سيّدنا الحُسين رضي الله عنه في المسجد، بل هناك شهادة أخرى، فقد دخل سيّدنا الحسين مرّة المسجد، فرآه سيّدنا جابر بن عبد الله الأنصاريّ فقال: «مَنْ سرَّهُ أنْ ينظرَ إلى رجلٍ من أهل الجنَّة فلينظرْ إلى الحُسين بنِ عليٍّ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقوله»[1].

* وجاء من وجوهٍ كثيرة عن سيادة سيّدنا الحسين ما أخرجوه عن سيّدنا عليٍّ وعمرَ وأبي هريرةَ وحذيفةَ وغيرهم أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الحسنُ والحسينُ سيّدا شباب أهل الجنَّة»[2].

= بسندٍ عن جعفرَ بنِ محمّد عن أبيهِ قال: «قدمَ علىٰ عمرَ رضي الله عنه حُللٌ من اليمنِ، فكَسَىٰ النَّاسَ، فراحُوا في الحللِ، وهو بين القبرِ والمنبرِ جالسٌ، والنَّاسُ يأتونه فيسلّمون عليه، ويدعون له، فخرج الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما من بيتِ أمّهما فاطمة رضي الله عنها يتخطَّيان النّاس، وليس عليهما من تلك الحللِ شيءٌ، وعمرُ قاطبٌ صَارٌّ بين عينيه، ثم قال: واللهِ ما هنأ لي ما كسوتكُم.

قالوا: ياأميرَ المؤمنين كسوتَ رعيتك فأحسنْتَ.

قال: من أجلِ الغُلامين يتخطَّيان النَّاس، وليس عليهما منها شيءٌ، كبرت عنهما، وصَغُرا عنها.

ثم كتبَ إلىٰ عاملِهِ علىٰ اليمن: أنِ ابعثْ بحلّتَين لحسنٍ وحُسينٍ وعجّلْ. فبعثَ إليه بحلّتين فكَسَاهُما». (حياة الصَّحابة ٢/ ٢٠٦ و ٢٠٧).

وثبت أنَّ سيدنا عمرَ رضي الله عنه «فرضَ للحسن والحسين رضي الله عنهما خمسة آلاف، فألحقهما بأبيهما لقرابتهما من رسولِ اللهِ ﷺ». (حياة الصَّحابة ٢/ ٢٦١).

(١) مجمع الزوائد (٩/ ١٨٧)، والبداية والنهاية (٨/ ٢٠٦).

(٢) انظر: المعجم الكبير (٣/ ٣٥ ـ ٤٠) حيث أورد الطَّبراني عدة أحاديث في هـٰذا المضمار.

* ومن المكارم النَّبيلةِ المتألِّقة التي ترفعُ السِّبطَين عالياً في نفوس علماء الصَّحابة وقلوبهم وقلوب محبّي رجال أهل البيت، ما أخرج الطَّبراني بسندٍ رفعه إلى إسحاق بنِ أبي حبيبة مولى رسول الله ﷺ عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه: «أنَّ مروانَ بنَ الحكم أتى أبا هُريرة في مرضِهِ الذي ماتَ فيه، فقال مروانُ لأبي هريرة: ما وجدتُ عليك في شيءٍ منذ اصطحبنا إلاَّ في حبِّك الحسن والحسين.

قال: فتحفزَ أبو هريرة، فجلسَ، فقال: أشهدُ لخرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنّا ببعض الطَّريق، سمع رسولُ الله ﷺ صوتَ الحسنِ والحسين، وهما يبكيان، وهما مع أمِّهما، فأسرع السَّير حتّى أتاهما، فسمعتُه يقول لها: «ما شأن ابنيَّ» فقالت: العطش.

قال: فأَخْلَفَ رسولُ الله ﷺ إلى شنَّة يبتغي فيها ماء، وكان الماءُ يومئذ عِدَاداً والنَّاس يريدون الماء فنادى: «هَلْ أحدٌ منكم معه ماء»؟

فلم يبْقَ أحدٌ إلاَّ أَخْلَفَ بيده إلى كلامِهِ يبتغي الماء في شنة، فلم يجدْ أحدٌ منهم قطرةً.

فقال رسول الله ﷺ: «ناوليني أحدهما» فناولته إيَّاه من تحت الخدر... فأخذه فضمّه إلى صدره وهو يضغو ما يسكت، فأدلعَ له لسانه، فجعلَ يمصُّه حتّى هدأ أو سكن، فلم أسمعْ له بكاء، والآخر يبكي كما هو ما يسكت، فقال: «ناوليني الآخر» فناولته إياه ففعلَ به كذلك، فسكَتَا فما أسمع لهما صوتاً ثم قال: «سيروا» فصدعنا يميناً وشمالاً عن الظَّعائن حتّى لقيناه على قارعةِ الطَّريق، فأنا لا أحبّ هذين وقد رأيت هذا منْ رسولِ الله ﷺ»[1]؟.

---

(١) أخرجه الطَّبراني (٣/ ٥٠ و ٥١) حديث رقم (٢٦٥٦)، وانظر: مجمع الزَّوائد (٩/ ١٨١)، وقال الهيثميّ: «رواه الطَّبرانيّ، ورجاله ثقات». ومعنىٰ قوله: «ما وجدْتُ»: ما غضبتُ. و«فتحفَّز»: تجمَّعَ في جلْستِهِ. و«أخلف»: أرسلَ يده إليها ليأخذها من خلفِهِ. و«شنَّة»: الشَّنُّ والشَّنَّة: السِّقاء الخَلَقُ القَديمُ، وهو أشدُّ تبريداً للماء من الجديد. و«عداداً» عند الطَّبراني: =

* وبلغت المكانةُ النَّبويَّةُ ذروتها اللائقة للحُسين رضي الله عنه، فقد أخرج الطَّبرانيُّ عن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه قال: «جاء الحسينُ ورسول الله ﷺ يصلّي، فالتزم عُنقَ النَّبيّ ﷺ فقام به، وأخذ بيدهِ فلم يزلْ ممسكها حتَّى ركع»[1].

* وكذلك فيما جاء عن جعفر بن محمّد عن أبيه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عبَّاس وعبد الله بن جعفر وهم صغارٌ لم يبلغوا ولم يبايعْ صغيراً إلَّا منّا»[2].

* ونعودُ إلى الإكرام العمريّ لسيّدنا الحسين، حيث إنَّ السِّيرة العمريّةَ الممزوجةَ بالنَّفحة الحسينيّة ترطِّبُ الأفئدةَ والأوقات والأوراق، كما تعطِّر المجالسَ وتزيدها أنساً وطيباً.

* فقد رووا: «أنَّ سيّدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه كان يخطبُ على المنبر، فقام إليه الحسينُ بنُ عليّ رضي الله عنهما، فقال: انزلْ عن منبر أبي.

قال عمر: منبرُ أبيك، لا منبر أبي، مَنْ أمرَك بهذا؟

فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال: ما أمره بهذا أحد! أما لأُوجعنَّكَ يا غُدَر.

فقال: لا توجع ابن أخي، فقد صدق؛ منبر أبيه»[3].

= أعذاراً. والظَّاهر: عِداداً: وهو الشَّيءُ الذي يأتيك لوقتٍ معلوم كما في غريبِ الحديث لأبي عُبيد (١/ ٧٣)، ولسان العرب لابن منظور (٣/ ٢٨٤)، والمعنىٰ: كان الماءُ قليلاً يأخذُهُ النَّاسُ لوقتٍ معلوم في نوبتهم. و«إلىٰ كلامه»: استخدمَ يده بدل لسانه، فأسرعَ إلىٰ البحث عن الماء قبل أنْ يقولَ نعم أو لا. و«الخدر»: السِّتر. و«يضغو»: يصيح و«أدلع»: أخرج لسانه: أي النّبيّ ﷺ هو الذي أخرجَ لسانه. و«هدأ»: سكَن. و«صدعنا»: مِلْنا وأسرعنا لئلا يكون الاختلاط بالنِّساء. و«الظَّعائن»: جمع ظعينة، النّساء. و«قارعة الطَّريق»: وسطه. وقيل: أعلاه. والمرادُ هاهنا: الطَّريق نفسه ووجهه.

(١) المعجم الكبير (٣/ ٥١) حديث رقم (٢٦٥٧). وانظر: مجمع الزّوائد (٩/ ١٨٦).

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٢٠٧)، ومختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٩).

(٣) حياة الصَّحابة (٢/ ٤٥٢) ومعنىٰ قوله «غُدر»: معدول عن غادر للمبالغة. قال ابن منظور: =

* وعن سيّدنا الحسينِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما قال: «صعدتُ إلى عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه المنبر، فقلت له: انزلْ عن منبر أبي، واصعدْ منبرَ أبيك.

فقال: إنَّ أبي لم يكنْ لي منبر.

فأقعدني معه؛ فلمّا نزلَ ذهبَ بي إلى منزلِه، فقال: أي بنيّ مَنْ علَّمَكَ هذا؟

فقلت: ما علْمنِيهِ أحدٌ.

قال: أي بنيّ، لو جعلْتَ تأتينا وتغْشَانا.

قال: فجئت يوماً وهو خَالٍ بمعاويةَ، وابنِ عمر بالباب لم يُؤْذَنْ له، فرجعتُ. فلقيني بعد فقال: يا بنيّ، لم أرك أتيتنا؟

قلت: جئتُ وأنتَ خَالٍ بمعاويةَ، فرأيتُ ابنَ عمر رجَعَ فرجعتُ.

فقال: أنتَ أحقُّ بالإذن من عبدِ اللهِ بنِ عمرَ، إنَّما أنبتَ في رؤوسِنَا ما ترىٰ اللهُ، ثمّ أنتم، ووضع يدَهُ على رأسِهِ»[1].

* وبلغ من توقيرِ كبراء الصَّحابة واحترامهم للحُسين مبلغاً مُلْفتاً للنَّظر، إذ صنعوا معه أشياء لا يمكن أنْ تكون إلا مع نبيلٍ من نُبلاء أهلِ البيتِ ورجالهم

= «وأكثر مايُستعمل هـٰذا في النّداء في الشّتم، يُقال: ياغدر».

(١) انظر: الإصابة (١/ ٣٣٢)، وقال ابن حجر: «سنده صحيح». وانظر: مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٦ و ١٢٧)، وتاريخ بغداد (١/ ١٤١)، وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٨٥). ومعنىٰ قوله «لم يؤذنْ له»: يعني أنْ يدخلَ علىٰ سيّدنا عمر رضي الله عنه. وقوله «إنّما أنبتَ في رؤوسنا ما ترىٰ اللهُ ثم أنتم...»: هـٰذا الكلامُ العمريُّ الجميلُ الصَّادقُ الصَّافي كناية عن الإيمانِ، ومعناه: أنَّ الذي ترىٰ في رؤوسنا ياحُسين منَ الخلافةِ، وفي قلوبنا من الإيمانِ والحكْمةِ، إنّما أنبته اللهُ عزَّ وجلَّ، ثم أنتم أهل البيت الأطهار، يعني: بسببكم لكم علينا مِنَنٌ ومنائحُ وبركاتٌ لاتُعدُّ ولا يدركُ مداها.

الأطهار، ومن أمثلة ذلك ما جاء عن أبي المُهزِّم قال: «كُنَّا في جنازةٍ، فأقبلَ أبو هريرة ينفضُ بثوبهِ التُّرابَ عن قَدمِ الحُسين رضي الله عنه»[1].

* كما بلغَ من كبار علماء الصَّحابة وعبادلتهم الأعلام؛ أنَّهم كانوا يحبّون رضاء الحُسين، ويؤثرون محبّته على كلِّ غالٍ ونفيس، ومن العبادلةِ[2] الأربعة العُلماء الكبراء عبد الله بن عمرو بن العاص[3] الذي كان يحرصُ أشدَّ الحرص على مرضاةِ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه، وكان سيّدنا أبو سعيد الخُدريّ[4] رضي الله عنه يقوم بدور الوسَاطة في سبيلِ رضا سيدنا الحُسين عن سيّدنا عبد الله بن عمرو في قصَّةٍ شائقةٍ تبيِّنُ لنا مكانةَ الحسين وقَدْرَهُ عند أهلِ الأرض والسَّماء.

* نقرأ أحداثَ هذه الأقصوصة الماتعة، ونعيشُ تحت ظلالها الوارفة مع الخبر الذي يرسمُ اعتذار سيّدنا عبد الله بن عمرو إلى سيدنا الحسين، والذي أخرجه الطَّبراني عن رجاء بن ربيعة[5] قال: «كنتُ في مسجدِ رسولِ الله ﷺ إذْ

(١) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٢٨٧).

(٢) اقرأ سيرةَ العبادلة في موسوعتنا المباركة «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ١٩ ـ ٢٨١) ففي سيرهم فوائد تجلىٰ، ومحاسنْ تُستحلىٰ، وبدائعُ تستجلىٰ بإذن الله.

(٣) اقرأ سيرة الصَّحابي العالم العَيْلم عبد الله بن عمرو بن العاص في كتابنا «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ١٢٧ ـ ١٦٦) فسيرتُه ذات زاد علميّ وفير ينفع العالم والمتعلّم والفقيه والمتفقّه بإذن الله.

(٤) اقرأ سيرة سيّدنا أبي سعيد الخدريّ في الباب الثّاني من موسوعتنا «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم». (ص ٥٠١ ـ ٥٥٠) فسيرتُه قدوة لكلّ مَنْ أرادَ أنْ يعلّمَ النَّاس السّيرة النّبوية و يحبّبهم بالحبيب المصطفىٰ ﷺ.

(٥) رجاءُ بنُ ربيعةَ الزَّبيديّ، أبو اسماعيل الكوفيّ، روىٰ عن عليّ، وأبي سعيد الخُدريّ، وابن عمر، والحسن بن عليّ، والبراء بن عازب، وزهير بن حزام، وعنه ابنه إسماعيل، ويحيىٰ بن هانىء بن عروة المراديّ. ذكره ابن حبّان في الثّقات؛ له في مسلم، وأبي داود، وابن ماجه حديث واحد. قال ابن حجر: «ذكر ابن خلفون أنّ أحمد صالح يعني العجليّ وغيره وثقوه». (تهذيب التّهذيب ٣/ ٢٦٦).

مرَّ الحسينُ بنُ عليّ رضي الله عنهما، فسلَّم، فردَّ عليه القومُ السَّلام، وسكتَ عبدُ الله بنُ عمرو رضي الله عنهما؛ ثمَّ رفعَ ابن عمر صوتَه بعدما سكَتَ القومُ، فقال: وعليكَ السَّلامُ ورحمة اللهِ وبركاته.

ثمَّ أقبلَ على القومِ فقال: ألا أخبركم بأحبِّ أهلِ الأرض إلى أهل السَّماء؟

قالوا: بلى.

قال: هو هذا المُقَفِّي، واللهِ، ما كلّمتُه كلمةً، ولا كلَّمني كلمةً منذ ليالي صِفِّين، وواللهِ؛ لأنْ يرضى عنّي أحبّ إليّ من أنْ يكونَ لي مثل أُحُدٍ.

فقال له أبو سعيد رضي الله عنه: ألا تغدو إليه؟

قال: بلى.

قال رجاءُ بنُ ربيعة: فتَواعَدا أَنْ يَغْدُوَا إليه، وغدوتُ معهما؛ فاستأذن أبو سعيد فأَذِنَ فدخلْنا، فاستأذن لابنِ عمروٍ، فلم يزلْ به حتّى أذنَ له الحُسين، فدخل فلمَّا رآه، وهو جالسٌ إلى جنْب الحسين، فَمَدَّهُ الحسينُ إليه، فقامَ ابنُ عمرو فلم يجلسْ، فلمّا رأى ذلك خَلاَ عن أبي سعيد، فأزحلَ له، فجلس بينهما، فقصَّ أبو سعيد القصَّة.

فقال: أكذاك يا بن عمرو؟ أتعلم أنّي أحبُّ أهل الأرض إلى أهل السَّماء؟
قال: إِي وربِّ الكعبة، إنَّك لأحبُّ أهل الأرضِ إلى أهل السَّماء.

قال: فما حَمَلك على أنْ قاتلتني وأبي يوم صفّين؟ والله، لأَبي خيرٌ منّي.

قال: أجل، ولكنَّ عَمْراً شكاني إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: إنَّ عبد الله يصومُ النَّهار، ويقومُ الليل.

فقال رسولُ الله ﷺ: «صلِّ ونَمْ، وصُمْ وأفطرْ، وأطع عمراً».

فلمّا كان يوم صفِّين أقسم عليّ؛ واللهِ؛ ما كَثَّرتُ لهم سواداً، ولا اخترطتُ لهم سيفاً، ولا طعنتُ برمحٍ، ولا رميتُ بسَهم.

فقال الحسين: أما علمتَ أنَّه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق؟

قال: بلى.

قال رجاءُ بنُ ربيعة: كأنَّه قبل منه»[1].

حياتُه معَ القُرآنِ الكريم:

* من المؤكَّد في أنَّ سيّدنا الحُسينَ رضي الله عنه رجلٌ عَلَمٌ من رجالِ أهلِ البيت الذين كانوا يحفظون كتابَ الله ِعزَّ وجلَّ، ويفهمون مقاصده وأحكامَهُ وعلومَهُ، فأهلُ البيتِ معدنُ العلْم، ويَنْبُوع المعرفةِ والفَهْم.

* ونجدُ بين ثنايا كتب التّفسير وعلومِ القُرآن وقفاتٍ جميلةً تخصُّ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه، في بعضِ نواحي حياته ضمن أهلِ البيت ساداتنا الأطهار الأخيار الذين نرجو الله أنْ يحشرَنَا في معّيتهم، فنحنُ والله ِنحبُّهم محبّةً نرجو معها النّجاة، والفوز برضوان الله ِورحمته.

---

(١) علماء الصَّحابة (ص ١٤٥ ـ ١٤٧)، وأسد الغابة (٣/ ٢٤٧) ترجمة رقم (٣٠٩٠) وحياة الصَّحابة (٢/ ٤٣٤)، وقال الهيثميُّ بعد أنْ ذكرَه في المجمع (٩/ ١٨٦ و ١٨٧): «رواه الطّبراني في الأوسط، وفيه عليُّ بنُ سعيد بن بشير، وفيه لينٌ وهو حافظٌ، وبقيّة رجالهِ ثقات».
وهو قوله «المُقفي»: الماشي الذّاهب المولّي ظهره. و«زَحَل»: زال عن مكانه. و«فمدَّه الحسين إليه»: نظرَ وشدَّد النَّظرَ إليه. و«خَلاَ عن أبي سعيد»: فرغ ممّا به عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، ثمّ توجّه إلىٰ عبدِ الله ِبنِ عمرو رضي الله عنهما. و«أزحل له»: نحّىٰ لأجله مَنْ كان قريباً منه. و«اخترطتُ»: ما استللْتُ السَّيفَ من غمدِه. و«ولا رميتُ بسهْمٍ»: لم أشاركْ في الحرب بأيّ أداةٍ من أدواتِ السّلاح المذكورة، وإنّما خرجتُ طاعةً لأمرِ والدي الذي أمَرني رسول الله ﷺ ألا أعصيه. و«معصية الخالق»: قال القاضي عياض رحمه الله: «أجمعَ العُلماء علىٰ وجوبِ طاعةِ الإمام في غيرِ معصية، وتحريمها في المعصية». والله أعلم.
ومن الفوائدِ المهمّة التي تندرجُ تحت هٰذا الخبر ما ذكرهُ الحمدونيّ قال: «ذُكِرَ عند الحُسين بن عليّ رضي الله عنهما اعتذار عبدِ الله ِبنِ عمرو بن العاص رضي الله عنهما من مشهده بصفّين فقال: رُبَّ ذنبٍ أحسن من الاعتذارِ منه»، فنظرَ إلىٰ هٰذا المعنىٰ محمود الورّاق فقال:

إذا كانَ وجْهُ العُذرِ ليس بواضحٍ ... فإنَّ اطّراحَ العُذر خيرٌ من العذر

(التّذكرة الحمدونيّة ٤/ ١١٣).

* فمن الأمور التي تتعلَّقُ بالاستعاذةِ وأحكامها؛ نقرأُ أنَّ أنبياءَ اللهِ ورسلَه كانوا يستعيذون دائماً من شرِّ شياطين الإنس والجنّ، وجاء الخبرُ بذلك عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه كان يعوِّذُ الحسنَ والحُسينَ رضي الله عنهما ويقول: «أعيذُكما بكلماتِ الله التّامة، من كلِّ شيطان وهامّة، ومن كلِّ عينٍ لامّة» ويقول: كان أبي إبراهيم عليه السَّلام يعوِّذُ بها إسماعيل وإسحاق عليهما السَّلام»[1].

* ومن الإشاراتِ اللطيفةِ التي تتعلَّقُ بالحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما وأنَّهما من الذُّريَّةِ الطَّاهرة، ومن كبراء أهل البيت وخواصه، ما جاء في ثنايا تفسير سورة البقرة عند الرّازي، مما رآه الشَّعبيُّ قال: «كنتُ عند الحجَّاج فأُتي بيحيى بنِ يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبّلاً بالحديد، فقال له الحجَّاج: أنتَ زعمتَ أنَّ الحسنَ والحسينَ من ذريّةِ رسولِ اللهِ ﷺ؟

فقال: بلى.

فقال الحجَّاجُ: لتأتينّي بها واضحةً بيّنةً من كتابِ اللهِ، أو لاقطعنَّكَ عضواً عضواً.

فقال: آتيكَ بها واضحةً بيّنةً من كتابِ اللهِ يا حجَّاجُ.

قال: فتعجَّبْتُ من جرأته بقوله يا حجَّاجُ.

فقال له: ولا تأتني بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾[آل عمران: ٦١].

فقال: آتيك بها واضحةً من كتابِ اللهِ، وهو قولُه: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[الأنعام: ٨٥] فَمَنْ كان أبو عيسىٰ وقد أُلحِقَ بذريّةِ نوح؟

قال: فأطرق مليّاً، ثمَّ رفعَ رأسه؛ فقال: كأني لم أقرأْ هذه الآيةَ من كتابِ

(١) التّفسير الكبير للرّازيّ (١/ ٦٩)، والحديث صحيحٌ جاء في الصَّحيح للبخاري وقد مرَّ معنا.

اللهِ. حُلُّوا وثاقَه، وأعطوه من المالِ كذا»[1]. فأُطْلِقَ الفقيه يحيى بنُ يعمر[2] وأُكرِم مثواه.

* ومن القَصَص الماتعةِ التي تندرجُ تحتِ فضيلةِ العلْم، والتي فيها نفحاتٌ حُسينيةٌ منعشةٌ للقلوبِ والأرواحِ ما ذكره فخرُ الدِّين الرّازي في ثنايا تفسيره للآية (٣١) من سورة البقرة، إذْ ألمحَ إلى حفْظِ سيّدنا الحُسين واستظهارِه لكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإلى شرفِهِ وجمالِهِ وكمالِهِ فقال: «قصدَ أعرابيٌّ الحسينَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما، فسلَّمَ عليه، وسأله حاجةً، وقال: سمعتُ جدَّكَ يقولُ: إذا سألتم حاجةً فاسألوها من أحدِ أربعةٍ:

إمّا عربيٌّ شريف.

أو مولى كريم.

أو حاملُ القرآن.

أو صاحب وْجهٍ صبيح.

فأمّا العربُ؛ فشرفتْ بجدّك.

وأمّا الكرمُ فدأبكُم وسيرتكم.

وأمّا القرآن ففي بيوتكم نزَل.

وأمّا الوجْهُ الصَّبيح فإنّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إذا أردتم أنْ

(١) التفسير الكبير (٢/ ١٧٨).

(٢) يحيىٰ بنُ يعمر أبو سُليمان العدوانيّ البصريّ، الفقيه العلامةُ المقرئُ، قاضي مرو، حدّثَ عن أبي ذرٍّ الغفاريّ، وعمّارِ بن ياسر مرسلًا، وعن عائشة، وأبي هُريرة، وابن عبّاس، وابنِ عمر، وعدّة. وقرأَ القُرآن علىٰ أبي الأسود الدّؤلي. وكان من أوعيةِ العلْم وحملة الحجّة. وقيل: إنّه كان أوّلُ مَنْ نقطَ المصاحف، وذلك قبل أنْ يوجدَ تشكيلُ الكتابة بمدّة طويلة، وكان ذا لَسَنٍ وفصاحة، أخذ ذلك عن أبي الأسود، وله أخبار كثيرة مع الحجّاج وغيره، توفي قبل التّسعين. (سير أعلام النّبلاء ٤/ ٤٤١ ـ ٤٤٣).

تنظروا إليَّ، فانظروا إلى الحسنِ والحُسينِ».

فقال الحُسينُ: سمعتُ أبي عليّاً يقول: قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يحسنُه، وسمعتُ جدّي يقولُ: المعروفُ بقدرِ المعرفة.

فأسألكَ عن ثلاثِ مسائل، إنْ أحسنْتَ في جوابِ واحدة، فلكَ ثلثُ ما عندي، وإنْ أجبْتَ عن اثنتَين فلك ثُلثا ما عندي، وإنْ أجبتَ عن الثَّلاث فلك كلُّ ما عندي، وقد حُمِلَ إليَّ صُرّة مختومة من العراق.

فقال: سَلْ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله.

فقال: أيُّ الأعمالِ أفْضَل؟

قال الأعرابيُّ: الإيمانُ باللهِ.

قال: فما نجاةُ العبدِ منَ الهلكةِ؟

قال: الثِّقةُ بالله.

قال: فما يزينُ المرء؟

قال: علْمٌ معه حلْمٌ.

قال: فإنْ أخطأه ذلك؟

قال: فمَالٌ معه كَرَم.

قال: فإنْ أخطأه ذلك؟

قال: فَفَقْرٌ معه صبْرٌ.

قال: فإنْ أخطأَهُ ذلك؟

قال: فصاعقةٌ تنزلُ من السَّماء فتحرقُه.

فضحكَ الحُسينُ رضي الله عنه ورمى بالصُّرّة إليه»!!؟!![1].

(١) التفسير الكبير (٢/ ١٨١ و ١٨٢)!؟!!.

* ونقرأ في سورة آل عمران أنَّ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه كان أحد أفرادِ أهلِ البيت الذين باهَلَ بهم النَّبيّ ﷺ وفْد نصارى نجران، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[آل عمران: ٦١].

* ذكر أهلُ التَّفسير والحديثِ في مصنَّفاتهم: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ لما أوردَ الدَّلائل البيّنات على نصارى نجران، ثمّ أصرّوا على جهلهم، قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ أمرني إنْ لم يقبلوا الحجَّة أنْ أباهلَكم».

فقالوا: يا أبا القاسم: بل نرجعُ فننظرُ في أمرنا ثمَّ نأتيك، فلمَّا رجعوا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ: يا عبدَ المسيح ما ترى؟

فقال: واللهِ لقد عرفتم يا معشرَ النَّصارى أنَّ محمّداً نبيٌّ مرسلٌ، ولقد جاءكم بالكلامِ الحقِّ في أمْرِ صاحبكم، واللهِ ما باهلَ قومٌ نبيّاً قطّ، فعاشَ كبيرهم، ولا نَبَتَ صغيرهم، ولئن فعلتُم لكان الاستئصال، فإنْ أبيتم إلا الإصرار على دِينكم، والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرَّجُل، وانصرفوا إلى بلادكم.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ خرجَ وعليه مرطٌ من شَعْرٍ أسود، وكان قد احتضن الحُسين، وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلْفَه، وعليّ خلفَها، وهو يقول: «إذا دعوتُ فأمّنوا».

فقال أسقف نجران: يا معشرَ النَّصارى، إنِّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أنْ يزيلَ جبلاً من مكانهِ لأزاله بها، فلا تباهلُوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجْهِ الأرض نصرانيّ إلى يوم القيامة.

ثم قالوا: يا أبا القاسم، رأينا ألا نباهلك، وأنْ نقرَّك على دِيْنِكَ.

فقال ﷺ: «فإذا أبيتم المباهلةَ فأسلمُوا، يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما على المسلمين». فأبوا؛ فقال: «فإنّي أناجزكم القتال».

فقالوا: ما لنا بحربِ العربِ طاقة، ولكنْ نصالحُكَ على ألا تغزونا، ولا تردّنا عن دِيننا، على أنْ نؤدّيَ إليك في كلِّ عام ألفي حُلّة: ألفاً في صفر، وألفاً في رجَب، وثلاثين درعاً عادية من حديد، فصالَحهم على ذلك وقال: «والذي نفسي بيده، إنَّ الهلاكَ قد تدلّى على أهلِ نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردةً وخنازيرَ، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل اللهُ نجرانَ وأهلَه حتى الطَّير على رؤوس الشَّجر، وَلَما حَال الحولُ على النَّصارى كلِّهم حتّى يهلكوا». وروي أنَّه ﷺ لمّا خرج في المِرطِ الأسودِ، جاء الحسنُ رضي الله عنه فأدخله، ثمّ جاء الحُسينُ رضي الله عنه فأدخله، ثمَّ فاطمة، ثم عليَّ رضي الله عنه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٣]، واعلمْ أنَّ هذه الرّوايةَ كالمتفقِ على صحّتها بين أهلِ التّفسير والحديث»(١).

* قال ابنُ عطيّةَ رحمه الله: «وفي تَرْكِ النَّصارى الملاعنةَ لعِلْمهم بنبوّة محمَّدٍ ﷺ شاهدٌ عظيمٌ على صحَّةِ نبوّته ﷺ». وقال أيضاً: «وما روى الرُّواة من أنّهم تركُوا الملاعنةَ لعلْمِهم بنبوّته أحجّ لنا على سائر الكفَرة، وأليق بحال محمّد ﷺ. ودعاء النّساء والأبناء للملاعنةِ أهزّ للنّفوس، وأدعى لرحمةِ الله، أو

---

(١) انظر: التّفسير الكبير ٤/ ٧١)، والقرطبيّ (٤/ ١٠٤)، والكشّاف (١/ ٤٣٤)، والبحر المحيط (٢/ ٥٠٣)، وغيرها ممّا لايُحصر. وقد أوردَ الفخر الرّازي سؤالاً مفاده: «بأنَّ الأولادَ إذا كانوا صغاراً لم يجزْ نزول العذاب بهم، وقد وردَ في الخبر أنه ﷺ أدخلَ في المباهلةِ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما فما الفائدة فيه»؟
والجواب: «إنَّ عادةَ اللهِ عزَّ وجلَّ جاريةٌ بأنَّ عقوبةَ الاستئصال إذا نزلتْ بقومٍ أهلكتْ معهم الأولادَ والنّساءَ، فيكون ذلك في حقّ البالغين عقاباً، وفي حقّ الصّبيان لايكون عقاباً، بل يكونُ جارياً مجرىٰ إماتتهم، وإيصال الآلام والأسقام إليهم.
ومعلومٌ أنَّ شفقةَ الإنسان علىٰ أولاده وأهله شديدة جداً، فربّما جعل الإنسانُ نفسه فداءً لهم، وجُنّة لهم، وإذا كان كذلك فهو ﷺ أحضر صبيانه ونساءه مع نفسه وأمرهم بأنْ يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزّجر، وأقوىٰ في تخويف الخصم، وأدل علىٰ وثوقه ﷺ بأن الحقّ معه».
(التفسير الكبير ٤/ ٧٣).

لغضبه على المبطلين. وظاهر الأمْر أنَّ النَّبيَّ ﷺ جاءهم بما يخصّه، ولو عزموا استدعىٰ المؤمنين بأبنائهم ونسائهم، ويحتمل أنّه كان يكتفي بنفسِهِ وخاصَّته فقط»[١].

* وقال الزَّمخشريُّ: «فإنْ قلْتَ: ما كان دعاؤهُ ﷺ إلى المباهلة إلا ليتبيَّنَ الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمْرٌ يختصُّ به، وبمن يكاذبه، فما معنى ضمِّ الأبناء والنّساء؟!

قلت: ذلك آكَدُ في الدَّلالةِ على ثقته بحاله، واستيقانِهِ بصدقِهِ، حيث استجرأَ على تعريض أعزّته وأفلاذ كبدهِ وأحبّ النّاس إليه لذلك، فلم يقتصرْ على تعريضِ نفسه له، وعلى ثقتِهِ بكذبِ خصمِهِ حتى يهلكَ خصمه مع أحبّته وأعزّته هلاكَ الاستئصال إنْ تمَّتِ المباهلة، وخصّ الأبناء والنّساء لأنّهم أعزُّ الأهل وألصقهم بالقلوب، وربّما فداهم الرّجل بنفسه، وحارب دونهم حتّى يُقتل، ومن ثمة كانوا يسوقُون مع أنفسهم الظَّعائن في الحروب لتمنعهم من الهَربِ، ويسمون الذَّادةَ عنهم بأرواحهم حماة الحقائق، وقدمهم في الذّكر على الأنفس ليُنبّه على لطف مكانِهم، وقربِ منزلتهم، وليؤذِنْ بأنّهم مُقَدَّمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليلٌ لا شيء أقوى منه على فضْلِ أصحابِ الكساء رضي الله عنهم، وفيه برهانٌ واضحٌ على صحّةِ نبوّةِ النَّبيّ ﷺ لأنَّه لم يَرْوِ أحد من موافقٍ، ولا مخالفٍ أنَّهم أجابُوا إلى ذلك»[٢].

* وقد استدلَّ الرَّازي على أنَّ سيّدنا الحُسين وأخاه الحسن رضي الله عنهما من ذريّةِ رسولِ الله ﷺ في تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾[الأنعام: ٨٧] حيث قال: «الآية تدلُّ على أنَّ الحسنَ والحسين رضي الله عنهما من ذريّةِ رسولِ الله ﷺ، لأنَّ الله تعالى جعل عيسى عليه السَّلام من ذريّة إبراهيم عليه السَّلام، مع أنَّه لا ينتسبُ إلى إبراهيمَ إلا بالأم، فكذلك الحسنُ

---

(١) تفسير ابن عطيّة (ص ٣١١).
(٢) الكشّاف (١/ ٤٣٤)، وانظر: تفسير البحر المحيط (٢/ ٥٠٣).

والحسينُ رضي الله عنهما من ذريّةِ رسولِ اللهِ ﷺ بالأم، وجَبَ كونها من ذرّيته، ويُقال: إنَّ أبا جعفر الباقر استدلَّ بهذهِ الآية عند الحجّاجِ بنِ يوسُف»[1].

* وممّا يندرجُ تحت هذا ما جاء في تفسيرِ الزّمخشريّ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[الإسراء: ٧١] قال: «ومن بدع التّفاسير أنَّ الإمامَ جمع أمّ، وأنَّ النّاس يدعون يوم القيامة بأمّهاتهم، وأنَّ الحكمةَ في الدُّعاء بالأمّهات دون الآباء رعاية حقّ عيسى عليه السَّلام، وإظهار شرف الحسنِ والحسين رضي الله عنهما، وألا يفتضح أولادُ الزّنى، وليت شعري أيّهما أبدع: أصحّة لفظه؛ أمْ بهاء حكمته»[2]؟!

الحسينُ والحديثُ النّبويُّ والفتوى:

* لا ريب في أنَّ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه من رجالِ أهلِ البيت الأطهار، وثاني السِّبْطَيْن السَّعيدين وهؤلاء أجمعون ممَّن ورثَ العِلْمَ والمهابةَ عن الصَّادقِ المصدوق ﷺ.

* يُعَدُّ الحسينُ رضي الله عنه ممَّن روى الحديثَ النّبويَّ الشَّريف، فقد حدَّثَ عن جدّه حبيبنا المصطفى ﷺ، وعن أبويه سيِّدنا عليّ وسيّدتنا فاطمة رضي الله عنهما، وعن صهرهِ سيّدنا عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه، وعن خالِهِ هند بن أبي هالة رضي الله عنه.

* روى عنه من أهلِ البيتِ من صغار الصَّحابة: أخوهُ سيّدنا الحسن رضي الله عنه وأرضاه.

* وروى عنه من رجالِ أهلِ البيتِ من الذُّرية الطَّاهرة: ولداه: عليٌّ وزيدٌ، وابن أخيه زيد بن الحسن، وحفيده محمّد بنُ عليّ الباقر ولم يدركْه.

* روى عنه من نساء أهل البيت من الهاشميّات الطَّاهرات: ابنته فاطمة

---

(١) التّفسير الكبير (١٣/ ٥٥).

(٢) الكشاف (٢/ ٤٥٩) دار المعرفة ـ طبعة مصورة دون تاريخ أو ذكر رقم الطبعة.

وسكينة، وقد توسعنا في سيرتهما في كتابنا: «نساء من عَصْر التَّابعين».

* وروى عنه من علماء التَّابعين جماعة منهم: عامر الشَّعبيُّ، وعكْرمةُ، وكُرزُ التَّيميّ، وعُبيد بنُ حُنين، وعبدُ الله بنُ عمرو بن عثمان، وهمامُ الفِرزدق، وسنانُ بنُ أبي سنان الدّؤلي، وطلحةُ بنُ عُبيد الله العقيليّ وآخرون[1].

* قال ابنُ حجر في «الإصابة»: «وقد حفظ الحسينُ رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ وروى عنه، أخرجَ له أصحابُ السُّنَن أحاديث يسيرة؛ وروى ابنُ ماجه وأبو يعلى عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من مسلمٍ تصيبُه مصيبة وإنْ قدم عهدها فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه اللهُ ثوابَ ذلك»، لكن في إسناده ضعف»[2].

* رُويَ لسيّدنا الحسين في مسند بقي بن مخلد، وفي مسندِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبل ثمانية أحاديث، وله في السُّنَن الأربعة خمسة أحاديث.

* وأشار الدّكتور فاروق حمادة في كتابه «الدّوحة النّبويّة الشّريفة» إلى ناحيةٍ في غايةِ الأهمية تتعلّق برواية سيّدنا الحسنِ والحُسينِ رضي الله عنهما فقال ما نصُّه: «ولعلَّ قائلاً يقولُ: لِمَ لَمْ يخرّجِ البُخاريُّ ومسلمٌ في صحيحهما للسِّبطَيْن رضي الله عنهما؟

والجوابُ عن ذلك، أنَّ الأمرَ في إخراجِ الأحاديث يرتكزُ على قضيّةِ المنهج من علوّ الإسناد، ومن صحّةِ الطّريق إلى السِّبطَيْن على شرطهما، وبينهم قرنان من الزَّمان، أي شرط البخاري ومسلم، ومن تفرّدهما بحديث يدخل في موضوع كتابيهما، أو وجود ذلك في مرويّاتهما التي سمعاها ـ أي الحسن والحُسين ـ عن رسولِ الله ﷺ، وقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحهما

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٨٠)، والإصابة (١/ ٣٣١)، وتهذيب التّهذيب (٢/ ٣٤٥)، وتاريخ الإسلام للذّهبي (حوادث ووفيات ٦١ ـ ٨٠ هـ ـ ص٩٤) مع الجمع والتّصرّف.

(٢) الإصابة (١/ ٣٣١).

حديثَيْن من طريق الحسينِ الشَّهيد عن أبيه عليٍّ بنِ أبي طالب، عن النَّبيِّ ﷺ، ولو وجدا عن السِّبطين على شروطهما وموضوعهما لأخرجا ذلك والله أعلم.

وقد علَّق البُخاري عن الحسنِ في صحيحه، فهو من رجاله، فمن يتعلَّق بهذا الطَّعنِ في البخاري ومسلم، فهو إمّا مغرضٌ أو جاهلٌ، ولو تنكَّبَ البخاريُّ ومسلمٌ الرِّوايةَ عنهما لما ذكرَا من فضائِلهما ـ عن غيرهما من الصَّحابة ـ وفضائل آل بيتهما، وقد بوَّبَ البخاريُّ رحمه الله في صحيحه كتاب فضائل الصَّحابة فقال: بابُ مناقب الحسنِ والحُسينِ رضي الله عنهما، وذكر ثمانية أحاديث متّصلة وعلَّق واحداً، أمّا المتّصلة فهي عن أبي بكرةَ، وأسامةَ بن زيد، وأنس بنِ مالك وعنه حديثان، والبراءِ بنِ عازب، وأبي بكر الصِّدِّيق ـ وابن عمرَ حديثاً مرفوعاً ـ وآخر قال: قال أبو بكر الصِّديق: ارقبوا محمّداً ﷺ في أهلِ بيته.

والمعلَّق عن أبي هريرةَ، وقد ذكره موصولاً في كتاب البيوع، فَعَجَبٌ وقحةٌ أنْ يقول غرٌّ أو جاهلٌ أو حاقدٌ: إنَّ البخاريَّ لم يخرِّجْ لآلِ البيتِ أو لم يذكُرْ فضائلهم؟! والواقع أنَّ في الصَّحيحَيْن من فضائل آل البيتِ الكثير»(١).

* والآن سنَنْتَعِشُ مع بعضِ مرويّات سيّدنا الحُسين رضي الله عنه وأرضاه، ومنها ما جاء في تواضع سيّدنا وحبيبنا رسولِ الله ﷺ، وفي صِفَةِ مدخله، ومخرجه، وشكله، وشيء من شمائله الشَّريفة، وخصائله المنيفة.

* من ذلك ما أخرجه التّرمذيُّ رحمه الله بسنده عن الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما، قال: سألتُ خالي: هندَ بن أبي

---

(١) الدّوحةُ النّبويةُ الشَّريفة (ص ١٤٢ ـ ١٤٣) وقال الدّكتور فاروق حمادة في الهامش: «انظر البخاري، الجامع الصحيح (٩٤١٧)، ط، السلفية، وانظر كذلك صحيح مسلم، الصَّحيح: (٤/ ٨٨)، باب فضائل الحسن والحُسين؛ والتّبويب للإمام النّوويّ لكنَّ الأحاديث موجودةٌ، وأتبعه مسلم بفضائل أهل البيت، ثم بعد ستّة أبواب فضائل فاطمة» (الدّوحة النّبوية الشّريفة ص ١٤٣).

هالة[1] ـ وكان وصّافاً ـ عن حلْيةِ النّبيِّ ﷺ، وأنا أشتهي أنْ يصفَ لي منها شيئاً، فقال: كان رسولُ الله ﷺ فخماً مفخّماً، يتلألأُ وجهه تلألؤ القمرِ ليلةَ البدر.

قال الحسنُ رضي الله عنه: فكتَمْتُها الحسينَ رضي الله عنه زماناً، ثم حدَّثْتُه، فوجدته قد سبقني إليه، فسأله عمّا سألته عنه، ووجدتُه قد سألَ أباه عن مدخلِه، ومخرجه، وشكله، فلم يدعْ منه شيئاً.

قال الحسينُ رضي الله عنه: فسألتُ أبي عن دخولِ رسولِ الله ﷺ؟

فقال: «كان إذا أوىٰ إلى منزلِهِ جزَّأَ دخولَهُ ثلاثةَ أجزاء: جزءاً لله عزَّ وجلَّ، وجزءاً لأهلِهِ وجزءاً لنفسِهِ، ثمَّ جزَّأَ جُزْأَه بينَه وبينَ النَّاس، فيردُّ ذلك بالخاصَّة على العامةِ، ولا يدخرُ عنهم شيئاً، وكان من سيرتِهِ في جزءِ الأمة إيثارُ أهلِ الفَضْلِ بإذنِهِ، وقَسْمُهُ على قَدْر فَضْلهم في الدّين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتَيْن، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغلُ بهم، ويشغَلُهُم فيما أَصْلَحَهُمْ والأمةَ من مساءلتهم عنه، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: «ليبلّغِ الشاهدَ منكم الغائب، وأبلغوني حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغها، فإنَّه مَنْ أبلغ سلطاناً حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغها ثبّتَ اللهُ قدمَيهِ يوم القيامة» لا يُذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون روّاداً ولا يفترقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلَّةً، يعني: على الخير».

قال: فسألتُه عن مخرجِهِ: كيف كان يصنعُ فيه؟

---

(١) هندُ بنُ أبي هالة التّميميّ، ربيبُ رسولِ الله ﷺ، أمُّه سيّدتنا الطّاهرةُ خديجةُ بنتُ خويلد زوجُ رسولِ الله ﷺ، وأخواته لأمّه: زينبُ، ورقيةُ، وأمّ كلثوم، وفاطمةُ الزّهراء رضي الله عنهنَّ. وكان أبوه حليفَ بني عبد الدّار. شهد هندُ بنُ أبي هالة بدراً، وقيل: شهد أُحداً، وقُتِلَ هندُ بنُ أبي هالة مع عليّ يوم الجملَ. وروىٰ هندُ بنُ أبي هالة حديث صفة النّبيّ ﷺ، وهو مشهورٌ من روايته، يرويه عنه ابن أخته الحسن ابن فاطمة بنت رسولِ الله ﷺ ورضي عنها. (أسد الغابة ٥/٦٤٣ و ٦٤٤) ترجمة رقم (٥٤٠٥)، و (تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٤٠ و ١٤١) مع الجمع والتصرف.

قال: «كان رسولُ الله ﷺ يخزنُ لسانَه إلا فيما يعنيه، ويؤلِّفهم ولا ينفّرهم، ويكرمُ كريم كلّ قوم، ويوليه عليهم، ويحذّرُ النَّاس، ويحترسُ منهم من غير أن يطويَ عن أحد منهم بِشْرَهُ ولا خُلُقَه، ويتفقّد أصحابه، ويسأل النَّاس عما في النَّاس، ويُحَسِّن الحسن ويقوّيه، ويقبِّح القبيح ويوهِّنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يَغْفُل مخافة أنْ يغفلُوا أو يميلوا، لكلّ حال عنده عتاد، لا يقصِّر عن الحقِّ، ولا يجاوزه، الذين يلونه من النّاس خيارهم، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنُهم مواساة وموازرة».

قال: فسألته عن مجلسه؟

فقال: «كان رسولُ الله ﷺ لا يقومُ ولا يجلسُ إلا على ذكْر، وإذا انتهى إلى قومٍ جلسَ حيثُ ينتهي به المجلس، ويأمرُ بذلك، يعطي كلّ جلسائه بنصيبه، لا يحسبُ جليسه أنَّ أحداً أكرمُ عليه منه، مَنْ جالَسَه، أو فاوضَه في حاجةٍ صَابرَهُ حتّى يكون هوَ المُنْصَرِفَ، ومَنْ سأله حاجةً لم يردَّهُ إلاّ بها، أو بميسورٍ من القول، قد وسعَ النَّاس بَسْطُهُ وخلقُهُ، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواءَ، مجلسُهُ مجلسُ حلمٍ وعلمٍ وحياءٍ، وصبرٍ، وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ، ولا تُنْثَى فلتاته، متعادلين يتعاطفون فيه بالتَّقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصَّغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب»(١).

---

(١) الشّمائل المحمّديّة للتّرمذيّ (ص ٢٠٨ ـ ٢١٠) حديث رقم (٣٣٤). ومعنىٰ قوله: «مخْرجه ومدخله»: خروجه ﷺ للنَّاس، ودخولُه بيتَه الطَّاهر. و«شكْله»: هيئتُه في ذلك الحال. و«جزَّأ»: قسم. و«جزءاً لنفسِهِ»: منْ مأكلٍ ومشربٍ وراحة وغيره ممّا يليق به ﷺ. و«لايدّخر عنهم شيئاً»: لايخفي ولايمنعُ عن النَّاس شيئاً ممّا ينفعهم في دينهم ودنياهم. و«أهل الفضل»: أهلُ العلْم والصَّلاح والشّرف، فكان ﷺ يؤثرهم ويقدّمهم في الدّخول عليه في خلوتهِ في بيتهِ. و«قسْمُه علىٰ قدر فضلهم في الدّين»: الوقتُ الذي جزّأه للأمّةِ قَسَمهُ بين الأمة علىٰ قَدْرِ فضلهم في الدّينِ من جهةِ الصَّلاح والتّقوىٰ. و«يتشاغل بهم»: مشغولين بما أمرهم به. و«من مساءلتهم عنه»: يسألُهم عمّا هو من مصالح الأمّة ويجيبُهم عليه إن لم يهتدوا إلىٰ الصَّواب فيه. =

* وساقَ هذا الحديثَ البلاذريُّ في «أنساب الأشرافِ» بألفاظٍ متقاربةٍ عن سيّدنا الحسنِ، الذي ذكَر بعضَ شمائلِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثم قال: فكتمتُها عن أخي الحُسين زماناً، ثمّ حدثتهُ بها فوجدتُه قد سبقني إليه، فسأله عمّا سألته عنه؛ ووجدتُه قد سألَ أباه عن مدخلِ رسولِ اللهِ ﷺ، مخرجه، ومجلسهِ، وشكلهِ، وسيرتهِ، وكلامهِ، وسكوتهِ.

= و«روّاداً»: طالبين العلْم وملتمسين الحكْم من جهته. و«ذَواق»: يعني يفرقون عن علْمٍ يتعلمونه. و«أدلّة»: فقهاء. و«يخزن لسانه»: يصونهُ. و«يعنيه»: يهمّه وينفعه في الدّين والدّنيا. و«يؤلفهم ولاينفرهم»: كان النّبيّ ﷺ يؤلّفُ بين النّاسِ بكريم معاشرته، وحسنِ مقابلته، ولا ينفرهم بغلظة أو فظاظة، ويحبّبُ النّاس في بعضهم. «يحذَر الناس»: يحترسُ منهم وهؤلاء هم حديثو العهد بالإسلام فلا يخبرهم بمهام الأمور ولكنه يكرمهم. و«يتفقّد أصحابه»: يسأل عمّن لم يحضرْ عنده في مجلسه. «يُحسِّن الحسنَ»: يُبيّن حُسْنَه ويمدح فاعله ترغيباً نافعاً. و«يقبّحُ القبيح» يقولُ: هو فعْلٌ قبيحٌ وساقطٌ تنفيراً وتحذيراً، أو نصحاً نافعاً. و«معتدل الأمر»: أمورُه ﷺ كلّها معتدلة لاإفراط فيها ولا تفريط. و«غير مختلف»: علىٰ سَنَنٍ واحدٍ في جميع أوقاته. و«عتاد»: العُدّة والشّيء الحاضر المعدّ. و«يلُونه»: يقربون منه في مجلسه ونحوه. و«أعمّهم نصيحة»: ينصح في كل أمر كلّ أحد، بإرشاده لما هو خير له. و«منزلة»: رتبةً وشرفاً. و«مواساة»: إعطاء مَنْ يريد مايريد. و«موازرة»: معاونة. و«بنصيبه»: مايستحقّه من ملاطفته، ومجاوبة سؤاله وبشره ﷺ. و«فاوضه»: إذا قام ليقضي حاجته صبر عليه إلىٰ أنْ يقضيها. و«صابره»: حبس نفسه علىٰ مايريد صاحبه. و«وسع النَّاس بسْطه وخلقُه»: عمّهم بسْطه: أي بسْطَ يدِهِ ﷺ، وبشْرُه، وطلاقةُ وجهه، وحسنُ خلقه. و«فصار لهم أباً»: بمنزلة الأب في البرّ والصِّلة وقصد الخير. و«لا تُؤْبنُ فيه الحُرم»: لا يذكرن فيه بسوء. و«لا تُنْثَىٰ فلتاته»: لا تُذاع ولا تُشاع فلتاته أي زلاّته. والمعنىٰ: لم يكن في مجلسه فلتات فَتُنْثىٰ. أو المعنىٰ: إنْ صدرت هفوة منْ أحدِ الجلساء فلا تُذاع ولا تُنقل عن المجلس، بل يُنبّه إليها صاحبها، وتُسْتر عليه، فلا تُعاد أصلاً. و«متعادلين»: متساويين بينهم ومتوافقين مع بعضهم، وأفضلهم أتقاهم. و«يوقّرون»: يحترمون ويبجّلون.

أقول: «هـٰذا الشرح مستقىٰ من هامش الشمائل المحمدية ص ٢١٠ ـ ٢١٢) وهو شرح نفيس جداً أوضح فيه محقق الكتاب كثيراً من الغوامض، فجزاه الله خيراً وأحسن إليه ولجميع المخلصين في خدمة الإسلام والمسلمين».

قال الحُسينُ رضي الله عنه: سألتُ أبي عن مدخلِ رسولِ الله ﷺ.

فقال: «كان مدخلهُ لنفسهِ مأذوناً له في ذلك، فإذا آوى إلى أهلهِ، جزَّأَ مدخلَه ثلاثةَ أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لنفسهِ، وجزءاً لأهلهِ. ثمَّ جزَّأ جزأه لنفسِهِ بينَه وبين النَّاس، فردَّ على العامةِ من الخاصّة، وكان من سيرتِه إيثار أهلِ الفَضْل بإذنه وقسمه على قَدْرِ فَضْلهم في الدِّين، فمنهم ذو الحاجة، وذو الحاجتَيْن، وذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم، وأصلح الأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقولُ: «ليبلغِ الشَّاهد الغائب، وأبلغوني حاجةَ من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنَّه مَنْ أبلغ سلطاناً حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغه إياها ثبّت الله قدمه يوم القيامة». لا يُذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل غيره من أحد».

قال: وسألتُهُ عن مخرجِ رسولِ الله ﷺ، وكيف كان يصنعُ فيه؟

فقال: «كان يخزنُ لسانه عمّا لا يعنيه، وكان يؤلِّفُ، ولا ينفِّرُ، ويكرمُ كريمَ كلِّ قوم ويوليه عليهم، ويحذر النَّاس الفتن، ويحترس منهم من غير أنْ يطويَ عن أحد بِشْره ولا خلقه، يتفقّد أصحابه، ويسأل عمّا في النّاس فيحسِّنُ الحسن ويقويه، ويقبّح القبيح ويوهنه، مؤتلف الأمر، غير مختلفه، لكلِّ حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحقّ، ولا يجوز الدّين، أفضلُ النّاس عنده أعمُّهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة».

قال: وسألته عن مجلسِ رسولِ الله ﷺ؟

فقال: «كان لا يجلسُ ولا يقوم إلا على ذكْرِ الله، ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قومٍ جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمرُ بذلك، ويعطي كلاً من جلسائه بنصيبهِ، فلا يحسبُ جليسه أنَّ أحداً أكرم عليه منه؛ من جالسه أو قارنه في حاجة، سايره حتّى يكون هو المنصرف، ومَنْ سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع النَّاس منه بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواء، مجلسه مجلس حلمٍ، وحياءٍ،

وصدقٍ، وأمانةٍ، لا ترفع فيه الأصواتُ، ولا توتن فيه الحرم، ولا تُنثى فلتاته، ترى جلساءه يتفاضلون فيه بالتَّقوى، متواضعين، يوقِّرون الكبير، ويرحمون الصَّغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحوطون الغريب».

قال: قلتُ: فكيف كانت سيرتُه في جلسائِه؟

قال: «كان ﷺ دائم البِشْر، سهلَ الخلق، ليّنَ الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا عيّاب، ولا فحّاش، ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهيه، ولا يؤيسُ منه ولا يجيبُ فيه. قد تركَ نفسه من ثلاث: كان لا يذمُّ أحداً ولا يعيّره، ولا يطلب عثرته، ولا يتكلّم إلا فيما رجى ثوابه، فإذا قال؛ أطرق جلساؤه فكأنّما على رؤوسهم الطَّير، وإذا سكَتَ، تكلَّموا، لا ينازعون عنده أحداً، مَنْ تكلَّم أنصتوا حتَّى يفرغَ من كلامه، حديثهم عنده حديث أوليتهم، يضحكُ ممّا يضحكون منه، ويعجب ممّا يعجبون منه، ويصبرُ للغريب الجافي في منطقه ومسألته، حتّى إن كان أصحابه ليستجلبونهم ويقول: «إنْ رأيتم طالب حقّ فارفدوه». ولا يقبل الثَّناء إلا من المكافىء، ولا يقطع على أحدٍ حديثَه حتى يجوزَ، فيقطعه بنهي أو قيام».

قلت: فكيف كان سكوته؟

قال: «على أربع: الحلمُ، والحذرُ، والتقديرُ، والتّفكيرُ.

فأمّا تقديره: ففي تسوية النَّظر بين النَّاس، واستماعه منهم.

وأمّا تفكيره: ففيما يفنى ويبقى. وجمع الحلم والصَّبر، فكان لا يغضبه شيء، ولا يستفزّه. وجمع ثلاثاً: أخذه بالحسن ليقتدىٰ به، وتركه القبيح ليتناهىٰ عنه، واجتهاده الرّأي فيما أصلح أمته، وجمع لهم خير الدّنيا والآخرة ﷺ»[1].

---

(١) أنساب الأشراف (١/ ٣٨٧ ـ ٣٧٩)، وأخرج الترمذي قطعة منه من قوله: «فكيف كانت سيرته في جلسائه... إلىٰ قوله: فيقطعه بنهي أو قيام». انظر: الشّمائل المحمّديّة (ص ٢١٩ و ٢٢٠) حديث رقم (٣٤٩).

* وأخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن سيِّدنا الحسينِ رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «للسَّائل حقٌّ وإنْ جاء على فرس»(١).

* ومن خصائص أهل البيتِ نقرأ في المسند أيضاً بسند عن ربيعةَ بنِ شيبان قال: قلتُ للحُسينِ بن عليّ رضي الله عنهما: ما تعقلُ عن رسولِ الله ﷺ؟

قال: صَعِدْتُ غرفةً فأخذتُ تمرةً فلكْتُها في فِيَّ.

فقال النَّبي ﷺ: «ألقِها، فإنَّها لا تحلُّ لنا الصَّدقة»(٢).

* ومما جاء في المسند بسندٍ عن الحُسينِ رضي الله عنه وأرضاه أنَّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنْ حسنِ إسلام المرءِ قلّة الكلام فيما لا يعنيه»(٣).

* وأخرج الطَّبرانيُّ عن فاطمةَ بنتِ الحُسين عن أبيها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أصابتْهُ مصيبةٌ فقال: إذا ذكرها: إنا لله وإنا إليه راجعون، جدَّدَ اللهُ له من أجرها مثل ما كان يوم أصابته»(٤).

* ومن المرويّات الشَّهيرة عن سيّدنا الحُسين رضي الله عنه ما أخرجه الطَّبراني بسنده عن فاطمةَ ابنته عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ معالي الأمور، ويكرهُ سَفْسَافها»(٥).

* وفي فَضْل الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ، أخرجَ الإمامُ أحمد بسنده عن عبدِ اللهِ بنِ عليّ بن حُسين، عن أبيه رضي الله عنه أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «البخيلُ مَنْ ذكرتُ عنده ثمَّ لم يُصَلِّ عليَّ»(٦).

---

(١) المسند (١/ ٤٢٨) حديث رقم (١٧٣٠)، وأخرجه الطّبرانيّ في الكبير (٣/ ٣٠ و ١٣١) برقم (٢٨٩٣).

(٢) المسند (١/ ٤٢٨) حديث رقم (١٧٣١).

(٣) المسند (١/ ٤٢٩) حديث رقم (١٧٣٢) ورقم (١٧٣٧)، والطّبرانيّ برقم (٢٨٨٦).

(٤) المعجم الكبير (٣/ ١٣١) حديث رقم (٢٨٩٥).

(٥) المعجم الكبير (٣/ ١٣١) حديث رقم (٢٨٩٤).

(٦) المسند (١/ ٤٢٩) حديث رقم (١٧٣٦).

* أمّا في فَضْلِ حملةِ القُرآن فقد أخرج الطَّبرانيُّ بسند رفعه إلى سكينةَ بنتِ الحسين عن أبيها قال: قال رسولُ الله ﷺ: «حملةُ القرآن عرفاء أهل الجنَّة يوم القيامة»[1].

* وفيما يتعلّقُ بالصَّلاة أخرج الطَّبرانيُّ بسنده عن عبد الله بن عطاء عن البهزيّ قال: «سألتُ الحسينَ بنَ عليٍّ رضي الله عنه عن تشهّدِ عليٍّ رضي الله عنه؟

فقال: هو تشهّدُ رسولِ الله ﷺ.

قلتُ: فتشهد عبد الله؟

فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يحبُّ أن يخفّف على أمته.

فقلت: كيف تشهَّدَ عليٌّ بتشهُّدِ رسولِ الله ﷺ؟

قال: «التّحيّاتُ لله والصّلواتُ والطّيّباتُ الغاديات الرّائحات الزّاكيات الطَّاهرات لله»[2].

* وفي فضْل الحجّ لمن لا يقدرُ على الجهاد جاء عن سيّدنا الحُسين رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ إلى النّبيّ ﷺ فقال: إنّي جَبَانٌ، وإنّي ضعيفٌ، قال: «هلمّ إلى جهادٍ لا شوكةَ فيه؛ الحجّ»[3].

* ومرويّات سيّدنا الحُسين رضي الله عنه موجودةٌ في المصادر التي استقينا منها ما ذكرناه، ومَنْ أرادَ أنْ يستزيدَ فليرجعْ إلى المصادر المذكورة وغيرها يجدْ بغيته.

* أمّا الفتاوى التي أُثرتْ عن سيّدنا الحُسين رضوان الله عليه فمعروفةٌ مشهورةٌ في مصادر ترجمته، وهي تدلُّ على سعَةِ علْمِهِ وفقهه. فقد كان هذا

---

(١) المعجم الكبير (٣/ ١٣٢) حديث رقم (٢٨٩٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ١٣٤) حديث رقم (٢٩٠٥).

(٣) المصدر السّابق (٣/ ١٣٥) حديث رقم (٢٩١٠).

السَّيِّد الشَّريف من بعض مراجعِ الفُتيا من رجالِ أهلِ البيت، وقد رجع إليه بعضُ علماء الصَّحابة وفقهائهم في بعض المسائل الشَّرعية، وكان ممَّن سأله عبدُ الله بنُ الزُّبير[1] رضي الله عنهما وهو أحد العبادلةِ الأربعةِ الفُقهاء العُلماء الحُلماء الذين طبَّقَت شهرتهم الدنيا.

* أوردَ ابنُ عبد البرّ في «الاستيعاب» عن بشرِ بنِ غالب قال: «سمعتُ ابنَ الزُّبير رضي الله عنهما وهو يسأل حُسينَ بنَ علي رضي الله عنهما: يا أبا عبد الله، ما تقولُ في فكَاك الأسير على مَنْ هو؟

قال: على القومِ الذين أعانهم؛ وربّما قال: قاتل معهم»[2].

* قال سفيان: «يعني يقاتل مع أهلِ الذّمّة فيفك من جزيتهم»[3].

* قال بشرُ بنُ غالب: وسمعتُ ابنَ الزّبير يقول له: يا أبا عبد الله؛ متى يجبُ عطاء الصَّبيّ؟

قال: إذا استهلَّ وجَبَ له عطاؤه ورزقه.

* وسأله ابنَّ الزُّبير أيضاً عن الشُّرب قائماً، فدعا بلقحةٍ له، فحلبَ، وشربَ قائماً، وناوله[4].

* وكان رضي الله عنه يعلِّقُ الشَّاة المصلية ـ المشوية ـ فيطعمنا منها، ونحنُ نمشي معه[5].

---

(١) اقرأ سيرة العالم الكريم عبد الله بن الزّبير رضي الله عنهما في الباب الأوّل من موسوعتنا «علماء الصّحابة رضي الله عنهم» (ص ١٦٧ ـ ٢١٩) دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٦ م.

(٢) الاستيعاب (١/ ٣٨٣) بهامش الإصابة.

(٣) المصدر السابق عينه.

(٤) المصدرُ السَّابق ذاته. أقولُ: أخرجَ الطَّبرانيُّ بسندهِ عن زيادِ بنِ المنذر، عن بشر بنِ غالب عن حُسين بن عليّ رضي الله عنهما، قال: «رأيتُ النَّبيَّ ﷺ يشرب وهو قائم» (المعجم الكبير ٣/ ١٣٣ حديث رقم ٢٩٠٤). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٨٠) عن هٰذا الحديث: «وفيه زياد بن المنذر، وهو متروك».

(٥) الاستيعاب (١/ ٣٨٣).

* ويُعتبرُ سيّدنا الحسينُ من رجالِ أهلِ البيت الذين يُؤخذُ عنهم الفقْهُ والأحكامُ، فمن فقهه ما أوردته المصادرُ الوثيقة عن جعفرَ بنِ محمّد عن أبيه قال: «كان الحسنُ والحسينُ رضي الله عنها، يصلّيان خَلْفَ مروانَ بنِ الحكم القرشيّ الأمويّ، ولا يعيدانها، ويعتدّان بها»، أو «يقعدان بها»[1].

* وقد شهد شاهدٌ من أهلِ البيتِ الأطهار بصحّة ما كان يفعله السِّبطان الشَّريفان من الصَّلاة خلف مروان، وكذلك عليّ بن الحُسين[2] من الصَّلاة خلف ولاة بني أميّة؛ فقد أخرج ابنُ سعد بسنده عن أبي جعفر[3] قال: «إنّا لنصلّي خَلْفَهم ـ يعني الأمويّة ـ في غير تقيّة، وأشهد على عليّ بن الحسين أنّه كان يصلّي خلفهم في غير تقيّة»[4].

---

(١) البداية والنّهاية (٨/ ٢٥٨)، وسير أعلام النّبلاء (٣/ ٤٧٨). ومن فقه سيّدنا الحسن والحسين رضي الله عنهما ما جاء عن حبيب بن أبي ثابت قال: سألتُ عطاء؛ أحْمِل من ماء زمزم؟ فقال: «قد حمله رسول الله ﷺ وحمله الحسن والحسين رضي الله عنهما». (المعجم الكبير ٣/ ٢٨).

(٢) عليُّ بنُ الحُسين، السّيد الإمام، زينُ العابدين، الهاشميّ العلويّ، المدني، أمّه سلافةُ بنتُ ملك الفرس يَزْدَجِرْد. قال عنه الإمامُ الذَّهبيُّ: «كان له جلالةٌ عجيبةٌ، وحُقّ له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمىٰ لشرفِهِ وسؤدده وعلمه وتألهه وكمال عقله». وقال: «ولا بقية للحُسين رضي الله عنه إلا من قبل ابنه زين العابدين». (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٩٨ و ٤٠٠).

(٣) أبو جعفر الباقر الإمام محمد بنُ عليّ بن الحسين العلويّ الفاطميّ المدنيّ ولد زين العابدين. قال عنه الذّهبيّ: «كان أبو جعفر إماماً، مجتهداً، تالياً لكتابِ اللهِ، كبير الشّأن، ولكن لا يبلغُ في القرآن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نحابيه، ولا نحيفُ عليه، ونحبّه في اللهِ لما تجمع فيه من صفات الكمال». وقال: «وقد عدّه النّسائي وغيره في فقهاء التّابعين بالمدينة، واتّفق الحُفّاظ على الاحتجاج بأبي جعفر». وكان يُقال له: باقر العلم، وأمّه هي أمُّ عبد الله بنت الحسن بن عليّ، وفيه يقول القرظي:

يـا بـاقـرَ العِلْـم لأهـلِ التقـىٰ وخَيْـرَ مَـنْ لبّـىٰ علـىٰ الأجبُـل

ومن أقوالِهِ الماتعةِ: «الصّواعق تصيبُ المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذّاكر». وقال: «سلاحُ اللئام قبح الكلام»، وأخباره لا تُحصر ولا تُستقصىٰ. (سير أعلام النّبلاء ٤/ ٤٠١ ـ ٤٠٩).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٢١٣).

* وثبتَ في المصادرِ المتنوّعةِ وكتبِ الأحكام الفقهيّة أنَّ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه وأرضاه قد لزمَ السُّنَّةَ يومَ وفاةِ أخيه سيّدنا الحسن رضي الله عنه، إذ قدم للصَّلاة عليه سعيد بن العاص الأمويّ القرشيّ قائلاً له: «تقدّم، فلولا أنَّها سُنَّةٌ ما قُدِّمْتَ»(١).

* وقد أخرجَ هذا الأثر الطَّيِّب أبو القاسم الطَّبرانيّ في «معجمه» بسندهِ عن سالم بنِ أبي حفصة عن أبي حازم الأشجعي قال: «شهدتُ حُسيناً رضي الله عنه حين مات الحسن رضي الله عنه، وهو يدفعُ في قَفا سعيدِ بنِ العاص وهو يقول: تقدّمْ فلولا أنَّها السُّنَّةُ ما قدمتُكَ. وسعيد أمير على المدينة يومئذٍ»(٢).

* وأخرجَ الطَّبرانيُّ أيضاً هذا الأثر بسندهِ عن أبي حازم الأشجعي قال: «رأيتُ الحسين بنَ عليّ رضي الله عنهما قدّم سعيدَ بنَ العاص في جنازةِ الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما»(٣).

قبسَاتٌ سنيةٌ من الدَّوحةِ الحُسينيّة:

* نمتحُ من معين سيّدنا الحسين أخباراً وقصَصاً تروي الغُلّة، وتشفي العلّة، وتنيرُ الدَّربَ، وتهدي السَّبيل، وترشدُ المتعلّم، وتثْري المتفقّه، وتزيدُ الأديبَ أدباً ومحاضرةً.

* وقد خصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ رجالَ أهل البيت بمناقبَ حِسَانٍ، وأخلاقٍ فاضلة، وشمائلَ نبيلةٍ، اقتبسوها من معلِّم النَّاس الخير، ومَنْ شهد له الرَّبُّ العظيمُ، بأنَّه لعَلَى خلُق عظيم، سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ.

---

(١) سير أعلام النّبلاء (٣/ ٢٧٦ و ٢٢٧).

(٢) المعجم الكبير (٣/ ١٣٦). وقال الهيثميُّ في مجمع الزّوائد (٣/ ٣١): «ورجاله موثوقون».
ورواه الحاكم في مستدركه (٣/ ١٧١) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذّهبي والبيهقي.
وسالم بن أبي حفصة صدوق فحديثه حسن. وهٰذا الأثر رواه البزّار (٨١٤)، وعبد الرزّاق (٦٣٦٩).

(٣) المعجم الكبير (٣/ ١٣٦) حديث رقم (٢٩١٣).

* وتذكر السِّيرةُ الحُسينيّةُ بأنّه كان ذا خُلُقٍ كريم وأدبٍ جمّ مع أخيه الحَسن رضي الله عنه؛ فقد كَتَبَ سيّدُنا الحسنُ إلى أخيه الحسينِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهم أجمعين في إعطائه الشُّعراء، فكتبَ إليه سيّدنا الحسينُ رضوان الله عليه: «أنتَ أعلمُ منّي بأنَّ خيرَ المال ما وُقيَ به العرض»[1].

قال ابن حمدون: «فانظرْ إلى شرفِ أدبِهِ، وحسنِ خلقه، كيف ابتدأ كتابَه بقوله: أنتَ أعلمُ منّي»[2].

* ومن شمائلِهِ الشَّريفة، وأخلاقِهِ العاليةِ المُنيفة، وسماحته اللطيفة، الممزوجةِ بأدبِ القرآن، وكلمات الرّحمن، ما ذكره أهلُ الأدب والعرفان؛ قالوا: «جنى غلامٌ له جنايةً توجبُ العقابَ عليها، فأمرَ به أنْ يُضرَبَ، فقال: يا مولاي: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

قال: خلُّوا عنه.

فقال: يا مولاي ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٣٤].

قال: قد عفوتُ عنك.

قال: يا مولاي ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

قال: أنتَ حرٌّ لوجْهِ اللهِ، ولك ضعفُ ما كنتُ أعطيك»[3].

---

(١) نثر الدر (١/ ٣٣٥)، والتذكرة الحمدونية (٢/ ١٨٦)، والمستطرف (١/ ٣٦٦).

(٢) المستطرف (١/ ٣٣٦) نقلاً عن التذكرة الحمدونية (٢/ ١٨٧).

(٣) التّذكرة الحمدونيّة (٢/ ١٨٧)، ونثر الدّرّ (١/ ٣٣٦)، والفرجُ بعد الشّدّة (١/ ٣٧٤) والقصّة نُسبتْ لعددٍ من المشاهير: لسيّدنا الحسنِ بن عليّ، وللحسينِ، ولزينِ العابدين، وللمأمونِ الخليفة العباسي وغيرهم.

وقد أُغرمَ كثيرٌ من الشّعراء بهٰذه القصّة، فنسجوا منْ وحيها ما يزينُ صدور الكتب، والمجالس، والنّدوات، قال ابنُ الخيّاط الدّمشقي:

مِنَ الكاظمينَ الغيظ والمحسنينَ ... إذا برّحَتْ بالصّدور الحُقودُ

فَمُتَّ بجرمٍ إلىٰ عفوهِ ... ينلْكَ مع العفو برٌّ وجُودُ=

* وكان بين سيّدنا الحُسين وبين أخيه الحَسن كلام، فقيل له: ادخلْ على أخيكَ فهو أكبرُ منك.

فقال: إنّي سمعتُ جدّي رسولَ الله ﷺ يقول: «أيّما اثنين جرى بينهما كلامٌ فطلبَ أحدهما رضى الآخر كان سابقه إلى الجنّة». وأنا أكرهُ أنْ أسبقَ أخي الأكبر إلى الجنَّةِ.

فبلغ ذلك الحسن، فجاءه عاجلاً رضي الله عنهما[1].

* ومن مُستجاد القَصَص الحُسيني وبدائعه مع عُبيدِ الله بنِ عبّاس ما حملته بطونُ مصادرِ الأدب وصدورها قالت: «حَبَس معاويةُ رضي الله عنه عن الحسينِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما صِلاَتِهِ فقيل: لو وجَّهتَ إلىٰ ابن عمّك عُبيد

= إذا كنـــتَ سيّـــدَ قـــوم ولـــم … تسَعْهـم بحلـمٍ فـأنـتَ المسُـودُ

وقال غيره:

يغضـي عـن الـذّنـبِ عفـواً وهـو مقتـدرٌ … ويتـركُ البطـشَ حلمـاً وهـو غضبـانُ

وقال آخر:

بـأبـي وأمّـي أنـتَ مـا أنـدىٰ يـدا … وأبـرَّ ميثـاقـاً ومـا أزكَـاكَـا

يغـدو عـدوُّك خـائفـاً فـإذا رأىٰ … أنْ قـد قـدرتَ علـىٰ العقـاب رجـاهَـا

(١) المستطرف (١/ ٣٦٦)، ونثرَ الدّر (١/ ٣٣٧). أقول: «وقع قريباً من مثلِ هذه القصَّةِ بين سيّدنا الحُسين رضوان الله عليه وبين أخيه محمّدِ بنِ عليّ المشهور بابن الحنفيّةِ رحمه الله، وظهرَ بذلك أدبُ سيّدنا الحُسين وسماحتُه ومكانتُه في نفوسِ إخواته».

فقد ذكروا أنَّه وقعَتْ جفوةٌ بينَه وبين أخيه محمّدِ ابنِ الحنفيّة، فكتب ابنُ الحنفية إليه: «بسمِ الله الرّحمنِ الرّحيمِ. من محمّد بنِ عليّ بن أبي طالب، إلىٰ الحُسين بنِ عليّ بن أبي طالب؛ أمّا بعد: فإنَّ لكَ شرفاً لا أبلغُه، وفَضْلاً لا أدركه، أبونا عليٌّ رضي الله عنه لا أفضُلك فيه ولا تفضلني، وأمّك فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ، ولو كان ملءُ الأرضِ نساء مثل أمّي ما وافين بأمّك، فإذا قرأتَ رقعتي هٰذه، فالبسْ رداءك ونعليك وتعال فترضَّني، وإيّاك أنْ أسبقَك إلىٰ هٰذا الفَضْل الذي أنت أولىٰ به منّي؛ والسَّلام».

فأدرك سيّدنا الحسينُ رضي الله عنه مرام أخيهِ محمّد، وعرفَ فحوىٰ رسالته، فسارعَ رضي الله عنه، ولبس رداءه، وتوجَّه إلىٰ أخيه محمّد ابن الحنفيّة فترضّاه؛ رضي الله عنه وأرضاه.

اللهِ بنِ عبّاس، فإنَّه قَدِمَ بنحو ألف ألف ـ مليون ـ.

فقال الحسين: وأنّى تقعُ ألف ألف من عُبيدِ الله؟ فوالله لهو أجودُ من الرّيح إذا عصفَتْ، وأسخى من البحر إذا زخر، ثمّ وجَّه إليه مع رسوله بكتاب يذكرُ فيه حَبْسَ معاويةَ صِلاتِهِ عنه، وضيق حاله، وأنَّه يحتاجُ إلى مئةِ ألفِ درهم.

فلمّا قرأَ عُبيد الله كتابه انهملتْ عيناه، وكان أرقَ النَّاس قلباً، وألينهم عطفاً، وقال: الحُسينُ يشكو ضيقَ الحال وكثرةَ العيال؟!

ثم قالَ لقهرمانه ـ وكيله ـ: احملْ إلى الحُسين نصْفَ ما نملكه من ذهبٍ وفضَّة ودواب، وأخبرْهُ أنّي شاطرته مالي، فإن كفَاهُ وأقنعه ذلك وإلا فارجعْ واحملْ إليه الشَّطر الآخر.

فلمّا أتاه الرّسول قال الحُسين: إنّا للهِ وإنَّا إليه راجعون، ثقَّلتُ والله على ابن عمّي، وما حسبت أنَّه يسمحُ لنا بهذا كلّه، وأخذ الشَّطر من ماله، ودعا له، رضي الله عنهم أجمعين»[١].

* ومن القَصص الشَّائقة التي تدلُّ على مكانة الحُسين عند أجوادِ النَّاس، وأسخيائهم من الصَّحابة الأعلام، ما جاء عن سعيدِ بنِ العاص الأمويّ القرشيّ رضي الله عنه، الذي لم يحبَّ أنْ يدخل أي شيء يكره سيّدنا الحُسين رضي الله عنه وأرضاه.

* عرفنا من خلال المصادر المتخصّصة أنَّ سعيدَ بنَ العاص[٢] القرشيّ

---

(١) المستطرف (١/ ٤٩٠ و ٤٩١)، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٢٨٧)، والعقد الفريد (١/ ٢٩٥) مع الجمع والتّصرف اليسير.

(٢) سعيدُ بنُ العاص بنِ سعيد القرشيّ الأمويّ، وجدُّهُ هو المعروفُ بأبي أُحيحة، وكان أشرفَ قريش، وأمُّ سعيد هي أمّ كلثوم بنتُ عمرو العامريّة. وُلد سعيدٌ عامَ الهجرة، وكان جدّه أبو أحيحةَ إذا اعتمَّ بمكّة لا يعتمّ أحدٌ بلونِ عمامتِهِ، إعظاماً له، وكان يقال له: ذو التّاج. وكان سعيدٌ هٰذا منْ أشرافِ قريش، وأجوادِهم، وفصحائِهم، وهو أحدُ الذين كتبوا المصحفَ لعثمانَ بنِ عفّان رضي الله عنه، واستعمله عثمانُ علىٰ الكوفة بعد الوليد بنِ عقبة. وغزا =

الأمويّ رضي الله عنه كان من ساداتِ الأسخياءِ في عصره، ومن جملة الكتبةِ الفَصَحة، جعله سيّدنا عثمان بن عفّان فيمن يكتب المصاحف، وكان سعيدٌ رضي الله عنه أشْبَه النَّاس لحيةً برسولِ الله ﷺ، وكان حسن السّيرة، صافي السّريرة، محبّاً للسّبطين الحَسن والحُسين بارّاً بهما، وبأصحابهِ، وقوراً حليماً حكيماً، ذا فصاحة وعقل وأدب كالورد الغضّ في ربيعٍ جميل.

* وقد خطب سعيدُ بنُ العاص سيّدتنا أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهي إحدى نساءِ أهلِ البيت الطّاهرات، وزهراته النَّادرات، فاشتورتْ أمْر هذه الخطبة مع أخويها الحَسنِ والحُسينِ رضي الله عنهم أجمعين، فأجاب سيّدنا الحسنُ ورضيَ بسعيدٍ صهْراً، بينما كَرِهَ سيّدنا الحُسين هذه المُصَاهرة، وأوعزَ إلىٰ السَّيِّدة أمّ كلثوم قائلاً: «يا أُخية، لا تتزوَّجيهِ»... وكانتِ السَّيّدةُ النَّبيلةُ أمّ كلثوم رضي الله عنها قد وعدتْ سعيداً بالإيجاب، وهيأتْ دارها، ورتبت أمورَها، وبعثَ لها سعيدٌ بمئة ألف درهم.

= طبرستان فافتتحها، وغزا جُرجان فافتتحها سنة (٢٩ أو ٣٠ هـ). ولما قُتل عثمانُ لزمَ بيتَه واعتزلَ الفتنةَ، فلم يشهدْ معركة الجمل ولا صفين، ولما استقر الأمر لمعاوية أتاه، ثم ولاّه المدينة، وكان سعيدُ كثيرَ الجود والسّخاء، وكان إذا سأله سائل، وليس عنده مايعطيه، كتب به ديناً إلىٰ وقتِ ميسرتهِ، وكان يجمعُ إخوانه كلَّ جمعةٍ فيصنعُ لهم الطَّعام، ويخلعُ عليهم، ويرسلُ إليهم بالجوائز، ويبعثُ إلىٰ عيالاتهم بالبرالكثير، وكان يبعثُ مولىً له إلىٰ المسجد بالكوفة في كلِّ ليلة جمعة، ومعه الصّرر فيها الدّنانير، فيضعها بين يدي المصلّين، وكان قد كثر المصلّون بالمسجدِ بالكوفة في كل ليلة جمعة.
روىٰ سعيدٌ هـٰذا عن النّبيّ ﷺ، وعن عمرَ، وعن عثمانَ، وعائشةَ، روىٰ عنه ابناه عمرو الأشدق، ويحيىٰ، وكذلك روىٰ عنه سالمَ بنُ عبد الله بن عمر، وعروةُ بنُ الزّبير.
وتوفي سعيدُ بنُ العاص سنة (٥٩ هـ)، ولمّا حضرتْه الوفاةُ قال لبنيهِ: أيكم يقبلُ وصيّتي؟ قال ابنُه الأكبر: أنا ياأبه. قال: إنَّ فيها وفاء دَيني. قال: ومادَينُك؟ قال: ثمانون ألف دينار. قال: وفيم أخذتها؟ قال: يابني في كريم سددت خَلّته ـ حاجته ـ، وفي رجل جاءني ودمه ينزوي في وجهه من الحياء، فبدأته بحاجته قبل أنْ يسألنيها. فرضي الله عن سعيد بن العاص وأرضاه. (أسد الغابة ٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣١) ترجمة رقم (٢٠٨٢).

وكان سعيدٌ رضي الله عنه قد وعد أصحابه ومعارفه، وأرسل إليهم ليحضروا تزويجه، فلمّا اجتمعوا عنده ـ كان قد عرف كراهية سيّدنا الحُسين لهذِهِ الخطبة ـ قال لهم: «إنّي قد دعوتكم لأمرٍ، ثمّ بدا لي غيره، إنّي كنتُ خطبْتُ أمَّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، فأنعمت، وواللهِ ما كنتُ لأدخلَ على أبي عبد الله الحُسين أمراً يكرهه».

فتفرّقُوا عن غيرِ تزويج، وتركَ سعيدٌ هذا الأمْرَ الذي كان يزعجُ الحُسينَ، وترك جميعَ المال لأمِّ كلثوم بنت عليّ رضي الله عنهما، حبّاً في أهلِ البيتِ الأطهار وبرّاً بهم[1].

* قُلنا في موسوعتنا «نساء أهل البيت»: «وبهذا أظهرَ سعيدُ بنُ العاص حُسْنَ وُدِّهِ لأهلِ البيتِ النَّبويِّ الطَّاهر، كما أبانَ عن طيبِ نفْسِهِ، ونبلِ مكارمه، وهو الذي كان يوصي أولادَه قائلاً: يا بنيّ، إنَّ المكارمَ لو كان سهلةً يسيرةً

(١) مختصر تاريخ دمشق (٩/ ٣١٣) بشيء من التّصرف. وانظرْ موسوعتنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» (ص ٧٠١ و ٧٠٢) ط٦ ـ ٢٠٠٥ م أقول: «لعلَّه من المفيد في هٰذا المقام أنْ نسوقَ قصة المعتصم العباسي مع الهاشميّة التي لبَّاها وفك أسرها، وأظهر بذلك حبّه واحترامه لأهل البيت الأطهار رضي الله عنهم أجمعين».
أورد صلاح الدّين الصّفديّ قصّة المعتصم ملخّصة منسّقة في كتابه «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» فقال: «رحم الله المعتصم، قد كان ذا عزمٍ ومروءةٍ وعصبيةٍ لهٰذا الدينِ القيّم؛ بلغه وهو في مجلس شرابه أنَّ أمرأةً هاشميّةً عند بعضِ نصارىٰ عمورية، وأنَّ نصرانياً منَ البطارقة لطَمها علىٰ وجهها.
فقالت: وامعتصماه.
فقال النّصراني: مايجيء إليك إلا علىٰ الأبلق.
فيقال: «إنّه ختمَ الكأسَ التي كانت في يده، وأقسم ألا يشربها حتىٰ يفكَّ الهاشميّة من الأسر؛ ونادىٰ في عسكره أن يجتهدوا في ركوب الخيل البُلق. فيقال: إنَّه توجّه إلىٰ عمورية في سبعين ألف أبلق، ولم يزلْ بجدّه واجتهاده حتىٰ فتح عمورية، وتطلَّبَ تلك الهاشميّة بعينها، فلما حضرت قال لها: لبيكِ لبيك، وطلب تلك الكأس المختومة وشربها، وصار ركوب الأبلق مثلاً». (الغيث المسجم ١/ ٣١٥).

لسابقكم إليها اللئامُ، ولكنَّها كريهةٌ مرّةٌ، لا يصبرُ عليها إلاَّ مَنْ عَرفَ فَضْلَها، ورَجَا ثوابَها. . . وما أجمل أنْ يعلِّمَ الآباءُ أولادهم مثل هذه الدُّرر الحِسَان، التي تعينُهم على الزَّمان»[1].

* وما أجملَ قول مَنْ نظمَ في حُسْنِ مكارمِ الأخلاق؛ وفي بقاء الثَّناء العطر هذه الهمسة:

كـلُّ الأمـورِ تـزولُ عنـكَ وتنقضـي ... إلا الثَّنـاءُ فـإنَّـه لـك بَـاقِ
لـو أنّنـي خُيِّـرتُ كـلَّ فضيلـةٍ ... مـا اختـرتُ غيـرَ مكـارمِ الأخـلاقِ

* ومن عيونِ الأخبار الحُسينيّة، ونثرِ درِّ القصص الهاشميّة ما ذكروا فقالوا: «دخلَ على الحُسين بن عليٍّ رضي الله عنهما جاريةٌ في يدها طاقة ريحان، فحيَّتْهُ بِها، فقال لها: أنتِ حرّةٌ لوجْهِ اللهِ تعالى.

قال أنس: فقلتُ له: تحيّيكَ بطاقةِ ريحانٍ لا خَطَر لها فتعتقُها؟

فقال: كذا أدَّبنا اللهُ عزَّ وجلَّ قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[النساء: ٨٦][2]».

* وكان سيّدنا الحسينُ كريماً حصيفاً قضَّاءً للحوائج، ما سُئل إلاَّ أعطى، وكان في عطائِهِ أديباً أريباً حليماً يكره أنْ يساوي أخاه الحسن في العطاء تأدّباً معه، قال ابنُ قتيبة: «أتى رجل الحسن بن عليّ رضي الله عنهما يسأله، فقال الحسن: إنَّ المسألةَ لا تصلحُ إلاَّ في غُرم فادحٍ، أو فَقْر مدقع، أو حمالةٍ مفظعة.

فقال الرَّجل: ما جئتُ إلاّ في إحداهنَّ.

فأمرَ له بمئة دينار، ثم أتى الرَّجلُ الحسينَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهم فسأله، فقال له مثل مقالة أخيه، فردَّ عليه كما ردّ على الحسنِ، فقال: كم أعطاكَ؟

---

(١) نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث (ص ٧٠٢).
(٢) التذكرة الحمدونية (٢/ ١٨٦).

قال: مئة دينار.

فنقصَه ديناراً، كره أنْ يساوي أخاه، ثم أتى الرَّجلُ عبدَ الله بن عمر رضي الله عنهما، فسأله فأعطاهُ سبعةَ دنانير ولم يسأله عن شيءٍ؛ فقال له الرّجل: إنّي أتيتُ الحسنَ والحسينَ، واقتصَّ كلامهما عليه وفعْلَهما به، فقال عبد الله: ويحك، وأنَّى تجعلني مثلَهما؟! إنَّهما غُرَّا العِلْم؛ غُرّا المال رضي الله عنهما»(١).

* وجُودُ سيِّدنا الحُسين نابعٌ من إيمانِه بالله عزَّ وجلَّ مستقىً من الشَّجرة الهاشميّةِ، مُغَذّىً من المائدةِ المحمّديّةِ، مرفودٌ بالآدابِ الفاطميّة؛ والقصّةُ الآتيةُ تسفرُ عمّا ذكرناها، وتفصح عمّا أوردناه.

* تقول القصَّةُ: «خرج الحسنان، وعبدُ الله بنُ جعفر، وأبو حبّة الأنصاريّ من مكَّةَ إلى المدينة، فأصابتهم السَّماءُ فلجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثاً حتّى سكنت السَّماء، وذبح لهم، فلمَّا ارتحلوا قال له عبدُ الله: إنْ قدمتَ المدينة فَسَلْ عنّا.

فاحتاجَ الأعرابيُّ بعد سنين، فقالت له امرأته: لو أتيتَ المدينة، فلقيتَ أولئك الفتيان.

فقال: قد أنسيتُ أسماءهم.

قالت: سَلْ عن ابن الطَّيَّار.

فأتاهُ فقال: القَ سيّدنا الحسنَ، فلقيه فأمرَ له بمئةِ ناقةٍ بفحولها ورعاتها، ثمَّ أتى الحُسينَ فقال: كفَانا أبو محمّد مؤونة الإبل، فأمرَ له بألفِ شاة؛ ثمَّ أتى عبدَ الله بنَ جعفر فقال: كفاني أخواي الإبلَ والشَّاء، فأمر له بمئةِ ألف درهم، ثمَّ أتى أبا حبَّة فقال: واللهِ ما عندي مثلُ ما أعطوك.

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ١٤٠)، ومختصر دمشق (٧/ ١٢٦)، وقوله: «غُرّا»: أُلقماه. يقال: غرّ الطّائر فرخَه: إذا زقّه. ومنه حديث معاوية: «كانَ النّبيّ ﷺ يغرُّ عليّاً بالعلمِ».

ولكنْ جئني بإبلك، فأوقرها له تمراً؛ فلم يزلِ اليَسارُ في أعقابِ الأعرابي من ذلك اليوم»[1].

* وإليكم هذه القبسة الفريدة التي يرويها الأسودُ بنُ قيس العبديّ قال: «قيل لمحمّدِ بنِ بشير الحضرميّ: قد أُسِرَ ابنك بثغر الرّيّ.

قال: عند الله أحتسبُه ونفسي، ما كنتُ أحبّ أنْ يُؤْسَر، ولا أنْ أبقى بعده.

فسمعَ قوله الحُسينُ رضي الله عنه فقال له: رحمك اللهُ، أنتَ في حلٍّ منْ بيعَتي، فاعملْ في فكاكِ ابنك.

قال: أكَلَتْني السِّباعُ حيّاً إن فارقتك.

قال: فأعطِ ابنك هذه الأثواب البرود يستعنْ بها في فداء أخيه؛ فأعطاه خمسةَ أثواب قيمتها ألف دينار»[2].

* وكان سيّدنا الحُسين رضي الله عنه مستجاب الدّعوة. مباركاً، طيباً، فيه نفحة مصطفويّة ميمونة منذ أنْ حنّكه المصطفى ﷺ بريقه الشَّريف يوم أنْ وُلدَ، وقد عرف النَّاس هذه الخصوصية المباركة، فأخذوا يطلبون منه أن يدعو لهم.

* قال أبو عون: «لمّا خرجَ الحسينُ بنُ عليّ من المدينةِ يريدُ مكّة، مرَّ بابنِ مطيع وهو يحفرُ بئره.

فقال له: أين فداك أبي وأمّي؟

قال: أردت مكّة؛ وذكر له أنَّه كتبَ إليه شيعته بها.

فقال له ابنُ مطيع: إنّي فداك أبي وأمّي، متّعنا بنفسِكَ ولا تَسِرْ إليهم.

فأبى حسين رضي الله عنه، فقال له ابنُ مطيع: إنَّ بئري هذه قد رشحتُها،

(١) التّذكرة الحمدونيّة (٢/ ٣٧١)، والمستطرف (١/ ٤٨٨).
(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٩ و ١٣٠).

وهذا يومُ أوار، ما خرجَ إلينا في الدُّلْوِ شيءٌ من ماء، فلو دعوتَ اللهَ لنا فيها بالبركة.

قال: هات من مائها؛ فأتى من مائِها في الدّلو، فشربَ منه ثمَّ تمضمضَ، ثمَّ ردَّه في البئر، فأُعذبَ وأُمرِي»[1].

* ومن القبسَاتِ الهادياتِ الدَّالاتِ على عبقريّة سيّدنا الحُسين رضي الله عنه ردُّه المُفحم على نافع بن الأزرق[2] حتّى اعترف ابنَ الأزرق بأنَّ سيّدنا الحسينَ قد غُرَّ العِلْم غرّاً، وأنَّه ليس من رجاله في الفصاحة والفَهم، علماً بأنَّ ابنَ الأزرق كان يطرحُ أسئلة تحيّر الفَهْم، ولكنَّه وقع في المصيدة التي كان ينصبُها للنَّاس، ولقيَ من سيّدنا الحُسين ما حيَّره وأسْكتَه، وأدحضه، وردَّه خاسئاً متحيّراً، لا يحسنُ جواباً ولا يقيم حجّة، بعد أنْ كان يظنُّ أنَّه وحْدهُ في ساحةِ الكلام والمصاولةِ بالحجَّة وبلاغة القول، وتحييرِ العقول بأفانين العلومِ والفلسفاتِ.

* دعونا الآن نقتربُ من هذه النَّدوةِ الحافلةِ بالعلْم والمعرفة، ولنستمعْ

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٠) وقوله: «رشحتها»: أصلحتها. و«أمري» كثر ماؤها. وقيل: أمهى بدلاً من أمري.

(٢) نافعَ بنُ الأزرق بنِ قيس الحنفيّ، البكريّ، الوائليّ، الحروريّ، أبو راشد، رأسُ الأزارقة، وإليه نسبتهم، كان أمير قومِهِ وفقيههم، من أهل البصرة، صحبَ في أوّلِ أمرهِ سيّدنا عبد اللهِ بنَ عبّاس، وله أسئلة رواها عنه، وكان هو وأصحابُه ممّن والىٰ سيّدنا علياً، ثمّ انقلبَ عليه بالخروج عن عليّ رضي الله عنه، وعُرفوا لذلك بالحروريّين الخوارج.
وكان نافعُ بنُ الأزرق يذهبُ إلى سوقِ الأهواز، ويعترضُ النَّاسَ بما يحيُّر العَقْل ـ كما يقول الذّهبي ـ ولـمّا ولي عبيد الله بنُ زياد إمارةَ البصرة سنة (٥٥ هـ) اشتدَّ على الحروريين وقتلَ زعيمهم أبا بلال سنة (٦١ هـ). وأخبار ابن الأزرق كثيرةٌ سوَّدتِ الصَّفحات المختلفة من مصادرِ الأدب والتَّاريخ والتراجم. وكان نافع جبّاراً فاتكاً، قاتله المهلبُ بنُ أبي صفرة، ولقي الأهوال في حربهِ، وقُتل يوم دولاب على مقربةٍ من الأهواز عام (٦٥ هـ). (لسان الميزان للذهبي (٦/ ١٤٤) بتصرف.

إلى عِكْرمةَ مولى ابن عبَّاس عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «بينما هو يحدّثُ النَّاس، إذ قام إليه نافعُ بنُ الأزرق فقال له: يا بن عبّاس، تفتي النَّاس في النَّملةِ والقملةِ، صِفْ لي إلهكَ الذي تعبد.

فأطرقَ ابنُ عبّاس إعظاماً لقوله، وكان الحُسين بنُ عليّ رضي الله عنهما جالساً ناحية، فقال: إليَّ يا بن الأزرق.

قال: لستُ إيّاك أسأل.

قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: يا بن الأزرقِ، إنَّه من أهلِ بيتِ النُّبوّة، وهم ورثةُ العلْم.

فأقبل نافعٌ نحو الحُسين، فقال له الحُسين رضي الله عنه: يا نافع، إنَّ مَنْ وضع دِينَه على القياس، لم يزل الدَّهر في التباس، سائلاً ناكباً عن المنهاجِ، طاعناً بالاعوجاجِ، ضالاً عن السَّبيل، قائلاً غير الجميل.

يا بنَ الأزرقِ، أَصِفُ إلهي بما وصفَ به نفسُه، وأعرّفُهُ بما عرَّفَ به نفسه، لا يُدركُ بالحواس، ولا يُقاس بالنَّاس، قريبٌ غير ملتصق، بعيدٌ غير منتقص، يُوحَّد ولا يُبعَّض، معروفٌ بالآيات، موصوفٌ بالعلامات، لا إله إلا هو الكبيرُ المُتَعال.

فبكى ابن الأزرق وقال: يا حُسينُ ما أحسنَ كلامك!

قال له الحُسين: بلغني أنَّك تشهدُ على أبي وعلى أخي بالكفْرِ وعَليَّ!!

قال ابنُ الأزرق: أما واللهِ يا حُسين، لئن كان ذلك لقد كنتم منارَ الإسلام، ونجومَ الأحكام.

فقال له الحُسين: إنّي سائلك عن مسالةٍ.

قال: سَلْ.

فسأله عن هذه الآية: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾[الكهف: ٨٢]، يا بن الأزرق، مَنْ حفظَ في الغلامين؟

قال ابنُ الأزرق: أبوهما..

قال الحُسين: فأبوهما خيرٌ أمْ رسولُ اللهِ ﷺ؟

قال ابنُ الأزرق: قد أنبأ اللهُ تعالى أنّكم قومٌ خصمون»[١].

* وكان الحسينُ رضوان الله عليه بارّاً بأيتامِ المسلمين يشرفُ عليهم، ويهتمّ بشؤونهم حتى عُرف بذلك، بل إنَّ سيّدنا معاويةَ رضي الله عنه شهدَ له بهذه المكارم في خبرٍ طريفٍ أتحفنا به ابنُ قتيبة في عُيون أخباره الثَّريَّة فقال: «لمّا قدمَ معاويةُ بنُ أبي سفيان رضي الله عنهما منصرفاً من مكَّةَ، بعثَ إلى الحَسنِ والحُسين وجماعةٍ بهدايا مِنْ كُسىً وطيبٍ وصِلاَتٍ من المالِ، ثمّ قال لرسله: ليحفظْ كلُّ رجلٍ منكم ما يرىٰ ويسمعُ من الرَّدّ. فلمّا خرجَ الرُّسُل من عنده، قال لمن حضر: إنْ شئتم أنبأنكم بما يكون من القوم.

قالوا: أخبرنا يا أميرَ المؤمنين.

قال: أمَّا الحسنُ فلعلَّه يُنيلُ نساءَه شيئاً من الطِّيْبِ، ويُنهبُ ما بقي مَنْ حضَرَهُ ولا ينتظرُ غائباً. وأمَّا الحُسينُ فيبدأ بأيتام مَنْ قُتِلَ مع أبيه بصفّين، فإنْ بقي شيء نحرَ به الجُزُر، وسقى به اللبن.

وقال معاوية عن الآخرين أقوالًا تتوافق مع أحوالهم... ولمّا رجع رسلُ معاويةَ من عندهم، قالوا بنحو ممّا قال سيّدنا معاوية رضي الله عنه. فقال معاوية: أنا ابن هند، أعلم بقريش من قريش»[٢].

* وعلّق أبو القاسم علي بن المُحسّن التّنوخي على هذه القصَّة تعليقاً فيه حسَدٌ وتعريض وانتقاص لسيّدنا معاوية رضي الله عنه فقال: «إنَّما قال معاوية ما قال عن سابق خبرة، لا عن انقداح فكرة»[٣]!!؟!!.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٠ و١٣١).

(٢) عيون الأخبار (٣/ ٤٠ و٤١) بتصرّف واختصار. ولهذا كلّه يقولُ عمرو بنُ دينار: «كان الرّجلُ إذا أتى ابنَ عمر، فقال: إنَّ عليَّ رقبة من بني إسماعيل؛ قال: عليك بالحسنِ والحسين رضي الله عنهما». (سير أعلام النُّبلاء ٣/ ٢٨٦).

(٣) لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار لأبي القاسم التّنوخي (ص ١٢٦) تحقيق الدّكتور علي حسين البوّاب ـ دار عالم الكتب ـ الرّياض ـ ١٩٩٣م.

* وأوردَ أبو القاسم التّنوخيّ بعد ذلك قصّةً عن جُودِ الحسنِ والحسين، وعن إكرام الحسنِ لراعي غنمٍ ظنَّه الحُسين فقال ما نصُّه: «أمَّا الحسنُ والحُسينُ رضي الله عنهما فكان كرمُهما زهداً في الدنيا، وغنى بالآخرة، لا يخصّان به نبيهاً دون خامل، ولا معروفاً دون منكر.

وروي بالإسناد عن الحُسين رضي الله عنه أنَّه خرجَ إلى ضيعةٍ له، فأضلَّته الطَّريقُ ليلاً، فمرَّ براعي غنم، فنزلَ عنده، فأحْسَن ضيافته، فلمّا أصبحَ؛ دلّه على الطَّريق.

فقالَ الحُسين رضي الله عنه: إنّي أَرِدُ إلى ضيعتي ثمَّ أصيرُ إلى المدينةِ، فإذا كان وقتُ كذا وكذا فائتني بها.

ومضى إلى ضيعتِهِ فَشُغِلَ بها عن الإتيانِ إلى المدينة في الوقتِ الذي ذكَره للرّاعي. فجاء الرّاعي، فصَادَفَ أخاه الحسنَ رضي الله عنه، وظنَّه إيّاهُ وقال: أنا الرَّاعي الذي بتَّ عنده ليلة أضللتَ الطَّريقَ، وأنتَ تريدُ ضيعتك، وأمرتَه أنْ يصيرَ إليك في هذا الوقتِ.

فعرفَ الحسنُ أنَّه يريدُ الحُسين، فقال له: لمن أنتَ يا غلام؟

قال: لفُلانٍ - رجلٍ من أهلِ المدينةِ -

قال: فكم غنمُكَ؟

قال: ثلاثُ مئةِ رأْسٍ.

فأرسل إلى سيّده، فأرغبه في الثَّمن، وابتاع منه العبدَ والغنم؛ ثمَّ أعتقه، ووهبَ له الغنم، وقال: إنَّ الذي باتَ عندك أخي، وقد كافأتك عمّا صنعت معه»(١).

* وساقَ أبو القاسم التّنوخي قصّةً أخرى تتعلّق بجاريةٍ استغْفَرَ لها الحُسينُ رضي الله عنه فقال: «روي أنَّ الحسينَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما، ترقَّى بعض سكَكِ المدينة، فإذا هو بجاريةٍ حسناء، واقفةً على بابٍ بيدها مسبحة، وهي

(١) المصدر السَّابق نفسه (ص ١٢٦ و١٢٧).

تفتكُ بالجائي والذَّاهب، فقال: يا هذه أَنُسْكُ ناسكةٍ، وفَتْكُ فاتكة، أما تتّقين الله؟!

فأنشأت تقول:

ولله ِمنّـــي جَـــانـــبٌ لا أضيعُـــه وللهـــوِ منّـــي والبطـــالـــةِ جـــانـــبُ
ومَـــا أبـــالـــي فـــي زمـــانـــي بـــريبـــةٍ إذا كنـــتُ للـــرّحمـــنِ ربّـــي أراقـــبُ

فاستغفرَ لها وانصرف»[1]!!!؟!!!.

من مَحاسن كَلِمَاتِهِ ومواعظِهِ وخُطبِه:

* حُفِظَتْ عن سيّدنا الحُسين رضي الله عنه وأرضاه كلماتٌ ذات فصاحةٍ في لفظها، يسبق السَّمع إلى حفظها، كما حُفظت عنه مواعظُ هي نزهةٌ في معانيها، ورياضٌ في مغانيها، تحملُ فوائد جمّة، وتوجيهات مهمّة:

يـــرتـــاحُ سَـــامعُهـــا حتَّـــى يهـــزَّ لهـــا من التَّعجُّب عطْف الشَّارب الثَّمل

* فمن بدائع الكلمات الحُسينية التي تصلحُ لكلّ زمان ولكلّ مَنْ يعمل بها قوله: «خيرُ المال ما وُقيَ به العرض»[2].

* وقال: «مَنْ جادَ ساد، ومَنْ بخل رُذِل»[3].

* وفي باب الآداب والسّياسية الدّنيويّة، وتأليف قلوب النّاس واستمالتهم نسمعُ من سيّدنا الحُسين رضي الله عنه مقولته المُوقظة: «خيرُ المعروف ما لم يتقدَّمْه مَطْلٌ، ولم يتبعه مَنٌّ. الوحشة من النّاس على قَدْر الفطنة بهم. النعمة محنةٌ، فإن شكرت كانت كَنْزاً، وإن كُفِرَتْ صارت نقمة»[4].

* وإذا تتبَّعْنا مواعظَ سيّدنا الحسين وكلماتِهِ في المصادر ألفيناها جامعةً

---

(١) المصدر السَّابق (ص ١٩٠)!! ودقّق النَّظر بقوله: «بيدها مسبحة»!؟!.
(٢) التّمثيل والمحاضرة للثّعالبيّ (ص ٣٠).
(٣) نثر الدّرّ (١/ ٣٣٤).
(٤) التَّذكرة الحمدونيَّة (١/ ٢٧٣).

شاملةً تتحدَّثُ في مُجملها عن الآداب والسِّياسات العامة، والتَّربويّات القيّمة، والتَّوجيهات المفيدة التي تتعلَّق بالسُّلوكيّات والفضائل.

* ففي دعوةٍ مباركةٍ إلى الحقِّ عن طريق الصَّبْر يقول: «اصبرْ على ما تكره فيما يلزمك الحقّ، واصبرْ عمّا تحبّ ممّا يدعوك إليه الهوى»(١).

* وعن استقبالِ الملمّات ينصحُ أهلَ العرفانِ والعقلِ بهذه الفريدة: «إذا وردتْ على العاقلِ مُلِمَّةٌ قمعَ الحزنَ بالحزم، وقرعَ العقْلَ للاحتيال»(٢).

* وحُفظَتْ عن سيّدنا الحُسين أدعيةٌ مضمّخةٌ بالأدب، تكادُ من عذوبةِ الألفاظ، تكتحلُ ببلاغها العيون والألحاظ، وتحيا بها النّفوس والمهج، لما فيها من مفاتيح الفرج.

* فقد كان سيّدنا الحسينُ عليه سحائب الرضوان إذا ما استسقى دعا الله عزَّ وجلَّ بقلبٍ صافٍ فقال: «اللهم اسقِنا سُقيا واسعة، وادعة عامة نافعة، غير ضارَّة تعمُّ بها حاضرنا وبادينا، وتزيدُ بها في رزقنا وشكرنا.

اللهمَّ اجعله رزقَ إيمان، وعطاءَ إيمان، إنَّ عطاءك لم يكن محظوراً. اللهمّ اجعله رزقَ إيمان وعطاءَ إيمان، إنَّ عطاءك لم يكن محظوراً. اللهم أنزلْ علينا في أرضنا بركتها وأنبِتْ فيها زينتَها ومرعَاها»(٣).

---

(١) التَّذكرة الحمدونيَّة (١/ ٣٦٨).

(٢) التَّذكرة الحمدونيَّة (١/ ٣٨٣).

(٣) عيون الأخبار (٢/ ٢٧٨ و٢٧٩). ومن أدعيته الجميلة يوم كربلاء لمَّا صبّحته الخيل، إذ رفع يديه مناجياً ربَّه ومستغيثاً به، وداعياً فقال: «اللهمَّ أنتَ ثقتي في كلِّ كرب، ورجائي في كلِّ شدّة، وأنت لي في كلِّ أمْرٍ نزل بي ثقة وعدّة، فكَمْ منْ همٍّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلُّ فيه الحيلة، ويخذلُ فيه الصَّديق، ويشمت فيه العدو، فأنزلته بك وشكوته إليك، رغبةً فيه إليك عمّن سواك، ففرَّجْته وكشفته وكفيتنيه، فأنتَ وليّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل غاية». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٤٦). و(سير أعلام النّبلاء ٣/ ٣٠١).
وكذلك دعاؤه لابن عمِّه مسلم بن عقيل: «اللهمَّ اجعلْ منازلَهم الجنَّة نُزلاً، واجمعْ بيننا وبينَهم في مستقرّ من رحمتك، ورغائب مدخور ثوابك». (البداية والنّهاية ٨/ ١٧٤).

* ومن كلماتهِ الجامعةِ النَّافعةِ التّربوية قوله: «حوائجُ النَّاسِ إليكم من نعمِ الله عليكم، فلا تملّوا النّعم فتعود نقماً».

* وقال: «صاحبُ الحاجةِ لم يكرمْ وجهه عن سؤالك، فأكرمْ وجهكَ عن ردِّهِ».

* ويوجزُ بعضُ الشَّمائل المنيفة بهذه الفرائد فيقول: «الحلمُ زينةٌ، والوفاءُ مروءةٌ، والصّلةُ نعمةٌ، والاستكثارُ صلفٌ، والعجلةُ سَفَهٌ، والسَّفهُ ضعفٌ، والغلو ورطة، ومجالسةُ أهل الدناءة شرٌّ، ومجالسةُ أهل الفسوق ريبةٌ»[1].

* وكان سيّدنا الحسينُ رضوان الله عليه سخيّاً جواداً، يحضُّ على هذه السَّجيةِ العظيمةِ برقيقِ كلماته، ودقيقِ إشاراته، ووجيزِ فصاحته وبلاغته، وممّا حفظ عنه في هذا المضمار الكريم ما قاله لسيّدنا معاوية رضي الله عنهما: «مَنْ قبلَ عطاءَك فقد أعانكَ على الكَرم»[2].

* ونستخرجُ من جواهرِ كلامه في هذا المضمار دُرراً نزين بها العقول، ونصقلُ بها القلوب، فمن كلام سيّدنا الحُسين في الجودِ والمعروفِ وقضاءِ الحوائج قوله: «أيّها النَّاس، نافِسُوا في المكارم، وسارعُوا في المغانم، ولا تَحْتَسبوا بمعروف لم تعجّلوه، واكتسبوا الحمدَ بالنُّجح، ولا تكتسبوا بالمُطْل ذمّاً، فمهما يكن لأحدٍ صنيعةٌ له رأى أنّه لا يقوم بشكرها فالله مكافٍ له، فإنّه أجزلُ عطاءً وأعظم أجراً، اعلموا أنَّ حوائج النَّاس إليكم من نعمِ اللهِ عليكم، ولا تملُّوا النّعم فتحور نقماً، واعلموا أنَّ المعروفَ مكسبٌ حَمْداً ومعقب أجراً، فلو رأيتم المعروفَ رجُلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسرُّ النَّاظرين، ويفوقُ العالمين، ولو رأيتم اللؤمَ رجلاً رأيتموه سَمِجاً مشوهاً تنفرُ منه القُلوبُ وتُغَضُّ دونه الأبصار.

أيّها النَّاسُ مَنْ جادَ سَاد، ومَنْ بخِل رُذِلَ، وإنَّ أجودَ النَّاس مَنْ أعطى مَنْ

---

(١) نور الأبصار (ص ١٥٢).

(٢) التّذكرة الحمدونيّة (٢/ ٢٦٢) ومن كلماته الجميلة التي كتب بها إلى معاوية قوله: «الحسَنَاتُ لا يهدي لها إلا الله». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٣٧).

لا يرجوه، وإن أعفى النَّاس مَنْ عَفَى عن قدرةٍ، وإنَّ أوصلَ النَّاس مَنْ وصلَ مَنْ قطعَه، والأصول على مغارسها بفروعها تسمو، مَنْ تعجَّل لأخيه خيراً وجَدَهُ إذا قدم عليه غداً، ومَنْ أراد الله تعالى بالصَّنيعة إلى أخيه كافأه بها في وقتِ حاجتِهِ، وصرف عنه من بلاء الدُّنيا ما هو أكثر منه، ومن نفَّس كربةَ مؤمن فرَّجَ اللهُ عنه كرب الدّنيا والآخرة، ومن أحْسَنَ أحْسَنَ اللهُ إليه، واللهُ يحبُّ المحسنين»[١].

* إنَّ الكلماتِ الحُسينيةَ السَّاطعةَ تلهمُ الإنسان كثيراً من الأفكار الخيّرة، وتحضّه على الأعمال النّيرة، اقتداء بفرع الدّوحة الهاشميّة سيّدنا الحُسيّن رضوان الله عليه الذي كان مصدراً من إغاثة اللهفان، وينبوعاً يرتوي منه الغرثان.

* أمَّا خُطبُ سيّدنا الحُسين رضي الله تعالى عنه فهي أثارةٌ أدبيةٌ واجتماعيةٌ ودينيةٌ، ومن خلالها نلمسُ تحريضه النَّاس وحضّهم على امتثال الأوامر الإلهيّةِ والزُّهد في الدّنيا الفانية، ولذّاتها العاجلة، وترغيبه في الآخرة ولذَّاتها الباقية.

* ومن الخُطَب الحُسينيّة المؤثّرة خطبتُه التي أخرجَها الطَّبرانيُّ عن محمَّد بنِ الحسن قال: لمَّا نزل عمرُ بنُ سعد[٢] بالحُسين رضي الله عنه، وأيقن

---

(١) التّذكرة الحمدونية (١/ ١٠٢). ومن كلماته النّافعة ذات المعاني الموحية الموقظة، كلمته التي كتبها إلى عمرو بن سعيد بن العاص يذكر من خلالها مخافة الله إذ يقول: «إنّه لم يشاققْ مَنْ دعا إلى اللهِ، وعمل صالحاً، وقال إنّني من المسلمين، وخيرُ الأمان أمانُ الله، ولم يؤمنْ بالله منْ لم يخفْه في الدّنيا، فنسألُ اللهَ مخافةً في الدّنيا، توجبُ لنا أمان الآخرة عنده». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٤١).
ومن لطائف أقوالِهِ النافعة لأخته السّيدة زينب بنت عليّ رضي الله عنهما قوله لها قبل استشهاده معلّماً ومربّياً وموجّهاً: «يا أُخية، اتّقي اللهَ واصبري وتعزّي بعزاء الله، واعلمي أنَّ أهلَ الأرض يموتون، وأنَّ أهلَ السَّماءِ لا يبقَون، وأنَّ كلَّ شيء هالكٌ إلا وجْه الله الذي خلقَ الخلقَ بقدرته، ويميتُهم بقهره وعزّته، ويعيدهُم فيعبدونه وحده، وهو فردٌ وحده، واعلمي أنَّ أبي خيرٌ منّي، وأمّي خيرٌ منّي، وأخي خيرٌ منّي، ولي ولهم ولكلِّ مسلم برسولِ الله ﷺ أسوةٌ حسنةٌ». (البداية والنهاية ٨/ ١٧٧).

(٢) عمرُ بنُ سعد بن أبي وقّاص المدنيّ نزيل الكوفة، كان أميراً على الجيش الذين قتلوا سيّدنا=

أنّهم قاتلوه، قامَ في أصحابِهِ خطيباً، فحمد اللهَ عزَّ وجلَّ وأثنى عليه، ثمَّ قال: «قد نزلَ ما ترون من الأمر، وإنْ الدُّنيا تغيَّرتْ وتنكَّرت، وأدبر معروفها وانشمر، حتّى لم يبقَ منها إلا صبابة الإناء، وإلا خسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحقّ لا يُعملُ به، والباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإنّي لا أرى الموت إلا سعادة، والحياةَ مع الظَّالمين إلا بَرَماً»[١].

* وأوردَ ابنُ جرير الطَّبريّ في تاريخه هذه الخطبة عن عقبةَ بن أبي العيزار، قال: قام حُسينُ رضي الله عنه بذي حُسُم[٢]، فحمد اللهَ وأثنى عليه، فذكر نحوه.

* وذكر أيضاً عن عقبةَ بن أبي العيزار أنَّ الحُسين رضي الله عنه خطبَ أصحابه ـ وأصحاب الحُرِّ بن يزيد[٣] بالبَيضة[٤] ـ فحمَد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيّها النَّاس، إن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ رأىٰ سُلطاناً جائراً مستحلاً لحرمِ الله، ناكثاً لعهدِ الله، مخالفاً لسنّةِ رسولِ الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيِّرْ عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أنْ يدخلَه مدخله»، ألا وإنَّ

= الحسينَ رضي الله عنه وأرضاه، ثم قتلَه المختار الثّقفيّ سنة (٦٥ هـ) أو بعدها، وقد وهمَ مَنْ ذكَرَهُ في الصَّحابة. فقد جزَم ابنُ معين أنّه وُلد في السَّنة التي مات فيها سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحشرنا في معيته.

(١) مجمع الزّوائد (٩/ ١٩٢) وقال: «رواه الطّبرانيّ؛ ومحمّدُ بنُ الحسن هذا هو ابنُ زبالة متروك، ولم يدركِ القصّة». وقوله «انشمر»: مضى. و«صبابة الإناء»: البقيّة اليسيرة من الشّراب تبقى في أسفل الإناء. و«خسيس»: قليل تافه. و«الوبيل»: الوخيم غير الموافق للمرعى، و«برمًا»: مللاً وسآمة.

(٢) «ذو حُسُم»: بضم الحاء والسِّين: وادٍ بنجد.

(٣) الحرُّ بنُ يزيد التّميميّ، أرسلَه عُبيدُ الله بنُ زياد بألف مقاتل إلى الحُسين رضي الله عنه قبل عمر بن سعد، ولما أقبلت خيل الكوفة تريدُ قتْلَ الحسين وأصحابه، أبىٰ الحرُّ أنْ يكون فيهم، فانصرفَ إلى الحُسين، فقاتل بين يديه قتالاً عجيباً حتّى قُتِل. (البداية والنّهاية ٨/ ١٧٢) بتصرّف يسير.

(٤) «البَيضة»: هو موضع بجانب الصّمّان من ديار بني دارم بن مالك بن حنظلة.

هؤلاء قد لزموا طاعة الشّيطان، وتركوا طاعة الرّحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقُّ مَنْ غَيَّرَ، وقد أتتني كتُبُكُم، وقدمت عليَّ رسُلُكم ببيعتكم أنّكم لا تسلموني، ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسينُ بنُ عليّ، وابنُ فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فِيَّ أسوة، وإنْ لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتُم بيعتي من أعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي، والمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومنْ نكث فإنّما ينكثُ على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

* ونقرأُ في الخُطب الحُسينيّة أشياء ثريّة في تاريخ الأمم وعاداتها وطبائعها، ويمكنُ لنا أنْ نتعرَّفَ خلالها على سلوكيّات بعض الأقوام الذين عاصروه، وغدروا به، فنستجلي من خطبه أسلوب التّقريع والتّوبيخ على سوء فعلهم، وخبث طويتهم، وتمكّن الغدر من قلوبهم، فهم يتّهمون النّصيح، ويسفّهون الحليم، ويخونون الوفي.

* ومن خطبه التي تندرجُ تحت ما أوردناه نقرأُ هذه الكلمات الصّادقات الموحيات المعبّرات عن مكنون من ادّعى نصرته، فقال يوبّخهم ويقرّعهم في خطبةٍ قعساء أوردها ابنُ حمدون في «تذكرته» فقال: لمّا استكفَّ النّاس بالحُسين بنِ عليّ رضي الله عنهما، استنْصَتَ النّاس، وحمد الله تبارك وتعالى،

(١) حياة الصّحابة (٣/ ٤٨٥ و٤٨٦). وقوله: «ناكثاً»: أي ناقضاً. و«هؤلاء»: يقصد يزيد بن معاوية، وعبيد الله بن زياد، ومَنْ لفَّ لفَّهما ورضي بهما. و«مَنْ غَيَّر»: يُشير سيّدنا الحسين رضي الله عنه إلى حديث الحبيبِ المصطفى ﷺ الذي جاء في الصّحيح وغيره عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه والذي نصّه: «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيره بيده». و«تسلموني»: تلقوني إلى التّهلكة، ولا تحموني من عدوّي. و«تخذلوني»: تتركون إعانتي ونصرتي. و«بِنُكر»: الأمر المنكر. و«ابن عمّي»: مسلم بن عقيل بن أبي طالب وقد قُتل مسلم بالكوفة على يد عبيد الله بن زياد، وكان سيّدنا الحسين رضي الله عنه قد أرسله داعياً إلى الكوفةِ.

وصلّى على النّبيّ ﷺ ثمّ قال: «تباً لكم أيُّها الجماعة وترحاً، أحين استصرخْتُمونا وَلِهِينَ، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً كان في أيماننا، وحَشَشْتُم علينا ناراً اقتدحناها على عدوكم وعدونا، فأصبحتم إلباً على أوليائكم، ويداً عليهم مع أعدائكم، لِغَير عدْلٍ أفْشَوه فيكم، ولا أمَلٍ أصبح لكم فيهم، ومن غير حدث كان فينا، ولا رأي تَفَيَّلَ منّا؟! فهلا لكم الولايات أذكيتموها وتركتموها والسَّيف مشيم، والجأش طامن، والرّأي لم يستحصف؟ ولكن استسرعتم إليها كَطَيْرةِ الذّباب، وتداعيتم عليها كتداعي الفراش، فشجّاً وبهلةً لطواغيتِ الأمة، وشذّاذ الأحزاب، ونَبذَةِ الكتاب، ونَفْثَةِ الشَّيطان وعصبَةِ الآثام، ومحرّفي الكلم، ومطفئي السُّنن، وملحقي العهر بالنَّسب، والوسف بالمؤمنين، ومراجي المستهزئين، الذين جعلوا القرآنَ عضين، لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أنْ سخطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هم خالدون. أفهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون؟ أجل والله؛ خذل فيكم معروف وشَجَتْ عليهم عروقكم، وتأزّرت عليه أصولكم فأفرعتم، فكنتم أخبث ثمر، شُجىً للنَّاظر، وأكله للغاصب. ألا فلعنةُ الله على النّاكثين الذين ينقضون الإيمان بعد توكيدها وقد جعلُوا اللهَ عليهم كفيلا. ألا وإنْ ابنَ الدّعيّ قد ركَّز بين اثنتَيْن: بين الشّدة والذّلّة، وهيهات منّا الدّنيّة، يأبى الله ورسوله ذلك والمؤمنون، وحجور طابت، وحُجُرٌ طَهُرَتْ، وأنوف حميَّةٌ، ونفوسٌ أبية، أنْ تثر مقام اللئام على مصارعِ الكرام، ألا وإنّي زاحفٌ بهذه الأسرة على قلَّةِ العدد، وخذلةِ النَّاصر:

فإنْ نَهْزِمْ فهزَّامُونَ قدماً ... وإنْ نُهْزَمْ فغيرُ مُهَزَّمينا
وما إنْ طبّنا جُبْنٌ ولكنْ ... منايانا ودولةُ آخرينا

ألا ثمّ لا تلبثون بعدها إلا كريثِ ما يُركَبُ الفرس، حتى تدور بكم دَوْرَ الرّحى، وتقلق بكم قلقَ المحور. عهدٌ عَهِدَهُ إليَّ أبي عليٌّ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثمّ أفضوا إليَّ ولا تنظرون»[1]. !!!

---

(١) التّذكرة الحمدونيّة (٥/ ٢١١ و٢١٢)!! وقوله: «ترحاً»: التّرح نقيض الفرح حزناً وفقراً و«ولهين»: الوله: الحزن. و«موجفين»: مسرعين. و«حششتم»: جمعتم. و«إلباً»: جمعاً من=

* وكان سيِّدنا الحسينُ رضوان الله عليه يحفظُ بعضَ الخُطَب المصطفويّة لجدّه الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ؛ وقد نقل لنا خطبته ﷺ في الرّغبة عن الدنيا، والإصلاح، والاستقامة، بالإضافة إلى جملةٍ من المواعظِ التي احتوتها الخطبة.

* أخرج أبو نُعيم في «الحليةِ» عن الحُسينِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ قام خطيباً على أصحابه، فقال: «أيها النَّاسُ، كأنَّ الموت فيها على غيرنا كُتِبَ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ، وكأنَّ الذي نُشَيِّعُ من الأموات سَفْرٌ عمّا قليل إلينا راجعون، نأكلُ تُراثهم كأنّنا مخلَّدون بعدهم، قد نسينا كلَّ واعظة، وأمِنَّا كلَّ جائحة، طوبى لمن شغَله عيبُه عن عيوب النَّاس، طوبى لمن طاب مكسبه، وصلُحَتْ سريرتُه، وحسُنَتْ علانيتُه، واستقامت طريقتُهُ، طوبى لمن تواضعَ لله من غير منقصةٍ، وأنفق ممّا جمعه من غير معصيةٍ، وخالطَ أهل الفقْهِ والحكمةِ، ورحم أهل الذّل والمسكنة، وطوبى لمن أنفقَ الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعَتْهُ السُّنَّة، ولم يعدلْ عنها إلى بدعة». ثمَّ نزل.

قال أبو نُعيم: «هذا حديثٌ غريبٌ من حديثِ العِتْرة الطَّيِّبة لم نسمعْهُ إلَّا من القاضي الحافظ، وروي هذا الحديث من حديث أنس رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ»(١).

= كل جانب. و«تفيّل»: يقال: فيَّل رأيه: قبحّه وخطّأه. و«السيف مشيم»: مسلول. و«طامن»: مساكن مطمئن. و«بهلة»: البهل: الشيء اليسير الحقير. و«الوسف»: الوسف: تشقق يبدو في اليد وفي فخذ البعير. و«مَراجي»: مفاسد واختلاط. و«عضين»: أعضاء وأجزاء، و«تعضدون»: تساعدون. و«وشجت»: اشبكت وتداخلت واتّصلت. و«شجر»: غصَّة في الحلق. و«ناكثين»: ناقضين. و«الدّعي»: المتهم في نسبته. و«حجز»: ما يشد على الوسط من الإزار، والمعنى هاهنا العفاف. و«حمية»: الأنفة والغيرة. و«ريث»: الرّيث: الإبطاء، راث يريث رثياً: أبطأ، ورجل ريّث: بطيء. و«قلق المحور»: أي لا تستقرّ في مكان واحد.

(١) شرح حياة الصَّحابة (٤/ ١٥٤ و١٥٥) نقلاً عن حلية الأولياء (٣/ ٢٠٢). وقوله «وجب»: =

الذُّرِيَّةُ الحَسَينيَّةُ:

* السِّيرةُ الحسينيّةُ سيرةٌ عطرةٌ مباركةٌ، سيرةٌ مونقةٌ تنفعُ العالمَ والمتعلّمَ، والأبَ والابنَ، والأسرةَ المسلمةَ في جميع أفرادها، وينبغي أنْ نتذكَّر أوّلاً: أنَّ

= ثبت. و«سَفْرٌ»: مسافرون. و«جائحة»: مصيبةٌ عظيمة. و«شغَله عيبُه عن عيوبِ النَّاس»: لم يشتغلْ بها، فعلى العاقل أنْ يتدبّرَ في عيوبِ نفسهِ فإنْ وجد بها عيباً؛ اشتغلَ بعيبِ نفسِهِ، فيستحيي مَنْ أنْ يتركَ نفسه ويذمَّ غيره، بل يعلمُ أنَّ عجزَ غيرهِ من نفسِهِ في التنزّه عن ذلك العيب كعجزه إن كان ذلك عيباً يتعلّق بعقله واختياره، فإنْ كان خُلقيّاً فالذّمّ له ذمّ للخالق فإنَّ مَنْ ذمَّ صفةً فقد ذمَّ صانِعَها. وقال بعضُهم:

لنفسيَ أبكي لستُ أبكي لغيرِها   لنفسيَ في نفسي عن النَّاسِ شاغِلُ

و«صلُحت سريرتهُ»: بصفاء التّوحيد، والثّقة بوعدِ الله عزَّ وجلَّ، والخوف منه، والرَّجاء والشَّفقة على خَلْقه، والمحبّة لأوليائه، و«حسُنت علانيته»: ظهرتْ أنوارُ سريرتهِ على جوارِحه، وحسُنَتْ أفعالُها بتقوى الله عزَّ وجلَّ، ومكارم أخلاق الدِّين بالصِّدق والبرِّ ومراعاة الحقوق. و«من غير منقصة»: بألا يضعَ نفسه بمكان يزري به ويؤدّي إلى تضييع حقّ الحقّ، أو الخلق، فإنَّ القصد بالتَّواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزَّة الدّينِ، فالتَّواضعُ الذي يعودُ على الدّينِ بالنَّقص ليس بمطلوب. قال الخواص: «إذا أغضبك أحد لغير شيء فلا تبدأه بالصّلح لأنّك تذلّ نفسك في غير محلّ، وتكبر نفسه بغير حقّ» ومن ثمَّ قيل: الإفراطُ في التَّواضع يورث الذّلّة، والإفراط في المؤانسة يورث المهانة. قال ابن عربي: «الخضوعُ واجبٌ في كلِّ حالٍ إلى الله تعالى باطناً وظاهراً، فإذا اتّفقَ أنْ يقامَ العبدُ في موطنِ الأولى فيه ظهور عزَّة الإيمان وجبروته وعظمته لعزّ المؤمن وعظمته وجبروته، ويظهرُ في المؤمن من الأنفةِ والجبروتِ ما يناقضُ الخضوعَ والذّلة، فالأولى إظهار ما يقتضيه ذلك الموطن، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ﴾ الآية، وقال: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ فهذا من باب إظهار عزة الإيمان بعزة المؤمن. قال الراغب: «الفرقُ بين التّواضع والضّعة أنَّ التَّواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقّه منزلته، والضّعة وضع الإنسان نفسه بمحمل يزري به». و«أمسكَ الفضل من قوله»: يسلم من آفات اللسان التي هي عين الخسران؛ قال الغزالي: «انظر إلى النَّاس كيف قلبوا الأمر: أمسكوا فضل المال، وأطلقوا فضل اللسان، و«العترة»: أسرة سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. هذا الشرح مستقى من كتاب (شرح حياة الصَّحابة ٤/ ١٥٤ و١٥٥) وهو شرح طيب مبارك مفيد.

سيّدنا الحسين صحابي ابن صحابي ابن صحابيّة، وهذا فضْلٌ عظيمٌ، وخيرٌ عميمٌ ونحنُ نحبُّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ كلّهم أجمعين حبّاً جماً كما علّمنا إيّاه الهادي البشير رسول الله ﷺ، فلو أنفقَ أحدُنا ملءَ أُحُدٍ ذهَباً ما بلغ مُدَّ صحابي ولا نصيفَه، ولا عشر معْشَاره.

* وقد زاد سيّدنا الحسين على فَضْل الصُّحبة أنَّه من الدَّوحةِ الهاشميّة المباركةِ السَّعيدة التي أذهبَ اللهُ عنها الرّجس وطهَّرها، واختارها منارةَ هدى وعلْمٍ، ورحمة للأمّة المحمّدية التي تسيرُ على النَّهج الأقوم والطَّريق الصَّحيح الذي يتوافق مع منهج اللهِ عزَّ وجلَّ.

* ونحن نحبُّ سيّدنا الحسينَ وأهلَ البيتِ محبّةَ برٍّ وعرفانٍ بفضلهم، وطاعةٍ لأمرِ الرسولِ ﷺ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء: ٨٠] وطاعةُ الرّسولِ ﷺ هاهنا تقتضي الاعتدال، إذ إِنَّ حبَّكَ الشَّيء ومبالغتك في ذلك يعمي ويصمّ، وقد يحرفك عن نَهْج الحقِّ.

* ولا ريب في أنَّ رجالَ أهلِ البيتِ ذوو قَدْرٍ عالٍ رفيع، ونسبٍ منيع، وأصلٍ كريم، وفعلٍ حميد، وهُمْ إلى الكمال أقرب، ولهم فضائل لا تخفى، ومحاسنُ لا تبلى، ومناقبُ تُستحلى وتُستجلى، وكلُّ سبَبٍ ونسَب منقطعٌ يوم القيامة إلا السَّبب النَّبويّ والنَّسب المحمّديّ، فأكرمْ بهذا النَّسب وهذا السَّبب!!.

* ومن الواضح أنَّ جميعَ أهلِ البيت منْ ذريّة سيّدنا عليٍّ رضوان الله عليه ينتسبون إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وسيّدنا رسولُ اللهِ ﷺ هو سيّدُ ولد آدم ولا فخْر، وهو إمامُ الأمّة، ونورُها، وهاديها إلى صراطِ العزيزِ الحميد.

* وجميعُ ذريّته ﷺ ورثَتْ عنه هذا الشَّرف التّليد، وهذه السِّيادة الباهرة، فالشَّرفُ الموروثُ هاهنا هو شرفُ النُّبوّة، ولا يُقاسُ به أبداً أيّ شرف حتّى لو بلغ المُلْك والحُكْم والإمارة، وما جرى مجرى ذلك.

* وينبغي ألا يغيبَ عن الذّهن أنَّ هذا الشَّرف مرهونٌ بتحقيقِ الإيمان، إذ

إنَّه لا شرف مع الكُفْر، ولا سيادة إلاَّ بالإيمان، وطاعة الله عزَّ وجلَّ، واتّباع رسوله ﷺ لأنَّ شرفَ النّبوّة في حقيقته شرفُ إيمانٍ وجهادٍ وتضحية وليس مجرّدَ أجداد وآباء وأبناء وعمومة وخؤولة، ونحنُ نلاحظ ونقرأُ في التّنزيل العزيز أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد نفَىٰ عن نبيّه نوحٍ عليه السَّلام ـ وهو من أولي العزم من الرُّسل[1] ـ ابنَه الكافر، وأخرجَه من أهلِه، وخاطَبَهُ عزَّ وجلَّ بقوله صريحاً واضحاً مختصراً مفيداً: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[هود: ٤٦]. وكذلك نجدُ نبيّاً آخر من أولي العزمِ من الرُّسل هو إبراهيم خليلُ الله عليه السَّلام قد تبرَّأ من أبيهِ عندما علمَ أنَّه مقيمٌ على الشِّرك دِيْنِ قومه، فأعلنَ البراءةَ من هذا الأبِ الكافرِ كما ذكر الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤].

* وإذا كان الكفْر ينفي التَّوارث في المال، فمن المؤكَّد في الأمر أنْ ينفيَ التَّوارث في الشَّرف الأعلى، أمّا وقوع المعصية فعلىٰ رجاء التَّوبةِ لا تنفي هذا النَّسب[2].

* إنَّ السَّادة[3] والأشرافَ هم من ذريّةِ سيّدتنا فاطمة وسيّدنا عليّ رضي

---

(١) أولو العزم من الرّسل خمسة هم: نوحٌ، إبراهيمُ، موسى، عيسى، محمّد عليهم الصَّلاة والسّلام وقد نظمَ أسماءهم أحدُ الشّعراء فقال:

أولو العزمِ خمسٌ والشّرائعُ خمسةٌ ... يُدَانُ بها ربُّ العِبَاد ويُعْبَدُ
فنوحٌ وإبراهيمُ ذو الحلم والتّقىٰ ... وموسى وعيسى ثمّ جاء محمّدُ

(٢) علّموا أولادَكم محبّة آل بيت النبيّ ﷺ (ص ٢٩ و٣٠) بتصرف.

(٣) «السَّادة»: جمعُ سيِّد. قال في النّهاية: «السَّيدُ يُطلقُ على الرَّبِّ والمالك، والشَّريف، والفاضل، والكريم، والحليم، والمتحمّل أذى قومه، والزّوج، والرئيس، والمقدّم». ونظمها أحدُ الفضلا فقال:

وتُطْلَقُ عند العُربِ لفظةُ سيّد ... لِعَشْرةِ أشخاصٍ بنقلٍ مُسَدَدِ
لِرَبٍّ وزوجٍ أو رئيسٍ مقدّمٍ ... شريفٍ كريمٍ فاضلٍ ذي تودّدِ=

الله عنهما، وإنَّ شرفَ الانتماء ينتهي إلى حبيبنا وسيّدنا رسولِ الله ﷺ، فكلُّهم لرسولِ الله ﷺ منتسبٌ، وكلُّهم حريٌّ بالاحترام، والتَّوقير والمودّة، امتثالًا لأمرِ الله عزَّ وجل في قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الشّورى: ٢٣][١].

وقد باركَ اللهُ عزَّ وجلَّ في ذرّيتهما، ونفعَ بها الإسلامَ والمسلمين، وكان منهم سادةٌ وقادةٌ، وأئمةٌ في العِلْم والدِّين والجهاد والزَّهادة وسائر الفضَائل والمكَارم.

* ورحم اللهُ مَنْ قال مقتبساً في موّدةِ القرابة:

أرىٰ حُبَّ آلِ البيتِ عندي فريضةً ... على رغم أهلِ البُعْدِ يُورثني القُربا
فما اختارَ خيرَ الخُلْقِ منّا جزاءَه ... علىٰ هَدْيهِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

* ولمكانة الذّريّةِ الطَّاهرةِ بين النَّاس جميعهم كان سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق رضوان الله عليه، يقولُ: «ارقُبُوا محمّداً ﷺ في أهلِ بيته». وقال أيضاً: «والذي نفسي بيده لقرابة رسولِ الله ﷺ أحبّ إليَّ أنْ أصِلَ من قرابتي». ورحم اللهَ مَنْ قال عن الذُّريّةِ الطَّاهرة:

جاءَ عَنْ الرّسُولِ في الأنباء ... مَنْ حبَّني يُحِبُّ هؤلاء
وقال هؤلاءِ منّي بضْعَة ... فمدحُهم يكونُ بعدي سُنّة
وحبُّهم على العبَادِ فرضُ عَيْن ... فهكذا قالَ الرَّسولُ دون مين
مَنْ سبَّ في آلِ رسولِ الله ... فهو عدوٌّ كافرٌ باللهِ
ولا يُصَلَّى خَلْفَه فرضٌ ولا ... يجوزُ في شهادةٍ إنْ نَزَلا
يُقْتَلُ شرعاً باتّفاق العُلَما ... إنْ لم يتبْ من فعلهِ ويندَما
إنْ ماتَ عند النَّاس لا يكفَّنُ ... وفي قبور المشركين يُدفَنْ

= كذاك حَليم حَاكم متحمّل ... أذى قومهِ إذ غيرهم لم يُسَوّدِ

(١) انظر: علّموا أولادكم محبّة آل بيت النّبيِّ ﷺ (ص ٣٠) بشيءٍ من التّصرف.

* وفي أهلِ البيت يقولُ محمّد بنُ منذر بن جارود:

وحَسْبي منَ الدُّنيا كفَافٌ يقيمني | وأثوابُ كتّان أزورُ بها قبري
وحُبّي ذوي قربى النَّبيّ محمّدٍ | فما سُؤْلنا إلاّ المودّة من أجر

* وأخذَ عليُّ بنُ محمد الحمّاميّ قوله تعالى: ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[الأحزاب:٣٣] مادةً دسمةً فصاغَها في هذا القالبِ الشّعري الجميل فقال هذه الأبيات:

بأمرِكم يا آلَ أحمدَ أصبحتْ | قريشُ ولاةَ الأمرِ دون ذوي الذّكْر
إذا ما أناخَتْ في ظلالِ بيوتها | أنختُم ببيتِ الطُّهْر في محْكَم الذّكْر

* ومنها قوله:

وَمَازَهَمُ الجبّارُ عنكم بخلّةٍ | يَرَاها ذوو الأقدارِ يانعةَ القَدْر
وأعطاهمُ الخمسَ الذي فضلُوا بهِ | بآيةِ ذي القُربى على العُسر واليسْر(١)

* أما عن انتشار الذُّريَّةِ الحَسنيّة والحُسينيّة في الأصقاع وفي البلدان والبقاع، فإنّنا نقرأ عند الدّكتور محمَّد عبده يماني ما مفادُه: «. . . إنَّ الذُّريَّةَ الطَّاهرةَ من نَسْلِ السِّبْطَيْنِ الكريمَيْن: الحسَنِ والحُسَينِ رضي الله عنهما، منتشرةٌ في معظم الأقطار الإسلاميّة، ولهم حيثما وُجِدُوا كبيرهم الذي يرجعون إليه في الأمور المهمّة، وغالباً ما يكون هذا الكبيرُ من العُلماء الفُضلاء ذوي النَّجابةِ والجلالةِ، ويحملُ لقب نقيب الأشراف، ويحتفظُ في بيته بشجرةِ النَّسَبِ الشَّريف المُبيّن لأرومةِ أهلِ البيت، سواء كانوا من جهةِ الحسَنِ رضي الله عنه؛ أو جدّهم الحُسين رضي الله عنه، وقد نجدُ بعضَ أهل البيتِ منتسبين إلى الحَسَنِ أو الحُسين مباشرةً، وقد يحملون ألقاباً تبعاً للجدّ الذي ينتسبون إليه.

ومن المؤكّد والطَّبيعي أنّه قد هاجر شَطْرٌ من أهلِ البيتِ الأطهار من أحفادِ

---

(١) الاقتباس من القرآن الكريم للثّعالبيّ (١/٩٦ و٩٧) بتصرّف، دار الوفاء ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٩٢م.

سيّدنا الحُسين رضوان الله عليه من البصرة إلى الحجازِ في أوائل القرنِ الرّابع الهجريّ، ثمّ إلى حضرموت، حيث كان شرق الجزيرة العربية، عصر ذاك يئنُّ تحت سيطرة الخوارجِ وتأثير القَرامطةِ وفي حضرموت أخذَ علماءُ أهلِ البيت وفقهاؤهم يعملون في الدَّعْوةِ إلى نبذِ تلك المذاهب الهدَّامة، والعودة إلى حياضِ الإسلام الصَّحيح، ومن ثمَّ نشطوا في نَشْرِ المذهب الشَّافعيّ، وعملُوا على تبصير النَّاس وتعليمهم أمور الدِّين. ولقي أهلُ البيت تأييداً كبيراً، وخاضوا عدداً من المعارك كان الظَّفرُ والتّوفيقُ فيها حليفَهم، حتى إنّ كثيراً من المنحرفين تابُوا، وعادُوا إلى المنهج المستقيم، وقُضِيَ على أهل الأهواء وأصحابِ الأحقاد.

ويروي تاريخُ هؤلاء الأطهار من الذُّريّةِ المباركةِ الطَّاهرةِ أنَّهم ركبوا متْنَ البِحَار، واتّجهوا بقصد التّجارة والدَّعوة إلى الله نحو الشَّواطىء الهنديّة وهنالك قيَّضَ اللهُ عزَّ وجلَّ النّجاح الباهر، ولقوا النَّتائج الكبيرة في الدّعوة إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، إذ دخل كثيرٌ من النَّاس في دينِ الله، وأحبُّوه وتمثَّلوه قولاً وعملاً، وأصْهَر بعضُ الطَّاهرين إلى الملوكِ والأمراءِ في تلك الجُزُر، وهاتيك البلاد، فتأسَّستْ دولةٌ إسلامية، ونشطَ هؤلاء مع سكَّان البلاد في الدَّعوة إلى اللهِ، وكانت لهم سفُنٌ خاصّة لهذا الغرض النَّبيل، تحملُهم إلى تلك الجزر التي تَعُدُّ بالآلاف، وبهذه الوسائل اللطيفةِ البسيطةِ الصَّادقةِ النَّاطقةِ بالحقِّ انتشرَ الإسلامُ في جُزر ماليزيا، وأندنوسيا، والفلبّين، والملايو، وجَاوَا، وسُومطرة، ثمَّ نزلَ بعضُ هؤلاء الدُّعاة برَّ الصِّين فوصلَ الإسلامُ إلى بورما، وتايلاند، وكمبوديا وكثيرٍ من البلادِ المجاورة.

واستقرَّ المهاجرون من أهلِ البيتِ الأطهار في تلك البلاد النَّائية البعيدة، بعد أن توثَّقت صِلاتُهم وروابطُهم الاجتماعيّة، ومصالحُهم الدّينيةِ والدّنيويّةِ مع سكّان البلاد الأصليين، ولا يزالون محتفظين بأنسابِهم التي تربطُهم بأهل البيت الأطهار، وبأخلاقهم الرّفيعة، وشمائلهم المنيفة حتّى هذه الأيّام، وكذلك الحال في الهندِ وباكستان وسائرِ البلادِ الإسلاميةِ العربيّة خاصَّة.

ولم تقتصرْ هجرةُ أهلِ البيت إلى بلاد الهندِ والبرِّ الصِّينيّ وجزرِ أرخبيل جنوب شرق آسيا، وإنّما ركبَ بعضُهم وتوجَّه نحو أفريقيا في شواطئها الشَّرقيّة والجنوبيّة، وحين تعرَّضَ الأدارسةُ في شمال أفريقيا ـ وهم منتسبون إلى أهل البيت ـ للقَهْرِ والاضطهادِ، هاجرَ كثير من أهلِ البيتِ فراراً بأنفسهم من الظُّلم والجور، وذهبَ شطْرٌ منهم إلى أواسطِ أفريقيا، أو جنوبها أو غربها، لهذا كلّه ينبغي ألا نستغربَ إذا ألفينا بعضَ النَّاس ينتسبون إلى أهلِ البيتِ في هاتيك البلاد الحارّة في قارة أفريقيا، فتلك حقيقةٌ تاريخيّةٌ ثابتةٌ، وفي الحديث: «النَّاسُ مؤتمنون على أنسابِهم»، ولكنَّ هذا لا يمنعُ أهلَ الاختصاصِ من التَّحريّ والاحتياط والسُّؤال، لأنَّ بعضَ النَّاس يدعون هذا النسب الطاهر، أو غيره من الأنساب بغير حق، فإذا ما شكَّ أحدٌ من الذُّريّةِ الطَّاهرة في صحَّةِ دعوى مَنْ يدعي هذا النَّسب الطَّيِّب الطَّاهر، فإنَّ له أنْ يطلبَ البيّنة»[1].

* ولله درُّ ابنُ جابر الأندلسيّ الذي كفَانَا مؤونة مَنْ ينتسب إلى أهل البيتِ دون دليل، لأنَّ الأشرافَ معروفون بنور وجوههم فقال:

جَعَلُوا لأبناءِ الرَّسُولِ علامةً ... إنَّ العَلامة شأْنُ مَنْ لم يُشْهَرِ
نُورُ النُّبوَّةِ في كرَيمِ وجوهِهِم ... تُغني الشَّريفَ عنِ الطَّرازِ الأخْضَرِ

* ومن الجدير بالذّكْر هاهنا أنْ نشيرَ إلى فائدةٍ مهمّةٍ، وهي أنّه ينبغي التَّحرُّزُ من الانتساب إلى الذُّريّة الطَّاهرة إلا بحقّ، ودليل شرعي، إذ إنَّ الأمر ليس هيّناً، بل هو من أعظم الفِرى، كما أخبر الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ فيما جاء في الصَّحيح عنه أنَّه قال: «إنَّ من أعظم الفِرىٰ أنْ يدعىٰ الرّجل إلى غير أبيه، أو يُري عينَه ما لم تر، أو يقول على رسولِ اللهِ ﷺ ما لم يقل»[2].

---

(١) علّموا أولادكم محبّة آل بيت النّبيّ ﷺ (ص ٣٠ ـ ٣٢) بشيء من التّصرف.

(٢) أخرجه البخاريّ في المناقب برقم (٣٥٠٩)، ومعنى قوله «الفِرى»: بكسر الفاء، مقصورٌ وممدود، وهو جمعُ فِرية، والفريةُ الكذبُ والبهتُ والاختلافُ، و«يُرِي»: يدّعي: أن عينيه رأتا في المنام شيئاً ما رأتاه. وفي الحديث: تشديد الكذب في هذه الأمور الثّلاثة وهي: الخبر عن=

* وأثر عن الإمامِ مالك بنِ أنس رحمه الله أنّه قال: «من انتسبَ إلى بيتِ النَّبيِّ ﷺ - يعني بالباطل - يُضْرَبُ ضرباً وجيعاً ويُشُهَّرُ، ويُحْبَسُ طويلاً حتى تظهرَ توبتُه، لأنَّه استخفاف بحقِّ رسولِ اللهِ ﷺ»[1].

* ومن الفوائدِ المهمّةِ أنَّ البقاعي قد ذكرَ في تاريخه المسمّى: «إظهار العصر لأسرْارِ أهل العَصْر» في حوادث شهر محرّم سنة ٨٦١ هـ)، أنَّ القاضي شيخ الإسلام السَّعد الدَّيريّ المتوفى سنة (٨٦٧ هـ) قد ضَرَبَ أحمد المغربل المشهور بـ «المدنيّ» ضرباً شديداً، وطوّفَه في القاهرة يُنَادَى عليه: «هذا جزاءُ مَنْ يريدُ أنْ يدخلَ في النَّسب الشَّريف بغير حقّ».

* وسببُ ضَرْبِ أحمد المغربل، أنَّ المذكور أراد أن يثبتَ أنَّه شريفٌ، وكذا غيره من الفجرة بواسطته، وذلك أنَّه اتّفق مع بعض شهود الزُّور، وادّعى أنَّه من قرية الجعْفَريّة، وأنَّ أهلَها من أولاد جعفر الصَّادق، فما كفَاهُ كذبه لنفسِه، حتّى أراد أن يُثْبِتَ الشَّرف لجميع أهل القرية! مع أنَّ المذكور أحمد المغربلِ من أولاد نصارى بعض قُرى دمياط، وأنَّه كان يحترفُ بالغربلةِ في بولاق[2].

* وبالمقابلِ من هذا الأمرِ نجدُ الاهتمامَ بالذُّريّةِ الطَّاهرة، وخاصة إذا ورثَ الشُّرفاء الطُّهْر والتّقْوى والصَّفاء والنَّقاء، عن الأجداد والآباء.

= الشيء أنه رآه في المنام ولم يكن رآه، والادّعاء إلى غير الأب، والكذب على النّبيّ ﷺ، والحكمةُ في التّشديد في الكذب على النّبي ﷺ واضح، فإنَّه إنّما يخبر عن الله، فمن كذب عليه كذب على الله عز وجل، وقد اشتدّ النّكير على من كذب على الله تعالى، والأدلّة كثيرة من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة.

(١) استجلاب ارتقاء الغرف (٢/ ٦٣١).

(٢) استجلاب ارتقاء الغرف بحبّ أقرباء الرّسول ﷺ وذوي الشّرف للسّخاويّ (٢/ ٦٣١) نقلاً عن الهامش بتصرّف. والقاضي السّعدي الدّيريّ الحنفيّ من شيوخ المصنّف وله ترجمة في «الضّوء اللامع». (٣/ ٢٤٩ - ٢٥٣).

* أخرجَ الحاكم في «مستدركه». بسندٍ رفعه إلى سعيدِ بنِ جُبير، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، في قول عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[الكهف: ٨٢] قال: «حُفظَا بصلاحِ أبيهما، وما ذكرَ عنهما صلاحاً»[١].

* وممّا يندرجُ تحت هذا الأمرِ ما أخرجه الحاكمُ[٢] أيضاً بسنده عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾[٣] [الطور: ٢١] قال: «إنَّ اللهَ يرفعُ ذريَّةَ المؤمن معه في درجته في الجنَّةِ وإن كانوا دونه في العمل، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾[الطور: ٢١] يقول: وما نقصناهم»[٤].

* قال السَّخاويُّ رحمه الله معلّقاً على الحديثَيْن السَّابقين بما نصَّه: «فإذا كان هذا فيمن كان الصَّالح هو السَّابع من آبائهما فيما قيل، أو الرّابع، في عموم الذُّرّيّة، فخصوص ذريّة نبيّنا ﷺ أولى وأحرى»[٥].

* وأوردَ السَّخاويُّ في إكرام الذُّريّةِ الطَّاهرة بعض الحكايات التي يُستأنس بها؛ وإن كان في بعضها أشياء تحتاجُ إلى دقّة، إلا أنَّه يُسْتفاد منها في الوعظ؛ وفي توقير أهل البيت الأطهار.

* فمن الحكاياتِ المُسليةِ اللطيفةِ التي ساقها الحافظُ السَّخاوي حكاية عن عليِّ بنِ عيسى بن داود أبو الحسن الوزير[٦] المتوفى سنة (٣٣٤ هـ) قال رحمه

---

(١) المستدرك (٢/ ٤٠٠) حديث رقم (٣٣٩٥) وقال: «صحيح على شرط الشَّيخَيْن ولم يخرجاه» والحديث ذو إسناد صحيح. ووافقه الذّهبيّ في التّلخيص.

(٢) المستدرك (٢/ ٥٠٩) حديث رقم (٣٧٤٤). وسكتَ عنه الذَّهبيُّ في التَّلخيص، لكن رجاله ثقات.

(٣) قُرىء: ﴿ذريّتُهُم﴾ و﴿ذُرِّيَّاتهم﴾ وهما قِراءتان متواترتان مشهورتان.

(٤) قرىء: ﴿واتّبعتهم﴾ بوصل الألف، وقرىء: ﴿وأَتْبعناهم﴾ بقطع الألف وإسكان التاء، وهما قراءتان متواترتان.

(٥) استجلاب ارتقاء الغرف (٢/ ٦٧٩).

(٦) الوزير: الإمامُ المحدّثُ الصَّادقُ الوزيرُ العادل، أبو الحسن، عليُّ بنُ داود بن الجراح، =

الله: «كنتُ أحسنُ إلى العَلَوِيَّة براتبٍ لهم ولعيالهم؛ لكسوتهم ونفقتِهم في سَنَتِهم؛ أدفعُهُ لهم في شهْرِ رمضانَ، فاتَّفَقَ اجتيازي بواحدٍ منهم يوماً وهو سكْران بأسوأ حال، فقلتُ في نفسي: أنا أعطي هذا الفاسقَ خمسة آلاف درهم يُنْفقها في معصيّة الله! لأمنعنَّه.

فلمَّا جاء رمضانُ جاء في جملة الجماعةِ، فلم أعْطِهِ شيئاً، وقلتُ له: أما رأيتُك وأنتَ سكران في وقتِ كذا، فلا تَعُدْ إليَّ بعدها.

فلمَّا كانت ليلة ذاك اليوم، رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النّوم وهو معرضٌ عنّي، فاشتدَّ عليَّ ذلك، وقلت: يا رسولَ اللهِ، هذا مع كثرةِ إحساني لأولادك، وبرّي لهم، وكثرةِ صلاتي عليك!

قال: فَلِمَ رددتَ ولدي فلاناً عن بابِكَ أقبح ردٍّ، وخيّبته، وقطعْتَ راتبه كلَّ سنة؟

فقلتُ: لأنّي رأيتُه على فاحشةٍ، وكرهتُ أنْ أعينَه على المعصيةِ.

فقال: أكنْتَ تعطيه لأجلِهِ أو لأجلي؟!.

فقلت: بل لأجلك.

قال: أفما كان يجمُلُ أنْ تَسْتُرَ عليه عَثْرته لأجلي؟

فقلت: كرامةً وعزّاً.

= البغداديّ الكاتب، وزَرَ غير مرّة للمقتدر، وللقاهر، وكان عديم النَّظر في فنّه، وُلدَ سنة نيف وأربعين ومئتين. ومن تلامذتِهِ الذين حدّثوا عنه: أبو القاسم الطّبراني المحدّث المشهور صاحب المعاجم الحديثية. كان الوزيرُ على الحقيقةِ غنياً شاكراً، ينطوي على دِيْنٍ متينٍ وعلمٍ وفَضْلٍ، وكان صبوراً على المِحن، ولله بِهِ عنايةٌ، وهو القائلُ يعزّي وَلَدَيّ القاضي عمر بن أبي عمر القاضي في أبيهما: «مصيبةٌ قد وجبَ أجرها خير من نعمة لا يؤدّىٰ شكرها». وكان رحمه الله كثير الصَّدقات والصَّلوات، مجلسُه موفور بالعلماء، صنّف كتاباً في الدّعاء، وكان من بلغاء زمانه: وكان يصوم نهاره ويقوم ليله، وجاور بمكة. وله كرامات وأخبار عظيمة، مات سنة (٣٣٤ هـ) وعمره (٩٠ سنة) رحمه الله (سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٩٨ ـ ٣٠٠).

وانتبهتُ، فأرسلتُ خلفه، ودفعتُ له عشرة آلاف.

فسألني عن سببِ ذلك بعدما تقدّم؛ فأعلمتُه، فبكى، وعقد التَّوبة مع اللهِ»[1].

* وفي رواية أنَّ العَلويَّ قال للوزير: «نذرتُ لله نذراً واجباً أني لا أعودُ إلى مثل ما رأيتني عليه، ولا أرتكب معصية أبداً، وأحوج جدّي أنْ يحاجّك من جهتي».

* وحكى التَّقيُّ المقريزي عن يعقوبَ بنِ يوسُف بن علي بن محمَّد المغربي: أنَّه كان بالمدينة النَّبويّة في رجب سنة سبع عشرة وثماني مئة، فقال له الشَّيخ العابد أبو عبد الله محمد الفارسيّ، وهما بالرَّوضة النَّبويّة: «إنّي كنتُ أبغضُ أشرافَ المدينةِ بني حُسين، لما يظهرون من التّعصُّبِ على أهل السُّنَّة، ويتظاهرون به من البدع؛ فرأيتُ وأنا نائمٌ بالمسجد النَّبويّ تجاه القبر الشّريف رسول الله ﷺ وهو يقول: يا فلان ـ بِاسْمِي ـ مالي أراكَ تبغضُ أولادي؟

فقلت: حاشا للهِ، ما أكرههم، وإنّما كرهتُ منهم ما رأيتُ من تعصّبهم على أهل السُّنَّة.

فقال لي مسألة فقهية: أليسَ الولدُ العاقُّ يُلْحَقُ بالنّسب؟

فقلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ.

فقال: هذا ولَدٌ عاقّ.

فلمّا انتبهتُ صرتُ لا ألقى من بني حُسين أشرافِ المدينة أحداً إلا بالغت في إكرامه»[2].

* ثمّ قال التَّقيُّ المقريزيّ بعد أنْ أوردَ عدّةَ حكايات معظمها منامات

---

(١) استجلاب ارتقاء الغرف (٢/ ٦٨٠ و٦٨١).

(٢) المصدر السّابق نفسه (٢/ ٦٨٣ و ٦٨٤).

وأحلام: «وعندي عدّةُ حكاياتٍ صحيحة مثل هذه في حقّ بني حَسَن، وبني حُسَين، فإياك والوقيعة فيهم، فليستْ بدعةُ المبتدع منهم، أو تفريط المفرّط منهم في شيء من العبادات، أو ارتكابه محرماً من المحرمات مُخْرِجٌ له من بنوّةِ النَّبيّ ﷺ، بل الوَلد ولَدٌ على كلّ حال، عقّ أو فجر»[1].

وقفات مع أشْعَارِ سيّدنا الحُسَين:

* سيّدنا الحسينُ رضي الله عنه من رجالِ أهل البيتِ الفَصَحة الكتبة الذين ذُلّلتْ لهم قطوفُ البلاغةِ تذليلاً، وله كلامٌ منظومٌ لا يقلُّ جمالاً عن نثره الحاوي ألوان العلوم؛ وكان شاعرهُ يحيى بنُ الحكم وجماعةٌ غيره.

* ولسيّدنا الحُسين رضي الله عنه وقفاتٌ لطيفةٌ مع بعض الشُّعراء، ومحاورات ساحرة مع بعض البُلغاء، وصَلَتْ إلينا فيما وصلَ من نظمهِ وشعرهِ، وكان يعطي الشُّعراء عطاء جزيلاً يدفع بذلك ألسنتهم عن الناس حتى لِيْمَ في ذلك، فأجاب بأنَّه يقي بالمال العرض.

* وتمدّنا السِّيرة الحُسينيةُ الغنيّة بقصصٍ مطربةٍ في هذا المجال، وتمنحنا صوراً أنيقةً عن النَّفسيّة الطَّيّبة المعطاء التي حَبَاهَا اللهُ عزَّ وجلَّ سيّدنا الحسينَ رضي الله عنه وأرضاه، وحشَرنا في معيته، ومعيّة الذُّريّة الطَّاهرة تحت لواء سيّد الأنبياء والمرسلين رأس أهل البيت وسيّدهم حبيبنا المصطفى المختار رسول الله ﷺ.

* وها نحن أولاء الآن نعيشُ في أجواء قصّةٍ تسفرُ عن سخاء سيّدنا الحُسين رضي الله عنه، إذ يروي الذّيالُ بنُ حرملةَ قال: «خرجَ سائلٌ يتخطّى أزقّةَ المدينةِ حتى أتى باب الحُسين بن عليّ رضي الله عنهما، فقرع وأنشد يقول:

لـم يخِـبِ اليـومَ مَـنْ رجَـاكَ ومَـنْ ... حـرَّكَ مِـنْ خَلْـفِ بـابِـكَ الحَلَقَـه

(١) المصدر السّابق ذاته (٢/ ٦٨٨ و ٦٨٩)، نقلاً عن «السُّلوك (٧/ ١٩٩).

وأنــتَ جــودٌ وأنــتَ مَعْـدِنُــه أبـوكَ مـا كـان قـاتـل الفَسَقَـه

وكان الحسينُ رضي الله عنه واقفاً يصلّي، فخفَّفَ من صلاته؛ وخرجَ إلى الأعرابيّ، فرأى عليه أثرَ ضرٍّ وفاقةٍ، فرجع ونادى بقنبر فأجابه: لبيكَ يا بنَ رسولِ الله ﷺ.

قال: ما تبقَّى معنَا منْ نفقتِنا؟

قال: مئتا درهم، أمرتني بتفرقتها في أهل بيتك.

قال: فهاتها؛ فقد أتى مَنْ هو أحقّ بها منهم.

فأخذها، وخرجَ إلى الأعرابيّ، وأنشا يقول:

خـذْهَـا فـإنّـي إليـكَ معتـذرٌ واعلـمْ بـأنّـي عليـكَ ذو شَفَقَـه
لـو كـان فـي سَيرنـا عصـا تمدّ إذاً كـانـت سَمـانـا عليـكَ مُنْـدفقَـه
لكـنَّ ريـبَ المنـونِ ذو نكَـدٍ والكـفُّ منّـا قليلـةُ النَّفَقَـه

فأخذها الأعرابيُّ وولّى وهو يقول:

مطهّـرون نقيّـاتٌ جُيُـوبُهُـمْ تجري الصَّلاةُ عليهم أينما ذُكِرُوا
فـأنتـمُ أنتـمُ الأعلـون عنـدكـمُ علْمُ الكتابِ وما جاءَتْ به السُّور
مَـنْ لـم يكـنْ علـويّـاً حيـن تَنْسِبُـه فمالَه في جميع النَّاسِ مُفْتَخَرُ»[١]

* وقد عَرَفَ سيّدُنا الحسينُ رضي الله عنه الحياةَ الدّنيا وخبرها، وهاهو ذا يمتعُ الأسماع بهذه اللاميةِ الموقظةِ التي تصفُ صعوبة العيش لمن أُثْقِل بالعيالِ والمالِ فيقول ناصحاً وواعظاً:

كلّمـا زِيـدَ صـاحـب المـالِ مـالًا زِيْـدَ فـي هَمِّـه وفـي الاشتغـال
قـد عـرفْنَـاكِ يـا مُنغّصَـة العيـ ـشِ ويـا دارَ كـلِّ فـانٍ وبـال
ليـسَ يصْفـو لـزاهـدٍ طلـبُ الـزُّهـد إذا كـان مُثْقـلاً بـالعيـال[٢]

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣١ و ١٣٢)!!!.

(٢) المصدر السّابق (٧/ ١٣٢)، والبداية والنّهاية (٨/ ٢٠٩).

* ويصف الدُّنيا بأوجزِ وصفٍ وأجمله، فيقول في هذه اللاميّة الموقظة:

لئن كانتِ الدُّنيا تُعَدُّ نفيسةً فدارُ ثوابِ اللهِ أعلى وأَنْبلُ
وإنْ كانت الأبدانُ للموتِ أُنشِئَتْ فقتلٌ في سبيل الله بالسَّيف أفضلُ
وإن كانتِ الأرزاقُ شيئاً مقدّراً فقِلَّةُ سعي المرء في الكسب أجملُ
وإن كانت الأموالُ للتّركِ جُمِّعتْ فما بالُ متْروكٍ به المرءُ يَبْخَلُ[1]

* وقال إسحاقُ بنُ إبراهيم: بلغني أنَّ الحسينَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما أتى مقابر الشُّهداء بالبقيع فطاف بها وقال:

ناديتُ سكّانَ القُبور فأُسْكِتُوا وأجَابني عن صمتهم ندبُ الجثى
قالتْ أتدري ما صنعتُ بِسَاكني مزقْتُ ألحمَهمْ وخرقْتُ الكُسَا
وحشوتُ أعينَهم تراباً بعدما كانت تأذى باليسير من القَذى
أمَّا العظَامُ فإنني فَرّقْتُها حتّى تباينت المفاصل والشّوى
قطَّعتُ ذا منْ ذا ومن هذا كذا فتركتُها رمماً يطولُ بها البلى[2]

* ومن شعْرِ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه قوله:

اغْنَ عنِ المخْلُوقِ بالخَالِقِ تَغْنَ عن الكاذبِ والصَّادقِ
واسترزقِ الرّحمن من فضْلهِ فليسَ غيرُ اللهِ منْ رازقِ
مَنْ ظنَّ أنَّ النَّاسَ يغنُونَه فليس بالرَّحمن بالواثقِ
أو ظنَّ أنَّ المالَ منْ كسْبِه زلَّتْ به النَّعلان منْ حَالقِ[3]

* وممّا جاء من شعر سيّدنا الحُسين في زوجته الرَّباب بنت امرىء القيس الكلبيّة وابنته سكينة، ما روته السَّيدة سكينة نفسها، من أنَّ عمَّها سيّدنا الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما قد عاتبَ أباها الحسين في أمِّها، فأنشدَ قائلاً معرباً عن حبِّه للاثنتَيْن:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٣).
(٢) المصدر السّابق (٧/ ١٣٢).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٢) و«حالق»: الجبل المرتفع.

لَعَمْــــرُكَ إنّنــــي لأحــــبُّ داراً   تحــلُّ بهــا سكينــةُ والــرَّبَــابُ
أحبُّهمــا وأبــذلُ جُــلَّ مــالــي   وليــس لــلائمــي فيهــا عتــابُ
ولسْــتُ لهــم وإنْ عتبــوا مطيعــاً   حيــاتــي أو يُغيّبنــي التّــرابُ[(١)]

* وقد أسلم والد الرّباب على يدي سيّدنا عمر رضي الله عنه، وجعله عمر أميراً على قومِه، فلمّا خرجَ من عنده خطبَ إليه سيّدنا علي بن أبي طالب أنْ يزوّج ابنه الحسن أو الحسين من بناته، فزوّج الحسن ابنته سلمى، والحسين ابنته الرّباب، وزوّج ابنته الثّالثة المحياة بنت امرىء القيس في ساعةٍ واحدة، فأحبَّ الحسينُ زوجتهَ الرّباب حبّاً شديداً، وكان بها معجباً، يقول فيها الشّعر، ولمّا قُتِلَ بكربلاء شهيداً كانت معه، فوجدتْ عليه وجداً شديداً، وذكر أنّها أقامت على قبرهِ سنة، ثمّ انصرفَتْ وهي تقول:

إلىٰ الحَولِ ثمّ اسم السَّلام عليكما   ومَنْ يبكِ حولاً كاملاً فَقَدِ اعتذر

* وقد خطبَها بعد سيّدنا الحسين خلقٌ كثيرٌ من أشرافِ قريش فقالت: ما كنتُ لأتخذَ حمواً بعد رسولِ الله ﷺ، ووالله لا يؤويني ورجلاً بعد الحسين سقفٌ أبداً، ولم تزلْ عليه كمدةٌ إلىٰ أنْ وافتها المنية. ويُقال: إنّها عاشَتْ بعده أيّاماً يسيرة فالله أعلم، وابنتها سكينة بنت الحسين كانت من أجمل النّساء حتَّى إنَّه لم يكن في زمانها أحسن منها فالله أعلم[(٢)].

* وأورد مؤمنُ الشَّبْلنجيّ في كتابه «نور الأبصار في مناقب آل بيت النَّبيّ المختار ﷺ» أشعاراً لا ترقى في مستواها إلى الذي ذكرناه آنفاً، وتغلبُ عليها صفة النَّظم إذ هي لا روح فيها ولا حياة، وأغلبُ الظَّنّ أنَّها منسوبةٌ إليه، ومنها ما جاء أنَّه لمّا أحاطت به جموع ابن زياد، وقتلُوا مَنْ قتلوا من أصحابه ومنعوهم

---

(١) المنازل والدّيار لأسامة بن منقذ (ص ٣٢٣)، ونساء من عصر التابعين ص(١٦٨).

(٢) انظر في هٰذا: البداية والنّهاية (٨/ ٢١٠). أقول: «استوفينا سيرة السّيدة الشّريفة الحسيبة النَّسيبة سكينة في كتابنا: «نساء من عصر التّابعين» (ص ١٦٧ ـ ١٧٩) طبعة دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٤ ـ ٢٠٠٢ م، فليرجع إليها مَنْ أراد.

الماء، وأصاب ولده الصّغير سَهْم فقتله، فزمّله وحفر له بسيفه، وصلّى عليه، ودفنَه قال رضي الله عنه:

غـدرَ القـومُ وقـدمـاً رغبُـوا ... عـن ثَـوابِ اللهِ ربِّ الثَّقَلَيـن
قتلُـوا قـدمـاً عليّـاً وابنَـهُ ... حَسَـنَ الخيـر كـريـم الأبـويـن
حَسَـداً منهـم وقـالـوا أقبلُـوا ... نقتـلُ الآن جميعـاً للحُسَيـن
خيـرةُ اللهِ مـنَ الخَلْـق أبـي ... ثـمّ أمّـي فـأنـا ابـنُ الخيـرتيـن
فضّـةٌ قـد صفّيـت مـن ذهـب ... فـأنـا الفضّـةُ وابـنُ الـذَّهبَيْـن
مَـنْ لـه جـدّ كَجـدّي فـي الـورىٰ ... وكَشَيخـي فـأنـا ابـنُ القمـريـن
فـاطـمُ الـزَّهـراء أمّـي وأبـي ... قـاصـمُ الكفـرْ ببـدرٍ وحُنيـن[1]!!

* ولا ندري من أين حصلَ الشَّبلنجي علىٰ قصيدةٍ همزيةٍ نسبَها إلىٰ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه، وفيها الأنفاسُ نفسُها في النُّونيّة التي قَبْلَها، بل هيَ أو قريبةٌ منْ هيَ، ونظنُّ ـ والله أعلم ـ أنّها منسوجةٌ فيما نُسِجَ من هـٰذا القبيل ونُسِبَ إلىٰ أسيادنا الأطهار هؤلاء، ولا ندري أيزيد هـٰذا النَّظم من مكانتهم في نفوس محبّيهم؟! لا ريب في أنَّ محبّيهم يحبّونهم لأشياء أعلىٰ من هـٰذا النَّظم الرّكيك الضَّعيف، يحبّونهم امتثالًا لأمرِ الحبيبِ الأعظم ﷺ الذي أحبَّهم، وأحبَّ سبطيه الحسن والحُسين، وأمر بحبِّهم ونهىٰ عن بغضِهم، فمحبّتهم نجاةٌ، وولاؤهم سعادةٌ ونجاحٌ.

* ولنعش الآن مع هـٰذه الهمزيّةِ التي ساقها الشّبلنجي فقال: وقال الحُسين رضي الله عنه من قصيدة طويلةٍ هـٰذا أولها:

---

(١) نور الأبصار (ص ١٥٣)!!! وهي قصيدة طويلة في بعض المصادر؛ ومن الواضح لكلّ ذي بصرٍ وبصيرة أدبية أنَّ هـٰذا النَّظم ركيكٌ مرصوفٌ بطريقة غير ناجحةٍ، وفيه ضعفٌ في المعنىٰ والمبنىٰ، ثم نسبَ إلىٰ حبيبنا الشَّهيد السَّعيد الحُسين رضي الله عنه، وحسين كما نعلم من فَصَحة رجالِ أهلِ البيت وبلغائهم، ومثل هـٰذه الأوزان وهذه الألفاظ، لا تزيدُ في رصيده الأدبيّ ولا الثّقافيّ، وإنّما تدلُّ صياغتها علىٰ أنَّ أحدَ محبّي سيّدنا الحُسين ممن تصوَّف وأغرقَ في حبِّ شيخه قد نظَمها وألصقَها فيه وليته لم يفعل والله يهدي إلىٰ الصَّواب والحق.

إذا استنْصَر المرءُ امرأً لأذيةٍ ... فَناصرهُ والخاذلون سَواءُ
أنا ابنُ الذي قدْ تعْلَمُون مكانَه ... وليس علىٰ الحقِّ المُبينِ طحاءُ
أليسَ رسولُ الله جدّي ووالدي ... أنا البدرُ إنْ حلَّ النُّجومَ خفَاءُ
ألم ينزلِ القُرآنُ خَلْفَ بيوتنا ... صَبَاحاً ومنْ بعدِ الصَّباحِ مسَاءُ
ينازعُني واللهُ بيني وبينه ... يزيدُ وليس الأمرُ حيثُ يشاءُ
فيا نصحاء اللهِ أنتم وُلاتُهُ ... وأنتم علىٰ أديانِه أُمناءُ
بأي كتابٍ أمْ بأيةِ سُنّةٍ ... تناولَها عن أهلِها البُعَداءُ[1]

* ومن كلامه المنظوم رضي الله عنه:

ذَهَبَ الذين أحبُّهم ... وبقيتُ فيمنْ لا أحبُّه
فيمن أراهُ يسبُّني ... ظهرَ المغيبِ ولا أسبُّه
أفلا يرىٰ أَنْ فِعْلَه ... ممّا يسيرُ إليه غبّه
حسْبي بربّي كافياً ... ممّا اجتنىٰ والبغي حسبه[2]!!

* وقال رضي الله عنه في الاستغناءِ عن الخلْقِ واللجوء إلىٰ الخالق عزَّ وجلَّ:

إذا ما عضَّكَ الدَّهْرُ ... فلا تجنحْ إلى الخَلْقِ
ولا تسألْ سوىٰ اللهِ ... المغيثِ العَالمِ الحقِّ
فلو عشتَ وقد طفْت ... من الغربِ إلىٰ الشَّرق
لمَا صَادفْتَ مَنْ يقدر ... أنْ يسْعِدَ أو يشقي[3]!!

* ومن شعر سيّدنا الحسين ما رواه ابنه زين العابدين واسمه عليُّ بنُ الحُسين، إذ قال: «إنّي لجالسٌ تلك العشية التي قُتِلَ أبي في صبحتها، وعمتي

(١) نور الأبصار (ص ١٥٣).
(٢) المصدر السابق عينه!!!؟!!!.
(٣) المصدر السّابق نفسه!!!..

زينب[1] تمرضني، إذ اعتزل أبي خباء له، وعنده حُويٌّ مولىٰ أبي ذرّ، وهو يعالجُ سيفَه ويصلحُهُ، وأبي يقول:

يـــادهـــرُ أفٍّ لـــكَ مِـــنْ خليـــل   كـم لـكَ بـالإشـراقِ والأصيـل
مـن صـاحـبٍ أو طـالـبٍ قتيـل   والـدّهـرُ لا يقنـعُ بـالقليـل
وإنّمـا الأمـرُ إلـىٰ الجليـل   وكـلُّ حـيٍّ سـالـكُ السَّبيـل[2]

* وممّا اختزنته ذاكرةُ علماء التّابعين من ذاكرةِ سيّدنا الحُسين الشِّعريّة وسليقته الأدبية ما ذكره أبو سعيد المقْبُريّ قال: «واللهِ لرأيتُ الحسينَ رضي الله عنه وإنَّه ليمشي بين رجلَيْن، يعتمد علىٰ هـٰذا مرّةً، وعلىٰ هـٰذا مرّةً، وعلىٰ هـٰذا أخرىٰ، حتىٰ أتى مسجد رسولِ الله ﷺ، وهو يقول:

لا ذَعَـرتُ السّـوامَ فـي غَبَـش الصّبـ   ـح مغيـراً ولا دُعيـتُ يـزيـدا
يـومَ أُعطـي مخـافـةَ المـوتِ ضَيمـاً   والمنـايـا يـرصُـدْنَنـي أنْ أحيـدا

قال: فعلمتُ عند ذلك أنْ لا يلبثُ إلا قليلاً حتىٰ يخرجَ؛ فما لبثَ أنْ خرجَ حتّىٰ لحقَ بمكّة، ثمَّ خرج منها إلىٰ العراق[3].

* وكان سيّدنا الحسينُ رضي الله عنه يحفظُ كثيراً من عيون الشّعر العربيّ النَّفيس، ويتمثّل به في حينهِ، ومن أمثلة ذلك أنَّه لمَّا سار بأصحابهِ وجاوزوا دَيْرَ هندٍ، نظرَ الحسينُ إلىٰ الكوفة، فتمثّل قول زُميل بن أُبَير الفزاريّ، وهو ابن أمّ ذبيان:

(١) اقرأ سيرةَ السّيدةَ الحسيبةَ الهاشميةَ النَّسيبة زينب بنت عليّ رضي الله عنهما في الباب الأوّل من كتابنا «بنات الصَّحابة» (ص ١٧١ ـ ٢١٦) في سيرتها مواقف تستحقُّ التّأمّل فهي من القدوات الطّاهرات رضي الله عنهنّ أجمعين.

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ١٧٧ و ١٧٨)، والكامل في التّاريخ (٤/ ٥٩)، ونهاية الأرب (٢٠/ ٤٣٦ و ٤٣٧) مع الجمع والتّصرّف. وانظر: بنات الصّحابة (ص ١٩١ و ١٩٢) وغيرها كثير.

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٦)، وأنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٤٦١).

فَما عـنْ قلىً فـارقْتُ دارَ معـاشـرٍ   هـم المـانعـون بـاحَتِـي وذِمَـاري
ولكنَّــه مــا حُــمَّ لابــدّ واقــع   نَظَــارِ تـرقَّـبْ مـا يحـمُّ نَظَـارِ[1]

* وعندما لحق الحرُّ بنُ قيس بسيّدنا الحُسين قال له: يا حُسين؛ أذكّرك الله في نفسك، فإنّي أشهدُ لئن قاتلت لتقاتلن، ولئن قوتلتَ لتهلكنَّ.

فقال الحسينُ رضي الله عنه: أبالموت تخوّفني، وأقولُ كما قال أخر الأوس:

سأمْضِي فما بالموتِ عارٌ علىٰ الفتىٰ   إذا مـا نـوىٰ حقّـاً وجـاهَـدَ مُسْلمـا
وآسـىٰ الـرِّجـالَ الصَّـالحيـن بنفسِـهِ   وفـارقَ مثبـوراً وخـالـفَ مجْـرمـا
فإنْ عشتُ لم أذممْ وإنْ متُّ لمْ أُلَمْ   كفىٰ لك ذلاً أنْ تعيشَ وتُرغَما[2]

صُورٌ منْ الشجاعةِ الحُسينيّة:

* السّيرةُ الحُسَينيّةُ سيرةٌ مونقةٌ ذاتُ أفنانٍ مزهرة بألوانِ العطاءِ والخيراتِ، ولايستطيعُ الباحثُ أنْ يحيطَ بسيرته، وأنْ يرسمَ شجاعته، وإنّما يلتمسُ بعضَ الفوائد المبثوثة هنا وهناك في مصادر متفرّقة فيستفيد منها.

* كان سيّدنا الحسينُ كالأسدِ في براثنِه، له مكانةٌ متميزةٌ عند الخواص من أصحابِ رسولِ الله ﷺ بحيث إنَّ سيدنا أبا هريرة رضي الله عنه كان يقولُ له: «واللهِ لو يعلمُ النَّاسُ منك ما أعلمُ، لحملوك علىٰ رقابهم[3]».

* ونظرَ مدركُ بنُ عمارةَ إلىٰ ابن عبّاس حبْرِ الأمّةِ وبحرِها وعالِمها، فرآه آخذاً بركابِ الحسنِ والحُسينِ حتىٰ يستويا علىٰ دابتهما، فقيل له: «يا بن عبَّاس، أتأخذُ بركابهما وأنتَ أسنُّ منهما».

(١) أنساب الأشراف (علي وبنوه ص ٤٥٧) بتصرف يسير. وقوله «نَظَار»: فعل أمر قياسي علىٰ وزن فَعَال، من فعل نظر.
(٢) المصدر السابق (ص ٤٧٤)، وانظر: البداية والنهاية (٨/ ١٧٣).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٨).

فما كان من ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما إلا أنْ لفتَ نَظَرَ السَّائل إلىٰ أمْرٍ مهمّ غابَ عن بالهِ فقال: «إنَّ هـٰذَيْن ابنا رسولِ الله ﷺ، أوليسَ منْ سَعَادتي أنْ آخذَ بركابيهما[1]؟!

* وقد وهبَ اللهُ عزَّ وجلَّ سيّدنا الحُسين شجاعةً مفرطةً، وجرأةً نادرةً، وقوةً شديدةً، بحيث إنَّ أخاه الحسنَ رضي الله عنهما قال له ذات مرّةٍ: «أي أخ، واللهِ لوددتُ أنَّ لي بعضَ شدّة قلبك».

فيقول له سيّدنا الحُسين في أدب عظيم منوّهاً ببلاغتِهِ وفصاحته: «وأنا والله، وددتُ أنَّ لي بعضَ مابُسِطَ لك من لسانِكَ[2]».

* إنَّ شجاعةَ سيّدنا الحسين وبسالته مشهورة في ميادين النّزال، وغدت مضرب الأمثال، إذ إنَّ الحسينَ فتىٰ الشُّجعان، حينما تلمعُ الأسنّةُ ويعتركُ الفُرسان، فقد كان مع أبيهِ سيّدنا عليّ في جميعِ معاركه من أَلِفِها إلىٰ يائِها، قال أبو عُبيدةَ بنُ المثنىٰ: «كان علىٰ الميسرةِ يوم الجملِ الحُسين رضي الله عنه»[3].

* كما كان لسيّدنا الحسين في وقعةِ صفين صوتٌ مسموع، وسيفٌ قاطعٌ، وسنانٌ لامعٌ، وإقدامٌ ساطعٌ، وبلاغةٌ مؤثّرة، فقد حُفِظَتْ لسيّدنا الحُسين رضي الله عنه خُطَبٌ جليلةٌ تشعُّ كلماتها بالعلْم والمعرفةِ، وتدلُّ معانيها علىٰ شجاعتهِ وإقدامه، ومن أمثلة خُطبه العظيمة أيّام صفّين، ما ذكره نصرُ بنُ مزاحم

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٨) بتصرف يسير. أقول: «ونحن من سعادنا ـ والله ـ أننا نعطر الأفواه والأسماع والقلوب ونزين الصفحات بسيرة رجال أهل البيت رضي الله عنهم وحشرنا في معيتهم».

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٢٨)، وسير أعلام النُّبلاء (٣/ ٢٨٧).

(٣) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٢٨٨). وقد شهد سيّدنا عليّ رضي الله عنه بالشّجاعة لابنهِ الحسين فقال ما مفادهُ وخلاصتُه: «ألا أحدّثكم عنّي وعن أهل بيتي؟ أمّا الحسنُ، فَصَاحبُ جَفْنةٍ من فتيانِ قريش، لو قد التقتْ حلقتَا البطان لم يُغنِ في الحرب عنكم. وأمّا أنا وحُسينُ، فنحنُ منكم وأنتم منّا. (سير أعلام النّبلاء ٣/ ٢٨٧) بتصرّف يسير.

المنقري أنَّ سيّدنا الحسينَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما قام خطيباً في أهل الكوفة، فحمد الله عزَّ وجلَّ، وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: «يا أهل الكوفة، أنتم الأحبّة الكرماء، والشّعار دون الدّثار، جدّوا في إحياء ما دثَر بينكم، وإسهال ما توعّر عليكم، وأُلفة ما ذاع منكم، ألا إنّ الحربَ شرُّها ذريع، وطعمها فظيع، وهي جُرَعٌ مُتَحسَّاة، فمن أخذَ لها أهبتَها، واستعدَّ لها عدّتَها، ولم يألمْ كلومَها عند حلولها، فذاك صاحبها، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها، واستبصار سعيه فيها، فذاك قَمِنٌ ألا ينفع قومه، وأن يهلكَ نفسه نسأل الله بعونه أنْ يدعمكم بأُلفَتِهِ»[1].

* وأمّا سنانُه وسيفُه قد كان لهما غناء يوم صفّين إذ دافع سيّدنا الحُسين مع أخيه محمّد عن أبيهما سيّدنا عليّ رضي الله عنه قال زيدُ بنُ وهب يصفُ الشّجاعة الحُسَينيّة يوم صفّين: «مرَّ عليٌّ رضي الله عنه يومئذ ومعه بنوهُ نحو الميسرة، وإنّي لأرىٰ النّبل بين عاتقه ومنكبيه، وما من بنيه أحد إلا يقيه بنفسه، فَيكْرَهُ عليٌّ ذلك، فيتقدّم عليه، فيحول بينَه وبين أهلِ الشَّام، ويأخذُ بيده إذا فعل ذلك فيلقيه بين يديه، أو من ورائه، فَبَصُرَ به أحمر مولىٰ بعض بني أميّة، فقال عليٌّ: وربِّ الكعبة قتلني اللهُ إنْ لم أقتلْكَ أو تقتلني.

فأقبل نحوه، فخرج إليه كيسان مولىٰ عليّ، فاختلفا ضربتَيْن، فقتله مولىٰ بني أميّة؛ وخالطَ عليّاً ليضربه بالسَّيف، فانتهزَهُ عليٌّ ـ بادر إليه وأسرع ـ فتقع يده في جيب درعِهِ، فجذبه، ثمّ حملَه علىٰ عاتقِهِ، فكأنّي أنظر إلىٰ رجلَيْه تختلفان علىٰ عنق عليٍّ، ثمّ ضربَ به الأرض فكسرَ منكبه وعضده، وشدَّ ابنا عليّ عليه: الحُسين ومحمّد، فضرباه بأسيافهما حتّىٰ بَردَ ـ مات ـ، فكأنّي أنظرُ إلىٰ عليٍّ قائماً وشبلاه يضربان الرَّجل، حتّىٰ إذا أتيا عليه ـ قتَلاه ـ، أقبلا إلىٰ أبيهما، والحسن معه قائم، قال: يا بنيّ، مامنعك أنْ تفعلَ كما فعل أخَوَاك؟

---

(١) وقعة صفّين لنصر بن مزاحم (ص ١١٤ و ١١٥) تحقيق وشرح عبد السَّلام محمد هارون ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٩٠ م.

قال: كفياني يا أميرَ المؤمنين»[1].

* وفي أحدِ أيّام صفّين قام الأعورُ الشَّنّيّ، وتقدَّمَ من سيّدنا عليّ رضي الله عنه، وأشار إلىٰ مكانتهِ ومكانةِ ولديه الحَسنِ والحُسينِ وقال: «يا أميرَ المؤمنين... زاد اللهُ في هداكَ وسرورِكَ، نظرت بنورِ اللهِ فقدَّمتَ رجالاً، وأخّرتَ رجالاً، فعليك أنْ تقولَ، وعلينا أنْ نفعل، أنتَ الإمامُ، فإنْ هلكتَ فهـٰذان من بعدِكَ ـ يعني حَسَناً وحُسيناً ـ وقد قلتُ شيئاً فاسمعه.

قال: هاتِ.

فقال:

أبا حَسنٍ أنتَ شَمْسُ النَّهار ... وهـٰذان في الحَادثاتِ القَمر
وأنتَ وهـٰذان حتّىٰ الممَات ... بمنزلةِ السَّمع بَعْدَ البصَر
وأنتم أناسٌ لكم سُورَةٌ ... يقصِّرُ عنها أكفُّ البشَر
يخبِّرنا النَّاسُ عن فضلِكم ... وفضلكم اليومَ فوقَ الخَبر

فلم يبق أحدٌ منَ النَّاس به قُدْرة أو له مَالٌ، إلا أهدىٰ للأعور الشَّنّيِّ أو أتحفه[2].

* وبعد استشهاد سيّدنا عليّ رضي الله عنه، كان سيّدنا الحُسين رضي الله عنه من أفراد الجيش الغازي المتوجّه إلىٰ القُسطنطينية بإمرة يزيد بنِ معاويةَ، وكتب في سجلّ الغزاة الفاتحين والأبطال المجاهدين.

استشْهَادُهُ رضي اللهُ عنه:

* لم يكن سيّدنا الحسينُ رضي الله عنه راضياً كلَّ الرّضا عمّا حدَثَ من أمور الصُّلح بين سيّدنا الحسنِ ومعاويةَ رضي الله عنهما، ولكنَّ سيّدنا الحُسين عليه سحابات الرّضوان كان مُتأدّباً بأدب النُّبوّة وقال لأخيهِ الحسن رضي الله

(١) وقعة صفين (ص ٢٤٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٢٥ و ٤٢٦) بتصرف واختصار.

عنه: «أنتَ أكبرُ وَلَدِ عَليٍّ، وأنتَ خليفتُهُ، وأمرُنَا لأمرِك تبعٌ، فافعلْ ما بدا لك...»[1].

* وجرت مراسيمُ الصُّلح، وانتقلتِ الذُّريَّةُ الطَّاهرةُ وأهلُ البيتِ الأبرارِ واستقرَّتْ بالمدينةِ المنورة؛ وظلَّ سيّدنا معاويةُ يعرفُ لسيِّدنا الحسين حقَّه ويجلُّه، وكان الحَسنَان يَفِدان إلىٰ دمشق، ويقْبلان الجوائزَ من سيّدنا معاوية، وغزا سيّدنا الحُسين وثلّةٌ من الصَّحابةِ الكرام مع يزيدَ بنِ معاويةَ القُسطنطينية في سنة (٥١ هـ).

* وتذكرُ التَّواريخُ وبعضُ المصادر بأنَّ سيدنا معاويةَ لمَّا حضرتْه الوفاةُ أوصىٰ ابنه يزيد بسيّدنا الحُسين إذ إنّ له رحماً ماسّة وحقّاً عظيماً.

* وفي روايةٍ عند ابن سعد والذَّهبيّ: لمَّا حُضِر معاويةُ رضي الله عنه أحضرَ يزيد بن معاوية، فأوصاه بما أوصاهُ به، وقال له: «انظرْ حسينَ بنَ عليّ ابن فاطمةَ بنت رسولِ الله ﷺ، فإنَّه أحبُّ النّاس، فَصِلْ رحمه، وارفقْ به يَصْلُحْ لك أمرهُ، فإنْ يكُ منه شيء، فإنّي أرجو أن يكفيكه اللهُ بمن قَتَلَ أباه، وخذَلَ أخاه».

* وقال الإمامُ الذَّهبيُّ رحمه الله: «بلغنا أنَّ الحُسينَ لم يعجبْهُ ما عملَ أخوه الحسنُ من تسليمِ الخلافةِ إلىٰ معاوية، بل كان رأيه القتالُ، ولكنَّه كظمَ، وأطاعَ أخاه، وبايعَ، وكان يقبلُ جوائزَ معاويةَ، ومعاويةُ يرىٰ له، ويحترمُهُ، ويجلّهُ، فلمّا أنْ فعلَ معاويةُ ما فعلَ بعد وفاة السَّيِّد الحسن من العهدِ بالخلافةِ إلىٰ ولده يزيد، تألّمَ الحسينُ، وحُقَّ له، وامتنع هو وابن أبي بكر، وابن الزُّبير من المبايعةِ، حتّىٰ قهرهم معاويةُ، وأخذ بيعتهم مكرهين، وغُلبوا، وعجزوا عن سلطان الوقت، فلمّا ماتَ معاويةُ، تسلَّمَ الخلافةَ يزيد، وبايعه أكثرُ النَّاس، ولم يبايعْ له ابنُ الزُّبير، ولا الحسينُ، وأَنِفُوا من ذلك، ورام كلٌّ واحدٍ منهما الأمْرَ لنفسِهِ، وساروا في الليل من المدينة[2].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٥)، والبداية والنهاية (٨/ ١٩٠) وغيرها.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩١ و ٢٩٢).

* وكان عددٌ من كُبراءِ الصَّحابة وعلمائهم يحبُّون ألا يخرجَ الحسينُ من المدينة ولا أنْ يتركَها، وحاولوا أنْ يثنوه عن مسيرهِ إلىٰ أرضِ العراق، بيد أنَّ سيّدنا الحسينَ أبىٰ، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

* وكان في مقدمةِ هؤلاء سيّدُ العبادلة وحبرهُم وبحرهُم سيدنا عبدُ الله بنُ عبَّاس[1] أحد علماءِ رجالِ أهلِ البيتِ الأطهار، الذي قال للحسينِ لما استشاره في الخروج: «لولا أنْ يُزرىٰ بي وبك، لنشبْتُ يدي في رأسِكَ، ولو أعلم أنّك تقيمُ لفعلت»[2].

* ومن علماء الصَّحابة الكرام، والعبادلةِ الأعلام، الذين بلغهم مسيرُ الحسين إلىٰ العراق عبد الله بن عمر[3] رضي الله عنهما، فقد لحق الحسينَ علىٰ مسيرة ليلتَيْن من المدينةِ، وقال له:

«أين تريد».

قال: «العراق». ومعه طواميرُ وكتبٌ منهم.

قال: «هـٰذه كتبُهم وبيعتُهم».

قال: «إنَّ اللهَ خيَّر نَبِيّه ﷺ بين الدُّنيا والأخرة، فاختار الآخرة، وإنّكم

---

(١) اقرأ سيرةَ الحبر البحر سيدنا عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما في موسوعتنا المباركة «علماء الصحابة رضي الله عنهم» الباب الأوّل (ص ٢١ ـ ٧٨) حيث افتتحنا بسيرته المباركة كتابنا.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٢). وأوردَ الذهبي أيضاً أنَّ ابنَ عباس قال للحُسين«إنِّي لأظنَّك ستُقْتَلُ غداً بين نسائك وبناتك، كما قُتِلَ عثمانُ، وإنِّي لأخاف أن تكون الذي يُقادُ به عثمان، فإنالله وإنا إليه راجعون».

قال: «أبا العباس! إنَّك شيخ قد كبرتَ».

فقال: «لولا أن يُزرىٰ بي وبك، لنشبت يدي في رأسك، ولو أعلم أنك تقيم، إذاً لفعلتُ»؛ ثم بكىٰ. (سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٩٧).

(٣) اقرأ سيرةَ العالم العابد الحافظ المكثر المفتي سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في كتابنا «علماء الصحابة رضي الله عنهم» (ص ٧٩ ـ ١٢٥) فسيرته بستان للواعظين وروضة للعقلاء.

بضعةٌ منه، لا يليها أحدٌ منكم أبداً، وما صرفَها اللهُ عنكم إلا للذي هو خيرٌ لكم، فارجعوا».

فأبىٰ، فاعتنقه ابنُ عمر. وقال: «أستودعك الله من قتيل»[1].

* وكان سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما يقول: «غَلَبَنا حسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما بالخروج، فلعمري لقد رأىٰ في أبيهِ وأخيهِ عبرةً، ورأىٰ من الفتنةِ، وخذلان النّاس لهم ما كان ينبغي له ألا يتحرّك ما عاش، وأن يدخلَ في صالح ما دخلَ فيه النَّاس، فإنَّ الجماعةَ خيرٌ».

* وأمّا سيّدنا أبو سعيد الخُدريّ[2] رضي الله عنه وهو من أكابر عُلمَاء الصَّحابة الأنصار، ومن كُبراء علماء الأمصار، فإنَّه قال: «غلبَني الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما علىٰ الخروج، وقد قُلتُ له: اتّق اللهَ في نفسِك، والزمْ بيتَك، ولا تخرجْ علىٰ إمامك».

* وأخبرَ الصَّحابيُّ الجليلُ أبو واقد الليثي[3] رضي الله عنه بأنَّه بلغه سير سيّدنا الحسين رضي الله عنه، فأدركه بملل ـ موضع بين المدينة ومكّة ـ فقال: «بلغني مسيرُ الحسين، فناشدتُه اللهَ ألا يخرجَ، فإنَّه يخرجُ في غيرِ وجْهِ خروجِ ـ إنّما يقتلُ نفْسَه ـ «فقال: لا أرجع»

* ونصَحَه كذلك العالمُ الصَّحابيُّ الحافظُ جابرُ بنُ عبد الله الأنصاريّ[4]،

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٢١١)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٢) مع الجمع بينهما. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «عجلَ حسينٌ قدره، عجلَ حسينٌ قدره، واللهِ لو أدركتُه ما كان ليخرجَ إلا أنْ يغلبني. ببني هاشم فُتِح، وببني هاشم خُتم، فإذا رأيتَ الهاشميَّ قد مَلكَ، فقد ذهب الزَّمان» (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٣٦).

(٢) اقرأ سيرة الصّحابي الجليل الحافظ المكثر المحبِّ للنّبيّ ﷺ ولأهل البيت سيّدنا «أبو سعيد الخُدريّ» في موسوعتنا «علماء الصَّحابة رضي الله عنهم» (ص ٥٠١ ـ ٥٥٠).

(٣) انظر ترجمة أبي واقد الليثي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٧٤ ـ ٥٧٦).

(٤) اقرأ سيرة جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما في الباب الثاني من كتابنا «علماء الصحابة رضي الله عنهم» (ص ٤٤١ ـ ٥٠٠) فسيرته سمير للمؤمنين وروض للمحبين.

وسيدنا عبدُ الله بنُ جعفر، والمِسْورُ بنُ مخرمة وغيرهم من الصَّحابة وأبناء الصَّحابة. بالإضافةِ إلىٰ عددٍ من أكابرِ علماء التَّابعين وأعيانهم.

* وكان مجملُ أقوال محبّي الحُسين تنحصرُ ضمن الجُمَل الآتية: «إنَّ أهلَ العراق قومٌ مناكير، قتلُوا أباك، وضربُوا أخاك، وفعلُوا وفعلُوا.. فاتّقِ اللهَ والزمْ بيتك فواللهِ لئن قُتِلتَ ليتخذونا خَوَلًا وعبيداً، فالقلوبُ معك، والسّيوفَ مع بني أميّة...»[1].

* وتذكرُ مصادرُ شتّىٰ أنّ محمّدَ ابنَ الحنفيّة لحقَ بأخيهِ الحسينِ رضي الله عنه من المدينة إلىٰ مكّة، وأخبره أنَّ الخروجَ ليس له برأي يومه هـٰذا، ولكنّ سيّدنا الحسينَ رضوان الله عليه أبى أنْ يقبلَ من أخيه محمّد هـٰذا الكلام، فحبسَ محمّد ابنُ الحنفية أولاده، فلم يبعثْ معه أحداً، حتّىٰ وجَدَ الحسين في نفسِه علىٰ أخيهِ محمّد، وقال به: «أترغبُ بولدك عن موضع أُصابُ فيه»؟

فقال له محمّد رحمه الله: «ياأخي، وما حاجتي أنْ تُصابَ ويصابون معك، وإن كان مصيبتُك أعظمَ عندنا منهم[2]».

* وقال التّابعيُّ الجليل الأديبُ العالمُ سعيدُ بنُ المسيب رحمه الله تعالى: «لو أنَّ حُسيناً لم يخرجْ لكان خيراً له».

* وممَّن نصحَ للحسين رضي الله عنه التّلميذةُ النَّجيبةُ ـ لأَفْقَهِ نساءِ الأمّة

---

(١) انظر مثلاً: (مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٣٩ ـ ١٤٢)، وسير أعلام النُّبلاء (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٨)، ويمكن أن نلخّص هـٰذا كلّه في الذي كتبه إليه المِسْورُ بن مخرمة رضي الله عنه كتابةَ محبٍّ ناصحٍ وامقٍ لأهلِ البيت، محذّرٍ مِنْ غوغاء مَنْ يراسلون سيّدنا الحسينَ فقال: «يابنَ فاطمةَ.. ياأبا عَبد الله، إيّاك أنْ تغترَّ بكتبِ أهلِ العراق، ويقولُ لك ابنُ الزُّبير: الحقْ بهم فإنّهم ناصروكَ، إيّاكَ ـ يا سيّدي ـ أنْ تبرحَ الحرمَ، فإنّهم إنْ كانت لهم بك حاجةٌ، فسيضربون آباطَ الإبل حتىٰ يوافوك، فتخرجَ في قوّة وعدّة».
فجزاهُ سيدنا الحسينُ خيراً بهـٰذه النّصائح الحقيقية، وقال: «أستخيرُ اللهَ عزَّ وجلَّ في ذلك». (مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٤٠) بتصرف يسير.

(٢) تهذيب الكمال (٦/ ٤٢١) بتصرُّف يسير. وانظر مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٤٣).

علىٰ الإطلاق أمّنا عائشة رضي الله عنها ـ هٰذه التلميذةُ العالمةُ الفقيهةُ الحجّةُ الثّقةُ عمرةُ بنتُ عبد الرحمن[1] الأنصاريةُ النَّجاريّةُ؛ فقد كانت عمرةُ من عالمات عَصْر التّابعين، وممن تربّىٰ علىٰ مائدةِ نساءِ أهلِ البيتِ العلميّة المباركة، وكانت تجلُّ سيّدنا الحسينَ وتوقّره، وترىٰ فيه أنّه بقيّةُ بيتِ النّبوّة الطّاهر، لذلك كتبتْ إليه تُعظِّم عليه مايريدُ أنْ يصنعَ، وتأمره بالطّاعة ولزوم الجماعة، وتخبرهُ أنّه إنّما يُساقُ إلىٰ مصرعه، وتقولُ: أشهدُ لَحدثَتْني عائشةُ رضي الله عنها، أنّها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُقتلُ حسينٌ بأرضِ بابل». فلمّا قرأ كتابَها قال: فلا بدّ لي إذاً من مصرعي. ومضىٰ[2].

* ومن النّصائحِ المفعمةِ بالصّدق لسيّدنا الحُسين رضي الله عنه نصيحة أبي بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث بن هشام الذي أتاه فقال: «يابن عم، إنَّ الرَّحم تَظْأَرني عليك ـ تعطفني عليك ـ وما أدري كيف أنا عندك في النّصيحة لك».

قال: «ياأبابكر؛ ما أنتَ ممّن تستغشُّ ولايتهم، فقُلْ».

قال: «قد رأيتَ ماصنعَ أهلُ العراق بأبيك وأخيك، وأنت تريدُ أنْ تسيرَ إليهم، وهم عبيدُ الدّنيا، فيقاتلك مَنْ قد وعدك أنْ ينصرَك، ويخذلك مَنْ أنتَ أحبّ إليه ممن ينصره، فأذكّركَ الله في نفسِك».

فقال: «جزاكَ الله يابن عمّ خيراً، فقد اجتهدت، ومهما يقضِ اللهُ من أمرٍ يكن».

فقال أبو بكر: «إنالله، عندالله نحتسبُ أباعبد الله»[3].

* قال الذّهبيُّ نقلاً عن ابن عساكر: «وأبىٰ الحسينُ رضي الله عنه علىٰ كُلِّ

---

(١) اقرأ سيرة السّيدة العاملة الفقيهة عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية في كتابنا «نساء من عصر التابعين» (ص ـ ٧٦ ـ ٨٤) فسيرتها تعمر قلوب المحبين بالعلم.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٤٠)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٦ و ٢٩٧).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٤٠).

مَنْ أشار إليه إلاّ المسير إلىٰ العراق».

* وبعث أهلُ العراق إلىٰ سيّدنا الحسين رضي الله عنه الرُّسلَ والكتبَ يدعونه إليهم، فخرجَ رضي الله عنه متوجّهاً إلىٰ العراقِ في أهلِ بيتِهِ، وستين شيخاً من أهلِ الكوفة في عشْر ذي الحجّة سنة ستّين من الهجرة.

* كان سيّدنا الحسينُ رضوان الله عليه يظنُّ أنَّ هؤلاء القوم لن يخذلونَه، لاسيما وأنَّ بحوزتِهِ حمْلَ بَعيرٍ من كتبِهم ورسائِلهم تستحثُّه علىٰ القدوم إلىٰ بلادهم، وأنّهم مبايعونه علىٰ السَّراء والضَّراء، ولهٰذا كلِّه أرسلَ إلىٰ الكوفة ابن عمّه البطل المخلص الشّجاع مسلمَ بنَ عقيل بن أبي طالب، وزوَّدَه بقوله: «يابن عمّ، سرْ إلىٰ الكوفةِ، فانظرْ ماكتبوا به إليّ، فإن كان حقّاً قدمت إليهم».

* وخرج مسلمُ بنُ عقيل حتىٰ قدم الكوفة، فنزلَ علىٰ رجلٍ من أهلها يقال له: عوسجة، ثم تحوّل مسلمٌ إلىٰ دار هانئ بنِ عروة المراديّ، وكان قد بايعه بضع عشر ألفاً من الكوفيين، فكتب إلىٰ سيّدنا الحُسين بذلك.

* ترىٰ كيف كان ذلك؟ وما الذي فعله سيّدنا الحُسينَ رضوان الله عليه؟!

* ذكر الذَّهبيّ رحمه الله ذلك مُلَخِّصاً الأحداثَ من مصادر ابن سَعْد بأسانيدَ له قالوا: «قدَّمَ الحُسينُ رضي الله عنه مُسْلِماً، وأمره أنْ ينزلَ علىٰ هانئ بنِ عروة، ويكتبَ إليه بخبرِ النَّاس؛ فقدمَ الكوفةَ مستخفياً، وأتته الشّيعةُ، فأخذَ بيعتَهم، وكتب إلىٰ الحُسين: بايَعَني الآن ثمانية عشر ألفاً، فعجِّلْ، فليس دون الكوفةِ مانعٌ. فأغذَّ السَّير حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ زبالة ـ موضع معروف بِطَريق مكّة من الكوفة ـ فجاءت رسل أهل الكوفة إليه بديوان فيه أسماء مئة ألف، وكان علىٰ الكوفةِ النُّعمانُ بنُ بشير الأنصاريّ رضي الله عنهما، فخاف يزيدُ ألا يُقدمَ النُّعمان علىٰ الحُسين رضي الله عنه، فكتبَ إلىٰ عُبيدِ الله وهو علىٰ البصرةِ، فضمَّ إليه الكوفة، وقال له: إنْ كان لك جناحان، فَطِرْ إلىٰ الكوفة! فبادرَ متعمّماً متنكّراً، ومرَّ في السَّوق، فلمّا رآه السَّفلَةُ اشتدّوا بين يديه يظنّونه الحُسين، وصاحوا: يابنَ رسولِ الله! الحمدُ لله الذي أراناك، وقبَّلُوا يدَهُ ورجْلَه، فقال:

ما أشدَّ ما فَسَد هؤلاء، ثمَّ دخلَ المسجد، فصلّىٰ ركعتَيْن، وصَعِدَ المنبر، وكشف لثامَه، وظفرَ برسولِ الحُسين ـ وهو عبد الله بنُ بُقطر ـ فقتَله. وقدمَ مع عُبيد الله؛ شريك بن الأعور ـ شيعي ـ؛ فنزل علىٰ هانئ بنِ عروة، فمرض، فكان عُبيد الله يعودُهُ، فهيَّؤوا لعبيد الله ثلاثين رجلاً ليغتالوه، فلم يتمَّ ذلك. وفهم عبيدُ الله، فوثبَ وخرجَ، فنمَّ عليهم عبدٌ لهانئ، فبعثَ إلىٰ هانئ ـ وهو شيخٌ ـ فقال: ما حملَك علىٰ أنْ تجيرَ عدوّي؟

قال: يابن أخي، جاء حقٌّ هو أحقُّ من حقِّك.

فوثبَ إليه عبيد الله بالعَنَزَةِ ـ رُمَيِّح بين العصَا والرّمح ـ حتىٰ غرزَ رأسَه بالحائط.

وبلغ الخبرُ مُسلماً، فخرجَ في نحو الأربع مئة، فما وصلَ إلىٰ القصر إلا في نحو السّتين، فاقتتلوا، وكثر عليهم أصحاب عُبيد الله، وجاء الليلُ، فهربَ مسلمٌ، فاستجار بامرأةٍ من كنده، ثم جيءَ به إلىٰ عُبيد الله، فقتله، فقال: دعني أوص.

قال: نعم.

فقال لعمر بنِ سعد: يا هـٰذا، إنَّ لي إليك حاجة، وليس هنا قرشيٌّ غيرك، وهـٰذا الحسينُ قد أظلَّكَ، فأرسل إليه لينصرفَ، فإنَّ القوم قد غرّوه، وكذّبوه، وعَلَيَّ دينٌ فاقْضِهِ عنّي، ووارِ جُثَّتي، ففعلَ ذلك. وبعث رجلاً علىٰ ناقة إلىٰ الحُسين، فلقيه علىٰ أربع مراحل، فقال له ابنُه عليٌّ الأكبر: ارجعْ ياأبه، فإنَّهم أهلُ العراق وغدرهُم وقلّةُ وفائِهم.

فقال حسينٌ لأصحابه: قد ترون ما أتانا، ومَاأرىٰ القوم إلا سيخذلوننا، فمن أحبَّ أنْ يرجعَ فليرجع، فانصرفَ عنه قوم.

وأما عُبيد الله فجمعَ المقاتلة، وبذلَ لهم المال، وجهَّز عمرَ بن سعد في أربعةِ آلاف، فأبىٰ، وكرِه قتالَ الحُسين، فقال: لئن لم تَسِرْ إليه لأعزلنَّك، ولأهدمنَّ دارك، وأضربَ عنقك.

وكان الحسينُ في خمسين رجلاً، منهم تسعة عشَر من أهل بيته. وقال الحسينُ: ياهؤلاء دعونا نرجعْ من حيثُ جئنا، قالوا: لا.

وبلغَ ذلك عبيدُ الله، فهمَّ أنْ يخليَ عنه، وقال: والله ما عرض لشيءٍ من عملي، وما أراني إلّا مُخْلٍ سبيلَه يذهب حيث يشاء.

فقال شِمْر: إن فعلت، وفاتكَ الرَّجل، لا تستقيلها أبداً. فكتب إلىٰ عمر:

الآن إذْ عَلِقَتْ مخالِبُنا بهِ يرجُو النَّجاةَ ولاتَ حين مناصِ

فناهضَه، وقال لشِمْر: سِرْ فإنْ قاتلَ عمر، وإلا فاقْتُله، وأنتَ علىٰ النَّاس.

وضبطَ عبيدُ الله الجِسْر، فمنع مَنْ يجوزه لما بلغه أنَّ ناساً يتسلّلون إلىٰ الحسين رضي الله عنه.

فركبَ العَسْكر، وحسينٌ جالس، فرآهم مقبلين، فقال لأخيهِ عبّاس: القَهْم فَسَلْهُم: مالهم؟

فسألهم، وقالوا: أتانا كتاب الأمير يأمرنا أن نعرِضَ عليك النُّزول علىٰ حكمه، أو نُناجزك.

قال: انصرفوا عنّا العشيّة حتَّىٰ ننظرَ الليلة، فانصرفوا.

وقال: إنّي لا أحسبُ القوم إلا مقاتليكم غداً، وقد أذنتُ لكم جميعاً، فأنتم في حلٍّ منّي، وهٰذا الليلُ قد غشيكم، فمن كانت له قوّةٌ، فليضمَّ إليه رجلاً من أهل بيتي، وتفرّقُوا في سوادكم، فإنّهم إنّما يطلبونني، فإذا رأوني، لهوا عن طلبِكم.

فقال أهلُ بيته: لا أبقانا الله بعدكَ، واللهِ لا نفارقُكَ، وقال أصحابُه كذلك.

فلمّا أصبحوا، قال الحُسينُ: اللهم أنتَ ثقتي في كُلِّ كرب، ورجائي في كُلِّ شدّة، وأنت فيما نزلَ بي ثقة، وأنتَ وليُّ كلّ نعمة، وصاحبُ كلّ حسنة.

وقال لعمر وجنده: لا تعجلوا، والله ما أتيتُكم حتّىٰ أتتني كتب أماثلكم

بأنَّ السُّنَّةَ قد أميتَتْ، والنّفاقَ قد نجمَ، والحدودَ قد عطّلت، فاقدمْ لعلَّ اللهَ يصلح بكَ الأمّة. فأتيتُ، فإذ كرهتم ذلك، فأنا راجعٌ، فارجعوا إلىٰ أنفسكم؛ هل يصلحُ لكم قتْلي، أو يحلُّ دمي؟ ألستُ ابنَ بنت نبيِّكم وابنَ ابن عمّه؟ أو ليس حمزةُ والعبّاسُ وجعفرُ عمومتي؟ ألم يبلغكم قولَ رسولِ الله ﷺ فيَّ وفي أخي: «هـٰذان سيّدا شباب أهل الجنّة»؟!

فقال شِمْر: هو يعبدُ الله علىٰ حرفٍ إنْ كان يدري مايقول، فقال عمر: لو كان أمرُكَ إليَّ، لأجبتُ.

وقال حسينٌ: ياعمرُ، ليكوننَّ لما ترىٰ يوم يسوؤك.

اللهمَّ إنَّ أهلَ العراق غرّوني، وخدعوني، وصنعُوا بأخي ما صنعوا؛ اللهم شتّتْ عليهم أمرهم، وأحصِهم عدداً.

فكان أوّل مَنْ قاتلَ مولىٰ لعُبيد الله بنِ زياد، فبرزَ له عبدُ الله بنُ تميم الكلبيّ، فقتله، والحسينُ عليه جبّة خزّ دكناء، والنَّبْلُ يقع حولَه، فوقعت نبلةٌ في ولدٍ له ابنِ ثلاث سنين، فلبسَ لأْمَتَه، وقاتَلَ حوله أصحابه، حتىٰ قتلوا جميعاً، وحملَ ولده عليٌّ يرتجزُ:

أنـا عليُّ بـنُ الحُسيـن بـنُ علـيّ نحـنُ وبيـتِ اللهِ أولـىٰ بـالنَّبـيّ

فجاءته طعنةٌ، وعطشَ حسينٌ، فجاء رجلٌ بماء، فتناوله، فرماهُ حُصين بنُ تميم بِسَهم، فوقعَ في فيه، فجعلَ يتلقّىٰ الدّم بيده، ويحمدُ الله؛ وتوجّه نحو المُسَنَّاة يريدُ الفرات، فحالوا بينَه وبينَ الماء، ورماهُ رجلٌ بِسَهم، فأثبتَه في حنكه، وبقي عامةُ يومه لا يقْدمُ عليه أحدٌ، حتّىٰ أحاطتْ به الرَّجَّالة، وهو رابطُ الجأش، يقاتل قتال الفارسِ الشُّجاع، إن كان ليشُدُّ عليهم، فينكشفون عنه انكشافَ المعزىٰ شدَّ فيها الأسدُ، حتّىٰ صاح بهم شِمْر: ثكلتكم أمهاتكم! ماذا تنتظرون به؟

فانتهىٰ إليه زُرعة التّميمي فضربَ كتفه، وضربَه الحُسين علىٰ عاتقهِ فصرعَه، وبرزَ سنان النّخعيّ، فطعَنَه في ترقوته وفي صدرِه، فخرَّ، ثم نزلَ

ليحتزَّ رأسه، ونزل خولي الأصبحي لا رضي الله عنهما فاحتزَّ رأسه، وأتىٰ به عُبيد الله بنَ زياد، فلمْ يعطِهِ شيئاً.

ووُجِدَ بالحسين ثلاثٌ وثلاثون جراحة، وقُتلَ من جيش عمر بن سعد ثمانية وثمانون نفساً، ولم يفلتْ من أهل بيت الحسين سوىٰ ولدِهِ عليّ الأصغر، فالحُسينيةُ من ذُرّيّته، كان مريضاً، وحسنُ بنُ حسن بن عليّ وله ذريّةٌ، وأخوه عمرو، ولا عقب له، والقاسمُ بنُ عبد الله بن جعفر، ومحمّد بن عقيل، فقدمَ بهم وبزينب وفاطمة بنتي عليّ، وفاطمةَ وسكينةَ بنتي الحسين، وزوجتِهِ الرّبابِ الكلبيّة والدةِ سكينة، وأمِّ محمّد بنتِ الحسن بن عليّ، وعَبيدٍ وإماءٍ لهم.

وأقبل عمرُ بنُ سعد، فقال: ما رجعَ رجُلٌ إلىٰ أهله بشرٍّ ممّا رجعتُ به، أطعتُ ابنَ زياد، وعصيتُ اللهَ، وقطعتُ الرّحم.

ووردَ البشيرُ علىٰ يزيد، فلمّا أخبره، دمعَتْ عيناه، وقال: كنتُ أرضىٰ من طاعتكم بدون قَتْل الحُسين.

وقالت سُكينةُ: يا يزيد، أبنات رسولِ الله ﷺ سبايا؟

قال: يابنت أخي، هو واللهِ عليَّ أشدّ منه عليك، أقسمتُ لو أنَّ بين ابن زياد وبين حُسين قرابة ما أقدمَ عليه، ولكنْ فرّقت بينه وبينَه سُميَّةُ، فرحمَ اللهُ حُسيناً، عجَّل عليه ابن زياد، أما واللهِ لو كنتُ صاحبه، ثم لم أقدر علىٰ دفع القَتْل عنه إلا بنقص بعض عمري، لأحببتُ أنْ أدفعَه عنه، ولوددتُ أن أُتيتُ به سلماً. ثم أمر يزيد بالنّساء فأدخلْنَ علىٰ نسائه، وأمر نساء آل أبي سفيان، فأقمْنَ المأتم علىٰ الحُسين ثلاثة أيام، وبكت أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر، فقال يزيد وهو زوجها: حقّ لها أنْ تُعْوِلَ علىٰ كبير قريش وسيّدها[1].

* وقد ذكر ابن كثير في ترجمةِ يزيدَ بنِ معاوية أنّه لما قتلَ ابنُ زياد

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٤) بتصرف يسير جداً. وانظر البداية والنّهاية (٨/ ١٧٢ ـ ١٩٧).

الحسين ومن معه قال يزيد: «وما كان عليَّ لو احتملتُ الأذىٰ وأنزلتُه في داري، وحكمتُه فيما يريدُه، وإن كان عليَّ في ذلك وكفٌ ووهنٌ في سلطاني، حفظاً لرسولِ الله ﷺ، ورعايةً لحقّه وقرابته، ثمَّ يقول: لعنَ اللهُ ابن مرجانة[1] فإنَّه أحرجه واضطرّه، وقد كان سأله أنْ يخليَ سبيله أو يأتيني، أو يكون بثغرٍ من ثغورِ المسلمين حتّىٰ يتوفّاه الله، فلم يفعلْ، بل أبىٰ عليه وقتَلَه، فَبَغَّضَني بقتله إلىٰ المسلمين، وزرَعَ لي في قلوبهم العداوةَ، فأبغضني البرُّ والفاجرُ بما استعظم النّاس من قتلي حُسيناً، مالي ولابن مرجانةَ قبّحه اللهُ وغضبَ عليه»[2].

* ويظهرُ أنَّ النَّدم علىٰ قَتْل سيّدنا الحُسين رضي الله عنه ظلَّ يساورُ يزيدَ ويصاحبُهُ في حلِّه وترحاله وصحّته وسقمه، قال عبدُ الرّحمن بن أبي مدعور: حدّثني بعضُ أهل العلْم قال: «آخرُ ما تكلَّم به يزيدُ بنُ معاوية: اللهمّ لا تؤاخذني بما لم أحبّه ولم أردْهُ، واحكمْ بيني وبين عُبيد اللهِ بنِ زياد، وكان نَقْشُ خاتمه: آمنتُ بالله العظيم»[3].

* قال ابنُ كثير رحمه الله في هٰذا الموضوع المهمّ: «أكثرُ الأئمةِ قديماً وحديثاً كارهٌ ما وقع من قَتْل الحُسين وقَتْل أصحابه... وكلُّ مسلم ينبغي أنْ يحزنَه قَتْله رضي الله عنه، فإنَّه من ساداتِ المسلمين، وعلماء الصَّحابة، وابن بنت رسولِ الله ﷺ التي هي أفضلُ بناته، وقد كان عابداً وشجاعاً وسخيّاً، ولكن

---

(١) ابنُ مرجانة: عبيدُ الله بنُ زياد بن أبيه أمير العراق، كان جميل الصّورة قبيح السَّريرة، قيل: كانت أمّه مرجانة من بنات ملوكِ الفُرس. وقد جرت لعُبيد الله خطوب، وأبغضَه المسلمون لما فعلَ بالحسين رضي الله عنه، فلمَّا جاء نعيُ يزيد هربَ بعد أنْ كادَ يُؤسر، وأخباره كثيرةٌ استوفتها المصادرُ الكثيرة المتنوّعة. ومنها أنَّ مرجانة كانت تقولُ لابنها عبيد: «قتلْتَ ابنَ بنت رسول الله ﷺ، لا ترىٰ الجنّة» قُتِلَ ابن زياد يوم عاشوراء سنة (٦٧ هـ) قال الذّهبيّ: «الشّيعيُّ لا يطيبُ عيشُه حتّىٰ يلعنُ هٰذا ودونه، ونحنُ نبغضُهم في الله، ونبرأُ منهم ولا نلعنهم، وأمرهم إلىٰ الله»!!. (سير أعلام النّبلاء ٣/ ٥٤٥ ـ ٥٤٩).

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٢٣٢).

(٣) البداية والنّهاية (٨/ ٢٣٦).

لا يحْسُن ما يفعله الشّيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعلَّ أكثره تصنّعٌ ورياء، وقد كان أبوهُ أفضلَ منه فقُتِل، وهم لا يتَّخذون مقتله مأتماً كيوم مقْتَل الحُسين...»[١].

* وممّا يلفتُ النَّظرَ أنَّ ابنَ كثير رحمه الله ذكرَ أنَّ ابن الزُّبير رضي الله عنهما لما بلغه مقْتَل سيّدنا الحُسين شرع يخطب النَّاسَ، ويعظّم قَتْل الحسينِ وأصحابه جداً، ويعيبُ علىٰ أهلِ الكوفة ما صنعوه من خذلانهم الحُسين، ويترحَّم علىٰ الحسين، ويلعنُ مَنْ قتله، ويقول: «أما واللهِ، لقد قتلوهُ طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النّهار صيامه، أمَا واللهِ ما كان يستبدلُ بالقرآن الغناء والملاهي، ولا بالبكاء من خشيةِ اللهِ اللغو والحداء، ولا بالصّيام شُرب المدام وأكل الحرام، ولا بالجلوس في حلق الذّكر طلب الصَّيد ـ يُعرّض في ذلك بيزيد بن معاوية ـ فسوفَ يلقون غيّا»[٢].

* وكان ابنَ الزُّبير يقولُ في خطبتِهِ عن يزيد: «يزيدُ القرود، شاربُ الخمور، تاركُ الصَّلوات، منعكفٌ علىٰ القينات»[٣].

* ويأتي الإمامُ الذَّهبيُّ بعد بضعة قرون من الزَّمان فيرسمُ لنا صورةَ يزيد علىٰ النّحو الآتي فيقول ما مفاده: «يزيدُ بنُ معاوية بن أبي سفيان، أبو خالد القرشيّ، الأمويّ الدّمشقيّ.... وأمُّه ميسونُ بنتُ بحدل الكلبيّة[٤]... له علىٰ هَنَاتِهِ حسنَةٌ، وهي غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش، وفيهم مثل أبي أيّوب الأنصاريّ[٥] رضي الله عنه... ويزيدُ ممّن لا نسبُّه ولا نحبُّه، وله نظراء

---

(١) البداية والنّهاية (٨/ ٢٠٢ و ٣٠٣) ملخّصاً.

(٢) البداية والنّهاية (٨/ ٢١٢).

(٣) البداية والنّهاية (٨/ ٢١٩).

(٤) اقرأ سيرة ميسون بنت بحدل الكلبيّة في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» (ص ٥٢٣ ـ ٥٤٦) ففي سيرتها محاضرات للأدباء، وسلوة للألباء، ورحلة ممتعة من الأدب والعلم.

(٥) اقرأ سيرةَ سيّدنا أبي أيّوب الأنصاريّ رضي الله عنه في الباب الثّاني من موسوعتنا: «فرسان من عصر النّبوّة» (ص ٦٣٩ ـ ٦٥٧) فسيرته قدوة للأبطال وأهل الإيثار والسخاء.

من خُلفاء الدّولَتين، وكذلك في ملوك النَّواحي، بل فيهم من هو شرٌّ منه، وإنّما عظُم الخطبُ لكونِهِ وَلي بعد وفاة النّبيّ ﷺ بتسع وأربعين سنة، والعهدُ قريب، والصَّحابةُ موجودون، كابن عمرَ الذي كان أولى بالأمر منه، ومنْ أبيه، وجدّه. . . . كان يزيدُ قوياً شجاعاً، ذا رأي وحزم، وفطنةٍ، وفصاحةٍ، وله شِعْرٌ جيدٌ، وكان ناصبياً، فظّاً، غليظاً، جِلْفاً، يتناولُ المُسكر، ويفعلُ المنكر. . . . افتتحَ دولته بمقتلِ الشَّهيد الحسين، واختتمها بواقعةِ الحرَّة، فمقَتَهُ النَّاسُ، ولم يُباركْ في عمره، وخَرجَ عليه غيرُ واحد بعد الحُسين رضي الله عنه. . . وأخبارهُ كثيرةٌ، وفيه آراء متضاربة. . . . توفيَ في نصف ربيع الأوّل سنة (٦٤ هـ)، ودُفن بدمشق»[١].

* وعندما ترجم ابنُ كثير رحمه الله ليزيدَ بنِ معاوية جاء بعدة صُور مختلفةٍ متباينة، وهانحنُ أولاء نقتطفُ منها ما يضيءُ لنا الطَّريق الذي نسلكُه في عملنا هـٰذا. . . .

* قال ابنُ كثير رحمه الله: «يزيدُ بنُ معاوية، أميرُ المؤمنين، أبو خالد الأمويّ. . . . روىٰ عن أبيهِ معاويةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ يردِ اللهُ به خيراً يفقهه في الدِّين». وحديثاً آخر في الوضُوء، وعنه روىٰ ابنُه خالد، وعبد الملك بن مروان، وقد ذكره أبو زرعةَ الدّمشقيّ في الطَّبقةِ التي تَلِي الصَّحابة، وهي العُليا، وقال: له أحاديث. . . . . وكان يزيدُ أوّلَ مَنْ غزا مدينة قسطنطينية سنة (٤٩ هـ و ٥٠ هـ)، ثم حجَّ بالنَّاس في تلك السَّنة بعد مرجعه من هـٰذه الغزوة من أرضِ الرُّوم. وقد ثبت في الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أوّلُ جيش يغزو مدينة قيصر مغفورٌ لهم». . . وقد كان يزيدُ فيه خصالٌ محمودةٌ من الكرمِ والحلْم والفَصَاحة والشعر والشَّجاعةِ وحسنِ الرأي في المُلك، وكان ذا جمالٍ حَسَنَ المعاشرةِ، وكان فيه أيضاً إقبالٌ علىٰ الشَّهوات، وترك بعض

---

(١) تاريخ الإسلام للذّهبيّ (حوادث ووفيات سنة (٦ ـ ٨٠ هـ) (ص ٢٦٩ ـ ٢٧٥)، وسير أعلام النُّبلاء (٤/ ٣٥ ـ ٤٠).

الصَّلوات، في بعضِ الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات. . . وقد أوردَ ابنُ عساكر أحاديث في ذمّ يزيدَ بنِ معاويةَ كلّها موضوعة لا يصحُّ منها شيء. . . . ويزيدُ بنُ معاوية أكثر ما نُقِم عليه في عمله: شربُ الخمر، وإتيانُ بعض الفواحش، فأمّا قَتْل الحسين رضي الله عنه فإنّه كما قال جدّه أبو سفيان يوم أُحُد: لم يأمرْ بذلك ولم يسؤْهُ. . . . وثبت أنّه أكرمَ آلَ الحُسين وردّهم إلىٰ المدينةِ ردّاً جميلاً، ولعَنَ ابنَ مرجانة الذي قتَل الحسين، وروي أنَّ يزيد كان قد اشتُهرَ بالمعازفِ، وشربِ الخمرِ، والغناء والصَّيد، واتّخاذ الغلمان والقيان، والكلاب والنّطاح بين الكباش والدّباب والقرود، وما من يوم إلا يصبحُ فيه مخموراً، وكان يشدّ القردَ علىٰ فرسٍ مسرجة بحبال، ويسوقُ به ويلبسُ القرد قلانس الذّهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابقُ بين الخيل، وكان إذا ماتَ قردٌ حزَنَ عليه، وقيل: إنَّ سببَ موته أنَّه حمل قردة وجعَلَ ينقزها فعضَّتْهُ، وذكروا عنه غير ذلك، والله أعلمُ بصحّةِ ذلك[١].

* وهناك مصادرُ كثيرةٌ تناولت السِّيرة اليزيديّة بالثّلب والانتقاص واللعن وما شابه ذلك، في حين أنَّ بعضَها مع بعض المراجع المعاصرة[٢] قد وضعتِ النّقاطَ علىٰ الحروفِ في هٰذا الموضوع الشّائك الخطير، ونحنُ موقنون بأنّنا نحبُّ الحقَّ وأهل الحقّ، ونتبعُ الحقَّ في ضوءِ موازين الحقِّ الصَّحيحة السَّليمة التي لا تتبعُ الأهواء والعواطف، وإنما تريدُ وجْهَ الله عزَّ وجلَّ فيما تقول وتعمل.

* ولا نشكُّ أبداً في أنَّ سيّدنا الحُسينَ رضي الله عنه وأرضاه هو السَّيِّدُ الكبيرُ، وابن بنتِ حبيبنا رسول الله ﷺ، وليس علىٰ وجْه الأرض يوم استشهاده أحدٌ يساويه، ولا يساميه، ولكنَّ الدَّولةَ اليزيديَّة كانت كلّها تناوئه؛ وقُتِلَ رضي الله عنه وهو يدفعُ الأسْرَ عن نفسه، فقُتِلَ شهيداً مظلوماً رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) انظر: البداية والنّهاية (٨/ ٢٢٦ ـ ٢٣٦) ملخّصاً مختصراً.

(٢) انظر مثلاً: أغاليط المؤرّخين (ص١١٥ ـ ١٨٣)، وأباطيل يجب أن تمحىٰ من التّاريخ (ص ٢٣٥ ـ ٢٥٠)، والدّولة الأمويّة للصّلابيّ (١/ ٥٧٣ ـ ٦٥٨) وغيرها كثير.

* قال ابنُ تيميّة رحمه الله عن استشهاد سيّدنا الحُسين رضي الله عنه وأرضاه: «وأمّا قَتْلُ الحسين رضي الله عنه، فلا ريب أنّه قُتِلَ مظلوماً شهيداً، كما قُتِلَ أشباهه من المظلومين الشُّهداء، وقَتْلُ الحسين معصيةٌ للهِ ولرسوله ممن قتله؛ أو أعانَ علىٰ قَتْله، أو رضي بذلك، وهو معصيةٌ أُصيب بها المسلمون من أهلِهِ وغير أهله، وهو في حقّه شهادةٌ له، ورفعةُ درجة، وعلوّ منزلة. فإنّه هو وأخاه سبقَتْ لهما من اللهِ السَّعادة، التي لا تُنال إلا بنوعٍ من البلاء، ولم يكن لهما من السَّوابق ما لأهلِ بيتهما، فإنّهما تربَّا في حجْرِ الإسلام في عزٍّ وأمانٍ فمات هٰذا مسْموماً، وهٰذا مقتولًا لينالا بذلك منازلَ السُّعداء، وعيشَ الشُّهداء»[1].

* ولا ريب في أنَّ قَتْل سيّدنا الحسين رضي الله عنه من أعظمِ الذُّنوب وأشنِعها، وأنَّ فاعلَ ذلك ومَنْ يرضىٰ به، ويعينُ عليه ويقرُّهُ مستحقٌّ لغضبِ الله عقابه الذي يستحقُّه أمثاله.

سيدُنا الحُسين في أفئدةِ المُحبّين:

* استبشعَ السَّلفُ الصَّالح، وعلماءُ الصَّحابة والتّابعين قتْلَ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه، حتّىٰ قال إبراهيمُ النّخعيُّ أو غيره من كبار التّابعين: «لو كنتُ فيمن قَتَل الحسينَ ودخلتُ الجنَّةَ، لاستحييتُ أنْ أنظرَ إلىٰ وجهِ رسولِ اللهِ ﷺ».

* وكثرت مراثي الشُّعراء والعُلماء والأدباء لسيّدنا الحُسين رضي الله عنه، وهي تملأُ زوايا المصادر وحناياها وبطونها، ومن القصائد الشَّهيرات في هٰذا المجال تائيةٌ صادقةُ المشاعر؛ لطيفةُ المقاصد؛ صاغها سليمانُ بنُ قتَّةَ التَّيميّ مولاهم البصريّ الفارسُ الشّاعرُ الحافظُ لكتاب الله؛ ومنها هٰذه الأبيات:

وإنَّ قتيلَ الطَّفِّ من آل هاشمٍ ... أذلَّ رقاباً من قريشٍ فذلَّتِ
مررتُ علىٰ أبياتِ آلِ محمّدٍ ... فألفيتُها أمثالَها حيثُ حلَّتِ
وكانوا لنا غُنماً فعادوا رزيّةً ... لقد عظُمتْ تلك الرّزايا وجَلَّتِ

(١) مواقف المعارضة (ص ٣٣١) نقلاً عن منهاج السّنة (٤/ ٥٥٠).

فــلا يُبعــدِ اللهُ الــدّيــارَ وأهلَهــا   وإن أصبحتْ منهم برغْمي تخلَّتِ
إذا افتقـرتْ قيـسٌ جَبَـرْنَـا فقيـرَهـا   وتقتلُنــا قيــسٌ إذا النَّعْــلُ زلَّــتِ
وعنـد غَنِـيٍّ قطـرةٌ مـن دمـائِنـا   سنجـزيهـمُ يـومـاً بهـا حيـثُ حلَّـتِ
ألم تر أنَّ الأرضَ أضحتْ مريضةً   لِفَقْـدِ حسيـنٍ والبـلادُ اقْشَعـرّتِ
وقـد أعـولَـتْ تبكـي السَّمـاء لفَقْـدِهِ   وأنجمُهـا نـاحَـتْ عليـهِ وصَلَّـتِ(١)

* وبكىٰ النَّاسُ الحُسين فأكثروا، ومنهم منصور النّمريّ الذي أنشأ لامية تقطرُ تفجّعاً عليه ومنها:

ويلــكَ يــا قــاتــلَ الحُسيــن لقــد   بـــؤتَ بحمــلٍ ينــوءُ بــالحــامــل
أي حبــاءٍ حبــوتَ أحمــدَ فــي   حفــرتــهِ مــن حَــرارةِ الثَّــاكــل
تعــالَ فــاطلــبْ غــداً شفــاعتَـه   وانهـضْ فَـرِدْ حـوضَـه مـع النـاهـل
مــا حصلــتْ لامــرىءٍ سعــادتــه   حقّــتْ عليــه عقــوبــة الآجــل(٢)

* ومن القصائدِ الماتعةِ النَّاطقةِ بعظمِ ما فعله قتلةُ سيّدنا الحُسين رضي الله عنه، ماأنشده خالدُ بنُ غفران وهو من أفاضلِ التّابعين، فقد بلغَه ما صُنِعَ بالحسين فأخفىٰ شخْصَه عن أصحابه شَهْراً حتّىٰ وجدوه، ومن ثمَّ سألوه عن عزلتِهِ. فقال: أما ترون ما نزلَ بنا في استشهادِ الحُسين رضي الله عنه، ثمَّ أنشأَ يقول:

جاؤُوا برأسِكَ يا بنَ بنتِ محمّدٍ   متــزمّــلاً بــدمــائِــهِ تــزميــلا
وكــأنّمــا بــكَ يــابــنْ بنــتِ محمّــدٍ   قتلُــوا جهَــاراً عــامــديــنَ رسُــولا
قتلــوكَ عطْشــانــاً ولــم يتــرقّبــوا   فــي قتْلِــكَ التَّنــزيــل والتّــأْويــلا
ويكبِّــرون بــأنْ قتِلْــتَ وإنّمــا   قتلُــوا بــك التّكبيــر والتَّهليــلا(٣)

* وأخرجَ الطَّبرانيُّ بسنده عن مصعبَ بنِ عبد الله قال: «خرجت زينبُ الصُّغرىٰ بنتُ عقيل بن أبي طالب علىٰ النَّاس بالبقيع تبكي قتلاها بالطَّفِّ وهي تقول:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ١٥٨)، والاستيعاب (١/ ٣٧٨ و ٣٧٩) ومصادر أخرىٰ كثيرة.
(٢) الاستيعاب (١/ ٣٨٠)، وأسد الغابة (١/ ٤٩٩).
(٣) مختصر تاريخ دمشق (٧/ ٣٩٢) بتصرف يسير جداً. وانظر: البداية والنهاية (٨/ ١٩٨).

مــاذا تقـولـونَ إنْ قـالَ النَّبـيُّ لكـم ... مـاذَا فعلتُـم وكنتُـم آخـرَ الأُمـمِ
بـأهـلِ بيتـي وأنْصَـاري وذُرِّيتـي ... منهـم أُسَـارىٰ وقَتْلـىٰ ضُـرِّجُوا بـدَمِ
ما كانَ ذاكَ جزائي إذْ نصحْتُ لكم ... أنْ تخلُفـونـي بسـوءٍ فـي ذَوِي رحـمِ

فقال أبو الأسود الدّؤلي نقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣]، ثمّ قال أبو الأسودُ الدّؤلي:

أقـولُ وزادَنـي جَـزَعـاً وغيظـاً ... أزالَ اللهُ مُلْـكَ بنـي زيـاد
وأبعَـدَهُـم كمـا غـدروا وخـانـوا ... كمـا بَعُـدَتْ ثمـودُ وقـومُ عـادِ
ولا رجعَـتْ ركـابُهُـم إليهـم ... إذا قفَّـتْ إلـىٰ يـومِ التَّنـاد»[١]

* ولابن جابر الأندلسيّ قصيدةٌ ماتعةٌ، ذات قواف يانعة، في ذكْر فضائل الصَّحابة العشَرة الأبرار، وأهلِ البيتِ الأطهار، فمّما أنشده في ذكر السِّبطَين رضي الله عنهما ورثائهما قوله في هذه الدّاليّةِ الأنيقة الرّشيقة:

همـا قُـرّتـا عيـنِ الـرَّسـول وسيِّـدا ... شبـابِ الـورىٰ فـي جنّـةٍ وتخلُّـدِ
وقـال هُمـا ريحـانتـايَ أحِـبُّ مَـنْ ... أحبّهمـا فـاصـدقْهمـا الحـبَّ تَسْعَـد
همـا اقتَسَمـا شَبـهَ الـرَّسـول تعـادلاً ... ومـاذا عسـىٰ يُحْصيـهِ منهـم تعـدّدي
فمـن صـدرِهِ شبـهُ الحسيـن أجلّـه ... وللحسـنِ الأعلـىٰ وحسْبُك فـاعـدِدِ
وللحسَـنِ السَّـامـي مـزايـا كقـولـه ... هـو ابنـي هـٰـذا سيّـدٌ وابـن سيـدِ

---

(١) المعجم الكبير (٣/ ١١٨) حديث رقم (٢٨٥٣) و(٣/ ١٢٤) حديث رقم (٢٨٧٥)، وانظر: الاقتباس من القرآن الكريم للثّعالبيّ (١/ ٩٥)، ومن اللطائف الظّريفة التي أوردها الثّعالبيّ قال: «لمّا ارتحلت سكينةُ بنتُ الحُسين رضي الله عنهما بعد مقتلِ زوجها مصعب بن الزُّبير عن الكوفةِ ارتفعت أصوات أهليها بالبكاء، فقالت سكينةُ: لا أحْسَنَ اللهُ عليكم الخلافة من أهلِ بلدٍ قتلُوا جدّي، وأبي، وزوجي، فأيتموني صغيرة، وأرملوني كبيرة، ثمّ أنشأت تقول شعراً:

يبكـون مَـنْ قتلَـتْ سيـوفُهـمُ ... ظلمـاً بُكَـا متقطّـعِ القلـبِ
كبكـاءِ إخـوة يـوسـفٍ وهـمُ ... حسَـداً لـه أَلْقـوهُ فـي الجـب

(الاقتباس ١/ ٩٥ و ٩٦).

سيصلحُ ربُّ العالمين به الورَىٰ ... علىٰ فرقةٍ منهم وعظمِ تعددِ
وإن تطلبوا ابناً للنَّبيّ فلنْ تَروا ... سوايَ مقالٌ منه غيرُ مفنَّدِ
بدا سيداً ظَهْر الرَّسُول قد ارتقىٰ ... فقرَّ ولم يعجلْه وهو بمسجد
فقالوا له طال السُّجودُ فقال لا ... ولكنَّما ابني خفتُ إن قمتُ يَشْردِ
وكان الحسينُ الصَّارمَ الحازمَ الذي ... متىٰ يُقصر الأبطالُ في الحرب يشددِ
شبيهُ رسول الله في البأسِ والنَّدىٰ ... وخيرُ شهيدٍ ذاقَ طعمَ المهنَّدِ
لمصرعهِ يبكي العيونُ وحقُّها ... فللَّهِ من جرمٍ وعظمِ تمردِ
فبعداً وسحقاً لليزيدِ وشِمْرِهِ ... ومَنْ سار مسرىٰ ذلك المقصد الردي(١)

* وذكر ابنُ أبي الدّنيا في كتابه «الأشراف» أنَّ الجنَّ قد ناحتْ علىٰ الحُسين بشعر، فقال: «حدثنا عليُّ بنُ عبد الحميد الشَّيباني، عن أبي يزيد الفقيميّ قال: كان الجصَّاصُون إذا خرجوا في السَّحر، سمعوا نوحَ الجِنّ علىٰ الحُسين:

مسحَ الرّسولُ جبينَه ... فَلَهُ بريقٌ في الخدود
أبواهُ من عُليا قُريـ ... ـشٍ جدُّه خيرُ الجدود

قال: فأجبتُهم:

خرجُوا به وفداً إليـ ... ـه فهمْ له شرُّ الوفود
قتلوا ابنَ بنتِ نبيّهم ... سكنُوا به نار الخلود»(٢)

* وأوردت المصادرُ كثيراً من هٰذا القبيل، ومن ذلك ما زعموا أنَّ بعضهم وجدَ مكتوباً علىٰ حجر:

أيرجوا معْشَرٌ قتلُوا حُسيناً ... شَفاعةَ جدّه يومَ الحِسَاب(٣)

---

(١) نفح الطِّيب (٧/ ٣٦٥).
(٢) الأشراف لابن أبي الدّنيا (ص ٢٣٥) تحقيق د. وليد قصّاب ـ دار الثّقافة ـ الدَّوحة ـ ط١ ـ ١٩٩٣م وانظر: البداية والنّهاية (٨/ ٢٠٠)، ومعجم الطّبرانيّ (٣/ ١٢١ و ١٢٢) وغيرها كثير.
(٣) المعجم الكبير (٣/ ١٢٤).

* وكذلك ذكروا أشعاراً ومنامات يغلبُ على معظمها أنَّه من صنع محبّي سيّدنا الحُسين والله أعلم.

* وقد قُتِلَ مع سيّدنا الحُسين رضي الله عنه ثلةٌ ميمونةٌ من أكابر رجالِ أهلِ البيت وشبابهم وأعلامهم، وعلمائهم.

فممن قُتل من أبناءِ سيّدنا عليّ رضي الله عنه: الحسينُ نفسُه، وجعفرُ، والعبّاسُ، وأبو بكر، ومحمّدُ، وعثمانُ.

ومن أبناء سيّدنا الحُسين رضي الله عنه: عبدُ الله، وعليّ الأكبر.

ومن أبناء سيّدنا الحسَن رضي الله عنه: عبدُ الله، والقاسمُ، وأبو بكر.

ومن أبناء سيّدنا عقيل رضي الله عنه: جعفرُ، وعبد الله، وعبدُ الرحمن، وعبد الله بن مسلم بن عقيل، ومسلمُ بنُ عقيل كان قد قُتل بالكوفة.

ومن أبناء سيّدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: عونٌ، ومحمدُ.

فهؤلاء كانوا ثمانية عشرَ رجلاً جميعُهم من أهل البيت النّبويِّ الطّاهر، قُتِلُوا شُهداء في هذا المعركة غير المتكافئة.

* وهكذا استشهد سيّدنا الحسين بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، وكان الذي أمرَ بقتله عُبيد الله بن زياد، بيد أنَّ هذا المجرم، لم يلبث أنْ نال جَزاءه من القَتْل على يدِ المختارِ بنِ أبي عبيد الثّقفي الكذّاب[1] انتقاماً للحُسين رضي الله عنه.

* ومن العجيب أنَّ المختار هذا كان أوّل الأمر ممّن خذَلَ مسلمَ بنَ عقيل رحمه الله، فكان الحال بالنّسبة للكوفيين إذ إنّهم أرادوا بزعمهم وتصوّراتهم المريضة الممرضة أنْ ينتقموا من أنفسِهم لأنّهم خذلوا بادىء الأمرْ مسلم بن عقيل حتى قُتِلَ ولم يحرّكْ أحدٌ منهم ساكناً، وثاني الأمر لمّا خرج سيّدنا الحسينُ لم يدافعْ عنه أحدٌ منهم وإنّما ركنوا إلى الخداع، إلا ما ظهرَ من الحُرّ بنِ يزيد

---

(١) انظر ترجمة المختار بن أبي عبيد في سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٨ ـ ٥٤٤).

التّميميّ ومن معه ممن عاشوا تحت تأنيب الضّمير لخذلانهم سيّدنا الحُسين أوّلًا ؛ ثم دافعوا عنه وقُتلوا بين يديه .

* وصحَّ من حديث عُمارة بن عمير قال : «جيء برأسِ عُبيد الله بن زياد وأصحابه، فأتيناهم وهم يقولون : قد جاءتْ، قد جاءتْ، فإذا حيّةٌ تخللُ الرُّؤوسَ حتىٰ دخلتْ في منخرِ عُبيد الله ، فمكثت هنيةً ، ثمَّ خرجَتْ ، وغابتْ ، ثمَّ قالوا : قد جاءتْ ، قد جاءتْ ، ففعلت ذلك مرّتَيْن أو ثلاثاً»(١) .

* ولعلَّ هٰذا درسٌ عمليٌّ ؛ وحكمةٌ بالغة من حكم الله عزَّ وجلَّ في هٰذا المجرم ابن زياد الذي أَسْهَمَ في قَتْل سيّدنا الحُسين رضي الله عنه .

* وبعد، أرجو أنْ أكونَ قد وفّقتُ في الحديث عن حياة سيّدنا الحسينِ رضي الله عنه ، ورجالِ أهلِ البيت في هٰذا الكتاب .

* كما أرجو ألا يغيبَ عن أذهان محبّي رجالِ أهلِ البيت أن جميعَ المسلمين في مشارقِ الأرضِ ومغاربها يدركون منزلةَ السِّبطَين عند حبيبنا رسول الله ﷺ ، وأنَّ امتدادَ النَّسل النَّبويِّ والذُّريّة الطَّاهرة لم يكنْ إلا فيهما .

* رضي الله عن حفيدِ رسول الله ﷺ سيدنا الحسينِ ابن فاطمةَ الزَّهراء وعليٍّ رضي الله عنهما ، وحشَرنا في معيّةِ هؤلاء الأطهار الأخيار .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

❏ ❏ ❏

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (٣/ ٥٤٩) ، والحديث أخرجه التّرمذي برقم (٣٧٨٠) وسنده صحيح .

الخاتمة

ذريّـةَ المُصطَفَـىٰ إنّـي أحبُّكُـمُ   وحبُّكُم واجِبٌ في الدِّين مُفْتَرَضُ
فَحسْبُكُم شَرفاً في الدَّهْرِ أنّكم   خَيرُ البريّـةِ هـٰذا ليس يُعتَرضُ
ولستُ أطلبُ منْ ودّي لكم ثمناً   إلّا المحبَّة فهي السُّؤل والغرضُ

* بحمدِ اللهِ ومنِّهِ، وفَضْلهِ وكرمِهِ، وحَوْله وقوّتهِ، كانت نزهتُنا عبقةً ماتعةً مع جنىٰ الوردِ والرَّيحان، وأزهار الرّياض، في رحاب سادتنا أهلِ البيتِ؛ أخصُّ رجالَهم الذين عشْنا معهم وقتاً رغيداً هنياً نتنسَّمُ طيْب عَرْفِ حياتهم المفعمةِ بالبركاتِ، ولكنَّا نرجو الله عزَّ وجلَّ ألا نكون قد ارتكبنا أيَّ غَلَطٍ في حقِّ واحدٍ منهم، أو أحدٍ من أصحابِ الحبيبِ المُصطفىٰ ﷺ.

* إنَّنا بحمدِ اللهِ وفضْله وتوفيقهِ وهَدْيهِ، جعلنا نهْجَنا كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي أوضحَ السَّبيل أمامنا، ثمَّ الحديثَ النَّبويَّ الذي دلَّنا علىٰ هؤلاءِ الأطهارِ، فالقرآن والحديثُ أزالا بنورهما كلَّ شُبهةٍ أو شائبةٍ كانت تعترضنا.

* وأستطيعُ أنْ أقولَ الآن: «كنّا في حدائق هـٰذا الرَّوض نتفيّأ في ظلالِه، وننعمُ بغذاءِ الألباب من ثمر أطلاله، إلّا أنّنا لمسْنا في دراستِنا تضارباً في بعض الرّواياتِ التّاريخيّةِ، ووجود أضداد ونقائضَ يصعُبُ علىٰ الباحث أنْ يوفِّق بينها، وبالتَّالي ينبغي له أنْ يكونَ علىٰ حيطةٍ وحذَرٍ وتيقّظٍ شديد في التّعامل معها، إذ إنَّ الأخذ بالرّوايات التّاريخية علىٰ حالِها أو ردّها أمرٌ غير سَهْل، وإنَّ التّأنّي والموازنة بينها قبل إصدار الأحكام سيوصلُ إلىٰ نتائجَ أقرب إلىٰ الصّحّةِ وإلى الحقِّ والحقيقةِ».

* فَما المعَالمُ البارزةُ التي توصَّلنا إليها في هـٰذه النُّزهةِ المُباركة؟

وما النَّتائجُ المفيدةُ التي هَدَتْ إليها؟

أولاً: لأهلِ البيتِ علينا حقوقٌ وواجباتٌ كثيرةٌ منها:

أ ـ محبّتُهم وتفضيلُهم: وذلك لمكانتهم من النَّبيِّ ﷺ، وإجلالاً لمحبّته إيّاهم، وقد عرفْنَا من خلالِ سيرة السِّبْطَين الشَّريفَيْن محبّةَ سيّدنا أبي هُريرةَ لهما، وبكاءَه علىٰ الحسنِ رضي الله عنه عندما مات، بل كان يقولُ له: «يا سيّديّ» كما قرأْنا قولَ سيّدنا عمر للحُسين رضي الله عنهما: «وهلْ أنبتَ علىٰ رؤوسنا الشَّعْر إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، ثمَّ أنتم»؟

ب ـ متابعتُهم وتقليدُهُم: المحبّةَ الصَّادقةُ توجبُ الاتّباع؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾[الأنعام: ٩٠]، فمتابعةُ أهلِ البيتِ في خَطْوهم نحو اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ صراطِهِ المستقيم هو الحبُّ الصّادقُ المقبولُ عند اللهِ تعالىٰ.

ج ـ احترامُهُم والدّفاعُ عنهم: هٰذا مقامٌ كريمٌ يؤْجَرُ المسلمُ عليه، ويُثاب فاعله، وقد مرَّتْ معنا نماذجُ كثيرةٌ في هٰذا الجانب، من خلالِ تراجم هٰذه الموسوعة المباركة وشخصياتها الطَّاهرة.

ثانياً: تبيَّن أنَّ نسبَ قرابةِ حبيبنا الأعظم رسول الله ﷺ «بنو هاشم» أشرفُ الأنساب، وأعظمهُم محتداً، وأنبلُهم أرومة، ولا يدانيهم أحدٌ من النَّاس في هٰذا المجال مهما علا وارتقىٰ، ومهما تشادق وادّعى.

ثالثاً: رأينا أنَّ رجالَ أهل البيت في عملنا هٰذا قرشيّون، هاشميّون، صَحَابةٌ، أوصحابةٌ من أبناءِ الصَّحابة، لهم رؤيةٌ ومخالطةٌ خاصَّةٌ مع الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ، وينبغي إنزالَهم منزلتَهم التي أنزلهم اللهُ إيّاها، وكذلك المكانة التي أشار إليها رسولُ الله ﷺ.

رابعاً: أقاربُ النَّبيِّ ﷺ الذين هم أهلُه، فيهم المؤمنُ، وفيهم الكافرُ، والبرُّ والفاجر، فنحنُ نحبُّ المؤمنُ منهم، ونبعضُ الكافر منهم كأبي لَهْب. قال الشَّيخ محمد صالح العُثيمين في تقريرِ هٰذا الشَّرط: «فنحنُ نحبُّهم لقرابتهم من رسولِ اللهِ ﷺ، ولإيمانهم باللهِ، فإنْ كفروا فإنّنا لا نحبُّهم ولو كانوا أقاربَ

الرّسول ﷺ؛ فأبو لهب عم الرّسول ﷺ لا يجوزُ أنْ نحبّه بأي حالٍ منَ الأحوال، بل يجبُ أنْ نكرهَهُ لكُفْرِهِ، ولإيذائه النّبيّ ﷺ، وكذلك أبو طالب، فيجبُ علينا أنْ نكرهه لكفْرِهِ، ولكنْ نحبُّ أفعالَه التي أسْداها إلىٰ الرّسُولِ ﷺ من الحماية والذّبّ عنه».

خامساً: كلُّ هاشمي سيِّدٌ شريفٌ، وجميعهم أهلُ النّبيّ ﷺ، سواء أكان علويّاً ـ من ذريّةِ عليّ رضي الله عنه ولم يكنْ من فاطمةَ رضي الله عنها ـ أم فاطميّاً، أم جعفريّاً، أم عقيليّاً، أم عبّاسيّاً، فجميعُهم ينطبق عليه هٰذا الوصفُ، والصّدقَةُ الواجبةُ حرامٌ علىٰ جميعِ بني هاشم، فإنّها أوساخُ أموالِ النّاس.

سادساً: النّاسُ منقسمون في محبّةِ أهلِ البيت ثلاثةَ أقسام: غُلاةٌ؛ وجُفَاةٌ، ووسطٌ. وأسعدُ النّاسِ حالاً بموالاةِ أهلِ البيت الذين يعرفون فيهم وصيّة النّبيِّ ﷺ، بالإحسان إليهم، ويعتبرون محبّتهم واجبة محتّمة علىٰ كلّ فردٍ من أفرادِ الأمّة، ولا يخرجون في وصْفِ أهلِ البيت عن الحدود الشّرعية.

سابعاً: الاتّكالُ علىٰ النّسب والاعتمادُ عليه، لا يفيدُ إذا لم تَسْتَقِمِ القلوبُ والأعمالُ؛ كذلك ينبغي للإنسان التّحرز الشّديدُ من الانتساب إلى النّبيّ ﷺ بغير حقّ ولا دليل، فويلٌ لمن يدعي النّسب الشّريف زُوراً وكذباً، ليلفتَ الأنظار إليه وهو ليس كذلك، لأنَّ النّاس مؤتمنون علىٰ أنسابهم، والأمرُ ليس كلاماً سهلاً يُقال في هٰذا المجال دون بيّنةٍ.

ثامناً: في صحيحِ الإمام البُخاري أبوابٌ متخصّصةٌ في بيان مناقبِ قرابةِ رسولِ الله ﷺ، وأبوابٌ في مناقب عليٍّ وجعفرَ رضي الله عنهما، وكذلك العبّاس رضي الله عنه، والحَسن والحُسين وفاطمة الزّهراء رضي الله عنهم أجمعين. وكذلك صنعَ الإمامُ مسلم في صحيحه، فقد عقدَ باباً كبيراً عنوانُه: بابُ فضائلِ أهلِ بيتِ النّبيّ ﷺ، كما أوردَ قبله أبواباً في فضائل الحَسن والحُسين وعبد الله بن جعفر وغيرهم رضي الله عنهم. وكذلك صنَعَ أصحاب السُّنن في مصنفاتهم: أبو داود، النّسائي، التّرمذي، وابن ماجه. وكذلك صنعَ الحاكمُ في المستدرك، وأحمدُ في المُسند، وغيرهم ممن عُني بهٰذا الشّأن.

تاسعاً: سيّدنا عليٌّ وجعفرُ، ثم حمزةُ رضي الله عنهم من ثلّة السَّابقين الأوّلين إلىٰ دوحةِ الإسلامِ، ولهم فضلٌ سابغٌ سبقوا به كثيراً من رجالِ أهلِ البيت، ومن الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين.

عاشراً: نقل علماءُ الأمةِ في عَصْر النُّبوة، وصدر الإسلام، وغير ذلك ما رواهُ أهل البيت عن النَّبيّ ﷺ، ونقلوا كذلك ما جاء عن النّبيّ ﷺ في فضائل أهلِ البيت، ومناقبهم، ومودّتهم، وتوقيرهم.

حادي عشر: اهتدينا أثناءَ دراستنا لحياة رجالِ أهلِ البيت العِلْميّة إلىٰ أنّهم نقلُوا للأُمّة شَطْراً مهمّاً من المرويّات الحديثيّة، والأحكام الفقهيّة، والشَّمائل المحمَّديّة، ومعلومات نادرة في التَّفسير، وعلوم القرآن، والقراءات، والسِّيرة النّبويّة العطرة، بالإضافةِ إلىٰ معارفَ تتعلَّقُ بأمور الدّين، وخصائص أهل البيت.

ثاني عشر: العصرُ الذي عاش فيه رجال أهلِ البيت أزهىٰ العصور وأبركها، وهو العصرُ النَّبويُّ، والعَصْر الرَّاشدي، والعصرُ الأموي، ويعدُّ العصرُ الأمويّ من أزهىٰ العصور، لأنَّ أهلَ البيت كانوا يزينونه، وكذلك من تبقّىٰ من الصَّحابة، وقد عمل هؤلاء كلُّهم أجمعون في الفتوحاتِ في الشَّرق والغرب، ونَشْر العلْم في أرجاءِ الأرض.

ثالث عشر: اتَّضحَ لنا أنَّ رجالَ أهل البيت قد جمعُوا من كلّ علمٍ بطرف، فهم حافظون لكتابِ اللهِ تعالىٰ، واعُون للحديث النَّبويّ، مفسّرون، فُقَهاء، مُفْتون، فرضيّون، علماء، أدباء، حُلماء، فُصحاء؛ لهم كلماتٌ سائرات مَسْرىٰ الأمثال، وحكَمٌ مُسْتَقاةٌ من القُرآن والسُّنَّة، كما جمعوا المحاسنَ الخَلْقية والخُلُقية من أطرافها، فهم أجملُ النَّاس، وأنبلُهم وأحسنُهم خلقاً، وأسخاهم كفّاً، ؛ وأشجعُهم في ميادين الجهاد، وذخائرِ المحاسن وحَصَائلِ الفضائل.

رابع عشر: لاحظنا وجودَ بعض القَصَص الموضوع، الذي لا يسمنُ ولا يغني من جوع، وقد ظنَّ واضعوه أنَّهم يُحسنون بذلك صنعاً، ويزيدون رصيدَ أهل البيت بما يتخيّلون وينظمون الأشعارَ الرّكيكة السَّقيمة، والحكايات العجيبة

التي هي أقربُ إلىٰ السَّذاجة من الحقيقة، ونبَّهْنا إلىٰ زَيْفِ هـٰذه الحكايات وأمثالها، وأنّها لا تزيدُ ضوءَ الشَّمس شمعةٌ، فما جاء في حقِّهم في القُرآن والحديث غنَاء عن هـٰذا كلّه.

خامس عشر: الطَّعنُ في أهلِ البيت والصَّحابة وتجريحُهم يؤدّي إلىٰ إبطال الشَّريعة، إذ هم منْ نَقَلَتِها، والمبلِّغونَ لها. قال القُرطبي في تفسيره: «مَنْ نقَصَ واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردَّ علىٰ ربِّ العالمين، وأبطلَ شرائع المُسلمين».

سادس عشر: إنَّ سبَّ الصَّحابة بعامة، وأهلِ البيت خصيصى، وانتقاصهم والطّعن فيهم إيذاءٌ لرسولِ الله ﷺ بأكثر من وجْه، لأنَّهم أصحابُهُ وأقرباؤه الذين ربّاهم وزكّاهم، وذكَرَهم بخير، وأوصىٰ بهم خيراً في أكثرَ من موضع، وأكثرَ من مناسبة، ومعلوم أنَّ إيذاءَ النَّبيّ ﷺ كفرٌ وفسوقٌ، فيكون سبّ أصحابهِ وذوي قرباه كذلك؛ ثم إنَّ السَّبَّ واللعنَ ليس من خُلُق المؤمنين، ولا من أسلوب الدّعاة الذين يريدون توصيل الحقِّ بطريقةٍ لطيفةٍ صحيحة.

سابع عشر: انتهينا إلىٰ أنَّ الحقَّ في حُروبِ الصَّحابةِ فيما بينهم كان مع سيّدنا عليّ رضي الله عنه، ومَنْ وافَقَه من الصَّحابة رضي الله عنهم، وسيدنا عليّ كان هو المصيبُ في ذلك، ومَنْ قاتله كان باغياً عليه، ولكنّه معذورٌ في تأويلهِ وقتالهِ، وقد ثبتَ ذلك بالأحاديث الصَّحيحةِ والرّواياتِ المتواترةِ، وهـٰذه الرِّوايات ـ كما يقول النَّوويُّ رحمه الله ـ صريحةٌ في أنَّ سيّدنا عليّاً رضي الله عنه كان هو المصيبُ المحِقُّ، والطَّائفةُ الأخرىٰ أصحاب سيّدنا معاوية كانوا بغاةً متأوّلين، قال: «وفيه التّصريحُ بأنَّ الطَّائفتين مؤمنون، لا يخرجون بالقتال عن الإيمانِ، ولا يفسقون» قال: «وهـٰذا مذهبُنا ومذهبُ موافقينا».

ثامن عشر: إنَّ ما حصلَ بين سيّدنا عليّ ومعاويةَ رضي الله عنهما لم يكن له أيّةُ خلفيةٍ، وأنَّه لم يكنْ بينهما صراعٌ سياسيٌّ أو عائليٌّ، ولا ينبغي أنْ نذكرَ هـٰذا لأنَّ الإسلامَ الحنيفَ قد ربّىٰ الصَّحابةَ تربيةً نقيةً خالصةً، وصقَلَهم من كلِّ ما يمكن أنْ يؤثّر في أمورِ دينهم وحياتهم، وعلَّمهم كيف يتخلّصون من الشَّوائبِ والإحنِ ومخلَّفَات الجاهلية.

تاسع عشر: تأكَّدَ لدينا ـ ونحن نمتع الأسماع من سواجع هـٰذه الموسوعة ـ أنَّ الإمساكَ عمَّا شجرَ بينَ رجالِ أهلِ البيت وبين بعضِ الصَّحابة، وإحسان الظَّنِّ بهم كلِّهم، هو الأَوْلَىٰ لِمَنْ أرادَ وجْهَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والدَّارَ الآخرة، ومرضاة الحبيبِ المُصْطَفىٰ ﷺ.

عشرون: أدركْنا تمامَ الإدراك أنَّ بعضَ كتُب التَّاريخ وبعض كتب الأخبار والأدبيّات والمُسَامرات والمحاورات، قد أسهمَتْ إسهاماً ملحوظاً في تشويشِ بعض الأخبار وتشويهها، والتّلاعبِ بها، وتلويثِ سمعةِ بعض الأكابر من الصَّحابةِ، لأنَّهم لم ينصروا هـٰذا علىٰ هـٰذا، أو يناصروا هـٰذا علىٰ ذاك.

حادي وعشرون: عندما أحسَّ الخوارجُ ومبغضُو الإسلام وأهله، بأنَّ المسلمين يمكنُ أنْ يتقاربوا، كرهُوا هـٰذا الأمرَ، وقاموا بنَسْجِ مؤامرةٍ خطيرةٍ مؤثّرة، وحياكةٍ خبيثةٍ مدمرةٍ، للإطاحةِ بكبراءِ المسلمين وأعلامهم، واغتيال سيّدنا عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم، وتمكّنوا من اغتيال سيّدنا علي أفضل الصَّحابة في عصْره، وثلمُوا في الأمّةِ الإسلامية ثلمةً كبرىٰ لا تُرتق.

ثاني وعشرون: تجلَّتْ حكمةُ سيّدنا الحسن بن عليّ رضي الله عنهما حينما عمل علىٰ الصُّلح، وبالتَّالي قَصَم عمله هـٰذا ظَهْر الخوارج؛ وفاز بقولِهِ ﷺ: «إنَّ ابني هـٰذا سيّدٌ ولعلَّ اللهَ أنْ يصلحَ به بين فئتَيْنِ من المُسْلمين».

ثالث وعشرون: كانتِ الصُّورة التي رُويت لبعضِ شخصيّات أهل البيت مضطربةً أحياناً، فَرَسَمْتُ لها صورةً جليّةً واضحةً قريبةً من واقعِها ومن الحياةِ الاجتماعيةِ التي عاشَتْها، وقسْتُ ذلك بما تواتَرَ من الآثارِ الصَّحيحةِ والأخبارِ البيّنةِ في حقِّ هـٰذه الشَّخصيةِ، فمثَلاً كانت صورةُ سيّدنا الحسن رضي الله عنه في عملِنا مجلوّةً ومرسومةً رسماً واضحاً خالياً من الأوهام؛ مُطابقاً لما تواترَ في حقِّه رضي الله عنه، وكذلك في شخصيّةِ الحُسين، وسائرِ شخصيات الكتاب.

رابع وعشرون: صَحَّحتُ كثيراً من الآراء الشَّائعةِ، والأخبارِ المشهورة عن بعضِ شخصيّات أهل البيت، وأثبتُّ بالأدلةِ العقليةِ والنَّقليةِ والمنطقيّة أنَّها

لا تنسجمُ مع حياتهم، ولا مع بيئتهم، ولا مع لغتِهم وفصاحتِهم وبلاغتهم؛ واستنبطتُ بأنَّ كثيراً من هـٰذه الآراءِ والأخبار قد وُضِعَتْ وصيغَتْ بعد عَصْر أهلِ البيتِ بزمنٍ طويلٍ، وحيكتْ بلغةٍ ركيكةٍ لا تتناسبُ مع البلاغةِ الهاشميةِ التي خصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بها رجالَ أهل البيت، والتي استمدوها من القرآنِ الكريم، والحديثِ الشَّريف، وفصيحِ الشِّعر، وحكمةِ العرب.

خامس وعشرون: في دراستي المُزهرةِ الموفّقة لحياةِ رجالِ أهل البيت رضي الله عنهم، اهتديتُ إلىٰ كثيرٍ من الأدبيّاتِ الجميلةِ، التي تصلُحُ للمذاكرةِ والحفْظِ؛ وتصلحُ لتهذيبِ النَّاشئة، وتربيتهم علىٰ هـٰذا النَّوع من لبابِ الآدابِ، وثمرِ الألبابِ، الذي يصقُلُ النُّفوس، ويغذّي الأرواحَ، ويروي العواطفَ، ويُحيي القلوب، بما يحملُه من رقائق وأنفاس ونفائس قد لا تُوجدُ في فنونِ الأدبِ الأخرىٰ، كما أنَّ هـٰذه الأدبيّات تجلو الصُّورة وتوضّحها في ذهنِ القارىء، وتجعلُها محببةً لديه، يتمثّلُها في حياته سُلوكاً وتطبيقاً.

* وختاماً: أتوجَّهُ إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ ينتفعَ النَّاسُ بهـٰذا الكتابِ الذي حاولتُ قَدْرَ ما أستطيعُ أنْ يكونَ ذا فوائد كبيرة، يستلهمُ منه محبوّ أهلَ البيت ما يوصلُهم إلىٰ السَّعادة وإلى الحق والحقيقة.

* اللهمَّ أكرمْنا بمحبَّةِ أهلِ البيت، وأنْ نسيرَ علىٰ نهجهم ومنهاجهم.

* اللهمَّ ارزقْنا الإخلاصَ في القولِ والعملِ، وباركْ لنا في أوقاتنا وأعمالنا، وانفعْنا بما علَّمتنا وَزِدْنا علْماً يا ربَّ العالمين.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتب

خادم أهل البيت ومحبّهم

راجي عفو الله

أحمد بن خليل جمعة

الحرستانيّ الدّمشقيّ

❐ ❐ ❐

فهرس المصادر والمراجع [1]

١ ـ **القرآن الكريمُ**: علومُه وأحكامُه.
٢ ـ **الصَّحيحان**: البخاريُّ ومسلم وشرحُهما.
٣ ـ **السُّننُ الأربعةُ وشروحُها**.
٤ ـ **المسانيدُ والمستدركاتُ والمصنَّفات والمعاجمُ وكتبُ الحديثِ وعلومُه**.
٥ ـ **أباطيلُ يجبُ أنْ تُمحى من التَّاريخ**: د. إبراهيم شعوط ـ المكتبُ الإسلاميُّ ـ بيروت ـ ط ٦ ـ ١٩٨٨ م.
٦ ـ **الإتقانُ في علوم القُرآن**: للسّيوطيّ ـ تعليق د. مصطفى البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٧٩ م.
٧ ـ **الإحكامُ في أصولِ الأحكام**: لابن حزم ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
٨ ـ **أحكام القُرآن**: لابن عربيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاويّ ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٩ ـ **الأخبارُ الطّوالُ**: للدِّينوريّ ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ مصر ـ ١٩٥٩ م.
١٠ ـ **أخبارُ القُضَاةِ**: لوكيع ـ عالَم الكتُب ـ بيروت ـ دون تاريخ.

---

(١) تطّلبَ تصنيفُ هـٰذا الكتاب وصياغتُه مئات من المصادر، والمراجع، والأبحاث، والمجلاّت، والمحاضرات، والنّدوات، وسنسوقُ في هـٰذا الفهرس شطراً منها، أمّا الشَّطرُ الآخرُ فهو مرسومٌ بين أغصان الكتاب وأوراقه، وبين نثار أزهاره. وسيدرك القارئ المحبُّ المنصفُ كيف اقتطفنا أجمل طاقاتِ زهرِه ووَرْدِه، وجنينا أطيب ثَمَرِهِ وينعه من حدائق المصادر، وبساتين المعرفة، ليخرجَ في هـٰذا الشَّكل والطَّعم واللون الذي هو عليه الآن. والله عزَّ وجلّ الموفّق؛ عليه توكّلتُ وإليه أنيب.

١١ ـ **أخبارُ مكّةَ**: للأزرقيّ ـ تحقيق رشدي ملحس ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٣ م.
١٢ ـ **الأخبارُ الموفقيّات**: للزُّبير بنِ بكّار ـ تحقيق د. سامي مكّي العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢ م.
١٣ ـ **أخبارُ الوافداتِ من النِّساء على معاويةَ بن أبي سفيان** ـ للعبّاس بنِ بكّار الضَّبيّ ـ تحقيق سكينة الشّهابي ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٣ م.
١٤ ـ **أدبُ الدُّنيا والدِّين**: للماورديّ ـ تحقيق ياسين السَّوّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
١٥ ـ **أدبُ السِّياسة في العصر الأمويّ**: د. أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ط ٥ ـ دون تاريخ.
١٦ ـ **الأذكارُ**: للنّووي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٧ ـ ١٩٩٧ م.
١٧ ـ **أسبابُ النُّزول**: للواحديّ ـ تحقيق د. مصطفى البغا ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
١٨ ـ **استجلابُ ارتقاءِ الغُرف بحبِّ أقرباءِ الرَّسول ﷺ وذوي الشَّرف**: للسَّخاوي ـ تحقيق خالد بابطين ـ دار البشائر الإسلاميّة ـ بيروت ـ ٢٠٠٠ م.
١٩ ـ **الاستيعابُ**: بهامشِ الإصابة: لابن عبد البرّ ـ دار الكتاب العربي ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٠ ـ **أُسدُ الغابة في معرفةِ الصَّحابة**: لابن الأثير ـ طبعة مصوّرة عن طبعة دار الشَّعب المحقَّقة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.
٢١ ـ **إسعافُ الرَّاغبين**: بهامش نور الأبصار: لمحمد بن علي الصَّبّان ـ شركة البابي الحلبي ـ مصر ـ الطَّبعة الأخيرة ـ ١٩٤٨ م.
٢٢ ـ **الاشتقاقُ**: لابن دريد ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.
٢٣ ـ **الأشرافُ**: لابن أبي الدُّنيا ـ تحقيق د. وليد قصّاب ـ دار الثَّقافة ـ الدّوحة ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
٢٤ ـ **الإصابةُ في تمييز الصَّحابة**: لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢٥ ـ **الأطفالُ والطُّفولةُ بين الأدب والثَّقافة**: د. أحمد خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ٢٠٠٥ م.
٢٦ ـ **الأعلامُ**: للزِّركليّ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٨٨٤ م.
٢٧ ـ **أعيانُ الشِّيعة**: لمحسن الأمين ـ دار التّعارف ـ بيروت ـ ١٩٨٦ م.
٢٨ ـ **أغاليطُ المؤرّخين**: د. أبو اليسر عابدين ـ دمشق ـ ١٩٧٢ م.
٢٩ ـ **الأغاني**: للأصفهانيّ ـ طبعة مصوّرة بدار الفِكْر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٠ ـ **الاقتباسُ من القرآنِ الكريم**: للثَّعالبيّ ـ تحقيق د. ابتسام مرهون الصَّفَّار ود. مجاهد بهجت ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
٣١ ـ **ألف باء**: للبلويّ ـ دار عالم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٣٢ ـ **أمالي المرتضى**: للمرتضى ـ تحقيق محمّد أبو الفضْل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربيّة ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م.
٣٣ ـ **الأنسابُ**: للسَّمعانيّ ـ تعليق عبد الله البارودي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
٣٤ ـ **أنسابُ الأشراف**: للبلاذريّ ـ تحقيق محمّد حميد الله ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ ـ وكذلك عدَّة أجزاء متفرقة بتحقيق عدة أساتذة.
٣٥ ـ **الإنصافُ فيما وقعَ في العَصْر الرَّاشديّ من الخلاف**: د. حامد الخليفة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٤ م.
٣٦ ـ **الأوائلُ**: للعسْكريّ ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
٣٧ ـ **بدائع البدائه**: لابن ظافر الأزديّ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مصر ـ ١٩٧٠ م.
٣٨ ـ **البدايةُ والنِّهايةُ**: لابن كثير ـ دار الفكر ـ طبعة مصورة ـ ١٩٧٨ م.
٣٩ ـ **البدرُ التّمام شرحُ بلوغ المرام من أدلّة الأحكام**: لحسين محمّد المغربي ـ تحقيق د. محمّد شحود خرفان ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط١ ـ ١٠٠٤ م.
٤٠ ـ **البدرُ الطَّالعُ**: للشَّوكانيّ ـ دار الكتاب الإسلاميّ ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٤١ ـ **البرصان والعرجانُ والعميان والحُولان**: للجاحظ ـ تحقيق د. محمّد مرسي الخولي ـ مؤسّسة الرّسالة ـ ط ٤ ـ ١٩٨٧ م.

٤٢ ـ **البرهانُ في علوم القرآن**: للزّركشيّ ـ دار إحياء الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.
٤٣ ـ **البصائرُ والذَّخائر**: لأبي حيّان التّوحيديّ ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.
٤٤ ـ **بناتُ الصَّحابة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ٢٠٠٥ م.
٤٥ ـ **بهجةُ المَجالِس**: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمد مرسي الخولي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٤٦ ـ **البيانُ والتَّبيين**: للجاحظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م. وطبعة أخرى مصوَّرة ببيروت بتحقيقٍ آخر.
٤٧ ـ **بيعةُ النِّساء في القُرآن والسِّيرة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٤٢٥ م.
٤٨ ـ **تاريخُ الإسلام**: للذّهبيّ ـ تحقيق د. عمر تدمريّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧ م.
٤٩ ـ **تاريخُ الأمم والملوك**: للطبريّ ـ دار الكتبُ العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٨ م.
٥٠ ـ **تاريخُ بغدادُ**: للخطيب البغداديّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٥١ ـ **تاريخُ الخلفاء**: للسّيوطيّ ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٤ م.
٥٢ ـ **تاريخُ خليفةَ**: لخليفة بن خياط ـ حقَّقه د. سهيل زكار ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٢ م.
٥٣ ـ **تاريخُ الخميس**: للدّيار بكريّ ـ دار صار ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٥٤ ـ **تاريخُ مدينة دمشق «تراجم النّساء»**: لابن عساكر ـ تحقيق سكينة الشِّهابي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ دون تاريخ.
٥٥ ـ **تاريخُ المدينة المنوّرة**: لابن شبّه ـ حقّقه فهيم شلتوت ـ دار التّراث ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.

٥٦ ـ **تأويل مختلف الحديث**: لابن قتيبة ـ تحقيق محمد الأصفر ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٩ م.

٥٧ ـ **التَّبيين في أنسابِ القُرشيين**: لابن قدامةَ المقدسيّ ـ حقَّقه محمد نايف الدُّلَيمي ـ المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٨٢ م.

٥٨ ـ **التّذكرةُ الحمدونيّة**: لابن حمدون ـ تحقيق د. إحسان عبّاس وبكر عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦ م.

٥٩ ـ **التَّراتيب الإدارية**: للكتّاني ـ علّق عليه علي دندل ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠١ م.

٦٠ ـ **التّرغيبُ والتَّرهيبُ**: للمنذريّ ـ علَّق عليه مصطفىٰ عمارة ـ مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي ـ مصر ـ ط٣ ـ ١٩٦٨ م.

٦١ ـ **التَّعازي والمراثي**: للمبّرد ـ حقَّقه محمّد الدّيباجي ـ مجمع اللغة العربيَّة ـ دمشق ـ ١٩٦٧ م.

٦٢ ـ **تغريدةُ السِّيرة النَّبويةِ**: لمحمد عايش عبيد ـ دار التّراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو رقم الطَّبعة.

٦٣ ـ **تفسيرُ آيات الأحكام**: للسَّايس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٤ م.

٦٤ ـ **تفسيرُ ابن عطيّة**: لابن عطية الأندلسيّ: دار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢ م.

٦٥ ـ **تفسيرُ البحر المحيط**: لابي حيّان الأندلسيّ ـ حقَّقه جماعة من علماء الأزهر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.

٦٦ ـ **تفسيرُ الخازن وبهامشه البغويّ**: للخازن والبغويّ ـ مطبعة البابي الحلبي ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٥٥ م.

٦٧ ـ **تفسيرُ روحِ المعاني** ـ للآلوسيّ ـ دار الفكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.

٦٨ ـ **تفسيرُ السَّمرقندي**: للسَّمرقندي ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.

٦٩ ـ **تفسيرُ الطَّبري**: للطَّبريّ ـ دار الفكْر ـ دمشق ـ ١٩٨٤ م.

٧٠ ـ **تفسيرُ القرآن العظيم**: لابن كثير ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٧١ ـ **تفسيرُ القرطبيّ**: للقرطبيّ ـ دار إحياء التّراث العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٧٢ ـ : **التفسيرُ الكبيرُ**: للرَّازيّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٧٣ ـ **تفسيرُ الماورديّ**: ـ للماورديّ ـ تحقيق خضر محمّد خضر ـ وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة ـ كويت ـ ط١ ـ ١٩٨٢ م.
٧٤ ـ **التَّفسيرُ والمفسّرون**: د. محمد حُسين الذّهبيّ ـ دار القلم ـ بيروت ـ ط١ ـ دون تاريخ.
٧٥ ـ **التّفسيرُ المنير**: د. وهبة الزُّحيليّ ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩١ م.
٧٦ ـ **تقريبُ التَّهذيب**: لابن حجر ـ تحقيق عبد الوهَّاب عبد اللطيف ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٥ م.
٧٧ ـ **تلقيحُ فهومِ أهل الأثر في عيون التَّاريخ والسِّير**: لابن الجوزيّ ـ مكتبة الآداب ـ مصر ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة.
٧٨ ـ **تمامُ المتون في شرح رسالةِ ابن زيدون**: لخليل بن أيبك الصَّفديّ ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكْر العربيّ ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م.
٧٩ ـ **التَّمثيلُ والمحاضرةُ**: للثَّعالبيّ ـ تحقيق عبد الفتَّاح الحلو ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م.
٨٠ ـ **تهذيبُ الأسماء واللغات**: للنَّوويّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة.
٨١ ـ **تهذيبُ التَّهذيب**: لابن حجر ـ دار الكتاب الإسلاميّ ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة.
٨٢ ـ **ثمارُ القلوب**: للثَّعالبيّ ـ تحقيق محمّد أبو الفَضْل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٥ م.
٨٣ ـ **جامعُ بيان العلْم وفَضله**: لابن عبد البرّ القرطبيّ ـ قدم له عبد الكريم الخطيب ـ دار الكتب الإسلاميّة ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٨٢ م.

٨٤ ـ **الجامعُ لأخلاقِ الرّاوي والسَّامع**: للخطيب البغداديّ ـ تحقيق د. محمد عجاج الخطيب ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١ م.
٨٥ ـ **جلاءُ الأفهام**: لابن قيّم الجوزيّة ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٨ م.
٨٦ ـ **جمهرةُ أنساب العرب**: لابن حزم الأندلسيّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣ م.
٨٧ ـ **جوامعُ السِّيرة النَّبويّة**: لابن حزم ـ تحقيق ـ نايف العبّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٦ م.
٨٨ ـ **جواهرُ البحار في فضائل النّبيّ المختار ﷺ**: ليوسُف النَّبهانيّ ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م.
٨٩ ـ **الجواهرُ الحِسان في تفسير القرآن**: لعبد الرَّحمن الثَّعالبي ـ حقَّقه أبو محمّد الغُماري الإدريسيّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ـ ١٩٩٦ م.
٩٠ ـ **حجَّةُ اللهِ علىٰ العالمين**: ليوسُف النَّبهاني ـ تحقيق محمد مصطفىٰ أبو العلا ـ مكتبة الجندي ـ القاهرة ـ ١٩٧١ م.
٩١ ـ **الحقيقةُ والمجازُ في الرِّحلةِ إلىٰ بلاد الشّام ومصر والحجاز**: لعبد الغني النَّابلسيّ ـ تحقيق رياض مراد ـ دار المعرفة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٨ م.
٩٢ ـ **حليةُ الأولياء**: لأبي نُعيم الأصفهانيّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٧ م.
٩٣ ـ **حياةُ الحيوان**: للدّميري ـ مطبعةُ البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ط٥ ـ ١٩٨٠ م.
٩٤ ـ **حياةُ الصَّحابة**: للكاندهلوي ـ بعناية نايف العبّاس ومحمّد دولة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٦ م.
٩٥ ـ **خلفاء الرّسول**: لخالد محمّد خالد ـ دار الشُّروق ـ بيروت ـ ١٩٧١ م.
٩٦ ـ **الخلفاءُ الرَّاشدون**: لعبد السّتار الشَّيخ ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٢ ـ ٢٠٠٣ م.
٩٧ ـ **الدَّارسُ في تاريخ المدارس**: للنّعيمي ـ تحقيق جعفر الحسيني ـ المجمع العلمي العربي ـ دمشق ـ ١٩٤٨ م.

٩٨ ـ **درُّ السَّحابةِ في مناقب القرابةِ والصَّحابةِ**: للشَّوكاني ـ تحقيق د. حسن العمري ـ دار الفكر ـ ط١ ـ ١٩٨٤ م.
٩٩ ـ **الدُّررُ في اختصار المغازي والسِّير**: لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. مصطفىٰ البغا ـ مؤسّسة علوم القرآن ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٤ م.
١٠٠ ـ **الدرُّ المنثور**: للسّيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣ م.
١٠١ ـ **دلائلُ النّبوة**: للأصبهانيّ ـ تحقيق محمّد رواس قلعجي ورفيقه ـ دار التّراث ـ حلب ـ ط١ ـ ١٩٧٠ م.
١٠٢ ـ **دلائلُ النّبوّة**: للبيهقيّ ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي ـ مؤسّسة دار الحياة ـ ١٩٧١ م.
١٠٣ ـ **دميةُ القصر**: للباخرزيّ ـ تحقيق د. محمد التّونجي ـ مؤسسة دار الحياة ـ ١٩٧١ م.
١٠٤ ـ : **الدّوحةُ النّبويّةُ الشّريفةُ**: د. محمّد فاروق حمادة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٠ م.
١٠٥ ـ **ديوانُ أبي تمّام**: لأبي تمّام ـ تحقيق محمّد عبد عزام ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.
١٠٦ ـ **ديوانُ البُوصِيْريّ**: للبُوصيريّ ـ تحقيق محمد سيّد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٣ م.
١٠٧ ـ **ديوانُ حافظ إبراهيم**: لحافظ إبراهيم ـ تحقيق أحمد أمين ورفيقَيْهِ ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٣٧ م.
١٠٨ ـ **ديوانُ حسَّان بن ثابت**: لحسَّان ـ تحقيق د. سيد حنفي حسين ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ . وطبعة بتحقيق د. وليد عرفات ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٤ م.
١٠٩ ـ **ديوانُ دعبل الخزاعيّ**: لدعبل ـ جمعُ د. عبد الكريم الأشتر ـ المجمع العلمي العربي ـ دمشق ـ ١٩٦٤ م.
١١٠ ـ **ديوانُ الشّافعي** ـ طبعات مختلفة بدمشق وبيروت.

١١١ ـ **ديوان مجد الإسلام**: لأحمد محرم ـ حققه محمود أحمد محرّم ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٤١٢١ هـ.
١١٢ ـ **ربيعُ الأبرار**: للزّمخشريّ ـ تحقيق د. سليم النّعيمي ـ دار الذّخائر للمطبوعات ـ إيران ـ دون تاريخ.
١١٣ ـ **رجالٌ حولَ الرّسول**: لخالد محمّد خالد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٢ م.
١١٤ ـ **رجالٌ مبشّرون بالجنّة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستاني الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٥ ـ ٢٠٠٣ م.
١١٥ ـ **رحلةُ الشّتاء والصّيف**: لمحمّد بن عبد الله الحسينيّ الشّهير بكبريت ـ تحقيق محمّد سعيد الطّنطاوي ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٥ م.
١١٦ ـ **الرّحيقُ المختوم**: للمباركفوريّ ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط٥ ـ ١٩٨٥ م.
١١٧ ـ **الرّسالة المحمديّة**: لعبد العزيز الثّعالبيّ ـ تحقيق د. صالح الخرفي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٦ م.
١١٨ ـ **الرّوضُ الأُنُفُ بهامش السِّيرة النّبوية**: للسُّهيليّ ـ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ـ مكتبة الكليّات الأزهرية ـ القاهرة ـ ١٩٧١ م.
١١٩ ـ **الرَّوضُ الفائق**: لشُعيب الحريفيش ـ دار الفكُر ـ بيروت ـ طبعة مصورة دون تاريخ.
١٢٠ ـ **الرّوض المعطارُ في خبر الأقطار**: للحميريّ الصّنهاجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٤ م.
١٢١ ـ **الرّياضُ النّضرةُ في مناقب العشرة**: للمحبّ الطّبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٤ م.
١٢٢ ـ **زادُ المسير في علم التّفسير**: لابن الجوزيّ ـ المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠٢ م.
١٢٣ ـ **زادُ المعاد**: لابن قيّم الجوزيّة ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط ورفيقه ـ مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ـ ط(٢٥) ـ١٩٩١ م.

١٢٤ ـ **زهرُ الآداب وثمرُ الألباب**: للحصريّ القيروانيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٠ م.

١٢٥ ـ **زهرُ الأكم في الأمثالِ والحكم**: لأبي علي اليوسيّ ـ دار الثّقافة ـ الدّار البيضاء ـ المغرب ـ ١٩٨١ م.

١٢٦ ـ **سبلُ الهدىٰ والرّشاد في سيرةِ خيرِ العباد**: للصّالحيّ ـ تحقيق د. مصطفىٰ عبد الواحد وآخرين ـ إحياء التُّراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ م.

١٢٧ ـ **سراجُ الملوك**: للطّرطوشي ـ تحقيق جعفر البياتي ـ رياض الرّيس للكتب والنّشر ـ لندن ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.

١٢٨ ـ **سيرُ أعلام النُّبلاء**: للذّهبيّ ـ تحقيقُ عددٍ من الأفاضل ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٥ م.

١٢٩ ـ **السِّيرة الحلبيّةُ**: للحلبيّ ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٦٤ م.

١٣٠ ـ **السِّير والمغازي**: لابن إسحاق ـ تحقيق د. سُهيل زكّار ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٨ م.

١٣١ ـ **السّيرةُ النّبويّةُ**: لابن هشام ـ تحقيق السّقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٥٥ م.

١٣٢ ـ **السّيرةُ النّبويّةُ**: لابن هشام ـ تحقيق د. عمر تدمريّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٥٥ م.

١٣٣ ـ **السّيرةُ النّبويّةُ**: لابن هشام ـ مع شرح أبي ذرّ الخشنيّ ـ تحقيق د. همّام سعيد ورفيقه ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٨ م.

١٣٤ ـ **السّيرةُ النّبويّةُ**: للنّدوي ـ دار الشّروق ـ جدة ـ ط٣ ـ ٩٩٨١ م.

١٣٥ ـ **السّيرةُ النّبويةُ الصّحيحةُ**: د. أكرم العمريّ ـ مكتبة المعارف والحكم ـ المدينة المنوّرة ـ ط١ ـ ١٤١٢ م.

١٣٦ ـ **السّيرةُ النّبويّةُ علىٰ منهج الوحيَيْن**: د. مأمون حمّوش ـ ط٢ ـ دون تاريخ أو ذكر اسم مطبعة أو ذكر اسم دار.

١٣٧ ـ **السّيرةُ النّبويةُ في ضوء القرآن والسُّنَّة**: لمحمد أبو شهبة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٨ م.
١٣٨ ـ **شاعراتُ العرب**: جمع وتحقيق عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٦٧ م.
١٣٩ ـ **الشَّبابُ مشكلاتٌ وحلول**: د. أحمد خليل جمعة ود. عصام الشّوّاف ـ دار ـ اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٥ م.
١٤٠ ـ **شذراتُ الذَّهب**: لابن العماد الحنبليّ ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ ط١ ـ ١٩٨٦ م.
١٤١ ـ **الشَّذرةُ في الأحاديث المشتهرة**: لمحمّد بن طولون الصَّالحي ـ تحقيق كمال زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.
١٤٢ ـ **شرحُ حياةِ الصَّحابة للكاندهلويّ**: لمحمّد إلياس الباره بنكوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٠ م.
١٤٣ ـ **شعْرُ المخضرمين وأثرُ الإسلام فيه**: د. يحيىٰ الجبوري ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨١ م.
١٤٤ ـ **الشِّفا بتعريف حقوق المصطفىٰ**: للقاضي عياض ـ تحقيق محمد قرة علي ورفاقه ـ مؤسّسة علوم القرآن ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٦ م.
١٤٥ ـ **شفاءُ الغرام بأخبار البلد الحرام**: للفاسي ـ تحقيق ـ د. عمر تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م.
١٤٦ ـ **الشَّمائلُ المحمّدية**: للتّرمذيّ ـ تحقيق عبده كوشك ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٢ م.
١٤٧ ـ **صحابةُ رسولِ الله ﷺ في الكتاب والسُّنّة**: لعيادة الكبيسي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٦ م.
١٤٨ ـ **صحيحُ ابن حبّان**: لابن حبّان: ـ اعتنىٰ به جاد الله الخداش ـ بيت الأفكار الدولية.
١٤٩ ـ **صحيحُ الجامع الصَّغير وزيادته**: للألباني ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٦ م.

١٥٠ ـ **صفةُ الصَّفوة**: لابن الجوزيّ ـ تحقيق محمود فاخوري ورفيقه ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٩ م.
١٥١ ـ **صورٌ وعبر من الجهاد النَّبويّ في المدينة**: د. محمّد فوزي فيض الله ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٠٧٩ م.
١٥٢ ـ **صورٌ من حياة الرّسول**: لأمين دُويدار ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٤ ـ دون تاريخ.
١٥٣ ـ **طبقاتُ الشَّافعيّةِ**: للسّبكيّ ـ تحقيق محمود الطَّناحي ورفيقه ـ طبعة مصورة ـ دون ذكر اسم الدَّار أو التَّاريخ.
١٥٤ ـ **الطَّبقاتُ الكبرى**: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٥٥ ـ **الطَّبقاتُ الكبرىٰ**: للشَّعرانيّ ـ دار الفكر ـ بيروت ـ طبعة مصوّرة.
١٥٦ ـ **الطَّبقاتُ الكبرىٰ**: للمناويّ ـ تحقيق محمّد أديب الجادر ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.
١٥٧ ـ **طبقاتُ المفسّرين**: للدّاوديّ ـ بإشراف لجنة من العلماء ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون ذكر رقم الطّبعة أو تاريخها.
١٥٨ ـ **الطّفْلُ في ضوء القرآن والسُّنّة والأدب**: د. أحمد خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ ط١ ـ ١٤٢١ هـ.
١٥٩ ـ **العبقريّاتُ الإسلاميّة**: للعقّاد ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٨ م.
١٦٠ ـ **عظماؤنا في التَّاريخ**: د. مصطفىٰ السّباعي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ دون تاريخ.
١٦١ ـ **العقدُ الفريد**: لابن عبد ربّه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التّأليف والتّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٦٢ م.
١٦٢ ـ **علماءُ الصَّحابة رضي الله عنهم**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٦ م.
١٦٣ ـ **علّموا أولادَكم محبّة آل بيت النَّبيّ**: د. محمّد عبده يماني ـ مؤسّسة علوم القرآن ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٢ م.

١٦٤ ـ **العُمدةُ**: لابن رشيق القيروانيّ ـ تحقيق د. النَّبوي شعلان ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط١ ـ ٢٠٠٠ م.
١٦٥ ـ **عيونُ الأثر في فنون المغازي والسِّير**: لابن سيّد الناس ـ تحقيق د. محمد الخطراوي ورفيقه ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٢ م.
١٦٦ ـ **عيونُ الأخبار**: لابنِ قُتيبة ـ مصورة من طبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.
١٦٧ ـ **غُرر التّبيان في مَنْ لم يُسَمَّ في القرآن**: لابن جماعة الحمويّ ـ تحقيق د. عبد الجواد خلف ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
١٦٨ ـ **الغيثُ المسجم في شرح لامية العجم**: لصلاح الدّين الصَّفدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٧٥ م.
١٦٩ ـ **فتحُ القدير**: للشَّوكاني ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٤ م.
١٧٠ ـ **الفتنةُ ووقعة الجمل**: لسيف بن عمر الضَّبّيّ ـ جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش ـ دار النّفائس ـ بيروت ـ ط٥ ـ ١٩٨٤ م.
١٧١ ـ **فتوحُ البلدان**: للبلاذريّ ـ نَشرَه د. صلاح الدّين المنجّد ـ مكتبة النَّهضة المصريّة ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٧٢ ـ **الفداءُ في الإسلام**: د. أحمد الشَّرباصي ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٧١ م.
١٧٣ ـ **الفرجُ بعد الشّدّة**: للتّنوخي ـ تحقيق عبود الشَّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٩٧ م.
١٧٤ ـ **فرسانٌ من عَصْر النُّبوّة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.
١٧٥ ـ **فضائلُ الصَّحابة**: للإمام أحمد بن حنبل ـ تحقيق وصي الله عباس ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٣ م.
١٧٦ ـ **الفقْهُ الإسلاميُّ وأدلّتهُ**: د. وهبة الزُّحيلي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٨٩ م.
١٧٧ ـ **فقْهُ السِّيرة**: د. محمّد سعيد البوطي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٨ ـ ١٩٨٠ م.

١٧٨ ـ **فقهُ السِّيرة**: لمحمّد الغزالي ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٨٩ م.
١٧٩ ـ **الفقيهُ والمتفقّهُ**: للخطيب البغداديّ ـ حقّقه عادل الغرازي ـ دار ابن الجوزيّ ـ الرّياض ـ ط٢ ـ ١٤٢١ هـ.
١٨٠ ـ **قادةُ النَّبيّ ﷺ**: لمحمود شيت خطّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٥ م.
١٨١ ـ **القاموسُ المحيط**: للفيروزأبادي ـ مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٧ م.
١٨٢ ـ **القيادةُ العسكريّةُ في عهد الرّسول ﷺ**: د. عبد الله الرّشيد ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
١٨٣ ـ **الكاملُ في التّاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٨٤ ـ **الكاملُ في اللغة والأدب**: للمبرّد ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٨٥ ـ **كُتّابُ الوحي**: د. أحمد عيسىٰ ـ دار اللواء ـ الرّياض ـ ط١ ـ ١٩٨٠ م.
١٨٦ ـ **الكشّاف**: للزّمخشريّ ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ طبعة مصورة دون تاريخ.
١٨٧ ـ **الكواكبُ السّائرة**: للغزيّ ـ حقّقه جبرائيل جبّور ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٩ م.
١٨٨ ـ **اللآلىءُ المصنوعةُ في الأحاديثِ الموضوعةِ**: للسّيوطيّ ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ طبعة مصوّرة ـ ١٩٨٣ م.
١٨٩ ـ **لسانُ العرب**: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
١٩٠ ـ **لطائفُ الأخبار وتذكرةُ أولي الأبصار**: لأبي القاسم التّنوخيّ ـ تحقيق د. علي حسين البّواب ـ دار عالم الكتب ـ الرِّياض ـ ١٩٩٣ م.
١٩١ ـ **المبشّرون بالنّار**: د. أحمد خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٢ ـ ٢٠٠١ م.
١٩٢ ـ **مجمعُ الأمثال**: للميدانيّ ـ تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ م.

١٩٣ ـ **مجمعُ الزَّوائد**: للهيثميّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م.
١٩٤ ـ **المحاسنُ والمساوئ**: للبيهقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٩٥ ـ **محاسنُ الوسائل في معرفة الأوائل**: لمحمد الشّلبي الدمشقيّ ـ تحقيق د. محمد التونجي ـ دار النَّفائس ـ بيروت ـ ط ـ ١٩٩٤ م.
١٩٦ ـ **محاضرةُ الأبرار ومسامرةُ الأخبار**: لمحيي الدّين بن عربي ـ دار اليقظة ـ دمشق ـ ١٩٦٨ م.
١٩٧ ـ **محاضراتُ الأدباء**: للرَّاغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٩٨ ـ **محمّدٌ رسولُ الله**: لمحمّد عرجون ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٥ م.
١٩٩ ـ **مختار الصّحاح**: للرّازي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٨ م.
٢٠٠ ـ **مختصرُ تاريخ دمشق لابن عساكر**: لابن منظور ـ تحقيق عددٍ من الأساتذة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠ هـ.
٢٠١ ـ **مختصرُ تخريج الدّلالات السَّمعية**: لأبي الحسن التّلمساني ـ إعداد أحمد البغدادي ـ مكتبة السّندس ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٢٠٢ ـ **المختصرُ من كتابِ الموافقة بين أهل البيت والصَّحابة**: لأبي القاسم الزَّمخشري ـ تحقيق سيّد صادق ـ دار الحديث ـ القاهرة ـ ٢٠٠١ م.
٢٠٣ ـ **المدينةُ النّبويّةُ في فجر الإسلام والعصر الرّاشديّ**: لمحمّد شرّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٤ م.
٢٠٤ ـ **مرآةُ الجنان وعبرةُ اليقظان**: لليافعيّ ـ دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٩٣ م.
٢٠٥ ـ **المستدركُ**: للحاكم ـ تحقيق مصطفىٰ عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٢٠٦ ـ **المستطرفُ**: للأبشيهيّ ـ تحقق إبراهيم صالح ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.

٢٠٧ ـ **المُسْتَفَادُ من مبهمات المتن والإسناد**: لأبي زُرعة العراقيّ ـ تحقيق د. عبد الرّحمن البرّ ـ دار الوفاء ـ مصر ـ ط١ ـ ١٩٩٤ م.
٢٠٨ ـ **مشاهيرُ علماء الأمصار**: لابن حبّان ـ تحقيق مرزوق إبراهيم ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ ط١ ـ ١٩٩١ م.
٢٠٩ ـ **المعارفُ**: لابن قتيبةَ ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٧ م.
٢١٠ ـ **المعالمُ الأثيرةُ في السُّنَّةِ والسِّيرة**: لمحمّد شرّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩١ م.
٢١١ ـ **معاهدُ التّنصيص علىٰ شواهد التّلخيص**: لعبد الرّحيم العبّاسيّ ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ المكتبة التّجاريّة الكبرىٰ ـ القاهرة ـ ١٩٤٧ م.
٢١٢ ـ **معجمُ الأدباء**: لياقوت الحمويّ ـ تحقيق أحمد فريد الرّفاعي ـ دار المأمون ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ م.
٢١٣ ـ **معجمُ البُلدان**: لياقوت الحمويّ ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢١٤ ـ **المعجمُ الكبيرُ**: للطّبرانيّ ـ حقّقه حمدي السّلفي ـ وزارة الأوقاف ـ العراق ـ ط٣ ـ ١٩٨٣ م.
٢١٥ ـ **المعجمُ الوسيطُ**: لإبراهيم مصطفىٰ ورفاقه ـ طبعة تركيا.
٢١٦ ـ **معرفةُ القُرّاء الكبار علىٰ الطّبقات والأعصار**: للذّهبيّ ـ تحقيق بشّار عوّاد ورفيقيه ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٤ م.
٢١٧ ـ **المغَازي**: للواقدي ـ تحقيق مارسدن جُونس ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٤ م.
٢١٨ ـ **المجموعةُ النّبهانية في المدائح النّبويّةِ**: ليوسُف النّبهانيّ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦ م.
٢١٩ ـ **مفرداتُ ألفاظِ القرآن**: للرّاغب الأصفهانيّ ـ تحقيق صفوان الدّاوويّ ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٢ م.

٢٢٠ ـ **المفصَّلُ في تاريخ العرب قبل الإسلام**: د. جواد علي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٤١٣ هـ.
٢٢١ ـ **مقاتلُ الطَّالبين**: لأبي الفرج الأصبهانيّ ـ تحقيق السَّيِّد صَقْر ـ مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٧ م.
٢٢٢ ـ **المنازلُ والدّيار**: لأسامةَ بنِ منقذ ـ تحقيق مصطفىٰ حجازي ـ لجنة إحياء التُّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.
٢٢٣ ـ **منالُ الطَّالب في شرح طوال الغرائب**: لمجد الدّين بن الأثير ـ تحقيق د. محمود الطَّناحي ـ جامعة أمّ القرىٰ ـ مكّة المكرّمة ـ الكتاب الثَّامن ـ ١٣٩٩ هـ.
٢٢٤ ـ **منحُ المدح (أو شعراء الصُّحابة)**: لابن سيّد النّاس ـ تحقيق عفَّت حمزة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٧ م.
٢٢٥ ـ **المنمّقُ في أخبار قريش**: لابن حبيب ـ تحقيق خورشيد فاروق ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م.
٢٢٦ ـ **المواهبُ اللدنية بالمنح المحمَّديّة**: للقَسْطلانيّ ـ تحقيق صالح أحمد الشَّاميّ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١ م.
٢٢٧ ـ **موسوعةُ الحقوق الإسلاميّة**: لسَعْد أبو عزيز ـ المكتبةُ التَّوفيقية ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٢٢٨ ـ **ميزانُ الاعتدال في نَقْد الرّجال**: للذَّهبيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٦٣ م.
٢٢٩ ـ **نثرُ الدُّرِّ**: للآبي ـ تحقيق محمّد علي قرنة ورفاقه ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ م.
٢٣٠ ـ **النُّجومُ الزَّاهرةُ**: لابن تغري بردي ـ مصوّرة دار الكتب المصريّة ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
٢٣١ ـ **نساءُ أهلِ البيت في ضوء القرآنِ والحديث**: د. أحمد خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط٦ ـ ٢٠٠٥ م.
٢٣٢ ـ **نساءٌ مبشّراتٌ بالجنَّة**: د. أحمد خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٥ ـ ٢٠٠٣ م.

٢٣٣ ـ **نساءٌ من التّاريخ**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٩م.
٢٣٤ ـ **نساءٌ من عصر التّابعين**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٤ ـ ٢٠٠٤ م.
٢٣٥ ـ **نساءٌ من عصر النُّبوّة**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٣ ـ ٢٠٠٣ م.
٢٣٦ ـ **نساءٌ من المشرق العربيّ**: د. أحمد خليل جمعة الحرستانيّ الدمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٢ م.
٢٣٧ ـ **نَسَبُ قريش**: لمصعب الزُّبيري ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط٣ ـ دون تاريخ.
٢٣٨ ـ **النَّسبُ والمصاهرةُ بين أهل البيت والصَّحابة**: لعلاء الدّين المدرس ـ دار الرّقيم ـ بغداد ـ ط٣ ـ ٢٠٠٤ م.
٢٣٩ ـ **نشوارُ المحاضرة**: للتنوخي ـ تحقيق عبود الشّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٥ م.
٢٤٠ ـ **نفحُ الطّيب**: للمقَّري ـ تحقيق إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.
٢٤١ ـ **نكتُ الهميان في نُكَت العميان**: للصَّفدي ـ تحقيق أحمد زكي ـ القاهرة ـ ١٩١١ م.
٢٤٢ ـ **النِّهاية في غريب الحديث والأثر**: لابن الأثير ـ بعناية رائد أبي علفة ـ بيت الأفكار الدولية.
٢٤٣ ـ **نوادرُ المخطوطات**: لعددٍ من المؤلّفين ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٢ م.
٢٤٤ ـ **نورُ الأبصار**: لمؤمن الشَّبلنجي ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأخيرة ـ ١٩٤٨ م.
٢٤٥ ـ **الوافي بالوفَيات**: للصَّفدي ـ جمعية المستشرقين الألمانيين ـ مطابع مختلفة (١٩٣١ ـ ١٩٨٤ م).

٢٤٦ ـ **وفاءُ الوفا**: للسَّمهودي ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ دار إحياء التّراث العربي ـ ببيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨٤ م.
٢٤٧ ـ **وفياتُ الأعيان**: لابن خَلِّكان ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٢٤٨ ـ **وقعةُ صفّين**: لنصر بن مزاحم المنقريّ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ دار الجليل ـ بيروت ـ ١٩٩٠ م.
بالإضافة إلىٰ مصادرَ ومراجعَ وسلاسلَ فكريّة ومجلات أخرىٰ كثيرة متنوّعة منثورة في ثنايا الكتاب.

عنوان المؤلّف
سوريا ـ دمشق
هـ (٥٣١٨١١١ ـ ٥٣١٣٠٦٤)

❐ ❐ ❐



فهـــرس الموضوعــات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❐ ❐ ❐